

على

شرح العقيدة الطحاوية

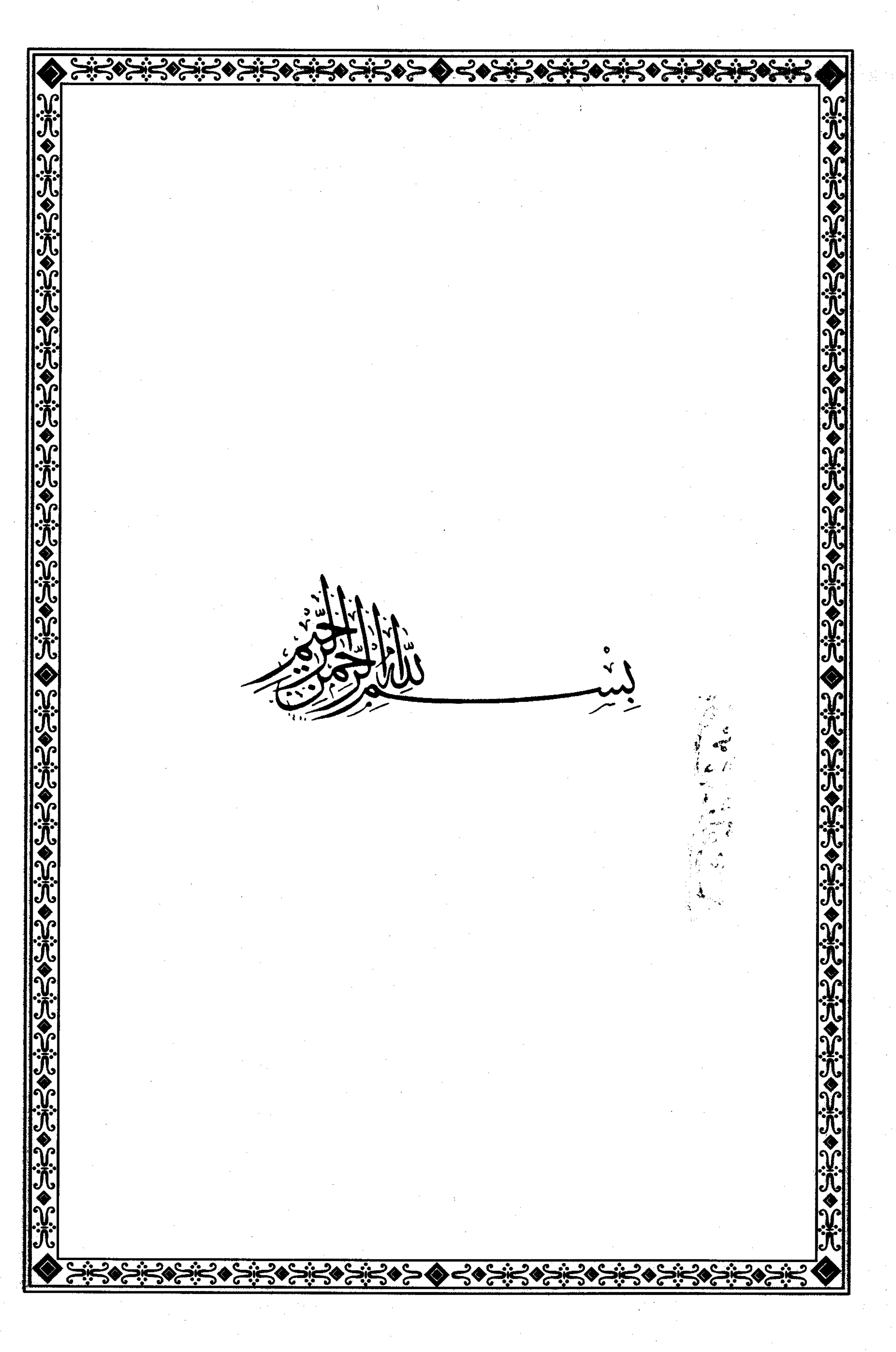
تأليف

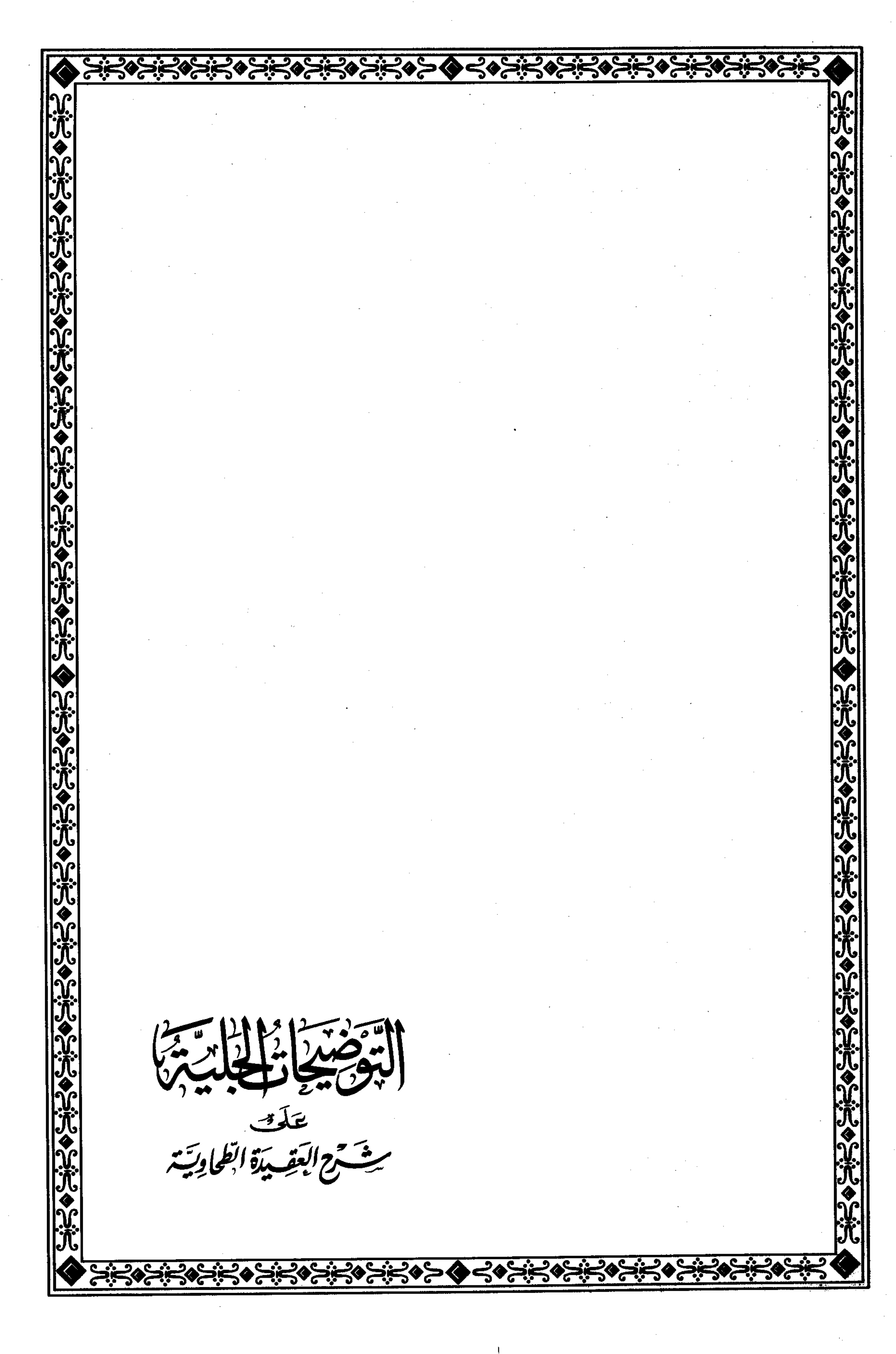
الأستاذ الدكتور محمد بن عبد الرحمن الخميس

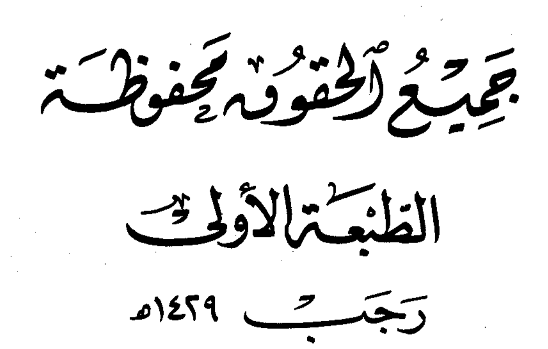
الأستاذ بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية - كلية أصول الدين
قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة

الجزء الأول

دار ابن الجوزي


بسم الله الرحمن الرحيم


التوضيحات الجلية
على
شرح العقيدة الطحاوية



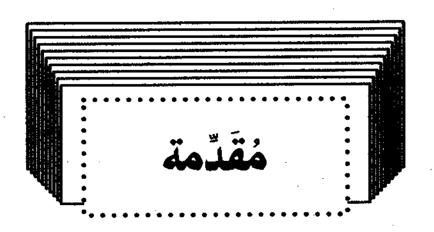


دار ابن الجوزي

للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية: الدمام - شارع الملك فهد - ت: ٨٤٢٨١٤٦ - ٨٤٦٧٥٩٣، ص ب: ٢٩٨٢ - الرمز البريدي: ٣١٤٦١ - فاكس: ٨٤١٢١٠٠ - الرياض - حي الفلاح - مقابل جامعة الإمام - تلفاكس: ٢١٠٧٢٢٨ - جوّال: ٠٥٠٣٨٥٧٩٨٨ - الإحساء - ت: ٥٨٨٣١٢٢ - جدة - ت: ٦٣٤١٩٧٣ - ٦٨١٣٧٠٦ - الخبر - ت: ٨٩٩٩٣٥٦ - فاكس: ٨٩٩٩٣٥٧ - **بيروت** - هاتف: ٠٣/٨٦٩٦٠٠ - فاكس: ٠١/٦٤١٨٠١ - **القاهرة** - ج.م.ع - محمول: ٠١٠٦٨٢٣٧٨٣ - تلفاكس: ٠٢٤٤٣٤٤٩٧٠

البريد الإلكتروني: **aljawzi@hotmail.com - www.aljawzi.com**



مُقدِّمة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝١﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ۝٧٠ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ۝٧١﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ۝١٠٢﴾ [آل عمران: ١٠٢].

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار[١].

وبعد:

لقد ألف الإمام أبو جعفر أحمد بن محمد الطحاوي المتوفى سنة (٣٢١هـ) رسالة في بيان اعتقاد أهل السنة والجماعة على مذهب فقهاء الملة أبي حنيفة النعمان بن ثابت الكوفي، وأبي يوسف يعقوب بن إبراهيم الأنصاري، وأبي عبد الله محمد بن الحسن الشيباني، وما يعتقدون من أصول الدين.

ولا شك أنه أثبت من غيره في تقرير عقيدة أهل السنة والجماعة على مذهب أبي حنيفة وصاحبيه؛ وذلك للأسباب التالية:

أولاً: الطحاوي عند أهل العلم إمام حافظ محدث ثقة ثبت، قال عنه الذهبي: «الإمام العلامة الحافظ محدث الديار المصرية وفقيهها»[٢].

---

(١) هذه خطبة الحاجة التي كان يستفتح بها النبي ﷺ خطبه كلها، رواها الإمام أحمد في المسند (١/ ٢٩٢ ـ ٢٩٣)، وأبو داود (٢١١٨)، والترمذي (١١٠٥)، وابن ماجه (١٨٩٢).

(٢) سير أعلام النبلاء (١٥/ ٢٧).

وقال عنه أبو سعيد بن يونس: «كان ثقة ثبتاً فقيهاً عاقلاً لم يخلف مثله»[١].

ثانياً: إن جمهور العلماء من أهل السنة والجماعة تلقوا عقيدة الطحاوي بالقبول، قال السبكي الشافعي: «جمهور المذاهب الأربعة على الحق يقررون عقيدة الإمام أبي جعفر الطحاوي التي تلقاها العلماء سلفاً وخلفاً بالقبول»[٢].

وقال الناصري الحنفي: «إن كتاب العقائد الذي رواه أبو جعفر الطحاوي عن أبي حنيفة وأبي يوسف ومحمد هو الذي اعتمد عليه أهل السنة والجماعة سلفهم وخلفهم»[٣].

وقال أبو المعين النسفي: «إن أبا جعفر الطحاوي ممن احتوى على علوم سلف الأئمة على العموم، وعلى علوم أبي حنيفة وأصحابه على الخصوص، قال في كتابه الذي افتتحه في العقائد: صح عندي مذهب فقهاء الملة أبي حنيفة النعمان بن ثابت، وأبي يوسف يعقوب بن إبراهيم الأنصاري، وأبي عبد الله محمد بن الحسن الشيباني، وما يعتقدون من أصول الدين، ويدينون به رب العالمين»[٤].

وإن بيان اعتقاد أهل السنة للطحاوي رسالة لطيفة كتبها المصنف على مذهب السلف الصالح في العقيدة، وصاغها بأسلوب سهل ميسر، وهي تشتمل على أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة بعبارة حسنة، وبتقرير جيد إلا في مسائل استدركها عليه الشارح[٥] المعروف بابن أبي العز الحنفي (٧٩٢هـ).

قال العلامة ابن بدران مبيناً أن العقيدة الطحاوية هي عقيدة السلف: «وقد بنى أبو جعفر الطحاوي عقيدته على ما رواه عن أبي حنيفة النعمان بن ثابت... وصرح بأنه نقل عنهم ما يعتقدون في أصول الدين، ويدينون به رب العالمين، وعقيدته هذه سلفية محضة»[٦].

ويقول العلامة محمد بن مانع رحمه الله تعالى في حاشيته على متن الطحاوية

---

(١) سير أعلام النبلاء (١٥/ ٢٩).
(٢) كتاب معيد النعم ومبيد النقم (ص٦٢).
(٣) النور اللامع [٦٩/أ].
(٤) النور اللامع [٢/ب].
(٥) مثل قول الطحاوي: قديم بلا ابتداء، وقوله: تعالى عن الحدود والغايات والأركان والأعضاء، ولا تحويه الجهات الست كسائر المبتدعات، وقوله: والإيمان هو الإقرار باللسان والتصديق بالجنان، وقوله: والإيمان واحد وأهله في أصله سواء. وغير ذلك.
(٦) المدخل إلى مذهب الإمام أحمد (ص٤٩٤).

وتعليقاً على قول الطحاوي (على مذهب فقهاء الملة): «اعلم أن ما ذكره المصنف في هذه العقيدة ليس مختصاً بهؤلاء الأئمة المذكورين فقط، فإن أهل السنة والجماعة من الأولين والآخرين عقيدتهم واحدة»[١].

لذا اعتنى العلماء بعقيدة الطحاوي شرحاً وتدريساً، وتعددت الشروح وتنوعت مناهج أصحابها، وقد سلك أكثرهم منهج أهل الكلام[٢].

ومن أجود شروحها شرح الإمام صدر الدين أبي الحسن علي بن علي بن محمد المعروف بابن أبي العز الحنفي المتوفى سنة (٧٩٢هـ).

وقد طبع شرح ابن أبي العز للطحاوية عدة طبعات:

١ ـ **الطبعة الأولى**: في المطبعة السلفية بمكة المكرمة سنة ١٣٤٩هـ، بعناية الشيخ عبد الله بن حسن آل الشيخ رحمه الله تعالى.

---

(١) حاشية ابن مانع على الطحاوية (ص٥).

(٢) فممن شرحها:

١ ـ إسماعيل بن أحمد الشيباني، مولده بُبصرى سنة (٥٠٤هـ)، ومات سنة (٦٢٩هـ).

٢ ـ نجم الدين منكوبرس بن يلنقلج عبد الله التركي، المتوفى سنة (٦٥٢هـ)، وسمَّاه: «النور اللامع والبرهان الساطع».

٣ ـ هبة الله بن أحمد بن معلى بن محمود شجاع الدين التركستاني الحنفي الطرازي، المتوفى سنة (٧٣٣هـ).

٤ ـ محمود بن أحمد بن مسعود القونوي الدمشقي الحنفي المعروف بابن السراج، المتوفى سنة (٧٧١هـ)، وسماه: «القلائد في شرح العقائد».

٥ ـ سراج الدين عمر بن إسحاق الهندي الغزنوي الحنفي، المتوفى سنة (٧٧٣هـ).

٦ ـ محمد بن محمد بن محمود أكمل الدين البابرتي الحنفي، المتوفى سنة (٧٨٦هـ).

٧ ـ المولى أبو عبد الله محمود بن محمد بن أبي إسحاق الفقيه الحنفي القسطنطيني، وقد أتم هذا الشرح سنة (٩١٦هـ).

٨ ـ كافي حسن أفندي الآقحصاري الحنفي المتوفى سنة (١٠٢٥هـ)، وسماه: «نور اليقين في أصول الدين».

٩ ـ شرح مجهول المؤلف بإيحاء من سيف الدين الناصري.

١٠ ـ محمد بن أبي بكر الغزي الحنفي المعروف بابن بنت الحميري، وسماه: «شرح عقائد الطحاوي»، فرغ منه سنة (٨٨١هـ).

١١ ـ الإمام العلامة الفقيه الشيخ عبد الغني بن طالب بن حمادة الغنيمي الدمشقي الحنفي الشهير بالميداني، المتوفى سنة (١٢٩٨هـ). انظر: مقدمة شرح الطحاوية للدكتور عبد الله التركي (ص٥٣ ـ ٥٤).

٢ ـ **الطبعة الثانية**: في دار المعارف بمصر سنة ١٣٧٣هـ، بتحقيق الشيخ أحمد شاكر رحمه الله تعالى.

٣ ـ **الطبعة الثالثة**: في المكتب الإسلامي بدمشق سنة ١٣٨١هـ، حققها جماعة من العلماء وخرج أحاديثها الشيخ محمد ناصر الدين الألباني رحمه الله تعالى.

٤ ـ **الطبعة الرابعة**: طبعت بالشام سنة ١٤٠١هـ، بتحقيق وتخريج الشيخ شعيب الأرناؤوط.

٥ ـ **الطبعة الخامسة**: في مصر سنة ١٤٠٢هـ، ونشرتها مكتبة المعارف بالرياض وحققها الدكتور عبد الرحمٰن عميرة.

٦ ـ **الطبعة السادسة**: في دار البيان وحققها الشيخ بشير محمد عون.

٧ ـ **الطبعة السابعة**: طبعت في مؤسسة الرسالة سنة ١٤٠٨هـ، وحققها وعلق عليها وخرج أحاديثها الشيخ شعيب الأرناؤوط والدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي.

٨ ـ **الطبعة الثامنة**: طبعت في مكتبة ابن تيمية في اليمن بتحقيق ياسين بن علي العدني وهي من أجود الطبعات وقد استفدت من تعليقات المحقق.

ورغم تعدد طبعات شرح العقيدة الطحاوية، وتعدد المختصرات لها فما زالت الحاجة قائمة لخدمة شرح العقيدة الطحاوية، يقرب غايات الكتاب ويوضح مقاصده، ويكشف للقارئ عما يدل عليه من مضمون، ويبسط المسائل التي أجملها المؤلف، ويشرح المصطلحات العلمية والكلامية التي يصعب على بعض طلبة العلم فهمها.

فهذه الأسباب مجتمعة كانت حافزاً لي وسبباً مباشراً أن أقوم بتأليف هذا الشرح الذي أسميته بـ: «**التوضيحات الجلية على شرح العقيدة الطحاوية**».

أما المنهج الذي سأتبعه في هذا الشرح فهو المنهج الذي اتبعته في شرح التدمرية.

وقد اعتمدت في إخراج هذا الشرح على الطبعة التي حققها الدكتور عبد الله التركي وشعيب الأرناؤوط، واستفدت من هوامش المحققين والعناوين التي وضعوها.

هذا والله أسأل أن يجعل عملي هذا خالصاً لوجهه الكريم، وأن يغفر لي الخطأ والزلل، والله من وراء القصد، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

كتبه

أ.د. محمد بن عبد الرحمن الخميِّس

ترجمة الإمام الطحاوي(١)

اسمه ونسبه:

هو الإمام أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة بن عبد الملك الأزدي الحجري المصري الطحاوي، نسبة إلى طحا، قرية من قرى الصعيد بمصر.

ولادته ونشأته:

ولد سنة (٢٣٩هـ) فيما رواه ابن يونس تلميذه، وهو الصحيح، واتفقوا على أن وفاته كانت سنة (٣٢١هـ) غير ابن النديم، فقد أرَّخ وفاته سنة (٣٢٢هـ).

وقد نشأ الإمام الطحاوي في بيت علم وفضل، فأبوه كان من أهل العلم والبصر بالشعر وروايته، وأمه معدودة في أصحاب الشافعي الذين كانوا يحضرون مجلسه، وخاله هو الإمام المزني أفقه أصحاب الإمام الشافعي، وناشر علمه.

وقد عاصر الأئمة الحفاظ من أصحاب الكتب الستة، ومن كان في طبقتهم، وشارك بعضهم في مروياتهم.

نبوغه وبلوغه درجة الاجتهاد:

ولما بلغ سن العشرين ترك قوله الأول، وتحول إلى منهج أبي حنيفة في التفقه، وكان السبب في هذا التحول جملة أمور:

١ ـ أنه كان يشاهد خاله يُطالعُ كُتب أبي حنيفة، ويديم النظر فيها، ويتأثر بها، فقد سأله محمد بن أحمد الشروطي: لم خالفت مذهب خالكَ واخترت مذهب أبي حنيفة؟ فقال: لأني كنت أرى خالي يديم النظر في كتب أبي حنيفة، فلذلك انتقلت إليه.

٢ ـ المساجلات العلمية التي كانت تقع بمرأى ومسمع منه بين كبار أصحاب الشافعي وأصحاب أبي حنيفة.

---

(١) ترجم للإمام الطحاوي ترجمة مستفيضة محققا كتاب «شرح الطحاوية» الدكتور عبد الله التركي، وشعيب الأرناؤوط، ولقد لخصت ما كتباه في ترجمة الطحاوي.

٣ ـ التصانيف التي ألفت في كلا المذهبين، وفيها رد كل طرف على الآخر في المسائل المختلف فيها، فقد ألف المزني كتابه «المختصر»، ورد فيه على أبي حنيفة في جملة مسائل، فانبرى له القاضي بكار بن قتيبة، فألف كتاباً في الرد عليه.

٤ ـ الشيوخ الذين كانوا ينتحلون مذهب أبي حنيفة ممن ورد إلى مصر والشام لتولي منصب القضاء، كالقاضي بكار بن قتيبة، وابن أبي عمران، وأبي خازم.

كل هذه الأمور مقرونة إلى الاستعداد الفطري، وحصيلته العلمية المتنوعة، ونزوعه إلى مرتبة الاجتهاد، دفعته إلى التعمق في دراسة المذهبين، والموازنة بينهما واختيار ما أداه إليه اجتهاده منهما، والانتساب إليه، والدفاع عنه.

ولم يكن في انتقال أبي جعفر من مذهب إلى آخر ما يدعو إلى الاستغراب والاستنكار، فقد تحول غير واحد من أهل العلم ممن تقدمه، أو كان في عصره من مذهب إلى مذهب آخر من غير نكير عليهم من علماء عصرهم، فمعظم أصحاب الإمام الشافعي من أهل مصر كانوا من أتباع الإمام مالك، وفيهم من هو من شيوخ الطحاوي؛ لأن صنيعهم هذا لم يكن بدافع العصبية، أو التقليد، أو المنافسة، وإنما كان عن دليل واقتناع وتبصر.

قال ابن زولاق: سمعت أبا الحسن علي بن أبي جعفر الطحاوي يقول: سمعت أبي يقول ـ وذكر فضل أبي عبيد بن حربويه وفقهه ـ فقال: كان يذاكرني بالمسائل، فأجبته يوماً في مسألة، فقال لي: ما هذا قول أبي حنيفة، فقلت له: أيها القاضي، أو كل ما قاله أبو حنيفة أقول به؟! فقال: ما ظننتك إلا مقلداً، فقلت له: وهل يقلد إلا عصبي؟! فقال لي: أو غبي، قال: فطارت هذه الكلمة بمصر حتى صارت مثلاً، وحفظها الناس.

أقوال أهل العلم في الإمام الطحاوي:

قال ابن يونس فيما نقله عنه ابن عساكر في «تاريخه» (٧/ ٣٦٨): كان ثقة، ثبتاً، فقيهاً، عاقلاً، لم يخلف مثله.

وقال مسلمة بن القاسم في «الصلة» فيما نقله عنه ابن حجر في «اللسان» (١/ ٢٧٦): وكان ثقة، ثبتاً، جليل القدر، فقيه البدن، عالماً باختلاف العلماء، بصيراً بالتصنيف.

وقال ابن النديم في «الفهرست» ص٢٦٠: وكان أوحد زمانه علماً وزهداً.

وقال ابن عبد البر ـ كما في «الجواهر المضية» ـ: كان من أعلم الناس بسير الكوفيين وأخبارهم وفقههم مع مشاركة في جميع مذاهب الفقهاء.

وقال الإمام السمعاني في «الأنساب» (٨/ ٢١٨): كان إماماً، ثقةً، ثبتاً، فقيهاً، عالماً، لم يخلف مثله.

وقال ابن الجوزي في «المنتظم» (٦/ ٢٥٠): كان ثبتاً، فهماً، فقيهاً، عاقلاً. وكذا قال سبطه، وزاد: واتفقوا على فضله وزهده وورعه.

وقال ابن الأثير في «اللباب» (٢/ ٢٧٦): كان إماماً، فقيهاً من الحنفيين، وكان ثقة ثبتاً.

وقال الإمام الذهبي في «سير أعلام النبلاء» (١٥/ ٢٧): الإمام العلامة، الحافظ الكبير، محدث الديار المصرية وفقيهها... ثم قال: ومن نظر في تواليف هذا الإمام، علم محله من العلم، وسعة معارفه.

وقال في «تاريخه الكبير» في الطبقة (٣٣): الفقيه، المحدث، الحافظ، أحد الأعلام، وكان ثقة، ثبتاً، فقيهاً، عاقلاً. وترجم له في «تذكرة الحفاظ» ص٨٠٨.

وقال الصفدي في «الوافي بالوافيات» (٨/ ٩): كان ثقة، نبيلاً، ثبتاً، فقيهاً عاقلاً، لم يخلف بعده مثله.

وقال اليافعي: برع في الفقه والحديث، وصنف التصانيف المفيدة.

وقال ابن كثير في «البداية» (١١/ ١٨٦): الفقيه الحنفي صاحب التصانيف المفيدة، والفوائد الغزيرة، وهو أحد الثقات الأثبات، والحفاظ الجهابذة.

وقال السيوطي في «طبقات الحفاظ» ص٣٣٧: الإمام، العلامة، الحافظ، صاحب التصانيف البديعة... وكان ثقة، ثبتاً، فقيهاً، لم يخلف بعده.

وقال الداوودي في «طبقات المفسرين» (١/ ٧٤): الإمام، العلامة، الحافظ...

وقال محمود بن سليمان الكفوي في «طبقاته» فيما نقله عنه اللكنوي في «الفوائد البهية» ص٣١: إمام جليل القدر، مشهور في الآفاق، ذكره الجميل مملوء في بطون الأوراق... وكان إماماً في الأحاديث والأخبار... وله تصانيف جليلة معتبرة.

مصنفاته:

صنف كتباً متنوعة في العقيدة والتفسير، والحديث، والفقه، والشروط، والتاريخ هي في غاية الجودة والأصالة وكثرة الفوائد.

وقد أحصى المؤرخون من تصانيفه ما يربو على ثلاثين كتاباً، منها:

١ ـ شرح معاني الآثار.

٢ ـ شرح مشكل الآثار.

٣ ـ مختصر الطحاوي في الفقه الحنفي.

٤ ـ سنن الشافعي: جمع فيه الطحاوي مسموعاته من خاله المزني عن الشافعي.

٥ ـ العقيدة الطحاوية.

وفاته:

توفي الإمام الطحاوي سنة إحدى وعشرين وثلاث مئة، ليلة الخميس مستهل ذي القعدة، ودفن بالقرافة في تربة بني الأشعث.

ترجمة الشارح ابن أبي العز الحنفي[1] رحمه الله

اسمه ونسبه:

هو الإمام العلامة صدر الدين، أبو الحسن علي بن علاء الدين علي بن شمس الدين أبي عبد الله محمد بن شرف الدين أبي البركات محمد بن عز الدين أبي العز صالح بن أبي العز بن وهيب بن عطاء بن جبير بن جابر بن وهب الأذرعي الأصل، الدمشقي الصالحي الحنفي، المعروف بابن أبي العز.

ولادته:

تتفق كتب التراجم على أنه ولد في الثاني والعشرين من ذي الحجة سنة إحدى وثلاثين وسبع مئة.

أسرته:

والشارح ينتمي إلى أسرة كان لها نباهة ذكر، وعلو شأن في مجال العلم والسيادة، فهي منذ عرفت تتزعم المذهب الحنفي في دمشق، ويشغل علماؤها مناصب التدريس والقضاء والإفتاء:

١ ـ فأبوه: هو القاضي علاء الدين علي بن أبي العز الحنفي، المتوفى سنة (٧٤٦هـ).

٢ ـ وجده: هو قاضي القضاة شمس الدين أبو عبد الله محمد بن محمد بن أبي العز، أحد مشايخ الحنفية وأئمتهم وفضلائهم في فنون من العلوم متعددة.

٣ ـ وأبو جده: هو محمد بن أبي العز صالح بن أبي العز، مات بدمشق سنة (٧٢٣هـ).

---

(١) ترجم لابن أبي العز ترجمة مستفيضة محققا كتاب «شرح الطحاوية» الدكتور عبد الله التركي، وشعيب الأرناؤوط، ولقد لخصت ما كتباه في ترجمته.

نشأته:

في ظل هذه الأسرة العلمية نشأ ابن أبي العز يتقلب في أعطاف العلم تعلماً ومدارسة، فكان لذلك ـ مع ما منحه الله من استعداد فطري، وتعطش شديد للمعرفة، وذهن وقاد ـ أثر كبير في بلوغه منزلة عظيمة في العلم والمعرفة، أتاحت له التدريس والخطابة والتأليف، وتولي المناصب العلمية التي لا ينالها إلا من كملت معرفته، وعظمت منزلته، وارتاض بالمعرفة عقله.

وبما أن والده كان حنفي المذهب، فلا بد أنه قد درس هذا المذهب دراسة واعية، واستظهر مسائله، وأصبح من أخص الناس به، يعزز ذلك أنه تولى قضاء الحنفية في دمشق ومصر.

مذهبه:

والشارح رَحِمَهُ ٱللَّهُ نشأ في كنف أسرة جميع أفرادها كانوا ينتحلون مذهب أبي حنيفة، ومعظمهم قد تولى القضاء فيه، وقد درس هذا المذهب على أبيه دراسة متقنة أهلته لتولي القضاء فيه، وللتدريس في المدارس التي أوقفها أصحابها لدراسة هذا المذهب، لكنه رَحِمَهُ ٱللَّهُ قد استطاع بتوفيق من الله، ثم بما كان يتمتع به من استعداد فطري، وتعطش شديد للمعرفة، واطلاع واسع على مذاهب أهل العلم، واستيعاب تام لها، وقدرة فائقة على الموازنة بينها أن يتخلص من ربقة التقليد، ويرجح من تلك الآراء والمذاهب ما استبان له صوابه، لقوة دليله، وسلامته من المعارض، وإن كان على خلاف مذهبه الذي ينتمي إليه.

وهو يرى أن أسباب الفرقة التي أضعفت كيان الأمة، وعرضتها للانهيار هي: التعصب المذهبي، وإنشاء مدارس لكل مذهب على حدة، وتولية القضاة على المذاهب الأربعة، وإحداث إمام راتب من كل مذهب في المسجد.

المناصب العلمية التي وليها:

لقد حفلت حياة الشارح بجهود طيبة مثمرة في مجال العلم وخدمته تعليماً، وإقراءً، ودرساً، وتأليفاً، ويمكن أن نجمل أعماله من خلال كتب التراجم بما يأتي:

١ ـ فقد تولى التدريس بالقيمازية في سنة (٧٤٨هـ)، وكان عمره إذ ذاك لا يتجاوز سبعة عشر عاماً، وكانت هذه المدرسة للحنفية.

٢ ـ ثم تولى التدريس بالمدرسة الركنية سنة (٧٧٧هـ)، وهي للحنفية أيضاً.

٣ ـ ثم درس بالعزية البرانية في ربيع الآخر سنة (٧٨٤هـ)، عوضاً عن القاضي الهمام الحنفي بعد وفاته.

٤ ـ ودرس أيضاً بالجوهرية، وهي من مدارس الحنفية.

ويغلب على الظن أن الشارح رَحِمَهُ ٱللَّهُ لم يكن يقتصر على تدريس المذهب الحنفي في هذه المدارس الخاصة بالحنفية عدا المدرسة العزية التي أوقفها صاحبها على الحنفية وغيرهم في مختلف العلوم؛ لأنه رَحِمَهُ ٱللَّهُ لا يرى وجوب التقيد بما نص عليه الواقف إذا كان في ذلك مخالفة لنصوص الشارع، وهو كان يرى أن الوقف لطائفة معينة، وحصره فيها فيه خلل من عدة وجوه:

أ ـ أن هذا من جملة العوامل لاستحكام الفرقة بين الناس.

ب ـ أن الأساتذة الذين يتولون التدريس فيها يتقيدون بتدريس المذهب الذي أوقفت عليه. وهذا يحمله على التعمق في دراسة أدلة هذا المذهب والتعصب له، والدفاع عما يقع فيه من أخطاء بحجج ضعيفة لا تثبت على نقد.

ج ـ أن هؤلاء الطلبة الذين يتلقون في هذه المدرسة فقه المذهب الذي يدرس فيها يقوي عندهم التعصب المذموم، وتضعف عندهم ملكة النقد والموازنة والترجيح، ويظلون طوال حياتهم مقلدين.

فلا يستبعد أنه كان يستعرض في درسه أقوال الأئمة في المسائل التي يعرض لها، ويسرد أدلتهم وحججهم، يوازن بينها، ثم يرجح منها ما هو أبلغ في الحجة، وأوفق للنص، ليربي فيهم ملكة التفقه الصحيح التي تنقلهم من مرتبة التقليد إلى الاتباع، ويكون لهم شخصية مستقلة.

٥ ـ وبما أن للخطابة دوراً هاماً في تثقيف الناس بالإسلام، وتوعية الرأي العام، وتوجيهه الوجهة السليمة، فقد تولى الشارح الخطابة بجامع الأفرم.

٦ ـ وقد تولى الخطابة أيضا بحسبان قاعدة البلقاء.

٧ ـ وولي قضاء الحنفية بدمشق في آخر سنة (٧٧٦هـ)، نيابة عن ابن عمه نجم الدين الذي نقل إلى قضاء مصر في شهر محرم سنة (٧٧٧هـ). ثم إن نجم الدين استعفى من القضاء بعد مئة يوم، فنقل إلى دمشق، وولي مكانه الشارح قضاء الحنفية بمصر في جمادى الآخرة من هذه السنة، فباشر القضاء نحو شهرين، ثم استعفى، فأعفي، وعاد إلى دمشق على وظائفه في القيمازية والجوهرية والخطابة.

مؤلفاته:

ذكرت له كتب التراجم عدة مؤلفات منها:

١ ـ هذا الشرح النفيس المتضمن أبحاثاً دقيقة عميقة، وتحقيقات بديعة متقنة في العقيدة الإسلامية على منهج السلف.

٢ ـ «التنبيه على مشكلات الهداية»: ذكره السخاوي وغيره وهو مطبوع.

٣ ـ رسالة تتضمن الإجابة عن مسائل فقهية.

٤ ـ «النور اللامع في ما يعمل به في الجامع»؛ أي: الجامع الأموي.

٥ ـ «الاتباع»، وقد طبع مرتين: الأولى بلاهور بباكستان سنة (١٤٠١هـ)، والثانية في عمان سنة (١٤٠٥هـ).

وفاته:

وفي ذي القعدة من سنة اثنتين وتسعين وسبع مئة توفي الإمام العلامة صدر الدين علي بن أبي جعفر، ودفن بسفح قاسيون، رحمه الله تعالى.



متن

العقيدة الطحاوية



بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

الحمد لله رب العالمين، قال العلامة حجة الإسلام، أبو جعفر الوراق الطحاوي ـ بمصر ـ رَحِمَهُ اللهُ:

هذا ذكر بيان عقيدة أهل السنة والجماعة على مذهب فقهاء الملة أبي حنيفة النعمان بن ثابت الكوفي، وأبي يوسف يعقوب بن إبراهيم الأنصاري، وأبي عبد الله محمد بن الحسن الشيباني، رضوان الله عليهم أجمعين، وما يعتقدون من أصول الدين، ويدينون به رب العالمين.

١ ـ نقول ـ في توحيد الله معتقدين ـ بتوفيق الله ـ: إن الله واحد لا شريك له.

٢ ـ ولا شيء مثله.

٣ ـ ولا شيء يعجزه.

٤ ـ ولا إله غيره.

٥ ـ قديم بلا ابتداء، دائم بلا انتهاء.

٦ ـ لا يفنى ولا يبيد.

٧ ـ ولا يكون إلا ما يريد.

٨ ـ لا تبلغه الأوهام، ولا تدركه الأفهام.

٩ ـ ولا يشبهه الأنام.

١٠ ـ حي لا يموت، قيوم لا ينام.

١١ ـ خالق بلا حاجة، رازق بلا مؤونة.

١٢ ـ مميت بلا مخافة، باعث بلا مشقة.

١٣ ـ ما زال بصفاته قديماً قبل خلقه، لم يزد بكونهم شيئاً لم يكن قبلهم من صفته، وكما كان بصفاته أزلياً، كذلك لا يزال عليها أبدياً.

١٤ ـ ليس بعد خلق الخلق استفاد اسم «الخالق»، ولا بإحداثه البرية استفاد اسم «الباري».

١٥ ـ له معنى الربوبية ولا مربوب، ومعنى الخالق ولا مخلوق.

وكما أنه محيي الموتى بعد ما أحيا، استحق هذا الاسم قبل إحيائهم، كذلك استحق اسم الخالق قبل إنشائهم.

١٦ ـ ذلك بأنه على كل شيء قدير، وكل شيء إليه فقير، وكل أمر عليه يسير، لا يحتاج إلى شيء، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

١٧ ـ خلق الخلق بعلمه.

١٨ ـ وقدر لهم أقداراً.

١٩ ـ وضرب لهم آجالاً.

٢٠ ـ ولم يَخْفَ عليه شيء قبل أن يخلقهم، وعلم ما هم عاملون قبل أن يخلقهم.

٢١ ـ وأمرهم بطاعته، ونهاهم عن معصيته.

٢٢ ـ وكل شيء يجري بتقديره ومشيئته، ومشيئته تنفذ، لا مشيئة للعباد، إلا ما شاء لهم، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن.

٢٣ ـ يهدي من يشاء، ويعصم ويعافي فضلاً، ويضل من يشاء، ويخذل ويبتلي عدلاً.

٢٤ ـ وكلهم يتقلبون في مشيئته، بين فضله وعدله.

٢٥ ـ وهو متعال عن الأضداد والأنداد.

٢٦ ـ لا راد لقضائه، ولا معقب لحكمه، ولا غالب لأمره.

٢٧ ـ آمنا بذلك كله، وأيقنا أن كلًّا من عنده.

٢٨ ـ وأن محمداً عبده المصطفى، ونبيه المجتبى، ورسوله المرتضى.

٢٩ ـ وأنه خاتم الأنبياء، وإمام الأتقياء، وسيد المرسلين، وحبيب رب العالمين.

٣٠ ـ وكل دعوى النبوة بعده فَغَيٌّ وهوى.

٣١ ـ وهو المبعوث إلى عامة الجن وكافة الورى، بالحق والهدى، بالنور والضياء.

٣٢ ـ وأن القرآن كلام الله، منه بدا بلا كيفية قولاً. وأنزله على رسوله وحياً،

وصدقه المؤمنون على ذلك حقاً، وأيقنوا أنه كلام الله تعالى بالحقيقة، ليس بمخلوق ككلام البرية، فمن سمعه فزعم أنه كلام البشر فقد كفر، وقد ذمه الله وعابه وأوعده بسقر، حيث قال تعالى: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾﴾ [المدثر: ٢٦]، فلما أوعد الله بسقر لمن قال: ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾ [المدثر: ٢٥]، علمنا وأيقنا أنه قول خالق البشر، ولا يشبه قول البشر.

٣٣ ـ ومن وصف الله بمعنى من معاني البشر، فقد كفر، فمن أبصر هذا اعتبر، وعن مثل قول الكفار انزجر، وعلم أنه بصفاته ليس كالبشر.

٣٤ ـ والرؤية حق لأهل الجنة، بغير إحاطة ولا كيفية، كما نطق به كتاب ربنا: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣]. وتفسيره على ما أراد الله تعالى وعلمه، وكل ما جاء في ذلك من الحديث الصحيح عن الرسول ﷺ فهو كما قال، ومعناه على ما أراد، لا ندخل في ذلك متأولين بآرائنا، ولا متوهمين بأهوائنا، فإنه ما سلم في دينه إلا من سلم لله ﷻ ولرسوله ﷺ، وردَّ علم ما اشتبه عليه إلى عالمه.

٣٥ ـ ولا تثبت قدم الإسلام إلا على ظهر التسليم والاستسلام، فمن رام علم ما حظر عنه علمه، ولم يقنع بالتسليم فهمه، حجبه مرامه عن خالص التوحيد، وصافي المعرفة، وصحيح الإيمان، فيتذبذب بين الكفر والإيمان، والتصديق والتكذيب، والإقرار والإنكار، موسوساً تائهاً، شاكاً، لا مؤمناً مصدقاً، ولا جاحداً ولا مكذباً.

٣٦ ـ ولا يصح الإيمان بالرؤية لأهل دار السلام لمن اعتبرها منهم بوهم، أو تأولها بفهم، إذ كان تأويل الرؤية ـ وتأويل كل معنى يضاف إلى الربوبية ـ بترك التأويل ولزوم التسليم، وعليه دين المسلمين. ومن لم يتوق النفي والتشبيه، زل ولم يصب التنزيه. فإن ربنا جل وعلا، موصوف بصفات الوحدانية، منعوت بنعوت الفردانية، ليس في معناه أحد من البرية.

٣٧ ـ وتعالى عن الحدود والغايات، والأركان والأعضاء والأدوات، لا تحويه الجهات الست كسائر المبتدعات.

٣٨ ـ والمعراج حق، وقد أسري بالنبي ﷺ وعرج بشخصه في اليقظة إلى السماء، ثم إلى حيث شاء الله من العلا، وأكرمه الله بما شاء، وأوحى إليه ما أوحى، ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴿١١﴾﴾ [النجم: ١١]، فصلى الله عليه وسلم في الآخرة والأولى.

٣٩ ـ والحوض الذي أكرمه الله تعالى ـ غياثاً لأمته ـ حق.

٤٠ ـ والشفاعة التي ادخر لهم حق، كما روي في الأخبار.

٤١ ـ والميثاق الذي أخذه الله تعالى من آدم وذريته حق.

٤٢ ـ وقد علم الله تعالى فيما لم يزل عدد من يدخل الجنة، وعدد من يدخل النار، جملة واحدة، فلا يزاد في ذلك العدد، ولا ينقص منه.

٤٣ ـ وكذلك أفعالهم فيما علم منهم أن يفعلوه، وكل ميسر لما خلق له، والأعمال بالخواتيم، والسعيد من سعد بقضاء الله، والشقي من شقي بقضاء الله.

٤٤ ـ وأصل القدر سر الله تعالى في خلقه، لم يطلع على ذلك مَلَك مقرَّب ولا نبي مرسل، والتعمق والنظر في ذلك ذريعة الخذلان، وسلم الحرمان، ودرجة الطغيان، فالحذر كلّ الحذر من ذلك نظراً وفكراً ووسوسة، فإن الله تعالى طوى علم القدر عن أنامه، ونهاهم عن مرامه، كما قال تعالى في كتابه: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء: ٢٣]. فمن سأل: لم فعل؟ فقد رد حكم الكتاب، ومن رد حكم الكتاب كان من الكافرين.

٤٥ ـ فهذا جملة ما يحتاج إليه من هو منور قلبه من أولياء الله تعالى، وهي درجة الراسخين في العلم؛ لأن العلم علمان: علم في الخلق موجود، وعلم في الخلق مفقود، فإنكار العلم الموجود كفر، وادعاء العلم المفقود كفر، ولا يثبت الإيمان إلا بقبول العلم الموجود، وترك طلب المفقود.

٤٦ ـ ونؤمن باللوح والقلم وبجميع ما فيه قد رُقِم، فلو اجتمع الخلق كلهم على شيء كتبه الله تعالى فيه أنه كائن ليجعلوه غير كائن ـ لم يقدروا عليه. ولو اجتمعوا كلُّهم على شيءٍ كتبه الله تعالى فيه أنه غير كائن ليجعلوه كائناً ـ لم يقدروا عليه، جف القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة، وما أخطأ العبد لم يكن ليصيبه، وما أصابه لم يكن ليخطئه.

٤٧ ـ وعلى العبد أن يعلم أن الله قد سبق علمه في كل كائن من خلقه فقدر ذلك تقديراً محكماً مبرماً، ليس فيه ناقض، ولا معقب، ولا مزيل ولا مغير، ولا ناقص، ولا زائد في خلقه في سماواته وأرضه، وذلك من عقد الإيمان، وأصول المعرفة، والاعتراف بتوحيد الله تعالى وربوبيته، كما قال تعالى في كتابه: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢]. وقال تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨]. فويل لمن صار لله تعالى في القدر خصيماً، وأحضر للنظر فيه قلباً

سقيماً، لقد التمس بوهمه في فحص الغيب سراً كتيماً، وعاد بما قال فيه أفاكاً أثيماً.

٤٨ ـ والعرش والكرسي حق.

٤٩ ـ وهو مستغن عن العرش وما دونه.

٥٠ ـ محيط بكل شيء وفوقه، وقد أعجز عن الإحاطة خلقه.

٥١ ـ نقول: إن الله اتخذ إبراهيم خليلاً، وكلم الله موسى تكليماً، إيماناً وتصديقاً وتسليماً.

٥٢ ـ ونؤمن بالملائكة والنبيين، والكتب المنزلة على المرسلين، ونشهد أنهم كانوا على الحق المبين.

٥٣ ـ ونسمي أهل قبلتنا مسلمين مؤمنين، ما داموا بما جاء به النبي ﷺ معترفين، وله بكل ما قاله وأخبر مصدقين.

٥٤ ـ ولا نخوض في الله، ولا نماري في دين الله.

٥٥ ـ ولا نجادل في القرآن، ونشهد أنه كلام رب العالمين.

نزل به الروح الأمين، فعلمه سيد المرسلين محمداً ﷺ. وهو كلام الله تعالى، لا يساويه شيء من كلام المخلوقين، ولا نقول بخلقه، ولا نخالف جماعة المسلمين.

٥٦ ـ ولا نكفر أحداً من أهل القبلة بذنب ما لا يستحله.

٥٧ ـ ولا نقول: لا يضر مع الإيمان ذنب لمن عمله.

٥٨ ـ ونرجو للمحسنين من المؤمنين أن يعفو عنهم ويدخلهم الجنة برحمته، ولا نأمن عليهم، ولا نشهد لهم بالجنة، ونستغفر لمسيئهم، ونخاف عليهم ولا نقنطهم.

٥٩ ـ والأمن والإياس ينقلان عن ملة الإسلام، وسبيل الحق بينهما لأهل القبلة.

٦٠ ـ ولا يخرج العبد عن الإيمان إلا بجحود ما أدخله فيه.

٦١ ـ والإيمان: هو الإقرار باللسان، والتصديق بالجَنان.

٦٢ ـ وجميع ما صح عن رسول الله ﷺ من الشرع والبيان كله حق.

٦٣ ـ والإيمان واحد، وأهله في أصله سواء، والتفاضل بينهم بالخشية والتقى، ومخالفة الهوى وملازمة الأولى.

٦٤ ـ والمؤمنون كلهم أولياء الرحمن، وأكرمهم عند الله أطوعهم وأتبعهم للقرآن.

٦٥ ـ والإيمان: هو الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسوله، واليوم الآخر، والقدر، خيره وشره، وحلوه ومره، من الله تعالى.

٦٦ ـ ونحن مؤمنون بذلك كله، لا نفرق بين أحد من رسله، ونصدقهم كلهم على ما جاءوا به.

٦٧ ـ وأهل الكبائر من أمة محمد ﷺ في النار لا يخلدون، إذا ماتوا وهم موحدون، وإن لم يكونوا تائبين بعد أن لقوا الله عارفين مؤمنين، وهم في مشيئته وحكمه، إن شاء غفر لهم وعفا عنهم بفضله، كما ذكر ﷻ في كتابه: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨] وإن شاء عذبهم في النار بعدله، ثم يخرجهم منها برحمته وشفاعة الشافعين من أهل طاعته، ثم يبعثهم إلى جنته، وذلك بأن الله تعالى تولى أهل معرفته، ولم يجعلهم في الدارين كأهل نكرته، الذين خابوا من هدايته، ولم ينالوا من ولايته. اللهم يا ولي الإسلام وأهله، ثبتنا على الإسلام حتى نلقاك به.

٦٨ ـ ونرى الصلاة خلف كل بر وفاجر من أهل القبلة، وعلى من مات منهم.

٦٩ ـ ولا ننزل أحداً منهم جنة ولا ناراً، ولا نشهد عليهم بكفر ولا بشرك ولا بنفاق، ما لم يظهر منهم شيء من ذلك، ونذر سرائرهم إلى الله تعالى.

٧٠ ـ ولا نرى السيف على أحد من أمة محمد ﷺ إلا ما وجب عليه السيف.

٧١ ـ ولا نرى الخروج على أئمتنا وولاة أمورنا، وإن جاروا، ولا ندعو عليهم، ولا ننزع يداً من طاعتهم، ونرى طاعتهم من طاعة الله ﷻ فريضة، ما لم يأمروا بمعصية، وندعو لهم بالصلاح والمعافاة.

٧٢ ـ ونتبع السنة والجماعة، ونجتنب الشذوذ والخلاف والفرقة.

٧٣ ـ ونحب أهل العدل والأمانة، ونبغض أهل الجور والخيانة.

٧٤ ـ ونقول: الله أعلم، فيما اشتبه علينا علمه.

٧٥ ـ ونرى المسح على الخفين، في السفر والحضر، كما جاء في الأثر.

٧٦ ـ والحج والجهاد ماضيان مع أولي الأمر من المسلمين، برهم وفاجرهم، إلى قيام الساعة، لا يبطلهما شيء ولا ينقضهما.

٧٧ ـ ونؤمن بالكرام الكاتبين، فإن الله قد جعلهم علينا حافظين.

٧٨ ـ ونؤمن بملك الموت، الموكل بقبض أرواح العالمين.

٧٩ ـ وبعذاب القبر لمن كان له أهلاً، وسؤال منكر ونكير في قبره عن ربه

ودينه ونبيه، على ما جاءت به الأخبار عن رسول الله ﷺ وعن الصحابة رضوان الله عليهم.

٨٠ ـ والقبر روضة من رياض الجنة، أو حفرة من حفر النيران.

٨١ ـ ونؤمن بالبعث وجزاء الأعمال يوم القيامة، والعرض والحساب، وقراءة الكتاب، والثواب والعقاب، والصراط والميزان.

٨٢ ـ والجنة والنار مخلوقتان لا تفنيان أبداً ولا تبيدان، وأن الله تعالى خلق الجنة والنار قبل الخلق، وخلق لهما أهلاً، فمن شاء منهم إلى الجنة فضلاً منه، ومن شاء منهم إلى النار عدلاً منه، وكل يعمل لما قد فرغ له، وصائر إلى ما خلق له.

٨٣ ـ والخير والشر مقدران على العباد.

٨٤ ـ والاستطاعة التي يجب بها الفعل، من نحو التوفيق الذي لا يجوز أن يوصف المخلوق به ـ فهي مع الفعل. وأما الاستطاعة من جهة الصحة والوسع، والتمكن وسلامة الآلات، فهي قبل الفعل، وبها يتعلق الخطاب، وهو كما قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

٨٥ ـ وأفعال العباد خلق الله، وكسب من العباد.

٨٦ ـ ولم يكلفهم الله تعالى إلا ما يطيقون، ولا يطيقون إلا ما كلفهم، وهو تفسير: «لا حول ولا قوة إلا بالله»، نقول: لا حيلة لأحد، ولا حركة لأحد، ولا تحول لأحد عن معصية الله إلا بمعونة الله، ولا قوة لأحد على إقامة طاعة الله والثبات عليها إلا بتوفيق الله.

٨٧ ـ وكل شيء يجري بمشيئة الله تعالى وعلمه وقضائه وقدره. غلبت مشيئته المشيئات كلها، وعكست إرادته الإرادات كلها، وغلب قضاؤه الحيل كلها. يفعل ما يشاء، وهو غير ظالم أبداً [تقدس عن كل سوى وحين، وتنزه عن كل عيب وشين]، ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء: ٢٣].

٨٨ ـ وفي دعاء الأحياء وصدقاتهم منفعة للأموات.

٨٩ ـ والله تعالى يستجيب الدعوات، ويقضي الحاجات.

٩٠ ـ ويملك كل شيء، ولا يملكه شيء، ولا غنى عن الله تعالى طرفة عين، ومن استغنى عن الله طرفة عين، فقد كفر وصار من أهل الحين.

٩١ ـ والله يغضب ويرضى، لا كأحد من الورى.

٩٢ ـ ونحب أصحاب رسول الله ﷺ، ولا نفرط في حب أحد منهم، ولا نتبرأ

من أحد منهم، ونبغض من يبغضهم، وبغير الخير يذكرهم، ولا نذكرهم إلا بخير، وحبهم دين وإيمان وإحسان، وبغضهم كفر ونفاق وطغيان.

٩٣ ـ ونثبت الخلافة بعد رسول الله ﷺ أولاً لأبي بكر الصديق ﷺ، تفضيلاً له وتقديماً على جميع الأمة، ثم لعمر بن الخطاب ﷺ، ثم لعثمان ﷺ، ثم لعلي بن أبي طالب ﷺ، وهم الخلفاء الراشدون والأئمة المهديون.

٩٤ ـ وأن العشرة الذين سماهم رسول الله ﷺ وبشرهم بالجنة، ونشهد لهم بالجنة، على ما شهد لهم رسول الله ﷺ، وقوله الحق، وهم: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وطلحة، والزبير، وسعد، وسعيد، وعبد الرحمٰن بن عوف، وأبو عبيدة بن الجراح وهو أمين هذه الأمة رضي الله عنهم أجمعين.

٩٥ ـ ومن أحسن القول في أصحاب رسول الله ﷺ، وأزواجه الطاهرات من كل دنس، وذرياته المقدسين من كل رجس، فقد برئ من النفاق.

٩٦ ـ وعلماء السلف من السابقين، ومن بعدهم من التابعين ـ أهل الخير والأثر، وأهل الفقه والنظر ـ لا يذكرون إلا بالجميل، ومن ذكرهم بسوء فهو على غير السبيل.

٩٧ ـ ولا نفضل أحداً من الأولياء على أحد من الأنبياء ﷺ ونقول: نبي واحد أفضل من جميع الأولياء.

٩٨ ـ ونؤمن بما جاء من كراماتهم، وصح عن الثقات من رواياتهم.

٩٩ ـ ونؤمن بالبعث وأشراط الساعة: من خروج الدجال، ونزول عيسى ابن مريم ﷺ من السماء، ونؤمن بطلوع الشمس من مغربها، وخروج دابة الأرض من موضعها.

١٠٠ ـ ولا نصدق كاهناً ولا عرافاً، ولا من يدعي شيئاً يخالف الكتاب والسنة وإجماع الأمة.

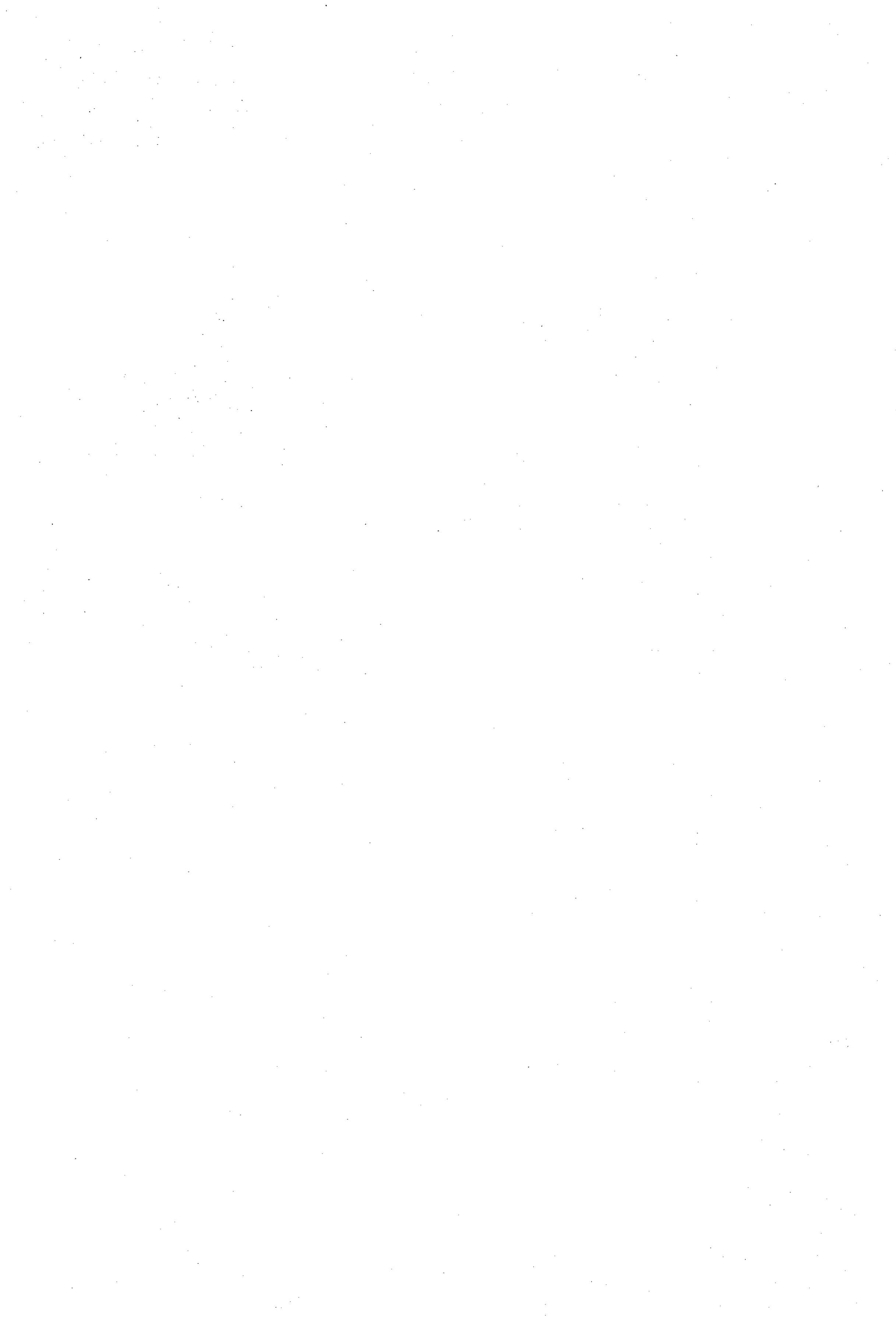
١٠١ ـ ونرى الجماعة حقاً وصواباً، والفرقة زيغاً وعذاباً.

١٠٢ ـ ودين الله في الأرض والسماء واحد، وهو دين الإسلام، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩]، وقال تعالى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

١٠٣ ـ وهو بين الغلو والتقصير، وبين التشبيه والتعطيل، وبين الجبر والقدر، وبين الأمن والإياس.

١٠٤ ـ هذا ديننا واعتقادنا ظاهراً وباطناً، ونحن برآء إلى الله من كل من خالف الذي ذكرناه وبيناه.

ونسأل الله تعالى أن يثبتنا على الإيمان، ويختم لنا به، ويعصمنا من الأهواء المختلفة، والآراء المتفرقة، والمذاهب الردية، مثل المشبهة، والمعتزلة، والجهمية، والجبرية، والقدرية، وغيرهم، من الذين خالفوا السنة والجماعة، وحالفوا الضلالة، ونحن منهم برآء، وهم عندنا ضلال وأردياء، وبالله العصمة والتوفيق.



توضيح مقدمة الطحاوي

* متن مقدمة الطحاوي.

١ ـ غرض الإمام الطحاوي من هذه المقدمة.

٢ ـ معاني الكلمات.

٣ ـ العقيدة التي قررها الإمام الطحاوي ليست خاصة بالإمام أبي حنيفة وصاحبيه.

٤ ـ التعريف بالإمام أبي حنيفة وصاحبيه.

٥ ـ بيان أن الأئمة الأربعة على عقيدة واحدة.

٦ ـ التعريف بأهل السنة والجماعة.

٧ ـ نبذة يسيرة عن تاريخ أهل السنة والجماعة.

٨ ـ الخلاصة.

٩ ـ المناقشة.

قال الإمام الطحاوي رحمه الله تعالى: «هذا ذكر بيان عقيدة[١] أهل السنة والجماعة على مذهب فقهاء الملة أبي حنيفة النعمان بن ثابت الكوفي، وأبي يوسف يعقوب بن إبراهيم الأنصاري، وأبي عبد الله محمد بن الحسن الشيباني، رضوان الله عليهم أجمعين، وما يعتقدون من أصول الدين ويدينون به رب العالمين».

❖ ❖ ❖

١ غرض الإمام الطحاوي من هذه العقيدة:

بيَّن الإمام الطحاوي مراده من تأليف هذه الرسالة، وهو بيان عقيدة أهل السنة والجماعة على مذهب فقهاء الملة أبي حنيفة النعمان بن ثابت الكوفي، وأبي يوسف يعقوب بن إبراهيم الأنصاري، وأبي عبد الله محمد بن الحسن الشيباني، رضوان الله عليهم أجمعين، وما يعتقدون من أصول الدين، ويدينون به رب العالمين.

٢ معاني الكلمات:

الكلمة	المعنى
ذكر	أي: ذكر بلسانه، معتقداً بقلبه.
بيان	الإيضاح والإفصاح.
عقيدة	من عقد قلبه على الشيء ولزمه، والعقد هو الربط والإبرام والإحكام، ومنه اليقين والجزم.
أهل السنة	هم المتمسكون بسنة النبي ﷺ وأصحابه ومن تبعهم وسلك سبيلهم في الاعتقاد والقول والعمل.
الملة	الدين والشريعة.
رب	الخالق المالك السيد المطاع
العالمين	جمع عالم، وهو ما سوى الله ﷻ.

٣ العقيدة التي قررها الطحاوي ليست خاصة بالإمام أبي حنيفة وصاحبيه:

ما ذكره المصنف رحمه الله تعالى في هذه العقيدة ليس مختصاً بالإمام أبي

---

(١) لفظ (عقيدة) لا توجد في أمهات معاجم اللغة. فهي إذاً كلمة مولدة، والذي كان يسبقها في الاستعمال كلمة (اعتقاد) و(معتقد).

حنيفة وصاحبيه فقط، بل هي عقيدة أهل السنة؛ فإن أهل السنة والجماعة من الأولين والآخرين عقيدتهم واحدة؛ لأنهم معتصمون بالكتاب والسنة.

ومن خالفهم في معتقدهم صار مبتدعاً ضالاً، ولا يعذر باجتهاده؛ لأن العذر مقبول في الاجتهاد في فروع الأحكام لا في أصول الدين؛ فالعقائد الدينية ليس فيها تعدد مذاهب بل الصواب مذهب أهل السنة والجماعة وما عداه باطل[١].

٤ التعريف بالإمام أبي حنيفة وصاحبيه:

أ- التعريف بالإمام أبي حنيفة:

هو الإمام الفقيه المجتهد النعمان بن ثابت الكوفي أحد الأئمة الأربعة المتبعين في الفقه، ولد سنة (٨٠هـ)، وأدرك جماعة من الصحابة؛ قال الخطيب البغدادي: إنه رأى أنس بن مالك، وكان رحمه الله عالماً زاهداً عابداً ورعاً تقياً كثير الخشوع دائم التضرع إلى الله. مات سنة (١٥٠هـ)[٢].

ب ـ التعريف بأبي يوسف:

هو الإمام المتقن المجتهد المطلق أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم الأنصاري، ولد سنة (١١٣هـ)، وأخذ العلم عن الإمام أبي حنيفة وغيره، وأخذ عنه العلم جماعة منهم الإمام أحمد بن حنبل، وولاه الرشيد القضاء. مات سنة (١٨٣هـ)[٣].

ج ـ التعريف بأبي عبد الله محمد بن الحسن:

هو محمد بن الحسن بن فرقد الشيباني، الفقيه العالم، ولد سنة (١٣٢هـ)، نشأ بالكوفة وأخذ العلم عن الإمام أبي حنيفة والإمام مالك وغيرهم. مات رحمه الله بالري سنة (١٨٩هـ)[٤].

٥ بيان أن الأئمة الأربعة على عقيدة واحدة:

اعتقاد الأئمة الأربعة: أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد هو ما نطق به الكتاب والسنة وما كان عليه الصحابة والتابعون لهم بإحسان، وليس بين هؤلاء الأئمة ـ ولله الحمد ـ نزاع في أصول اعتقاد، بل هم متفقون على الإيمان بصفات

---

(١) حاشية ابن مانع على الطحاوية (ص١٥).
(٢) انظر: سير أعلام النبلاء (٦/ ٥٣٥)، والبداية والنهاية (١٠/ ١٠١).
(٣) انظر: سير أعلام النبلاء (٨/ ٣٩٠)، والفوائد البهية (ص٢٢٥).
(٤) انظر: سير أعلام النبلاء (٩/ ١٣٤)، والفوائد البهية (ص١٦٣).

الرب وأن القرآن كلام الله غير مخلوق، وأن الإيمان لابد فيه من تصديق القلب والإقرار باللسان والعمل، سوى ما أثر من خلاف الإمام في هذه المسألة، وكانوا ينكرون على أهل الكلام من جهمية وغيرهم ممن تأثروا بالفلسفة اليونانية والمذاهب الكلامية، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «ولكن من رحمة الله بعباده أن الأئمة الذين لهم في الأمة لسان صدق كالأئمة الأربعة وغيرهم كانوا ينكرون على أهل الكلام من الجهمية قولهم في القرآن والإيمان وصفات الرب، وكانوا متفقين على ما كان عليه السلف من أن الله يُرى في الآخرة، وأن القرآن كلام الله غير مخلوق»[1].

وقال كذلك: «إن الأئمة المشهورين كلهم يثبتون الصفات لله تعالى، ويقولون: إن القرآن كلام الله ليس بمخلوق، ويقولون: إن الله يُرى في الآخرة، وهذا مذهب الصحابة والتابعين لهم بإحسان من أهل البيت وغيرهم، وهذا مذهب الأئمة المتبوعين مثل مالك بن أنس والثوري والليث بن سعد والأوزاعي وأبي حنيفة والشافعي وأحمد»[2].

وسئل شيخ الإسلام ابن تيمية عن اعتقاد الشافعي فأجاب بقوله: «اعتقاد الشافعي ﷺ واعتقاد سلف الأمة كمالك والثوري والأوزاعي وابن المبارك وأحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه هو اعتقاد المشايخ المقتدى بهم، كالفضيل بن عياض وأبي سليمان الداراني وسهل بن عبد الله التستري وغيرهم، فإنه ليس بين هؤلاء الأئمة نزاع في أصول الدين، وكذلك أبو حنيفة رحمه الله تعالى، فإن الاعتقاد الثابت عنه في التوحيد والقدر ونحو ذلك موافق لاعتقاد هؤلاء، واعتقاد هؤلاء هو ما كان عليه الصحابة والتابعون لهم بإحسان، وهو ما نطق به الكتاب والسنة»[3].

وهذا ما اختاره العلامة صديق حسن خان الهندي حيث قال: «فمذهبنا مذهب السلف، إثبات بلا تشبيه، وتنزيه بلا تعطيل، وهو مذهب أئمة الإسلام كمالك والشافعي والثوري وابن المبارك والإمام أحمد وغيرهم، فإنه ليس بين هؤلاء الأئمة نزاع في أصول الدين، وكذلك أبو حنيفة ﷺ فإن الاعتقاد الثابت عنه

---

(١) الإيمان (ص٣٥٠).
(٢) منهاج السنة (٢/ ١٠٦).
(٣) مجموع الفتاوى (٥/ ٢٥٦).

موافق لاعتقاد هؤلاء الذي نطق به الكتاب والسنة»[١].

٦ التعريف بأهل السنة والجماعة:

التعريف بأهل السنة والجماعة من خلال الفقرات التالية[٢]:

أولاً: المراد بأهل السنة والجماعة وسبب تسميتهم بذلك:

مصطلح أهل السنة والجماعة مصطلح قديم، ويقصد به: المتمسكون بسنة النبي ﷺ وأصحابه وتابعيهم، المتمسكون بما كان عليه جماعة المسلمين في الصدر الأول. وقد استنبط هذا المصطلح من الأحاديث التي تحض على اتباع السنة والتمسك بها والأمر بلزوم الجماعة وترك التفرق والاختلاف، فمن ذلك قوله ﷺ: (**افترقت اليهود والنصارى على إحدى وسبعين أو ثنتين وسبعين فرقة كلها في النار، وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار، إلا واحدة وهي الجماعة**)[٣]، وفي لفظ: (**من كان على مثل ما أنا عليه وأصحابي**)[٤]، فهذا أصل هذه التسمية.

وقد استعمل هذا المصطلح عند السلف حيث كانوا يدوِّنون ما ينقلونه عن عقائد أهل السنة كالإمام أحمد وابنه عبد الله وابن أبي عاصم والخلال وغيرهم.

وسمي أهل السنة بذلك؛ لأنهم الآخذون بسنة رسول الله ﷺ العاملون بها، العاملون بمقتضاها والمتمثلون لقول الرسول ﷺ: (**عليكم بسنتي**)[٥].

وأما تسميتهم بالجماعة؛ فلأنهم اجتمعوا على الحق وأخذوا به، واقتفوا أثر جماعة المسلمين المستمسكين بالسنة من الصحابة والتابعين وأتباعهم، ولأنهم أجمعوا على الحق وعلى اتباع الجماعة، ولأنهم اجتمعوا على أئمتهم وعلى الجهاد وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كما اجتمعوا على السنة والاتباع.

ثانياً: ألقاب أهل السنة وأسماؤهم:

هناك أسماء أخرى لأهل السنة والجماعة، لكل منها دليله ومنها مثلاً:

---

(١) قطف الثمر (ص٤٧).

(٢) انظر كتاب: عقيدة أهل السنة والجماعة للشيخ سعود الحمد، وموقف ابن تيمية من الأشاعرة (١/ ٤ ـ ٣٨) للدكتور عبد الرحمن المحمود، ومفهوم أهل السنة والجماعة للدكتور ناصر العقل، ونظرات وتأملات من واقع الحياة لمحمد الخميس.

(٣) رواه ابن ماجه (٣٩٩٢ ـ ٣٩٩٣).

(٤) رواه الترمذي (٢٦٤١).

(٥) رواه أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وابن ماجه (٤٢).

١ ـ الفرقة الناجية: وذلك استنباطاً من قوله ﷺ: **(وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة)**(١). فلهذا سميت بالفرقة الناجية.

٢ ـ الطائفة المنصورة: وذلك استنباطاً من قوله ﷺ: **(لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق)**، وفي لفظ: **(على الحق منصورين لا يفرقهم من خالفهم ولا من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك)**(٢).

٣ ـ السلف الصالح: وذلك لأنهم سلف لنا متقدمون علينا موسومون بالصلاح، وذلك في قوله ﷺ: **(خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم)**(٣). وغير ذلك.

ثالثاً: هل هناك ضرورة للتسمي باسم أهل السنة؟ وهل هم محصورون في مكان أو زمان؟

كان الناس أمة واحدة، ثم فشا فيهم الشرك فأرسل الله تعالى الرسل مبشرين ومنذرين، فمن أطاعهم واتبعهم استحق اسم الإسلام، ومن عصاهم وخالفهم استحق اسم الكفر، فمن هنا انقسم الناس إلى مسلم وكافر.

ثم بعد ذلك انقسم أهل الإسلام ما بين متبع للسنة، قائل بها، ومخالف لها معاند، فكما تمايز أهل الإسلام عن أهل الأديان الأخرى، كذلك تمايز أهل السنة عن غيرهم من أهل البدع والمذاهب الأخرى، فأطلقوا على أنفسهم هذا الاسم ليتميزوا به عن غيرهم، ولكي يعرفوا باتباعهم للسنة وأخذهم بها.

وأهل السنة والجماعة لا يحصرهم مكان ولا زمان، إنما قد يكثرون في بلد ويقلون في آخر، وقد يكثرون في زمان ويقلون في زمان، لكنهم لا ينقطعون، ففيهم أعلام الهدى ومصابيح الدجى، وحجة الله على الخلق إلى أن تقوم الساعة، وبهم يتحقق وعد الله بحفظ الدين.

رابعاً: أصول مذهب أهل السنة والجماعة:

شروط كون الرجل من أهل السنة:

يكون الرجل من أهل السنة إذا أخذ بأصول أهل السنة وهي ما يلي:

١ ـ توحيد الله تعالى في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، وصرف العبادة له دون غيره ظاهراً وباطناً.

---

(١) سبق تخريجه (ص٣٣).

(٢) رواه البخاري (٣٦٤٠ ـ ٣٦٤١).

(٣) رواه البخاري (٢٦٥٢).

٢ ـ تجريد الاتباع للنبي ﷺ وحده في كل أحواله وأموره، والأخذ بسنته ظاهراً وباطناً.

٣ ـ اتباع سبيل المؤمنين السابقين ثم الصحابة والتابعين.

٤ ـ سلامة القلب لأصحاب النبي ﷺ وعدم القدح في أحد منهم، ولا النقص منه ولا ذكرهم بسوء.

٥ ـ الاعتراف بفضل الصحابة وخصوصاً الخلفاء الأربعة، وعدم القدح في خلافة أي منهم، وتقديمهم على غيرهم.

٦ ـ محبة أزواج النبي ﷺ وآل بيته: وتوليهم، وعدم الإساءة إليهم أو القدح فيهم.

٧ ـ عدم التكفير بالمعصية: سواء كانت كبيرة أو صغيرة، فهم لا يكفرون أحداً من أهل الإسلام بذنب ما لم يستحله، سواء كانت كبيرة أو صغيرة.

٨ ـ عدم الشهادة لمعين بالجنة أو النار إلا من شهد له القرآن والسنة.

٩ ـ الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية.

١٠ ـ عدم الخروج على الولاة، ولزوم الجماعة، وكذلك الصلاة والجهاد معهم والدعاء لهم، وعدم شق عصا الطاعة وتفريق الجماعة.

وغير ذلك من أصولهم وخصائصهم التي اختصوا بها من بين سائر أهل البدع والأهواء.

خامساً: وسطية أهل السنة بين سائر الفرق:

إن أهل السنة والجماعة وسط في كل أصولهم بين أهل الغلو والتطرف والإفراط، وبين أهل التقصير والتحليل والتفريط، فهم بين طرفي نقيض، ومن ذلك:

١ ـ في مسألة الصفات الإلهية:

فهم وسط بين المعطلة الجهمية النفاة الذين نفوا صفات الله ﷻ أو أوَّلوها بما يخرجها عن حقيقتها وبين أهل التشبيه الذين غلوا في الإثبات حتى شبهوا الله تعالى بخلقه، أما أهل السنة والجماعة فإنهم أثبتوا لله كل ما ثبت من الأسماء والصفات على التنزيه من المشابهة لخلقه وتفويض علم كيفية ذلك إليه تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

٢ ـ في مسألة الإيمان:

فهم وسط بين الذين قالوا: لا يضر مع الإيمان ذنب، وهم المرجئة، وبين

الوعيدية الذين نفوا اسم الإيمان بفعل المعاصي، لكن أهل السنة جعلوا الإيمان قولاً وعملاً، ولا ينتفي الإيمان إلا بانتفاء جميع أعماله، ولا يرفع اسم الإيمان الواجب بالمعاصي ما لم يستحلها العاصي.

٣ ـ في مسألة القدر:

هم وسطية بين الجبرية الذين يرون أن العبد لا مشيئة له أصلاً وأنه مجبور على أعماله وبين أهل القدر الذين جعلوا العبد خالقاً لفعل نفسه.

أما أهل السنة فقد جعلوا للعبد مشيئة واختياراً وإرادة، لكنها داخلة في مشيئة الله تعالى وإرادته: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾﴾ [الإنسان: ٣٠].

٤ ـ في مسألة الصحابة:

فهم وسط بين الذين غلوا في شأن بعض الصحابة، ورفعوهم إلى مرتبة الألوهية كما فعلت الباطنية مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه وبين الناصبة الذين كفروهم وحطوا من شأنهم، بل إن أهل السنة يحبونهم جميعاً ويتولونهم، ولا يرون عصمة أحد منهم، أو يرفعونه فوق منزلته التي يستحق.

٥ ـ في مسألة حب النبي ﷺ:

إن أهل السنة يحبون النبي ﷺ ويعظمونه، ويرون ذلك ديناً وإيماناً، لكنهم لا يؤلهونه ولا يعبدونه من دون الله، فهم وسط بين أهل الغلو الذين أسبغوا عليه ﷺ صفات الألوهية كالصوفية ونحوهم وبين أولئك الذين أعرضوا عن سنته وحطوا من شأنها وقدموا على حبه حب الدنيا وأهلها، بل إن أهل السنة يقدمون محبته على كل محبة، واتباعه على كل اتباع، ويرون اتباع سنته ديناً واجباً عليهم.

سادساً: صفات وخصائص أهل السنة والجماعة:

إن صفات أهل السنة وخصائصهم وسماتهم واضحة بينة لأنهم أهل الحق، والحق ظاهر، ولأنهم أتباع السنة، والسنة محفوظة، ولأنهم الجماعة، والجماعة معصومة ما اتبعت الحق، فامتازت مناهج أهل السنة والجماعة في مسائل الدين بخصائص جعلتها أكثر موافقة للحق وإصابة له، منها:

١ ـ وحدة المصدر:

وهو أن السلف لا يتلقون أمور دينهم إلا عن مشكاة النبوة، لا عقل، ولا ذوق، ولا كشف، بل هذه إن صحت كانت معضدة لحقيقة السمع (الكتاب

والسنة) فكيف بمن عارض بها دلائل الكتاب والسنة، وأكثرها جهالات وخيالات فاسدة، وبهذا نفهم كيف أن الرسول ﷺ أنكر على عمر بن الخطاب رضي الله عنه النظر في صحيفة من التوراة، وهو الكتاب المنزل من السماء وإن شابه التحريف فهو أفضل من كثير من الأقيسة العقلية والخيالات الصوفية.

٢ ـ منهج توقيفي:

منهج أهل السنة والجماعة يقوم على التسليم المطلق لنصوص الكتاب والسنة، لا يردون منها شيئاً، ولا يعارضونها بشيء، لا بعقل ولا بذوق ولا مقام، بل يقفون حيث تقف بهم النصوص، ولا يتجاوزونها إلى إعمال رأي أو قياس أو ذوق، ملتزمين قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ①﴾ [الحجرات: ١].

٣ ـ منهج وسط:

فمنهج أهل السنة وسط في جميع مسائلهم، وهذه الوسطية استفادوها من اعتمادهم الكتاب والسنة من غير غلو أو تقصير، فنجد أهل السنة في كل المسائل المتنازع فيها بين فرق الأمة كانوا أسعد الطوائف بموافقة الحق والصواب، إذ التزموا الوسط والاعتدال القائمين على الكتاب والسنة.

٤ ـ ليس لهم إمام معظم إلا رسول الله ﷺ:

فهو الوحيد الذي يؤخذ بأمره، ولا يرد شيء من كلامه، فأمره معظم، ونهجه معظم، وخبره مصدق، وأما غيره ﷺ فإنه يؤخذ من قوله ويترك ـ كما قال الإمام مالك رحمه الله: كلٌّ يؤخذ من قوله ويترك إلا صاحب هذا القبر ـ يعني النبي ﷺ.

٥ ـ عصمة الله تعالى لهم من تكفير بعضهم بعضاً:

فأهل السنة والجماعة لا يكفر بعضهم بعضاً، ولا يتبرأ بعضهم من بعض، وهذا من فضل الله تعالى عليهم، وأما أهل البدع فإنهم يتبرأ بعضهم من بعض، ويكفر بعضهم بعضاً، ويلعن بعضهم بعضاً.

٦ ـ رفضهم التأويل:

فإن التأويل قد يراد به حقيقة ما يؤول إليه الشيء، وقد يراد به تفسير للشيء، وقد يراد به صرف اللفظ عن حقيقة معناه إلى معنى آخر بدون قرينة موجبة لذلك، وإنما انتشر هذا النوع من التأويل بين أهل البدع من المتكلمين وغيرهم، ورفضه

أهل السنة؛ لأنه جور على نصوص الكتاب والسنة وصرف لهما عن حقائقهما، وقول على الله تعالى بغير علم وبغير حق.

٧ ـ اتباع آثار رسول الله ﷺ وأصحابه ظاهراً وباطناً:

فأهل السنة والجماعة متبعون لرسول الله ﷺ وأصحابه السابقين الأولين ظاهراً وباطناً، ويرون ذلك ديناً يتعبدون به لله ﷻ كما قال تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۝١٠٠﴾ [التوبة: ١٠٠].

٨ ـ إنهم يفهمون الدين فهماً شاملاً ويرون أنه صالح لكل زمان ومكان:

فالدين عند أهل السنة والجماعة هو ذلك المنهج الرباني الذي ينتظم أمور الحياة كلها، فهو الذي ينظم العلاقة بين العبد وربه، ويبين للعبد ما يجب عليه لله تعالى وما يحرم، وبه يعرف كيف يؤدي حق الله تعالى بالعبادة، وهو ذلك المنهج الذي نظم علاقة العبد بأهله وأقاربه وجيرانه والناس أجمعين، وهو المنهج الذي يهدف إلى تنظيم حياة الناس في كل مجالاتها، فهو نظام شامل لكل نواحي الحياة، وهو صالح لكل زمان ومكان منذ أن بعث الله نبيه ﷺ وحتى تقوم الساعة.

٩ ـ إنهم يرون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرضاً واجباً عليهم:

وذلك باليد واللسان والقلب، كل على حسب طاقته، ويرون ذلك فرضاً ماضياً إلى يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝١٠٤﴾ [آل عمران: ١٠٤].

١٠ ـ الحج والجهاد مع أولياء الأمور وترك الخروج عليهم:

فأهل السنة يرون الحج والجهاد مع الأمراء، البر منهم والفاجر، ولا يخرجون عليهم، ولا ينزعون يداً من طاعتهم، ما لم يؤمروا بمعصية الله، فحينئذٍ لا سمع ولا طاعة، وكذلك فهم يرون ملازمة الجمعة والجماعة في المساجد، ويحذرون من مفارقة الجماعة.

١١ ـ التسليم لنصوص الشرع وفهمها على مقتضى منهج السلف:

فهم يسلمون لنصوص الشرع، سواء أفهموا الحكمة منها أم لا، ولا يعرضون النصوص على عقولهم، بل يعرضون عقولهم على النصوص، ويفهمونها كما فهمها السلف الصالح.

١٢ ـ الاتباع وترك الابتداع:

فهم لا يقدمون بين يدي الله ورسوله، ولا يرفعون أصواتهم فوق صوت النبي ﷺ، ولا يرضون لأحد كائناً من كان أن يرفع صوته فوق صوت النبي ﷺ بخلاف المبتدعة الضالين، الذين ابتدعوا في الدين مستدركين على وحي رب العالمين، ألا ساء ما يعملون.

١٣ ـ الجمع بين النصوص في المسألة الواحدة ورد المتشابه إلى المحكم:

فهم يجمعون بين النصوص الشرعية المتعارضة ظاهراً في المسألة الواحدة، ويردون المتشابه إلى المحكم حتى يصلوا إلى الحق في المسألة، بخلاف كثير من الطوائف التي نسيت حظاً مما ذكرت به، فنظرت إلى النصوص الشرعية بعين عوراء، فضلَّت وأضلَّت، وذلك كحال المعطلة والممثلة والقدرية والجبرية.

١٤ ـ الجمع بين الخوف والرجاء والحب:

فأهل السنة والجماعة يجمعون بين هذه الأمور، ويرون أنه لا تنافي ولا تعارض بينها، قال ﷻ في وصف صفوة عباده: الأنبياء والمرسلين: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

١٥ ـ الجمع بين العقل والعاطفة:

فعقولهم راجحة، وعواطفهم صادقة، ومعاييرهم منضبطة، فلم يغلبوا جانب العقل على العاطفة، ولا جانب العاطفة على العقل، وإنما جمعوا بينهما على أكمل وجه وأتمه.

١٦ ـ العدل:

فالعدل من أعظم المميزات لأهل السنة والجماعة فهم أعدل الناس وأولاهم بامتثال قول الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ﴾ [النساء: ١٣٥]، وقوله: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [الأنعام: ١٥٢]، ومن مظاهر عدلهم أنهم لا يكفرون كل من كفرهم.

١٧ ـ الأمانة العلمية:

فالأمانة زينة العلم وروحه الذي يجعله زاكي الثمر، لذيذ المطعم، وإذا قلَّبْتَ النظر في تراجم رجال العلم وجدت البون الشاسع بينهم وبين غيرهم من حيث الأمانة العلمية، وأهل السنة والجماعة لهم القدح المعلى في هذا

الجانب، فهم أكثر الناس أمانة في العلم وأحرصهم على التحلي بتلك الحلية.

١٨ ـ عدم الاختلاف في أصول الاعتقاد:

فالسلف الصالح لا يختلفون ـ بحمد الله ـ في أصل من أصول الدين وقواعد الاعتقاد، فقولهم في أسماء الله وصفاته وأفعاله واحد، وقولهم في الإيمان وتعريفه ومسائله واحد، وقولهم في القدر واحد، وهكذا في باقي الأصول.

١٩ ـ ترك الخصومات في الدين ومجانبة أهل الخصومات:

لأن الخصومات مدعاة للفرقة والفتنة، ومجلبة للتعصب واتباع الهوى، وذريعة للقول على الله بغير علم.

ولما كان هذا هو شأن الجدل والخصومات ابتعد عنها السلف الصالح وحذروا منها.

٢٠ ـ الحرص على جمع كلمة المسلمين على الحق:

فهم حريصون كل الحرص على وحدة المسلمين، ولمِّ شملهم، وجمع كلمتهم على الحق، وإزالة أسباب النزاع والفرقة بينهم؛ لعلمهم أن الاجتماع رحمة، والفرقة عذاب، وأن الله أمر بالائتلاف ونهى عن الاختلاف.

سابعاً: لزوم مذهب أهل السنة والجماعة:

مذهب أهل السنة والجماعة هو المذهب الحق، والعروة الوثقى، والدين الخالص، والصراط المستقيم؛ لأن عقيدتهم مستمدة من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فهذا يعني أنه الأسلم والأعلم والأحكم، وهي وصية رسول الله ﷺ، وهي سبيل المؤمنين، والله توعد من خالف الرسول ﷺ واتبع غير سبيلهم، فقال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾ [النساء: ١١٥].

وسبيل المؤمنين لا شك أنه سبيل الصحابة والتابعين والقرون الفاضلة في الدين الذين أثنى الله عليهم، وأمرنا النبي ﷺ باتباعهم. وإذا كان الأمر كذلك فإن لزوم مذهب أهل السنة والجماعة والتمسك بعقيدتهم أمر متعين شرعاً بأمر الله تعالى وأمر رسوله ﷺ، قال تعالى: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾ [الأعراف: ٣].

وقد بيَّن النبي ﷺ أنه سيكون من بعده اختلاف وافتراق كثير، وأن الحق مع المتمسكين بسنته وسنة الخلفاء الراشدين.

ولا ريب أن الذين تمسَّكوا بسنته ﷺ وسنة الخلفاء الراشدين واجتنبوا البدع هم أهل السنة والجماعة.

٧ نبذة يسيرة عن تاريخ أهل السنة والجماعة:

سأقسم تاريخ أهل السنة والجماعة إلى ما يلي:

١ ـ أهل السنة والجماعة في زمن النبي ﷺ وخلافة أبي بكر وعمر وصدر خلافة عثمان.

٢ ـ ظهور مبدأ مخالفة أهل السنة والجماعة من أهل الأهواء والبدع.

٣ ـ فتنة المعتزلة وتعذيبهم لأئمة أهل السنة والجماعة.

٤ ـ المتكلمون ومزاحمتهم لأهل السنة في دعوى انتسابهم لأهل السنة.

أولاً: أهل السنة والجماعة في زمن النبي ﷺ وخلافة أبي بكر وعمر وصدر من خلافة عثمان رضي الله عنه:

مكث القرآن الكريم ثلاثة وعشرين عاماً ينزل على رسول الله ﷺ، والرسول يبلغه للناس ويبينه، حتى كمل الدين، وتمت النعمة، ثم اختار الله عز وجل رسوله إلى جواره، وكان الصحابة رضي الله عنهم يسمعون القرآن، ويفهمون معناه، ثم يؤمنون به، ويعملون بشرائعه.

وقد كان فيما نزل به القرآن الكريم: الإخبار عن الأمور الغيبية، كالإخبار عن ذات الله، وأسمائه، وصفاته، وأفعاله، وعن اليوم الآخر، وأحداثه وأهواله، وعن الجنة والنار، وما أعد الله فيهما من ثوابه وعقابه، كل ذلك، ومما هو في معناه، كان القرآن ينزل به، والنبي ﷺ يبلغه ويبينه، والصحابة يتلقون ويفهمون ويؤمنون، ولم يعرف عن أحد منهم أن تردد أو استشكل شيئاً من ذلك.

ونحن نعتقد أنهم كانوا يفهمون ما يخاطبون به من ذلك كله، وأنهم لو لم يفهموا شيئاً من ذلك لسألوا عنه، واستفسروا عن معناه؛ لتعلقه بالجانب الرئيسي في حياتهم، وهو جانب الاعتقاد.

نعم، قد سأل الصحابة النبي ﷺ عن بعض الأمور الشرعية ولكنها أمور عملية وليست اعتقادية، يقول ابن عباس رضي الله عنهما: ما رأيت قوماً خيراً من أصحاب رسول الله ﷺ، ما سألوه إلا عن ثلاث عشرة مسألة حتى قبض ﷺ، كلهن في القرآن، يسألونك عن المحيض.. ويسألونك عن الشهر الحرام...

فالصحابة رضي الله عنهم لم يحصل بينهم فرقة ولا اختلاف في أصول الدين ـ ولله

الحمد ـ، فلم يحصل نزاع بينهم يستوجب تضليل أو تفسيق بعضهم ببعض، بل كانوا على عقيدة واحدة.

قال طاش كبري زاده: «إن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين كانوا في زمن النبي ﷺ على عقيدة واحدة؛ لأنهم أدركوا زمان الوحي وشرف الصحبة»(١).

وربما يحصل بينهم في بعض مسائل الأحكام خلافٌ لا يوجب الفرقة والتفسيق والتكفير، بل هو اجتهاد منهم في فهم النص، فالمصيب منهم له أجران، والمخطئ له أجر واحد.

قال ابن القيم: وقد تنازع الصحابة رضي الله عنهم في كثير من مسائل الأحكام، وهم سادات المؤمنين وأكمل الأمة إيماناً، ولكن بحمد الله لم يتنازعوا في مسألة واحدة في مسائل الأسماء والصفات والأفعال(٢).

وهذا هو حال غير الصحابة من المسلمين، فكانوا متفقين في خلافة أبي بكر وعمر وصدر من خلافة عثمان، لا تنازع بينهم إلى أن قام أهل الفتنة والضلال والبغي بقتل عثمان رضي الله عنه، فتفرق المسلمون بعد ذلك، وأول فرقة فارقت جماعة المسلمين وخرجت على أمير المؤمنين علي رضي الله عنه هي الخوارج والرافضة ثم توالىٰ ظهور الفرق.

فالمقصود أن الصحابة كانوا يتسمون بما سمَّاهم الله عملاً بقوله تعالى: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٧٢].

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢]، فهم مستسلمون لله تبارك وتعالى باتباع أوامره، واجتناب نواهيه، مخلصين له التوحيد محبة وإنابة، فهم مسلمون؛ لأنهم جمعوا بين التوحيد والعمل بالشريعة التي جاء بها النبي ﷺ.

ثانياً: ظهور مبدأ مفارقة أهل السنة والجماعة من أهل الأهواء والبدع:

ذكرنا فيما سبق أن الصحابة رضي الله عنهم لم يحصل بينهم خلاف في أصول الدين، وكذلك المسلمون، فكانوا متفقين في خلافة أبي بكر وعمر وصدر من خلافة عثمان، لا تنازع بينهم إلى أن قام أهل الفتنة والضلال والبغي بقتل عثمان رضي الله عنه، فتفرق المسلمون بعد ذلك، وأول فرقة فارقت جماعة المسلمين وخرجت على أمير المؤمنين علي رضي الله عنه هي الخوارج، فتبرأت من إمام المسلمين، وكفرته ومن

---

(١) مفتاح دار السعادة (٢/ ١٤٣).

(٢) إعلام الموقعين (١/ ٤٩).

معه من المسلمين، ومعاوية ومن معه، فعند ذلك ظهرت الشيعة تؤيد علياً وتنصره، ثم توالى بعد ذلك ظهور البدع، فحدثت في آخر عصر الصحابة بدعتا القدرية والمرجئة، ثم في أواخر الدولة الأموية ظهرت الجهمية ثم المعتزلة.

فلما فارقوا الجماعة تسمَّوا بأسماء محدثة كالخوارج والرافضة والمرجئة والقدرية والجهمية والمعتزلة، ففارقوا سبيل أهل الإسلام والمؤمنين، فأنكر عليهم السلف تلك المسميات التي أحدثوها، يقول عبد الله بن عباس ﷺ: **«من أقر باسم من هذه الأسماء المحدثة فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه»**(١).

وقال ميمون بن مهران ت (١١٧هـ): «إياكم وكل اسم يسمى بغير الإسلام»(٢).

وقال مالك بن مِغْوَل ت (١٥٩هـ): «إذا تسمى الرجل بغير الإسلام والسنة فألحقه بأي دين شئت»(٣).

وسئل الإمام مالك عن أهل السنة، فقال: «الذين ليس لهم لقب يعرفون به لا جهمي ولا رافضي ولا قدري»(٤).

المقصود أن كل من خالف السنة والجماعة فقد تسمى بغير الإسلام والسنة كأصحاب الأهواء والفرق الضالة من الخوارج والرافضة والجهمية والقدرية، والمرجئة والمعتزلة.

والمقصود أن الإسلام هو السنة، وأن السنة هي الإسلام.

قال الإمام البربهاري: «اعلم أن الإسلام هو السنة، والسنة هي الإسلام، ولا يقوم أحدهما إلا بالآخر، فمن السنة لزوم الجماعة، ومن رغب غير الجماعة وفارقها فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه، وكان ضالاً مضلاً»(٥).

وقال كذلك: «والأساس الذي يبنىٰ عليه الجماعة هم أصحاب محمد ﷺ رحمهم الله أجمعين، وهم أهل السنة والجماعة»(٦).

وبهذا عُلِمَ مناسبة تسمية أهل السنة بهذا الاسم، فهي مرادفة لتسميتهم بالمسلمين، كما دلت على ذلك النصوص، والمقصود بالجماعة هنا: أهل السنة؛ لأنهم أتباع الرسول ﷺ وأصحابه، وهؤلاء هم جماعة المسلمين، قال العلامة أبو

---

(١) شرح الإبانة (ص١٣٧).
(٢) شرح الإبانة (ص١٥٣).
(٣) الدر المنثور (٢/ ٦٣).
(٤) ترتيب المدارك (١/ ٧٢).
(٥) شرح السنة (ص٢١).
(٦) المصدر السابق (ص٢١).

شامة الشافعي: «وحيث جاء الأمر بلزوم الجماعة فالمراد به لزوم الحق وأتباعه، وإن كان المستمسك بالحق قليلاً، والمخالف كثيراً؛ لأن الحق الذي كانت عليه الجماعة الأولى من النبي ﷺ وأصحابه»(١).

ثالثاً: فتنة المعتزلة وتعذيبهم أئمَّةَ أهل السنة والجماعة:

ظهرت فرقة المعتزلة في نهاية القرن الأول الهجري والناس يعانون من فتنة الجهمية وإلحادهم، وبلغت شأوها في العصر العباسي الأول، ويرجع اسمها إلى اعتزال إمامها واصل بن عطاء مجلس الحسن البصري قائلاً واصل: إن مرتكب الكبيرة ليس كافراً ولا مؤمناً، بل هو في منزلة بين المنزلتين، ولما اعتزل واصل مجلس الحسن البصري وتبعه عمرو بن عبيد وتبعهما أنصارهما قيل لهم: معتزلة، أو معتزلون.

والمعتزلة أشد تأثيراً من غيرها من فرق أهل الكلام، إذ أصبحت مذهباً رسمياً أو شبه رسمي لدولة المأمون.

قال الإمام البيهقي: لم يكن في خلفاء بني أمية وبني العباس خليفة إلا على مذهب السلف ومناهجهم، فلما تولى المأمون الخلافة اجتمع به هؤلاء المعتزلة فحملوه على نفي الصفات والقول بخلق القرآن(٢).

وملخص هذه الفنتة: أن جماعة متطرفة من المعتزلة تمكنت من الخليفة المأمون بن هارون الرشيد، حتى أزاغوه عن المنهج السلفي الذي كان عليه الخلفاء ـ الأمويون والعباسيون ـ من قبله وأوقعوه في باطل من العقيدة، فزينوا له القول بخلق القرآن، ونفي صفات الله، والخوض في جميع المطالب الإلهية، معتمدين على عقولهم ومتبعين هواهم بكل جرأة، معرضين عن نصوص الكتاب والسنة، بل مستخفِّين بها وزاعمين أنها لا تفيد العلم، بل محاربين لها، وهي بدعة لم تعرف في الخلفاء الذين من قبله.

فأمر بإحضار علماء أهل السنة، وامتحنهم في نفي الصفات والقول بخلق القرآن، وكل من لم يستجب له فمصيره السجن أو القتل، واستمر هذا الحال في زمن المأمون ثم المعتصم ثم الواثق، فلم يتبق أحد من فقيه ولا محدث ولا مؤذن

---

(١) الباعث على إنكار البدع والحوادث (ص٣٤).

(٢) العقيدة الإسلامية لمحمد بن علي (ص٣٧).

حتى أخذ بالمحنة، فهرب كثير من الناس، وملئت السجون بمن أنكر المحنة، واستمرت حتى تولى الخلافة المتوكل. فأظهر الله السنة وفرج عن الناس.

قال الذهبي: «وفي سنة (٢٣٤هـ) أظهر المتوكل السنة، وزجر القول بخلق القرآن، وكتب بذلك إلى الأمصار، واستقدم المحدثين إلى سامرَّاء، وأجزل صلاتهم، ورووا أحاديث الرؤية والصفات»(١).

وقال ابن الجوزي: «وفي سنة (٤٥٨هـ) استتاب القادر بالله أمير المؤمنين فقهاء المعتزلة الحنفية، فأظهروا الرجوع وتبرؤوا من الاعتزال ثم نهاهم عن الكلام والتدريس والمناظرة في الاعتزال والرفض والمقالات المخالفة للإسلام وأخذ خطوطهم بذلك، وأعظم من خالفوه حل بهم من النكال والعقوبة ما يتعظ به أمثالهم»(٢).

رابعاً: المتكلمون ومزاحمتهم لأهل السنة ودعوى انتسابهم للسنة والجماعة:

بعد هزيمة علم الكلام على يد أئمة أهل السنة والجماعة أظهر الخليفة المتوكل السنة وزجر القول بخلق القرآن. فانتهت تلك الفتنة التي عرفت بالمحنة، فجدد إمام أهل السنة أحمد بن حنبل دعوته إلى السلفية، ولقبه أهل عصره بناصر السنة وقامع البدعة، وعرف بعد ذلك بإمام أهل السنة والجماعة.

والمقصود أن طائفة من المتكلمين(٣) ادعت أنها من أهل السنة والجماعة كالكلابية والأشعرية والماتريدية مع أنهم في بعض أصولهم على طريقة المعتزلة، فادعوا أنهم وحدهم هم أهل السنة والجماعة، بل ذكروا أن أبا حنيفة والشافعي ومالك من أئمة المتكلمين أهل السنة، وهذا افتراء؛ فإن هؤلاء أئمة أهل السنة، وقد حذروا من علم الكلام والاشتغال به، ففي ذلك يقول الإمام محمد بن خويز منداد: «أهل الأهواء عند مالك وسائر أصحابنا هم أهل الكلام، فكل متكلم فهو من أهل الأهواء والبدع أشعرياً كان أو غير أشعري..»(٤).

وكان مالك بن أنس يقول: «الكلام في الدين أكرهه، ولم يزل أهل السنة يكرهونه وينهون عنه»(٥).

وعن يونس بن عبد الله الأعلى قال: «سمعت الشافعي يقول: إذا سمعت

---

(١) سير أعلام النبلاء (١٢/ ٣٤).
(٢) المنتظم (٧/ ٢٨٧).
(٣) الفرق بين الفرق (ص٢٦)، وإضاءة الجنة (ص٣).
(٤) جامع بيان العلم وفضله (٢/ ١١٧).
(٥) جامع بيان العلم وفضله (ص٤١٥).

الرجل يقول: الاسم غير المسمى، أو الشيء غير الشيء فاشهد عليه بالزندقة»(١).

كما يقول الشافعي: «ما رأيت أحداً ارتدى شيئاً من الكلام فأفلح»(٢).

ويقول أبو عبد الله أحمد بن حنبل: «من تعاطى الكلام لم يفلح، ومن تعاطى الكلام لم يخل أن يتجهَّم»(٣).

وبعد القرن الرابع الهجري ظهر التقليد لأبي الحسن الأشعري وأبي منصور الماتريدي في الاعتقاد، وانتشر علم الكلام الأشعري في كثير من بلاد المسلمين، وتغلب المتكلمون وتصدروا في أماكن حساسة كالمدارس والقضاء والإفتاء والخطابة، فزاحمت المذاهب الكلامية مذهب أهل السنة.

ومضت القرون العديدة والمسلمون ينتسبون إلى أهل السنة والجماعة لا يعرفون سوى مذهبي الأشاعرة والماتريدية، وكانوا يعتقدون أن ما سوى هذين المذهبين باطل، وكان العارفون بمذهب السلف قليلين، لا يمكنهم إظهار ما يعتقدونه، اللهم إلا الخواص من أصحابهم، أو يكتبونه في مؤلفاتهم حتى جاء شيخ الإسلام أحمد بن تيمية الحراني ـ في القرن الثامن الهجري ـ ونشر مذهب السلف بعد تضلعه من العلوم العقلية والنقلية، وتحمل الأذى من خصومه، وقد حبس مراراً، حتى توفاه الله وهو مسجون في قلعة دمشق سنة (٧٢٨هـ).

ثم قام تلميذه العلامة ابن القيم رحمه الله ونشر الدعوة كشيخه، ومن قيام الشيخ بمذهب السلف وتوحيد العبودية، ونشره بين الناس، وكثرة تأليفه، تأثر كثير منهم، وعرفوا الحق ودانوا به، ولكن كانوا قليلين لا يستطيعون أن يجاهروا بذلك؛ لأن أكثرية العلماء والملوك من ورائهم ضد هذا المذهب السلفي.

حتى جاء القرن الثاني عشر وظهر الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله فقام بدعوته الإصلاحية، ونشر توحيد الألوهية والربوبية وتوحيد الأسماء والصفات، وألف الرسائل النافعة، وهدى الله به أهل نجد وكثيراً من غيرهم، وأيد الدعوة آل سعود الكرام وجرى ما جرى مما سجله التاريخ.

ومما سجله التاريخ أن المبتدعة كانوا يضطهدون كل عالم سلفي ومن كان

---

(١) مجموع الفتاوى (٦/ ١٨٧).
(٢) ذم الكلام (ق: ٢١٥).
(٣) الإبانة (٢/ ٥٣٨).

يعلن عقيدته السلفية يلقبونه بالوهابي تارة وبالمجسم تارة أخرى، وأحياناً يطلقون عليه لفظة كافر ومارق.

وفي العصر الحاضر ممن جدد الدين، ودعا إلى السنة علماء كثيرون منهم: الإمام محمد بن إبراهيم آل الشيخ، والعلامة الشيخ عبد العزيز بن باز، والإمام المحدث محمد بن ناصر الدين الألباني، والإمام الفقيه الشيخ محمد بن صالح العثيمين، والشيخ الدكتور تقي الدين الهلالي في المغرب، والعلامة أحمد شاكر، ومحمد الفقي ـ رحمهم الله ـ وغيرهم من أئمة أهل السنة ممن أظهروا السنة، ودعوا إلى مذهب السلف الصالح، فقد ألف هؤلاء كتباً نافعة في الدعوة إلى مذهب أهل السنة، والتحذير من المذاهب الباطلة.

٨ الخلاصة:

١ ـ بيَّن الإمام الطحاوي في هذه الرسالة عقيدة أهل السنة والجماعة على مذهب فقهاء الملة أبي حنيفة وصاحبيه.

٢ ـ ما ذكره المصنف رحمه الله تعالى في هذه العقيدة ليس مختصاً بالإمام أبي حنيفة وصاحبيه فقط، بل هو عقيدة أهل السنة.

٣ ـ اعتقاد الأئمة الأربعة أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد هو ما نطق به الكتاب والسنة، وما كان عليه الصحابة والتابعون لهم بإحسان، وليس بين هؤلاء الأئمة ـ ولله الحمد ـ نزاع في أصول اعتقاد.

٤ ـ مصطلح أهل السنة والجماعة مصطلح قديم، ويقصد به المتمسكون بسنة النبي ﷺ وأصحابه وتابعيهم، المتمسكون بما كان عليه جماعة المسلمين في الصدر الأول.

٥ ـ هناك أسماء أخرى لأهل السنة والجماعة، لكل منها دليله مثل: الفرقة الناجية، والطائفة المنصورة، والسلف الصالح وغير ذلك.

٦ ـ أهل السنة والجماعة لا يحصرهم مكان ولا زمان، إنما قد يكثرون في بلد ويقلون في آخر، وقد يكثرون في زمان ويقلون في زمان، لكنهم لا ينقطعون، ففيهم أعلام الهدى ومصابيح الدجى، وحجة الله على الخلق إلى أن تقوم الساعة، وبهم يتحقق وعد الله بحفظ الدين.

٧ ـ إن أهل السنة والجماعة وسط في كل أصولهم بين أهل الغلو والتطرف والإفراط، وبين أهل التقصير والتحليل والتفريط، فهم بين طرفي نقيض.

٨ - إن صفات أهل السنة وخصائصهم وسماتهم واضحة بينة؛ لأنهم أهل الحق، والحق ظاهر؛ ولأنهم أتباع السنة، والسنة محفوظة؛ ولأنهم الجماعة، والجماعة معصومة ما اتبعت الحق، فامتازت مناهج أهل السنة والجماعة في مسائل الدين بخصائص جعلتها أكثر موافقة للحق وإصابة له.

٩ - إن السلف لا يتلقون أمور دينهم إلا عن مشكاة النبوة.

١٠ - منهج أهل السنة والجماعة يقوم على التسليم المطلق لنصوص الكتاب والسنة.

١١ - ليس لأهل السنة إمام معصوم إلا رسول الله ﷺ.

١٢ - أهل السنة والجماعة لا يكفر بعضهم بعضاً، ولا يتبرأ بعضهم من بعض، وهذا من فضل الله تعالى عليهم.

١٣ - أهل السنة والجماعة متبعون لرسول الله ﷺ وأصحابه السابقين الأولين ظاهراً وباطناً.

١٤ - أهل السنة يرون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرضاً واجباً عليهم باليد واللسان والقلب، كل على حسب طاقته.

١٥ - يرى أهل السنة التسليم لنصوص الشرع وفهمها على مقتضى منهج السلف.

١٦ - منهج أهل السنة يقوم على الجمع بين النصوص المتعارضة ظاهراً في المسألة الواحدة، ورد المتشابه إلى المحكم.

١٧ - أهل السنة والجماعة أكثر الناس أمانة في العلم، وأحرصهم على التحلي بتلك الحلية.

١٨ - السلف الصالح لا يختلفون - بحمد الله - في أصل من أصول الدين وقواعد الاعتقاد، فقولهم في أسماء الله وصفاته وأفعاله واحد، وقولهم في الإيمان وتعريفه ومسائله واحد، وقولهم في القدر واحد، وهكذا في باقي الأصول.

١٩ - من منهج أهل السنة ترك الخصومات في الدين، ومجانبة أهل الخصومات.

٢٠ - يحرص أهل السنة على جمع كلمة المسلمين على الحق.

٢١ - وجوب لزوم مذهب أهل السنة والجماعة.

٢٢ - الصحابة رضي الله عنهم لم يحصل بينهم فرقة ولا اختلاف في أصول الدين.

٢٣ - إن كل من خالف السنة والجماعة فقد تسمى بغير الإسلام والسنة كأصحاب الأهواء والفرق الضالة من الخوارج والرافضة والجهمية والقدرية، والمرجئة والمعتزلة.

٩ المناقشة:

- **س١:** ما غرض الإمام الطحاوي من تأليف هذه الرسالة؟
- **س٢:** هل العقيدة التي قررها الطحاوي خاصة بالإمام أبي حنيفة وصاحبيه؟
- **س٣:** ترجم بإيجاز لكل من الإمام أبي حنيفة وصاحبيه.
- **س٤:** أوضح أن الأئمة الأربعة كانوا على عقيدة واحدة.
- **س٥:** ما المراد بأهل السنة والجماعة؟ وما سبب تسميتهم بذلك؟
- **س٦:** عدِّد بعضاً من ألقاب أهل السنة وأسمائهم، مع وجه التسمية بذلك.
- **س٧:** هل هناك ضرورة للتسمي باسم أهل السنة؟ وهل هم محصورون في مكان أو زمان؟
- **س٨:** اذكر أصول مذهب أهل السنة والجماعة.
- **س٩:** ما المقصود بقولنا: «أهل السنة والجماعة وسط في كل أصولهم»، وضح ذلك مع التمثيل.
- **س١٠:** عدِّد صفات وخصائص أهل السنة والجماعة.
- **س١١:** بيِّن وجوب لزوم مذهب أهل السنة والجماعة.
- **س١٢:** متى ظهر مبدأ مخالفة أهل السنة والجماعة من أهل الأهواء والبدع؟
- **س١٣:** تكلم حول فتنة المعتزلة وتعذيبهم أئمة أهل السنة والجماعة.



توضيح مقدمة ابن أبي العز
مقدمات في الاعتقاد

* كلام ابن أبي العز:

١ ـ غرض الشارح ابن أبي العزم من عقد هذه المقدمة.

٢ ـ معاني الكلمات.

٣ ـ أسماء هذا العلم وألقابه.

٤ ـ معنى العقيدة.

٥ ـ أهمية العقيدة الطحاوية وشرح ابن أبي العز.

٦ ـ تعريف علم التوحيد.

٧ ـ مكانة علم التوحيد بين العلوم.

٨ ـ الأدلة على علو علم التوحيد وشرفه.

٩ ـ معنى أصول الدين بين السلف والمتكلمين.

١٠ ـ وجه تسمية علم التوحيد بالفقه الأكبر.

١١ ـ مصادر أهل السنة والجماعة في تلقي العقيدة.

١٢ ـ قواعد أهل السنة وسمات منهجهم في تقرير العقيدة.

١٣ ـ القرآن والسنة وحي من الله ﷻ.

١٤ ـ الكتاب والسنة حويا أصول الدين وفروعه.

١٥ ـ حاجة الناس إلى الوحي.

١٦ ـ منزلة العقل في الإسلام.

١٧ ـ هل تستقل العقول بمعرفة التوحيد؟

١٨ ـ أعرف الناس بالله ﷻ.

١٩ ـ معرفة الله ﷻ عند أهل التوحيد.

٢٠ ـ الأصلان التابعان للتوحيد.

٢١ ـ حكم تعلم علم التوحيد.

٢٢ ـ هل ما يجب على الأعيان متنوع أم متفق؟.

٢٣ ـ الخلاصة.

٢٤ ـ المناقشة.

مقدمات في الاعتقاد

قال ابن أبي العز:

بسم الله الرحمٰن الرحيم، حسبي الله ونِعم الوكيل.

الحمد لله نحمده، ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده اللهُ، فلا مضِلَّ لَه، ومن يُضْلِل، فلا هادي له.

وأشهدُ أن لا إلٰهَ إلا اللهُ وحده لا شريك له، وأشهدُ أنَّ سيِّدَنا محمَّداً عبدُه ورسولُه، صلّى اللهُ عليه وعلى آله وصحبه، وسلَّم تسليماً كثيراً.

أما بعدُ، فإنّه لمَّا كان علمُ أصولِ الدينِ[١] أشرفَ العُلومِ، إذ شَرَفُ العِلمِ بشرَفِ المعلوم، وهو الفِقهُ الأكبرُ بالنسبةِ إلى فقهِ الفروعِ، ولهذا سمَّى الإمامُ أبو حَنيفةَ رحمة الله عليه ما قالَهُ وجَمَعَهُ في أوراقٍ مِنْ أصولِ الدِّينِ: «الفقه الأكبر»، وحاجةُ العبادِ إليه فَوقَ كُلِّ حاجةٍ، وضرورتُهُم إليه فَوْقَ كُلِّ ضرورة؛ لأنَّه لا حياةَ للقلوبِ، ولا نَعيمَ ولا طُمأنينةَ إلَّا بأن تَعْرِفَ ربَّها ومَعْبُودَها وفاطِرَها بأسمائِه وصِفاتِه وأفعالِه، ويكونَ مع ذلك كُلِّه أَحَبَّ إليها مِمَّا سِواهُ، ويكونَ سعيُها فيما يُقرِّبها إليهِ دُونَ غيرِه من سائرِ خلقه.

ومن المُحال أنْ تَسْتَقِلَّ العقولُ بمعرفة ذلك وإدراكِه على التفصيل، فاقْتَضَتْ رحمةُ العزيزِ الرحيم أَنْ بَعَثَ الرُّسلَ به معرِّفِينَ، وإليهِ داعينَ، ولمن أجابَهم مبشِّرينَ، ولمن خالَفَهُم مُنْذِرينَ، وجَعَلَ مِفْتَاحَ دعوتهم، وزُبدَةَ رِسالتهم معرفَة المعبود سبحانه بأسمائِهِ وصفاتِه وأفعالِه؛ إذ على هذه المعرفةِ تُبْنَى مطالِبُ الرسالةِ كُلُّها مِن أوَّلها إلى آخرها.

ثُمَّ يَتْبَعُ ذلك أصلانِ عظيمان:

---

(١) تقسيم الدين إلى أصول وفروع، وإطلاق الأصول على علم العقيدة والفروع على الفقه خطأ ليس بصحيح (انظر: تفصيل ذلك في ص٦١).

أحدهما: تَعْرِيفُ الطريقِ المُوصِلِ إليهِ، وهي شَرِيعتُهُ المُتضمِّنَةُ لأمره ونهيه.

والثاني: تعريفُ السالِكين ما لهم بَعْدَ الوصولِ إليه من النعيمِ المقيم.

فأَعْرَفُ الناس بالله ﷺ أَتْبَعُهُمْ لِلطريقِ الموصلِ إليه، وأعرفُهم بحَالِ السَّالِكِينَ عندَ القُدُوم عليه، ولهذا سمَّى اللهُ ما أنزله على رسولِه رُوحاً، لتوقُّفِ الحياةِ الحقيقيَّةِ عليه، ونُوراً لتوقُّفِ الهدايةِ عليه، فقال الله تعالى: ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [غافر: ١٥]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾ [الشورى: ٥٢ ـ ٥٣]، فلا رُوحَ إلا فيما جاءَ به الرسولُ، ولا نورَ إلا في الاستضاءَةِ به.

وسمَّاه «الشِّفاء» كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ﴾ [فصلت: ٤٤]. فهو ـ وإن كان هُدًى وشفاءً مطلقاً ـ لكنْ لمَّا كان المُنْتَفِعُ بذلك هُمُ المؤمنينَ، خُصُّوا بالذِّكر.

والله تعالى أرسلَ رسولَه بالهُدى ودينِ الحقِّ، فلا هُدَى إلا فيما جاءَ به.

ولا رَيْبَ أنه يَجِبُ على كُلِّ أحدٍ أن يُؤْمِنَ بما جاءَ به الرسولُ إيماناً عامّاً مُجْمَلاً، ولا ريبَ أنَّ معرفة ما جاءَ به الرسولُ على التفصيل فَرْضٌ على الكِفاية، فإنّ ذلك داخلٌ في تبليغ ما بَعث اللهُ به رسولَه، وداخِلٌ في تدبُّر القرآن وعَقْلِهِ وفَهمِهِ، وعلمِ الكتاب والحكمةِ، وحِفْظِ الذِّكر، والدُّعاءِ إلى الخير، والأمرِ بالمعروف، والنَّهيِ عن المنكر، والدُّعاءِ إلى سبيلِ الربِّ بالحِكمة والموعظَة الحَسَنة، والمُجادلةِ بالتي هي أحسنُ ونحوِ ذلك ممَّا أَوجبَه اللهُ على المؤمنينَ، فهو واجبٌ على الكِفاية منهم.

وأما ما يجبُ على أعيانهم، فهذا يتنوَّعُ بتنوُّعِ قُدَرِهم، وحاجتِهم ومَعْرِفَتِهِمْ، وما أُمِرَ به أعيانُهم، ولا يَجِبُ على العاجز عن سَماعِ بعض العلم، أو عن فَهم دقيقه ما يجبُ على القادر على ذلك.

ويجب على من سَمِعَ النصوصَ وفَهِمَهَا مِنْ علم التفصيلِ ما لا يَجِبُ على مَن لم يَسْمَعْها، ويجب على المفتي والمحدِّث والحاكمِ ما لا يَجِبُ على مَنْ ليس كذلك.



عناصر الموضوع:

(١) غرض الشارح ابن أبي العز من عقد هذه المقدمة:

يتبين من خلال كلام الشيخ أنه أراد بمقدمته هذه أموراً هي:

أ ـ بيان أن علم التوحيد من أشرف العلوم، وأن حاجة الناس لمعرفته فوق كل حاجة، وأن العقول قاصرة عن معرفة التفصيل.

ب ـ بيان أسباب الضلال في هذا الباب، وانتشار الخلاف بعد عهد النبوة، وكثرة البدع، لكن هناك طائفة هي على الحق، وهي أهل السنّة والجماعة.

ج ـ قرّر الإمام الطحاوي عقيدة أهل السنّة والجماعة على مذهب فقهاء الملة أبي حنيفة النعمان بن ثابت، وأبي يوسف يعقوب بن إبراهيم الأنصاري، وأبي عبد الله محمد بن الحسن الشيباني؛ فشرحها ابن أبي العز متبعاً طريقة السلف ـ رحمهم الله تعالى ـ.

(٢) معاني الكلمات:

الكلمة	المعنى
الحمد	هو الثناء على الله بصفات الكمال وبفعاله الدائرة بين الفضل والعدل.
نستعينه	أي نخصه وحده بالاستعانة، والاستعانة هي الاعتماد على الله في جلب المنافع ودفع المضار.
نستغفره	نخصه وحده بالاستغفار.
نعوذ	نخصه وحده بالاستعاذة، فنلجأ إليه ونعتصم ونلوذ به.
من يهده الله	الهداية: هي توفيق الله للعبد بفعل الخيرات والعصمة من المكروهات.
ومن يضلل	الله سبحانه وتعالى هو المنفرد بالهداية والإضلال، فهو الذي يهدي من يشاء ويلهمه الخير، ويخذل العبد ويمنعه من الخير.
أشهد	بمعنى أُقر وأعترف وأصدق بقلبي ناطقاً بلساني.

الكلمة	المعنى
ضرورة	الضرورة: والعلم الضروري علم يحصل للإنسان بدون اختياره كالعلم بالبرودة والحرارة والإحساس بالألم والحزن والسرور؛ بحيث لا يستطيع الإنسان أن يدفعه أو يشك فيه، وقد يقال له: «العلم البديهي». غير أن «العلم البديهي» قد يكون اكتسابياً حاصلاً من النظر والاستدلال.
فاطرها	خالقها على غير مثال سابق.
المحال	ما يمتنع وجوده، كاجتماع الحركة والسكون في جزء واحد(١).
الصفة	هي حالة الشيء على ما هو عليه(٢).
السالكين	السائرين في الطريق الموصلة إلى الله ﷻ.
واجب على الكفاية	إذا فعله البعض سقط الفرض عن الباقين.
واجب على الأعيان	هو ما توجه فيه الطلب اللازم إلى كل مكلف.
السلف	السلف باعتبار الزمن هم أصحاب القرون المشهود لها بالخير، والمراد من السلف هم الصحابة والتابعون وأتباعهم، ومن بعدهم من أئمة الدين والسنّة كأحمد بن حنبل ومالك والشافعي والبخاري والثوري والأوزاعي وأمثالهم وهم أئمة الفرقة الناجية الطائفة المنصورة، وهم رؤوس أصحاب الحديث، وهم وأتباعهم أهل السنّة المحضة(٣).

٣ أسماء هذا العلم وألقابه:

لهذا العلم عدة مسميات(٤) وألقاب هي ما يلي:

أ ـ التوحيد: وهو من باب تسمية الشيء بأشرف أجزائه؛ لأن توحيد الله ﷻ هو أشرف مباحث هذا العلم، وسائر مباحث هذا العلم تعتمد عليه، فهو أساسها وجوهرها.

ب ـ الإيمان: يطلق الإيمان(٥) ويراد به مسائل الاعتقاد، وبهذا فسّره النبي ﷺ في حديث جبريل المشهور، حيث سُئِلَ النبي ﷺ عن الإيمان، فقال: **(الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره)**(٦).

ج ـ السنّة: تطلق السنّة في الأصل وتقع على ما كان عليه رسول الله ﷺ، وما سنّه

---

(١) التعريفات (ص٢٠٥). (٢) التعريفات (ص٣٢٦).
(٣) الميزان (١/٤)، اللسان (١/٨)، درء التعارض (٤/٩٥).
(٤) مقدمات في الاعتقاد للقفاري (ص٥ ـ ١١).
(٥) مقدمات في الاعتقاد للقفاري (ص٧). (٦) أخرجه مسلم (٨).

أو أمر به من أصول الدين وفروعه، ثم خصّ بما كان عليه السلف في باب الاعتقاد.

د ـ **العقيدة**: وهي من باب: عقد قلبه على الشيء ولزمه[(١)].

ولقد ورد لفظ العقيدة في السنّة من حديث زيد بن ثابت عن النبي ﷺ قال: **(نضّر الله امرءاً سمع مني حديثاً...)** إلى أن قال: **(لا ينعقد قلب مسلم على ثلاث خصال إلا دخل الجنة)**[(٢)].

وكذا ورد عن السلف من حديث عائشة رضي الله عنها في تفسير قوله تعالى: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٥] وفيه قالت: هم القوم يتدارؤُون في الأمر، فيقول هذا: لا والله، وبلى والله، وكلا والله، يتدارؤون فيه لا تعقد عليه قلوبهم.

هـ ـ **الفقه الأكبر**: يطلق ويراد به مسائل التوحيد والاعتقاد تمييزاً له عن الفقه الأصغر الذي هو في الفروع.

٤ معنى العقيدة:

العقيدة: مجموعة من قضايا الحق البدهية المسلَّمة بالعقل والسمع والفطرة يعقد عليها الإنسان قلبه، ويثني عليها صدره جازماً بصحتها، قاطعاً بوجودها وثبوتها، لا يرى خلافها أنه يصح أو يكون أبداً.

٥ أهمية العقيدة الطحاوية وشرح ابن أبي العز:

العقيدة هي أساس الدين، وهي مضمون شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، والركن الأول من أركان الإسلام، فيجب الاهتمام والعناية بها، ومعرفتها، ومعرفة ما يخل بها، حتى يكون الإنسان على بصيرة، وعلى عقيدة صحيحة؛ لأنه إذا قام الدين على أساس صحيح صار ديناً قيّماً مقبولاً عند الله، وإذا قام على عقيدة مهزوزة ومضطربة، أو عقيدة فاسدة، صار فاسداً، مردوداً غير صحيح، وعلى غير أساس، ومن ثم كان العلماء ـ رحمهم الله ـ يهتمون بأمر العقيدة، ولا يفترون عن بيانها في الدروس وفي المناسبات، ويرويها المتأخر عن المتقدم.

كان الصحابة رضي الله عنهم ليس عندهم أي شك فيما جاء به القرآن وما جاءت به سنّة رسول الله ﷺ، فكانت عقيدتهم مبنية على كتاب الله وسنّة رسول الله ﷺ، ولا

---

(١) لسان العرب (٤/ ٣٠٣٢).

(٢) رواه الدارمي في السنن (٣٢٥)، وحسّنه الشيخ عبد المحسن البدر.

يعتريهم في ذلك شكٌ ولا توقف، فما قاله الله وقاله رسوله ﷺ اعتقدوه ودانوا به، ولم يحتاجوا إلى كتابة تأليف؛ لأن هذا مسلَّم به عندهم ومقطوع به، ثم درج على ذلك تلاميذهم من التابعين الذين أخذوا عنهم، فلم يكن هناك أخذ ورد في العقيدة، كانت قضية مسلمة، وكان مرجعهم الكتاب والسنّة.

فلما ظهرت الفِرَق والاختلافات، ودخل في الدين من لم ترسخ العقيدة في قلبه، أو دخل في الإسلام وهو يحمل بعض الأفكار المنحرفة، ونشأ في الإسلام من لم يرجع إلى الكتاب ولا إلى السنّة في العقيدة، وإنما يرجع إلى قواعد ومناهج أصَّلها أهل الضلال من عند أنفسهم، عند هذا احتاج أئمة الإسلام إلى بيان العقيدة الصحيحة وتحريرها وكتابتها وروايتها عن علماء الأمة، فدوّنوا كتب العقائد، واعتنوا بها، وصارت مرجعاً لمن يأتي بعدهم من الأمة إلى أن تقوم الساعة.

وهذا من حفظ الله تعالى لهذا الدين، وعنايته به، حيث قيّض له حملة أمناء يبلغونه كما جاء عن الله وعن رسوله، ويردّون تأويل المبطلين وتشبيه المشبهين، وصاروا يتوارثون هذه العقيدة خلفاً عن السلف.

ومن جملة السلف الصالح الذين كانوا على الاعتقاد الثابت عن رسول الله ﷺ وأصحابه والتابعين: الأئمة الأربعة: الإمام أبو حنيفة، والإمام مالك، والإمام الشافعي، والإمام أحمد، وغيرهم من الأئمة الذين قاموا بالدفاع عن العقيدة وتحريرها، وبيانها وتعليمها للطلاب.

وكان أتباع الأئمة الأربعة يعتنون بهذه العقيدة، ويتدارسونها ويحفِّظونها لتلاميذهم، وقد كتبوا فيها الكتب الكثيرة على منهج الكتاب والسنّة، وما كان عليه المصطفى ﷺ وأصحابه ﷺ والتابعون، وردوا العقائد الباطلة والمنحرفة، وبيّنوا زيفها وبطلانها، وكذلك أئمة الحديث: كإسحاق بن راهويه، والبخاري، ومسلم، والإمام ابن خزيمة، والإمام ابن قتيبة، ومن أئمة التفسير: كالإمام الطبري، والإمام ابن كثير، والإمام البغوي، وغيرهم.

وألّفوا في هذا مؤلفات يسمونها بكتب السنّة، مثل: كتاب «السنّة» لابن أبي عاصم، وكتاب «السنّة» لعبد الله بن أحمد بن حنبل، و«السنّة» للخلّال، و«الشريعة» للآجري، وغير ذلك.

ومن جملة هؤلاء الأئمة الذين كتبوا في عقيدة السلف: الإمام أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة الأزدي الطحاوي، من علماء القرن الثالث الهجري

بمصر، وسمي بالطحاوي نسبة لبلدة في مصر، فكتب هذه العقيدة المختصرة النافعة المفيدة.

وكتبت عليها حوالي سبعة شروح، ولكن لا تخلو من أخطاء؛ لأن الذين ألفوها كانوا على منهج المتأخرين، فلم تخل شروحهم من ملاحظات ومخالفة لما في عقيدة الطحاوي، إلا شرحاً واحداً فيما نعلم، وهو شرح العز بن أبي العز رحمه الله، المشتهر بـ«شرح الطحاوية»، وهذا من تلاميذ ابن كثير فيما يظهر، وقد ضمن شرحه هذا نقولات من كتب شيخ الإسلام ابن تيمية، ومن كتب ابن القيم، ومن كتب الأئمة، فهو شرح حافل، وكان العلماء يعتمدون عليه ويعتنون به؛ لنقاوته وصحة معلوماته، فهو مرجع عظيم من مراجع العقيدة.

والمؤلف ـ كما ذكر ـ ألّف هذه العقيدة على مذهب أهل السنّة عموماً، ومنهم الإمام أبو حنيفة النعمان بن ثابت الكوفي، فهو أقدم الأئمة الأربعة، وأدرك التابعين وروى عنهم.

وكذلك صاحباه أبو يوسف، ومحمد الشيباني، وأئمة المذهب الحنفي، ذكر عقيدتهم، وأنها موافقة لمذهب أهل السنّة والجماعة، وفي هذا ردّ على المنتسبين إلى الحنفية في الوقت الحاضر أو في العصور المتأخرة، حيث ينتسبون إلى الحنفية ويخالفون أبا حنيفة في العقيدة، فهم يمشون على مذهبه في الفقه فقط، ويخالفونه في العقيدة، فيأخذون عقيدة أهل الكلام والمنطق، وكذلك حدث في الشافعية المتأخرين منهم يخالفون الإمام الشافعي في العقيدة، وإنما ينتسبون إليه في الفقه، كذلك كثير من المالكية المتأخرين ليسوا على عقيدة الإمام مالك، لكنهم يأخذون من مذهب مالك في الفقه فقط، أما العقيدة فهم أصحاب طرق وأصحاب مذاهب متأخرة.

ففي هذه العقيدة ردّ على هؤلاء وأمثالهم ممن ينتسبون إلى الأئمة، ويتمذهبون بمذاهب الأئمة الأربعة، ويخالفونهم في العقيدة، كالأشاعرة: ينتسبون إلى الإمام أبي الحسن الأشعري في مذهبه الأول، ويتركون ما تقرر واستقر عليه أخيراً من مذهب أهل السنّة والجماعة، فهذا انتساب غير صحيح؛ لأنهم لو كانوا على مذهب الأئمة لكانوا على عقيدتهم[١].

(١) التعليقات المختصرة على العقيدة الطحاوية للعلامة الشيخ صالح الفوزان (ص٢٣ ـ ٢٨).

٦ تعريف علم التوحيد:

هو علم يقتدر به على إثبات العقائد الدينية، مكتسب من أدلته اليقينية؛ يعني من الأدلة النقلية الصحيحة المفيدة للعلم، ومن البراهين العقلية، واستمداده من القرآن والحديث الصحيح والإجماع والنظر[١].

٧ مكانة علم التوحيد بين العلوم:

إن علم التوحيد من أجلِّ العلوم وأشرفها؛ لأن شرف العلم بشرف المعلوم؛ أي منزلة كل علم إنما تكون على حسب الموضوع الذي يبحث فيه هذا العلم، ولأن علم التوحيد يتعلق بذات الله وأسمائه وصفاته وأفعاله وقدره وشرعه، ولأن حاجة الناس إليه فوق كل حاجة وضرورتهم إليه فوق كل ضرورة، ولا قوام للناس إلّا به.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «حاجة العبد إلى الرسالة أعظم بكثير من حاجة المريض إلى الطب، فإن آخر ما يقدر بعدم الطبيب موت الأبدان، وأما إذا لم يحصل للعبد نور الرسالة وحياتها مات قلبه موتاً لا ترجى الحياة معه أبداً، أو شقي شقاوة لا سعادة معها أبداً»[٢].

٨ الأدلة على علوّ علم التوحيد وشرفه:

دلّ على كون علم التوحيد أشرف العلوم الخبر والإجماع والنظر، أما الخبر فالنصوص كثيرة في السنّة، منها ما أخرجه البخاري ومسلم في «صحيحيهما» عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ لما أرسل معاذ بن جبل إلى اليمن قال له: (**ادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إلٰه إلّا الله وأني رسول الله فإن هم فعلوا ذلك، فأخبرهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في يوم وليلة..**) الحديث[٣]، فيه دلالة واضحة على تقديم الاهتمام بالتوحيد والعقيدة على جميع المعلومات والعلوم، والنبي ﷺ مشرِّع آمر معاذ بن جبل وهو ذاهب إلى أهل اليمن داعياً إلى الله.

وأما دلالة الإجماع: فقد حكى الإجماع على تقديم التوحيد علىٰ غيره من العلوم والأحكام وأنه أهم العلوم غير واحد من العلماء منهم: ابن بطة العكبري

(١) العقائد السلفية بأدلتها النقلية والعقلية (١/ ١٧).
(٢) مجموع الفتاوى (١٩/ ٩٦ ـ ٩٧)، وانظر مفتاح دار السعادة (١/ ٢٩١ و٣١١).
(٣) أخرجه البخاري (١٣٣٩)، ومسلم (١٩).

في «الإبانة الكبرى»، وكذلك اللالكائي في: «شرحه لأصول اعتقاد أهل السنّة والجماعة»، وكذا شيخ الإسلام في محال من كتبه، وجماعة.

وأما دلالة النظر: فهي أن أصول الدين ـ أي: التي تتعلق بباب الاعتقاد ـ هو منجية لصاحبها من جهنم، ولو دخلها الموحد لذنب أو خطيئة فإن مآله إلى الجنة، خلافاً لبقية المعارف والعلوم فإنها لا تحقق هذه الغاية، وعلى ذلك جرى الاتفاق[1].

٩ معنى أصول الدين بين السلف والمتكلمين:

إن مصطلح أصول الدين اصطلاح حادث عند الأئمة ـ يرحمهم الله ـ وهو تقسيم الدين إلى شقين اثنين:

الأول: ينعت بأصول الدين.

الثاني: يوصف بفروع الدين.

وحجة المقسِّمين فيه شيئان:

أما الأول: فهو دلالة الاتفاق والإجماع المحكي، وقد حكى الإجماع على ذلك النووي في كتابه «المنهاج في شرح صحيح ابن الحجاج»، وكذا حكاه الجصَّاص في كتابه «الفصول».

وأما الثاني: فهو دليل النظر، حيث إن الناظر إلى مفردات الدين يجد منها ما هو أصل في الديانة، والاستمساك به منجٍّ من النار، ومنها ما هو دون ذلك ـ أي: أنه من جنس الفروع ـ، ومن ثَمَّ يكون التفريق بين هذين الجنسين من حيث النظر والعقل.

فهذان دليلان يوجبان صحة القسمة السابقة.

وذهب جماعة إلى عدم صحة هذه القسمة، منهم شيخ الإسلام ابن تيمية يرحمه الله، فقد أنكرها وجعلها اصطلاحاً حادثاً غير معروف في كتاب الله ولا في سنّة رسوله ﷺ ولا عند السلف من صحبٍ وتابعين في مواضع عدة من كتبه، ومنها «منهاج السنّة النبوية» و«درء التعارض» و«المجموع».

وقال ـ يرحمه الله ـ: «هو اصطلاح منكر حادث غير معروف في لسان الشرع، ولا في لسان أصحاب النبي ﷺ، ولا في لسان أتباعهم، ولا يعرفه الأئمة»، ثم

(١) الحواشي التوضيحية (ص٣).

ذكر شيخ الإسلام ـ يرحمه الله ـ وتبعه على ذلك ابن القيم في «الصواعق المرسلة» أن هذه القسمة تولدت أصالة عند أهل بدعة وهوى، كالمعتزلة والجهمية ومن نحا نحوهم، وقد قرر شيخ الإسلام أن أول من ولَّد هذه القسمة هم المعتزلة، ثم بعد ذلك تبعهم الناس وأخذوا بذلك المصطلح.

ويرد على ذلك الدليلين بأن الإجماع غير صحيح؛ لأن الإجماع ليس نطقياً ولا سكوتياً، وحاكي الإجماع ـ الذي هو النووي ـ قد خالف ذلك في بعض كتبه، فحكى عن بعضهم أنه خالف، ولذلك يقول شيخ الإسلام: «فليس ثمة اتفاق على الاصطلاح والقسمة، فهو شيء حادث لا يعرفه الأولون». وأما دليل النظر فمسلَّم به على جهة التبعية لا الاستقلال خصوصاً فيما ينبني عليه من أحكام شرعية، فالنظر والعقل هو دليل تابع للخبر والنقل، لا يستقل خصوصاً إذا رتبت عليه أحكام شرعية[١].

(١٠) وجه تسمية علم التوحيد بـ«الفقه الأكبر»:

أما نعت هذا العلم بـ«الفقه الأكبر»، وهو علم أصول الدين والاعتقاد، فإن الإمام أبا حنيفة النعمان ـ عليه من الله الرضوان ـ قد صنّف في ذلك رسالة تنسب إلى اسمها: «الفقه الأكبر»، ثم تبعه على هذه التسمية آخرون، وينسب إلى الإمام الشافعي المطلبي ـ يرحمه الله ـ كتاب اسمه «الفقه الأكبر».

ووجه هذه التسمية: أن الفقه فقهان: فقه أكبر يتعلق بأصول الديانة، وآخر أصغر يتعلق بفروعها، وأول محدث لهذا الاصطلاح من باب تسمية الاعتقاد به: هو الإمام أبو حنيفة[٢].

أما من حيث الرواية فسند كتابي «الفقه الأكبر» و«الفقه الأوسط» إلى أبي حنيفة لا يثبت، وأما من حيث الدراية فكل ما جاء في هذين الكتابين موافقاً لما نقله الطحاوي عن أبي حنيفة فهو مقبول، وكل ما خالف ذلك فمردود[٣].

(١١) مصادر أهل السنّة والجماعة في تلقي العقيدة:

مصادر تلقي العقيدة عند أهل السنّة والجماعة هي:

أ ـ الكتاب.

---

(١) منهاج السنة (٥/ ٨٧، ٨٨)؛ والفتاوى ٣٣/ ٣٤٦. الحواشي التوضيحية (ص٣، ٤، ٥).

(٢) انظر: الحواشي التوضيحية (ص٥، ٦).

(٣) انظر: كتاب أصول الدين عند أبي حنيفة (ص١٤٢، ١٤٣).

ب ـ السنّة.

ج ـ الإجماع.

وفي هذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «فمن قال بالكتاب والسنّة والإجماع فهو من أهل السنّة والجماعة»[(١)].

ويقول الإمام البيهقي: «فأما أهل السنّة فمعولهم فيما يعتقدون الكتاب والسنّة»[(٢)].

١٢ قواعد أهل السنّة وسمات منهجهم في تقرير العقيدة:

لأهل السنّة والجماعة سمات في تقرير العقيدة يتميزون بها عن غيرهم وهي:

أ ـ الاعتماد على الكتاب والسنّة في تقرير جميع مسائل الاعتقاد سواء كانت كلية أو جزئية، أصلية أو فرعية.

ب ـ اتباع سلف الأمة من الصحابة والتابعين والذين اتبعوهم بإحسان.

ج ـ الحذر من البدع وأهلها.

قال الآجري ـ رحمه الله تعالى ـ: «باب الحث على التمسُّك بكتاب الله تعالى وسنّة رسوله ﷺ وسنّة أصحابه ﷺ، وترك البدع، وترك النظر والجدال فيما يخالف فيه الكتاب والسنّة وقول الصحابة ﷺ»[(٣)].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «ثم من طريق أهل السنّة والجماعة اتباع آثار الرسول ﷺ باطناً وظاهراً، واتباع سبيل السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار واتباع وصية رسول الله ﷺ حيث قال: (**عليكم بسنتي وسنّة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، تمسّكوا بها، وعضُّوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور؛ فإن كل بدعة ضلالة**)[(٤)]، ويعلمون أن أصدق الكلام كلام الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، ويؤثرون كلام الله على غيره من كلام أصناف الناس، ويقدمون هدي محمد ﷺ على هدي كل أحد»[(٥)].

١٣ القرآن والسنّة وحي من الله ﷻ:

القرآن والسنّة كلاهما وحي من الله ـ جلّ وعلا ـ، فلا يمكن أن يكون فيهما

---

(١) مجموع الفتاوى (٣/ ٣٤٦).

(٢) مناقب الشافعي للبيهقي (ص٤٦٢)، وانظر: مقدمات في الاعتقاد (ص٣٣).

(٣) الشريعة (١/ ١٧٠).

(٤) أخرجه أبو داود في السنن (٤/ ٢٠١).

(٥) العقيدة الواسطية (ص٢٨).

ما هو متعارض أو متناقض؛ فهو تنزيل الحكيم الحميد، ومن زعم أن بين السنّة والقرآن تعارضاً فقد ضلّ وأخطأ، ومن زعم أنه يأخذ القرآن دون السنّة فقد ضلّ ضلالاً مبيناً، دلّ على ذلك قول النبي ﷺ: **(ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه، ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه، ألا يوشك رجل ينثني شبعان على أريكته يقول: عليكم بالقرآن، فما وجدتم فيه من حلال فأحلّوه، وما وجدتم فيه من حرام فحرّموه)**[1].

١٤ الكتاب والسنّة حويا أصول الدين وفروعه:

حوى القرآن أصول الدين وفروعه وكذا السنّة، ففيها تبيان لكل شيء حتى آداب الأكل والشرب والجماع، فمن المحال في العقل والدين أن يكون النبي ﷺ قد ترك باب الإيمان بالله تعالى والعلم به ملتبساً مشتبهاً على المؤمنين، فإن معرفة ذلك هو أصل الدين وأساس الهداية[2].

١٥ حاجة الناس إلى الوحي:

إن حاجة العباد إلى معرفة ربّ العباد أسماءً وصفات وأفعالاً فوق كل الحوائج، بل حاجتهم إليه لا تُقاس بأي حاجة أخرى، يقول شيخ الإسلام ـ كما في «المجموع» ـ: «لا قياس بين حاجة العباد إلى الله وبين أي حاجة، بل هي فوق كل شيء»، وما ذلك إلا لأن الله ﷻ هو الخالق، وهو المدبر لأمور الخلق، وهو القائم على خلقه، وهو الملجأ لجميع الخلق، وهو المعبود ﷻ، وإليه المعاد. وهذه معانٍ تؤكد أن حاجة العباد إلى الله أشد من جميع الحوائج. يقول ابن القيم ـ يرحمه الله ـ كما في «الصواعق المرسلة» ـ: «أجمع العقلاء والعالمون وغيرهم على أن حاجة العباد إلى الله ضرورية لا تُقاس بغيرها»[3].

١٦ منزلة العقل في الإسلام:

لقد كرّم الله ﷻ الإنسان وميّزه بالعقل، ليتدبّر ويتفكّر في ملكوت السماوات والأرض، وليميز به الخبيث من الطيب، والنافع من الضار.

وهذا وللناس من العقل مواقف ثلاثة:

أ ـ موقف الوسطية: وهو نهج السلف، حيث أنزلوا العقل منزلته الصحيحة

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٤/ ١٣١). (٢) انظر: مجموع الفتاوى (٥/ ٦ ـ ٧).

(٣) الحواشي التوضيحية (ص٨).

التي هي النظر في الآيات الكونية والموازنة بين الأشياء، دون تقديم له على النقل؛ بل من أعظم قواعد السلف: «تقديم النقل على العقل»، أي: أن النصوص الشرعية هي الأصل والعقل تابع لها.

وكل ما جاء في الكتاب والسنّة من عقائد وتشريعات لا يتعارض مع العقل السليم الذي بقي على فطرته.

ب ـ **موقف الجمود والتعطيل**: فلا يقيمون للعقل وزناً، ولا يستخدمونه في التفكُّر والتدبُّر.

ج ـ **موقف الغلو والإفراط**: حيث بالغوا في الاعتماد على العقل، فجعلوه مصدراً للتشريع، فما استحسنه العقل فهو حسن، وما استقبحه العقل فهو قبيح، وإن خالف الكتاب والسنّة.

والأول هو المذهب الحق الذي يجب اتباعه، وما سواه فشاذ.

ومن خلال المذهبين الأخيرين انتشرت البدع، وظهرت الفتن، وتمزّق شمل الأمة، وحرّفت النصوص.

ولا مجال للعقل في إدراك الأمور الغيبية، وكذا إذا صحّ الخبر، ورضي الله عن عمر إذ قال حين تقبيله الحجر الأسود مقالة الحصيف: «**إني لأعلم أنك حجر لا تضرّ ولا تنفع، ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ يقبّلك ما قبّلتك**»[(١)][(٢)].

(١٧) هل تستقل العقول بمعرفة التوحيد؟:

العقول البشرية عاجزة عن معرفة التوحيد والاعتقاد على وجه التفصيل؛ لذا أرسل الله الرسل إليه داعين وبتوحيده معرّفين.

قال السفاريني: «لو كانت العقول مستقلة بمعرفة الحق وأحكامه لكانت الحجة قائمة على الناس قبل بعث الرسل وإنزال الكتب، واللازم باطل بالنص: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥] فكذا الملزوم»[(٣)].

(١٨) أعرف الناس بالله ﷻ:

أعرف الناس بالله هم الذين عرفوا الله بما عرّف به نفسه، وأتبعهم لرسله،

(١) أخرجه البخاري (١٥٢٠).
(٢) انظر: مذكرة العقيدة للسحيمي (ص٣٩ ـ ٤١).
(٣) لوامع الأنوار البهية (١/ ١٠٥).

وأكثرهم طاعة لله، وأتبعهم للطريق الموصل إليه، وأعلمهم بحال السالكين عند القدوم عليه، ولا ريب أن أكمل الناس في هذا الباب هم الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ، والمرسلون أكمل منهم في ذلك، وأولو العزم هم أكمل من غيرهم.

١٩ معرفة الله ﷻ عند أهل التوحيد:

قال ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ: «معرفة الله تعالى نوعان:

النوع الأول: معرفة إقرار، وهي التي اشترك فيها الناس البر والفاجر، والمطيع والعاصي.

النوع الثاني: معرفة توجب الحياء منه، والمحبة له، وتعلق القلب به، والشوق إلى لقائه وخشيته، والإنابة إليه، والأنس به، والفرار من الخلق إليه»[١]. انتهى.

٢٠ الأصلان التابعان للتوحيد:

الأصلان التابعان للتوحيد هما:

١ ـ التعريف بشريعته المتضمنة لأمره ونهيه، وهي الطريق الموصل إليه.

٢ ـ تعريف الصالحين الملتزمين بالشريعة بما لهم بعد الوصول إليه من النعيم المقيم في جنات النعيم، وأعرف الناس بالله ﷻ، وأكثرهم طاعة له، وأتبعهم لرسله هو من عرف الله وعبده، واتبع الطريق الموصل إليه، وأعرفهم بحال السالكين عند القدوم إليه.

٢١ حكم تعلُّم علم التوحيد:

معرفة علم التوحيد معرفة إجمالية واجب عين على كل مسلم يجب أن يعرف الإسلام وأركان الإسلام والإيمان بالله، وكذا بقية أركان الإيمان من الإيمان بالملائكة والكتب والرسل واليوم الآخر والإيمان بالقدر.

أما معرفة علم التوحيد على وجه التفصيل فهو فرض كفاية.

٢٢ هل ما يجب على الأعيان متنوع أم متفق؟:

الناس ليسوا سواء في الوجوب العيني فهو يتنوع ويختلف بحسب القدرات[٢]

---

(١) الفوائد (ص٢٠٩).

(٢) فهو يتنوع بتنوُّع قدراتهم، فلا يجب على العاجز عن سماع بعض العلم أو عن فهم دقيقه ما يجب على القادر على ذلك.

والحاجات[(١)] والمعارف[(٢)] والوظائف[(٣)].

(٢٣) الخلاصة:

١ ـ علم التوحيد أشرف العلوم؛ لأن شرف العلم بشرف المعلوم.

٢ ـ حاجة الناس إلى توحيد الله فوق كل حاجة.

٣ ـ لا تستقل العقول في معرفة التوحيد.

٤ ـ يتبع التوحيد أصلان:

أ ـ تعريف الطريق الموصل إليه، وهو الشريعة.

ب ـ معرفة ما لهم بعد الوصول، وهو اليوم الآخر.

٥ ـ أعرف الناس بالله أتبعهم للطريق الموصل إليه.

٦ ـ علم التوحيد إجمالاً فرض عين، وأما تفصيلاً ففرض كفاية.

٧ ـ مصادر تلقي العقيدة عند أهل السنّة والجماعة هي:

أ ـ الكتاب.

ب ـ السنّة.

ج ـ الإجماع.

٨ ـ لأهل السنّة والجماعة سمات في تقرير العقيدة يتميزون بها عن غيرهم.

٩ ـ القرآن والسنّة وحي من الله ﷻ.

١٠ ـ الكتاب والسنّة حويا أصول الدين وفروعه.

١١ ـ أنزل السلف العقل منزلته الصحيحة التي هي النظر في الآيات الكونية والموازنة بين الأشياء، دون تقديم له على النقل؛ بل من أعظم قواعد السلف: «تقديم النقل على العقل»، أي: أن النصوص الشرعية هي الأصل والعقل تابع لها.

---

(١) فهو يختلف باختلاف حاجات الناس، فمن عنده تجارة يحتاج إلى معرفة ما يحل من البيع وما يحرم بخلاف الذي لا تجارة له، وصاحب المال الذي وجبت فيه الزكاة يجب أن يتعلم كيف يزكي ماله، ومن يستطيع أن يحج يحتاج إلى معرفة كيف يحج.

(٢) فهو يتنوع بتنوُّع معرفتهم؛ فمثلاً يجب على من سمع النصوص الشرعية وفهمها على التفصيل ما لا يجب على من لم يسمعها.

(٣) فهو يختلف بتنوُّع وظائفهم ومناهجهم فيجب على المفتي ما لا يجب على العامي من العلم وتبليغ الناس أحكام الدين.

١٢ ـ الناس ليسوا سواء في الوجوب العيني؛ فهو يتنوع ويختلف بحسب القدرات والحاجات والمعارف والوظائف.

(٢٤) **المناقشة:**

- **س١:** ما هي مكانة علم التوحيد بين العلوم؟ علّل لما تقول؟
- **س٢:** هل يمكن أن تنفرد العقول بمعرفة أصل الدين بحيث يعد العقل أحد مصادر التلقي في العقائد؟ وما الوجه لما تقول؟
- **س٣:** ما الحكمة من بعثة الرسل؟
- **س٤:** هناك أصلان يتبعهما المرء بعد معرفة المعبود أوضحهما مع بيان أكثر الناس طاعة لربهم وأتبعهم لرسله؟
- **س٥:** إن القرآن أهم مصادر تلقي العقائد، وقد وصفه الله بأنه هدى وشفاء ونور. فهل بين هذه الأوصاف تنافٍ؟ مع بيان مناسبة كل وصف منها للقرآن.
- **س٦:** هل يجب على كل أحد الإيمان بكل ما جاء به الرسول ﷺ إجمالاً وتفصيلاً. وضّح ذلك؟
- **س٧:** ما غرض الشارح ابن أبي العز من عقد هذه المقدمة؟
- **س٨:** عدّد أسماء علم التوحيد وألقابه، مع ذكر وجه التسمية.
- **س٩:** ما مصادر أهل السنّة والجماعة في تلقي العقيدة؟
- **س١٠:** اذكر قواعد أهل السنّة وسمات منهجهم في تقرير العقيدة.
- **س١١:** بيّن منزلة العقل في الإسلام، مع ذكر مناهج الناس في ذلك.

ظهور الفرق والبدع في الدين

* كلام ابن أبي العز.

١ ـ غرض الشارح من عقد هذه المقدمة.

٢ ـ معاني الكلمات.

٣ ـ سبب ضلال الفرق.

٤ ـ مضي خير القرون وبيان حقيقة اتباع النبي ﷺ.

٥ ـ ظهور الخلاف.

٦ ـ استمرار طائفة على الحق، ورغبة الطحاوي في تقرير عقيدة السلف عن أبي حنيفة وصاحبيه.

٧ ـ ظهور البدع كلما بعد العهد.

٨ ـ الطوائف التي ضلت عن اتباع الرسل.

٩ ـ منهج الصوفية في الاستدلال لمسائل العقيدة.

١٠ ـ منهج الرافضة في الاستدلال لمسائل العقيدة.

١١ ـ علم الكلام وذم السلف له.

١٢ ـ منهج المتكلمين في العقيدة.

١٣ ـ التحريف والتأويل الكلامي المذموم.

١٤ ـ الدلالة على ذم الكلام من قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [الأنعام: ٦٨].

١٥ ـ مراتب التحريف البدعي.

١٦ ـ وجه الشبه بين المنافقين وبين المتكلمين والفلاسفة وحججهم وسبب ذلك.

١٧ ـ ذم شيوخ الحنفية لعلم الكلام.

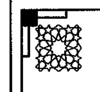
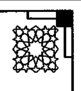
١٨ ـ دعوى المتكلمين أن طريقة السلف أسلم وطريقة الخلف أعلم وأحكم.

١٩ ـ مصطلحات المتكلمين وموقف السلف منها.

٢٠ ـ منهج ابن أبي العز في الطحاوية.

٢١ ـ الخلاصة.

٢٢ ـ المناقشة.

ظهور الفرق والبدع في الدين

كلام ابن أبي العز:

وينبغي أن يُعْرَف أنَّ عامَّة مَنْ ضَلَّ في هذا الباب، أو عَجَزَ فيه عن معرفة الحق، فإنما هو لِتفريطه في اتِّباعِ ما جاءَ به الرسولُ، وتَرْكِ النظر والاستدلال الموصِلِ إلى معرفته، فلما أعرضوا عن كتاب الله ضلُّوا، كما قال تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾ [طه: ١٢٣ ـ ١٢٦].

قال ابنُ عباس ﷺ: تكفَّلَ اللهُ لمن قرأ القرآن، وعَمِلَ بما فيه أن لا يَضِلَّ في الدنيا، ولا يَشْقَى في الآخِرَةِ، ثم قرأ هذه الآية[١].

وكما في الحديث الذي رواه التِّرمذيُّ وغَيْرُهُ عن عليٍّ ﷺ قال: قال رسولُ الله ﷺ: (إنَّهَا سَتكونُ فِتَنٌ)، قُلْتُ: فَما المَخْرَجُ مِنْهَا يَا رَسُول الله؟ قالَ: (كِتَابُ اللهِ، فِيهِ نَبَأُ مَا قَبْلَكُم، وخَبَرُ مَا بَعْدَكُمْ، وحُكْمُ مَا بَيْنَكُمْ، هُوَ الفَصْلُ، لَيْسَ بِالهَزْلِ، مَنْ تَرَكَهُ مِنْ جَبَّارٍ قَصَمَهُ اللهُ، وَمَنِ ابْتَغَى الهُدى في غَيْرِهِ أَضَلَّهُ اللهُ، وَهُوَ حَبْلُ اللهِ المَتِينُ، وَهُوَ الذِّكْرُ الحَكِيمُ، وَهُوَ الصِّرَاطُ المُسْتَقِيمُ، وهُوَ الَّذِي لا تَزِيغُ بِهِ الأَهْوَاءُ، ولا تَلْتَبِسُ بِهِ الأَلْسُنُ، وَلَا تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ، ولا تَشْبَعُ مِنْهُ العُلَماءُ، مَنْ قَالَ بِهِ صَدَقَ، وَمَنْ عَمِلَ بِهِ أُجِرَ، وَمَنْ حَكَمَ بِهِ عَدَلَ، وَمَنْ دَعَا إِلَيْهِ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيم)[٢] إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث الدالة على مثل هذا المعنى.

ولا يَقبلُ اللهُ مِن الأولين والآخِرين ديناً يَدِينُون به إلا أن يَكونَ مُوَافِقاً لدِينه الذي شَرَعه على ألسنة رُسُلِهِ ﷺ.

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/ ٣٨١)، وصححه ووافقه الذهبي.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٩٠٨)، وفي إسناده الحارث بن عبد الله الأعور، والجمهور على توهينه.

وقد نزَّه اللهُ تعالى نفسه عمَّا يَصِفُه العبادُ إلا ما وصَفَه به المرسَلون بقوله سبحانه: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾ [الصافات: ١٨٠ ـ ١٨٢]، فنزَّه نفسَه سبحانه عما يَصِفُه به الكافرونَ، ثم سلَّم على المرسَلين لِسلامة ما وصفوه به مِن النقائِص والعُيُوبِ، ثم حَمِدَ نفسَه على تفرُّده بالأوصاف التي يستحِقُّ عليها كمالَ الحمد.

ومضى على ما كان عليه الرسولُ ﷺ خيرُ القرون، وهُمُ الصَّحَابَةُ والتابعون لهم بإحسانٍ، يُوصِي به الأَوَّلُ الآخِرَ، ويقتدي فيه اللّاحِقُ بالسَّابِق، وهم في ذلك كُلِّه بنَبِيِّهم محمدٍ ﷺ مُقتدون، وعلى مِنهاجه سالِكُون، كما قال تعالى في كتابه العزيز: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ [يوسف: ١٠٨]، فإن كان قوله: (وَمَنِ اتَّبَعَنِي) معطوفاً على الضمير في «أدعو»، فهو دليل على أن أتباعَه هُمُ الدُّعاةُ إلى الله، وإن كان معطوفاً على الضمير المنفصل، فهو صريحٌ أن أتباعه هُم أهلُ البصيرة فيما جاءَ به دُونَ غيرهم، وكلا المعنيين حَقٌّ[١].

وقد بلَّغ الرسولُ ﷺ البلاغَ المبين، وأَوْضَحَ الحُجَّة للمُستبصرين، وسَلَك سَبيلَه خيرُ القرون، ثم خَلَفَ مِن بعدهم خَلْفٌ اتَّبعوا أهواءَهم، وافترقوا، فأقام الله لهذه الأمة من يَحْفَظُ عليها أُصُولَ دينها، كما أخبر الصادِقُ ﷺ بقوله: (لا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِن أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الحَقِّ، لا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ)[٢].

ومِمَّنْ قام بهذا الحقِّ مِن علماء المسلمين: الإمامُ أبو جعفر أحمدُ بنُ محمد بن سَلَامَةَ الأَزْدِي الطحاوي، تغمَّده الله برحمته، بعد المائتين، فإنّ مولدَه سنة تسع وثلاثين ومائتين، ووفاته سنةَ إحدى وعشرين وثلاثِمائة.

فأخبر رَحِمَهُ اللهُ عما كان عليه السَّلَفُ، ونَقَل عن الإمام أبي حنيفةَ النعمان بن ثابتٍ الكُوفِّي وصاحِبَيْه: أبي يوسفَ يعقوبَ بنِ إبراهيمَ الحِمْيَري الأنصاريّ، ومحمد بنِ الحسنِ الشَّيباني ما كانوا يعتقدونَ مِن أصول الدين، ويَدينُونَ به ربَّ العالمين.

وكُلَّما بَعُدَ العَهْدُ، ظَهَرَتِ البدعُ، وكَثُرَ التَّحريفُ الذي سمَّاه أهلُه تأويلاً، ليُقْبَلَ، وقَلَّ من يهتدي إلى الفَرْقِ بين التحريفِ والتأويل، إذ قد يُسَمَّى صَرْفُ الكلام عن

---

(١) انظر: مفتاح دار السعادة (١/ ٤٧٥، ٤٧٦).

(٢) أخرجه البخاري (٣٦٤١)، ومسلم (١٩٢٠).

ظاهره إلى معنًى آخَرَ يَحْتَمِلُهُ اللفظُ في الجملة تأويلاً، وإن لم يكن ثَمَّ قرينةٌ تُوجِبُ ذلك، ومن هنا حَصَلَ الفَساد، فإذا سمَّوه تأويلاً قُبِلَ وراجَ على من لا يهتدي إلى الفَرْق بينهما.

فاحتاج المؤمنون بعد ذلك إلى إيضاحِ الأَدِلَّة، ودَفْعِ الشُّبَهِ الوارِدَةِ عليها، وكَثُرَ الكلامُ والشَّغْبُ، وسببُ ذلك إصغاؤُهم إلى شُبَه المُبطِلين، وخوضُهم في الكلام المذموم الذي عابَه السلفُ، ونَهَوْا عن النظرِ فيه، والاشتغالِ به، والإصغاءِ إليه، امتثالاً لأمر ربهم، حيثُ قالَ: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ﴾ [الأنعام: ٦٨]، فإنَّ معنى الآية يَشْمَلُهُمْ.

وكُلٌّ من التحريف والانحراف على مراتبَ، فقد يكونُ كفراً، وقد يكون فِسقاً، وقد يكون معصيةً، وقد يكون خطأً.

فالواجبُ اتباعُ المرسلين، واتباعُ ما أنزلَه الله عليهم. وقد خَتَمهم الله بمحمَّدٍ ﷺ، فجعَلَه آخِرَ الأنبياء، وجعل كِتابه مُهَيمِناً على ما بَيْنَ يدَيه من كتب السماء، وأَنزل عليه الكتابَ والحِكمة، وجَعَل دعوتَه عامةً لجميع الثَّقَلَيْنِ: الجنِّ والإِنْسِ، باقيةً إلى يوم القيامة، وانْقَطَعَتْ به حُجَّةُ العباد على الله، وقد بيَّن اللهُ به كُلَّ شيءٍ، وأكملَ له ولأمته الدينَ خبراً وأمراً، وجعل طاعتَه طاعةً له، ومعصيتَه معصيةً له، وأقسمَ بنفسه أنهم لا يُؤمِنُونَ حتى يُحَكِّمُوهُ فيما شَجَرَ بينهم، وأخبرَ أن المنافقين يُريدُون أن يتحاكَمُوا إلى غيره، وأنَّهم إذَا دُعُوا إلى الله والرسولِ ـ وهو الدعاء إلى كِتَاب الله وسُنَّةِ رسوله ـ صَدُّوا صُدُوداً، وأنَّهم إنما أرادوا إحساناً وتوفيقاً.

وكما يقوله كثيرٌ من المتكلمة والمتفلسفة وغيرهم: إنما نريدُ أن نُحِسَّ الأشياء بحقيقتها؛ أي: نُدْرِكَها ونَعْرِفَها، ونُريدُ التوفيقَ بين الدلائل ـ وهي في الحقيقة جَهليات ـ وبين الدلائل النقليةِ المنقولةِ عن الرسولِ، أو نريدُ التوفيقَ بين الشريعة والفلسفة.

وكما يقولُه كثيرٌ من المبتدعة، من المتنسِّكة والمتصوفة: إنما نريد الأعمال بالعمل الحسن، والتوفيقَ بَيْنَ الشريعة وبين حقائقَ، جهل وضلال.

وكما يقولُه كثيرٌ من المتمَلِّكة والمتأمِّرة: إنما نريد الإحسانَ بالسياسة الحسنة، والتوفيقَ بينها وبينَ الشريعةِ، ونحو ذلك.

فكلُّ مَنْ طَلَبَ أن يُحَكِّمَ في شيء من أمر الدين غيرَ ما جاءَ به الرسولُ، ويظُنُّ أن ذلك حَسَنٌ، وأن ذلك جمعٌ بين ما جاءَ به الرسولُ وبين ما يُخَالِفُهُ، فله نصيبٌ من ذلك، بل ما جاءَ به الرَّسولُ كافٍ كاملٌ، يَدْخُلُ فيه كُلُّ حق، وإن وَقَعَ التقصيرُ مِن كثيرٍ من المنتسبين إليه، فلم يَعْلَم ما جاءَ به الرسولُ في كثيرٍ من الأمور الكلامية الاعتقادية، ولا في كثيرٍ من الأحوال العبادية، ولا في كثير من الإمارة السياسية، أو نسبُوا إلى شريعة الرَّسُولِ بظنهم وتقليدِهم ما ليس منها، وأخرجوا عنها كثيراً مما هو منها.

فَبِسبب جهلِ هؤلاء وضلالِهم وتفريطهم، وبسبب عُدوانِ أولَئك وجهلِهم ونِفاقهم، كَثُرَ النفاقُ، ودَرَسَ كَثِيرٌ مِن علم الرسالة.

بل إنما يَكونُ البحثُ التَّامُ، والنظرُ القويُّ، والاجتهادُ الكامل، فيما جاء به الرسولُ ﷺ، لِيُعلَمَ ويُعْتَقَدَ، ويُعْمَلَ به ظاهراً وباطناً، فيكون قد تُلي حَقَّ تلاوته.

وإن كان العَبْدُ عاجزاً عن معرفة بعضِ ذلك، أو العملِ به فلا يَنهَى عما عَجَز عنه مما جاءَ به الرسولُ، بل حَسْبُهُ أن يَسْقُطَ عنه اللَّوْمُ لعجزه، لكن عليه أن يَفْرَحَ بِقيام غيره به، ويرضى بذلك، ويودُّ أن يكون قائماً به، وأن لا يُؤمِنَ ببعضه ويَتْرُكَ بعضَه، بل يُؤْمِن بالكِتَابِ كُلِّه، وأن يُصَانَ عن أن يُدخِلَ فيه ما ليس منه: من روايةٍ أو رأيٍ، أو يَتَّبعَ ما ليس من عند الله اعتقاداً أو عملاً، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٤٢﴾ [البقرة: ٤٢].

وهذه كانت طريقةَ السَّابقين الأولين، وهي طريقةُ التابعين لهم بإحسانٍ إلى يوم القيامة، وأَوَّلُهم السلفُ القديم من التابعين الأولين، ثُمَّ مَنْ بَعْدَهُمْ، ومِن هؤلاء أئمةُ الدين المشهودُ لهم عند الأمة الوسط بالإمامة.

فعن أبي يوسفَ، رحمه الله تعالى، أنه قال لِبشرٍ المَريسي: العِلْمُ بالكلام هو الجهلُ، والجهلُ بالكلام هو العلمُ، وإذا صار الرجلُ رأساً في الكلام، قِيلَ: زِنديق، أو رُمي بالزَّنْدَقَة. أراد بالجهلِ به اعتقادَ عَدَمِ صحته، فإن ذلك علم نافع، أو أراد به الإعْرَاضَ عنه، أو تَرْكَ الالتفات إلى اعتباره، فإن ذلك يَصُونُ عِلْمَ الرجل وعقلَه، فيكون علماً بهذا الاعتبار. والله أعلم.

وعنه أيضاً أنه قال: مَنْ طَلَبَ العلمَ بالكلام تزندق، ومَنْ طلب المالَ بالكِيمياء أفلس، ومن طلب غَريبَ الحديث كَذَبَ.

وقال الإمام الشافعيُّ رحمه الله تعالى: حُكمي في أهلِ الكلام أن يُضرَبوا بالجَرِيد والنِّعال، ويُطافُ بهم في العشائر والقبائل، ويُقال: هذا جزاءُ من تَرَكَ الكتاب والسنة، وأقبلَ على الكلام.

وقال أيضاً رحمه الله تعالى شعراً:

كُلُّ العُلُومِ سِوَى القُرآنِ مَشْغَلَةٌ ... إلا الحَدِيثَ وإلَّا الفِقْهَ في الدِّينِ
العِلْمُ ما كَانَ فِيهِ قَالَ حَدَّثَنا ... وَمَا سِوَى ذَاكَ وَسْوَاسُ الشَّيَاطِينِ

وذكرَ الأصحاب في الفتاوى: أنه لو أوصى لِعلماء بلده: لا يَدْخُلُ المتكلمون، ولو أوصى إنسان أن يُوقَفَ من كتبه ما هو مِنْ كتب العلم، فأفتى السلفُ أن يُباع ما فيها من كتب الكلام. ذكر ذلك بمعناه في «الفتاوى الظهيرية» فكيف يُرَامُ الوصولُ إلى علم الأُصول، بغير اتباعِ ما جاء به الرسول؟! ولقد أحسن القائل:

أيُّها المُغْتَدِي لِيَطْلُبَ عِلْماً ... كُلُّ عِلْمٍ عَبْدٌ لِعِلْمِ الرَّسُولِ
تَطْلُبُ الفَرْعَ كَيْ تُصَحِّحَ أَصْلاً ... كَيْفَ أَغْفَلْتَ عِلْمَ أصلِ الأُصُولِ

ونبيُّنا ﷺ أُوتِيَ فَوَاتِحَ[1] الكَلِم وخوَاتمه[2] وجَوَامِعَه، فبُعِثَ بالعلوم الكلية والعلوم الأولية والأخروية على أتمِّ الوجوه، ولكن كُلَّما ابتدَع شخص بِدعةً اتسعُوا في جوابها، فلذلك صار كلامُ المتأخرين كثيراً، قليلَ البركة، بخلاف كلامِ المتقدمين، فإنه قليلٌ، كثيرٌ البركة، لا كما يقولُه ضُلَّالُ المتكلمين وجهلتُهم: أنَ طريقة القومِ أَسْلَمُ، وإن طريقَتنا أحكمُ وأَعْلَمُ! ولا كما يقولُه من لم يُقَدِّرْهُمْ قَدْرَهم مِن المنتسبين إلى الفقه: أنهم لم يتفرَّغوا لاستِنباط الفقه، وضبط قواعده وأحكامه اشتغالاً منهم بغيره! والمتأخرونَ تفرَّغوا لذلك، فهم أفقه!!

فكُلُّ هؤلاءِ مَحجوبُونَ عن معرفة مقاديرِ السلف، وعُمقِ علومهم، وقِلَّةِ تكلُّفهم، وكمالِ بصائرهم. وتاللهِ ما امتازَ عنهم المتأَخِّرُونَ إلا بالتكلُّف والاشتغالِ بالأطرافِ[3]

---

(١) جوامع الكلم: هي تلك الألفاظ القليلة التي تحمل من المعاني الجمّة.
(٢) أي: القرآن ختم به الكتب السمٰوية.
(٣) لعله يقصد بالأطراف؛ أي: أطراف الحديث.

التي كانت هِمةُ القومِ مراعاةَ أصولها، وضَبْطَ قواعدِها، وشدَّ معاقِدِها، وهِمَمُهم مشمّرةً إلى المطالب العالية في كُلِّ شيءٍ، فالمتأخرون في شأنٍ، والقومُ في شأنٍ آخر، وقد جعل الله لِكل شيءٍ قَدْراً.

وقد شَرَح هذه العقيدة غيرُ واحدٍ من العلماء، ولكن رأيتُ بعضَ الشارحين قد أصغى إلى أهل الكلام المذموم، واستمد منهم، وتكلم بعباراتهم.

والسَّلَفُ لم يكرهوا التكلّمَ بالجوهر والجسم والعَرَضِ ونحوِ ذلك لمجرد كونه اصطلاحاً جديداً على معانٍ صحيحةٍ، كالاصطلاح على ألفاظِ العلومِ الصحيحةِ، ولا كرِهوا أيضاً الدِّلالَةَ على الحق والمحاجَّةَ لأهل الباطل، بل كرهوه لاشتمالِهِ على أمورٍ كاذبة مخالفةٍ للحق، ومن ذلك مخالفتُها الكتاب والسنة، ولهذا لا تجدُ عند أهلها مِن اليقين والمعرفة ما عند عوام المؤمنين، فضلاً عن علمائهم.

ولاشتمال مقدماتهم على الحقِّ والباطل، كَثُرَ المِراءُ[1] والجدالُ[2]، وانتشرَ القِيلُ والقَالُ، وتولَّدَ لهم عنها من الأقوالِ المخالفة للشرعِ الصحيح، والعقلِ الصريح ما يَضِيقُ عنه المجالُ، وسيأتي لذلك زيادةُ بيان عند قوله: «فَمَنْ رَامَ علمَ ما حُظِرَ عنه علمَه...».

وقد أحببتُ أن أشرحَها سالكاً طريقَ السَّلَفِ في عباراتهم، وأَنْسجَ على مِنْوالهم، متطفِّلاً عليهم، لعلِّي أن أُنظَمَ في سِلْكِهم، وأُدْخَلَ في عِدادهم، وأُحْشَرَ في زُمْرَتِهِمْ ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩].

ولما رأيتُ النفوسَ مائلةً إلى الاختصار، آثرتُه على التطويلِ والإسهابِ ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨] وهو حسبُنا ونعمَ الوكيلُ.

---

(١) المراء: طعن في كلام الغير لأظهار خلل فيه من غير أن يرتبط به غرض سوى تحقير الغير وإظهار مزيتك عليه. انظر: تعريفات الجرجاني ص٢٠٩.

(٢) الجدال: دفع المرء خصمه عن إفساد قوله بحجة أو شبهة، أو يقصد به تصحيح كلامه، وهو الخصومة وقيل: هو مقابلة الحجة بالحجة وهو على قسمين:
أ ـ ممدوح: هو ما كان للوقوف على الحق.
ب ـ مذموم: هو ما كان لإظهار الباطل أو أفضى إلى الباطل. انظر: تهذيب الأسماء واللغات (٣/٤٩)؛ والتعريفات ص٤٧.



الشرح

عناصر الموضوع:

١ غرض الشارح ابن أبي العز من عقد هذه المقدمة:

يتبين من خلال كلام الشيخ أنه أراد بمقدمته هذه أموراً هي:

أ ـ بيان أسباب الضلال في هذا الباب، وانتشار الخلاف بعد عهد النبوة، وكثرة البدع، لكن هناك طائفة على الحق وهم أهل السنة والجماعة.

ب ـ قرَّر الإمام الطحاوي عقيدة أهل السنة والجماعة على مذهب فقهاء الملة أبي حنيفة النعمان بن ثابت، وأبي يوسف يعقوب بن إبراهيم الأنصاري، وأبي عبد الله محمد بن الحسن الشيباني؛ فشرحها ابن أبي العز متبعاً طريقة السلف رحمهم الله تعالى.

٢ معاني الكلمات:

الكلمة	المعنى
البدع	جمع بدعة، وهي لغة: كل شيء عمل على غير مثال سابق. واصطلاحاً: كل فعل وقول ـ في الدين ـ لم يثبت عن النبي ﷺ وعن الصحابة(١).
التأويل	التأويل مصدر أوّل من باب التفعيل، لغة: بمعنى الرجوع، واصطلاحاً: له أربعة معانٍ، ثلاثة منها صحيحة وهي: أولاً: العمل بالنص، أي: إتيان المأمور به واجتناب النواهي، هذا إذا كان النص إنشاءً: أمراً ونهياً (نحو يتأول القرآن). والثاني: وقوع الخبر كما هو في الواقع ماضياً كان أو حالاً، أو مستقبلاً نحو: ﴿هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ﴾ [يوسف: ١٠٠] أو ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُۥ﴾ [الأعراف: ٥٣]. والثالث: التفسير والإيضاح والشرح للنص، نحو قول السلف: تأويل قوله تعالى كذا، أي: تفسيره كذا.

(١) شرح صحيح مسلم (٦/ ١٥٤)، الاعتصام (١/ ٣٦)، المفردات (ص٣٩)، الصحاح (٣/ ١٨٤)، لسان العرب (٨/ ٦).

الكلمة	المعنى
	وأما المعنى الباطل: فهو: صرف الكلام عن ظاهره المتبادر إلى الذهن إلى معنى آخر غير ظاهر. وهذا في الحقيقة تحريف(١)، وقد صرح بذلك أئمة السنة.
العقليات	أي المسائل التي دل العقل عليها (في زعمهم) أو الأدلة العقلية (في زعمهم)(٢).
النقليات	أي المسائل أو الأدلة التي نقلت عن الله تعالى أو عن النبي ﷺ(٣).
البحث التام	أي التفتيش عن الحق.
النظر القوي	النظر هو الاستدلال. وهو عندهم: ترتيب الأمور المعلومة لحصول الأمور المجهولة، والمراد من الترتيب: ترتيب أجزاء القياس أي الصغرى والكبرى، والأمور المعلومة هي الأدلة، والأمور المجهولة هي الدعاوى. أي إقامة الحجج على الدعاوى هو النظر والاستدلال(٤).
الاجتهاد الكامل	بذل الوسع ـ إلى أبعد الحدود ـ للوصول إلى الحق.
الزندقة	كلمة يونانية أو فارسية أصلها «زن دين» فزن: المرأة، ودين: الدين، أي: دين المرأة، أي دين الحماقة. والفعل تزندق. فالزندقة: لها معنيان: الأول: هو استبطان الكفر وإظهار الإسلام للدسيسة، فالزنديق على هذا من دخل في الإسلام للشر والإفساد، فهو أخص من المنافق، وكلاهما كافر؛ لأن المنافق قد يظهر الإسلام خوفاً فقط. ولا يريد الإفساد والدسيسة للمسلمين، فكل زنديق منافق ولا عكس؛ فقد يكون منافقاً ولا يكون زنديقاً. وذلك إذا أظهر الإسلام خوفاً فقط بدون إرادة الدسيسة. الثاني: «ارتكاب البدعة»: سواء أكانت تلك البدعة مكفرة أم لا، فالزنديق على هذا مرادف للمبتدع، والمبتدع: قد يكون كافراً، وقد يكون مسلماً فاسقاً، وقد يكون مسلماً ضالاً، فكذلك الزنديق على هذا المعنى، وكثير من الجهمية زنادقة بهذا المعنى أي مبتدعة، وذلك أن يكون الزنديق قد ارتكب البدعة مع حسن نيته ولكنه يكون مسلماً ضالاً. وعلى هذا يقال من تعلم الكلام تزندق، ومن تمنطق تزندق(٥).

(١) تهذيب اللغة (١٥/ ٤٣٧)، مجموع الفتاوى (٣/ ٥٥ ـ ٥٦، ٥/ ٣٥ ـ ٣٦)، التعريفات (ص٥٠)، تحفة المريد (ص٩١).

(٢) شرح المواقف (٢/ ٣٠٩).

(٣) شرح المواقف (٢/ ٣٠٩).

(٤) شرح التهذيب للتفتازاني (ص١٩).

(٥) تهذيب اللغة (٩/ ٤٠٠)، الصحاح (٤/ ١٤٨٩)، درء التعارض (٥/ ٣٢٠)، شرح المقاصد (٢/ ٢٦٨).

الكلمة	المعنى
الكلام	الكلام هو ما يتكلم به من الألفاظ والمعاني: ومنه كلام الله تعالى، وكلام كل متكلم ما يناسبه[١]. وعلم الكلام: هو فن أهل الخصام من الجهمية والمعطلة وأذيالهم من الماتريدية والأشعرية، وسمي بعلم الكلام؛ لأن موضوعه هو البحث في كلام الله تعالى، فعلم الكلام المعتزلي والماتريدي والأشعري علم مبتدع مذموم[٢].
الجوهر	الجوهر ضد العَرَض، وهو ما كان قائماً بنفسه كالجسم مثلاً[٣].
العَرَض	العرض ضد الجوهر، وهو ما كان قائماً بالجوهر كاللون مثلاً[٤].
الجسم	ما كان فيه أبعاد ثلاثة: وهي الطول والعرض والعمق[٥].
الحقيقة	عند الصوفية: ما يقابل الشريعة، فالشريعة أمر بالتزام العبودية، والحقيقة مشاهدة الربوبية[٦].
المتملكة	أصحاب الملك والرياسة.

٣ سبب ضلال الفرق:

إن سبب ضلالة من ضل في مسائل أصول الاعتقاد يرجع إلى:

١ ـ تفريطهم في اتباع ما جاء به الرسول ﷺ؛ لأن اتباعه هو طريق الهداية كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

٢ ـ وترك النظر في الأدلة الشرعية، والاستدلال بها للوصول إلى معرفة الله، فلما أعرضوا عن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ضلوا. من هذا قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾ [طه: ١٢٣، ١٢٤].

٤ مضي خير القرون وبيان حقيقة اتباع النبي ﷺ:

قال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ [يوسف: ١٠٨] إن معنى قوله تعالى: ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ معطوف على الضمير المستتر في أدعو،

(١) شرح العقائد النسفية (ص٢٧).
(٢) راجع: درء التعارض (٧/ ١٤٤ ـ ١٤٧)، الصواعق المرسلة (٤/ ١٢٦١ ـ ١٢٧٤).
(٣) التعريفات (ص١٠٨).
(٤) التعريفات (ص١٩٢).
(٥) التعريفات (ص١٠٣).
(٦) انظر: الرسالة القشيرية (١/ ٢٦١).

أي أن أتباعه ﷺ هم الدعاة إلى الله، أي أدعو أنا إلى الله، وكذلك أتباعي يدعون إلى الله.

٢ ـ أما إن كان معطوفاً على الضمير المنفصل (أنا) فهو صريح في أن أتباعه هم أهل البصيرة فيما جاء به ﷺ دون غيرهم، ولا تنافي بين المعنيين، بل كلاهما حق؛ فإن أتباعه ﷺ هم الدعاة إلى الله تعالى، وهم أهل البصيرة دون غيرهم.

قال ابن القيم: «وسواء كان المعنى: أنا ومن اتبعني على بصيرة وأنا أدعو إلى الله، أو المعنى: أدعو إلى الله على بصيرة، فالقولان متلازمان؛ فإنه لا يكون اتباعه حقاً إلا على بصيرة، كما كان متبوعه يفعل، فهؤلاء خلفاء الرسل حقاً، وورثتهم دون الناس، وهم أولو العلم الذين قاموا بما جاء به علماً وعملاً وهداية وإرشاداً وصبراً وجهاداً، هؤلاء هم الصديقون وهم أفضل أتباع الأنبياء، ورأسهم وإمامهم الأكبر أبو بكر الصديق رضي الله عنه»[١].

(٥) ظهور الخلاف:

كان الصحابة رضوان الله عليهم على عقيدة واحدة، ولم يحصل بينهم اختلاف يوجب الفرقة أو التفسيق أو التكفير، فكانوا متفقين في خلافة أبي بكر وعمر وصدر من خلافة عثمان، لا تنازع بينهم، إلى أن قام أهل الفتنة والضلال والبغي بقتل عثمان رضي الله عنه، فتفرق المسلمون بعد ذلك، وأول فرقة فارقت جماعة المسلمين وخرجت على أمير المؤمنين علي رضي الله عنه هي الخوارج، فتبرأت من إمام المسلمين، وكفرته ومن معه من المسلمين، ومعاوية ومن معه، فعند ذلك ظهرت الشيعة تؤيد علياً وتنصره. ثم توالى بعد ذلك ظهور البدع، فحدثت في آخر عصر الصحابة بدعتا القدرية والمرجئة، ثم في أواخر الدولة الأموية ظهرت الجهمية ثم المعتزلة.

(٦) استمرار طائفة على الحق، ورغبة الطحاوي في تقرير عقيدة السلف عن أبي حنيفة وصاحبيه:

دلت السنة الصحيحة على أن الخلاف والافتراق سيقع في هذه الأمة كما حصل للأمم السابقة، جاء بذلك الحديث الصحيح: (**لا تزال طائفة من أمتي ظاهرة على الحق...**)، والطحاوي رحمه الله تعالى أثبت من غيره في تقرير اعتقاد

---

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ٢٩٣).

أهل السنة والجماعة على مذهب فقهاء الملة أبي حنيفة النعمان، وأبي يوسف يعقوب بن إبراهيم الأنصاري، وأبي عبد الله محمد بن الحسن الشيباني، وذلك للأمور التالية:

١ ـ إن الإمام الطحاوي ثقة ثبت عند أهل العلم[١].

٢ ـ تلقي جمهور أهل العلم لعقيدة الطحاوي بالقَبول.

قال السبكي: جمهور المذاهب الأربعة على الحق يقررون عقيدة الإمام أبي جعفر الطحاوي التي تلقاها العلماء سلفاً وخلفاً بالقَبول[٢].

وقال الناصري الحنفي: «إن كتاب العقائد الذي رواه أبو جعفر الطحاوي عن أبي حنيفة وأبي يوسف ومحمد هو الذي اعتمد عليه أهل السنة والجماعة سلفهم وخلفهم»[٣].

٧ ظهور البدع كلما بَعُدَ العهد:

إن سبب ظهور البدع هو بُعد العهد عن عصر النبوة والإعراض عن الكتاب والسنة، وتقديم العقل والرأي على النقل، واتباع الهوى ودعاة الباطل، والتوسع في سماع شبههم، والإصغاء إليها وعدم الرد عليها، والخوض فيها.

«وقد دل على ذلك دليلان:

أولهما: الخبر، وفيه أدلة عديدة بعضها أصرح من بعض، ومنها ما أخرجه البخاري وغيره عن أبي هريرة ﷺ أنه قال: قال ﷺ: (**خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم**)، وفي ذلك دلالة كما يقول ابن تيمية ـ يرحمه الله ـ على أن الخيرية خصوصية تلك القرون الثلاثة الماضية، وفيه دلالة على أن غيرهم لن يكون على وفق ما كانوا، عليه من الاستقامة على السنة.

والثاني: هو دليل النظر، وذلك أن الناس كلما بعدوا عن رسوم النبوة ووقتها وزمنها، حدث فيهم ما لم يكن، وهذا معروف في الأشياء المحسوسة المتعلقة بالأمور الخيرة مطلقاً، ولذلك يقول ابن تيمة ـ يرحمه الله ـ: «أصحاب أحمد الذين لازموه وأخذوا عنه أقل ممن كان بعدهم. وهكذا كان أصحاب أئمة المذاهب، فإن المتأخرين عن الأئمة أحدثوا ما لم يحدث الأوائل»، وهذا أمر

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (١٥/ ٢٧، ٢٩).

(٢) معيد النعم ومبيد النقم (ص٦٢). (٣) النور اللامع [٦٩/أ].

مشاهد محسوس مع الأئمة، فذلك كذلك فيما يتعلق بزمن التشريع وما أتى متأخراً عنه»[١].

٨ الطوائف التي ضلت في اتباع الرسل:

ذكر المصنف ثلاث طوائف ضلت في اتباع الرسل عليهم الصلاة والسلام وهي:

أ ـ المتكلمة والمتفلسفة: ووجه ضلالهم أنهم أرادوا أن يجمعوا بين ما يسمونه عقليات، وبين ما جاء به النبي ﷺ من الدين، فقالوا: أردنا أن نجمع بين الشريعة والفلسفة.

ب ـ المتنسكة المتصوفة: وهم أتباع الطرق الصوفية، ووجه ضلالهم أنهم أرادوا الجمع بين ما يسمونه حقائق وبين الشريعة.

جـ ـ المتملكة والمتأمِّرة: ووجه ضلالهم أنهم أرادوا أن يجمعوا بين السياسة والشريعة الإسلامية.

وسبب تفريطهم في اتباع الرسول ﷺ هو: جهل المتصوفة، وعدوان المتكلمين والفلاسفة، وإهمالهم البحث التام، والتفتيش عن الحق، وإعراضهم عن اتباع السنة.

٩ منهج الصوفية في الاستدلال لمسائل العقيدة:

الصوفية على الضد من طريق المتكلمين؛ فالمتكلمون يقدمون العقل على النقل، والصوفية لا يقيمون للعقل وزناً، وإنما مصدرهم ـ فيما ابتدعوه ـ تقديمهم لما يسمونه الكشف ونحوه على كلام الله تعالى وكلام رسوله ﷺ.

ومرادهم بالكشف: الاطلاع على ما يغيب من علمهم، أو ما يحتاجون إليه من الأمور الدينية أو حتى الدنيوية عياناً أو سماعاً من قبل النبي ﷺ أو الخضر أو الهواتف أو الملائكة ونحو ذلك[٢].

١٠ منهج الرافضة في الاستدلال لمسائل العقيدة:

الرافضة أصحاب هوى؛ فقد ادعوا دعاوى ليس لها أصل في الكتاب أو

---

(١) الحواشي التوضيحية (ص١٩).

(٢) انظر: مصادر التلقي عند الصوفية (ص٢٠٧)، ومذكرة العقيدة للدكتور سعود الخلف (ص٢٧).

السنة، وبنوا عليها مذهبهم الذي يعود في أصله إلى دعوى الإمامية وتكفير الصحابة، فاخترعوا لذلك الأكاذيب الطويلة يدعمون فيها دعواهم، وعمدة مذهبهم على الروايات المكذوبة المنسوبة إلى علي بن أبي طالب ﵁ وآل البيت، الذين يزعمون إمامتهم، وحتى يحيطوا تلك الروايات بالتعظيم والقبول ادعوا عصمة أئمتهم وأوليائهم(١).

١١ علم الكلام وذم السلف له:

أهل الكلام: هم الذين يتكلمون في الله بما يخالف الكتاب والسنة والفرق بين أهل الكلام والفلاسفة من وجهين: الأول: أن الفلسفة أعم، لكون الفلسفة تبحث عن الحقائق الدينية وغيرها. الثاني: أن أهل الكلام أقرب إلى الإسلام والسنّة من الفلسفة(٢).

علم الكلام: هو المحاجة بالدلائل الفلسفية والعقلية في باب العقائد والديانة.

وقد ذم السلف الكلام؛ لأنه يخالف ما جاء به الرسول ﷺ عن الله ﷻ وما ثبت عنه ﷺ من الحق؛ ولأنه يعتمد على التصورات العقلية، وهي متفاوتة أيضاً؛ لأنها قائمة على الظن، وعدم اليقين، وعلى الخوض في الكلام الذي لا فائدة فيه. وليس كل كلام يعده السلف مذموماً مخالفاً للكتاب والسنة بل في المسألة تفصيل؛ فإن كان اللفظ موافقاً أيضاً قُبل، وإن كان مخالفاً رُد، وإن كان اللفظ موافقاً والمعنى مخالفاً رد المعنى، وإن كان المعنى موافقاً واللفظ مخالفاً رد اللفظ وقُبل المعنى، وعبر عنه بألفاظ توافق الكتاب والسنة، فما رددناه فهو مذموم وما قبلناه لا يذم(٣).

١٢ منهج المتكلمين في العقيدة:

المتكلمون هم الذين يقررون مسائل العقيدة أو بعضها عن طريق الأدلة العقلية، ومنهجهم في ذلك تقديم العقل على النقل، فتقديم العقل على النقل سمة ومنهج

---

(١) انظر: عقائد الإمامية الاثنى عشرية لإبراهيم الموسوي الإنجاني (ص١٧٩)، وأوائل المقالات للمفيد (ص٧٦ ـ ٧٧)، ومذكرة العقيدة للدكتور سعود الخلف (ص٤٠).

(٢) انظر: درء التعارض (١/ ١٧٨؛ ٩/ ٢١١)، وموقف المتكلمين من الاستدلال بالكتاب والسنّة (١/ ٢٢).

(٣) انظر: درء تعارض العقل والنقل (١/ ٢٧).

واضح ظاهر لدى الفلاسفة والمتكلمين سواء كانوا جهمية أو معتزلة أو أشعرية أو ماتريدية، فكل هؤلاء[1] قدموا العقل على النقل، بل كثير منهم من لا يعتبر إمكانية الوصول إلى الحق إلا عن طريق العقل[2].

١٣ التحريف والتأويل الكلامي المذموم:

التحريف: هو التبديل والتغيير، تغيير ألفاظ الأسماء الحسنى والصفات العلى ومعانيها. المقصود أن التحريف يكون في النصوص وأما الانحراف فيكون في السلوك والعبادات.

وأما التأويل: فهو صرف اللفظ عن معناه الراجح إلى المعنى المرجوح لدليل يقترن به، والفرق بينهما أن كل تحريف تأويل وليس كل تأويل تحريفاً، وأن أحدهما قد يكون صحيحاً وهو التأويل إذا كان بمعنى التفسير، والآخر باطل من أساسه وهو التحريف.

والتأويل البدعي باطل وشرط قبول التأويل الصحيح استناده إلى قرينة أو دليل.

١٤ الدلالة على ذم علم الكلام من قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [الأنعام: ٦٨]:

إن وجه الدلالة على ذمهم: أن بحثهم واعتمادهم على عقولهم والأقيسة الفاسدة إنما هو خوض بغير علم، لذلك ذمهم ﷻ بقوله: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [الأنعام: ٦٨]، ووجه الشبه: هو أنهم أعرضوا عن كتاب الله وسنة رسوله، وتكلموا بغير علم ولا بصيرة، واتبعوا أهواءهم، وحكموا عقولهم، وتركوا الكتاب والسنة، كما فعل المذكورون في الآية، وإن حجتهم واحدة، وهي أنهم قالوا: نريد التوفيق بين العقل والنقل.

١٥ مراتب التحريف البدعي:

إن مراتب التحريف البدعي هي:

---

(١) انظر: شرح الأصول الخمسة (ص٨٨)، والمواقف (٢/ ١٢٩)، والإرشاد (ص٣٥٩)، وأساس التقديس (ص٢١٠).

(٢) انظر: مذكرة العقيدة للدكتور سعود الخلف (ص٢٠).

١ ـ أنه قد يكون كفراً، مثل تأويل الباطنية للصلاة والحج بزيارة مشايخهم ومراقد هؤلاء الشيوخ.

٢ ـ أنه قد يكون فسقاً، إذا صدر عن هوى وتعصب وله وجه في اللغة مثل تأويلات المتكلمين لصفات الباري بما يخالف ظاهرها كتأويل صفة الاستواء بالاستيلاء.

٣ ـ أنه قد يكون معصية، كتأويل بعض الفقهاء لبعض الأحاديث التي تخالف مذهبهم.

٤ ـ أنه قد يكون خطأ، كتأويل المجتهدين الذين يتحرون الحق، فيخطئون في تفسير بعض النصوص، وتوجيه ذلك هو اختلاف هذه المراتب في نتائجها.

أما مراتب الانحراف فهي أربع:

١ ـ الكفر؛ وذلك إذا صرف شيئاً من العبادات لغير الله.

٢ ـ الفسق؛ كارتكاب المنهيات.

٣ ـ المعصية؛ كترك المأمورات.

٤ ـ الخطأ؛ وهذا يكون إذا صدر عن جهل ونسيان[1].

(١٦) وجه الشبه بين المنافقين وبين المتكلمين والفلاسفة وحججهم وسبب ذلك:

وبيان ذلك من وجوه:

أ ـ أن كلّاً منهم تحاكم إلى غير الله؛ فالمنافقون تحاكموا إلى طواغيتهم، والمتكلمون والمتفلسفة حكَّموا عقولهم.

ب ـ أن كلّاً منهم يريد التوفيق؛ فالمنافقون يريدون التوفيق بين الكافر والمسلم، وأهل الفلسفة والكلام يريدون التوفيق بين العقل والنقل.

(١٧) ذم شيوخ الحنفية لعلم الكلام:

فعن أبي يوسف رحمه الله تعالى أنه قال لبشر المريسي: العلم بالكلام هو الجهل، والجهل بالكلام هو العلم، وإذا صار الرجل رأساً في الكلام قيل: زنديق، أو رمي بالزندقة، أراد بالجهل به اعتقاد عدم صحته؛ فإن ذلك علم نافع،

(١) انظر: لمعة الاعتقاد ص(٣٤)؛ والمدارج (١/ ٣٦١، ٣٦٢).

أو أراد به الإعراض عنه، أو ترك الالتفات إلى اعتباره؛ فإن ذلك يصون علم الرجل وعقله، فيكون علماً بهذا الاعتبار. والله أعلم.

وعنه أيضاً أنه قال: من طلب العلم بالكلام تزندق، ومن طلب المال بالكيمياء أفلس، ومن طلب غريب الحديث كذب.

وذكر الأصحاب في الفتاوى أنه لو أوصى لعلماء بلده لا يدخل المتكلمون، ولو أوصى إنسان أن يوقف من كتبه ما هو من كتب العلم فأفتى السلف أن يباع ما فيها من كتب الكلام، ذكر ذلك بمعناه في الفتاوى الظهيرية[١].

وسبب عدم دخول المتكلمين في الوصية، لكونهم ليسوا بعلماء ولا شك أن هذه الكتب لا نفع فيها ولا خير فلا يجوز بيعها إلا أن يكون المشتري عارفاً بفسادها ويبتغي من وراء ذلك الرد على ضلالها[٢].

١٨ دعوى المتكلمين أن طريقة السلف أسلم وطريقة الخلف أعلم وأحكم:

إن هذه الدعوى غير صحيحة، بل إن طريقة السلف أعلم وأسلم؛ لأن الرسول ﷺ قال: **(خيركم قرني ثم الذين يلونهم)**، ومن كانت طريقته أسلم فهي أعلم وأحكم، لكن الخلف ضلوا عن ذلك وعمُّوا وصمُّوا. وأما طريقة الخلف فإنهم تعمقوا في البحث، وشغلوا عقولهم بما لا يمكنها أن تبلغه، وهذا باطل.

ولكن هؤلاء المتأخرين ظنوا أن طريقة السلف هي التفويض لمعاني النصوص إلى الله تعالى؛ لذلك جعلوها أسلم، وأما طريقة الخلف عندهم فهي طريقة الاستفصال والتأويل؛ لذلك فهي عندهم أعلم وأحكم، وقولهم هذا يتضمن عدة محذورات:

١ ـ أنه قدح في تبليغ النبي ﷺ للرسالة.

٢ ـ أن السلف آمنوا بنصوص لا يفهمون معناها، وهذا انتقاص لهم.

٣ ـ أن الدين كان ناقصاً حتى أتى الخلف ليكملوه ويسدوا خلله.

١٩ مصطلحات المتكلمين وموقف السلف منها:

استعمل المتكلمون ألفاظاً لم يستعملها السلف، كالجوهر والعرض والجسم،

---

(١) صاحب الفتاوى الظهيرية هو: ظهير الدين أبو بكر محمد بن أحمد القاضي البخاري، المتوفى سنة (٦١٩هـ).

(٢) انظر: المعيار المغرب (٦/ ٧٠، ٢٠٣).

فالجوهر هو ما يقوم بذاته ولا يفتقر إلى غيره، وجوهر الشيء حقيقته، وبدونه يصير الشيء مختلفاً أو معدوماً، والعرض هو القائم بغيره. والجسم هو ما تصح الإشارة إليه، ويمكن رؤيته بالأبصار ويتصف بالصفات. وموقف السلف من هذه الألفاظ هو أنهم لا يقبلونها على إطلاقها ولا يردونها مطلقاً، فمن تكلم بها سئل عن مراده فإن أراد حقاً قبل وإن أراد باطلاً رد.

والسبب أنها ألفاظ مجملة مشتملة على حق، ومشتملة على باطل، وليس معناها عند المتكلمين هو معناها في اللغة العربية؛ فإن جوهر الشيء هو أصله وطبيعته التي خلق عليها، والجسم في اللغة هو الكثيف الغليظ، والعَرَض: هو ما يعرض ثم يزول.

ولكن السلف كرهوا هذه الألفاظ لاشتمالها على أشياء كثيرة مخالفة للكتاب والسنة، وفي هذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «فالسلف والأئمة لم يذموا الكلام لمجرد ما فيه من الاصطلاحات المولَّدة كلفظ الجوهر والعَرَض والجسم وغير ذلك، بل لأن المعاني التي يعبِّرون عنها بهذه العبارات فيها من الباطل المذموم في الأدلة والأحكام ما يجب النهي عنه لاشتمال هذه الألفاظ على معان مجملة في النفي والإثبات»[١].

وقال كذلك: «والأصل في ذم السلف للكلام هو اشتماله على القضايا الكاذبة والمقدمات الفاسدة المتضمنة للافتراء على الله تعالى وكتابه ورسوله ودينه»[٢]. ولهذا فليس عند أهلها حتى العلماء منهم ما يوجد عند عوام المؤمنين من الإيمان والمعرفة واليقين.

(٢٠) منهج ابن أبي العز في الطحاوية:

يرتكز منهج ابن أبي العز في شرحه على أمور:

أولها: أنه يتبع منهج السلف في الشرح، ولا يخرج عنه.

وثانيها: أنه شرح مختصر، وليس مسهباً مطولاً.

وباعث الاختصار والتهذيب هو أن النفوس تميل بجبلَّتها وطبيعتها إلى الإيجاز وعدم الإكثار والإطناب.

---

(١) درء تعارض العقل والنقل (١/ ٤٤).

(٢) درء تعارض العقل والنقل (٧/ ١٧٧).

٢١ الخلاصة:

١ ـ أسباب الضلال إما ترك الاتباع أو ترك النظر الموصل إلى معرفة الحق.

٢ ـ انتشر الخلاف وزادت البدع كلما بَعُدَ العهد عن النبوة، ولكن هناك طائفة مستمرة على الحق فأراد الطحاوي أن يكتب عقيدتهم.

٣ ـ الواجب اتباع الرسول ﷺ دون تقديم عقل أو ذوق أو سياسة.

٤ ـ ذم السلف علم الكلام لاشتماله على الباطل لا لمجرد كونه اصطلاحات جديدة.

٥ ـ القول بأن طريقة السلف أسلم وطريقة الخلف أعلم وأحكم قول باطل، بل متناقض، فإن ما يقتضي السلامة هو طريق العلم والحكمة.

٦ ـ كَتَبَ الشارح شرحه وفق طريقة السلف ﭫ.

٧ ـ العقيدة: مجموعة من قضايا الحق البدهية المسلَّمة بالعقل والسمع والفطرة يعقد عليها الإنسان قلبه، ويثني عليها صدره جازماً بصحتها، قاطعاً بوجودها وثبوتها، لا يرى خلافها أنه يصح أو يكون أبداً.

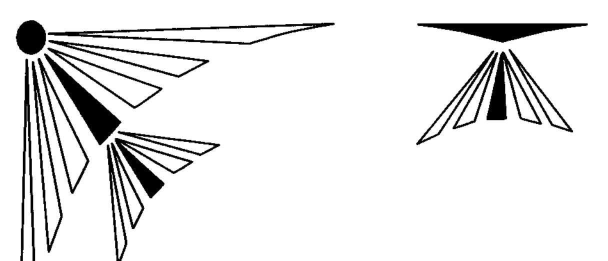
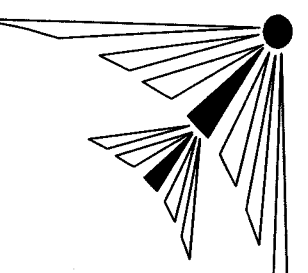
٨ ـ الصوفية على الضد من طريق المتكلمين؛ فالمتكلمون يقدمون العقل على النقل، والصوفية لا يقيمون للعقل وزناً، وإنما مصدرهم ـ فيما ابتدعوه ـ تقديمهم لما يسمونه الكشف ونحوه على كلام الله تعالى وكلام رسوله ﷺ.

٢٢ المناقشة:

- **س١:** ما السبب في ضلال من ضلَّ في مسائل أصول الدين؟ استدِلَّ لذلك من الكتاب والسنة؟
- **س٢:** ما موقف أهل السنة والجماعة مما أخبر الله به عن نفسه وما وصفه به رسوله ﷺ؟
- **س٣:** قال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ [يوسف: ١٠٨]، ذكر المؤلف معنيين لهذه الآية فأوضحهما. وهل بينهما تناف؟
- **س٤:** ما سبب ظهور البدع والتحريف؟
- **س٥:** بيِّن ما هو التحريف والتأويل الكلامي المذموم مع إيضاح الفرق بينهما وما شرط قَبول التأويل؟

- **س٦:** ما سبب التأويل الكلامي البدعي والنزاع في الدين؟
- **س٧:** ذمَّ السلف الكلام وأهله فما الباعث لهم على ذلك؟ وهل يذم الكلام مطلقاً؟
- **س٨:** أوضح وجه الدلالة على ذمهم من قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٦٨﴾﴾، وبيِّن وجه الشبه بين المتكلمين ومن نزلت فيهم الآية؟
- **س٩:** ذكر المؤلف أن التحريف والانحراف على مراتب مختلفة، فاذكرها مع التوجيه.
- **س١٠:** دلِّل على عموم رسالة النبي ﷺ، وهل دعوة باقي الرسل الآخرين عامة كذلك؟
- **س١١:** ذكر شارح الطحاوية أنَّ هناك شبهاً بين المنافقين الذين قال الله فيهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾﴾ [النساء: ٦٠]، وبين المتكلمين والفلاسفة. وضح ذلك.
- **س١٢:** ما حجج من ترك كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وحكَّم الرأي؟
- **س١٣:** حدث تقصير كبير من كثير من المسلمين في أمور الشريعة. فما سبب ذلك مع توضيح لما يترتب عليه من الشر؟
- **س١٤:** قال أبو يوسف: (العلم بالكلام هو الجهل، والجهل بالكلام هو العلم) اشرح هذا الكلام؟
- **س١٥:** ذم أبو يوسف الكيمياء، فقال: (من طلب المال بالكيمياء أفلس)، هل يشمل هذا ما يدرس في المدارس من مادة الكيمياء؟
- **س١٦:** اذكر بعض ما نقل عن السلف في ذم الكلام وأهله؟
- **س١٧:** قال بعض الخلف: (طريقة السلف أسلم وطريقة الخلف أعلم وأحكم) فهل ما يقولونه صحيح أم خطأ؟ علِّل لما تقول.

- **س١٨**: استعمل المتكلمون ألفاظاً لم يستعملها السلف كالجوهر والعرض والجسم وغيرها، عرِّف كلّاً من/ الجوهر - العرض - الجسم/ وما موقف السلف من هذه الألفاظ، مع التعليل؟ وهل معاني الألفاظ السابقة عند المتكلمين هي نفسها معانيها في اللغة العربية؟
- **س١٩**: ما منهج كل من الشارح والماتن في هذه العقيدة؟
- **س٢٠**: ما غرض الشارح ابن أبي العز من عقد هذه المقدمة؟
- **س٢١**: عدد أسماء علم التوحيد وألقابه، مع ذكر وجه التسمية.
- **س٢٢**: ما مصادر أهل السنة والجماعة في تلقي العقيدة؟
- **س٢٣**: اذكر قواعد أهل السنة وسمات منهجهم في تقرير العقيدة.
- **س٢٤**: بيِّن منزلة العقل في الإسلام، مع ذكر مناهج الناس في ذلك.
- **س٢٥**: بيِّن منهج الصوفية في الاستدلال لمسائل العقيدة.
- **س٢٦**: ما منهج الرافضة في الاستدلال لمسائل العقيدة؟

التوحيد

- حقيقة التوحيد ومسمّاه عند أهل السنة والمخالفين لهم، وتحته مباحث.
- من أصول التوحيد أن الله ﷻ ليس كمثله شيء، وتحته مباحث.
- كلمة التوحيد «لا إله إلا الله»، وتحته مباحث.
- كل ما يحدث في الكون فهو بإرادته ﷻ، وتحته مباحث.
- معرفة البشر ربهم بأسمائه وصفاته وعجزهم عن الإحاطة بكنهه وحقيقته، وتحته مباحث.
- إثبات الصفات (الخلق والرزق) ومن الصفات الفعلية أنه يحيي ويميت، وتحته مباحث.
- اتصاف الرب بصفات الكمال أزلاً وأبداً، وتحته مباحث.
- الله الخالق البارئ وهو الرب بكل معاني الربوبية قبل أن يخلق الخلق، وتحته مباحث.
- إثبات قدرة الرب على كل شيء والرد على المعتزلة، وتحته مباحث.
- الله ﷻ خلق الخلق وهو عالم بهم، وتحته مباحث.
- شمول علمه ﷻ، وتحته مباحث.



حقيقة التوحيد ومسمَّاه

* كلام ابن أبي العز:

١ ـ غرض المصنف من عقد هذا الباب.

٢ ـ مناسبة هذا الباب لما سبق.

٣ ـ معاني الكلمات.

٤ ـ الفرق بين الفقرات التي ذكرها الإمام الطحاوي في تقرير العقيدة في التوحيد.

٥ ـ معنى كلام الإمام الطحاوي: «نقول في توحيد الله معتقدين بتوفيق الله، إن الله واحد لا شريك له».

٦ ـ مفهوم التوحيد بين أهل السنة والمتكلمين.

٧ ـ مقارنة بين طريقتَيْ أهل السنة والمتكلمين في حقيقة التوحيد.

٨ ـ التوحيد أول دعوة الرسل.

٩ ـ أول واجب على المكلف.

١٠ ـ الإتيان بخصائص الإسلام دون التكلم بالشهادة.

١١ ـ أقسام التوحيد.

١٢ ـ مسمَّى التوحيد عند الجهم بن صفوان ومن وافقه.

١٣ ـ شرح قول ابن أبي العز: «وهذا القول قد أفضى بقوم إلى القول بالحلول والاتحاد».

١٤ ـ أدلة توحيد الربوبية.

١٥ ـ تقرير توحيد الربوبية عند المتكلمين.

١٦ ـ منهج المتكلمين في إثبات الوحدانية في الربوبية.

١٧ ـ خطأ استدلال المتكلمين على دليل التمانع بقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الأنبياء: ٢٢].

١٨ ـ العباد مفطورون على الإقرار بالتوحيد.

١٩ ـ أنواع الفطرة.

٢٠ ـ أدلة ثبوت الفطرة.

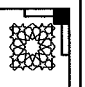
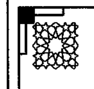
٢١ ـ الطوائف التي غلت في توحيد الربوبية.

٢٢ ـ الطوائف التي أشركت في الربوبية.

٢٣ ـ المقاييس العقلية لإبطال الشرك في الربوبية من كتاب الله.

٢٤ ـ الخلاصة.

٢٥ ـ المناقشة.

حقيقة التوحيد ومسمَّاه

قال ابن أبي العز رحمه الله تعالى:

«اعلم أن التوحيدَ[1] أَوَّلُ دعوةِ الرُّسل، وأَوَّلُ منازِلِ الطريق، وأَوَّلُ مقام يقومُ فيه السالكُ إلى الله ﷻ. قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩]. وقال هودٌ عليه السلام لقومه: ﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٦٥]. وقال صالحٌ عليه السلام لقوله: ﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ [الأعراف: ٧٣]. وقال شُعَيْبٌ عليه السلام لقومه: ﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ [الأعراف: ٨٥]. وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]. وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥]. وقال ﷺ: (أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ)[2].

ولهذا كان الصحيحُ[3] أنَّ أوَّل وَاجِبٍ يجب على المكلَّفِ شهادةُ أنْ لا إِلَه إلا[4] اللهُ، لا النظرُ، ولا القَصْدُ إلى النظر، ولا الشَّكُّ، كما هي أقوالٌ لأرباب الكلام المذموم، بل أئمةُ السلف كُلُّهم مُتَّفِقُون على أن أوَّل ما يُؤْمر به العبدُ الشهادتانِ، ومُتَّفِقُون على أنَّ مَنْ فعل ذلك قبل البلوغ لم يؤمر بتجديد ذلك عقيب بلوغه، بل يؤمر بالطهارة والصلاة إذا بَلَغَ أو ميَّز عند من يرى ذلك، ولم يُوجِبْ أحد منهم على وليِّه أن يُخاطِبه حينئذٍ بتجديد الشهادتين، وإن كان الإقرارُ بالشهادتين واجباً باتفاق المسلمين، ووجوبهُ يَسْبِقُ وجوبَ الصلاة، لكن هو أدَّى هذا الواجب قبلَ ذلك.

---

(١) مدارج السالكين (١/ ١٠١).

(٢) أخرجه البخاري (٢٥)؛ ومسلم (٢٢).

(٣) انظر: (درء تعارض العقل والنقل) (٨/ ٥، ١٠٦).

(٤) قال ابن حجر في فتح الباري (١٢/ ٣٤٩): (وفيه أي حديث: «أمرت أن أقاتل الناس» منع قتل من قال: لا إله إلا الله، ولم يزد عليها وهو كذلك، لكن هل يصير بمجرد ذلك مسلماً؟ الراجح: لا بل يجب الكف عن قتله، فإن شهد بالرسالة والتزم أحكام الإسلام حكم بإسلامه).

وهنا مسائلُ تكلَّم فيها الفقهاءُ: كَمَنْ صلَّى ولم يتكلمْ بالشهادتين، أو أتى بغير ذلك مِن خصائصِ الإسلام، ولم يتكَّلمْ بهما: هل يصيرُ مسلماً أم لا؟ والصحيحُ أنه يصير مسلماً بكل ما هو مِن خصائصِ الإسلام.

فالتوحيدُ أَوَّلُ ما يُدْخَلُ به في الإسلام، وآخِرُ ما يُخْرَجُ به من الدنيا، كما قال النبي ﷺ: (مَنْ كَانَ آخرَ كَلَامِهِ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ دَخَلَ الجَنَّةَ)[1]. وهو أَوَّلُ واجب وآخِرُ واجب.

فالتوحيدُ أولُ الأمرِ وآخِرهُ، أعني: توحيدَ الإلَهية، فإن التوحيد يتضمَّنُ ثلاثةَ أنواع:

أَحَدُهَا: الكلامُ في الصفات.

والثاني: توحيدُ الربوبية، وبيان أَنّ الله وحدَه خالقُ كل شيءٍ.

والثالث: توحيدُ الإلَهية، وهو استحقاقُه ﷻ أن يُعْبَدَ وحدَه لا شريكَ له.

أما الأول، فإن نفاةَ الصفاتِ أدخلُوا نَفْيَ الصِّفَاتِ في مسمّى التوحيد، كجهم بن صفوان ومن وافقه، فإنهم قالُوا: إثباتُ الصفات يستلزِمُ تعدُّدَ الواجِبِ[2]، وهذا القولُ معلومُ الفسادِ بالضَّرورَةِ، فإن إثباتَ ذاتٍ مُجرَّدة عن جميع الصفات لا يُتَصَوَّرُ لها وجودٌ في الخارج، وإنما الذِّهنُ قد يَفْرِضُ المُحالَ ويتخيَّلُه، وهذا غايةُ التعطيل.

وهذا القولُ قد أفضى بقومٍ إلى القول بالحُلولِ والاتحاد، وهو أقبحُ مِن كفر النصارى، فإن النصارى خصُّوه بالمسيح، وهؤلاء عمُّوا جميعَ المخلوقات.

ومِن فُروع هذا التوحيد[3]: أن فرعونَ وقومَه كامِلو الإيمانِ، عَارِفُونَ بالله على الحقيقة[4].

ومِن فروعه: أن عُبَّاد الأصنامِ على الحق والصَّوابِ، وأنهم إنما عبدُوا اللهَ لا غيرَه.

---

(١) أخرجه أبو داود (٣١١٦)، وأحمد (٥/ ٢٣٣).

(٢) معنى تعدد الواجب: تعدد الآلهة وأصل شبهتهم أنهم قالوا: أخص وصف للرب هو القدم قالوا: لو جعلنا لله صفات فلا بدّ أن تكون قديمة فبهذا نكون قد جعلنا مع الله قدماء. تعالى الله عما يقولون.

(٣) انظر: مدارج السالكين (٣/ ٤٤٨).

(٤) كل ما في الكون عندهم هو الله.

ومن فروعه: أنه لا فرقَ في التحريم والتحليل بين الأُمِّ والأُخت والأجنبية، ولا فرقَ بين الماء والخمر، والزنا والنكاح، والكُلُّ مِن عين واحدة، لا بل هو العينُ الواحدة.

ومن فروعه: أن الأنبياءَ ضَيَّقوا[١] على النَّاسِ، تعالى الله عمّا يقولونَ عُلُوّاً كبيراً.

وأما الثاني: وهو توحيدُ الربوبية، كالإقرار بأَنَّهُ خالق كُلِّ شيءٍ، وأنه ليس للعالَم صانعانِ متكافئان في الصِّفاتِ والأفعال، وهذا التوحيدُ حقٌّ لا ريبَ فيه، وهو الغايةُ عند كثيرٍ من أهل النظر والكلام وطائفة من الصوفية.

وهذا التوحيدُ لم يذهب إلى نقيضِهِ طائفةٌ معروفة من بني آدمَ، بلِ القلوبُ مفطورةٌ على الإقرارِ به أعظَمَ من كونها مفطورةً على الإقرارِ بغيره من الموجودات، كما قالَتِ الرُّسُلُ ﷺ فيما حكى اللهُ عنهم: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١٠].

وأشهرُ من عُرِفَ تَجاهُلُهُ وتظاهُرُهُ بإنكار الصانع[٢] فرعونُ، وقد كان مستيقناً به في الباطن، كما قال له موسى ﷺ: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء: ١٠٢]. وقال تعالى عنه وعَنْ قومه: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤]. ولهذا لما قال: وما ربُّ العالمين؟ على وجه الإنكار له تَجاهُلَ العارف، قال له موسى: ﴿قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الشعراء: ٢٤ ـ ٢٨].

وقد زَعَمَ[٣] طائفةٌ[٤] أن فرعونَ سأل موسى مستفهماً عن الماهيَّةِ[٥]، وأن

---

(١) من لوازم القول بهذا التوحيد الاتحادي أن يكون الأنبياء قد ضيقوا على الناس واسعاً، بحيث الزموا الناس بعبادة الله وحده، بينما عند الاتحادية من عبد غير الله فهو عابد لله حقيقة.

(٢) الصانع: ليس من أسماء الله تعالى كما ذهب إليه كثير من أهل العلم وقد عدَّ بعض أهل العلم، كابن مندة والبيهقي، الصانع اسماً لله وهذا غير صحيح لأن أسماء الله توقيفية فلا بدّ من دليل. انظر: شفاء العليل (ص٢٢٥)؛ والبدائع (١/ ١٦١).

(٣) الفتاوى (١٦/ ٣٣٤).

(٤) كابن الجوزي في زاد المسير (٦/ ١٢٢)؛ والقرطبي (١٣/ ٩٨)، والماهية: هي أصل الشيء وذاته؛ أي: حدود الأشياء كقولك ما الإنسان؟

(٥) الصحيح الذي عليه السلف أن فرعون كان يقول هذا منكراً جاحداً ومن زعم من أهل الكلام أن هذا سؤال عن الماهية فقد غلط كما ذكر المصنف. انظر: الفتاوى (١٦/ ٣٣٤).

المسؤول عنه لما لم تكن له ماهية، عَجَزَ موسى عن الجواب، وهَذا غَلَط، وإنما هذا استفهامُ إنكار وجَحْدٍ، كما دَلَّ سائرُ آيات القرآن على أن فرعونَ كان جاحِداً لله، نافياً له، لم يكن مثبتاً له، طالباً للعلم بماهيَّتِهِ. فلهذا بيَّن لهم موسى أنه معروف، وأن آياتِهِ ودَلائِلَ ربوبيته أظهرُ وأشهرُ من أن يُسْأَلَ عنه بما هُوَ؟ بل هو سبحانه أَعْرَفُ وأَظْهَرُ وأَبْيَنُ مِنْ أَنْ يُجْهَلَ؛ بل معرفتُه مستقرةٌ في الفِطَر أعظَمَ مِن معرفة كُلِّ معروف.

ولم يُعْرَفْ عن أحدٍ من الطوائف أنه قال: إن العالَمَ له صانعانِ متماثلانِ في الصفاتِ والأفعال، فإن الثَّنويَّةَ من المجوس، والمانَويَّةَ ـ القائلين بالأصلين: النورِ[١] والظُّلمةِ، وأن العالم صدَر عنهما ـ: متفقون على أن النورَ خيرٌ من الظُّلمة، وهو الإله المحمود، وأن الظلمةَ شِرِّيرة مذمومة، وهم متنازِعُونَ في الظُّلمة: هل هي قديمة أو محدثَة؟ فلم يثبتوا ربَّيْنِ متماثلين.

وأما النَّصارى القائلون بالتثليث؛ فإنهم لم يُثْبِتُوا للعالَمِ ثلاثةَ أربابٍ يَنْفَصِلُ بعضُهم عن بعض، بل متفقون على أن صانع العالَمِ واحدٌ، ويقولون: باسم الأب والابن وروحِ القُدس إله واحد.

وقولهم في التثليث متناقض في نفسه، وقولُهم في الحُلول أفسدُ منه، ولهذا كانوا مضطربينَ في فَهْمِهِ، وفي التعبير عنه، لا يَكَادُ وَاحِدٌ منهم يُعَبِّرُ عنه بمعنى معقولٍ، ولا يكاد اثنانِ يَتَّفِقَانِ على معنى واحدٍ، فإنهم يقولون: هو واحدٌ بالذات، ثلاثةٌ بالأقنوم! والأقانيم يُفسرونها تارةً بالخواص[٢]، وتارةً بالصفات[٣]، وتارةً بالأشخاص[٤]، وقد فَطَرَ الله العباد على فساد هذه الأقوال بعد التصوُّرِ التام، وبالجملة فهم لا يقولون بإثباتِ خالِقَين متماثِلَين.

والمَقصودُ هنا: أنه ليس في الطوائف مَنْ يُثْبِتُ لِلعالَم صانِعَيْنِ متماثِلَيْنِ، مع أن كثيراً من أهلِ الكلام والنظر والفلسفة تَعِبُوا في إثبات هذه المطلوبِ وتقريرِه،

---

(١) المراد بالنور (الله) وبالظلمة (الشيطان). انظر: درء التعارض (٩/ ٣٤٦).

(٢) يفسرونها بالخواص: اللاهوتية (الإلهية) والناسوتية (الإنسانية) والازدواجية بين الإلهية والإنسانية.

(٣) وتارة يفسرونها بالصفات: العلم والوجود والحياة.

(٤) وتارة يفسرونها بالأشخاص: الأب والابن وروح القدس فالله مركب من ثلاث ذوات وهذا مرادهم من التثليث.

ومنهم مَن اعترف بالعَجزِ عن تقرير هذا بالعقل، وزَعم أنه يُتَلَقَّى من السمع.

والمشهورُ عندَ أهلِ النَّظَرِ(١) إثباتُه بدليل التَّمانُع(٢)، وهو: أنه لَوْ كان لِلعَالَم صانعان، فعند اختلافِهما ـ مثلَ أن يُريدَ أحدُهُما تحريك جسم وآخرُ تسكينَه، أو يريد أحدُهما إحياءَه والآخر إماتَتَه ـ فإما أن يَحْصُلَ مرادهما، أو مرادُ أحدهما، أو لا يحصل مراد واحد منهما، والأول ممتنع؛ لأنه يستلزم الجمعَ بين الضِّدين، والثالث ممتنع؛ لأنه يلزم خُلُو الجسم عن الحركة والسكون، وهو ممتنع، ويستلزم أيضاً عجزَ كُلٍّ منهما، والعاجز لا يكون إلهاً، وإذا حصلَ مرادُ أحدِهما دونَ الآخر، كان هذا هو الإلهَ القادِرَ، والآخرُ عاجزاً لا يصلُحُ للإلهية، وتمامُ الكلام على هذا الأصل معروف في موضعه.

وكثير مِنَ أهلِ النظر يزعُمُون أن دليلَ التمانع هو معنى قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ﴾ [الأنبياء: ٢٢]. لاعتقادهم أن توحيد الربوبية الذي قرروه هو توحيدُ الإلهية الذي بيَّنَهُ القُرآنُ، ودعت إليه الرسلُ ﷺ، وليس الأمرُ كذلك، بل التوحيدُ الذي دعت إليه الرُّسُل، ونزلت به الكُتُبُ: هو توحيدُ الإلهية المتضمنُ توحيدَ الربوبية، وهو عبادةُ اللهِ وحدَه لا شريكَ له، فإن المشركينَ مِن العرب كانوا يُقِرُّون بتوحيد الربوبية، وأن خالِقَ السماواتِ والأرض واحدٌ، كما أخبر تعالى عنهم بقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾ [لقمان: ٢٥]. ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [المؤمنون: ٨٤، ٨٥]. ومثلُ هذا كثيرٌ في القرآن.

ولم يكونوا يَعْتَقِدُون في الأصنامِ أنَّها مشاركة لله في خَلْقِ العالم، بل كان حالُهم فيها كحالِ أمثالهم مِنْ مشركي الأممِ مِن الهند والترك والبَرْبَرْ وغيرهم، تارةً يَعْتَقِدُونَ أن هذه تماثيلُ قوم صالحين من الأنبياء والصالحين، ويَتَّخِذُونَهُمْ شُفعاءَ، ويتوسَّلُونَ بهم إلى الله، وهذا كان أصلَ شركِ العرب، قال تعالى حِكايةً عن قوم نوحٍ: ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾﴾ [نوح: ٢٣]، وقد ثبت في «صحيح البخاري» وكُتُبِ التفسير، وقَصَص الأنبياء وغيرها، عن ابن عباس رضي الله عنهما

---

(١) هم أهل الكلام.

(٢) سمي بالتمانع: لأنه مبني على فرض التمانع بحيث يتبين فيه تمانع الإلهية عن الألوهية؛ أي: تمانع الصانعين عن الصنع. انظر: الماتريدية لشمس الأفغاني (٣/ ١٦٩).

وغيرِه من السلَف: أنَّ هذه أسماءُ قوم صالحين في قومِ نوح، فلما ماتُوا، عَكَفُوا على قبورهم، ثم صَوَّرُوا تماثِيلَهم، ثم طَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ، فعبدُوهم، وأن هذه الأصنامَ بعينها صارت إلى قبائلِ العرب، ذكرها ابن عباس رضي الله عنهما قبيلةً قبيلةً(١).

وقد ثبت في «صحيح مسلم» عن أبي الهَيَّاجِ الأَسْدِي قال: قال لي عَليُّ بنُ أبي طالب رضي الله عنه: ألا أَبْعَثُكَ عَلَى مَا بَعَثَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ؟: (أَمَرَنِي أَنْ لا أَدَعَ قَبْراً مُشْرِفاً إلا سَوَّيْتُهُ، ولا تِمْثَالاً إلا طَمَسْتُه)(٢).

وفي «الصحيحين» عن النبي ﷺ أنه قال في مرض موته:

(لَعَنَ اللهُ اليَهُودَ وَالنَّصَارَى، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ) يحذِّر ما فعلوا، قالت عائِشةُ رضي الله عنها: «ولَوْلا ذَلِكَ لأُبْرِزَ قَبْرُهُ، ولكن كَرِهَ أن يُتَّخَذَ مسجداً»(٣).

وفي «الصحيحين» أنه ذُكِرَ في مرض موته كَنِيسَةٌ بأرضِ الحبشة، وذُكِرَ مِن حُسْنِهَا وتصاويرَ فيها، فقال: (إِنَّ أُولَئِكَ إِذَا مَاتَ فِيهِمْ الرَّجُلُ الصَّالِحُ بَنَوْا عَلَى قَبْرِهِ مَسْجِداً، وصَوَّرُوا فِيهِ تِلْكَ التَّصَاوِيرَ، أُولَئِكَ شِرَارُ الخَلْقِ عِنْدَ اللهِ يَوْمَ القِيَامَةِ»(٤).

وفي «صحيح مسلم» عنه ﷺ أنه قال: قبل أن يموتَ بخمس: (إِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُم كَانُوا يَتَّخِذُونَ قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ وصَالِحِيهِمْ مَسَاجِدَ، ألا فلا تَتَّخِذُوا القُبُورَ مَسَاجِدَ، فَإِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ)(٥).

ومِنْ أسبابِ الشرك عِبادَةُ الكواكب، واتِّخَاذُ الأصنام بحسب ما يُظَنُّ أنه مناسب للكواكب من طِباعها، وشِركُ قومِ إبراهيم عليه السلام كان ـ فيما يُقال ـ مِن هذا الباب. وكذلك الشِّرْكُ بالملائكة والجن، واتخاذُ الأصنام لهم.

وهؤلاء كانوا مُقِرِّين بالصانع، وأنه ليس لِلعَالَم صانعان، ولكن اتَّخذوا هؤلاء شفعاء، كما أخبر عنهم تعالى بقوله: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر: ٣]، وقال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي

---

(١) أخرجه البخاري (٤٩٢٠). (٢) أخرجه مسلم (٩٦٩).
(٣) أخرجه البخاري (١٣٣٠)، ومسلم (٥٢٩).
(٤) أخرجه البخاري (٤٢٧)، ومسلم (٥٢٨). (٥) أخرجه مسلم (٥٣٢).

﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ١٨﴾ [يونس: ١٨].

وكذلك كان حالُ الأمم السالفةِ المشركين الذين كَذَّبوا الرُّسُل كما حكى اللهُ تعالى عنهم في قصةِ صالح ﷺ عن التِّسعة الرَّهْط الذين تقاسَمُوا بالله، أي: تَحالفوا بالله لَنُبَيِّتَنَّهُ وأهلَه. فهؤلاءِ المفسدونَ المشرِكون تحالفُوا بالله على قتل نبيِّهم وأهله، وهذا بَيَّنَ أنَّهم كانوا مؤمنين بالله إيمانَ المشركين.

فَعُلِمَ أن التوحيدَ المطلوبَ: هو توحيد الإلهية، الذي يتضمَّنُ توحيدَ الربوبية. قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ٣٠﴾ إلى قوله: ﴿إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ [الروم: ٣٠ ـ ٣٦].

وقال تعالى: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١٠].

وقال ﷺ: (كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ على الفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ)[١]. ولا يقال: إن معناه: يُولَد سَاذَجاً لا يَعْرِفُ توحيداً ولا شركاً ـ كما قال بعضهُم ـ لِمَا تَلَوْنَا، ولقوله ﷺ فيما يَروي عن ربِّه ﷻ: (خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ فاجْتَالَتْهُمْ الشَّيَاطِينُ)[٢] الحديث.

وفي الحديث المتقدِّم ما يَدُلُّ على ذلك، حيث قال: (يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ)، ولم يقل: يُسْلِمَانِهِ، وفي رواية: (يُولَدُ عَلَى المِلَّةِ)، وفي أخرى: (عَلَى هَذِهِ المِلَّةِ).

وهذا الذي أخبر[٣] به ﷺ هو الذي تَشْهَدُ الأدِلَّةُ العقليةُ بصدقه:

منها: أن يُقَال: لا ريبَ أن الإنسان قد يَحْصُلُ له من الاعتقادات والإرادات ما يكونُ حَقّاً، وتارةً ما يكون باطلاً، وهو حسَّاس متحرك بالإرادات، ولا بُدَّ له من أحدهما، ولا بُدَّ له من مرجِّح لأحدهما، ونعلم أنَّه إذا عُرِضَ على كُلِّ أحد أن يُصَدِّقَ وينتفِعَ، وأن يُكَذِّبَ ويتضرَّر، مال بفطرته إلى أن يُصَدِّقَ وَيَنْتَفِعَ، وحينئذٍ فالاعتراف بوجود الصانع والإيمانُ به هو الحقُّ أو نقيضُه، والثاني فاسدٌ قطعاً، فتعَيَّنَ الأولُ، فَوجَبَ أن يكون في الفطرة ما يقتضي معرفةَ الصانع والإيمانَ به،

(١) أخرجه البخاري (١٣٥٨)، ومسلم (٢٦٥٨).
(٢) أخرجه مسلم (٢٨٦٥).
(٣) انظر: درء التعارض (٨/٤٥٦).

وبعد ذلك: إما أن تكون محبتُه أنفَع للعبد أو لا، والثاني فاسد قطعاً، فوجبَ أن يكون في فطرته محبةُ ما ينفَعُه.

ومنها: أنه مفطورٌ على جَلْبِ المنافعِ، ودفعِ المَضَارِّ بحسبه، وحينئذٍ لم تَكُنْ فطرة كُلِّ واحد مستقلةً بتحصيلِ ذلك، بل يحتاج إلى سببٍ مُعينٍ للفطرة، كالتعليم ونحوه، فإذا وُجِدَ الشرط[١]، وانتفى المانِعُ[٢]، استجابت لما فيها مِن المقتضي لذلك.

ومنها أن يُقَالَ: مِن المعلوم أن كُلَّ نفس قَابِلَةٌ للعلم وإرادةِ الحق، ومجردُ التعليمِ والتحضيض لا يُوجِبُ العلمَ والإرادةَ، لولا أن في النفس قُوَّةً تَقْبَلُ ذلك، وإلا فلَو عُلِّم [الجمادات][٣] والبَهَائمُ وحُضِّضا لم يَقبَلا. ومعلوم أن حُصُولَ إقرارِها بالصانع ممكن من غير سبب منفصلٍ من خارج، وتكونُ الذاتُ كافيةً في ذلك، فإذا كان المقتضي قائماً في النفس، وقُدِّرَ عَدَمُ المعارض، فالمقتضي السالِمُ عن المعارض يُوجِبُ مقتضاه، فعُلِمَ أن الفطرة السليمة إذا لم يَحصُل لها ما يُفسِدُها، كانت مقِرَّةً بالصانع، عابدةً له.

ومنها: أن يُقَال: أنه إذا لم يَحْصُلِ المفسدُ الخارج، ولا المصلحُ الخارج، كانت الفطرةُ مقتضيةً للصلاح؛ لأن المقتضي فيها للعلم والإرادة قائم، والمانع منتفٍ.

ويُحْكى عن أبي حنيفة رَحِمَهُ اللَّهُ: أن قوماً مِن أهل الكلام أرادوا البحثَ معه في تقريرِ توحيد الربوبية، فقال لهم: أخبروني ـ قبلَ أن نتكلَّمَ في هذه المسألة ـ عن سفينة في دِجلة، تَذْهَبُ فتمتلئ مِنَ الطعام والمتاعِ وغيره بنفسها، وتَعُودُ بنفسها، فتُرْسِي بِنَفْسِهَا، وتفرَّغ وتَرْجِعُ، كُلُّ ذلك من غير أن يُدَبِّرَها أحدٌ؟! فقالوا: هذا محال لا يُمْكِنُ أبداً! فقال لهم: إذا كان هذا محالاً في سفينةٍ، فكيف في هذا العالم كُلِّه عُلْوِهِ وسُفْلِهِ؟! وتُحْكى هذه الحكايةُ أيضاً عن غير أبي حنيفة.

فلو أَقَرَّ رَجُلٌ بتوحيد الربوبية، الذي يُقِرُّ به هؤلاءِ النُّظَّارُ، ويَفنى فيه كثيرٌ من أهلِ التصوف، ويَجْعَلُونَهُ غايةَ السالكين، كما ذكره صاحب «منازل السائرين»

---

(١) الشرط: هو التعليم بواسطة الرسل والكتب.

(٢) المانع: هو الذي يمنع الفطرة من الاستجابة إما لوجود شبهة أو شهوة.

(٣) في المطبوعة (الجهال) والمثبت من درء التعارض (٨/ ٤٦١).

وغيره، وهو مع ذلك إن لم يَعْبُدِ اللهَ وحدَه، ويتبرَّأ من عبادة ما سِواه، كان مشركاً مِن جنس أمثالِه مِن المشركين.

والقرآنُ مملوءٌ من تقرير هذا التوحيدِ، وبيانِه، وضربِ الأمثال له.

ومِنْ ذلك أنه يُقرِّر توحيدَ الربوبية، ويُبَيِّنُ أنه لا خالِقَ إلا اللهُ، وأن ذلك مستلزم أن لا يُعبَدَ إلا الله، فيجعل الأول دليلاً على الثاني، إذ كانوا يُسلِّمون في الأول، ويُنازِعُون في الثاني، فيبيِّن لهم سبحانه أنَّكم إذا كنتم تَعْلَمُونَ أنه لا خالقَ إلا الله وحده، وأنه هو الذي يأتي العِبَادَ بما يَنْفَعُهُمْ، ويدفع عنهم ما يضُرُّهم، لا شَريكَ له في ذلك، فَلِمَ تعْبُدُونَ غَيْرَهُ، وتَجعلون معه آلِهَةً أخرى؟! كقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [النمل: ٥٩، ٦٠].

أي: أإله مع الله فعَلَ هذا؟ وهذا استفهام إنكار، يتضمَّنُ نفيَ ذلك، وهم كانوا مقرِّين بأنه لم يفعلْ ذلك غيرُ الله، فاحتج عليهم بذلك، وليس المعنى أنه استفهام: هَلْ مع اللهِ إله؟ كما ظَنَّهُ بعضُهم؛ لأن هذا المعنى لا يُناسِبُ سِياقَ الكلامِ، والقَوْمُ كانوا يجعلون مع الله آلهةً أُخْرى، كما قال تعالى: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ﴾ [الإنعام: ١٩]. وكانوا يقولون: ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾﴾ [ص: ٥]، لكنهم ما كانوا يقولون: إنَّ مَعَه إِلَهاً جَعَلَ ﴿ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ﴾ [النمل: ٦١]، بل هم مُقِرُّونَ بأنَّ الله وحدَه فعل هذا، وهكذا سائرُ الآيات.

وكذلك قولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾ [البقرة: ٢١]، وكذلك قولُه في سورة الأنعام: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ۗ﴾ [الأنعام: ٤٦] وأمثال ذلك.

وإذا كان تَوْحِيدُ الربوبية الذي يَجْعَلُهُ هؤلاءِ النُّظَّار، ومَنْ وافقهم مِن الصوفية هو الغايَةَ في التوحيد: داخلاً في التوحيد الذي جاءت به الرُّسُلُ عليهم السلام، ونزلت به الكُتُبُ، فليعلم أن دلائلَه متعددة، كدلائلِ إثباتِ الصانع، ودلائلِ صِدْقِ

الرسولِ، فإنَّ العِلْمَ كُلَّمَا كان الناسُ إليه أَحْوَجَ، كانت أدلَّتُه أظهَرَ، رحمةً من الله بخلقه.

والقرآن قد ضَرَبَ الله للناس فيه من كل مَثل[1]، وهي المقاييسُ العقلية المفيدة للمطالب الدينية، لكنَّ القرآنَ يُبَيِّنُ الحقَّ في الحكم والدليل، فماذا بعدَ الحق إلا الضلالُ، وما كان من المقدِّمات معلومةً ضروريةً متفقاً عليها، استُدِلَّ بها، ولم يُحتجْ إلى الاستدلال عليها. والطريقة الفصيحةُ في البيان أن تحذف، وهي طريقة القرآن، بخلاف ما يدَّعيهِ الجُهَّالُ الَّذين يَظُنُّونَ أن القرآن ليس فيه طريقةٌ بُرهانية، بخلاف ما قد يَشْتَبِهُ ويقع فيه نزاعٌ، فإنه يُبيِّنُه ويَدُلُّ عليه.

ولما كان الشِّرْكُ في الربوبية معلومَ الامتناع عند الناسِ كُلِّهم، باعتبار إثبات خالِقَيْنِ متماثِلَيْنِ في الصفات والأفعال، وإنما ذهب بَعْضُ المشركين إلى أن ثَمَّ خالقاً خلق بعضَ العالم، كما يقوله الثَّنَوِيَّة في الظلمة[2]، وكما يقوله القَدَرِيَّة في أفعال الحيوان[3]، وكما يقوله الفلاسفة[4] الدَّهرية في حركة الأفلاك، أو حركات النفوس، أو الأجسام الطبيعية، فإنَّ هؤلاءِ يثبتون أموراً محدَثة بدون إحداث الله إيَّاها، فهم مشركون في بعض الرُّبوبية، وكثيرٌ من مشركي العرب وغيرهم قد يَظُنُّ في آلهتِهِ شيئاً من نفْعٍ أو ضُرٍّ، بدون أن يَخْلُقَ الله ذلك.

فلما كان هذا الشركُ في الربوبيةِ موجوداً في الناس، بيَّن القرآنُ بطلانَه، كما في قوله تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ﴾ [المؤمنون: ٩١]. فتأمل[5] هذا البرهانَ البَاهرَ، بهذا اللفظِ الوجيزِ الظاهر، فإنَّ الإله الحقَّ لا بُدَّ أن يكون خالقاً فاعلاً، يُوصِلُ إلى عابده النَّفْعَ، ويَدْفَعُ عنه الضُّرَّ، فلو كان معه سبحانَه إله آخرَ يَشْرَكُه في مُلكه، لكان له خَلْقٌ وفعل، وحينئذٍ فلا يرضى تلك الشركة، بل إن قَدَر على قهرِ ذلك الشريك، وتفرُّدِهِ بالمُلك، والإلهية دونَه؛ فعَلَ، وإن لم يَقْدِر على ذلك، انفرد بخَلْقِهِ، وذهب

---

(١) انظر: الصواعق المرسلة (٢/ ٤٦٠).

(٢) أي: أن الظلمة تخلق الشر.

(٣) أي: أن كل عبد يخلق فعل نفسه من إرادة الله سبحانه.

(٤) حيث يقولون: إن حركة الأفلاك سبب في حصول الحوادث وأن الأفلاك مؤثرة.

(٥) الصواعق المرسلة (٢/ ٤٦٣)؛ ومنهاج السنّة (٣/ ٣٠٤).

بذلك الخلق، كما يَنْفَرِدُ مُلُوكُ الدنيا بعضُهم عن بعضٍ بملكه إذا لم يَقْدِرِ المنفردُ منهم على قهرِ الآخر والعلوِّ عليه. فلا بُدَّ من أحد ثلاثة أمور:

إما أن يذهب كُلُّ إلهٍ بخلقه وسُلطانه.

وإما أن يَعْلُوَ بَعْضُهم على بعض.

وإما أن يكونوا تحتَ قهر مَلِكٍ واحد يتصَّرفُ فيهم كيف يشاء، ولا يتصرَّفُونَ فيه، بل يكون وحدَه هو الإلهَ، وهم العبيدُ المربوبون المقهورون مِن كُلِّ وجهٍ.

وانتظامُ أمر العالَم كُلِّه، وإحكامُ أمره، مِنْ أدلِّ دليلٍ على أنَّ مدبِّرَه إله واحد، ومَلِكٌ واحد، وربٌّ واحد، لا إله للخلق غيرُه، ولا ربَّ لهم سواه، كما قد دلَّ دليلُ التمانع على أن خالق العالم واحدٌ، لا رَبَّ غَيْرُه ولا إله سواه، فذلك تمانع في الفعل والإيجاد[1]، وهذا تمانُع في العبادة والإلهية[2]، فكما يستحيلُ أن يكون للعالَم ربَّان خالقان متكافئان، كذلك يستحيل أن يكونَ لهم إلهان معبودان.

فالعِلم بأن وجودَ العالم عن صانِعَين متماثِلَين ممتنع لِذاته، مستقِرّ في الفِطَر، معلومٌ بصريح العقل بُطلانُه، فكذا تَبْطُلُ إلهيةُ اثنين.

فالآيةُ الكريمة موافقة لما ثَبَت واستقرَّ في الفِطَر مِن توحيدِ الربوبية، دالَّةٌ مثبتة مستلزِمةٌ لتوحيد الإلهية.

وقريبٌ من معنى هذه الآية قولُه تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ﴾ [الأنبياء: ٢٢]. وقد ظَنَّ طوائِفُ أن هذا دليلُ التمانع الذي تقدَّم ذِكْرُه، وهو أنه لو كان للعالَم صانعان... إلخ، وغَفَلُوا عن مضمون الآية، فإنَّه سبحانه أخبر أنَّه لو كان فيهما آلهةٌ غيرُه، ولم يقل: أربابٌ.

وأيضاً فإنَّ هذا إنما هو بعدَ وجودهما، وأنه لو كان فيهما ـ وهما موجودتان ـ آلهةٌ سواه لفسدتا.

وأيضاً فإنه قال: ﴿لَفَسَدَتَاۚ﴾، وهذا فسادٌ بعد الوجود، ولم يقل: لم يوجدا.

---

(١) أي: دليل التمانع الذي يقرر توحيد الربوبية يتضمن منع الفعل والصنع والخلق والإيجاد لغير الله.

(٢) أي: أن أدلة توحيد الألوهية تدل على منع صرف العبادة لغير الله.
انظر: تعليق ياسين العدني على شرح الطحاوية (ص٤٦).

ودلَّت الآية على أنه لا يجوز أن يكون فيهما آلِهةٌ متعدِّدةٌ، بل لا يكون الإلهُ إلَّا واحداً، وعلى أنه لا يجوز أن يكون هذا الإله الواحد إلا اللهُ ﷻ، وأن فسادَ السماوات والأرض يَلْزَمُ من كون الآلِهَةِ فيهما متعددةً، ومِنْ كون الإله الواحِدِ غيرَ الله، وأنه لا صلاحَ لهما إلا بأن يَكُونَ الإلَهُ فيهما هو اللهَ وحدَه لا غيرَه، فلو كان للعالم إلهان معبودان، لفَسَد نِظَامُهُ كُلُّه، فإنَّ قيامَه إنما هو بالعدل، وبه قامت السَّماواتُ والأرضُ، وأظلمُ الظُّلْمِ على الإطلاقِ الشِّرْكُ، وأَعْدَلُ العَدْلِ التوحيدُ.

وتوحيدُ الإلهية متضمِّنٌ لتوحيد الربوبية دونَ العكس، فَمَنْ لا يَقْدِرُ على أن يَخْلُقَ يكون عاجِزاً، والعاجزُ لا يَصْلُحُ أن يكون إلَهاً.

قال تعالى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ۝١٩١﴾ [الأعراف: ١٩١].

وقال تعالى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝١٧﴾ [النحل: ١٧].

وكذا قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ۝٤٢﴾ [الإسراء: ٤٢].

وفيها للمتأخرين قولانِ:

أحدُهما: لاتَّخذوا سبيلاً إلى مغالبته[١].

والثاني ـ وهو الصحيحُ[٢] المنقول عن السلف، كقَتادة وغيره، وهو الذي ذكره ابن جرير ولم يَذْكُرْ غيرَه ـ لاتَّخذوا سبيلاً بالتقرُّبِ إليه، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ۝١٩﴾ [الإنسان: ٢٩]. وذلك أنه قال: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ﴾ وهم لم يقولوا: إن العالَم له صانعانِ، بل جعلوا معه آلهةً اتَّخذُوهُم شُفَعَاءَ، وقالُوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]، بخلاف الآيةِ الأولى.

---

(١) لو فرض ـ وهو متنع ـ وجود آلهة مع الله لاتخذوا سبيلاً إلى مغالبة ذي العرش وإزالة ملكه سبحانه، قاله الحسن وسعيد بن جبير، انظر: زاد المسير (٥/٣٨).

(٢) الشارح: يرجح القول الثاني ويدلك على ذلك بما يلي:
أ ـ أن السبيل قد جاء في آية أخرى في سورة الإنسان ومعناه التقرب والطاعة.
ب ـ أن المشركين لم يقولوا مع الله خالقاً أو صانعاً آخر وإنما يزعمون أنه ثم آلهة أخرى تقربهم إلى الله فمن شأن من أثبت صانعاً معه سبحانه أن يتخذ السبيل إلى المغالبة والقهر وأما من أثبت إلهاً آخر معه سبحانه فمن شأنه أنه يتقرب إليه بالطاعة ليقربه إلى الله زلفى وهذا هو شأن المشركين، انظر: الفتاوى (١٦/١٢٢ ـ ١٢٤).



عناصر الموضوع:

(١) غرض المصنف من عقد هذا الباب:

غرض الشارح من عقد هذا الباب بيان ما يلي:

أ ـ حقيقة التوحيد في الكتاب والسنة، وذكر المخالفين فيه.

ب ـ أن توحيد الألوهية هو الغاية من خلق الخلق وإرسال الرسل وإنزال الكتب.

(٢) مناسبة هذا الباب لما سبق:

بعد أن ذكر الإمام الطحاوي في المقدمة أنه ألَّف هذه الرسالة لبيان اعتقاد أهل السنة والجماعة على مذهب فقهاء الملة أبي حنيفة النعمان بن ثابت وصاحبيه، ناسب أن يبيِّن حقيقة التوحيد الذي هو حق الله الواجب والفرض الأعظم على جميع العبيد، وقد بيَّن ذلك في الفقرات التالية:

١ ـ نقول ـ في توحيد الله معتقدين ـ بتوفيق الله: إن الله واحد لا شريك له.

٢ ـ قديم بلا ابتداء، دائم بلا انتهاء.

٣ ـ لا تبلغه الأوهام، ولا تدركه الأفهام.

٤ ـ خالق بلا حاجة، رازق بلا مؤنة.

٥ ـ ما زال بصفاته قديماً قبل خلقه، لم يزد بكونهم شيئاً لم يكن قبلهم من صفته، وكما كان بصفاته أزلياً، كذلك لا يزال عليها أبدياً.

٦ ـ له معنى الربوبية ولا مربوب، ومعنى الخالق ولا مخلوق.

٧ ـ خلق الخلق بعلمه.

٨ ـ وأمرهم بطاعته، ونهاهم عن معصيته.

٩ ـ وهو متعال عن الأضداد والأنداد.

فقوله: «نقول ـ في توحيد الله معتقدين ـ بتوفيق الله: إن الله واحد لا شريك له. ولا شيء مثله».

فقوله: «ولا شيء مثله» في توحيد الأسماء والصفات.

وقوله: «لا شيء يعجزه» في توحيد الربوبية، والقدرة على ذلك في توحيد المعرفة والإثبات.

وقوله: «ولا إله غيره» في توحيد الألوهية، وذلك في توحيد الطلب والقصد.

وذكر هذا شارح الفقه الأكبر الملا علي قاري حيث قال: «ابتداء كلامه ﷻ في الفاتحة بالحمد لله رب العالمين يشير إلى تقرير توحيد الربوبية المترتب عليه توحيد الألوهية المقتضي من الخلق تحقيق العبودية»[(١)].

٣ معاني الكلمات:

الكلمة	المعنى
النظر	تفكر يؤدي إلى علم أو اعتقاد أو ظن.
الشك	الشك هو استواء طرفي العلم نفياً أو إثباتاً. كقولك: هذا زيد أو عمر. والمراد ها هنا أن يشك المرء في الله هل الله موجود أم لا؟.
القصد إلى النظر	وجود عزم على إثبات الربوبية من خلال النظر في الأدلة العقلية، أو تفريغ القلب عما يشغله عن النظر.
التعطيل	التعطيل من العطل وهو الخلو والترك، وعدم الاستعمال، وهدر الشيء، والمراد تعطيل أسماء الله تعالى وصفاته؛ أي نفيها وعدم الإيمان بها، وإنكارها إما بتأويل نصوصها، وهو التحريف مع التعطيل، وإما بتفويضها.
والتفويض	التفويض لغةً: تسليم الشيء لغيره والتوقف فيه وعدم الحكم عليه نفياً وإثباتاً. والمراد من التفويض تفويض معانيها وكيفيتها إلى الله تعالى، فالتفويض مستلزم للتعطيل، فالمفوض معطِّل. وأما التأويل فهو مستلزم للتحريف والتعطيل؛ لأن المؤول يحرف معنى النص، ويبدل معناه بمعنى آخر كقول الجهمي في (استوى): استولى. وأما التفويض فهو عدم الإيمان بمعنى النص، وتوكيله إلى الله تعالى من غير إثباته ومن غير تحريفه. فالمفوض معطل ولكنه غير محرف.
الحلول	الحلول من حل يحل وهو النزول في الشيء والإقامة فيه. والمراد ههنا سريان شيء في آخر، أو دخول شيء في آخر، وهو اعتقاد أن الله يحل في المخلوقات.

(١) شرح الفقه الأكبر (ص١٥).

الكلمة	المعنى
والاتحاد	الاتحاد لغة: هو تصير الذاتين واحدة أما تعريفه من حيث هو مذهب فهو اعتقاد كون وجود الكائنات هو عين وجود الله ليس وجودها غيره وعقيدة وحدة الوجود، وهي الاعتقاد بأن الله عين هذا الكون، وأن الخالق عين المخلوق، وأن الله تعالى عين الإنسان وعين الحيوان وعين الناكح وعين المنكوح. تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً. ولذا قال ابن القيم: «يا أمة معبودها موطوؤها أين الإله وثغرة الطعان».
أهل النظر	من يقول بوجوب الأدلة العقلية المنطقية في إثبات الربوبية وهم أهل الكلام.
الماهية	مأخوذة من/ما هو/ والمقصود خصائصها الذاتية.
التمانع	التمانع هو التفاعل من المنع، وهو محاولة كل واحد من الشيئين بضد مراد الآخر. وتوضيحه: إن زيداً أراد قتل عمر، فجاء بكر يقتله، واستعمل أهل الكلام دليل التمانع على بطلان تعدد الآلهة، وهو دليل عقلي صحيح، ولكنهم أخطأوا في جعل الإله بمعنى الرب والخالق؛ لأن الإله هو المعبود بحق أو باطل، ففسروا قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ بالتمانع مع أن الآية ليس فيها ذكر للتمانع لأن هذه الآية سيقت لبيان فساد تعدد الآلهة لا لبيان فساد تعدد الخالق، فإنه لو كانت هذه الآية لبطلان التمانع فقال: «لم تخلقا»، ولم يقل: «لفسدتا» لأن الفساد لا يتصور إلا بعد خلقهما. ولكن دليل التمانع في قوله تعالى: ﴿لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [المؤمنون: ٩١] بخلاف الآية السابقة.
الأقنوم	الأقنوم لغةً: الأصل، وهو أحد الأقانيم الثلاثة، وهي: الأب والابن وروح القدس، وعليها بنى النصارى عقيدتهم في التثليث.
اجتالتهم	أي تركوا الهدى والقصد، وجالوا مع الشيطان في الضلالة.
الإرادات	جمع إرادة وهي: حجب النفس عن مراداتها، والإقبال على أوامر الله تعالى والرضا.
الشرط	ما يتوقف وجود الشيء عليه، وهو خارج عن ماهيته.
المانع	ما يمنع من حصول الشيء.
الفطرة	الجبلة المتهيئة لقبول الدين.

٤ الفرق بين الفقرات التي ذكرها الإمام الطحاوي في تقرير التوحيد:

الفقرة	موضوعها	نوع الكلام فيها	الواجب فيه
ولا شيء مثله	توحيد الأسماء والصفات	هو من باب الخبر الدائر بين النفي والإثبات	إثبات ما أثبته الله لنفسه
قديم بلا ابتداء، دائم بلا انتهاء	توحيد الأسماء والصفات	هو من باب الخبر الدائر بين النفي والإثبات	إثبات ما أثبته الله لنفسه
لا يفنى ولا يبيد ولا يكون إلا ما يريد	توحيد الأسماء والصفات	هو من باب الخبر الدائر بين النفي والإثبات	إثبات ما أثبته الله لنفسه
لا تبلغه الأوهام، ولا تدركه الأفهام ولا يشبهه الأنام	توحيد الأسماء والصفات	هو من باب الخبر الدائر بين النفي والإثبات	إثبات ما أثبته الله لنفسه
حي لا يموت، قيوم لا ينام	توحيد الأسماء والصفات	هو من باب الخبر الدائر بين النفي والإثبات	إثبات ما أثبته الله لنفسه
خالق بلا حاجة، رازق بلا مؤنة	توحيد الأسماء والصفات	هو من باب الخبر الدائر بين النفي والإثبات	إثبات ما أثبته الله لنفسه
ما زال بصفاته قديماً قبل خلقه، لم يزد بكونهم شيئاً لم يكن قبلهم من صفته، وكما كان بصفاته أزلياً، كذلك لا يزال عليها أبدياً	توحيد الأسماء والصفات	هو من باب الخبر الدائر بين النفي والإثبات	إثبات ما أثبته الله لنفسه
ليس بعد خلق الخلق استفاد اسم «الخالق»، ولا بإحداثه البرية استفاد اسم الباري	توحيد الأسماء والصفات	هو من باب الخبر الدائر بين النفي والإثبات	إثبات ما أثبته الله لنفسه
له معنى الربوبية ولا مربوب، ومعنى الخالق ولا مخلوق	توحيد الأسماء والصفات	هو من باب الخبر الدائر بين النفي والإثبات	إثبات ما أثبته الله لنفسه
خلق الخلق بعلمه ولم يخف عليه شيء قبل أن يخلقهم، وعلم ما هم عاملون قبل أن يخلقهم	توحيد الأسماء والصفات	هو من باب الخبر الدائر بين النفي والإثبات	إثبات ما أثبته الله لنفسه
وهو متعال عن الأضداد والأنداد	توحيد الأسماء والصفات	هو من باب الخبر الدائر بين النفي والإثبات	إثبات ما أثبته الله لنفسه
ولا شيء يعجزه	توحيد الربوبية	هو من باب الخبر الدائر بين النفي والإثبات	إثبات ما أثبته الله لنفسه

الفقرة	موضوعها	نوع الكلام فيها	الواجب فيه
خالق بلا حاجة، رازق بلا مؤنة	توحيد الربوبية	هو من باب الخبر الدائر بين النفي والإثبات	إثبات ما أثبته الله لنفسه
مميت بلا مخافة، باعث بلا مشقة	توحيد الربوبية	هو من باب الخبر الدائر بين النفي والإثبات	إثبات ما أثبته الله لنفسه
ذلك بأنه على كل شيء قدير، وكل شيء إليه فقير، وكل أمر عليه يسير، لا يحتاج إلى شيء	توحيد الربوبية	هو من باب الخبر الدائر بين النفي والإثبات	إثبات ما أثبته الله لنفسه
وقدر لهم أقداراً، وضرب لهم آجالاً	توحيد الربوبية	هو من باب الخبر الدائر بين النفي والإثبات	إثبات ما أثبته الله لنفسه
ولم يخف عليه شيء قبل أن يخلقهم، وعلم ما هم عاملون قبل أن يخلقهم	توحيد الربوبية	هو من باب الخبر الدائر بين النفي والإثبات	إثبات ما أثبته الله لنفسه
وأمرهم بطاعته، ونهاهم عن معصيته	توحيد الربوبية	هو من باب الخبر الدائر بين النفي والإثبات	إثبات ما أثبته الله لنفسه
وكل شيء يجري بتقديره ومشيئته، ومشيئته تنفذ، لا مشيئة للعباد، إلا ما شاء لهم، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن	توحيد الربوبية	هو من باب الخبر الدائر بين النفي والإثبات	إثبات ما أثبته الله لنفسه
يهدي من يشاء ويعصم ويعافي فضلاً، ويضل من يشاء، ويخذل ويبتلي عدلاً، وكلهم يتقلبون في مشيئته، بين فضله وعدله	توحيد الربوبية		إثبات ما أثبته الله لنفسه
ولا إله غيره	توحيد الألوهية	هو من باب الطلب الدائر بين المحبة والبغض، والأمر والنهي	١ ـ إثبات خلقه المتضمن لقدرته ومشيئته ٢ ـ وأمره المتضمن لما يحبه ويرضاه

٥ معنى كلام الإمام الطحاوي: «نقول في توحيد الله معتقدين بتوفيق[١] الله، إن الله واحد لا شريك له»:

إن الله تعالى واحد في كل شيء، واحد في ذاته، واحد في أفعاله، واحد في أسمائه وصفاته، واحد في استحقاقه للعبودية، لا شريك له في شيء من ذلك، فلا شريك له في خلقه وأمره ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤] و﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر: ٣] ولا شريك له في النفع والضر والإحياء وغير ذلك من ألوان التصرف والتدبير في هذا الكون.

وكذلك لا شريك له في أسمائه وصفاته، ولا شريك له في ألوهيته واستحقاقه للعبودية، ولا يتم توحيد عبد حتى يتخلص من كل أنواع الشرك هذه، ويأتي بضدها من أنواع التوحيد الواجب عليه، فيوحده في ربوبيته وأفعاله، ويوحده في أسمائه وصفاته، فلا يصف مخلوقاً بما لا يستحقه إلا الخالق، ويوحده في ألوهيته فلا يصرف أياً من أنواع العبادة لغيره ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: ٥]، ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات: ٥٦].

٦ مفهوم التوحيد بين أهل السنة والمتكلمين:

اختلف أهل السنة والفلاسفة[٢] والمتكلمون والمتصوفة في مفهوم التوحيد، فالتوحيد عند أهل السنة هو إفراد الله تعالى بالربوبية من خلق وتدبير مع إثبات أسمائه وصفاته الواردة في النصوص وتنزيهه سبحانه عن المثلية والمشابهة، وصرف العبادة كلها له دون غيره.

أما الفلاسفة[٣] فالتوحيد عندهم إثبات ذات مجردة عن الأسماء والصفات.

---

(١) قال ابن القيم في مدارج السالكين (١/ ٤١٤) «التوفيق: إرادة الله من نفسه أن يفعل بعبده ما يصبح به العبد، بأن يجعله قادراً على فعل ما يرضيه مريداً له محباً له مؤثراً له على غيره ويبغض إليه ما يسخطه».

(٢) الفلاسفة هم الذين ينظرون إلى طبائع الأشياء بفكرهم لمعرفة عللها والأسباب الخفية وراء ظهورها، والفلاسفة لم يتوقفوا في النظر والتفكير فيما هو ظاهر أمام أعينهم من المخلوقات، وإنما راحوا يبحثون فيما وراء ذلك، وهو الخالق جل وعلا، ويسمون ذلك ما وراء الطبيعة، أو يسمونه الإلهيات. انظر: كتاب مبادئ الفلسفة (ص٢٤ ـ ٢٥)، ترجمة د. أحمد أمين.

(٣) هذا قول لبعض الفلاسفة المنتسبين للإسلام، أما الفلاسفة المتقدمون فهم على أقسام:
أ ـ الفلاسفة الملاحدة: المنكرون لوجود الخالق تبارك وتعالى، وهم فرقتان: =

وأما المتكلمون[١] فالتوحيد عندهم اعتقاد الوحدانية لله ذاتاً وصفة[٢] وفعلاً[٣]، فغلوا في توحيد الربوبية وأهملوا توحيد الألوهية تماماً، مع نفيهم لكثير من الصفات، وأما المتصوفة الاتحادية فتوحيدهم أن الله موجود أزلاً في كل شيء حتى الكلب والخنزير والقرد.

وأما المتصوفة الحلولية فتوحيدهم أن الله حل في كل شيء. والمتصوفة الذين يؤمنون بوحدة الذات الإلهية أي أن الموجود الحقيقي هو الله وحده، وكل المخلوقات صور له منذ الأزل. . . بينما المتصوفة الحلوليون يعتقدون أن الله يحل في عباده الصالحين، بكثرة العبادة وإخلاص الحب لله. والتوحيد الذي أرسلت به الرسل ودعت إليه: هو توحيد الألوهية، والدليل قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩].

وقال هود وصالح وشعيب لأقوامهم: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٧٣].

= **الأولى**: الدهريون القائلون بالجوهر الفرد، فيعتقدون أن الكون تكون من ذرات صغيرة تتحرك في الفضاء، ثم بسبب الحركة الوقتية تتجمع فتحدث مظاهر الحياة. وعلى هذا المذهب أبيقور وديمقريطس وغيرهم. انظر: مبادئ الفلسفة (ص١٦٤).

الثانية: الوجوديون: وهم الذين يزعمون بأن الله، تعالى عمَّا يقولون، هو هذا الكون كله، وليس له ذات قائمة بنفسها، بل هو حال في كل شيء. وعلى هذا المذهب الرواقية ومنهم زينون وسبينوزا. انظر: موسوعة الفلسفة (١/ ٥٣٩)، ومذكرة العقيدة للخلف (ص٩٦).

ب ـ الفلاسفة المؤلهة: وهم القائلون بوجود موجود أعلى، يسمونه الإله، وهم كثير من الفلاسفة، منهم سقراط وأفلاطون وأرسطو وغيرهم، إلا أنهم يختلفون في كلامهم عن هذا الإله بالنسبة لصفاته وأفعاله إلى أقوال تعود في جملتها إلى ادعاء أن الله تبارك وتعالى عقل أوحد لا يتغير ولا يتحرك، وهو محرك للأشياء كتحريك المعشوق لعاشقه وهو علة وجود الأشياء.

وقالوا في إيجاد هذا الكون: إن المادة والصورة للأشياء أزلية غير مخلوقة، ثم إن الله تبارك وتعالى في زعمهم أوجد ما يسمونه النفس الكلية، ثم النفس الكلية صنعت نفوس الكواكب وجعلتها آلهة مثلها، ثم إن هذه النفوس تعاونت مع الله تعالى في صنع بقية العالم وتدبيره. انظر: موسوعة الفلسفة (١/ ٥٧٩)، ومذكرة العقيدة للخلف (ص٩٧).

(١) المتكلمون: هم الذين عزلوا الشرع أن يكون مصدرهم في الاعتقاد، وجعلوا مصدرهم في ذلك العقل أو المسائل العقلية المقرة في علم الكلام المتأثر بفلاسفة اليونان وغيرهم. انظر: مذكرة العقيدة للخلف (ص١٠٢).

(٢) المعتزلة يجعلون نفي الصفات هو التوحيد، قال عبد الجبار الهمداني في شرح الأصول الخمسة (ص١٢٨) في تعريف التوحيد: (هو العلم بأن الله واحد لا يشاركه غيره فيما يستحق من الصفات نفياً وإثباتاً على الحد الذي يستحقه والإقرار به).

(٣) انظر: كتاب الإرشاد للجويني (ص٥٠)، وقواعد العقائد للغزالي (ص١٤٤).

٧ مقارنة بين طريقتيْ أهل السنة والمتكلمين في حقيقة التوحيد:

أهل السنة	أهل الكلام
يعظمون نصوص التوحيد الواردة في الكتاب والسنة سواء كانت من باب الخبر أو من باب الطلب.	يعظمون نصوص التوحيد الواردة إذا كانت من باب الخبر، ويهملون نصوص التوحيد إذا كانت من باب الطلب.
مفهوم التوحيد عند أهل السنة: اعتقاد الوحدانية لله ذاتاً وصفة وفعلاً، وإفراده بالألوهية والعبادة.	مفهوم التوحيد عندهم: اعتقاد الوحدانية لله ذاتاً وصفة وفعلاً.
أول واجب على المكلف: شهادة أن لا إله إلا الله.	أول واجب على المكلف: النظر أو القصد إلى النظر أو الشك.
أقسام التوحيد من خلال استقراء نصوص الكتاب والسنة: أ ـ توحيد الألوهية. ب ـ توحيد الربوبية. ج ـ توحيد الأسماء والصفات.	أقسام التوحيد عندهم: أ ـ توحيد الذات. ب ـ توحيد الصفات. ج ـ توحيد الأفعال.

٨ التوحيد أول دعوة الرسل:

التوحيد أول دعوة الرسل، وأول ما أمر الله به من الواجبات، فجميع الكتب السماوية وجميع الرسل وخصوصاً نبينا محمد ﷺ دعوا إلى توحيد الله وحده بالعبادة كلها، وإخلاص الدين له وحده، ونهوا عن ضده من الشرك، والدليل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

فأخبر الله تعالى أنه أرسل في كل طائفة من الناس رسولاً يأمرهم بعبادة الله وحده، وينهاهم عن عبادة ما سواه، فدين الأنبياء واحد، وهو إخلاص العبادة لله، وإن اختلفت شرائعهم. قال الله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨].

٩ أول واجب على المكلف:

معرفة الله ﷻ من الأمور الفطرية الضرورية وإذ هبت الفطرة السليمة فتحصل بعد ذلك بالنظر هذا مذهب أهل السنّة والجماعة[1] وأما أهل الكلام فقد خالفوا أهل السنّة وادعوا أن معرفة الله كسبيه ثم اختلفوا بعد ذلك في اكتساب هذه المعرفة على ثلاثة أقوال المقصود أن: أول واجب على المكلف الشهادتان قولاً

(١) انظر: درء التعارض (٧/ ٣٥٤).

واعتقاداً وعملاً، لا النظر[١] ولا القصد[٢] ولا الشك[٣]، كما هي أقوال أرباب الكلام المذموم، ويقصدون بذلك أن القصد إلى النظر هو النظر في الأدلة، العقلية، الكلامية والشك هو الشك في ذات الله ووجوده حتى يحصل اليقين من خلال النظر في الأدلة، الكلامية وقالوا بوجوب النظر، لأن الغاية عندهم من خلق الخلق وإرسال الرسل إنما هي توحيد الربوبية فقط، والحق القول الأول المنقول عن السلف، ودليله قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، وقوله عليه الصلاة والسلام: **(من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة)**[٤].

وقد ذكر ابن أبي العز أدلة ذلك، ووجه الدلالة من الآيات ظاهر، فإن هؤلاء الرسل عليهم الصلاة والسلام أول ما دعوا إليه أقوامهم هو عبادة الله وحده لا شريك له، وترك عبادة غيره، وإفراد الله بالعبودية هو أحد أنواع التوحيد الثلاثة المدلول عليها بكلمة الشهادة «لا إله إلا الله»، فتعين أن أول واجب هو الشهادتان:

وأما وجه الدلالة من الحديثين وما في معناهما كحديث معاذ وحديث قصة وفاة أبي طالب وأن النبي ﷺ كان يأمره بكلمة يحاج له بها عند الله وهي كلمة «لا إله إلا الله»، فهذه الأحاديث ظاهر منها أن أول واجب هو النطق بالشهادتين إذ لو كان هناك شيء أوجب لأمر به النبي ﷺ معاذاً حينما بعثه إلى اليمن، ولأمر به عمه أبا طالب ولا سيما في الرمق الأخير من حياته، والرسول ﷺ كان حريصاً على هدايته وحزن لموته حزناً شديداً.

(١٠) الإتيان بخصائص الإسلام دون التكلم بالشهادة:

من أتى بشيء من خصائص الإسلام يكون مسلماً بكل ما هو من خصائص

---

(١) أي النظر في الأدلة الكلامية لمعرفة الله، وهذه المعرفة مبنية على إثبات حدوث العالم، فإذا كان حادثاً فلا بد له من محدث، فجعلوا عمدتهم في الاستدلال لإثبات الربوبية الاستدلال بحدوث العالم، فسلكوا في ذلك مسلكاً وعراً ومنهجاً عسراً لا يتناسب مع ما جاءت به الشريعة الإسلامية.

(٢) القصد إلى النظر: معناه القدر على التعبير على وجود الله من خلال الأدلة المنطقية الكلامية.

(٣) أي: الشك في الله وفي النبوة وهذه طريقة أبي هشام عبد السلام الجبائي المعتزلي، انظر في الرد عليه كتاب «الفصل» لابن حزم (٤/ ٧٤، ٧٥).

(٤) أخرجه أبو داود (٣١١٦)، والحاكم (١/ ٣٥١)، وأحمد (٥/ ٢٤٧) وغيرهم.

الإسلام مثل الصلاة والحج وغيرها، وقد قرر ذلك ابن أبي العز في شرحه للطحاوية[(١)].

وذهب البعض إلى أنه لا يحكم للمعين بالإسلام إلا إذا تلفظ بالشهادتين، واستدلوا بأن النبي ﷺ قال: (**أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله...**)[(٢)] فجعل الواجب التلفظ بها، وكذلك فإن أركان الإسلام تالية على النطق بالشهادتين كما في حديث «بني الإسلام»، فالذي يظهر لي ـ والله أعلم ـ أن القول الثاني أقرب للصواب. قال ابن العربي المالكي في أحكام القرآن (١/ ٤٨٢): «ولا يكفي فيه أن يقول: أنا مسلم، ولا أنا مؤمن ولا أن يصلي حتى يتكلم بالكلمة العاصمة التي علق النبي ﷺ الحكم بها في قوله: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله...»».

(١١) أقسام التوحيد:

١ ـ أنواع التوحيد عند أهل السنة ثلاثة:

أ ـ توحيد الأسماء والصفات: وهو إثبات أن لله صفات وأسماء تليق به وبجلاله، ونفي كل عيب ونقص عنه.

ب ـ توحيد الربوبية: وهو الإيمان والإقرار أن الله خالق كل شيء المالك المتصرف في جميع خلقه.

ج ـ توحيد الألوهية: وهو الإيمان والإقرار باستحقاقه سبحانه أن يعبد وحده لا شريك له، وصرف العبادة إليه، ويمكن ردها إلى نوعين ـ كما ذكر ابن تيمية ـ: توحيد في المعرفة والإثبات، وتوحيد في القصد والطلب، وذلك بإدخال توحيد الربوبية مع توحيد الأسماء والصفات في توحيد المعرفة والإثبات. وهذا التقسيم مستنبط من نصوص الكتاب والسنة، استنبطه أهل العلم وساروا عليه قبل ابن تيمية رحمه الله تعالى.

٢ ـ أنواع التوحيد عند أهل الكلام:

وأما التوحيد عند أهل الكلام فهو توحيد الذات، وتوحيد الصفات، وتوحيد الأفعال، فغلوا في توحيد الربوبية وأعرضوا عن توحيد الإلهية، وعطلوا كثيراً من صفات الله تعالى.

---

(١) تبعاً لشيخ الإسلام كما في كتاب الدرء (٨/ ١٤).

(٢) أخرجه البخاري (٢٥)، ومسلم (٢٢).

٣ ـ أنواع التوحيد عند الصوفية:

أما الصوفية فالتوحيد عندهم ثلاثة أنواع: توحيد العامة، وتوحيد الخاصة، وتوحيد خاصة الخاصة.

١٢ مسمى التوحيد عند الجهم بن صفوان ومن وافقه:

أدخل الجهم بن صفوان في مسمى التوحيد نفي الصفات بناء على شبهة تلقاها من الفلاسفة، ومضمونها أنهم لو أثبتوا الصفات لزم أن تكون واجبة لأن الصفات تابعة للذات، والذات قديمة واجبة، فإذا قلنا إن الصفات قديمة وواجبة لزم من ذلك تعدد القدماء والواجب، وهذا ضد التوحيد عندهم، فلذلك فهم يدخلون نفي جميع الصفات في مسمى التوحيد.

وقد رد عليهم ابن أبي العز بأن إثبات ذات مجردة عن جميع الصفات لا يتصور لها وجود في الخارج وإنما في الذهن.

١٣ شرح قول ابن أبي العز: «وهذا القول قد أفضى بقوم إلى القول بالحلول والاتحاد.

يرد ابن أبي العز على القائلين بالتعطيل المحض، حيث أدخلوا في مسمى التوحيد نفي الصفات أنه يلزم من قولهم هذا الحلول والاتحاد والعلاقة بين تعطيل الصفات والقول بالحلول والاتحاد علاقة دقيقة تحتاج إلى شيء من التوضيح كما يلي:

أولاً: أن الحلول هو أن يحل أحد الشيئين في الآخر.

ثانياً: الاتحاد أن يتحد الشيئان فيكونان شيئاً واحداً.

والفرق بينهما أن الحلول فيه إثبات لشيئين، وجود الله ووجود المخلوق لكن يجعلون الثاني محلاً وظرفاً للأول يعني: أن الله يحل في عباده، أما أهل الاتحاد فيزعمون أن الكون كله هو الله ولا فرق بين وجود الكون ووجود الله[(١)]. أما كيفية إفضاء بعض من أنكر الصفات إلى الحلول أو الاتحاد فمن المعلوم أن الصفات هي التي بها نميز بين وجود الله ووجود المخلوق، فإذا انتفى هذا المميز فلا يفرق بين وجود المبدع ووجود المبدع، وبين وجود الخالق ووجود المخلوق فيصير الوجود واحداً، وهذا هو حقيقة أولئك. فأول أمرهم نفي الصفات وآخر

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٢/ ١٤٠).

أمرهم أن قالوا: ما ثم موجود إلا الله[(١)]. أما معنى قول ابن أبي العز (فإن النصارى خصوه بالمسيح وهؤلاء عمموا جميع المخلوقات) فالشارح يريد أن يبين أن الاتحاد على نوعين:

١ ـ اتحاد عام: وهم الذين يقولون بأن الله امتزج بالكون كله.

٢ ـ اتحاد خاص وهو قول يعقوبية النصارى حيث يقولون: إن اللاهوت (الله) والناسوت (عيسى) عليه السلام اختلطا وامتزجا فصارا شيئاً واحداً[(٢)].

(١٤) أدلة توحيد الربوبية:

ذكر ابن أبي العز أدلة متنوعة تقرر توحيد الربوبية، وهي من الكتاب والعقل والفطرة، وانتظام أمر العالم وصلاحه، وكلها تدلُّ على أن خالق العالم رب واحد لا شريك له. وإليك تفصيل ذلك[(٣)].

أولاً: دليل الفطرة:

الفطرة: لغةً: هي الخلقة، والمراد بدليل الفطرة أن الله تعالى خلق العباد مفطورين على الإقرار به، واعتقاد أنه خالقهم وربهم، وهذا هو المروي عن كثير من السلف، فقد روى ابن جرير الطبري بسنده أن عمر رضي الله عنه مر بمعاذ بن جبل، فقال: «ما قوام هذه الأمة؟ قال معاذ: ثلاث، وهن المنجيات: الإخلاص، وهو الفطرة ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠]، والصلاة، وهي الملة، والطاعة، وهي العصمة، فقال عمر: صدقت».

وروى عن مجاهد أنه قال: «فطرة الله: الإسلام»[(٤)].

وهو قول أكثر السلف[(٥)]. وقد دلت على ذلك أدلة عديدة، منها:

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾ [الأعراف: ١٧٢].

وأخرج الإمام أحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً قال: (**إن الله أخذ الميثاق من**

(١) انظر: بغية المرتاد (ص٣٩٤)؛ والفتاوى (٢/٣٧٦، ٤٧١).

(٢) انظر: مجموعة الرسائل والمسائل (٤/٢٨ ـ ٣٠).

(٣) انظر: مذكرة العقيدة للدكتور سعود الخلف (ص٧٧ ـ ٨٢).

(٤) تفسير ابن جرير (٢١/٤٠).

(٥) انظر: شفاء العليل (٢/٣٩٧ ـ ٣١٥)، وانظر: القائد إلى تصحيح العقائد (ص١٨).

ظهر آدم بنعمان ـ يعني عرفة ـ فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها، فنثرهم بين يديه كالذر، ثم كلمهم قبلاً، قال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ﴾)[(١)].

وكذلك حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: **(كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه، كمثل البهيمة تنتج البهيمة هل ترى فيها جدعاء)**[(٢)].

وحديث عياض بن حمار المجاشعي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال ذات يوم في خطبته: **(ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني يومي هذا: كل مال نحلته عبداً حلال، وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أو يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً...)**[(٣)] الحديث.

فهذه الأدلة تدل على أن الخلق مفطورون على الإقرار بالخالق، وأنه ربهم وخالقهم، وأنهم تتغير فطرهم تلك مما يحرفهم إليه آباؤهم من اليهودية والنصرانية وغيرها.

ثانياً: دليل الآيات:

المراد بدليل الآيات، هو: العلامات الدالة على ربوبية الله تعالى، وهي كثيرة منها:

١ ـ الآيات الكونية:

وهي جميع ما يحيط بالإنسان ويصل إليه بنظره وفكره من مخلوقات الله، كالسماء والأرض والشجر والجبال والدواب والبحار والإنسان، ففي كل ذلك آيات باهرات واضحات على ربوبية الله تعالى.

وقد لفت الله تعالى نظر الإنسان إلى ذلك، قال عز من قائل: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾﴾ [آل عمران: ١٩٠]، و﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الذاريات: ٢٠، ٢١].

ولما سأل فرعون موسى عليه السلام عن رب العالمين، أجابه موسى عليه السلام بما يقطع حجته ويفضح كذبه، قال تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ

---

(١) أحمد (١/ ٢٧٢)، وذكر ابن كثير في تفسيره (٢/ ٢٤١) روايات عديدة في هذا المعنى، ورجح وقفها على ابن عباس رضي الله عنه.

(٢) البخاري (١٣٥٩).

(٣) مسلم (٢٨٦٥).

وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الشعراء: ٢٣ ـ ٣٨].

فهذه آيات ظاهرة ألجمت إمام الملاحدة وأخرسته وأظهرت خزيه وفجوره. والآيات الكونية ظاهرة لكل إنسان ولا تحتاج إلى كبير عناء في إدراك أن لها موجداً أوجدها، له كل صفات الكمال والجلال، وقد حدد الله تعالى وحصر الأوجه الممكنة في إيجاد الخلق، وذلك في قوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الطور: ٣٥، ٣٦].

فلا يخرج الأمر عن واحد من هذه الثلاثة، إما أن تكون الأشياء مخلوقة هكذا صدفة بدون موجد وخالق، وذلك باطل ببديهة العقول، وإما أن يكون الإنسان أوجد نفسه وأوجد غيره، وهذا باطل يعلمه كل إنسان من نفسه ويتيقنه. فلذا لم يكن واحد من هذين فلا يبقى إلا الأمر الثالث، وهو أن لها خالقاً، وهو الله تعالى الذي أوجدها ودبرها، وهو المتصرف وحده فيها.

٢ ـ الآيات التي أظهرها الله تعالى على أيدي أنبيائه:

الآيات والمعجزات التي أجراها الله تعالى على أيدي أنبيائه، هي دلائل عظيمة دالة على ربوبية الله وألوهيته، وصدق أنبيائه تعالى فيما دعوا إليه أقوامهم من التوحيد، وقد سماها الله تعالى آيات. قال تعالى: ﴿سَلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ﴾ [البقرة: ٢١١]. وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾﴾ [الإسراء: ١٠١، ١٠٢].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «وهذه الطريق من أقوى الطرق وأصحها وأدلها على الصانع وصفاته وأفعاله، وارتباط أدلة هذه الطريق بمدلولاتها أقوى من ارتباط الأدلة العقلية الصريحة بمدلولاتها، فإنها جمعت بين دلالة الحس والعقل، ودلالتها ضرورية بنفسها، ولهذا يسميها الله آيات بينات»[١].

٣ ـ الآيات المتلوة:

المراد بالآيات المتلوة كلام الله المنزل على أنبيائه، ومن أعظم ذلك القرآن

(١) الصواعق المرسلة (٣/ ١١٧٩).

الكريم، فهو آية مستقلة كافية من جميع الوجوه في الدلالة على الخالق تبارك وتعالى أصرح دلالة وأوضحها وأصدقها وأكملها.

قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ [العنكبوت: ٤٩ ـ ٥١].

فمن رام إثبات وجود الخالق تبارك وتعالى وربوبيته وألوهيته من خلال النص على ذلك فهو متوافر في القرآن، ومن رام إثبات ذلك من خلال إعجاز النص المنزل فذلك متوفر، فيكون من جنس آيات الأنبياء المحسوسة، بل هو أعظمها، وقد قال عليه الصلاة والسلام: **(ما من نبي إلا وأوتي من الآيات ما آمن على مثله البشر، وأوتيت روحاً فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة)**[١].

ومن هذه الناحية الأخيرة فإن كل إنسان يستطيع أن يجد في القرآن الدلالة على أن القرآن تنزيل من حكيم حميد، فالعالم بالتاريخ أو الجغرافيا أو الأحياء أو الطب أو الفلك أو غير ذلك من العلوم لو نظر في القرآن لوجد فيه الآيات البينات التي ترشده إلى أنه حق نزل بالحق، ويدعو إلى الحق، كما قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ [فصلت: ٥٣].

ولأهمية هذا النوع من التوحيد، إذ ترتبط به الغاية التي من أجلها خلق الإنسان، وهي عبادة الله ﷻ، جعله الله سبحانه مستقراً في الفطر، وجعل الإقرار به بين بني البشر عاماً، كما جعل دلائله من أوضح الدلائل والبراهين حتى تقوم الحجة على الإنسان بأكمل صورها وأوضح مبانيها. وهذا من عظيم لطف الله بخلقه ورحمته بهم، إذ علق نجاتهم وفلاحهم على مطلبٍ دليلهُ مستقر في فطرهم، دلائله من أوضح الدلائل والبراهين بل هي في كل شيء، كما قيل:

وفي كل شيء له آية ... تدل على أنه واحد

ولذا تجد أن الله ﷻ قد استدل في القرآن الكريم بآيات ربوبيته على ألوهيته

---

(١) أخرجه مسلم (٣٨٣).

واستحقاقه للعبادة دون ما سواه، وهذا ظاهر في الآيات السابقة من سورة يونس والنمل والعنكبوت والروم وغيرها.

(١٥) تقرير توحيد الربوبية عند المتكلمين:

يقرر المتكلمون توحيد الربوبية من ناحيتين:

الناحية الأولى: إثبات وجود الله.

والناحية الثانية: إثبات خلقه لهذا العالم.

وجعلوا عمدتهم في الاستدلال لإثبات الربوبية الاستدلال بحدوث العالم وسلكوا في إثبات ذلك طرقاً وعرة، منها:

الطريقة الأولى: الاستدلال بحدوث الأجسام والأعراض.

الطريقة الأخرى: الاستدلال عليه بالإمكان والوجوب، ومعنى هذه الطريقة أن الموجودات منقسمة إلى قسمين: إما واجب الوجود لذاته، وإما ممكن الوجود لذاته. وليس المقام مقام الرد، بل يكفي عرض المسألة على وجه الإيجاز[(١)].

(١٦) منهج المتكلمين في إثبات الوحدانية في الربوبية:

بعد أن ذكرت موقف المتكلمين من إثبات وجود الله أذكر دليلهم على وحدانية الخالق، ألا وهو دليل التمانع، وصفته أننا لو فرضنا وجود خالقين مدبرين مثلاً وأراد أحدهما تحريكاً لجسم والآخر يريد تسكينه، أو أراد أحدهما إماتته والآخر يريد إحياءه، فإما أن يحصل مرادهما، أو مراد أحدهما، أو لا يحصل مراد أي منهما، فالأول ممتنع؛ لأنه يستلزم الجمع بين الضدين، والثاني ممتنع؛ لأنه يستلزم خلو الجسم عن الحركة والسكون، والثالثُ يستلزم عجز كل واحد منهما، والعاجز لا يكون إلهاً، فالعاجز لا يستحق مقام الربوبية لعجزه، وهذا الدليل في إثبات وحدانية الرب، فإثباته ذلك ثابت بالنقل والعقل، كما قال تعالى: ﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [المؤمنون: ٩١]، والعقل يشهد بما نراه من إحكام وإتقان واستقرار في الكون أن الخالق لكل هذا واحد لا أكثر.

(١٧) خطأ استدلال المتكلمين على دليل التمانع بقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٢٢)﴾ [الأنبياء: ٢٢]:

دليل التمانع دليل عقلي صحيح في تقرير توحيد الربوبية لكن جعل الآية دليلاً عليه غير صحيح.

---

(١) انظر: مذكرة العقيدة للدكتور سعود الخلف (ص١٠٥).

وتفسير هذه الآية عند أهل السنة هو أنه تعالى يخبر عن نفسه المقدسة بأنه لا شريك له في ألوهيته، وأنه لو كان هناك آلهة معبودة غيره لاختلت أمور السماوات والأرض، ولفسد تدبيرهما، وهذا ما أشار إليه الطبري والقرطبي وابن كثير وغيرهم. وذكر القرطبي أن المقصود: لو كان فيهما آلهة خالقة غير الله لفسدتا، وهذا القول فيه نظر كما سيأتي. وأما استدلال المتكلمين بهذه الآية على دليل التمانع فغير صحيح، والرد عليه من وجوه:

الأول: أنه سبحانه أخبر أنه لو كان فيهما «آلهة غيره» ولم يقل «أرباب». فالآية تدل على إثبات توحيد الألوهية.

الثاني: أن هذا الفساد بعد وجود السمٰوات والأرض، فلو كان فيهما ـ وهما موجودتان ـ آلهة سواه لفسدتا.

الثالث: أنه قال «لفسدتا»، وهذا فساد بعد الوجود، ولم يقل «لم يوجدا»، أي لاختل أمرهما بعد أن خلقتا، ولم يقل: «لم تخلقا» أصلاً، فدل على أن الفساد المذكور إنما هو بعد وجودهما وخلقهما.

الرابع: أن الآية دلت على أنه لا يجوز أن يكون فيهما آلهة متعددة بل لا يكون إلا إله واحد.

الخامس: أنه لا يجوز أن يكون هذا الإله الواحد إلا الله ﷻ.

السادس: فساد السماوات والأرض يحدث إذا كانت الآلهة فيهما متعددة، أو كان الإله الواحد غير الله.

السابع: أنه لا صلاح للسماوات والأرض إلا بأن يكون الإله فيهما هو الله وحده لا غيره.

١٨ العباد مفطورون على الإقرار بالتوحيد:

تعريف الفطرة اصطلاحاً: قوة في النفس يميل بها العبد إلى حب الخير ومعرفة الله رباً منفرداً بالخلق والملك، والعباد مفطورون على معرفة الله، والدليل من الكتاب قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الروم: ٣٠].

ودليل السنة قوله ﷺ: **(كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه)**[١]، فدلت الآية والحديث على أن الإقرار بالربوبية أمر مودع في

(١) رواه البخاري (١٣٨٥)، ومسلم (٢٦٥٨).

النفوس، وهي مفطورة عليه ما لم تتدخل عوامل ومؤثرات أخرى لتغييره والتأثير على الإنسان تماماً كما هو مفطور بطبيعته على محبة ما يصلحه وينفعه، والخوف والحذر مما يضره ويفسد أمره والتطلع إليه ما لم تتدخل عوامل خارجية لتتغير هذه الفطرة.

وإن جميع أحكام الشرع الظاهرة والباطنة قد وضع الله في قلوب الخلق كلهم الميل إليها، فوضع في قلوبهم محبة الحق وإيثار الحق وهذا حقيقة الفطرة[(١)].

١٩ أنواع الفطرة:

قال ابن القيم: «والفطرة فطرتان، فطرة تتعلق بالقلب، وهي معرفة الله ومحبته وإيثاره على ما سواه، وفطرة عملية، وهي هذه الخصال، فالأولى تزكي الروح، وتطهر القلب، والثانية تطهر البدن، وكل منهما تمد الأخرى وتقويها»[(٢)].

٢٠ أدلة ثبوت الفطرة:

دل على ثبوت الفطرة النقل والعقل:

١ ـ أدلة القرآن على الفطرة: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٣٠﴾ [الروم: ٣٠].

٢ ـ أدلة السنة على الفطرة: «خلقت عبادي حنفاء فاجتالتهم الشياطين»[(٣)]، **«كل مولود يولد على الفطرة...»**، وفي الحديث المتقدم ما يدل على ذلك، حيث قال: **«يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه»**، ولم يقل: أو يسلمانه.

٣ ـ الدليل العقلي: وهذا الذي أخبر به ﷺ هو الذي تشهد الأدلة العقلية بصدقه: منها أن يقال: لا ريب أن الإنسان قد يحصل له من الاعتقادات والإرادات ما يكون حقاً، وتارة ما يكون باطلاً وهو حساس متحرك بالإرادات، فلا بد له من أحدهما ولا بد له من مرجح لأحدهما، ونعلم أنه إذا عرض على كل أحد أن يصدق وينتفع وأن يكذب ويتضرر مال بفطرته إلى أن يصدق وينتفع، وحينئذٍ فالاعتراف بوجود الصانع والإيمان به هو الحق أو نقيضه والثاني فاسد قطعاً فتعين الأول، فوجب أن يكون في الفطرة ما يقتضي معرفة الصانع والإيمان

---

(١) انظر: تفسير السعدي عند تفسير الآية ٣٠ من سورة الروم.

(٢) تحفة المودود (ص١٦١).

(٣) سبق تخريجه (ص١٠٠).

به، وبعد ذلك: إما أن تكون محبته أنفع للعبد أولاً، والثاني فاسد قطعاً فوجب أن يكون فطرته محبة ما ينفعه.

ومنها أنه مفطور على جلب المنافع ودفع المضار بحسه، وحينئذٍ لم تكن فطرة كل واحد مستقلة بتحصيل ذلك، يحتاج إلى سبب معين للفطرة، كالتعليم ونحوه فإذا وجد الشرط وانتفى المانع استجابت لما فيها من المقتضي لذلك.

ومنها أن يقال: من المعلوم أن كل نفس قابلة للعلم وإرادة الحق ومجرد التعليم والتحضيض لا يوجب العلم والإرادة لولا أن في النفس قوة تقبل ذلك، وإلا فلو علم الجماد والبهائم وحضضا لم يقبلا.

ومعلوم أن حصول إقرارها بالصانع ممكن من غير سبب منفصل من خارج، وتكون الذات كافية في ذلك فإذا كان المقتضي قائماً في النفس وقدر عدم المعارض، فالمقتضي السالم عن المعارض يوجب مقتضاه، فعلم أن الفطرة السليمة إذا لم يحصل لها ما يفسدها كانت مقرة بالصانع عابدة له.

ومنها أن يقال: إنه إذا لم يحصل المفسد الخارج ولا المصلح الخارج كانت الفطرة مقتضية للصلاح، لأن المقتضي فيها للعلم والإرادة قائم، والمانع منتف[1].

٢١ الطوائف التي غلت في توحيد الربوبية:

الطوائف التي تكلمت في توحيد الربوبية وغلت فيه هم أهل الكلام وأهل التصوف، وقد غلوا في هذا النوع لأنهم جعلوه هو الغاية من خلق الخلق، وهو المقصود من بعثة الرسل وإنزال الكتب، أما المتكلمون فإن هذا الغلو قد أفضى بهم إلى الإرجاء لكونهم اعتبروا توحيد الربوبية هو الغاية، فالمُقر عندهم بالربوبية كامل الإيمان حتى وإن ظهر منه ما ظهر، وكذلك أهملوا توحيد الألوهية تماماً، ولم يشيروا إليه مع أنه الغاية من بعثة الرسل، وأما أهل التصوف فانتهوا إلى القول بوجوب الفناء في ذات الخالق، وأفضى بهم ذلك إلى القول بالحلول والاتحاد وغير ذلك من الأفكار الباطلة.

٢٢ الطوائف التي أشركت في الربوبية:

من هذه الفرق: الفرعونية الذين أنكروا وجود الله ﷻ وربوبيته، ومنها:

---

(١) تقريب وترتيب شرح العقيدة الطحاوية (١/٣٢٦ ـ ٣٢٩)، وانظر: درء التعارض (٨/٤٥٦ ـ ٤٦٨).

المانوية ـ نسبة إلى ماني بن فاتك ـ، فأنهم يقولون بالأصلين، وهما النور والظلمة، وأن النور خير من الظلمة وهو الإله المحمود، والظلمة ممقوتة وهي الإله المذموم عندهم، واختلفوا هل الظلمة قديمة أم محدثة؟ ومن هذه الفرق: الثنوية، فالنور يعبر به عن الله ـ والظلمة وهي الشيطان، والمقصود أن النفوس فُطرت على التوحيد وجُبلت على الإقرار بالله ما لم تتدخل مؤثرات خارجية كالبيئة والتنشئة وكل ما يغيِّر تلك الفطرة، كما قال ﷺ: **(كل مولود يولد على الفطرة: فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه)**. ومن الفرق التي أشركت في الربوبية: النصارى، ومذهب النصارى: التثليث وهو أنهم متفقون على أن صانع العالم واحد، ويقولون باسم الأب والابن والروح القدس إله واحد. وهم متناقضون في تفسير حقيقة التثليث لا يكاد أحد منهم يعبر عنه بمعنى مفهوم، وفي الجملة لم يقل أحد من الطوائف بإثبات خالقين متساويين.

(٢٣) المقاييس العقلية لإبطال الشرك في الربوبية في كتاب الله:

يمكن اعتبار طريقة القرآن طريقة برهانية في إثبات التوحيد، أي طريقة تستعمل البرهان والأدلة، وهي المقاييس العقلية التي هي الأمثلة التي يضربها الله في كتابه لإثبات التوحيد، فهي أكبر برهان على ما بين الناس من أمور التوحيد وبطلان الشرك.

ومثاله وقوله تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾﴾ [المؤمنون: ٩١]. وفي الآية أكبر دليل وبرهان على إثبات توحيد الربوبية والألوهية وبطلان الشرك.

ففي هذه الآية يخبر الله تعالى أنه لم يتخذ ولداً، ولم يكن له شريك في الملك، ولو فرض أنه كان مع الله إله خالق لنتج عن هذا تنازعهما، فإما أن يذهب كل منهما بما خلق، وإما أن يعلو أحدهما على الآخر ويقهره، ولما لم يحصل هذا النزاع، ورأينا أمر الكون مستقراً محكماً فقد تقرر أنه ليس هناك إله آخر يُعبد بحق، غير الرب المنفرد الذي يوصل إلى عباده النفع، ويدفع عنهم الضرر، فلو كان معه غيره يشركه في ملكه لكان له خلق وفعل، وحينئذٍ فلا يرضى الشركة بل إن قدر على قهر ذلك الشريك فعل، وإن لم يقدر عليه ذهب بخلقه ذلك، كما انفرد ملوك الدنيا بعضهم عن بعض كل بممالكه، وإذا لم يقدر المنفرد منهم على قهر الآخر والعلو عليه فلا بد من ثلاثة أمور:

الأول: أن يذهب كل إله بخلقه وسلطانه.

الثاني: أن يعلو بعضهم على بعض.

الثالث: أن يكونوا تحت قهر ملك آخر يتصرف فيهم كيف يشاء ولا يتصرفون فيه، فالآية موافقة لما استقر في النفوس من أن توحيد الربوبية مقتضٍ ومستلزم لتوحيد الألوهية.

(٢٤) الخلاصة:

١ - التوحيد أول دعوة الرسل، وأول مقام يقوم فيه السالك إلى الله ﷻ.

٢ - أول واجب على المكلف شهادة أن لا إله إلا الله، لا النظر، ولا القصد إلى النظر، ولا الشك كما يزعمه أهل الكلام.

٣ - الأتيان بخصائص الإسلام مع النطق بالشهادتين يدخل في الإسلام.

٤ - التوحيد عند أهل السنة ثلاثة أنواع: الألوهية والربوبية والأسماء والصفات، وبعضهم يجعله في نوعين: توحيد المعرفة والإثبات، وتوحيد الطلب والقصد.

٥ - أدخل نفاة الصفات نفي الصفات في مسمى التوحيد ووقع غلاتهم في الحلول والاتحاد.

٦ - لم يثبت أحد خالقين متماثلين في الصفات والأفعال، وقد وقع الشرك في جوانب من توحيد الربوبية كشرك الثانوية كالثنوية والمانوية والنصارى.

٧ - غاية توحيد أهل الكلام تقرير الربوبية بما يسمونه «دليل التمانع» ويستدلون عليه بقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الأنبياء: ٢٢].

٨ - أصل شرك العرب الغلو في الصالحين.

٩ - جميع الخلق مفطورون على التوحيد كما دل على ذلك النقل والعقل.

(٢٥) المناقشة:

- **س١:** ما غرض المصنف من عقد هذا الباب؟
- **س٢:** ما مناسبة هذا الباب لما سبق؟
- **س٣:** ما هو أول دعوة الرسل؟ وضح ذلك مع الأدلة.
- **س٤:** ما أول واجب على المكلف عند كل من أهل السنة والمتكلمين مع الأدلة.
- **س٥:** هل يؤمر من يتكلم بالشهادتين قبل البلوغ بتجديدهما بعد البلوغ؟
- **س٦:** هل يحكم بإسلام من أتى ببعض خصائص الإسلام دون الشهادتين؟

- **س٧:** ماذا أدخل نفاة الصفات في مسمى التوحيد؟ وما هي شبهتهم؟ وما الجواب عليها؟ وإلى ماذا أفضى قولهم هذا؟ وضح ذلك.
- **س٨:** ما أصل الربوبية الذي لم يذهب إلى نقيضه أحد من الطوائف؟
- **س٩:** اذكر أسماء لطوائف أشركت في الربوبية، ووجه كونه لم تنقض أصله.
- **س١٠:** ما المقصود بدليل التمانع وفيما يستخدمه المتكلمون، وما الدليل عليه عند من اشتهر به، وكيف ترد على استدلالهم؟
- **س١١:** ما أصل شرك العرب، أذكر ذلك مع الأدلة؟
- **س١٢:** اذكر الأدلة النقلية والعقلية على أن الفطرة هي التوحيد؟
- **س١٣:** اذكر الدليل الصحيح على التمانع في الربوبية والألوهية مع الشرح.

أقسام التوحيد

* كلام ابن أبي العز.

١ ـ غرض المصنف من عقد هذا الباب.

٢ ـ مناسبة هذا الباب لما سبق.

٣ ـ معاني الكلمات.

٤ ـ تقسيم التوحيد عند أهل السنة.

٥ ـ فضائل توحيد الألوهية وثمراته.

٦ ـ معنى لا إله إلا الله، ومتى تنفع قائلها؟.

٧ ـ المخالفون لأهل السنة والجماعة في معنى لا إله إلا الله.

٨ ـ توحيد الألوهية هو الغاية.

٩ ـ مكانة توحيد الألوهية وأهميته.

١٠ ـ معنى تحقيق توحيد الألوهية وجزاء من حققه.

١١ ـ مراتب الناس في تحقيق توحيد الألوهية.

١٢ ـ توحيد الربوبية يستلزم توحيد الألوهية.

١٣ ـ الاستدلال بتوحيد الأسماء والصفات على توحيد العبادة.

١٤ ـ موقف أهل الكلام والتصوف من توحيد الألوهية.

١٥ ـ موقف المتكلمين من الشرك.

١٦ ـ شهادة الله لنفسه بالتوحيد.

١٧ ـ مراتب الشهادة.

١٨ ـ دليل التمانع في الألوهية.

١٩ ـ غالب سور القرآن متضمنة لنوعي التوحيد.

٢٠ ـ طريق القرآن في بيان استحقاق الله ﷻ للوحدانية.

٢١ ـ طرق الاستدلال على الوحدانية.

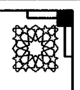
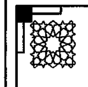
٢٢ ـ أكمل الناس توحيداً عند أهل السنة.

٢٣ ـ أقسام التوحيد عند الصوفية.

٢٤ ـ أبيات الهروي التي أوردها ابن أبي العز.

٢٥ ـ الخلاصة.

٢٦ ـ المناقشة.

أقسام التوحيد

ثم التوحيد[١] الذي دعت إليه رسُلُ الله، ونزلت به كتبُه نوعان: توحيدٌ في الإثبات[٢] والمعرفة، وتوحيدٌ في الطلب[٣] والقصد[٤].

فالأول: هو إثباتُ حقيقةِ ذاتِ الرَّبِّ تعالى وصفاتِه وأفعالِه وأسمائه، ليس كمثلِه شيء في ذلك كُلِّه، كما أخبر به عن نفسه، وكما أخبر رسولُه ﷺ. وقد أفصحَ القرآن عن هذا النوع كُلَّ الإفصاح، كما في أول «الحديد» و«طه» وآخر «الحشر» وأول «الم تنزيل» السجدة وأول «آل عمران» وسورة «الإخلاص» بكمالها، وغير ذلك.

والثاني: ـ وهو توحيدُ الطلبِ والقَصْدِ ـ، مثلُ ما تَضَمَّنَتْهُ سورةُ ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾، و﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ [آل عمران: ٦٤]، وأول سورة «تَنْزِيل الكِتابِ» وآخرها، وأول سورة «يونس» وأوسطها وآخرها، وأول سورة «الأعراف» وآخرها، وجملة سورة «الأنعام».

وغالبُ سور القرآن متضمنة لنوعَي التوحيد، بل كل سورة في القرآن، فالقرآن إمَّا خبرٌ عن الله وأسمائه وصفاته وأفعاله، وهو التوحيدُ العِلميُّ الخبري.

وأما دعوةٌ إلى عبادته وحدَه لا شريكَ له، وخَلْعِ ما يُعْبَدُ مِنْ دُونِه، فهو التَّوْحِيدُ الإراديُّ الطَّلَبيُّ.

وإما أمرٌ ونهي وإلزامٌ بطاعته، فذلك مِن حقوقِ التوحيد ومكمِّلاته.

وإما خبرٌ عن إكرامه لأهلِ توحيده، وما فَعَلَ بهم في الدنيا وما يُكرِمُهم به في الآخرة، فهو جزاء توحيدِه.

وإما خبرٌ عن أهلِ الشِّرْكِ، وما فَعَلَ بهم في الدنيا من النكال، وما يَحُلُّ بهم في العُقبى من العذاب، فهو جزاءُ مَنْ خرج عن حكم التوحيد.

---

(١) انظر: مدارج السالكين.
(٢) أي: توحيد الربوبية والأسماء والصفات.
(٣) معنى الطلب؛ أي: الأمر وذلك أن نصوصه وأدلته كلها أوامر.
(٤) معنى القصد؛ أي: أن تلك المأمورات لا بدّ أن يقصد بها الله وحده.

فالقرآن كُلُّه في التوحيد وحقوقه وجزائِه، وفي شأنِ الشركِ وأهله وجزائهم، فـ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ توحيد، ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ توحيد، ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ توحيد، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ توحيد، ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ توحيد متضمِّنٌ لِسؤال الهداية إلى طريق أهل التوحيد الَّذينَ أَنْعَمَ عليهم ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ الذين فارقوا التوحيد.

وكذلك شَهِدَ اللهُ لنفسه بهذا التوحيد، وشَهِدَتْ له به ملائكتُه وأنبياؤه ورُسُلُه: قال تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١٨ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ﴾ [آل عمران: ١٨ ـ ١٩].

فتضمَّنت هذه الآيةُ الكريمةُ إثباتَ حقيقةِ التوحيد، والرَّدَّ على جميعِ طوائف الضلالِ، فتضمنت أَجَلَّ شهادة وأعظمَها وأعدلَها وأصدَقها، من أجلِّ شَاهِدٍ، بِأَجَلِّ مشهودٍ به.

وعبارات السلف في «شَهِدَ» تدورُ على الحُكْم والقضاءِ، والإعلام، والبيان، والإخبار، وهذه الأقوالُ كُلُّها حق لا تَنَافِي بينها، فإنَّ الشهادةَ تَتضمَّنُ كلامَ الشاهد وخبرَه، وتتضمَّنُ إعلامَه وإخبارَه وبيانَه، فلها أربعُ مراتبَ:

فأَوَّلُ مراتِبها: عِلْمٌ ومعرفةٌ واعتقاد لصحة المشهود به وثبوته.

وثانيها: تَكَلُّمُه بذلك، وإن لم يُعْلِمْ بِهِ غَيْرَهُ، بل يتكلم بها مَعَ نفسه ويتذكرها وينطِقُ بها، أو يكتبها.

وثالثها: أن يُعْلِمَ غيره بما يَشْهَدُ به، ويُخْبِره به، ويُبَيِّنَهُ له.

ورابعها: أن يُلْزِمَهُ بمضمونها ويَأْمُرَهُ به.

فشهادةُ اللهِ سبحانه لِنفسه بالوحدانية، والقيام بالقِسْطِ تضمَّنَتْ هذه المراتبَ الأربع: عِلْمَه بذلك سبحانه، وتكَلُّمَهُ به، وإعلامه، وإخبارَه لخلقه به، وأمرَهم وإلزَمَهم به.

فأما مرتبةُ العلم، فإن الشهادة تضمَّنتها ضرورةً، وإلا كان الشاهدُ شاهداً بما لا عِلْمَ له به، قال تعالى: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٦]، وقال ﷺ: (عَلَى مِثْلِهَا فاشْهَدْ)(١)، وأشار إلى الشمس.

---

(١) أخرجه الحاكم (٤/٩٨)، والبيهقي (١٠/١٥٦) وفي سنده محمد بن سليمان المسمولي، ضعفه النسائي وأبو حاتم وابن عدي والحميدي.

وأما مَرْتَبَةُ التكلم والخبر، فقال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا ۚ أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الزخرف: ١٩] فجعل ذلك منهم شهادةً، وإن لم يَتَلَفَّظُوا بلفظِ الشهادة، ولم يُؤَدُّوها عند غيرِهم.

وأَمَّا مَرْتَبَةُ الإعلامِ والإخبارِ، فنوعان: إعلامٌ بالقولِ، وإعلامٌ بالفعل. وهذا شأنُ كُلِّ مُعَلِّم لغيره بأمر: تارةً يُعْلِمُهُ به بقوله، وتارةً بفعله. ولهذا كان مَن جَعَلَ داره مسجداً وفتح بابَها، وأفرزها بطريقها، وأَذِنَ للناس بالدُّخُولِ والصلاةِ فيها، مُعْلِماً أنها وَقْف، وإن لم يتلفَّظْ به.

وكذلك مَنْ وُجِدَ متقرباً إلى غيرِه بأنواع المَسارِّ، يكون مُعْلِماً له ولِغَيْرِهِ أنه يُحِبُّهُ، وإن لم يتلفَّظْ بقوله، وكذلك بالعكس.

وكذلك شهادةُ الربِّ ﷻ وبيانُه وإِعْلَامُه، يكون بقوله تارةً، وبفعله أخرى، فالقَوْلُ: ما أرسل به رُسُلَه وأَنْزَلَ به كُتُبَه، وأَمَّا بيانُهُ وإعلامُه بفعله، فكما قال ابنُ كَيْسان: شَهِدَ الله بتدبيره العجيبِ، وأمورِهِ المحكمةِ عند خلقه: أنه لا إله إلا هو، وقال آخر:

وفي كُلِّ شيءٍ لَهُ آيةٌ ... تَدُلُّ على أَنَّهُ وَاحِدُ

ومما يَدُلُّ على أن الشهادة تكون بالفعل قولُهُ تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ ۚ﴾ [التوبة: ١٧] فهذه شهادةٌ منهم على أنفسهم بما يفعلونَهُ.

والمقصود أنه سبحانه يَشْهَدُ بما جعل آياتِه المخلوقةَ دالةً عليه، ودلالتُها إنما هي بخَلقه وجَعْلِهِ.

وأما مرتبةُ الأمر بذلك والإلزام به ـ وإن مجردَ الشهادة لا يستلزِمُه، لَكِنَّ الشهادة في هذا الموضع تدلُّ عليه وتَتَضَمَّنُه ـ. فإنه سبحانه شَهِدَ به شهادةَ مَنْ حَكم به، وقضى وأمر، وألزمَ عبادَه به، كما قال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣]. وقال تعالى: ﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ ۖ﴾ [النحل: ٥١]. وقال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ﴾ [التوبة: ٣١]. وقال تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾ [الإسراء: ٢٢]. وقال: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾ [القصص: ٨٨] والقرآن كُلُّه شاهد بذلك.

ووجهُ استلزام شهادته سُبحانَه لذلك: أنه إذا شَهِدَ أنه لا إله إلا هو، فقد أخبر وبيَّن وأعلم وحَكَم وقَضَى أنَّ ما سواه ليس بإله، أو إلهيَّةَ ما سواه باطلة، فلا يَسْتَحِقُّ العبادةَ سواه، كما لا تَصْلُحُ الإلهيَّةُ لغيره، وذلك يَسْتَلْزِمُ الأمرَ باتخاذه وحدَه إلهاً، والنهي عن اتخاذِ غيره معه إلهاً، وهذا يَفْهَمُهُ المخاطَبُ مِن هذا النفي والإثبات، كما إذا رأيتَ رجلاً يستفتي رجلاً، أو يستشهِدُه، أو يستطِبُّه وهو ليس أهلاً لِذلك، ويَدَعُ مَنْ هو أهل له، فتقول: هذا ليس بمفتٍ، ولا شاهدٍ، ولا طبيب، المفتي فلان، والشاهدُ فلان، والطبيبُ فلان، فإن هذا أمر منه ونهي.

وأيضاً: فالآية دلَّت على أنه وَحْدَهُ المستحِقُّ للعبادة، فإذا أخبر أنه هو وحدَه المستحقُّ للعبادة، تضمَّن هذا الإخبارُ أمرَ العبادِ وإلزامَهم بأداءِ ما يستحِقُّ الربُّ تعالى عليهم، وأن القيامَ بذلك هو خالصُ حقِّه عليهم.

وأيضاً: فلفظ «الحكم» و«القضاء» يُسْتَعْمَلُ في الجملة الخبرية، ويقال للجملة الخبريةِ: قضيةٌ، وحكم، وقد حُكِمَ فيها بكذا، قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ [الصافات: ١٥١ ـ ١٥٤]. فجعل هذا الإخبار المجرَّد منهم حُكماً. وقال تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [القلم: ٣٥، ٣٦]. لكن هذا حُكم لا إلزام معه، والحكمُ والقضاءُ بأنه لا إله إلا هو متضمِّنٌ للإلزام.

ولو كان المرادُ مُجَرَّدَ شهادة لم يتمكَّنوا من العِلْم، بها ولم ينتفعوا بها، ولم تَقُمْ عليهم بها الحُجَّةُ، بل قد تضَمَّنَتِ البَيَانَ للعبادة ودلالتَهم وتعريفَهم بما شَهِدَ به، كما أن الشاهدَ مِن العبادِ إذا كانت عنده شهادة ولم يُبَيِّنْهَا بل كتمها لم يَنْتَفِعْ بها أحد، ولم تَقُمْ بها حجةٌ.

وإذا كان لا يُنْتَفَعُ بها إلا ببيانها فهو سبحانه قد بيَّنَها غايةَ البيانِ بطرق ثلاثة: السَّمْعِ والبَصَرِ والعَقْلِ.

أما السمعُ: فبسمع آياتِه المتلوَّة المبينة لما عَرَّفَنا إيَّاه مِن صفاتِ كماله كلِّها، الوحْدانيةِ وغيرها، غايةَ البيان، لا كما يَزْعُمُهُ[1] الجهميةُ ومَنْ وافقهم من المعتزلة

(١) قالوا: لم يرد الله من عباده ما دلت عليه آياته السمعية من إثبات معانيها التي وُضعت لها ألفاظها. انظر: مدارج السالكين (٣/ ٤٦٣).

ومُعطِّلة بعضِ الصِّفَاتِ من دعوى احتمالات تُوقِعُ في الحَيْرَةِ، تُنافي البَيَانَ الذي وصف الله بِه كتابَه العزيزَ ورَسُولَه الكريمَ كما قال تعالى: ﴿حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢﴾ [الزخرف: ١، ٢]، ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝١﴾ [يوسف: ١]، ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ۝١﴾ [الحجر: ١]، ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ۝١٣٨﴾ [آل عمران: ١٣٨]، ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [المائدة: ٩٢]، ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤].

وكذلك السُّنَّةُ تأتي مبيِّنَةً أو مقرِّرةً لما دلَّ عليه القرآنُ، لم يُحْوِجْنا ربُّنا ﷻ إلى رأي فلان ولا إلى ذوقِ[1] فلان وَوَجْدِهِ[2] في أصول ديننا.

ولهذا نَجِدُ مَنْ خالف الكِتابَ والسنّة مختلفينَ مضطربين، بل قد قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]. فلا يحتاج إلى تكميله إلى أمرٍ خارجٍ عن الكتاب والسنة.

وإلى هذا المعنى أشار الشيخ أبو جعفرٍ الطحاوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فيما يأتي من كلامه من قوله: «لا نَدْخُلُ في ذلك متأوِّلين بآرائنا، ولا متوهِّمين بأهوائنا، فإنه ما سَلِمَ في دينه إلا من سلَّمَ للهِ ﷻ ولرسولِهِ ﷺ».

وأما آياتُهُ العِيَانية الخَلقية: فالنظرُ فيها، والاستدلالُ بها يَدُلُّ على ما تَدُلُّ عليه آياتُهُ القوليةُ السمعية، والعقلُ يجمع بين هذه وهذه، ويَجْزِمُ بصحَّةِ ما جاءت به الرسلُ، فتتفق شهادةُ السمعِ والبصرِ والعقلِ والفطرةِ.

فهو سبحانه لكمال عَدْلِهِ ورحمته وإحسانه وحكمته ومحبته للعُذْرِ، وإقامة الحُجَّةِ، لم يبعث نبياً إلا ومعه آيةٌ تَدُلُّ على صِدقه فيما أخبر به، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥]. وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٤٣ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ﴾ [النحل: ٤٣، ٤٤]. وقال تعالى: ﴿قُلْ

---

(١) الذوق: من المصطلحات الصوفية ويعنون به بزعمهم أنه نور عرفاني يقذفه الحق بتجليه في قلوب أوليائه يفرقون به بين الحق والباطل من غير أن ينقلوا ذلك من كتاب أو غيره، انظر: التعريفات (ص١٠٧).

(٢) الوجد: من المصطلحات الصوفية فيقولون في تعريفه هو ما يصادف القلب ويرد عليه بلا تكلف وتصنع، انظر: التعريفات (ص٢٥٠) للجرجاني.

قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِي قُلْتُمْ﴾ [آل عمران: ١٨٣]. وقال تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾﴾ [آل عمران: ١٨٤]. وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ﴾ [الشورى: ١٧].

حتى إنَّ مِن أخفى آياتِ الرسل آياتِ هود، حتى قالَ له قومُه: ﴿يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ [هود: ٥٣] ومع هذا فبيِّنَتُه مِنْ أوضحِ البيناتِ لمن وفَّقه الله لِتدبرها، وقد أشار إليه بقوله: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ قَالَ إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ [هود: ٥٤ - ٥٦]. فهذا مِنْ أعظمِ الآيات: أن رجلاً واحداً يُخاطِبُ أمةً عظيمةً بهذا الخطاب، غيرَ جَزعٍ ولا فَزِعٍ ولا خَوَّارٍ، بل هو واثقٌ بما قاله، جَازِمٌ به، فأشهدَ الله أولاً على براءته مِن دينهم، وما هُمْ عليه، إشهادَ واثقٍ به معتَمِدٍ عليه، معلم لقومه أنه وَليُّه وناصِرُهُ وغيرُ مُسلِّطٍ لهم عليه، ثم أشهدَهم إشهادَ مجاهرٍ لهم بالمخالفة أنه بريءٌ مِن دينهم وآلهتهم التي يُوالُونَ عليها، ويُعادونَ عليها، ويبذُلُون دماءهم وأمواله في نصرتهم لها، ثم أكَّدَ ذلك عليهم بالاستهانة [بهم][1]، واحتقارهم وازدرائهم، ولو يجتمعون كلُّهم على كَيْده وشفاءِ غيظهم منه، ثم يعاجِلُونه ولا يُمهِلونه، لم يقدروا على ذلك إلا ما كتبه الله عليه، ثم قَرَّر دعوتهم أحسن تقرير، وبيَّن أن ربَّه تعالى وربَّهم الذي نواصيهم بيده هو وليُّه ووكيلُه القائم بنصره وتأييده، وأنه على صراطٍ مستقيم، فلا يَخْذُلُ من توكَّل عليه وأقرَّ به، ولا يُشمِتُ به أعداءَه.

فأيُّ آيةٍ وبُرهانٍ أحسنُ من آيات الأنبياء ﷺ وبراهينهم وأدلتهم؟ وهي شهادةٌ من الله سبحانه لهم، بَيَّنَها لعباده غايةَ البيان.

وَمِنْ أسمائه تعالى: «المؤمن»، وهو في أحد التفسيرين: المصدِّق الذي يُصَدِّقُ الصَّادقين بما يُقيمُ لهم من شواهد صدقهم، فإنه لا بُدَّ أن يُرِيَ العبادَ من الآيات الأُفقية والنفسية ما يُبَيِّنُ لهم أن الوحي الذي بلغه رسُلُه حَقٌّ، قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلْءَافَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣] أي: القرآن، فإنه هو المُتَقَدِّمُ في قوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [فصلت:

---

(١) المثبت من مدارج السالكين (٣/ ٤٦٥) وفي المطبوعة (لهم).

٥٢]، ثم قال: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣]، فَشَهِدَ سبحانه لرسوله بقوله: أن ما جاء به حق، ووعد أنه يُرِي العِبَادَ مَن آياته الفعلية الخلقية ما يَشهَدُ بذلك أيضاً، ثم ذكر ما هو أَعْظَمُ من ذلك كُلِّه وأجلُّ، وهو شهادته سبحانه بأنه على كل شيء شهيد، فإنَّ مِن أسمائه «الشهيدَ»، الذي لا يَغِيبُ عنه شيء، ولا يَعْزُبُ عنه، بل هو مُطَّلِعٌ على كُلِّ شَيءٍ مشاهد له، عليمٌ بتفاصيله.

وهذا استدلالٌ بأسمائه وصفاته، والأوَّلُ استدلال بقوله وكلماته، واستدلاله بالآياتِ الأُفقية والنفسية استدلالٌ بأفعاله ومخلوقاته.

فإن قلتَ: كيف يُسْتَدَلُّ بأسمائه وصفاته[1]، فإن الاستدلالَ بذلك لا يُعْهَدُ في الاصطلاح؟

فالجواب: أنَّ الله تعالى قد أَوْدَعَ في الفِطرة التي لم تَتنجَّسْ بالجحود والتعطيل، ولا بالتشبيهِ والتمثيل، أنَّه سبحانه الكَامِلُ في أسمائه وصفاته، وأنَّه المَوْصُوف بما وَصَف به نَفْسَه ووصفَه به رُسُلُه، وما خَفِيَ عن الخلق مِنْ كماله أعظمُ وأعظمُ مما عرفوه منه.

وَمِن كماله المقدَّسِ شهادتُه على كل شيء واطلاعُهُ عليه، بحيثُ لا يَغيبُ عنه ذرَّة في السَّموات ولا في الأرض باطناً وظاهراً، ومَنْ هذا شَأْنُه كيف يليقُ بالعِباد أن يُشْرِكُوا به، وأن يَعْبُدوا غيرَه ويجعلوا معه إلهاً آخر؟ وكيف يَليقُ بكماله أن يُقِرَّ من يَكْذِبُ عليه أَعْظَمَ الكذبِ، ويُخْبِرَ عنه بخلاف ما الأَمْرُ عليه، ثم يَنْصُرَهُ على ذلك ويؤيدَه، ويُعْلِي شأنه ويُجيبَ دعوته، ويُهْلِكَ عدوَّه، ويُظْهِرَ على دينه من الآياتِ والبراهين ما يَعْجِزُ عن مثله قُوَى البشرِ، وهو مع ذلك كاذب غير مُفترٍ؟!

ومعلومٌ أن شهادتَه سبحانه على كل شيء وقدرتَه وحِكمتَه وعِزَّته وكمالَه المقدس يأبى ذلك، ومَنْ جَوَّزَ ذلك فهو مِن أبعدِ الناسِ عن معرفته.

والقرآن مملوءٌ من هذه الطريق وهي طريقُ الخواص، يستدِلُّون بالله على أفعاله وما يَليقُ به أن يفعلَه، ولا يفْعَلَهُ، قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحاقة: ٤٤ ـ ٤٧]. وسيأتي لذلك زيادةُ بيان إن شاء الله تعالى.

---

(١) يعني الاستدلال بالأسماء والصفات لتحقيق بعض المطالب الشرعية.

ويُستَدَلُّ أيضاً بأسمائه وصفاته على وَحْدانيَّتِهِ وعلى بُطلان الشرك كما في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلۡمُؤۡمِنُ ٱلۡمُهَيۡمِنُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡجَبَّارُ ٱلۡمُتَكَبِّرُۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الحشر: ٢٣]. **وأضعاف ذلك في القرآن.**

وهذه الطريقُ قليلٌ سالكُها، لا يهتدي إليها إلا الخواصُّ. وطَرِيقَةُ الجمهور: الاستدلالُ بالآيات المشاهدة لأنها أَسْهَلُ تناولاً وأَوْسَعُ، واللهُ سبحانه يُفَضِّلُ بعضَ خلقه على بعض.

فالقرآنُ العظيمُ قد اجتمع فيه ما لم يَجْتَمِعْ في غيره، فإنه الدَّليلُ[١] والمدلولُ عليه[٢]، والشَّاهِدُ والمَشْهُودُ له، قال تعالى لمن طَلَبَ آيةً تَدُلُّ على صِدْقِ رسوله: ﴿أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحۡمَةً وَذِكۡرَىٰ لِقَوۡمٍ يُؤۡمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ **الآية** [العنكبوت: ٥١].

وإذا عُرِفَ أن توحيدَ الإلهية هو التَّوحيدُ الذي أُرْسِلَتْ به الرُّسُل، وأُنْزِلَتْ به الكُتُبُ، كما تقدَّمت إليه الإشارَةُ، فلا يُلْتَفَتُ إلى قول مَنْ قَسَّم التوحيد إلى ثلاثة أنواع، وجعل هذا النوعَ توحيدَ[٣] العامَّة، والنوعَ الثَّاني توحيدَ الخاصة[٤]، وهو الذي يَثْبُتُ بالحقائق[٥]، والنوعُ الثالثُ توحيد قائم بالقِدَم، وهو توحيدُ خاصَّة[٦] الخاصَّة، فإنَّ أَكملَ الناس توحيداً الأنبياءُ صلواتُ الله عليهم، والمرسلون منهم أَكْمَلُ في ذلك، وأولو العزم من الرسل أكملُهم توحيداً، وهم:

---

(١) معنى كون القرآن دليلاً: أننا لو أردنا معرفة صدق رسالة ونبوة محمد ﷺ ننظر إلى هذه الآية العظيمة التي أعجزت وأعيت فصحاء وشعراء وبلغاء العرب ألا وهو هذا القرآن العظيم، فسوف يدلنا على هذا الأمر ألا وهو هذا القرآن العظيم، فسوف يدلنا على هذا الأمر من حيث هذا يعتبر دليلاً، انظر: شرح الطحاوية (ص٥٩) بتعليق العدني.

(٢) معنى كون القرآن مدلولاً عليه: أن الذين طلبوا آية تدل على صدق النبوة والرسالة، قد دلهم الله تعالى على القرآن فهو الآية الكبرى لذلك الأمر، فمن حيث دلالة الله لهم يعتبر القرآن مدلولاً عليه، انظر: تعليق العدني على شرح الطحاوية (ص٥٩).

(٣) يعنون بالعامة: هم أهل الشريعة ويسمونهم أهل الظاهر، انظر: مدارج السالكين (٣/ ٤٨٥).

(٤) يعنون بالخاصة عندهم: هم أهل الحقيقة ويسمونهم أهل الباطن، انظر: كتاب الكشف عن (ص١٣٦) الصوفية (ص١٧، ١٨) لمحمود القاسم.

(٥) يعني بالمكاشفة: والكشف عند الصوفية: هو الاطلاع على ما وراء الغيب من المعاني الغيبية والأمور الحقيقية وجوداً وشهوداً، انظر: التعريفات.

(٦) أي: كبار أهل الحقيقة والباطن.

نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد صلى الله وسلم عليهم أجمعين.

وأكملُهم توحيداً الخليلان: محمدٌ وإبراهيمُ صلوات الله عليهما وسلامه، فإنَّهما قاما مِن التوحيد بما لم يَقُمْ به غيرُهما علماً، ومعرفةً، وحالاً، ودعوةً لِلْخَلْقِ وجهاداً، فلا تَوحِيدَ أكملُ من الذي قامت به الرُّسُلُ، ودَعَوْا إليه، وجاهدُوا الأمَمَ عليه، ولهذا أمر سبحانه نبيَّه ﷺ أن يَقْتَدِي بهم فيه، كما قال تعالى بعد ذكر مناظرةِ إبراهيمَ قَوْمَهُ في بُطلانِ الشرك، وصِحَّةِ التوحيد وذكر الأنبياءِ من ذريته: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ﴾ [الأنعام: ٩٠] فلا أكملَ مِنْ توحيد مَن أُمِرَ رسولُ الله ﷺ أن يقتديَ بهم.

وكان ﷺ يُعَلِّمُ أصحابه إذا أصبحوا أن يقولوا: «أصبْحنا عَلَى فِطْرَةِ الإِسْلَام، وكَلِمَةِ الإِخْلَاصِ، ودِينِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، ومِلَّةِ أَبِينَا إبْراهيمَ حَنِيفاً مُسْلِماً ومَا كَانَ مِنَ المُشْرِكين»[1].

فمِلَّةُ إبراهيمَ: التوحيدُ، ودينُ محمد ﷺ: ما جاء به مِن عند الله قولاً وعملاً واعتقاداً، وكلمةُ الإخلاص: هي شهادةُ أن لا إله إلا اللهُ، وفطرةُ الإسلام: هي ما فَطَرَ عليه عبادَهُ مِن محبتِه وعبادَتِه وَحْدَهُ لا شَرِيكَ له، والاستسلام له عبوديةً وذُلّاً وانقياداً وإنابةً.

فهذا توحيدُ خاصَّةِ الخاصَّةِ الذي مَن رَغِبَ عنه فهو مِن أسفهِ السُّفهاءِ، قال تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِۦمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾﴾ [البقرة: ١٣٠، ١٣١]. وكُلُّ مَنْ له حِسٌّ سليم، وعقلٌ يُمَيِّزُ به، لا يحتاج في الاستدلال إلى أوضاعِ أهلِ الكلام والجَدَلِ واصطلاحهم وطُرقهم ألبتة، بل ربما يَقَعُ بسببها في شُكوك وشُبَهٍ يَحْصُلُ له بها الحَيْرةُ والضلالُ والرِّيبة، فإن التوحيدَ إنما ينفعُ إذا سَلِمَ قَلْبُ صاحِبِهِ من ذلك، وهذا هو القلبُ السليم الذي لا يُفْلِحُ إلا مَنْ أتى الله به.

ولا شَكَّ أن النوعَ الثاني والثالثَ من التوحيد الذي ادَّعَوا أنه توحيد الخاصة وخَاصَّةِ الخاصة، ينتهي إلى الفناء[2] الذي يُشَمِّر إليه غَالِبُ الصوفية، وهو دَرْبٌ

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٤٠٦)، والدارمي (٢/ ٢٩٢)، وسنده صحيح.

(٢) وذلك أن أصحاب هذا المقام قد يستغرق في مقامه وغيبوبته حتى يسقط عنه التمييز فلا يميز بين خالق ومخلوق ولا رب ومربوب بل يظل به هذا المقام إلى أن يظن أن قد اتحد وامتزج بالله، انظر: تعليق العدني على شرح الطحاوية (ص٦٣).

خَطِرٌ يُفضي إلى الاتحاد، انظر إلى ما أنشد[١] شيخُ الإسلام أبو إسماعيل الأنصاري رحمه الله تعالى، حيثُ يقولُ:

مَا وَحَّدَ الوَاحِدُ مِنْ وَاحِدٍ[٢] ... إذْ كُلُّ مَنْ وَحَّدَهُ جَاحِدُ

تَوْحِيدُ مَنْ يَنْطِقُ عَنْ نَعْتِهِ[٣] ... عَارِيَّةٌ أَبْطَلَهَا الوَاحِدُ

تَوْحِيدُهُ إِيَّاهُ تَوْحِيدُهُ[٤] ... وَنَعْتُ مَنْ يَنْعَتُهُ لَاحِدُ

وإن كان قائلُه رَحِمَهُ اللهُ لم يُرِدْ به الاتحادَ، لكن ذكر لفظاً مجملاً محتملاً جذَبَهُ به الاتحاديُّ إليه، وأقسم بالله جَهْدَ أَيمانِهِ إنه معه، ولو سلك الألفاظ الشرعيةَ التي لا إجمالَ فيها كان أحقّ، مع أن المعنى الذي حَامَ حَوْلَهُ لو كان مطلوباً منا لنبَّه الشارعُ عليه، ودعا الناسَ إليه وبيَّنَهُ، فإنَّ على الرسولِ البلاغَ المبين، فأين قال الرَّسُولُ: هذا توحيدُ العامة، وهذا توحيدُ الخاصة، وهذا توحيدُ خاصة الخاصة؟ أو ما يَقْرُبُ من هذا المعنى؟ أو أشار إليه؟!

هذه النقول، والعقول حاضرة، فهذا كلامُ الله المنزلُ على رسوله ﷺ، وهذه سنة الرسول، وهذا كلامُ خيرِ القرونِ بعدَ الرسولِ، وسادات العارفين من الأئمة، هل جاء ذِكْرُ الفناءِ فيها، وهذا التقسيمُ عن أحد منهم؟! وإنما حَصَلَ هذا من زيادة الغُلُوِّ في الدين، المُشبِهِ لِغُلوِّ الخوارج، بل لِغُلُوِّ النصارى في دينهم، وقد ذَمَّ الله تعالى الغُلُوَّ في الدين ونهى عنه، فقال: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ [النساء: ١٧١]، ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾﴾ [المائدة: ٧٧]. وقال ﷺ: «لَا تُشَدِّدُوا فَيُشَدِّدَ اللهُ عَلَيْكُمْ، فإنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ شَدَّدُوا، فَشَدَّدَ اللهُ عَلَيْهِمْ، فَتِلْكَ بَقَايَاهُمْ في الصَّوَامِعِ والدِّيَاراتِ، رهبانيَّة ابْتَدَعُوها ما كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ»، رواه أبو داود[٥].

---

(١) انظر: شرح هذه الأبيات في مدارج السالكين (٣/ ٥١٣).

(٢) معناه: أنه ما وحد الله ﷻ أحد سواه وكل من وحده فهو جاحد لحقيقة توحيده.

(٣) معناه: توحيد الناطقين عنه عاريه مردوده.

(٤) يعني توحيده الحقيقي هو توحيد نفسه بنفسه. ونعت الناعت له إلحاد وعدول عما يستحقه من كمال التوحيد.

(٥) أخرجه أبو داود (٤٩٠٤)، وأبو يعلى (٣٦٩٤)، وانظر: السلسلة الصحيحة برقم (٣١٢٤).



عناصر الموضوع:

١ غرض المصنف من عقد هذا الباب:

غرض الشارح من عقد هذا الباب بيان ما يلي:

أ ـ أقسام التوحيد عند أهل السنة والجماعة.

ب ـ أن توحيد الألوهية هو الغاية من خلق الخلق وإرسال الرسل وإنزال الكتب.

٢ مناسبة هذا الباب لما سبق:

بعد أن ذكر الإمام الطحاوي في المقدمة أنه ألف هذه الرسالة لبيان اعتقاد أهل السنة والجماعة على مذهب فقهاء الملة أبي حنيفة النعمان بن ثابت وصاحبيه ناسب أن يبيِّن حقيقة التوحيد وأقسامه، الذي هو حق الله الواجب والفرض الأعظم على جميع العبيد، وما أشار إليه الطحاوي قرره شارح متن الطحاوية ابن أبي العز حيث قال: «ثم التوحيد الذي دعت إليه رسل الله ونزلت به كتبه نوعان: توحيد في الإثبات والمعرفة، وتوحيد في الطلب والقصد».

٣ معاني الكلمات:

الكلمة	المعنى
الجدل	مراء يتعلق بإظهار المذاهب وتقريرها.
الفناء	عدم الإحساس بعالم الملكوت في الاستغراق في عظمة الباري ومشاهدة الحق وهو من مصطلحات الصوفية.
الغلو	مجاوزة الحد.
توحيد الألوهية	هو اعتقاد استحقاق الله أن يعبد وحده لا شريك له.
توحيد الربوبية	هو اعتقاد أن الله تعالى وحده خالق كل شيء ومدبره.
توحيد الأسماء والصفات	هو اعتقاد أن الله تعالى له أسماء حسنى وصفات عليا ليس كمثله شيء وهو السميع البصير. وهو أن يوصف الله تعالى بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل.

الكلمة	المعنى
الواجب	الواجب ما كان وجوده ضرورياً، وهو ضد الممتنع والممكن، والمراد بالواجب ما كان ممتنع العدم وهو الله تعالى.
الخارج	الخارج ضد الذهني، والمراد بالخارج: الواقع، أي خارج الأذهان.
الضدان	الضدان هما الوجودان اللذان لا يجتمعان في محل واحد ولكن يجوز أن يرتفعا كالحجر والشجر. فلا يكون شيء واحد حجراً وشجراً. ولكن يجوز أن لا يكون حجراً ولا شجراً، بل يكون حديداً، ولكن أهل الكلام استخدموا هذا المصطلح الكلامي في النقيض، فسموا النقيضين ضدين ثم أجازوا نفيهما حتى قالوا: إن الله لا داخل العالم ولا خارجه.
الأصنام	الصنم ما صور أو نحت على شكل شيء آخر ويعبد من دون الله.
الاستلزام	هو دلالة اللفظ على ما يلازمه في الذهن.
التضمن	هو دلالة اللفظ على جزئه.
الحكم	الأمر والنهي الصادران من القاضي.
القضاء	هو القول الفيصل الصادر من القاضي ليقضي به بين المتخاصمين
الإعلام والإخبار	وهما بمعنى واحد حاصله: العلم بالشيء.
البيان	الإيضاح
الحجة.	البرهان والدليل
الآية الأفقية	هي الآيات الكونية في السماء والأرض، فهي آيات أفقية في أفق السماء والأرض، وهي دالة على توحيد الله تعالى، وعلامة عليه.
الآيات النفسية	هي الأدلة الموجودة في نفس الإنسان كالسمع والبصر والعقل واللسان والدماغ والكبد والطحال... إلخ، فهذه الأدلة آيات نفسية دالة على توحيد الله تعالى.
التشبيه	هو مشاركة أمر لآخر في معنى؛ نحو زيد كالأسد أي في الشجاعة[1]. والأولى أن يقال: التشبيه جعل شيء شريكاً لشيء آخر في وصف من الأوصاف.
التمثيل	وهو جعل شيء مثل شيء آخر في معنى ما؛ أي في صفة ما.
الأوضاع	جمع وضع، والوضع في اللغة: جعل اللفظ بإزاء المعنى. واصطلاحاً: تخصيص شيء بشيء بحيث إن أطلق أو أحس الشيء الأول علم منه الشيء الثاني.

(١) التعريفات (ص٨١).

الكلمة	المعنى
النفاة	جمع ناف: وهو من أنكر صفة من صفات الله تعالى، ولم يثبتها بل عطلها إما بتأويل نصوصها وتحريفها، وإما بتفويض معانيها.
التجسيم	الاعتقاد في الشيء بأنه جسم.
الحس	هو العلم الحاصل بالحواس كالسمع والبصر والذوق واللمس والشم.
الاشتراك اللفظي	هو شركة عدة معانٍ في لفظ واحد على التناوب، كاشتراك الذات والشمس والذهب والماء الجاري النابع من الأرض في لفظ «العين».

٤ تقسيم التوحيد عند أهل السنة:

تنوعت عبارات العلماء في التقسيم الثنائي، فمنهم من قسمه إلى: توحيد المعرفة والإثبات، وتوحيد الطلب والقصد.

ومنهم من قسمه إلى: التوحيد العلمي الخبري، والتوحيد القصدي الإرادي.

ومنهم من قسمه إلى: التوحيد العلمي الاعتقادي، والتوحيد القصدي الإرادي.

ومنهم من قسمه إلى: التوحيد القولي العلمي، والتوحيد العملي الإرادي.

ومنهم من قسمه إلى: توحيد المرسل، وتوحيد متابعة الرسول ﷺ «المرسل».

ومنهم من قسمه إلى: التوحيد العامي، والتوحيد الخاصي.

ومنهم من قسمه إلى: توحيد الطلب، وتوحيد المطلوب.

ومنهم من قسمه إلى: توحيد السيادة، وتوحيد العبادة.

ومنهم من قسمه إلى: توحيد الأسماء والصفات، وتوحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية.

ومنهم من قسمه إلى: توحيد الملك والفعل، وتوحيد الذات والصفات، وتوحيد الإلهية والعبادة.

ومن العلماء من قسمه إلى: توحيد المطلوب، وتوحيد الطلب، وتوحيد الطريق.

ومنهم من قسمه إلى: توحيد الربوبية، وتوحيد العبادة، وتوحيد الأسماء والصفات، وتوحيد الإتباع.

ومنهم من قسمه إلى: الوحدانية في الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء، الصفات[1].

---

(١) انظر: مدارج السالكين (١/ ٢٤ ـ ٢٥، ٢/ ٣٨٧، ٣/ ٤٤٩ ـ ٤٥٠)، والصفدية (٢/ ٣١٥)، =

والمقصود أن التوحيد الذي جاء به الرسل نوعان:

الأول: توحيد في المعرفة والإثبات.

والثاني: توحيد في الطلب والقصد.

فدليل الأول قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [الإخلاص: ١ ـ ٤]، وكما في أول سورة الحديد، وآخر الحشر، والٓم السجدة، لاشتمال كل هذه المواضع على الكلام عن الرب ﷻ، وذكر مظاهر ربوبيته والإشارة إلى أسمائه وصفاته، وسُمي توحيد المعرفة والإثبات؛ لأنه يتضمن إثبات ذات الرب وأسمائه وصفاته وأفعاله معرفة واعتقاداً ثابتاً. والثاني قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ۝٦٤﴾ [آل عمران: ٦٤].

وسُمي توحيد القصد والطلب؛ لأنه يتعلق بعمل المرء ونيته ومراده من ذلك، وما يقصد بعمله. وتوحيد المعرفة والإثبات هو الذي يتضمن توحيد الربوبية.

وليس بين هذين القسمين تنافٍ؛ لأن المؤلف أتى بالفاتحة، وبيَّن كيف تضمنت التوحيد، ولأن هذا القسم المتقدم فيه مزيد تفصيل، والدليل لكل نوع من أنواع التوحيد الثلاثة، أما في التقسيم الثاني فإن التوحيد العلمي المعرفي الإثباتي يشتمل على أمر الربوبية والأسماء والصفات وإثباتها ومعرفتها؛ لأن كل ذلك من باب الخبريات، وأما توحيد الألوهية فهو توحيد عملي يتعلق بفعل العبد ومراده ونيته من وراء عمله، فهو نوع عملي بخلاف الأول، وهكذا يظهر أن لا تنافي بينهما.

٥ فضائل توحيد الألوهية وثمراته:

للتوحيد ثمرات وفضائل جمة، منها:

١ ـ أنه يمنع الخلود في النار إذا كان في القلب منه أدنى قدر، وأنه إذا كمل في القلب يمنع دخول النار بالكلية.

= وطريق الهجرتين (ص٥٥)، وجلاء الأفهام (ص٢٦٩)، والبيان في أقسام القرآن (ص٤٤)، ومعتقد أهل السنة والجماعة (ص٤٦)، وتيسير العزيز الحميد (ص١٧)، وسبيل الرشاد في هدي خير العباد (١/ ١٩)، وكتاب التوحيد (١/ ٣٣) بتحقيق علي ناصر الفقيهي.

٢ ـ أن جميع الأقوال والأعمال لا تقبل بدون التوحيد.

٣ ـ أن الله تكفل لأهل التوحيد بالنصر في الدنيا والعز والشرف وحصول الهداية وإصلاح الأحوال.

٤ ـ أن الله يدفع عن الموحدين أهل الإيمان شرور الدنيا والآخرة، ويمن عليهم بالحياة الطيبة. قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام: ٨٢].

٥ ـ أنه يحرر العبد من رق المخلوقين والتعلق بهم وخوفهم ورجائهم والعمل لأجلهم إلى عبودية الخالق التي فيها سعادته وأمنه ونجاته.

٦ ـ أنه يخفف على العبد المكاره، ويهون عليه الآلام، فبسبب تكميل العبد للتوحيد والإيمان يتلقى المكاره والآلام بقلب منشرح، ونفس مطمئنة، وتسليم ورضى بأقدار الله المؤلمة للعبد.

٧ ـ أنه يكفر الذنوب والخطايا.

٨ ـ أن من حقق التوحيد فله الأمن وطمأنينة النفس وزوال الخوف.

(٦) معنى لا إله إلا الله، ومتى تنفع قائلها؟

معنى شهادة أن لا إله إلا الله: لا معبود بحق إلا الله وحده.

وتنفع قائلها: إذا كان عارفاً بمعناها عاملاً بمقتضاها باطناً وظاهراً، ويدل لفظ «شهد» على أن الشهادة لا تصح إلا عن علم ويقين وإخلاص وصدق، أما النطق بها من غير معرفة بمعناها ولا يقين بها ولا عمل تقتضيه من البراءة من الشرك وإخلاص القول والعمل لله فغير نافع.

(٧) المخالفون لأهل السنة والجماعة في معنى لا إله إلا الله:

اعلم أخي المسلم: أن كثيراً من الناس قد أخطأ في فهم معنى لا إله إلا الله، وإجمال ذلك فيما يلي:

أ ـ الوجودية الصوفية الاتحادية: قالوا: معناها: لا موجود إلا الله، فهم يعتقدون بأن الله عين هذا الكون وأن الخالق عين المخلوق.

فظنوا أن كل موجود من الكلب والخنزير والقرد والماء والأرض والبر والبحر هو الله تعالى بنفسه[1]، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

---

(١) انظر: في بطلان قولهم: مجموعة الرسائل والمسائل لشيخ الإسلام (٤/٢ ـ ١١٤).

ب ـ كثير من المتكلمين من المعتزلة والماتريدية والأشعرية الذين فسروا الإله بالرب والصانع والخالق؛ فلذا ذُم قولهم: إن معنى كلمة التوحيد: لا رب إلا الله: أي لا خالق ولا صانع إلا الله[١].

ومن أشهر شبهات هؤلاء المتكلمين في تفسير الألوهية بالصانعية والخالقية والربوبية «دليل التمانع» المأخوذ عندهم من قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الأنبياء: ٢٢] فظنوا أن المراد بالإله الخالق، ولكن تفسير «الإله» في الآية «بالخالق» باطل؛ لأن الآية سيقت لنفي تعدد المعبودين، لا لنفي تعدد الخالقين؛ لأن هذه الآية ترد على مشركي العرب الذين ينفون تعدد الخالقين، بل كانوا يعتقدون تعدد المعبودين.

وكذلك لو كان المراد برهان التمانع لقال: (لما خلقتا) وإن كان دليل التمانع حجة في نفسه لكن في غير هذه الآية كما في قوله تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾﴾ [المؤمنون: ٩١][٢].

قلت: لأجل أن هؤلاء لم يعرفوا الفرق بين «الإله» و«الرب» وقعوا في أنواع من الشرك، وعبادة القبور وأهلها؛ ظناً منهم أنهم لم يشركوا بالله شيئاً في الخالقية والصانعية والربوبية.

ج ـ القبورية: ظنوا بأن «الرب» و«الإله» بمعنى واحد، أي معنى لا إله إلا الله: لا رب إلا الله[٣].

وبالجملة فتفسير «لا إله إلا الله» بـ«لا رب» و«لا خالق» و«لا صانع» «إلا الله» باطل؛ لأن كلمة «التوحيد» و«الإسلام» و«الإيمان» هي كلمة «لا إله إلا الله» دون كلمة «خالق» ولا «صانع» ولا «رب» إلا الله، ولا يدخل المرء الإسلام إلا بكلمة «لا إله إلا الله» دون غيرها من الكلمات؛ لأن الكفار أيضاً يقرون بلا رب إلا الله،

---

(١) انظر: حاشية الجندي (ص٨٧)، ومجموع الفتاوى (٣/ ٩٨، ١٠١).

(٢) انظر: شرح العقائد النسفية (ص١٣٤)، مجموع الفتاوى (٣/ ٩٨)، وتلبيس الجهمية (١/ ٤٨٠).

(٣) انظر: الدرر السنية (ص٤٠ ـ ٤١)، وبراءة الأشعريين (ص٨٨ ـ ٩٣، ٩٨)، والبراهين الساطعة (ص٣٧٥ ـ ٣٨٣).

ولا خالق إلا الله، ولا رازق إلا الله[١].

٨ توحيد الألوهية هو الغاية:

إن الغاية من خلق الخلق وإرسال الرسل عند أهل السنة والجماعة هي عبادة الله وحده، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦].

وقال ﷺ لما بعث معاذاً إلى اليمن: **(إنك تقدم على قوم أهل كتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه: عبادة الله ﷻ)**[٢].

فهذان النصَّان الشرعيان يدلان على أن أول دعوة الرسل، والغاية من بعثتهم هي الدعوة إلى توحيد الله في العبادة، والنصوص الشرعية في ذلك كثيرة، وخالف أهل الكلام في ذلك فجعلوا الغاية العظمى من إرسال الرسل هي معرفة الله وإثبات الصانع الخالق، وهي إثبات الربوبية لله تعالى.

والمصيبة أن أهل الكلام أفنوا أعمارهم لتحقيق هذه القضية المسلَّم بها حتى عند المشركين.

وليتهم وقفوا عند هذا الحد، بل لقد زعموا أن توحيد الربوبية هو الغاية العظمى من بعثة الرسل، وأنهم إذا أثبتوه بالدليل فقد أثبتوا غاية التوحيد.

٩ مكانة توحيد الألوهية وأهميته:

إن لتوحيد الألوهية مكانة علية، ومنزلة رفيعة، وبيان ذلك فيما يأتي:

١ ـ إن توحيد الألوهية دعوة جميع الرسل، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

٢ ـ أنه حقيقة دين الإسلام الذي لا يقبل الله ﷻ ديناً سواه، قال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران: ٨٥].

٣ ـ هو معنى كلمة: لا إله إلا الله.

يقول ابن تيمية: «فالغاية الحميدة التي بها يخص كمال بني آدم وسعادتهم

---

(١) انظر: مفتاح الجنة (ص٤٠ ـ ٤١، ٦٢، ٦٧)، وكليات أبي البقاء (ص٩٧١)، ومجموع الفتاوى (٢/ ١٤)، ودرء التعارض (٨/ ١١، ٩/ ٣٧٨)، وتجريد التوحيد للمقريزي (ص٥).

(٢) سبق تخريجه (ص٦٠).

ونجاتهم: عبادة الله وحده، وهي حقيقة قول القائل: لا إله إلا الله، [فلا إله] نفت استحقاق العبودية عما سوى الله تعالى، و[إلا الله] أثبتت جميع أنواع العبادة لله وحده»[1].

(١٠) معنى تحقيق توحيد الألوهية وجزاء من حققه:

تحقيق التوحيد هو تهذيب التوحيد وتصفيته من شوائب الشرك والبدع والمعاصي، فلا يعمل الموحد شركاً يحبطه، ولا بدعة تقدح فيه، ولا معصية تنقص من كماله.

فمن حقق التوحيد بأن امتلأ قلبه بالإيمان والتوحيد والإخلاص، وصدقته الأعمال بأن انقادت لأوامر الله طائعة منيبة مخبتة إليه ولم ينقص ذلك التوحيد بالإصرار على شيء من المعاصي فهذا يدخل الجنة بغير حساب ويكون من السابقين إلى دخولها.

(١١) مراتب الناس في تحقيق توحيد الألوهية:

الناس مراتب في تحقيق التوحيد:

أ ـ أعلاها من حقق التوحيد؛ بأن امتلأ قلبه بالإيمان والتوحيد والإخلاص ولم ينقص ذلك التوحيد بالإصرار على شيء من المعاصي مع كمال القنوت لله وقوة التوكل عليه بحيث لا يلتفت القلب إلى المخلوقين بل يكون ظاهره وباطنه وأقواله وأفعاله وحبه وبغضه وجميع أحواله كلها مقصوداً بها وجه الله متبعاً فيها رسول الله ﷺ.

ب ـ وأدناها من حقق التوحيد بأن لم يلبس إيمانه بالشرك، ولكنه ينقص ذلك بفعل شيء من المعاصي، فهذا لا يحصل له كمال تحقيق التوحيد كما حصل لأهل المرتبة الأولى.

(١٢) توحيد الربوبية يستلزم توحيد الألوهية:

اعلم أن الدلالة تنقسم إلى ثلاثة أقسام: مطابقة وتضمن والتزام؛ فدلالة اللفظ على جميع معناه دلالة مطابقة، ودلالته على جزء معناه دلالة تضمن، ودلالته على أمر لازم خارج دلالة التزام، فاسم الله: «الخالق» دلالته على ذات الله وعلى صفة الخلق دلالة مطابقة، ودلالته على الذات وحدها وعلى صفة الخلق وحدها دلالة

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى.

تضمن، ودلالته على العلم والقدرة دلالة التزام[١].

وتوحيد الربوبية يستلزم توحيد الألوهية، يوضح ذلك قول العلامة الشنقيطي: «ويكثر في القرآن العظيم الاستدلال على الكفار باعترافهم بربوبية الله ﷻ على وجوب توحيده في عبادته، ولذلك خاطبهم في توحيد الربوبية باستفهام التقرير، فإذا أقروا بربوبيته احتج بها عليهم على أنه هو المستحق لأن يعبد وحده، ووبخهم منكراً عليهم شركهم به غيره مع اعترافهم بأنه هو الرب وحده؛ لأن المقر بالربوبية يلزمه الإقرار بالألوهية ضرورة، فغالب كفار مشركي العالم في كل زمان ومكان لا ينكرون الربوبية، وإنما يكذبون ويجادلون في الألوهية، فاحتج الله عليهم بما أقروا به على ما أنكروه»[٢].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية هو التوحيد الواجب الكامل الذي جاء به القرآن»[٣].

١٣ الاستدلال بتوحيد الأسماء والصفات على توحيد العبادة:

قال العلامة السعدي: «ومن الأدلة على ذلك معرفة تفرد الرب بالكمال المطلق وأن له كل صفة، وأن المخلوقات كلها كل وصف حميد فيها من الله تعالى، وليس بها وليس منها، وهذا من أعظم البراهين على أنه هو المخصوص بالتأله والعبودية»[٤].

١٤ موقف أهل الكلام والتصوف من توحيد الألوهية:

١ ـ أهمل أهل الكلام توحيد الألوهية، وفسروه بتوحيد الربوبية؛ فزعموا أن الغاية من إرسال الرسل هي الدعوة إلى توحيد الربوبية.

٢ ـ وأخطأوا في تفسير كلمة: «لا إله إلا الله» حيث قالوا: معناها: لا خالق إلا الله.

أما الصوفية فموقفهم تجاه توحيد الألوهية يمكن تصنيفه فيما يلي:

١ ـ قسم يهملون توحيد الألوهية، ويعتبرون أن التوحيد الذي جاءت به الرسل، والغاية من خلق الخلق هو توحيد الربوبية.

---

(١) أحكام القرآن لابن عثيمين (١/ ٩ ـ ١٠)، القواعد المثلى له (ص١١).
(٢) أضواء البيان (٣/ ٤١٢).
(٣) مجموع الفتاوى (٢/ ٣٧).
(٤) المؤلفات الكاملة للسعدي (٣/ ٢٦٩، ٢٧٠).

٢ ـ قسم يعبرون عنه بـ [الفناء عن إرادة السوى]: فيفنى عن عبادة غيره بعبادته، وعن طاعة غيره بطاعته وطاعة رسوله ﷺ؛ إلا أنهم جعلوا هذا القسم مختصّاً بعوامهم، أما خواصهم فإنهم وصلوا إلى مرتبة اليقين التي تسقط عنه التكاليف الشرعية.

(١٥) موقف المتكلمين من الشرك:

سبق أن ذكرنا أن موقف المتكلمين من توحيد الألوهية هو الإهمال والإعراض، وذلك هو موقفهم من الشرك أيضاً، فلا تجد في كتبهم ذكراً للشرك في الألوهية بدعاء غير الله، أو الاستغاثة به، أو الطواف بالقبور، أو اللجوء لأصحابها، والذبح أو النذر عندها، إلى غير ذلك من أنواع الشرك التي حذر الله، وحذر الرسول ﷺ منها، ومن الطرق الموصلة إليها، فكان في ذلك وقاية وحماية للمسلمين من الوقوع في هذا الانحراف، إلى أن جاء المتكلمون فأهملوا بيان توحيد الألوهية، كما أهملوا التحذير من ضده وهو الشرك، فجهل المسلمون توحيد الألوهية، ووقعوا في ضده وهو الشرك، حتى صار لدى كثير من المسلمين في بلدانهم قبور أوثان يعكفون عندها، ويدعون عندها وينذرون ويذبحون لها، وهم يظنون أن ذلك قربة إلى الله ﷻ، وأن هؤلاء الموتى واسطة شرعية ووسيلة مقبولة عند الله ﷻ.

وما ذلك إلا لإعراض المتكلمين عن بيان الشرك والتحذير منه. مما جعل المسلمين يجهلونه فيقعون فيه، ظناً منهم أن ذلك ليس شركاً، وأن الشرك إنما هو في اعتقاد أن خالقاً مع الله أوجد هذا الكون كما أوعز إلى ذلك المتكلمون بتركيزهم على إثبات الوحدانية في الذات، والوحدانية في الأفعال.

أما الوحدانية في العبادة فقد أهملوها، ولم يذكروها، فصار المسلم يظن أن لا شرك فيها، مع أن الشرك الذي حذر منه الله ﷻ إنما كان في هذا النوع، وهو بلية بني آدم ومصيبتهم التي حذرهم منها رسل الله عليهم الصلاة والسلام[١].

(١٦) شهادة الله لنفسه بالتوحيد:

قال تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ١٨﴾ [آل عمران: ١٨].

معنى الآية: أنه ﷻ حكم وأعلم عباده وأخبرهم وبيَّن لهم أنه لا إله مستحقاً

---

(١) مذكرة العقيدة للخلف (ص١١٨).

للعبادة في هذا الكون غيره ﷻ، وكذلك علم هذا وأخبر به الملائكة الأخيار الأطهار وكذلك أهل العلم الربانيين بما علموه من وحي الله تعالى وشرعه وحقه على خلقه وعظمته في هذا الكون، وفي الآية رد على طوائف الغلاة الذين رفعوا بعضاً من الخلق إلى منزلة الربوبية والألوهية فعبدوهم من دون الله وهم لا يستحقون ذلك؛ لأنهم ليس لهم من الربوبية شيء وليسوا متصفين بصفات الكمال كاتصاف الرب ﷻ بها، وليسوا مستحقين للعبادة مثله.

وأما معنى (شهد) عند العلماء فإن أقوالهم تدور حول أربعة معان هي: الحكم والإعلام والبيان والإخبار، وهذه الأقوال كلها حق لا تنافي بينها، فإن الشهادة تتضمن كلام الشاهد، وهو هنا كلامه بانفراده بالألوهية، وتتضمن كذلك خبره عن هذه الألوهية، وتتضمن إعلامه وإخباره بما يشهد به، كما تتضمن بيانه لما شهد به من أمر استحقاقه تعالى للألوهية.

١٧ مراتب الشهادة:

للشهادة مراتب أربع هي على النحو التالي:

الأولى: العلم والمعرفة والاعتقاد لصحة المشهود به وثبوته، والدليل قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٦]، وهذا هو التوافق بين المعنى الشرعي للشهادة والمرتبة الأولى، حيث جعلت الآية الشهادة هنا بمعنى العلم والمعرفة والاعتقاد لصحة المشهود به.

الثانية: أن يعلم غيره به بما يشهد به، ويخبره به، ويبينه له، والدليل قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الزخرف: ١٩]، فجعل تكلمهم بذلك الإفك وهو جعل الملائكة إناثاً شهادة منهم وإن لم يتلفظوا بلفظها، ولم يؤدوها عند غيرهم.

الثالثة: أن يعلم غيره بما شهد به، ويخبره به، ويبينه له، وهذا الإعلام نوعان:

أ ـ إعلامه بالقول بأن يتكلم الشاهد بما يشهد به فيخبر به غيره.

ب ـ إعلام بالفعل، كما قال ابن كيسان: «شهد الله بتدبيره العجيب وأموره المحكمة عند خلقه أن لا إله إلا هو. والشاهد قوله: (شهد الله بتدبيره) فدلت هذه المخلوقات على انفراده تعالى بالألوهية.

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

الرابعة: أن يلزم الشاهد من تم إخباره بالشهادة بمضمونها، ويأمره به،

والدليل قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣]، فالشاهد قوله: (وقضى) أي حكم ووصى، وكل هذا من معاني الشهادة.

والشهادة من جهة الإلزام نوعان: شهادة لله مقتضية لهذا الشيء ومستلزمة للشهودية، كشهادته تعالى لنفسه بالألوهية، كما في الآية السابقة، وشهادة غير الله لا تقتضي الإلزام بمدلولها لكن الشهادة في هذا الموضع، في قوله تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ﴾ تدل عليه وتتضمنه.

١٨ دليل التمانع في الألوهية:

قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْاْ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ [الإسراء: ٤٢] ولأهل العلم في تفسير هذه الآية قولان:

الأول: أي لو كان معه آلهة كما تزعمون إذاً لابتغوا سبيلاً إلى مغالبته وقهره؛ رغبة في الانفراد بالملك من دونه، كما يفعل ملوك الدنيا بعضهم مع بعض.

الثاني: أي لو كان معه آلهة لعرفوا فضله ومنزلته فاتخذوا إليه سبيلاً بالتقرب إليه وابتغاء الزلفى لديه. كما قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾﴾ [المزمل: ١٩].

والقول الثاني هو الصحيح المنقول عن أكثر السلف؛ وذلك أنه قال: ﴿لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ﴾ أي المشركون، وهم لا يقولون إن للعالم صانعين بل جعلوا معه آلهة اتخذوهم شفعاء وقالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣].

١٩ غالب سور القرآن متضمنة لنوعي التوحيد:

ووجه ذلك أن القرآن إما خبر عن الله وصفاته، وهو التوحيد العلمي الخبري، وإما دعوة إلى عبادته، وإما أمر ونهي وإلزام بطاعة، فذلك من حقوق التوحيد ومكملاته، وإما خبر عن إكرامه لأهل التوحيد، وما فعل بهم في الدنيا، وما يكرمهم به في الآخرة، فهو جزاء توحيده، وإما خبر عن أهل الشرك وما فعل بهم في الدنيا من النكال، وما يحل بهم في العقبى من العذاب فهو جزاء من خرج على حكم التوحيد، ووجه تضمن الفاتحة لأنواع التوحيد كالآتي:

١ ـ قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾﴾ وقوله: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾﴾ يدل على توحيد الربوبية:

٢ ـ قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ يدل على توحيد الأسماء والصفات.

٣ ـ قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ

﴿ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ يدل على توحيد الألوهية.

وبذلك يمتاز القرآن عن غيره من الكتب، فقد جمع فيه ما لم يجتمع في غيره، فإنه الدليل والمدلول عليه، والشاهد والمشهود له، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٥١﴾ [العنكبوت: ٥١].

فالقرآن دليل على وحدانية الله تعالى، ووحدانية الله دليل على أن القرآن من عنده، والقرآن دليل على صدق نبوة النبي ﷺ، وهذه النبوة دليل على أن القرآن من عند الله، والقرآن يشهد للنبي بالرسالة، والنبي يشهد للقرآن: أنه كلام الله. والقرآن يمتاز عن غيره من الكتب كذلك بأنه لم يدخله تحريف؛ لأن الله تعالى تكفل بحفظه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: ٩].

والقرآن منهاج حياة بخلاف غيره من الكتب فإن غيره يشتمل إما على تشريعات وأحكام أو على تهذيب ومواعظ، أما القرآن فاشتمل على كل شيء، وفيه الإخبار بالمغيبات مما كان وما يكون، كما قال تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ﴾ [الأنعام: ٣٨]. وهو أمين على ما قبله من الكتب، ومهيمن عليه كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ﴾ [المائدة: ٤٨].

٢٠ طريقة القرآن في بيان استحقاق الله ﷻ للوحدانية:

إن طرق القرآن في استحقاق الله ﷻ الربوبية هي: السمع والبصر والعقل، أما السمع فبسمع آياته المتلوة الدالة على وحدانيته وكماله وغير ذلك، المبينة لذلك غاية البيان، لا كما يزعم المبتدعة بأنها محتملة توقع في الحيرة، وأكثرهم مبتدعون في باب الأسماء والصفات، وأما البصر فبمشاهدة آياته الكونية الخلقية العيانية، فإن النظر فيها دال على صحة ما دلت عليه الآيات السمعية من الوحدانية وغيرها. وأما العقل فإنه يجمع فيجزم بصحة ما جاءت به الرسل، وهكذا تتفق شهادة كل من السمع والبصر والعقل والفطرة التي جبل عليها الناس من معرفة الخالق والإقرار به، كما في الحديث: (**كل مولود يولد على الفطرة...**)، وقد سبق الكلام عنها وأنها فطرة الإسلام[1].

(١) انظر: الفوائد (ص٤٤ ـ ٤٦).

٢١ طرق الاستدلال على الوحدانية:

إن طرق الاستدلال على الوحدانية هي ما يأتي:

أولاً: طريقة جمهور أهل العلم: وهي الاستدلال على وجود الله تعالى ووحدانيته بالآيات الكونية، وبأفعاله تعالى ومصنوعاته، فكل ذلك شاهد ناطق بربوبيته ووحدانيته.

ثانياً: طريقة خواص أهل العلم: وهي الاستدلال بالله على أفعاله وما يليق به، والاستدلال بأسمائه وصفاته على وحدانيته وأفعاله، فمثلاً يستدل باسم «الشهيد» على أنه تعالى يرى كل شيء، ويراقب كل شيء، ولا يعزب عنه شيء، وباسم «المنتقم» على أنه تعالى لا بد أن يعاقب كل من أساء وتطاول على مقامه ﷻ وتجاوز حدوده، وكما ترى فإن أفعال الله تعالى استدللنا عليها من أسمائه ﷻ..

٢٢ أكمل الناس توحيداً عند أهل السنة:

إن أكمل الناس توحيداً عند أهل السنة هم الأنبياء ـ صلوات الله عليهم ـ والمرسلون منهم أكمل في ذلك، وأولوا العزم من الرسل أكمل توحيداً من غيرهم. وأكملهم توحيداً الخليلان محمد وإبراهيم عليهما الصلاة والسلام؛ فإنهما قاما بالدعوة إلى التوحيد والعمل به بما لم يقم به غيرهما معرفة وحالاً ودعوة للخلق وجهداً، فلا توحيد أكمل من الذي قامت به الرسل ودعت إليه وجاهدت الأمم عليه، ولهذا أمر الله نبيه أن يقتدي بهم فيه قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ [الأنعام: ٩٠].

٢٣ أقسام التوحيد عند الصوفية:

أقسام التوحيد عند أرباب التصوف[١] ثلاثة:

الأول: توحيد العامة: ويعنون به توحيد الألوهية، وقالوا إنه توحيد العامة مع أنه الغاية من بعثة الرسل وإنزال الكتب كما سبق غير مرة.

والمقصود بالعامة هم أهل الشريعة ويسمونهم أهل الظاهر وهذا النوع من التوحيد يشع بالشواهد أي بالأدلة والآيات والبراهين وهذه الشواهد نوعان: شواهد متلوه وهي الرسالة وشواهد مرئية: وهي الصنائع.

الثاني: توحيد الخاصة: وهو الذي يثبت، بالحقائق والمكاشفات لأن أهل

(١) انظر: مدارج السالكين ٣/ ٤٨٠.

الحقيقة عندهم هم من روَّض نفسه وهذبها حتى تكشَّفت له الحجب وانكشفت له الأسرار، فاطلع على ما لم يطلع عليه غيره من أمور الغيب ونحوها. وهو توحيد قائم بالقدم.

الثالث: توحيد خاصة الخاصة: وهو الفناء عما عدا الله مما يؤدي بهم في نهاية الأمر إلى القول بالحلول والاتحاد.

وللرد عليهم نقول: لا شك في بطلان هذا التقسيم، فإنه من المعلوم أن توحيد الرسل الذي أمروا أن يدعوا إليه ويعتقدوه هو توحيد الألوهية، ولو لم يكن هذا التوحيد هو توحيد خاصة الخاصة لما اختاره لهم، وأيضاً فإن هذا التقسيم من الصوفية لم يرد عن الله ولا عن رسوله نص بذكره أو بيانه، ولم يرد عن أحد من السلف الصالحين، بل هو تقسيم مبتدع، والسبب فيه هو الغلو في التوحيد إلى درجة الفناء كما يزعمون، وكذلك فإنهم لا يصلون إلى توحيد الخاصة أو ما فوقه إلا بسلوك طرق مبتدعة في العبادة والأذكار والأوراد ونحوها، فغلوهم كغلو النصارى الذين قال الله فيها: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ﴾ [الحديد: ٢٧] حيث شرعوا لأنفسهم ما لم يشرع الله سبحانه.

(٢٤) أبيات الهروي التي أوردها ابن أبي العز:

شرح ابن القيم أبيات الهروي في مدارج السالكين (٣/ ٥١٣) وحاول أن يخلص بعض عبارته من احتمال معنى الحلول والاتحاد.

والمقصود أن أبيات الشيخ محتملة لوجهين: حق وباطل، والشيخ لم يقصد بها إلا الحق، ولكن لما كان اللفظ محتملاً لمعنى الحلول والاتحاد حاول أهل الاتحاد أن ينسبوا الشيخ إليهم، ويا ليت الشيخ الهروي استعمل الألفاظ الشرعية غير المحتملة فكان أحسن وأولى وأبعد من الشبهات!.

(٢٥) الخلاصة:

١ ـ طرق تقرير كل من الربوبية والألوهية كثيرة جداً.

٢ ـ تدور معاني شهادة الله على نفسه بالألوهية على أربعة معانٍ: الحكم والإعلام والبيان والإخبار.

٣ ـ طرق البيان التي جاء بها الشرع ثلاثة: السمع والبصر والعقل.

٤ ـ ما بعث الله نبياً إلا وبعث معه آيات تدل على صدقه.

٥ ـ تبين بطلان تقسيم الصوفية للتوحيد إلى توحيد العامة، والخاصة، وخاصة الخاصة، وخطأ أبيات الهروي في ذلك.

(٢٦) المناقشة:

- **س١:** اذكر نوعي التوحيد اللذين جاء بهما الرسل.
- **س٢:** دلل على أن آيات القرآن كلها مشتملة على التوحيد.
- **س٣:** اذكر مراتب الشهادة، وما تدور عليه عبارات السلف في معناها.
- **س٤:** ما هي طرق البيان الثلاثة التي جاءت في الشرع؟
- **س٥:** ما أقسام التوحيد عند الصوفية؟ وما الرد عليهم؟
- **س٦:** اشرح أبيات الهروي التي أوردها الشارح وبيِّن المآخذ عليها.
- **س٧:** هل يشمل القرآن على الطريقة البرهانية؟
- **س٨:** اذكر البينة والآية التي أعطاها الله لنبيه هود للتدليل على صدق نبوته.
- **س٩:** كيف يستدل بأسماء الله وصفاته على تفرده بالوحدانية؟ مع الأمثلة.
- **س١٠:** بم يمتاز القرآن عن غيره من الكتب في الاستدلال؟

من أصول التوحيد أن الله سبحانه وتعالى ليس كمثله شيء

* **كلام ابن أبي العز:**

١ ـ غرض المصنف من عقد هذا الباب.

٢ ـ مناسبة الباب لما سبق.

٣ ـ معاني الكلمات.

٤ ـ معنى كلام الطحاوي: ولا شيء مثله.

٥ ـ معنى كلام الطحاوي: ولا شيء يعجزه.

٦ ـ الجمع بين النفي والإثبات في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾.

٧ ـ حكم من مثل صفات الله بصفات الخلق.

٨ ـ الممثل يعبد صنماً.

٩ ـ من شبه الله بخلقه فقد شابه النصارى.

١٠ ـ التعبير بنفي التمثيل أولى من التعبير بنفي التشبيه.

١١ ـ طريقة السلف في التنزيه.

١٢ ـ مفهوم التنزيه عند المعطلة.

١٣ ـ المعطلة يصفون الله تعالى بالنفي المحض.

١٤ ـ الأدلة على أن الاشتراك في الأسماء والصفات لا يستلزم تماثل المسميات.

١٥ ـ أمثلة لأسماء سمَّى بها الله نفسه وسمَّى بها بعض عباده.

١٦ ـ تعريف القدر المشترك.

١٧ ـ القدر المشترك ضروري لفهم الخطاب.

١٨ ـ أقسام الناس في القدر المشترك.

١٩ ـ سبب اضطراب أهل الكلام في القدر المشترك.

٢٠ ـ مراتب الخطاب.

٢١ ـ مذاهب نفاة الصفات.

٢٢ ـ مذهب أهل الاعتزال في الأسماء والصفات.

٢٣ ـ مقارنة بين طريقة السلف وطريقة الأشعرية من حيث الإثبات والنفي في نصوص الصفات.

٢٤ ـ حوار مع أشعري.

٢٥ ـ حوار مع معتزلي.

٢٦ ـ أهل السنة والجماعة لا يصفون الله تعالى بالنفي المحض.

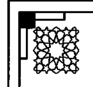
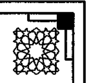
٢٧ ـ الأدلة من الكتاب والسنة على إثبات قدرة الرب.

٢٨ ـ معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر: ٤٤].

٢٩ ـ النفي قد يأتي مفصلاً والإثبات مجملاً في القرآن.

٣٠ ـ الخلاصة.

٣١ ـ المناقشة.

من أصول التوحيد أن الله تعالى ليس كمثله شيء

قال ابن أبي العز: «اتفق أهلُ السنة[1] على أنَّ الله ليس كمثلِه شيء، لا في ذاتِهِ، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، ولكن لفظُ التشبيهِ قد صار في كلام الناسِ لفظاً مجملاً يُرادُ به المعنى الصحيح، وهو ما نفاهُ القُرآنُ، ودل عليه العقلُ من أن خصائصَ الرَّبِّ تعالى لا يُوصَفُ بها شيءٌ من المخلوقات، ولا يُمَاثِلُهُ شيء مِنَ المخلوقات في شيءٍ من صفاته: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، ردٌّ على المُمَثِّلَةِ المُشَبِّهَةِ ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ ردٌّ على النُفاةِ، فمن جعل صِفَاتِ الخالقِ مِثْلَ صفاتِ المخلوق، فهو المشبِّه المبطلُ المذمومُ، ومَنْ جعل صِفاتِ المخلوقِ مِثْلَ صفاتِ الخالق، فهو نظيرُ النصارى في كفرهم.

ويُراد به أنه لا يَثْبُتُ لله شيءٌ من الصفات، فلا يُقال: له قدرةٌ، ولا عِلْمٌ، ولا حياة؛ لأن العبدَ موصوفٌ بهذه الصفات! ولازمُ هذا القول أنه لا يُقال له: حيٌّ، عليم، قدير؛ لأن العبد يُسمَّى بهذه الأسماء، وكذلك كلامُه وسمعُه وبصره وإرادته وغير ذلك.

وهم يُوافقون أهلَ السُّنة على أنَّه موجود، عليمٌ، قدير، حي، والمخلوق يقال له: موجود، حي، عليم، قدير، ولا يُقال: هذا تشبيهٌ يجب نفيُه، وهذا مما دل عليه الكِتَابُ والسنة، وصريحُ العقل، ولا يُخَالِفُ فيه عاقلٌ، فإنَّ الله سمَّى نفسه بأسماء، وسمَّى بعضَ عباده بها، وكذلك سمَّى صفاتِه بإسماء، وسمَّى ببعضها صفاتِ خلقه، وليس المُسمَّى كالمسمَّى، فسمَّى نفسَه: حيّاً، عليماً، قديراً، رؤوفاً، رحيماً، عزيزاً، حكيماً، سميعاً، بصيراً، ملكاً، مؤمناً، جباراً، متكبراً، وقد سمَّى بعضَ عباده بهذه الأسماء فقال: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ [الأنعام: ٩٥]، ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ [الذاريات: ٢٨]، ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [الصافات: ١٠١]، ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]، ﴿فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: ٢]، ﴿قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ﴾

---

(١) انظر: منهاج السنة (٢/ ١١٠ ـ ١١٨).

[يوسف: ٥١]، ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ﴾ [الكهف: ٧٩]، ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا﴾ [السجدة: ١٨]، ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: ٣٥]، ومعلوم أنه لا يُماثل الحيُّ الحيَّ، ولا العَليمُ العليمَ، ولا العزيزُ العزيزَ، وكذلك سائرُ الأسماءِ.

وقال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ﴾ [النساء: ١٦٦]، ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ [فاطر: ١١]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات: ٥٨]، ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥].

وعن جابر رضي الله عنه قال: كانَ رَسُولُ الله ﷺ يُعَلِّمُنَا الاستخارَةَ في الأُمُورِ كُلِّهَا، كما يُعَلِّمُنَا السُّورَةَ من القُرآنِ، يَقُولُ: «إذا هَمَّ أَحَدُكُم بِالأَمْرِ، فَلْيَرْكَعْ رَكْعَتَيْنِ مِنْ غَيْرِ الفَرِيضَةِ، ثُمَّ ليقُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ، وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ العَظِيمِ، فَإِنَّكَ تَقْدِرُ ولا أَقْدِرُ، وتَعْلَمُ وَلَا أَعْلَمُ، وَأَنْتَ عَلَّامُ الغُيُوبِ، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هذا الأَمْرَ خَيْرٌ لِي فِي دِينِي ومَعَاشِي وعَاقِبَةِ أَمْرِي ـ أَوْ قَالَ: عَاجِلِ أَمْرِي وآجِلِهِ ـ فَاقْدُرْه لي، ويَسِّرْهُ لي، ثُمَّ بَارِكْ لِي فِيهِ، وَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذا الأَمْرَ شَرٌّ لِي فِي دِينِي ومَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي ـ أَوْ قَالَ: عَاجِلِ أَمْرِي وآجِلِهِ ـ فاصْرِفْهُ عَنِّي، واصْرِفْنِي عَنْهُ، واقْدُرْ لِي الخَيْرَ حَيْثُ كَانَ، ثُمَّ رَضِّنِي بِهِ، قَالَ: ويسمي حاجَتَهُ»[١]، رواه البخاري.

وفي حديث عمَّارِ بنِ ياسر الذي رواه النَّسائِيُّ وغيرُه، عن النبيِّ ﷺ، أنه كان يدعو بهذا الدعاءِ: «اللَّهُمَّ بِعِلْمِكَ الغَيْبَ، وَقُدْرَتِكَ عَلَى الخَلْقِ، أَحْيِنِي مَا كَانَتِ الحَيَاةُ خَيْراً لِي، وتَوَفَّنِي إِذَا كَانَتِ الوَفَاةُ خَيْراً لِي، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ خَشْيَتَكَ فِي الغَيْبِ والشَّهادَةِ، وَأَسْأَلُكَ نَعِيماً لا يَنْفَدُ، وقُرَّةَ عَيْنٍ لا تَنْقَطِعُ، وَأَسْأَلُكَ الرِّضَى بَعْدَ القَضَاءِ، وَأَسْأَلُكَ بَرْدَ العَيْشِ بَعْدَ المَوْتِ، وَأَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ الكَرِيمِ، والشَّوْقَ إِلَى لِقَائِكَ فِي غَيْرِ ضَرَّاءَ مُضِرَّةٍ، ولا فِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ، اللَّهُمَّ زَيِّنَّا بِزِينَةِ الإِيمانِ، واجْعَلْنَا هُدَاةً مُهْتَدِينَ»[٢].

فقد سمَّى اللهُ ورسولُه صفاتِ الله علماً وقُدرة وقُوة، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ

(١) أخرجه البخاري (١١٦٢).

(٢) أخرجه النسائي (٣/ ٥٤ ـ ٥٥)، والحاكم (١/ ٥٢٤)، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾ [الروم: ٥٤] ﴿وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ﴾ [يوسف: ٦٨]، ومعلومٌ أنه ليس العِلْمُ كالعلم، ولا القُوَّةُ كالقوة، ونَظَائِرُ هذا كثيرة، وهذا لازِمٌ لجميعِ العقلاءِ، فإن مَنْ نفى صفةً من صفاته التي وَصَفَ الله بها نفسَه، كالرِّضى والغضبِ، والحب والبغضِ، ونحو ذلك، وزَعَمَ أن ذلك يستلزِمُ التشبيهَ والتجسيمَ!، قيل له: فأنتَ تُثْبِتُ له الإرادةَ، والكلامَ، والسَّمْعَ، والبصرَ، مع أن ما تُثْبِتُه له ليس مِثْلَ صفاتِ المخلوقين، فَقُلْ فيما نفيتَه وأثبته اللهُ ورسولُه مِثْلَ قولك فيما أثبتَّه، إذ لا فَرْقَ بينهما.

فإن قال: أنا لا أُثْبِتُ شيئاً من الصفات! قيل له: فأنت تُثْبِتُ له الأسماءَ الحسنى، مثل: عليم، حي، قادر، والعبد يُسمَّى بهذه الأسماء، وليس ما يَثْبُتُ للرب من هذه الأسماء مماثلاً لما يَثْبُتُ للعبد، فَقُلْ في صفاته نظيرَ قولك في مسمَّى أسمائه.

فإن قال: وأنا لا أُثْبِتُ له الأسماءَ الحسنى، بل أقولُ: هي مَجَازٌ، وهي أسماء لِبعضِ مبتَدَعَاته، كقول غُلاةِ الباطنية والمتفلسِفَةِ!

قيل له: فلا بُدَّ أن تَعْتَقِدَ أنه موجود وحقٌّ قائم بنفسه، والجسمُ موجود قائم بنفسه، وليس هو مماثلاً له.

فإن قال: أنا لا أُثْبِتُ شيئاً، بل أُنْكِرُ وجودَ الواجب.

قيل له: معلومٌ بصريحِ العقل أن الموجودَ إما واجِبٌ بنفسه، وإما غَيْرُ واجب بنفسِه، وإما قديمٌ أزلي، وإما حَادِثٌ كائن بَعْدَ أَنْ لم يكن، وإما مخلوقٌ مفتقِرٌ إلى خالِقٍ، وإما غيرُ مخلوق ولا مفتقرٌ إلى خالق، وإمَّا فقيرٌ إلى ما سواه، وإمَّا غنيٌّ عما سواه.

وغيرُ الواجب بنفسه لا يَكُونُ إلا بالواجب بنفسه، والحَادِثُ لا يكونُ إلا بقديم، والمخلوقُ لا يكون إلا بخالق، والفقيرُ لا يكون إلا بغنيٍّ عنه، فقد لَزِمَ على تقدير النقيضين وجودُ موجودٍ واجبٍ بنفسه قديم أزليٍّ خالق غني عما سواه، وما سواه بخلاف ذلك.

وقد عُلِمَ بالحسِّ والضرورة وُجودُ موجود حادثٍ كائنٍ بعد أنْ لم يَكُنْ، والحادثُ لا يكون واجباً بنفسه، ولا قديماً أزلياً، ولا خالِقاً لما سواه، ولا غنيّاً عما سواه، فثبت بالضرورةِ وُجودُ مَوْجُودَيْنِ: أحدُهما واجب، والآخَرُ مُمْكِنٌ، أَحَدُهُمَا

قديمٌ، والآخَرُ حادث، أحدُهما غني، والآخرُ فقير، أحدُهما خالقٌ، والآخَرُ مخلوق، وهما متفقان في كَوْنِ كُلٍّ منهما شيئاً موجوداً ثابتاً.

ومن المعلومِ أيضاً أن أَحَدَهُما ليس مُمَاثِلاً للآخر في حقيقته، إذ لو كان كذلك لتماثلا فيما يجب ويجوزُ ويمتنِعُ، وأحدُهما يجب قِدَمُهُ وهو موجودٌ بنفسه، والآخرُ لا يجب قِدَمُهُ ولا هو مَوْجُودٌ بنفسه، وأحدُهما خالقٌ، والآخر ليس بخالقٍ، وأحدُهما غني عما سواه والآخر فقير.

فلو تماثلا، لَلَزِمَ أن يكون كلٌّ منهما واجبَ القدم ليس بواجبِ القدم، موجوداً بنفسه غيرَ موجود بنفسه، خالقاً ليس بخالق، غنياً غير غني، فيلزَمُ اجتماعُ الضِّدَّيْنِ على تقدير تماثُلِهِمَا، فَعُلِمَ أن تماثُلَهما مُنْتَفٍ بصريح العقل، كما هو مُنْتَفٍ بنصوص الشرع.

فَعُلِمَ بهذه الأدلة اتفاقُهما من وجه، واختلافُهما مِن وجه، فَمَنْ نفى ما اتفقا فيه كان معطِّلاً قائلاً بالباطل، ومن جعلَهما مُتَمَاثِلَيْنِ، كان مشبهاً، قائلاً بالباطل، والله أعلم. وذلك لأنهما وإن اتفقا في مسمى ما اتفقا فيه، فالله تعالى مختص بوجوده وعلمه وقدرته وسائرِ صفاته، والعبدُ لا يَشْرَكُهُ في شيءٍ من ذلِكَ، والعبد أيضاً مختص بوجوده وعلمه وقدرته، والله تعالى منزَّهٌ عن مشاركة العبد في خصائصه.

وإذا اتفقا في مُسَمَّى الوجودِ والعلمِ والقُدْرَةِ، فهذا المشتركُ مُطْلَقٌ كُلِّيٌّ[١] يُوجَدُ في الأذهانِ لا في الأعيان[٢]، والموجودُ في الأعيان مختصٌّ لا اشتراكَ فيه[٣].

وهذا موضعٌ اضطرب فيه كثيرٌ من النُظَّارِ، حَيْثُ توهَّموا أن الاتفاقَ في مُسَمَّى هذه الأشياءِ يُوجِبُ أن يكون الوجودُ الذي للرَّبِّ كالوجود الذي للعبد.

وطائفة ظَنَّتْ أن لفظَ «الوجود» يُقالُ بالاشتراكِ[٤] اللفظي، وكَابَروا عُقُولَهم، فإنَّ

---

(١) الكلي: هو كل ما وضع لأكثر من شيء واحد.

(٢) الأعيان جمع عين: وهو الحاضر من كل شيء مادي أو هو الذي يقبل الوزن، انظر: معجم لغة الفقهاء (٣٢٦).

(٣) معنى كلام الشارح: أن كلمة «موجود» مثلاً تطلق على الخالق الأزلي وتطلق على المحدث المخلوق ومع هذا فليس لأحدهما أن يشارك الآخر في وجوده بل لكل واحد منهما وجود يخصه ولا يلزم من اتفاق الأسماء اتفاق المسميات، انظر: التدمرية (ص٢٠، ١٢٧).

(٤) الاشتراك اللفظي: هو اللفظ الواحد الذي يطلق على موجودات مختلفة.

هذه الأسماء عامة قابلةٌ للتقسيم، كما يقال: الموجودُ ينقسِمُ إلى واجب وممكن، وقديم وحادث. ومَوْرِدُ التقسيمِ مُشْتَرَكٌ بين الأقسام، واللفظُ المشترك، كلفظ: «المشتَري» الواقع على المبتاع والكوكب، لا يَنْقَسِمُ معناه، ولكن يُقال: لفظ: «المشتري» يقال على كذا، أو على كذا، وأمثال هذه المقالات التي قد بُسِطَ الكلامُ عليها في موضعه.

وأصلُ الخطأ والغلط: توهُّمهم أن هذه الأسماءَ العامة الكُلِّية يكون مسمَّاها المطلق الكلي هو بعينه ثابتاً في هذا المُعَيَّنِ وهذا المُعَيَّنِ[1]، وليس كذلك، فإن ما يُوجَدُ في الخارج لا يُوجَدُ مطلقاً كلياً، بل لا يُوجد إلا معيناً مختصاً، وهذه الأسماءُ إذا سُمِّيَ اللهُ بها، كان مسماها معيَّناً مختصاً به، فإذا سُمِّيَ بها العَبْدُ كان مسماها مختصاً به، فوجودُ الله وحياتُه لا يُشارِكُهُ فيها غَيْرُهُ، بل وُجودُ هذا الموجودِ المعيَّنِ لا يَشْرَكُهُ فيه غَيْرُهُ، فكيف بوجود الخالق! ألا ترى أنك تَقُولُ: هذا هو ذاك، فالمشار إليه واحدٌ، لكن بوجهين مختلفين.

وبهذا ومِثلِه يَتَبَيَّنُ لك أن المشبِّهَةَ أخذوا هذا المعنى، وزادُوا فيه على الحق فضلُّوا، وأن المعطِّلة أخذوا نفيَ المماثلة بوجه من الوجوه، وزادُوا فيه على الحقِّ حتى ضلُّوا، وأن كتاب الله دلَّ على الحق المحض الذي تَعْقِلُهُ العُقُولُ السليمةُ الصحيحةُ، وهو الحق المعتدِلُ الذي لا انحرافَ فيه.

فالنفاةُ أحسنوا في تنزيه الخالقِ سبحانه عن التشبيه بشيءٍ من خلقه، ولكنْ أساؤوا في نَفْي المعاني الثابتةِ لله تعالى في نفسِ الأمر، والمشبِّهَةُ أحسنوا في إثبات الصفات، ولكن أساؤوا بزيادة التشبيه.

واعلَمْ أنَّ المخاطَب[2] لا يَفْهَمُ المعاني المعبَّرِ عنها باللفظ إلا أن يَعْرِفَ عينها، أو ما يُنَاسِبُ عينَها، ويكون بينها قدرٌ مشترك ومشابهة في أصل المعنى، وإلا فلا يُمْكِنُ تفهيمُ المخاطَبين بدون هذا قطُّ حتى في أوَّل تعليم معاني الكلام بتعليم

(١) أي: أن هؤلاء إنما كان بسبب خطئهم وغلطهم أنهم لو أثبتوا القول بالتواطؤ يلزمهم إثبات المعنى الكلي فيلزم من هذا التشبيه وهذا غلط فالمعنى العام ليس هو أمراً متشخصاً في الخارج بل هو معنى ذهني.

(٢) انظر: الصواعق المرسلة (٢/٧٥٨).

معاني الألفاظ المفردة، مثل تربية الصبي الذي يُعلَّمُ البيانَ واللغةَ، يُنْطَقُ له باللفظ المفرَد، ويُشارُ لهُ إلى معناه، إن كان مشهوداً بالإحساس[1] الظاهر أو الباطن، فيقال له: لبنٌ، خبز، أم، أب، سماء، أرض، شمس، قمر، ماء، ويُشار له مع العبارة إلى كُلِّ مسمى مِن هذه المسمَّيَاتِ، وإلا لم يفهَم معنى اللفظِ ومرادَ الناطق به، وليس أحدٌ من بني آدم يستغني عن التعليم السمعي، كيف وآدمُ أبو البشر أولُ ما عَلَّمَه الله تعالى أُصولَ الأدِلة السمعية وهي الأسماءُ كلُّها، وكلَّمه وعلَّمه بخطابِ الوحي ما لم يُعَلِّمْهُ بمجرد العقل.

فدلالة اللفظ على المعنى هي بواسطة دلالته على ما عناه المتكلمُ وأراده، وإرادتُه وعنايتُه في قلبه، فلا يُعرَفُ باللفظ ابتداءً، ولكن يُعْرَفُ المعنى بغيرِ اللفظ حتى يُعْلَمَ أولاً أن هذا المعنى المرادَ هو الذي يُرادُ بذلك اللفظ، ويُعنى به، فإذا عَرَفَ ذلك، ثم سَمِعَ اللفظَ مرة ثانية، عَرَفَ المعنى المرادَ بلا إشارة إليه، وإن كانت الإشارةُ إلى ما يُحَسُّ بالباطن مثلِ الجوعِ والشِّبَع والرِّي والعطشِ والحُزن والفرح، فإنه لا يَعْرِفُ اسمَ ذلك حتى يَجِدَهُ مِنْ نفسه، فإذا وجده، أُشير له إليه، وعُرِّفَ أن اسْمَهُ كذا.

والإشارة تارةً تكونُ إلى جُوعِ نفسه، أو عطش نفسه، مثلَ أن يراه أنه قد جاع، فيقول له: جُعْتَ، أنت جائع، فيسمعُ اللفظَ ويَعْلَمُ ما عيَّنه بالإشارة، أو ما يجري مجراها من القرائن التي تُعيِّنُ المرادَ، مثل نظرِ أُمِّهِ إليهِ في حال جوعه، وإدراكِهِ بنظرها أو نحوه أنها تعني جوعَه، أو يسمعهم يُعَبِّرُون بذلك عن جوع غيره.

إذا عُرِفَ ذلك، فالمخاطِبِ المتكلِّم إذا أراد بيانَ معانٍ فلا يخلُو إما أن يكونَ مما أدركها المخاطَبُ المستمِعُ بإحساسه وشهودِهِ، أو بمعقوله وإما أن لا يَكونَ كذلك، فإن كانت من القسمين الأولين، لم يَحْتَجْ إلَّا إلى معرفة اللغة، بأن يكون قد عَرَفَ معانيَ الألفاظ المفردة، ومعنى التركيب، فإذا قيل له بعد ذلك: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩﴾ [البلد: ٨، ٩] أو قيل له: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٧٨﴾ [النحل: ٧٨] ونحو ذلك فهم المخاطب بما أدركه بحسه.

---

(١) الإحساس: إدراك الشيء بإحدى الحواس.

وإن كانت المعاني التي يُرادُ تَعريفُه بها ليست مما أحسَّه وشَهِدَه بعينه، ولا بحيثُ صَار له معقولٌ كُلِّيٌّ يتناولُها حتى يَفْهَمَ به المرادَ بتلك الألفاظِ، بل هي مما لا يدْرِكُهُ بشيءٍ من حواسِّه الباطِنَةِ والظاهرة، فلا بُدَّ من تعريفه من طريقِ القياسِ والتمثيل والاعتبارِ بما بينَه وبينَ معقولات الأمور التي شاهدها من التشابه والتناسُبِ، وكلما كان التمثيلُ أقوى، كان البيانُ أحْسَنَ، والفَهْمُ أكملَ.

فالرسولُ صلوات الله وسلامه عليه لمَّا بَيَّن لنا أموراً لم تكن معروفةً قبلَ ذلك، وليس في لغتهم لَفْظٌ يدُلُّ عليها بعينها، أتى بألفاظ تُناسِبُ معانيها تلك المعاني، وجعلَها أسماءً لها، فيكون بينها قَدْرٌ مشترك، كالصلاة، والزكاة، والصوم، والإيمان، والكفر.

وكذلك لمَّا أخبرنا بأمورٍ تتعلَّق بالإيمانِ بالله وباليوم الآخر، وهم لم يكونوا يَعرفُونها قبل ذلك حتى يكونَ لهم ألفاظٌ تدلُّ عليها بعينها، أَخَذَ مِن اللغة الألفاظَ المناسبة لتلك بما تَدُلُّ عليه من القدرِ المشترك بين تلك المعاني الغيبية، والمعاني الشهودية التي كانوا يعرِفُونَها، وقَرَنَ بذلك مِن الإشارة ونحوها ما يُعْلَمُ به حقيقةُ المرادِ، كتعليمِ الصبي، كما قال رَبيعةُ بن أبي عبد الرحمن: الناسُ في حُجورِ علمائهم كالصِّبيان في حُجور آبائهم.

وأما ما يُخْبِرُ به الرسولُ من الأمورِ الغائبة، فقد يكونُ مما أدركوا نظيرَه بحسهم وعقلهم، كإخبارهم بأنَّ الريحَ قد أهلَكت عاداً، فإنَّ «عاداً» من جنسهم والريحَ من جنس ريحهم، وإن كانت أشدَّ، وكذلك غَرَقُ فرعونَ في البحر، وكذا بقيةُ الأخبارِ عن الأمم الماضية، ولهذا كان الإخبارُ بذلك فيه عِبرَةٌ لنا، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [يوسف: ١١١].

وقد يكون الذي يُخبِرُ به الرَّسُولُ ما لم يُدرِكوا مثلَه الموافقَ له في الحقيقةِ مِن كل وجه، لكن في مفرداته ما يُشبِهُ مفرداتِهم من بعضِ الوجوه، كما إذا أخبرهم عن الأمورِ الغيبيَّة المتعلقة بالله واليوم الآخر، فلابُدَّ أن يعلموا معنى مشتركاً، وشبهاً بَيْنَ مفرداتِ تلك الألفاظِ وبينَ مفرداتِ ما علموه في الدنيا بِحِسِّهِم وعقلهم.

فإذا كان ذلك المعنى الذي في الدنيا لم يشهدوه بعدُ، ويُريدُ أن يجعلَهم يشهدونَه مشاهدةً كاملةً، لِيَفْهَمُوا به القَدْرَ المشترك بينَهن وبينَ المعنى الغائب،

أشهدَهم إياه، وأشارَ لهم إليه، وفعل فعلاً يكونُ حكايةً له، وشَبَهاً به يَعلَمُ المستمعون أنَّ معرفتهم بالحقائق المشهودة هي الطريقُ التي يَعْرِفُونَ بها الأمورَ الغائبةَ، فَيَنْبَغِي أنْ تُعْرَفَ هذه الدرجات:

أوَّلَها: إدراكُ الإنسانِ المعانيَ الحِسِّيَّةَ المشاهدة.

وثانيها: عقلُه لِمعانيها الكُلِّيَّةِ.

وثالثها: تعريفُ الألفاظِ الدَّالَّة على تلك المعاني الحسية والعقلية.

فهذه المراتبُ الثلاثُ لا بُدَّ منها في كل خطاب. فإذا أخبرنا عن الأمور الغائبةِ فلابُدَّ من تعريفنا المعانيَ المشتركةَ بينَها وبينَ الحقائق المشهودة والاشتباه الذي بينهما، وذلك بتعريفنا الأمورَ المشهودَةَ، ثم إن كانت مثلَها، لم يُحْتَجْ إلى ذكرِ الفارق، كما تقدَّمَ في قَصَصِ الأمم، وإنْ لم يكن مثلَها، بيّن ذلك بذكر الفارق بأن يُقَالَ: ليس ذلك مثلَ هذا، ونحو ذلك، وإذا تقرَّر انتفَاءُ المماثلة، كانتِ الإضافةُ وحدَها كافيةً في بيان الفارقِ، وانتفاء التساوي لا يمنع وجودَ القدرِ المشترك[1] الذي هو مدلولُ اللفظ المشترك[2]، وبه صِرنا نفهمُ الأمورَ الغائبةَ، ولولا المعنى المشتركُ ما أمكن ذلك قطُّ.

قوله: «ولا شيءَ يُعْجِزُهُ».

لِكمال قُدرته، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٠]، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ [الكهف: ٤٥]، ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر: ٤٤]، ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ﴾ أي: لا يكْرِثُه ولا يُثقِلُه ولا يُعجِزُه. فهذا النفيُ لثبوت كمال ضِدِّه، وكذلك كُلُّ نفي يأتي في صفاتِ الله تعالى في الكتابِ والسنة إنما هو لثبوتِ كمالِ ضِدِّه، كقوله تعالى: ﴿وَلَا يَظْلِمُ

---

(١) يعني إنتفاء التساوي من كل وجه لا يمنع وجود التشابه من بعض الأوجه الذي هو «القدر المشترك» وهو المعنى العام الذي تشترك فيه الأشياء وهذا المعنى الكلي إنما هو في الذهن.

(٢) أي: أن اللفظ المشترك مثل الخالق والمخلوق بالسمع يدل على القدر المشترك الذي هو المعنى العام الكلي.

رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]، لِكمال عدله، ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [سبأ: ٣] لكمال علمه، وقوله تعالى: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [قٓ: ٣٨] لكمال قدرته. ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥] لِكمال حياته وقَيُّومِيَّته. ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] لكمالِ جلاله وعظمته وكبريائه، وإلا فالنَّفي الصِرْفُ لا مَدْحَ فيه، ألا تَرى أن قَوْلَ الشاعر[1]:

قُـبَـيِّـلَـةٌ لا يَـغْـدِرُونَ بِـذِمَّـةٍ ... وَلا يَـظْـلِـمُـونَ النَّـاسَ حَـبَّـةَ خَـرْدَلِ

لما اقترن بنفي الغَدْرِ والظلمِ عنهم ما ذكره قبل هذا البيتِ، وبَعْدَه، وتصغيرِهم بقوله: «قُبَيِّلَة» عُلِمَ أن المرادَ عَجْزُهُمْ وضعفُهم، لا كمالُ قدرتهم، وقول الآخر[2]:

لَـكِـنَّ قَـوْمِـي وَإِنْ كَـانُـوا ذَوِي عَـدَدٍ ... لَـيْـسُـوا مِنَ الشَّرِّ فِي شَيْءٍ وَإِنْ هَانَا

لما اقترنَ بنفي الشر عنهم ما يَدُلُّ على ذَمِّهم، عُلِمَ أن المُرَادَ عَجْزُهُمْ وضَعْفُهُمْ أيضاً.

ولهذا يأتي الإثباتُ للصفات في كتاب الله مفصَّلاً، والنفي مجملاً، عكسَ طريقة أهل الكلام المذموم، فإنهم يأتون بالنفي المفصَّل والإثباتِ المجمل، يقولون: ليس بجسمٍ ولا شَبَحٍ، ولا جُثَّةٍ، ولا صُورةٍ، ولا لحمٍ، ولا دمٍ، ولا شخصٍ، ولا جوهرٍ، ولا عَرَضٍ، ولا بذي لونٍ، ولا رائحةٍ، ولا طعمٍ، ولا مَجَسَّةٍ، ولا بذي حرارةٍ، ولا برودةٍ، ولا رطوبةٍ، ولا يبوسةٍ، ولا طولٍ، ولا عرضٍ، ولا عمقٍ، ولا اجتماعٍ، ولا افتراقٍ، ولا يتحركُ، ولا يسكنُ، ولا يتبعّضُ، وليس بذي أبعاضٍ وأجزاءٍ وجوارحَ وأعضاءٍ، وليس بذي جهات، ولا بذي يمين، ولا شمالٍ وأمامٍ وخلفٍ وفوقٍ وتحتٍ، ولا يُحيطُ به مكانٌ، ولا يجري عليه زمانٌ، ولا يجوز عليه المماسةُ ولا العُزلةُ، ولا الحُلُولُ في الأماكن، ولا يُوصَفُ بشيء من صفات الخلق الدالة على حدوثهم، ولا يُوصَفُ بأنَّه مُتَنَاهٍ، ولا يوصفُ بمساحةٍ ولا ذهابٍ في الجهات، وليس بمحدودٍ، ولا والدٍ ولا مولودٍ، ولا تحيطُ به الأقدارُ ولا تَحجبُهُ الأستار. إلى آخر ما نقله[3] أبو الحسن الأشعري رحمه الله عن المعتزلة.

---

(١) هو قيس بن عمرو، انظر: (الشعر والشعراء) (١/ ٢٤٨) لابن قتيبة.
(٢) هو قريظ بن أنيف من بني العنبر من تميم، انظر: شرح حماسة أبي تمام (١/ ٣٥٧).
(٣) انظر: مقالات الإسلاميين (١/ ٢٣٥، ٢٣٦).

وفي هذه الجملة حقٌّ وباطل، ويَظهرُ ذلك لمن يَعرفُ الكتابَ والسنة. وهذا النفيُ المجرَّدُ مع كونه لا مَدْحَ فيه، فيه إساءةُ أدبٍ، فإنك لو قلتَ للسلطان: أنت لستَ بزبال، ولا كَسَّاح، ولا حَجَّام، ولا حائكٍ! لأدَّبك على هذا الوصف وإن كنت صادقاً، وإنما تكونُ مادحاً إذا أجملت النفي، فقلت: أنت لست مثلَ أحد مِن رعيتك، أنت أعلى منهم وأشرفُ وأجلُّ، فإذا أجملتَ في النفي، أجملتَ في الأدب.

والتعبير عن الحق بالألفاظ الشرعية النبوية والإلهية، هو سبيلُ أهل السنة والجماعة، والمعطِّلَةُ يُعرِضُونَ عما قاله الشارعُ من الأسماء والصفات، ولا يتدبَّرون معانيها، ويجعلون ما ابتدعوه من المعاني والألفاظ هو المُحكَمَ الذي يجب اعتقادُهُ واعتمادُه.

وأما أهلُ الحقِّ والسنةِ والإيمانِ، فيجعلون ما قاله اللهُ ورسولُه هو الحقَّ الذي يجب اعتقادُهُ واعتمادُهُ، والذي قاله هؤلاء إما أن يُعرِضُوا عنه إعراضاً جُمْلِيّاً، أو يُبيِّنوا حالَه تَفصيلاً[1]، ويُحكَمَ عليه بالكتابِ والسنةِ، لا يُحْكَمُ به على الكتابِ والسنة.

والمقصودُ: أن غالبَ عقائدهم السُّلُوبُ[2]: ليس بكذا، ليس بكذا، وأما الإثباتُ، فهو قليل، وهي أنَّه عالم قادِرٌ حيٌّ، وأكثرُ النفي المذكور ليس مُتلَقّى عن الكتابِ والسنة، ولا عن الطُّرُقِ العقليةِ التي سَلَكَها غيرُهم من مُثبِتَة الصفات، فإن الله تعالى قال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]. ففي هذا الإثباتِ ما يُقرِّرُ معنى النفي، فَفُهِمَ أن المرادَ انفرادُهُ سبحانه بصفاتِ الكمال، فهو ﷻ موصوفٌ بما وصف به نفسَه، ووصَفَه به رُسُلُه، ليس كمثله شيء في صفاته، ولا في أسمائه، ولا في أفعاله، مما أخبرنا به مِن صفاته، وله صفاتٌ لم يَطَّلِعْ عليها أحدٌ من خلقه، كما قال رسولُه الصادقُ ﷺ في دُعاءِ الكرب: (اللَّهُمَّ

---

(١) يعني لأهل السنة في تلك الألفاظ الكلامية طريقتان:
أ ـ الإعراض عنها إجمالاً وعدم التعرض لها.
ب ـ طلب البيان والتفصيل لمعانيها للتمكن من الحكم عليها.
انظر: تعليق محقق شرح الطحاوية ص٨٤ العدني.

(٢) السلوب: جمع سلب وهو النفي، انظر: الكليات (ص٥١٢).

إِنِّي أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ في كِتَابِك، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَداً مِنْ خَلْقِكَ، أَوْ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الغَيْبِ عِنْدَكَ، أَنْ تَجْعَلَ القُرآنَ العَظِيمَ رَبِيعَ قَلْبِي، ونُورَ صَدْرِي، وجَلاء حُزْنِي، وذَهَابَ هَمِّي وغَمِّي)[1]. وسيأتي التنبيهُ على فسادِ طريقتهم في الصفات إن شاء الله تعالى.

وليس قَوْلُ الشيخ رحمه الله تعالى: «ولا شَيءَ يُعْجِزُهُ» من النفي المذموم، فإن الله تعالى قال: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر: ٤٤]، فنبَّه ﷻ في آخر الآية على دليلِ انتفاء العجز، وهو كمالُ العلم والقدرة، فإن العَجْزَ إنما ينشأ إما مِن الضعف عن القيام بما يُريدُه الفاعِلُ، وإما من عَدَمِ علمه به، والله تعالى لا يَعْزُبُ عنه مِثْقَالُ ذرة، وهو على كل شيءٍ قدير، وقد عُلِمَ ببدائه العقولِ والفِطَرِ كمالُ قدرته وعلمه، فانتفى العَجْزُ، لما بَيْنَهُ وبيْنَ القدرة من التضاد، ولأن العاجزَ لا يَصلُحُ أن يكونَ إلهاً، تعالى الله عن ذكر ذلك عُلوّاً كبيراً.

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٣٩١)؛ والحاكم (١/ ٥٠٩) وهو صحيح، انظر: السلسلة الصحيحة رقم (١٩٩).



عناصر الموضوع:

١ غرض المصنف من عقد هذا الباب:

أ ـ تقرير مذهب أهل السنة والجماعة، وأنهم يعتقدون أن الله واحد لا شريك له، ولا مثيل له، ولا كفؤ له، ولا ند له ﷻ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

ب ـ الرد على المخالفين لمذهب أهل السنة والجماعة من المشبهة والمعطلة، فالمشبه يعبد صنماً، والمعطل يعبد عدماً، والموحد يعبد إلهاً واحداً فرداً صمداً.

٢ مناسبة هذا الباب لما سبق:

بعد أن ذكر الطحاوي رحمه الله تعالى أن عقيدة أهل السنة في توحيد الله: «وأن الله واحد لا شريك له» ناسب أن يبين أن الله تعالى لا يماثله شيء من المخلوقات، لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، فليس لله ﷻ مثيل.

٣ معاني الكلمات:

الكلمة	المعنى
النفاة	جمع ناف: وهو من أنكر صفة من صفات الله تعالى، ولم يثبتها بل عطلها إما بتأويل نصوصها وتحريفها، وإما بتفويض معانيها.
التجسيم	الاعتقاد في الشيء بأنه جسم.
الحس	هو العلم الحاصل بالحواس كالسمع والبصر والذوق واللمس والشم.
الماهية	مأخوذة من ما هو والمقصود: خصائصها الذاتية.
الإثبات المجرد	هو إثبات صفة لشخص بقطع النظر عن كمال تلك الصفة أو حصرها فيه.
واجب الوجود	وهو الذي وجوده ضروري، وعدمه ممتنع، وهو الله تعالى.
الامتناع الذاتي	هو ضرورة اقتضاء الذات عدم الوجود الخارجي.
التسلسل	ترتيب أمور غير متناهية.
المجمل	هو ما خفي المراد منه بحيث لا يدرك بنفس اللفظ إلا ببيان من الشرع.

الكلمة	المعنى
المجاز	المجاز: هو اللفظ المستعمل في غير ما وضع له لعلاقة بينهما وقرينة تمنع إرادة المعنى الحقيقي للفظ.
يعجزه	أعجزه الشيء: أي جعله عاجزاً لا يقدر عليه.
الاشتراك اللفظي	هو شركة عدة معانٍ في لفظ واحد على التناوب، كاشتراك الذات والشمس والذهب والماء الجاري النابع من الأرض في لفظ «العين».

٤ معنى كلام الطحاوي: «ولا شيء مثله»:

من أصول مذهب أهل السنة والجماعة أن الله ﷻ ليس كمثله شيء، لا في ذاته، ولا في أسمائه، ولا في صفاته، فلا يشبه أحداً من خلقه، ولا يشبهه أحد من خلقه.

وكلمة «شيء»: نكرة في سياق النفي فتفيد العموم، فلا شيء يماثل الله من مخلوقاته، وقد دل على ذلك الأدلة من كتاب الله والسنة.

قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

وقال تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥].

وقال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠].

وقال تعالى: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [النحل: ٧٤].

٥ معنى كلام الطحاوي: «ولا شيء يعجزه»:

الله ﷻ على كل شيء قدير، قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: ٨٢] ولا يعسر عليه شيء ولا يعجزه شيء: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر: ٤٤]. وذلك من تمام قدرته ﷻ وكمالها، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وهذا دال على كمال قدرته، وقوته، وعظمته، وجلاله.

المقصود أن من أصول عقيدة أهل السنة أن الله على كل شيء قدير، والقدير المبالغ في القدرة، فقدرة الله لا يعجزها شيء، إذا أراد شيئاً فإنما يقول له كن فيكون، والله ﷻ خالق السماوات والأرض، والمدبر لهما بحكمه القدري، وحكمه الشرعي، وحكمه الجزئي، فلا يعجزه شيء، بل جميع الأشياء منقادة لمشيئته مسخرة بأمره.

(٦) الجمع بين النفي والإثبات في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾:

إن الله تعالى فيما وصف به نفسه في هذه الآية جمع بين النفي والإثبات؛ لأنه لا يتم كمال الموصوف إلا بنفي صفات النقص، وإثبات صفات الكمال، وكل الصفات التي نفاها الله عن نفسه فهي صفات نقص.

فهذه الآية ونحوها دليل لمذهب أهل السنة والجماعة من إثبات الصفات ونفي مماثلة المخلوقات، فالله لا يماثله شيء من مخلوقاته، لا في ذاته، ولا في أسمائه، ولا صفاته، ولا أفعاله؛ لأن أسماء الله كلها حسنى، وصفاته صفات كمال وعظمة، وأفعاله سبحانه أوجد بها مخلوقاته العظيمة من غير مشارك، فليس كمثله شيء لانفراده وتوحده بالكمال من كل وجه.

والآية فيها رد على الممثلة، موافقة لظاهر الآية في قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾، وعلى المعطلة في قوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾، وليس كافياً في هذا الباب مجرد نفي التشبيه بدون إثبات، أو مطلق الإثبات بدون تنزيه.

(٧) حكم من مثَّل صفات الله بصفات الخلق:

الله تعالى لا مثيل له في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله، فليس له ﷻ كما قال تعالى مثيل: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]. فمن اعتقد أن لله مثيلاً في ذاته أو مثيلاً في صفاته أو مثيلاً في أفعاله فقد كفر.

(٨) الممثِّل يعبد صنماً:

من اعتقد أن لله مثيلاً فهو في الحقيقة لم يعبد الله، وإنما يعبد صورَه تخيَّلها، ونحتها له فكره، فهو من عباد الأوثان لا من عباد الرحمن، قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى:

لسنا نشبه وصفه بصفاتنا ... إن المشبه عابد الأوثان

(٩) من شبه الله بخلقه فقد شابه النصارى:

من شبه الله ﷻ بخلقه فقد شابه النصارى؛ لأن النصارى شبهوا المسيح بالله، وقالوا: هو ابن الله، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً. قال ابن القيم:

من شبه الله العظيم بخلقه ... فهو النسيب بمشرك نصراني

المقصود أن التمثيل نوعان:

أ ـ تمثيل المخلوق بالخالق وهو إثبات شيء للمخلوق مما اختص به الخالق كفعل النصارى الذين ألَّهوا عيسى ابن مريم.

ب ـ تمثيل الخالق بالمخلوق: وهو إثبات من هو من خصائص المخلوق كتمثيل اليهود بأن وصفوا ربهم بالعجز والفقر والندم[١].

١٠ التعبير بنفي التمثيل أولى من التعبير بنفي التشبيه:

أهل السنة والجماعة يتقيدون بالألفاظ الشرعية الواردة في الكتاب والسنة، فلم يرد لفظ نفي التشبيه وإنما ورد نفي التمثيل. والله سبحانه وتعالى أعلم بما يتكلم به وأحكم؛ ثم أن التمثيل يقتضي المساواة من كل وجه بينما التشبيه يقتضي المساواة من وجه دون آخر[٢].

أما أهل التعطيل فيعبرون بنفي التشبيه، وهذا فيه ما فيه، والأولى التعبير باللفظ الوارد في شرع الله.

١١ طريقة السلف في التنزيه:

التنزيه الذي دل عليه الكتاب والسنة وفهمه سلف الأمة هو تنزيه الله عن مشابهة الخلق بلا تعطيل لما أثبت الله لنفسه، وأثبته له رسوله عليه الصلاة والسلام، وليس نفي الصفات الثابتة في الكتاب والسنة من التنزيه في شيء، بل هو عين التنقص.

وأهل السنة ينفون ما نفاه الله عن نفسه، وما نفاه عنه رسوله ﷺ مع اعتقادهم ثبوت كمال ضده، ولا يتعرضون لصفات الكمال ونعوت الجلال بنفي ولا تحريف.

وإثبات الصفات الثابتة في الكتاب والسنة ليس من التشبيه في شيء، بل التشبيه في نفي الصفات لا في إثباتها.

والتنزيه عند السلف بني على أصول هي:

أ ـ تنزيه الله تعالى عن النقائص والعيوب، مع إثبات الصفات الواردة في الكتاب والسنة إثباتاً بلا تكييف ولا تمثيل ولا تعطيل، فينزه الله عن كل ما يوجب العيب سواء كان متصلاً كالموت والعجز والسِّنَة والنوم والذل والسفه والنسيان والغفلة والحاجة والتعب واللغوب، أو كان منفصلاً كالشريك والظهير والشفيع بدون إذنه والولد والوالد واتخاذ صاحبة والكفؤ والند والولي من الذل.

ب ـ النفي عندهم مجمل: تقدم أن الإثبات عند السلف يكون بإثبات ما أثبته الله لنفسه، أو أثبته رسوله ﷺ على وجه التفصيل من غير تكييف ولا تعطيل، أما النفي فهو مجمل عندهم كما في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ﴾، وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص: ١].

---

(١) انظر: الفتاوى (١٠/ ٥٥).

(٢) انظر: الجواب الصحيح (٢/ ٢٣٣) ط. مطابع المجد.

والمراد بالإجمال: التعميم والإطلاق، والنفي المجمل: هو الذي لا يتعرض فيه لنفي عيوب ونقائص معينة، فقوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ وقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾، هو نفي مجمل؛ لأنه نفي للمماثلة في جميع الصفات، فلم يقل ليس كمثله شيء في علمه أو في قدرته أو في سمعه أو في بصره، وما ذكر من الإجمال في النفي والتفصيل في الإثبات إنما هو في الغالب، وإلا فإنه قد يأتي النفي مفصلاً كما يأتي الإثبات مجملاً، فالأول كقوله تعالى: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]، والثاني كقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ [الفاتحة: ٢].

ج ـ لا يصفون الله بالنفي المحض: ومع نفيهم عن الله ما نفاه عن نفسه أو نفاه رسوله ﷺ فهم يثبتون ضد الصفات المنفية، كقوله تعالى: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]، فهم يثبتون كمال عدله.

وكقوله تعالى: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [سبأ: ٣]، فهم يثبتون كمال علمه.

وكقوله تعالى: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨]، فهم يثبتون كمال قدرته.

وكقوله تعالى: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، فهم يثبتون كمال حياته وقيُّوميته؛ لأن النفي الصرف لا مدح فيه ولا كمال؛ لأنه عدم محض، والعدم المحض ليس بشيء.

١٢ مفهوم التنزيه عند المعطلة:

خالف المعطلة أهل السنة في مفهوم التنزيه، حيث جعلوه معولاً لهدم بنيان صفات الله الثابتة بالكتاب والسنة، وأول من أدخل النفي في التنزيه هم الجهمية، فقد قال عنهم الإمام أحمد: أن توحيدهم غالبه سلوب بدون إثبات، وتابعهم بعد ذلك المعتزلة.

١٣ المعطلة يصفون الله تعالى بالنفي المحض:

المعطلة يقتصرون على النفي المحض ولا يثبتون كمال الضد، فيقولون عن الله تعالى: إن الله ليس بداخل العالم، ولا خارجه، ولا فوق العالم ولا تحته، ولا متصلاً بالعالم، ولا منفصلاً عنه، كما أنهم يقولون: إن الله ليس بحي، ولا بصير، ولا متكلم.

فلزمهم أن يكون ميتاً أصم أعمى أبكم، وهم بهذا لا يثبتون إلهاً موجوداً، بل إلهاً معدوماً.

والأخذ بالنفي دون الإثبات تفريق بين المتماثلين، وهو ممتنع في بدائه العقول فلا بد من الجمع بين الإثبات والتنزيه، كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

ومن القواعد المستنبطة من نصوص الكتاب والسنة: الجمع بين الإثبات والتنزيه في باب الصفات، وهذه الطريقة موافقة للعقل الصريح؛ وذلك لأن إثبات صفات الكمال لا يتأتى إلا بنفي صفات النقص المتضمن لإثبات الكمال.

١٤ الأدلة على أن الاشتراك في الأسماء والصفات لا يستلزم تماثلَ المسميات:

أما دليل السمع فقد قال الله عن نفسه: ﴿إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨]، وقال عن الإنسان: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ۝﴾ [الإنسان: ٢]، ونفي أن يكون السميع كالسميع، والبصير كالبصير، فقال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

وأثبت لنفسه علماً، وللإنسان علماً، فقال عن نفسه: ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ﴾ [البقرة: ٢٣٥]، وقال عن الإنسان: ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ [الممتحنة: ١٠]، وليس علم الإنسان كعلم الله، فقد قال تعالى عن علمه: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [طه: ٩٨]، وقال عن علم الإنسان: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

وأما العقل: فمن المعلوم بالعقل أن المعاني والأوصاف تتقيد وتتميز بحسب ما تضاف إليه، فكما أن الأشياء مختلفة في ذواتها فإنها كذلك مختلفة في صفاتها وفي المعاني المضافة إليها، فإن صفة كل موصوف تناسبه لا يفهم منها ما يقصر عن موصوفها أو يتجاوزه، ولهذا نصف الإنسان باللين، والحديد المنصهر باللين، ونعلم أن اللين متفاوت المعنى بحسب ما أضيف إليه.

وأما الحس: فإننا نشاهد للفيل جسماً وقدماً وقوة، وللبعوضة جسماً وقدماً وقوة، ونعلم الفرق بين جسميهما وقدميهما وقوتيهما.

فإذا علم أن الاشتراك في الاسم والصفة في المخلوقات لا يستلزم التماثل في الحقيقة مع كون كل منهما مخلوقاً ممكناً، فانتفاء التلازم في ذلك بين الخالق

والمخلوق أولى وأجلى، بل إن التماثل في ذلك بين الخالق والمخلوق ممتنع غاية الامتناع.

١٥ أمثلة لأسماء سمَّى بها الله نفسه وسمَّى بها بعض عباده:

سمَّى الله نفسه بأسماء وسمَّى مخلوقاته ببعض هذه الأسماء، ولكن أسماء الله تعالى مختصة به، وأسماء المخلوقات مختصة بها، فمجرد الاتفاق في الاسم لا يدل على الموافقة في الحقيقة والكنه، وإليك هذه الأمثلة التي ذكرها الشارح في هذا الجدول الآتي:

الاسم	دليل تسمية الله به نفسه	دليل تسمية بعض عباده به
الحي	﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]	﴿يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ [الأنعام: ٩٥]
الحليم العليم	﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ [النساء: ١٢]	﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ [الذاريات: ٢٨] ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [الصافات: ١٠١]
الرؤوف الرحيم	﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣]	﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]
السميع البصير	﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨]	﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾﴾ [الإنسان: ٢]
العزيز	﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩]	﴿قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ﴾ [يوسف: ٥١]
الملك	﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾ [الحشر: ٢٣]	﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [الكهف: ٧٩]
المؤمن	﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾ [الحشر: ٢٣]	﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾﴾ [السجدة: ١٨]
الجبار المتكبر	﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾ [الحشر: ٢٣]	﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: ٣٥]

١٦ تعريف القدر المشترك:

القدر المشترك هو: المعنى الكلي الذي لا يوجد إلا في الذهن.

وبعبارة أخرى: فإن القدر المشترك بين الأسماء والصفات المقولة على الرب وعلى غيره، هو المعنى اللغوي الذي نفهمه من لغة التخاطب ـ اللغة العربية ـ التي نزل بها الوحي، وهو المشترك المعنوي الذي تتفاضل أفراده، وهو المشكك أحد أقسام المتواطئ وهو شبه بين هذه الأسماء والصفات من هذا الوجه مع التفاضل والتباين من وجه آخر.

١٧ القدر المشترك ضروري لفهم الخطاب:

يقول ابن أبي العز: واعلم أن المخاطب لا يفهم المعاني المعبر عنها باللفظ إلا أن يعرف عينها أو ما يناسب عينها ويكون بينها قدر مشترك ومشابهة في أصل المعنى، وإلا فلا يكون تفهيم المخاطبين بدون هذا قط.

فالرسول ﷺ لما بيّن لنا أموراً لم تكن معروفة لنا قبل ذلك، وليس في لغتهم لفظ يدل عليها بعينها وأتي بألفاظ تناسب معانيها تلك المعاني، وجعلها أسماء لها، فيكون بينها قدر مشترك كالصلاة والزكاة والصوم والإيمان والكفر.

وقد يكون الذي يخبر به الرسول لم يدركوا مثله الموافق له في الحقيقة من كل وجه لكن في مفرداته ما يشبه مفرداتهم من بعض الوجوه كما إذا أخبرهم عن الأمور الغيبية المتعلقة بالله وباليوم الآخر، فلا بد أن يعلموا معنى مشتركاً وشبهاً بين مفردات تلك الألفاظ، وبين مفردات ألفاظ ما علموها في الدنيا بحسهم وعقلهم، فإذا كان ذلك المعنى في الدنيا لم يشهدوه بعد، ويريد أن يجعلهم يشهدونه شهادة كاملة، ليفهموا به القدر المشترك بينه وبين المعنى الغائب أشهدهم إياه وأشار لهم إليه، وفعل فعلاً يكون حكاية له وشبهاً به يعلم المستمعون أن معرفتهم بالحقائق المشهودة هي الطريق التي يعرفون بها الأمور الغائبة، فينبغي أن تعلم هذه الدرجات:

أولها: إدراك الإنسان المعاني الحسية المشاهدة.

ثانيها: عقله لمعانيها الكلية.

ثالثها: تعريف الألفاظ الدالة على تلك المعاني الحسية المعقولة.

فهذه المراتب الثلاث لا بد منها في كل خطاب، فإذا أخبرنا عن الأمور الغائبة فلا بد من تعريفنا بالمعاني المشتركة بينها وبين الحقائق المشهودة، والاشتباه الذي

بينهما وذلك بتعريفنا الأمور المشهودة، ثم إن كانت مثلها لم يحتج إلى ذكر الفارق، وإن لم يكن مثلها بيَّن بذكر الفارق، بأن يقال: ليس ذلك مثل هذا ونحو ذلك، وإذا تقرر انتفاء المماثلة كانت الإضافة وحدها كافية في بيان الفارق، وانتفاء التساوي لا يمنع من وجود القدر المشترك، الذي هو مدلول اللفظ المشترك، وبه صرنا نفهم الأمور الغائبة، ولولا المعنى المشترك ما أمكن ذلك قط.

١٨ أقسام الناس في القدر المشترك:

انقسم أهل الكلام إلى قسمين:

القسم الأول: من قال: إن إثبات القدر المشترك ـ وهو كون هذه الأسماء والصفات حقيقة في حق الخالق وفي حق المخلوق ـ يلزم أن يكون مماثلاً للمخلوقات[(١)]، ويلزم أن يجوز ويجب ويمتنع على المخلوق ما يجوز ويجب ويمتنع على الخالق، فنفوا ما نفوه من الصفات أو الأسماء أو بعض الصفات بناء على ذلك.

وهذه هي شبهة التشبيه المشهورة عند المعتزلة وغيرهم، وقد رد عليهم الأئمة، وبينوا أنه لا يلزم من إثبات هذا القدر المشترك إثبات مماثلة بين الله وبين خلقه، وأن نفيه يلزم منه تعطيل الله ﷻ عن صفاته، وإنكار ما وصف به نفسه، وهذا هو الكفر.

قال نعيم بن حماد: «من شبه الله بشيء من خلقه فقد كفر، ومن أنكر ما وصف الله به فقد كفر، وليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيه»[(٢)].

وقال إسحاق بن راهويه: علامة جهم وأصحابه: دعواهم على أهل السنة والجماعة أنهم مشبهة، بل هم المعطلة.

وقال: «إنما يكون التشبيه إذا قال: يد مثل يدي، أو سمع مثل سمعي، فهذا تشبيه، وأما إذا قال كما قال الله: يد وسمع وبصر، فلا يقول مثل، فهذا لا يكون تشبيهاً عنده، قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١][(٣)].

وقال أبو عمر الطلمنكي: «قال قوم من المعتزلة والجهمية: لا يجوز أن يسمى الله ﷻ بهذه الأسماء على الحقيقة، ويسمى بها المخلوق، فنفوا عن الله الحقائق وأثبتوا لخلقه.

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٣/ ٧٧).

(٢) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٢/ ٥٣٢).

(٣) نقله عنه الترمذي في جامعه (٣/ ٤١، ٤٢) وانظر: (٥/ ٢٥١).

فإذا سئلوا: ما حملهم على هذا الزيغ؟

قالوا: الاجتماع في التسمية يوجب التشبيه.

قلنا: هذا خروج عن اللغة التي خوطبنا بها؛ لأن المعقول في اللغة أن الاشتباه في اللغة لا يحصل بالتسمية وإنما تشبيه الأشياء بأنفسها أو بهيئات فيها كالبياض بالبياض، والسواد بالسواد، والطويل بالطويل، والقصير بالقصير، ولو كانت الأسماء توجب اشتباهاً لاشتبهت الأشياء كلها لشمول اسم الشيء لها وعموم تسمية الأشياء به.

فنسألهم: تقولون إن الله موجود؟

فإن قالوا: نعم، قيل لهم: يلزمكم على دعواكم أن يكون مشبهاً للموجودين.

وإن قالوا: موجود ولا يوجب وجوده الاشتباه بينه وبين الموجودات، قلنا: كذلك هو حي عليم قادر مريد سميع بصير متكلم يعني ولا يلزم من ذلك اشتباهه بمن اتصف بهذه الصفات[(١)].

وقال عثمان بن سعيد الدارمي: «وقد يجوز أن يدعى البشر ببعض هذه الأسماء وإن كان مخالفة لصفاتهم، فالأسماء فيها متفقة والتشبيه والكيفية مفترقة، كما يقال: ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء، يعني في الشبه والطعم والذوق والمنظر واللون، فإذا كان كذلك فالله أبعد من الشبه وأبعد، فإن كنا مشبهة عندك إن وحدنا الله إلهاً واحداً بصفات أخذناها عنه وعن كتابه، فوصفناه بما وصف به نفسه في كتابه، فالله في دعواكم أول المشبهين بنفسه، ثم رسوله ﷺ الذي أنبأنا ذلك، فلا تظلموا أنفسكم ولا تكابروا العلم إذ جهلتموه، فإن التسمية من التشبيه بعيدة[(٢)].

القسم الثاني: قالوا: إن هذه الأسماء والصفات المقولة على الرب تعالى وعلى المخلوق مقولة بالاشتراك اللفظي فقط من غير أن يكون بين المسمَّيين معنى عام.

وهذا هو عين التعطيل لأسماء الله وصفاته، وهو نوع من أنواع تفويض المعاني للصفات، وهو أنا نتلو اللفظ من غير أن نفهم منه أي معنى، وهذا فيه مع ما فيه

---

(١) نقله عنه الذهبي في العلو كما في مختصر العلو (ص٢٦٤).

(٢) نقضه علي المريسي (١/ ٣٠).

من أن الرسول ﷺ وأصحابه لم يفهموا معاني الصفات، بل يجعلون الرسول ﷺ بلغ قرآناً بما لا يفهم معناه، وتكلم بأحاديث الصفات وهو لا يفهم معناها ولم يدر ما يقول، ولا يجوز لعاقل أن يظن هذا بأحد من العقلاء، فضلاً عن أفضل الخلق وأعلمهم بالله وأفصحهم وأنصحهم للخلق، ومع هذا يجعلونه هو قول السنة، وأنه معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٧]، ولو تصوروا حقيقة ما قالوه ولوازمه لعلموا أنه يلزمهم ما هو من أقبح أقوال الكفار في الأنبياء، وهم لا يرتضون مقالة من يقدح في الأنبياء، إذن لاستحلوا قتله وهم مصيبون في ذلك.

وقولهم هذا أعظم القدح في الأنبياء لكن لم يعرفوا ذلك، ولازم القول ليس بقول، وهذا ضلال عظيم، وهو أحد أنواع الضلال في كلام الله ورسوله ﷺ، بل إن قول أهل التفويض من شر أقوال أهل البدع والإلحاد.

(١٩) سبب اضطراب أهل الكلام في القدر المشترك:

إن سبب اضطراب وحيرة أهل الكلام في القدر المشترك يرجع للأسباب التالية:

السبب الأول: أن هذه الأسماء والصفات التي يسمى بها ويوصف بها الخالق والمخلوق وضعت عند الإطلاق لخصائص المخلوقين، وهذا واضح جلي في كلامهم، مثل قول بعضهم: ننزه الله عن اليدين جارحة تتكون من لحم وعظم وعصب، وهذا كله جهل وضلالٌ في الشرع وكذب وخطأ، فإن العرب إنما وضعت للإنسان ما أضافته إليه، فإذا قال: سمع العبد وبصره فهذا خاص بالإنسان، وإذا قيل سمع الله وبصره فهذا خاص بالرب ﷻ لائق به، فهذه الأسماء والصفات لم توضع لخصائص المخلوقين عند الإطلاق ولا عند الإضافة إلى الله، ولكن عند الإضافة إليهم، وإذا أطلقت ولم تضف إلى شيء أصبحت كلية لا توجد إلا في الأذهان، ثم هي عند أهل اللغة بحسب ما تضاف إليه، وهي عند الإطلاق تكون قدراً مشتركاً، ويكون هذا القدر المشترك هو أن نسبة كل صفة إلى موصوفها كنسبة تلك الصفة إلى موصوفها، فإذا أضيف العلم إلى الإنسان وإلى الملك وإلى الجني فنسبة علم الملك والجني إليها كنسبة علم الإنسان إليه، وكذلك الوجه وسائر الصفات[1].

السبب الثاني: أنه اشتبه عليهم ما يتصور في الأذهان بما يوجد في الأعيان، فظنوا أن هذه الأسماء العامة الكلية يكون مسماها المطلق الكلي هو بعينه ثابتاً في هذا المعنى؛ أي أن هذه الأسماء والصفات التي تطلق على الخالق والمخلوق إذا

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٢٠/ ٢١٨).

أطلقت بدون إضافة، كما إذا قيل: «الحي، الموجود، السميع...» أن ذلك موجود في الخارج وفي الأعيان لا في الأذهان فقط، وهذا سبب غلطهم، فإن الأسماء المطلقة الكلية لا توجد في الخارج والأعيان وإنما توجد في الخارج والأعيان إذا أضيفت إلى معين[١].

ولكي يتضح أكثر نضرب هذا المثال:

«القدر المشترك الكلي مطلق لا يوجد إلا في الذهن، نذكر لذلك هذا المثال وهو: أنك لو طلبت من شخص مثلاً أن يحضر لك الإنسان أو الحيوان، أو يخبرك عن العلم أو الوجود أو نحو ذلك، لقال لك: أي إنسان تريد؟ أو أي حيوان تريد؟ فإذا عينته له أحضره لك؛ لأن الإنسانية المطلقة أو الحيوانية المطلقة ليس لها في الخارج وجود، وإنما هي كلية تطلق على كثيرين لا توجد إلا في الذهن، ولا يمكن وجودها في الخارج إلا معينة.

وكذلك في المثال الآخر: فإنه لن يخبرك إلا عن العلم المطلق فيعرفه لك أو يعرف لك الوجود، فإنه ينقسم إلى ممكن وواجب ونحو ذلك، وهذا لا يوجد إلا في الذهن ليس له وجود في الخارج، وليس في الخارج إلا المعينات، فلا يمكنه أن يخبرك إلا أن تقول له: علم زيد ووجود زيد مثلاً، فلا يشبه ما في الأذهان بما في الأعيان، وهؤلاء طالما لم يفرقوا بين ما في الأذهان وما في الأعيان وقعوا في الاضطراب والحيرة والغلط[٢].

(٢٠) مراتب الخطاب:

هذه المراتب كما يلي:

١ ـ إدراك الإنسان المعاني المحسوسة المشاهدة بالعين.

٢ ـ عقله لمعانيها الكلية العامة.

٣ ـ تعريف الألفاظ الدالة على تلك المعاني الحسية والعقلية.

(٢١) مذاهب نفاة الصفات:

نفاة الصفات لهم عدة مذاهب:

الأول: مذهب الفلاسفة ومن تبعهم، وهو إثبات ذات مجردة عن جميع الصفات والأسماء.

---

(١) انظر: شرح حديث النزول (ص٨٣ ـ ٨٧).

(٢) انظر: صفة النزول الإلهي لعبد القادر محمد (ص٣٦٧).

الثاني: إثبات الأسماء ونفي جميع الصفات، وهو مذهب الجهمية النفاة.

الثالث: مذهب الأشعرية والماتريدية وغيرهم، وهو نفي الصفات ما عدا الصفات السبع أو الثمانية التي يسمونها العقلية على خلاف بينهم.

وأما لازم مذهبهم من التناقض: فإن من نفى بعض الصفات وأثبت البعض يقال له: يلزمك فيما أثبته من التشبيه نظير ما ظننته لازماً لك فيما نفيته، فإما أن تثبت جميع الصفات مع نفي المشابهة أو تنفيها كلها، وأما من أثبت الأسماء ونفى جميع الصفات فيقال له: أثبت الصفات مع التنزيه كما فعلت في الأسماء، أو انفِ الأسماء كما نفيت الصفات، وأما من أثبت ذاتاً مجردة من جميع الأسماء والصفات فهذا يقال له: ما فرضته ليس له وجود إلا في الذهن فقط، ولا يتصور خارج الأذهان، ثم إنه يلزم منه رد كل هذه النصوص المتوافرة من الكتاب والسنة في إثبات الأسماء والصفات؟.

(٢٢) مذهب أهل الاعتزال في الأسماء والصفات:

اتفق المعتزلة مع أهل السنة في أن الله تعالى موجود حي عليم قدير: وهذه الأسماء ورد في القرآن تسمية مخلوقات بها، كما قال تعالى: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ [الأنعام: ٩٥]، وقال: ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ [الذاريات: ٢٨] وغير ذلك، وهؤلاء يقال لهم: أثبتم تلك الأسماء لله مع نفي المشابهة فأثبتوا الصفات أيضاً مع نفي المشابهة وإلا فيلزمكم فيما أثبتموه نظير ما ظننتم أنه لازم لكم من التشبيه فيما نفيتموه.

(٢٣) مقارنة بين طريقة السلف وطريقة الأشعرية من حيث الإثبات والنفي في نصوص الصفات:

أهل السنة	الأشعرية
يثبتون نصوص الصفات الواردة في الكتاب والسنة إثباتاً بلا تشبيه ولا تعطيل.	يثبتون الأسماء وسبعاً من الصفات.
ينفون ما نفى الله عن نفسه وما نفاه رسول الله ﷺ بلا تعطيل للصفات الواردة في الكتاب والسنة.	ينفون الصفات الواردة في الكتاب والسنة ما عدا السبع ويعتقدون في إثبات الصفات التشبيه، قال صاحب الجوهرة: وكل نص أوهم التشبيه أوّله..

أهل السنة	الأشعرية
يعظمون نصوص الصفات الواردة في الكتاب والسنة فلا يتعرضون لها بتحريف أو تبديل.	يحرفون الكلم عن مواضعه بالتأويل الذي هو التحريف، وتحميل النصوص ما لا تحتمل.
لم يفهموا من نصوص الصفات إلا أنها تليق بالخالق؛ لأن الله ليس كمثله شيء، لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله.	لم يفهموا من نصوص الصفات إلا ما يليق بالمخلوقين، وهذا خلاف ما فطر الله عليه الخلق، والكلام في الذات فرع عن الكلام في الصفات.
لا يخوضون في كيفية الصفات ولا يقيسون الخالق بما يقاس به المخلوق.	يخوضون في كيفية الصفات ويتعرضون لمعانيها بالتحريف أو التفويض، نتيجة قياسهم الخالق بما يقاس به المخلوق.
يجملون في النفي ويفصلون في الإثبات متبعين طريقة القرآن، فلا ينفون إلا ما نفاه الله عن نفسه كالسنة والنوم.	يفصلون في النفي فيعمدون إلى ألفاظ مجملة سكت عنها الشارع فينفونها كلفظ: الجوهر والعرض.

٢٤ حوار مع أشعري:

الأشعري يثبت الصفات السبع، وينازع فيما عداها من صفة المحبة والغضب وغير ذلك، بدعوى أن إثبات هذه الصفات تشبيه، فلا يثبت صفة الغضب بزعمه أن الغضب هو غليان دم القلب لطلب الانتقام، وهذا لا يليق بالله.

رد عليه السني، فقال: أنت تثبت الإرادة، والإرادة التي تثبتها هي ميل النفس إلى جلب منفعة أو دفع مضرة، وهذا لا يليق بالله.

فأجاب الأشعري: إن هذه الإرادة التي ذكرتها أيها السني هي إرادة المخلوق، أما إرادة الله فكما تليق به.

فرد عليه السني، فقال: وهذا الغضب الذي ذكرته أيها الأشعري إنما هو غضب المخلوق لا غضب الله اللائق به، فهذا المفرق بين الصفات يقال له فيما نفاه من الصفات الفعلية كما يقوله هو لمنازعه في الصفات السبع؛ أي يرد عليه بنفس الردود التي يرد بها هو على المعتزلي، ألا وهي أن الله يتصف بالصفات اللائقة به والمخلوق يتصف بالصفات التي تناسبه وتليق به ولا يلزم من ذلك التشبيه.

٢٥ حوار الأشعري مع معتزلي:

الداعي لذكر هذه المحاورة: أن الأشعري يرد على المعتزلي فيما يثبت من الصفات السبع، وبمثل رده على المعتزلي يرد السني على الأشعري، وهذا من

أبلغ الاحتجاج فهذا المفرق بين الصفات يقال له فيما نفاه كما يقول هو لمنازعه في الصفات السبع؛ أي يرد عليه بنفس الردود التي يرد بها هو على المعتزلي، وإليك مادة هذا الحوار:

ـ إذا قال المعتزلي: ليس لله صفات، وليس له إرادة، ولا كلام قائم به، ولا سمع ولا بصر؛ لأن هذه الصفات لا تقوم إلا بأجسام، فيلزم التشبيه.

ـ فيرد الأشعري فيقول: بأن الله يتصف بالصفات السبع المذكورة، وهي لائقة بالله لا تشبه صفات المخلوقين ولا تكون كخصائص المحدثات.

ـ فيرد أهل السنة على الأشعري بعين رده على المعتزلي، فيقال: فهكذا يقول المثبتون في سائر الصفات من المحبة والرضا والغضب والرحمة وغير ذلك، فيلزم الأشعري بعين ما ألزم به المعتزلي.

(٣٦) أهل السنة والجماعة لا يصفون الله تعالى بالنفي المحض:

النفي يأتي على قسمين:

أ ـ نفي صرف: هو ما لا يتضمن ثبوتاً، بأن خلص في دلالته على العدم، وهذا النوع ليس بوارد في الصفات المنفية عن الله.

ب ـ نفي غير صرف: وهو ما تضمن ثبوتاً بأن دل بمعناه على ثبوت أضداد ذلك المنفي المقصود أن أهل السنة والجماعة ينفون ما نفاه الله عن نفسه أو نفاه رسول الله ﷺ ويثبتون ضد الصفات المنفية، كقوله تعالى: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]، فهم يثبتون كمال عدله.

وكقوله تعالى: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [سبأ: ٣]، يثبتون كمال علمه.

وكقوله تعالى: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨]، فهم يثبتون كمال قدرته.

وكقوله تعالى: ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، فهم يثبتون كمال حياته وقيوميته؛ لأن النفي الصرف لا مدح فيه ولا كمال لأنه عدم محض، والعدم المحض ليس[١] بشيء.

(٣٧) الأدلة من الكتاب والسنة على إثبات قدرة الرب:

تضافرت الأدلة من نصوص الكتاب والسنة على إثبات قدرة الرب ﷻ، ولهذا

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٣/ ٣٥) (١٧/ ١٠٩)، والقواعد الكلية (ص١٥٩ ـ ١٦٤).

قال الطحاوي في عقيدته: «ولا شيء يعجزه» ومن الأمثلة على ذلك ما يلي:

المثال الأول: قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ [الكهف: ٤٥]، ووجه الدلالة في الآية هو شمول قدرة الله لكل شيء، وأنها لا يخرج عنها شيء على الإطلاق.

المثال الثاني: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٠]، ووجه الدلالة فيها إثبات عموم القدرة الإلهية لكل شيء حيث ورد الإثبات عاماً.

المثال الثالث: قوله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾﴾ [الحديد: ٢٢]، ووجه الدلالة فيها أنها دالة على علم الله السابق وكتابته الأشياء قبل تكوينها فكانت كما أراد.

(٢٨) معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر: ٤٤]:

يقول الله ﷻ بعد أن تكلم داعياً المشركين إلى النظر في حال من قبلهم من الأمم التي كانت أشد منهم قوة، يقول: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ﴾ أي: لن تقدروا، أيها المشركون! على إعجاز الله تعالى فتهربوا منه، ولن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض، بل إنه لا يعجزه شيء في خلقه ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ أي عليماً بكل شيء علماً كاملاً، فلا يغيب عنه شيء، وقديراً على كل شيء، فلا يعجزه شيء، وهو قادر على إهلاككم إن أراد.

والعجز المنفي عن الله تعالى في الآية إنما ينشأ من الضعف عن القيام بما يريده الفاعل، أو من عدم علمه به، والله تعالى له كمال القدرة والعلم، لا يعزب عنه مثقال ذرة، وهو على كل شيء قدير، كما قال في آخر الآية: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ وقد علم ببدائه العقول والفِطَر كمال قدرته وعلمه، فانتفى العجز، لما بينه وبين القدرة من التناقض، ولأن العاجز لا يصلح أن يكون إلهاً، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

(٢٩) النفي قد يأتي مفصلاً والإثبات مجملاً في القرآن:

ما ذكر من الإجمال في النفي والتفصيل في الإثبات إنما هو في الغالب، وقد يأتي النفي مفصلاً كما قد يأتي مجملاً لأسباب تعرف عن طريق معرفة أسباب نزول الآية، فالأول كقوله تعالى: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقوله

تعالى: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]، والثاني كقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ [الفاتحة: ٢].

(٣٠) الخلاصة:

١ ـ لفظ التشبيه من الألفاظ المجملة التي تحتمل حقاً وباطلاً، والمعنى الحق الذي يجب نفيه عن الله هو الاشتراك في الخصائص، والمعنى الباطل هو نفي الصفات.

٢ ـ الاتفاق في الأسماء لا يعني الاتفاق في الخصائص والحقائق.

٣ ـ يلزم كل طائفة فيما نفته بما تثبته، فمن يثبت بعض الصفات وينفي بعضها يلزم بما يثبته، ومن ينفي الصفات ويثبت الأسماء يلزم بإثباته للأسماء، ومن ينفيهما ويثبت الذات يلزم بإثباته للذات.

٤ ـ المشترك اتفاق كلي في المعنى العام، وهو مطلق ذهني لا يوجد في الخارج إلا مقيداً.

٥ ـ لا بد من إثبات القدر المشترك لفهم الخطاب.

٦ ـ اضطراب النفاة في لفظ الوجود، فمنهم من جعل وجود الرب مثل وجود الخلق، ومنهم من جعل وجود لفظ الوجود مشتركاً لفظيّاً.

٧ ـ مذهب السلف وسط بين الإفراط والتفريط بين التشبيه والتعطيل.

٨ ـ كل من المشبهة والمعطلة أحسنوا من وجه، وأساءوا من وجه، فالمشبهة أحسنوا في الإثبات وضلوا في التشبيه، والمعطلة أحسنوا في التنزيه وضلوا في التعطيل.

٩ ـ النفي في كتاب الله لا يأتي إلا بإثبات كمال الضد، فنفي العجز لإثبات كمال القدرة، ونفي النوم لإثبات القيومية.

١٠ ـ النفي المحض الذي ليس فيه كمال، ليس بمدح، بل قد يكون فيه إساءة أدب.

١١ ـ من اعتقد أن لله مثيلاً في ذاته، أو مثيلاً في صفاته، أو مثيلاً في أفعاله فقد كفر.

١٢ ـ من اعتقد أن لله مثيلاً فهو في الحقيقة لم يعبد الله، وإنما يعبد صورة تخيَّلها، ونحتها له فكره، فهو من عباد الأوثان لا من عباد الرحمن.

١٣ ـ من شبه الله ﷻ بخلقه فقد شابه النصارى؛ لأن النصارى شبَّهوا المسيح بالله، وقالوا: هو ابن الله، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

٣١ **المناقشة:**

- **س١:** ما غرض المصنف من عقد هذا الباب؟
- **س٢:** بيِّن مذاهب نفاة الصفات، ثم اذكر ما يلزم مذهبهم من التناقض.
- **س٣:** اتفق المعتزلة مع أهل السنة في إثبات بعض الأسماء، وضح ذلك مع التمثيل بآيات من القرآن الكريم مبيناً وجه الاستدلال بها، مع الرد عليهم.
- **س٤:** هل يمكن الاستدلال بمجرد العقل على بعض صفات الباري ﷻ؟
- **س٥:** وصف الله نفسه بصفات، ووصف بعض عباده الصفات نفسها، فهل يقتضي هذا تشبيهاً؟ وضح ذلك.
- **س٦:** تكلم بإيجاز عن مذهب الأشاعرة، ثم بين كيف تلزمهم إثبات ما نفوه؟
- **س٧:** يثبت بعض المعتزلة الأسماء دون الصفات، كيف نرد عليهم؟
- **س٨:** ذهب بعض النفاة إلى نفي أسماء الله تعالى، وأنها في الحقيقة ليست إلا مجازاً، وهي في الحقيقة أسماء لبعض مخترعاته، من هم هؤلاء وكيف ترد عليهم؟.
- **س٩:** كيف تناقش من جحد وجود الرب ﷻ؟
- **س١٠:** هناك صفات وردت في القرآن وصف بها الرب كما وصف بها العبد، وضح ما بينها من الاتفاق والاختلاف.
- **س١١:** ما الشبهة التي استند إليها النفاة في نفيهم للصفات الإلهية، وضح كيف ترد عليهم؟
- **س١٢:** تقول المعطلة: إن الاشتراك في الوجود ونحوه لفظي فقط، فكيف ترد عليهم؟
- **س١٣:** ما رأيك فيما لم يوجد خارج الأذهان، هل يكون موجوداً أم يجوز الاشتراك فيه؟
- **س١٤:** لقد أحسنت النفاة والممثلة من وجه، ولكنهم أساءوا من وجه آخر، بيِّن ذلك.
- **س١٥:** وضح كيف يتعلم الإنسان معاني الكلام؟

- **س١٦:** تكلم عن مراتب الخطاب.
- **س١٧:** اذكر ثلاثة أدلة نقلية على إثبات قدرة الرب ﷻ، مع بيان وجه الدلالة.
- **س١٨:** ورد في الكتاب والسنة بعض صفات لله تعالى بصيغة النفي، أكثرها منفية إجمالاً، وقليل منها على وجه التفصيل، ما رأي أهل السنة في هذا النفي؟
- **س١٩:** وضح طريقة أهل السنة والجماعة في الصفات، وطريقة النفاة فيها ثم وضح أيهما المنهج الحق؟
- **س٢٠:** فسِّر قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر: ٤٤].
- **س٢١:** من أين ينشأ العجز الذي نفته الآية السابقة؟ ثم دلل على نفيه عن الله تعالى مع بيان وجه الاستدلال.
- **س٢٢:** ما حكم من مثل صفات الله بصفات الخلق؟
- **س٢٣:** اشرح قول العلامة ابن القيم:

لسنا نشبه وصفه بصفاتنا   إن المشبه عابد الأوثان

- **س٢٤:** اشرح قول العلامة ابن القيم:

من شبه الله العظيم بخلقه   فهو النسيب بمشرك نصراني

- **س٢٥:** قارن بين طريقة السلف وطريقة الأشعرية من حيث الإثبات والنفي في نصوص الصفات.

كلمة التوحيد: لا إله إلا الله

* كلام ابن أبي العز:

١ ـ غرض المصنف من عقد هذا الباب.

٢ ـ مناسبة هذا الباب لما سبق.

٣ ـ معاني الكلمات.

٤ ـ كلمة التوحيد نفي وإثبات.

٥ ـ معنى كلام الطحاوي: «ولا إله غيره».

٦ ـ إعراب كلمة التوحيد «لا إله إلا الله».

٧ ـ الفرق بين نفي الوجود والماهية.

٨ ـ معنى كلام الطحاوي: «قديم بلا ابتداء».

٩ ـ القديم ليس من أسماء الله ﷻ.

١٠ ـ معنى كلمة «القديم».

١١ ـ معنى قوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الطور: ٣٥].

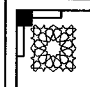
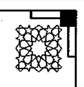
١٢ ـ معنى كلام ابن أبي العز: «والعلم بثبوت هذين الوصفين ـ الأول والآخر ـ مستقر في الفطر، فإن الموجودات لا بد أن تنتهي إلى واجب الوجود بذاته قطعاً للتسلسل».

١٣ ـ معنى قول الطحاوي: «لا يفنى ولا يبيد».

١٤ ـ قوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧].

١٥ ـ الخلاصة.

١٦ ـ المناقشة.

كلمة التوحيد: لا إله إلا الله

قال ابن أبي العز: «هذه كلمةُ التوحيد التي دَعَت إليها الرسلُ كلُّهم، كما تقدَّم ذكرُه، وإثبات التوحيد بهذه الكلمةِ باعتبار النفي والإثباتِ المقتضي للحصر، فإن الإثباتَ المُجرَّدَ قد يتطرَّق إليه الاحتمالُ، ولهذا ـ والله أعلمُ ـ لمَّا قال تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ قال بعده: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣]، فإنه قد يَخْطُرُ ببال أحدٍ خاطرٌ شيطاني: هبْ أنّ إلهنا واحد، فَلِغيرنا إله غيرُه، فقال تعالى: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

وقد اعتَرَض صاحب «المنتخب» على النحويين في تقديرِ الخبرَ في «لا إله إلا هو»، فقالوا: تقديرُه: لا إله في الوجود[١] إلا اللهُ، فقال: يكونُ ذلك نفياً لوجود الإله، ومعلوم أنّ نفيَ الماهية أقوى في التوحيد الصِّرْفِ من نفي الوجود، فكان إجراءُ الكلامِ على ظاهره، والإعراضُ عن هذا الإضمار أولى.

وأجاب أبو عبد الله محمد بن أبي الفضل المُرسي في «ري الظمآن» فقال: هذا كلامُ من لا يعرِفُ لسانَ العرب، فإن «إله» في موضع المبتدأ على قول سيبَوَيْهِ، وعند غيرِه اسم «لا»، وعلى التقديرين، فلا بُدَّ من خبر المبتدأ، وإلا فما قالَه من الاستغناء عن الإضمار فاسِدٌ.

وأما قولُه: إذا لم يُضْمَر يكونُ نفياً للماهية، فليس بشيء؛ لأن نفي الماهية هو نفي الوجود، لا تُتصور الماهية إلا مع الوجود، فلا فَرْقَ بين «لا ماهية» و«لا وجود». وهذا مذهبُ أهلِ السنة[٢]، خلافاً للمعتزلة، فإنهم يُثْبِتُونَ ماهيةً عاريةً عن

(١) قال الشيخ العلامة عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ اللَّهُ: «فلا سبيل إلى التخلص من هذا الاعتراض وبيان عظمة هذه الكلمة، وأنها كلمة التوحيد المبطلة لألهة المشركين وعبادتهم من دون الله، إلا بتقدير الخبر بغير ما ذكره النحاة وهو كلمة (حق) لأنها هي التي توضح بطلان جميع الآلهة وتبين أن الإله الحق والمعبود بالحق هو الله وحده».

(٢) هكذا حكاه شيخ الإسلام عن أهل السنة كما في الفتاوى (٢/ ١٥٦).

الوجود، و«إلا الله» مرفوع، بدلاً من «لا إله» لا يكون خبراً لـ «لا» ولا للمبتدأ، وذكر الدليلَ على ذلك.

وليس المرادُ هنا ذِكْرَ الإعراب، بل المراد رَفْعُ الإشكالِ الواردِ على النحاة في ذلك، وبيانُ أنه مِن جهة المعتزلة، وهو فاسد؛ فإنَّ قولهم: «نفي الوجود» ليس تقييداً؛ لأن العدم ليس بشيء، قال تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٩]. ولا يُقال: ليس قوله: «غيره» كقوله: «إلا الله» لأن «غير» تُعرَب بإعرَابِ الاسمِ الواقعِ بعد «إلَّا»، فيكونُ التقدير للخبر فيهما واحداً، فلهذا ذَكَرْتُ هذا الإشكالَ وجوابَه هنا.

قوله: «قدِيمٌ بلا ابتداءٍ، دائمٌ بلا انتهاء».

قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ﴾ [الحديد: ٣]، وقال ﷺ: (اللَّهُم أنتَ الأوَّلُ فلَيسَ قبلَكَ شَيْءٌ، وأنْتَ الآخِرُ فلَيسَ بعدَك شيْءٌ)[1].

فقول الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قديمٌ بلا ابتداء، دائمٌ بلا انتِهاء»، وهو معنى اسمِه: الأوَّلِ والآخِرِ.

والعلمُ بثبوت هذين الوصفين مستقرٌّ في الفِطَرِ، فإن الموجوداتِ لا بُدَّ أن تنتهيَ إلى واجب[2] الوجود لذاته، قطعاً للتسلسُلِ[3]، فإنا نُشاهِدُ حُدُوثَ الحيوانِ، والنبات، والمعادِنِ، وحوادث الجو، كالسَّحاب، والمطر، وغير ذلك، وهذه الحوادثُ وغيرُها ليست ممتنعةً، فإنَّ الممتنعَ لا يُوجَدُ، ولا وَاجِبَةَ الوجود بنفسها، فإن واجبَ الوجودِ بنفسه لا يَقْبَلُ العَدَمَ، وهذه كانت معدومة، ثم وُجِدَت، فَعَدَمُها ينفي وجوبَها، ووجودُها ينفي امتناعَها، وما كان قابلاً للوجود والعَدَمِ، لم يكن وجُودُهُ بنفسه، كما قال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الطور: ٣٥]. يقولُ سبحانَه: أَحدَثوا مِن غيرِ مُحدِث، أم هُمْ أحدثُوا أنفُسَهُم؟ ومعلوم أنَّ الشيء المُحدثَ لا يُوجِدُ نَفسَهُ، فالمُمكِنُ الذي ليس له من نفسه وجودٌ ولا عَدَمٌ،

(١) أخرجه مسلم (٢٧١٣).

(٢) هذا من ألفاظ المتكلمة والفلاسفة ويعنون به «الله» وتعريفه: هو الذي يكون وجود من ذاته ولا يحتاج إلى شيء أصلاً، انظر: التعريفات للجرجاني (ص٢٤٩).

(٣) معنى «قطعاً للتسلسل» أي: إذا لم تنته الموجودات إلى الله تعالى وخالقها لزم أن يكون كل مخلوق اكتسب وجوده من غيره إلى ما لا نهاية.

لا يكونُ موجوداً بنفسه، بل إن حَصَلَ ما يُوجِدُه، وإلا كان معدوماً وكُلُّ ما أمكن وجودُهُ بدلاً عن عدمه، وعَدَمُه بدلاً عن وجوده، فليس له من نفسه وجودٌ ولا عدمٌ لازم له.

وإذا تأمَّلَ الفاضلُ غايةَ ما يَذْكُرُه المتكلمون والفلاسفةُ مِن الطُّرُقِ العقلية، وجدَ الصوابَ منها يَعودُ إلى بعضِ ما ذُكِرَ في القرآنِ من الطُّرُقِ العقليةِ بأفصحِ عبارة وأوجزها، وفي طُرُقِ القرآن مِن تمامِ البيانِ والتحقيق، ما لا يُوجَدُ عندَهم مثلُه، قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ [الفرقان: ٣٣].

ولا نقولُ: لا يَنْفَعُ الاستدلالُ بالمقدِّمات الخفيَّةِ، والأدلة النظرية، فإن الخفاء والظهورِ من الأمور النسبية، فربما ظَهَر لبعضِ الناس ما خَفِيَ على غيره، ويظهرُ للإنسان الواحد في حالٍ ما خفي عليه في حال أخرى.

وأيضاً فالمقدِّماتُ وإن كانت خفية، فقد يُسلِّمُها بَعْضُ الناس ويُنازع فيما هو أجلى منها، وقد تَفْرَحُ النفسُ بما عَلِمتْه من البحث والنظر، ما لا تفرَحُ بما عَلِمته من الأُمورِ الظاهرة، ولا شكَّ أن العلمَ بإثبات الصانع، ووجوبِ وجوده أمرٌ ضروريٌّ فِطْرِيٌّ، وإن كان يَحصُل لبعضِ الناس من الشُّبَهِ ما يُخرجه إلى الطرق النظرية.

وقد أدخلَ المتكلِّمون في أسماء الله تعالى «القديم»، وليس هو مِن الأسماء الحسنى، فإن «القديم» في لُغة العرب التي نَزَلَ بها القرآنُ: هو المتقدِّمُ على غيره، فيُقال: هذا قديم للعتيق، وهذا حديثٌ للجديدِ، ولم يستعملُوا هذا الاسمَ إلا في المتقدِّم على غيره، لا فيما لم يَسْبِقْه عَدَمٌ، كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ [يس: ٣٩].

والعُرجُونُ القديمُ: الذي يبقى إلى حين وجود العرجون الثاني، فإذا وُجِدَ الجديدُ، قيل للأول: قديمٌ، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ [الأحقاف: ١١]، أي: مُتَقَدِّمٌ في الزمان، وقال تعالى: ﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [الشعراء: ٧٥، ٧٦]. فالأقدمُ مبالغة في القديم.

ومنه: القولُ القديمُ والجديدُ للشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ، وقال تعالى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ

ﭐلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ [هود: ٩٨]، أي: يَتَقَدَّمُهُم، ويُستعمَل منه الفعلُ لازماً ومتعدياً، كما يقالُ: أخذت ما قَدُمَ وما حَدُثَ، ويقال: هذا قَدَمَ هذا وهو يَقدُمُهُ، ومنه سُمِّيَت القَدَمُ قَدَماً؛ لأنها تَقْدُمُ بقية بدنِ الإنسان، وأما إدخال «القديم» في أسماء الله تعالى، فهو مشهور عند أكثر أهلِ الكلام، وقد أنكر ذلك كثيرٌ من السَّلَفِ والخلف، منهم ابن[1] حزم.

ولا ريبَ أنَّه إذا كان مستعملاً في نفس التَّقَدُّم، فإن ما تَقَدَّم على الحوادِثِ كُلِّها، فهو أحقُّ بالتقدم من غيره، لكن أسماء الله تعالى هي الأسماء الحسنى التي تدُلُّ على خصوصِ ما يُمْدَحُ به، والتقدُّم في اللغة مطلق لا يختصُّ بالتقدم على الحوادث كُلِّها، فلا يكونُ من الأسماء الحسنى، وجاء الشرعُ باسمه «الأول». وهو أحسنُ من «القديم»؛ لأنه يُشْعِرُ بأن ما بعدَه آيل إليه، وتابعٌ له، بخلاف «القديم»، والله تعالى له الأسماءُ الحسنى، لا الحسنة.

قوله: «لا يفنى ولا يبيد».

إقرارٌ بدوام بقائه ﷻ، قال عزَّ مِن قائل: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧].

والفناء والبَيْدُ متقاربان في المعنى، والجَمْعُ بينهما في الذِّكر للتأكيد، وهو أيضاً مقرِّرٌ ومؤكِّدٌ لِقوله: «دائم بلا انتهاء».

---

(١) الدرة في ما يجب اعتقاده (ص٢٤٧، ٢٤٨).



عناصر الموضوع:

١ غرض المصنف من عقد هذا الباب:

غرض المصنف من عقد هذا الباب تقرير عقيدة أهل السنة والجماعة في توحيد الإلهية، فقوله: «لا إله غيره» هذه هي كلمة التوحيد: «لا إله إلا الله»، ومعناها: لا معبود بحق إلا الله. وإثبات توحيد هذه الكلمة إنما هو بالنفي والإثبات المقتضي للحصر «لا إله إلا الله».

٢ مناسبة هذا الباب لما سبق:

بعد أن ذكر المصنف رحمه الله تعالى عقيدة أهل السنة والجماعة في توحيد الله وأنهم يعتقدون أن الله واحد لا شريك له، ولا شيء مثله، ولا شيء يعجزه لكمال قدرته: بيَّن أن من هذه صفته، فهو لا إله غيره، ولا معبود بحق سواه.

٣ معاني الكلمات:

الكلمة	المعنى
الإثبات المجرد	هو إثبات صفة لشخص بقطع النظر عن كمال تلك الصفة أو حصرها فيه، كقولك: «زيد عالم» فإنه إثبات مجرد عن الحصر والكمال. وأما إذا قلت: زيد هو العالم علماً نافعاً، فهو إثبات متضمن للحصر والكمال، فإن قلت: الله إله، فهو إثبات مجرد، وأما إذا قلت: لا إله إلا الله فهو إثبات مفيد للحصر.
الماهية	مأخوذة من/ما هو/والمقصود خصائصها الذاتية.
التسلسل	ترتيب أمور غير متناهية.
واجب الوجود	وهو الذي وجوده ضروري، وعدمه ممتنع، وهو الله تعالى.

٤ كلمة التوحيد نفي وإثبات:

إثبات توحيد «لا إله إلا الله» إنما هو بالنفي والإثبات المقتضي للحصر، ولهذا لما قال الله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ قال بعده: ﴿لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾.

٥ معنى كلام الطحاوي: «ولا إله غيره»:

وهذه كلمة التوحيد، وهي التي دعت إليها كل الرسل، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

ومعناها: لا مستحق للعبادة إلا الله، وهذه الكلمة فيها نفي لعبادة ما سواه، وإثبات العبادة له وحده، فيها كفر بما عبد من دونه، ثم إثبات العبادة له، وهي توحيد الألوهية.

«أما إذا قلت: لا معبود إلا هو، أو لا معبود سواه، فهذا باطل؛ لأن المعبودات كثيرة من دون الله ﷻ، فإذا قلت: لا معبود إلا الله فقد جعلت كل المعبودات هي الله، وهذا مذهب أهل وحدة الوجود، فإن كان قائل ذلك يعتقد هذا فهو من أصحاب وحدة الوجود، وأما إن كان قائل ذلك لا يعتقد هذا، وإنما يقوله تقليداً أو سمعه من أحد، فهذا غلط ويجب عليه تصحيح ذلك»[١].

ثم إن كلمة «إله» نكرة في سياق النفي فتفيد العموم.

٦ إعراب كلمة التوحيد «لا إله إلا الله»:

لا: نافية للجنس.

إله: اسم لا منصوب، وعلامة نصبه الفتحة الظاهرة على آخره. وخبر «لا» مضمر وتقديره:

١ ـ حق: وهذا ما ذهب إليه أهل السنة والجماعة، فيكون المعنى: لا إله بحق إلا الله، أي لا معبود بحق إلا الله.

٢ ـ وذهب جماهير المتكلمين كالمعتزلة والأشاعرة والماتريدية إلى أن خبر لا المحذوف هو «موجود»، فالمعنى: لا إله موجود إلا الله، وهو خطأ.

إلا: أداة استثناء.

الله: بدل مرفوع وعلامة رفعه الضمة الظاهرة على آخره.

٧ الفرق بين نفي الوجود والماهية:

لا يرى أهل السنة والجماعة فرقاً بين نفي الماهية ونفي الوجود، بينما ذهب المعتزلة إلى إثبات ماهية حقيقية بلا وجود، وهذا القول ظاهر الفساد والبطلان؛ لأنه لا تتصور ماهية إلا مع الوجود، ولا فرق بين الماهية والوجود، كما قال تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ [مريم: ٩].

---

(١) انظر: التعليقات المختصرة على متن الطحاوية للفوزان (ص٣٤).

وكلام المعتزلة مأخوذ من الفلاسفة، الذين يقولون بأن الكليات المجردة موجودة في الأعيان، وهذا من أوهامهم المعروفة التي كانت السبب في ضلالهم في أمور كثيرة.

٨ معنى كلام الطحاوي: «قديم بلا ابتداء»:

قوله: «قديم»، هذه من الألفاظ المحدثة التي أطلقها المتكلمون على الله ﷻ لإثبات أولية الله على خلقه، ونحن لا نحتاج إلى هذه الألفاظ؛ لأن القرآن قد أغنانا بألفاظه عن هذه الألفاظ، كقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ﴾ [الحديد: ٣]، لكن كلمة «قديم» لا تطلق على الله ﷻ إلا من باب الخبر.

وباب الإخبار أوسع من باب الأسماء والصفات[١]. وما يدخل في باب الإخبار أوسع مما في أسمائه وصفاته، فيخبر عنه بالموجود والشيء، ولا يسمى به[٢].

٩ «القديم» ليس من أسماء الله ﷻ:

القديم ليس من أسماء الله لأمرين:

أ ـ أنه لا دليل عليه من الكتاب والسنّة وأسماء الله توقيفية لا مجال للعقل فيها.

ب ـ أن لفظ القديم يحتمل معنيين الأول: المسبوق ببعض المخلوقات وهذا ليس كمالاً. والمعنى الثاني: الذي لم يسبق بعدم وهذا كمال مطلق ومعلوم أن أسماء الله الحسنى لا تحتمل النقص بوجه من الوجوه.

والمقصود أنه تعالى لم يسبقه شيء، كما أنه تعالى دائم وباق بلا نهاية، والذي يوافق «القديم» و«الدائم» من أسمائه تعالى هو: «الأول» و«الآخر»، وقد وردا مجتمعين في الكتاب والسنة، أما في الكتاب فقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ﴾ [الحديد: ٣]، وأما من السنة فقد قال ﷺ: «أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء»[٣]، وأما موقف العقل من ثبوت هذين الوصفين لله تعالى فإن العلم بثبوتها مستقر في الفطر؛ فإن الموجودات لا بد أن تنتهي إلى واجب الوجود لذاته قطعاً للتسلسل المحال عقلاً.

---

(١) انظر: التعليقات المختصرة على متن العقيدة الطحاوية للفوزان (ص٣٥)، والتعليقات الجلية على متن العقيدة الطحاوية للغامدي (ص١٧).

(٢) انظر: بدائع الفوائد (١/ ١٥٩). (٣) أخرجه مسلم (٢٧١٣).

وأما تسميته تعالى بالقديم فلا يجوز؛ فإن الأسماء والصفات توقيفية؛ فلا يجوز لأحد أن يبتدع اسماً لله من عند نفسه، وإنما يقتصر فيها على ما ورد في النصوص فقط، وهذا من قواعد أهل السنة كما سبق بيانه.

(١٠) معنى كلمة «القديم»:

معنى «القديم» لغة هو: المتقدم على غيره، ولا تستعمل فيما لم يسبقه عدم، وهو ليس من أسماء الله تعالى الحسنى، وموقف السلف أنهم أنكروا ذلك؛ لأنه لم يرد في الكتاب ولا في السنة، فكان التفسير بكلمة «الأول» التي وردت في الكتاب والسنة والتي تشعر بأن ما بعدها آيل إليه وتابع له، وتفيد تقدمه على الحوادث كلها بخلاف كلمة «القديم» التي لا تفيد ذلك.

(١١) معنى قوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الطور: ٣٥].

هذا استدلال عليهم بأمر لا يمكنهم فيه إلا التسليم للحق، أو الخروج عن موجب العقل والدين، وبيان ذلك: أنهم منكرون لتوحيد الله، مكذبون لرسوله ﷺ، وذلك مستلزم لإنكار أن الله خلقهم.

وقد تقرر في العقل مع الشرع أن الأمور لا تخلو من أحد ثلاثة أمور: إما أنهم خلقوا من غير شيء، أي لا خالق لهم، بل وجدوا من غير إيجاد ولا موجد، وهذا عين المحال.

وإما أنهم خالقون لأنفسهم، وهذا أيضاً محال؛ فإنه لا يتصور أن يوجدوا أنفسهم.

فإذا بطل هذان الأمران تعين القسم الثالث، وهو أن الله خلقهم، وإذا تعين ذلك علم أن الله تعالى هو المعبود وحده الذي لا تنبغي العبادة ولا تصلح إلا له تعالى(١).

(١٢) معنى كلام ابن أبي العز: «والعلم بثبوت هذين الوصفين - الأول والآخر - مستقر في الفطر، فإن الموجودات لا بد أن تنتهي إلى واجب الوجود بذاته قطعاً للتسلسل»:

استقر في الفطر السليمة من المؤثرات أن الله ﷻ وهو الخالق لجميع ما في السماوات والأرض والمدبر لهما، فهو الأول الذي ليس قبله شيء، والآخر

---

(١) انظر: تفسير السعدي، سورة الطور: الآية ٣٥.

الذي ليس بعده شيء، والظاهر الذي ليس فوقه شيء، والباطن الذي ليس دونه شيء.

وإن جميع المخلوقات مفتقرة إلى الله ﷻ في جميع أحوالها.

التسلسل: وهو ترتيب أمور غير متناهية.

والناس عندهم نزاع في جواز التسلسل وسيأتي تفصيله في باب اتصاف الرب تعالى بصفات الكمال أزلاً وأبداً، حيث تعرض له ابن أبي العز رحمه الله تعالى.

(١٣) معنى قول الطحاوي: «لا يفنى ولا يبيد»:

الفناء والبيد بمعنى واحد، فالله ﷻ موصوف بالحياة الباقية الدائمة، وهو يفني الخلق ولا يفنى، ويبيدهم ولا يبيد، بل هو الآخر بعد كل شيء.

وعبارة الماتن من باب الترادفات لتأكيد المعنى السابق «دائم بلا انتهاء».

(١٤) قوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧]:

أي كل من على الأرض من إنس وجن ودواب وسائر المخلوقات يفنى ويموت ويبيد، ويبقى الحي الذي لا يموت ذو العظمة والكبرياء والمجد الذي يعظم ويبجل ويجل لأجله، والإكرام الذي هو سعة الفضل والجود والداعي لأن يكرم أولياءه وخواص خلقه بأنواع الإكرام الذي يكرمه أولياؤه ويجلونه ويعظمونه ويحبونه وينيبون إليه ويعبدونه(١).

(١٥) الخلاصة:

١ ـ وجوب عبادة الله وحده لا شريك له هي كلمة التوحيد التي دعت إليها الرسل عليهم الصلاة والسلام.

٢ ـ خبر «لا» في قوله: «لا إله إلا الله» مضمر وتقديره: «حقٌّ».

٣ ـ «القديم» من الألفاظ المحدثة المبتدعة التي أطلقها المتكلمون على الله سبحانه وتعالى اسماً.

٤ ـ «القديم» ليس من أسماء الله ﷻ.

٥ ـ الموجودات لا بد أن تنتهي إلى واجب الوجود بذاته قطعاً للتسلسل.

٦ ـ الله ﷻ موصوف بالحياة الدائمة الباقية، فلا يفنى ولا يبيد.

---

(١) انظر: تفسير السعدي، سورة الرحمن: الآية ٢٦ ـ ٢٧.

١٦ المناقشة:

- **س١:** ما غرض المصنف من عقد هذا الباب؟
- **س٢:** كيف تقدر خبر «لا» في قولنا: «لا إله إلا الله»؟ فصِّل القول في ذلك.
- **س٣:** هل هناك فرق بين نفي الوجود والماهية عند أهل السنة؟
- **س٤:** ما موقفك ممن يثبت ماهية حقيقية بلا وجود؟
- **س٥:** هل «القديم» من أسماء الله تعالى؟ اذكر ما يوافقه من أسماء الله تعالى، مع ذكر الدليل.
- **س٦:** هل المسلم بحاجة للاستدلال بالمصطلحات الكلامية في مسائل العقيدة؟ مع الدليل على ما تقول.
- **س٧:** ما معنى كلمة «القديم» في اللغة؟ ثم بيّن موقف السلف من إطلاقه على الله تعالى، مع التوجيه.
- **س٨:** هل يجوز اختراع أسماء وصفات لله تعالى؟



كل ما يحدث في الكون فهو بإرادته سبحانه وتعالى

* كلام ابن أبي العز.

١ ـ غرض المصنف من عقد هذا الباب.

٢ ـ مناسبة هذا الباب لما سبق.

٣ ـ معاني الكلمات.

٤ ـ معنى كلام الطحاوي: «ولا يكون إلا ما يريد».

٥ ـ علاقة القدر بالتوحيد.

٦ ـ مراتب الإيمان بالقدر.

٧ ـ المخالفون لأهل السنة في الإرادة.

٨ ـ الفرق بين الإرادة الشرعية والإرادة الكونية.

٩ ـ أمثلة على الإرادة الكونية والإرادة الشرعية.

١٠ ـ هل يلزم من الأمر بالشيء لغة وشرعاً وعقلاً أن تعين المأمور على فعله؟

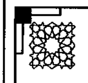
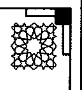
١١ ـ أفعال الله عز وجل وأوامره تصدر عن حكمة.

١٢ ـ المنحرفون في باب القدر.

١٣ ـ القدرية يقولون إنه يقع في ملك الله شيء لا يريده.

١٤ ـ الخلاصة.

١٥ ـ المناقشة.

كل ما يحدث في الكون فهو بإرادته سبحانه وتعالى

قال ابن أبي العز:

قوله: «ولا يكون إلا ما يريد».

هذا ردٌّ لِقول القَدَرِيَّة والمعتزلة[1]، فإنَّهم زَعَموا أن الله أراد الإيمانَ مِن الناس كُلِّهِم، والكافرُ أراد الكفرَ، وقولُهم فاسدٌ مردود لمخالفته الكتابَ والسنةَ، والمعقولَ الصحيح، وهي مسألة القَدَرِ المشهورة، وسيأتي لها زِيادةُ بيانٍ إن شاء الله تعالى.

وسُمُّوا قَدَريةً لإنكارهم القَدَرَ، وكذلك تُسمَّى[2] الجَبْرِيَّةُ المُحْتَجُّونَ بالقَدَر قَدَريةً أيضاً، والتسميةُ على الطائفة الأولى أغلب.

أما أهل السنة، فيقولون: إنَّ الله وإن كان يُريدُ المعاصيَ قَدَراً، فهو لا يُحِبُّها ولا يرضاها، ولا يَأْمُرُ بها، بل يُبْغِضُها، ويَسخَطُها، ويكرَهُها، وينهى عنها، وهذا قولُ السَّلَفِ قاطبةً، فيقولون: ما شاء اللهُ كان، وما لم يشأْ لم يكن، ولهذا اتفق الفُقهاءُ على أن الحالِفَ لو قال: واللهِ لأفعلنَّ كذا إن شاءَ الله، لم يَحْنَثْ إذا لم يفعله، وإن كان واجباً أو مستحباً، ولو قال: إن أحبَّ اللهُ، حنِث، إذا كان واجباً أو مستحباً.

والمحقِّقون[3] من أهل السنة يقولون: الإرادةُ في كتاب الله نوعانِ: إرادةٌ قَدَرِيَّة كونية خَلقية، وإرادةٌ دينية أمرية شرعية.

فالإرادةُ الشرعية: هي المتضمِّنَةُ للمحبة والرضى.

والكونية: هي المشيئةُ الشامِلَةُ لجميع الموجودات، وهذا كقوله تعالى: ﴿فَمَن

(١) خالفت المعتزلة في هذا الأصل حيث زعمت أن الله شاء من الكافر الإيمان، ولكن الكافر شاء لنفسه الكفر، فلهذا غلبت مشيئة العبد مشيئة الرب تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

(٢) الجبرية: أثبتوا القدر لله ثم غلوا في ذلك حتى نفوا قدرة العبد.

(٣) انظر: منهاج السنّة (٥/ ٣٦٠).

﴿يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ﴾ [الأنعام: ١٢٥]. وقوله تعالى عن نوحٍ عليه السلام: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ﴾ [هود: ٣٤]. وقوله تعالى: ﴿وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

وأما الإرادةُ الدينية الشرعية الأمرية، فكقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]. وقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾ [النساء: ٢٦ ـ ٢٨]. وقوله تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَـٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: ٦]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣].

فهذه الإرادةُ هي المذكورةُ في مثلِ قولِ الناس لمن يَفعَلُ القبائحَ: هذا يَفعَلُ ما لا يُريدُهُ الله، أي: لا يُحبُّه، ولا يرضاه، ولا يأمرُ به.

وأما الإرادة الكونيةُ، فهي الإرادةُ المذكورةُ في قولِ المسلمين: ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن.

والفرق[1] ثابتٌ بين إرادةِ المُريد أن يَفعَلَ، وبين إرادتِهِ من غيره أن يَفْعَلَ، فإذا أراد الفَاعِلُ أن يفعل فعلاً، فهذه الإرادة معلَّقة بفعله، وإذا أراد مِن غيره أن يفعَلَ فعلاً، فهذه الإرادة لفعل الغير، وكِلا النوعين معقولٌ للناس، والأمرُ يستلزِمُ الإرادةَ الثانية دونَ الأولى[2]، فالله تعالى إذا أَمَر العبادَ بأمر، فقد يُريدُ إعانةَ المأمور على ما أمر به، وقد لا يُريدُ ذلك، وإن كان مُريداً منه فعلَه.

وتحقيقُ هذا ما يبين فَصْلَ النزاع في أمرِ الله تعالى: هل هو مستلزمٌ لإرادته، أم لا؟ فهو سبحانه أَمَرَ الخلقَ على أَلسُن رُسُلِه عليهم السلام بما ينفعُهُم ونهاهم عما يَضرُّهم،

---

(١) انظر: منهاج السنّة (٣/ ١٦٨ ـ ١٧٧).

(٢) هذه من المسائل الكلامية التي وقعت بين المعتزلة والأشاعرة فقالت المعتزلة: الأمر يستلزم الإرادة وقالت الأشاعرة: الأمر لا يستلزم الإرادة، انظر: شفاء العليل (٢/ ٢٨٨).

ولكن منهم مَنْ أراد أن يَخلُقَ[(١)] فعلَه، فأراد سبحانه أن يَخْلُقَ ذلك الفعلَ، ويَجعَلَهُ فاعلاً له، ومنهم مَن لم يُرِدْ أن يَخلُقَ فعلَه، فجهةُ خلقه سبحانه لأفعالِ العبادة وغيرِها من المخلوقات غيرُ جهةِ أمره للعبد على وجه البيان لما هو مصلحةٌ للعبد أو مفسدةٌ، وهو سبحانه إذ أمر فرعونَ وأبا لهبٍ وغيرَهما بالإيمان، كان قد بَيَّنَ لهم ما يَنْفَعُهُمْ ويُصْلِحُهُم إذا فعلوه، ولا يَلْزَم إذاً أمرهم أن يُعينَهم[(٢)]، بل قد يَكُونُ في خلقِهِ لهم ذلك الفعلَ وإعانَتِهم عليه وَجْهُ مفسدةٍ من حيثُ هو فِعْلٌ له، فإنه يَخْلُقُ ما يخلُقُ لحِكْمَةٍ، ولا يَلزَم إذا كان الفعلُ المأمور به مصلحةً للمأمور إذا فَعَلَه، أن يَكونَ مصلحةً للآمر إذا فعله هو، أو جعل المأمورَ فاعلاً[(٣)] له، فأينَ جهةُ الخلق مِن جهة الأمر؟ فالواحدُ من الناس يأمُرُ غيره وينهاه مريداً النصيحة ومبيناً لما يَنفعهُ، وإن كان مع ذلك لا يُريدُ أن يُعينَهُ على ذلك الفعل، إذ لَيسَ كُلُّ ما كان مصلحتي في أن آمُرَ به غيري وأَنصَحَهُ، يكون مصلحتي في أن أُعاونَه أنا عليه، بل قد تكونُ مصلحتي إرادةَ ما يُضَادُّه، فَجِهَةُ أمره لغيره نصحاً غَيرُ جهةِ فعله لنفسه، وإذا أمكن الفَرقُ في حقِّ المخلوقين، فهو في حقِّ الله أولى بالإمكان.

والقَدَرية تَضربُ مثلاً بمن أَمر غيرَهُ بأمره، فإنَّه لا بُدَّ أن يَفعَلَ ما يكونُ المأمورُ أقْرَبَ إلى فعله، كالبِشرِ، والطلاقة وتهيئةِ المساند، والمقاعدِ، ونحو ذلك.

فيقال لهم: هذا يكونُ على وجهين:

أحدهما: أن تكونَ مَصلَحَةُ الأمرِ تعودُ إلى الآمر، كأمر المَلِكِ جُنْدَه بما يُؤَيِّدُ مُلْكَهُ، وأمرِ السيد عبدَه بما يُصْلِحُ مُلْكَهُ، وأمرِ الإنسان شريكه بما يُصلِحُ الأمرَ المشترك بينهما، ونحو ذلك.

الثاني: أن يكون الآمر يَرى الإعانةَ للمأمورِ مَصلحةً له، كالأمرِ بالمعروف، وإذا

---

(١) قوله: (أن يخلق) أي: الله، فالله تعالى أمر ذلك العبد وخلق له ذلك الفعل؛ أي: أن الله أمر وأعانه، انظر: شرح الطحاوية بتعليق العدني (ص٩٧).

(٢) الله خلق الهدى وجعل له طريقاً وخلق الضلال وجعل له طريقاً فبين الله تعالى الهداية والإضلال فمن سار في طريق وصل منتهاه والله بيّن وأرشد وحذر فمن أطاعه نجا، ومن عصاه فلا يلومن إلا نفسه.

(٣) معنى هذا أنه لا يلزم من الأمر إذا أمر بشيء وفيه مصلحة للمأمور أن تكون هناك مصلحة للآمر.

أعان المأمورَ على البِرِّ والتقوى، فإنه قد عَلِمَ أن الله يُثِيبُه على إعانته على الطاعة، وأنه في عَون العبد ما كان العبدُ في عون أخيه.

فأما إذا قُدِّرَ أن الآمر إنما أمر المأمور لمصلحة المأمور، لا لِنفع يعودُ على الآمر مِن فِعل المأمورِ، كالناصحِ المشير، وقُدِّرَ أنه إذا أعانه لم يكن ذلك مصلحةً للآمر، وأن في حصولِ مصلحة المأمور مضرةً على الآمر، مثل الذي جاء في أقصى المدينة يسعى، وقال لموسى عليه السلام: ﴿إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [القصص: ٢٠]. فهذا مصلحتُه في أن يأمُرَ موسى عليه السلام بالخروج، لا في أن يُعينَه على ذلك، إذ لو أعانه، لضَرَّهُ قومُه، ومثلُ هذا كثير.

وإذا قيل: إنَّ الله أمر العباد بما يُصلِحُهم، لم يَلْزَم من ذلك أن يُعينَهم على ما أَمرهم به، لا سِيَّما وعند القَدَرية لا يَقْدِر أن يُعينَ أحداً على ما به يصيرُ فاعلاً، وإذا عللت أفعاله بالحِكْمَةِ، فهي ثابتة في نفس الأمر، وإن كنا نحن لا نَعْلَمُها، فلا يَلْزَمُ إذا كان نفس الآمِرِ له حكْمَةٌ في الآمر أن يكونَ في الإعانة على فعل المأمور به حِكمةٌ، بل قد تكونُ الحِكمة تقتضي أن لا يُعينَه على ذلك، فإنه إذا أمكن في المخلوق أن يكونَ مقتضى الحكمة والمصلحة أن يأمرَ لمصلحة المأمور، وأن تكونَ الحكمة والمصلحة للآمر أن لا يُعينَه على ذلك، فإمكان ذلك في حقِّ الرَّبِّ أولى وأحرى.

والمقصودُ: أنه يمكنُ في حقِّ المخلوق الحكيم أن يأمُرَ غيرَه بأمره، ولا يُعينه عليه، فالخالقُ أولى بإمكانِ ذلك في حقِّه مع حكمته، فَمَن أمره، وأعانه على فعل المأمور، كان ذلك المأمور به قد تعلَّق به خلقُه وأمره إنشاءً[1] وخلقاً ومحبةً[2]، فكان مراداً بجهة الخلق، ومراداً بجهة الأمر، ومن لم يُعِنْهُ على فعل المأمور؛ كان ذلك المأمورُ قد تعلَّق به أمرُه، ولم يتعلَّق به[3] خلقُه، لعدم الحِكْمَةِ المقتضية لتعلُّق الخلق به، ولحصُولِ الحكمة المقتضية لخلق ضِدِّه. وخلقُ أحد الضدين

---

(١) قول الشارح: (إنشاءً) المراد به (الإرادة الكونية).

(٢) قول الشارح (محبة) المراد به (الإرادة الشرعية).

(٣) أي: وجدت الإرادة الشرعية لكونه سبحانه قد أمر به ولكن تخلفت الإرادة الكونية، لكونه تعالى يعنه وعدم الإعانة تقتضي عدم خلق ذلك المأمور.

يُنافي خَلْقَ الضِّدِّ الآخر، فإن خلق المَرَض الذي يَحصُلُ به ذُلُّ العبد لربه، ودعاؤه، وتوبته، وتكفيرُ خطاياه، ويَرِقُّ به قلبُهُ، ويذهبُ عنه الكبرياء، والعظمة، والعُدوان، يُضَادُّ خَلْقَ الصِّحة التي لا تَحْصُل معها هذه المصالح، ولذلك كان خلق ظُلْمِ الظالم الذي يَحْصُلُ به للمظلوم مِن جنس ما يَحْصل بالمرض، يُضَادُّ خَلْقَ عدلِهِ الذي لا يَحْصُلُ به هذه المصالح، وإن كانت مصلحتُه هو في أن يَعْدِلَ.

وتَفصِيل حِكمة الله ﷻ في خلقه[١] وأمره[٢]، يَعْجِزُ عن معرفته عُقولُ البشر، والقَدَرية دخلوا في التعليل على طريقة فاسدة مثَّلوا الله فيها بخلقِهِ[٣]، ولم يُثْبِتُوا حِكمةً تعودُ إليه[٤].

(١) الحكمة في خلقه: أن الله خلق جميع المخلوقات بأحسن نظام ورتبها أكمل ترتيب، وأعطى كل مخلوق خلقه اللائق.

(٢) الحكمة في أمره: أن الله شرع الشرائع، وأنزل الكتب، وأرسل الرسل لأمور أعظمها ليعرفه عباده ويعبدوه، انظر: شرح النونية للهراس (ص٤٦٨).

(٣) يطلق على المعتزلة أنهم مشبهة الله بخلقه، وذلك أنهم أوجبوا على ربهم ﷻ ما أوجبوه على العبد وحرموا عليه سبحانه ما حرموا على العبد فما حَسُن من المخلوق. حَسُن من الخالق، وما قُبح من المخلوق قُبح من الخالق. انظر: التحفة المهدية (ص٤١٢).

(٤) من أسمائه سبحانه الحكيم ومن صفاته الحكمة.



عناصر الموضوع:

١ غرض المصنف من عقد هذا الباب:

غرض المصنف من عقد هذا الباب يتضح فيما يلي:

أ ـ تقرير معتقد أهل السنة والجماعة أن ما يحدث في الكون فهو بإرادته سبحانه الكونية، وكل ما يكون في هذا الكون فالله أراده، ولا يقع في ملك الله إلا ما يريد، فلا يكون شيء إلا ما أراده ﷻ بالإرادة الكونية، قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: ٨٢].

ب ـ الرد على القدرية الذين يقولون: إنه يقع في ملك الله شيء لا يريده الله، ويقولون: إن الله تعالى أراد الإيمان من الناس كلهم ولكن الكافر والعاصي أراد الكفر والمعصية، فوقع الكفر والمعصية، والله لا يريد الكفر والمعاصي(١).

٢ مناسبة هذا الباب لما سبق:

بيّن المؤلف فيما سبق أن الله هو الأول والآخر، هو الأول لم يسبقه شيء، كما أنه دائم باق بلا نهاية، فالأول ليس قبله شيء، والآخر ليس بعده شيء، فناسب أن يبين في هذا الباب أن ما يحدث في الكون فهو بإرادة الله ﷻ، فلا يكون في ملكه ولا يحصل في خلقه من الحوادث والكائنات إلا ما أراده ﷻ.

٣ معاني الكلمات:

الكلمة	المعنى
الإرادة	إرادة الله تنقسم إلى قسمين: الإرادة الكونية: وهي مرادفة للمشيئة وهي ما تتعلق بكل كائن، ولا يلزم أن يكون مرادها محبوباً لله، وأما الإرادة الشرعية الدينية: فهي ما أراده الله لعباده شرعاً وديناً وتتعلق بما يحبه الله ويرضاه.

(١) انظر: الهداية الربانية (ص٢٣).

الكلمة	المعنى
العلة	هي ما يتوقف عليه وجود الشيء، ويكون خارجاً ومؤثراً فيه، وعلة الشيء ما يتوقف عليه ذلك الشيء.
التضاد	الضدان هما الموجودان اللذان لا يجتمعان في محل، ولكن يجوز أن يرتفعا.

٤ معنى كلام الطحاوي: «ولا يكون إلا ما يريد»:

هذا فيه إثبات الإرادة، فلا يكون في ملكه ولا يحصل في خلقه من الحوادث والكائنات إلا ما أراده ﷻ بالإرادة الكونية القدرية.

٥ علاقة القدر بالتوحيد:

هناك تلازم بين التوحيد والقدر، فمن أقر بالتوحيد وأنكر القدر فقد طعن في ربوبية الله وملكوته، ونسبه إلى العجز، ومن أقر بالقدر وأنكر التوحيد فقد طعن في حكمة الله وعدله.

ومن الإيمان بالقدر أن لله ﷻ إرادة، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، والإرادة من توحيد الأسماء والصفات.

٦ مراتب الإيمان بالقدر:

يثبت أهل السنة والجماعة قدر الله تعالى الشامل لكل شيء، وهم يؤمنون بأربع مراتب للقدر مستفادة من النصوص الشرعية، وهذه المراتب الأربع هي:

١ ـ مرتبة العلم: فيثبتون العلم القديم الشامل لكل شيء.

٢ ـ مرتبة الكتابة: فيثبتون الكتابة السابقة الشاملة لكل شيء قبل الخلق.

٣ ـ مرتبة الإرادة: فيثبتون الإرادة الإلهية بنوعيها الكونية والشرعية.

٤ ـ مرتبة الخلق: فيثبتون أن كل شيء كائن بمشيئة الله تعالى لا يخرج عن ذلك شيء. وأما فيما يتعلق بالمعاصي التي يفعلها العباد فإنهم يقولون إن الله وإن كان يريد المعاصي قدراً فهو لا يحبها ولا يرضاها ولا يأمر بها، ويبغضها شرعاً ويسخطها ويكرهها، وينهى عنها.

٧ المخالفون لأهل السنة في الإرادة:

أهل السنة والجماعة جمعوا بين النصوص الواردة في الإرادة؛ لذا قسموا الإرادة إلى قسمين: إرادة قدرية كونية، وإرادة دينية شرعية أمرية، فالإرادة الكونية

مرادفة للمشيئة وهي الإرادة الشاملة لجميع الحوادث ولا يتخلف مرادها، وسيأتي الفرق بين الإرادتين الكونية والشرعية.

والله ﷻ هدى أهل السنة إلى ذلك، أما المعتزلة القدرية فما عندهم إلا إرادة واحدة هي الإرادة الدينية الشرعية، وعموا عن الإرادة الكونية فضلُّوا عن سواء السبيل.

والجبرية من الجهمية والأشاعرة أثبتوا الإرادة الكونية وأغمضوا أعينهم عن الأدلة التي تثبت الإرادة الدينية الشرعية.

وهدى الله أهل السنة إلى الجمع بين النصوص الشرعية فأثبتوا الإرادتين الكونية والشرعية.

٨ الفرق بين الإرادة الشرعية والإرادة الكونية:

بين الإرادة الكونية والإرادة الشرعية فروق، منها:

١ ـ الإرادة الكونية لا يلزم أن يكون مرادها محبوباً لله مرضياً له، وهي حاصلة لا محالة، فهي مرادفة للمشيئة..

أما الشرعية فمتعلقة بما يحبه الله تعالى ويرضاه، وهذه قد يتخلف عنها حصول المراد ووقوعه.

٢ ـ الإرادة الكونية مقصودة لغيرها كخلق الشر.

أما الإرادة الشرعية فمقصودة لذاتها، كالأمر بالطاعة.

٣ ـ الإرادة الكونية متعلقة بتوحيد الربوبية. فهي (المشيئة).

أما الإرادة الشرعية فمتعلقة بتوحيد الألوهية والشرع.

٤ ـ تجتمع الإرادتان في حق المطيع، وتنفرد الكونية في حق الكافر والعاصي.

٩ أمثلة على الإرادة الكونية والإرادة الشرعية:

مثال للإرادة الكونية القدرية قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: ٢٥٣] ووجه الاستدلال فيها أنه ﷻ صاحب الإرادة النافذة، فإنه إذا أراد شيئاً خلقه وأوجده، فكان كما أراد ﷻ. وقوله: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥]، ووجه الاستدلال من الآية كما في الآية التي سبقتها.

ومثال الإرادة الشرعية قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ

ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣] ووجه الاستدلال أن هذه الأمور المذكورة في الآيات هي أمور محبوبة إلى الله تعالى مرضية عنده.

(١٠) هل يلزم من الأمر بالشيء لغة وشرعاً وعقلاً أن تعين المأمور على فعله؟

لا يلزم من الأمر بالشيء لغة وشرعاً وعقلاً أن تعين المأمور بل قد تكون المصلحة في إعانته وقد لا تكون في إعانته، والموقف من قول القدرية ـ يلزم من الأمر بالشيء أن تعين المأمور على الفور ـ أنه يقال لهم إن هذا اللزوم إنما يكون على قسمين:

١ ـ أن تكون مصلحة الأمر تعود للآمر كأمر الملك جنوده بما يؤيد ملكه ونحو ذلك، فهذا يعينهم على الفعل لما يعود عليه من المصلحة من ذلك الفعل.

٢ ـ أن تكون مصلحة الأمر تعود على المأمور كالأمر بالمعروف مثلاً فإن الآمر يرى أنه مثاب إن أعان المأمور على فعل المعروف المأمور به لكونه نفع أخاه بذلك.

الخلاصة: أنه لا تلازم بين الإرادتين فقد يأمر الله بالأمر الشرعي ولا يعين المأمور به وقد يعينه فتجتمع الإرادتان وقد تنفرد أحدهما عن الأخرى، وقد تنعدمان وتوضيح ذلك فيما يلي:

أ ـ وجودهما معاً مثاله: إيمان المؤمن وطاعة المطيع.

ب ـ انفراد الكونية دون الشرعية: مثاله كفر الكافر ومعصية العاصي.

ج ـ انفراد الشرعية دون الكونية، مثال: إيمان الكافر وطاعة العاصي.

د ـ انتفاء الإرادتين مثاله: كفر المؤمن ككفر أبي بكر فالكفر ليس مراداً شرعاً ولم يقع من أبي بكر الكفر بل مات على الإيمان فليس هو مراد كوناً[1].

(١١) لماذا أمر الله أبا بكر بالإيمان وأعانه؟ ولما أمر أبا لهب بالإيمان ولم يُعنه؟

الجواب: أن الله حكيم والحكمة وضع الشيء في موضعه المناسب فوضع الإيمان في أبي لهب عَلِم الله أنه لا يكون مناسباً فلم يعنه هذا أمر وأمر آخر: أن الله خلق الهدي وجعل له طريقاً، وخلق الضلال وجعل له طريقاً فمن سار في طريق وصل إلى منتهاه والله بين وأرشد وحذر، فمن أطاعه نجا ومن عصاه فلا

(١) انظر: شرح الطحاوية (ص٩٨) بتعليق العدني.

يلومن إلا نفسه قال الحكمي: في معارج القبول (١/ ٢٢٤) (فبيده تعالى الهداية والإضلال والإشقاء والإسعاد فهدايته العبد وإسعاده فضل ورحمة، وإضلاله وإبعاده عدل منه وحكمة، وهو أعلم بمواقع فضله وعدله وهو الحكيم العليم الذي يضع الأشياء في مواضعها وهو أعلم بمن هو محل الهداية فيهديه ومن هو محل الإضلال فيضله وهو أحكم الحاكمين)[١].

١٢ أفعال الله ﷻ وأوامره تصدر عن حكمة:

أفعال الله وأوامره إنما تكون لحكمة، وهذا من مقتضى أنه ﷻ قد تسمى باسم الحكيم، لكن قد تتبين هذه الحكمة لبعض الناس، وقد لا تتبين لبعضهم، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

وخالف في ذلك الجهمية والأشعرية ومن وافقهم فنفوا الحكمة والتعليل في أفعال الله ﷻ، كما جعل المعتزلة الحكمة مخلوقة منفصلة عن ذات الرب فدخلوا في ذلك بنوع من التشبيه والتمثيل. فلم يثبتوا حكمه تعود إلى الله بل الحكمة تعود إلى المخلوق، وهي نفعهم والإحسان إليهم إذ عندهم لا تقوم بذاته تعالى صفة ولا فعل[٢].

١٣ المنحرفون في باب القدر:

مذهب القدرية أنهم زعموا أن الله تعالى أراد الإيمان من الناس وأن الكافر أراد الكفر فكان ما أراده الكافر، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً، فإن مقتضى كلامهم من الفساد إن إرادة الإنسان غلبت إرادة الله تعالى، وهذا لا يليق بمقام الربوبية والألوهية، وسموا قدرية لإنكارهم قدر الله القديم الشامل لكل شيء من أفعال العباد وغير ذلك.

وأما الجبرية المحتجون بالقدر على المعاصي فيقولون إن العبد مجبور على أفعاله مقهور عليها، لا تأثير له في وجودها البتة ولا هي واقعة باختياره وإرادته، ومذهبهم خطأ؛ لأنه يعني نسبة الظلم إليه تعالى حيث أجبر الإنسان على شيء ثم عذبه عليه، بينما الإنسان إرادة ومشيئة لكنها تحت مشيئة الله، كما قال تعالى:

---

(١) انظر: معارج القبول (١/ ٢٢٤)؛ وتعليق العدني على شرح الطحاوية (ص٩٨).

(٢) للاستزادة انظر: مجموع الفتاوى (٨/ ١٤٦ ـ ١٤٧)، منهاج السنة (١/ ١٤١)، درء التعارض (٤/ ٢٠٣)، ومفتاح دار السعادة (٢/ ٤٠٩)، والتحفة المهدية (٤١٣).

﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝٣٠﴾ [الإنسان: ٣٠].

١٤ القدرية يقولون: إنه يقع في ملك الله شيء لا يريده:

القدرية من المعتزلة يقولون: إنه يقع في ملك الله شيء لا يريده الله، فيقولون: إن الله تعالى أراد الإيمان من الناس كلهم ولكن الكافر والعاصي أراد الكفر والمعصية فوقع في الكفر والله لا يريد الكفر، ووقع في المعاصي والله لا يريد المعاصي، فألزمهم أهل السنة والجماعة بأنهم قالوا إنه يقع في ملك الله ما لا يريد، وهذا يلزم منه تنقص الرب ﷻ.

والمقصود أن أهل السنة يقولون: إن الله تعالى وإن كان أراد وقوع الكفر والمعاصي كوناً وقدراً، ولكنه لا يريدها ديناً وشرعاً ولا يحبها ولا يرضاها، ولا يأمر بها بل ينهى عنها ويبغضها ويسخطها، فالله تعالى وإن أرادها كوناً وقدراً إلا أنه لا يريدها ديناً وشرعاً.

فأهل السنة جمعوا بين النصوص، فقسَّموا الإرادة إلى قسمين: إرادة قدرية كونية خَلْقية، وإرادة دينية شرعية كما سبق بيانه.

١٥ إذا قال قائل: إذا كان في علم الله السابق أن أبا لهب لن يؤمن، فلماذا أمره بالإيمان؟

الجواب: يقال أن الإرادة والأمر الشرعيين قسمان: أ ـ إرادة حقيقية: وهي التي يكون معها الرضا والطلب وهي إرادة الطاعة ممن علم الله امتثاله للأمر. ب ـ الإرادة اللفظية: وهي إرادة ما يطلبه الله بالأمر ويرضاه ويحبه ممن علم أنه لا يمتثل للأمر فأمره تعالى لأبي لهب بالإيمان من هذا الباب، أي: الأمر والإرادة اللفظية لا الحقيقية، فإذا عرفنا هذا نتوصل إلى معرفة جواب ذلك السؤال: أن الله أمر من أمر بالإيمان مما علم منهم ألا يؤمنوا من أجل أقامه الحجة عليهم[1].

١٦ الخلاصة:

١ ـ هناك تلازم بين التوحيد والقدر.

٢ ـ مراتب القدر: مرتبة العلم، ومرتبة الكتابة، ومرتبة الإرادة، ومرتبة الخلق.

٣ ـ الإرادة نوعان: شرعية وكونية، وبينهما فرق.

٤ ـ أفعال الله ﷻ تصدر عن حكمة.

---

(١) انظر: تعليق العدني على شرح الطحاوية (ص١٠١).

٥ ـ ضلّت طوائف في باب القدر ومنهم الجهمية والمعتزلة.
٦ ـ لا يلزم من الأمر بالشيء لغة وشرعاً وعقلاً أن تعين المأمور على فعله.

(١٧) المناقشة:

- **س١:** ما غرض المصنف من عقد هذا الباب؟
- **س٢:** ما هو مذهب القدرية في القدر، ثم بيّن ما يقتضيه مذهبهم من المعنى الفاسد؟ ولماذا سموا بالقدرية؟
- **س٣:** من هم الجبرية؟ وما وجه الغلط في مذهبهم؟
- **س٤:** وضح مذهب أهل السنة في القدر، مع بيان مراتب القدر.
- **س٥:** ما الفرق بين الإرادة الشرعية والإرادة الكونية، مع التمثيل لكل منها؟
- **س٦:** هل هناك فرق بين المشيئة والإرادة الكونية القدرية؟
- **س٧:** هل يلزم من الأمر بالشيء لغة وشرعاً وعقلاً أن تعين المأمور على فعله؟ وما موقفك من القدرية القائلين بأنه يلزم من الأمر أن تعين المأمور على الفعل؟
- **س٨:** هل يلزم أن تكون أفعال الله تعالى وأوامره لحكمة أم لا؟
- **س٩:** اذكر مذاهب المخالفين لأهل السنة في الإرادة.
- **س١٠:** هل يقع في ملك الله شيء لا يريده؟ وضح ذلك.



معرفة البشر ربهم بأسمائه وصفاته وعجزهم عن الإحاطة بكنهه وحقيقته

* كلام ابن أبي العز.

١ ـ غرض المصنف من عقد هذا الباب.

٢ ـ مناسبة هذا الباب لما سبق.

٣ ـ معاني الكلمات.

٤ ـ معنى كلام الطحاوي: «لا تبلغه الأوهام ولا تدركه الأفهام».

٥ ـ قصد الطحاوي بالعبارة: «لا تبلغه الأوهام ولا تدركه الأفهام» الرد على الممثلة والمعطلة.

٦ ـ تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠].

٧ ـ معنى كلام الطحاوي: «ولا يشبه الأنام».

٨ ـ المعطلة مرادهم بنفي التشبيه نفي الصفات.

٩ ـ معنى التشبيه.

١٠ ـ الفرق بين التشبيه والتمثيل.

١١ ـ وجه بطلان طريقة المتكلمين في التنزيه وذلك بنفي التشبيه.

١٢ ـ حكم المشبهة عند السلف.

١٣ ـ معنى كلام الطحاوي: «حي لا يموت قيوم لا ينام».

١٤ ـ تفسير قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

١٥ ـ مدار الأسماء والصفات على هذين الاسمين «الحي القيوم».

١٦ ـ علامة الجهمية عند أهل السنة والجماعة.

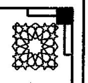
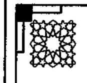
١٧ ـ المبتدعة يرمون أهل السنة بأقبح الألفاظ للتنفير من مذهب أهل السنة.

١٨ ـ المعطلة والممثلة يستخدمون الأقيسة في حق الله.

١٩ ـ الممثل يعبد صنماً والمعطل يعبد عدماً.

٢٠ ـ الخلاصة.

٢١ ـ المناقشة.

معرفة البشر بربهم بأسمائه وصفاته وعجزهم عن الإحاطة بكنهه وحقيقته

قال ابن أبي العز: قوله: «لا تَبْلُغه الأَوْهَامُ، ولا تُدْرِكُهُ الأَفْهَامُ».

قال الله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠]، قال في «الصِّحاح»: «توهَّمْتُ الشيءَ: ظَنَنْتُهُ، وفَهِمْتُ الشيء: عَلِمْتُهُ»[١]. فمرادُ الشيخ رحمه الله: أنه لا ينتهي إليه وهم، ولا يُحيطُ به علمٌ، قيل: الوَهْمُ ما يُرجى كونه؛ أي: يُظَنُّ أنَّه على صفةِ كذا، والفهمُ: هو ما يُحَصِّلُهُ العَقْلُ، ويُحِيطُ به، والله تعالى لا يعلم كيف هو إلا هو ﷻ، وإنما نَعْرِفُهُ سبحانَه بصفاته، وهو أنه أحدٌ، صَمَدٌ، لم يَلِدْ، ولم يُولَدْ، ولم يكن له كُفُواً أحد، ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾ [الحشر: ٢٣، ٢٤].

قوله: «ولا يُشْبِهُ[٢] الأَنَام».

هذا رَدٌّ لقول المشبِّهة الذين يشبِّهون الخالقَ بالمخلوقِ ﷻ، قال ﷻ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]. وليس المرادُ نفيَ الصفاتِ كما يقولُ أَهلُ البدع[٣]، فمِن كلامِ أبي حنيفة رحمه الله في «الفقه الأكبر»: لا يُشْبِهُ شَيْئاً من خَلْقِهِ، ولا يُشْبِهُهُ شيءٌ مِن خلقه، ثم قال بعدَ ذلك: وصفاتُه كلُّها خلافَ

---

(١) الصحاح (٥/ ٢٠٠٥) و(٥/ ٢٠٥٤).

(٢) في المطبوعة: (ولا يشبهه) وصوابه (ولا يشبه) لقول الشارح: هذا رد لقول المشبهة الذين يشبهون الخالق بالمخلوق، انظر: شرح الطحاوية بتحقيق العدني (ص١٠٤).

(٣) من الجهمية والمعتزلة وغيرهم حيث استدلو على نفي الصفات الواردة في الكتاب والسنّة بقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾، انظر: مجموع الفتاوى (٩/ ١١٢).

صِفاتِ المخلوقين، يَعْلَمُ لا كَعِلْمِنَا، ويَقْدِرُ لا كقُدْرتنا، ويرى لا كرؤيتنا، انتهى.

وقال نُعَيْمُ بنُ حمَّاد: من شَبَّهَ الله بشيءٍ مِنْ خَلقه، فقد كَفرَ، ومن أنكَرَ ما وصَفَ الله به نفسَه، فقد كَفر، وليس فيما وَصَف الله به نفسَه ولا رسولُه تشبيه.

وقال إسحاق بنُ راهَوَيْهِ: مَنْ وَصَفَ اللهَ، فشبَّه صفاتِهِ بصفاتِ أَحَدٍ من خلق الله، فهو كافر بالله العظيم.

وقال: عَلَامَةُ جَهْم وأصحابِهِ: دعواهم على أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ ما أُولِعُوا به من الكذب أنهم مُشَبِّهَة، بل هُمُ المعَطِّلَةُ.

وكذلك قال خلقٌ كثير من أئمة السَّلفِ: عَلامةُ الجَهْمَّيةِ تَسْمِيَتُهُمْ أهلَ السنة مُشَبِّهَة، فإنَّه ما مِن أحدٍ من نُفاةِ شيء من الأسماء والصفات إلا يُسَمِّي المثبتَ لها مشبِّهاً، فَمَن أنكر أسماء الله بالكُلِّيَّةِ من غالية الزنادقة: القَرَامطَةِ والفَلاسِفَةِ، وقال: إن الله لا يُقَالُ له: عالمٌ ولا قادرٌ، يَزْعُمُ أن مَنْ سَمَّاهُ بذلك، فهو مشبه؛ لأن الاشتراكَ في الاسم يُوجِب الاشتباهَ في معناه، ومن أثبت الاسمَ وقال: هو مَجاز، كغالية الجهمية، يَزْعُمُ أن من قال: إنَّ الله عالمٌ حقيقةً، قادرٌ حقيقةً، فهو مشبِّه، ومن أنكر الصفات وقال: إن الله ليس له علم، ولا قُدرةٌ ولا كلام، ولا محبَّة ولا إرادة، قال لمن أثبت الصفات: إنه مشبِّه وإنه مُجَسِّمٌ، ولهذا كُتُبُ نفاةِ الصفات من الجهمية والمعتزلة والرافضة ونحوهم، كُلُّها مشحونةٌ بتسمية مُثبِتَةِ الصفات مشبِّهة ومجسِّمة، ويقولون في كتبهم: إن مِن جُملة المجسِّمة قوماً يقال لهم: المالكية، يُنسَبُون إلى رَجُلٍ يُقال له: مالكُ بن أنس! وقوماً يقال لهم: الشافعية، يُنسبون إلى رجل يُقال له: محمدُ بن إدريس! حتى الذين يُفَسِّرُون القرآن منهم، كعبد الجبَّار، والزمخشري، وغيرهما، يُسمُّون كُلَّ من أثبتَ شيئاً من الصفات، وقال بالرؤيةِ مشبِّهاً، وهذا الاستعمالُ قد غَلَبَ عند المتأخِّرين من غالبِ الطوائف.

ولكنَّ المشهورَ مِن استعمالِ هذا اللفظِ عندَ عُلماءِ السنة المشهورين: أنَّهم لا يُرِيدُون بنفي التشبيه نفيَ الصفات، ولا يَصِفُونَ به كُلَّ مَنْ أَثْبَتَ الصفات، بل مرادُهُم أنه لا يُشْبِهُ المخلوقَ في أسمائه وصفاته وأفعاله، كما تقدَّم مِن كلام أبي حنيفة رَحِمَهُ اللهُ أنه تعالى يَعَلَمُ لا كعلمنا، ويَقْدِرُ لا كقُدرتنا، ويَرى لا كرؤيتنا، وهذا

معنى قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]. فنَفَى المِثْلَ، وأثبت الصفة.

وسيأتي في كلامِ الشيخ إثباتُ الصفاتِ، تنبيهاً على أنه ليس نفيُ التشبيه مستلزماً لِنفي الصفات.

ومما يُوَضِّحُ[١] هذا: أن العِلْمَ[٢] الإلهي لا يجوزُ أن يُستَدَلَّ فيه بقياسٍ تمثيلي يستوي فيه الأصلُ والفرعُ، ولا بقياس شُمولي يستوي أفرادُهُ، فإن الله سبحانه ليس كمثله شيء، فلا يجوز أن يُمَثَّلَ بغيره، ولا يجوز أن يُدْخَلَ هو وغَيْرُهُ تحت قضيةٍ كُلية يستوي أفرادُها، ولهذا لما سَلَكت طَوَائفُ مِن المتفلسفة والمتكلمة مِثلَ هذه الأقيسةِ في المطالب الإلهية، لم يَصِلُوا بها إلى اليقينِ، بل تناقَضَتْ أدِلَّتُهم، وغَلَبَ عليهم بَعْدَ التناهي الحَيْرَةُ والاضطرابُ، لِما يَرَوْنَهُ مِن فساد أدلَّتِهم أو تكافُئِها.

ولكن يُستَعْمَلُ في ذلك[٣] قياسُ الأَولى، سواءً كان تمثيلاً أو شُمولاً، كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠]. مثل أن يعلم أنَّ كل كمال للممكن أو للمُحْدَث، لا نقصَ فيه بوجهٍ مِن الوجوه. وهو ما كان كمالاً للوجود غيرَ مستلزِم للعدم بوجه. فالواجبُ القديمُ أولى به.

وكُلُّ كمال لا نَقْصَ فيه بوجهٍ من الوجوه، ثَبَتَ نَوْعُهُ للمخلوق والمربوبِ المدبر، فإنَّما استفادَه من خالقه وربِّه ومدبِّره، وهو أحَقُّ به منه، وأن كُلَّ نقصٍ وعيبٍ في نفسه، وهو ما تَضَمَّن سَلْبَ هذا الكمال، إذا وَجَبَ نَفْيُهُ عن شيءٍ من أنواعِ المخلوقات والممكنات والمحدَثَاتِ، فإنه يَجِبُ نَفْيُهُ عن الرب تعالى بِطَريق الأَولَى.

---

(١) انظر: درء التعارض (١/ ٢٩).

(٢) الإلهيات: اصطلاح يطلق على كل ما يتعلق بذات الإله وصفاته وأفعاله.

(٣) قياس الأولى: وهو أن كل كمال اتصف به المخلوق فالخالق أولى بالاتصاف به وهذا بثلاثة شروط:
١ ـ أن يكون ذلك الكمال قد ورد إثباته نقلاً.
٢ ـ أن يكون كمالاً مطلقاً وهو الذي لا نقص فيه بوجه من الوجوه.
٣ ـ أن يكون غير مستلزم للعدم.
انظر: القواعد الكلية (ص٢٩٣).

ومِنْ أعجبِ العجب: أن مِن غُلاة نُفاةِ الصفات الذين يستدِلُّون بهذه الآية الكريمةِ على نفي الصفات والأسماء، ويقولون: واجبُ الوجودِ لا يكون كذا، ولا يكون كذا، ثم يقولون: أَصْلُ الفلسفةِ هي التشبيه بالإله على قَدَرِ الطاقة[١]، ويَجْعَلُونَ هذا غايةَ الحِكمة ونِهَايَةَ الكمالِ الإنساني، ويُوافِقُهم على ذلك بعضُ من يُطلِقُ هذه العبارة، ويَرْوِي عن النبي ﷺ أنه قال: (تخلَّقُوا بأخلاقِ الله)[٢]، فإذا كانوا يَنفونَ الصفاتِ، فبأيِّ شيءٍ يَتَخَلَّقُ العبدُ على زَعْمِهِم؟! وكما أنه لا يُشبِهُ شيئاً من مخلوقاته تعالى، لا يُشبهه شيء مِن مخلوقاته، ولكنَّ المخالف في هذا النصارى والحلُولية والاتحاديةُ، لعنهم الله تعالى.

ونفيُ مشابهةِ شيءٍ من مخلوقاته له، مُستَلزِمٌ لنفي مشابهته لشيء مِنْ مخلوقاته، فلذلك اكتفى الشيخُ رحمه الله بقوله: ولا يُشْبِهُه الأنامُ، والأنام: الناس، وقيل: كُلُّ ذي روح، وقيل: الثقلانِ، وظاهرُ قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ۝١٠﴾ [الرحمن: ١٠] يَشهدُ للأول أكثرَ من الباقي. والله أعلم.

قوله: «حيٌّ لا يَموتُ، قيّومٌ لا يَنَامُ».

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، فنَفْيُ السِّنَةِ والنوم دليلٌ على كمال حياته وقَيُّومِيَّتِهِ، وقال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ [آل عمران: ١ ـ ٣]، وقال تعالى: ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ﴾ [طه: ١١١]، وقال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ﴾ [الفرقان: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [غافر: ٦٥]، وقال ﷺ: (إنَّ الله لا يَنَامُ ولا يَنْبَغِي لَهُ أنْ يَنَامَ)[٣] الحديث.

لما نفى الشيخُ رحمه الله التشبيهَ، أشار إلى ما تَقَعُ به التَّفرقةُ بينَه وبينَ خلقه، بما يتَّصِفُ به تعالى دونَ خلقه، فمن ذلك: أنه حَيٌّ لا يموت؛ لأن صفةَ الحياة الباقية مختصة به تعالى دون خلقه، فإنَّهم يمُوتون.

ومنه: أنه قَيُّومٌ لا ينام، إذ هو مختصٌّ بعدمِ النوم والسِّنَة دون خلقه فإنَّهم

---

(١) أي: أن يتشبهوا بأفعال وصفات الله على قدر استطاعتهم، انظر: درء التعارض (٦/ ٧٠).
(٢) موضوع، انظر: نقض التأسيس (٣/ ٢٧١).
(٣) رواه مسلم (١٧٩).

ينامُون، وفي ذلك إشارة إلى أنَّ نَفْي التشبيه، ليس المرادُ منه الصفاتِ، بل هو سبحانه موصوفٌ بصفاتِ الكمالِ، لكمال ذاته.

فالحيُّ بحياةٍ باقيةٍ لا يُشْبِهُ الحيَّ بحياة زائلةٍ، ولهذا كانتِ الحياةُ الدنيا متاعاً ولهواً ولعباً، ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْأَخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُۚ﴾ [العنكبوت: ٦٤]، فالحياةُ الدنيا كالمنام، والحياةُ الآخرة كاليقظة، ولا يُقالُ: فهذه الحياةُ الآخرةُ كاملة، وهي للمخلوق، لأنا نَقولُ: الحيُّ الذي الحياةُ مِن صفات ذاتِه اللازمة لها، هو الذي وَهَب المخلوق تلك الحياةَ الدائمة، فهي دائمةٌ بإدامة الله لها، لا أن الدوامُ وصفٌ لازم لها لِذاتها، بخلاف حياةِ الربِّ تعالى، وكذلك سَائِرُ صفاته، فصِفَاتُ الخالقِ كما يَليقُ به، وصفاتُ المخلوق كما يَليق به.

واعلم أنَّ هذين الاسمين ـ أعني: الحيُّ القيُّوم ـ مذكورانِ في القرآن معاً في ثلاث سُوَرٍ كما تقدَّم، وهما مِنْ أعظم أسماءِ الله الحسنى، حتى قيل: إنهما الاسمُ الأعظم، فإنَّهما يتضمنانِ إثباتَ صفاتِ الكمالِ أكملَ تَضمُّنٍ وأصدَقَهُ، ويَدُلُّ «القيومُ» على معنى الأزلية[1] والأبدية[2] ما لا يَدُلُّ عليه لفظُ «القديم»، ويدُل أيضاً على كونه موجوداً بنفسه، وهو معنى كونه واجبَ الوجود، والقيومُ أبلغُ من «القيَّام»؛ لأنَّ الواو أقوى من الألف، ويُفيدُ قيامَه بنفسِه، باتفاقِ المفسرين وأهلِ اللغة، وهو معلوم بالضرورة. وهل تُفيدُ إقامته لغيره وقيامه عليه؟ فيه قولان، أصحُّهما: أنه يُفيدُ ذلك، وهو يُفيدُ دوامَ قيامِه وكمالَ قيامه، لِما فيه مِن المبالغة، فهو سُبحانه لا يَزولُ ولا يَأفُلُ، فإن الآفِلَ قد زال قطعاً؛ أي: لا يَغيبُ، ولا يَنقُصُ، ولا يفنى، ولا يَعْدَمُ، بل هو الدائِمُ الباقي الذي لم يَزَلْ ولا يَزالُ موصوفاً بصفات الكمال.

واقترانُه بالحيِّ، يستلزِمُ سائرَ صفاتِ الكمالِ، ويَدُلُّ على دوامها وبقائها، وانتفاءِ النقصِ والعَدمِ عنها أزلاً وأبداً، ولهذا كان قوله: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، أعظمَ آية في القرآن، كما ثَبت ذلك في «الصحيح»

---

(١) الأزل: القدم الذي ليس له ابتداء والأزلي نسبة إلى الأزل.

(٢) الأبدي: استمرار الوجود في جانب المستقبل أو هو الشيء الذي لا نهاية له، انظر: التعريفات (ص٧/ ١٧).

عن النبي ﷺ[١].

فعلى هذين الاسمين مدَارُ الأسماءِ الحُسنى كلِّها، وإليهما تَرجِعُ معانيها، فإن الحياةَ مستلزِمة لجميع صفات الكمال، فلا يَتَخَلَّفُ عنها صفةٌ منها إلا لِضعف الحياة، فإذا كانت حياتُه تعالى أكملَ حياة وأتمَّها، استلزَم إثباتُها إثبات كل كمال يُضادُّ نفيُه كمال الحياة.

وأما «القيُّومُ»، فهو مُتَضَمِّنٌ كمالَ غِناه وكَمال قُدرته، فإنه القائم بنفسه، فلا يَحْتَاجُ إلى غيرِه بوجهٍ من الوجوه، المقيمُ لغيره، فلا قيامَ لغيره إلا بإقامته، فانتَظَم هذانِ الاسمانِ صفاتِ الكَمال أتمَّ انتظام.

(١) انظر: صحيح مسلم (٨١٠).



عناصر الموضوع:

١ غرض المصنف من عقد هذا الباب:

غرض المصنف من عقد هذا الباب: تقدير مذهب أهل السنة والجماعة في إثبات اسمين من أسماء الله تعالى، وهما «الحي والقيوم»، وهما متضمنان لصفة الحياة وصفة القيومية.

٢ مناسبة هذا الباب لما سبق:

بعد أن ذكر المصنف رحمه الله تعالى عقيدة أهل السنة والجماعة في توحيد الله، وأنهم يعتقدون أن الله واحد لا شريك له، ولا شيء مثله، ولا شيء يعجزه لكمال قدرته، وأن لا إله غيره، ولا معبود بحق سواه: ناسب أن يقرر أن من طريق أهل السنة إثبات الأسماء، ومن جملة الأسماء: «الحي والقيوم»، وكذلك شرع في الرد على المخالفين لأهل السنة من المشبهة الذين يشبهون الله بخلقه.

٣ معاني الكلمات:

الكلمة	المعنى
لا تبلغه الأوهام	أي لا تنتهي إليه الظنون.
الأنام	الخلق.
القيوم	القائم الدائم، قيم على كل شيء يحفظه ويكلؤه.
الزندقة	كلمة فارسية أصلها: «زن دين» فزن: المرأة، ودين: الدين؛ أي: دين المرأة؛ أي دين الحماقة. والفعل تزندق. فالزندقة: لها معنيان: الأول: استبطان الكفر وإظهار الإسلام للدسيسة. الثاني: «ارتكاب البدعة»: سواء كانت تلك البدعة مكفرة أو لا[1].

(١) تهذيب اللغة (٩/ ٤٠٠)، الصحاح (٤/ ١٤٨٩)، درء التعارض (٥/ ٣٢٠)، شرح المقاصد (٢/ ٢٦٨).

الكلمة	المعنى
الفلسفة	أصل الفلسفة بلسان اليونان: محبة الحكمة.
القياس التمثيلي	هو القياس الأصولي، وهو مساواة فرع بأصل في حكم لعلة جامعة بينهما.
القياس الشمولي	هو القياس المنطقي، وهو ما كان مركباً من مقدمتين فأكثر ونتيجة بحيث تستوي الأفراد في كلي يشملها.
الحلولية	الحلول من حل يحل وهو النزول في الشيء والإقامة فيه. والمراد ههنا سريان شيء في آخر، أو دخول شيء في آخر.
الاتحادية	الاتحاد ـ عند الصوفية ـ عقيدة وحدة الوجود، وهي الاعتقاد بأن الله عين هذا الكون، وأن الخالق عين المخلوق، وأن الله تعالى عين الإنسان وعين الحيوان وعين الناكح وعين المنكوح. تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.
الوهم	الخيال.
الفهم	تصور الحقيقة.

٤ معنى كلام الطحاوي: «لا تبلغه الأوهام ولا تدركه الأفهام»:

إن الله تعالى لا يحيط به أحد من خلقه، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠]. فلا تبلغه الظنون والأفكار والتخيلات والتصورات، ولا يعرف أحد من خلقه كنه ذاته، كما أنه لا يشبه أحداً من خلقه لا في ذاته، ولا في صفاته ولا في أفعاله ﷻ، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

٥ قصد الطحاوي بالعبارة: «لا تبلغه الأوهام ولا تدركه الأفهام» الرد على الممثلة والمعطلة:

أشار الطحاوي بعبارته السابقة إلى الرد على أهل التمثيل والتعطيل، لأن أهل التمثيل بنوا اعتقادهم الباطل على الوهم، فتوهموا أن صفات الخالق مثل صفات المخلوق، وأنه لا بد في الإثبات من التماثل، وأما أهل التعطيل فظنوا أنهم أصحاب العقل والفهم، فوقعوا في التعطيل، وذلك لأن أسماء الله تعالى وصفاته لا تعرف بالعقل والظنون، وإنما بالوقوف على نصوص الكتاب والسنة.

٦ تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠]:

أي أن الخلق لا يحيط أحد منهم بشيء من علم الله ﷻ ومعلوماته، فمنها ما أطلعهم الله عليه من الأمور الشرعية والقدرية وهو جزء يسير جداً مضمحل في

علوم الباري ومعلوماته[١].

والله ﷻ لا يعلم كيف هو إلا هو ﷻ، وإنما نعرفه ﷻ بصفاته.

٧ معنى كلام الطحاوي: «ولا يشبه الأنام»:

عبارة الطحاوي تقدمت في قوله: «ولا شيء مثله» إلا أن التعبير بنفي التمثيل أولى لعدم ورود نفي التشبيه بإطلاق في الكتاب والسنة، وإنما الوارد هو نفي التمثيل، وسبيل أهل السنة والجماعة الالتزام بالألفاظ الشرعية المنصوص عليها، فهو سبحانه منزه عن مشابهة الخلق، وإن كانت بعض أسمائه وصفاته تشترك مع أسماء وصفات الخلق في اللفظ والمعنى، لكن في الحقيقة والكيفية لا تشابه بينهما[٢].

٨ المعطلة مرادهم بنفي التشبيه نفي الصفات:

أهل السنة والجماعة لا يدخلون نفي الصفات الواردة في الكتاب والسنة في التنزيه، ولا يصفونه بالسلب المحض، بل مرادهم أنه لا يشبه المخلوق في أسمائه وصفاته وأفعاله.

قال الإمام أبو حنيفة: «لا يشبه شيئاً من خلقه، ولا يشبهه شيء من خلقه، ثم قال بعد ذلك: وصفاته كلها خلاف صفات المخلوقين يعلم لا كعلمنا، ويقدر لا كقدرتنا، ويرى لا كرؤيتنا.

وأما المعطلة فمقصودهم بنفي التشبيه نفي الصفات الواردة في الكتاب والسنة، فكل من أثبت الصفات الواردة في الكتاب والسنة فهو مشبه عندهم.

٩ معنى التشبيه:

التشبيه في اللغة: دلالة على مشاركة أمر لآخر في معنى، فالأمر الأول هو المشبه، والثاني هو المشبه به، وذلك المعنى وجه الشبه[٣].

والمشبهة هم قوم يشبهون الله تعالى بالمخلوقات، ويمثلونه بالمحدثات.

قال القونوي: «قال كثير من أئمة السلف: علامة الجهمية تسميتهم أهل السنة مشبهة، فإنه ما من أحد نفى شيئاً من الأسماء والصفات إلا يسمي المثبت لها

---

(١) انظر: تفسير السعدي، تفسير آية الكرسي.

(٢) انظر: التعليقات المختصرة على الطحاوية للفوزان (ص٣٧).

(٣) التعريفات للجرجاني (ص٥٨).

مشبهاً، حتى بعض المفسرين كعبد الجبار والزمخشري وغيرهما من المعتزلة والرافضة يسمون كل من أثبت شيئاً من الصفات أو قال برؤية الذات مشبهاً. والمشهور عند الجمهور من أهل السنة والجماعة أنهم لا يريدون بنفي التشبيه نفي الصفات، بل يريدون أنه سبحانه لا يشبه المخلوق في أسمائه وصفاته وأفعاله كما بيَّنه الإمام بياناً شافياً»[1].

(١٠) الفرق بين التشبيه والتمثيل:

الفرق بينهما من وجهين:

١ ـ أن التمثيل ورد نفيه بالنص، وأما التشبيه فمن غير نص.

٢ ـ أن التمثيل فيه المساواة من جميع الوجوه، وأما التشبيه: فهو المساواة من بعض الوجوه.

(١١) وجه بطلان طريقة المتكلمين في التنزيه وذلك بنفي التشبيه:

لا يصح الاعتماد على طريقة المتكلمين في التنزيه على مجرد نفي التشبيه؛ وذلك لوجهين:

١ ـ أنه إذا أريد بالنفي التشابه المطلق، فإن هذا لغو من القول، ولم يقل أحد بتساوي الخالق والمخلوق من كل وجه بحيث يثبت لأحدهما من (الجائز والممتنع) ما يثبت للآخر.

٢ ـ إذا أريد بالنفي نفي التشابه من بعضه الوجوه فهذا النفي لا يصح؛ إذ ما من شيء إلا وبينهما قدر مشترك وقدر مختص يتميز به كل واحد من الآخر، فالحياة مثلاً وصف مشترك بين الخالق والمخلوق، لكن حياة الخالق كاملة من جميع الوجوه لم تسبق بعدم ولا يلحقها فناء بخلاف المخلوق، فإنها حياة ناقصة مسبوقة بعدم متلوة بفناء.

(١٢) حكم الممثلة عند السلف:

حكم الممثلة عند السلف أنهم خارجون عن الملة.

قال نعيم بن حماد: «من شبه الله بشيء من خلقه فقد كفر، ومن أنكر ما وصف الله به فقد كفر، وليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيه».

---

(١) شرح الفقه الأكبر للقاري (ص٢٤ ـ ٢٥).

وقال إسحاق بن راهويه: علامة جهم وأصحابه: دعواهم على أهل السنة والجماعة أنهم مشبهة، بل هم المعطلة.

وقال: «إنما يكون التشبيه إذا قال: يد مثل يدي، أو سمع مثل سمعي، فهذا تشبيه، وأما إذا قال كما قال الله: يد وسمع وبصر، فلا يقول مثل، فهذا لا يكون تشبيهاً عنده، قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١][١]».

وقال الطحاوي: ومن وصف الله بمعنى من معاني البشر فقد كفر.

١٣ معنى كلام الطحاوي: «حي لا يموت قيوم لا ينام»:

إن لله ﷻ الحياة الكاملة التي لا يعتريها نقص، فالموت والنوم والسِّنة نقص في الحياة، لذلك فالله ﷻ منزه عنها، و«القيوم» هو القائم بنفسه، فلا يحتاج إلى شيء، وغني عن كل شيء، والقيم لغيره، فكل شيء مفتقر إليه ويحتاج إليه.

فالله ﷻ حي لا يدركه الموت، وهو قيوم لا تأخذه سنة ولا نوم، وإلا اختلت موازين الكون كله، بل هو القائم على أمور ملكه، وفي هذا كله رد على المشبهة الذين شبهوا الله تعالى بخلقه فكفروا بذلك.

١٤ تفسير قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]:

هذان الاسمان الكريمان يدلان على سائر الأسماء الحسنى دلالة مطابقة وتضمناً ولزوماً، فالحي من له الحياة الكاملة المستلزمة لجميع صفات الذات كالسمع والبصر والعلم والقدرة ونحو ذلك. والقيوم هو الذي قام بنفسه وقام به غيره وذلك مستلزم لجميع الأفعال التي اتصف بها رب العالمين من فعله ما يشاء من الاستواء والنزول والكلام والقول والخلق والرزق والإماتة والإحياء، وسائر أنواع التدبير، كل ذلك داخل في قيومية الباري، ولهذا قال بعض المحققين: إنهما الاسم الأعظم الذي إذا دعي الله به أجاب وإذا سئل به أعطى[٢].

(١) نقله عنه الترمذي في جامعه (٣ ـ ٤٢)، شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٢/ ٥٣٢).
(٢) انظر: تفسير السعدي، سورة البقرة: آية الكرسي.

(١٥) مدار الأسماء والصفات على هذين الاسمين «الحي القيوم»:

فاسم الله: «الحي» يرجع إليه كل كمال يتعلق بذاته، واسمه: «القيوم»: يرجع إليه كل كمال يتعلق بأفعاله، وهما اسما الله الأعظم الذي إذا سئل بهما أعطى، وإذا دعي بهما أجاب.

(١٦) علامة الجهمية عند أهل السنة والجماعة:

علامتهم دعواهم الباطلة ضد أهل السنة، وهي ما أولعوا به من الكذب في قولهم: إن أهل السنة مشبهة مجسمة، وقال كثير من السلف: علامة الجهمية: تسميتهم أهل السنة مشبهة، وكذلك يسمون أهل السنة حشوية ومجسمة وغير ذلك.

وقال إسحاق بن راهويه: علامة جهم وأصحابه: دعواهم على أهل السنة والجماعة أنهم مشبهة، بل هم المعطلة.

(١٧) المبتدعة يرمون أهل السنة بأقبح الألفاظ للتنفير من مذهب أهل السنة:

رمى المبتدعة أهل السنة والجماعة بعدة أوصاف مذمومة، منها أنهم يقولون لأهل السنة مشبهة ومجسمة وحشوية، والسبب في ذلك أنه ما من أحد من نفاة شيء من الأسماء أو الصفات إلا ويسمي المثبت لها مشبهاً، فمن أنكر أسماء الله بالكلية من غالية الزنادقة والفلاسفة وقال: إن الله لا يقال له عالم ولا قادر يزعم أن من سماه بذلك فهو مشبه؛ لأن الاشتراك في الاسم يوجب عنده الاشتباه في المعنى. ومن أثبت الاسم وقال إنه مجاز كغلاة الجهمية يزعم أن من قال إن الله عالم حقيقة قادر حقيقة قال إنه مشبه، ومن أنكر الصفات كعموم المعتزلة ونحوهم قال لمن أثبت الصفات إنه مشبه مجسم حشوي.

(١٨) المعطلة والممثلة يستخدمون الأقيسة في حق الله:

استعمل أهل البدع أقيسة باطلة في حق الله تعالى، منها: القياس التمثيلي الذي يستوي فيه الأصل والفرع، ومنها: القياس الشمولي الذي يستوي أفراده، وكل هذه الاستعمالات لا تجوز؛ فإن الله ليس كمثله شيء، فلا يجوز أن يمثل بغيره، ولا يجوز أن يدخل هو وغيره تحت قضية كلية يستوي أفرادها، ولكن يستعمل في حق الله تعالى «قياس الأولى» سواء كان تمثيلاً أو شمولاً، كما قال الله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠] ومفاده أن كل كمال ثبت للمخلوق

وجاز أن يتصف به الخالق، فالخالق أولى به، وكل نقص تنزه عنه العبد أو نفي عن العبد فالرب أولى بأن يتنزه عنه وينفى عنه.

١٩ الممثل يعبد صنماً والمعطل يعبد عدماً:

فالممثل: اعتقد أو تصور في ذهنه صورة لربه نحتها من خياله، وزعم أنها في الحقيقة ما دلت عليه نصوص الكتاب والسنة، ثم عبدها من دون الله، فهو في الحقيقة يعبد صنماً.

أما المعطل: فلأن اعتقاده مبني على النفي المحض المفرغ من الإثبات والتنكر لمعظم الصفات، فهو لا يثبت شيئاً كما تقدم كان كالذي لا يعبد إلا العدم المحض.

٢٠ الخلاصة:

١ - قصد الطحاوي بالعبارة: «لا تبلغه الأوهام ولا تدركه الأفهام» الرد على الممثلة والمعطلة.

٢ - المعطلة مرادهم بنفي التشبيه نفي الصفات.

٣ - هناك فرق بين التشبيه والتمثيل.

٤ - حكم الممثلة عند السلف أنهم خارجون عن الملة.

٥ - مدار الأسماء والصفات على هذين الاسمين: «الحي القيوم».

٦ - علامة الجهمية عند أهل السنة والجماعة، تسميتهم أهلم السنة بأنهم حشوية ومشبهة.

٧ - المبتدعة يرمون أهل السنة بأقبح الألفاظ للتنفير من مذهب أهل السنة.

٨ - المعطلة والممثلة يستخدمون الأقيسة في حق الله.

٩ - الممثل يعبد صنماً والمعطل يعبد عدماً.

٢١ المناقشة:

- **س١:** ما غرض المصنف من عقد هذا الباب؟
- **س٢:** قال الطحاوي: «لا تبلغه الأوهام ولا تدركه الأفهام»، وضِّح الفرق بين الوهم والفهم.
- **س٣:** ما الذي ينبغي أن يوصف به الرب ﷻ؟ وعلى أي طريقة؟
- **س٤:** اذكر خلاصة قول أبي حنيفة في نفي التشبيه وقوله في الصفات.
- **س٥:** ما المقصود بقول الطحاوي: «ولا يشبه الأنام»؟

- **س٦:** ما علامة الجهمية عند أهل السنة والجماعة؟
- **س٧:** اذكر بعضاً مما يرمي به المبتدعة أهل السنة من الألفاظ، وما الداعي لهم إلى ذلك؟
- **س٨:** ما حكم استعمال الأقيسة في حق الله تعالى. فصل القول في ذلك.
- **س٩:** ما مراد المعطلة بنفي التشبيه؟
- **س١٠:** ما حكم المشبهة عند السلف؟
- **س١١:** بيّن كيف يكون مدار الأسماء والصفات على هذين الاسمين «الحي القيوم»؟

إثبات الصفات (الخلق والرزق)
ومن الصفات الفعلية أنه يحيي ويميت

* كلام ابن أبي العز.

١ ـ غرض المصنف من عقد هذا الباب.

٢ ـ مناسبة هذا الباب لما سبق.

٣ ـ معاني الكلمات.

٤ ـ معنى كلام الطحاوي: «خالق بلا حاجة، رازق بلا مؤونة».

٥ ـ معنى كلام الطحاوي: «مميت بلا مخافة، وباعث بلا مشقة».

٦ ـ أنواع الرزق.

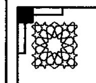
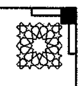
٧ ـ هل يشمل الرزق الحلال والحرام.

٨ ـ هل يزيد الرزق وينقص؟

٩ ـ الموت صفة وجودية.

١٠ ـ الخلاصة.

١١ ـ المناقشة.

إثبات الصفات (الخلق والرزق) ومن الصفات الفعلية أنه يحيي ويميت

قال ابن أبي العز:

قوله: «خَالِقٌ بلا حَاجَةٍ، رَازِقٌ بلا مؤونة».

ش: قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات: ٥٦ ـ ٥٨]، ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [فاطر: ١٥]، ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ [محمد: ٣٨]، ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ [الأنعام: ١٤].

وقال ﷺ من حديثِ أبي ذر رضي الله عنه: «يَا عِبَادِي! لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلى أَتقى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ منكم ما زَادَ ذَلك في مُلْكِي شَيْئاً، يَا عِبَادِي! لَو أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وإِنْسَكُمْ، وجِنَّكُمْ كَانُوا عَلى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُم، مَا نَقَصَ ذَلِكَ في مُلْكِي شيئاً، يَا عِبَادِي! لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قامُوا في صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَسَأَلُونِي، فأعطيتُ كُلَّ إنسانٍ مسألتَهُ، ما نَقَصَ ذلك مما عندِي إلا كما يَنْقُصُ المِخْيَطُ إذا أُدخِلَ البَحَر» الحديث رواه مسلم[١].

وقوله: بلا مؤونة: بلا ثِقَلٍ ولا كُلْفَةٍ.

قوله: «مُمِيتٌ بلا مَخَافَةٍ، بَاعِثٌ بلا مَشَقَّةٍ».

ش: الموتُ صِفة وُجودية[٢]، خلافاً للفلاسفة ومَنْ وافقهم. قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]، والعَدَمُ لا يُوصَفُ بكونه مخلوقاً، وفي الحديث: (إِنَّه يُؤتَى بالمَوتِ يَومَ القيامةِ على صورةِ كَبْشٍ أَمْلَحَ،

(١) أخرجه مسلم (٢٥٧٧).

(٢) انظر: تفسير أبي السعود (٥/ ٣٥٦).

فيُذبَحُ بين الجنَّةِ والنَّار)[١]. وهو وإن كان عَرَضاً فالله تعالى يَقْلِبُه عيناً، كما وَرَدَ في العمل الصالح: (أنَّه يأتي صَاحِبَه في صُورَةِ الشَّابِّ الحَسَنِ، والعَمَل القبيح على أقبحِ صورةٍ)[٢].

ووَرَد في القرآن: (أنَّه يَأتِي على صُورَةِ الشَّابِّ الشَّاحِبِ[٣] اللَّونِ)[٤]، الحديث أي قراءة القارئ، ووَرَد في الأعمال: «أنَّها تُوضَعُ في الميزانِ»[٥]، والأعيانُ هي التي تَقْبَلُ الوزنَ دونَ الأعراضِ، ووَرَد في سورة البقرة وآل عمران: أنهما يَوْمَ القِيامَةِ: (يُظِلَّانِ صاحِبَهما كأنَّهما غَمامَتَانِ[٦] أو غَيَايَتَانِ[٧] أو فِرْقَانِ[٨] مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ)[٩].

وفي الصحيح: (أنَّ أعمالَ العِبادِ تَصْعَدُ إلى السَّماءِ)[١٠]، وسيأتي الكلامُ على البعث والنشور إن شاء الله تعالى.

(١) أخرجه البخاري (٤٧٣٠)، ومسلم (٢٨٤٩).
(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٢٨٧)، والحاكم (١/ ٣٧) وصححه.
(٣) معنى (الشاحب) المتغير اللون.
(٤) أخرجه ابن ماجه (٣٧٨١)، وأحمد (٥/ ٣٤٨).
(٥) أخرجه الترمذي (٢٦٤١)، وابن ماجه (٤٣٠٠).
(٦) الغمامة: السحابة.
(٧) الغيابة: كل شيء أظل الإنسان فوق رأسه.
(٨) الفِرقان: بكسر الفاء القطيعتان.
(٩) أخرجه أحمد (٥/ ٣٤٨).
(١٠) أخرجه البخاري (٧٩٩).



عناصر الموضوع:

١ غرض المصنف من عقد هذا الباب:

غرض المصنف من عقد هذا الباب: تقرير مذهب أهل السنة والجماعة في إثبات اسمين من أسماء الله وهما الخالق والرازق، فمن أسمائه: الخالق، ومن أسمائه: الرازق، وهو خالق بلا حاجة إلى أحد، كامل لا يحتاج إلى أحد سبحانه، والغني عن كل ما سواه، ورازق جميع الخلق بلا كلفة ولا مشقة.

ومن صفاته الفعلية أنه يحيي ويميت من شاء من عباده، وباعث بلا مشقة.

٢ مناسبة هذا الباب لما سبق:

بعد ما قرر المصنف في الباب السابق عقيدة أهل السنة والجماعة في اسمين من أسماء الرب ألا وهما: الحي والقيوم، ناسب أن يقرر عقيدة أهل السنة والجماعة في اسمين آخرين من أسماء الله، ألا وهما الخالق والرازق، ومن صفاته الفعلية أنه يحيي ويميت، فهو يميت من يشاء من عباده بلا مخافة أحد، وباعث بلا مشقة.

٣ معاني الكلمات:

الكلمة	المعنى
بلا مؤونة	بلا ثقل ولا كلفة.
بلا مشقة	بلا تعب ولا جهد.

٤ معنى كلام الطحاوي: «خالق بلا حاجة رازق بلا مؤونة»:

إن الله تعالى لم يخلق الخلق لحاجته إليهم، ولا لرغبته في الاستعانة بهم، وإنما خلقهم لعبادته، وهو الرازق لهم دون تعب ومشقة، كما قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ۝٥٨﴾ [الذاريات: ٥٦ ـ ٥٨]، وهو سبحانه يرزق جميع خلقه

من إنس، مؤمن وكافر، وجن وطير ووحش وغيرهم، ويعطي كل واحد مسألته من غير أن ينقص ذلك من ملكه شيئاً.

٥ معنى كلام الطحاوي: «مميت بلا مخافة وباعث بلا مشقة»:

يقصد الشيخ رحمه الله تعالى أن الله ﷻ هو الذي بيده الموت، يميت من يشاء من خلقه بلا مخافة من عاقبته، ذلك كما قال ﷻ: ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾﴾ [الشمس: ١٥].

وهو سبحانه الذي يبعث خلقه يوم القيامة دون مشقة ولا عناء، وأما موقف أهل السنة والجماعة من الموت فهم يقولون: إن الموت صفة وجودية، خلافاً للفلاسفة ومن وافقهم، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]، والعدم لا يوصف بكونه مخلوقاً، وفي الحديث: **(أنه يؤتى بالموت يوم القيامة في صورة كبش أملح، فيذبح بين الجنة والنار)**[(١)]، وهو وإن كان عرضاً فالله تعالى يقلبه عيناً يوم القيامة فيصبح شيئاً حسياً.

٦ أنواع الرزق:

الرزق على نوعين:

١ ـ رزق عام: يشترك فيه المؤمن والكافر والبر والفاجر، وسائر من خلق الله تعالى، قال سبحانه: ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾﴾ [هود: ٦].

٢ ـ رزق خاص، وهو العلم النافع والعمل الصالح يهبه الله لمن يشاء من عباده.

٧ هل يشمل الرزقُ الحلالَ والحرامَ:

الحلال والحرام رزق من الله تعالى، إلا أن الشيء المأذون به حلال، وغير المأذون به حرام حكماً، وجميع ذلك رزق.

٨ هل يزيد الرزق وينقص؟

إن ما علمه الله تعالى أن يرزقه العبد فهو لا يتغير، وأما ما كتب وأعلم به الملائكة فهو يزيد وينقص بحسب الأسباب، وكل ذلك بعلم الله.

٩ الموت صفة وجودية:

الموت صفة وجودية خلافاً للفلاسفة، فإنهم يقولون: الموت صفة[(٢)] عدمية،

---

(١) أخرجه البخاري (٤٧٣٠)، ومسلم (٢٨٤٩).

(٢) انظر: المسائل الاعتزالية في تفسير الكشاف (٢/ ١٠٢١).

والصواب أن الموت صفة وجودية، والدليل على أنه صفة وجودية قول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]، والمعدوم لا يوصف بكونه مخلوقاً، والله ﷻ خلق الموت كما دل الدليل من الكتاب والسنة وكما في الآية السابقة، ويدل على أن الموت صفة وجودية حديث النبي ﷺ حيث قال: (**يؤتى يوم القيامة بالموت على صورة كبش أملح، فيذبح بين الجنة والنار فيقال: يا أهل الجنة! خلود، ولا موت، ويقال: يا أهل النار! خلود، ولا موت، فيزداد أهل الجنة نعيماً إلى نعيمهم، ويزداد أهل النار حسرة إلى حسرتهم**)[١].

وهذا بعد إخراج عصاة الموحدين من النار، والموت وإن كان عَرَضاً إلا أن الله يقلبه عيناً، لأن الله على كل شيء قدير[٢].

(١٠) الخلاصة:

١ ـ الرزق نوعان: عام، وخاص.

٢ ـ الحلال والحرام رزق من الله تعالى.

٣ ـ الموت صفة وجودية.

(١١) المناقشة:

- **س١:** ما غرض المصنف من عقد هذا الباب؟
- **س٢:** ما المقصود بقول الطحاوي: «خالق بلا حاجة، رازق بلا مؤونة»؟.
- **س٣:** ما معنى قول الطحاوي: «مميت بلا مخافة، باعث بلا مشقة»؟
- **س٤:** ما أنواع الرزق؟
- **س٥:** هل الرزق يشمل الحلال الحرام؟
- **س٦:** هل الرزق يزيد وينقص؟
- **س٧:** هل الموت صفة وجودية أم صفة عدمية؟ وضح ذلك مع ذكر الأدلة لما تقول.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٧٣٠)، ومسلم (٢٨٤٩).

(٢) انظر: الهداية الربانية (ص٣٠).

اتصاف الرب تعالى بصفات الكمال
أزلاً وأبداً

* كلام ابن أبي العز:

١ ـ غرض المصنف من عقد هذا الباب.

٢ ـ مناسبة هذا الباب لما سبق.

٣ ـ معاني الكلمات.

٤ ـ معنى كلام الطحاوي: «ما زال بصفاته قديماً قبل خلقه لم يزدد بكونهم شيئاً لم يكن قبلهم من صفته، وكما كان بصفاته أزلياً كذلك لا يزال عليها أبدياً».

٥ ـ أقسام الصفات.

٦ ـ قواعد أهل السنة في الأسماء والصفات.

٧ ـ حلول الحوادث والاستفصال في نفيه.

٨ ـ هل الصفة زائدة على الذات.

٩ ـ معنى قول بعض السلف: الاستواء معلوم والكيف مجهول.

١٠ ـ هل الاسم عين المسمى؟

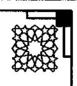
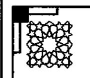
١١ ـ الاستعاذة بالصفات.

١٢ ـ التسلسل وأنواعه.

١٣ ـ مذاهب الناس في أفعال الرب.

١٤ ـ الخلاصة.

١٥ ـ المناقشة.

اتصاف الرب تعالى بصفات الكمال أزلاً وأبداً

قال ابن أبي العز:

قوله: «مَا زالَ بصِفاتِه قَديماً قَبْلَ خلقه، لَم يَزْدَدْ بِكونِهم شيئاً لم يَكُنْ قَبْلَهم مِن صِفَتِه، وكَما كَانَ بِصِفاتِه أزلِيّاً، كذلك لا يزالُ عَليها أبدِيّاً».

ش: أي أنَّ الله ﷻ لم يَزَلْ مُتَّصفاً بصفات الكمال: صفاتِ الذات، وصفاتِ الفعل، ولا يَجوزُ أنْ يعتقد أن الله وُصِف بصفةٍ بعد أن لم يكن متصفاً بها؛ لأن صفاتِه سبحانه صفاتُ كمال، وفقدها صفةُ نَقْص، ولا يَجوزُ أن يكونَ قد حَصَل له الكمالُ بعد أن كان متصفاً بضِدِّه، ولا يَرِدُ على هذه صفات الفعل، والصفات الاختيارية، ونحوها، كالخَلْق والتصوير، والإماتةِ والإحياءِ، والقبضِ، والبسطِ، والطَّيِّ، والاستواءِ، والإتيانِ والمجيءِ، والنزول، والغضب، والرضى، ونحو ذلك مما وَصَف به نفسَه، ووَصَفه به رسولُه، وإن كنا لا نُدْرِك، كُنْهَهُ وحقيقتَه التي هي تأويلُه، ولا نَدخُل في ذلك متأوِّلين بآرائنا، ولا متوهِّمين بأهوائنا، ولكن أصلُ معناه معلومٌ لنا، كما قال الإمام مالك ﷺ لما سُئِلَ عن قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤] كيف استوى؟ فقال: الاستواءُ معلومٌ، والكيف مجهول.

وإن كانت هذه الأحوال تَحدُثُ في وقت دونَ وقت، كما في حديث الشفاعة: (إنَّ ربِّي قد غَضِبَ اليومَ غَضَباً لم يَغْضَبْ قَبلَهُ مثلَه، ولَنْ يَغْضَبْ بَعدَه مِثْلَهُ)، لأن هذا الحدوث بهذا الاعتبار غيرُ ممتنع، ولا يُطلَقُ عليه أنه حدث بعدَ أن لم يكن، ألا ترى أن مَنْ تكلَّم اليومَ وكان متكلماً بالأمسِ لا يُقال: إنه حَدَثَ له الكلامُ، ولو كان غيرَ متكلم لآفةٍ كالصِّغَر والخَرَسِ، ثم تكلَّم يقال: حَدَثَ له الكلامُ، فالساكِتُ لغير آفةٍ يُسمَّى متكلِّماً بالقوة، بمعنى أنه يَتكلَّم إذا شاء، وفي حالِ تكلُّمِه يُسمَّى متكلِّماً بالفعل، وكذلك الكاتبُ في حالِ الكتابةِ هو كاتبٌ بالفعل، ولا يَخرُجُ عن كونه كاتباً في حال عدمِ مباشرته للكتابة.

وحلولُ الحوادث بالربِّ تعالى، المنفيُّ في علم الكلامِ المذمومِ، لم يَرِد نفيُه

ولا إثباتُه في كتاب ولا سنة، وفيه إجمالٌ، فإن أُريدَ بالنفي أنَّه سبحانَه لا يَحِلُّ في ذاته المقدسة شيءٌ من مخلوقاته المحدثة، أو لا يَحدُثُ له وصف متجدِّد لم يكن، فهذا نفيٌ صحيح، وإن أُريد به نفيَ الصفاتِ الاختيارية من أنه لا يَفعَلُ ما يُريدُ، ولا يتكلَّم بما شاء إذا شاء، ولا أنه يَغضَبُ ويَرضى لا كأحدٍ من الورى، ولا يُوصَف بما وَصَف به نفسه مِن النزولِ والاستواءِ والإتيانِ كما يَليق بجلاله وعظمته، فهذا نفيٌ باطل.

وأهلُ الكلامِ المذمومِ يُطلقون نَفي حلولِ الحوادث، فيُسَلِّمُ السُّنِّيُّ للمتكلم ذلك، على ظنِّ أنه نفي عنه سبحانه ما لا يَليقُ بجلاله، فإذا سلَّمَ له هذا النفيَ، ألزمه نفيَ الصِّفاتِ الاختيارية وصفاتِ الفعل، وهو لازمٌ له، وإنما أُتِيَ السُّنِّيُّ مِن تسليم هذا النفي المُجْمَلِ، وإلا فلو استَفْسَرَ واستفصل، لم يَنقطِعْ معه.

وكذلك مَسْأَلَةُ الصفة: هل هي زائدةٌ على الذات أم لا؟ لفظُها مجملٌ، وكذلك لفظُ «الغير»[1] فيه إجمالٌ، فقد يُراد به ما ليس هو إيَّاه، وقد يُراد به ما جاز مفارقته له.

ولهذا كان أئمةُ السنة رحمهم الله تعالى لا يُطلِقُون على صفات الله وكلامه أنه غيرهُ، ولا أنه ليس غيرَه؛ لأن إطلاق الإثبات قد يُشعِرُ أن ذلك مباين له، وإطلاقَ النفي قد يُشعر بأنه هو هو؛ إذ كان لفظُ الغيرِ فيه إجمالٌ، فلا يُطلَقُ إلا مع البيانِ والتفصيلِ، فإن أُريدَ به أنَّ هناك ذاتاً مجردةً قائمةً بنفسها، منفَصِلَةً عن الصفاتِ الزائدة عليها، فهذا غيرُ صحيح، وإن أُريدَ به أن الصفاتِ زائدةٌ على الذات التي يُفْهَمُ مِن معناها غيرُ ما يُفهم من معنى الصفة، فهذا حقٌّ، ولكن ليس في الخارجِ ذَاتٌ مجرَّدَةٌ عن الصفات، بل الذَّاتُ الموصوفةُ بصفاتِ الكمالِ الثابتةِ لها لا تَنفصلُ عنها، وإنما يَفرِضُ الذِّهْنُ ذاتاً وصفةً كلّاً وَحدَهُ، ولكن ليس في الخارجِ ذاتٌ غيرُ موصوفة، فإن هذا محال، ولو لم يكن إلا صفة الوجودِ، فإنها لا تَنفَكُّ عن الموجودِ، وإن كان الذِّهْنُ يَفرِضُ ذاتاً ووجوداً، يتَصَوَّرُ هذا وحدَه، وهذا وَحدَهُ، لكن لا يَنفَكُّ أحدُهما عن الآخر في الخارج.

---

(١) لفظ (الغير) من الألفاظ المجملة التي يحتاج فيها إلى تفصيل فإن أراد أن صفات الله تنفصل عن ذاته سبحانه فهذا باطل؛ لأن الصفات قائمة بذات الموصوف لا تنفصل عنه وإن أراد القائل: أن الصفات ليست هي نفس وعين الله فهذا صحيح والذات لأن الصفات شيء والذات شيء آخر.

وقد يقولُ بعضُهم: الصِّفةُ لا عينُ الموصوف ولا غيرُه. هذا له معنى صحيح، وهو: أن الصفةَ ليست عينَ ذات الموصوف التي يَفرِضُها الذهن مجردةً بل هي غيرُها، وليست غيرَ الموصوف، بل الموصوفُ بصفاته شيء واحدٌ غيرُ متعدد.

والتحقيقُ أن يُفرَّق بينَ قولِ القائلِ: الصفاتُ غير الذات، وبينَ قوله: صفاتُ الله غيرُ اللهِ، فإنَّ الثاني باطلٌ؛ لأن مسمَّى الله يَدخُلُ فيه صفاتُه بخلاف مسمَّى الذات، فإنه لا يَدخُل فيه الصفات؛ لأنَّ المرادَ أن الصفات زائدةٌ على ما أثبته المثبتون مِن الذات، والله تعالى هو الذاتُ الموصوفةُ بصفاتِه اللازمة، ولهذا قال الشيخ رحمه الله: «ولا زال بصفاته» ولم يقُلْ: لا زال وصفاته؛ لأن العطف يُؤذِنُ بالمغايرة، وكذلك قال الإمامُ أحمد رضي الله عنه في مناظرته الجهمية، لا نقولُ: الله وعلمه، الله وقدرته، الله ونوره، ولكن نقول: الله بعلمه وقدرته ونوره إله واحد سبحانه وتعالى.

فإذا قلتُ: أعوذ بالله، فقد عُذْتُ بالذاتِ المقَدَّسَةِ الموصوفةِ بصفاتِ الكمال المقدسة الثابتة التي لا تَقْبَلُ الانفِصالَ بوجهٍ من الوجوه.

وإذا قلتُ: أعوذ بعزة الله، فقد عُذْتُ بصفةٍ من صفاتِ الله تعالى، ولم أَعُذْ بغيرِ الله.

وهذا المعنى يُفْهَمُ من لفظ الذات[1]، فإن «ذات» في أصلِ معناها لا تُستَعملُ إلا مضافة، أي: ذات وجود، ذات قدرة، ذات عِزٍّ، ذات عِلم، ذات كرم، إلى غير ذلك من الصفات، فـ «ذاتُ كذا» بمعنى «صاحبة كذا» تأنيث ذو، هذا أصلُ معنى الكلمة.

فعُلِمَ أن الذات لا يُتصوَّر انفصالُ الصفاتِ عنها بوجهٍ من الوجوه، وإن كان الذِّهْنُ قد يفرِض ذاتاً مجردةً عن الصفات؛ كما يَفرضُ المُحالَ، وقد قال صلى الله عليه وسلم: (أَعوذُ بِعِزَّةِ الله وقُدْرَتِهِ مِنْ شَرِّ مَا أَجِدُ وَأُحَاذِرُ)[2]، وقال صلى الله عليه وسلم: (أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَق)[3]، ولا يعوذ بغير الله. وكذا قال صلى الله عليه وسلم: (اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ، وأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ»[4]. وقال صلى الله عليه وسلم:

---

(١) لفظ «ذات» هي تأنيث لـ«لذو» لا تستخدم إلا مضافة يتوصل بها إلى الوصف بأسماء الأجناس ويضاف إلى الظاهر دون الضمير، انظر: الفتاوى (٦/ ٩٨)؛ والصواعق (٤/ ١٣٨٢).

(٢) أخرجه مسلم (٢٢٠٢). (٣) أخرجه مسلم (٢٧٠٨).

(٤) أخرجه مسلم (٤٨٦).

(وَنَعُوذُ بِعَظَمَتِكَ أَنْ نُغْتَالَ مِنْ تَحتِنَا)[١]. وقال ﷺ: (أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ الذِي أَشْرَقَتْ لَه الظُّلماتُ)[٢].

وكذلك قولُهم: الاسمُ عينُ المسمَّى أو غيرُه؟ وطالما غَلِطَ كثيرٌ مِنَ الناسِ في ذلك، وجَهلُوا الصَّوَابَ فيه، فالاسمُ يُرَادُ به المسمَّى تارةً، ويُرادُ به اللَّفظُ الدَّالُ عليه أخرى، فإذا قُلتَ: قال الله كذا، أو سَمِعَ اللهُ لمن حمدَه، ونحو ذلك، فهذا المرادُ به المسمَّى نفسُه، وإذا قلتَ؛ الله: اسمٌ عربي، والرحمنُ: اسمٌ عربي، والرحيم من أسماء الله تعالى ونحو ذلك، فالاسمُ ها هنا هو المراد لا المسَمَّى. ولا يُقال: «غيرُهُ»، لما في لفظ «الغير» من الإجمال، فإن أريدَ بالمغايرةِ أن اللفظ غَيرُ المعنى فَحَقٌّ، وإن أُريدَ أن الله سبحانه كان ولا اسْمَ له، حتى خلق لِنفسه أسماءً، أو حتى سمَّاه خلقُه بأسماء من صنعهم، فهذا مِن أَعظم الضلال والإلحاد في أسماء الله تعالى.

والشيخُ رَحِمَهُ اللهُ أشار بقوله: «ما زالَ بصفاته قديماً قبلَ خلقه» إلى آخر كلامه إلى الردِّ على المعتزلة والجهمية ومَنْ وافقهم مِن الشيعة، فإنَّهم قالوا: إنه تعالى صار قادراً[٣] على الفعل والكلام بَعدَ أنْ لم يكن قادراً عليه، لِكونه صار الفِعلُ والكلامُ ممكناً بعد أن كان ممتنعاً، وأنه انقلَبَ مِن الامتناع الذاتي إلى الإمكانِ الذاتي[٤]! وعلى ابنِ كُلَّاب والأشعريِّ ومَنْ وافقهما، فإنهم قالُوا: إن الفعل صار ممكناً له بعد أن كان ممتنعاً منه.

وأما الكلامُ عندَهم، فلا يدخل تحتَ المشيئة والقدرة، بل هو شيء واحدٌ، لازِم لذاته.

---

(١) أخرجه أبو داود (٥٠٧٤)، والنسائي (٨/ ٢٨٢)، وابن ماجه (٣٨٧١).
(٢) أخرجه ابن هشام (١/ ٤٢٠)، وابن جرير (١/ ٨٠ ـ ٨١)، وأخرجه الطبراني في الكبير، وقال الهيثمي في المجمع (٦/ ٣٥): وفيه ابن إسحاق وهو مدلس وبقية رجاله ثقات.
(٣) انظر: منهاج السنة (١/ ١٥٦).
(٤) هذا القول باطل وضلال إذ كيف يكون بالخالق الرب غير موصوف بالكلام والفعل، بل كان الكلام والفعل ممتنعاً ثم انقلبا إلى الإمكان من غير حدوث شيء ولا حصول سبب. انظر: كتاب «الصفدية» (٢/ ٨٩).

وأصلُ هذا الكلام[١] مِن الجهمية، فإنَّهم قالوا: إنَّ دَوامَ الحوادثِ ممتنع، وإنه يجبُ أن يكونَ للحوادثِ مبدأ، لامتناعِ حَوادِثَ لا أوَّلَ لها، فيَمتَنِعُ أن يكونَ الباري ﷻ لم يَزَلْ فاعلاً متكلماً بمشيئته، بل يَمتَنعُ أن يكون قادراً على ذلك؛ لأن القُدرَةَ على الممتنع[٢] ممتنعة!

وهذا فاسد، فإنه يَدُلُّ على امتناع حدوثِ العالَم وهو حادث، والحادثُ إذا حَدَث بعد أن لم يكن مُحْدَثاً: فلا بُدَّ أن يكون ممكناً، والإمكانُ ليس له وقتٌ محدود، وما مِنْ وقت يُقَدَّرُ إلا والإمكانُ ثابتٌ فيه، وليس لإمكانِ الفعل وجوازِه وصِحَّتِه مبدأ ينتهي إليه، فيجبُ أنه لم يَزَلِ الفعلُ ممكناً جائزاً صحيحاً، فيلزَمُ أنه لم يَزَلِ الربُّ قادراً عليه، فيلزَمُ جوازُ حوادِثَ لا نهايةَ لأوَّلها.

قالت الجهميةُ ومَنْ وافَقَهم: نحن لا نُسَلِّمُ أن إمكانَ الحوادثِ لا بدايةَ له، لكن نقولُ: إمكانُ الحوادثِ بشَرْط كونِها مسبوقةً بالعدم لا بدايَةَ له، وذلك لأنَّ الحوادثَ عندَنا تَمتَنِعُ أن تكونَ قديمةَ النوع، بل يجِبُ حدوث نوعها، ويمتنِعُ قِدَمُ نوعها، لكن لا يَجِبُ الحدوثُ في وقتٍ بعينه، فإمكانُ الحوادثِ بشرطِ كونها مسبوقةً بالعدم لا أوَّل له، بخلاف جنسِ الحوادث.

فيقالُ لهم: هَبْ أنكم تقولُون ذلك، لكن يُقالُ: إمكانُ جنس الحوادث عندَكم له بدايةٌ، فإنَّه صار جِنْسُ الحدوث عندَكم ممكناً بعد أنْ لم يكن ممكناً، وليس لهذا الإمكانِ وقتٌ معيَّن، بل ما مِن وقت يُفرض إلا والإمكانُ ثابتٌ قَبْلَهُ، فيلزم دَوَامُ الإمكان[٣] وإلا لَزِمَ انقلابُ الجنسِ من الامتناع إلى الإمكان من غير حدوث شيءٍ، ومعلوم أنَّ انقلاب حقيقة جنس الحدوث، أو جنس الحوادث، أو جنس الفعل، أو جنس الأحداث، أو ما أشبه هذا مِنَ العبارات مِن الامتناع إلى الإمكان، وهو يُصيِّر ذلك ممكناً جائزاً بعد أن كان ممتنعاً من غيرِ سبب تجدد، وهذا ممتنعٌ في صريحِ العقل.

---

(١) انظر: منهاج السنة (١/ ١٥٧).

(٢) أي: أن الله لا يقدر على إيجاد حوادث لا أول لها لكون هذا ممتنع فالقدرة عليه ممتنعة عند أهل الكلام.

(٣) خلاصته: أن يقال لهم: هل يمكن أن يخلق الله مُذ كان هو الخالق؟ فإن قالوا نعم يمكن ذلك فقد قالوا بحوادث لا أول لها، انظر: مجموع الفتاوى (٦/ ٢٨٢)؛ وشرح الطحاوية بتعليق العدني (ص١٢٨).

وهو أيضاً انقلابُ الجنسِ من الامتناعِ الذاتي إلى الإمكانِ الذاتي، فإن ذاتَ جنسِ الحوادث عندَهم تَصِيرُ مُمْكِنَةً بعد أن كانت ممتنعةً، وهذا الانقلابُ لا يَخْتَصُّ بوقتٍ مُعَيَّنٍ، فإنَّه ما من وقت يُقَدَّرُ إلا والإمكان ثابتٌ قَبْلَهُ، فيلزَمُ أنه لم يَزَلْ هذا الانقلابُ ممكناً، فيلزَم أنه لم يَزَلِ الممتنعُ ممكناً! وهذا أَبْلَغُ في الامتناعِ من قولنا: لم يَزلِ الحادثُ ممكناً، فقد لَزِمهم فيما فرُّوا إليه أبلغ مما لَزِمَهُمْ فيما فرُّوا منه! فإنَّه يُعْقَلُ كونُ الحادث ممكناً، ويُعقَلُ أن هذا الإمكانَ لم يَزَلْ، وأما كونُ الممتنع ممكناً، فهو ممتنعٌ في نفسه، فكيف إذا قيل: لم يَزَلْ إمكانُ هذا الممتنع؟! وهذا مبسوطٌ في موضعه.

فالحاصل: أن نوعَ الحوادث هل يُمْكِنُ دوامُها في المستقبلِ والماضي أم لا؟ أو في المستقبلِ فَقَطْ؟ أو الماضي فقط؟.

فيه ثلاثةُ أقوالٍ معروفة لأهلِ النظرِ من المسلمين وغيرِهم:

أضعفُها: قولُ مَنْ يَقولُ: لا يُمْكِنُ دوامُها لا في الماضي ولا في المستقبل[1]، كقولِ جَهْمِ بنِ صفوان، وأبي الهُذَيْلِ العلَّاف.

وثانيها: قولُ مَنْ يَقولُ: لا يُمْكِنُ دَوَامُها في المستقبلِ دُونَ الماضي، كقول كثيرٍ من أهل الكلام ومَنْ وافقَهم مِن الفقهاء وغيرِهم.

والثالث: قولُ مَن يقول: يُمْكِنُ دَوامُها في الماضي والمستقبل، كما يقولُه أئمَّةُ الحديثِ، وهي من المسائلِ الكِبَار، ولم يَقُلْ أحد: يُمْكِنُ دوامُها في الماضي دون المستقبل.

ولا شَكَّ أن جمهورَ العالم مِنْ جميعِ الطوائف يقولُون: إن كُلَّ ما سوى الله تعالى مخلوق، كائِنٌ بعدَ أن لم يَكُنْ، وهذا قَوْلُ الرُّسُلِ وأتباعهم مِن المسلمين واليهود والنصارى وغيرهم.

ومن المعلومِ بالفطرة أن كَوْنَ المفعول مقارناً لفاعله ـ لم يَزَلْ ولا يزالُ معه ـ ممتنعٌ محال، ولما كان تَسَلْسُلُ الحوادثِ في المستقبلِ لا يَمنعُ أن يكونَ الرّبُ سبحانه هو الآخِرَ الذي ليس بَعْدَهُ شيء، فكذا تَسَلْسُلُ الحوادِثِ في الماضي لا

---

(١) وحجتهم هي: أنه إذا امتنع في الماضي فيجب أن يكون ممتنعاً في المستقبل.
انظر: منهاج السنّة (١/١٤٦).

يَمْنَعُ أن يَكُونَ ﷻ هو الأولَ الذي ليس قبلَه شيء، فإنَّ الرَّبَّ ﷻ لم يَزَلْ ولا يَزَالُ يَفْعَلُ ما يشاء، ويتكلَّم إذا يشاء، قال تعالى: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ [آل عمران: ٤٠]. وقال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: ٢٥٣]. وقال تعالى: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ۝١٥ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٥، ١٦] وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ [لقمان: ٢٧] وقال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ۝١٠٩﴾ [الكهف: ١٠٩].

والمُثْبَتُ إنما هو الكَمَالُ الممكن الوجود، وحينئذٍ فإذا كان النَّوْعُ دائماً، فالممكن والأكملُ هو التَّقدُّمُ على كُلِّ فردٍ من الأفراد بحيثُ لا يكونُ في أجزاء العالم شيء يُقارِنه بوجه من الوجوه.

وأما دوامُ الفعلِ، فهو أيضاً من الكمال، فإنَّ الفعلَ إذا كان صفةَ كمال، فدوامُه دوامُ الكمال.

قالوا[١]: والتسلسلُ لفظٌ مُجملٌ، لم يَرِدْ بنفيه ولا إثباتِه كتابٌ ولا سنَّةٌ، لِيجِبَ مُراعَاةُ لفظه، وهو يَنقسمُ إلى واجبٍ وممتنع وممكن.

فالتسلسل في المؤثِّرينَ[٢] محالٌ ممتنع لذاته، وهو أن يكونَ مؤثِّرون، كُلُّ واحدٍ منهم استفاد تأثيرَه مما قبلَه لا إلى غاية.

والتسلسلُ الواجبُ[٣]: ما دَلَّ عليه العقلُ والشرعُ مِن دوام أفعالِ الرب تعالى في الأَبَدِ، وإنه كلما انقضى لأهلِ الجنة نَعيمٌ أحدث لهم نعيماً آخر لا نَفَادَ له.

وكذلك التَّسلسلُ في أفعاله سبحانه من طَرَفِ الأزل، وأن كُلَّ فِعْلٍ مسبوق بفعل آخر، فهذا واجبٌ في كلامه، فإنَّه لم يَزَلْ متكلماً إذا شاء، ولم تَحدُثْ له صِفَةُ الكلام في وقتٍ، وهكذا أفعالُه التي هي مِن لوازِمِ حياته، فإنَّ كلَّ حيٍّ فعَّال،

---

(١) هم أهل السنّة، انظر: شفاء العليل (٢/ ١٤، ١٥).

(٢) معنى المؤثرين؛ أي: الفاعلين فمعنى هذا النوع من التسلسل: هو أن يقال لفاعل هذا الكون فاعل ولهذا الفاعل فاعل.. وهذا النوع ممتنع باتفاق العقلاء وقد يسميه بعضهم «تسلسل الفاعلين»، انظر: مجموع الفتاوى (١٦/ ٣٨٦).

(٣) وهو التسلسل في أفعال الرب: وهو أن يكون قبل الكلام كلام وقبل الفعل فعل وهذا النوع جوزه أكثر العقلاء من أهل السنّة، انظر: الفتاوى (١٦/ ٣٨٦).

والفرقُ بين الحي والميت الفعل، ولهذا قال غَيْرُ واحد مِن السلف: الحيُّ الفعَّالُ، وقال عثمانُ بنُ سعيد: كُلُّ حي فعَّال، ولم يكن ربُّنا تعالى قطُّ في وقت من الأوقات معَطَّلاً عن كماله، من الكلام والإرادة والفعل.

وأما التسلسلُ الممكِنُ[1]، فالتسلسلُ في مفعولاته مِن هذا الطرف، كما تتسلسلُ في طَرَفِ الأبَدِ، فإنَّه إذا لم يَزَلْ حيّاً قادراً مريداً متكلماً. وذلك مِن لوازم ذاته. فالفعلُ ممكن له بموجب هذه الصفات له، وأَن يفْعَلَ أكْمَلُ مِن أنْ لا يَفْعَلَ، ولا يَلْزَمُ من هذا أنه لم يَزَلِ الخلقُ معه، فإنه سبحانه متقدِّم على كُلِّ فردٍ من مخلوقاته تقدُّماً لا أوّلَ له، فلكل مخلوق أوّل، والخالقُ سبحانه لا أوَّلَ له، فهو وحدَه الخالقُ، وكل ما سواه مخلوقٌ، كائنٌ بعد أن لم يَكُنْ.

قالوا: وكلُّ قولٍ سوى هذا، فصريحُ العقل يَرُدُّه ويقضي ببُطلانه، وكُلُّ مَنِ اعتَرَفَ بأنَّ الربَّ تعالى لم يَزَلْ قادراً على الفعل لزمه أحدُ أمرين لا بُدَّ له منهما، إما أن يقول بأنَّ الفعل لم يَزَلْ ممكناً وإما أن يقول لم يَزَلْ واقعاً، وإلا تَنَاقَضَ تناقضاً بيِّناً، حيثُ زَعَمَ أن الربَّ تعالى لم يَزَل قادراً على الفعل، والفعلُ محالٌ ممتنع لذاته، لو أراده لم يُمْكِنْ وجودُه، بل فرضُ إرادته عندَه محالٌ وهو مقدور له، وهذا قول يَنقُضُ بعضُه بعضاً.

والمقصودُ: أنَّ الذي دَلَّ عليه الشَّرعُ والعَقْلُ، أن كُلَّ ما سوى اللهِ تعالى مُحْدَثٌ كائنٌ بعد أن لم يكن.

أما كَوْنُ الربِّ تعالى لم يَزَل معطَّلاً عن الفعل، ثم فَعَلَ، فليس في الشرع، ولا في العقل ما يُثبِتُه، بل كِلاهما يَدُلُّ على نقيضه.

وقد أَوردَ أبو المعالي في «إرشاده» وغيرُه من النُّظار على التسلسُلِ في الماضي، فقالوا: لأنك لو قلتَ: لا أُعطِيكَ دِرْهماً إلا أُعْطيكَ بَعْدَهُ دِرْهماً، كان هذا ممكناً[2]، ولو قُلْتَ: لا أُعطِيكَ درهماً حتى أُعْطيكَ قَبْلَهُ دِرهماً، كان هذا

---

(١) ويسمى التسلسل في الآثار: وهو وجود حادث وقبله حادث وهكذا في الماضي، ووجود حادث وبعده حادث وهكذا في المستقبل والسلف يجيزون هذا النوع من التسلسل، انظر: كتاب الأصول التي بنى عليها المبتدعة مذهبهم (٢/ ٣٢٥).

(٢) يعني هذا المثال الذي أثوابه صحيح في تصحيح مسألة تسلسل الحوادث في المستقبل.

ممتنعاً[(١)].

وهذا التمثيلُ والموازنة غيرُ صحيحة، بل الموازنةُ الصحيحة أن تَقولَ: ما أعطيتُك درهماً إلا أعطيتك قَبْلَهُ درهماً، فَتَجْعلَ ماضياً قبلَ ماضٍ، كما جَعلتَ هناك مستقبلاً بعد مستقبلٍ، وأما قولُ القائل: لا أُعْطيكَ حتى أُعطِيَكَ قبلَه، فهو نفي للمستقبل حتى يَحصُلَ في المستقبلِ، ويكون قبلَه، فقد نَفَى المستقبلَ حتى يُوجَدَ المستقبل، وهذا ممتنع، أما نفي الماضي حتى يَكونَ قبلَه ماض، فإن هذا ممكن، والعطاءُ المستقبلُ ابتداؤه مِن المعطي، والمستقبل الذي له ابتداءٌ وانتهاءٌ لا يَكونُ قبْلَه ما لا نهاية له، فإنَّ ما لا نِهَايَةَ له فيما يتناهى ممتنع.

---

(١) وهذا المثال: لا أعطيك درهماً حتى أعطيك قبله درهماً، ضربوه لإبطال التسلسل في الماضي ثم حكموا عليه بالامتناع فالنتيجة عدم التسلسل في الماضي وهذا خطأ وليس بصحيح، انظر: درء التعارض (٢/ ٣٥٩)؛ ومنهاج السنّة (١/ ٤٣٥)؛ وشرح الطحاوية بتعليق العدني ص١٣٤.



عناصر الموضوع:

١ غرض المصنف من عقد هذا الباب:

تقرير أن أهل السنة والجماعة يثبتون الأسماء والصفات لله على وجه الكمال أزلاً، فهو كان ولم يزل متصفاً بصفات الكمال،، ولم يكن فاقداً لشيء من الصفات في وقت من الأوقات، فهو ﷻ متصف بصفات الكمال قبل خلقه للخلق وبعد خلقه للمخلوقات، وإن صفات الكمال إما صفات الذات وإما صفات الأفعال، وإن صفات الأفعال عندهم قديمة النوع حادثة الآحاد؛ يعني نوعها قديم مثل الكلام، فصفة الكلام قديمة النوع وأفراد الكلام حادثة، وإن كان نوع الكلام قديماً.

هذه صفة الأفعال قديمة النوع حادثة الأفعال[١].

٢ مناسبة هذا الباب لما سبق:

بعد ما قرر المصنف في البابين السابقين عقيدة أهل السنة والجماعة في أسماء الله: الخالق والرازق والحيُّ القيوم، وكذا الصفات الفعلية مثل أنه يحيي ويميت، ناسب في هذا الباب أن يقرر أن أهل السنة يثبتون الأسماء والصفات على وجه الكمال من الأزل وإلى الأبد.

٣ معاني الكلمات:

الكلمة	المعنى
الإمكان الذاتي	هو كون الشيء بحيث لا يقتضي ذاته وجوداً أو عدماً.
الامتناع الذاتي	هو ضرورة اقتضاء الذات عدم الوجود الخارجي.
التسلسل	ترتيب أمور غير متناهية.
أزلياً	هو المتناهي في القدم الذي لا بداية له.
أبدياً	الذي يبقى بلا نهاية.
الصفة	هي حالة الشيء على ما هو عليه[٢].

(١) انظر: الهداية الربانية (ص٣١٢). (٢) التعريفات (ص٣٢٦).

(٤) معنى كلام الطحاوي: «ما زال بصفاته قديماً قبل خلقه لم يزدد بكونهم شيئاً لم يكن قبلهم من صفته، وكما كان بصفاته أزلياً كذلك لا يزال عليها أبدياً»:

إن كل صفة من صفات الله تعالى ثابتة له أزلاً من قبل أن يخلق الخلق، وهي صفات كمال، وعدمها نقص، ومحال أن يتصف الله تعالى بالكمال بعد النقص.

وما أضيفت إليه ﷻ صفة بعد أن خلق الناس بل كل صفاته ثابتة له قبل خلقهم، وكما أنه ﷻ أزلي بصفاته فليس له مبتدأ، فكذلك هو أبدي فلا تنقضي هذه الصفات بل هي باقية.

وهو تعالى خالق قبل أن يخلق الخلق متسم بهذا الاسم حتى قبل خلقهم، وليس تسميته بهذا الاسم متوقفاً على حدوث خلقهم فعلاً، فالله منذ الأزل متصف بصفات الكمال منزه عن صفات النقص.

(٥) أقسام الصفات:

تنقسم الصفات الإلهية إلى نوعين: صفات ثبوتية وصفات سلبية.

أما الصفات الثبوتية فهي التي وردت بإثباتها النصوص، وأما الصفات السلبية فهي التي ورد بنفيها نصوص الكتاب والسنة.

الصفات الثبوتية ثلاثة أقسام:

١ ـ صفات ذاتية: وهي اللازمة لذاته أزلاً وأبداً: كالعلم والسمع والبصر.

٢ ـ صفة فعلية: وهي التي يفعلها إذا شاء سبحانه مثل النزول والمجيء. وهي نوعان:

أ ـ فعلية متعدية: كالرحمة.

ب ـ فعلية غير متعدية: كالإتيان والمجيء.

٣ ـ ذاتية فعلية: وهي التي يكون أصلها ونوعها ذاتياً قديماً، لكن أفرادها يفعلها الله تعالى إذا شاء، وذلك مثل صفة الكلام.

وأما الصفات السلبية فهي نوعان:

أ ـ سلبية منفصلة: وذلك مثل نفي الولد ونحوه.

ب ـ سلبية متصلة: وذلك مثل نفي السنة والنوم والموت ونحوه..

(٦) قواعد أهل السنة في الأسماء والصفات:

١ ـ أسماء الله تعالى كلها حسنى.

٢ ـ أسماء الله تعالى أعلام وأوصاف.

٣ ـ أسماء الله تعالى إن دلت على وصف متعد تضمنت ثلاثة أمور:

أ ـ ثبوت ذلك الاسم.

ب ـ ثبوت الصفة التي تضمنها ذلك الاسم.

ج ـ ثبوت حكم ومقتضى الاسم.

٤ ـ دلالة أسماء الله تعالى على ذاته وصفاته تكون بالمطابقة وبالتضمن وبالالتزام.

٥ ـ أسماء الله تعالى وصفاته توقيفية.

٦ ـ أسماء الله تعالى غير محصورة بعدد معين.

٧ ـ إن من أسماء الله تعالى ما يطلق عليه مفرداً ومقترناً بغيره، ومنها ما لا يطلق عليه بمفرده، بل مقروناً بمقابله، كالمانع والضار.

٨ ـ صفات الله تعالى كلها صفات كمال لا نقص فيها بوجه من الوجوه.

٩ ـ باب الصفات أوسع من باب الأسماء.

١٠ ـ صفات الله تعالى تنقسم إلى قسمين ثبوتية وسلبية.

١١ ـ الصفات الثبوتية صفات مدح وكمال، فكلما كثرت وتنوعت دلالتها ظهر من كمال الموصوف بها ما هو أكثر.

١٢ ـ الصفات الثبوتية تنقسم إلى ذاتية وفعلية.

١٣ ـ المضافات إلى الله إن كانت أعياناً فهي من جملة المخلوقات، وإن كانت أوصافاً فهي من صفات الله.

١٤ ـ القول في بعض الصفات كالقول في البعض.

١٥ ـ القول في الصفات كالقول في الذات.

١٦ ـ ظواهر نصوص الصفات معلومة لنا باعتبار المعنى ومجهولة باعتبار الكيفية.

١٧ ـ العلاقة بين الصفات والذات علاقة تلازم.

١٨ ـ علاقة الصفات بعضها ببعض قد تكون مترادفة من حيث المعنى أو متقاربة، كالمحبة والرحمة والفرح والضحك، وهناك صفات متقابلة كالرفع والخفض، وهناك صفات متضادة كالكراهية والحب.

٧ حلول الحوادث والاستفصال في نفيه:

إن مسألة حلول الحوادث مما أحدثه المتكلمون لنفي الصفات الفعلية

الاختيارية، وفي نفي المتكلمين لحلول الحوادث في ذات الرب تعالى إجمال يجب تفصيله، فإن أريد بالنفي أنه سبحانه لا يحل في ذاته المقدسة شيء من مخلوقاته المحدثة ولا يحدث له وصف متجدد، فهذا نفي صحيح وإن أريد به نفي الصفات الاختيارية والفعلية فهذا نفي باطل كاسد عاطل فاسد.

٨ هل الصفة زائدة على الذات؟!

وكذلك قولهم: الصفة زائدة عن الموصوف لفظ مجمل، فإن أريد به أن هناك ذاتاً مجردة قائمة بنفسها منفصلة عن الصفات الزائدة عليها فهذا باطل، وإن أريد به أن الصفات زائدة على الذات التي يفهم من معناها غير ما يفهم من معنى الصفة فهذا حق.

وقولهم: «الصفة لا عين الموصوف ولا غيره» له معنى صحيح، وهو أنَّ الصفة ليست عين ذات الموصوف التي يفرضها الذهن مجردة، بل هي غيرها؛ لأن هذه الذات المجردة ليس لها وجود خارج الذهن، وليست غير الموصوف بصفات واحد غير متعدد، فإذا قلت: أعوذ بالله فقد عذت بالذات المقدسة الموصوفة بصفات الكمال.

وأما سبب ترك السلف لهذا اللفظ فهو أنه محتمل، فلا يطلقون على صفات الله وكلامه أنه غيره أو ليس غيره؛ لأن إطلاق الإثبات قد يشعر بأن ذلك مباين له، وإطلاق النفي قد يشعر بأنه هو، وإذا كان لفظ «الغير» فيه إجمال فلا يطلق إلا مع البيان والتفصيل.

وقول القائل: ذات كذا بمعنى صاحبة كذا، تأنيث ذو. الذات في أصل معناها في اللغة لا تستعمل إلا مضافة مثل ذات وجود، ذات قدرة.

ولا يتصور ذات مجردة عن الصفات، كما لا يمكن وجود صفات بدون ذات. فالذات لا يتصور انفصال الصفات عنها بوجه من الوجوه، وإن كان الذهن قد يفرض ذاتاً مجردة من الصفات، كما يفرض المحال، لكن خارج الذهن لا يمكن تصور ذات منفصلة عن الصفات، وعلى الأقل صفة الوجود؛ فإنه لا يمكن فصلها الصفة عن الذات[1].

---

(١) الفتاوى (٧/ ١٥٩).

(٩) معنى قول بعض السلف: الاستواء معلوم والكيف مجهول:

معنى ذلك أن الاستواء معلوم، أي معناه في لغة العرب إما الاستقرار، وإما الارتفاع، و إما العلو.

وأما كيفية استوائه على عرشه فهي مجهولة عند المخلوقين ولا يمكن الاطلاع عليها ولا يعرفها إلا هو ﷻ.

(١٠) هل الاسم غير المسمى؟

من البدع التي أحدثها أهل الكلام أن أسماء الله غير الله وما كان غيره فهو مخلوق، وهذا من حماقاتهم وبذلك يمهدون الطريق البدعة القول بخلق أسماء الله قال ابن جرير في كتابه صريح السنة: «وأما القول في الاسم هو المسمى أم غيره فإنه من الحماقات الحادثة..».

والحاصل أن ها هنا ثلاث صور:

الأولى: الاسم غير المسمى والثانية: الاسم هو المسمى. والثالثة: الاسم للمسمى، فأما الصورتان الأوليان فتحتملان حقاً وباطلاً، فقول القائل إن الاسم غير المسمى إن أراد أن لفظ الاسم غير الذات وأنه مخلوق فهذا معنى باطل لأن أسماء الله تعالى من كلامه وكلامه غير مخلوق فأسماء الله غير مخلوقة، وإن أراد القائل أن أسماء الله غير ذات الله فهذا كلام صحيح عقلاً ولغة؛ لأن لفظ زيد مثلاً غير زيد الآكل الشارب وأما الصورة الثانية: أن الاسم عين المسمى فأيضاً تحتمل حقاً وباطلاً فمن قال إن الاسم عين المسمى وأراد بالاسم الذات وأراد أن ألفاظ أسماء الله مخلوقة فهذا معنى باطل. وإن أراد أن الاسم عين المسمى بمعنى الاسم لا ينفك عن المسمى ولم يقل بخلق أسماء الله فهو كلام حق؛ وأما الصورة الثالثة: وهي أن الاسم للمسمى فهو كلام واضح لا تلبيس فيه ولا تدليس وليس من الكلمات المحدثة بل الكتاب والسنة يدلان عليه فقد قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ فالحاصل أن قول القائل إن الاسم عين المسمى أو غير المسمى إن صدر عن إمام من أئمة السنّة فيحمل على المعنى الحق، وإن جرى على لسان إمام من أئمة أهل الكلام فيحمل على المعنى الباطل.

(١١) الاستعاذة بالصفات:

يجوز الاستعاذة بصفات الله تعالى كما جاء عن النبي ﷺ: **(أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر)**، وقول النبي ﷺ: **(أعوذ بكلمات الله التامات من**

شر ما خلق)، وقول النبي ﷺ: **(اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك..)**، وقول النبي ﷺ: **(ونعوذ بعظمتك أن نغتال من تحتنا)**[١].

١٢ التسلسل وأنواعه:

التسلسل: وهو ترتيب أمور غير متناهية.

والعلماء عندهم نزاع في جواز التسلسل وعدمه، وها هنا أربع صور في هذه المسألة:

الأولى: جواز التسلسل في الماضي دون المستقبل. وهذه الصورة احتمال عقلي فقط ولم يقل بها أحد من المسلمين ولا من الكافرين.

الثانية: جواز التسلسل في الماضي والمستقبل، قال بها أئمة الحديث أصحاب العقيدة السلفية؛ لأن في عقيدة أهل السنة أن الله لم يزل متكلماً ولا يزال فاعلاً مختاراً ولم يزل خالقاً قادراً مريداً لما يشاؤه ويختاره ويريده.

ولم يكن معطلاً في آن من الآنات ولا يكون معطلاً أبداً.

الثالثة: عدم جواز التسلسل لا في الماضي ولا في المستقبل، وهذا قول جهم وأبي الهذيل العلاف ومن معهما من أئمة البدع والتعطيل والضلالة والاعتزال والاختلال، وهو قول مخالف للنقل والعقل في آن واحد.

الرابعة: عدم جواز التسلسل في الماضي وجوازه في المستقبل. وهو قول الحنفية الماتريدية والأشعرية الكلابية وأكثر المعتزلة ومن وافقهم من كثير من الفقهاء والمفسرين بدون أن يشعروا بمضرة هذا القول، هو متناقض فاسد. فإن القول بجواز التسلسل في المستقبل دون جوازه في الماضي تحكم بحت وترجيح بلا مرجح، وتفريق بين المتماثلين، ومتضمن لتعطيل كثير من صفات الله ومنها صفة الكلام.

وأقسام التسلسل ثلاثة: واجب وممكن وممتنع.

١ ـ فالتسلسل الممتنع هو التسلسل في المؤثرين، وهو محال ممتنع لذاته، ويقضي بأن يكون كل واحد من المؤثرين قد استفاد تأثيره مما قبله لا إلى غاية.

٢ ـ التسلسل الواجب، وهو ما دل عليه الشرع والعقل من دوام أفعال الرب

---

(١) سبق تخريج هذه الأحاديث (ص٢٣٢).

تعالى في الأبد، كما أنه كلما انقضى نعيم لأهل الجنة أحدث لهم نعيماً غيره.

٣ ـ التسلسل الممكن، وهو التسلسل في مفعولاته من طرف الأزل كما تسلسل في طرف الأبد فإنه لم يزل حياً مريداً متكلماً وذلك من لوازم ذاته. فالفعل ممكن له بموجب هذه الصفات «وأن يفعل» أكمل من «أن لا يفعل»، ولا يلزم من هذا أنه لم يزل الخلق معه.

١٣ مذاهب الناس في أفعال الرب:

مذهب الجهمية في أفعال الرب أن الرب صار قادراً عليها بعد أن لم يكن، وأن الأفعال صارت ممكنة بعد أن كانت ممتنعة؛ وذلك بناء على قولهم في أن دوام الحوادث ممتنع، وأنه يجب أن يكون للحوادث مبدأ لامتناع حوادث لا أول لها، فلهذا منعوا أن يكون الخالق لم يزل متكلماً فاعلاً بمشيئته، وكلامهم هذا فاسد؛ لأنه يدل على امتناع حدوث العالم وهو حادث حقيقة.

مذهب أهل السنة أن الله تعالى لم يزل فاعلاً متكلماً إذا شاء ولا حدوث بل إن ذلك ممكن غير ممتنع، والله قادر عليه متى شاء.

وأما مذهب الكلابية والأشعرية ومن وافقهم في أفعال الله وكلامه فإنهم يقولون إن الفعل صار ممكناً له بعد أن كان ممتنعاً عنه، وأما الكلام الإلهي عندهم فلا يدخل تحت المشيئة والقدرة، بل هو شيء واحد لازم لذاته، وهو الكلام النفسي كما يزعمون..

١٤ الخلاصة:

١ ـ تنقسم الصفات إلى ثبوتية وسلبية.

٢ ـ لم يستعمل السلف الألفاظ التي استعملها المتكلمون مثل نفي الحوادث.

٣ ـ لأهل السنة والجماعة قواعد ثابتة في باب الأسماء والصفات.

٤ ـ لا يتصور وجود خارجي لذات بلا صفات.

٥ ـ مذهب أهل السنة في أفعال الرب أن الله تعالى لم يزل فاعلاً متكلماً إذا شاء ولا حدوث، بل إن ذلك ممكن غير ممتنع، والله قادر عليه متى شاء.

١٥ المناقشة:

- **س١:** ما غرض المصنف من عقد هذا الباب؟
- **س٢:** ما أقسام صفات الله تعالى؟ فصل القول في ذلك.

- **س٣:** هل استعمل السلف مصطلح «نفي حلول الحوادث» في باب الأسماء والصفات؟ وضح ذلك.
- **س٤:** ما سبب ترك السلف لمصطلحات المتكلمين؟
- **س٥:** ما معنى الذات؟ وهل يتصور وجود ذات مجردة عن الصفات؟
- **س٦:** ما معنى قول السلف: «الاستواء معلوم والكيف مجهول»؟
- **س٧:** بيّن الإجمال في قولهم: «الاسم عين المسمى».
- **س٨:** اذكر مذهب الجهمية في أفعال الرب.
- **س٩:** بيّن مذهب أهل السنة والجماعة في أفعال الرب.
- **س١٠:** اذكر مذهب الكلابية والأشعرية في أفعال الرب.
- **س١١:** ما معنى التسلسل؟ بيّن أقسامه وأحكامه.

الله الخالق والبارئ
وهو الرب بكل معاني الربوبية
قبل أن يخلق الخلق

* كلام ابن أبي العز:

١ ـ غرض المصنف من عقد هذا الباب.

٢ ـ مناسبة الباب لما سبق.

٣ ـ معاني الكلمات.

٤ ـ معنى كلام الطحاوي: «ليس بعد خلق الخلق استفاد اسم الخالق ولا بإحداث البرية استفاد اسم الباري».

٥ ـ معنى كلام الطحاوي: «له معنى الربوبية ولا مربوب».

٦ ـ معنى كلام الطحاوي: «وكما أنه محيي الموتى بعد ما أحيا استحق هذا الاسم قبل إحيائهم كذلك استحق الخالق قبل إنشائهم».

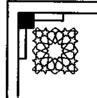
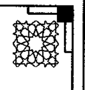
٧ ـ معنى الخالق والرب.

٨ ـ ما هو أول هذا العالم؟

٩ ـ تفسير قوله تعالى: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٦].

١٠ ـ الخلاصة.

١١ ـ المناقشة.

الله الخالق والبارئ
وهو الرب بكل معاني الربوبية قبل أن يخلق الخلق

قال ابن أبي العز:

قوله: «لَيْسَ بَعْدَ خَلق الخَلْقَ اسْتَفَادَ اسْمَ «الخَالقِ»، ولا بإحْدَاثِهِ البَرِيَّة اسْتَفَادَ اسْمَ البَارِي».

ش: ظاهرُ كلامِ الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ أنه يَمْنَعُ تَسَلْسُلَ الحوادث في الماضي، ويأتي في كلامه ما يَدُلُّ على أنه لا يمنعه في المستقبل، وهو قوله: «والجنة والنار مخلوقتان لا تفنيان أبداً ولا تَبِيدان»، وهذا مذهبُ الجمهورِ كما تقدَّم، ولا شكَّ في فسادِ قولِ من مَنَع ذلك في الماضي والمستقبل، كما ذهب إليه الجهم وأتباعه، وقال بفناء الجنة والنار؛ لِما يأتي من الأدلة إن شاء الله تعالى.

وأما قولُ مَن قال بجواز حوادِث لا أوَّلَ لها، من القائلين بحوادث لا آخِرَ لها، فأظهرُ في الصِّحَّةِ مِن قولِ مَنْ فرَّق بينهما، فإنَّه سبحانه لم يَزَلْ حيّاً، والفعلُ مِن لوازم الحياةِ، فلم يَزَلْ فاعلاً لما يُريدُ، كما وَصَفَ بذلك نفسَه، حيثُ يقول: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٥ - ١٦].

والآية تَدُلُّ على أمور[(١)]:

أَحَدُهَا: أنه تعالى يَفعَلُ بإرادته ومشيئته.

الثاني: أنه لم يَزَلْ كذلك؛ لأنه ساق ذلك في مَعْرِضِ المدح والثناء على نفسه، وأن ذلك مِن كماله سبحانه، ولا يَجُوزُ أن يَكُونَ عادماً لهذا الكمال في وقت من الأوقات، وقد قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾﴾ [النحل: ١٧]. ولما كان مِنْ أوصافِ كماله ونعوتِ جلاله، لم يَكُنْ حادثاً بعدَ أن لم يَكُنْ.

الثالث: أنه إذا أراد شيئاً فَعَلَه، فإن: «ما» موصولةٌ عامَّةٌ؛ أي: يَفْعَلُ كُلَّ ما

---

(١) انظر: التبيان في أقسام القرآن لابن القيم (ص٦٠، ٦١).

يُريد أن يَفعلَه، وهذا في إرادته المتعلقة بفعله، وأما إرادتُه المتعلقةُ بفعل العبد، فتلك لها شأنٌ آخر؛ فإن أراد فِعْلَ العبد، ولم يُرِدْ من نفسه أن يُعينَه عليه ويَجْعَلَهُ فاعلاً، لم يُوجدْ الفعلُ، وإن أراده حتى يُريدَ من نفسه أن يَجعَلَهُ فاعلاً[1]. وهذه هي النُّكتة التي خَفِيَتْ[2] على القَدَرِيَّةِ والجَبْرِيَّةِ، وخَبَطُوا في مسألةِ القدرِ، لغفلتهم عنها، وفرق بَيْنَ إرادته أن يفعل العبدُ، وإرادة أن يجعله فاعلاً. وسيأتي الكلامُ على مسألة القدر في موضعه إن شاء الله تعالى.

الرابع: أن فعلَه وإرادته متلازمانِ، فما أراد أن يَفْعَلَ فَعَلَ، وما فَعَلَه، فقد أراده، بخلاف المخلوقِ، فإنَّه يُريدُ ما لا يَفعَلُ، وقد يفعلُ ما لا يُريدُه، فما ثَمَّ فعَّال لما يُريدُ إلا الله وحدَه.

الخامس: إثباتُ إراداتٍ متعدِّدةٍ بحسب الأفعالِ؛ وأنَّ كلَّ فعل له إرادةٌ تَخُصُّهُ، هذا هو المعقولُ في الفِطَرِ، فشأنُه سبحانه أنه يُريدُ على الدوام، ويَفعَلُ ما يُريدُ.

السادس: أن كلَّ ما صحَّ أن تَتَعَلَّق به إرادتُه، جاز فِعلُهُ، فإذا أراد أن يَنْزِلَ كُلَّ لَيلَةٍ إلى سماءِ الدنيا، وأن يَجيءَ يومَ القيامةِ لِفَصْلِ القَضَاء، وأن يُرِيَ عبادَه نفسه، وأن يَتَجَلَّى لهم كيفَ شاءَ، ويُخاطِبَهُم، ويَضْحَك إليهم، وغير ذلك مما يُريدُ سبحانه؛ لم يَمْتَنِعْ عليه فِعلُهُ، فإنَّه تعالى فعَّال لما يُريدُ وإنَّما يتوقَّف صِحَّةُ ذلك على إخبارِ الصادق به، فإذا أخبر وَجَبَ التَّصديقُ، وكذلك مَحْوُ ما يشاءُ، وإثباتُ ما يشاء، كلَّ يوم هو في شأن ﷻ.

والقولُ بأنَّ الحوادِثَ لها أوَّلٌ: يَلزمُ منه التعطيلُ قَبلَ ذلك، وأن الله ﷻ لم يَزَل غَيْرَ فاعلٍ، ثم صار فاعلاً.

ولا يَلْزَمُ من ذلك قِدَمُ العالم؛ لأنَّ كل ما سوى الله تعالى محدَثٌ ممكن الوجود، موجودٌ بإيجاد الله تعالى له، ليس له مِن نفسه إلا العَدَمُ، والفَقْرُ، والاحتياجُ وَصْفٌ ذاتي لازمٌ لِكل ما سوى الله تعالى، والله تعالى واجبُ الوجودِ لذاته، غنيٌّ لذاته، والغنى وَصْفٌ ذاتي لازِمٌ له ﷻ.

---

(١) في الكلام هنا نقص ظاهر، قال الشيخ أحمد شاكر (ص٨٨): «ولعل أصله: وإن أراده حتى يريد من نفسه أن يعينه عليه ويجعله فاعلاً، وجد الفعل».

(٢) النكتة التي خفيت على القدرية والجبرية: هي تقسيم الإرادة إلى شرعية وكونية.

وللناسِ قولانِ(١) في هذا العالم: هل هُوَ مخلوق من مادة أم لا(٢)؟ واختلفوا في أول هذا العالم، ما هو؟ وقد قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [هود: ٧].

وروى البخاري وغيرُه عن عِمْرَانَ بنِ حُصَيْنٍ رضي الله عنه، قال: قال أهلُ اليَمَنِ لرَسُول الله ﷺ: جئناك لِنتفَقَّه في الدين، ولِنسألَك عن أوَّلِ هذا الأمرِ، فقال: (كَانَ الله وَلم يَكُنْ شَيْءٌ قَبْلَهُ)(٣)، وفي رواية: (ولم يَكُنْ شَيْءٌ مَعَهُ)(٤)، وفي رواية: (غيره)، (وكَانَ عَرْشُهُ عَلى الماءِ، وكَتَبَ في الذِّكرِ كُلَّ شَيْءٍ، وخَلَقَ السموات والأرضَ)، وفي لفظ: (ثُمَّ خَلَقَ السَّمَوَات والأَرْضَ).

فقوله: (كَتَبَ في الذِّكرِ) يعني: اللوحَ المحفوظَ، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ﴾ [الأنبياء: ١٠٥] سَمَّى ما يُكتَبُ في الذِّكْرِ ذِكْراً، كما يُسَمَّى ما يُكْتَبُ في الكتاب كتاباً.

والناسُ في هذا الحديث على قولين، منهم من قال: إن المقصودَ إخبارُه بأن الله كان موجوداً وحدَه، ولم يَزَل كذلك دائماً، ثم ابتدأ إحداثَ جميعِ الحوادث، فجنسُها وأعيانُها مسبوقةٌ بالعدم، وإن جِنْسَ الزمانِ حادث لا في زمانٍ، وأن الله صار فاعلاً بعد أن لم يكن يَفْعَلُ شيئاً من الأزَلِ إلى حين ابتداءِ الفعل ولا كان الفعلُ ممكناً.

والقولُ الثاني: المرادُ إخبارُه عن مبدأ خلقِ هذا العالم المشهودِ الذي خلقه الله في ستة أيام، ثم استوى على العرش، كما أخبر القُرآنُ بذلك في غيرِ مَوْضِعٍ، وفي «صحيح مسلم» عن عبدِ اللهِ بنِ عمرو رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: (قَدَّرَ اللهُ تَعَالَى مَقَادِيرَ الخَلْقِ قَبْلَ أَن يَخْلُقَ السَّماواتِ والأرضَ بخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، وكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الماءِ)(٥). فأخبر ﷺ أن تقديرَ هذا العالم المخلوق في ستة أيام كان قبلَ خلقه

---

(١) انظر: الفتاوى (١٨/ ٢١٠)؛ ومجموعة الرسائل (٤/ ١٢١).

(٢) قال شيخ الإسلام في الفتاوى (٥/ ٥٦٤) «وأهل الملل متفقون على أن الله خلق السمٰوات والأرض في ستة أيام وخلق ذلك من مادة كانت موجودة قبل هذه السمٰوات والأرض وهو الدخان الذي هو البخار».

(٣) أخرجه البخاري (٧٤١٨)، وانظر: الفتح (٦/ ٢٨٩).

(٤) لفظ (لم يكن شيء معه) فكلام الشيخ الألباني يشير إلى عدم الوقوف عليها، انظر: شرح الطحاوية (ص١٣٣).

(٥) أخرجه مسلم (٢٦٥٣).

الأرضوالسماوات بخمسين ألف سنة، وأن عرشَ الرَّبِّ تعالى كان حينئذٍ على الماء.

دليلُ صحة هذا القولِ الثاني مِن وجوه:

أحدُهما: أن قولَ أهلِ اليَمَنِ: «جئناك لِنَسأَلَكَ عن أوَّل هذا الأمر»، وهو إشارةٌ إلى حاضرٍ مشهودٍ موجودٍ، والأمرُ هنا بمعنى المأمور؛ أي: الذي كوَّنه الله بأمره، وقد أجابَهم النبيُّ ﷺ عن بَدْءِ هذا العالم الموجود لا عن جِنس المخلوقات، لأنَّهم لم يسألوه عنه، وقد أخبرهم عن خَلْقِ السَّماواتِ والأرض حالَ كونِ عرشه على الماء، ولم يُخبِرهم عن خلقِ العرش، وهو مخلوق قبل خلق السماوات والأرض.

وأيضاً فإنَّه قال: (كَانَ الله ولم يَكُنْ شيءٌ قَبْلَه)، وقد رُوِيَ: «معه»، وروي: «غيره»، والمجلسُ كان واحداً، فعُلِمَ أنه قال أَحَدَ الألفاظِ، والآخران رُويا بالمعنى، ولفظ «القَبْلِ» ثبت عنه في غير هذا الحديث، ففي حديث مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: أنه كان يقول في دعائه: (اللَّهُمَّ أَنْتَ الأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ)[1] الحديث. واللفظان الآخرانَ لم يَثْبُتْ واحدٌ منهما في موضعٍ آخرَ، ولهذا كان كثيرٌ من أهلِ الحديثِ إنما يرويه بلفظِ القَبْلِ، كالحُميدي والبغَوي، وابن الأثير، وإذا كان كذلك، لم يكن في هذا اللفظ تَعَرُّضٌ لابتداء الحوادث، ولا لأول مخلوق.

وأيضاً: فإنَّه قال: (كان الله ولم يَكُنْ شَيءٌ قَبلَه) أو «مَعَهُ» أو «غيرُه»، (وكان عرشُه على الماءِ، وكَتب في الذِّكر كُلَّ شيء)، فأخبرَ عن هذه الثلاثِ بالواو، و(خلق السماواتِ والأرض) رُوي بالواو وبثم، فظَهَر أن مقصوده إخباره إياهم بِبَدْءِ خلق السماواتِ والأرض وما بينهما، وهي المخلوقات التي خُلِقت في ستة أيام، لا ابتداء خلق ما خلقه الله قبلَ ذلك، وذَكر السموات والأرضَ بما يَدُل على خلقهما، وذكر ما قَبلهما بما يَدُل على كونه ووجوده، ولم يتعرَّض لابتداء خلقه له.

وأيضاً، فإنَّه إذا كان الحديثُ قد وَرَدَ بهذا وهذا، فلا يُجزَمُ بأحدهما إلا بدليل، فإذا رَجَحَ أحدُهما، فمن جَزَمَ بأن الرسولَ أراد المعنى الآخر، فهو مخطئ قطعاً، ولم يَأْتِ في الكتاب، ولا في السُّنَّةِ ما يَدُلُّ على المعنى الآخر، فلا يجوزُ إثباتُه بما يُظَنُّ أنه معنى الحديثِ، ولم يردْ: (كان الله ولا شيءَ معَه) مجرداً، وإنما ورد على السياقِ المذكور، فلا يُظَنُّ أن معناه: الإخبار بتعطيلِ الرب تعالى دائماً عن الفعل حتى خلق السماواتِ والأرضَ.

---

(١) سبق تخريجه.

وأيضاً، فقولُه ﷺ: (كان اللهُ ولا شيءَ قَبْلَهُ ـ أو معَه، أو غيرَه ـ وكان عَرْشُهُ على الماء)، لا يَصِحُّ أن يكونَ المعنى أنه تعالى موجودٌ وحده لا مخلوقَ معه أصلاً؛ لأن قولَه: (وكان عرشُه على الماء)، يَرُدُّ ذلك، فإنَّ هذه الجملة وهي: (وكان عرشُه على الماء) إما حالية، أو معطوفة، وعلى كِلا التقْدِيرَيْنِ، فهو مخلوقٌ موجودٌ في ذلك الوقت، فعُلِمَ أن المرادَ: ولم يَكُنْ شيءٌ من هذا العالم المشهود.

قوله: «له مَعْنَى الرُّبُوبِيَّةِ ولا مَرْبُوبَ، ومَعْنَى الخَالِقِ ولا مَخْلُوقَ».

ش: يعني أن اللهَ تعالى موصوفٌ بأنه «الربُّ» قبلَ أن يُوجَدَ مَرْبُوبٌ، وموصوف بأنه «خالق» قبل أن يُوجَدَ مخلوق.

قال بعضُ المشايخ الشارحين: وإنما قال: «له معنى الربوبية ومعنى الخالق» دونَ الخالقية؛ لأن الخالق هو المخرِجُ للشيء من العدم إلى الوجود لا غير، والربُّ يقتضي معانيَ كثيرة، وهي: المُلك والحفظُ والتدبير والتربية، وهي تبليغُ الشيء كمالَه بالتدريج، فلا جَرَمَ أتى بلفظ يَشْمَلُ هذه المعاني، وهي الربوبية. انتهى.

وفيه نظر[1]؛ لأنَّ الخلق يكونُ بمعنى التقدير أيضاً.

قوله: (وكَما أَنَّه مُحيي المَوتَى بَعْدَ مَا أَحْيَا، استَحَقَّ هَذا الاسْمَ قَبْلَ إِحْيَائِهِمْ، كَذَلِكَ اسْتَحَقَّ اسْمَ الخَالِقِ قَبْلَ إِنْشَائِهِمْ).

ش: يعني: أنَّه ﷻ موصوف بأنه محيي الموتى قبلَ إحيائهم، فكذلك يُوصفُ بأنه خالقٌ قبل خلقهم، إلزاماً للمعتزلة ومَنْ قال بقولهم، كما حَكَيْنا عنهم فيما تَقدَّم[2]، وتَقدَّم تقريرُ أنه تعالى لم يزَل يفعَلُ ما يشاء.

---

(١) أي: ذلك الاستظهار الذي ظهر لبعض الشراح ليس بصواب، فإن الربوبية وإن كانت تحتمل معاني كثيرة، فكذلك «الخلق» فهو يأتي لمعاني أيضاً مثل:
أ ـ إبداع الشيء من غير أصل ولا مثال سابق.
ب ـ إيجاد الشيء من الشيء أي على مثال وأصل سابق.
ج ـ التقدير.
انظر: نزهة الأعين النواظر لابن الجوزي (ص٢٨٣)؛ وشرح الطحاوية بتحقيق العدني (ص١٤٢).

(٢) يعني أنهم قالوا: إن الله صار قادراً على الفعل بعد أن لم يكن قادراً عليه.



عناصر الموضوع:

١ غرض المصنف من عقد هذا الباب:

أ ـ تقرير عقيدة أهل السنة والجماعة أن الله سبحانه متصف بالصفات أزلاً، فلم تزل له الأسماء الحسنى والصفات العلى، وأنه سبحانه قادر على الفعل في أي وقت منذ الأزل إلى الأبد.

ب ـ الرد على أهل البدع الذين يقولون إن هناك فترة تعطل فيها الرب عن الفعل والكلام، والفعل كان ممتنعاً ثم انقلب فجأة فصار ممكناً[(١)].

٢ مناسبة الباب لما سبق:

بعد أن قرر المؤلف في الباب السابق أن أهل السنة والجماعة يثبتون الصفات لله على وجه الكمال منذ الأزل إلى الأبد، وأنه سبحانه لم يكن فاقداً للصفات ولا للكمال في وقت من الأوقات، ناسب في هذا الباب أن يقرر أنه سبحانه قادر على الفعل منذ الأزل وإلى الأبد، خلافاً لأهل البدع الذين يزعمون أن الله كان معطلاً عن الفعل، وأن الفعل كان ممتنعاً عليه ثم انقلب فجأة فصار فاعلاً. تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

٣ معاني الكلمات:

الكلمة	المعنى
التعطيل	التعطيل من العطل وهو الخلو والترك، وعدم الاستعمال، وهدر الشيء، والمراد تعطيل أسماء الله تعالى وصفاته؛ أي نفيها وعدم الإيمان بها، وإنكارها إما بتأويل نصوصها، وهو التحريف مع التعطيل، وإما بتفويضها.
البارئ	برأ الخلق أي خلقهم من غير مثال سابق.
الفطرة	الجبلة المتهيئة لقبول الدين.

(١) انظر: الهداية الربانية (ص٣٨).

٤ معنى كلام الطحاوي: «ليس بعد خلق الخلق استفاد اسم الخالق ولا بإحداث البرية استفاد اسم البارئ»:

الله سبحانه وتعالى خالق قبل أن يخلق الخلق، متسم بهذا الاسم قبل خلقهم، وليس تسميته بهذا الاسم متوقفاً على حدوث خلقهم فعلاً، وكذلك لم يستفد ويكتسب اسم البارئ بعد أن أحدث البرية، بل هو البارئ قبل إحداثهم وخلقهم، فأسماؤه وصفاته قديمة قدم ذاته ﷻ، وكلام الطحاوي فيه رد على أهل التعطيل من المعتزلة والجهمية، فالمعتزلة تنفي عن الله ﷻ أزلية أسمائه، وتنفي صفاته، كما تزعم الأشاعرة أن صفات الأفعال حادثة؛ لأنها بزعمهم متعلقة بما يحدثه الله ﷻ من حوادث، فالرزاق لم يكن عندهم اسماً أزلياً لله ﷻ، وإنما حدث لله بعد فعله الرزق، وهذا مخالف لما قرره القرآن الكريم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ﴾ [الذاريات: ٥٨]، وهذا قول في غاية الفساد إذ فيه تشبيه للخالق بالمخلوق من حيث إن المخلوق يكتسب الصفات بعد وجوده أو من أفعاله.

٥ معنى كلام الطحاوي: «له معنى الربوبية ولا مربوب»:

إن الله تعالى هو الرب بكل معاني الربوبية حتى قبل أن يخلق أحداً من خلقه، وكذلك هو الخالق حتى قبل أن يخلقهم، فهذه الأسماء وما دلت عليه من المعاني ثابتة لله من قبل ومن بعد.

والمقصود أن الله ﷻ له معنى الربوبية ولا مربوب؛ لأنه ﷻ هو مربي عباده وحافظهم، يحفظهم ويربيهم ويدبر أمرهم، وهو الخالق ولا مخلوق؛ فالله سبحانه لم يزل فعالاً خالقاً في أي وقت، فعال لما يريد، وهو فاعل وقادر على الفعل، فله معنى الربوبية وله معنى الخالق في كل وقت في الأزل والأبد[1].

٦ معنى كلام الطحاوي: «وكما أنه محيي الموتى بعد ما أحيا استحق هذا الاسم قبل إحيائهم كذلك استحق الخالق قبل إنشائهم»:

الله ﷻ يحيي ويميت، وهو الخالق قبل أن يخلق الخلق وقبل إنشائهم وبعد إنشائهم، فهو الخالق في كل وقت وفي كل زمان، لأنه قادر وفعال والفعل له ممكن في أي وقت من الأوقات.

هذا ومن أسماء الله الحسنى: الخالق، ومن صفاته الفعلية أنه يحيي ويميت[2].

---

(١) انظر: الهداية الربانية (ص٣٨).
(٢) انظر: الهداية الربانية (ص٣٩).

٧ معنى الخالق والرب:

الخالق في اللغة: هو المخرج للشيء من العدم إلى الوجود لا غير.

والرب: يقتضي معاني كثيرة، وهي الملك والحفظ والتدبير والتربية، وهي تبليغ الشيء كماله بالتدريج.

ولفظ «رب» يرد:

أ ـ معرفاً «الرب».

ب ـ غير معرف «رب».

جـ ـ غير مضاف، وهذه الحالات كلها لا تكون إلا لله وحده دون خلقه وهناك ثلاثة أصول ترجع إليها معاني كلمة «الرب» الأصل الأول بمعنى المالك والصاحب والأصل الثاني: بمعنى السيد المطاع والأصل الثالث: بمعنى المصلح للشيء المدبر له.

٨ ما هو أول هذا العالم؟

للناس في هذا الحديث قولان:

القول الأول: أن الله كان موجوداً وحده، ولم يزل كذلك أبداً، ثم ابتدأ إحداث جميع الحوادث، فجنسها وأعيانها مسبوقة بالعدم، وأن جنس الزمان حادث لا في زمان، وأن الله صار فاعلاً بعد أن لم يفعل شيئاً من الأزل إلى حين ابتداء الفعل، ولا كان ذلك ممكناً.

القول الثاني: أن المراد إخباره عن مبدأ خلق هذا العالم المشهود الذي خلقه الله في ستة أيام ثم استوى على العرش.

والفرق بينهما أنه على تقدير صحة القول الأول فإنهم سألوه عن مفعولات الرب عموماً المشاهدة وغيرها وما جهلوه، وعلى تقدير صحة الثاني فإنهم إنما سألوه عن أمر هذا العالم المشاهد المحسوس فقط لا عن غيره، والصحيح القول الثاني وذلك لوجوه هي:

١ ـ سؤال أهل اليمن عن أول هذا الأمر المشاهد المحسوس.

٢ ـ ذكره وجود العرش على الماء قبل ذلك فيه ما يدل عن بدء هذا العالم المشهود.

٣ ـ كون الحديث ورد على ثلاث روايات مما يمتنع الجزم بواحد منها؛ لأن فيه جزماً بأن الرسول ﷺ أراد المعنى الفلاني.

٩ تفسير قوله تعالى: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٦]:

أي «مهما أراد شيئاً فعله، إذا أراد شيئاً قال له كن فيكون، وليس أحد فعَّالاً لما يريد إلا الله، فإن المخلوقات لو أرادت شيئاً؛ فلا بد لإرادتها من معاون وممانع، والله لا معاون لإرادته، ولا ممانع له مما أراد»[1]. وقد استنبط المؤلف من هذه الآية الأمور التالية:

١ ـ أنه تعالى يفعل بإرادته ومشيئته.

٢ ـ أنه لم يزل كذلك؛ لأنه ساق ذلك في معرض المدح والثناء على نفسه، وأن ذلك من كماله سبحانه، ولا يجوز أن يكون عادماً لهذا الكمال في وقت من الأوقات.

٣ ـ أنه إذا أراد شيئاً فعله فإن «ما» موصولة عامة كلَّ ما يريد أن يفعله، وهذا في إرادته المتعلقة بفعله، وأما إرادته المتعلقة بفعل العبد فهذه لها شأن آخر.

٤ ـ أن فعله وإرادته متلازمان، فما أراد أن يفعل فعل، وما فعله أراده بخلاف المخلوق، فإنه قد يفعل ما لا يريده، ويريد ما لا يفعل.

٥ ـ إثبات إرادات متعددة بحسب الأفعال، وأن كل فعل له إرادة تخصه.

٦ ـ أن كل ما صح أن تتعلق به إرادته جاز فعله، فإذا أراد أن ينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا لم يمتنع عليه فعله.

١٠ الخلاصة:

١ ـ رد الطحاوي بقوله: «ليس بعد خلق الخلق استفاد اسم الخالق، ولا بإحداث البرية استفاد اسم البارئ» على أهل التعطيل من المعتزلة والجهمية.

٢ ـ الخالق في اللغة: هو المخرج للشيء من العدم إلى الوجود لا غير.

والرب: يقتضي معاني كثيرة، وهي الملك والحفظ والتدبير والتربية، وهي تبليغ الشيء كماله بالتدريج.

٣ ـ خالف المعتزلة أهل السنة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾

---

(١) انظر: تفسير السعدي، سورة البروج: الآية ١٦.

[البقرة: ٢٠] فقالوا: إنه قادر على كل ما هو مقدور له، وأما نفس أفعال العباد فلا يقدر عليها عندهم.

(١١) المناقشة:

- **س١:** ما غرض المصنف من عقد هذا الباب؟
- **س٢:** اذكر الأقوال في دوام الحوادث في الماضي والمستقبل.
- **س٣:** استنبط المؤلف من قوله تعالى: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٦] ستة أمور، اذكرها مع بيان وجه أخذها من الآية.
- **س٤:** هل هناك وصف حدث للرب بعد خلق الخلق أم لا؟
- **س٥:** ما معنى قوله ﷺ: (كان الله ولم يكن شيء قبله)؟ اذكر الأقوال في ذلك مع الترجيح.
- **س٦:** ما معنى الخالق في اللغة؟
- **س٧:** ما معنى الرب؟
- **س٨:** ما موقف المعتزلة من أفعال العباد؟
- **س٩:** هل المحال والعدم يُسَمَّيانِ شيئاً؟



إثبات قدرة الرب على كل شيء
والرد على المعتزلة

* كلام ابن أبي العز:

١ ـ غرض المصنف من عقد هذا الباب.

٢ ـ مناسبة هذا الباب لما سبق.

٣ ـ معاني الكلمات.

٤ ـ معنى كلام الطحاوي: «ذلك بأنه على كل شيء قدير، وكل شيء إليه فقير، وكل أمر عليه يسير، لا يحتاج إلى شيء، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير».

٥ ـ معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

٦ ـ تسمية الله تعالى بالقادر والقدير والمقتدر.

٧ ـ القادر هو الذي يفعل بمشيئة وقدرة.

٨ ـ دوام كون الله تعالى قادراً في الأزل والأبد.

٩ ـ الفرق بين قدرة الرب وقدرة العبد.

١٠ ـ مذهب المعتزلة في قدرة الرب.

١١ ـ تحريف المعتزلة لعموم قدرة الله.

١٢ ـ المحال غير داخل في الشيء.

١٣ ـ هل المعدوم شيء؟

١٤ ـ تفسير قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

١٥ ـ تفسير قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠].

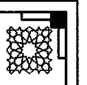
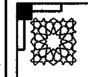
١٦ ـ إعراب الكاف من قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾.

١٧ ـ هل يوجد تعارض بين قوله: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ وقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾؟

١٨ ـ موقف أحمد بن أبي دؤاد وجهم من إثبات الصفات.

١٩ ـ الخلاصة.

٢٠ ـ المناقشة.

إثبات قدرة الرب على كل شيء والرد على المعتزلة

قال ابن أبي العز:

قوله: «ذٰلِك بِأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وكُلُّ شَيْءٍ إِلَيْهِ فَقِيرٌ، وكُلُّ أَمْرٍ عَلَيْهِ يَسِيرُ، لا يَحْتَاجُ إِلَى شَيْءٍ، لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ، وهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ».

ش: ذلك إشارةٌ إلى ثبوت صفاتِه في الأزل قَبْلَ خلقه، والكلام على «كل» وشمولها. وشمول «كل» في كل مقامٍ بحسب ما يَحْتَفُّ به مِنَ القرائن. يأتي في مسألة الكلام إن شاء الله تعالى:

وقال حرَّفتِ المعتزلة المعنى المفهومَ مِن قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٨٤] فقالوا: إنَّه قادر على كُلِّ ما هو مقدورٌ[1] له، وأما نفسُ أفعالِ العبادِ، فلا يَقْدِرُ عليها عندهم، وتنازعُوا: هل يَقْدِرُ على مِثلها أم لا؟! ولو كان المعنى على ما قالوا، لكان هذا بمنزلة أن يُقال: هو عالم بِكُلِّ ما يَعْلَمُه، وخالقٌ لِكل ما يَخلُقُهُ، ونحو ذلك من العباراتِ التي لا فائدةَ فيها، فَسَلَبُوا صِفَةَ كمالِ قُدْرَتِه على كُلِّ شيء.

وأما أهلُ السُّنَّة فعندهم أنَّ اللهَ على كُلِّ شيءٍ قديرٌ، وكُلُّ ممكنٍ، فهو مندرج في هذا، وأما المُحَالُ لِذاتِهِ، مثل كونِ الشيء الواحد موجوداً معدوماً في حالٍ واحدة، فهذا لا حَقِيقَةَ له، ولا يُتصَوَّرُ وُجودُه، ولا يُسَمَّى «شيئاً» باتفاقِ العقلاء، ومن هذا البابِ خَلْقُ مثلِ نفسِه[2]، وإعْدَامُ نفسه، وأمثال ذلك من المحال.

---

(١) أعلم أن هذه العبارة تحتمل أمرين:
أ ـ أنه قادر على كل ما هو مقدور له، لا يقدر على ما ليس بمقدور له بمعنى: أنه ليس على كل شيء قديراً فنفس أفعال العباد لا يقدر عليها وهذا مذهب القدرية.
ب ـ المعنى الثاني: أنه قادر على كل ممكن ما فأن كل ممكن هو مقدور، انظر: منهاج السنّة (٢/ ٢٨٨).

(٢) أي: من باب المحال لذاته قولهم: هل يستطيع الله أن يخلق مثل نفسه؟ وهذا سؤال فاسد في نفسه قال المناوي في «اليواقت والدر» (١/ ٨٩): «فالمستحيل لا تتعلق القدرة به لا لنقص فيها بل لعدم قابليته للوجود فلم يصلح محلاً لمتعلقها».

وهذا الأصلُ، هو الإيمانُ بربوبيته العامة التامة، فإنَّه لا يُؤْمِنُ بأنه ربُّ كُلِّ شيءٍ إلا مَنْ آمن أنه قادِرٌ على تلك الأشياء، ولا يُؤْمِنُ بتمام ربوبيته وكمالها إلا مَنْ آمن بأنه على كلِّ شيء قدير.

وإنما تنازَعُوا في المعدومِ[1] الممكن: هل هو شيءٌ أم لا؟ والتحقيقُ: أن المعدومَ ليس بشيءٍ في الخارجِ، ولكنَّ الله يَعْلَمُ ما يكونُ قبلَ أن يكونَ، ويَكتُبُه، وقد يَذْكُرُه ويُخبِرُ به، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: ١] فيكون شيئاً في العلم والذِّكرِ والكِتاب، لا في الخارج، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٩] أي: لم تَكُنْ شيئاً في الخارج، وإن كان شيئاً في علمه تعالى، وقال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾﴾ [الإنسان: ١].

وقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾، رَدٌّ على المشبِّهة، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، ردٌّ على المعطِّلة، فهو ﷻ موصوفٌ بصفات الكمال، وليس له فيها شبيه، فالمخلوقُ وإن كان يُوصَفُ بأنه سميع بصير، فليس سمعُه وبصرُه كَسَمْعِ الرَّبِّ وبَصَرِهِ، ولا يلزمُ مِن إثباتِ الصفة تشبيهٌ، إذ صِفَاتُ المخلوق كما يَليقُ به، وصفاتُ الخالقِ كما يَلِيقُ به.

ولا تنفِ عن الله ما وَصَفَ به نفسَه، وما وصفه به أَعْرَفُ الخَلْقِ بربه، وما يجب له وما يمتنع عليه، وأنصحُهم لأمته وأفصحهم وأقدرُهم على البيان، فإنك إن نفيتَ شيئاً من ذلك، كنتَ كافراً بما أُنزِلَ على محمد ﷺ.

وإذا وصفتَه بما وصف به نفسه، فلا تُشَبِّهْهُ بخلقه، فليس كمثله شَيء، فإذا شبهتَه بخلقه، كنت كافراً به، قال نُعَيْمُ بنُ حماد الخُزاعي شيخ البخاري: من شَبَّه الله بخلقه، فقد كَفَرَ، ومن جَحَدَ ما وَصَف الله به نفسَه، فقد كَفَرَ، وليس ما وَصَفَ الله به نفسَه، ولا ما وصفَه به رسولُه تشبيهاً. وسيأتي في كلام الشيخ الطحاوي رحمه الله: «ومَنْ لم يَتَوَقَّ النَّفْيَ والتَّشْبيه، زَلَّ ولَم يُصِبِ التَّنْزِيهَ».

وقد وَصَفَ الله تعالى نفسَه بأن له المَثَلَ الأعلى، فقال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ

---

(١) المعدوم: هو الممكن وجوده.

بِٱلْءَاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الروم: ٢٧] فجَعَلَ سبحانه مثلَ السَّوءِ - المتضمن للعيوبِ والنقائِص وسَلْبِ الكمال - لأعدائه المشركين وأوثانِهم، وأخبر أن المثلَ الأعلى - المُتَضَمِّنَ لإثبات الكمالِ كُلِّهِ - للهِ وحده، فمَن سَلَب صفةَ الكمالِ عن الله تعالى، فقد جَعَل له مَثَل السَّوْءِ، ونفى عنه ما وَصَفَ به نفسَه مِن المثلِ الأعلى، وهو الكمالُ المطلقُ، المُتَضَمِّنُ للأمور الوجودية، والمعاني الثبوتية، التي كلما كانت أَكْثَر في الموصوفِ وأكملَ، كان بها أكملَ وأعلى مِن غيره.

ولما كانت صِفَاتُ الربِّ ﷻ أكثرَ وأكملَ، كان له المَثَلُ الأعلى، وكان أحقَّ به مِن كل ما سواه، بل يستحيلُ أن يَشْتَرِكَ في المثل الأعلى المطلق اثنان؛ لأنهما إن تكافآ مِن كُلِّ وجه لم يكن أحدهما أعلى مِن الآخر، وإن لم يتكافآ فالموصوفُ به أحدُهُما وحدَه، فيستحيلُ أن يكونَ لمن له المثلُ الأعلى مِثْلٌ أو نظير.

واختلفت عباراتُ المفسرين في المثَل الأعلى، ووفَّقَ بينَ أقوالهم مَن وفَّقه الله وهداه، فقال: المَثَلُ الأعلى يَتَضَمَّنُ: الصِّفَةَ العُليا، وعِلْمَ العالمين بها، ووجودَها العلميَّ، والخبَر عنها وذكَرها، وعبادةَ الرب تعالى بواسطة العلم والمعرفة القائمة بقلوبِ عابديه وذاكريه.

فها هنا أمورٌ أربعة[1]:

الأول: ثبوتُ الصفاتِ العُليا لله ﷻ، سواءٌ علمها العِبَادُ أو لا، وهذا معنى قول مَن فسَّرها بالصفة.

الثاني: وجودُها في العلم والشعور، وهذا معنى قولِ مَن قال مِن السلف والخلف: إنه ما في قلوب عابديه وذاكريه، مِن معرفته وذكره، ومحبتِه وجلالِه، وتعظيمِه، وخوفِه ورجائِه، والتوكُّلِ عليه، والإنابةِ إليه. وهذا الذي في قلوبهم من المَثَلِ الأعلى لا يُشْرِكُه فيه غيرُهُ أصلاً، بل يَختَصُّ به في قلوبهم، كما اختَصَّ به في ذاته، وهذا معنى قولِ مَنْ قال من المفسرين: إنَّ معناه: أهلُ السَّموات يُعَظِّمونه ويُحبُّونه ويَعْبُدونه، وأَهْلُ الأرضِ كذلك، وإن أشرك به مَنْ أشرك، وعصاه مَنْ عصاه، وجَحَدَ صفاتِه مَن جَحَدها، فَأَهْلُ الأرض معظِّمون له، مُجِلُّون، خاضعون

(١) انظر: الصواعق (١/ ١٠٣٤، ١٠٣٥).

لعظمته، مستكينون لعِزَّته وجبروته، قال تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ٢٦﴾ [الروم: ٢٦].

الثالث: ذِكْرُ صفاته، والخَبَرُ عنها، وتنزيهُها من العيوب والنقائِص والتمثيل.

الرابع: مَحَبَّةُ الموصوفِ بها وتوحيدُهُ، والإخلاصُ له، والتوكُّلُ عليه، والإنابَةُ إليه، وكلما كان الإيمانُ بالصِّفَاتِ أكملَ، كان هذا الحبُّ والإخلاصُ أقوى.

فعباراتُ السَّلَفِ كُلُّها تَدُورُ على هذه المعاني الأربعة.

فَمَن أَضَلُّ ممن يُعَارِضُ بين قوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ وبين قوله: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾؟ ويستدِل بقوله: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾ على نَفْيِ الصفات، ويَعمى عن تمامِ الآيةِ وهو قولُه: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]! حتى أفضى هذا الضلالُ ببعضهم ـ وهو أحمد بن أبي دُؤاد القاضي ـ إلى أن أشارَ على الخليفة المأمونِ أن يَكتُبَ على سِتْر الكعبة: ليس كمثله شيء وهو العزيز الحكيم، حرَّفَ كلامَ الله لينفي وَصْفَه تعالى بأنه السميع البصيرُ، كما قال الضالُّ الآخر جهمُ بن صفوان: وَدِدتُ أني أحُكُّ من المصحفِ قولَه تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ﴾ [الأعراف: ٥٤] فنسألُ الله العظيمَ السميعَ البصيرَ أن يثبتنا بالقولَ الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، بمنه وكرمه.

وفي إعراب «كمثله» وجوه:

أحدهما: أنَّ الكافَ صِلَةٌ زِيدت للتأكيد، قال أوس بن حَجَر:

لَيسَ كَمِثْلِ الفَتَى زُهَيْرِ   خَلْقٌ يُوَازِيهِ فِي الفَضَائِلِ

وقال آخر:

مَا إن كَمِثْلِهِمُ فِي النَّاسِ مِنْ بشر

وقال آخر:

وَقَتْلَى كَمِثْلِ جُذُوعِ النَّخِيلِ

فيكون «مثلُه» خبَرَ «ليس» واسْمُهَا «شيء». وهذا وجهٌ قَوِيٌّ حَسَنٌ، تَعْرِفُ العَرَبُ معناه في لغتها، ولا يَخفى عنها إذا خُوطِبَتْ به، وقد جاء عن العرب أيضاً زيادةُ الكاف للتأكيد في قولِ بعضهم:

وصَالِيَاتٍ كَكَمَا يُؤَثْفَيْن

وقول الآخر:

فَأَصْبَحَتْ مِثْلَ كَعَصْفٍ مَأْكُول

الوجه الثاني: أن الزائد «مثل» أي: ليس كَهُوَ شيءٌ، وهذا القَولُ بعيدٌ[١]؛ لأن «مثل» اسمٌ، والقولُ بزيادةِ الحرفِ للتأكيد أولى مِن القول بزيادة الاسم[٢].

الوجه الثالث: أنه ليس ثَمَّ زيادةٌ أصلاً، بل هذا من بابِ قولهم: مِثْلُكَ لا يَفْعَلُ كذا؛ أي: أنتَ لا تَفْعَلُه، وأتى بمثل للمبالغة، وقالوا في معنى المبالغة هنا؛ أي: ليس كمثله مِثْلٌ لو فُرِضَ المِثْلُ، فكيف ولا مثل له. وقيل غير[٣] ذلك، والأول أظهر.

---

(١) انظر: إملاء ما من به الرحمٰن للعكبري (ص٢٢٤).

(٢) انظر: البحر المحيط لابن حبان (٧/ ٥١٠).

(٣) قيل: أن المعنى (ليس كذاته شيء) وهذا لا يصح فإن مثل الشيء ليس هو ذات الشيء وقيل: إن معنى «مثل»: «صفه» أي: ليس كصفته شيء، انظر: روح المعاني (١٤/ ٢٩).



الشرح

عناصر الموضوع:

١ غرض المصنف من عقد هذا الباب:

أ ـ تقرير عقيدة أهل السنة والجماعة في قدرة الرب ﷻ؛ ذلك بأنه على كل شيء قدير، وأنه لم يزل فعالاً، وأنه ليس هناك فترة تعطَّلَ فيها الرب؛ ذلك بأنه على كل شيء قدير منذ الأزل وإلى الأبد.

ب ـ الرد على المخالفين لأهل السنة والجماعة، وهم المعتزلة الذين يقولون أن الله على ما يشاء قدير؛ لأن هناك شيئاً لا يقدر عليه عند المعتزلة وهي أفعال العباد، ولذلك أوَّلوا قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٠] يقولون كل شيء قادر عليه، وأفعال العباد لا يقدر عليها(١).

٢ مناسبة هذا الباب لما سبق:

بعد ما قرر المصنف في الباب السابق أن الله سبحانه قادر على الفعل أزلاً وأبداً خلافاً لأهل البدع الذين يزعمون أن الله كان معطلاً عن الفعل ثم انقلب فصار فاعلاً ـ تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً ـ: ناسب أن يقرر أن الله لم يزل فاعلاً وأنه على كل شيء قدير. ومن جملة ذلك أفعال العباد، خلافاً لأهل البدع من المعتزلة وغيرهم.

٣ معاني الكلمات:

الكلمة	المعنى
المثل	النظير.
السلف	السلف باعتبار الزمن هم أصحاب القرون المشهود لهم بالخير، والمراد من السلف هم الصحابة والتابعون وأتباعهم، ومن بعدهم من أئمة الدين والسنة كالأوزاعي والثوري ومالك والشافعي وأحمد بن حنبل والبخاري وأمثالهم وهم أئمة الفرقة الناجية الطائفة المنصورة وهم رؤوس أصحاب الحديث وهم وأتباعهم أهل السنة المحضة(٢).

(١) انظر: الهداية الربانية (ص٣٩).

(٢) الميزان (١/ ٤)، اللسان (١/ ٨)، درء التعارض (٤/ ٩٥).

٤ معنى كلام الطحاوي: «ذلك بأنه على كل شيء قدير، وكل شيء إليه فقير، وكل أمر عليه يسير، لا يحتاج إلى شيء، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير»:

قوله: «ذلك» إشارة إلى ما تقدم من اتصاف الله ﷻ بصفاته الفعلية في الأزل.

أشار الماتن إلى أن كل شيء كائن في هذا العالم فبإرادة الله تعالى ومشيئته، والإيمان بهذه المسألة من أهم لوازم الإيمان بالربوبية، ولا يتصور أن الله ﷻ كان غير قادر، ثم أصبح قادراً كما هو قول النفاة، وكل شيء في هذا الكون مفتقر إلى الله تعالى محتاج إليه في إيجاده وبقائه، وكل أمر على الله يسير، وهو لا يحتاج إلى شيء ﷻ، بل كل شيء محتاج إليه ضرورة، وحاجته لله تعالى لا تتغير، ولا تكون في وقت دون وقت أو مكان دون مكان.

ثم يقرر الماتن قاعدة من قواعد الأسماء والصفات يرجع إليها وهي قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

٥ معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

أي: فلا يعجزه شيء، ومن قدرته أنه إذا شاء شيئاً فعله من غير ممانع ولا معارض.

وفي هذه الآية وما أشبهها رد على القدرية القائلين بأن أفعالهم غير داخلة في قدرة الله تعالى؛ لأن أفعالهم من جملة الأشياء الداخلة في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾(١).

٦ تسمية الله تعالى بالقادر والقدير والمقتدر:

أهل السنة والجماعة يثبتون لله اسم القادر والقدير والمقتدر، لورود الأدلة من القرآن والسنة بذلك.

أما القادر فمأخوذ من قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ [الأنعام: ٦٥].

وأما القدير فمن مثل قوله تعالى: ﴿۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾﴾ [الروم: ٥٤].

---

(١) انظر: تفسير السعدي عند تفسير سورة البقرة: الآية ٢٠.

وأما المقتدر فمن مثل قوله تعالى: ﴿كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾﴾ [القمر: ٤٢].

فأهل السنة يثبتون هذه الأسماء وما تضمنته من صفة القدرة. قال البيهقي: (القادر: ومعناه ذو القدرة)[١] وقال الخطابي: (المقتدر وهو التام القدرة)[٢].

٧ القادر هو الذي يفعل بمشيئة وقدرة:

الله هو القادر الذي يفعل بمشيئة وقدرة، فإن شاء فعل وإن شاء ترك.

والقادر المختار إذا أراد الفعل إرادة جازمة فهو قادر عليه قدرة تامة، فيلزم وجود الفعل. فالله هو القادر، فما شاءه سبحانه فهو قادر عليه، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن[٣].

٨ دوام كون الله تعالى قادراً في الأزل والأبد:

صفة القدرة من صفات الله تعالى الذاتية فلا يزال تعالى متصفاً بها أزلاً وأبداً، فإن القدرة صفة كمال، والله تعالى يجب له الكمال في كل وقت، ووصفه بعدم القدرة في وقت من الأوقات وصف له بالعجز، والله تعالى منزه عن العجز. قال شيخ الإسلام: (المسألة السادسة: دوام كونه قادراً في الأزل وللأبد فإنه قادر ولا يزال قادراً على ما يشاؤه بمشيئته، فلم يزل متكلماً إذا شاء وكيف شاء)[٤].

٩ الفرق بين قدرة الرب وقدرة العبد:

قدرة الرب	قدرة العبد
قدرة الله تعالى غير مخلوقة.	قدرة العبدة مخلوقة.
قدرة الله تعالى كاملة شاملة.	قدرة العبد محدودة ناقصة.
قدرة الله تعالى مطلقة.	قدرة العبد مقيدة.
قدرة الله تعالى مرتبطة بمشيئته، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.	قدرة العبد غير مرتبطة بمشيئته، فقد يشاء ما لا يقدر عليه، ويفعل ما لا يشاء.
قدرة الله تعالى نافذة بلا حاجة إلى شيء.	قدرة العبد لا تؤثر إلا بسبب أو بآلة.

١٠ مذهب المعتزلة في قدرة الرب:

يقول المعتزلة إن الله على كل شيء قادر، وأنه على ما يشاء قدير، وأفعال

(١) الأسماء والصفات (ص١٥٥).
(٢) الأسماء والصفات (ص٤٥).
(٣) انظر: منهاج السنة (١/ ١٦٢ ـ ١٦٤).
(٤) مجموع الفتاوى (٨/ ٢٩).

العباد لا يقدر عليها؛ لأن أفعال العباد من خير وشر وطاعة ومعصية هم الذين خلقوها وأوجدوها، والله لا يقدر عليها، وقالوا أن العباد أحدثوا أفعالاً من طاعات ومعاص، ولهذا قالوا إن العبد يستحق الثواب على الله كما يستحق الأجير أجره، لأنه هو الذي أوجده، وقالوا إنه يجب على الله أن يعاقب العاصي وأن يخلد صاحب الكبيرة في النار؛ لأنه توعد بذلك ولا يخلف وعده[(١)].

(١١) تحريف المعتزلة لعموم قدرة الله:

رأي المعتزلة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٠] أن الله قادر على كل ما هو مقدور له، وأما نفس أفعال العباد فلا يقدر عليها عندهم، وتنازعوا هل يقدر على فعل مثلها أو خلق مثلها من غير العباد أم لا؟

والرد عليهم: أنه لو كان المعنى على ما قالوا لكان بمنزلة أن يقال هو عالم لكل ما يعلمه، وخالق لكل ما يخلقه، ونحو ذلك من العبارات التي لا فائدة منها، فسلبوا كمال صفة قدرته على كل شيء. وأما رأي أهل السنة فعندهم أن الله على كل شيء قدير، وكل ممكن فهو مندرج تحت هذا، وأما المحال لذاته مثل كون الشيء موجوداً ومعدوماً في آن واحد فهذا لا حقيقة له، وأما المعدوم فالتحقيق أن المعدوم ليس بشيء خارج الذهن، ولكن الله يعلم ما يكون قبل أن يكون ويكتبه، وقد يذكره ويخبر به، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: ١] فيكون شيئاً في العلم والذكر والكتاب لا في خارج الأذهان. وخالف أهل البدع من المعتزلة وغيرهم فقالوا أن المعدوم شيء[(٢)].

(١٢) المحال غير داخل في الشيء:

وأما المحال لذاته: مثل كون الشيء موجوداً ومعدوماً في آن واحد فهذا لا حقيقة له.

أما المحال لغيره: وهو الأمر المعدوم الذي يقبل الوجود لكنه امتنع وجوده لتعلق علم الله ببقائه في العدم، ويمكن توضيحه بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٦] فمعلوم أنه لا رجوع بعد الموت فإنما هو حساب وعقاب ولكن الله قادر على إرجاعهم إلى الدنيا غير أنه لا

---

(١) انظر: الهداية الربانية (ص٣٩)، وشفاء العليل (١/ ١٤٩)؛ ودرء التعارض (١/ ٨١).

(٢) انظر: منهاج السنة (٢/ ٢٨٨)؛ وانظر مذكرة التوحيد للشيخ عبد الرزاق عفيفي (ص٥).

يحصل وذلك لعلم الله السابق أنه لا يكون[(١)].

(١٣) هل المعدوم شيء؟

التحقيق أن المعدوم ليس بشيء خارج الذهن، ولكن الله يعلم ما يكون قبل أن يكون ويكتبه، وقد يذكره ويخبر به كقوله تعالى: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: ١] فيكون شيئاً في العلم والذكر والكتاب لا في خارج الأذهان.
وخالف أهل البدع من المعتزلة وغيرهم فقالوا أن المعدوم شيء[(٢)].

(١٤) تفسير قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

أي ليس يشبهه تعالى ولا يماثله شيء من مخلوقاته لا في ذاته، ولا في أسمائه ولا في صفاته، ولا في أفعاله؛ لأن أسماءه كلها حسنى، وصفاته صفات كمال وعظمة، وأفعاله تعالى أوجد بها المخلوقات العظيمة من غير مشارك، فليس كمثله شيء لانفراده وتوحده بالكمال من كل وجه[(٣)].

(١٥) تفسير قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠]:

المثل الأعلى هو وصفه الأعلى وما ترتب عليه، ولهذا كان أهل العلم يستعملون في حق البارئ قياس الأولى، فيقولون: كل صفة كمال في المخلوقات فخالقها أحق بالاتصاف بها على وجه لا يشاركه فيها أحد، وكل نقص في المخلوق ينزه عنه، فتنزيه الخالق عنه من باب أولى وأحرى[(٤)].

(١٦) إعراب الكاف في قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾:

إعراب الكاف في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ على وجوه:

الوجه الأول: أن الكاف زيدت للتأكيد، قال أوس بن حجر:

ليس كمثل الفتى زهير ... خلق يوازيه في الفضائل

فيكون «مثله» خبر ليس واسمها شيء وهذا وجه قوي حسن تعرف العرب معناه في لغتها، ولا يخفى عنها إذا خوطبت به.

الوجه الثاني: أن الزائد: مثل، أي ليس كهو شيء، وهذا القول بعيد؛ لأن «مثل» اسم، والقول بزيادة الحرف للتأكيد أولى من القول بزيادة الاسم.

---

(١) انظر: منهاج السنة (٢/ ٢٨٨)؛ ومذكرة التوحيد للشيخ عبد الرزاق عفيفي.
(٢) انظر: الفتاوى (٢/ ١٥٥)؛ و(٨/ ١٨٢)؛ والفصل لابن حزم (٥/ ١٥٥).
(٣) انظر: تفسير السعدي عند تفسير سورة الشورى: الآية ١١.
(٤) انظر: تفسير السعدي عند تفسير سورة الروم: الآية ٢٧.

الوجه الثالث: أنه ليس ثم زيادة أصلاً، بل هذا من باب قولهم: مثلك لا يفعل كذا أي أنت لا تفعله، وأتى بمثل للمبالغة، وقالوا في معنى المبالغة هنا أي ليس كمثله مثل لو فرض المثل، فكيف ولا مثل له، وقيل غير ذلك. قال ابن هشام: «وينبغي أن يجتنب المعرب أن يقول في حرف من كتاب الله تعالى أنه زائد لأنه يسبق إلى الأذهان أن الزائد هو الذي لا معنى له وكلامه سبحانه منزه عن ذلك»[1].

وقال العلامة الشيخ ابن عثيمين: «وهنا إشكال: كيف تقول زائد وليس في القرآن زائد؟ والجواب أنه زائد من حيث الإعراب، أما من حيث المعنى فهو مقيد، وليس في القرآن شيء زائد لا فائدة منه»[2].

(١٧) هل يوجد تعارض بين قوله: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ وقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾؟

لا تعارض بين الآيتين، فليس أضل ممن يعارض بينها ويستدل بقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١] على نفي الصفات ويعمى عن تمام الآية وهو قوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ والحق إثبات كمال الصفة مع التنزيه.

(١٨) موقف أحمد بن أبي دؤاد وجهم من إثبات الصفات:

ذهب كلٌّ من أحمد بن أبي دؤاد القاضي المعتزلي والجهم بن صفوان إلى نفي الصفات؛ فأحمد بن أبي دؤاد قد أشار على الخليفة المأمون أن يكتب على ستر الكعبة (ليس كمثله شيء وهو العزيز الحكيم) فحرف كلام الله تعالى لينفي وصفه تعالى بأنه السميع البصير، وقال الضال الآخر ـ الجهم ـ: وددت أني أحك من المصحف قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وهذه طريقة أهل البدع فإنها يحرفون النصوص والكلم عن مواضعها ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ﴾ [الفتح: ١٥] فلهذا هم يشبهون اليهود.

(١٩) الخلاصة:

١ ـ إن الله تعالى لا يشبهه ولا يماثله شيء من مخلوقاته لا في ذاته، ولا في أسمائه، ولا في صفاته، ولا في أفعاله.

٢ ـ المثل الأعلى هو وصفه الأعلى وما ترتب عليه؛ ولهذا كان أهل العلم

---

(١) انظر: كتاب قواعد الإعراب (ص١٦٩).

(٢) شرح الواسطية (٨/ ١٩٩).

يستعملون في حق البارئ قياس الأولى، فيقولون: كل صفة كمال في المخلوقات فخالقها أحق بالاتصاف بها على وجه لا يشاركه فيها أحد، وكل نقص في المخلوق ينزه عنه، فتنزيه الخالق عنه من باب أولى وأحرى.

٣ - لا يوجد تعارض بين قوله: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ وقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾، وقد ضل من استدل بها على نفي الصفات.

٤ - الكاف في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ زائدة للتأكيد و«مثله» خبر ليس واسمها شيء، وهذا وجه قوي حسن تعرف العرب معناه في لغتها ولا يخفى عنها إذا خوطبت به.

٥ - ذهب كلٌّ من أحمد بن أبي دؤاد القاضي المعتزلي والجهم بن صفوان إلى نفي الصفات.

٦ - المعدوم ليس بشيء خارج الذهن على التحقيق.

٧ - وأما المحال لذاته مثل كون الشيء موجوداً ومعدوماً في آن واحد فهذا لا حقيقة له.

(٢٠) المناقشة:

- **س١:** ما غرض المصنف من عقد هذا الباب؟
- **س٢:** ما إعراب الكاف من قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾؟
- **س٣:** هل يوجد تعارض بين قوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ وقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾؟
- **س٤:** ما موقف أحمد بن أبي دؤاد وجهم من إثبات الصفات؟
- **س٥:** ما معنى قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠]؟
- **س٦:** ما معنى قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾؟
- **س٧:** هل المعدوم شيء؟ وهل المحال شيء؟
- **س٨:** اذكر الفروق بين قدرة العبد وقدرة الرب.
- **س٩:** بيّن مذهب المعتزلة في قدرة الرب، مع الرد عليهم.

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى خلق الخلق وهو عالم بهم

❁ كلام ابن أبي العز:

١ ـ غرض المصنف من عقد هذا الباب.

٢ ـ مناسبة هذا الباب لما سبق.

٣ ـ معاني الكلمات.

٤ ـ معنى كلام الطحاوي: «خلق الخلق بعلمه».

٥ ـ الدليل النقلي والعقلي على علم الله.

٦ ـ معنى كلام الطحاوي: «وقدر لهم أقداراً وضرب لهم أجالاً».

٧ ـ الأدلة على وجود المخلوقات بقدر الله تعالى.

٨ ـ الأدلة من الكتاب والسنة على أن الله تعالى قدر آجال الخلائق.

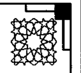
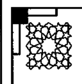
٩ ـ المقتول ميت بأجله خلافاً للمعتزلة.

١٠ ـ تأثير صلة الرحم والدعاء في طول العمر.

١١ ـ تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [فاطر: ١١].

١٢ ـ الخلاصة.

١٣ ـ المناقشة.

الله سبحانه وتعالى خلق الخلق وهو عالم بهم

قال ابن أبي العز:

قوله: «خَلَقَ الخَلْقَ بِعِلْمِهِ».

ش: خَلَقَ: أي أوجد وأنشأ وأَبْدَع، ويأتي «خَلَقَ» أيضاً بمعنى: قَدَّرَ، والخلقُ: مصدر، وهو هنا بمعنى المخلوق، وقوله: «بعلمه» في محل نصب على الحال، أي: خلقهم عالماً بهم، قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [الملك: ١٤]. وقال تعالى: ﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ وَهُوَ الَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِالَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾ [الأنعام: ٥٩، ٦٠]. وفي ذلك رَدٌّ على المعتزلة.

قال الإمامُ عبدُ العزيز المكيُّ صَاحِبُ الإمامِ الشافعيِّ رحمه الله وجليسُه، في كتاب «الحَيْدة»، الذي حكى فيه مناظرتَه بِشراً المريسي عند المأمون حين سأَله عن عِلْمِهِ تعالى: فقال بِشر: أقولُ: لا يَجْهَلُ، فجعل يُكَرِّرُ السؤال عن صفة العلم تقريراً له، وبِشر يقول: لا يَجهل، ولا يعترف له أنه عالم بعلم، فقال الإمامُ عبد العزيز: نفيُ الجهل لا يكونُ صفةَ مدح، فإن قولي: هذه الأسطوانة لا تَجْهَلُ[1] ليسَ هو إثباتَ العلم لها، وقد مَدَحَ الله تعالى الأنبياءَ والملائكةَ والمؤمنينَ بالعلم، لا بنَفْي الجَهْلِ؛ فمن أَثْبَتَ العلمَ، فقد نفى الجَهْلَ، ومَنْ نفى الجَهْلَ، لم يُثْبِتِ العلم، وعلى الخلق أن يُثْبِتُوا ما أَثْبَتَه الله تعالى لِنفسه، ويَنفُوا ما نفاه، ويُمْسِكُوا عما أمسك عنه.

---

(١) يعني من الأدلة على أن نفي الجهل ليس بمدح أن تقول: الأسطوانة أو الجدار لا يجهل فهل نفينا للجهل عن الجماد يفيد أنه يعلم؟ الجواب: لا لكون الجماد لا يقبل الوصفين: العلم والجهل فانتفاء الجهل لا يلزم منه إثبات العلم، انظر: «درء التعارض» (٢/ ٢٢٢)؛ وشرح الطحاوية بتعليق العدني (ص١٥٢).

والدَّليلُ العقليُّ على علمه تعالى: أنه يَسْتَحِيلُ إيجادُه الأشياءَ مع الجهلِ، ولأنَّ إيجادَه الأشياءَ بإرادته، والإرادةُ تستلزِمُ تصوُّرَ المُرَادِ، وتَصوُّرُ المراد: هو العِلْمُ بالمراد، فكان الإيجادُ مستلزماً للإرادة، والإرادة مستلزمة للعلم، فالإيجادُ مستلزِمٌ للعلم. ولأن المخلوقاتِ فيها من الإحكام والإتقان ما يستلزِمُ عِلْمَ الفَاعِلِ لها؛ لأن الفِعْلَ المُحْكَمَ المُتْقَنَ يمتنع صُدورُه عن غيرِ علم؛ ولأن مِن المخلوقات ما هو عالم، والعلمُ صفة كمال، ويَمتَنِع أن لا يَكونَ الخالقُ عالماً. وهذا له طريقان:

أحدُهما: أن يُقَالَ: نحن نَعْلَمُ بالضرورة أنَّ الخالِقَ أكْمَلُ من المخلوق، وأن الواجِبَ أكْمَلُ من الممكن، ونَعْلَمُ ضرورةً أنا لو فَرَضنا شيئين، أَحَدُهُما: عالم والآخَرُ غَيْرُ عالم، كان العالِمُ أكْمَلَ، فلو لم يكن الخالقُ عالماً، لَزِمَ أن يَكونَ المُمْكِنُ أكملَ منه وهو ممتنع.

الثاني: أن يُقَالَ: كُلُّ علم في الممكنات التي هي المخْلُوقَاتُ، فهو منه، ومِن الممتنع أن يَكُونَ فاعلُ الكمَال ومبدعُه عارياً منه، بل هو أحقُّ به، والله تعالى له المَثَلُ الأعلى، ولا يستوي هو والمخلوقات، لا في قياس تمثيلي ولا في قياس شمولي، بل كُلُّ ما ثَبَت للمخلوق من كمال، فالخالقُ به أحقُّ، وكُلُّ نقصٍ تنزَّهَ عنه مخلوقٌ ما، فتنزيهُ الخالق عنه أولى.

قوله: «وقَدَّرَ[1] لَهُمْ أَقْدَاراً».

ش: قال تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القمر: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾﴾ [الأعلى: ٢، ٣]. وفي صحيح مسلم عَنْ عَبْدِ الله بنِ عَمْرو رضي الله عنهما، عن النبيِّ ﷺ أنه قال: (قَدَّرَ اللهُ مَقَادِيرَ الخَلْقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّماوَاتِ والأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى المَاءِ)[2].

قوله: «وَضَرَبَ لَهمْ آجَالاً».

---

(١) المراد بالقدر شرعاً: أن الله علم مقادير الأشياء وأزمانها قبل إيجادها، ثم أوجد ما سبق في علمه أنه يوجد فكل محدث صادر عن علمه وقدرته وإرادته، انظر: فتح الباري (١/١١٨).

(٢) سبق تخريجه (ص٢٤٨).

ش: يعني: أن الله ﷻ قدَّر آجال الخلائِق، بحيثُ إذا جاءَ أَجَلُهُمْ لا يستأخِرُونَ ساعةً ولا يَسْتَقْدِمُونَ، قال تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [يونس: ٤٩]. وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾ [آل عمران: ١٤٥]. وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن مسعود قال: قالت أمُّ حبيبةَ زوجُ النبي ﷺ: اللَّهُمَّ أَمْتِعْنِي بزَوْجِي رَسُولِ اللهِ، وبِأَبِي أبي سُفْيان، وبِأَخِي مُعَاوِيَة، قال: فقال النبيُّ ﷺ: (قَدْ سأَلْتِ الله لآجالٍ مَضروبةٍ، وأَيَّامٍ مَعْدودةٍ، وأرزاقٍ مَقْسُومَةٍ، لَنْ يُعَجِّلَ شيئاً قَبْلَ أجله، ولَنْ يُؤَخِّرَ شيئاً عَنْ أَجَلِهِ، ولَوْ كُنْتِ سَأَلْتِ اللهَ أَنْ يُعِيذَكِ مِنْ عَذَابٍ في النَّارِ وعَذَابٍ في القبر، كَانَ خَيْراً وَأَفْضَلَ)[١].

فالمقتولُ مَيِّت بأجله، فَعَلِم الله تعالى وقدَّر وقَضى أنَّ هذا يموتُ بسبب المرض، وهذا بسببِ القتلِ، وهذا بسببِ الهَدْمِ، وهذا بسبب الحَرْقِ، وهذا بالغَرْقِ، إلى غير ذلك من الأسبابِ، واللهُ سبحانه خَلَقَ الموتَ والحياةَ، وخلق سَبَبَ الموتِ والحياةَ.

وعند المعتزلة: المقْتُولُ مقطوعٌ عليه أَجَلُه، ولو لم يُقْتَلْ، لَعَاشَ إلى أجله، فكأن له أجلينِ، وهذا باطِلٌ؛ لأنه لا يَليقُ أَنْ يُنْسَبَ إلى الله تعالى أنَّه جَعَلَ له أجلاً يعلَمُ أنَّه لا يَعِيشُ إليه ألبتة، أو يَجْعَلُ أجلَه أَحَدَ الأمرين، كفعلِ الجاهل بالعواقِبِ، ووجوبُ القصاصِ، والضَّمان على القاتِلِ، لارتكابه المنهيَّ عنه، ومباشرته السببَ المحظور[٢]. وعلى هذا يُخَرَّجُ قوله ﷺ: (صِلَةُ الرَّحِمِ تَزِيدُ في العُمُرِ)[٣]، أي: سَبَبُ طُولِ العُمُرِ، وقد قدَّر الله أن هذا يَصِلُ رحمه، فيعيشُ بهذا السببِ إلى هذه الغاية، ولولا ذلك السببُ لم يَصِل إلى هذه الغاية، ولكن قَدَّر

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٦٣).

(٢) مقصود الشارح من هذه العبارة الرد على المعتزلة فلو قالوا لنا: إذا كان المقتول قد مات بأجله المعلوم فلماذا شرع القصاص والضمان على القاتل؟
الجواب: نعم المقتول مات بأجله المعلوم المكتوب له أما إيجاب القصاص والضمان على القاتل فهذا لارتكابه المنهي عنه ومباشرته السبب المحظور لا لأنه قطع أجل المقتول. انظر: شرح الطحاوية بتعليق العدني (ص١٥٦).

(٣) البخاري (٢٠٦٧)، ومسلم (٢٥٥٧) بلفظ: **(من سره أن يبسط له في رزقه، وينسأ له في أثره فليصل رحمه).**

هذا السَّبَبَ وقضاه، وكذلك قدَّر أن هذا يَقْطَعُ رَحِمَهُ، فيعيش إلى كذا، كما قُلنا في القتل وعدمه.

فإن قيل: هل يَلْزَمُ من تأثير صِلَةِ الرحم في زيادة العُمُرِ ونقصانه تأثيرُ الدعاء في ذلك أم لا؟.

فالجوابُ: أن ذلك غيرُ لازم، لقوله ﷺ لأم حبيبةَ ﵂: (قَدْ سَأَلْتِ اللهَ تعالى لآجالٍ مَضروبةٍ) الحديث كما تَقدَّمَ.

فَعُلِمَ أن الأَعْمَارَ مُقَدَّرَةٌ، لم يُشرَع الدُّعَاءُ بتغيرها، بخلافِ النجاةِ مِنْ عذابِ الآخِرَةِ، فإنَّ الدُّعَاءَ مشروعٌ له، نافعٌ فيه، ألا تَرَى أن الدُّعَاءَ بتغيير العُمُرِ لما تَضَمَّنَ النَّفْعَ الأُخروي شُرِعَ كما في الدُّعاء الذي رواه النسائي مِن حديث عمارِ بن ياسر ﵁ عن النبيِّ ﷺ أنه قال: (اللَّهُمَّ بِعِلْمِكَ الغَيْبَ، وقُدْرَتِكَ عَلَى الخَلْقِ أَحْيِنِي مَا كَانَتِ الحَيَاةُ خَيْراً لي، وتَوَفَّنِي إِذَا كَانَتِ الوَفَاةُ خيراً لي)[1]، إلى آخِرِ الدُّعاء.

ويؤيِّدُ هذا ما رواه الحاكم في «صحيحه» من حديث ثَوبَانَ ﵁ عن النبي ﷺ: (لا يَرُدُّ القَدَرَ إِلَّا الدُّعَاءُ، ولا يَزِيدُ في العُمُرِ إِلَّا البِرُّ، وإنَّ الرَّجُلَ لَيُحرَمُ الرِّزْقَ بالذَّنبِ يُصِيبُهُ)[2].

وفي الحديث ردٌّ على من يَظُنُّ أن النذرَ سَبَبٌ في دَفْعِ البلاءِ وحُصولِ النَّعماء، وقد ثَبَت في «الصحيحين» عن النبي ﷺ: أنَّه نَهَى عَن النَّذْرِ، وقَالَ: (إِنَّهُ لا يَأْتِي بِخَيْرٍ، وإِنَّمَا يُسْتَخْرَجُ بِهِ مِنَ البَخِيلِ)[3].

واعلَمْ أنَّ الدُّعاءَ يكون مشروعاً نافعاً في بعضِ الأشياء دونَ بعض، وكذلك هو، ولهذا لا يُحبُّ الله المعتدينَ في الدعاء، وكان الإمامُ أحمد ﵀ يَكْرَهُ أن يُدْعَى له بطُولِ العُمُرِ، ويقول: هذا أمر قد فُرِغَ منه.

وأما قوله تعالى: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾ [فاطر: ١١]، فقد قيل في الضمير المذكورِ في قوله تعالى: ﴿مِنْ عُمُرِهِۦٓ﴾ أنه بمنزلة

(١) أخرجه النسائي (٣/ ٥٤ ـ ٥٥).
(٢) أخرجه ابن ماجه (٩٠)، وأحمد (٥/ ٢٧٧)، والحاكم (١/ ٤٩٣).
(٣) أخرجه البخاري (٦٦٠٨)، ومسلم (١٦٣٩).

قولهم: عندي دِرْهمٌ ونِصفُه، أي: ونصف درهم آخَر، فيكونُ المعنى: لا ينقصُ مِن عمر مُعَمَّر آخر.

وقيل: الزيادةُ والنقصان في الصحف التي في أيدي الملائكة[1]، وحُمِلَ قولُه تعالى: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ۝٣٨ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ۝٣٩﴾ [الرعد: ٣٨، ٣٩] على أنَّ المحوَ والإثباتَ من الصُّحُفِ التي في أيدي الملائكة، وأن قولَه: ﴿وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ اللوحُ المحفوظُ، ويَدُلُّ على هذا الوجه سياقُ الآية، وهو قولُه: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾، ثم قال: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾ [الرعد: ٣٩]؛ أي: مِن ذلك الكتاب، ﴿وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ أي: أصلُه، وهو اللوحُ المحفوظ.

وقيل: يَمحُو اللهُ ما يشاء مِن الشرائع ويَنْسَخُه، ويُثْبِتُ ما يَشَاءُ، فلا يَنسَخُه، والسِّيَاقُ أدلُّ على هذا الوجه من الوجه الأولِ، وهو قَوْلُه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [الرعد: ٣٨].

فأَخبر تعالى أن الرسولَ لا يأتي بالآياتِ مِنْ قِبَلِ نفسه، بل مِنْ عندِ اللهِ، ثم قال: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ۝٣٩﴾[الرعد: ٣٨، ٣٩]، أي: أنَّ الشرائعَ لها أجلٌ وغاية تنتهي إليها، ثم تُنْسَخُ بالشريعة الأخرى، فيَنْسَخُ الله ما يَشَاءُ مِن الشرائع عن انقضاءِ الأجَلِ، ويُثبِتُ ما يشاء.

وفي الآية أقوال أخرى، والله أعلمُ بالصواب.

---

(١) مثال ذلك أمر الله المَلَكَ أن يكتب لفلان أجلاً وقال: إن وصل رحمه زدته كذا وكذا، والمَلَك لا يعلم أيصل رحمه فيزداد في عمره، أم لا يصل في عمره، لكن ما عند الله مستقر ليس فيه إلا ما يكون. انظر: مجموع الفتاوى (٥١٧/٨)؛ وشرح الطحاوية بتعليق العدني (ص١٥٩).



عناصر الموضوع:

١ غرض المصنف من عقد هذا الباب:

أ ـ تقرير مذهب أهل السنة والجماعة من أن الله ﷻ خلق الخلق بعلمه، يعلمهم قبل خلقهم ويعلمهم بعد خلقهم.

ب ـ الرد على المخالفين لأهل السنة والجماعة، وهم المعتزلة الذين يقولون إن الله لا يعلم الخلق إلا بعد خلقه، وهذا باطل؛ لأن علم الله شامل للماضي والحاضر والمستقبل(١).

٢ مناسبة هذا الباب لما سبق:

بعد ما قرر المصنف في السابق أن الله ﷻ لم يزل فاعلاً وأنه على كل شيء قدير، ومن جملة ذلك أفعال العباد خلافاً لأهل البدع من المعتزلة وغيرهم ناسب أن يقرر أن الله خلق الخلق بعلمه، يعلمهم قبل خلقهم، ويعلمهم بعد خلقهم، خلافاً لأهل الأهواء من المعتزلة الذين يقولون إنه لا يعلم الخلق لا بعد خلقه لهم.

٣ معاني الكلمات:

الكلمة	المعنى
الضرورة	الضرورة، والعلم الضروري علم يحصل للإنسان بدون اختياره كالعلم بالبرودة والحرارة والإحساس بالألم والحزن والسرور؛ بحيث لا يستطيع الإنسان أن يدفعه أو يشك فيه وقد يقال له: «العلم البديهي». غير أن «العلم البديهي» قد يكون اكتسابياً حاصلاً من النظر والاستدلال.
خلق	أوجد وأنشأ وأبدع.
القياس التمثيلي	وهو القياس الأصولي، وهو مساواة فرع بأصل في حكم لعلة جامعة بينهما.
القياس الشمولي	وهو القياس المنطقي، وهو ما كان مركباً من مقدمتين فأكثر ونتيجة بحيث تسوي الأفراد في كلي يشملها.
الأجل	هو المدة التي ينتهي إليها الشيء. وفي الشرع: هو الوقت الذي قدر موت الميت فيه.

(١) انظر: الهداية الربانية (ص٤١).

(٤) معنى كلام الطحاوي: «خلق الخلق بعلمه»:

فيه إثبات لعلم الله تعالى وأنه محيط بجميع المخلوقات، لا يخفى عليه منها شيء، فالله يعلم بالشيء قبل وجوده ثم يوجده كما علم سبحانه، وكل شيء خلقه الله تعالى له بداية ونهاية، وذلك حسب تقدير الله ﷻ، والقدر والأجل متلازمان، لكن الأجل يدل على النهاية، وأما القدر فيرافق الشيء طوال حياته.

(٥) الدليل النقلي والعقلي على علم الله:

أما الدليل النقلي فهو قوله تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [الملك: ١٤]، وقوله تعالى: ﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الأنعام: ٥٩].

أما الدليل العقلي على علمه تعالى: فهو أنه يستحيل إيجاده للأشياء مع الجهل ولأن إيجاد الأشياء إنما يكون بإرادته، والإرادة تستلزم تصور المراد وهو الخلق، وتصور المراد هو العلم بالمراد، فكان الإيجاد والخلق مستلزمان للإرادة وهذه مستلزمة للعلم فالإيجاد مستلزم للعلم.

ولأن المخلوقات فيها من الإحكام والإتقان ما يستلزم علم الفاعل لها، لأن الفعل المحكم المتقن يمتنع صدوره من غير علم، فمن أثبت العلم فقد نفى الجهل، ومن نفى الجهل لم يثبت العلم.

وكذلك فإنه سبحانه قد وهب بعض مخلوقاته العلم، فلو نفى عنه العلم لكان بعض مخلوقاته أكمل منه ـ حاشا لله، وذلك لأن من يعلم أكمل ممن لا يعلم، وهذا بهتان عظيم وإفك مبين.

(٦) معنى كلام الطحاوي: «وقدر لهم أقداراً وضرب لهم آجالاً»:

الله ﷻ قدر الأقدار والآجال وجعل لكل شيء من مخلوقاته قدراً وأجلاً، قال ﷻ: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢]، وقال ﷻ: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [الرعد: ٣٨].

فالله قدّر الموت على كل مخلوق فلا يتأخر عن هذا الأجل ولا يتقدم ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأعراف: ٣٤]. وأسباب الموت متعددة سواء كان قدر الله الموت على العبد بالمرض أو بالقتل أو بالغرق أو بالحرق أو بأي سبب من الأسباب فهو مات بأجله الذي

قدره الله عليه[١].

٧ الأدلة على وجود المخلوقات بقدر الله تعالى:

الأدلة هي:

١ - قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ۝٤٩﴾ [القمر: ٤٩].

٢ - قوله: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢].

٣ - قوله النبي ﷺ: **(قدر الله مقادير الخلق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء)**[٢].

٨ الأدلة من الكتاب والسنة على أن الله تعالى قدر آجال الخلائق:

قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ۝٣٤﴾ [الأعراف: ٣٤].

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن مسعود قال: قالت أم حبيبة زوج النبي ﷺ: اللهم أمتعني بزوجي رسول الله وبأبي أبي سفيان وبأخي معاوية، قال النبي ﷺ: **(قد سألت الله لآجال مضروبة وأيام معدودة وأرزاق مقسومة، لن يعجل شيئاً قبل أجله ولن يؤخر شيئاً عن أجله، ولو كنت سألت الله أن يعيذك من عذاب من النار وعذاب في القبر كان خيراً وأفضل)**[٣].

٩ المقتول ميت بأجله خلافاً للمعتزلة:

يرى أهل السنة أن المقتول مات بأجله لقوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ۝٣٤﴾ [الأعراف: ٣٤].

وخالف المعتزلة في ذلك، فقالوا: إن المقتول مقطوع أجله ولو لم يقتل لعاش إلى أجله، فكأن له أجلين أحدهما مقدَّر والآخر معجَّل.

وهذا باطل؛ لأنه لا يليق أن ينسب إلى الله تعالى أنه جعل له أجلاً يعلم أنه لا يعيش إليه البتة.

أو يحتمل أجله أحد أمرين كفعل الجاهل الذي لا يعلم بالعواقب، وهذا من أبطل الباطل.

والصواب أن المقتول أجله مقدر بالقتل، ولا يتقدم ولا يتأخر، وهو داخل في

---

(١) انظر: الهداية الربانية (ص٤٢).
(٢) أخرجه مسلم (٢٦٥٣).
(٣) أخرجه مسلم (٢٦٦٣).

قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ۝٣٤﴾ [الأعراف: ٣٤]، ومن ذلك حديث عبد الله بن مسعود قال: قالت أم حبيبة زوج النبي ﷺ: اللهم أمتعني بزوجي رسول الله وبأبي أبي سفيان وبأخي معاوية، قال: فقال النبي ﷺ: **(قد سألت الله لآجال مضروبة وأيام معدودة وأرزاق مقسومة لن يعجّل شيئاً قبل أجله ولن يؤخر شيئاً عن أجله، ولو كنت سألت الله أن يعيذك من عذاب في النار وعذاب في القبر كان خيراً وأفضل)**[1].

وهذا دليل واضح على أن الآجال مضروبة معدودة[2].

١٠ تأثير صلة الرحم والدعاء في طول العمر:

لا يشرع الدعاء بطول العمر، والدليل: قصة أم حبيبة زوج النبي ﷺ حين دعت الله أن يمتعها بزوجها رسول الله ﷺ وبأبيها أبي سفيان وأخيها معاوية فقال النبي ﷺ: **(قد سألت الله لآجال مضروبة، وأيام معدودة، وأرزاق مقسومة..)** الحديث. . . ، وقد ذكر عن الإمام أحمد أنه كان يكره الدعاء له بطول العمر.

وأما معنى الحديث: **(صلة الرحم تزيد في العمر)** أي أنها سبب في طول العمر، وقد قدر الله أن هذا يصل رحمه فيعيش بهذا السبب إلى هذه الغاية، ولولا ذلك السبب لم يصل إليه. وقدر أن هذا يقطع رحمه فيعيش إلى كذا، ولا يقال إن له أجلين أحدهما مقدر والآخر معجل، كما تقول المعتزلة وقد سبق ذكر فساد قولهم.

١١ تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [فاطر: ١١]:

أي أن طول العمر وقصره بسبب وبغير سبب كله بعلم الله تعالى، وقد أُثبت ذلك في كتاب حوى ما يجري على العبد في جميع أوقاته وأيام حياته.

وقد اختلف العلماء في بيان مرجع الضمير في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ﴾ على أقوال:

١ ـ قول الفراء ومن وافقه: أن الضمير عائد على «معمر» غير المذكور الأول، فيكون المعنى: ولا ينقص من عمر معمَّر آخر، كما يقال عندي درهم ونصفه.

---

(١) رواه مسلم (٢٦٦٣).

(٢) انظر: الهداية الربانية (ص٤٣)، والفتاوى (٨/ ٥١٧ ـ ٥٢٧).

وليس المقصود نقصان عمر معمر بعد زيادته، وإنما يجعل عمره ناقصاً من الابتداء، وسمي معمراً باعتبار بلوغه هذا العمر.

٢ ـ قول سعيد بن جبير ومن وافقه: يكتب عمر المعمر كم هو، ثم يكتب في كتاب آخر: نقص من عمره ساعة، يوم، أسبوع، حتى ينقضي أجله، فهو النقصان.

٣ ـ قول قتادة: المعمر من بلغ الستين، والمنقوص من عمره من مات قبل الستين.

٤ ـ وقيل: إن الله كتب عمر الإنسان إن أطاع عاش إلى كذا، وإن عصى عاش إلى كذا، أي دونه وكل ذلك بأجل.

٥ ـ قيل: الزيادة والنقص في الصحف التي بأيدي الملائكة يغير فيها، وأما اللوح المحفوظ فلا يغير، قال تعالى: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿٣٩﴾﴾ [الرعد: ٣٩].

١٢ تفسير قوله تعالى: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿٣٩﴾﴾ [الرعد: ٣٩]:

أي يمحو الله ما يشاء من الأقدار، ويثبت ما يشاء منها، وهذا المحو والتغيير في غير ما سبق به علمه، وكتبه قلمه، فإن هذا لا يقع فيه تبديل ولا تغيير؛ لأن ذلك محال على الله أن يقع في علمه نقص أو خلل، ولهذا قال: ﴿وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ أي اللوح المحفوظ الذي ترجع إليه سائر الأشياء، فهو أصلها وهي فروع له وشعب.

فالتغيير والتبديل يقع في الفروع والشعب، كأعمال اليوم والليلة التي تكتبها الملائكة، ويجعل الله لثبوتها أسباباً ولمحوها أسباباً، لا تتعدى تلك الأسباب ما رسم في اللوح المحفوظ، كما جعل الله البر والصلة والإحسان من أسباب طول العمر وسعة الرزق، وكما جعل المعاصي سبباً لمحق بركة الرزق والعمر، وكما جعل أسباب النجاة من المهالك والمعاطب سبباً للسلامة، وجعل التعرض لذلك سبباً للعطب، فهو يدبر الأمور بحسب قدرته وإرادته، وما يدبره منها لا يخالف ما قد علمه وكتبه في اللوح المحفوظ[1].

---

(١) انظر: تفسير السعدي عند تفسير سورة الرعد: الآية ٣٩.

١٣ الخلاصة:

١ - خلق الله الخلق بعلمه، وهو محيط بجميع المخلوقات، لا يخفى عليه منها شيء، فالله يعلم بالشيء قبل وجوده ثم يوجده كما علم سبحانه، والدليل النقلي هو قوله تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [الملك: ١٤].

٢ - الأدلة من الكتاب والسنة متوافرة على أن الله تعالى قدر آجال الخلائق.

٣ - المقتول ميت بأجله خلافاً للمعتزلة.

٤ - لصلة الرحم والدعاء تأثير في طول العمر.

٥ - أن طول العمر وقصره بسبب وبغير سبب كله بعلم الله تعالى، وقد أُثبت ذلك في كتاب حوى ما يجري على العبد في جميع أوقاته وأيام حياته.

٦ - يمحو الله ما يشاء من الأقدار، ويثبت ما يشاء منها، وهذا المحو والتغيير في غير ما سبق به علمه وكتبه قلمه، فإن هذا لا يقع فيه تبديل ولا تغيير؛ لأن ذلك محال على الله أن يقع في علمه نقص أو خلل.

١٤ المناقشة:

- **س١:** ما غرض المصنف من عقد هذا الباب؟
- **س٢:** ما معنى قول الطحاوي: «خلق الخلق بعلمه وقدر لهم أقداراً وضرب لهم آجالاً»؟
- **س٣:** ما الدليل النقلي والعقلي على علم الله؟
- **س٤:** ما الأدلة على وجود المخلوقات بقدر الله تعالى؟
- **س٥:** اذكر الأدلة من الكتاب والسنة على أن الله تعالى قدر آجال الخلائق.
- **س٦:** هل المقتول ميت بأجله؟ بيّن المذاهب في ذلك مع الترجيح والرد.
- **س٧:** هل لصلة الرحم والدعاء تأثير في طول العمر وسعة الرزق؟ وضح ذلك.
- **س٨:** ما تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [فاطر: ١١].
- **س٩:** ما تفسير قوله تعالى: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿٣٩﴾﴾ [الرعد: ٣٩].

شمول علمه ﷻ

* كلام ابن أبي العز.

١ ـ غرض المصنف من عقد هذا الباب.

٢ ـ مناسبة هذا الباب لما سبق.

٣ ـ معاني الكلمات.

٤ ـ معنى قول الطحاوي: «ولم يخف عليه شيء قبل أن يخلقهم، وعلم ما هم عاملون قبل أن يخلقهم».

٥ ـ علم الله سابق للمقادير.

٦ ـ الأدلة النقلية والعقلية على ثبوت العلم لله.

٧ ـ القدرية الأولى تنكر العلم والكتابة.

٨ ـ معنى قول الطحاوي: «وأمرهم بطاعته ونهاهم عن معصيته».

٩ ـ الأدلة على إثبات مشيئة الرب.

١٠ ـ معنى كلام الطحاوي: «وكل شيء يجري بتقديره ومشيئته، ومشيئته تنفذ لا مشيئة للعباد إلا ما شاء لهم، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن».

١١ ـ الفرق بين المشيئة والإرادة.

١٢ ـ احتجاج المشركين بالمشيئة.

١٣ ـ الإجابة على احتجاج آدم على موسى بالقدر.

١٤ ـ معنى قول الطحاوي: «يهدي من يشاء ويعصم من يشاء فضلاً، ويضل من يشاء ويخذل ويبتلي عدلاً».

١٥ ـ مراتب الهداية.

١٦ ـ المراد بالهداية في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾.

١٧ ـ القدر يحتج به عند المصائب لا عند المعائب.

١٨ ـ حكمة الله في تقدير الكفر والمعاصي.

١٩ ـ الهداية عند المعتزلة.

٢٠ ـ معنى الهداية عند المعتزلة.

٢١ ـ معنى كلام الطحاوي: «وكلهم يتقلبون في مشيئته بين فضله وعدله».

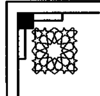
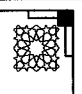
٢٢ ـ معنى كلام الطحاوي: «وهو متعال عن الأضداد والأنداد».

٢٣ ـ معنى كلام الطحاوي: «لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه ولا غالب لأمره».

٢٤ ـ معنى كلام الطحاوي: «آمنا بذلك وأيقنا أن كلاًّ من عنده».

٢٥ ـ الخلاصة.

٢٦ ـ المناقشة.

شمول علمه ﷻ

قال ابن أبي العز:

قوله: «ولم يَخْفَ عليه شيء قبل أن يخلقهم، وعلم ما هم عاملون قبل أن يخلقهم».

فإنه سبحانه يَعْلَمُ ما كان وما يكونُ وما لم يكن أنْ لو كان كَيْفَ يَكُونُ، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨]، وإن كانَ يَعلمُ أنهم لا يُردُّون ولكن أخبر أنَّهُمْ لو رُدُّوا لعادُوا، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنفال: ٢٣]، وفي ذلك رَدٌّ على الرافضة والقَدَرية والذين قالوا إنه لا يَعْلَمُ الشيء قبل أن يَخلُقَه ويُوجِدَه، وهي من فروع مسألة القدر، وسيأتي لها زيادةُ بيانٍ إن شاء الله تعالى.

قوله: «وأمرهم بطاعته ونهاهم عن معصيته».

ذكر الشيخ الأمرَ والنهيَ بعدَ ذكره الخلقَ والقدر إشارة إلى أن الله تعالى خَلَقَ الخلقَ لعبادته، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢].

قوله: «وكل شيء يجري بتقديره ومشيئته، ومشيئته تنفذ لا مشيئة للعباد إلا ما شاء لهم، فما شاء لهم كان، وما لم يشأ لم يكن».

قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾﴾ [الإنسان: ٣٠]، وقال: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [التكوير: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ١١١]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ [الأنعام: ١١٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩]، وقال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥]، وقال

تعالى حكاية عن نوح ﷺ إذ قال لقومه: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾ [هود: ٣٤]، وقال تعالى: ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٣٩] إلى غير ذلك مِن الأدلةِ على أنه ما شاء الله كانَ وما لَم يَشَأْ لم يَكُن، وكيف يَكُونُ في مُلْكِهِ ما لا يَشاء، ومن أضَلُّ سبيلاً وَأَكْفَرُ ممن يَزْعُم أنَّ الله شَاءَ الإيمانَ مِن الكافر، والكافرُ شاءَ الكُفْرَ، فغَلَبتْ مشيئةُ الكافِرِ مَشِيئَةَ الله، تعالى الله عَمَّا يَقولون عُلواً كبيراً.

فإن قيلَ: يُشْكِلُ[1] على هذا قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨] الآية، وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ﴾ [النحل: ٣٥] الآية، وقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الزخرف: ٢٠] فقد ذَمَّهُمُ الله تعالى حيثُ جَعلوا الشركَ كائناً منهم بمشيئة الله، وكذلك ذمَّ إبليسَ حيثُ أضاف الإغواءَ إلى اللهِ تعالى، إذ قال: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [الحجر: ٣٩].

قيل قد أُجيب على هذا بأجوبة من أحسنها:

أنَّه أنكر عليهم ذلك؛ لأنَّهم احتجُّوا بمشيئتِه على رِضاه ومَحبّتِه، وقالوا لو كَرِهَ ذلك وسَخِطَه لما شاءَه، فجعلوا مشيئَته دَلِيلَ رضاه، فرَدّ اللهُ عليهم ذلك.

أو أنه أنكرَ عليهم اعتقادَهُم أن مشيئَة الله دَلِيلٌ على أمرِه به.

أو أنه أنكر عليهم معارضةَ شرعِه وأمرِه الذي أَرْسَلَ به رسُلَه، وأَنزَل به كُتُبَه

---

(١) وجه الإشكال: علمنا أنه لا يقع في الكون إلا وقد شاءه الله وإذا لم يشأه لم يكن فكيف العمل مع قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا ...﴾ الآية يعني كيف الله يكذبهم مع أنهم اعترفوا بأن الله هو الذي شاء الشرك منهم؟ وقد ذكر الشارح الجواب ويمكن تلخيصه بما يلي: أن هؤلاء لم يحتجوا بالقدر والمشيئة على الوجه الصحيح بل احتجوا بالقدر لأمور:

أ ـ إما ليعارضوا بين الشرع والقدر.

ب ـ أو لإبطال شرع الله: أمره ونهيه.

د ـ أو ليجعلوا مشيئته مستلزمة لمحبته ورضاه، انظر: شرح الطحاوية بتحقيق العدني (ص١٦١).

بقضائه وقدرِه، فَجَعَلُوا المشيئَة العَامَّةَ دافعةً للأمر، فلم يَذكروا المشيئَة على جهة التوحيد، وإنما ذكروها معارضين بها لأمره، دَافِعِينَ بها لِشرعه كفعلِ الزنادقةِ والجهال، إذا أُمِرُوا أو نُهُوا احتجُّوا بالقدر، وقد احتجَّ سَارِقٌ على عُمَرَ ﷺ بالقدَر، فقال: وأنا أقطعُ يَدَكَ بِقَضَاءِ اللهِ وقدره، يَشْهَدُ لذلك قولُه تعالى في الآية: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [الأنعام: ١٤٨] فَعُلِمَ أن مُرَادَهُم: التكذيب، فهو مِن قبل الفعل مِنْ أين له أن اللهَ لم يُقدره؟ أطَّلع الغيب؟!.

فإن قيل: فما تقولون في احتجاجِ آدمَ على موسى ﷺ بالقدر، إذ قال له: أتلومُني على أمرٍ قد كتبه الله عليَّ قبل أن أُخْلَقَ بأربعينَ عاماً؟ وَشَهِدَ النبيُّ ﷺ أن آدم حجَّ موسى[(١)]، أي غلب عليه بالحجة.

قيل: نتلقّاه بالقَبُولِ والسّمعِ والطاعةِ، لِصحته عن رسولِ الله ﷺ، ولا نتلقاه بالردِّ والتكذيبِ للرواية كما فَعَلَتِ القَدَرِيَّةُ، ولا بالتأويلات[(٢)] البارِدَةِ، بل الصحيحُ أن آدَمَ لم يَحتجَّ بالقضاء والقدر على الذنب، وهو كان أَعْلَمَ بربِّه وذنبه، بل آحَادُ بنيه من المؤمنين لا يحتجُّ بالقدر، فإنّهُ باطل، وموسى ﷺ كان أعلَم بأبيه وبذنبه من أن يَلُومَ آدمَ ﷺ على ذنبٍ قد تابَ منه وتابَ الله عليه، واجتباه وهداه، وإنما وقع اللَّوْمُ على المصيبة التي أَخرجت أولادَهُ مِن الجنة، فاحتجَّ آدمُ ﷺ بالقَدَر على المُصيبة، لا على الخطيئةِ، فإن القدَرَ يُحتجُّ به عِندَ المصائب، لا عند المعائب.

وذا المعنى أَحْسَنُ ما قيل في الحديث، فما قُدِّرَ من المصائب يَجِبُ الاستسلامُ له، فإنه مِن تَمامِ الرضى بالله ربّاً، وأما الذُّنُوبُ فليس للعبد أنْ يُذْنِبَ، وإذا أذنبَ، فعليه أن يَسْتَغْفِرَ وَيَتُوبَ، فيتوبَ مِن المعائب، ويَصبِرَ على المصائب، قال تعالى:

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٠٩)، ومسلم (٢٦٥٢).

(٢) من هذه التأويلات الفاسدة:

أ ـ إنما حج آدم موسى لأنه أبوه والابن لا يلوم أباه وهذا تأويل فاسد فإن إبراهيم قد لام أباه.

ب ـ أن الذنب الذي أذنبه آدم كان في شريعة واللوم من موسى كان في شريعة أخرى.

انظر: الاحتجاج بالقدر لشيخ الإسلام (ص٣ ـ ٦)؛ وشرح الطحاوية بتحقيق العدني (ص١٦٤).

﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾ [غافر: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔاۗ﴾ [آل عمران: ١٢٠].

وأما قَولُ إبليس: ﴿رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي﴾ إنما ذُمَّ على احتجاجه بالقدر، لا على اعترافه بالمقدر وإثباته له، ألم تَسمَعْ قولَ نوح ﷺ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخۡبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٣﴾ [هود: ٢٣] ولقد أحسنَ القائلُ:[1]

فَـمـا شِـئْـتَ كَـانَ وَإِنْ لَـمْ أَشَـأْ وَمَـا شِـئْـتُ إِنْ لَـمْ تَـشَـأْ لَـمْ يَـكُـنْ

وعن وَهْبِ بن مُنَبِّه، أنه قال: نَظَرْتُ في القدر فَتَحَيَّرْتُ، ثم نَظَرْتُ فيه فتحيَّرتُ، ووَجَدْتُ أَعْلَمَ الناسِ بالقَدَرِ أكفَّهُمْ عنه، وأَجْهَلَ الناسِ بالقَدَرِ أَنْطَقَهُمْ به.

قوله: «يهدي من يشاء ويعصم ويعافي فضلاً، ويضل من يشاء ويخذل ويبتلي عدلاً».

هذا رَدٌّ على المعتزلة في قولِهم بوجوب فعلِ الأصلح للعبد على الله، وهي مسألة الهُدى والإضلال.

قالتِ المعتزلة: الهُدى مِن الله: بيانُ طريقِ الصَّواب، والإضلالُ: تسميةُ العبد ضالّاً، وحُكمه تعالى على العبدِ بالضلال عند خلق العبدِ الضلالَ في نفسه، وهذا مبني على أصلِهم الفاسِدِ: أن أفعالَ العبادِ مخلوقةٌ لهم، والدليلُ على ما قُلناه قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾ [القصص: ٥٦]، ولو كان الهُدى بيانَ الطريق، لما صَحّ هذا النفيُ عن نبيه، لأنه ﷺ بَيَّن الطريقَ لمن أحبَّ وأبغضَ، وقوله تعالى: ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَأٓتَيۡنَا كُلَّ نَفۡسٍ هُدَىٰهَا﴾ [السجدة: ١٣]، ﴿يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾ [المدثر: ٣١]، ولو كان الهُدى مِن الله: البيان، وهو عام في كُلِّ نفسٍ، لما صَحّ التقييدُ بالمشيئةِ، وكذلك قولُه تعالى: ﴿وَلَوۡلَا نِعۡمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ ٥٧﴾ [الصافات: ٥٧]، وقوله: ﴿وَمَن يَشَأۡ يَجۡعَلۡهُ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الأنعام: ٣٩].

قوله: «وكُلُّهُمْ يَتَقَلَّبُونَ في مَشِيئَتِه، بَيْنَ فَضْلِهِ وعَدْلِهِ».

---

(١) هو الشافعي. انظر: مناقب الشافعي للبيهقي (١/ ٤١٢).

فإنّهم كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٢] فَمَنْ هداه الله إلى الإيمانِ فبِفضْله، وله الحَمدُ، ومن أضلَّه فَبِعَدْلِهِ، وله الحمدُ، وسيأتي لهذا المعنى زيادةُ إيضَاحٍ إن شاء اللهُ تعالى، فإن الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ لم يَجْمَعِ الكلامَ في القدرِ في مَكَانٍ واحدٍ، بل فرَّقه فأتيتُ بهِ على ترتيبه.

قوله: «وَهُوَ مُتَعَالٍ عَنِ الأَضْدَادِ والأَنْدَادِ».

الضِّد: المخالف، والنِّد: المِثْلُ، فهو سبحانه لا معارِضَ له، بل ما شاء كان، وما لم يَشَأْ لم يكن، ولا مِثْلَ به، كما قال تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [الإخلاص: ٤]، ويُشيرُ الشيخُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بنفي الضِّد والنِّد إلى الرَّد على المعتزلة في زَعمِهم أنَّ العبد يخْلُقُ فِعْله.

قوله: «لا رادَّ لِقضَائِه، ولا مُعَقِّبَ لحُكْمِهِ، ولا غَالِبَ لأمْرِهِ».

أي: لا يَرد قضاءَ الله رادٌّ، ولا يُعَقِّبُ، أي: لا يؤخِّرُ حكمَه مؤخِّرٌ، ولا يَغلِبُ أمرَه غالِبٌ، بل هو اللهُ الواحِدُ القهّار.

قوله: «آمَنّا بِذَلِكَ كُلِّه، وأَيْقَنَّا أَنْ كُلّاً مِنْ عِنْدِهِ».

أما الإِيمانُ، فسيأتي الكلامُ عليه إن شاء الله تعالى، والإِيقان: والاستقرارُ، مِن قر الماءُ في الحوض: إذا استقر، والتنوينُ في «كلّاً» بدلُ الإضافة، أي: كل كائن مُحدَث مِن عند الله، أي بقضائه وقَدَرِه وإرادته ومشيئته وتكوينه. وسيأتي الكلامُ على ذلك في موضعه، إن شاء الله تعالى.



عناصر الموضوع:

١ غرض المصنف من عقد هذا الباب:

أ ـ تقرير مذهب أن أهل السنة والجماعة في إثبات شمول علم الله ﷻ لجميع الخلق، وأنه لم يخف عليه شيء قبل أن يخلقهم.

ب ـ الرد على المخالفين لأهل السنة والجماعة من أهل الأهواء وهم القدرية الذين أنكروا شمول علم الله لأفعال العباد.

٢ مناسبة هذا الباب لما سبق:

بعد ما قرر المصنف في الفصل السابق أن الله خلق الخلق بعلمه، يعلمهم قبل خلقهم ويعلمهم بعد خلقهم، خلافاً لأهل الأهواء من المعتزلة الذين يقولون إنه لا يعلم الخلق إلا بعد خلقهم، ناسب أن يقرر شمول علم الله ﷻ لجميع الخلق وأنه لم يخف عليه شيء قبل أن يخلقهم.

٣ معاني الكلمات:

الكلمة	المعنى
متعال	متنزه.
الضد	المخالف.
يعصم	يمنع الوقوع في الضلالة.
الند	المماثل والمكافئ.

٤ معنى قول الطحاوي: «ولم يخف عليه شيء قبل أن يخلقهم، وعلم ما هم عاملون قبل أن يخلقهم:

هذا تقرير لعلم الله الأزلي الذي يسبق الوجود، فعلمه تعالى سبق الموجودات، وأحاط بكل شيء علماً، ولا يكون إلا ما علم. وأمر بطاعته ونهى عن معصيته، وهذا بيان للمقصود من خلق الناس الذي هو عبادة الله وحده لا شريك له، كما

قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦]، فإذا فعل العبد ما أمر به وترك ما نهي عنه كان عابداً لله ﷻ.

ثم يعود المؤلف إلى موضوع القدر فيبين إحاطة الله ﷻ بمخلوقاته، وأن حركة المخلوق لا تخرج عن مشيئة الله، والمشيئة مشيئتان: كونية وشرعية، وللعبد مشيئة إلا أنها ليست مستقلة، بل مربوطة بمشيئة الله؛ لأنه خلق من خلق الله، فالله خلقه وخلق مشيئته وإرادته ومنها هداية الناس إلى الإسلام والاستقامة أو إضلالهم كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [المدثر: ٣١]. وكل ذلك بحكمته ﷻ وفضله وعدله.

والله ﷻ متفرد بالأمر والنهي والإرادة، ومشيئته نافذة لا محالة، فعلى العبد التصديق بذلك كله والتسليم لقضاء الله وقدره.

٥ علم الله سابق للمقادير:

علم الله سابق للمقادير، ومن مراتب القدر وأصوله: الإيمان بعلم الله الشامل لجميع الكائنات، وكتابته لها في اللوح المحفوظ، وكذا من مراتبه: إرادته ومشيئته وخلقه وإيجاده، ودل على إثبات علم الله الشامل قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾ [الحج: ٧٠]، هذا دليل على إثبات العلم والكتاب، وقال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾﴾ [الحديد: ٢٢]، وعلم الله شامل للماضي والمستقبل والحاضر.

٦ الأدلة النقلية والعقلية على ثبوت العلم لله:

قال تعالى: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٩].

وقال تعالى: ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ﴾ [النساء: ١٦٦].

وقال تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾﴾ [الجن: ٢٦].

وقال تعالى: ﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الأنعام: ٥٩].

أما الدليل العقلي على ثبوت العلم لله: فهو أنه يستحيل إيجاد المخلوقات مع الجهل، فالعقل يحيل إيجاد الأشياء مع الجهل، ولأن الإيجاد يستلزم الإرادة، والإرادة تستلزم تصور المراد، وتصور المراد هو العلم وقد سبق تفصيله في الباب السابق.

٧ القدرية الأولى تنكر العلم والكتابة:

القدرية الأولى تنكر العلم والكتابة وهم الذين قال فيهم الشافعي: (نَاظِرُوا القدريَّة بالعِلم، فإن أقرُّوا به خصِمُوا، وإن أنْكَرُوه كفروا)، فمن أنكر العلم والكتابة كفر، لأنه ينسب إلى الله الجهل.

المقصود أن القدرية الأولى قد انقرضت، أما عامة القدرية فهم يثبتون العلم والكتابة وينكرون عموم الإرادة والمشيئة(١).

٨ معنى قول الطحاوي: «وأمرهم بطاعته ونهاهم عن معصيته»:

ذكر الإمام الطحاوي هذا القول: «وأمرهم بطاعته ونهاهم عن معصيته» بعد ما انتهى من تقرير الخلق والقدر، فالله ﷻ خلق الخلق لعبادته وتوحيده وطاعته، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات: ٥٦]. ومعنى يعبدون: يوحدون بامتثال الأوامر واجتناب النواهي.

٩ الأدلة على إثبات مشيئة الرب:

قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝٣٠﴾ [الإنسان: ٣٠].

وقال: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٩﴾ [التكوير: ٢٩].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: ١١١].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ [الأنعام: ١١٢].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩].

وقال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

وقال تعالى حكاية عن نوح ﵇ إذ قال لقومه: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾ [هود: ٣٤].

وقال تعالى: ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٣٩].

إلى غير ذلك من الأدلة على أنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

---

(١) انظر: الهداية الربانية (ص٤٨).

(١٠) معنى كلام الطحاوي: «وكل شيء يجري بتقديره ومشيئته، ومشيئته تنفذ، لا مشيئة للعباد إلا ما شاء لهم، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن».

هذا بيان لمشيئة الرب، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، فكل شيء يجري وفق مشيئة الله.

أما مشيئة العباد فهي تابعة لمشيئة الله، ومشيئة الله نافذة لا تتخلف، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن. كل شيء شاءه الله لا بد أن يوجد، وما لم يشأ وجوده فإنه لا يكون، وكل شيء يجري بتقدير.

(١١) الفرق بين المشيئة والإرادة:

مشيئة الله نافذة لا تتخلف، والمشيئة هي إرادته الكونية، والمشيئة لا تنقسم أما الإرادة فهي تنقسم إلى قسمين:

أ ـ إرادة كونية قدرية وهي ترادف المشيئة.

ب ـ إرادة دينية شرعية وهي ترادف المحبة والرضا.

والإرادة الشرعية قد تقع وقد لا تقع، ولا يكون فيها إلا ما يحبه الله، أما المشيئة فهي تقع وتنفذ ويقع فيها ما يحبه الله وما لا يحبه.

(١٢) احتجاج المشركين بالمشيئة:

الكفار احتجوا على كفرهم بالمشيئة كقولهم: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾، ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾﴾ [النحل: ٣٥].

فهؤلاء المشركون احتجوا بالمشيئة فأنكر الله عليهم ذلك؛ لأن الله قد يشاء الشيء ولا يرضاه ولا يحبه، وأن الله أنكر عليهم أنهم جعلوا المشيئة دليلاً على الرضا والمحبة، وأنهم عارضوا شرع الله ودينه بالمشيئة، فلا يعارض ما شرعه الله بالمشيئة والإرادة الكونية علماً أن الإرادة الكونية يقع فيها ما يحبه الله وما لا يحبه الله ولا يتخلف مرادها، والله حكيم فيما يقدره ويشاؤه ﷻ، فإذا قدر الشرك على العبد فله الحكمة البالغة، ولا يكون هذا حجة له في جواز الشرك، ولو قدر المعصية على العبد فله الحكمة البالغة، ولا يكون هذا دليلاً على جواز فعل المعصية، فلهذا أنكر الله على المشركين.

المقصود أن هؤلاء لم يحتجوا بالقدر على الوجه الصحيح لأمور:

أ ـ إما ليعارضوا بين الشرع والقدر.

ب ـ أو لإبطال شرع الله.

ج ـ أو ليجعلوا مشيئته سبحانه مستلزمة لمحبته ورضاه.

ويمكن تلخيص المقصود من ذلك في الفقرات التالية:

١ ـ أنه تعالى أنكر عليهم ذلك؛ لأنهم احتجوا بمشيئته على رضاه ومحبته، وقالوا: لو كره ذلك وسخطه لما شاءه، فجعلوا مشيئته دليل رضاه، فرد الله عليهم، وأنكر عليهم ذلك.

٢ ـ أو أنه تعالى أنكر عليهم اعتقادهم أن مشيئة الله دليل على أمره به.

٣ ـ أو أنه تعالى أنكر عليهم معارضتهم شرعه وأمره الذي أرسل به رسوله وأنزل به كتبه بقضائه وقدره، فجعلوا المشيئة العامة رافعة للأمر، فلم يذكروا المشيئة على جهة التوحيد وإنما ذكروها معارضين بها لأمره دافعين بها لشرعه، كفعل الزنادقة الجهال إذا أمروا أو نهوا احتجوا بالقدر.

١٣ الإجابة على احتجاج آدم على موسى بالقدر:

وأما قصة موسى ﷺ مع آدم ـ وهي احتجاج آدم بالقدر على المصيبة ـ فنتلقاها بالقبول والسماع والطاعة لصحتها عن رسول الله ﷺ، ولا نتلقاها بالرد والتكذيب كما فعلت القدرية؛ لأن الصحيح أن آدم ﷺ لم يحتج بالقضاء والقدر على الذنب، وإنما وقع اللوم من موسى ﷺ لآدم على المعصية التي أخرجت أولاده من الجنة، فاحتج آدم بالقدر على المصيبة لا على الخطيئة، أي أن هذه المصيبة وهي الخروج من الجنة مقدرة.

ثم إن آدم ﷺ قد اعترف بذنبه وتاب منه. وللناس في حديث احتجاج آدم على موسى ثلاثة أقوال:

أ ـ القدرية: فقد أنكرت هذا الحديث لأن فيه دلالة واضحه على إثبات القدر السابق وعلمه تعالى بما سيكون.

ب ـ الجبرية: قبلت الحديث وأثبتته واحتجت به على أن العبد مجبور على أفعاله وليس فيه حجة لهم.

ج ـ مذهب أهل السنة والجماعة: أثبتوا الحديث ولهم فيه توجيهان: الأول: إن آدم لم يحتج بالقدر على الذنب بل احتج بالقدر على المصيبة وهي الخروج من الجنة وهذا أمر جائز، الثاني: أن آدم احتج بالقدر على الذنب وهذا جائز

بشروط أن يكون بعد وقوع الذنب والتوبة منه وترك معاودته[١].

١٤ معنى قول الطحاوي: «يهدي من يشاء ويعصم من يشاء فضلاً، ويضل من يشاء ويخذل ويبتلي عدلاً».

مسألة الهدى والضلال مسألة عظيمة هي من أهم مسائل الدين، قال بعض أهل العلم: «قلب أبواب القدر مسألة الهدى والضلال»، وأراد المؤلف رحمه الله تعالى الرد على القدرية والمعتزلة الذين يقولون: إنه يجب على الله فعل الأصلح للعبد، وهي مسألة الهدى والضلال، والقدرية أنكروا أن الله يهدي نفسه وهو الذي يضل نفسه، أما الله فلا يهدي أحداً ولا يضل أحداً[٢].

المقصود أن الله تعالى هو الذي يهدي من يشاء من عباده للإيمان ويعصمهم من الوقوع في الضلال والمعاصي ويعافيهم من ذلك، ومن آثاره الضارة في الدنيا والآخرة.

فمن هداه الله فهو فضل من الله تعالى ومنه توجب الشكر عليها، كما أنه ﷻ يضل من يشاء من خلقه ويخذلهم فيكلهم إلى أنفسهم، ويخلي بينهم وبين الشيطان فلا يعصمهم ويبتليهم بذلك فيقعون في الضلالة والمعصية، وذلك عدل منه ﷻ وهو الذي يهدي من يشاء ويضل من يشاء.

١٥ مراتب الهداية:

أ ـ المرتبة الأولى: الهداية العامة لكل مخلوق إلى مصالح معاشه، وهي لكل مخلوق، ويدخل في ذلك هداية الطفل إلى ثدي أمه، وهداية الإنسان إلى ما يصلحه في معاشه، وما يقيم به أمور حياته، دل على هذه الهداية قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى: ٢، ٣].

ب ـ هداية التوفيق والإلهام والتسديد، وجعل الإنسان يقبل الحق ويرضاه ويختاره، وهذه خاصة بالله لا يقدر عليها إلا الله، وهذه هي المنفية عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ۝٥٦﴾ [القصص: ٥٦] ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ

---

(١) انظر: الفتاوى (١٠/١٥٩)؛ وشفاء العليل (١/٤٦، ٥٧).

(٢) انظر: الهداية الربانية (ص٥١).

﴿مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٣٩]. فالله تعالى يهدي ويضل، فالهداية والإضلال بيد الله، والعبد هو الضال والمهتدي، ولا بد في وقوع هذه الهداية من أمرين:

الأمر الأول: الهداية من الله، يعني يهديه الله.

الأمر الثاني: الاهتداء من العبد فإذا هداه واهتدى حصلت له الهداية والتوفيق[1].

(١٦) المراد بالهداية في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾:

تبين مما سبق أن الهداية في قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦] هي هداية التوفيق والإلهام، إذ لو كان الهدى: بيان الطريق لما صح النفي عن النبي ﷺ؛ لأنه بيّن الطريق لما أحب الله وأبغض، ومعنى قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢] هداية بيان الطريق المستقيم والدعوة والإرشاد إليه، وهي التي يقدر عليها الخلق.

والهداية: التي يختص بها الرب هي هداية التوفيق والإلهام، والهداية التي يقدر عليها المخلوق هي هداية البيان والإرشاد.

(١٧) القدر يُحتج به عند المصائب لا عند المعائب:

لا يجوز الاحتجاج بالقدر على المعاصي، كما هو مذهب أهل السنة، ولذا ذم إبليس في قوله: ﴿رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى﴾ [الحجر: ٣٩] لاحتجاجه بالقدر على المعصية، فإن القدر يحتج به عند المصائب لا عند المعائب، فما قدر من المصائب يجب الاستسلام له فإنه تمام الإيمان بالله، وأما الذنب فليس للعبد أن يذنب محتجاً بالقدر، وإذا أذنب فعليه أن يستغفر ويتوب.

(١٨) حكمة الله في تقدير الكفر والمعاصي:

الله ﷻ شاء الكفر والمعاصي، وقدرها كوناً لحكمة بالغة، والذي ينسب إلى الله إنما هو الخلق والإيجاد، والذي ينسب إلى العبد هو المباشرة والكسب، ولهذا فإن الهداية والإضلال بيد الله، فالله تعالى يهدي ويضل، والعبد يباشر الفعل فيكون العبد هو المهتدي وهو الضال، والله يهدي ويضل، ﴿يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [المدثر: ٣١] ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٣٩]، ولا بد فيها من أمرين: الهداية والإضلال هذا من الله

---

(١) انظر: الهداية الربانية (ص٥٢).

تقديراً وخلقاً، والعبد منه الاهتداء والضلال والمباشرة والكسب[١].

١٩ الهداية عند المعتزلة:

الهداية عند المعتزلة هداية واحدة هي هداية الدلالة والإرشاد، أما هداية التوفيق فيردونها إلى هداية البيان والإرشاد، وهذا من أبطل الباطل، وهو مبني على أصلهم الفاسد، وهو قولهم بوجوب فعل[٢] الأصلح للعبد على الله، ومبني على أصلهم الآخر وهو القول بأن أفعال العباد مخلوقة لهم، فالعباد هم الذين خلقوا الهداية والضلال، وهم الذين يخلقون المعاصي والطاعات، ولو خص الله أحداً بالهداية وخذل أحداً لكان ظالماً عندهم والله عدل لا يجور.

٢٠ معنى الهداية عند المعتزلة:

الهداية عند المعتزلة: بيان طريق الصواب، والإضلال: تسمية العبد ضالّاً، أو يحكم عليه بالضلال لإضلاله نفسه.

وقالوا الهداية والإضلال بيد العبد وليست بيد الله، وتأولوا النصوص، مثل قوله تعالى: ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [النحل: ٩٣]. قالوا: يهدي، أي يسميه مهتدياً ويبين له طريق الصواب، ففسَّروها بهداية الدلالة والإرشاد، ويضل من يشاء، قالوا: يسميه ضالاً أو يحكم عليه بالضلال بعد أن يخلق الضلال من نفسه.

وهذا مبني على أصلهم الفاسد أن أفعال العباد مخلوقة لهم، وأن العباد هم خالقو الشر وزعموا أن مرادهم بذلك تنزيه الله عن أن يخلق الضلال والشر.

ومعتقد المعتزلة باطل مردود لغةً وفعلاً: أما من حيث اللغة فقد قال ابن القيم: «وليس في لغة من الأمم فضلاً عن أفصح اللغات وأكملها: «هداه» بمعنى سماه مهتدياً و«أضله» سماه ضالاً وهل يصح أن يقال: «علمه» إذا سماه عالماً. و«فهمه» إذا سماه فاهماً..؟»[٣].

---

(١) انظر: الهداية الربانية (ص٥٥).

(٢) المعتزلة يوجبون فعل الأصلح على الله، فإذا كلف أحداً من عباده بتكليف فامتثله فلا بدّ أن يثبه على ذلك، وإذا أصاب عبداً من عبيده بأذى لا بدّ أن يجعل ذلك محققاً لصلاحه ومنفعته، وإلا كان مُخلاً بواجبه وهذا قبح في التكليف، فإذا فعل سبحانه ما يضرهم استتبع ذلك ظلمهم وهذا باطل ومخالف لما عليه أهل السنة.

(٣) شفاء العليل (١/ ٢١٧).

أما من حيث النقل: يقال لهم نعم قد يكون الهدى من الله: بيان طريق الصواب ولكن حصرها بهذا النوع لا يُوافقون عليه، فإنه سبحانه وقد وصف نفسه بالهداية التي هي التوفيق والإلهام[1].

٢١ معنى كلام الطحاوي: و«كلهم يتقلبون في مشيئته بين فضله وعدله»:

العباد كلهم يتقلبون بين مشيئة الله وفضله، فيهدي من يشاء فضلاً منه وإحساناً، ويضل من يشاء عدلاً ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦]، فالله ﷻ عليم بالمحال التي تصلح للهداية، عليم بالمحل الذي يصلح لغرس الكرامة فيهديه، وعليم بالمحل الذي لا يصلح لغرس الكرامة فلا يهديه، والعباد والناس كلهم خلق الله وعبيده، يتصرف فيهم بما يشاء، ولم يمنع أحداً شيئاً له حتى يكون ظالماً، فالظلم هو أن تمنع أحداً من حقه وتحمله أوزار غيره، فالهداية والإضلال بيده ﷻ فهو يهدي من يشاء فضلاً وإحساناً ويضل من يشاء مشيئة وحكمة وعدلاً[2].

٢٢ معنى كلام الطحاوي: «وهو متعال عن الأضداد والأنداد»:

الله تعالى متعال عن الأضداد والأنداد:

والأضداد جمع ضد وهو المخالف، والأنداد جمع ند وهو المثل، فهو ﷻ لا مخالف له، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، فلا يمكن أن يخالفه شيء، ومشيئته نافذة، ولا مثل له ولا ند، كما قال تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ فلا ضد له، ولا مخالف له، ولا مثل له ﷻ.

٢٣ معنى كلام الطحاوي: «لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه ولا غالب لأمره»:

الله ﷻ هو القوي العزيز، فلا يرد قضاء الله أحد، ولا يؤخر حكمه؛ بل لا بد أن ينفذ قضاء الله، ولا يغلب أمر الله شيء، بل هو الغالب وهو الواحد القهار ﷻ، إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون[3].

٢٤ معنى كلام الطحاوي: «آمنا بذلك وأيقنا أن كلاً من عنده»:

أي آمنا وصدَّقنا وأيقنا بيقين مستقر في القلوب أن كل شيء يجري بقضاء الله وقدره وإرادته ومشيئته، ومشيئة الله نافذة وقدر الله ماض، وما أراده الله لا بد

---

(١) الفتاوى (٨/٧٨)؛ وشفاء العليل (١/٢١٧).

(٢) انظر: الهداية الربانية (ص٥٥). (٣) انظر: الهداية الربانية (ص٥٦).

أن يكون، وما أراده الله فينا فلا بد أن يوجد، آمنا بذلك وصدقنا واستقر في قلوبنا[(١)].

٢٥ **الخلاصة:**

١ ـ علم الله تعالى سبق الموجودات وأحاط بكل شيء علماً، ولا يكون إلا ما علم.

٢ ـ أمر الله بطاعته ونهى عن معصيته، وهذا بيان للمقصود من خلق الناس الذي هو عبادة الله وحده لا شريك له، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات: ٥٦]، فإذا فعل العبد ما أمر به وترك ما نهي عنه كان عابداً لله ﷻ.

٣ ـ إن حركة المخلوق لا تخرج عن مشيئة الله، وللعبد مشيئة إلا أنها ليست مستقلة بل مربوطة بمشيئة الله؛ لأنه خلق من خلق الله، فالله خلقه وخلق مشيئة العبد وإرادته.

٤ ـ الأدلة على إثبات مشيئة الرب متوافرة في الكتاب والسنة.

٥ ـ القدر يحتج به عند المصائب لا عند المعائب.

٦ ـ علم الله سابق للمقادير، ومن مراتب القدر وأصوله الإيمان بعلم الله الشامل لجميع الكائنات، وكتابته لها في اللوح المحفوظ، وكذا من مراتبه وإرادته ومشيئته وخلقه وإيجاده.

٧ ـ القدرية الأولى تنكر العلم والكتابة، وهم الذين قال فيهم الشافعي: (ناظروا القدرية بالعلم، فإن أقروا به خصموا، وإن أنكروه كفروا).

٢٦ **المناقشة:**

- **س١:** لماذا عقد المصنف هذا الباب؟
- **س٢:** اذكر بعضاً من الأدلة على ثبوت مشيئة الرب ﷻ.
- **س٣:** يحتج المشركون بالقدر على وقوع الشرك منهم، وضح ذلك مبيناً خطأ احتجاجهم، مع الرد عليهم.
- **س٤:** كيف ترد على من يحتج بالقدر على المعاصي؟
- **س٥:** كيف ترد على من يحتج بقصة آدم مع موسى في مسألة القدر؟

---

(١) انظر: الهداية الربانية (ص٥٦).

- **س٦:** هل يذم من يحتج بالقدر على المعاصي؟
- **س٧:** من أسلم الناس في القدر؟
- **س٨:** ما معنى الهداية عند أهل السنة؟ مبيناً أقسامها.
- **س٩:** ما معنى الهداية عند المعتزلة؟
- **س١٠:** اذكر الأدلة النقلية والعقلية على ثبوت العلم لله.
- **س١١:** ما الفرق بين المشيئة والإرادة؟

مبحث النبوات

* كلام ابن أبي العز:

١ ـ غرض المصنف من عقد هذا الباب.

٢ ـ مناسبة الباب لما سبق.

٣ ـ معاني الكلمات.

٤ ـ معنى كلام الطحاوي: «وأن محمداً عبده المصطفى، ونبيه المجتبى، ورسوله المرتضى. وأنه خاتم الأنبياء، وإمام الأتقياء، وسيد المرسلين وحبيب رب العالمين. وكل دعوى النبوة بعده فغي وهوى. وهو المبعوث إلى عامة الجن وكافة الورى، بالحق والهدى، بالنور والضياء».

٥ ـ حقيقة النبوة.

٦ ـ النبوة اصطفاء واختيار عند أهل السنة والجماعة.

٧ ـ المخالفون لأهل السنة في النبوة.

٨ ـ حاجة الناس إلى النبوة والرسالة.

٩ ـ وظائف الرسل.

١٠ ـ فوائد معرفة الأنبياء والإيمان بهم.

١١ ـ تعريف النبي والرسول وبيان الفرق بينهما.

١٢ ـ طرق إثبات النبوة عند أهل السنة.

١٣ ـ طريق المتكلمين في إثبات النبوة.

١٤ ـ حقيقة المعجزة عند أهل السنة.

١٥ ـ حقيقة المعجزة عند أهل الكلام.

١٦ ـ مقتضى الشهادة لمحمد ﷺ بالنبوة والرسالة.

١٧ ـ وجوب محبة الرسول ﷺ.

١٨ ـ معنى محبة الرسول ﷺ وكيف تكون.

١٩ ـ الإطراء والغلو منافيان لمحبته ﷺ.

٢٠ ـ كمال المخلوق في تحقيق العبودية لله.

٢١ ـ خصائص النبي ﷺ.

٢٢ ـ التوفيق بين قول النبي ﷺ: (لا تفضلوني على موسى)، وقوله: (أنا سيد ولد آدم ولا فخر).

٢٣ ـ شرح حديث: (لا ينبغي لعبد أن يقول أنا خير من يونس).

٢٤ ـ شرح حديث: (إن الله اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً).

٢٥ ـ مراتب المحبة.

٢٦ ـ كل دعوىٰ النبوة بعد النبي ﷺ فغي وهوى.

٢٧ ـ عموم بعثة النبي ﷺ للإنس والجن.

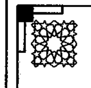
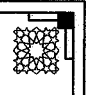
٢٨ ـ هل الرسل من الإنس فقط؟

٢٩ ـ موقف النصارى من بعثة النبي ﷺ.

٣٠ ـ تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ﴾ [سبأ: ٢٨].

٣١ ـ الخلاصة.

٣٢ ـ المناقشة.

مبحث النبوات

قال ابن أبي العز:

قوله: «وأنّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ المُصْطَفَى، ونَبِيُّهُ المُجْتَبَى، ورَسُولُه المُرْتَضَى».

الاصطِفاءُ والاجتباء والارتضاء: متقاربُ المعنى.

واعلم أن كمالَ المَخْلُوق في تحقيقِ عبوديته لله تعالى، وكلما ازداد العبدُ تحقيقاً للعبودية، ازدَاد كمالُه، وعَلَت دَرَجَتُه، ومَن تَوهّم أن المخلوقَ يخرُجُ عن العبودية بوجهٍ من الوجوه، وأن الخروجَ عنها أكملُ، فهو من أجهل الخلق وأضلِّهم، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأنبياء: ٢٦] إلى غيرِ ذلك من الآيات. وذَكَر اللهُ نبيّه باسم العبد[١] في أشرف المقامات، فقال في ذكر الإسراء: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ﴾ [الإسراء: ١]، وقال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن: ١٩]، وقال تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾﴾ [النجم: ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة: ٢٣]، وبذلك استحق التقديمَ على الناس في الدنيا والآخرة، ولذلك يَقُولُ المسيحُ عليه السلام يومَ القيامة، إذا طَلَبوا منه الشَّفَاعَةَ بعدَ الأنبياء عليهم السلام: (اذهَبُوا إلى مُحمَّدٍ، عَبْدٌ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ)[٢]، فحَصَلَت له تلك المرتبةُ بتكميل عبوديته لله تعالى.

وقوله: «وإنّ مُحَمّداً» بكسر الهمزة، عطفاً على قوله: «إنّ الله وَاحِدٌ لَا شَرِيكَ لَهُ». لأن الكل معمولُ القولِ، أعني: قوله: «نقول في توحيد الله».

والطريقةُ المشهورة عند أهل الكلام والنظر، تقريرُ نبوةِ الأنبياء بالمعجزات، لكنْ كثير منهم لا يَعرِفُ نبوةَ الأنبياء إلا بالمعجزات، وقرّروا ذلك بِطُرُقٍ مضطربة، والتَزَمَ كثيرٌ منهم إنكارَ خَرْقِ العادات لِغيرِ الأنبياء، حتى أنكروا كراماتِ الأولياء والسحر، ونحو ذلك[٣].

---

(١) انظر رسالة العبودية لشيخ الإسلام (ص٣١).

(٢) انظر: صحيح البخاري (٤٤٧٦)، وصحيح مسلم (١٩٣).

(٣) انظر: كتاب النبوات لشيخ الإسلام (ص٥).

ولا رَيبَ أن المعجزاتِ دليلٌ صحيحٌ، لكنّ الدليلَ غيرُ محصورٍ في المعجزات، فإنّ النبوة إنما يَدّعِيها أَصْدَقُ الصَّادِقِينَ، أو أَكْذَبُ الكاذبين، ولا يَلتبِسُ هذا بهذا إلا على أَجْهَلِ الجاهلين، بل قَرَائنُ أحوالهما تُعرِبُ عنهما، وتُعَرِّفُ بهما، والتمييزُ بينَ الصادق والكاذب له طُرُقٌ كثيرة فيما دونَ دعوى النبوة، فكيف بدعوى النبوة؟! وما أَحْسَنَ ما قال حسان رضي الله عنه:

لـو لَـمْ يَـكُـنْ فِـيـهِ آياتٌ مُـبـيِّـنـةٌ   كَـانَـتْ بَـدِيـهَـتُـهُ تَـأْتِـيـك بِـالـخَـبَـرِ

وما مِن أحدٍ ادَّعى النبوّة مِن الكذّابين إلا وقد ظَهَر عليه مِنَ الجهل والكَذِبِ والفجورِ واستِحْوَاذِ الشيطان عليه ما ظَهَرَ لِمَنْ له أدنى تمييزٍ، فإنّ الرسولَ لا بُدّ أن يُخْبِرَ الناسَ بأمورٍ، ويأمرَهم بأمور، ولا بُدّ أن يَفعَلَ أموراً يَبينُ بها صدْقُه، والكاذبُ يظْهرُ في نفس ما يَأْمرُ به، ويُخبِر عنه، وما يَفعلهُ ما يَبينُ به كَذِبُه من وجوه كثيرة، والصادِقُ ضِدُّه، بل كُلُّ شخصين ادَّعَيا أمراً: أحدُهُما صادِقٌ والآخَرُ كاذب، لا بُدَّ أن يَظْهَر صدقُ هذا وَكَذِبُ هذا ولو بعد مُدَّة، إذ الصِّدْقُ مستلزم للبِرِّ، والكَذِبُ مستلزم للفجور، كما في «الصحيحين» عن النبي ﷺ أنه قال: (عَلَيْكُم بالصِّدقِ، فإنَّ الصِّدق يَهْدِي إلى البِرِّ، وإنَّ البِرَّ يَهْدِي إلى الجنَّةِ، ومَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ ويَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عند اللهِ صِدِّيقاً، وَإِيَّاكُم والكَذِبَ، فإنَ الكَذِبَ يَهْدِي إلى الفُجُورِ، وإنَّ الفُجُورَ يَهْدِي إلى النَّارِ، ومَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ ويَتَحَرَّى الكَذِبَ حتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ كَذَّاباً)[1].

ولهذا قال تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَـٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾﴾ [الشعراء: ٢٢١ ـ ٢٢٦].

فالكُهَّان ونحوُهُم، وإن كانوا أحياناً يُخبِرُونَ بشيء من المغيبات، ويكون صدقاً: فمعهم مِنَ الكَذِبِ والفُجُورِ ما يُبينُ أن الذي يُخبِرُونَ به ليس عن مَلَكٍ، وليسوا بأنبياء. ولهذا لما قال النبي ﷺ لابن صَيَّاد: (قَدْ خَبَأْتُ لَكَ خَبيئاً؟) فقال: هو

(١) أخرجه مسلم (٢٦٠٧).

الدُّخُّ[1]، قال لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: (اخْسَأْ، فَلَنْ تَعْدُوَ قَدْرَكَ)[2]. يعني إنما أَنْتَ كَاهِنٌ. وقد قال للنبي ﷺ: (يَأْتِينِي صَادِقٌ وَكَاذِبٌ)[3]. وقال: أَرَى عَرْشاً عَلى الماءِ[4].

وذلك هو عرشُ الشيطان، وبيّنَ أن الشُّعَراء يتَّبِعُهُم الغاوون، والغاوي: الذي يَتَّبِعُ هواه وشَهْوَتَه، وإن كان ذلك مضراً له في العاقِبَة.

فَمَنْ عَرَفَ الرَّسُولَ وصِدْقَه ووفاءه ومُطَابَقَةَ قولِه لعمله، عَلِمَ علماً يقيناً أنه ليس بشاعرٍ ولا كاهن.

والناسُ يُميِّزُون بين الصادق والكاذب بأنواعٍ من الأدلة، حتى في المُدَّعي للصِّناعات والمقالات، كمَن يَدَّعي الفِلاحة والنِّساجة والكِتابة، وعِلْمَ النحو والطِّبِّ والفِقه وغيرِ ذلك.

والنبوة مشتملةٌ عى علومٍ وأعمال لا بُدَّ أن يتَّصِفَ الرَّسُولُ بها، وهي أَشْرَفُ العلوم وأَشْرَفُ الأعمال فكَيف يشتَبِهُ الصَّادق فيها بالكاذب؟! ولا رَيْبَ أن المحققين على أن خَبَرَ الواحد والاثنين والثلاثة قد يَقْتَرِنُ به مِنَ القرائِن ما يَحصُلُ معه العلمُ الضروريُّ كما يَعرِفُ الرجلُ رِضى الرجُلِ وحُبَّه وبُغْضَه وفَرَحَه وحُزنه وغير ذلك مما في نفسه بأمورٍ تظهر على وجهه، قد لا يُمْكِنُ التعبيرُ عنها، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْۚ﴾ [محمد: ٣٠]، ثم قال: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِۚ﴾، وقد قيل: ما أسرَّ أَحَدٌ سَرِيرةً إلا أظهرَها الله على صَفحاتِ وجهه، وفلتاتِ لسانه.

فإذا كان صِدْقُ المخبر وكَذِبُه يُعْلَمُ بما يَقْتَرِنُ مِن القرائن، فكيف بدعوى المدَّعي أنه رَسُولُ الله، كيف يخفى صِدْقُ هذا مِن كَذِبه، وكيف لا يَتميَّزُ الصادِق في ذلك من الكاذبِ بوجوهٍ من الأدلة؟!

---

(١) قوله: «الدخ» أي: الدخان، فابن صياد لم يهتد من الآية التي أضمرها له النبي ﷺ إلا هذا اللفظ الناقص على عادة الكهان، إذ إنما يُلقي الشيطان إليهم بقدر ما يختطف قبل أن يدركه الشهاب ويدل عليه قوله ﷺ: «اخسأ فلن تعدو قدرك». انظر: شرح الطحاوية بتعليق العدني (ص١٧١)؛ وإكمال المعلم بفوائد مسلم (٨/ ٤٧١).

(٢) أخرجه البخاري (١٣٥٤)، ومسلم (٢٩٣٠).

(٣) أخرجه البخاري (٦٢٧٣)، ومسلم (٢٩٣٠).

(٤) أخرجه مسلم (٢٩٢٥).

ولهذا لما كانت خَدِيجَةُ رضي الله عنها تَعْلَمُ مِن النبي ﷺ أنه الصادِقُ البَارُّ، قال لها لما جاءه الوَحْيُ: (إنِّي قَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي، فَقَالَتْ: كلا واللهِ لَا يُخْزِيكَ الله، إنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَصْدُقُ الحَدِيثَ، وتَحْمِلُ الكَلَّ[١]، وَتَقْرِي الضَّيْفَ[٢]، وَتَكْسِبُ المَعْدُومَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ[٣] الحَقِّ)[٤]، فهو لم يَخَفْ مِن تَعمُّدِ الكَذِبِ، فهو يَعْلَمُ مِن نفسه أنه لم يَكْذِبْ، وإنما خاف أن يكون قد عَرَضَ له عَارِضُ سوء، وهو المقامُ الثاني، فذكرت خديجةُ ما يَنفِي هذا، وهو ما كان مجبولاً عليه مِن مكارم الأخلاق، ومحاسن الشِّيَم، وقد عُلِمَ مِن سنة الله أنّ مَن جَبَلَه على الأخلاق المحمودة، ونَزَّهه عن الأخلاق المذمومة، فإنه لا يُخزِيه.

وكذلك قال النَّجاشيُّ لما استَخْبَرهم عما يُخْبِرُ به، واستَقْرأَهم القُرآنَ فقرأوا عليه: (إنَّ هذا والَّذِي جَاءَ به موسى عليه السلام لَيَخْرُجُ مِن مِشْكاةٍ واحِدَةٍ)[٥].

وكذلك وَرَقَةُ بن نوفل، لما أخبرَه النبيُّ بما رآه، وكان وَرَقَةُ قد تَنَصَّرَ، وكان يكتُبُ الإنجيلَ بالعربية، فقالت له خَدِيجةُ: (أَيْ عَمِّ، اسْمَعْ مِن ابْنِ أَخِيْكَ[٦] مَا يَقُولُ، فأَخبَرَهُ النَّبيُّ ﷺ بِمَا رَأى، فَقَالَ: هَذَا هو النَّامُوسُ[٧] الَّذِي كَانَ يَأْتِي مُوْسَى)[٨].

وكذلك هِرَقْلُ مَلِكُ الرومِ، فإنَّ النبيَّ ﷺ لما كَتَب إليه كِتَاباً يَدعُوه فيه إلى الإسلام، طَلَبَ مَن كان هناكَ مِنَ العرب، وكان أبو سفيان قد قَدِمَ في طائفةٍ مِن قريش في تجارة إلى الشام، وسَألهم عن أحوالِ النبيِّ ﷺ، فسأل أبا سفيان، وأَمَرَ الباقينَ، إن كَذَبَ أن يُكَذِّبُوه، فصاروا بِسُكُوتهم موافِقِينَ له في الإخبارِ:

سألهم: هَلْ كان في آبائه مِن مَلِكٍ؟ فقالُوا: لا.

---

(١) وهو الإنفاق على الضعيف واليتيم والعيال.
(٢) تحسن إلى الضيف.
(٣) النائبة الحادثة وإنما قيدت بالحق لأن النائبة قد تكون في الخير وقد تكون في الشر.
(٤) أخرجه البخاري (٣)، ومسلم (١٦٠).
(٥) أخرجه أحمد (١/ ٢٠١)، وقال الهيثمي في المجمع (٦/ ٢٤ ـ ٢٧): رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير ابن إسحاق.
(٦) قولها (ابن أخيك) هذا على سبيل التوقير.
(٧) الناموس: هو جبريل عليه السلام، انظر: شرح المشكاة (٢/ ٣٧٢٠).
(٨) أخرجه البخاري (٣).

قال: هَل قال هذا القَوْلَ أَحَدٌ قَبْلَه؟ فقالُوا: لا.

وسألهم: أَهُوَ ذو نَسَبٍ فيكم، فقالُوا: نَعَمْ.

وسألهم: هَلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمونَه بالكَذِبِ قَبْلَ أن يَقُولَ ما قال، فقالوا: لا، ما جَرَّبنا عليه كَذِباً.

وسألهم: هَلِ اتَّبَعَهُ ضُعَفَاءُ النَّاسِ أم أشرافُهُم؟ فذكروا أنَّ الضُّعَفَاءَ اتَّبَعُوه.

وسألهم: هل يَزِيدُون أم يَنْقُصُونَ؟ فذكروا أَنَّهُمْ يَزِيدُون.

وسألهم: هَلْ يَرْجِعُ أَحَدٌ منهم عن دينه سُخْطَةً له بَعْدَ أن يَدْخُلَ فيه؟ فقالوا: لا.

وسألهم: هَلْ قاتلتُموه؟ قالوا: نعم.

وسألهم: عن الحَرْبِ بَيْنَهُم وبَيْنَهُ، فقالوا: يُدَالُ علينا مَرَّةً، ويُدَالُ عليه أخرى.

وسألهم: هل يَغْدِرُ؟ فذكروا أنه لا يَغْدِرُ.

وسألهم: بماذَا يأمركم؟ فقالُوا: يأمُرُنا أن نَعْبُدَ الله وَحْدَه، ولا نُشرِكَ به شيئاً، وينهانا عَمَّا كان يَعْبُدُ آباؤنا، ويأمُرنا بالصَّلاةِ والصِّدْقِ والعَفَافِ والصِّلةِ.

وهذه أكثر مِن عشر مسائل، ثم بَيَّنَ لهم ما في هذه المسائل من الأدلة، فقال: سألتُكم هل كان في آبائِه مِن مَلِكٍ، فقلتم: لا، قلتُ: لو كان في آبائه من مَلِكٌ، لقلُت: رجلٌ يَطْلُبُ مُلْكَ أبيه.

وسألتُكم: هَلْ قال هذا القَوْلَ فيكم أَحَدٌ قبلَه؟ فَقُلْتُم: لا، فَقُلْتُ: لو قال هذا القَوْلَ أَحَدٌ قَبْلَهُ، لقلتُ: رَجُلٌ ائتَمَّ بِقَوْلٍ قِيلَ قَبْلَه.

وسألتكم: هل كُنْتُم تَتَّهِمُونَه بالكَذِبِ قَبْلَ أن يَقُولَ ما قَالَ؟ فَقُلْتُم: لا، فَقُلْتُ: قد عَلِمْتُ أنه لم يَكُنْ لِيَدَعَ الكَذِبَ على الناسِ، ثم يَذهبَ فيكذِبَ على الله تعالى.

وسألْتُكُم: أضُعَفاءُ الناسِ يَتَّبِعُونَه أم أَشْرَافُهم؟ فَقُلْتُم: ضُعفاؤُهم وهُم أَتْبَاعُ الرُّسُلِ، يعني في أَوَّلِ أمرهم.

ثم قال: وسألْتُكم: هل يَزِيدُون أم يَنْقُصُونَ؟ فَقُلْتُم: بل يَزِيدُونَ، وكذلك الإيمانُ حتى يَتِمَّ.

وسألتكم: هل يَرْتَدُّ أَحَدٌ مِنهم عن دينه سُخْطَةً له بعدَ أن يَدْخُلَ فيه؟ فقلتُم: لا، وكذلك الإيمانُ، إذا خَالَطَتْ بَشَاشَتُهُ القلوبَ لا يَسخَطُه أَحَدٌ.

وهذا مِن أَعْظَم علاماتِ الصِّدقِ والحق، فإن الكذبَ والباطلَ لا بُدَّ أن يَنْكَشِفَ في آخر الأمر، فَيَرْجِعَ عنه أصحابُه، ويَمْتَنِعَ عنه من لم يَدخُلْ فيه، والكَذِبُ لا يَرُوجُ إلا قليلاً ثمَّ يَنْكَشِفُ.

وسألتُكُمْ: كَيْفَ الحَرْبُ بينكم وبَينَهُ؟ فقلتُم: إنها دُوَلٌ، وكذلك الرُّسُلُ تُبْتَلَى، وتكُون العَاقِبَةُ لها.

قال: وسألتُكم هَلْ يَغْدِرُ؟ فقلتُم: لا، وكذلك الرُّسُلُ لا تَغْدِرُ[1].

وهو لما كان عندَه مِن علمه بعادَةِ الرسل وسنةِ الله فيهم، أنه تارةٌ يَنصُرُهم وتارةً يَبتَليهم، وأنهم لا يَغدِرُونَ: عَلِمَ أنَّ هذه علاماتُ الرسل، وأن سُنَّةَ الله في الأنبياء والمؤمنين أن يَبتَلِيَهم بالسَّرَّاءِ والضراءِ، لينالُوا درجةَ الشكر والصبر، كما في «الصحيح» عن النبي ﷺ أنه قال: (وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لا يَقْضِي اللهُ للْمُؤْمِنِ قَضَاءً إِلَّا كَانَ خَيْراً لَهُ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لأَحَد إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْراً لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ، فَكَانَ خَيْراً لَهُ)[2].

والله تعالى قد بَيَّن في القرآن ما في إدالةِ العدوِّ عليهم يومَ أُحُد من الحِكْمَةِ، فقال: ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ [آل عمران: ١٣٩]، وقال تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾﴾ [العنكبوت: ١، ٢]، إلى غير ذلك من الآيات، والأحاديثِ الدالة على سُنته في خلقه، وحكمته التي بَهَرَتِ العقولَ.

قال: وسألتُكم عما يَأْمُرُ به؟ فذكرتُم أنه يأمُركم أن تَعبُدوا الله ولا تُشرِكوا به شيئاً، ويأمُرُكم بالصلاة. والصِّدقِ والعفافِ والصِّلة، وينهاكم عما كان يعبُدُ آباؤُكم، وهذه صفةُ نَبيٍّ.

وقد كُنْتُ أعلمُ أن نبيّاً يُبعَثُ، ولم أكن أظُنُّهُ منكم، ولَودِدْتُ أنّي أَخْلُصُ إليه، ولولا ما أنا فيه مِن المُلْكِ لذَهبتُ إليه، وإن يَكُنْ ما تَقُولُ حَقّاً، فَسَيَمْلِكُ مَوْضِعَ قدميَّ هاتين.

وكان المُخَاطَبُ بذلك أبو سفيان بنُ حرب، وهو حينئذٍ كافرٌ مِنْ أشدِّ الناس بُغضاً وعداوةً للنبي ﷺ.

---

(١) أخرجه البخاري (٧).
(٢) أخرجه مسلم (٢٩٩٩).

قال أبو سفيان بنُ حرب: فقُلْتُ لأصحابي ونَحْنُ خروج: لقد أَمِرَ أَمْرُ ابن أبي كبشة، إنه ليُعَظِّمُهُ مَلِكُ بني الأَصْفَرِ، وما زِلْتُ موقناً بأن أمرَ النبي ﷺ سيَظْهَرُ، حتى أَدخَلَ الله عليَّ الإسلام وأنا كارِه[1].

ومما يَنبَغِي أن يُعْرَفَ: أن ما يَحْصُلُ في القلب بمجموع أمور، قد لا يَستقِلُّ بعضُها به، بل ما يَحْصُلُ للإنسان، من شِبَعٍ ورِيٍّ وشُكر وفَرَحٍ وغمٍّ بأمور مجتمعة، لا يَحصُلُ ببعضِها، لكن ببعضها قد يَحصُلُ بعضُ الأمر.

وكذلك العِلمُ بخبر من الأخبار، فإن خَبَرَ الواحد يُحَصِّلُ للقلب نوعَ ظن، ثم الآخر يُقويه، إلى أن ينتهيَ إلى العلمِ، حتى يتزايدَ ويقوى، وكذلك الأدلةُ على الصِّدْقِ والكذب ونحو ذلك.

وأيضاً فإنَّ الله سبحانه أبقى في العالَمِ الآثَارَ الدالةَ على ما فَعَله بأنبيائه والمؤمنين مِنَ الكرامة، وما فَعَله بمكذبيهم مِن العقوبة، كثبوت الطُّوفَانِ، وإغراقِ فرعونَ وجنودِهِ، ولما ذَكَر سبحانه قَصَصَ الأنبياءِ نبيّاً بعدَ نبي في سورة الشعراء، كقصة موسى وإبراهيم ونوح ومَنْ بعدَه، يقولُ في آخِرِ كُلِّ قِصة: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾﴾ [الشعراء: ٦٧، ٦٨].

وبالجملة، فالعِلْمُ بأنه كان في الأرض مَنْ يَقُولُ: إنه رَسُولُ الله، وأن أقواماً اتَّبعوهم، وأن أقواماً خالفوهم، وأن الله نَصَر الرُّسُلَ والمؤمنين، وجَعَل العاقِبَةَ لهم، وعَاقَب أعداءَهم، هو مِنْ أظهر العُلُومِ المتواترة وأجلاها.

ونَقْلُ أخبارِ هذه الأمور أظهرُ وأوضحُ مِن نقل أخبار مَنْ مضى من الأمم من ملوك الفرس، وعلماء الطب، كبقراط وجالينوس وبطليمُوس وسُقراط وأفلاطون وأرسطو، وأتباعه.

ونَحْنُ اليومَ إذا عَلِمْنا بالتواتُرِ من أحوال الأنبياء وأوليائهم وأعدائِهِمْ، عَلِمْنا يقيناً أنَّهم كانوا صادِقِينَ على الحقِّ من وجوهٍ متعددة:

منها: أنَّهُمْ أخبروا الأُمَمَ بما سَيَكُونُ من انتصارهم وخذْلانِ أولئك، وبقاء العاقبة لهم.

---

(١) أخرجه البخاري (٧).

ومنها: ما أَحْدَثَهُ اللهُ لهم مِن نصرهم، وإهلاكِ عدوهم، إذا عُرِفَ الوجهُ الذي حَصَلَ عليه، كَغَرَقِ فرعونَ، وغَرَقِ قومِ نوح، وبقية أحوالهم، عُرِفَ صدقُ الرسل.

ومنها: أن مَنْ عَرَفَ ما جاءت به الرُّسُلُ مِن الشرائع وتفاصيلِ أحوالها، تبيَّن له أنهم أعلمُ الخَلْقِ، وأنه لا يَحْصُلُ مِثْلُ ذلك مِن كذاب جاهل، وأن فيما جاؤوا به مِن المصلحة والرحمة والهُدَى والخير، ودلالة الخَلْقِ على ما يَنْفَعُهُمْ ومَنْعِ ما يضُرُّهم، ما يُبَيِّنُ أنه لا يَصْدُرُ إلا عن راحِم بَرٍّ يَقْصِدُ غَايَةَ الخير والمنفعة للخلق.

ولِذِكْرِ دلائِلِ نبوة محمدٍ ﷺ مِنَ المعجزات وبسطها مَوْضِعٌ آخَرُ، وقد أفردها الناسُ بمصنفات، كالبيهقي وغيره.

بل إنكارُ رسالته ﷺ طَعْنٌ في الرب تَبَارَكَ وتعالى، ونسبته إلى الظُّلْمِ والسَّفَهِ، تعالى الله عن ذلك عُلُوّاً كبيراً، بل جَحْدٌ للرب بالكُلية وإنكار.

وبيانُ ذلك: أنه إذا كان محمدٌ عندَهم ليس بنبيٍّ صَادِقٍ، بل مَلِكٌ ظالم، فقد تَهَيَّأَ له أن يَفْتَرِيَ على الله، ويَتَقَوَّلَ عليه، ويَسْتَمِرَّ حتى يُحَلِّلَ ويُحرمَ، ويَفْرِضَ الفَرَائضَ، ويُشَرِّعَ الشرائعَ، ويَنْسَخَ المِلَلَ، ويَضْرِبَ الرِّقاب، ويَقْتُلَ أَتْبَاعَ الرسل وهُمْ أهلُ الحق، ويَسبيَ نِساءَهم، ويَغنَمَ أموالَهم وذراريهم ودِيَارَهم، ويَتِمَّ له ذلك حتى يَفْتَحَ الأرضَ، ويَنسِبَ ذلك كُلَّه إلى أمرِ الله له به، ومحبته له، والربُّ تعالى يُشَاهِدُه وهو يَفْعَلُ بأهلِ الحق، وهو مستمر في الافتراء عليه ثلاثاً وعشرين سنة، وهو مع ذلك كُلِّهِ يُؤَيِّدُه ويَنصُرُهُ، ويُعْلِي أَمْرَهُ، ويُمكِّنُ له مِنْ أسبابِ النصر الخارجة عن عادةِ البشر، وأَبْلَغُ من ذلك أنه يُجيب دعواتِه، ويُهْلِكُ أعداءَه، ويَرفَعُ له ذكره، هذا وهو عندَهم في غايةِ الكذب والافتراء والظُّلْمِ، فإنه لا أظلمَ ممَّن كَذَبَ على الله، وأَبطَلَ شرائعَ أنبيائه، وبدَّلها، وقَتَلَ أولياءَه، واستَمَرَّت نُصرَتُه عليهم دائماً، والله تعالى يُقِرُّه على ذلك، ولا يأخُذُ منه باليمين، ولا يَقطَعُ منه الوَتِينَ.

فيَلزَمُهُم أن يقولوا: لا صانِعَ لِلْعَالَمِ، ولا مُدَبِّر، ولو كان له مُدبِّرٌ قدير حكيم، لأَخَذَ على يديه، ولَقَابله أعظمَ مقابلة، وجَعَلَه نكالاً للصالحين، إذ لا يَليقُ بالملوك غيرُ ذلِك، فكيفَ بملِكِ الملوك، وأحكمِ الحاكمين؟.

ولا رَيْبَ أن الله تعالى قد رَفَعَ له ذِكْرَه، وأَظْهَرَ دَعْوَتَه، والشهادة له بالنبوة على رؤوس الأشهادِ في سائرِ البلاد، ونحن لا نُنكِرُ أَنَّ كثيراً من الكذَّابين قام في الوجود، وظَهَرت له شوكةٌ، ولكن لم يَتِمَّ أمرُه، ولم تَطُلْ مُدَّتُه، بل سَلَّط الله عليه رُسُلَه وأتباعَهم، وقَطَعوا دابِرَه واستأصلوه، هذه سنةُ الله التي قد خَلَتْ من قَبْلُ، حتى إن الكفارَ يَعْلَمُون ذلك، قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ۝٣٠ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ۝٣١﴾ [الطور: ٣٠، ٣١]، أفلا تَراه يُخْبِرُ أن كمالَه وحِكمته وقُدْرَتَه تَأْبى أن يُقِرَّ مَنْ تَقَوَّلَ عليه بَعْضَ الأقاويل، لا بُدَّ أن يَجعَلَه عبرةً لعباده كما جَرَتْ بذلك سنته في المتقولِّين عليه. وقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ﴾ [الشورى: ٢٤]، وهنا انتهى جوابُ الشرط، ثم أخبَرَ خبراً جازماً غَيْرَ مُعَلَّق: أنه يَمحُو الباطِلَ، ويُحِقُّ الحَقَّ، وقال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ﴾ [الأنعام: ٩١]، فأخبرَ سبحانه أنَّ مَنْ نفى عنه الإرسالَ والكلام، لم يُقَدِّرْهُ حَقَّ قدره.

وقد ذكروا فُروقاً بَيْنَ النبيِّ والرسول، وأحسنُها: أن مَنْ نَبَّأَه الله بخبر السماء، إنْ أَمَرَه أن يُبَلِّغَ غيرَهُ، فهو نبيٌّ رسول، وإن لم يَأْمُرْه أن يبلِّغَ غيره، فهو نبي وليس برسول، فالرسولُ أخصُّ من النبي، فكل رسول نبي، ولَيْسَ كُلُّ نبي رسولاً، ولكن الرسالةَ أعمُّ من جهة نفسها، فالنبوَّةُ جُزْءٌ من الرسالة، إذ الرسالةُ تتناولُ النبوَّةَ وغيرها، بخلاف الرسل، فإنهم لا يتَناولُونَ الأنبياءَ وغيرَهم، بلِ الأمرُ بالعكس. فالرسالة أعمُّ من جهة نفسها، وأخصُّ من جهة أهلها.

وإرسالُ الرُّسلِ مِن أعظمِ نِعم الله على خلقه، وخصوصاً محمداً ﷺ، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝١٦٤﴾ [آل عمران: ١٦٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ۝١٠٧﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

قوله: «وأنَّه خاتم الأنبياءِ».

قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّۦنَ ۗ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، وقال ﷺ: (مَثَلِي ومَثَلُ الأَنْبِيَاء كَمَثَلِ قَصرٍ أُحْسِنَ بِنَاؤُهُ وتُرِكَ مِنْهُ مَوْضِعُ لَبِنَةٍ، فَطَافَ بِهِ النُّظَّارُ يَتَعَجَّبُونَ مِنْ حُسْنِ بِنَائِهِ، إِلَّا مَوْضِعَ تِلْكَ اللَّبِنَةِ، لَا يَعِيبُونَ سِوَاهَا، فَكُنْتُ أَنَا

سَدَدْتُ مَوْضِعَ تِلْكَ اللَّبِنَةِ، خُتِمَ بِي البُنْيَانُ، وخُتِمَ بِيَ الرُّسُلُ)، أخرجاه في الصحيحين[١].

وقال ﷺ: (إنَّ لي أَسْمَاءً: أَنَا مُحَمَّدٌ، وأَنَا أَحْمَدُ، وَأَنَا المَاحِي، يَمْحُو اللهُ بي الكُفْرَ، وَأَنَا الحَاشِرُ، الَّذِي يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى قَدَمَيَّ، وَأَنَا العَاقِبُ، والعَاقِبُ الَّذِي لَيْسَ بَعْدَهُ نَبِيٌّ)[٢].

وفي صحيح مسلم عن ثوبان، قال: قال رسول الله ﷺ: (وإِنَّهُ سَيَكُونُ في أُمَّتِي ثَلاثُونَ كَذَّابُونَ، كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ، وَأَنَا خَاتِمُ النَّبِيِّينَ، لا نَبِيَّ بَعْدِي)[٣]. الحديث.

ولمسلم: أن رسول الله ﷺ قال: (فُضِّلْتُ عَلَى الأَنْبِيَاءِ بِسِتٍّ، أُعْطِيتُ جَوَامِعَ الكَلِمِ، ونُصِرْتُ بِالرُّعْبِ، وأُحِلَّتْ لِي الغَنَائِمُ، وجُعِلَتْ لِي الأَرْضُ مَسْجداً وطَهُوراً، وأُرْسِلْتُ إلى الخَلْقِ كَافَّةً، وخُتِمَ بِي النَّبِيُّونَ)[٤].

قوله: «وإمام الأتقياء».

الإمامُ الذي يُؤْتَمُّ به؛ أي يَقتدون به، والنبيُّ ﷺ إنما بُعِثَ للاقتداء به، لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، وكُلُّ مَنِ اتَّبَعَهُ واقتدى به، فهو من الأتقياء.

قوله: «وسيِّد المرسلين».

قال ﷺ: (أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ القِيَامَةِ، وَأَوَّلُ مَنْ يَنْشَقُّ عَنْهُ القَبْرُ، وأَوَّلُ شَافِعٍ وأَوَّلُ مُشَفَّعٍ)[٥] رواه مسلم، وفي أول حديث الشفاعة: (أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ القِيَامَةِ)[٦]. وروى مسلم، والتِّرمذي عن واثلة بنِ الأسقع ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (إِنَّ اللهَ اصْطَفَى كِنَانَةَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ، واصْطَفَى قُرَيْشاً مِنْ كِنَانَةَ، واصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ، واصْطَفَانِي مِن بني هَاشِمٍ)[٧].

فإن قيل: يُشْكِلُ على هذا قولهُ ﷺ: (لَا تُفَضِّلُونِي عَلَى مُوسَى، فَإِنَّ النَّاسَ

---

(١) انظر: صحيح البخاري (٣٥٣٥)، وصحيح مسلم (٢٢٨٦) فهناك اختلاف في اللفظ.
(٢) أخرجه البخاري (٣٥٣٢)، ومسلم (٢٣٥٤).
(٣) انظر: صحيح مسلم (٢٨٨٩).
(٤) أخرجه مسلم (٥٢٣).
(٥) أخرجه مسلم (٢٢٧٨).
(٦) أخرجه البخاري (٣٣٤٠)، ومسلم (١٩٤).
(٧) أخرجه مسلم (٢٢٧٦).

يَصْعَقُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يَفِيقُ، فَأَجِدُ مُوسَى بَاطِشاً بساقِ العَرْشِ، فَلَا أَدْرِي: هَلْ أَفَاقَ قَبْلِي أَوْ كَانَ مِمَّنْ اسْتَثْنَى اللهُ)(١)، خرَّجاه في الصحيحين، فكيف يُجمَع بينَ هذا وبينَ قوله: (أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَم ولا فخر)(٢).

فالجوابُ: أن هذا كان له سببٌ، فإنَّه كان قد قال يهودي: لا والَّذِي اصطفى موسى على البشر، فَلَطَمَه مسلم وقال: أَتَقولُ هذا ورَسُولُ الله ﷺ بينَ أظهرنا؟ فجاءَ اليهوديُّ، فاشتكى مِنَ المسلم الذي لَطَمه، فقال النبيُّ ﷺ هذا؛ لأن التفضيلَ إذا كان على وجه الحَمِيَّةِ والعصبِيَّةِ وهوى النفسِ، كان مذموماً، بل نَفْسُ الجِهاد إذا قاتَل الرجل حَمِيَّةً وعَصَبِيَّةً كان مذموماً، فإن الله حَرَّمَ الفخرَ، وقد قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [الإسراء: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، فعُلِمَ أن المذْمُومَ إنما هو التفضيلُ على وَجْهِ الفخر، أو على وجه الانتقاصِ بالمفضولِ، وعلى هذا يُحْمَلُ أيضاً قولُه ﷺ: (لَا تُفَضِّلُوا بَيْنَ الأَنْبِيَاءِ)(٣)، إن كان ثابتاً، فإنَّ هذا قد رُوي في نفسِ حديث موسى، وهو في البخاري وغيرِه، لكِنَّ بَعْضَ الناسِ يقول: إنَّ فيه عِلَّةً، بخلاف حديثِ موسى، فإنَّه صحيحٌ لا علَّة فيه باتفاقهم.

وقد أجاب بعضُهم بجواب آخر، وهو: أن قولَه ﷺ: (لَا تُفَضِّلُونِي عَلَى مُوسَى)، وقوله: (لَا تُفَضِّلُوا بَيْنَ الأَنْبِيَاءِ) نهي عن التفضيل الخاص؛ أي: لا يُفَضَّلُ بَعْضُ الرسلِ على بعض بعينه، بخلاف قوله: (أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ ولَا فَخْرَ) فإنه تفضيل عامٌّ، فلا يُمْنَعُ منه، وهذا كما لو قيل: فلان أَفْضَلُ أهلِ البلد، لا يَنْصَبُ على أفرادهم، بخلاف ما لو قيل لأحدهم: فلان أَفْضَلُ منك. ثم إني رأيتُ الطحاوي رَحِمَهُ اللهُ قد أجاب بهذا الجواب في شرح معاني الآثار.

وأما ما يُرْوى أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: (لَا تُفَضِّلُونِي عَلَى يُونُسَ)(٤)، وأن بعض الشيوخ قال: لا يُفَسِّرُ لهم هذا الحديثَ حتى يُعْطَى مالاً جَزِيلاً، فلما أَعْطَوْهُ فَسَّرَه بأن قُرْبَ يُونُسَ من الله، وهو في بَطْنِ الحوت، كَقُربي من الله لَيلَةَ المعراج،

(١) أخرجه البخاري (٢٤١١)، ومسلم (٢٣٧٣).
(٢) أخرجه الترمذي (٣٦١٨)، وابن ماجه (٤٣٠٨).
(٣) أخرجه البخاري (٣٤١٤)، ومسلم (٢٣٧٣).
(٤) الحديث موضوع، انظر: مجموع الفتاوى (٢/ ٢٢٤) وتلبيس الجهمية (٢/ ٥٤٣).

وعَدُّوا هذا تفسيراً عظيماً. وهذا يَدُلُّ على جهلهم بكلام الله وبكلامِ رسوله لفظاً ومعنى. فإن هذا الحديثَ بهذا اللفظ لم يَرْوِه أحدٌ مِن أهل الكتبِ التي يُعْتَمَدُ عليها، وإنما اللفظُ الذي في الصحيح: (لَا يَنْبَغِي لِعَبْدٍ أَنْ يَقُولَ: أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بنِ مَتَّى)[1]. وفي رواية: (مَنْ قَالَ: إِنِّي خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بنِ مَتَّى فَقَدْ كَذَبَ). وهذا اللفظ يَدُلُّ على العموم؛ أي: لَا يَنْبَغِي لأَحَدٍ أَنْ يُفَضِّلَ نَفْسَهُ عَلَى يُونُسَ بنِ مَتَّى، ليس فيه نهي المسلمين أن يُفَضِّلُوا محمداً على يونس، وذلك لأنَّ الله تعالى قد أخبَر عنه أنه الْتقَمَه الحُوتُ، وهو مُليمٌ، أي: فاعل ما يُلَامُ عليه، وقال تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٧﴾ [الأنبياء: ٨٧]، فقد يَقَعُ في نفس بعض الناسِ أنه أَكْمَلُ مِن يونس، فلا يَحتَاجُ إلى هذا المقام؛ إذ لا يَفعَلُ ما يُلامُ عليه، ومن ظَنَّ هذا، فقد كَذَب، بل كُلُّ عبدٍ من عباد الله يقولُ ما قال يُونُسُ: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، كما قال أَوَّلُ الأنبياءِ وآخِرُهم.

فأَوَّلُهم: آدم، قد قال: ﴿رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

وآخِرُهم وأفْضَلُهم وسيِّدُهم: محمد ﷺ، قال في الحديث الصحيح، حديثِ الاستفتاح، من روايةِ علي بن أبي طالب رضي الله عنه وغيره، بَعْدَ قوله: (وَجَّهْتُ وَجْهِي)، إلى آخره: (اللَّهُمَّ أَنْتَ المَلِكُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَنْتَ رَبِّي وَأَنا عَبْدُكَ، ظَلَمْتُ نَفْسِي، واعْتَرَفْتُ بِذَنْبِي، فاغْفِرْ لِي ذُنُوبِي جَمِيعاً، لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ)[2] إلى آخر الحديث.

وكذا قال موسى عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي فَٱغۡفِرۡ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ١٦﴾ [القصص: ١٦]. وأيضاً فيونسُ ﷺ لما قيل فيه: ﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ﴾ [القلم: ٤٨]، فَنُهِيَ نبيُّنا ﷺ عن التشبه به، وأمره بالتشبه بأُولي العزم حيث قيل له: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، فقد يَقُولُ مَنْ يقول: أَنَا خَيْرٌ منه وليسَ للأفضلِ أن يَفْخَرَ على مَنْ دُونَه، فكيف إذا

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤١٥)، ومسلم (٢٣٧٦).

(٢) أخرجه مسلم (٧٧١).

لم يكن أفضَلَ، فإن الله لا يُحِبُّ كلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ. وفي صحيح مسلم عن النبي ﷺ أنه قال: (أُوحِيَ إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا، حَتَّى لَا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ، ولَا يَبْغِي أَحدٌ على أَحَدٍ)[١]، فالله تعالى نَهى أن يُفخَرَ على عُمُومِ المؤمنين، فكيف على نبي كريم! فلهذا قال: (لَا يَنْبَغِي لِعَبْدٍ أَنْ يَقُولَ: أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بنِ مَتَّى). فهذا نَهيٌ عام لكل أحد أن يَتَفَضَّل ويَفخَرَ على يونس.

وقوله: (مَنْ قَالَ: إِنِّي خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بنِ متَّى فَقَدْ كَذَبَ)، فإنه لو قُدِّرَ أنه كان أفضَلَ، فهذا الكلامُ يصيرُ نقصاً، فيكون كاذباً، وهذا لا يقولُه نبيٌّ كريم، بل هو تقديرٌ مطلق؛ أي: مَنْ قال هذا، فهو كاذب، وإن كان لا يَقُولُه نبي، كما قال تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥]، وإن كان ﷺ معصوماً مِن الشرك، لكنَّ الوعدَ والوعيدَ لبيان مقادير الأعمال.

وإنما أَخْبَرَ ﷺ أنه سَيِّدُ ولد آدم؛ لأنا لا يُمْكِنُنَا أن نَعْلَمَ ذلك إلا بخَبَرِه، إذ لا نبيَّ بعدَه يُخْبِرُنَا بعظيم قَدْرِه عند الله، كما أخبَرنا هو بفضائِلِ الأنبياءِ قبلَه، صلى الله عليهم وسلَّم أجمعين. ولهذا أَتبَعَه بقوله: (ولَا فَخْرَ) كما جاء في رواية، وهل يَقُولُ مَنْ يُؤْمِنُ بالله واليوم الآخر: إنَّ مقامَ الذي أُسْرِيَ به إلى ربه، وهو مقرَّب مُعَظَّم مُكرَّم، كمقام الذي أُلْقِيَ في بَطْنِ الحوتِ، وهو مُليمٌ! وأين المعظَّم المُقَرَّب من الممتَحنِ المؤدَّب! فهذا في غاية التقريب، وهذا في غاية التأديب. فانظر إلى هذا الاستدلالِ لأنه بهذا المعنى المحرَّف اللَّفظِ لم يَقُلْهُ الرسولُ، وهل يُقَاوِمُ هذا الدليلُ على نفي عُلُوِّ الله تعالى عن خلقه الأدلةَ الصحيحةَ الصريحةَ القطعيةَ على عُلُوِّ الله تعالى على خلقه، التي تَزِيدُ على ألف دليل، كما يأتي الإشارةُ إليها عند قولِ الشيخ رَحِمَهُ اللهُ: «محيط بكل شيء وفوقَه» إن شاء الله تعالى.

قوله: «وَحَبِيبُ رَبِّ العَالَمِينَ».

ثَبَتَ له ﷺ أعلى مراتِبِ المحبة، وهي الخُلَّة، كما صَحَّ عنه ﷺ أنه قال: (إِنَّ اللهَ اتَّخَذَنِي خَلِيلاً كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً)[٢]. وقال: (وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذاً مِنْ أَهْلِ الأَرْضِ خَلِيلاً، لاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلاً، ولَكِنَّ صَاحِبَكُم خَلِيلُ الرَّحمنِ)[٣].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٦٥).
(٢) أخرجه مسلم (٥٣٢).
(٣) أخرجه مسلم (٢٣٨٣).

والحديثان في الصحيح، وهما يُبْطِلَانِ قول مَنْ قال: الخلة لإبراهيم والمحبةُ لمحمد، فإبراهيمُ خليلُ الله، ومحمدٌ حبيبُه[(١)]. وفي الصحيح أيضاً: (إِنِّي أَبْرَأُ إلى كُلِّ خَلِيلٍ مِن خُلَّتِه)[(٢)].

والمحبة قد ثَبَتَتْ لِغَيْرِهِ، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤] ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ٧٦]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

فبَطَلَ قولُ مَنْ خَصَّ الخُلَّة بإبراهيم، والمحبةَ بمحمد، بل الخُلَّة خاصَّةٌ بهما، والمحبَّةُ عامة، وحديثُ ابن عباس رضي الله عنهما، الذي رواه الترمذي، الذي فيه: (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلُ اللهِ، أَلَا وَأَنَا حَبِيبُ اللهِ ولَا فَخْرَ)[(٣)] لم يَثْبُت.

والمحبة[(٤)] مراتب:

أولها: العِلَاقَةُ، وهي تَعَلُّقُ القَلْبِ بالمحبوب.

والثانية: الإرادةُ، وهي مَيْلُ القلبِ إلى محبوبه، وطلبُه له.

الثالثة: الصَّبابةُ، وهي انصِبَابُ القَلْبِ إليهِ، بحَيْثُ لا يَمْلِكُه صاحبُه، كانصبابِ الماء في الحُدور.

الرابعة: الغَرَامُ، وهي الحُبُّ اللازِمُ للقلب، ومنه الغَريمُ، لملازمته، ومنه: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ [الفرقان: ٦٥].

الخامسة: المَوَدَّةُ، والوُدُّ، وهي صَفْوُ المحبةِ وخالصُها ولبُّها، قال تعالى: ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ [مريم: ٩٦].

السادسةُ: الشَّغَفُ، وهي وُصُولُ المحبة إلى شَغاف القلب.

السابعة: العِشقُ: وهو الحُبُّ المُفرِط الذي يُخافُ على صاحبه منه، ولكن لا يُوصَفُ به الرَّبُّ تعالى، ولا العَبْدُ في مَحَبَّةِ ربِّه، وإن كان قد أطلقَه بعضُهم. واختُلِفَ في سبب المنع، فقيل: عَدَمُ التوقيف[(٥)]، وقيل غَيْرُ ذلك[(٦)]، ولعلَّ امتناعَ إطلاقه أنَّ العشق محبةٌ مع شهوة.

---

(١) انظر: روضة المحبين (ص٦٥). (٢) أخرجه مسلم (٥٣٢).

(٣) أخرجه الترمذي، وفي سنده زمعة بن صالح وسلمة بن وهرام وهما ضعيفان.

(٤) انظر: روضة المحبين (ص٣١ ـ ٦٩).

(٥) التوقيفي: هو الذي لا يثبت إلا بنص، انظر: حاشية عبد الله باطين على اللوامع (٣٨/١).

(٦) انظر: روضة المحبين (ص١٨٣).

الثامنة: التَّتَيُّم[١]، وهو بمعنى التَّعَبُّدِ.

التاسعة: التَّعَبُّدُ.

العاشرة: الخُلَّة، وهي المحبةُ التي تَخلَّلت رُوحَ المُحِبِّ وقلبه.

وقيل في ترتيبها غَيْرُ ذلك، وهذا الترتيبُ تَقْرِيبٌ حسن، لا يُعْرَفُ حُسْنُه إلا بالتأمُّل في معانيه.

واعلم أنَّ وَصْفَ الله تعالى بالمحبة والخُلَّة، هو كما يَليقُ بجلال الله تعالى وعظمته، كسائرِ صفاته تعالى، وإنما يُوصَفُ الله تعالى مِن هذه الأنواع بالإرادة والوُدِّ والمحبة والخُلَّة، حسبما وَرَدَ النص.

وقد اختُلِفَ في تحديد المحبة على أقوال، نحو ثلاثين[٢] قولاً، ولا تُحَدُّ المحبةُ بِحَدٍّ أوضحَ منها، فالحدودُ لا تَزيدُها إلا خفاءً، وهذه الأشياءُ الوَاضِحَةُ لا تحتاج إلى تحديد، كالماء والهواء والتراب والجوع ونحو ذلك.

قوله: (وكُلُّ دعوى النبوة بَعْدَهُ فَغيٌّ وهَوى).

ش: لَمَّا ثَبَتَ أنه خاتَمُ النبيين، عُلِمَ أن مَنِ ادَّعَى بعدَه النبوة، فهو كاذب، ولا يُقال: فلو جاء المدَّعي للنبوة بالمعجزات الخارقة، والبراهين الصادقة، كيف يقال بتكذيبه؟ لأنا نقولُ: هذا لا يُتصوَّر أن يُوجَدَ، وهو مِن باب فرض المحال؛ لأن الله تعالى لمَّا أخبَر أنه خاتَمُ النبيين، فَمِنَ المحال أن يأتيَ مُدَّعٍ يدَّعي النبوة، ولا يَظْهَرُ أمارةُ كَذِبه في دعواه. والغَيُّ: ضدُّ الرشاد، والهوى: عبارة عن شهوة النفس؛ أي: أن تلك الدعوىٰ بسبب هوى النفس، لا عن دليلٍ، فتكون باطلة.

قوله: (وهو المبعوث إلى عامَّة الجِنِّ وكافَّةِ الوَرَى، بالحقِّ والهُدَى، وبالنُّورِ والضِّياءِ).

ش: كونُه مبعوثاً إلى عامة الجن، فقال تعالى حِكَايَةً عن قَوْلِ الجن: ﴿يَٰقَوۡمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾ [الأحقاف: ٣١]، وكذا سورةُ الجن تَدُلُّ على أنه أُرسِل إليهم أيضاً،

---

(١) قال شيخ الإسلام: (التتيم: يقال: تيم الله أي: عبد الله فالمتيم: المعبَّد لمحبوبه). انظر: العبودية (ص٣٤).

(٢) انظر: روضة المحبين (ص٣٦).

قال مُقَاتِل: لم يَبْعَثِ اللهُ رسولاً إلى الإنس والجنِّ قبلَه، وهذا قولٌ بعيد، فقد قال تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ الآية [الأنعام: ١٣٠]، والرسلُ من الإنس فقط، وليس مِن الجن رسول، كذا قال مجاهد وغيرُه من السلف والخلف. وقال ابنُ عباس رضي الله عنهما: الرسلُ من بني آدم، ومن الجن نُذُرٌ. وظَاهِرُ قوله تعالى حكايةً عن الجن: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾ الآية [الأحقاف: ٣٠] يَدُلُّ على أن موسى مُرْسَلٌ إليهم أيضاً. والله أعلم.

وحكى ابنُ جرير عن الضحاكِ بن مزاحم: أنه زَعَمَ أن في الجن رسلاً، واحْتَجَّ بهذه الآية الكريمة، وفي الاستدلال بها على ذلك نَظَرٌ، لأنها محتملة وليست بصريحةٍ، وهي ـ والله أعلمُ ـ كقوله: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾﴾ [الرحمن: ٢٢] والمرادُ: من أحدهما.

وأما كونُه مبعوثاً إلى كافة الورى، فقد قال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨]، وقد قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وقال تعالى: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]، أي: وأُنْذِرُ مَنْ بَلَغَهُ، وقال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٧٩]، وقال تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ الآية [يونس: ٢]، وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾﴾ [الفرقان: ١]، وقال تعالى: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ﴾ [آل عمران: ٢٠].

وقال ﷺ: (أُعطِيتُ خَمْساً لَمْ يُعطَهُنَّ أَحَد مِنَ الأَنْبِيَاءِ قَبْلِي: نُصِرْتُ بالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وجُعِلَتْ لِي الأَرْضُ مَسْجِداً وطَهوراً، فأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصلاةُ فَلْيُصَلِّ، وأُحِلَّتْ لِي الغَنَائِمُ، ولَمْ تَحِلَّ لأَحَدٍ قَبْلِي، وأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ، وكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَث إلى قَوْمِهِ خَاصَّةً وبُعِثْتُ إلى النَّاسِ عَامَّةً)[١] أخرجاه في الصحيحين.

وقال ﷺ: (لَا يَسْمَعُ بي رَجُلٌ مِنْ هذه الأُمَّةِ يَهُودِيٌّ ولَا نَصْرَانِيٌّ، ثُمَّ لَا يُؤْمِنُ

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٥)، ومسلم (٥٢١).

بِي إِلَّا دَخَلَ النَّار)[١] رواه مسلم.

وكَونُه ﷺ مبعوثاً إلى النَّاسِ كافةً معلومٌ من دين الإسلام بالضرورة.

وأما قولُ بعضِ النصارى: إنه رسولٌ إلى العَرَبِ خاصَّة، فظاهر البطلان، فإنهم لما صدَّقوا بالرسالة، لَزِمَهم تصديقُه في كل ما يُخبِرُ به، وقد قال: إنَّه رسولُ اللهِ إلى الناس عامة، والرسولُ لا يَكذِبُ، فلَزِم تصديقُه حتماً، فقد أَرْسَلَ رُسُلَه، وبَعثَ كُتُبَه في أقطار الأرضِ إلى كِسرى وقيصرَ والنجاشيِّ والمقوقِس، وسائرِ ملوك الأطراف، يَدعو إلى الإسلام.

وقوله: وكافَّةِ الورى. في جر «كافة» نظر، فإنَّهم قالوا: لم تُسْتَعْمَلْ «كافة» في كلام العرب إلَّا حالاً، واختلفوا في إعرابها في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ﴾ [سبأ: ٢٨] على ثلاثة أقوال:

أحدُها: أنها حالٌ مِن «الكاف» في «أرسلناك» وهي اسمُ فاعل، والتاء فيها للمبالغة؛ أي: إلا كافّاً للناس عن الباطل، وقيل: هي مصدر «كَفَّ»، فهي بمعنى كفّاً؛ أي: إلا أن تَكُفَّ الناس كفّاً، ووقوعُ المصدر حالاً كثيرٌ.

الثاني: أنها حالٌ من «الناس»، واعتُرِضَ بأن حال المجرور لا يَتَقَدَّمُ عليه عند الجمهور، وأُجيبَ بأنه قد جاء عن العرب كثيراً فَوَجَبَ قَبولُه، وهو اختيارُ ابنِ مالك رَحِمَهُ اللهُ؛ أي: وما أرسلناك إلا للناسِ كافة.

الثالث: أنها صفةٌ لمصدر محذوف؛ أي: رسالةً كافة، واعترض بما تَقَدَّمَ أنها لم تُسْتَعْمَلْ إلا حالاً.

وقولُه: «بالحق والهدى، وبالنورِ والضياء». هذه أوصافُ ما جاءَ به رسول الله من الدِّين والشرع، المؤيَّدِ بالبراهين الباهرة، من القرآن وسائر الأدلة.

والضياءُ: أكمل من النور، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا﴾ [يونس: ٥].

---

(١) أخرجه مسلم (١٥٣).



الشرح

عناصر الموضوع:

١ غرض المصنف من عقد هذا الباب:

أ ـ تقرير مذهب أهل السنة والجماعة في النبوات، وبيان طريقهم في إثبات النبوة، وبيان خصائص المصطفى ﷺ على معاشر الناس.

ب ـ الرد على المخالفين لمذهب أهل السنة والجماعة في هذا الباب وهم:

١ ـ الفلاسفة: حيث زعموا أن النبوة تنال بالاكتساب.

٢ ـ المتكلمون: حيث زعموا أن النبوة لا تثبت إلا عن طريق المعجزات فقط.

٣ ـ المتصوفة الغلاة في النبي ﷺ: الذين يزعمون أن النبي ﷺ خُلق من نور الله، وأن الأنبياء خلقوا من نور محمد ﷺ، وادعوا محبة النبي ﷺ وأدخلوا تحتها أعمالاً مبتدعة.

٢ مناسبة هذا الباب لما سبق:

لمَّا بيَّن الشيخ رحمه الله تعالى في أول كلامه ما يجب من معرفة الله ﷻ، واعتقاد أنه الرب المستحق للعبادة دون ما سواه، وأنه متصف بصفات الكمال ونعوت الجلال التي هي متصف بها أزلاً وأبداً، لما بيّن هذا ووضحه انتقل إلى ما يجب اعتقاده في الرسول ﷺ(١).

٣ معاني الكلمات:

الكلمة	المعنى
الاصطفاء	الاجتباء والانتقاء والاختيار.
التواتر	ما رواه جمع يستحيل تواطؤهم على الكذب عن مثلهم إلى منتهاه، وكان مستندهم الحس.
خبر الواحد	ما لم يبلغ حد التواتر (وهو المشهور والعزيز والفرد).
الحد	التعريف.

(١) انظر: التعليقات المختصرة على العقيدة الطحاوية للفوزان (ص٥٦).

٤ معنى كلام الطحاوي: «وأن محمداً عبده المصطفى، ونبيه المجتبى، ورسوله المرتضى. وأنه خاتم الأنبياء، وإمام الأتقياء، وسيد المرسلين وحبيب رب العالمين. وكل دعوى النبوة بعده فغي وهوى. وهو المبعوث إلى عامة الجن وكافة الورى، بالحق والهدى، بالنور والضياء»:

اصطفى الله ﷺ محمداً واختاره على جميع البرية، ومحمد أشهر أسمائه؛ وذلك لكثرة ما فيه من الخصال الشريفة التي يُحمد عليها، وهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، من قريش من أوسط العرب نسباً، وأنفسها حسباً، وأعرقها مَحْتَداً، والعبودية هي أشرف المقامات للإنسان، وهو الرسول المرتضى الذي ارتضاه لخاتمة الرسالات، وهو أكثر الخلق خشية لله، واتقاء له، وهو سيد المرسلين كما قال ﷺ: **(أنا سيد ولد آدم ولا فخر)**[1]، وأما قوله: **(حبيب رب العالمين)** ففي هذه العبارة مؤاخذة؛ لأنه خليل رب العالمين والخلة أفضل من مطلق المحبة.

وكل دعوى النبوة بعد النبي ﷺ زيغ وضلال وهوى وبطلان، فمن ادعى النبوة بعده لنفسه أو لغيره فقد كفر، ومن صدقه في ذلك فقد كفر، بل ومن ارتاب في ذلك فقد كفر، فالمؤمن يؤمن أنه لا نبي بعده ﷺ، فهو الرسول المبعوث إلى الثقلين الجن والإنس، فكل رسول قبله كان يرسل إلى قومه خاصة، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٧] وقد أرسله الله بالحق والهدى، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾﴾ [الصف: ٩]، وأرسله بالنور الهادي إلى سواء السبيل، كما قال تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١٥].

٥ حقيقة النبوة:

النبوة واسطة بين الخالق والمخلوق في تبليغ شرعه، وسفارة بين الملك وعباده، فهي نعمة مهداة من الله تبارك وتعالى إلى عبيده وفضل إلهي يتفضل بها عليهم. هذا في حق المرسل إليهم، أما في حق المرسل نفسه فهي امتنان من الله يمن بها على من يشاء من عباده، واصطفاء من الرب له من بين سائر الناس، وهبة ربانية يختصه الله بها من بين الخلق كلهم[2].

---

(١) سبق تخريجه (ص٣١٠).

(٢) انظر: النبوات (١/ ١٩).

والفرق بين النبي والرسول من حيث اللغة فالنبي مشتق من النباء فهو منبئ عن الله؛ أي: مخبر. والرسول: مشتق من رَسَل وأصل الرسل الانبعاث على التؤدة ومنه الرسول المنبعث أما في الاصطلاح: فالنبي هو الذي ينبئه الله وهو ينبئ بما أنبأه الله به، فإن أرسل مع ذلك إلى من خالف الله ليبلغه رسالة من الله إليه فهو رسول وأما إذا كان إنما يعمل بالشريعة من قبله ولم يرسله هو إلى أحد يبلغه عن الله رسالة فهو نبي ليس برسول.

٦ النبوة اصطفاء واختيار عند أهل السنة والجماعة:

النبوة عند أهل السنة والجماعة اصطفاء من الله واختيار منه لعبده من بين سائر الناس، يختصه برحمته ويصطفيه بفضله وليست مجرد صفة إضافية، فالنبي يختصه الله بصفات ميزه الله بها على غيره، وبصفات فضله بها بعد البعثة[١].

٧ المخالفون لأهل السنة في النبوة:

أ ـ الفلاسفة: زعموا أن النبوة فيض يفيض على الإنسان بحسب استعداده، ونفوا أن ينزل الملك بالوحي على النبي، وزعموا أنه مجرد خطاب يسمعه الشخص كما يسمع النائم الخطاب[٢].

ب ـ النبوة عند الباطنية: نوع من أنواع السياسة العادلة التي وضعت لمصلحة العامة، مع عدم إيمانهم بأحوالها مطلقاً بل آمنوا ببعض وكذبوا ببعض[٣].

ج ـ النبوة عند الأشاعرة: النبوة عند الأشاعرة ليست صفة ثبوتية، بل هي من الصفات الإضافية، والنبوة عندهم مجرد إعلامه بما أوحاه إليه، والرسالة مجرد أمر تبليغ ما أوحاه إليه[٤] فجوز ـ أي الأشاعرة والجهمية ـ بعثة كل مكلف بناء على أصلهم أن يفعل كل ممكن، ولكنهم قيدوا إطلاقهم هذا بقولهم: إن النبي لا يكون فاجراً، وهذا يعلم بالسمع لا بالعقل[٥].

المقصود أن النبوة عند الأشاعرة ليست صفة ثبوتية بل هي صفة إضافية، لذا لم يميزوا بين معجزات الأنبياء وكرامات أتباعهم وبين خوارق السحرة والكهان[٦].

---

(١) انظر: النبوات (١/ ٣٠)، ومنهاج السنة (٥/ ٤٣٧، ٢/ ٤١٦).
(٢) انظر: النبوات (١/ ٣٤)، ومنهاج السنة (٥/ ٤٣٧).
(٣) انظر: النبوات (١/ ٣٥)، منهاج السنة (١/ ٦).
(٤) انظر: منهاج السنة (٢/ ٤١٤).
(٥) انظر: منهاج السنة (٢/ ٤١٩)، والنبوات (١/ ٣١).
(٦) انظر: النبوات (١/ ٣٢)، ومنهاج السنة (٥/ ٤٣٦).

د ـ **النبوة عند المعتزلة:** يذهب المعتزلة إلى أن إرسال الرسل واجب على الله بناء على أصلهم في التحسين والتقبيح العقليين.

والصواب أن إرسال الله تعالى لرسله هو بفضل من الله. والنبوة يجعلونها صفة ثبوتية[١].

٨ حاجة الناس إلى النبوة والرسالة:

«ومن هنا تعلم اضطرار العباد فوق كل ضرورة إلى معرفة الرسول وما جاء به وتصديقه فيما أخبر به، وطاعته فيما أمر به، لا سبيل إلى السعادة والفلاح لا في الدنيا ولا في الآخرة إلا على أيدي الرسل، ولا سبيل إلى معرفة الطيب والخبث على التفصيل إلا من جهتهم، ولا ينال رضى الله البتة إلا على أيديهم، فالطيب من الأعمال والأقوال والأخلاق ليس إلا هديهم وما جاءوا به، فهم الميزان الراجح الذي على أقوالهم وأعمالهم وأخلاقهم توزن الأقوال والأخلاق والأعمال.

وبمتابعتهم يتميز أهل الهدى من أهل الضلال، فالضرورة إليهم أعظم من ضرورة البدن إلى روحه، والعين إلى نورها، والروح إلى حياتها.

فأي ضرورة وحاجة فرضت فضرورة العبد إلى الرسل فوقها بكثير، وما ظنك بمن إذا غاب عنك هديه وما جاء به طرفة عين فسد قلبك وصار كالحوت إذا فارق الماء ووضع في المقلاة، فحال العبد عند مفارقة قلبه لما جاء به الرسل كهذه الحال، بل أعظم ولكن لا يحس بهذا إلا قلب حي، وما لجرح بميت إيلام»[٢].

٩ وظائف الرسل:

للرسل وظائف ومهمات يمكن إجمالها فيما يلي:

أ ـ دعوة الناس إلى عبادة الله وخلع عبادة ما سواه.

ب ـ تبليغ الرسالة الربانية إلى الناس وتبيين ما أنزل من الدين.

ج ـ دلالة الأمة إلى الخير وتبشيرهم بالثواب المعد إن فعلوه، وتحذيرهم من الشر وإنذارهم بالعقاب المعد إن اقترفوه.

د ـ إقامة شرع الله بين العباد وتطبيقه.

---

(١) انظر: النبوات (١/٣٣)، ومنهاج السنة (٢/٤١٥).

(٢) زاد المعاد (١/٦٩)، وانظر: مجموع الفتاوى (١٩/٩٩ ـ ١٠١).

هـ ـ شهادة الرسل على الأمم يوم القيامة بأنهم قد بلغوهم البلاغ المبين[١].

(١٠) فوائد معرفة الأنبياء والإيمان بهم:

ـ إن من تمام الإيمان معرفتهم بصفاتهم وسيرهم وأحوالهم.

ـ معرفة الأنبياء موجبة لشكر الله تعالى على بعثهم للناس.

ـ الرسل هم المربون للمؤمنين؛ وقبيح بالمؤمن جهل حال مربيه.

ـ معرفة الأنبياء طريق لمحبتهم محبة صادقة.

ـ معرفة الرسل معرفة تامة طريق لاتخاذهم قدوة وأسوة حسنة.

ـ معرفة الرسول ﷺ طريق لمعرفة الآيات المنزلة عليه، وفهمها.

إلى غير ذلك من الفوائد المفيدة والنتائج السديدة[٢].

(١١) تعريف النبي والرسول وبيان الفرق بينهما:

النبي لغة: مشتق من النبأ، فهو منبئ عن الله، أي: مخبر. وقيل: مشتق من النَّبْوَة، وهو ما ارتفع من الأرض[٣].

والرسول مشتق من رسل. وأصل الرسل الانبعاث على التؤدة، يقال: ناقة رسلة سهلة السير، وإبل مراسيل منبعثة انبعاثاً سهلاً، ومنه الرسول المنبعث[٤].

وقد اختلف أهل العلم في بيان الفرق بين الرسول والنبي، فيقول ابن أبي العز: ذكروا فروقاً بين النبي والرسول، وأحسنها أن من نبأه الله بخبر السماء إن أمره أن يبلغ غيره فهو نبي رسول، وإن لم يأمره أن يبلغ غيره فهو نبي، وليس برسول، فالرسول أخص من النبي، فكل رسول نبي وليس كل نبي رسولاً، ولكن الرسالة أعم من جهة نفسها، فالنبوة جزء من الرسالة إذ الرسالة تتناول النبوة وغيرها بخلاف الرسل، فإنهم لا يتناولون الأنبياء وغيرهم بل الأمر بالعكس، فالرسالة أعم من جهة نفسها وأخص من جهة أهلها.

ويرى شيخ الإسلام ابن تيمية أن النبي هو الذي ينبئه الله وهو ينبئ بما أنبأه الله به، فإن أرسل مع ذلك إلى من خالف الله ليبلغه رسالة من الله إليه فهو رسول،

---

(١) انظر: مقدمة المحقق لكتاب النبوات (١/٢٨ ـ ٢٩).

(٢) انظر: الشيخ عبد الرحمن بن سعدي وجهوده في توضيح العقيدة للعباد (ص١٩٩ ـ ٢٠٠).

(٣) انظر: الصحاح (١/٧٤)، ومقاييس اللغة (٥/٣٨٥)، ولسان العرب (١/١٦٢)، والمفردات (ص٤٨٢).

(٤) انظر: الصحاح (٤/١٢٠٨)، ومقاييس اللغة (٢/٣٩٢)، والمفردات (ص١٩٥).

وأما إذا كان إنما يعمل بشريعة من قبله ولم يرسله هو إلى أحد يبلغه عن الله رسالة فهو نبي وليس برسول[(١)].

وكلام شيخ الإسلام أقرب للصواب وأبعد عن الاعتراضات.

١٢ طرق إثبات النبوة عند أهل السنة:

ذكر الشارح عدة طرق لإثبات النبوة، وهي آيات ودلائل صحة دعواهم للنبوة أو الرسالة، وهي ما يلي:

١ ـ العلم بأحوالهم عليهم الصلاة والسلام.

٢ ـ نصرهم على أعدائهم وانتشار دعوتهم.

٣ ـ معرفة حقيقة دعوتهم وما جاؤوا به.

٤ ـ المعجزة.

٥ ـ بشارة الأنبياء السابقين.

٦ ـ أنهم أخبروا الأمم بما سيكون من انتصارهم وخذلان أعدائهم.

٧ ـ استحالة أن يجمعوا بين الكذب ونصرة الله لهم.

١٣ طريق المتكلمين في إثبات النبوة:

وخالف المتكلمون أهل السنة، فاقتصروا على طريق واحدة في إثبات النبوة وهي المعجزة، ولا شك أن المعجزات دليل صحيح على النبوة لكنها لا تكفي في إثباتها لأن الدليل غير محصور فيها، فإن النبوة قد يدعيها أصدق الصادقين أو أكذب الكاذبين ولا يلتبس هذا إلا على أجهل الجاهلين.

١٤ حقيقة المعجزة عند أهل السنة:

من دلائل النبوة ظهور المعجزات تأييداً للأنبياء والمرسلين في دعواهم، والمعجزة مأخوذة من العجز المقابل للقدرة، فهي اسم فاعل مأخوذ من العجز الذي هو زوال القدرة عن الإتيان بالشيء، واسم المعجزة يعم كل خارق للعادة. وقد استقر اصطلاح المتأخرين على تسمية ما يحصل من خوارق للنبي بالمعجزات، وما يحصل للأولياء بالكرامات وما يحصل للدجاجلة والسحرة بالأحوال الشيطانية.

---

(١) انظر: كتاب النبوات لابن تيمية (ص٢٥٥ فما بعدها).

والمعجزة عند أهل السنة: آية الله الخارقة الدالة على النبوة الصادقة.

(١٥) حقيقة المعجزة عند أهل الكلام:

أما المعجزة عند المتكلمين فهي أمر خارق للعادة مقرون بالتحدي مع عدم المعارضة على يد مدعي النبوة، ولها عندهم شروط سبعة وهي:

١ ـ أن تكون من فعل الله تعالى.

٢ ـ أن يكون الفعل فائقاً عن معروف البشر.

٣ ـ أن يتعذر على الناس معارضته.

٤ ـ أن يظهر على يد مدعي النبوة.

٥ ـ أن يكون على وفق الدعوى.

٦ ـ أن لا يكون ما ادعاه وأظهره مكذباً له.

٧ ـ أن لا يكون متقدماً على الدعوىٰ بل مقارناً لها.

(١٦) مقتضى الشهادة لمحمد ﷺ بالنبوة والرسالة:

تقتضي الشهادة لمحمد ﷺ بالنبوة والرسالة: الإيمان بمحمد ﷺ وتصديقه فيما أخبر، وطاعته فيما أمر، واجتناب ما نهى عنه وزجر، وأنه عليه الصلاة والسلام عبد لا يُعْبَدُ، ورسول لا يكذب، بل يطاع ويتبع، وأن طاعته ومحبته وتوقيره ﷺ لا يلزم منها عبادته، فطاعته ليست استقلالية إنما هي تابعة لطاعة الله.

(١٧) وجوب محبة الرسول ﷺ:

يجب على المسلم أولاً تقديم محبة الله ﷻ على كل شيء، قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

ثم يجب على العبد ثانياً محبة الرسول ﷺ؛ إذ هو الرحمة المهداة والنعمة المسداة، أرسله الله ﷻ إلى الناس بشيراً ونذيراً، ليخرجهم من الظلمات إلى النور، فإنه لا طريق إلى الجنة إلا بطاعته واتباع هديه وتقديم محبته على من سواه من الخلق.

وروى مسلم في صحيحه من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **(ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما...)**[١] الحديث.

---

(١) رواه مسلم (٤٣).

وقوله ﷺ: **(لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين)**(١).

١٨ معنى محبة الرسول ﷺ وكيف تكون؟

إن طريق محبته ﷺ ليست مجرد كلمة تقال، وإنما تتحقق باتباعه والاهتداء بهديه والاستنان بسنته وتقديم أمره على من سواه، قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [آل عمران: ٣١].

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [التوبة: ٢٤].

فميزان محبته ﷺ هو الاتباع والاقتداء به ﷺ.

١٩ الإطراء والغلو مناف لمحبته ﷺ:

إن محبة الرسول ﷺ يجب أن تكون في الإطار الذي حدده ﷺ بعيداً عن الإفراط والتفريط؛ فقد ثبت في الصحيح من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **(لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم، فإنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله)**.

وهذا يوضح أنه لا يصح دعاؤه(٢) ﷺ، ولا الاستغاثة به من دون الله، ولا طلب الشفاعة منه مباشرة، وإنما نسأل الله تعالى أن يرزقنا شفاعة نبينا ﷺ.

٢٠ كمال المخلوق في تحقيق العبودية لله:

كمال المخلوق في تحقيق عبوديته لله تعالى ـ وكلما ازداد العبد تحقيقاً للعبودية ازداد كماله وعلت درجته ـ، وأما من توهم أن مخلوقاً قد يرتقي ويخرج عن العبودية بوجه من الوجوه فهو من أجهل الخلق وأضلهم.

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأنبياء: ٢٦]. وذكر الله نبيه باسم العبد في أشرف المقامات قال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ١]، ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن: ١٩]، وبذلك استحق

(١) رواه مسلم (٤٤).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٤/ ١٤٢).

التقدم على الناس في الدنيا والآخرة؛ ولذلك يقول المسيح عليه السلام يوم القيامة: **(اذهبوا إلى محمد عبد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر)**، فحصلت له تلك المرتبة بتكميل عبوديته لله تعالى.

٢١ خصائص النبي ﷺ:

اختصَّ الله نبينا محمداً ﷺ بخصائص وميزات على سائر الأنبياء وهي:

١ ـ ختم النبوة: قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ [الأحزاب: ٤٠].

وقال ﷺ: **(مثلي ومثل الأنبياء كمثل رجل بنى بنياناً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون هلَّا وُضعت هذه اللبنة، قال: فأنا اللبنة، وأنا خاتم النبيين)**[1].

٢ ـ عموم الرسالة: قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وقال ﷺ: **(والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار)**[2].

٣ ـ السيادة على الناس والشفاعة يوم القيامة: قال ﷺ: **(أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول من ينشق عنه القبر، وأول شافع وأول مشفع)**[3].

٢٢ التوفيق بين قول النبي ﷺ: (لا تفضلوني على موسى)، وقوله: (أنا سيد ولد آدم ولا فخر):

وأما التوفيق بين الحديثين فحديث: **(لا تفضلوني على موسى)** قيل في وقت له سبب، فإن يهودياً قال: لا والذي اصطفى موسى على البشر، فلطمه مسلم وقال: أتقول هذا ورسول الله ﷺ بين أظهرنا؟ فنهى النبي ﷺ عن هذا التفضيل إذا كان على وجه المفاخرة؛ لأن الإسلام نهى عن المفاخرة في الأحساب، وقد يكون على سبيل النهي عن الحمية، وإلا فإن الرسول في مقام يقتضي ذلك. وأما الحديث الثاني فليس على إطلاقه بل هو من الإعلام لا الفخر، بدليل قوله: **(أنا ابن امرأة تأكل...)**

---

(١) رواه البخاري (٣٥٣٥)، ومسلم (٢٢٨٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) مسلم (١٥٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) مسلم (١٩٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الحديث، وقيل، المراد النهي عن التفضيل الخاص، أي لا يفضل بعض الرسل على بعض بعينه بينما قوله: (**سيد ولد آدم ولا فخر**) فإنه تفضيل عام فلا يمنع منه.

٢٣ شرح حديث: (لا ينبغي لعبد أن يقول: أنا خير من يونس):

معنى الحديث أن هذا نهي عام لكل أحد أن يفضل نفسه ويفتخر على يونس عليه السلام، وليس فيه نهي للمسلمين أن يفضلوا محمداً ﷺ على يونس؛ لأن الله قد أخبر عن يونس بأنه التقمه الحوت وهو مليم، أي فاعل ما يلام عليه. مع كون النبي ﷺ أسري به وارتقى حتى جاوز السبع الطباق وناجى ربه.

وأما الرواية الثانية فمعناها أن فيها تقديراً مطلقاً، أي من قال هذا فهو كاذب وإن كان لا يقوله نبي؛ لأنه لو قدر أنه كان أفضل يصير ناقصاً بهذا الكلام فيصبح كاذباً، كما قال تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥]؛ وذلك لأن فيه نوعاً من التفاخر بالنفس والمباهاة.

٢٤ شرح حديث: (إن الله اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً):

يخبر النبي ﷺ بخصيصة اختصه الله بها مع إبراهيم عليه السلام وهي اتخاذ الله عز وجل له خليلاً كما فعل بإبراهيم، والخلة هي أعلى درجات المحبة على الإطلاق.

وفي الحديث إثبات لصفة المحبة التي دلت عليها نصوص كثيرة، وإثبات أن الله تعالى اتخذ هذين الرسولين الكريمين خليلين.

ويرد بهذا الحديث على من زعم أن الخلة لإبراهيم والمحبة لمحمد ﷺ، والخلة خاصة بالخليلين محمد وإبراهيم عليهما السلام، وأما المحبة فهي عامة، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤]، وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، والنصوص في هذا الباب كثيرة..

٢٥ مراتب المحبة[1]:

مراتب المحبة عشر وهي:

١ ـ العلاقة: وهي تعليق القلب بالمحبوب.
٢ ـ الإرادة: وهي ميل القلب إلى محبوبه وطلبه له.
٣ ـ الصبابة: وهي انصباب القلب إليه بحيث لا يملكه صاحبه.
٤ ـ الغرام: وهو الحب الملازم للقلب، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ [الفرقان: ٦٥].

---

(١) انظر: روضة المحبين (ص٣١ ـ ٦٩).

٥ ـ المودة: وهي صفو المحبة وخالصها ولبها، قال تعالى: ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ [مريم: ٩٦].

٦ ـ الشغف: وهو وصول المحبة إلى شغاف القلب.

٧ ـ العشق: وهو الحب المفرط الذي يخاف على صاحبه منه ـ ولكن لا يوصف به الله ﷻ ولا العبد في محبة ربه ـ وإن كان قد أطلقه بعضهم على محبة العبد لربه، واختلف في سبب المنع فقيل عدم التوقيف حيث لم يرد بها نص، ولعل امتناع إطلاقه في حق الله أن العشق محبة مع الشهوة.

٨ ـ التتيُّم[1]: وهو بمعنى التعبد.

٩ ـ التعبد.

١٠ ـ الخلة: وهي المحبة التي تخللت روح المحب قلبه، وهي أعلى الدرجات.

ولا يصح إطلاق أي من هذه المراتب في حق الله تعالى خلا ثلاث مراتب هي: الإرادة والود والخلة لثبوت النص بها، وكذلك إطلاق صفة المحبة عموماً لورود النصوص المتوافرة بوصف الله تعالى بها.

٢٦ كل دعوىٰ النبوة بعد النبي ﷺ فغي وهوى:

يؤخذ من كون الرسول ﷺ خاتم الأنبياء أن كل من ادعى النبوة بعده فهو كاذب. وإذا ادعى إنسان النبوة وجاء بالبراهين فيقال بتكذيبه؛ لأنه لا يتصور أن يوجد. وهو من باب فرض المحال لأن الله أخبرنا بأن محمداً آخر الأنبياء، حيث قال تعالى في حقه: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، وأما الغي فهو ضد الرشاد وهو بمعنى الزيغ والانحراف، والهوى عبارة عن شهوة النفس، أي تلك الدعوى بالنبوة بعده ﷺ إنما تكون بسبب هوى النفس، لا عن دليل، فتكون باطلة.

٢٧ عموم بعثة النبي ﷺ للإنس والجن:

الدليل على رسالته ﷺ للجن قوله تعالى حكاية عنهم: ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨]، وقد بعث الله قبله رسلاً إلى الجن قال تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٠].

---

(١) في العبودية لشيخ الإسلام (ص٣٤) «التتيمم: يقال تيمم الله؛ أي: عبد الله. فالمتيم: المعبد لمحبوبه».

٢٨ هل الرسل من الإنس فقط؟

اختلف العلماء في الرسل، هل يجوز أن يكونوا من الجن أم هم من الإنس فقط على قولين:

الأول: أن الرسل من الإنس فقط، وبه قال جماعة من السلف، قال ابن عباس: (**الرسل من بني آدم، ومن الجن النذر**)، وهو الذي ذهب إليه ابن جرير والقرطبي وابن كثير وغيرهم.

ومن الأدلة عليه قوله في حق الجن: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الأحقاف: ٢٩]، وقوله تعالى عن إبراهيم: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ [العنكبوت: ٢٧].

الثاني: أن في الجن رسلاً، حكاه ابن جرير عن الضحاك بن مزاحم مستدلاً بقوله تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ الآية [الأنعام: ١٣٠].

والراجح القول الأول، وأما الآية التي استدل بها أهل القول الثاني ففيها احتمال وليست صريحة، ومعنى قوله تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ أي: ألم يأتكم رسل من أحدكم يعني من الإنس والجن وهذا مثل ونظير قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾﴾ فقوله: ﴿مِنْهُمَا﴾ أي: من البحرين المالح والحلو فقوله: ﴿مِنْهُمَا﴾ أي: من أحدهما[1].

٢٩ موقف النصارى من بعثة النبي ﷺ:

بعضهم يقول: إنه رسول إلىٰ العرب خاصة، وهو باطل، فإنهم رأي النصارىٰ إن صدقوه في الرسالة لزمهم تصديقه فيما أخبر، حيث قال: (كان كل رسول يرسل إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس عامة)، والرسول لا يكذب فلزم تصديقه، فقد بعث كتباً إلى كسرى وقيصر والنجاشي يدعوهم إلى الإسلام، والكثير منهم لا يصدقون بنبوته أصلاً بل ينكرونها.

٣٠ تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾ [سبأ: ٢٨].

أي: عامة، لجميع الخلائق.

وتستعمل كافة في كلام العرب حالاً فقط، واختلفوا في إعرابها بالآية المذكورة على ثلاثة أقوال:

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (٧/ ٨٦).

الأول: أنها حال من الكاف في «أرسلناك»، وهي اسم فاعل، والتاء فيها للمبالغة، أي: كافاً للناس عن الباطل، وقيل: هي مصدر كف.

الثاني: قيل هي حال من الناس.

الثالث: وقيل هي صفة لمصدر محذوف، أي: رسالة كافة، واعترض عليه بأنها لم تأت إلا حالاً.

(٣١) الخلاصة:

١ ـ اصطفى الله ﷻ محمداً واختاره على جميع البرية، ومحمد أشهر أسمائه، وذلك لكثرة ما فيه من الخصال الشريفة التي يحمد عليها، وهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، من قريش من أوسط العرب نسباً، وأنفسها حسباً، وأعرقها محتداً، وهو الرسول المرتضى الذي ارتضاه لخاتمة الرسالات.

٢ ـ العبودية هي أشرف المقامات للإنسان.

٣ ـ كل دعوى النبوة بعد النبي ﷺ زيغ وضلال وهوى وبطلان.

٤ ـ حاجة الناس إلى النبوة والرسالة فوق كل حاجة، وضرورة فوق كل ضرورة، وبمتابعتهم يتميز أهل الهدى من أهل الضلال.

٥ ـ لإثبات النبوة طرق عديدة عند أهل السنة بخلاف المتكلمين الذين اقتصروا على طريق واحدة، وهي المعجزة.

٦ ـ لا شك أن المعجزات دليل صحيح على النبوة، لكنها لا تكفي في إثباتها، لأن الدليل غير محصور فيها.

٧ ـ المعجزة عند أهل السنة: منحة من الله تعالى يجريها لمن يشاء من خلقه.

٨ ـ كمال المخلوق في تحقيق عبوديته لله تعالى، وكلما ازداد العبد تحقيقاً للعبودية ازداد كماله وعلت درجته.

٩ ـ اختص الله نبينا محمداً ﷺ بخصائص وميزات على سائر الأنبياء وهي: ختم النبوة، وعموم الرسالة، والسيادة على الناس والشفاعة يوم القيامة.

١٠ ـ النبوة عند أهل السنة اصطفاء واختيار، وليست اكتساباً كما عند الفلاسفة.

١١ ـ مراتب المحبة عشر وهي: العلاقة والإرادة والصبابة والغرام والمودة والشغف والعشق والتتيم والتعبد والخلة.

١٢ ـ لا يصح إطلاق أي من هذه المراتب في حق الله تعالى ما عدا ثلاث مراتب هي: الإرادة والود والخلة لثبوت النص بها، وكذلك إطلاق صفة المحبة عموماً لورود النصوص المتوافرة بوصف الله تعالى بها.

١٣ ـ عموم بعثة النبي ﷺ للإنس والجن.

١٤ ـ الرسل من الإنس فقط على الراجح من الأقوال.

١٥ ـ تقتضي الشهادة لمحمد ﷺ بالنبوة والرسالة: الإيمان به ﷺ وتصديقه فيما أخبر، وطاعته فيما أمر، واجتناب ما نهى عنه وزجر، وأنه عليه الصلاة والسلام عبد لا يُعبَدُ، ورسول لا يكذب، بل يطاع ويتبع، وأن طاعته ومحبته وتوقيره ﷺ لا يلزم منها عبادته، فطاعته ليست استقلالية، إنما هي تابعة لطاعة الله.

١٦ ـ إن طريق محبته ﷺ ليست مجرد كلمة تقال، وإنما تتحقق باتباعه والاهتداء بهديه والاستنان بسنته وتقديم أمره على من سواه.

١٧ ـ الإطراء والغلو منافيان لمحبته ﷺ.

(٣٢) المناقشة:

- **س١:** بأي شيء يحصل كمال العبد؟ وبما استحق النبي ﷺ التقدم والرفعة على الأنبياء؟ ما الدليل على ما تقول؟
- **س٢:** هل النبوة اختيار واصطفاء أم اكتساب؟ وضح ذلك مع بيان المذاهب في المسألة.
- **س٣:** ما الأدلة العقلية والنقلية على صدق الأنبياء؟
- **س٤:** هل تكفي المعجزات في تقرير النبوة؟ علل ذلك.
- **س٥:** ما حكم من أنكر رسالة الرسول؟
- **س٦:** ما الفرق بين النبي والرسول؟
- **س٧:** كيف توفق بين قول النبي ﷺ: **(لا تفضلوني على موسى)**، وقوله: **(أنا سيد ولد آدم ولا فخر)**؟
- **س٨:** ما معنى قوله ﷺ: **(لا ينبغي لعبد أن يقول: أنا خير من يونس)**؟
- **س٩:** هل المحبة والخلة خاصتان بإبراهيم ومحمد عليهما الصلاة والسلام؟ أم ماذا؟ وضح ذلك مع الأدلة.
- **س١٠:** بين مراتب المحبة، ثم وضح ما يجوز فيها في حق الله تعالىٰ.

- **س١١:** ما الدليل على عموم بعثة النبي ﷺ للإنس والجن؟
- **س١٢:** هل الرسل من الإنس فقط؟ وضح ذلك.
- **س١٣:** هل يؤمن النصارى ببعثة محمد ﷺ أم لا؟ وكيف ترد عليهم؟
- **س١٤:** ما إعراب «كافة» في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾؟
- **س١٥:** عدد وظائف الرسل.
- **س١٦:** ماذا تقتضي الشهادة لمحمد ﷺ بالنبوة والرسالة؟
- **س١٧:** بيِّن كيف تكون محبة الرسول ﷺ؟
- **س١٨:** ما الذي يؤخذ من كون الرسول ﷺ خاتم الأنبياء؟ وإذا جاء المدعي للنبوة بالمعجزات الخارقة فكيف يرد عليه؟ وما معنىٰ الغي والهوىٰ في كلام الشيخ، حيث قال: [وكل دعوىٰ النبوة بعده فغي وهوىٰ]؟.

القرآن كلام الله غير مخلوق

* كلام ابن أبي العز:

١ ـ غرض المصنف من عقد هذا الباب.

٢ ـ مناسبة هذا الباب لما سبق.

٣ ـ معاني الكلمات.

٤ ـ معنى كلام الطحاوي: «وأن القرآن كلام الله، منه بدا بلا كيفية قولاً. وأنزله على رسوله وحياً، وصدقه المؤمنون على ذلك حقّاً، وأيقنوا أنه كلام الله تعالى بالحقيقة، ليس بمخلوق ككلام البرية، فمن سمعه فزعم أنه كلام البشر فقد كفر، وقد ذمه الله وعابه وأوعده بسقر، حيث قال تعالى: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ۝٢٦﴾ [المدثر: ٢٦]، فلما أوعد الله بسقر لمن قال: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ۝٢٥﴾ [المدثر: ٢٥]، علمنا وأيقنا أنه قول خالق البشر، ولا يشبه قول البشر. ومن وصف الله بمعنى من معاني البشر فقد كفر، فمن أبصر هذا اعتبر، وعن مثل قول الكفار انزجر، وعلم أنه بصفاته ليس كالبشر.

٥ ـ معنى قول الطحاوي: «منه بدا بلا كيفية قولاً».

٦ ـ عرض عقيدة أهل السنة والجماعة في كلام الله إجمالاً.

٧ ـ عرض عقائد أهل البدع في كلام الله والرد عليها إجمالاً.

٨ ـ نشأة بدعة الكلام النفسي.

٩ ـ حجج من قال ببدعة الكلام النفسي والجواب عليها.

١٠ ـ دعوى المعتزلة أن كلام الله مخلوق والرد عليها.

١١ ـ الأدلة من الكتاب والسنة لتكليم الله ﷻ لأهل الجنة.

١٢ ـ اللوازم الباطلة لقول الاتحادية في مسألة الكلام.

١٣ ـ مناقشة عبد العزيز المكي لبشر المريسي في مسألة الكلام.

١٤ ـ الرد على من قال: إن القرآن أحدثه جبريل أو محمد ﷺ.

١٥ ـ معنى القرآن في اللغة.

١٦ ـ الفرق بين كون القرآن في زبر الأولين وكونه في رق منشور أو لوح محفوظ.

١٧ ـ معنى قول السلف: «منه بدا وإليه يعود».

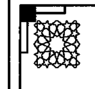
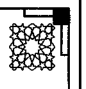
١٨ ـ الفرق بين إنزال القرآن وإنزال المطر.

١٩ ـ مذاهب الناس في مسمى الكلام.

٢٠ ـ معنى قول الطحاوي: «صدق المؤمنون على ذلك حقاً، وأيقنوا أنه كلام الله تعالى بالحقيقة ليس بمخلوق».

٢١ ـ الخلاصة.

٢٢ ـ المناقشة.

القرآن كلام الله غير مخلوق

قال ابن أبي العز:

قوله: «وإنَّ القرآنَ كَلامُ اللهِ، منه بَدَا بلا كَيْفِيَّةٍ قَوْلاً، وأَنزَلَهُ على رَسوله وَحياً، وصدَّقَهُ المؤمنونَ على ذلك حقّاً، وأَيْقَنُوا أَنَّه كَلامُ اللهِ تعالى بالحقيقَةِ، ليسَ بمخلُوقٍ كَكلامِ البَرِيَّةِ، فمَنْ سَمِعَه، فَزَعَمَ أَنَّه كلامُ البَشَرِ، فَقَدْ كَفَرَ، وقد ذَمَّه اللهُ، وعابَه، وأَوْعَدَه بِسَقَرَ، حَيْثُ قال تعالى: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾﴾ [المدثر: ٢٦]، فلما أوعد اللهُ بسقر لِمَنْ قال: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾ [المدثر: ٢٥] عَلِمنا وأَيقَنَّا أنه قَوْلُ خالِقِ البَشَرِ، ولا يُشْبِهُ قَوْلَ البشر».

ش: هذه قاعدةٌ شريفة، وأصلٌ كبيرٌ من أصول الدين، ضَلَّ فيه طوائفُ كثيرةٌ من الناس، وهذا الذي حكاه الطحاوي رَحِمَهُ اللهُ، هُوَ الحقُّ الذي دَلَّت عليه الأدِلَّةُ مِنَ الكتاب والسُّنَّةِ لمن تَدَبَّرَهُما، وشَهِدَت به الفِطْرَةُ السليمةُ التي لم تُغَيَّر بالشُّبُهاتِ والشُّكُوكِ، والآراء الباطلة.

وقدِ افْتَرَقَ الناسُ في مسألة الكلامِ على تسعة أقوال[١]:

أحدها: أَنَّ كلامَ اللهِ هو ما يَفِيضُ على النفوسِ من معان، إما مِنَ العقلِ الفَعَّالِ عندَ بعضهم، أو مِنْ غيرِه، وهذا قولُ الصابئة والمتفلسفة.

وثانيها: أَنَّه مخلوقٌ خَلَقَه الله منفصلاً عنه، وهذا قَوْلُ[٢] المعتزلة.

وثالثُها: أنه معنى واحدٌ قائمٌ بذات الله، هو الأَمْرُ والنَّهْيُ والخَبَرُ والاستخبارُ، إن عُبِّرَ عنه بالعربية، كان قرآناً، وإن عُبِّرَ عنه بالعِبْرَانِيَّةِ، كان توراةً، وهذا قولُ ابنِ كُلَّابٍ، ومَنْ وافَقَه، كالأشعريِّ[٣] وغيرِه.

(١) انظر: منهاج السنة (٢/٣٥٨ ـ ٣٦٣).

(٢) هذا قول الرافضة والزيدية، انظر: منهاج السنة (٢/٣٥٩).

(٣) تفترق الكلابية عن الأشعرية في ما يلي:

أ ـ قالت الكلابية: كلام الله عن أربع معاني في نفسه الأمر والنهي والخبر والإستخبار =

ورابعُها: أنه حروفٌ وأصواتٌ أزِليَّة[١] مجتَمِعةٌ في الأَزَلِ[٢]، وهذا قولُ طائفة من أهلِ الكلام، ومِنْ أهْلِ الحديث.

وخامسها: أنه حروفٌ وأصواتٌ، لكِنْ تَكَلَّمَ اللهُ بها بعدَ أن لم يكن متكلِّماً، وهذا قول الكرَّامية وغيرهم.

وسَادِسُها: أن كلامَه يَرجعُ إلى ما يُحْدثُه مِنْ عِلْمِهِ وإرادتِه القائم بذاته[٣]، وهذا يقولُه صاحبُ «المعتبر» ويَميلُ إليه الرازي في «المطالب العالية».

وسَابِعُها: أن كلامَه يَتَضَمَّنُ معنى قائماً بذاته، هو ما خَلَقه في غيره، وهذا قولُ أبي منصور الماتُريدي.

وثامنها: أنه مُشْتَرك[٤] بَيْنَ المعنى القديمِ القائم بالذات، وبينَ ما يَخلُقُه في غيره من الأصوات، وهذا قولُ أبي المعالي ومن اتبعه.

وتاسِعُها: أنه تعالى لم يَزَلْ متكلماً، إذا شاء، ومتى شاء، وكيفَ شاء، وهو يَتَكلَّم به بصوت يُسْمَعُ، وأنَّ نوعَ الكلام قديمٌ وإن لم يَكُن الصوتُ المعين قديماً، وهذا المأثور عن أئمة الحديث والسنة.

وقولُ الشيخ رَحِمَهُ اللهُ: «وإنَّ القرآن كلام الله»، «إن»: بكسر الهمزة عَطْف على قوله: إن الله واحد لا شريكَ له، ثم قال: وإن محمداً عبدُه المصطفى، وكسر همزة «إن» في المواضع الثلاثة، لأنها معمولُ القول، أعني قولَه في أول كلامه: نقول في توحيد الله.

= وقالت الأشاعرة: بل كلام الله لا يتبعض ولا يتجزأ ولا ينقسم.

ب ـ قالت الكلابية: القرآن حكاية عن كلام الله. وقالت الأشاعرة: بل هو عبارة عن كلام الله. انظر: مختصر الصواعق (٢/ ٢٩٠).

(١) يعني أن كلام الله قديم.

(٢) معنى قولهم: أن كلام الله أحرف وأصوات مجتمعة ليست بمتعاقبة ولا مترتبة، ويسمى القائلون بهذا «الإقترانية».

(٣) هذا القول يلزم منه أن يكون كلام الله كلاماً نفسانياً، ومن المعلوم أنه لا مماثلة بين صفة الكلام وصفتي العلم والإرادة فهذه الثلاث كلها صفات ثابتة له سبحانه وليست بمعنى واحد بل هي صفات متغايرة. انظر: شرح الطحاوية بتعليق العدني (١٩٩).

(٤) اللفظ المشترك: هو اللفظ الواحد الذي يطلق على موجودات مختلفة ومعنى أن الكلام مشترك أي: يطلق على الكلام النفسي والكلام اللفظي المسموع.

وقوله: «كلام الله منه بدا بلا كيفية قولاً»، ردٌّ على المعتزلة وغيرهم، فإن المعتزلة تَزْعُمُ أن القرآن لم يَبْدُ منه، كما تَقدَّم حكايةُ قولهم، قالوا وإضافتُه إليه إضافة تشريف، كبيت الله، وناقة الله، يُحرِّفون الكَلامَ عن مواضِعه، وقولُهم باطل.

فإن المضافَ إلى الله تعالى معانٍ وأعيانٌ، فإضافة الأعيانِ إلى الله للتشريف، وهي مخلوقة له، كبيتِ الله، وناقة الله، بخلاف إضافة المعاني، كعلم الله، وقدرته، وعِزته، وجلاله، وكبريائِه، وكلامه، وحياته، وعُلوِّه، وقهره، فإن هذا كُلَّهُ من صفاته، لا يُمْكِنُ أن يَكُونَ شيء من ذلك مخلوقاً.

والوَصْفُ بالتكلُّم مِن أوصافِ الكمال، وضِدُّه من أوصاف النقص، قال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾﴾ [الأعراف: ١٤٨]. فكانَ عُبَّادُ العجل مع كفرهم، أعرفَ باللهِ مِن المعتزلة، فإنهم لم يَقولوا لموسى: وربُّك لا يَتكلَّمُ، أيضاً. وقال تعالى عن العجل أيضاً: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾﴾ [طه: ٨٩]. فعُلِمَ أنَّ نفيَ رجوع القولِ، ونفيَ التكلم، نقصٌ يُسْتَدَلُّ به على عدم ألوهية العجل.

وغاية شبهتهم أنهم يقولون: يَلزَم منه التشبيهُ والتجسيمُ، فيقال لهم: إذا قلنا: إنه تعالى يتكلَّم كما يَليقُ بجلاله، انتفَتْ شبهتُهم، ألا ترى أنَّه تعالى قال: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم﴾ [يس: ٦٥]. فنحن نُؤمِنُ أنها تَتكلَّم، ولا نَعْلَمُ كيفَ تتكلَّم، وكذا قولُه تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [فصلت: ٢١]. وكذلك تَسْبيحُ الحصى والطَّعامِ، وسلامُ الحَجَرِ كلُّ ذلك بلا فَمٍ يَخرُجُ منه الصَّوْتُ الصَّاعِدُ مِن الرئة المعتمد على مقاطِعِ الحروف.

وإلى هذا أشار الشيخُ رَحِمَهُ اللهُ بقوله: «منه بدا بلا كيفيةٍ قولاً» أي: ظَهَرَ منه، ولا ندري كيفيةَ تَكَلُّمِه به، وأكَّد هذا المعنى بقوله: «قولاً» أتى بالمصدر المعرف للحقيقة، كما أكَّدَ الله تعالى التكليمَ بالمصدر المثبت النافي للمجازِ في قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤]. فماذا بعدَ الحقِّ إلا الضَّلالُ؟!

ولقد قال بَعضُهُمْ لأبي عمرو بنِ العلاء، أحدِ القُراء السبعةِ: أُرِيدُ أنْ تَقْرَأَ: «وكلَّم اللهَ موسى»، بنصب اسم الله، ليكون موسى هو المتكلِّمُ لا الله، فقال أبو عمرو: هَبْ أني قرأتُ هذه الآية كذا، فكيف تَصْنَعُ بقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ [الأعراف: ١٤٣]؟! فَبُهِتَ المعتزلي!

وكم في الكتابِ والسنة مِنْ دليل على تكليمِ الله تعالى لأهل الجنةِ وغيرهم، قال تعالى: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ۝٥٨﴾ [يس: ٥٨]، عن جابرٍ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «بَيْنَا أَهْلُ الجَنَّةِ في نَعِيمِهِمْ إِذْ سَطَعَ لَهُمْ نُورٌ، فَرَفَعُوا أَبْصَارَهُمْ، فَإذا الرَّبُّ جَلَّ جَلَالُهُ قَدْ أَشْرَفَ عَلَيْهِمْ مِنْ فَوْقِهِمْ، فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ يَا أَهْلَ الجَنَّةِ، وهو قَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ۝٥٨﴾ [يس: ٥٨]، قال: [فَيَنْظُر إليهم ويَنظرون إليه] فَلَا يَلْتَفِتُون إلى شيْءٍ مما هُم فيه مِنَ النَّعِيم، ما دامُوا يَنْظُرُونَ إليهِ، حتَّى يَحْتَجِب عنهُمْ، وتَبْقَى بَرَكَتُهُ ونُورُهُ عَلَيْهِمْ في دِيَارِهِمْ» رواه ابنُ ماجه وغيره[1].

ففي هذا الحديث إثباتُ صِفَةِ الكلام، وإثباتُ الرؤيةِ، وإثباتُ العلوِّ، وكيف يَصِحُّ مع هذا أن يَكُونَ كلامُ الرب كُلُّه معنى واحداً! وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ﴾ [آل عمران: ٧٧] فأهانهم بتركِ تكليمِهم، والمرادُ: أنه لا يُكَلِّمُهُمْ تكليمَ تكريم، وهو الصحيحُ، إذ قد أخبر في الآيةِ الأُخرى أنه يقولُ لهم في النار: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾[المؤمنون: ١٠٨]، فلو كان لا يُكَلِّمُ عبادَه المؤمنين، لكانوا في ذلك هم وأعداؤه سواءً، ولم يكن في تخصيصِ أعدائه بأنه لا يُكلِّمهم فَائِدَةٌ أصلاً.

وقال البخاري في «صحيحه»: بابُ كلامِ الرَّبِّ تبارك وتعالى مع أهل الجنة، وساق فيه عِدَّةَ أحاديثَ، فَأَفْضَلُ نعيمِ أهل الجنة رؤيةُ وجهه تبارك وتعالى، وتَكْلِيمُهُ لهم، فإنكارُ ذلك إنكارٌ لروح الجنة، وأعلى نعيمها، وأفضلِه، الذي ما طَابَتْ لأهلها إلا به.

وأما استدلالُهم بقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الرعد: ١٦]، والقرآنُ شيء،

---

(١) أخرجه ابن ماجه (١٨٤).

فيكون داخلاً في عموم «كُلِّ» فيكون مخلوقاً!! فَمِنْ أعجبِ العجبِ، وذلك أنَّ أفعالَ العبادِ كُلَّها عندَهم غَيْرُ مخلوقةٍ لله تعالى، وإنما يَخلُقُها العِبادُ جميعَها، لا يَخلقُهَا اللهُ، فأخرجُوها مِن عُموم «كُلِّ»، وأدخلوا كلامَ الله في عمومها مع أنه صِفةٌ من صفاته، به تكونُ الأشياء المخلوقة، إذ بأَمْرِه تَكُونُ المخلوقاتُ، قال تعالى: ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]. ففَرَّقَ بينَ الخلق والأمرِ، فلو كان الأمرُ مخلوقاً، لَلَزِمَ أن يكونَ مخلوقاً بأمرٍ آخر، والآخرُ بآخر، إلى ما لا نهايةَ له، فَيَلْزَمُ التَّسَلْسُلُ، وهو باطلٌ. وطردُ باطِلِهم: أن تكونَ جميعُ صِفاتِه مخلوقة، كالعِلْمِ والقُدْرَةِ وغيرهما، وذلك صَريحُ الكُفْرِ، فإنَّ علمَه شيء، وقُدرَتَه شيء، وحياتَه شيءٌ، فَيَدْخُلُ ذلك في عموم «كل»، فيكون مخلوقاً بعد أنْ لم يَكُنْ، تعالى الله عما يقولون عُلُوّاً كبيراً.

وكيفَ يَصِحُّ أن يكونَ متكلماً بكلام يَقُومُ بغيره؟ ولو صَحَّ ذلك، لَلَزِمَ أن يكونَ ما أَحدَثه مِن الكلام في الجمادات كلامَه! وكذلك أيضاً ما خَلَقه في الحيوانات، ولا يُفرَّق حينئذٍ بين نَطَقَ وأَنْطقَ، وإنما قالت الجُلُودُ: ﴿أَنطَقَنَا اللَّهُ﴾ [فصلت: ٢١]، ولم تَقُلْ نطقَ الله، بل يَلزَمُ أن يكونَ متكلماً بكُلِّ كلام خَلَقَه في غيره، زوراً كان أو كذباً، أو كفراً أو هَذَياناً!! تعالى الله عن ذلك، وقد طَرَّدَ ذلك الاتِّحَادِيةُ، فقال ابنُ عربي:

وكُـلُّ كَـلامٍ فـي الـوُجُـود كَـلامُـهُ سَـوَاءٌ عَـلَـيْـنَـا نَـثْـرُهُ ونِـظَـامُـهُ!!

ولو صَحَّ أن يُوصَفَ أَحَدٌ بصفةٍ قامتْ بغيره، لَصَحَّ أن يُقال للبصير: أعمى، وللأعمى: بصير! لأن البصيرَ قد قَام وصفُ العمى بغيره، والأعمى قد قَامَ وَصْفُ البصرِ بغيره! ولَصَحَّ أن يُوصَفَ اللهُ تعالى بالصفاتِ التي خَلَقَها في غيره، من الألوان والروائح والطُّعُومِ والطول والقِصر ونحو ذلك.

وبمثلِ ذلك ألْزَم الإمامُ عبدُ العزيز المكي بِشْراً المريسي بينَ يدي المأمون بعد أنْ تكلَّم معه ملتزماً أن لا يَخْرُجَ عن نصِّ التنزيل، وأَلْزَمَه الحُجَّةَ، فقال بِشر: يا أميرَ المؤمنين! لِيدَعْ مطالَبَتي بنصِّ التنزيل، ويُناظِرْني بغيره، فإن لم يَدَعْ قولَه، ويَرْجِعْ عنه، ويُقِرَّ بخلقِ القرآن الساعة وإلا فدمي حلالٌ، قال عبدُ العزيز: تسألُني أم أسألُك؟ فقال بشر: اسأل أنتَ، وطَمِعَ فيَّ، فَقُلْتُ له: يَلزَمُك واحدةٌ مِن ثلاث

لا بُدَّ منها: إما أَنْ تَقولَ: إن اللهَ خَلَقَ القُرآن - وهو عندي أنا كَلامُه - في نفسه أو خَلَقَه قائماً بذاته ونفسِه، أو خَلَقَه في غيره؟ قال: أقول: خَلَقه كما خَلَقَ الأشياءَ كُلَّها، وحادَ عن الجواب، فقال المأمون: اشرَحْ أنتَ هذا المسألة، ودَعْ بِشراً، فقد انقطَعَ، فقال عبدُ العزيز: إن قال: خَلَقَ كَلامَه في نفسه، فهذا مُحال، لأن الله لا يكون محلاً للحوادث المخلوقة، ولا يكونُ منه شيء مخلوقاً، وإن قال: خَلَقَه في غيره، فيَلزمُه في النظر والقياس أنَّ كُلَّ كلام خَلَقه الله في غيره، فهو كلامُه، وإن قال: خَلَقَه قائماً بنفسه وذاته، فهذا محال، لاَ يكونُ الكلامُ إلا مِن مُتَكَلِّم، كما لا تَكُونُ الإرادةُ إلا من مُريدٍ، ولا العِلمُ إلا من عَالِم، ولا يُعْقَلُ كلامٌ قائم بنفسه يَتَكَلَّمُ بذاته، فلما اسْتَحالَ مِن هذه الجهاتِ أن يكُونَ مخلوقاً، عُلِمَ أنه صفة لله، هذا مختصرٌ من كلام الإمامِ عبد العزيز في «الحيدة».

وعمومُ «كل» في كل موضع بحسبه، ويُعرَفُ ذلك بالقرائن، ألَا تَرى إلى قوله تعالى: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾ [الأحقاف: ٢٥] ومساكِنهم شيء، ولم تَدْخُلْ في عمومِ كُلِّ شيء دَمَّرَته الرِّيحُ، وذلك لأن المرادَ: تُدَمِّرُ كلَّ شيء يَقْبَلُ التدميرَ بالريح عادةً، وما يَستَحِقُّ التدميرَ، وكذا قولُه تعالى حِكَايةً عن بِلقيس: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٢٣]، المرادُ مِن كل شيء يَحتَاجُ إليه المُلُوكُ، وهذا القَيْدُ يُفْهَمُ مِن قرائن الكلام، إذْ مُراد الهُدْهُدِ أنها مَلِكَةٌ كاملةٌ في أمر المُلْكِ، غَيْرُ محتاجة إلى ما يَكْمُل به أَمْرُ ملكها، ولهذا نظائرُ كثيرة.

والمرادُ في قوله تعالى: ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٠٢] أي: كل شيء مخلوق، وكُلُّ موجودٍ سوى الله تعالى، فهو مخلوقٌ، فدخَلَ في هذا العموم أفعالُ العباد حتماً، ولم يَدخُل في العُموم الخالقُ تعالى، وصفاتُه ليست غيرَه، لأنَّه ﷻ هو الموصوفُ بصفاتِ الكمال، وصفاتُه ملازمةٌ لذاته المقدسة، لا يُتَصَوَّرُ انفِصَالُ صفاته عنه، كما تَقَدَّم الإشارة إلى هذا المعنى عند قوله: «ما زال قديماً بصفاته قبلَ خَلْقِهِ»، بل نَفْسُ ما استَدَلُّوا به يَدُلُّ عليهم، فإذا كان قولُه تعالى: ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ مخلوقاً، لا يَصْلُحُ أن يكونَ دليلاً.

وأما استدلالُهم بقوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ [الزخرف: ٣] فما أَفْسَدَه مِن استدلال! فإنَّ «جَعَل» إذا كان بمعنى «خَلَق» يتعدَّى إلى مفعولٍ واحد، كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام: ١]، وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ

شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾﴾ [الأنبياء: ٣٠، ٣١]. وإذا تعدَّى إلى مفعولين لم يَكن بمعنى «خَلَق»، قال تعالى: ﴿وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾ [النحل: ٩١]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ﴾ [البقرة ٢٢٤]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾﴾ [الحجر: ٩١]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ [الإسراء: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ [الإسراء: ٣٩]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا﴾ [الزخرف: ١٩]، ونظائرُهُ كثيرة، فكذا قولُه تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ [الزخرف: ٣].

وما أفسدَ استدلالهم بقوله تعالى: ﴿نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [القصص: ٣٠] على أن الكلامَ خَلَقَه الله تعالى في الشجرة، فَسَمِعَه موسى منها! وعَمُوا عما قبلَ هذه الكلمة وما بعدَها، فإن الله تعالى قال: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ﴾ والنداء: هو الكلامُ من بُعْدٍ، فسَمِع موسى عليه السلام النداءَ مِن حَافَةِ الوادي، ثم قال: ﴿فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ أي: أن النداء كان في البُقعة المباركة من عند الشجرة، كما تَقُولُ: سَمِعْتُ كلامَ زيدٍ من البيت، يكون «من البيت» لابتداء الغاية، لا أن البيتَ هو المتكلِّمُ، ولو كان الكلامُ مخلوقاً في الشجرة، لكانت الشجرةُ هي القائلة: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [القصص: ٣٠]، وهل قال: ﴿إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ غيرُ ربِّ العالمين؟ ولو كان هذا الكلامُ بدا مِن غير الله، لكان قَوْلُ فرعون: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤] صدقاً، إذ كُلٌّ من الكلامين عِنْدَهُمْ مخلوق قد قالَه غَيْرُ الله! وقد فَرَّقوا بين الكلامَيْنِ على أَصْلِهم الفاسد: أنَّ ذاك كَلَامٌ خَلَقه اللهُ في الشجرة، وهذا كلامٌ خَلَقه فرعون!! فحَرَّفوا وبَدَّلُوا واعتَقَدوا خالقاً غَيْرَ الله. وسيأتي الكلامُ على مسألة أفعالِ العباد، إن شاء الله تعالى.

فإن قيل: فقد قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾﴾ [الحاقة: ٤٠]، وهذا يَدُلُّ على أن الرسولَ أَحدَثَه، إما جبرائيل أو محمد ﷺ.

قيل: ذِكْرُ الرسول معرِّف أنه مُبَلِّغٌ عن مرسِله، لأنه لم يَقُلْ: إنه قولُ مَلَكٍ أو نبي، فَعُلِمَ أنه بَلَّغَه عمن أَرسَلَه به، لا أنه أَنْشَأَه من جهة نفسه.

وأيضاً: فالرَّسُولُ في إحدى الآيتين جبريل، وفي الأخرى محمد، فإضافتُه إلى كل منهما تُبَيِّن أن الإضافَة للتبليغ، إذ لو أَحدَثَه أحدُهما، امتَنَع أن يُحْدِثَه الآخرُ.

وأيضاً: فقوله: رسول أمين، دليل على أنه لا يَزِيدُ في الكلام الذي أُرْسِلَ بتبليغه، ولا يَنْقُصُ منه، بل هو أمينٌ على ما أُرْسِلَ به، يُبلِّغُه عن مرسله.

وأيضاً: فإن الله قد كَفَّر من جعله قَوْلَ البشر، ومحمدٌ ﷺ بشر، فمَن جَعَلَه قَوْلَ محمد بمعنى أنه أَنشَأَه، فقد كَفَر ولا فَرقَ بين أن يقولَ: إنه قولُ بشر، أو جني، أو مَلَك، والكلام كَلَامُ مَنْ قاله مبتدئاً، لا من قاله مبلغاً، ومن سَمِع قائلاً يقول:

قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ

قال هذا شِعْرُ امرئِ القيس، وَمَنْ سَمِعَهُ يقول: (إِنَّمَا الأَعْمَالُ بالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى)[1] قال: هذا كلامُ الرسولِ، وإن سَمِعَه يقول: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ قال: هذا كَلَامُ اللهِ، إن كان عندَه خَبرُ ذلك، وإلا قال: لا أدري كلام مَن هذا؟ ولو أنكَرَ عليه أحدٌ ذلك، لَكَذَّبَهُ. ولهذا مَنْ سَمِعَ من غيره نَظماً ونَثراً، يقول له: هذا كلامُ مَنْ؟ أهذا كلامُك أو كلامُ غيرك؟.

وبالجملة، فَأَهْلُ السنةِ كُلُّهُم، من أهل المذاهب الأربعةِ وغيرِهِم مِن السَّلَفِ والخَلَفِ متَّفِقون على أن القُرآن كلامُ الله غَيْرُ مخلوقٍ، ولَكنْ بعد ذلك تَنَازَعَ المتأخرون في أن كلام الله هل هو معنى واحدٌ قائمٌ بالذات، أو أنه حروفٌ وأصوات تَكلَّم اللهُ بها بعدَ أن لم يكن متكلِّماً، أو أنه لم يَزَلْ متكلماً إذا شاءَ، ومتى شاءَ، وكيف شاء، وأن نوع الكلام قديمٌ؟.

وقد يُطلِقُ بَعْضُ المعتزلةِ على القرآن أنه غَيْرُ مخلوق، ومُرادُهم أنه غَيْرُ مختلَق مفترى مكذوب، بل هو حَقٌّ وصِدْقٌ، ولا ريبَ أن هذا المعنى منتفٍ باتفاق المسلمين.

والنزاعُ بينَ أهلِ القبلة إنما هو في كونه مخلوقاً خَلَقَه الله، أو هو كلامُه الذي تَكلَّم به وقَامَ بذاته؟ وأهلُ السُّنَّةِ إنما سُئِلُوا عن هذا، وإلا فكونُه مكذوباً، مفترى

---

(١) أخرجه البخاري (١).

مما لا يُنازع مسلمٌ في بُطلانه. ولا شَكَّ أن مشايخَ المعتزلة وغيرَهم مِن أَهلِ البِدَعِ، معترفون بأن اعتقادَهم في التوحيد والصفاتِ والقدر لم يَتَلَقَّوْه لا عن كتابٍ ولا سنةٍ، ولا عن أئمةِ الصحابة والتابعين لهم بإحسان، وإنما يَزعُمونَ أن العَقْلَ دلَّهم عليه، وإنما يَزعُمون أنهم تَلَقَّوا مِن الأئمة الشرائعَ.

ولو تُرِكَ النَّاسُ على فِطَرِهم السليمة وعقولِهم المستقيمة، لم يكن بَيْنَهُمْ نزاعٌ، ولكن ألقى الشيطانُ إلى بعضِ الناسِ أُغلُوطَةً مِن أغاليطه، فرَّق بها بينَهم ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ [البقرة: ١٧٦].

والذي يَدُلُّ عليه كلامُ الطحاوي رَحِمَهُ اللهُ: أنه تعالى لم يَزَلْ متكلماً إذا شاء كيف شاء، وأن نوعَ كلامِه قديمٌ، وكذلك ظَاهِرُ كلامِ الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه في «الفقه الأكبر» فإنه قال: والقرآنُ كلامُ الله في المصاحِفِ مكتوبٌ، وفي القلوبِ محفوظٌ، وعلى الألسُن مقروء، وعلى النبي ﷺ منَّزل، ولفَظُنا بالقرآن مخلوق وكتابتُنا له مخلوقة، وقراءتُنا له مخلوقة، والقُرآنُ غيرُ مخلوق، وما ذَكَره اللهُ في القُرآنِ حكايةً عن موسى عليه السلام وغيرِه من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وعن فرعون وإبليس، فإنّ ذلك كلَّه كلام الله إخبارٌ عنهم، كلام الله غير مخلوق، وكلامُ موسى وغيرِه من المخلوقين مخلوقٌ، والقُرآنُ كلامُ الله لا كلامُهُمْ، وسَمِعَ موسى عليه السلام كلامَ الله تعالى: فلما كلَّم موسى، كَلَّمه بكلامه الذي هو مِنْ صِفَاتِه لم يزل[1]، وصفاتُه كُلّها خِلافُ صفاتِ المخلوقين، يَعْلَمُ لا كَعِلْمِنَا، ويَقْدِرُ لا كقُدرتنا، ويرى لا كرُؤيتنا، ويتكلَّمُ لا ككلامنا. انتهى.

فقولُه: «ولما كلَّم موسى، كلَّمه بكلامه الذي هو من صفاته»: يُعْلَمُ منه أنه حين جاءَ كلَّمه، لا أنه لم يَزَلْ ولا يَزالُ أزلاً وأبداً يقول: يا موسى، كلما يُفْهَمُ ذلك من قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَـٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، فَفُهِمَ منه الرَدُّ على مَن يقول مِن أصحابه: إنه معنى واحدٌ قائمٌ بالنفس لا يُتَصَوَّرُ أن يُسْمَعَ، وإنما يَخلُق اللهُ الصوتَ في الهَوَاء، كما قال أبو منصور الماتُريدي وغيرُه.

وقوله: «الذي هو من صفاته لم يَزَلْ» رَدٌّ على مَنْ يَقولُ: إنه حَدَثَ له وَصْفُ الكلام بعد أَنْ لم يكن متكلماً.

---

(١) في الفقه الأكبر (ص٤٨) الذي له صفة في الأزل.

وبالجملة: فَكُلُّ ما تَحتجُّ به المعتزلةُ مما يَدُل على أنه كلام متعلق بمشيئته وقدرته، وأنه يَتَكَلَّم إذا شاء، وأنه يَتَكَلَّم شيئاً بَعْدَ شيء، فهو[1] حقٌّ يَجِبُ قَبولُه، وما يقوله مَنْ يقول: إن كلام الله قائمٌ بذاته، وأنه صفة له، والصفةُ لا تَقُومُ إلا بالموصوف، فهو حقٌّ يَجبُ قَبولُه والقولُ به، فيجبُ الأخذُ بما في قولِ كُلِّ من الطائفتين من الصواب، والعدول عما يَرُدُّهُ الشرعُ والعقلُ مِن قول كل منهما.

فإذا قالوا لنا: فهذا يَلزَمُ أن تكونَ الحوادِثُ قامَتْ به، قلنا: هذا القولُ مُجْمَل، ومَن أنكَر قبلَكُم قيامَ الحوادثِ بهذا المعنى بِهِ تَعَالَى من الأئمة؟ ونصوصُ القرآن والسنة تَتَضَمَّنُ ذلك، ونُصُوصُ الأئمة أيضاً مع صريح العقل.

ولا شكَّ أن الرسلَ الذين خاطبوا الناسَ وأَخبروهم أن الله قال ونَادى وناجى ويقولُ، لم يُفْهِمُوهُم أن هذه مخلوقات منفصلةٌ عنه، بلِ الذي أفهموهم إيَّاه: أنَّ الله نفسَه هو الذي تكلَّم، والكلامُ قائمٌ به لا بغيره، وأنه هو الذي تكلَّم به وقاله، كما قالت عائشة رضي الله عنها في حديث الإفك: «ولَشَأْنِي فِي نَفْسِي كَانَ أَحْقَرَ مِن أَنْ يَتَكَلَّمَ اللهُ فِيَّ بِوَحْيٍ يُتْلَى»[2]. ولو كانَ المرادُ مِن ذلك كُلِّه خلاف مفهومه، لَوَجَبَ بيانُه، إذْ تأخيرُ البيانِ عن وقت الحاجة لا يَجوزُ.

ولا يُعْرَفُ في لغة ولا عقلٍ قائلٌ متكلِّمٌ لا يقومُ به القولُ والكلامُ وإنما قامَ الكلام بغيره، وإن زَعَمُوا أنهم فَرُّوا من ذلك حذراً من التشبيه، فلا يثبتوا صفةً غيرَه[3]، فإنَّهم إذا قالوا: «يَعلَمُ لا كعِلمِنا»، قلنا: «ويَتكلَّم لا كتكلُّمِنا»، وكذلك سائرُ الصفاتِ.

وهل يُعْقَلُ قادرٌ لا تقوم به القدرة، أو حيٌّ لا تقومُ به الحياة؟ وقد قال ﷺ: «أعوذُ بِكَلِماتِ اللهِ التَّامَّاتِ الَّتِي لا يُجَاوِزُهُنَّ بَرٌّ ولا فَاجِر»[4]، فهل يقولُ عاقل:

---

(١) المعتزلة تقرر أن كلام الله يتعلق بالمشيئة والقدرة وهذا حق ولكن قصدهم بذلك التوصل إلى معتقد باطل إلا وهو أن كلام الله مخلوق وذلك أن الكلام إذا تعلق بقدرة الله ومشيئته لزم أن تسبقه الحوادث لكن أهل السنّة لما قالوا كلام الله يتعلق بالقدرة والمشيئة مقصدهم إثبات الكمال له سبحانه بحيث يتكلم متى شاء. انظر: شرح الطحاوية بتعليق العدني ص٢١٤.

(٢) أخرجه البخاري (٢٦٦١)، ومسلم (٢٧٧٠).

(٣) هذا رد من الشارح لمن ينفى صفة الكلام عن الله بزعمهم أن ثبوتها يستلزم التشبيه.

(٤) أخرجه أحمد (٣/٤١٩).

«إنه ﷺ عاذَ بمخلوق! بل هذا كقوله: (أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ وَأَعُوذُ بِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ)[(١)]، وكقوله: (أَعُوذُ بِعِزَّةِ الله وَقُدْرَتِهِ مِنْ شَرِّ مَا أَجِدُ وَأُحَاذِرُ)[(٢)]، وكقوله: (وَأَعُوذُ بِعَظَمَتِكَ أَنْ نُغْتَالَ مِنْ تَحْتِنَا)»[(٣)]، كُلُّ هذه من صفاتِ اللهِ تَعَالى، وهذه المعاني مبسوطة في مواضعها، وإنما أُشِير إليها هنا إشارة.

وكثيرٌ من متأخِّري الحنفية على أنه معنى واحد، والتعددُ والتكثر والتجزئ والتَّبَعُّضُ في الحاصل في الدّلالات[(٤)]، لا في المدلولِ[(٥)]، وهذه العبارات مخلوقة، وسُمِّيَت: «كلام الله» لِدِلالتها عليه، وتأَدِّيه[(٦)] بها، فإن عُبِّرَ بالعربية، فهو قرآن، وإن عُبِّرَ بالعبرية فهو توراة، فاختَلَفَتِ العباراتُ لا الكلام، قالوا: وتُسَمَّى هذه العبارات كلامَ الله مجازاً.

وهذا الكلام فاسد، فإن لازِمَهُ أن معنى قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ﴾ [الإسراء: ٣٢] هو معنى قوله: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [البقرة: ٤٣]، ومعنى آية الكرسي هو معنى آية الدَّين! ومعنى سورة الإخلاص هو معنى ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ﴾، وكلما تأَمَّل الإنسانُ هذا القولَ، تَبَيَّن له فسادُه، وعَلِمَ أنه مُخَالِفٌ لكلام السلف.

والحقُّ أن التوراةَ والإنجيلَ والزَّبورَ والقرآنَ مِن كلام الله حقيقةً، وكلامُ الله تعالى لا يَتَنَاهى، فإنَّه لم يَزَلْ يَتَكَلَّمُ بما شاء إذا شاء كَيْفَ شاء، ولا يَزَالُ كذلك. قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾ [الكهف: ١٠٩]. وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾ [لقمان: ٢٧]. ولو كان ما في المصحف عِبارَةً عن كلام الله، وليس هو كَلَامَ الله، لما حَرُمَ على الجُنُبِ والمُحْدِثِ مَسُّه، ولو كان ما يَقْرَؤُهُ القارئُ ليس كلامَ الله، لما حَرُمَ على الجنب والمحدث قراءة القرآن.

---

(١) أخرجه مسلم (٤٨٦).
(٢) تقدم تخريجه (ص٢٣٢).
(٣) تقدم تخريجه (ص٢٣٢).
(٤) الدلالات: هي الألفاظ والعبارات التي نقرؤها ونسمعها من القراء فهي عندهم التي تتجزأ وتتبعض لأنها مخلوقة.
(٥) المدلول: هو الكلام النفسي.
(٦) أي: أن هذه العبارات والألفاظ تسمى كلام الله مجازاً.

بل كلامُ الله محفوظٌ في الصدور، مقروء بالألسنة، مكتوبٌ في المصاحِف، كما قالَه أبو حنيفة في «الفقه الأكبر». وهو في هذه المواضع كلها حقيقةٌ، وإذا قيلَ: المكتوب في المصحف كلامُ الله، فُهِمَ منه معنى صحيح حقيقي. وإذا قيلَ: فيه خطُّ فلانٍ وكتابتُه، فُهِمَ منه معنى صحيح حقيقي، وإذا قيل: فيه مِدادٌ قد كُتِبَ به، فُهِمَ منه معنى صحيح حقيقي، وإذا قيل: المِدَادُ في المصحف، كانت الظرفيةُ فيه غيرَ الظرفية المفهومة من قول القائل: فيه السَّمواتُ والأرضُ، وفيه محمد وعيسى، ونحو ذلك. وهذان المعنيان مغايران لمعنى قول القائل: فيه خطُّ فلان الكاتب، وهذه المعاني الثلاثة مغايرة لمعنى قول القائل: فيه خطُّ فلان الكاتب، وهذه المعاني الثلاثة مغايرة لمعنى قول القائل: فيه كلامُ الله. ومن لم يتنبَّهْ للفروق بينَ هذه المعاني، ضلَّ ولم يهتد للصواب.

وكذلك الفرقُ بين القراءة التي هي فعلُ القارئ، والمقروء الذي هو قولُ الباري، مَنْ لم يَهتَدِ له، فهو ضَالٌّ أيضاً، ولو أن إنساناً وَجدَ في ورقة مكتوباً:

أَلَا كُلُّ شَيءٍ مَا خَلَا اللهَ بَاطِلُ

من خط كاتب معروف، لقال: هذا مِن كلام لَبيد حقيقة، وهذا خطُّ فلان حقيقة، وهذا كُلُّ شيء حقيقة، وهذا خبر حقيقة، ولا تَشتَبِه هذه الحقيقة بالأخرى.

القرآنُ في الأصل: مصدر، فتارةً يُذْكَرُ، ويُرَادُ به القراءةُ، قال تعالى: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨]، وقال ﷺ: (زَيِّنُوا القُرآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ)(١). وتارة يُذْكَرُ ويُراد به المقروء، قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾﴾ [النحل: ٩٨]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا لَهُۥ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾ [الأعراف: ٢٠٤]، وقال ﷺ: (إِنَّ هذا القُرْآن أُنْزِلَ على سَبْعَةِ أَحْرُفٍ)(٢)، إلى غير ذلك مِن الآيات والأحاديث الدَّالَةِ على كُلٍّ من المعنيين المذكورين، فالحقائقُ لها وجود عيني، وذهني، ولفظي، ورسمي، ولكنَّ الأعيانَ تُعْلَمُ، ثم تُذْكَرُ، ثم تُكْتَبُ، فكتابتُها في المصحف هي المرتبة الرابعة.

وأما الكلامُ، فإنَّه ليس بينَه وبينَ المصحف واسطةٌ، بل هو الذي يُكْتَبُ بلا

---

(١) أخرجه أبو داود (١٤٦٨)، وابن ماجه (١٣٤٢).

(٢) أخرجه البخاري (٢٤١٩)، ومسلم (٨١٨).

واسطة ذهنٍ ولا لسان، والفَرْقُ بَيْنَ كونه في زُبُرِ الأولين، وبَيْنَ كونه في رَقٍّ منشور، أو في كتاب مكنونٍ: واضح.

فقوله عن القرآن: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ١٩٦﴾ [الشعراء: ١٩٦]، أي: ذِكْرُه ووَصْفُه والإخبارُ عنه، كما أنَّ محمداً مكتوبٌ عندَه، إذ القرآنُ أَنزلَه الله على محمد، لم يُنزِلْهُ على غيره أصلاً، ولهذا قال: «في الزُّبُرِ» ولم يَقُلْ: في الصحف، ولا في الرَّق؛ لأن «الزُّبُر» جمع «زبور» و«الزَّبْر» هي: الكتابة والجمع، فقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ١٩٦﴾ [الشعراء: ١٩٦] أي: مزبور الأولين، ففي نفسِ اللفظ واشتقاقه ما يُبيِّنُ المعنى المراد ويُبَيِّنُ كمالَ بيانِ القرآن وخلوصَه مِن اللبس، وهذا مِثْلُ قوله: ﴿ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، أي: ذِكره، بخلاف قوله: ﴿فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ٣﴾ [الطور: ٣] أو ﴿لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ﴾ [البروج: ٢٢] أو ﴿كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ﴾ [الواقعة: ٧٨] لأن العامل في الظرف إما أن يَكُونَ من الأفعالِ العامة، مِثْلَ الكون والاستقرار والحصول ونحو ذلك، أو يُقدَّر: مكتوب في كتاب، أو في رَقٍّ.

والكتابُ: تارة يُذْكَرُ ويُرَادُ به محلُّ الكتابة، وتارةً يُذْكَرُ ويُرَادُ به الكلامُ المكتوب، ويَجِبُ التفريقُ بَيْنَ كتابةِ الكلام في الكتاب، وكتابة الأعيانِ الموجودة في الخارج فيه، فإنَّ تلك إنما يُكْتَبُ ذِكْرُها، وكلما تَدَبَّرَ الإنسانُ هذا المعنى، وَضَحَ له الفَرْقُ.

وحقيقةُ كلام الله تعالى الخارجية: هو ما يُسْمَعُ منه، أو مِن المبلِّغ عنه، فإذا سَمِعَهُ السَّامِعُ، عَلِمَه وحَفِظه، فكلامُ الله مسموع له معلوم محفوظ، فإذا قاله السامع، فهو مقروء له متلوٌّ، فإن كَتَبَه، فهو مكتوب له مرسومٌ، وهو حقيقة في هذه الوجوه كُلِّهَا، لا يَصِحُّ نفيُه، والمجازُ يَصِحُّ نفيه[1]، فلا يجوزُ أن يُقَالَ: ليس في المصحف كَلَامُ الله، ولا: ما قَرَأَ القارئ كلام الله، وقال: قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]. وهو لا يَسْمَعُ كلامَ الله مِنَ[2] الله، وإنما يَسْمَعُهُ مِن مبلِّغه عن الله، والآية تَدُلُّ على فساد قولِ مَنْ قال: إن

(١) الأشاعرة يقولون: بأن هذا الذي نقرؤه ونسمعه هو كلام الله مجازاً.

(٢) جبريل، سمع القرآن من الله وأنزله إلى رسول الله ﷺ فسمعه منه ثم سمعه الصحابة من رسول الله ﷺ.

المسموعَ عِبارةٌ عن كَلام الله، وليس هو كلامَ الله، فإنه تعالى قال: ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]، ولم يَقُلْ حتى يَسْمَعَ ما هو عبارةٌ عن كلام الله، والأَصْلُ الحقيقة. ومن قال: إن المكتوبَ في المصاحف عبارةٌ عن كلام الله، أو حِكايةُ كلام الله، وليس فيها كَلَامُ الله: فقد خَالَفَ الكتابَ والسنة، وسَلَفَ الأمة، وكفى بذلك ضلالاً.

وكلامُ الطحاوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ يَرُدُّ قولَ مَنْ قال: إنه معنى واحد لا يُتصوَّرُ سماعُه منه، وأنَّ المسموعَ المنزَّل المقروء والمكتوبَ ليسَ كلامَ الله، وإنَّما هو عبارة عنه، فإنَّ الطَّحاوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: كلامُ الله مِنْه بَدَا. وكذلك قال غيرُه من السلف، ويقولون: منه بدا، وإليه يَعُود، وإنما قالوا: منه بدا، لأن الجهميةَ من المعتزلة وغيرهم كانوا يقولون: إنه خَلَقَ الكلامَ في محل، فبدا الكلامُ مِن ذلك المحل، فقال السلفُ: «منه بدا» أي: هو المتكلم به، فمنه بدا، لا مِنْ بعضِ المخلوقات، كما قال تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝١﴾ [الزمر: ١]، ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى﴾ [السجدة: ١٣]، ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ [النحل: ١٠٢]. ومعنى قولهم: وإليه يَعود: أنه يُرفَعُ مِنَ الصدورِ والمصاحف، فلا يَبقى في الصُّدورِ منه آية، ولا في المصاحف، كما جاءَ ذلك في عدة آثار.

وقولُه: «بلا كيفية» أي: لا تُعْرَفُ كيفيةُ تكلُّمهِ به قولاً ليس بالمجاز، «وأنزَلَه على رسوله وحياً» أي: أَنزَلَه إليه على لسان المَلَك، فَسَمِعَه المَلَكُ جبريل من الله[1]، وسَمِعَهُ الرسولُ محمد ﷺ من المَلَك، وقَرَأ على الناس، قال تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ۝١٠٦﴾ [الإسراء: ١٠٦]. وقال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ۝١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ۝١٩٥﴾ [الشعراء: ١٩٣ ـ ١٩٥]، وفي ذلك إثباتُ صفةِ العلو لله تعالى.

وقد أُورِدَ على ذلك أنَّ إنزالَ القرآن نظيرُ إنزالِ المطر، وإنزالِ الحديد، وإنزالِ ثمانية أزواج من الأنعام.

والجواب: أنَّ إنزالَ القرآن فيه مذكور أنه إنزال من الله، قال تعالى: ﴿حمٓ

---

(١) من قال إن جبرائيل أخذ القرآن عن الكتاب ولم يسمعه من الله قوله باطل، انظر: الرد عليه في مجموع الفتاوى (١٥/ ٢٢٤).

﴿٣﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٢﴾﴾ [غافر: ١، ٢]. وقال تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾﴾ [الزمر: ١]. وقال تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾﴾ [فصلت: ٢]. وقال تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]. وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾﴾ [الدخان: ٣ ـ ٥]. وقال تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [القصص: ٤٩]. وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام: ١١٤]. وقال تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ [النحل: ١٠٢].

وإنزالُ المطر مقيَّدٌ بأنه مُنْزَلٌ من السماء، قال تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ [الرعد: ١٧]. والسماء: العلوُّ، وقد جاءَ في مكانٍ آخر: أنه منزل من المُزْنِ، والمزن؛ السحاب، وفي مكان آخر: أنه منزل من المُعْصِرَاتِ، وإنزالُ الحديد والأنعام مُطْلَقٌ، فكيف يشتبِهُ هذا الإنزال بهذا الإنزال، وهذا الإنزال بهذا الإنزال؟! فالحديد إنما يكون من المعادن التي في الجبال، وهي عاليةٌ على الأرض، وقد قيل: إنه كلما كان معدِنه أعلى كان حديدُه أجودَ، والأنعام تُخلَقُ بالتوالدِ المستلزم إنزال الذكورِ الماءَ من أصلابها إلى أرحامِ الإناث، ولهذا يقال: أَنْزَلَ ولم يُنْزِل، ثم الأَجِنَّة تَنْزِلُ من بطونِ الأمهات إلى وجه الأرض، ومن المعلوم أنَّ الأنعامَ تَعلُو فحولُها إناثَها عند الوَطْء، ويَنْزِلُ ماءُ الفحلِ مِن عُلْوٍ إلى رَحِمِ الأُنثى، وتُلقي ولدَها عند الوِلادة مِنْ عُلْوٍ إلى سُفل، وعلى هذا فَيُحْتَمَلُ قولُه: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ [الزمر: ٦]، وجهين: أحدُهما: أن تكون «مِن» لبيان الجنْس. الثاني: أن تكون «مِن» لابتداء الغاية، وهذان الوجهان يُحتَمَلانِ في قوله: ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا﴾ [الشورى: ١١].

وقوله: «وصَدَّقَه المؤمنون على ذلك حقاً». الإشارةُ إلى ما ذَكَره من التكلم به على الوجهِ المذكورِ وإنزاله، أي: هذا قول الصحابة والتابعين لهم بإحسان، وهم السلفُ الصالح، وأن هذا حَقّ وصِدْق.

وقوله: «وأَيْقَنُوا أنه كلامُ الله تعالى بالحقيقة ليس بمخلوقٍ ككلامِ البريَّةِ»، رَدُّهُ على المعتزلة وغيرهم بهذا القولِ ظاهر، وفي قوله: بالحقيقة، رَدٌّ على مَنْ قال: إنه معنى واحدٌ قام بذاتِ الله لم يُسْمَعْ منه، وإنَّما هو الكلامُ النفساني، لأنه لا

يُقال لمن قام به الكلامُ النفساني ولم يَتكلَّم به: إن هذا كَلَامٌ حقيقةً، وإلا لَلَزِمَ أن يكونَ الأَخْرَسُ متكلماً، ولَزِمَ أَلَّا يكونَ الذي في المصحف عندَ الإطلاقِ هو القرآن ولا كلامَ الله، ولكن عبارة عنه ليست هي كَلَامَ الله، كما لو أَشَارَ أَخْرَسُ إلى شخصٍ بإشارة فَهِمَ بها مقصودَه، فكتَبَ ذلك الشَّخْصُ عبارتَه عن المعنى الذي أَوْحاه إليه ذلك الأخرسُ، فالمكتوبُ: هو عبارةُ ذلك الشخص عن ذلك المعنى، وهذا المَثَلُ مطابقٌ غايةَ المطابقة لما يَقولُونَه، وإن كان الله تعالى لا يُسَمِّيه أَحَدٌ «أخرَسَ»، لكن عندَهم أن المَلَكَ فَهِمَ منه معنى قائماً بنفسه، لم يَسمَعْ منه حرفاً ولا صَوْتاً، بل فَهِمَ معنى مجرداً ثم عَبَّر عنه، فَهُوَ الذي أَحدَث نَظْمَ القرآن وتأليفَه العربي، وأن الله خَلَقَ في بعض الأجسام كالهواء الذي هو دُونَ المَلَكِ هذه العبارةَ.

ويُقال لمن قال: إنَّه معنى واحد: هل سَمِعَ موسى عليه السلام جَمِيعَ المعنى أو بعضَه؟ فإن قَالَ: سَمِعَه كُلَّه، فقد زَعَمَ أنه سَمِعَ جَمِيعَ كلام الله! وفسادُ هذا ظاهر[1]، وإن قال: بَعْضَهُ، فقد قال: يَتَبَعَّضُ، وكذلك كُلُّ مَنْ كَلَّمه الله، أو أَنزَلَ إليه شيئاً من كلامه.

ولما قال تعالى للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]. ولما قال لهم: ﴿ٱسْجُدُواْ لِآدَمَ﴾ [البقرة: ٣٤] وأمثال ذلك: هل هذا جَميعُ كلامِه أو بعضُه؟ فإن قال: إنَّه جميعُه، فهذا مكابرة، وإن قال: بعضُه، فقدِ اعترَفَ بتعدُّده.

وللناس في مُسَمَّى الكلامِ[2] والقول عند الإطلاق: أربعةُ أقوال:

أَحدُها: أنه يَتَنَاوَلُ اللفظَ والمعنى جميعاً، كما يَتَناوَلُ لفظُ «الإنسان» الروحَ والبدنَ معاً، وهذا قولُ السلف.

الثاني: أنه اسمٌ للَّفظ فقط، والمعنى ليس جُزْءَ مسماه، بل هو مدلولُ مسمَّاه، وهذا قولُ جماعةٍ من المعتزلة وغيرهم.

الثالث: أنه اسم «للمعنى» فقط، وإطلاقُه على اللفظِ مجاز، لأنه دالٌّ عليه، وهذا قولُ ابنِ كُلَّاب ومن اتَّبعه.

---

(١) وبيان فساده أن من قال: إن موسى عليه السلام سمع كلام الله كله لزمه أن يكون موسى قد فهم كلام الله من الأزل إلى الأبد، انظر: درء التعارض (٢/ ٩٠).

(٢) انظر: الإيمان لشيخ الإسلام (ص١٦٢).

الرابع: أنه مُشْتَرَكٌ[1] بينَ اللفظِ والمعنى، وهذا قَوْلُ بعضِ المتأخرين من الكُلَّابية.

ولهم قول خامسٌ: يُروى عن أبي الحسن، أنه مجازٌ في كلام الله، حقيقةٌ في كلام الآدميين، لأن حروفَ الآدميين تَقُومُ بهم، فلا يَكُونُ الكَلَامُ قائماً بغيرِ المتكلم، بخلاف كلامِ الله، فإنَّه لا يَقُومُ عنده بالله، فيَمتَنِعُ أن يكونَ كلامَه، وهذا مبسوطٌ في موضعه.

وأما مَنْ قال إنَّه معنًى واحد، واسْتَدَلَّ عليه بقولِ الأخطل:

إنَّ الكَلامَ لَفِي الفُؤَادِ وإنَّما ... جُعِلَ اللِّسَانُ عَلَى الفُؤَادِ دَلِيلا

فاستدلالٌ فاسد. ولو استَدَلَّ مستدلٌّ بحديثٍ في «الصحيحين» لقالوا: هذا خَبَرُ واحدٍ! ويكون مما اتَّفَقَ العلماءُ على تصديقه، وتَلَقِّيهِ بالقَبول والعمل به، فكيف وهذا البَيْتُ قد قيل: إنه موضوعٌ منسوبٌ إلى الأخطل، وليس هُوَ في ديوانِه؟! وقيل: إنما قال: «إن البَيَانَ لَفِي الفُؤادِ» وهذا أقربُ إلى الصحة، وعلى تقديرِ صحته عنه، فلا يَجُوزُ الاستدلالُ به، فإنَّ النصارى قد ضَلُّوا في معنى الكلام، وزَعمُوا أنَّ عيسى عليه السلام نَفسُ كلمةِ الله، واتَّحَدَ اللاهوتُ بالنَّاسوت! أي: شيء مِنَ الإله بشيءٍ من الناس! أَفَيُسْتَدَلُّ بقولِ نَصرَانِيٍّ قد ضَلَّ في معنى الكلامِ على معنى الكلام، ويُتْرَكُ ما يُعْلَمُ من معنى الكلام في لغة العرب!.

وأيضاً: فمعناه غيرُ صحيح، إذ لازِمُه أن الأخرسَ يُسمَّى متكلماً، لقيام الكلام بقلبه، وإن لم يَنْطِقْ به، ولم يُسْمَعْ منه، والكلامُ على ذلك مبسوط في موضعه، وإنما أشِيرُ إليه إشارة.

وهنا معنى عجيب، وهو: أن هذا القول له شَبَهٌ قوي بقولِ النصارى القائلين باللاهوت والناسوت! فإنهم يقولون: كلامُ اللهِ هو المعنى القائمُ بذاتِ الله الذي لا يُمْكِنُ سَمَاعُه، وأما النَّظْمُ المسموعُ مخلوق، فإفهامُ المعنى القديم بالنظم المخلوق

(١) لفظ الكلام عندهم يطلق على اللفظ والمعنى فليس ثم علاقة بينهما سوى أنه يطلق على كل منهما كلام. فهم إذا أطلقوه على اللفظ وحده حقيقة وعلى المعنى وحده حقيقة لكن معنى قول السلف أن الكلام يطلق حقيقة في الأمرين «اللفظ والمعنى» على سبيل الجمع، انظر: مختصر الصواعق (٢/ ٣٣١).

يُشْبِهُ امتزاج اللاهوت(١) بالناسوتِ(٢) الذي قَالَتْهُ النصارى في عيسى عليه السلام، فانْظُرْ إلى هذا الشَّبه، ما أعجَبَه.

ويَرُدُّ قَوْلَ مَنْ قال: بأن الكلامَ هو المعنى القائمُ بالنفس قولُه ﷺ: (إِنَّ صَلَاتَنَا هَذِهِ لَا يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ)(٣). وقال: (إِنَّ اللهَ يُحْدِثُ مِنْ أَمْرِهِ مَا يَشَاءُ وَإِنَّمَا أَحْدَثَ أَنْ لَا تَكَلَّمُوا فِي الصَّلَاةِ)(٤). واتَّفَقَ العُلماءُ على أنَّ المصلِّي إذا تَكَلَّمَ في الصلاة عَامِداً لغير مصلحتها، بَطَلَتْ صَلاتُه، واتَّفَقُوا كُلُّهم على أن ما يَقُومُ بالقلبِ من تصديقٍ بأمورٍ دُنيويةٍ وطلب، لا يُبْطِلُ الصَّلاةَ، وإنما يُبْطِلُهَا التَّكَلُّمُ بذلك، فعُلِمَ اتفاقُ المسلمين على أن هذا ليس بكلام.

وأيضاً: ففي «الصحيحين» عن النبيِّ ﷺ أنه قال: (إِنَّ اللهَ تَجَاوَزَ لِأُمَّتِي عَمَّا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا، مَا لَمْ تَتَكَلَّم بِهِ أَوْ تَعْمَلْ به)(٥). فقد أَخبَرَ أن الله عفا عن حديث النفس إلا أن تَتَكَلَّمَ، ففرَّق بينَ حديثِ النفس وبينَ الكلام، وأَخْبَرَ أنه لا يُؤَاخَذُ به حتَّى يَتكَلَّمَ به، والمراد: حتى يَنْطِقَ به اللِّسَانُ، باتِّفَاقِ العلماء، فَعُلِمَ أن هذا هو الكَلَامُ في اللغة، لأن الشارعَ إنما خاطَبَنَا بلغة العرب.

وأيضاً ففي «السنن»: أن معاذاً رضي الله عنه قال: يا رَسُولَ الله، وإنا لَمؤاخَذُونَ بما نَتَكَلَّمُ به؟ فقال: (وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ)(٦). فَبَيَّنَ أَنَّ الكَلامَ إنما هو باللسان، فَلَفْظُ «القول» و«الكلام» وما تصرَّف منهما، مِنْ فِعْلٍ ماضٍ ومضارعٍ وأمرٍ واسم فاعلٍ، إنما يُعرَفُ في القرآن والسنة وسائرِ كلامِ العرب إذا كان لفظاً ومعنى. ولم يَكُنْ في مسمى «الكلام» نِزَاعٌ بَينَ الصحابة والتابعين لهم بإحسانٍ، وإنما حَصَلَ النِّزَاعُ بَيْنَ المتأخِّرينَ من علماء أهلِ البدعِ، ثم انتَشَرَ.

ولا رَيبَ أن مُسَمَّى الكلامِ والقول ونحوهما، ليس هو مما يُحتَاجُ فيه إلى قول

---

(١) اللاهوت: مشتق من اسم الله تعالى.

(٢) الناسوت: لفظ مشتق من الناس. انظر: مفاتيح العلوم للخوارزمي (ص٥٢).

(٣) أخرجه مسلم (٥٣٧).

(٤) أخرجه البخاري معلقاً بصيغة الجزم عن ابن مسعود (١٣/ ٤٩٦).

(٥) أخرجه البخاري (٢٥٢٨)، ومسلم (١٢٧).

(٦) أخرجه الترمذي (٢٦١٦)، وابن ماجه (٣٩٧٣).

شاعرٍ، فإن هذا مما تَكَلَّمَ به الأَوَّلُونَ والآخِرون من أهل اللغة، وعَرفُوا معناه، ما عَرَفُوا مسمَّى الرأس واليدِ والرجلِ ونحوِ ذلك.

ولا شَكَّ أَنَّ مَنْ قال: إنَّ كلامَ اللهِ معنى واحد قائمٌ بنفسِه تعالى، وإن المتلُوَّ المَحْفُوظَ المَكْتُوبَ المسموعَ مِن القارئ حكايةُ كلام الله وهو مخلوق، فقد قال بخلق القرآن وهو لا يَشْعُرُ، فإن الله تعالى يقول: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ﴾ [الإسراء: ٨٨]. أَفَتُراهُ ﷻ يُشِيرُ إلى ما في نفسه أو إلى المتلوِّ المسموعِ؟ ولا شَكَّ أن الإشارةَ إنما هي إلى هذا المتلوِّ المسموعِ، إذ ما في ذات الله غيرُ مشارٍ إليه، ولا منزلٌ ولا متلوٌّ ولا مسموعٌ.

وقوله: ﴿لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ﴾ أَفَتُراه سبحانه يقول: لا يَأْتُونَ بمثلِ ما في نفسي مما لم يسمعُوه ولم يَعْرِفُوه، وما في نفس الله ﷻ لا حِيلةَ إلى الوصولِ إليه، ولا إلى الوقوفِ عليه.

فإن قالُوا: إنما أشار إلى حكاية ما في نفسه وعبارتِه وهو المتلوُّ المَكْتُوبُ المسموع، فأما أن يُشِيرَ إلى ذاته فلا، فهذا صَرِيحُ القولِ بأن القرآنَ مخلوق، بل هُمْ في ذلك أكفرُ من المعتزلة، فإنَّ حكاية الشيء مثلُه وشبهه، وهذا تصريحٌ بأن صفاتِ الله محكيَّة، ولو كانت هذه التلاوة حكايةً، لكان النَّاسُ قد أَتَوْا بمثل كلامِ الله، فأين عَجْزُهُمْ؟! ويكون التالي ـ في زَعْمِهم ـ قد حكى بصوتٍ وحرفٍ ما لَيْسَ بصوتٍ وحرف، وليس القرآنُ إلا سُوَراً مُسَوَّرة، وآياتٍ مُسَطَّرةً، في صُحُفٍ مطهَّرةٍ. قال تعالى: ﴿فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ﴾ [هود: ١٣]. ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [العنكبوت: ٤٩]. ﴿فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾﴾ [عبس: ١٣، ١٤]. ويُكتب لمن قرأ بكل حرفٍ منه عشر حسنات، قال ﷺ: (أَمَا إِنِّي لا أَقُولُ «ألم» حَرْفٌ، وَلَكِنْ أَلْفٌ حَرْفٌ، ولَامٌ حَرْفٌ، وَمِيمٌ حَرْفٌ)[1]. وهو المحفوظُ في صدورِ الحافظين، المسموعُ من أَلْسُنِ التَّالين.

قال الشيخُ حافظُ الدين النَّسَفِيُّ رَحِمَهُ اللهُ في «المنار»: إن القرآن اسمٌ للنظم[2]

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٩١٠)، والدارمي (٢/ ٤٢٩).

(٢) مقصودهم بالنظم: اللفظ المسموع، انظر: كتاب المنار (١/ ٤٣).

والمعنى، وكذا قال غَيْرُهُ مِن أهل الأصول. وما يُنْسَبُ إلى أبي حنيفة رَحِمَهُ اللهُ: أنَّ مَنْ قَرَأَ في الصلاة بالفارسية أجزَأَه، فقد رَجَع عنه، وقال: لا تَجوزُ القراءةُ مع القُدرةِ بغير العربية. وقالوا: لو قَرَأَ بغير العربية، فإمَّا أن يكون مجنوناً فيُدَاوَى، أو زِنديقاً فيُقْتَلَ، لأن الله تكَلَّمَ به بهذه اللغة، والإعجازُ حَصَلَ بنظمه ومعناه.

وقوله: «ومَنْ سَمِعَه، وقال: إنه كَلَامُ البشر، فقد كَفَر» لا شَكَّ في تكفير مَنْ أنكَرَ القرآن كَلَامُ الله، بل قالَ: إنه كَلَامُ محمدٍ أو غيره من الخلق، ملَكاً كان أو بشراً، وأما إذا أقرَّ أنه كلامُ الله، ثم أوَّلَ وحرَّفَ، فقد وافق قولَ من قال: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ۝٢٥﴾ [المدثر: ٢٥] في بعض ما به كفر، وأولئك الذين اسْتَزَلَّهُم الشيطانُ، وسيأتي الكلامُ عليه عند قول الشيخ: «ولا نُكَفِّرُ أحداً مِن أهلِ القِبلة بِذنبٍ مَا لَمْ يَستحِلَّه» إن شاء الله تعالى:

وقوله: «ولا يُشْبِهُ قولَ البشر». يعني: أنه أَشرَفُ وأفْصَحُ وأَصْدَقُ، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧]، وقال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ﴾ [الإسراء: ٨٨]. وقال تعالى: ﴿فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ﴾ [هود: ١٣]. وقال تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾ [يونس: ٣٨]. ـ فلمَّا عَجَزُوا ـ وهم فصحاءُ العربِ، مع شدة العداوة عن الإتيانِ بسورةٍ مِثْلِهِ، تَبَيَّنَ صِدْقُ الرسول ﷺ أنه من عند الله، وإعجازُه من جهة نظمه ومعناه، لا مِن جهة أحدِهما فقط، هذا مع أنه قرآن عربي غيرُ ذي عِوَجٍ بلسان عربي مبين، أي: باللُّغة العربية.

فنفي المشابهة مِن حيثُ التكلمُ ومن حيثُ النظمُ والمعنى، لا من حيثُ الكَلماتُ والحروفُ. وإلى هذا وَقَعَتِ الإشارةُ بالحروف المقطَّعة في أوائل السُّور، أي: أنه في أُسلوبِ كلامهم وبِلُغَتِهم التي يخاطبون بها، ألا تَرَى أنه يَأْتي بَعْدَ الحروفِ المُقَطَّعَةِ بِذِكْر القرآنِ؟ كما في قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: ١، ٢]. ﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ [آل عمران: ١ ـ ٣] الآية. ﴿الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١، ٢] ﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝١﴾ [يونس: ١] وكذلك الباقي، يُنبِّهُهم أن هذا الرسولَ الكريم لم يأْتِكُم بما لا تعرِفُونَه، بل خاطَبَكم بلسانكم.

ولكن أهلَ المقالاتِ الفاسدة يَتَذَرَّعُون بمثل هذا إلى نفي تكلُّمِ الله به، وسماع

جبريل منه، كما يَتَذَرَّعُون بقوله تعالى: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾ [الشورى: ١١] إلى نفي الصفات. وفي الآية ما يَرُدُّ عليهم قولَهم، وهو قولُه تعالى: ﴿هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]. كما في قوله تعالى: ﴿فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّثۡلِهِۦ﴾ [يونس: ٣٨] ما يرد على من ينفي الحرف فإنه قال: ﴿فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ﴾ ولم يَقُلْ: فأتوا بحرف، أو بكلمة، وأقصرُ سورة في القرآن ثلاث آيات، ولهذا قال أبو يوسف ومحمد رحمهما الله، إن أدنى ما يُجزِئُ في الصلاة ثلاثُ آيات قِصارٍ، أو آيةٌ طويلة، لأنه لا يَقعُ الإعْجَازُ بدون ذلك. والله أعلم.

قوله: «وَمَنْ وَصَفَ الله بمعنى من معاني البَشر، فقد كَفَرَ، فمَنْ أَبْصَرَ هذا اعْتَبَر، وعَنْ مِثْلِ قَوْلِ الكُفَّارِ انْزَجَرَ، وعَلِمَ أن الله بصِفَاتِهِ لَيْسَ كالبَشَرِ».

ش: لَمَّا ذَكَرَ فيما تقدَّم أن القرآن كلامُ الله حقيقة، منه بدا: نَبَّه بعد ذلك على أنَّه تعالى بصفاته ليس كالبشرِ، نفياً للتشبيه عَقِيبَ الإثباتِ، يعني: أنه تعالى وإن وُصِفَ بأنه متكلِّمٌ، لكنْ لا يُوصَفُ بمعنى من معاني البشر التي يكونُ الإنسانُ بها متكلِّماً، فإن الله ليس كمثله شيء وهو السميعُ البصير. وما أحسنَ المثلَ المضروبَ للمثبِتِ للصفات من غير تشبيه ولا تعطيل، باللَّبَنِ الخالص السائغ للشَّاربين، يَخرُجُ مِنْ بَيْنِ فَرْثِ التعطيل، ودَمِ التشبيه، والمعطِّلُ يَعْبُدُ عدماً، والمشبِّه يَعبُدُ صنماً.

ويأتي في كلام الشيخ: «ومَنْ لم يَتَوَقَّ النفيَ والتشبيه، زلَّ ولم يُصِبِ التنزيه» وكذا قولُه: «وهو بَيْنَ التشبيهِ والتعطيلِ»، أي: دينُ الإسلام، ولا شَكَّ أن التعطيلَ شرٌّ من التشبيهِ، لما سأذْكُرُه إن شاء اللهُ تعالى. وليس ما وَصَفَ اللهُ بِهِ نفسَه ولا ما وَصَفَهُ به رسولُه تشبيهاً، بل صِفَاتُ الخالق كما يَليقُ به، وصِفَاتُ المخلوقِ كما يَليقُ به.

وقوله: «فمَنْ أبصَرَ هذا، اعتبَرَ»، أي: من نَظَر بعينِ بصيرته فيما قاله من إثبات الوصفِ، ونفي التشبيه، ووعيد المشبه، اعْتَبَرَ وانْزَجَر عن مثلِ قول الكفار.



عناصر الموضوع:

١ غرض المصنف من عقد هذا الباب:

يتضح غرض المصنف من عقد هذا الباب فيما يلي:

أ ـ تقرير مذهب السلف في كلام الله؛ فقد كان السلف متفقين على أن كلام الله غير مخلوق، وأنه تعالى لم يزل متكلماً إذا شاء ومتى شاء وكيف شاء، وأن الكلام صفة له قائمة بذاته، وهو يتكلم بصوت يسمع، وأن نوع الكلام قديم وإن لم يكن الصوت المعين قديماً، وعلى هذا مضى السلف وأهل الحديث وسائر الأئمة المهتدين.

ب ـ الرد على المخالفين لمذهب السلف في صفة كلام الله تعالى وهم الجهمية والمعتزلة ومن تبعهم من الخوارج والإمامية.

ج ـ بيان أن الأشعرية والماتريدية يتظاهرون بإثبات صفة الكلام لله، ولكنه كلام نفسي بدون حرف ولا صوت، ولا يتجزأ ولا يتبعض، وليس فيه أمر ولا نهي ولا خبر ولا استخبار، أما التوراة والإنجيل والقرآن فليس كلام الله على الحقيقة بل هو مخلوق، وهو كلام الله مجازاً؛ لأنه دال على كلام الله النفسي(١).

٢ مناسبة هذا الباب لما سبق:

بعد أن ذكر المصنف مسألة الإيمان بالله ﷻ والتوحيد له، وحقه على العباد، ثم بين الاعتقاد الواجب في الرسول ﷺ، ناسب بعد ذلك الحديث عن دليل مسألة النبي ﷺ وكتابها، ألا وهو القرآن الكريم الذي أنزله الله لبيان الدين والدلالة على صحة نبوة الرسول ﷺ.

---

(١) انظر: كتاب التوحيد للماتريدي (ص٥٩)، وإشارات المرام (ص٥٥، ١٨١، ١٨٢)، والإرشاد للجويني (ص١٢٩ ـ ١٣٠).

٣ معاني الكلمات:

الكلمة	المعنى
العقل الفعال	هو عند الفلاسفة صورة مفارقة لم تكن في مادة ولا تكون أصلاً. وهو شيء ما وراء المادة، مبرأ من الفناء يُدبِّر شؤون الكون، ويسمونه العقل العاشر وهو علة هذه الأكوان عندهم.
الحقيقة	الحقيقة لها عدة معان: الأول: مطابقة التصور أو الحكم للواقع. الثاني: مطابقة الشيء لصورة نوعه أو لمثاله. الثالث: الماهية أو الذات.
المجاز	هو اللفظ المستعمل في غير معناه الذي وضع له لوجود علاقة بين المعنيين.

٤ معنى كلام الطحاوي:

«وأن القرآن كلام الله، منه بدا بلا كيفية قولاً. وأنزله على رسوله وحياً، وصدقه المؤمنون على ذلك حقاً، وأيقنوا أنه كلام الله تعالى بالحقيقة، ليس بمخلوق ككلام البرية، فمن سمعه فزعم أنه كلام البشر فقد كفر، وقد ذمه الله وعابه وأوعده بسقر، حيث قال تعالى: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾﴾ [المدثر: ٢٦]، فلما أوعد الله بسقر لمن قال: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾ [المدثر: ٢٥]، علمنا وأيقنا أنه قول خالق البشر، ولا يشبه قول البشر. ومن وصف الله بمعنى من معاني البشر، فقد كفر، فمن أبصر هذا اعتبر، وعن مثل قول الكفار انزجر، وعلم أنه بصفاته ليس كالبشر»:

فالقرآن الكريم هو كلام الله منه بدا سبحانه، ولم يأخذه جبريل من اللوح المحفوظ كما يقوله أهل الضلال، ولم يكن من كلام جبريل ولا محمد ﷺ، إنما هو كلام رب العالمين، وأما جبريل ومحمد عليهما الصلاة والسلام فهما مبلغان عن الله ﷻ، فالكلام إنما يقال ويضاف لمن قاله مبتدأ، لا من قاله مبلغاً ومؤدياً، والمؤمنون بالله ورسوله يصدقون بأن القرآن كلام الله ﷻ، وأن محمداً ﷺ إنما هو مبلغ عن الله تعالى.

وهو كلام الله ليس بمخلوق، وهو كلام الله حقيقة ليس بالمجاز، كما يقوله الجهمية والمعتزلة، فمن سمع كلام الله وزعم أنه كلام البشر فقد كفر؛ لأنه جحد كلام الله ﷻ، وقد ذم الله هذه المقالة، فقال: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾﴾ [المدثر: ٢٥، ٢٦].

ولا تشابه بين كلام الله وكلام البشر؛ للفرق بين صفات الخالق وصفات المخلوق.

ومن تدبر الآيات القرآنية عرف بطلان هذه الفرق الضالة في كلام الله ﷻ.

٥ معنى قول الطحاوي: «منه بدا بلا كيفية قولاً»:

قول الشيخ: «منه بدا بلا كيفية قولاً» أي أنه سبحانه تكلم به على الحقيقة، ولا ندري كيف تكلم به، وذكر كلمة «قولاً» تأكيداً لهذا، وردَّ بهذا على المعتزلة وغيرهم.

إن المعتزلة يزعمون أن كلام الله مخلوق خلقه الله منفصلاً عنه، وقالوا: إضافته إليه إضافة تشريف وتكريم ـ كقولنا «ناقة الله» و«بيت الله».

ويرد بأن قولهم باطل وتحريف للكلام عن مواضعه، وذلك لأن المضاف إلى الله تعالى نوعان: معان، وأعيان.

١ ـ فإضافة الأعيان إلى الله للتشريف والتكريم لها، وهي مخلوقة له، كناقة الله ورسول الله وغيره.

٢ ـ أما إضافة المعاني إليه سبحانه، كعلم الله وقدرته وعلوه فإنها من صفاته، ولا يمكن أن تكون شيئاً مخلوقاً.

٦ عرض عقيدة أهل السنة والجماعة في كلام الله إجمالاً:

إن عقيدة السلف الصالح هي العقيدة الصحيحة الصافية، والتي أتى بها النبي ﷺ، ودلت عليها نصوص الكتاب والسنة، ولا يفلح من أتى الله تعالى يوم القيامة إلا بها، ومن أبواب هذه العقيدة باب كلام الله تعالى. فالسلف يعتقدون أن القرآن كلام الله تعالى غير مخلوق، منه بدا وإليه يعود، واستدلوا على ذلك بقوله: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]، وهو القرآن من غير خلاف. وصح أن النبي ﷺ قال: (**ألا رجل يحملني إلى قومه، فإن قريشاً قد منعوني أن أبلغ كلام ربي**)[١]، وهو القرآن.

فهو كلام الله حقاً، بلفظه ومعناه، سمعه منه جبريل عليه السلام، ثم نزل به على النبي ﷺ فقرأه على الناس، فمن زعم أنه كلام بشر فقد كفر، وقد قال تعالى:

---

(١) أبو داود (٤٧٣٤)، والترمذي (٢٩٢٥)، وابن ماجه (٢٠١) عن جابر، صحيح أبي داود (٣٩٦٠).

﴿فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾﴾ [المدثر: ٢٤ ـ ٢٦] فدل على أنه ليس كلام البشر، بل هو كلام خالق البشر.

وقد تكلم السلف كثيراً حول هذا الباب، وأنا أوجز كلامهم بذكر خلاصته في عبارات محددة، استقرأها السلف من نصوص الكتاب والسنة.

فاعلم أيها القارئ أن العقيدة السلفية في كلام الله تعالى متضمنه لما يلي:

١ ـ أن الكلام صفة ذاتية لله تعالى من حيث النوع[١]، وصفة فعلية له تعالى من حيث الأفراد[٢].

٢ ـ والكلام صفة قائمة به تعالى[٣]، فلا تقوم بغيره ﷻ خلافاً لأهل البدع.

٣ ـ والله ﷻ لم يزل متكلماً، ولا يزال متكلماً[٤] إذا شاء سبحانه.

٤ ـ والله تعالى يتكلم بمشيئته واختياره[٥].

٥ ـ وكلامه ﷻ مسموع بالآذان[٦] حقيقة من غير توهم.

٦ ـ والقرآن كلام الله تعالى، تكلم به[٧] على الحقيقة.

٧ ـ والقرآن كلام الله تعالى بحروفه ومعانيه[٨].

٨ ـ وكلامه ﷻ بحرف وصوت مسموع[٩].

٩ ـ وكما أن الله تعالى ليس كمثله شيء، كذلك كلامه ليس ككلام خلقه، وصوته تعالى ليس كأصوات خلقه[١٠].

---

(١) والمراد بالنوع: الكلام في ذاته. (٢) والمقصود بالأفراد: الكلمات.

(٣) النونية (ص٣٣)، وشرح الطحاوية (ص١٤٦).

(٤) النونية (ص٢٨ ـ ٣٢)، وشرح الطحاوية (ص١٣٧).

(٥) النونية (ص٣٢، ٤١)، وشرح الطحاوية (ص١٣٧ ـ ١٤٦).

(٦) النونية (ص٢٨).

(٧) صحيح البخاري (٧/ ٤٣٤)، والنونية (ص٣٢ ـ ٣٧)، ومجموع الفتاوى (١٢/ ٥٨٤ ـ ٥٨٦).

(٨) النونية (ص٢٨، ٣٢، ٤١)، ومجموع الفتاوى (١٢/ ٥٨٤ ـ ٥٨٦)، ومجموعة الرسائل (٣/ ٣٨٨).

(٩) انظر: خلق الأفعال (ص١٤٩)، ودرء التعارض (٢/ ٣٨ ـ ٤٥)، ومجموع الفتاوى (١٢/ ٣ ـ ٥، ٣٦٥، ٥٨٤ ـ ٥٨٦، ٦/ ٥٢٧ ـ ٥٢٨)، وكتاب السنة لعبد الله بن أحمد (١/ ٢٨٠)، ومسألة القرآن لابن عقيل (ص٦١ ـ ٦٢، ١٠٩).

(١٠) خلق الأفعال (ص١٤٩)، ودرء التعارض (٢/ ٣٩، ٤٠، ٩٣)، ومجموع الفتاوى (٦/ ٥٢٧ ـ ٥٢٨، ١٢/ ٣٥٤ ـ ٣٥٥، ٣٦٥، ٥٨٤ ـ ٥٨٦)، ومسألة القرآن لابن عقيل (ص١٠٩).

١٠ ـ والقرآن كلام الله على الحقيقة، وهو عين كلامه الحقيقي[١].

فالقرآن كلام الله بحروفه وسوره وآياته غير مخلوق[٢]، فمن قال إنه مخلوق فهو كافر[٣].

وإن هذا القرآن العربي هو بعينه كلام الله تعالى على الحقيقة[٤] منه بدا وإليه يعود. ومعنى منه بدا، أي: تكلم به فهو كلامه هو، ومعنى إليه يعود، أي: لا يبقى منه شيء في المصاحف أو في الصدور في آخر الزمان[٥]. ولكن صوت القارئ بكلام الله تعالى، ومداد الكاتب لكلامه تعالى، والورق الذي يكتب عليه الكاتب كلام الله تعالى، والنقوش التي يخططها الكاتب بيده، كل ذلك مخلوق، ولكن الملفوظ والمكتوب كلام الله تعالى، فالصوت صوت القارئ، والكلام كلام الباريء[٦].

٧ عرض عقائد أهل البدع في كلام الله والرد عليها إجمالاً:

اختلف الناس في صفة كلام الله، فذهب أصناف المعطلة من الفلاسفة والجهمية والمعتزلة والصوفية الاتحادية والحلولية والكلابية والماتريدية والأشعرية وغيرهم مذاهب شتى في كلام الله تعالى!.

وأذكر فيما يلي أهم هذه المذاهب مع الرد عليها:

---

(١) النونية (ص٢٨).

(٢) انظر: البرهان في بيان القرآن لابن قدامة (ص٢٥).

(٣) النونية (ص٣١)، وشرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي (٢/ ٢٢٧ ـ ٣١٢)، خلق أفعال العباد (ص١٣، ١٥، ١٧، ٢٦، ٢٨)، والرد على الجهمية للدارمي (ص١٧١ ـ ١٨٦)، والسنة لعبد الله (١/ ١١٤ ـ ١٢٢)، ومجموع الفتاوى (٥/ ١٩٧)، وتلبيس الجهمية (١/ ١٢٧)، ومشائخ بلخ من الحنفية (١/ ١٢٥ ـ ١٢٧)، وفنون الأفنان لابن الجوزي (ص١٥٣ ـ ١٩٥)، ومسائل أبي داود (ص٢٦٧)، العلو للذهبي (ص١١٢)، والأسماء والصفات للبيهقي (ص٢٥١)، وتاريخ بغداد (١٣/ ٣٨٣)، وأصول البزدوي (ص٣ ـ ٤)، وشرح كشف الأسرار (١/ ٩).

(٤) شرح الطحاوية (ص١٦٨).

(٥) درء التعارض (٢/ ١١٣)، ومجموع الفتاوى (٣/ ١٤٤، ١٧٤ ـ ١٧٥)، والمحنة لحنبل (ص٤٥)، والرد على الجهمية للدارمي (ص٨٨)، وللإمام الضياء المقدسي (٦٤٣هـ) رحمه الله كتاب مستقل في هذه المسألة سماه: «اختصاص القرآن بعوده إلى الرحيم الرحمن» مطبوع.

(٦) انظر: القصيدة النونية (ص٢٨).

المذهب الأول: مذهب الصوفية الاتحادية والحلولية[١]، وهو أن كلام الله تعالى هو كل كلام في جميع الكون، شعراً ونثراً. وفي ذلك يقول ابن عربي:

وكل كلام في الوجود كلامه ... سواء علينا نثره ونظامه

أقول: وهذا المذهب ظاهر البطلان مخالف تماماً لعقيدة السلف الصالح التي سبق ذكرها في التمهيد مخالف لأصول اللغة، فإن كلام الشخص هو ما تكلم به هو لا غيره، وكلام الله تعالى هو ما تكلم به ﷻ وهو القرآن، لا ما تكلم به جميع الناس، فقول ابن عربي المذكور ظاهر الفساد والبطلان، مناقض تماماً لدلالة العقل الصريح والنقل الصحيح عن النبي ﷺ كما في الحديث: «فإن قريشاً قد منعوني أن أبلغ كلام ربي»، ولما ثبت عن أئمة السلف في هذا الباب.

وهذا المذهب الفاسد الذي ذهب إليه أهل الاتحاد والحلول من غلاة الصوفية وغيرهم، يلزمهم بأمور كثيرة فاحشة، ذهب كثير منهم إليها فعلاً، وأنا أذكر هذه اللوازم فيما يلي:

١ ـ أن الله تعالى هو عين هذا الكون. فالله هو القرد والخنزير والكلب والعذرة والأنجاس والفرج والذكر والواطئ والموطوء والزاني والزانية وإبليس وفرعون وهامان وموسى وعيسى، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

٢ ـ أن كلام الله تعالى كل ما في الكون من الكفر والإسلام والشرك والتوحيد والصدق والكذب والظلم والعدل والسحر والشعر والنثر وكلام المجوس وكلام الوثنية وكلام فرعون وكلام إبليس وكلام جميع المشركين هو بعينه كلام الله.

٣ ـ إنكار كون القرآن والتوراة والزبور من كلام الله الحقيقي، لأن القرآن عندهم هو عين الله تعالى والكلام والتكلم هما شيء واحد، فلا خالق ولا مخلوق، بل الوجود واحد، وفي ذلك يقول الإمام ابن القيم يرحمه الله:

وأتت طوائف الاتحاد بملة ... طمست على ما قال كل لسان
قالوا: كلام الله كل كلام هـ ... ذا الخلق في حي وفي إنسان
نظماً ونثراً زوره وصحيحه ... صدقاً وكذباً واضح البطلان
فالسب والشتم والقبيح وقذفهم ... للمحصنات وكل نوع أغاني

---

(١) أمثال: الحلاج، وابن الفارض (٦٣٢هـ)، وابن عربي الملحد (٦٣٨هـ)، وابن سبعين (٦٦٩هـ)، والقونوي (٦٧٣هـ)، والتلمساني (٦٩٠هـ)، وغيرهم من الصوفية الاتحادية والحلولية.

والنوح والتعزيم والسحر المبيـ ـن وسائر البهتان والهذيان
هو عين قول الله جل جلاله وكلامه حقاً بلا نكران
إذ أصلهم أن الإله حقيقة عين الوجود وعين ذي الأكوان[١]

المذهب الثاني: مذهب الفلاسفة اليونان الكفرة ومن تبعهم من المتفلسفة في الإسلام[٢]، حيث قالوا: «إن كلام الله تعالى هو ما يفيض على النفوس من المعاني، إما من العقل الفعال[٣]، أو من غيره»[٤].

قلت: هذا الذي قالوا: «إنه الفيض» ليس إلا خيالاً، والفرق بينه وبين الكلام النفسي: أن الخيال نوع من الوساوس، والكلام النفسي تقدير الكلام وإرادته في النفس.

وهذا القول في غاية من الفساد. وهو مخالف للعقل والنقل والشرع واللغة والعرف في آن واحد، لأن الفيض لا يسمى كلاماً، لا في لغة من اللغات، ولا في عرف بني آدم كلهم أولهم وآخرهم، ولا في شرع من الشرائع.

فإن الكلام ما تضمن كلمتين بالإسناد[٥]، والكلمة لفظ وضع لمعنى مفرد. فما لم يكن لفظاً مفهوماً، ذا معنى، مسموعاً بالآذان لا يسمى كلاماً البتة، لا في لغة من اللغات، ولا في شرع من الشرائع، ولا في عقل من العقول السليمة.

وهذا المذهب الباطل يلزم منه أمور فاسدة، منها:

١ ـ تكذيب القرآن الكريم، والتوراة، والإنجيل، والزبور، وغيرها من كتب الله تعالى. فإنها كلها من كلام الله على الحقيقة، تكلم الله تعالى بها.

وهي ألفاظ وكلمات وكلام حقيقي مسموع من الله تعالى، وليست فيضاً فاض على النفوس.

٢ ـ تكذيب رسل الله تعالى وأنبيائه، فإنهم أخبروا عن الله تعالى بكلام حقيقي

---

(١) النونية (ص٣٩ ـ ٤٠)، ط. دار المعرفة، و(ص٥٥)، ط. مكتبة ابن تيمية.

(٢) أمثال الفارابي (٣٣٩هـ)، وابن سينا الحنفي (٤٢٨هـ)، ونصير الطوسي (٦٧٢هـ).

(٣) العقل الفعال عند هؤلاء الفلاسفة ولا سيما عند الفارابي: صورة مفارقة لم تكن في مادة ولا تكون أصلاً، وهو شيء ما وراء المادة مبرأ من الفناء، يدبر شؤون الكون ويسمونه «العقل العاشر»، وهو علة هذه الأكوان عندهم. انظر: المعجم الفلسفي (ص١٢٥)، والنونية (ص٣٨).

(٤) شرح العقيدة الطحاوية (ص١٣٦)، والنونية (ص٣٨).

(٥) انظر: كافية ابن الحاجب، وألفية ابن معطي، وألفية ابن مالك.

وكلمات صادقة، فقالوا: قال الله كذا، ونادى كذا، وأمر بكذا، ونهى عن كذا، وهذا كله أنواع للكلام الحقيقي المركب من الألفاظ والكلمات، وليس ذلك من الفيض في شيء.

أن هذا القرآن وغيره من الكتب إنما هو من إنشاء الرسل، لأن العقل الفعال قد أفاض على نفوسهم الفيض فقط، لا الألفاظ، وهذا غاية في الفساد. وفي بيان شناعة قول هؤلاء الكفرة يقول الإمام ابن القيم:

وأتى ابن سينا القرمطي مصانعاً ... للمسلمين بإفك ذي بهتان
فرآه فيضاً فاض من عقل هو الـ ... فعال علة هذه الأكوان

ويقول أيضاً:

ومضى على هذي المقالة أمة ... خلف ابن سينا فاغتذوا بلبان
منهم نصير الكفر في أصحابه ... الناصرين لملة الشيطان[(١)]

وقال يرحمه الله أيضاً:

وأتى ابن سينا بعد ذاك مصانعاً ... للمسلمين فقال بالإمكان
وكذا أتى الطوسي بالحرب الصريـ ... ـح بصارم منه وسل لسان
وأتى إلى الإسلام يهدم أصله ... من أسه وقواعد البنيان
عمر المدارس للفلاسفة الألى ... كفروا بدين الله والقرآن
وأتى إلى أوقاف أهل الدين ينـ ... ـقلها إليهم فعل ذي أضغان
وأراد تحويل الشريعة بالنوا ... ميس التي كانت لدى اليونان
وأشار أن يضع التتار سيوفهم ... في عسكر الإيمان والقرآن
حتى بكى الإسلام أعداه اليهود ... كذا المجوس وعابد الصلبان
وبوده لو كان في أُحُد وقد ... شهد الوقيعة مع أبي سفيان[(٢)]

المذهب الثالث: مذهب الجهمية الأولى والمعتزلة، وهو أن كلام الله تعالى شيء منفصل عن الله تعالى، ومخلوق خلقه الله تعالى[(٣)].

وبناء على ذلك قالوا: القرآن كلام الله، بمعنى أنه تعالى قد خلقه وإنه

---

(١) النونية (ص٣٨ ـ ٣٩)، ط. دار المعرفة، و(ص٥٤)، ط. مكتبة ابن تيمية.
(٢) النونية (ص٤٤)، ط. دار المعرفة، و(ص٦١ ـ ٦٢)، ط. مكتبة ابن تيمية.
(٣) شرح الأصول الخمسة لعبد الجبار (ص٥٢٨)، والمغني له (٧/ ٩٤)، وشرح الطحاوية (ص١٣٦)، ومجموع الفتاوى (١٢/ ١٦٣).

مخلوق[١]، وأن إضافة الكلام إلى الله إضافة تشريف، كبيت الله، لا إضافة الصفة إلى الموصوف.

وقد أقاموا على هذا المذهب الباطل فتنة القول بخلق القرآن، وما جروه على الإسلام وأئمة الإسلام من المحن[٢].

وهذا المذهب كذلك باطل مخالف لعقيدة السلف في كلام الله تعالى، وأنه كلام الله غير مخلوق.

وقد سبق الاستدلال لمذهب السلف الصالح؛ فإن قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]، صريح جداً في أن القرآن كلام الله تعالى، وقوله عليه الصلاة والسلام: **(من نزل منزلاً فقال أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق...)** [٣] صريح في أنه ليس بمخلوق، فإن كلام الله تعالى لو كان مخلوقاً ما جاز الاستعاذة به، لأن الاستعاذة بالمخلوق شرك.

وقد كفَّرهم أئمة السنة وأعلام هذه الأمة، وحذروا منهم، وجعلوهم كاليهود والنصارى، بل أشد منهم، وجعلوهم من أعظم الملاحدة والزنادقة[٤].

وقد ثبت هذا التكفير منهم لهؤلاء القائلين بخلق القرآن، ثبوتاً متواتراً، لا يقبل النقيض، ومن هؤلاء المكفرين لهم كبار أئمة الحنفية أمثال أبي حنيفة وأبي يوسف ومحمد بن الحسن وغيرهم[٥]. على أنه لا يؤخذ من هذا النقل عن السلف وجوب إطلاق لفظ الكفر على كل من قال بخلق القرآن، حتى يناقش

---

(١) انظر: القصيدة النونية (ص٣١).

(٢) راجع: محنة الإمام أحمد، وانظر: التنكيل (١/ ٢٥٩).

(٣) مسلم (٢٧٠٨) عن خولة بنت حكيم.

(٤) انظر: خلق أفعال العباد (ص١٣، ١٥، ١٧، ٢٦، ٢٨)، والرد على الجهمية للدارمي (ص١٧١ ـ ١٨٦)، والسنة لعبد الله (١/ ١٠٢، ١١٤، ١٢٢، ١٤١)، ومجموع الفتاوى (٥/ ١٩٧)، وبيان تلبيس الجهمية (١/ ١١٧)، وشرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي (٢/ ٢٢٧ ـ ٣١٢)، ومشائخ بلخ من الحنفية (١/ ١٢٥ ـ ١٢٧)، وفنون الأفنان لابن الجوزي (١٥٣ ـ ١٩٥).

(٥) انظر: شرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي (٢/ ٢٢٧ ـ ٣١٢)، وراجع: نص أبي حنيفة وأبي يوسف في تكفيرهم في كتاب «العلو» للذهبي (ص١١٢)، ومختصره (ص١١٥)، وإكفار الملحدين لأنور شاه الكشميري (ص٣٩ ـ ٤٠)، والأسماء والصفات للبيهقي (ص٢٥١)، وتاريخ بغداد (١٣/ ٢٨٣)، وأصول البزدوي (ص٣ ـ ٤)، وشرحه: كشف الأسرار للبخاري (٩/ ١).

وتظهر عليه الحجة، ويصر بعد ظهور الحجة فحينئذٍ يكفر ولا شك. لأنه ليس كل من يطلق في حقهم لفظ الكفر إجمالاً، يطلق على التعيين بل تحتاج المسألة إلى تفصيل ليس هذا مكانه(١).

وفي ذلك يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى:

ولقد تقلد كفرهم خمسون في عشر من العلماء في البلدان

واللالكائي الإمام حكاه عنهم، بل حكاه قبله الطبراني(٢).

أقول: وهذا المذهب أيضاً في غاية البطلان وهو مستلزم لبعض اللوازم الباطلة، منها:

١ ـ إبطال الشرائع، لأن الشرائع والنبوات كلها بأمر الله تعالى وكلامه، فإذا بطل كلام الله تعالى بطل كل ذلك، وهذا هو عين الإلحاد.

٢ ـ إبطال ألوهية الله سبحانه، لأن من لا يستطيع أن يتكلم لا يمكن أن يستحق الألوهية، ولا يمكن أن يوصف بالقدرة والعلم، فإن الله تعالى قال في إبطال ألوهية عجل السامري: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾ [الأعراف: ١٤٨]، وقال: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾﴾ [طه: ٨٩]، فأبطل ألوهيته بنفي الكلام ونفي القدرة عنه.

المذهب الرابع: مذهب الأشعرية والماتريدية: وهو أن كلام الله تعالى معنى نفسي ليس فيه حروف ولا صوت، وهو شيء لا يقبل التجزؤ، وهذا القرآن الكريم العربي عبارة عن ذلك الكلام النفسي، وهذا القرآن العربي مخلوق، وقالوا في تعريفه: «هو قائم بالله، شيء واحد، ليس له بعض ولا عد ولا له نهاية ولا بداءة(٣). وهو المعنى القائم بالنفس»(٤).

وقالوا: «إن الله تعالى متكلم بكلام واحد، وهو صفة له أزلية، ليست من جنس الحروف والأصوات، وهي صفة منافية للسكوت والآفة»(٥).

---

(١) مجموع الفتاوى (١٢/٤٦٦).

(٢) انظر: النونية (ص٣٧)، وشرح اعتقاد أصول أهل السنة للالكائي (٢/٢٢٧ ـ ٣١٢)، ومشائخ بلخ من الحنفية (١/١٢٥ ـ ١٢٧)، وفنون الأفنان لابن الجوزي (ص١٥٣ ـ ١٩٥).

(٣) انظر: أصول الدين للبزدوي الماتريدي (ص٦١).

(٤) تبصرة الأدلة لأبي المعين النسفي [١١٨/ب].

(٥) التمهيد لأبي المعين النسفي [٦/ب ـ ٧/أ]، والعقائد النسفية مع شرحها للتفتازاني (٥٣ ـ ٥٨).

وقالوا: «صانع العالم متكلم بكلام واحد أزلي قائم بذاته ليس من جنس الحروف والأصوات، غير متجزئ، مناف للسكوت والآفة والخرس...

وهذه العبارات مخلوقة، لأنها أصوات وهي أعراض، وسميت كلام الله [مجازاً] لدلالتها عليه، ـ والكلام النفسي ـ إن عبر عنه بالعربية فهو قرآن، وإن عبر عنه بالعبرية فهو توراة، وإن عبر عنه بالسريانية فهو إنجيل»[١].

وهذا القرآن العربي مخلوق[٢]، بل هذا القرآن مخلوق لفظه ومعناه»[٣].

ويقولون: «لا يجوز أن يقال: القرآن غير مخلوق. لئلا يتبادر إلى الذهن الألفاظ والحروف [فإن كل ذلك مخلوق].

بل يقال: «القرآن كلام الله غير مخلوق»، فيكون الحكم بكونه غير مخلوق على «كلام الله» لا على «القرآن»[٤].

وقالوا: «وهذه الألفاظ تسمى قرآناً وكلام الله، ليؤدى كلام الله بها، وهي في أنفسها مخلوقة.

ومشائخنا يقولون: القرآن كلام الله غير مخلوق، ولا يقولون عند الإطلاق، إن القرآن ليس بمخلوق، لئلا يسبق إلى وهم السامع أن هذه العبارات المتركبة من الحروف والأصوات ليست بمخلوقة كما يقول الحنابلة»[٥].

وقالوا: «يقال: القرآن كلام الله غير مخلوق، ولا يقال: القرآن غير مخلوق، لئلا يسبق إلى الفهم أن المؤلف من الأصوات والحروف قديم كما ذهبت إليه الحنابلة جهلاً وعناداً»[٦].

وقد صرحوا بأن المخلوق والحادث مترادفان، كما أن القديم وغير الحادث

---

(١) العمدة لحافظ الدين النسفي [٧/أ ـ ب]، وانظر: شرح الإحياء للزبيدي (٢/ ٣٠ ـ ٣١، ١٤٤، ١٤٥)، وراجع: أصول الدين لأبي اليسر البزدوي (٥٩).

(٢) انظر: كتاب التوحيد لأبي منصور الماتريدي (ص٥٩)، وشرح الفقه الأبسط لأبي الليث السمرقندي الماتريدي (ص٢٥)، المنسوب خطأ إلى أبي منصور الماتريدي، وأصول الدين لأبي اليسر البزدوي (ص٦١)، وتبصرة الأدلة لأبي المعين النسفي [١١٩/أ ـ ب]، والبداية للصابوني (ص١٣)، وتأنيب الكوثري (ص١٥، ٩٠، ٩٦، ١٠٧، ٣٠١، ٣٠٢).

(٣) انظر: شرح المنار لحافظ الدين النسفي (١/ ٢)، مع حاشية الملاجيون الهندي نور الأنوار.

(٤) شرح العقائد النسفية للتفتازاني.

(٥) تبصرة الأدلة [١١٩/أ ـ ب]، لأبي المعين النسفي الحنفي.

(٦) شرح العقائد النسفية للتفتازاني (ص٥٧ ـ ٥٨).

مترادفان، وقد صرحوا بأنه لا خلاف بينهم وبين المعتزلة في أن القرآن العربي مخلوق.

فهم ونحن جميعاً متفقون على أن هذا القرآن العربي مخلوق، وإنما الخلاف بينهم وبين المعتزلة في وجود الكلام النفسي، فهم يؤمنون بالكلام النفسي، والمعتزلة لا يعترفون بالكلام النفسي(١).

وقالوا: القرآن قرآنان، قرآن بمعنى الكلام النفسي، وهو غير مخلوق، وقرآن بمعنى الكلام اللفظي المركب من الحروف والأصوات فهو مخلوق.

وكذا الكلام كلامان، كلام بمعنى الكلام النفسي، وهو غير مخلوق وكلام بمعنى الكلام اللفظي وهو القرآن العربي وهو مخلوق.

فإذا أضيف الكلام اللفظي، أو القرآن العربي إلى الله تعالى، فمعنى ذلك أنه مخلوق لله تعالى ليس من تأليفات المخلوق، وإذا أضيف الكلام النفسي إلى الله تعالى فمعناه أنه صفة لله تعالى(٢).

وقالوا في شرح كون هذا القرآن العربي مخلوقاً: إنه مخلوق بعد التوسط كاسب إما بإيجاد الصوت حتى يسمعه الملك أو الرسول، وإما بإيجاد النقوش في اللوح المحفوظ، وإما بخلق إدراك الحروف في قلب الملك أو الرسول، وإما بخلق الحروف في لسانه بلا اختيار(٣).

بل صرحوا بأن الله تعالى قد خلق صوتاً معروفاً فأسمع جبرائيل كلامه النفسي بذلك الصوت والحروف فحفظه جبريل ونقله إلى النبي ﷺ، وكلامه قديم ليس بحروف ولا صوت(٤).

وسايرهم الكوثري، فقال: «والواقع أن القرآن في اللوح المحفوظ، وفي لسان

---

(١) انظر: شرح المواقف للجرجاني (٨/ ٩٣، ٩٥، ٩٩)، وشرح العقائد النسفية للتفتازاني (ص٥٨، ٦١)، وشرح الفقه الأكبر للقارئ (٤٢، ٤٥)، وعقيدة الإسلام لأبي الخير البنغلاديشي (ص٣٧٤)، وتعليقات الكوثري على الأسماء والصفات للبيهقي (ص٢٥١)، والنبراس للفريهاري (ص٢٢٣ ـ ٢٣١، وانظر كذلك: كبرى اليقينيات الكونية لمحمد سعيد البوطي (ص١٢٦).

(٢) انظر: شرح العقائد النسفية (ص٦١)، وحاشية عليه (ص٩٥)، والنبراس (ص٢٢٣ ـ ٢٣١)، وأصول الدين للبزدوي (ص٦١).

(٣) انظر: المراجع المذكورة.

(٤) بحر الكلام لأبي المعين النسفي الماتريدي (ص٢٩).

جبريل ﷺ، وفي لسان النبي ﷺ مخلوق»(١).

وكذا سايرهم في ذلك الشيخ محمد عبده(٢).

وصرَّحوا بأن القرآن مخلوق في اللوح المحفوظ أو في ملك، وهو كلام الله مجازاً لا حقيقة(٣).

وقالوا: إن القرآن الكريم ليس كلام الله على الحقيقة، وإنما هو كلام مجازي، لأنه دال على كلام الله النفسي، فالكلام الحقيقي لله تعالى هو ذلك النفسي، وأما هذا اللفظي فهو عبارة عنه(٤).

وعلى هذه العقيدة قام مذهب الأشعرية أيضاً حذو النعل بالنعل والقذة بالقذة(٥).

تذييل فيه ثلاثة تنبيهات:

الأول: أن مذهب الكُلَّابية هو أصل لمذهب الماتريدية والأشعرية، غير أنه قد اشتهر أن الكُلابية قالوا: كلام الله الحقيقي هو الكلام النفسي وهو المعنى القائم بذاته تعالى، الذي ليس بحرف ولا صوت، وهذا القرآن العربي ليس بكلام الله على الحقيقة، وإنما هو كلام الله على سبيل المجاز، لأنه حكاية عن كلام الله الحقيقي وهو النفسي، ولما ظهر الأشعري قال بقول ابن كُلاب، ولكنه لم يقل إن هذا القرآن العربي حكاية عن كلام الله، بل قال: إن هذا القرآن عبارة عن كلام الله تعالى، لأن الحكاية لا بدّ أن تكون على مثل المحكي عنه، ولا يمكن أن يكون هذا القرآن مثل كلام الله تعالى، لأجل هذا غير الأشعري عبارته في تحرير مذهبه، لأن حكايته كلام الله أمر غير ممكن، وفي هذا قال الإمام أبو حامد

---

(١) مقالات الكوثري (ص٢٧). (٢) انظر: رسالة التوحيد له (ص٦٦).

(٣) انظر: أصول الدين لأبي اليسر البزدوي الحنفي الماتريدي (ص٦٠ ـ ٦١).

(٤) انظر: تأويلات الماتريدية رقم (٥١ ـ ٥٢) من سورة الشورى، وأصول الدين للبزدوي (ص٦١ ـ ٦٢)، وتبصرة الأدلة [١١٨/ب]، والبداية للصابوني (ص٦١)، والعقائد النسفية مع شرحها للتفتازاني (ص٥٣)، وإشارات المرام للبياضي (ص١٧٧ ـ ١٧٨).

(٥) انظر: المواقف للإيجي (ص٢٩٣ ـ ٢٩٦)، والجوهرة للقاني مع حاشيتها للبيجوري (ص٧١ ـ ٧٣)، ولباب العقول للكلابي (ص٢٥٥، ٢٥٦، ٢٧٨)، والإرشاد للجويني (ص١٠٧ ـ ١٢٩)، وشرحه لأبي بكر بن ميمون (ص٢٤٥ ـ ٢٥١)، وقواعد العقائد للغزالي (ص١٨٢ ـ ١٨٥)، وأصول الدين للبغدادي (ص١٠٦ ـ ١٠٨)، والأربعين للرازي (٢٤٧/١ ـ ٢٥٢).

أحمد بن محمد الإسفراييني الشافعي (٤٠٦هـ)[(١)]:

«ذهب الأشعري ومن تابعه إلى أن الأمر هو معنى قائم بالنفس...، وهذه الألفاظ والأصوات ليست عندهم أمراً ولا نهياً، وإنما هي عبارة عنه.

وكان ابن كُلَّاب عبد الله بن سعيد القطان يقول:

«هي (أي الألفاظ)، حكاية عن الأمر، وخالفه أبو الحسن الأشعري في ذلك، فقال: لا يجوز أن يقال: «إنها حكاية»، لأن الحكاية تحتاج إلى أن تكون مثل المحكي، ولكن هو (أي الألفاظ): عبارة عن الأمر القائم بالنفس، وتقرر مذهبهم على هذا»[(٢)].

أقول: هذا هو المشهور، أي الفرق بين الحكاية والعبارة، وأن القول بالحكاية هو مذهب ابن كُلاب، والقول بالعبارة مذهب الأشعري، ولكن رأيت في المصادر القديمة التي ذكر فيها مذهب ابن كُلاب أن هذا القرآن عبارة عن الكلام النفسي. قال الإمام أبو الحسن الأشعري في نقل مذهب ابن كُلاب في القرآن وكلام الله تعالى: «قال عبد الله بن كُلاب: ... إن الكلام ليس بحروف ولا صوت، ولا ينقسم ولا يتجزأ ولا يتبعض ولا يتغاير، وأنه معنى واحد... وأن العبارات عن كلام الله سبحانه تختلف وتتغاير... وإنما سمي كلام الله عربياً لأن الرسم الذي هو عبارة عنه عربي فسمي عربياً لعلة، وكذلك سمي عبرانياً لعلة وهي أن الرسم الذي هو عبارة عبراني...»[(٣)].

أقول: دلّ هذا النص على أن مذهب ابن كُلاب أن القرآن العربي هو عبارة عن الكلام النفسي، مثل قول الأشعري، وقد رأيت في بعض المصادر أن ابن كلاب قال: «إن القرآن حكاية أو عبارة عن الكلام النفسي»[(٤)]، فدل على أن ابن كلاب لم يفرق بين الحكاية والعبارة، والله أعلم.

---

(١) ترجمته في كشف الظنون (١/ ٤٢٣ ـ ٤٢٤).
أقول: له كلام متين في أن هذا القرآن هو كلام الله على الحقيقة وأنه مسموع عن الله تعالى، ورد به على الأشعرية، وكان شديداً على أهل الكلام، انظر: نصه في درء التعارض (٢/ ٩٥ ـ ٩٦).

(٢) درء التعارض (٢/ ١٠٧) عن كتاب التعليق في أصول الفقه للإسفراييني.

(٣) مقالات الإسلاميين (ص٥٨٤ ـ ٥٨٥).

(٤) انظر: رسالة السجزي إلى أهل زبيد (ص٨٢).

أقول: وإلى القول باتحاد الحكاية والعبارة يشير الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ، حيث يقول في نقل مذهب الأشعري:

زعموا القرآن عبارة وحكاية قلنا كما زعموه قرآنان[(١)]

بل يشير كلام الإمام ابن القيم إلى أن الخلاف في الحكاية والعبارة خلاف لفظي لا ثمرة له، وليس بخلاف حقيقي، حيث قال:

وكذلك اختلفوا، فقيل: حكاية عنه وقيل عبارة لبيان
إذ كان ما يحكى كمحكي وها ذا اللفظ والمعنى فمختلفان
ولذا يقال حكى الحديث بعينه إذ كان أوله نظير الثاني
فلذاك قالوا: لا نقول حكاية ونقول ذاك عبارة الفرقان
والآخرون يرون هذا البحث لفـ ظياً وما فيه كبير معان[(٢)]

والحاصل أن مذهب ابن كُلاب والأشعري ليس بينهما كبير فرق، بل هما مذهب واحد، وإنما الفرق في التعبير عن كل مذهب من هذين المذهبين.

التنبيه الثاني: اختلف الماتريدية والأشعرية في سماع كلام الله بعد الاتفاق على أن هذا القرآن العربي مخلوق، وأنه ليس بكلام الله على الحقيقة، وأن عبارة أو حكاية عن الكلام النفسي، وأن كلام الله هو الكلام النفسي الذي هو المعنى القائم بالله، الذي ليس بحرف ولا صوت.

اختلفوا هل كلام الله النفسي يسمع أم لا؟ فذهب الماتريدية إلى أن كلام الله النفسي لا يسمع، لأنه لما لم يكن بحرف ولا صوت فلا يتعلق به السمع، لأن كلام الله تعالى النفسي ليس من المسموعات[(٣)].

وقالت الأشعرية: إن هذا القرآن العربي مخلوق وأنه ليس بكلام الله على الحقيقة، وإنما هو كلام الله على سبيل المجاز، لأنه دال على كلام الله النفسي الحقيقي، الذي ليس بحرف ولا صوت، وكلام الله النفسي يجوز أن يكون مسموعاً، فجوزوا سماع كلام الله النفسي الذي ليس بحرف ولا صوت[(٤)].

---

(١) النونية (ص٢٩). (٢) النونية (ص٣٠).

(٣) انظر: التوحيد للماتريدي (ص٥٩)، وتبصرة الأدلة [١٢٦/أ]، والبداية من الكفاية للصابوني (ص٦٥ ـ ٦٦)، وشرح العقائد النسفية (ص٦٥ ـ ٦١)، والمسايرة على المسامرة (ص٨٠ ـ ٨١)، وإشارات المرام (ص٥٥، ١٨١ ـ ١٨٢).

(٤) مجرد مقالات الأشعري لابن فورك (ص٥٩ ـ ٦٠)، والإرشاد للجويني (ص١٢٩ ـ ١٣٥)، وقواعد العقائد للغزالي (ص٥٩)، وإحياء علوم الدين له (٩١/١)، =

قلت: قول الماتريدية أقرب إلى العقل بالنسبة إلى مذهبهم في الكلام النفسي، لأن الكلام إذا كان نفسياً ليس بحرف ولا صوت كيف يجوز أن يكون مسموعاً؟ لأجل هذا قالوا: إنه لا يمكن أن يكون مسموعاً، وأما قول الأشعرية بأن الكلام النفسي يجوز أن يكون مسموعاً فأبعد عن العقل ومتناقض، لأن كلام الله تعالى لما كان نفسياً ليس بحرف ولا صوت فكيف يمكن أن يكون مسموعاً؟ فقولهم: إن كلام الله نفسي ليس بحرف لا بصوت يقتضي أن لا يكون مسموعاً.

وقولهم: «إن كلام الله مسموع» يقتضي أن يكون لفظياً بحرف وصوت، وهذا تناقض واضح.

ولأجل هذا التناقض صرح الرازي بنفي سماع كلام الله، لأن علة صحة السماع هي الصوت، ولا حرف ولا صوت في كلام الله عندهم، لأن كلامه نفسي[1].

كما صرح بعض الأشعرية أن معنى سماع كلام الله هو أن يكون مفهوماً معلوماً، لا مسموعاً بالآذان[2].

أقول: هذا بعينه هو مذهب الماتريدي، فقد صرح الماتريدي في سماع كلام الله بأن الله تعالى أعلمنا كلامه كما أعلمنا قدرته وربوبيته[3].

ومعلوم أن القدرة والربوبية ليستا من المسموعات، بل هما من المفهومات والمعلومات، فكذا كلام الله عندهم من المعلومات لا من المسموعات.

التنبيه الثالث: وهو أن الماتريدية أصرح بالقول ببدعة خلق القرآن من الأشعرية الذين اكتفوا بالقول ببدعة خلق القرآن في مقام التعليم[4].

وبعد: فقد اتضح من خلال أقوالهم أنهم جميعاً قائلون ببدعة القول بخلق القرآن، وقائلون ببدعة القول بالكلام النفسي.

وبعد ذلك ننتقل إلى المبحث الثاني لنتحدث عن نشأة بدعة الكلام النفسي، وذلك تمهيداً للرد عليهم، والله المستعان وعليه التكلان.

٨ نشأة بدعة الكلام النفسي:

أول ما ابتدأ الانحراف في صفة كلام الله على يد «الجعد بن درهم» (١٢٤هـ)

= ومناظرات الرازي (ص٢٨٠)، والروضة البهية (ص٤٣ ـ ٤٦).

(١) المحصل (ص٢٦٨).

(٢) انظر: الإرشاد (ص١٢٩).

(٣) انظر: كتاب التوحيد للماتريدي (ص٥٩).

(٤) انظر: تحفة المريد شرح جوهرة التوحيد (ص٧٢).

في أواخر القرن الأول وأوائل القرن الثاني، فادعى أن الله تعالى لم يتخذ إبراهيم خليلاً، ولم يكلم موسى تكليماً.

ثم تلاه «الجهم بن صفوان (١٢٨هـ)» الترمذي فتجرد لهذه المقالة، ورفع لواء التعطيل، ودعا إلى بدعة القول بخلق القرآن، فنسبت هذه المقالة والفرقة القائلة بها إليه.

ولم يكن المعتزلة في الأصل معطلة للصفات، ولكنهم قالوا فيما بعد بمقالة التعطيل وخلق القرآن[١]، لأجل احتكاكهم بالجعد ثم بالجهم خاصة والجهمية عامة، فانتشرت مقالة الجهمية بواسطة المعتزلة.

وتجرد للدعوة إلى هذه المقالة معطلة كانوا منتسبين إلى مذهب الإمام أبي حنيفة (ت١٠٥هـ) في الفقهيات، أمثال: القاضي إسماعيل بن حماد حفيد الإمام أبي حنيفة، وكان هذا الجهمي من رؤوس القائلين بخلق القرآن ودعاتهم. وكان ينسب هذه المقالة الفاسدة إلى جده الإمام أبي حنيفة رحمه الله تعالى (١٥٠هـ)، وكان يقول في مجلس المأمون (٢١٨هـ): «القول بخلق القرآن كان دين أبي وجدي»، هكذا كان يكذب عليهما بشهادة أئمة الإسلام[٢].

وتلاه بشر المريسي (٢١٨هـ)، وقد أثر هذا المبتدع تأثيراً سيئاً على من بعده من الماتريدية والأشعرية الجهمية بتأويلاته الباطلة التي هي عين التحريفات والتعطيل.

فقد صرح شيخ الإسلام (٧٢٨هـ) بأن هذه التأويلات الموجودة اليوم في كتب المعتزلة وكتب الأشعرية، أمثال: ابن فورك (٤٥٦هـ)، والغزالي (٥٠٥هـ)، والرازي (٦٠٦هـ)، وغيرهم، هي بعينها تأويلات بشر المريسي[٣]. وكان هذا فقيهاً وتلميذاً للإمام أبي يوسف رَحِمَهُ اللهُ[٤]، ولكنه لم يسر سيرة الإمام أبي يوسف،

---

(١) انظر: الرد على الجهمية والزنادقة للإمام أحمد (ص١٠٥ ـ ١٥٤)، وراجع: التفصيل في التنكيل للعلامة المعلمي (١/ ١٦٣)، فستجد تحقيقاً حقيقاً بالقبول: وهو أن المعتزلة لم يكونوا في الأصل جهمية ولا معطلة ولا قائلين بخلق القرآن، وإنما نشأ فيهم أناس دعوا إلى مقالة جهم فصاروا جهمية.

(٢) انظر: الانتقاء (ص١٦٦)، وكتاب السنة لعبد الله بن أحمد (١/ ١٨٢)، وتاريخ بغداد (٦/ ٢٤٥)، ولسان الميزان (١/ ٣٩٩).

(٣) انظر: الحموية (ص٢٦ ـ ٢٧)، وضمن مجموع الفتاوى (٥/ ٢٣، ٢٤)، وضمن الرسائل الكبرى (١١/ ٤٣٦ ـ ٤٣٧).

(٤) انظر: الجواهر المضيئة (١/ ٤٤٧)، والفوائد البهية (ص٥٤)، وراجع: مناقب أبي حنيفة =

بل خرج على عقيدته، وساير الجهمية والمرجئة ورفع لواء التعطيل.

وتلاه أحمد بن أبي دؤاد (٢٤٠هـ)، الذي كان رأس فتنة القول بخلق القرآن، وأخذ عن المريسي زندقته، فعذب كثير من أئمة الإسلام، وقُتل كثير منهم بسبب هذا المعطل الذي كان رئيساً للقضاة أيام المعتصم، وكان مقرباً عند المأمون، فجرد سيف الدولة على علماء السنّة. وقد بلغ به الغلو إلى حد أنه أفتى بقتل الإمام أحمد، ووصل في الإلحاد إلى حد أن كتب على ستارة الكعبة: «ليس كمثله شيء وهو العزيز الحكيم» بدل ﴿ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾(١) [الشورى: ١١].

كما تلاه الخصاف (٢٦١هـ)، وكان مقدماً عند المهتدي محمد بن الواثق (٢٥٦هـ) وقد بلغ في التهجم إلى حد أن قال الناس: «هو ذا يحيي دولة ابن أبي دؤاد»، وكان يقدم الجهمية، ولما قُتِل المهتدي نُهِبَ الخصاف، فأراح اللهُ الناس، ثم رفع لواء التعطيل محمد بن شجاع البلخي الثلجي (٢٦٦هـ)، وكان تلميذاً لبشر المريسي السابق الذكر (٢١٨هـ)، فورث منه زندقته في التعطيل والقول بخلق القرآن والعداوة لأهل السنّة.

وقد كان كذاباً وضّاعاً على رسول الله ﷺ بشهادة أئمة الجرح والتعديل، وكفَّره القواريري وإسماعيل القاضي وغيرهما، وقد بلغ به الكذب والتقول والحقد ضد أئمة الهدى من أهل السنّة إلى حد أنه كان يقول: «عند أحمد كتب الزنادقة».

فكتب السنّة عنده كتب الزندقة، وقد بلغ به الغلو في القول بخلق القرآن إلى أنه أوصى وصية كان فيها: لا يعطى من ثلثي إلا من قال: «القرآن مخلوق»، وجرح أئمة السنّة فيه واسع الذيل(٢).

= للموفق المكي (ص٣٩١).

(١) تاريخ بغداد (٤/ ١٤١)، ووفيات الأعيان (١/ ٨١)، والفرقان بين الحق والباطل (ص١١٩)، وضمن مجموع الفتاوى (١٣/ ١٨٤)، وسير أعلام النبلاء (١١/ ١٦٩)، والبداية والنهاية (١٠/ ٣١٩)، ولسان الميزان (١/ ١٧١)، وشذرات الذهب (٢/ ٩٣)، والجواهر المضيئة (١/ ١٣٤، ٤/ ٤٥٣).

(٢) راجع: الكامل لابن عدي (٦/ ٢٢٩٣)، وتاريخ بغداد (٥/ ٣٥١)، والأسماء والصفات (ص٢٧٣)، وكتاب الضعفاء (٣/ ٧٠)، والمنتظم (٥/ ٥٨) كلاهما لابن الجوزي، والأنساب للسمعاني (٣/ ١٣٩)، وتهذيب الكمال (٣/ ٣٦٢ ـ ٣٦٥)، المخطوط، والمغني (٢/ ٥٩١)، والميزان (٣/ ٥٧٧)، والبداية والنهاية (١١/ ٤٥)، والكشف الحثيث (ص٣٧٩)، وتهذيب التهذيب (٩/ ٢٢٠ ـ ٢٢١)، والفوائد البهية (ص١٧١).

وهكذا قبل هذه الفتنة ـ فتنة القول بخلق القرآن ـ وإنكار صفات الله تعالى. وكانت الأمة حينذاك طائفتين: طائفة أهل السنّة وعلى رأسهم الإمام أحمد، وفرقة أهل البدع من الجهمية والمعتزلة. ولذا كان لكل واحدة من هاتين الطائفتين مقالة تختص بها، فكانت مقالة أهل السنّة أصحاب الحديث أن هذا القرآن العربي الذي نقرؤه نحن هو بعينه كلام الله تعالى، بحرف وصوت على الحقيقة، فالله تعالى تكلم به حرفاً وصوتاً على وجه الحقيقة، وهذا كان هو المفهوم للكلام لغةً وعرفاً وعقلاً وشرعاً.

وكان بنو آدم جميعاً لا يعرفون عن الكلام إلا هذا المفهوم.

وأما مقالة الجهمية والمعتزلة فهي: أن هذا القرآن العربي مخلوق قد خلقه الله تعالى، وليس هذا كلام الله تعالى على الحقيقة، فإن صدور هذا الكلام العربي من الله تعالى محال، لأنه يستلزم التشبيه والمماثلة للمخلوق، وإنما هذا القرآن العربي يطلق عليه كلام الله مجازاً، بمعنى أنه تعالى قد خلقه في محل من المحال، فالإضافة إليه تعالى إضافة تشريف، كبيت الله وناقة الله وروح الله.

وكانت هذه المقالة مقالة الجهمية الأولى، والمعتزلة أيضاً، فصاروا جهمية بهذا الاعتقاد.

ولم يعرفوا قولاً ثالثاً من لدن آدم عليه السلام إلى ذلك الوقت، وكان ذلك إجماعاً مركباً على هذين القولين، إذ لم يكن قول آخر موجوداً إلى ذلك الحين، وهذا معنى قول أهل العلم: والأمة إذا اختلفوا على قولين أو أقوال كان ما عداهما أو ما عداها باطلاً، فلو كان الحق قولاً آخر لقال بعضهم، لأن الحق لا يعدو أقاويلهم، لعدم القائل بالفصل، لأنهم أجمعوا على حصر الأقوال في تلك الحادثة، وهذا يسمى إجماعاً مركباً[(١)].

فإن الأمة إذا اجتمعت مثلاً على قولين كان إجماعهم حقاً، ويكون الحق أحد هذين القولين، لا يكون الحق قولاً ثالثاً، فيكون القول الثالث باطلاً البتة، لأن القول الثالث يكون مبطلاً للإجماع[(٢)]. وقد كان هذا الإجماع المركب مستمراً بين

(١) راجع: المنار مع شرحه: كشف الأسرار ونور الأنوار (٢/ ١٩٤ ـ ١٩٥).

(٢) انظر: التوضيح على التنقيح كلاهما لصدر الشريعة، مع شرحه: التلويح على التوضيح للتفتازاني (٢/ ٤٤).

أهل السنّة وأهل البدع إلى أن ظهر شخص يدعى عبد الله بن سعيد القطان البصري المعروف بابن كُلَّاب (المتوفى بعد ٢٤٥هـ)، فتأمل في الأمة المسلمة سنيهم ومبتدعهم، فرآهم فرقتين في صفات الله تعالى، ولا سيما صفتي العلو والكلام، ولكن المناظرة إنما دارت على صفة الكلام، وأراد الصلح بين الطائفتين ولم ينحز لا إلى أهل السنّة ولا إلى أهل البدع، زعماً منه أنه في ذلك مصلح بين الأمة المتمزقة المتناحرة، ففكر في ابتداع قول ثالث خارج عن ذلك الإجماع، فأحدث بدعة القول بالكلام النفسي في خلق الكلام اللفظي، ليرشد المعتزلة بأنكم إن أردتم بخلق القرآن هذا القرآن العربي المحفوظ فأنتم على الحق وخصومكم على الباطل، وإن زعمتم أن الله تعالى ليس له كلام نفسي فأنتم على الباطل وخصومكم على الحق، وقال لأهل السنّة: إن أردتم بقولكم إن «القرآن كلام الله غير مخلوق» الكلام النفسي الذي ليس فيه حرف ولا صوت، فأنتم على الحق وخصومكم على باطل، وإن أنتم أردتم أن هذا القرآن العربي كلام الله على الحقيقة وأنه غير مخلوق، فأنتم على باطل وخصومكم على الحق.

الحاصل: أن ابن كُلَّاب قد ابتدع بدعة القول بالكلام النفسي، وخرج على إجماع الفريقين من أئمة السنّة وأئمة البدع، وخرق إجماعهم، وابتدع قولاً ثالثاً ظنه صواباً، وخالف العقل والنقل والعرف واللغة في ابتداعه بدعة القول بالكلام النفسي، لأن بني آدم جميعاً لا يعرفون للكلام هذا المفهوم، لأن الإجماع كان منعقداً بين المسلمين والكفار من العقلاء على أن الكلام حروف وأصوات، ولم يخطر ببالهم الكلام النفسي[1].

هكذا قدّر الله تعالى أن يكون ابن كُلَّاب أول من خرق هذا الإجماع المنعقد بين المسلمين في مفهوم الكلام، وأنه أول من غير المفهوم، وأنه أول من ابتدع بدعة القول بالكلام النفسي[2].

---

(١) انظر: رسالة السجزي إلى أهل زبيد (ص٨١)، وانظر ما سيأتي.

(٢) مجموع الفتاوى (٦/٢٩٦ ـ ٢٩٧، ٧/١٣٢، ١٣٤، ١٤٥، ١٢/١٧٨، ٥٨٣)، ومختصر الصواعق (٢/٤٢٦، ٤٥٥)، وإجماع الجيوش (ص٢٨٢)، وشرح الطحاوية (ص١٩٩ ـ ٢٥٥)، ودرء التعارض (١/٢٦٧، ٢/٨٣ ـ ٨٧، ١١٥، ٦/٢٦٨)، وكتاب الإيمان (ص١٢٦، ١٢٨، ١٣١، ١٣٤)، واعترف بهذه الحقيقة كثير من الأشعرية والماتريدية، انظر: الملل والنحل للشهرستاني (ص٣٠٩ ـ ٣١٣)، ونهاية الإقدام ص٣٠٩ ـ ٣١٣)، وطبقات الشافعية للسبكي (ص٣٠٠)، وشرح الإحياء للزبيدي (٢/٦).

ولتوضيح ما تقدم أذكر نصاً مهماً للإمام أبي نصر عبيد الله بن سعيد بن حاتم الوائلي السجزي (٤٤٤هـ).

قال رَحِمَهُ اللهُ مبيناً تاريخ نشأة بدعة القول بالكلام النفسي: «اعلموا ـ أرشدنا الله وإياكم ـ أنه لم يكن خلاف بين الخلق على اختلاف نحلهم من أول الزمان إلى الوقت الذي ظهر فيه ابن كُلَّاب (٢٤٥هـ)، والقلانسي والصالحي والأشعري (٣٢٤هـ)، وأقرانهم الذين يتظاهرون بالرد على المعتزلة، وهم معهم، بل أخس حالاً منهم، في أن الكلام لا يكون إلا حرفاً وصوتاً ذا تأليف واتساق، وإن اختلفت به اللغات، وعبر عن هذا المعنى الأوائل[1] الذين تكلموا في العقليات. وقالت العرب: الكلام اسم وفعل وحرف جاء لمعنى، فالاسم مثل: زيد وعمر وحامد، والفعل مثل: جاء وذهب وقام وقعد، والحرف الذي يجيء لمعنى[2] مثل: هل، وبل، وما شابه كل ذلك، فالإجماع منعقد بين العقلاء على كون الكلام حرفاً وصوتاً.

فلما نبغ ابن كلاب وأضرابه، وحاولوا الرد على المعتزلة عن طريق مجرد العقل، وهم لا يخبرون أصول السنّة ولا ما كان السلف عليه، ولا يحتجون بالأخبار الواردة في ذلك، زعماً منهم أنها أخبار آحاد، وهي لا توجب عندهم علماً[3]، وألزمتهم المعتزلة أن الاتفاق حاصل على أن الكلام حرف وصوت،

---

(١) كلمة الأوائل قد يقصد بها الفلاسفة اليونانية، فعلوم الأوائل قد يقصد بها الفلسفة اليونانية، انظر: توضيح المقاصد (٢/ ١٩٤)، وقد يقصد بـ «الأوائل» أوائل الحوادث، وعلم الحوادث على هذا: ما يبحث فيه عن بيان أوائل الحوادث والأمور، وفيه كتب كثيرة منها كتاب «الأوائل» لأبي هلال العسكري، مطبوع. راجع: كشف الظنون (١/ ١٩٩)، والظاهر أن المراد من «الأوائل» ههنا الفلاسفة ومن تبعهم من الذين تكلموا في العقليات. والمراد أن الفلاسفة والعقلانيين أيضاً يعتقدون أن الكلام ما يكون بحرف وصوت.

(٢) أي معنى غير مستقل، ليصح مقابلته بالاسم والفعل، كما هو في علم النحو، راجع: شرح ابن عقيل (١/ ٢٠).

(٣) أي أنها ظنية فلا تفيد علماً يقينياً، بل لا تفيد إلا علماً ظنياً، والظن لا يفيد في باب الاعتقاديات، كما هو أصل من أصول أهل الكلام من الجهمية الأولى والمعتزلة، ثم الماتريدية والأشعرية. انظر: شرح الأصول الخمسة (ص٢٢٦ ـ ٢٣٥)، ومتشابه القرآن (ص٧٣، ٧٥، ٢٣٠، ٢٣١، ٣٥١)، وشرح الإحياء للزبيدي (٢/ ١٠٥ ـ أ١٠)، وأساس التقديس (٧٢ ـ ٧٣).

ويدخله التعاقب والتأليف، وذلك لا يوجد في الشاهد إلا بحركة وسكون، ولا بدّ له من أن يكون ذا أجزاء وأبعاض[١]. وما كان بهذه المثابة لا يجوز أن يكون من صفات الله تعالى[٢]. لأن ذات الله سبحانه لا توصف بالاجتماع والافتراق والكل والبعض والحركة والسكون، وحكم الصفة الذاتية حكم الذات[٣].

قالوا: فعلم بهذه الجملة أن الكلام المضاف إلى الله سبحانه خلق له، أحدثه وأضافه إلى نفسه، كما تقول: عبد الله وخلق الله وفعل الله، فضاق بابن كلاب وأضرابه النفس عن هذا الإلزام لقلة معرفتهم بالسنن، وتركهم قبولها وتسليمهم العنان إلى مجرد العقل، فالتزموا ما قالته المعتزلة[٤] وركبوا مكابرة العيان[٥]، وخرقوا الإجماع المنعقد بين الكافة، المسلم والكافر[٦]، وقالوا[٧] للمعتزلة: الذي ذكرتموه ليس بحقيقة الكلام، وإنما يسمى ذلك كلاماً على المجاز، لكونه حكاية أو عبارة عنه[٨]، وحقيقة الكلام معنى قائم بذات المتكلم[٩]. فمنهم من اقتصر على هذا القدر، ومنهم من احترز عما علم دخوله على هذا الحد فزاد فيه: ما ينافي السكوت والآفات المانعة[١٠] عن الكلام ثم خرجوا[١١] عن هذا

---

(١) الجزء عند المتكلمين: ما يتركب الشيء منه ومن غيره، انظر: تعريفات الجرجاني (ص١٠٢)، والبعض عندهم: اسم لجزء مركب، تركب الكل منه.
أقول: المستفاد من كلام عامة الناس: أن الجزء والبعض اسمان لمسمى واحد، وهما شيء واحد بلا فرق، ولكن المفهوم في تعريف الجرجاني هذا: أن «البعض» أخص من «الجزء» فإن «البعض» اسم لـ «جزء مركب» و«الجزء» أعم، سواء كان مركباً أم لا. والله أعلم.

(٢) هذه من أعظم شبهات المعطلة قديماً وحديثاً. انظر: الرد على الجهمية للإمام أحمد (ص١٣٠ ـ ١٣١).

(٣) **أقول**: هذه مقدمة في غاية الفساد، لأن الذات قد توصف بالحركة والسكون دون الصفة.

(٤) أي: التزموا بما التزمت به المعتزلة ووافقوهم عليها، فوقعوا في أشد منها.

(٥) أي: خالفوا الحس، لأن الحس دال على أن الكلام إنما هو الحرف واللفظ.

(٦) وهو إجماع جميع بني آدم قبل ابن كُلَّاب على أن الكلام حرف وصوت.

(٧) أي: الكلابية.

(٨) سبق الكلام عنه.

(٩) **أقول**: هذا المفهوم للكلام الحقيقي قد تقرر عند الماتريدية والأشعرية جميعاً كما سبق، لكنه خلاف الواقع، فإن الكلام بهذا المعنى لا يقره عقل ولا نقل ولا إجماع، ولا عرف ولا لغة، ولم يعرفه أحد من بني آدم قبل ابن كُلَّاب.

(١٠) في درء التعارض (٢/ ٨٥) (المانعة فيه من الكلام) أي الآفات الموجودة في المتكلم المانعة له من الكلام.

(١١) أي: استنتجوا نتيجة فاسدة باطلة، وهي أن إثبات الكلام الحقيقي الذي فيه الحرف =

إلى أن إثبات الحرف والصوت في كلام الله تجسيم، وإثبات اللغة فيه تشبيه[(١)]، وتعلقوا بشبه منها قول الأخطل:

إن البيان من الفؤاد وإنما ... جعل اللسان على الفؤاد دليلا

فغيروه وقالوا:

إن الكلام لفي الفؤاد وإنما ... جعل اللسان على الكلام[(٢)] دليلا

وزعموا أن لهم حجة على مقالتهم في قول الله سبحانه: ﴿وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ لَوۡلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُۚ﴾ [المجادلة: ٨]، وفي قوله ﷻ: ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ﴾ [يوسف: ٧٧]، واحتجوا بقول الرب: «أرى في نفسك كلاماً وفي وجهك كلاماً»[(٣)]. فألجأهم الضيق مما دخل[(٤)] عليهم في مقالتهم إلى أن قالوا: «الأخرس متكلم، وكذا الساكت والنائم، ولهم في حال الخرس والسكوت والنوم كلام هم متكلمون به».

ثم أفصحوا بأن الخرس والسكوت، والآفات المانعة عن النطق ليست بأضداد الكلام، وهذه مقالة تبين فضيحة قائلها في ظاهرها من غير رد عليه[(٥)]. ومن علم منه خرق إجماع الكافة ومخالفة كل عقل وسمعي قبله لم يناظر، بل يجانب، ويقمع، ولكن لما عدم من ينظر في أمر المسلمين محناً[(٦)] بالكلام مع من ينبغي أن يلحق بالمجانين»[(٧)]. اهـ.

= والصوت لله تشبيه وتجسيم.

(١) أي إثبات الكلام العربي أو العبري أو السرياني أو الكلام بلغة أخرى لله تعالى تشبيه، ولو قالوا: إن الله ليس كمثله شيء، كذلك صفات الله ليس لها مثل، وكلام الله ليس له مثل، وصوت الله ليس له مثل، وأثبتوا الصفات لله تعالى بما فيها الكلام بحرف وصوت بدون تخيل وتشبيه مثل إثبات الذات بدون تمثيل لنجوا من التعطيل.

(٢) في درء التعارض (٢/ ٨٥): «على الفؤاد»، وهكذا في عامة المراجع.

(٣) انظر: التمهيد للباقلاني (ص٢٥١)، والإنصاف له (ص١١٠).

(٤) في رسالة السجزي (ص٨٤): «مما يدخل»، والذي أثبته فهو في درء التعارض (٢/ ٨٦) نقلاً عن رسالة السجزي، وهذا أفضل من الفعل المضارع، وأوفق للسياق ودلالة الكلام.

(٥) فإنها مكابرة للحس والواقع، وهذه بعينها مقالة السفسطائية اللاإرادية أو مقالة المجانين، فالماتريدية والأشعرية في مثل هذه المقالات مجانين بلا شك، ولكنهم مجانين العقلاء لو كانوا عقلاء المجانين لكان الخطب أسهل.

(٦) منها: أي ابتلائنا، يقال: محنته وامتحنته بمنزلة خبرته واختبرته.

(٧) رسالة السجزي إلى أهل زبيد (ص٨٠ ـ ٨٤).

قلت: وقريب منه كلام لابن الجوزي في نشأة بدعة الكلام النفسي وتطوره ومفاسده، ولكن حول الأشعري[١]، وقد اعترف بهذه الحقيقة الشهرستاني أيضاً[٢].

وفيما يلي أذكر إجمال ما يشتمل عليه هذا النص ـ نص الإمام السجزي المتقدم ذكره ـ من الفوائد المهمة:

الأولى: بيان نشأة بدعة القول بالكلام النفسي، وكيف نشأ وكيف تطور، وكيف صار مذهباً.

الثانية: أن أول من ابتدع هذه البدعة هو «ابن كلاب» ثم تولاها أضرابه.

الثالثة: أن بني آدم كلهم من المسلمين والكافرين كانوا مجمعين على أن الكلام هو ما كان بحرف وصوت إلى زمن ابن كلاب.

الرابعة: أن ابن كلاب قد خرج على إجماع الأمة جمعاء: أهل السنة وأهل البدع.

الخامسة: تطور بدعة القول بالكلام النفسي حتى صار هذا مذهباً لفرقة كلامية.

السادسة: اختراع الشبهات لإثبات هذه البدعة، وتشبث أهلها بتلك الشبهات الواهية.

السابعة: مخالفة أصحاب هذه البدعة العقل والنقل واللغة والعرف والإجماع والحس من آن واحد.

الثامنة: وقوع أهل هذه البدعة في الحماقات ومكابرة الحس والعيان والسفسطة.

التاسعة: موافقة أهل هذه البدع على أصل المعتزلة، مما أدى بهم إلى أمور منكرة وحماقات واضحة.

العاشرة: تعطيل أهل هذه البدعة لصفة كلام الله تعالى، ونسبة شيء آخر إليه سبحانه. لأن ما كان من صفة الله تعالى وهو الكلام الحقيقي الذي كان بحرف وصوت قد عطلوه وقالوا: إنه مخلوق، كقول المعتزلة سواء بسواء، وما لم يكن

---

(١) انظر: المنتظم (٦/٣٣٢)، ط. الهند ـ حيدرآباد الدكن، تصوير دار صادر، بيروت، و(١٤/٢٩)، ط. دار الكتب العلمية، بيروت، تحقيق محمد عبد القادر عطا.

(٢) انظر: نهاية الإقدام (ص٣١٣).

صفة من صفات الله وهو الكلام النفسي الذي لم يكن معروفاً عند المسلمين ولا عند الكافرين، ولم يكن يقره عقل ولا نقل ولا لغة ولا عرف ولا حس ولا مشاهدة ـ وهو الكلام النفسي ـ فقد تقولوه على الله وابتدعوه في الدين.

الحادية عشرة: قول أهل هذه البدعة بخلق القرآن، وموافقتهم المعتزلة على هذا والتعطيل.

الثانية عشرة: أن أهل هذه البدعة قد فاقوا المعتزلة، لأن المعتزلة كانوا مبتدعة للقول بخلق القرآن، ولتعطيل صفة كلام الله، ولم يكونوا مبتدعين ببدعة الكلام النفسي. بخلاف الأشعرية والماتريدية، فإنهم زادوا على هذه البدعة بدعة الكلام النفسي، فهم أسوأ حالاً من المعتزلة لكون بدعتهم أخف وبدعة هؤلاء مركبة، وأثقل وأشد.

الثالثة عشرة: أنه من المعلوم بالاضطرار عن أحوال أئمة السنة وأكابر هذه الأمة أن القول بخلق القرآن كان من أعظم الإلحاد في أسماء الله وصفاته عند السلف.

وتكفير الجهمية بسبب قولهم بخلق القرآن وبسبب نفيهم لعلو الله تعالى ثابت عن كبار أئمة الإسلام ثبوتاً لا يحتمل النقيض، وهو أمر متواتر عنهم، واستفاض استفاضة لا مزيد عليها.

فإن السلف لم يحكموا على الجهمية بالكفر والزندقة والإلحاد إلا لأجل قولهم ببدعة خلق القرآن، وبسبب نفيهم لعلو الله تعالى.

وأصحاب بدعة القول بالكلام النفسي كتبهم مكتظة بأن هذا القرآن العربي مخلوق، وأنه ليس بكلام الله الحقيقي، وأنه حكاية أو عبارة عن الكلام الحقيقي ألا وهو الكلام النفسي، إلى غيرها من المفاسد التي توجد في طي القول ببدعة الكلام النفسي، كما سنرى في المبحث القادم إن شاء الله تعالى.

٩ حجج من قال ببدعة الكلام النفسي والجواب عليها:

استدل من يقول بالكلام النفسي بأدلة من القرآن والسنة واللغة، وإليك تلك الأدلة:

أولاً: الأدلة من القرآن:

أ ـ قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ [المجادلة: ٨].

ب ـ وقوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعٗا وَخِيفَةٗ﴾ [الأعراف: ٢٠٥].

جـ ـ وقوله تعالى: ﴿وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾﴾ [الملك: ١٣] فسمى الإسرار قولاً.

د ـ وقوله تعالى: ﴿ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ [آل عمران: ٤١].

ثانياً: الأدلة من السنة:

قول النبي ﷺ يقول الله ﷻ: **(أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه حين يذكرني، إن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي)**(١). فأثبت الذكر للنفس، والذكر والقول والكلام واحد، فعلم أن حقيقة الكلام المعنى القائم بالنفس(٢).

ثالثاً: الأدلة من آثار السلف:

قول عمر رضي الله عنه: **«زوَّرت في نفسي مقالة أردت أن أقولها»**(٣).

رابعاً: الأدلة من اللغة:

احتجوا ببيت للأخطل:

إن الكلام لفي الفؤاد وإنما جعل اللسان على الفؤاد دليلاً

واحتجوا كذلك بأن العربي يقول: (كان في نفسي كلام) و(كان في نفسي قول) و(كان في نفسي حديث).

هذه أهم أدلتهم على القول بالكلام النفسي، وقد ناقش شيخ الإسلام هذه الحجج وبيَّن أنه لا دليل لهم فيها، وأنا أذكر ملخص ما أجاب به عن تلك الحجج، وذلك كما يلي:

أولاً: ما استدلوا به من القرآن:

١ ـ استدلالهم بقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ [المجادلة: ٨] عنه جوابان:

أحدهما: أن المراد أنهم قالوه بألسنتهم سراً، وحينئذٍ فلا حجة لهم فيه، وهذا

---

(١) متفق عليه.

(٢) انظر: الإنصاف للباقلاني (ص١٠٩ ـ ١١٠).

(٣) رواه البخاري، كتاب الحدود، باب رجم الحبلى من الزنا إذا أحصنت، حيث ساق حديث السقيفة بطوله، ورقمه (٦٨٣٥) (الفتح ١٢/ ١٤٤ ـ ١٤٥).

هو الذي ذكره المفسرون، حيث كانوا يقولون: سام عليك، فإذا خرجوا يقولون في أنفسهم، أي يقول بعضهم لبعض: لو كان نبيّاً عذبنا بقولنا له ما نقول[(١)].

والثاني: أنه قيده بالنفس، وهذا على أن المقصود أنهم قالوه بقلوبهم، وإذا قيد القول بالنفس كان دلالة المقيد خلاف دلالة المطلق، والدليل قول النبي ﷺ: **(أن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها، ما لم تتكلم أو تعمل)**[(٢)]، وهذا رد عليهم مطلقاً لأنه قال: (ما لم تتكلم) فدل على أن حديث النفس ليس هو الكلام المطلق.

٢ ـ وأما قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ [الأعراف: ٢٠٥]، فالمقصود الذكر باللسان، لأنه قال: ﴿تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾، ومن استقراء النصوص يتبين أن الذي يقيد بالنفس لفظ (الحديث)، مثل الحديث السابق)، (وما حدثت به أنفسها)، أما لفظ (الكلام) فلم يعرف أنه أريد به ما في النفس فقط[(٣)].

٣ ـ أما قوله: ﴿وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ﴾ [الملك: ١٣]، واحتجاجهم على أن القول المسر في القلب دون اللسان لقوله تعالى في آخر الآية: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾، فـ (هذه حجة ضعيفة جداً، لأن قوله: ﴿وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ﴾ يبين أن القول يسر به تارة، ويجهر به أخرى، وهذا إنما هو فيما يكون في القول الذي هو بحروف مسموعة، وقوله بعد ذلك: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ من باب التنبيه بالأدنى على الأعلى، فإنه إذا كان عليماً بذات الصدور فعلمه المسر والمجهور به أولى)[(٤)].

٤ ـ أما قوله تعالى: ﴿ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾ [آل عمران: ٤١]، فقد ذكر في مريم ﴿ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٠] و(لم يستثن شيئاً، والقصة واحدة، وهذا يدل على أن الاستثناء منقطع، والمعنى، آيتك ألا تكلم الناس،

---

(١) انظر: الإيمان (ص١٢٩)، ط. المكتب الإسلامي، ومجموع الفتاوى (١٥/ ٣٥).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الإيمان والنذور، باب إذا حنث ناسياً في الأيمان ورقمه (٦٦٦٤) (الفتح ١١/ ٥٤٨ ـ ٥٤٩)، ومسلم، كتاب الأيمان، باب تجاوز الله عن حديث النفس ورقمه (١٢٧).

(٣) انظر: الإيمان (ص١٣٠).

(٤) مجموع الفتاوى (١٥/ ٣٦)، وانظر: الإيمان (ص١٣٥).

لكن ترمز لهم رمزاً)[١].

ثانياً: الجواب عما استدلوا به من السنة:

أما ما احتجوا به من قول النبي ﷺ في الحديث السابق فليس وارداً في محل النزاع؛ لأن الخلاف بين أهل السنة وبين الأشاعرة إنما هو في مسمى القول لا بقيام المعاني في القلب، فإن أهل السنة والجماعة يقرون بأن حديث النفس قد يسمى كلاماً وقولاً، ولكن بقرينة تبين ذلك، وأما مطلق الكلام والقول فإنه يعم الألفاظ والمعاني مجتمعة[٢].

ثالثاً: أما احتجاجهم بأثر عمر في قصة السقيفة (زورت في نفسي مقالة) فهي حجة عليهم، لأن التزوير: إصلاح الكلام وتهيئته، (فلفظها يدل على أنه قدر في نفسه ما يريد أن يقوله ولم يقله، فعلم أنه لا يكون قولاً إلا إذا قيل باللسان، وقبل ذلك لم يكن قولاً، لكن كان مقدراً في النفس، يراد أن يقال، كما يقدر الإنسان في نفسه أنه يحج وأنه يصلي، وأنه يسافر، إلى غير ذلك، فيكون لما يريده من القول والعمل صورة ذهنية مقدرة في النفس، ولكن لا يسمى قولاً وعملاً إلا إذا وجدت في الخارج...)[٣]. وهذا يدل عليه الحديث السابق: «إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها ما لم تتكلم به أو تعمل».

رابعاً: الجواب عما احتجوا به من اللغة:

أما احتجاجهم بالبيت المنسوب للأخطل، ففيه ما فيه من ناحية صحة نسبته إليه حتى ألفاظ البيت حرفت لتوافق مقصود من استشهد به من أهل الكلام، وقد تعجب شيخ الإسلام من هؤلاء الذين يحتجون بهذا البيت الذي قاله نصراني، ولم يثبت عنه. فقال: «ولو احتج محتج في مسألة بحديث أخرجه في الصحيحين عن النبي ﷺ لقالوا: هذا خبر واحد، ويكون مما اتفق العلماء على تصديقه وتلقيه بالقبول، وهذا البيت لم يثبت نقله عن قائله بإسناد صحيح لا واحد ولا أكثر من واحد، ولا تلقاه أهل العربية بالقبول. فكيف يثبت به أدنى شيء من اللغة، فضلاً عن مسمى الكلام[٤].

---

(١) الإيمان (ص١٣١).

(٢) انظر: كتاب العقيدة السلفية في كلام رب البرية (ص٣٥١).

(٣) الإيمان (ص١٣١ ـ ١٣٢)، ط. المكتب الإسلامي.

(٤) الإيمان (ص١٣٢).

وقد أطال شيخ الإسلام في المناقشة بما يشفي ويكفي[(١)].

وأما احتجاجهم بقول العربي (كان في نفسي كلام) ونحو ذلك، فإننا لا نخالف في صحته، لكن ليس على مرادكم ـ معشر الأشعرية ـ وإنما على مرادنا من كون لفظ (الكلام) إذا جاء مقيداً، كان التقييد قرينة دالة على إخراجه عن إطلاقه، ونحن نقر أنه قد تراد به المعاني أو الألفاظ بالقرائن، فلما قيده العربي هاهنا بالنفس أخرجه من مطلق الكلام، فكيف يصح لكم ـ معشر الأشعرية ـ أن تحتجوا بما هو مجاز على قواعدكم لتقرير ما هي الحقيقة؟ وذلك أنكم تقولون: ما تصرفه القرائن عن حقيقته إنما هو المجاز[(٢)].

هذه أظهر حججهم في هذه المسألة، والجواب عليها، وبالله التوفيق.

(١٠) دعوى المعتزلة أن كلام الله مخلوق والرد عليها:

من الأدلة التي استدل بها المعتزلة على خلق القرآن أي كون كلام الله مخلوقاً ما يلي:

١ ـ قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ [الرعد: ١٦]، ووجه الاستدلال أن القرآن شيء فيكون داخلاً في عموم الآية فيكون مخلوقاً.

٢ ـ قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا﴾ [الزخرف: ٣]، وجه الاستدلال أن جعل بمعنى خلق؛ أي: خلقناه كما زعموا.

٣ ـ قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٠﴾ [القصص: ٣٠]، ووجه الاستدلال أن الكلام خلقه الله في الشجرة فسمعه موسى منها.

٤ ـ قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ﴾ [النساء: ١٧١]، وجه الاستدلال أن عيسى كلمة الله وعيسى مخلوق فيكون القرآن مخلوقاً.

والرد عليهم بعون الله كما يلي:

أ ـ الاستدلال بها باطل؛ لأنكم تناقضتم في الاستدلال فأخرجتم أفعال العباد وأدخلتم كلام الله، وهذا فاسد؛ لأنكم قلتم: أفعال العباد مخلوقة للعباد، وكلام الله مخلوق لله تعالى.

---

(١) الإيمان (ص١٣٢ ـ ١٣٤).

(٢) العقيدة السلفية في كلام رب البرية (ص٣٥١ ـ ٣٥٢).

ب ـ أنه يلزم من إدخالهم الكلام تحت عموم (كل) أن تكون صفات الله مخلوقة كالعلم، وهو صريح الكفر إذ إن علمه شيء، وحياته شيء فيدخل في عموم «كل» فيكون مخلوقاً وهذا باطل.

ج ـ أن عموم (كل) في كل موضع بحسبه، ويعرف ذلك بالقرائن. ولا يدخل في ذلك القرآن؛ لأنه كلام الله، وهو صفة من صفاته تعالى، وصفاته غير مخلوقة.

د ـ أن نفس دليلكم دليل عليكم؛ لأن الآية ـ بزعمكم ـ مخلوقة، فلا تصح أن تكون دليلاً.

* وأما الآية الثانية فاستدلالهم بها باطل أيضاً.

لأن «جعل» التي بمعنى خلق لا تتعدى إلا إلى مفعول واحد، كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام: ١]، والآيات في هذا كثيرة، فإذا تعدت إلى مفعولين لم تكن بمعنى «خلق» كالآية التي في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُواْ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٤]، وقوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ [الإسراء: ٢٩].

وأما الآية الثالثة فاستدلالهم بها باطل من وجوه:

أ ـ أن الآية جاءت بصيغة النداء، وهو الكلام من بعيد، فسمع موسى النداء من حافة الوادي، قال: ﴿فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ أي النداء كان في البقعة المباركة من عند الشجرة، و«مِنْ» هنا لابتداء الغاية كما في قولك: سمعت نداء زيد في البيت،، وليس البيت هو المتكلم.

ب ـ أن الكلام لو كان مخلوقاً في الشجرة لكانت هي القائلة: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

ج ـ قوله ﷺ: **(أعوذ بكلمات الله التامة)**، فهذا يدل على أنه غير مخلوق، لأنه ﷺ استعاذ بكلمات الله، والاستعاذة بالمخلوق شرك والرسول ﷺ منزه عن الشرك،، فدل على أن كلام الله غير مخلوق.

ـ وأما استدلالهم بالآية الرابعة فباطل أيضاً؛ لأنه إنما سمى عيسى كلمته لكونه وجد بكلمة «كن»، وليس هو نفس الكلمة، وخص عيسى بالذكر من بين المخلوقات مع كون المخلوقات موجودة بكلمة «كن» لأن عيسى وجد بلا أب، وآدم وجد بلا أب ولا أم، وحواء وجدت من ضلع آدم، بخلاف سائر المخلوقات فهي موجودة من أب وأم.

(١١) الأدلة من الكتاب والسنة لتكليم الله ﷻ لأهل الجنة:

الأدلة متوافرة وكثيرة من الكتاب والسنة على تكليم الله لأهل الجنة، من تلك الأدلة قوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ۝٥٨﴾ [يس: ٥٨].

ومن السنة حديث جابر رضي الله عنه: «**بينما أهل الجنة...**»، وحكم إنكار كلامه تعالى مع أهل الجنة إنكار لروح الجنة وإنكار لفضل النعيم الذي ينعمون به، وهو وجه الله تعالى وليس كلامه تعالى مقصوراً على أهل الجنة فقط، بل يكلم أهل النار بدليل قوله تعالى: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨]، فهو كلام إهانة وغضب لا كلام تكريم وتشريف ومثوبة، وقال تعالى: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [آل عمران: ٧٧] فهو إهانة لهم.

يؤخذ من الآية ومن حديث جابر رضي الله عنه وغيرهما من النصوص عدة مسائل منها:

١ - إثبات صفة الكلام لله تعالى.

٢ - إثبات الرؤية.

٣ - إثبات العلو.

٤ - إثبات الجنة والنار وأنهما حق.

(١٢) اللوازم الباطلة لقول الاتحادية في مسألة الكلام:

من هذه اللوازم:

١ - أن يكون كل ما أحدثه الله من الكلام في الجمادات كلامه، وكذلك في الحيوانات ولا فرق حينئذٍ بين (نَطَقَ) و(أَنْطَقَ)، وإنما قالت الجوارح: ﴿أَنطَقَنَا ٱللَّهُ﴾ [فصلت) ٢١] ولم تقل: نطق الله.

٢ - أن يكون الله متكلماً بكل كلام خلقه في غيره زوراً كان أو كذباً أو كفراً، تعالى الله عن ذلك.

٣ - أنه يلزم عليه أن يوصف الإنسان بصفة غيره، فيقال للبصير أعمى والعكس.

٤ - كذلك يلزم عليه وصف الله بالصفات التي خلقها في غيره من الألوان والروائح والطول والقصر.

٥ - إن هذا الكلام لو كان بدا من غير الله لكان قول فرعون: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤] صدقاً، وقد فرقوا بين فرعون وكلام الشجرة بزعمهم، فقالوا هذا كلام خلقه الله في الشجرة، وهذا كلام خلقه فرعون، وبدلوا واعتقدوا خالقاً غير الله.

١٣ مناقشة عبد العزيز المكي لبشر المريسي في مسألة الكلام:

وبمثل ذلك ألزم الإمام عبد العزيز المكي بشراً المريسي بين يدي المأمون بعد أن تكلم معه ملتزماً أن لا يخرج عن نص التنزيل وألزمه الحجة، فقال بشر: يا أمير المؤمنين! ليدع مطالبتي بنص التنزيل ويناظرني بغيره، فإن لم يدع قوله ويرجع عنه ويقر بخلق القرآن الساعة وإلا فدمي حلال، قال عبد العزيز: تسألني أم أسألك، فقال بشر: اسأل أنت وطمع فيَّ، فقلت له: يلزمك واحدة من ثلاث لا بد منها، إما إن تقول أن الله خلق القرآن ـ وهو عندي أنا كلامه ـ في نفسه، أو خلقه قائماً بذاته ونفسه أو خلقه في غيره، قال: أقول خلقه كما خلق الأشياء كلها، وحاد عن الجواب، فقال المأمون: اشرح أنت هذه المسألة ودع بشراً؛ فقد انقطع، فقال عبد العزيز: إن قال: خلق كلامه في نفسه فهذا محال؛ لأن الله لا يكون محلّاً للحوادث المخلوقة ولا يكون فيه شيء مخلوق، وإن قال: خلقه في غيره فيلزم في النظر والقياس أن كل كلام خلقه الله في غيره فهو كلامه، فهو محال أيضاً؛ لأنه يلزم قائله أن يجعل كل كلام خلقه الله في غيره هو كلام الله، وإن قال: خلقه قائماً بنفسه وذاته فهذا محال، حيث لا يكون الكلام إلا من متكلم، كما لا تكون الإرادة إلا من مريد ولا العلم إلا من عالم، ولا يعقل كلام قائم بنفسه يتكلم بذاته، فلما استحال من هذه الجهات أن يكون مخلوقاً علم أنه صفة لله.

١٤ الرد على من قال: إن القرآن أحدثه[1] جبريل أو محمد ﷺ:

الرد عليه بأن القول قولان:

١ ـ قول ابتداء.

٢ ـ وقول مبلغ ومرسل به، وهذا هو المقصود في الآية وذلك لما يأتي:

---

(١) اتفق أهل الكلام من الأشاعرة على أن القرآن مخلوق والكلام النفسي ليس بمخلوق ثم اختلفوا بعد ذلك في الذي أنشأه على ثلاثة أقوال:
أ ـ أن جبريل عليه السلام هو الذي أنشأه ونزل به إلى محمد (ﷺ).
ب ـ أن محمداً (ﷺ) هو الذي أنشأه حيث أن الوحي كان ينزل عليه بالمعاني وهو يعبر عنه بألفاظ من عنده.
جـ ـ أن الله ﷻ قد أنشأ القرآن وخلقه كتابة في اللوح المحفوظ ثم أن جبريل أخذه من اللوح المحفوظ ونزل به إلى النبي (ﷺ).

أ ـ لأن ذكر الرسول مُعَرِّفٌ أنه مبلغ عمن أرسله إذ لم يقل: إنه قول ملك أو نبي، فعلم أنه بلغه عمن أرسله به، لا أنه أنشأه من جهة نفسه.

ب ـ فالرسول في إحدى الآيتين جبرائيل، وفي الأخرى محمد، فإضافته إلى كل منهما تبين أن الإضافة للتبليغ، إذ لو أحدثه أحدهما امتنع أن يحدثه الآخر.

ج ـ أن الله وصف رسوله بالأمين دليل على أنه لا يزيد في الكلام ولا ينقص منه.

د ـ أن الله قد كفَّر من جعل القرآن من قول بشر ـ ومحمد ﷺ بشر ـ فمن جعله قول محمد ﷺ فقد كفر، ولا فرق بين أن يقول أنه قول بشر أو مَلَك أو جني.

هـ ـ أن الكلام ينسب إلىٰ من قاله مبتدئاً لا من قاله مبلغاً ـ فمن سمع شعراً مثل: قفا نبك من ذكرى حبيب ـ قال: إنه كلام وشعر امرئ القيس، ومن سمع قول: **(إنما الأعمال بالنيات)** قال: هذا قول محمد ﷺ، ومن سمع قول رب العالمين قال: هذا كلام الله ـ إن كان عنده خبر بذلك ـ وإلا قال لا أدري.

(١٥) معنى القرآن في اللغة:

القرآن في الأصل مصدر، ويراد به تارة القراءة، كما قال تعالى: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨]، وقوله ﷺ: **(زينوا القرآن بأصواتكم)** وتارة يراد به المقروء، قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾﴾ [النحل: ٩٨]، وقوله ﷺ: **(إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف)**.

وأنواع وجود الحقائق أربعة:

١ ـ وجود عيني: وهو وجود الموجودات في أنفسها وذواتها كوجود زيد في البيت.

٢ ـ وجود ذهني: وهو العلم بالحقائق في القلوب.

٣ ـ وجود لفظي: وهو التعبير عن الحقائق باللسان.

٤ ـ وجود رسمي: وهو كتابته بالبنان.

فالأعيان تُعلَم ثم تُكتَب، فكتابتها في المصاحف هي المرتبة الرابعة. وأما الكلام فإنه ليس بينه وبين المصحف واسطة، بل هو الذي يكتب بلا واسطة ولا لسان.

والقرآن كلام الله حيث تعرفه فيه سواء كان محفوظاً في الصدور أو متلواً أو مكتوباً في المصاحف، فهو لا يخرج عن أن يكون كلام الله. فإذا قيل: المكتوب

في المصحف كلام الله فهم منه معنى صحيح حقيقي[1].

١٦ الفرق بين كون القرآن في زبر الأولين وكونه في رق منشور أو لوح محفوظ:

الفرق واضح، فقوله عن القرآن: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٩٦﴾ [الشعراء: ١٩٦] أي ذكره ووصفه والإخبار عنه، والزبر هو الكتابة والجمع، فالمعنى بيِّن من اللفظ نفسه وبيِّن من كمال القرآن وخلوصه من اللبس، وهذا مثل قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧] أي ذكره بخلاف ﴿فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ۝٣﴾ [الطور: ٣] «واللوح المحفوظ» و«كتاب مكنون» لأن العامل في الظرف إما أن يكون من الأفعال العامية مثل الكون والاستقرار والحصول، أو يقدر بأنه مكتوب في كتاب ـ أو في ورقة ـ والكتاب تارة يذكر ويراد به محل الكتاب، وتارة يراد به الكلام المكتوب، ويجب التفريق بين كتابة الكلام في الكتاب وكتابة الأعيان الموجودة في الخارج فيه، فإن تلك إنما يكتب ذكرها. المقصود أن عامل الظرف على قسمين: أ ـ عامل عام نحو موجود مثل قولك الماء في الكوز وتقدير الماء موجود في الكوز. ب ـ عامل خاص: فهذا يقدر بحسب القرائن فقولك الحديد في القرآن التقدير: الحديد مذكور في القرآن فليس الحديد نفسه وبذاته في القرآن.

١٧ معنى قول السلف: «منه بدا وإليه يعود»:

حقيقة كلام الله الخارجية هي ما يسمع منه أو المبلغ عنه، فإذا سمعه السامع علمه وحفظه، فكلام الله مسموع له محفوظ، فإذا قاله السامع فهو مقروء له متلو، فإن كتبه فهو مكتوب له مرسوم، قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦] وهو لا يسمع كلام الله من الله، وإنما يسمعه من مبلغ عنه.

ومعنى قول السلف: «منه بدا» يقصدون الرد على الجهمية وغيرهم من القائلين: الله خلق الكلام في محل، فبدا الكلام عن ذلك المحل، فقالوا: «منه بدا» أي هو المتكلم به، فمنه بدا لا من بعض المخلوقات، كما قال تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝١﴾ [الزمر: ١] ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى﴾

(١) انظر: الفتاوى (١٢/١١١ ـ ٢٣٩)؛ ومختصر الصواعق (٢/٣١٨).

[السجدة: ١٣] ومعنى: «إليه يعود» أنه يرفع من المصاحف وينزع من صدور الرجال في آخر الزمان، فلا يبقى منه آية.

١٨ الفرق بين إنزال القرآن وإنزال المطر:

الفرق بين ذلك أن إنزال القرآن مضاف إلى الله تعالى. حيث قال: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ[١] ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٢﴾ [غافر: ١، ٢]، وقال تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢﴾ [فصلت: ٢]، وقال: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣﴾ [الدخان: ٣]، وإنزال المطر مقيد بأنه إنزال من السماء، قال تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ [الرعد: ١٧] والسماء العلو.

وقد جاء في مكان آخر أنه منزل من المزن، والمزن: السحاب، وفي مكان آخر أنه منزل من المعصرات، وإنزال الحديد والأنعام مطلق، فكيف يشبه هذا الإنزال، بهذا الإنزال، فالحديد إنما يكون من المعادن التي في الجبال، وهي عالية على الأرض، وقد قيل: إنه كلما كان معدنه أعلى كان حديده أجود، والأنعام تخلق بالتوالد المستلزم إنزال الذكور الماء من أصلابها إلى أرحام الإناث، ولهذا يقال: أنزل، ولم يقل نزل ثم الأجنة تنزل من بطون الأمهات إلى وجه الأرض، ومن المعلوم أن الأنعام تعلو فحولُها إناثَها عند الوطء، وينزل ماء الفحل من علو إلى رحم الأنثى، وتلقي ولدها عند الولادة من علو إلى سفل، وعلى هذا فيحتمل قوله: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ [الزمر: ٦] وجهين: أحدهما: أن تكون (مِنْ) لبيان الجنس. الثاني: أن تكون (مِنْ) لابتداء الغاية وهذان الوجهان يَحْتِمِلهُما في قوله: ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا﴾ [الشورى: ١١].

١٩ مذاهب الناس في مسمى الكلام:

اختلف الناس[٢] في مسمى الكلام على أربعة أقوال:

١ ـ أنه يتناول اللفظ والمعنى جميعاً، كما يتناول لفظ (الإنسان) الروح والبدن، وهذا قول السلف.

---

(١) اختلفت أقوال أهل البدع في معنى الإنزال:
ج ـ فمنهم من يقول (أنزل) بمعنى خلق وهذا قول الجهمية.
ب ـ فمنهم من يقول (أنزل) بمعنى الإعلام به وإفهامه للملك وهذا قول الكلابية، انظر: الفتاوى (١٢/٢٤٦).

(٢) انظر: الإيمان لشيخ الإسلام (ص١٦٢).

٢ ـ أنه يتناول اللفظ[١] فقط، والمعنى مدلول مسماه، وهو قول جماعة من المعتزلة.

٣ ـ أنه يتناول المعنى[٢] فقط، واللفظ مجاز، لأنه دل عليه، وهو قول ابن كُلَّاب.

٤ ـ أنه مشترك بين اللفظ والمعنى، وهو قول بعض المتأخرين من الكُلابية.

٥ ـ وهناك قول خامس يروى عن أبي الحسن أنه مجاز في كلام الله، حقيقة في كلام الآدميين.

٢٠ أول من قال «لفظي بالقرآن مخلوق»:

أول من قال بها حسين الكرابيسي فبدعه الإمام أحمد لأن قولهم: «لفظي بالقرآن مخلوق» فيه إجمال فيحتمل أمرين: أ ـ اسم المفعول: فتكون العبارة (الملفوظ والمقروء مخلوق) وهذا باطل. ب ـ أن يراد بـ(اللفظ) المصدر أي حركات وفعل القارئ حين القرآءة فيكون التقدير: حركاتي وفعلي مخلوق فهذا صحيح.

٢١ معنى قول الطحاوي: «صدق المؤمنون على ذلك حقاً، وأيقنوا أنه كلام الله تعالى بالحقيقة ليس بمخلوق».

ترجع الإشارة إلى ما ذكره الشيخ من التكلم على الوجه المذكور أي قول الصحابة والتابعين في صفة الكلام حق وصدق.

وهو يشير بهذا إلى الرد على المعتزلة وغيرهم؛ ففي قوله: «بالحقيقة» رد على من قال أنه معنى واحد قام بذات الله لم يسمع منه، وإنما هو الكلام النفساني.

٢٢ الخلاصة:

١ ـ القرآن الكريم هو كلام الله، منه سبحانه بدا، ولم يأخذه جبريل من اللوح المحفوظ كما يقوله أهل الضلال، ولم يكن من كلام جبريل ولا محمد ﷺ، إنما هو كلام رب العالمين، وأما جبريل ومحمد عليهما الصلاة والسلام، فهما مبلغان عن الله ﷻ.

---

(١) فيكون تعريف الكلام عندهم: هو اسم اللفظ بشرط أن يكون هذا اللفظ دالاً على معنى فيكون اللفظ دالاً والمعنى مدلولاً عليه.

(٢) فيكون تعريف الكلام عندهم: هو المعنى المدلول عليه باللفظ. ثم توصلوا أن كلام الله ليس بحرف ولا صوت والقرآن إنما هو حكاية أو عبارة عن المعنى القائم بذات الله.

٢ ـ الكلام إنما يقال ويضاف لمن قاله مبتدأ، لا من قاله مبلغاً ومؤدياً.
٣ ـ القرآن الكريم كلام الله ليس بمخلوق، وهو كلام الله حقيقة، وليس بالمجاز كما يقوله الجهمية والمعتزلة.
٤ ـ من سمع كلام الله وزعم أنه كلام البشر فقد كفر؛ لأنه جحد كلام الله ﷻ، وقد ذم الله هذه المقالة، فقال: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾﴾ [المدثر: ٢٥، ٢٦].
٥ ـ لا تشابه بين كلام الله وكلام البشر؛ للفرق بين صفات الخالق وصفات المخلوق.
٦ ـ بدعة الكلام النفسي نشأت في أواخر القرن الأول وأوائل القرن الثاني، وهي بدعة متناقضة متهافتة، ويلزم أصحابها لوازم فاسدة باطلة.
٧ ـ الأدلة متوافرة وكثيرة من الكتاب والسنة على تكليم الله لأهل الجنة.
٨ ـ لمذهب الاتحادية لوازم باطلة في مسألة الكلام.
٩ ـ (كتاب الحيدة) مضمونه مناقشة عبد العزيز المكي لبشر المريسي في مسألة الكلام، وهو نفيس في بابه.
١٠ ـ القرآن في الأصل مصدر، ويراد به تارة القراءة، وتارة المقروء.
١١ ـ أنواع وجود الحقائق أربعة: وجود عيني وذهني ولفظي ورسمي.
١٢ ـ هناك فرق بين كون القرآن في زبر الأولين وكونه في رق منشور أو لوح محفوظ.
١٣ ـ معنى قول السلف: «منه بدا» يقصدون الرد على الجهمية وغيرهم، ومعنى: «إليه يعود» أنه يرفع من المصاحف، وينزع من صدور الرجال في آخر الزمان فلا يبقى منه آية.
١٤ ـ هناك فرق بين إنزال القرآن وإنزال المطر؛ فإنزال القرآن مضاف إلى الله تعالى، وإنزال المطر مقيد بأنه إنزال من السماء.

(٢٣) المناقشة:

- **س١:** لماذا عقد المصنف هذا الباب؟
- **س٢:** بيِّن عقيدة أهل السنة والجماعة في كلام الله ﷻ إجمالاً.
- **س٣:** اذكر الأقوال في كلام الله تعالى، مع ذكر شيء من المفاسد المترتبة على نفي صفة الكلام.
- **س٤:** اذكر الأدلة على تكليم الله لأهل الجنة.

- **س٥:** هل يكلم الله أهل النار؟
- **س٦:** اذكر بعضاً من أدلة المعتزلة على قولهم: «القرآن مخلوق» مع بيان وجه استدلالهم والرد عليه.
- **س٧:** متى نشأت بدعة الكلام النفسي؟
- **س٨:** اذكر بعضاً من حجج القائلين ببدعة الكلام النفسي، مع الجواب عليها.
- **س٩:** اذكر لوازم قول الصوفية الاتحادية في كلام الله.
- **س١٠:** اذكر مناقشة عبد العزيز المكي لبشر المريسي.
- **س١١:** كيف ترد على من قال: إن القرآن أحدثه إما جبريل وإما محمد عليهما الصلاة والسلام؟
- **س١٢:** ما قول الكرامية في الكلام، وبماذا يوافقون أهل السنة؟
- **س١٣:** ما هو القول الحق في القرآن إذا كتب في الورق أو قرأه القارئ؟ وضح ذلك.
- **س١٤:** ما معنى القرآن في اللغة؟ واذكر أنواع وجود الحقائق.
- **س١٥:** ما الفرق بين كون القرآن في زبر الأولين وكونه في رق منشور أو لوح محفوظ؟
- **س١٦:** ما معنى قول السلف: «منه بدا وإليه يعود»؟
- **س١٧:** ما الفرق بين إنزال القرآن، وإنزال المطر، وإنزال ثمانية أزواج من الأنعام؟
- **س١٨:** ما معنى قول الشيخ: «صدق المؤمنون على ذلك حقاً»، وإلى أي شيء ترجع الإشارة؟
- **س١٩:** إلى أي شيء يشير الشيخ بقوله: «وأيقنوا أنه كلام الله تعالىٰ بالحقيقة ليس بمخلوق»؟
- **س٢٠:** اختلف الناس في معنىٰ الكلام عند الإطلاق، هل هو اللفظ أو المعنىٰ على أقوال، أذكرها؟

الرؤية عند أهل السنّة والجماعة والمخالفين لهم

❁ **كلام ابن أبي العز:**

١ ـ غرض المصنف من عقد هذا الباب.

٢ ـ مناسبة هذا الباب لما سبق.

٣ ـ معاني الكلمات.

٤ ـ معنى قول الطحاوي: «والرؤية حق لأهل الجنة، بغير إحاطة ولا كيفية، كما نطق به كتاب ربنا: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝٢٣﴾ [القيامة: ٢٢ ـ ٢٣]. وتفسيره على ما أراد الله تعالى وعلمه، وكل ما جاء في ذلك من الحديث الصحيح عن الرسول ﷺ فهو كما قال، ومعناه على ما أراد، لا ندخل في ذلك متأولين بآرائنا، ولا متوهمين بأهوائنا، فإنه ما سلم في دينه إلا من سلم الله ﷻ ولرسوله ﷺ، ورد علم ما اشتبه عليه إلى عالمه».

٥ ـ مسألة الرؤية من أشرف مسائل أصول الدين.

٦ ـ عرض مذهب أهل السنّة في الرؤية.

٧ ـ المخالفون لأهل السنة في مسألة الرؤية.

٨ ـ أدلة الرؤية.

٩ ـ شبه المعتزلة حول الرؤية.

١٠ ـ معنى قوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]

١١ ـ مذهب الأشعرية والماتريدية في الرؤية.

١٢ ـ الرد على مذهب الأشعرية في الرؤية.

١٣ ـ بعض شبهات الأشعرية والماتريدية في الرؤية والرد عليهم.

١٤ ـ هل الرؤية بصرية أم قلبية؟

١٥ ـ هل الرؤية البصرية لله ممكنة في الدار الدنيا؟

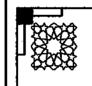
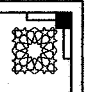
١٦ ـ معنى قول الطحاوي: «ولا تثبت قدم الإسلام إلا على ظهر التسليم والاستسلام، فمن رام علم ما حظر عنه علمه، ولم يقنع بالتسليم فهمه، حجبه مرامه عن خالص التوحيد، وصافي المعرفة، وصحيح الإيمان، فيتذبذب بين الكفر والإيمان، والتصديق والتكذيب، والإقرار والإنكار، موسوساً تائهاً، شاكاً، لا مؤمناً مصدقاً، ولا جاحداً ولا مكذباً. ولا يصح الإيمان بالرؤية لأهل دار السلام لمن اعتبرها منهم بوهم، أو تأولها بفهم؛ إذ كان تأويل الرؤية ـ وتأويل كل معنى يضاف إلى الربوبية ـ بترك التأويل ولزوم التسليم، وعليه دين المسلمين».

١٧ ـ مثل العقل مع النقل كالعامي المقلد مع العالم المجتهد.

١٨ ـ الخلاف في رؤية أهل المحشر لله ﷻ.

١٩ ـ الخلاصة.

٢٠ ـ المناقشة.

الرؤية عند أهل السنّة والجماعة والمخالفين لهم

قال ابن أبي العز:

«والرؤية حقٌّ لأهلِ الجنة، بغير إحاطةٍ ولا كيفيَّةٍ، كما نَطَقَ به كتابُ ربِّنا: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: ٢٢ ـ ٢٣]. وتفسيره على ما أرادَ الله تعالى وعَلِمَه، وكُلُّ ما جَاءَ في ذلك من الحديثِ الصحيح عن رسول الله ﷺ، فهو كما قال، ومعناه على ما أَراد، لا نَدْخُلُ في ذَلِك متأوِّلين بآرائنا، ولا مُتوهِّمين بأهوائنا، فإنه ما سَلِمَ في دينه إلا مَنْ سَلَّمَ لله ﷻ ولرسوله ﷺ. وردَّ عِلم ما اشتبه عليه إلى عالمه».

ش: المخالف في الرؤية: الجَهْمِيَّةُ والمعْتَزِلَةُ، ومَنْ تَبِعَهُم من الخوارج والإمامية، وقولُهم باطل مردود بالكتاب والسنّة، وقد قال بثبوت الرؤيةِ الصحابةُ والتابعون، وأئمةُ الإسلامِ المعروفون بالإمامةِ في الدين، وأَهْلُ الحديث، وسائرُ طوائف أهلِ الكلام المنسوبون إلى السنّة والجماعة.

وهذه المسألةُ مِن أشرف مسائلِ أصولِ الدين وأَجَلِّها، وهي الغايةُ التي شَمَّرَ إليها المشمِّرون، وتَنَافَس فيها المتنافسونَ، وحُرِمَها الذين هُمْ عن رَبِّهم محجوبون، وعن بابه مطرودون.

وقد ذَكَرَ الشيخُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ مِنَ الأدلة قولَه تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: ٢٢ ـ ٢٣]. وهي مِن أَظهر الأدِلَّةِ، وأما مَنْ أَبَى إلا تحريفها بما يُسمِّيه [المحرفون][١] تأويلاً، فتأويلُ نصوصِ المعادِ والجنة والنار [والميزان][٢] والحساب، أَسْهَلُ من تأويلها على أرباب التأويل، ولا يَشَاءُ مبطلٌ أن يتأَوَّل النُّصُوصَ، ويُحرِّفها عن مواضعها إلا وَجَدَ إلى ذلك من السبيل، ما وَجَدَهُ متأوِّلُ هذه النصوص.

وهذا الذي أَفْسَدَ[٣] الدنيا والدِّين، وهكذا فَعَلَتِ اليهودُ والنصارى في نصوص

(١) المثبت من حادي الأرواح (ص٢١١).
(٢) المثبت من حادي الأرواح (ص٢١١).
(٣) انظر: الصواعق المرسلة (١/٣٤٨).

التوراة والإنجيل، وحَذَّرَنا اللهُ أن نَفْعَلَ مِثْلَهم، وأَبَى المبطِلُون إلا سُلُوكَ سبيلهم، وكم جَنَى التأويلُ الفاسِدُ على الدين وأهلِه من جناية، فهل قُتِلَ عثمانُ ﵁ إلا بالتأويلِ الفاسد! وكذا ما جَرَى في يومِ الجمل، وصِفِّين، ومقتل الحسين ﵁، والحَرَّة؟ وهل خَرَجَتِ الخوارجُ واعتَزَلَتِ المعتزلةُ، ورَفَضَتِ الرَّوافِضُ، وافترَقَتِ الأمةُ على ثلاث وسبعين فرقة، إلا بالتأويلِ الفاسد؟!.

وإضافة النظر[1] إلى الوجه الذي هو محلُّه في هذه الآية، وتَعدِيتُه بأداة «إلى» الصريحة في نَظَر العين، وإخلاءُ الكلامِ من قرينة تَدُلُّ على خلاف حقيقته وموضوعه، صريحٌ في أن الله أَرادَ بذلك نَظَر العين التي في الوجه إلى الربِّ جلَّ جلالُه.

فإن النظر له عدةُ استعمالات، بحسب صلاته وتَعدِّيه بنفسه، فإن عُدِّيَ بنفسه، فمعناه: التوقف والانتظار، كقوله: ﴿ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ [الحديد: ١٣]. وإن عُدِّي بـ«في»، فمعناه: التفكر والاعتبار، كقوله: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٨٥]. وإن عُدِّيَ بـ«إلى» فمعناه: المعاينة بالأبصار، كقوله تعالى: ﴿ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ﴾ [الأنعام: ٩٩]. فكيف إذا أُضيفَ إلى الوجه الذي هو محل البصر، وروى ابن مردويه بسنده إلى ابن عمر، قال: قال رَسُولُ الله ﷺ في قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾﴾؛ قال: مِن البهاء والحُسن ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾؛ قال: في وجه الله ﷻ. عن الحسن قال: نَظَرَتْ إلى رَبِّها فَنُضِّرَتْ بنوره.

وقال أبو صالح عن ابن عباس ﵄: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ قال: تَنظُر إلى وجه ربِّها ﷻ.

وقال عِكْرَمَةُ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾؛ قال: مِن النعيم، ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾؛ قال: تَنظُرُ إلى ربها نظراً؛ ثم حكى عن ابنِ عباس مثلَه.

وهذا قولُ كُلِّ مفسِّرٍ مِن أهل السنّةِ والحديث.

وقال تعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾﴾ [قٓ: ٣٥]. قال الطبري: قال علي بن أبي طالب، وأنس بن مالك ﵄: هو النظرُ إلى وجه الله ﷻ.

وقال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]؛ فالحسنى: الجنة؛ والزيادة: هي النظرُ إلى وجهه الكريم، فسَّرَها بذلك رَسُولُ الله ﷺ والصحابةُ مِن

(١) انظر: حادي الأرواح (ص٢١١).

بعده، كما رَوى مسلم في «صحيحه» عن صُهَيب، قال: قَرَأَ رسولُ الله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، قال: (إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الجَنَّةِ الجَنَّةَ، وأَهْلُ النَّارِ النَّارَ، نَادَى مُنَادٍ: يَا أَهْلَ الجَنَّةِ، إِنَّ لَكُمْ عِنْدَ اللهِ مَوْعِداً، ويُرِيدُ أَنْ يُنْجِزَكُمُوهُ، فَيَقُولُونَ: مَا هُوَ؟ أَلَمْ يُثَقِّلْ مَوَازِينَنَا، ويُبَيِّضْ وُجُوهَنَا، ويُدْخِلْنَا الجَنَّةَ، ويُجِرْنَا مِنَ النار؟ فَيَكْشِفُ الحِجَاب، فَيَنْظُرُونَ إليه، فمَا أَعْطَاهُم شَيْئاً أَحَبَّ إليهِم مِنَ النَّظَرِ إِلَيْهِ، وَهِيَ الزيادة»[1].

ورواه غَيْرُه بأسانيدَ متعددةٍ وألفاظٍ أُخَرَ؛ معناها: أن الزيادة: النظرُ إلى وجه الله ﷻ.

وكذلك فَسَّرها الصحابةُ ﵃، روى ابنُ جرير ذلك عن جماعة، منهم: أبو بكر الصديق، وحُذيفة، وأبو موسى الأشعري، وابن عباس ﵃.

وقال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾ [المطففين: ١٥]. احْتَجَّ الشافعيُّ ﵀ وغيرُه مِن الأئمة بهذه الآية على الرؤيةِ لأهل الجنة، ذَكَرَ ذلك الطبريُّ وغيرُه عن المُزَنِيِّ، عن الشافِعيِّ، وقال الحاكم: حدثنا الأصمُّ، حدثنا الربيعُ بنُ سليمان قال: حَضَرْتُ محمد بن إدريس الشافعي ﵀، وقد جاءته رُقْعَةٌ من الصَّعيدِ فيها: ما تقولُ في قول الله ﷻ: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾ [المطففين: ١٥]؟ فقال الشافعيُّ: لمَّا أن حُجِبَ هؤلاء في السُّخْطِ، كان في هذا دليلٌ على أن أولياءَه يَرَوْنَه في الرِّضا.

وأما استدلالُ المعتزلة بقوله تعالى: ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾ [الأعراف: ١٤٣]، وبقوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] فالآيتانِ دليلٌ عليهم:

أما الآيةُ الأولى، فالاستدلالُ منها على ثبوتِ رؤيته من وجوه:

أحدُها: أنه لا يُظَنُّ بكليمِ الله ورسوله الكريم، وأعلمِ الناس بربه في وقته أن يَسأَلَ ما لا يَجوزُ عليه؛ بل هو عندَهم مِن أعظم المحال.

الثاني: أن الله لم يُنْكِرْ عليه سؤالَه، ولما سَأَلَ نوحٌ ﵇ ربَّه نجاةَ ابنِه أنكر سؤالَه، وقال: ﴿إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦].

الثالث: أنه تعالى قال: ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾، ولم يَقُلْ: إني لا أُرى، ولا تَجوزُ رؤيتي،

---

(١) أخرجه مسلم (١٨١).

أو لستُ بمرئيٍّ، والفرق بينَ الجوابَين ظاهر، ألا تَرَى أن مَنْ كان في كُمِّه حَجَرٌ، فظنَّه رجلٌ طعاماً، فقال: أَطْعِمْنِيه، فالجوابُ الصحيح: أنه لا يُؤكَل، أما إذا كان طعاماً، صَحَّ أن يقالَ: إنك لَن تَأْكُلَه. وهذا يَدُل على أنه سبحانه مرئي، ولكن موسى ﷺ لا تَحْتَمِلُ قواه رؤيتَه في هذه الدار، لضعف قوى البشر فيها عن رؤيته تعالى. يوضحه:

الوجه الرابع: وهو قوله: ﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى﴾ [الأعراف: ١٤٣]. فأَعْلَمَه أنَّ الجبلَ مع قوته وصلابته لا يَثْبُتُ للتَّجلِّي في هذه الدارِ، فكيف بالبشر الذي خُلِقَ من ضَعْفٍ؟.

الخامس: أنَّ الله سبحانه قَادِرٌ على أن يَجعَلَ الجبلَ مستقرّاً، وذلك ممكن، وقد عَلَّقَ به الرؤية، ولو كان محالاً لكان نظيرُ أن يقولَ: إنِ استَقَرَّ الجبلُ، فسوف آكلُ وأَشرَبُ وأنامُ، والكُلُّ عندَهم سواء.

السادس: قولُه تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ [الأعراف: ١٤٣]، فإذا جَازَ أن يَتَجلَّى للجبل الذي هو جمادٌ لا ثَوابَ له ولا عِقاب، فكيف يَمتَنِعُ أن يَتَجلَّى لرُسُلِهِ وأوليائه في دار كرامته! ولكنَّ الله أَعْلَمَ موسى ﷺ أن الجبلَ إذا لم يَثْبُتْ لرؤيته في هذه الدار، فالبَشَرُ أضعفُ.

السابع: أنَّ الله كَلَّمَ موسى وناداه وناجاه، ومن جَازَ عليه التكلُّمُ والتكليمُ، وأن يَسْمَعَ مخاطبُه كلامَه بغير واسطة، فرؤيتُهُ أولى بالجواز، ولهذا لا يَتِمُّ إنكارُ رؤيتِهِ إلا بإنكار كلامِهِ، وقد جَمَعُوا بينهما. وأما دعواهُم تأبيدَ النفي بـ«لن» وأن ذلك يَدُلُّ على نفي الرؤية في الآخرة، ففاسد، فإنها لو قُيِّدَتْ بالتأبيد لا يَدُلُّ على دوام النفي في الآخرة، فكيف إذا أُطلقت! قال تعالى: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾ [البقرة: ٩٥]، مع قوله: ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف: ٧٧]. ولأنها لو كانت للتأبيد المطلق، لما جَازَ تَحديدُ الفعلِ بعدَه، وقد جاءَ ذلك، قال تعالى: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ﴾ [يوسف: ٨٠]. فَثَبَتَ أنَّ «لن» لا تقتضي النفي المؤبَّد.

قال الشيخُ جمالُ الدين بنُ مالك رحمه الله تعالى:

ومَنْ رَأَى النَّفْيَ بـ«لَنْ» مُؤَبَّداً فَقَوْلَهُ اردُدْ وَسِوَاهُ فَاعْضُدَا

وأما الآيةُ الثانيةُ[1]: فالاستدلالُ بها على الرؤية من وجهٍ حسنٍ لطيفٍ، وهو

---

(١) انظر: حادي الأرواح (ص٢١٧).

أن الله تعالى إنما ذَكَرَها في سياقِ التَمَدُّحِ، ومعلومٌ أن المدحَ إنما يكون بالصفاتِ الثُّبوتية، وأما العَدَمُ المحضُ، فليس بكمال، فلا يُمْدَحُ به، وإنما يُمْدَحُ الربُّ تعالى بالنفي إذا تَضَمَّنَ أمراً وجوديّاً، كمدحه بنفي السِّنَةِ والنومِ، المتضمن كمال القَيُّومية، ونفيِ الموت المتضمن كمال الحياة، ونفيِ اللُّغُوب والإعياء، المتضمن كمال القدرة، ونفيِ الشريك والصاحبة والولد والظَّهِير، المتضمِّن كمالَ ربوبيته وإلهيتِه وقهره، ونفيِ الأكلِ والشرب المتضمن كمال صَمَدِيَّتِهِ وغِناه، ونفيِ الشفاعة عِندَه إلا بإذنه المتضمِّن كمال توحُّدِه وغناه عن خلقه، ونفيِ الظلم المتضمِّن كمالَ عدله وعلمه وغناه، ونفيِ النسيان، وعزوب شيء عن علمه المتضمِّن كمالَ علمه وإحاطته، ونفيِ المثل المتضمِّن لكمال ذاته وصفاته.

ولهذا لم يَتَمَدَّح بعدم مَحْضٍ لم يَتَضَمَّنْ أمراً ثبوتياً، فإن المعدوم يُشَارِكُ الموصوفَ في ذلك العدم[1]، ولا يُوصَفُ الكامل بأمر يَشتَرِك هو والمعدوم فيه، فإذن: المعنى: أنه يُرى ولا يُدرَك ولا يُحاط به، فقوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، يَدُلُّ على كمال عظمته، وأنه أكبرُ مِن كل شيء، وأنه لكمال عظمته لا يُدرَكُ بحيثُ يُحاط به، فإن «الإدراك» هو الإحاطةُ بالشيء، وهو قدرٌ زائدٌ على الرؤية، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ﴾ [الشعراء: ٦١ ـ ٦٢]، فلم يَنْفِ موسى ﷺ الرؤية، وإنما نفى الإدْراكَ، فالرؤيةُ والإدراكُ كُلٌّ منهما يُوجَدُ مع الآخر وبدونه، فالربُّ تعالى يُرَى ولا يُدْرَكُ، كما يُعْلَمُ ولا يُحَاطُ به علماً، وهذا هو الذي فَهِمَه الصَّحَابَةُ والأئمة من الآيةِ، كما ذكرت أقوالُهم في تفسيرِ الآية. بل هذه الشَّمْسُ المخلوقةُ لا يَتَمَكَّنُ رائيها من إدراكها على ما هِيَ عليه.

وأما الأحاديثُ عن النبي ﷺ وأصحابه ﷺ الدالة على الرؤية فمتواترة، رواها أصحابُ الصِّحاحِ والمسانيد والسنن.

فمنها: حديثُ أبي هريرة ﷺ: «أَنَّ نَاساً قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ القِيَامَةِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: (هَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ القَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ؟)، قَالُوا: لا يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: (هَلْ تُضَارُّونَ فِي الشَّمْسِ لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ؟)، قَالُوا: لا،

(١) لو قلنا بعدم إمكان رؤيته سبحانه لجعلناه ﷻ مع المعدوم سوى لأن المعدوم لا يرى لكونه غير موجود. انظر: شرح الطحاوية بتعليق العدني (ص٢٥٠).

قَالَ: (فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَهُ كَذلِكَ)»[١]، الحديث، أخرجاه في «الصحيحين» بطوله.

وحديثُ أبي سعيدٍ الخُدري أيضاً في «الصحيحين»[٢] نظيرُه.

وحديثُ جريرِ بنِ عبد الله البَجَلي، قال: «كُنَّا جُلُوساً مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، فَنَظَر إِلَى القَمَرِ لَيْلَةَ أَرْبَعَ عَشْرَةَ، فَقَالَ: (إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُم عِيَاناً، كَمَا تَرَوْنَ هَذَا، لا تُضَامُّونَ فِي رُؤْيَتِهِ)»[٣]، الحديث أخرجاه في «الصحيحين».

وحديث صهيب رضي الله عنه المتقدم، رواه مسلم وغيره.

وحديث أبي موسى عن النبي ﷺ قال: (جَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ، آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وجَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ، آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَمَا بَيْنَ القَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَرَوْا ربهم تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِلَّا رِدَاءُ الكِبْرِيَاء عَلَى وَجْهِهِ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ)[٤]، أخرجاه في «الصحيحين».

وَمِنْ حديثِ عدي بنِ حاتِم رضي الله عنه: «وَلَيَلْقَيَنَّ اللهَ أَحَدُكُم يَوْمَ يَلْقَاهُ، وَلَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ حِجَابٌ وَلَا تُرْجُمَانٌ يُتَرْجِمُ لَهُ، فَيَقُولَنَّ: أَلَمْ أَبْعَثْ إِلَيْكَ رَسُولاً فَيُبَلِّغَكَ؟ فَيَقُولُ: بَلَى يَا رب، فَيَقُولُ: أَلَمْ أُعْطِكَ مَالاً وَأُفْضِلْ عَلَيْكَ؟ فَيَقُولُ: بَلَى يَا رب»[٥]، الحديث. أخرجه البخاري في «صحيحه».

وقد رَوى أحاديثَ الرؤيةِ نحوُ ثلاثين صحابيّاً، ومَن أَحَاطَ بها معرفةً يَقْطَعُ بأن الرسولَ قالها، ولولا أَنِّي التَزَمْتُ الاخْتصَارَ، لَسُقْتُ ما في البابِ مِنَ الأحاديث.

ومَن أرادَ الوقوفَ عليها، فليُواظِبْ سَمَاعَ الأحاديثِ النبوية، فإنَّ فيها مع إثبات الرؤية أنه يُكَلِّم مَنْ شَاءَ إذا شاءَ، وأنه يأتي لفصل القضاء يومَ القيامة، وأنه فَوْقَ العالم، وأنه يُنادِيهم بصوتٍ يَسْمَعُهُ مَنْ بَعُدَ كما يَسْمَعُهُ مَن قَرُبَ، وأنه يَتَجَلَّى لِعباده، وأنه يَضحَكُ إلى غيرِ ذلك من الصِّفَاتِ التي سَماعُها على الجهمية بمنزلةِ الصواعق.

وكيف تعلَمُ أصولُ دينِ الإسلام من غير كتاب الله وسُنَّةِ رسولِه! وكيف يُفسَّرُ كِتَابُ الله بغير ما فَسَّرَهُ به رسولُه ﷺ وأصحابُ رسوله، الذين نزَلَ القرآنُ بلغتهم! وقد قال ﷺ: (مَنْ قَالَ في القُرْآنِ بِرَأْيِهِ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ)، وفي رواية: (مَن

---

(١) أخرجه البخاري (٧٤٣٧)، ومسلم (١٨٢).
(٢) أخرجه البخاري (٧٤٣٩)، ومسلم (١٨٣).
(٣) أخرجه البخاري (٥٥٤)، ومسلم (٦٣٣).
(٤) أخرجه البخاري (٤٨٧٨)، ومسلم (١٨٠).
(٥) أخرجه البخاري (١٤١٣)، ومسلم (١٠١٦).

قَالَ فِي القُرْآنِ بِغَيْرِ عِلْم فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ)[١]. وسُئِلَ أبو بكر ﷺ عن قوله تعالى: ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ۝٣١﴾ [عبس: ٣١]: ما الأَبُّ؟ فقال: أيُّ سماءٍ تُظِلُّني، وأيُّ أَرْضٍ تُقِلّني، إذا قلتُ في كتاب الله ما لا أعلم؟[٢].

وليس تَشْبِيهُ رؤيةِ الله تعالى برؤيةِ الشمسِ والقمرِ تشبيهاً لله، بل هو تشبيهُ الرؤية بالرؤية، لا تَشبيهُ المَرْئِي بالمَرْئِي، ولكن فيه دَليلٌ على عُلُوِّ الله على خَلْقِه، وإلا فَهَلْ تُعْقَلُ رؤيةٌ بلا مقابَلَةٍ! ومن قال: يُرى لا في جِهَةٍ، فليُرَاجِعْ عَقْلَه!! فإما أن يَكُونَ مكابراً لعقله، أو في عَقْلِهِ شيء، وإلا فإذا قال: يُرَى لا أمامَ الرائي، ولا خَلْفَه، ولا عن يمينه ولا عن يسارِه، ولا فَوْقَه ولا تحته، ردَّ عليه كُلُّ من سَمِعَه بفطرته السليمة.

ولهذا أَلْزَمَ المعتزلةُ مَنْ نَفى[٣] العُلُوَّ بالذاتِ بنفي الرؤية، وقالُوا: كيف تُعْقَلُ رُؤْيَةٌ بغيرِ جهةٍ؟.

وإنما لم نَرَهُ في الدنيا لعَجْزِ أبصارنا، لا لامتناعِ الرؤية، فهذه الشمسُ إذا حدَّقَ الرائي البصر في شُعاعها، ضَعُفَ عن رؤيتها، لا لامتناع في ذات المرئي، بل لعجز الرائي، فإذا كان في الدارِ الآخرة، أكملَ الله قُوى الآدميين حتى أطاقوا رؤيتَه، ولهذا لما تَجلَّى الله للجبل خرَّ ﴿مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، بأنه لا يَراك حيٌّ إلا مات، ولا يابسٌ إلا تَدَهْدَهَ، ولهذا كان البَشَرُ يَعْجِزُونَ عن رؤية المَلَكِ في صورته، إلا مَنْ أَيَّدَه الله كما أَيَّدَ نبينا، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ [الأنعام: ٨] قال غَيرُ واحدٍ من السلف: لا يُطِيقُونَ أن يروا المَلَكَ في صورته، فلو أنزلنا إليه مَلَكاً، لجعلناه في صُورة بشر، وحينئذ يَشْتَبِهُ عليهم: هل هو بشرٌ أو مَلَك؟ ومِن تمام نعمة الله علينا أن بعث فينا رسولاً مِنَّا.

وما أَلْزَمَهم المعتزلةُ هذا الإلزامَ إلا لَمَّا وافَقُوهُمْ على أنه لا دَاخِلَ العالم ولا

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٩٥١ ـ ٢٩٥٢)، وأحمد (١/ ٢٣٣، ٢٦٩، ٣٢٣، ٣٢٧).
(٢) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ١٦).
(٣) لما كانت الأشاعرة تنفي علو الذات وتثبت الرؤية بينت لهم المعتزلة أن هذا تناقض وأنه يجب كذلك نفي الرؤية، انظر: مجموع الفتاوى (١٦/ ٨٥).

خارجَه، لكن قول من أَثْبَتَ موجوداً يُرى لا في جهة، أقربُ إلى العقلِ مِنْ قولِ من أَثْبَتَ موجوداً قائماً بنفسه لا يُرَى ولا في جهة.

ويُقَال لمن قال بنفي الرؤية لانتفاءِ لازمها وهو الجِهَةُ: أَتُرِيدُ بالجهة أمراً وجودياً[١]؟ أو أمراً عدميّاً[٢]؟ فإن أراد بها أمراً وجودياً، كان التقريرُ: كُلُّ ما ليس في شيء موجود لا يُرَى، وهذه المقدمةُ ممنوعة، ولا دَليلَ على إثباتها، بل هي باطلة، فإنَّ سَطْحَ العالم يُمْكِنُ أن يُرى، وليس العالم في عالم آخر، وإن أَرَدْتَ بالجهة أمراً عدمياً، كانت المقدمة الثانية[٣] ممنوعة، فلا نُسَلِّم أنه ليس في جهةٍ بهذا الاعتبارِ.

وكيف يَتَكلَّمُ في أصول الدين مَنْ لا يَتَلَقَّاه مِن الكتاب والسنّة، وإنما يَتلقَّاه من قولِ فلان! وإذا زَعَمَ أنه يَأخُذُه مِن كتابِ الله لا يتلقى تَفْسِيرَ كتابِ الله مِن أحاديث الرسول ولا يَنْظُرُ فيها، ولا فيما قاله الصحابةُ والتابعون لهم بإحسان، المنقولِ إلينا عن الثقات النَّقَلَةِ، الذين تَخَيَّرَهُم النُّقَّادُ، فإنَّهُم لم يَنقُلُوا نَظْمَ القرآنِ وَحْدَه، بل نَقَلُوا نَظْمه ومعناه، ولا كانوا يَتعلَّمون القُرآن كما يَتَعَلَّمُ الصبيانُ، بل يَتعلَّمُونَه بمعانيه، ومَن لا يَسْلُكُ سَبِيلَهم، فإنَّما يتكلَّمُ برأيه، ومن يَتَكَلَّمُ برأيه، وما يَظُنُّه دينَ الله ولم يَتَلقَّ ذلك من الكتاب والسنّة، فهو مأثوم وإن أَصابَ، ومَن أَخَذَ مِن الكتاب والسُّنة، فهو مأجور وإن أَخطأَ، لكن إن أصاب يُضَاعَفُ أَجْرُه.

وقوله: «والرؤية حقٌّ لأهلِ الجنة». تَخْصِيصُ أهلِ الجنة بالذكر، يُفْهَمُ منه نفيُ الرؤية عن غيرهم، ولا شَكَّ في رؤية أهلِ الجنة لِربهم في الجنة، وكذلك يَرَونَه في المحشر قَبْلَ دُخولهم الجنةَ، كما ثَبَت ذلك في «الصحيحين» عن رسول الله ﷺ. ويَدُلُّ عليه قولُه تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ[٤] سَلَٰمٌ﴾ [الأحزاب: ٤٤]. واختُلِفَ في رؤية أهل المحشر على ثلاثة أقوال:

---

(١) الجهة الوجودية: هي المكان الذي يحيط به الجهات الست.

(٢) الجهة العدمية: هي المكان الخالي الذي لا وجود فيه لمخلوق ولا تحيط به الجهات الست.

(٣) وهي، على حد زعمهم بنفي الجهة العدمية، كل ما ليس في شيء معدوم لا يُرى، وهذا لا نوافقهم عليه. انظر: منهاج السنة (٢/ ٣٤٨)؛ وشرح الطحاوية بتعليق العدني (ص٢٥٦).

(٤) قال شيخ الإسلام في المجموع (٦/ ٤٨٨): «ومن أهل السنة من قال: اللقاء إذا قرن بالتحية فهو من الرؤية».

أحدُها: أنه لا يَراه إلا المؤمنون.

الثاني: يراه أهلُ الموقف؛ فمؤمنُهم وكافرُهم، ثم يَحتَجِبُ عن الكفارِ ولا يَرَونَه بعد ذلك.

الثالث: يَراه مع المؤمنين المنافقون دُونَ بقيةِ الكُفار. وكذلك الخلافُ في تكليمه لأهل الموقف.

واتَّفَقَتِ الأمةُ على أَنَّهُ لا يَراه أحد في الدنيا بعينيه، ولم يَتنازعُوا في ذلك إلا في نبينا ﷺ خاصة، منهم من نَفَى رؤيتَه بالعين، ومنهم من أَثْبَتَهَا له ﷺ، وحَكَى القاضي عياض في كتابه «الشفا» اختلافَ الصحابة ﷺ ومَنْ بَعْدَهُم في رؤيته ﷺ، وإنكار عائشة ﷺ أن يكونَ ﷺ رأى ربَّه بعينِ رأسه، وأنها قالت لمسروق حين سألها: هَلْ رَأَى مُحَمَّدٌ ربَّه؟ فَقَالت: لَقَدْ قَفَّ شَعْرِي مِمَّا قُلْتَ، ثُمَّ قَالَتْ: مَنْ حَدَّثَكَ أَنَّ مُحَمَّداً رَأَى رَبَّهُ، فَقَدْ كَذَبَ[١]. ثم قال: وقال جماعةٌ بقول عائشة ﷺ، وهو المَشْهُورُ عن ابنِ مسعود، وأبي هريرة، واخْتُلِفَ عنه، وقال بإنكار هذا وامتناعِ رؤيته في الدُّنيا جَمَاعَةٌ مِن المُحدثين والفقهاء والمتكلمين.

وعن ابنِ عباسٍ ﷺ: أنه ﷺ رأى ربَّه بِعَيْنِهِ، وروى عطاء عنه: رآه بقلبه[٢]، ثم ذَكَرَ أقوَالاً وفوائد، ثم قال:

وأما وجوبُه لنبينا ﷺ والقولُ بأنه رآه بعينه، فليس فيه قاطعٌ ولا نَصٌّ، والمعوَّلُ فيه على آيةِ النجم، والتنازعُ فيها مأثور، والاحتمالُ لهما ممكن.

وهذا القولُ الذي قالَه القاضي عياض ﷺ هو الحقُّ، فإنَّ الرؤيةَ في الدنيا ممكنة، إذ لو لم تَكُنْ ممكنة، لَما سَأَلها موسى ﷺ، لكن لم يَرِدْ نَصٌّ بأنه ﷺ رأى ربَّه بعين رأسه، بل وَرَدَ ما يَدُلُّ على نفي الرؤيةِ، وهو ما رواه مسلم في «صحيحه» عن أبي ذرٍّ ﷺ قال: سَأَلْتُ رَسُولَ الله ﷺ هَلْ رَأَيْتَ رَبَّكَ؟ فَقَالَ: «نُورٌ أَنَّى أَرَاهُ»[٣]. وفي رواية: «رَأَيْتُ نُوراً». وقد رَوى مسلمٌ أيضاً عن أبي موسى الأشعريُّ ﷺ أنه قال: قَامَ فِينَا رَسُولُ الله ﷺ بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ، فَقَالَ: (إِنَّ اللهَ لا

---

(١) أخرجه البخاري (٤٨٥٥)، ومسلم (١٧٧).

(٢) انظر: صحيح البخاري (٤٧١٦)، وصحيح مسلم (١٧٦).

(٣) أخرجه مسلم (١٧٨).

يَنَامُ، ولا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ، يَخْفِضُ القِسْطَ وَيَرْفَعُهُ، يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ، حِجَابُهُ النُّورُ ـ وفي رواية: النَّارُ ـ لو كَشَفَهُ، لأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ ما انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ)[1]. فيكون ـ والله أعلمُ ـ معنى قوله لأبي ذَرٍّ: (رَأَيْتُ نوراً): أنَّه رأى الحجابَ، ومعنى قوله: (نُورٌ أنَّى أراه): النورُ الذي هو الحجابُ يَمْنَعُ مِن رؤيته، فأنَّى أراه! أي: فكيف أراه والنورُ حِجَابٌ بيني وبينَه يمنَعُنِي مِن رؤيته! فهذا صريحٌ في نفي الرؤية، والله أعلم. وحكى عُثْمَانُ بنُ سعيدٍ الدارمي اتفاقَ الصَّحابةِ على ذلك.

ونحنُ إلى تقرير رؤيته لجبريلَ أَحْوَجُ منا إلى تقريرِ رؤيته لِربه تعالى، وإن كانت رؤيةُ الربِّ تعالى أعظمَ وأعلى، فإنَّ النُّبُوَّةَ لا يَتَوَقَّفُ ثُبُوتُها عليها ألبتة.

وقوله: «بغير إحاطةٍ ولا كيفية» هذا لكمالِ عظمته وبهائه، سُبحانه وتعالى، لا تدركه الأَبْصَارُ، ولا تُحِيطُ به، كما يُعْلَمُ ولا يُحَاطُ به علماً، قال تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]. وقال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠].

وقوله: «وتفسيرُه على ما أَراد الله وعَلِمَه» إلى أن قال: «لا نَدخُل في ذلك متأوِّلين بآرائنا، ولا متوهِّمين بأهوائنا» أي: كما فَعَلَتِ المعتزلةُ بنصوص الكتاب والسنّة في الرؤية، وذلك تَحريفٌ لكلامِ الله وكلامِ رسوله عن مواضعه، فالتأويلُ الصحيحُ هو الذي يُوافِقُ ما جاءَت به السنةُ، والفاسدُ المخالف له، فكلُّ تأويلٍ بمعنى لم يَدُلَّ عليه دَلِيلٌ مِن السياق، ولا معه قرينةٌ تَقتَضِيه، فإن هذا لا يَقصِدُه المُبَيِّنُ الهادي بكلامه؛ إذ لو قَصَدَه، لحَفَّ بالكلام قرائنَ تَدُلّ على المعنى المخالفِ لظاهره، حتى لا يُوقِعَ السامِعَ في اللَّبْسِ والخطأ، فإن الله أَنزَل كلامَه بياناً وهُدى، فإذا أَرادَ به خِلافَ ظاهره، ولم يَحُفَّ بِه قَرَائِنَ تَدُلُّ على المعنى الذي يَتَبَادَرُ غيرُه إلى فهمِ كُلِّ أحدٍ، لم يكن بياناً ولا هُدى، فالتأويلُ إخبارٌ بمراد المتكلم، لا إنشاء.

وفي هذا الموضع يَغْلَطُ كثيرٌ من الناس، فإنَّ المقصود فَهْمُ مُرَادِ المتكلم بكلامه، فإذا قيل: معنى اللفظ كذا وكذا، كان إخباراً بالذي عَناه المتكلمُ، فإن لم يَكُنِ الخَبَرُ مطابقاً، كان كَذِباً على المتكلم.

---

(١) أخرجه مسلم (١٧٩).

ويُعْرَفُ مُرَادُ المتكلم بطرقٍ متعددة:

منها: أن يُصَرِّحَ بإرادةِ ذلك المعنى.

ومنها: أن يَسْتَعْمِلَ اللفظ الذي له معنى ظاهر بالوضع، ولا يُبَيِّنُ بقرينة تَصْحَبُ الكلامَ أنه لم يُرِدْ ذلك المعنى، فكيف إذا حُفَّ بكلامه ما يَدُلُّ على أنه إنما أَرادَ حقيقَته وما وُضِعَ له، كقوله: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ [النساء: ١٦٤]. (وإنكم تَرَوْنَ ربَّكم عِياناً كما تَرَوْنَ الشَّمْسَ في الظَّهِيرَةِ لَيْسَ دُونَها سَحَابٌ). فهذا مما يقطع به السَّامِعُ فيه بمُراد المتكلم، فإذا أَخْبَرَ عن مراده بما دَلَّ عليه حقيقةُ لفظه الذي وُضِعَ له مع القرائن المؤكدة، كان صادقاً في إخباره. وأما إذا تأَوَّل الكَلَامَ بما لا يَدُلُّ عليه، ولا اقْتَرَنَ به ما يَدُلُّ عليه، فإخْبَارُه بأن هذا مرادُه كَذِبٌ عليه، وهو تأويلٌ بالرأي، وتوهُّمٌ بالهوى.

وحقيقةُ الأمرِ: أنَّ قَوْلَ القائِلِ: نَحمِلُه على كذا، أو: نَتَأَوَّلُه بكذا إنما هو من باب دَفْعِ دلالةِ اللفظ عما وُضِعَ له، فإن مُنَازِعَه لمَّا احْتَجَّ عليه به، ولم يُمكِنُه دَفْعُ وروده، دَفَعَ معناه، وقال: أَحْمِلُهُ على خلافِ ظاهره.

فإنْ قيل: بل للحمل معنى آخر لَمْ تَذْكُرُوه، وهو أنَّ اللفظ لمَّا اسْتَحَال أن يُرادَ به حقيقتُه وظاهره، ولا يُمكِن تعطيلُه، استَدْلَلْنا بوروده وعدم إرادة ظاهره على أن مَجازَه هو المرادُ، فحَمَلْنَاه عليه دَلالةً، لا ابتداء.

قيل: فهذا المعنى هو الإخْبَارُ عن المتكلِّم أنه أَرادَه، وهو إمَّا صِدْقٌ وإمَّا كَذِب كما تقدَّمَ، ومِن المُمْتَنِعِ أن يُريدَ خِلَافَ حقيقتِه وظاهِره، ولا يُبَيِّنُ للسامع المعنى الذي أرادَه، بل يَقْرُنُ بكلامه ما يُؤكِّد إرادةَ الحقيقة. ونحن لا نَمنَعُ أن المتكلم قد يُريدُ بكلامه خلافَ ظاهره إذا قصدَ التعميةَ على السامع حَيْثُ يَسُوغُ ذلك، ولكنَّ المُنْكَرَ أَن يُرِيدَ بكلامه خلافَ حقيقتِه وظاهِرِه إذا قَصَدَ البيانَ والإيضاحَ، وإفهامَ مراده! فكيف والمتكلمُ يُؤكِّدُ كلامَه بما يَنفِي المجاز، ويُكرِّره غيرَ مرة، ويَضرِبُ له الأمثال.

وقوله: «فإنَّه ما سَلِمَ في دينه إلا مَنْ سَلَّمَ لله ﷻ ولِرَسُوله ﷺ، ورَدَّ عِلْمَ ما اشتبه عليه إلى عالمه» أي: سَلَّم لنصوصِ الكِتابِ والسنة، ولم يَعْتَرِضْ عليها بالشُّكوك والشُّبَهِ والتأويلات الفاسدة، أو يقولُ: العَقْلُ يَشْهَدُ بِضِدِّ ما دَلَّ عليه

النَّقْلُ! أو العقل أَصْلُ النقل!! فإذا عارضه، قَدَّمنا العقلَ!! وهذا لا يكونُ قَطُّ، لَكِنْ إذا جَاءَ ما يُوهِمُ مثلَ ذلك، فإن كان النَّقْلُ صحيحاً، فذلك الذي يُدَّعَى أنه معقول إنما هو مجهول، ولو حَقَّقَ النظر، لظَهَرَ ذلك، وإن كان النقلُ غيرَ صحيح، فلا يَصْلُحُ للمعارضة، فلا يُتصوَّرُ أن يَتعارضَ عقلٌ صريحٌ، ونَقْلٌ صحيح أبداً، ويُعارَض كلامُ منْ يَقُولُ ذلك بنظيره، فيُقال: إذا تعارَضَ العقلُ والنقلُ، وَجَبَ تقديمُ النقل؛ لأن الجمعَ بين المدلولين جمعٌ بين النقيضين، ورفعُهما رفعُ النقيضين، وتقديمُ العقل ممتنع؛ لأن العقل قد دَلَّ على صِحَّةِ السمع، ووجوبِ قَبُول ما أَخْبَر به الرسولُ ﷺ، فلو أَبْطَلْنَا النقلَ، لكُنَّا قد أَبطلَنا دَلالَة العقل، ولو أَبْطَلْنَا دِلالَة العقل، لم يَصلُحْ أن يكون معارضاً للنقل؛ لأنَّ ما ليس بدليل لا يَصْلُحُ لمعارضة شيءٍ من الأشياء، فكان تقديمُ العقل موجباً عدَمَ تقديمه، فلا يَجوزُ تَقْدِيمُه، وهذا بَيِّنٌ واضح، فإن العقلَ هو الذي دَلَّ على صدق السَّمْعِ وصحته، وأَنَّ خَبَره مطابِقٌ لمخبره، فإِنْ جاز أن تكونَ الدِّلالَةُ باطلةً لبُطلان النقل، لَزِمَ أَلَّا يكونَ العَقْلُ دليلاً صحيحاً، وإذا لم يكن دليلاً صحيحاً، لم يَجُز أن يُتَّبَع بحالٍ، فضلاً عن أن يُقَدَّمَ، فصار تَقديمُ العقلِ على النقلِ قدحاً في العقل.

فالواجب كمالُ التسليم للرسول ﷺ والانقيادُ لأمره، وتَلَقِّي خبره بالقبول والتصديق دون أن نعارضه بخيال باطل نسميه معقولاً أو نحمله شبهة أو شكًّا أو نقدم عليه آراء الرجال وزبالة أذهانهم فيوحده بالتحكيم والتسليم والانقياد والإذعان كما وحَّد المرسل بالعبادة والخضوع والذل والإنابة والتوكل.

فهما توحيدان، لا نجاة للعبد من عذاب الله إلا بهما: توحيد المرسِل، وتوحيد متابعة الرسول، فلا يُحَاكِمُ إلى غيره، ولا يَرضى بحكم غيره، ولا يَقِفُ تنفيذ أمره، وتصديق خبره على عرضه على قول شيخه وإمامه وذوي مذهبه وطائفته ومن يُعَظِّمه، فإن أَذِنوا له، نفَّذه، وقَبِل خبره، وإلا فإن طلب السلامة، فوَّضه إليهم، وأعرض عن أمره وخبره، وإلا حرَّفه عن مواضعه وسمَّى تحريفه تأويلاً وحملاً، فقال: نؤوِّله ونحمله. فلأن يلقى العبد ربه بكل ذنب ـ ما خلا الإشراك بالله ـ خير له من أن يلقاه بهذه الحال.

بل إذا بلغه الحديث الصحيح يعد نفسه كأنه سمعه من رسول الله، فهل يسوغ أن يؤخر قبوله والعمل به حتى يعرضه على رأي فلان وكلامه ومذهبه، بل كان

الفرض المبادرة إلى امتثاله من غير التفات إلى سواه، ولا يستشكل قوله لمخالفته رأي فلان بل يستشكل الآراء لقوله، ولا يعارض نصه بقياس بل تهدر الأقيسة وتُلغى لنصوصه، ولا نحرف كلامه عن حقيقته لخيال يسميه أصحابه معقولاً، نعم هو مجهول، وعن الصواب معزول، ولا يوقف قبول قوله على موافقة فلان دون فلان كائناً من كان.

قال الإمام أحمد: حدثنا أنس بن عياض، حدثنا أبو حازم عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: لقد جلست أنا وأخي مجلساً ما أحب أن لي به حُمُر النِّعم، أقبلت أنا وأخي وإذا مشيخة من أصحاب رسول الله ﷺ جلوس عند باب من أبوابه، فكرهنا أن نفرق بينهم، فجلسنا حجرة إذ ذكروا آية من القرآن فتماروا فيها حتى ارتفعت أصواتهم، فخرج رسول الله ﷺ مغضباً قد احمرّ وجهه يرميهم بالتراب ويقول: (مهلاً يا قوم، بهذا أهلكت الأمم من قبلكم باختلافهم على أنبيائهم وضربهم الكتب بعضها ببعض، إن القرآن لم ينزل يكذب بعضه بعضاً بل يصدق بعضه بعضاً، فما عرفتم منه فاعملوا به وما جهلتم منه فردوه إلى عالمه)[1].

ولا شك أن الله قد حرم القول عليه بغير علم، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف: ٣٣] وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦]، فعلى العبد أن يجعل ما بعث الله به رسله، وأنزل به كتبه هو الحق الذي يجب اتباعه، فيصدق بأنه حق وصدق، وما سواه من كلام سائر الناس يعرضه عليه، فإن وافقه فهو حق، وإن خالفه فهو باطل، وإن لم يعلم هل خالفه أو وافقه يكون ذلك الكلام مجملاً لا يعرف مراد صاحبه، أو قد عرف مراده، لكن لم يعرف هل جاء الرسول بتصديقه أو بتكذيبه فإنه يمسك عنه ولا يتكلم إلا بعلم، والعلم ما قام عليه الدليل، والنافع منه ما جاء به الرسول، وقد يكون علم من غير الرسول لكن في الأمور الدنيوية مثل الطب والحساب والفلاحة. وأما الأمور الإلهية والمعارف الدينية فهذه العلوم فيها ما أخذ عن الرسول لا غيره.

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ١٨١، ١٨٥، ١٩٥، ١٩٦)، وابن ماجه (٨٥).

قوله: «ولا تثبت قدم الإسلام إلا على ظهر التسليم والاستسلام»، هذا باب من الاستعارة؛ إذ القدم الحسي لا تثبت إلا على ظهر شيء؛ أي لا يثبت إسلام من لم يسلم لنصوص الوحيين وينقد إليها، ولا يعترض عليها ولا يعارضها برأيه ومعقوله وقياسه، روى البخاري عن الإمام محمد بن شهاب الزهري رَحِمَهُ اللَّهُ أنه قال: من الله الرسالة، ومن الرسول البلاغ، وعلينا التسليم، وهذا كلام جامع نافع.

وما أحسن المثل المضروب للنقل مع[1] العقل، وهو أن العقل مع النقل كالعامي المقلد مع العالم المجتهد؛ بل هو دون ذلك بكثير؛ فإن العامي يمكنه أن يصير عالماً ولا يمكن العالم أن يصير نبياً رسولاً، فإذا عرف العامي المقلد عالماً فدل عليه عامياً آخر ثم اختلف المفتي والدال، فإن المستفتي يجب عليه قبول قول المفتي دون الدال، فلو قال الدال: الصواب معي دون المفتي؛ لأني أنا الأصل في علمك بأنك مفت، فإذا قدمت قوله على قولي قدحت في الأصل الذي به عرفت أنه مفت، فلزم القدح في فرعه، فيقول له المستفتي: أنت لما شهدت له بأنه مفت ودللت عليه شهدت له بوجوب تقليده دونك، فموافقتي لك في هذا العلم المعين لا تستلزم موافقتك في كل مسألة، وخطؤك فيما خالفت فيه المفتي الذي هو أعلم منك لا يستلزم خطأك في علمك بأنه مفت، هذا مع علمه أن ذلك المفتي قد يخطئ.

والعاقل يعلم أن الرسول معصوم في خبره عن الله تعالى لا يجوز عليه الخطأ، فيجب عليه التسليم له والانقياد لأمره، وقد علمنا بالاضطرار من دين الإسلام أن الرجل لو قال للرسول: هذا القرآن الذي تلقيه علينا والحكمة التي جئتنا بها قد تضمن كل منهما أشياء كثيرة تناقض ما علمناه بعقولنا، ونحن إنما علمنا صدقك بعقولنا، فلو قبلنا جميع ما تقوله ـ مع أن عقولنا تناقض ذلك ـ لكان قدحاً في ما علمنا به صدقك؛ فنحن نعتقد موجب الأقول الناقضة لما ظهر من كلامك، وكلامك نعرض عنه لا نتلقى منه هدياً ولا علماً، لم يكن مثل هذا الرجل مؤمناً بما جاء به الرسول، ولم يرض منه الرسول بهذا، بل يعلم أن هذا لو ساغ لأمكن كل أحد أن يؤمن بشيء مما جاء به الرسول؛ إذ العقول متفاوتة، والشبهات كثيرة، والشياطين لا تزال تلقي الوسواس في النفوس، فيمكن كل أحد أن يقول مثل هذا في كل ما أخبر

---

(١) انظر: الصواعق (٣/ ٨٠٨).

به الرسول وما أمر به، وقد قال تعالى: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النور: ٥٤]، وقال: ﴿فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النحل: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [إبراهيم: ٤]، ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١٥]، ﴿حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢﴾ [الزخرف: ١ ـ ٢]، ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ [يوسف: ١]، ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١]، ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩] ونظائر ذلك كثيرة في القرآن.

فأمر الإيمان بالله واليوم الآخر إما أن يكون الرسول تكلم فيه بما يدل على الحق أم لا؟! الثاني باطل، وإن كان قد تكلم بما يدل على الحق بألفاظ مجملة محتملة فما بلغ البلاغ المبين، وقد شهد له خير القرون بالبلاغ، وأشهد الله عليهم في الموقف الأعظم، فمن يدّعي أنه في أصول الدين لم يبلغ البلاغ المبين فقد افترى عليه ﷺ.



عناصر الموضوع:

(١) غرض المصنف من عقد هذا الباب:

أ ـ بيان أن القرآن والسنّة المتواترة دلّا على أن الله ﷻ يُرى يوم القيامة بالأبصار عياناً كما يُرى القمر ليلة البدر صحواً، وكما تُرى الشمس في الظهيرة. وعلى هذا مضى الصحابة والتابعون لهم بإحسان وأئمة الإسلام وأهل الحديث.

ب ـ الرد على المنكرين لرؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة، من المعتزلة ومن تبعهم من الخوارج والإمامية[١].

ج ـ بيان أن الأشعرية والماتريدية يتظاهرون بإثبات رؤية الله ولكنهم اشترطوا شروطاً جعلوها من المستحيلات، لذلك قال أذكياؤهم: لا خلاف بيننا وبين المعتزلة في الرؤية العلمية لا البصرية[٢].

(٢) مناسبة هذا الباب لما سبق:

بعد أن بيّن المصنف فيما سبق أن من الإيمان: الإيمان بتوحيد الله والإيمان بأن محمداً ﷺ رسول من عند الله، ناسب أن يبين أن من الإيمان التصديق بما جاء في القرآن والسنّة المتواترة بأن المؤمنين يرونه تعالى يوم القيامة عياناً بأبصارهم[٣].

---

(١) شرح الأصول الخمسة (ص٢٣٢)، والمغني في أبواب العدل والتوحيد (٤/ ١٣٩).

(٢) التوحيد للماتريدي (ص٥٨)، والعقائد النسفية (ص٧٣)، وإشارات المرام (ص٢٠٢).

(٣) انظر: مجموع الفتاوى (٣/ ١٤٤).

٣ معاني الكلمات:

الكلمة	المعنى
التأويل	التأويل مصدر أوّل من باب التفعيل؛ لغة: بمعنى الرجوع. واصطلاحاً له أربعة معانٍ، ثلاثة منها صحيحة: الأول: العمل بالنص، أي: إتيان المأمور به واجتناب النواهي، هذا إذا كان النص إنشاءً: أمراً ونهياً (نحو يتأول القرآن). والثاني: وقوع الخبر كما هو في الواقع ماضياً كان أو حالاً، أو مستقبلاً. نحو: ﴿هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ﴾ [يوسف: ١٠٠] أو ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُۥ﴾ [الأعراف: ٥٣]. والثالث: التفسير والإيضاح والشرح للنص نحو قول السلف: تأويل قوله تعالى: كذا أي تفسيره كذا. وأما المعنى الباطل: فهو: صرف الكلام عن ظاهره المتبادر إلى الذهن إلى معنى آخر غير ظاهر.
المحال	ما يمتنع وجوده، كاجتماع الحركة والسكون في جزء واحد(١).
اللغوب	التعب.
النقيضان	أمران لا يجتمعان ولا يرتفعان.
الاستعارة	ادعاء معنى الحقيقة في الشيء للمبالغة في التشبيه مع طرح المشبه.
الذوق عند الصوفية	عبارة عن نور عرفاني يقذفه الحق بتجلية في قلوب أوليائه به بين الحق والباطل من غير أن ينقلوا ذلك من كتاب أو غيره(٢).
الكشف عند الصوفية	الاطلاع على ما وراء الحجاب من المعاني الغيبية والأمور الحقيقية وجوداً وشهوداً(٣).

٤ معنى قول الطحاوي:

«والرؤية حق لأهل الجنة، بغير إحاطة ولا كيفية، كما نطق به كتاب ربنا: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: ٢٢ ـ ٢٣]. وتفسيره على ما أراد الله تعالى وعلمه، وكل ما جاء في ذلك من الحديث الصحيح عن الرسول ﷺ فهو كما قال، ومعناه على ما أراد، لا ندخل في ذلك متأولين بآرائنا، ولا متوهمين بأهوائنا، فإنه ما سلم في دينه إلا من سلم لله ﷻ ولرسوله ﷺ، ورد علم ما اشتبه عليه إلى عالمه».

(١) التعريفات (ص٢٠٥).
(٢) التعريفات (ص١٧٧).
(٣) التعريفات (ص٢٦٥).

رؤية المؤمنين لربهم ﷻ في الآخرة ثابتة بالكتاب والسنّة وإجماع أهل السنّة من السلف والخلف، وهذه الرؤية تكون عياناً بأبصارهم كما يرون القمر ليلة البدر، وكما يرون الشمس صحواً ليس دونها سحاب، يرونه بغير إحاطة ولا كيفية؛ لأن هذا كسائر صفات الله تعالى لا نعرف كيفيتها، فنحن نؤمن بها ونعرف معناها ونثبتها ولكن الكيفية مجهولة.

(٥) مسألة الرؤية من أشرف مسائل أصول الدين:

الرؤية من أشرف مسائل أصول الدين وأجلها، وهي الغاية التي شمَّر إليها المشمِّرون وتنافس فيها المتنافسون، وحُرمها الذين عن ربهم محجوبون، وعن بابه مطرودون.

(٦) عرض مذهب أهل السنّة في الرؤية:

اتفق أهل السنّة والجماعة[1] على أن المؤمنين يرون ربهم بأبصارهم في المحشر، وكذا في الجنة من غير إحاطة ويتنعمون برؤيته كما جاءت الأحاديث والآثار عن النبي ﷺ والصحابة بإثبات الرؤية، وقد أجمع على الرؤية الصحابة والتابعون والأئمة المهتدون من أهل الفقه والحديث ممن لهم قدم صدق ورسوخ في العلم. ونفاها أهل الضلال من الجهمية والمعتزلة والروافض ونحوهم. وقد ذكر الإجماع على الرؤية الدارمي في الرد على الجهمية (ص١٢٢ ـ ١٢٣) والأشعري في الإبانة (ص٢٦) والنووي في شرحه على صحيح مسلم (٣/ ١٤).

(٧) المخالفون لأهل السنّة في مسألة الرؤية:

نفى الرؤية الجهمية والمعتزلة ومن تبعهم من الخوارج والروافض ولم يذكر الشارح الأشاعرة لأنهم يظهرون إثبات الرؤية لكن لا يثبتونها على الحقيقة فهم تارة يفسرونها بزيادة الانكشاف ويعنون بها رؤية قلبية وتارة يقولون: نراه من جميع الجهات.

(٨) أدلة الرؤية:

دل على إثبات رؤية المؤمنين ربهم في الآخرة بأبشارهم القرآن والسنّة والإجماع قال ابن القيم: «دل القرآن والسنة المتواترة وإجماع الصحابة وأئمة الإسلام وأهل الحديث... على أن الله سبحانه يُرى يوم القيامة بالأبصار عياناً

---

(١) عقيدة السلف أصحاب الحديث (ص٦٥).

كما يرى القمر ليلة البدر صحواً وكما ترى الشمس في الظهيرة»[١].

فمن الآيات:

١ ـ قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣] فتدل على إثبات الرؤية من وجوه:

أ ـ أنه تعالى أضاف النظر إلى الوجه الذي هو محله.

ب ـ إن النظر تعدى بـ«إلى» ومعناه النظر بالأبصار.

٢ ـ قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾ [المطففين: ١٥] ووجه الدلالة: ما قاله الشافعي أنه حجب عن هؤلاء في السخط كان هذا دليلاً على أن عباده يرونه في الرضا.

٣ ـ وقوله تعالى: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣٥] قال الطبري: هو النظر إلى وجه الله.

٤ ـ قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦] قال النبي ﷺ في تفسير الآية: إن الزيادة هي النظر إلى وجه الله[٢] وأحاديث الرؤية متواترة رواه أكثر من ثلاثين صاحبياً من ذلك قول النبي ﷺ: «إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر»[٣] أما دليل الإجماع فقد قال الأشعري «وأجمعوا على أن المؤمنين يرون الله ﷻ بأعين وجوههم على ما أخبر به تعالى»[٤].

أما الدليل العقلي فقد قال ابن القيم: «ثبت بالعقل إمكان رؤيته تعالى، وبالشرع وقوعها في الآخرة، فاتفق الشرع والعقل على إمكان الرؤية ووقوعها؛ فإن الرؤية أمر وجودي لا يتعلق إلا بموجود، وما كان أكمل وجوداً كان أحق أن يرى، فالباري سبحانه أحق أن يرى من كل ما سواه؛ لأن وجوده أكمل من كل موجود سواه»[٥].

٩ شبه المعتزلة حول الرؤية:

وأما استدلال المعتزلة بقوله تعالى: ﴿لَن تَرَانِي﴾ [الأعراف: ١٤٣]، وبقوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ [الأنعام ١٠٣]، فالآيتان دليل عليهم؛ أما الآية الأولى فالاستدلال منها على ثبوت رؤيته من وجوه:

---

(١) حادي الأرواح (ص٢٤١).

(٢) أخرجه مسلم (١٨١).

(٣) أخرجه البخاري (٥٧٣، ٨٠٦)؛ ومسلم (١٨٢ ـ ٦٣٣).

(٤) رسالة أهل الثغر (ص٧٦).

(٥) مختصر الصواعق (ص٢٨٠).

أحدها: أنه لا يظن بكليم الله ورسوله الكريم وأعلم الناس بربه في وقته أن يسأل ما لا يجوز عليه، بل هو عندهم من أعظم المحال.

الثاني: أن الله لم ينكر عليه سؤاله، ولما سأل نوح ربه نجاة ابنه أنكر سؤاله، وقال: ﴿إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦].

الثالث: أنه تعالى قال: ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾ ولم يقل: إني لا أرى أو لا تجوز رؤيتي أو لست بمرئي، والفرق بين الجوابين ظاهر، ألا ترى أن من كان في كمه حجر فظنه رجل طعاماً، فقال: أطعمنيه؟ فالجواب الصحيح أنه لا يؤكل، أما إذا كان طعاماً فيصحُّ أن يقال: إنك لن تأكله، وهذا يدل على أنه سبحانه مرئي، ولكن موسى لا تحتمل قواه رؤيته في هذه الدار لضعف قوى البشر فيها عن رؤيته تعالى، يوضحه الوجه الآتي:

الرابع: وهو قوله: ﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى﴾ [الأعراف: ١٤٣]، فأعلمه أن الجبل مع قوته وصلابته لا يثبت للتجلي في هذه الدار، فكيف بالبشر الذي خلق من ضعف.

الخامس: أن الله سبحانه قادر على أن يجعل الجبل مستقراً، وذلك ممكن، وقد علق به الرؤية ولو كان محالاً لكان نظير أن يقول: إن استقر الجبل فسوف آكل وأشرب وأنام والكل عندهم سواء.

السادس: قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ [الأعراف: ١٤٣] فإذا جاز أن يتجلى للجبل الذي هو جماد لا ثواب له ولا عقاب، فكيف يمتنع أن يتجلى لرسوله وأوليائه في دار كرامته؟ ولكن الله أعلم موسى أن الجبل إذا لم يثبت لرؤيته في هذه الدار فالبشر أضعف.

السابع: أن الله كلم موسى وناداه وناجاه، ومن جاز عليه التكلم والتكليم وأن يسمع مخاطبه كلامه بغير واسطة فرؤيته أولى بالجواز، ولهذا لا يتم إنكار رؤيته إلا بإنكار كلامه وقد جمعوا بينهما.

وأما دعواهم تأييد النفي بـ«لن» وأن ذلك يدل على نفي الرؤية في الآخرة ففاسد، فإنها لو قيدت بالتأبيد لا يدل على دوام النفي في الآخرة، فكيف إذا أطلقت؟ قال تعالى: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾ [البقرة: ٩٥] مع قوله: ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف: ٧٧] ولأنها لو كانت للتأبيد المطلق لما جاز تحديد الفعل بعدها، وقد جاء ذلك. قال تعالى: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ﴾ [يوسف: ٨٠] فثبت أن «لن» لا تقتضي المنفي المؤبد.

قال الشيخ جمال الدين بن مالك رحمه الله تعالى:

ومن رأى النفي بلن مؤبداً فقوله اردد وسواه فاعضدا

وأما الآية الثانية فالاستدلال بها على الرؤية من وجه حسن لطيف، وهو أن الله تعالى إنما ذكرها في سياق التمدح، ومعلوم أن المدح إنما يكون بالصفات الثبوتية، وأما العدم المحض فليس بكمال، فلا يمدح به وإنما يمدح الرب تعالى بالنفي إذا تضمن أمراً وجودياً كمدحه بنفي السِّنَة والنوم المتضمن كمال القيومية، ونفي الموت المتضمن كمال الحياة، ونفي اللغوب والإعياء المتضمن كمال القدرة، ونفي الشريك والصاحبة والولد والظهير المتضمن كمال الربوبية والألوهية وقهره، ونفي الأكل والشرب المتضمن كمال صمديته وغناه، ونفي الشفاعة عنده إلا بإذنه المتضمن كمال توحده وغناه عن خلقه، ونفي الظلم المتضمن كمال عدله وعلمه وغناه، ونفي النسيان وعزوب شيء عن علمه المتضمن كمال علمه وإحاطته، ونفي المثل المتضمن لكمال ذاته وصفاته.

ولهذا لم يمتدح بعدم محض لم يتضمن أمراً ثبوتياً؛ فإن المعدوم يشارك الموصوف في ذلك العدم ولا يوصف الكامل بأمر يشترك هو والمعدوم فيه؛ فإن المعنى أنه يرى ولا يُدرك ولا يُحاط به، فقوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] يدل على كمال عظمته، وأنه أكبر من كل شيء، وأنه لكمال عظمته لا يدرك بحيث يحاط به، فإن الإدراك هو الإحاطة بالشيء، وهو قدر زائد على الرؤية كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ﴾ [الشعراء: ٦١ ـ ٦٢] فلم ينف موسى الرؤية وإنما نفى الإدراك، فالرؤية والإدراك كل منهما يوجد مع الآخر وبدونه، فالرب تعالى يرى ولا يدرك، كما يعلم ولا يُحاط به علماً، وهذا هو الذي فهمه الصحابة والأئمة من الآية كما ذكرت أقوالهم في تفسير الآية، بل هذه الشمس المخلوقة لا يتمكن رائيها من إدراكها على ما هي عليه.

(١٠) معنى قوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]

أي لا تحيط به الأبصار لعظمته وجلاله وكماله، وإن كانت تراه في الآخرة وتفرح بالنظر إلى وجهه الكريم فنفي الإدراك لا ينفي الرؤية بل يثبتها بالمفهوم، فإنه إذا نفى الإدراك الذي هو أخص أوصاف الرؤية، دل على أن الرؤية ثابتة. فإنه لو أراد نفي الرؤية لقال: لا تراه الأبصار هذا الذي عليه أهل السنّة وقال

بعضهم: إن الإدراك بمعنى أن الله لا يُرى في الدنيا دون الآخرة وأما أهل البدع فإن معنى الإدراك عندهم هو نفي الرؤية مطلقاً في الدنيا والآخرة.

١١ مذهب الأشعرية والماتريدية في الرؤية:

أما الماتريدية والأشعرية[١] فقد خالفوا في مسألة الرؤية؛ فقالوا: إن الله يُرى لا في جهة لا أمام الرائي ولا خلفه، ولا عن يمينه ولا عن يساره، ولا فوقه ولا تحته، فهم وإن تظاهروا بإثبات الرؤية إلا أنهم اشترطوا شروطاً وقيوداً سلبية في مسألة الرؤية حتى جعلوها من قبيل المستحيلات، وأتوا بعقيدة لا يقرّها عقل ولا نقل ولا لغة ولا عرف ولا شرع، وخالفوا إجماع الفريقين من أهل السنّة وأهل البدعة، فإن النزاع بين أهل السنّة وأهل البدعة كان في مسألة الرؤية.

فكان أهل السنّة يعتقدون أن المؤمنين يرون ربهم في المحشر وفي الجنة بعيون أبصارهم، والله تعالى يكون من فوقهم.

وأما الجهمية من المعتزلة[٢] وغيرهم فكانوا يعتقدون أن رؤية المؤمنين بعيون أبصارهم محال؛ لأن الرؤية تقتضي الجهة والمسافة التي لا تكون بعيدة جداً، ولا قريبة جداً.

ولما كانت هذه الأمور مستحيلة في حق الله تعالى ـ عندهم ـ أنكروا الرؤية بالأبصار، وقالوا: المراد في الرؤية ليس الرؤية البصرية، بل الرؤية القلبية.

فكانت الأمة منقسمة قسمين: أهل السنّة وأهل البدعة، ولكن لما جاء دور الماتريدية والأشعرية خالفوا أهل السنّة وأهل البدعة جميعاً، وأحدثوا قولاً ثالثاً بين القولين، فقالوا: إن المؤمنين سيرون ربهم بعيون أبصارهم[٣]، ولكن بدون جهة ولا مسافة ولا مقابلة ولا مدابرة، ولا فوق ولا تحت، ولا كذا ولا كذا، فحاربهم أهل السنّة والمعتزلة جميعاً، وفيما يلي عرض لبعض أقوالهم في هذا الباب:

---

(١) انظر: الاقتصاد للغزالي (ص٤٢)، والمواقف (ص٢٩٩ ـ ٣٠٠)، والمحصل للرازي (ص٢٧٢)، وكتاب التوحيد للماتريدي (ص٨٥)، وأصول الدين للبزدوي (ص٧٧).

(٢) انظر: الملل والنحل (١/ ٨٨)، وفتح الباري (١٣/ ٤٢٦)، ومختصر الصواعق (ص١٤٣، ١٥٧).

(٣) على أن بعضهم يكاد يلغي اعتبار العين، ويصرح بأن هذه الرؤية بمعنى العلم، كما ذهب إليه المعتزلة. انظر: شرح المقاصد (٤/ ١٩٧)، والاقتصاد في الاعتقاد (ص٩٧)، والمطالب العالية من العلم الإلهي (٢/ ٥٥)، وغاية المرام للآمدي (ص١٦٦).

١ ـ قال أبو منصور الماتريدي (٣٣٣هـ): «فإن قيل كيف يرى[١]؟ قيل: بلا كيف؛ إذ الكيفية تكون لذي صورة؛ بل يرى بلا وصف قيام وقعود واتكاء وتعلق واتصال وانفصال ومقابلة ومدابرة، وقصير وطويل، ونور وظلمة، وساكن ومتحرك، ومماس ومباين، وخارج وداخل، ولا معنى يأخذه الوهم أو يقدره العقل لتعاليه عن ذلك».

٢ ـ وقال أبو اليسر البزدوي (٤٩٣هـ): «إنه يرى في الآخرة بلا محاذاة ولا كيفية ولا حدّ»[٢].

قلت: لو قال بلا كيف لنطق بالحق.

٣ ـ قال الصابوني الحنفي (٥٨٠هـ): «فكذلك نراه، ولا يكون لجهة منا»[٣].

قلت: مراده بالجهة الجهات الست: الفوق والتحت، واليمين والشمال والخلف والأمام.

فلما قال: نراه ولكن بدون جهة أحال الرؤية، وعطل وخالف السلف؛ لأن عقيدة السلف أن الله تعالى فوقهم، وأما رؤية شيء دون جهة فهذا لا يقوله عاقل، فإنه أمر مستحيل، لا يقرّه عقل ولا نقل.

٤ ـ وقال عمر النسفي الحنفي (٥٣٧هـ) وتبعه التفتازاني الحنفي (٧٩٢هـ) واللفظ للأول: «فيُرى لا في مكان ولا على جهة من مقابلة واتصال شعاع أو ثبوت مسافة بين الرائي وبين الله تعالى»[٤].

٥ ـ وقال التفتازاني: «إن المؤمنين في الجنة يرونه منزّهاً عن المقابلة والجهة والمكان وخالفهم في ذلك جميع الفرق».

٦ ـ وقال البياضي: «ولا يكون بينه وبين خلقه مسافة ولا قرب ولا بعد ولا حجاب ولا مقابلة...، ولا جهة»[٥]، ووافقتهم الأشعرية حذو القذة بالقذة[٦].

١٢ الرد على مذهب الأشعرية في الرؤية:

• **الرد الأول:**

يقول الإمام ابن القيم:

---

(١) كتاب التوحيد للماتريدي (ص٨٥). (٢) أصول الدين للبزدوي (ص٧٧).
(٣) البداية من الكفاية (ص٨٠)، وهو غير الإمام أبي عثمان الصابوني.
(٤) شرح العقيدة النسفية وشرحها للتفتازاني (ص٧٣ ـ ٧٤).
(٥) شرح المقاصد (٤/ ١٨١). (٦) إشارات المرام (ص٣٠٢).

فسل المعطل هل نراه تحتنا ... أم عن شمائلنا وعن أيمان
أم خلفنا وأمامنا سبحانه ... أم هل نرى من فوقنا ببيان
يا قوم ما في الأمر شيء غير ذا ... أو أن رؤيته بلا إمكان
إذ لا رؤية لا في مقابلة من الرائي ... محال ليس في الإمكان
ومن ادعى شيئاً سوى ذا كان دعواه ... مكابرة على الأذهان
ولذاك قال محقق منكم لأهل ... الاعتزال مقالة بأمان
ما بيننا خلف وبينكم لدى التحقيق ... في المعنى فيا إخواني
شدوا بأجمعنا لنحمل حملة ... نذر المجسم في أذل هوان
إذ قال: إن إلهنا حقاً يرى ... يوم المعاد كما يرى القمران
ويكنن فوق العرش جل جلاله ... فلذاك نحن وحزبهم خصمان
لكننا سلم وأنتم إذ تساعدنا ... على نفي العلو لربنا الرحمن
لا تنصبوا معنا الخلاف فما له ... طعم فنحن وأنتم سلمان
هذا الذي والله مودع كتبهم ... فانظر ترى يا من له عينان[(١)]

• الرد الثاني:

قولهم في الرؤية مخالف لظواهر الكتاب والسنّة، فكل النصوص تدل على الآتي:

١ - إثبات رؤية المؤمنين لربهم بعيون رؤوسهم.

٢ - إثبات العلو لله على خلقه وفوقيته على عباده.

٣ - إن رؤية المؤمنين لربهم إنما تكون في جهة، وفي هذا القول يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «إن كون الرؤية مستلزمة لأن يكون الله في جهة من الرائي أمر ثبت بالنصوص المتواترة، ففي «الصحيحين» وغيرهما الحديث المشهور عن الزهري قال: أنا سعيد بن المسيب وعطاء بن يزيد الليثي أن أبا هريرة أخبرهما أن الناس قالوا: يا رسول الله! هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال رسول الله ﷺ: (**هل تضامون في رؤية الشمس ليس دونها سحاب؟**)، قالوا: لا، قال: (**فهل تمارون في رؤية القمر ليس دونه سحاب؟**)، قالوا: لا يا رسول الله، قال: (**فإنكم ترونه كذلك**) وذكر الحديث بطوله، قال أبو سعيد: أشهد لحفظته من رسول الله ﷺ، وهكذا

---

(١) نونية ابن القيم (ص٦٤ - ٦٥).

هو في «الصحيحين» من حديث زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد، قال: قلنا: يا رسول الله! هل نرى ربنا؟ قال: **(هل تضارون في رؤية الشمس إذا كان صحواً؟)**، قلنا: لا يا رسول الله، قال: **(فهل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر إذا كان صحواً؟)**، قلنا: لا، قال: **(فإنكم لا تضارون في رؤية ربكما إلا كما تضارون في رؤيتهما)** وساق الحديث بطوله.

وفي «صحيح مسلم» من حديث سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة قال: قال ناس: يا رسول الله أنرى ربنا يوم القيامة؟ قال: **(فهل تضارون في رؤية الشمس في الظهيرة ليست في سحاب؟)**، قالوا: لا، قال: **(فهل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر ليس في سحاب؟)**، قالوا: لا، قال: **(والذي نفسي بيده لا تضارون في رؤيته إلا كما تضارون في رؤية أحدهما)**. وذكر الحديث بطوله.

فهذا فيه ـ مع إخباره أنهم يرونه ـ إخبارهم أهم يرونه في جهة منهم من وجوه:

أحدها: أن الرؤية في لغتهم لا تعرف إلا رؤية ما يكون بجهة منهم، فأما رؤية ما ليس في الجهة فهذا لم يكونوا يتصورونه فضلاً عن أن يكون اللفظ يدل عليه، كما قد اعترف هو بذلك فيما تقدم، وأيضاً فإنك لست تجد أحداً من الناس يتصور وجود موجود من غير جهة، فضلاً عن أن يتصور أنه يرى، فضلاً عن أن يكون اسم الرؤية المشهور في اللغات كلها يدل على هذه الرؤية الخاصة.

الوجه الثاني: أنه قال: **(فإنكم ترون ربكم كما ترون الشمس صحواً، وكما ترون القمر صحواً، فشبه لهم برؤيته برؤية الشمس والقمر، وليس ذلك تشبيهاً للمرئي بالمرئي)**.

ومن المعلوم أنه إذا كانت رؤيته مثل رؤية الشمس والقمر وجب أن يرى في جهة من الرائي، كما أن رؤية الشمس والقمر كذلك، فإنه لو لم يكن كذلك لأخبرهم برؤية مطلقة نتأولها على ما يتأول من يقول بالرؤية في غير جهة، أما بعد أن يستفسرهم عن رؤية الشمس صحواً، ورؤية البدر صحواً، ويقول: إنكم ترون ربكم كذلك، فهذا لا يمكن أن يتأول على الرؤية التي يزعمونها، فإن هذا اللفظ لا يحتملها لا حقيقة ولا مجازاً.

الوجه الثالث: أنه قال: **(هل تضارون في الشمس ليس دونها سحاب؟ وهل تضارون في القمر ليس دونه سحاب؟)**، فشبه رؤيته برؤية أظهر المرئيات إذ لم يكن

ثَمَّ حجاب منفصل عن الرائي يحول بينه وبين العباد؛ إذ الحجاب لا يكون إلا لجسم، ولما يكون في جهة، وهم يقولون: الحجاب عدم خلق الإدراك في العين، والنبي ﷺ مثل رؤيته برؤية هذين النورين العظيمين، إذا لم يكن دونهما حجاب.

الوجه الرابع: أنه أخبر أنهم لا يضارون في رؤيته، وفي حديث آخر: **(لا يضامون)** ونفي الضير والضيم إنما يكون لإمكان لحوقه للرائي؛ ومعلوم أنهم إنما يسمونه رؤية، وهو رؤية ما ليس بجهة من الرائي، لا فوقه ولا شيء من جهاته لا يتصور فيها ضير ولا ضيم شيء ينفي ذلك، بخلاف رؤية ما يواجه الرائي، ويكون فوقه فإنه قد يلحقه فيه ضيم وضير، إما بالازدحام عليه، أو كلال البصر لخفائه كالهلال، وإما لجلائه كالشمس والقمر[١].

- **الرد الثالث:**

إن قولهم مخالف لما عليه السلف، وأئمة السنّة من الأئمة الأربعة وغيرهم؛ بل مخالف لما عليه عقلاء بني آدم من مثبتة الصفات ونفاتها.

١ ـ قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «إن كون الله يرى بجهة من الرائي ثبت بإجماع السلف والأئمة، مثل ما روى اللالكائي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: «إن من تمام النعمة دخول الجنة والنظر إلى الله في جنته». وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال في مسجد الكوفة، وبدأ باليمين قبل الحديث فقال: «**والله ما منكم من إنسان إلا إن ربه سيخلو به يوم القيامة، كما يخلو أحدكم بالقمر ليلة البدر، قال: فيقول: ما غرك بي يابن آدم؟ ثلاث مرات، ماذا أجبت المرسلين؟ ثلاثاً، كيف عملت فيما علمت؟**»».

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أنه كان يعلم الناس سنتهم ودينهم، قال: فشخصت أبصارهم أو قال: حرّفوها عنه، قال: فما حرّف أبصاركم عني؟ قالوا: الهلال أيها الأمير، قال: «ذاك أشخص أبصاركم عني، قال: فكيف إذا رأيتم الله جهرة».

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: «**يحبس الناس يوم القيامة في صعيد واحد، فينادى: أيها المتقون، فيقوموا في كنف من الرحمن، لا يحتجب منهم ولا يستتر، قلت: من المتقون؟ قال: قوم اتقوا الشرك وعبادة الأوثان، وأخلصوا لله العبادة فيمرون إلى الجنة**»[٢].

---

(١) بيان تلبيس الجهمية (٢/ ٤٠٩ ـ ٤١١).

(٢) نقض التأسيس (٢/ ٤١٥).

٢ ـ وقال شيخ الإسلام: «والجواب الثاني: أن الذين قالوا: (إن الله يرى بلا مقابلة) هم الذين قالوا: (إن الله ليس فوق العالم)، فلما كانوا مثبتين للرؤية نافين للعلو احتاجوا إلى الجمع بين هاتين المسألتين..، قالوا.. يمتنع أن يكون في جهة؛ لأنه لا يكون في الجهة إلا جسم، فيمتنع أن يكون مقابلاً للرائي، لأن المقابلة لا تكون إلا بين جسمين، ولا ريب أن جمهور العقلاء من مثبتي الرؤية ونفاتها يقولون: إن هذا القول معلوم الفساد بالضرورة؛ ولهذا يذكر الرازي أن جميع فرق الأمة تخالفهم في ذلك»[1].

٣ ـ وقال شيخ الإسلام مبطلاً قول الماتريدية والأشعرية الذين أقروا بالرؤية واعترفوا بها، ولكنهم نفوا العلو لله تعالى، ومبيناً أدنى قول السلف في الجمع بين الرؤية والعلو حق لا غير، والصواب ما هو عليه السلف وأئمة السنّة، وهو قول الأربعة وجمهور كبار أصحابهم، والنصوص المأثورة في ذلك عن الأئمة المذكورين في غير هذا الموضع، والبيان التام هو ما بيَّنه الرسول ﷺ فإنه أعلم الخلق بالحق، وأنصح الخلق للخلق، وأفصح الخلق في بيان الحق، فما بيّنه عن أسمائه وصفاته وعلوّه ورؤيته هو الغاية في هذا الباب، والله الموفق للصواب»[2].

٤ ـ وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ في إبطال قول الرازي في الجمع بين إثبات الرؤية وبين نفي العلو لله تعالى، وتحقيق أن قول هؤلاء الأشعرية في الرؤية مخالف لقول أهل السنّة، وقول أهل البدع، ومخالف للعقل والنقل، وفاسد بالبداهة: «يقرر ذلك الوجه الثالث عشر: وهو أنك وسائر الصفاتية تثبتون رؤية الرب بالأبصار كما تواترت بذلك النصوص عن النبي ﷺ، ثم إنك وطائفة معك تقولون: إنه يُرى لا في جهة، ولا مقابلاً للرائي ولا فوقه ولا تحته، ولا في شيء من جهاته الست، وجمهور عقلاء بني آدم من مثبتة الصفات ونفاتها يقولون: إن فساد هذا معلوم بالبديهة والحس»[3].

● **الرد الرابع:**

يقال لمن أثبت الرؤية بلا جهة: ما مرادك بالجهة؟ فإن أراد بالجهة أن الله تعالى ليس في جهة من الجهات، ولا فوق ولا تحت، ولا يمين ولا شمال، ولا

---

(١) منهاج السنة (٣/ ٣٤٢ ـ ٣٤٣).
(٢) منهاج السنة (٣/ ٣٥١ ـ ٣٥٢).
(٣) بيان تلبيس الجهمية (٢/ ٧٧).

خلف ولا أمام فهذا باطل؛ لأن هذه صفة معدوم، بل صفة ممتنع، بل نفي لوجوده ﷻ، وإن أراد أنه ليس محصور في شيء موجوداً فهو حق، فالله يراه المؤمنون بالأبصار من غير أن يحيطوا به.

● **الرد الخامس:**

أن من زعم أن الله يرى بلا جهة فقد فسّر الرؤية على خلاف ظاهر النصوص:

أ ـ قال ابن حزم في الرد على من فسّر الرؤية على خلاف ظاهرها: «... والثاني تواتر الأخبار عن النبي ﷺ ببيان أن المراد بالنظر هو الرؤية لا ما تأوله المتأولون»(١).

ب ـ قال الإمام الدارمي: «فيقال لك: أيها المريسي، أقررت بالحديث وثبته عن رسول الله ﷺ فأخذ الحديث بحلقك، لما أن رسول الله ﷺ قد قارن التفسير بالحديث، فأوضحه ولخّصه بجمعها جميعاً في إسناد واحد، حتى لم يدع لمتأول فيه مقالاً، وأخبر أنه رؤية العيان نصاً كما توهم هؤلاء الذين تسميهم بجهلك مشبهة، فالتفسير فيه مأثور مع الحديث وأنت تفسره بخلاف ما فسّره الرسول من غير أثر تأثره عن من هو أعلم منك، فأي شقي من الأشقياء، وأي غوي من الأغوياء يترك تفسير رسول الله ﷺ المقرون بحديثه المعقول عند العلماء الذي يصدقه ناطق الكتاب؟ ثم يقبل تفسيرك المحال الذي لا تأثره إلا عمن هو أجهل منك وأضل؟ أليس قد أقررت أن النبي ﷺ قال: (**ترون ربكم لا تضامون فيه، كما لا تضامون في رؤية الشمس والقمر**)، وإنما قال النبي ﷺ: لا تشكون يوم القيامة في رؤيته، وهذا تفسير مع ما فيه من معاندة الرسول ﷺ فهو محال خارج عن المعقول؛ لأن الشك في ربوبية الله زائل عن المؤمن والكافر يوم القيامة، فكل مؤمن وكافر يومئذ يعلم أنه ربهم، لا يعتريهم في ذلك شكٌّ، فيقبل الله ذلك من المؤمنين ولا يقبله من الكافرين، ولا يعذرهم بمعرفتهم ويقينهم به في ذلك اليوم، فما فضل المؤمن والكافر يوم القيامة عندك في معرفة الرب؟ إذ مؤمنهم وكافرهم لا يعتريه في ربوبيته شك، أو ما علمت أيها المريسي أنه من مات ولم يعرف قبل موته أن الله ربه في حياته حتى يعرفه بعد مماته، فإنه يموت كافراً، ومصيره إلى النار أبداً، ولن ينفعه الإيمان بالله يوم القيامة بما يرى من آياته إن لم يكن آمن بها من قبل.

(١) الفصل في الملل والأهواء والنحل (٣/ ٣).

فمن موضع بشرى رسول الله ﷺ للمؤمنين برؤية ربهم يوم القيامة؟ إذ كل مؤمن وكافر في الرؤية يومئذ سواء عندك؛ إذ كل لا يعتريه فيه شك ولا ريبة.

أو لم تسمع أيها المريسي قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾ [السجدة: ١٢]، فقد أخبر الله عن الكفار أنهم يومئذ موقنون، فكيف المؤمنون من أصحاب رسول الله ﷺ الذين سألوه: هل نرى ربنا؟ وقد علموا قبل أن يسألوه أن الله ربهم لا يعتريهم في ذلك شك ولا ريبة. أو لم تسمع أيها المريسي ما قال الله: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨] يقال في تفسيره: فكيف ينفعه يوم القيامة فيستحق به النظر إلى الله؟ فاعقل أيها المريسي ما يجلب عليك كلامك من الحجج الآخذة بحلقك[١].

والخلاصة: أن عقيدة الماتريدية والأشعرية في الرؤية فيها حق وباطل، أما الحق فهو أنهم يتظاهرون بالإيمان بالرؤية والإقرار بها، وهذا من حسناتهم، وبه فارقوا المعتزلة في هذه المسألة، وأما الباطل فهو أمران:

١ ـ إنكارهم لعلو الله تعالى على عرشه وفوقيته على عباده؛ لأنهم يقولون: إن الله لا داخل العالم ولا خارج العالم، ولا متصل بالعالم ولا منفصل عنه، ولا فوق العالم ولا تحت العالم، ولا أمام العالم ولا خلفه، ولا يمين العالم ولا شمال العالم، ولا في جهة من الجهات الست، وهذا من أعظم الفساد الذي يتضمنه قولهم، ومن أعظم الإلحاد في صفات الله تعالى.

٢ ـ جمعهم بين إثبات الرؤية وإنكار العلو لله تعالى، وإنكار المواجهة والعيان إلى غير ذلك من القيود والشروط السلبية التي جعلوا الرؤية بسببها من المحالات الممتنعات، فعقيدتهم في الرؤية هذه عقيدة لا يقرها عقل ولا شرع ولا لغة ولا عرف ولا إجماع أهل السنّة وأهل البدعة، بل هو قول ثالث بين القولين لأهل السنّة، وأهل البدعة.

ولما كان قول الماتريدية الأشعرية في إثبات الرؤية على نفي العلو لله تعالى وإنكار المواجهة أبعد عن العقل، وكان قولاً متناقضاً، حكم عليهم المعتزلة والرافضة بأن قولهم هذا عين السفسطة[٢].

---

(١) الرد على المريسي (ص٥٦ ـ ٥٧).

(٢) انظر: منهاج الكرامة لابن مطهر الحلي الرافضي (ص١٨) المطبوع في آخر منهاج السنة، ط: باكستان.

ولكن أهل الحديث وعلى رأسهم شيخ الإسلام أنصفوهم، فقالوا: قولكم أقرب إلى الإسلام؛ لأنه متضمن للحق والباطل: إثبات الرؤية وإنكار العلو، وأما قول المعتزلة فأبعد عن الإسلام؛ لأنه متضمن لإنكار الرؤية، وإنكار العلو لله تعالى.

١٣ بعض شبهات الأشعرية والماتريدية في الرؤية والرد عليها:

الشبهة الأولى: تفسيرهم للرؤية بالعلم:

لما كان قول الماتريدية والأشعرية في مسألة الرؤية أبعد عن النقل والعقل واللغة في إثبات الرؤية وإنكار العلو والمواجهة، اضطر كبارهم إلى أن فسّروا الرؤية بنوع من العلم والإدراك والانكشاف الذي لا حاجة فيه إلى المواجهة والمقابلة بين الرائي والمرئي، وأن هذه الرؤية مختلفة بالماهية عن رؤية سائر المبصرات، ولأجل ذلك جوّزوا رؤية أعمى في الصين بقة في الأندلس(١).

قلت: لا شك أن رؤية أعمى وهو في الصين بقة وهي في الأندلس ليست رؤية لغوية معروفة عند الناس لوجهين:

١ ـ أن الأعمى لا بصر له، والمطلوب رؤية بصرية بالعين.

٢ ـ أن هذه ليست رؤية بصرية بل قلبية، لبعد البقة عن ذلك الأعمى؛ لأن أحدهما في الشرق، والآخر في الغرب، فليست رؤيةٌ إلا نوعاً من العلم القلبي والإدراك القلبي، وهو أن يعلم ذلك الأعمى أن هناك بقة في الأندلس لا أن يرى ذلك الأعمى في الصين ببصره تلك البقة في الأندلس وهذا كله باعترافهم، فقد اعترفوا أن رؤية ذلك الأعمى وهو في الصين للبقة التي هي في الأندلس ليست رؤية بصرية؛ لأنه لا معنى لكون تلك الرؤية بحاسة البصر.

ولذلك اضطر بعضهم إلى أن اعترف بأن هذه الرؤية رؤية قلبية، وليست رؤية بصرية، وكان النزاع في الرؤية البصرية، والمطلوب إنما هو الرؤية البصرية دون الرؤية القلبية التي هي الانكشاف والعلم، فقال: إن أريد بالعلم بها انكشافها انكشاف المشاهدات، فهو الرؤية بعينها، وإن أريد نوع آخر فلا بد عن تصويره وأنت خبير بأن المراد الانكشاف التام بالعقل لا بالبصر والرؤية، هو الثاني لا الأول(٢).

---

(١) انظر: شرح المواقف للجرجاني (٨/١٣٩)، وشرح المقاصد (٤/١٩٧)، وحاشية الكستلي على شرح العقائد (ص١٠٨)، وحاشية أحمد الجندي على شرح العقائد النسفية (ص١٤١)، وحاشية البهشتي على شرح العقائد النسفية (ص٧٣).

(٢) انظر: حاشية الكستلي على شرح العقائد (ص٧٣).

والنبي ﷺ فسّر كلامه فقد قال ﷺ: **(إنكم سترون ربكم عياناً)**.

قلت: لما كان قول الماتريدية والأشعرية في تفسير الرؤية تفسيراً باطلاً لا يقرّه لغة ولا شرع ولا اصطلاح، وكان قولهم مخالفاً لقول أهل السنّة من أهل الحديث وقول أهل البدعة من المعتزلة لأنهم:

أولاً: جمعوا بين إثبات الرؤية وإنكار العلو لله تعالى، وإنكار المواجهة والمقابلة.

ثانياً: فسّروا الرؤية بنوع من العلم والانكشاف.

ثالثاً: جوّزوا رؤية الأعمى الذي هو في الصين للبقة التي هي في الأندلس.

رابعاً: اعترفوا مضطرين على رغم أنوفهم أن هذه رؤية قلبية ونوع من العلم بالقلب لا رؤية بصرية؛ لأن الأعمى لا يبصر بعين الرأس لعدم بصره.

خامساً: لما اعترفوا بأن رؤية المؤمنين لربهم مختلفة بالماهية عن رؤية سائر المبصرات، اضطروا على رغم أنوفهم للاعتراف بتسليم اعتراض المعتزلة، فإن المعتزلة قالوا لهم: كان نزاعنا في الرؤية بالحاسة، وفي الرؤية البصرية، ولم يكن نزاعنا في الرؤية القلبية التي هي نوع من العلم والانكشاف والإدراك، والتي ذكرتموها ليست رؤية بصرية، وإنما هي رؤية قلبية، ونوع من العلم(١).

سادساً: أنه قد اعترف بعض حذاقهم بأن الخلاف بينهم وبين المعتزلة في الرؤية لفظي(٢).

الشبهة الثانية: أن الرؤية قد تكون مدابرة:

وفي هذه الشبهة يذهب بعضهم إلى أن الرؤية لا تقتضي المواجهة، فإن الرؤية قد تكون بالمدابرة أيضاً، واستدلوا بحديث: **(فإني أراكم من وراء ظهري)**، فثبت أن الرؤية تكون بالمدابرة أيضاً(٣).

والجواب أن نقول: لا شك أن النبي ﷺ حيث ائتموا به من وراء ظهره وهذه

---

(١) انظر: حاشية الخيالي على شرح العقائد النسفية (ص١٣)، وشرح المقاصد للتفتازاني (٤/١٩٧)، وحاشية حسن شلبي على شرح المواقف للجرجاني (٨/١٣٩)، وحاشية أحمد الجندي على شرح العقائد النسفية (ص١٤١)، وحاشية السيكوتي على شرح العقائد النسفية مع جامع التقارير على هامش تلك الحاشية (ص٢٨٤).

(٢) انظر: حاشية أحمد الجندي على شرح العقائد النسفية (ص١٤١).

(٣) انظر: المسايرة مع المسامرة (ص٤٢).

معجزة له ﷺ، وهذه الرؤية كانت معقولة؛ لأن الصحابة ﵃ كانوا خلفه فنبههم النبي ﷺ على أنني أراكم من وراء ظهري كما أراكم بالمواجهة.

ولكن هل يعقل أن المؤمنين يرون ربهم من أدبارهم؟؟! فلا حول ولا قوة إلا بالله تعالى؟؟!!

بل الحق الذي لا شبهة فيه ـ وهو المعقول والمنقول ـ أن المؤمنين سيرون ربهم بعيون رؤوسهم رؤية حسية مواجهة عياناً، وهو ﷻ يكون من فوقهم، فإن أحاديث الرؤية نصوص صريحة في هذ المطلوب لوجوه:

الأول: أن النبي ﷺ قال: **(إنكم سترون ربكم عياناً)** ولم يقل استدباراً.

الثاني: أن النبي ﷺ قال: **(إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته)**، ولا شك أنه ليس فيه تشبيه المرئي بالمرئي ـ معاذ الله من ذلك ـ ولكن فيه تحقيق أنكم ترون هذا القمر عياناً مواجهة وهو فوقكم كذلك ترون ربكم بسهولة عياناً مواجهة وهو فوقكم.

(١٤) هل الرؤية بصرية أم قلبية؟

إن رؤية الله تعالى في الآخرة رؤية بصرية للأدلة السابقة، وكل ما ورد نحوها؛ لأن رؤيتنا للقمر والشمس ـ الواردة في الأدلة ـ رؤية بصرية، والتشبيه هنا للرؤية بالرؤية في الوضوح وزوال الشك والمشقة والاختلاف، وليس المراد تشبيه المرئي لأن الله سبحانه ليس كمثله شيء.

(١٥) هل الرؤية البصرية لله ممكنة في الدار الدنيا؟

الرؤية البصرية لله تعالى في الدنيا منفية، لقوله تعالى عندما سأله موسى ﵇ رؤيته: ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾ [الأعراف: ١٤٣].

أي لن تقدر الآن على رؤيتي؛ فإن الله تبارك وتعالى أنشأ الخلق في هذه الدار على نشأة لا يقدرون بها ولا يثبتون لرؤية الله. ومن السنّة عن عبد الله بن شقيق عن أبي ذر قال: سألت رسول الله ﷺ هل رأيت ربك قال: **(نور أنّى أراه)**[١].

وقوله ﷺ: **(نور أنّى أراه)** معناه حجابه نور، فكيف أراه؟ قال الإمام أبو عبد الله المازري ﵀: الضمير من «أراه» عائد على الله ﷻ، ومعناه: أن النور

---

(١) سبق تخريجه (ص٤٠٣).

منعني من الرؤية كما جرت العادة بإغشاء الأنوار الأبصار ومنعها من إدراك ما حالت بين الرائي وبينه. . .اهـ.

وعن مسروق قال: كنت متكئاً عند عائشة فقالت: يا أبا عائشة! ثلاث من تكلم بواحدة منهن فقد أعظم على الله الفرية، قلت: ما هن؟ قالت: من زعم أن محمداً ﷺ رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية، قال: وكنت متكئاً فجلست، فقلت: يا أم المؤمنين أنظريني ولا تعجلي، ألم يقل الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾﴾ [التكوير: ٢٣] ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾﴾ فقالت: أنا أول هذه الأمة سأل عن ذلك رسول الله ﷺ فقال: (**إنما هو جبريل لم أره على صورته التي خلق عليها غير هاتين المرتين، رأيته منهبطاً من السماء ساداً عظم خلقه ما بين السماء إلى الأرض**) فقالت: أوَ لم تسمع أن الله يقول: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنعام: ١٠٣] أوَ لم تسمع أن الله يقول: ﴿۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ [الشورى: ٥١]، قالت: ومن زعم أن رسول الله ﷺ كتم شيئاً من كتاب الله فقد أعظم على الله الفرية، والله يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾، قالت: ومن زعم أنه يخبر بما يكون غداً فقد أعظم على الله الفرية، والله يقول: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥].

(١٦) معنى قول الطحاوي: «ولا تثبت قدم الإسلام إلا على ظهر التسليم والاستسلام، فمن رام علم ما حظر عنه علمه، ولم يقنع بالتسليم فهمه، حجبه مرامه عن خالص التوحيد، وصافي المعرفة، وصحيح الإيمان، فيتذبذب بين الكفر والإيمان، والتصديق والتكذيب، والإقرار والإنكار، موسوساً تائهاً، شاكاً، لا مؤمناً مصدقاً، ولا جاحداً ولا مكذباً. ولا يصح الإيمان بالرؤية لأهل دار السلام لمن اعتبرها منهم بوهم، أو تأولها بفهم إذ كان تأويل الرؤية ـ وتأويل كل معنى يضاف إلى الربوبية ـ بترك التأويل ولزوم التسليم، وعليه دين المسلمين»:

فكل ما جاء عن الرسول ﷺ في إثبات الرؤية فهو حق على حقيقته نؤمن به من غير تحريف، ولا تعطيل ولا تمثيل ولا تكييف، ولا نجعل من عقولنا وأفكارنا

حاكمة على الكتاب والسنّة، بل نسلم وننقاد ونرد ما اشتباه إلى عالمه ﷻ، ومن لم يسلم لله ولا إلى رسوله ﷺ فإنه محجوب عن معرفة الحق، وتائه في الضلال، مذبذب شاك متردد.

١٧ مثل العقل مع النقل كالعامي المقلد مع العالم المجتهد:

ما أحس المثل المضروب للنقل مع العقل وهو أن العقل مع النقل كالعامي المقلد مع العالم المجتهد، بل هو دون ذلك بكثير، فإن العامي يمكنه أن يصير عالماً ولا يمكن العالم أن يصير نبياً رسولاً، فإذا عرف العامي المقلد عالماً فدل عليه عامياً آخر ثم اختلف المفتي والدال فإن المستفتي يجب عليه قبول قول المفتي دون الدال، فلو قال الدالُّ: الصوابُ معي دون المفتي؛ لأني أنا الأصل في علمك بأنك مفت، فإذا قدمت قوله على قولي قدحت في الأصل الذي به عرفت أنه مفت، فلزم القدح في فرعه، فيقول له المستفتي: أنت لمّا شهدت له بأنه مفت ودللت عليه شهدت له بوجوب تقليده دونك، فموافقتي لك في هذا العلم المعين لا تستلزم موافقتك في كل مسألة، وخطؤك فيما خالفت فيه المفتي الذي هو أعلم منك لا يستلزم خطأك في علمك بأنه مفت، هذا مع علمه أن ذلك المفتي قد يخطئ.

والعاقل يعلم أن الرسول معصوم في خبره عن الله تعالى لا يجوز عليه الخطأ، فيجب عليه التسليم له والانقياد لأمره، وقد علمنا بالاضطرار من دين الإسلام أن الرجل لو قال للرسول: هذا القرآن الذي تلقيه علينا والحكمة التي جئتنا بها قد تضمن كل منهما أشياء كثيرة تناقض ما علمناه بعقولنا، ونحن إنما علمنا صدقك بعقولنا، فلو قبلنا جميع ما تقوله مع أن عقولنا تناقض ذلك لكان قدحاً في ما علمنا به صدقك، فنحن نعتقد موجب العقول الناقضة لما ظهر من كلامك، وكلامك نعرض عنه لا نتلقى منه هدياً ولا علماً لم يكن مثل هذا الرجل مؤمناً بما جاء به الرسول، ولم يرض منه الرسول بهذا، بل يعلم أن هذا لو ساغ لأمكن كل أحد أن يؤمن بشيء مما جاء به الرسول؛ إذ العقول متفاوتة، والشبهات كثيرة، والشياطين لا تزال تلقي الوسواس في النفوس، فيمكن كل أحد أن يقول مثل هذا في كل ما أخبر به، الرسول وما أمر به، وقد قال تعالى: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النور: ٥٤]، وقال: ﴿فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النحل: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ

مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [إبراهيم: ٤]، ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَـٰبٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١٥]، ﴿حمٓ ۝ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝﴾ [الزخرف: ١ ـ ٢]، ﴿تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱلْكِتَـٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ [يوسف: ١]، ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَـٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١]، ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩]، ونظائر ذلك كثيرة في القرآن.

١٨ الخلاف في رؤية أهل المحشر لله ﷻ:

اختلف في رؤية أهل المحشر على ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه لا يراه إلا المؤمنون.

الثاني: يراه أهل الموقف مؤمنهم وكافرهم ثم يحتجب عن الكفار ولا يرونه بعد ذلك.

الثالث: يراه مع المؤمنين المنافقون دون بقية الكفار وكذلك الخلاف في تكليمه لأهل الموقف.

١٩ الخلاصة:

١ ـ رؤية المؤمنين لربهم ﷻ في الآخرة ثابتة بالكتاب والسنّة وإجماع أهل السنّة من السلف والخلف، وهذه الرؤية عياناً بأبصارهم بغير إحاطة ولا كيفية.

٢ ـ الرؤية من أشرف مسائل أصول الدين وأجلها، وهي الغاية التي شمر إليها المشمرون وتنافس فيها المتنافسون، وحرمها الذين عن ربهم محجوبون، وعن بابه مطرودون.

٣ ـ أما الماتريدية والأشعرية فقد خالفوا في مسألة الرؤية؛ فقالوا: إن الله يُرى لا في جهة لا أمام الرائي ولا خلفه، ولا عن يمينه ولا عن يساره، ولا فوقه ولا تحته.

٤ ـ أهل السنّة يعتقدون أن المؤمنين يرون ربهم في المحشر وفي الجنة بعيون أبصارهم، والله تعالى يكون من فوقهم.

٥ ـ إن رؤية الله تعالى في الآخرة رؤية بصرية، والتشبيه الوارد في الأدلة للرؤية بالرؤية في الوضوح وزوال الشك والمشقة والاختلاف، وليس المراد تشبيه المرئي؛ لأن الله سبحانه ليس كمثله شيء.

٦ ـ الرؤية البصرية لله تعالى في الدنيا منفية، لقوله تعالى عندما سأله موسى ﷺ رؤيته: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ [الأعراف: ١٤٣].

٧ ـ كل ما جاء عن الرسول ﷺ في إثبات الرؤية فهو حق على حقيقته نؤمن به من غير تحريف ولا تعطيل ولا تمثيل ولا تكييف، ولا نجعل من عقولنا وأفكارنا حاكمة على الكتاب والسنّة، بل نسلم وننقاد ونرد ما اشتبه إلى عالمه ﷻ.

٨ ـ ما أحسن المثل المضروب للنقل مع العقل وهو أن العقل مع النقل كالعامي المقلد مع العالم المجتهد بل هو دون ذلك بكثير.

(٢٠) **المناقشة:**

- **س١:** ما غرض المصنف من عقد هذا الباب؟
- **س٢:** اذكر بعض الأدلة من الكتاب والسنّة على ثبوت الرؤية، مع وجه الاستدلال.
- **س٣:** هل رؤية الله في الآخرة بصرية أم قلبية؟
- **س٤:** هل رؤية الله في الدنيا ممكنة كما هي ثابتة في الآخرة؟
- **س٥:** اذكر بعضاً من شبه المعتزلة حول الرؤية مع الرد عليها.
- **س٦:** ما مذهب الأشاعرة والماتريدية في مسألة الرؤية؟
- **س٧:** اذكر بعضاً من شبه الأشاعرة والماتريدية في مسألة الرؤية مع الرد عليها.
- **س٨:** بيّن أقوال الناس في رؤية أهل المحشر لله ﷻ.



على

شرح العقيدة الطحاوية

تأليف

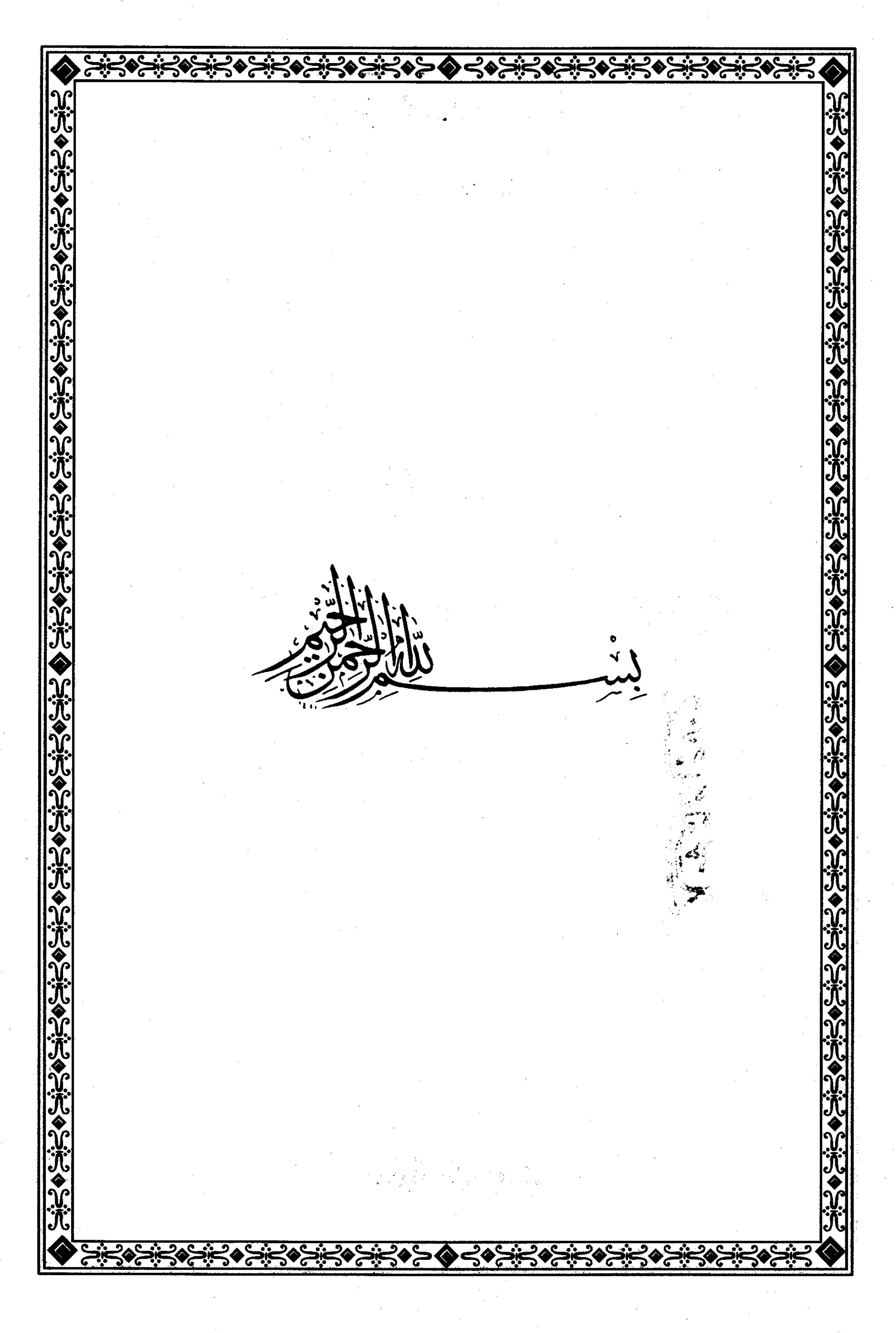
الأستاذ الدكتور محمد بن عبد الرحمن الخميس

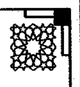
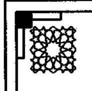
الأستاذ بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية - كلية أصول الد

قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة

الجزء الثاني

دار ابن الجوزي


بسم الله الرحمن الرحيم

علم الكلام وذم السلف له

قوله: «فمن رام علم ما حظر عنه علمه ولم يقنع بالتسليم فهمه حجبه مرامه عن خالص التوحيد وصافي المعرفة وصحيح الإيمان»، هذا تقرير للكلام الأول وزيادة تحذير أن يتكلم في أصول الدين بل وفي غيرها بغير علم، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾ [الإسراء: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٤﴾﴾ [الحج: ٣ ـ ٤]، وقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٩﴾﴾ [الحج: ٨ ـ ٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٣] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على هذا المعنى.

وعن أبي أمامة الباهلي ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل ثم تلا: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا﴾ [الزخرف: ٥٨]) رواه الترمذي وقال: حديث حسن[(١)].

وعن عائشة ﷺ قالت: قال رسول الله ﷺ: (إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم)[(٢)]، خرّجاه في الصحيحين.

ولا شك أن من لم يسلم للرسول نقص توحيده فإنه يقول برأيه وهواه ويقلد ذا رأي وهوى بغير هدى من الله فينقص من توحيده بقدر خروجه عما جاء به الرسول، فإنه قد اتخذه في ذلك إلهاً غير الله. قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ

(١) أخرجه الترمذي (٣٢٥٠)، وابن ماجه (٤٨).
(٢) أخرجه البخاري (٢٤٥٧)، ومسلم (٢٦٦٨).

هَوَىٰهُ﴾ [الجاثية: ٢٣] أي: عبد ما تهواه نفسه، وإنما دخل الفساد في العالم من ثلاث فرق كما قال عبد الله بن المبارك رحمة الله عليه:

رأيت الذنوب تميت القلوب ... وقد يورث الذل إدمانها
وترك الذنوب حياة القلوب ... وخير لنفسك عصيانها
وهل أفسد الدين إلا الملوك ... وأحبار سوء ورهبانها

فالملوك الجائرة يعترضون على الشريعة بالسياسات الجائرة ويعارضونها بها ويقدمونها على حكم الله ورسوله.

وأحبار السوء وهم العلماء الخارجون عن الشريعة بآرائهم وأقيستهم الفاسدة المتضمنة تحليل ما حرم الله ورسوله وتحريم ما أباحه واعتبار ما ألغاه، وإلغاء ما اعتبره وإطلاق ما قيده، وتقييد ما أطلقه ونحو ذلك.

والرهبان وهم جهال المتصوفة المعترضون على حقائق الإيمان والشرع بالأذواق والمواجيد والخيالات والكشوفات الباطلة الشيطانية المتضمنة شرع دين لم يأذن به الله وإبطال دينه الذي شرعه على لسان نبيه والتعوض عن حقائق الإيمان بخدع الشيطان وحظوظ النفوس.

فقال الأولون: إذا تعارضت السياسة الشرع قدمنا السياسة. وقال الآخرون: إذا تعارض العقل والنقل قدمنا العقل. وقال أصحاب الذوق: إذا تعارض الذوق والكشف وظاهر الشرع قدمنا الذوق والكشف.

ومن كلام أبي حامد الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه الذي سمَّاه «إحياء علوم الدين» وهو من أجلِّ كتبه أو أجلها، فإن قلت: فعلم الجدل والكلام مذموم كعلم النجوم[1] أو هو مباح أو مندوب إليه. فاعلم أن للناس في هذا غلواً وإسرافاً في أطراف، فمن قائل: إنه بدعة وحرام، وإن العبد أن يلقى الله بكل ذنب سوى الشرك خير له من أن يلقاه بالكلام؛ ومن قائل: إنه فرض إما على الكفاية وإما على الأعيان وأنه أفضل الأعمال وأعلى القربات، فإنه تحقيق لعلم التوحيد ونضال عن دين الله، قال: «وإلى التحريم ذهب الشافعي ومالك وأحمد بن حنبل وسفيان وجميع أئمة الحديث من

(١) هو علم تعرف بها أحوال الشمس والقمر وغيرهما من بعض النجوم وقيل: هو علم يعرف به الاستدلال على حوادث علم الكون، انظر: أبجد العلوم (٢/ ٥٥١).

السلف» وساق الألفاظ عن هؤلاء، قال: «وقد اتفق أهل الحديث من السلف على هذا لا ينحصر ما نقل عنهم من التشديدات فيه، قالوا: ما سكت عنه الصحابة ـ مع أنهم أعرف بالحقائق وأفصح بترتيب الألفاظ من غيرهم ـ إلا لما يتولد منه من الشر، وكذلك قال ﷺ: (هلك المتنطعون)[١]، أي: المتعمقون في البحث والاستقصاء.

واحتجوا أيضاً: بأن ذلك لو كان من الدين لكان أهم ما يأمر به رسول الله ﷺ ويعلم طريقه ويثني على أربابه»، ثم ذكر بقية استدلالهم، ثم ذكر استدلال الفريق الآخر إلى أن قال: «فإن قلت: فما المختار عندك؟ فأجاب بالتفصيل، فقال: فيه منفعة وفيه مضرة، فهو في وقت الانتفاع حلال أو مندوب أو واجب، كما يقتضيه الحال، وهو باعتبار مضرته في وقت الاستضرار ومحله حرام.

قال: فأما مضرته فإثارة الشبهات وتحريك العقائد وإزالتها عن الجزم والتصميم، وذلك مما يحصل بالابتداء، ورجوعها بالدليل مشكوك فيه، ويختلف فيه الأشخاص، فهذا ضرره في اعتقاد الحق وله ضرر في تأكيد اعتقاد البدعة وتثبيتها في صدورهم، بحيث تنبعث دواعيهم، ويشتد حرصهم على الإصرار عليه، ولكن هذا الضرر بواسطة التعصب الذي يثور من الجدل.

قال: وأما منفعته فقد يظن أن فائدته كشف الحقائق ومعرفتها على ما هي عليه، وهيهات، فليس في الكلام وفاء بهذا المطلب الشريف، ولعلّ التخبيط والتضليل أكثر من الكشف والتعريف، قال: وهذا إذا سمعته من محدث أو حشوي[٢] ربما خطر ببالك أن الناس أعداء ما جهلوا، فاسمع هذا ممن خبر الكلام. ثم قاله: بعد حقيقة الخبرة وبعد التغلغل فيه إلى منتهى درجة المتكلمين، وجاوز ذلك إلى التعمق في علوم أُخر تناسب نوع الكلام، وتحقق أن الطريق إلى حقائق المعرفة من هذا الوجه مسدود، ولعمري لا ينفك الكلام عن الكشف وتعريف وإيضاح لبعض الأمور ولكن على الندور، انتهى ما نقلته[٣] عن الغزالي رحمه الله.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٧٠).

(٢) الحشوي: من الحشو قال شيخ الإسلام في الفتاوى (١٢/ ١٧٦): «فهذا اللفظ ليس له مسمى معروف لا في الشرع ولا في اللغة ولا في العرف العام ولكن يذكر أن أول من تكلم بهذا اللفظ عمرو بن عبيد..».

(٣) انظر: الإحياء (١/ ١٢٩ ـ ١٣٣).

وكلام مثله في ذلك حجة بالغة، والسلف لم يكرهوه لمجرد كونه اصطلاحاً جديداً على معان صحيحة، كالاصطلاح على ألفاظ العلوم الصحيحة، ولا كرهوا أيضاً الدلالة على الحق والمحاجة لأهل الباطل؛ بل كرهوه لاشتماله على أمور كاذبة مخالفة للحق، ومن ذلك: مخالفتها للكتاب والسنّة وما فيه من علوم صحيحة، فقد وعروا الطريق إلى تحصيلها، وأطالوا الكلام في إثباتها مع قلة نفعها، فهي لحم جمل غث على رأس جبل وعر، لا سهل فيرتقى، ولا سمين فينتقى، وأحسن ما عندهم فهو في القرآن أصح تقريراً وأحسن تفسيراً فليس عندهم إلا التكلف والتطويل والتعقيد، كما قيل:

لولا التنافس في الدنيا لما وضعت ... كتب التناظر لا المغني ولا العمد

يحللون بزعم منهم عقداً ... وبالذي وضعوه زادت العقد

فهم يزعمون أنهم يدفعون بالذي وضعوه الشبه والشكوك، والفاضل الذي يعلم أن الشبه والشكوك زادت بذلك.

ومن المحال أن لا يحصل الشفاء والهدى والعلم اليقين من كتاب الله وكلام رسوله، ويحصل من كلام هؤلاء المتحيرين؛ بل الواجب أن يجعل ما قاله الله ورسوله هو الأصل، ويتدبر معناه، ويعقله، ويعرف برهانه، ودليله العقلي والخبري السمعي، ويعرف دلالته على هذا وهذا، ويجعل أقوال الناس التي توافقه وتخالفه متشابهة مجملة، فيقال لأصحابها: هذه الألفاظ تحتمل كذا وكذا، فإن أرادوا بها ما يوافق خبر الرسول قبل وإن أرادوا بها ما يخالفه رد.

وهذا مثل لفظ المركب والجسم والتحيُّز والجوهر والجهة والحيّز والعرض ونحو ذلك، فإن هذه الألفاظ لم تأتِ في الكتاب والسنّة بالمعنى الذي يريده أهل الاصطلاح؛ بل ولا في اللغة؛ بل هم يخصون بالتعبير بها عن معان لم يعبر غيرهم عنها بها، فتفسر تلك المعاني بعبارات أُخر، وينظر ما دلّ عليه القرآن من الأدلة العقلية والسمعية، وإذا وقع الاستفسار والتفصيل تبين الحق من الباطل.

مثال ذلك في «التركيب»[1] فقد صار له معان:

---

(١) انظر: الصفدية (١/ ١٠٤)؛ والصواعق (٣/ ٩٤٤).

أحدها: التركيب من متباينين فأكثر، ويسمى تركيب مزج كتركيب الحيوان من الطبائع الأربع[١] والأعضاء ونحو ذلك، وهذا المعنى منفي عن الله ﷻ، ولا يلزم من وصف الله تعالى بالعلو ونحوه من صفات الكمال أن يكون مركباً بهذا المعنى المذكور.

والثاني: تركيب[٢] الجوار كمصراعي الباب ونحو ذلك، ولا يلزم أيضاً من ثبوت صفاته تعالى إثبات هذا التركيب.

الثالث: التركيب من الأجزاء المتماثلة، وتسمى الجواهر المفردة.

الرابع: التركيب من الهيولى[٣] والصورة[٤]، كالخاتم مثلاً: هيولاه الفضة وصورته معروفة.

وأهل الكلام[٥] قالوا: إن الجسم يكون مركباً من الجواهر المفردة، ولهم كلام في ذلك يطول ولا فائدة فيه، وهو أنه يمكن التركيب من جزئين أو من أربعة أو ستة أو ثمانية أو ستة عشر، وليس هذا التركيب لازماً لثبوت صفاته تعالى وعلوه على خلقه.

والحق أن الجسم غير مركب من هذه الأشياء، وإنما قولهم مجرد دعوى، وهذا مبسوط في موضعه.

الخامس: التركيب من الذات والصفات، هم سمّوه تركيباً لينفوا به صفات الرب تعالى، وهذا اصطلاح منهم لا يعرف في اللغة ولا في استعمال الشارع، فلسنا نوافقهم على هذه التسمية ولا كرامة، ولئن سموا إثبات الصفات تركيباً فنقول لهم: العبرة للمعاني لا للألفاظ، سموه ما شئتم، ولا يترتب على التسمية بدون المعنى حكم، فلو اصطلح على تسمية اللبن خمراً لم يحرم بهذه التسمية.

السادس: التركيب من الماهية ووجودها، وهذا يفرضه الذهن أنهما غيران. وأما

---

(١) وهي: الماء والتراب والنار والهواء، انظر: شرح النونية للهراس (ص٥٤).

(٢) يقال له تركيب المجاورة وذلك كتركيب السقف على البنيان، انظر: شرح النونية للهراس (ص٤١٦).

(٣) هي المادة والعنصر ويعرفونه: بالجسم الحامل لصورته.

(٤) هي الشكل والهيئة والصيغة.

(٥) هذا قول جمهور المعتزلة والأشاعرة.

في الخارج هل يمكن ذات مجردة عن وجودها ووجودها مجرد عنها؟ هذا محال، فترى أهل الكلام يقولون: هل ذات الرب وجوده أم غير وجوده؟ ولهم في ذلك خبط كثير وأمثلهم طريقة رأى الوقف والشك في ذلك، وكم يزول بالاستفسار والتفصيل كثير من الأضاليل والأباطيل.

وسبب الإضلال الإعراض عن تدبُّر كلام الله وكلام رسوله والاشتغال بكلام اليونان والآراء المختلفة.

وإنما سمي هؤلاء أهل الكلام لأنهم لم يفيدوا علماً لم يكن معروفاً، وإنما أتوا بزيادة كلام قد لا يفيد، وهو ما يضربونه من القياس لإيضاح ما علم بالحس، وإن كان هذا القياس وأمثاله ينتفع به في موضع آخر ومع من ينكر الحس وكل من قال برأيه وذوقه وسياسته مع وجود النص أو عارض النص بالمعقول، فقد ضاهى إبليس حيث لم يسلم لأمر ربه بل قال: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢]، وقال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۝٨٠﴾ [النساء: ٨٠]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٣١﴾ [آل عمران: ٣١]، وقال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ۝٦٥﴾ [النساء: ٦٥]، أقسم سبحانه بنفسه أنهم لا يؤمنون حتى يحكموا نبيه، ويرضوا بحكمه ويسلموا تسليماً.

قوله: «فيتذبذب بين الكفر والإيمان والتصديق والتكذيب والإقرار والإنكار، موسوساً تائهاً شاكاً، لا مؤمناً مصدقاً، ولا جاحداً مكذباً».

يتذبذب يضطرب ويتردد، وهذه الحالة التي وصفها الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ حال كل من عدل عن الكتاب والسنّة، إلى علم الكلام المذموم، أو أراد أن يجمع بينه وبين الكتاب والسنّة، وعند التعارض يتأول النص ويرده إلى الرأي والآراء المختلفة، فيؤول أمره إلى الحيرة والضلال والشك، كما قال ابن رشد الحفيد وهو من أعلم الناس بمذاهب الفلاسفة ومقالاتهم في كتابه «تهافت التهافت» ومن الذي قال في الإلهيات شيئاً يعتد به، وكذلك الآمدي أفضل أهل زمانه واقف في المسائل الكبار حائر. وكذلك الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ انتهى آخر أمره إلى الوقف والحيرة في المسائل الكلامية، ثم أعرض عن تلك الطرق وأقبل على أحاديث الرسول ﷺ فمات والبخاري على صدره، وكذلك أبو عبد الله محمد بن عمر الرازي، قال في كتابه الذي صنفه أقسام اللذات:

نهاية إقدام العقول عقال ... وغاية سعي العالمين ضلال
وأرواحنا في وحشة من جسومنا ... وحاصل دنيانا أذى ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا ... سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا
فكم قد رأينا من رجال ودولة ... فبادوا جميعاً مسرعين وزالوا
وكم من جبال قد علت شَرَفاتِها ... رجال فزالوا والجبال جبال

لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيتها تشفي عليلاً ولا تروي غليلاً، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن، أقرأ في الإثبات: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ٥﴾ [طه: ٥]، ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠]، وأقرأ في النفي: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾ [الشورى: ١١]، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا﴾ [طه: ١١٠]، ثم قال: ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي.

وكذلك قال الشيخ أبو عبد الله محمد بن عبد الكريم الشهرستاني: إنه لم يجد عند الفلاسفة والمتكلمين إلا الحيرة والندم، حيث قال:

لعمري لقد طفت المعاهد كلها ... وسيرت طرفي بين تلك المعالم
فلم أر إلا واضعاً كف حائر ... على ذقن أو قارعاً سن نادم

وكذلك قال أبو المعالي الجويني: يا أصحابنا لا تشتغلوا بالكلام، فلو عرفت أن الكلام يبلغ بي إلى ما بلغ ما اشتغلت به، وقال عند موته: «لقد خضت البحر الخضم، وخليت أهل الإسلام وعلومهم ودخلت في الذي نهوني عنه، والآن فإن لم يتداركني ربي برحمته فالويل لابن الجويني، وها أنا ذا أموت على عقيدة أمي أو قال على عقيدة عجائز نيسابور».

وكذلك قال شمس الدين الخسرو شاهي، وكان من أجلّ تلامذة فخر الدين الرازي لبعض الفضلاء، وقد دخل عليه يوماً فقال: ما تعتقده؟ قال: ما يعتقده المسلمون، فقال: وأنت منشرح الصدر لذلك مستيقن به، أو كما قال، فقال: نعم، فقال: أشكر الله على هذه النعمة، لكني والله ما أدري ما أعتقد، والله ما أدري ما أعتقد، والله ما أدري ما أعتقد. وبكى حتى أخضل لحيته.

ولابن أبي الحديد الفاضل المشهور بالعراق:

فيك يا أغلوطة الفكر ... حار أمري وانقضى عمري

سافرت فيك العقول فيما ربحت إلا أذى السفر
فَلَحَى الله الأولى زعموا أنك المعروف بالنظر
كذبوا إن الذي ذكروا خارج عن قوة البشر

وقال الخوفجي عند موته: ما عرفت مما حصلته شيئاً سوى أن الممكن يفتقر إلى المرجح، ثم قال: الافتقار وصف سلبي أموت وما عرفت شيئاً.

وقال آخر: أضطجع على فراشي وأضع اللحفة على وجهي، وأقابل بين حجج هؤلاء وهؤلاء، حتى يطلع الفجر ولم يترجح عندي منها شيء.

ومن يصل إلى مثل هذه الحال إن لم يتداركه الله برحمته، وإلّا تزندق كما قال أبو يوسف: من طلب الدين بالكلام تزندق، ومن طلب المال بالكيمياء أفلس، ومن طلب غريب الحديث كذب. وقال الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: حكمي في أهل الكلام أن يضربوا بالجريد والنعال، ويطاف بهم في القبائل والعشائر، ويقال: هذا جزاء من ترك الكتاب والسنّة وأقبل على الكلام.

وقال: لقد اطلعت من أهل الكلام على شيء ما ظننت مسلماً يقوله، ولأن يبتلى العبد بكل ما نهى الله عنه ما خلا الشرك بالله خير له من أن يبتلى بالكلام. انتهى.

وتجد أحد هؤلاء عند الموت يرجع إلى مذهب العجائز، فيقرّ بما أقروا به ويعرض عن تلك الدقائق المخالفة لذلك التي كان يقطع بها، ثم تبين له فسادها، أو لم يتبين له صحتها، فيكونون في نهاياتهم إذا سلموا من العذاب بمنزلة أتباع أهل العلم من الصبيان والنساء والأعراب.

والدواء النافع لمثل هذا المرض ما كان طبيب القلوب صلوات الله وسلامه عليه يقوله إذا قام من الليل يفتتح الصلاة: (اللهم ربّ جبرائيل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السمٰوات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم)[١]، خرّجه مسلم.

توجه ﷺ إلى ربه بربوبية جبرائيل وميكائيل وإسرافيل أن يهديه لما اختلف فيه

---

(١) أخرجه مسلم (٧٧٠).

من الحق بإذنه؛ إذ حياة القلب بالهداية، وقد وكل الله سبحانه هؤلاء الثلاثة بالحياة، فجبرائيل موكل بالوحي الذي هو سبب حياة القلوب، وميكائيل بالقطر الذي هو سبب حياة الأبدان وسائر الحيوان، وإسرافيل بالنفخ في الصور الذي هو سبب حياة العالم وعود الأرواح إلى أجسادها. فالتوسل إلى الله سبحانه بربوبية هذه الأرواح العظيمة الموكلة بالحياة له تأثير عظيم في حصول المطلوب، والله المستعان.

قوله: «ولا يصح الإيمان بالرؤية لأهل دار السلام لمن اعتبرها منهم بوهم أو تأولها بفهم؛ إذ كان تأويل الرؤية وتأويل كل معنى يضاف إلى الربوبية بترك التأويل ولزوم التسليم، وعليه دين المسلمين، ومن لم يَتَوَقَّ النفي والتشبيه زلّ ولم يصب التنزيه».

يشير الشيخ ﷺ إلى الرد على المعتزلة ومن يقول بقولهم في نفي الرؤية وعلى من يشبّه الله بشيء من مخلوقاته فإن النبي قال: (إنكم ترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر) الحديث، أدخل كاف التشبيه على «ما» المصدرية أو الموصولة بـ(ترون) التي تتأوّل مع صلتها إلى المصدر الذي هو الرؤية، فيكون التشبيه في الرؤية لا في المرئي. وهذا بيّن واضح في أن المراد إثبات الرؤية وتحقيقها ودفع الاحتمالات عنها، وماذا بعد هذا البيان وهذا الإيضاح؟ فإذا سلط التأويل على مثل هذا النص كيف يستدل بنص من النصوص، وهل يحتمل هذا النص أن يكون معناه: إنكم تعلمون ربكم كما تعلمون القمر ليلة البدر؟ ويستشهد لهذا التأويل الفاسد بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١﴾ [الفيل: ١] ونحو ذلك مما استعمل فيه «رأى» التي من أفعال القلوب، ولا شك أن «ترى» تارة تكون بصرية، وتارة تكون قلبية، وتارة تكون من رؤيا الحلم وغير ذلك. ولكن ما يخلو الكلام من قرينة تخلص أحد معانيه من الباقي، وإلا لو أخلى المتكلم كلامه من القرينة المخلصة لأحد المعاني لكان مجملاً ملغزاً لا مبيناً موضحاً، وأي بيان وقرينة فوق قوله: (ترون ربكم كما ترون الشمس في الظهيرة ليس دونها سحاب)، فهل مثل هذا مما يتعلق رؤية البصر أو برؤية القلب وهل يخفى مثل هذا إلا على من أعمى الله قلبه؟!.

فإن قالوا: ألجأنا إلى هذا التأويل حكم العقل بأن رؤيته تعالى محال لا يتصور إمكانها.

فالجواب: أن هذه دعوى منكم خالفكم فيها أكثر العقلاء، وليس في العقل ما يحيلها؛ بل لو عرض على العقل موجود قائم بنفسه لا يمكن رؤيته لحكم بأن هذا محال.

وقوله: «لمن اعتبرها منهم بوهم»، أي توهم أن الله تعالى يرى على صفة كذا، فيتوهم تشبيهاً، ثم بعد هذ التوهم إن أثبت ما توهمه من الوصف فهو مشبه، وإن نفى الرؤية من أصلها لأجل ذلك التوهم فهو جاحد معطل؛ بل الواجب دفع ذلك الوهم وحده ولا يعم بنفيه الحق والباطل فينفيهما رداً على من أثبت الباطل، بل الواجب رد الباطل وإثبات الحق.

وإلى هذا المعنى أشار الشيخ رحمه الله بقوله: «ومن لم يتوق النفي والتشبيه زلّ ولم يصب التنزيه»، فإن هؤلاء المعتزلة يزعمون أنهم ينزهون الله بهذا النفي، وهل يكون التنزيه بنفي صفة الكمال، فإن نفي الرؤية ليس بصفة كمال؛ إذ المعدوم لا يُرى، وإنما الكمال في إثبات الرؤية ونفي إدراك الرائي له إدراك إحاطة كما في العلم، فإن نفي العلم به ليس بكمال، وإنما الكمال في إثبات العلم ونفي الإحاطة به علماً، فهو سبحانه لا يُحاط به رؤية كما لا يحاط به علماً.

وقوله: «أو تأولها بفهم؛ أي ادعى أنه فهم لها تأويلاً يخالف ظاهرها وما يفهمه كل عربي من معناها، فإنه قد صار اصطلاح المتأخرين في معنى التأويل أنه صرف اللفظ عن ظاهره، وبهذا تسلط المحرفون على النصوص وقالوا: نحن نتأول ما يخالف قولنا، فسموا التحريف تأويلاً تزييناً له وزخرفة ليقبل، وقد ذم الله الذين زخرفوا الباطل، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢]، والعبرة للمعاني لا للألفاظ، فكم من باطل قد أقيم عليه دليل مزخرف عورض به دليل الحق».

وكلامه هنا نظير قوله فيما تقدم: «لا ندخل ذلك متأولين بآرائنا ولا متوهمين بأهوائنا»، ثم أكّد هذا المعنى بقوله: إذا كان تأويل الرؤية وتأويل كل معنى يضاف إلى الربوبية بترك التأويل ولزوم التسليم، وعليه دين المسلمين، ومراده ترك التأويل الذي يسمونه تأويلاً وهو تحريف، ولكن الشيخ رحمه الله تأدّب وجادل بالتي هي أحسن كما أمر الله تعالى بقوله: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]

وليس مراده ترك كل ما يسمى تأويلاً، ولا ترك شيء من الظواهر لبعض الناس لدليل راجح من الكتاب والسنّة، وإنما مراده: ترك التأويلات الفاسدة المبتدعة المخالفة لمذهب السلف التي يدل الكتاب والسنّة على فسادها وترك القول على الله بلا علم.

فمن التأويلات الفاسدة تأويل أدلة الرؤية وأدلة العلو، وأنه لم يكلم موسى تكليماً ولم يتخذ إبراهيم خليلاً.

ثم قد صار لفظ التأويل مستعملاً في غير معناه الأصلي.

فالتأويل في كتاب الله وسنّة رسوله هو الحقيقة التي يؤول إليها الكلام، فتأويل الخبر هو عين المخبر به، وتأويل الأمر نفس الفعل المأمور به، كما قالت عائشة ﵂: كان رسول الله يقول في ركوعه: (سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي) يتأول القرآن[1]. وقال تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٥٣]، ومنه تأويل الرؤيا وتأويل العمل كقوله: ﴿هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ﴾ [يوسف: ١٠٠]، وقوله: ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ [يوسف: ٦]، وقوله: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩]، وقوله: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٨] إلى قوله: ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٨٢] فمن ينكر وقوع مثل هذا التأويل والعلم بما تعلق بالأمر والنهي منه.

وأما ما كان خبراً كالإخبار عن الله واليوم الآخر، فهذا قد لا يعلم تأويله الذي هو حقيقته؛ إذ كانت لا تعلم بمجرد الإخبار، فإن المخبر إن لم يكن قد تصور المخبر به أو ما يعرف قبل ذلك لم يعرف حقيقته التي هي تأويله بمجرد الإخبار، وهذا هو التأويل الذي لا يعلمه إلا الله، لكن لا يلزم من نفي العلم بالتأويل نفي العلم بالمعنى الذي قصد المخاطب إفهام المخاطب إياه، فما في القرآن آية إلا وقد أمر الله بتدبرها، وما أنزل آية إلا وهو يحب أن يعلم ما عنى بها، وإن كان من تأويله ما لا يعلمه إلا الله، فهذا معنى التأويل في الكتاب والسنّة وكلام السلف، وسواء كان هذا التأويل موافقاً للظاهر أو مخالفاً له.

---

(١) أخرجه البخاري (٨١٧)، ومسلم (٤٨٤).

والتأويل في كلام كثير من المفسرين كابن جرير ونحوه يريدون به تفسير الكلام وبيان معناه سواء وافق ظاهره أو خالف، وهذا اصطلاح معروف وهذا التأويل كالتفسير يحمد حقه ويرد باطله، وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ٧] فيها قراءتان: قراءة من يقف على قوله: ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾، وقراءة من لا يقف عندها، وكلتا القراءتين حق، ويراد بالأولى المتشابه في نفسه الذي استأثر الله بعلم تأويله، ويراد بالثانية المتشابه الإضافي الذي يعرف الراسخون تفسيره وهو تأويله.

ولا يريد من وقف على قوله: ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ أن يكون التأويل بمعنى التفسير للمعنى، فإن لازم هذا أن يكون الله أنزل على رسوله كلاماً لا يعلم معناه جميع الأمة ولا الرسول ويكون الراسخون في العلم لا حظ لهم في معرفة معناها سوى قولهم: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧]، وهذا القدر يقوله غير الراسخ في العلم من المؤمنين، والراسخون في العلم، يجب امتيازهم عن عوام المؤمنين في ذلك، وقد قال ابن عباس رضي الله عنهما: أنا من الراسخين في العلم الذين يعلمون تأويله، ولقد صدق رضي الله عنه فإن النبي ﷺ دعا له وقال: (اللهم فقّهه في الدين وعلّمه التأويل)(١) رواه البخاري وغيره. ودعاؤه ﷺ لا يرد. قال مجاهد: عرضت المصحف على ابن عباس من أوله إلى آخره أقفه عند كل آية وأسأله عنها، وقد تواترت النقول عنه أنه تكلم في جميع معاني القرآن، ولم يقل عن آية إنها من المتشابه الذي لا يعلم أحد تأويله إلا الله.

وقول الأصحاب رحمهم الله في الأصول: المتشابه الحروف المقطعة في أوائل السور، ويروى هذا عن ابن عباس: مع أن هذه الحروف قد تكلم في معناها أكثر الناس، فإن كان معناها معروفاً فقد عرف معنى المتشابه، وإن لم يكن معروفاً وهي المتشابه كان ما سواها معلوم المعنى وهذا المطلوب.

وأيضاً فإن الله قال: ﴿مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ [آل عمران: ٧]، وهذه الحروف ليست آيات عند جمهور العادين(٢).

---

(١) انظر: صحيح البخاري (١٤٣).

(٢) وعدها الكوفيون آيات، انظر: الإتقان للسيوطي (١/ ١٩٣).

والتأويل في كلام المتأخرين من الفقهاء والمتكلمين هو صرف اللفظ عن الاحتمال الراجح إلى الاحتمال المرجوح لدلالة توجب ذلك، وهذا هو التأويل الذي تنازع الناس فيه في كثير من الأمور الخبرية والطلبية، فالتأويل الصحيح منه الذي يوافق ما دلّت عليه نصوص الكتاب والسنّة، وما خالف ذلك فهو التأويل الفاسد، وهذا مبسوط في موضعه، وذكر في «التبصرة» أن نصير بن يحيى البلخي روى عن عمرو بن إسماعيل بن حماد بن أبي يحيى بن محمد بن الحسن رحمهم الله أنه سئل عن الآيات والأخبار التي فيها من صفات الله تعالى ما يؤدي ظاهره إلى التشبيه قال: نُمرها كما جاءت ونؤمن بها، ولا نقول كيف وكيف.

ويجب أن يعلم أن المعنى الفاسد الكفري ليس هو ظاهر النص ولا مقتضاه، وأن من فهم ذلك منه فهو لقصور فهمه ونقص علمه، وإذا كان قد قيل في قول بعض الناس:

وكم من عائب قولاً صحيحاً ... وآفته من الفهم السقيم

وقيل:

عليَّ نحت القوافي من مقاطعها ... وما عليَّ لهم أن تفهم البقر

فكيف يقال في قول الله الذي هو أصدق الكلام وأحسن الحديث، وهو الكتاب الذي أحكمت آياته ثم فصّلت من لدن حكيم خبير؟

إن حقيقة قولهم: إن ظاهر القرآن والحديث هو الضلال، وإنه ليس فيه بيان ما يصلح من الاعتقاد ولا فيه بيان التوحيد والتنزيه، هذا حقيقة قول المتأولين.

والحق أن ما دلّ عليه القرآن فهو حق وما كان باطلاً لم يدل عليه، والمنازعون يدعون دلالته على الباطل الذي يتعين صرفه.

فيقال لهم: هذا الباب الذي فتحتموه وإن كنتم تزعمون أنكم تنتصرون به على إخوانكم المؤمنين في مواضع قليلة خفية، فقد فتحتم عليكم باباً لأنواع المشركين والمبتدعين لا تقدرون على سدّه، فإنكم إذا سوّغتم صرف القرآن عن دلالته المفهومة بغير دليل شرعي، فما الضابط فيما يسوغ تأويله وما لا يسوغ[1]؟!

---

(١) انظر: الصواعق (١/ ٢٢٠).

فإن قلتم: ما دلّ القاطع العقلي على استحالته تأوّلناه وإلّا أقررناه، قيل لكم: وبأي عقل نزن القاطع العقلي؟ فإن القرمطي الباطني يزعم قيام القواطع على بطلان ظواهر الشرع، ويزعم الفيلسوف قيام القواطع على بطلان حشر الأجساد، ويزعم المعتزلي قيام القواطع على امتناع رؤية الله تعالى وعلى امتناع قيام علم أو كلام أو رحمة به تعالى، وباب التأويلات التي يدّعي أصحابها وجوبها بالمعقولات أعظم من أن تنحصر في هذا المقام.

ويلزم حينئذ محذوران عظيمان:

أحدهما: أن لا نقرّ بشيء من معاني الكتاب والسنّة حتى نبحث قبل ذلك بحوثاً طويلة عريضة في إمكان ذلك بالعقل، وكل طائفة من المختلفين في الكتاب يدّعون أن العقل يدل على ما ذهبوا إليه فيؤول الأمر إلى الحيرة.

المحذور الثاني: إن القلوب تتخلى عن الجزم بشيء تعتقده مما أخبر به الرسول؛ إذ لا يوثق بأن الظاهر هو المراد، والتأويلات مضطربة فيلزم عزل الكتاب والسنّة عن الدلالة والإرشاد إلى ما أنبأ الله به العباد وخاصة النبي هي الأنباء والقرآن هو النبأ العظيم، ولهذا نجد أهل التأويل إنما يذكرون نصوص الكتاب والسنّة للاعتضاد لا للاعتماد، إن وافقت ما ادعوا أن العقل دلّ عليه قبلوه وإن خالفته أوّلوه، وهذا فتح باب الزندقة. نسأل الله العافية.

قوله: «ومن لم يَتَوَقَّ النفي والتشبيه زلّ ولم يصب التنزيه»، النفي والتشبيه مرضان من أمراض القلوب، فإن أمراض القلوب نوعان: مرض شبهة ومرض شهوة، وكلاهما مذكور في القرآن. قال تعالى: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب: ٣٢]، فهذا مرض الشهوة، وقال تعالى: ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٥]، فهذا مرض الشبهة وهو أردأ من مرض الشهوة، إذ مرض الشهوة يرجى له الشفاء بقضاء الشهوة، ومرض الشبهة لا شفاء له إن لم يتداركه الله برحمته، والشبهة التي في مسألة الصفات نفيها وتشبيهها، وشبه النفي أردأ من شبه التشبيه فإن شبّه النفي رد وتكذيب لما جاء به الرسول، وشبه التشبيه غلو ومجاوزة للحد فيما جاء به الرسول ﷺ، وتشبيه الله بخلقه كفر، فإن الله تعالى يقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، ونفي الصفات كفر،

فإن الله تعالى يقول: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، وهذا أصل نوعي التشبيه، فإن التشبيه نوعان: تشبيه الخالق بالمخلوق، وهو الذي يتعب أهل الكلام في رده وإبطاله وأهله في الناس أقل من النوع الثاني الذين هم أهل تشبيه المخلوق بالخالق كعباد المشايخ وعزير والشمس والقمر والأصنام والملائكة والنار والماء والعجل والقبور والجن وغير ذلك، وهؤلاء هم الذين أرسلت لهم الرسل يدعونهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له.

قوله: «فإن ربنا جلَّ وعلا موصوف بصفات الوحدانية، منعوت بنعوت الفردانية، ليس في معناه أحد من البرية»، يشير الشيخ رحمه الله إلى تنزيه الرب تعالى بالذي هو وصفه كما وصف نفسه نفياً وإثباتاً، وكلام الشيخ مأخوذ من معنى سورة الإخلاص، فقوله: موصوف بصفات الوحدانية مأخوذ من قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾، وقوله منعوت بنعوت الفردانية من قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣﴾، وقوله: ليس في معناه أحد من البرية من قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾، وهو أيضاً مؤكد لما تقدم من إثبات الصفات، ونفي التشبيه، والوصف والنعت مترادفان، وقيل: متقاربان. فالوصف للذات والنعت للفعل، وكذلك الوحدانية والفردانية، وقيل في الفرق بينهما: إن الوحدانية للذات والفردانية للصفات، فهو تعالى موحد في ذاته منفرد بصفاته، وهذا المعنى حق ولم ينازع فيه أحد ولكن في اللفظ نوع تكرير، وللشيخ نظير هذا التكرير في مواضع من العقيدة، وهو بالخطب والأدعية أشبه منه بالعقائد، والتسجيع بالخطب أليق، و﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ أكمل في التنزيه من قوله ليس في معناه أحد من البرية.

قوله: «وتعالى عن الحدود والغايات والأركان والأعضاء والأدوات، لا تحويه الجهات الست كسائر المبتدعات».

أذكر بين يدي الكلام على عبارة الشيخ رحمه الله مقدمة، وهي: أن الناس في إطلاق مثل هذه الألفاظ ثلاثة أقوال: فطائفة تنفيها، وطائفة تثبتها، وطائفة تفصِّل، وهم المتبعون[١] للسلف، فلا يطلقون نفيها ولا إثباتها إلا إذا تبين ما أثبت بها فهو

(١) انظر: الرسالة التدمرية (ص٧٣ ـ ٧٥).

ثابت، وما نفي بها فهو منفي؛ لأن المتأخرين قد صارت هذه الألفاظ في اصطلاحهم فيها إجمال وإبهام كغيرها من الألفاظ الاصطلاحية، فليس كلهم يستعملها في نفس معناها اللغوي، ولهذا كان النفاة ينفون بها حقاً وباطلاً ويذكرون عن مثبتها ما لا يقولون به وبعض المثبتين لها يدخل لها معنى باطلاً مخالفاً لقول السلف، ولما دلّ عليه الكتاب والميزان، ولم يرد نص من الكتاب ولا من السنّة بنفيها ولا إثباتها، وليس لنا أن نصف الله تعالى بما لم يصف به نفسه ولا وصفه به رسوله نفياً ولا إثباتاً وإنما نحن متبعون لا مبتدعون.

فالواجب أن ينظر في هذا الباب، أعني باب الصفات فما أثبته الله ورسوله أثبتناه، وما نفاه الله ورسوله نفيناه، والألفاظ التي ورد بها النص يعتصم بها في الإثبات والنفي، فنثبت ما أثبته الله ورسوله من الألفاظ والمعاني، وننفي ما نفته نصوصهما من الألفاظ والمعاني.

وأما الألفاظ التي لم يرد نفيها ولا إثباتها فلا تطلق حتى ينظر في مقصود قائلها، فإن كان معنى صحيحاً قُبِل، لكن ينبغي التعبير عنه بألفاظ النصوص دون الألفاظ المجملة إلا عند الحاجة مع قرائن تبين المراد والحاجة، مثل: أن يكون الخطاب مع من لا يتم المقصود معه إن لم يخاطب بها ونحو ذلك.

والشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ أراد الرد بهذا الكلام على المشبهة كداود الجواربي وأمثاله القائلين: إن الله جسم، وإنه جثة وأعضاء وغير ذلك، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

فالمعنى الذي أراده الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ من النفي الذي ذكره هنا حق، لكن حدث بعده من أدخل في عموم نفيه حقاً وباطلاً، فيحتاج إلى بيان ذلك، وهو أن السلف متفقون على أن البشر لا يعلمون لله حداً وأنهم لا يحدون شيئاً من صفاته.

قال أبو داود الطيالسي: كان سفيان وشعبة وحماد بن زيد وحماد بن سلمة وشريك وأبو عوانة، لا يحدون ولا يشبهون ولا يمثلون يروون الحديث ولا يقولون كيف، وإذا سئلوا قالوا بالأثر، وسيأتي في كلام الشيخ: «وقد أعجز خلقه عن الإحاطة به»، فعلم أن مراده أن الله يتعالى عن أن يحيط أحد بحده لأن المعنى أنه متميز عن خلقه، منفصل عنهم، مباين لهم. سئل عبد الله بن المبارك: بِمَ نعرف ربنا؟ قال: بأنه على العرش بائن من خلقه، قيل: بحد؟ قال: بحد، انتهى.

ومن المعلوم أن الحد يقال على ما ينفصل به الشيء ويتميز به عن غيره، والله تعالى غير حال في خلقه ولا قائم بهم؛ بل هو القيوم القائم بنفسه، المقيم لما سواه، فالحد بهذا المعنى لا يجوز أن يكون فيه منازعة في نفس الأمر أصلاً فإنه ليس وراء نفيه إلا نفي وجود الرب ونفي حقيقته.

وأما الحد بمعنى العلم والقول، وهو أن يحده العباد، فهذا منتف بلا منازعة بين أهل السنّة، قال أبو القاسم القشيري في رسالته: سمعت الشيخ أبا عبد الرحمٰن السلمي، سمعت أبا منصور بن عبد الله، سمعت أبا الحسن العنبري، سمعت سهل بن عبد الله التستري يقول وقد سئل عن ذات الله؟ فقال: ذات الله موصوفة بالعلم غير مدركة بالإحاطة ولا مرئية بالأبصار في دار الدنيا، وهي موجودة بحقائق الإيمان من غير حد ولا إحاطة ولا حلول وتراه العيون في العقبى ظاهراً في ملكه وقدرته، وقد حجب الخلق عن معرفة كنه ذاته، ودلّهم عليه بآياته، فالقلوب تعرفه والعيون لا تدركه، ينظر إليه المؤمن بالأبصار من غير إحاطة ولا إدراك نهاية.

وأما لفظ «الأركان» و«الأعضاء» و«الأدوات» فيستدل بها النفاة على نفي بعض الصفات الثابتة بالأدلة القطعية كاليد والوجه، قال أبو حنيفة ﷺ في (الفقه الأكبر): له يد ووجه ونفس كما ذكر تعالى في القرآن من ذكر اليد والوجه والنفس، فهو له صفة بلا كيف، ولا يقال: أن يده: قدرتهُ ونعمتهُ؛ لأن فيه إبطال الصفة. انتهى. وهذا الذي قاله الإمام ﷺ ثابت بالأدلة القاطعة، قال تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [صٓ: ٧٥]، ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ [الزمر: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨]، ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمٰن: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ [المائدة: ١١٦]، وقال تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴿٤١﴾﴾ [طه: ٤١]، وقال تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ [آل عمران: ٢٨]، وقال في حديث الشفاعة لما يأتي الناس آدم فيقولون له: (خلقك الله بيده وأسجد لك ملائكته وعلّمك أسماء كل شيء)[1] الحديث.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٤٧٦)، ومسلم (٦٥٦٥).

ولا يصح تأويل من قال: إن المراد باليد القدرة؛ فإن قوله: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥] لا يصح أن يكون معناه بقدرتي مع تثنية اليد، ولو صح ذلك لقال إبليس: وأنا أيضاً خلقتني بقدرتك، فلا فضل له علي بذلك، فإبليس مع كفره كان أعرف بربه من الجهمية، ولا دليل في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾﴾ [يس: ٧١]، لأنه تعالى جمع الأيدي لما أضافها إلى ضمير الجمع ليتناسب الجمعان، فاللفظان للدلالة على الملك والعظمة ولم يقل «أيدي» مضافاً إلى ضمير المفرد، ولا «يدينا» بتثنية اليد مضافاً إلى ضمير الجمع، فلم يكن قوله: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ نظير قوله: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾، وقال النبي ﷺ عن ربه ﷻ: (حجابه النور ولو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه).

ولكن لا يقال لهذه الصفات إنها أعضاء، أو جوارح، أو أركان، لأن الركن جزء الماهية، والله تعالى هو الأحد الصمد لا يتجزأ ﷻ، والأعضاء فيها معنى التفريق والتعضية ـ تعالى الله عن ذلك ـ ومن هذا المعنى قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾﴾ [الحجر: ٩١]، والجوارح فيها معنى الاكتساب والانتفاع، وكذلك الأدوات هي الآلات التي ينتفع بها في جلب المنفعة ودفع المضرة، وكل هذه المعاني منتفية عن الله تعالى. ولهذا لم يرد ذكرها في صفات الله تعالى، فالألفاظ الشرعية صحيحة المعاني سالمة من الاحتمالات الفاسدة، فكذلك يجب أن لا يعدل عن الألفاظ الشرعية نفياً ولا إثباتاً لئلا يُثبت معنى فاسد أو يُنفى معنى صحيح، وكل هذه الألفاظ المجملة عرضة للمحق والمبطل.

وأما لفظ «الجهة» فقد يراد به ما هو موجود، وقد يراد به ما هو معدوم، ومن المعلوم أنه لا موجود إلا الخالق والمخلوق، فإذا أريد بالجهة أمر موجود غير الله تعالى كان مخلوقاً والله تعالى لا يحصره شيء، ولا يحيط به شيء من المخلوقات ـ تعالى الله عن ذلك ـ، وإن أريد بالجهة أمر عدمي وهو ما فوق العالم، فليس هناك إلا الله وحده، فإذا قيل: إنه في جهة بهذا الاعتبار فهو صحيح، ومعناه: أنه فوق العالم حيث انتهت المخلوقات فهو فوق الجميع عال عليه.

ونفاةُ لفظ الجهة الذين يريدون بذلك نفي العلو يذكرون من أدلتهم أن الجهات

كلها مخلوقة، وأنه كان قبل الجهات، وأن من قال: إنه في جهة يلزمه القول بقدم شيء من العالم، وأنه كان مستغنياً عن الجهة ثم صار فيها، وهذه الألفاظ ونحوها إنما تدل على أنه ليس في شيء من المخلوقات، وسواء سمي جهة أو لم يسم، وهذا حق، ولكن الجهة ليست أمراً وجودياً بل أمر اعتباري، ولا شك أن الجهات لا نهاية لها، وما لا يوجد فيما لا نهاية له فليس بموجود.

وقول الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ: «لا تحويه الجهات الست كسائر المبتدعات» هو حق باعتبار أنه لا يحيط به شيء من مخلوقاته؛ بل هو محيط بكل شيء وفوقه، وهذا المعنى هو الذي أراده الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ لما يأتي في كلامه أنه تعالى محيط بكل شيء وفوقه، فإذا جمع بين كلاميه وهو قوله: «لا تحويه الجهات الست كسائر المبتدعات»، وقوله: «محيط بكل شيء وفوقه»، عُلم أن مراده أن الله تعالى لا يحويه شيء، ولا يحيط به شيء، كما يكون لغيره من المخلوقات، وأنه تعالى هو المحيط بكل شيء، العالي عن كل شيء.

لكن بقي في كلامه شيئان:

أحدهما: أن إطلاق مثل هذا اللفظ مع ما فيه من الإجمال والاحتمال كان تركه أولى، وإلا تسلط عليه وألزم بالتناقض في إثبات الإحاطة والفوقية ونفي جهة العلو، وإن أجيب عنه بما تقدم من أنه إنما نفى أن يحويه شيء من مخلوقاته، فالاعتصام بالألفاظ الشرعية أولى.

الثاني: أن قوله: «كسائر المبتدعات» يفهم منه أنه ما من مبتدَع إلا وهو محوي، وفي هذا نظر، فإنه إن أراد أنه محوي بأمر وجودي فممنوع، فإن العالم ليس في عالم آخر وإلا لزم التسلسل، وإن أراد أمراً عدمياً فليس كل مبتدع في العدم؛ بل منها ما هو داخل في غيره كالسمٰوات والأرض في الكرسي ونحو ذلك، ومنها ما هو منتهى المخلوقات كالعرش فسطح العالم ليس في غيره من المخلوقات قطعاً للتسلسل كما تقدم.

ويمكن أن يجاب عن هذا الإشكال بأن «سائر» بمعنى البقية، لا بمعنى الجميع، هذا أصل معناها، ومنه: السؤر، وهو ما يبقيه الشارب في الإناء، فيكون مراده: غالب المخلوقات لا جميعها، إذ «السائر» على «الغالب» أدل منه على «الجميع»، فيكون المعنى أن الله تعالى غير محوي كما يكون أكثر المخلوقات محوياً؛ بل هو

غير محوي بشيء ـ تعالى الله عن ذلك ـ ولا نظن بالشيخ رحمه الله أنه ممن يقول: إن الله تعالى ليس داخل العالم ولا خارجه بنفي التعيينين، كما ظنه بعض الشارحين، بل مراده أن الله تعالى منزّه عن أن يحيط به شيء من مخلوقاته وأن يكون مفتقراً إلى شيء منها، العرش أو غيره.

وفي ثبوت هذا الكلام عن الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه نظر، فإن أضداده قد شنعوا عليه بأشياء أهون منه، فلو سمعوا مثل هذا الكلام لشاع عنهم تشنيعهم عليه به. وقد نقل أبو مطيع البلخي عنه إثبات العلو، كما سيأتي ذكره إن شاء الله تعالى. وظاهر هذا الكلام يقتضي نفيه، ولم يرد بمثله كتاب ولا سنّة، فلذلك قلت: إن في ثبوته عن الإمام نظراً وأن الأولى التوقف في إطلاقه، فإن الكلام بمثله خطر بخلاف الكلام بما ورد عن الشارع كالاستواء والنزول ونحو ذلك. ومن ظنّ من الجهال أنه إذا نزل إلى سماء الدنيا كما أخبر الصادق، يكون فوقه ويكون محصوراً بين طبقتين من العالم. فقوله مخالف لإجماع السلف مخالف للكتاب والسنّة.

وقال شيخ الإسلام أبو عثمان إسماعيل بن عبد الرحمٰن الصابوني: سمعت الأستاذ أبا منصور بن حماد بعد روايته حديث النزول، يقول: سئل أبو حنيفة رضي الله عنه فقال: ينزل بلا كيف. انتهى.

وإنما توقف من توقف في نفي ذلك لضعف علمه بمعاني الكتاب والسنّة وأقوال السلف، لذلك ينكر بعضهم أن يكون فوق العرش، بل يقول: لا مباين ولا مجانب، لا داخل العالم ولا خارجه، فيصفونه بصفة العدم والممتنع، ولا يصفونه بما وصفه به نفسه من العلو والاستواء على العرش. ويقول بعضهم بحلوله في كل موجود، أو يقول: هو وجود كل موجود[1] ونحو ذلك ـ تعالى الله عما يقول الظالمون والجاحدون علواً كبيراً ـ وسيأتي لإثبات صفة العلو لله تعالى زيادة بيان عند الكلام على قول الشيخ رحمه الله: «محيط بكل شيء وفوقه» إن شاء الله تعالى.

---

(١) هذا قول الاتحادية.



عناصر الموضوع:

١ غرض المصنف من عقد هذا الباب:

عقد المصنف هذا الباب لبيان ذم السلف لعلم الكلام، وأنه سبب من أسباب الضلال.

٢ مناسبة هذا الباب لما سبق:

بعد أن بيّن المصنف فيما سبق أن من الإيمان: التصديق بما جاء في القرآن والسنّة المتواترة بأن المؤمنين يرونه تعالى يوم القيامة عياناً بأبصارهم، ناسب بعد ذلك أن يبين سبب الضلال في هذا الباب ألا وهو علم الكلام.

٣ معاني الكلمات:

الكلمة	المعنى
المركب	ما يدل جزء من لفظه على جزء معناه(١).
الجسم	ما كان فيه أبعاد ثلاثة: وهي الطول والعرض والعمق(٢).
الجوهر	الجوهر ضد العَرَض، وهو ما كان قائماً بنفسه كالجسم مثلاً(٣).
الحيز	هو الفراغ المتوهم الذي يشغله شيء ممتد كالجسم، أو غير ممتد كالجوهر الفرد(٤).
العَرَض	العرض ضد الجوهر، وهو ما كان قائماً بالجوهر كاللون مثلاً(٥).
الحدود	جمع حدّ وهو ما ينتهي إليه الشيء.
الغاية	نهاية الشيء.
الأركان	جمع ركن وهو الجانب القوي.

(١) التعريفات (ص٢٩٤).
(٢) التعريفات (ص١٠٣).
(٣) التعريفات (ص١٠٨).
(٤) التعريفات (ص١٥٧).
(٥) التعريفات (ص١٩٢).

الكلمة	المعنى
الأعضاء	الجوارح.
الأدوات	جمع أداة: وهي التي تعمل أعمالاً حتى يوصل بها إلى ما يراد.
المبتدعات	المحدثات.

٤ تعريف علم الكلام والجدل:

يعرِّفه المتكلمون بأنه علم يقتدر معه على إثبات العقائد الدينية بإيراد الحجج العقلية، ودفع شبه الخصوم عنها[١].

وقيل: إنه العلم بالعقائد عن طريق الأدلة اليقينية[٢].

أما علم الجدال: فهو علم باحث عن الطرق التي يقتدر بها على إبرام أي وضع أريد، ونقض أي وضع كان، مأخوذ من الجدل الذي هو أحد أجزاء مباحث المنطق لكنه خص بالعلوم الدينية[٣].

٥ سبب تسميته بعلم الكلام:

إن المتكلمين تكلموا حيث وقف السلف، فلم يفيدوا علماً لم يكن معروفاً، وإنما أتوا بزيادة كلام قد لا يفيد.

٦ التعريف بأهل الكلام[٤]:

تقدم أن أهل الكلام يختلفون فيما بينهم في تعريف علم الكلام، وكل يعرف علم الكلام من وجهة نظره ومذهبه، فمنهم من يقول: إنه العلم بالعقائد عن طريق الأدلة اليقينية[٥].

وأهل الكلام يدَّعون أنهم أهل الرأي والنظر[٦]. فأهل الكلام هم المستعملون لطريقة النظر والقياس، وهذا هو حال جمهور المتكلمين، من الجهمية، والمعتزلة، والأشعرية[٧].

---

(١) انظر: مقدمة ابن خلدون (ص٨٢٦).
(٢) انظر: شرح المقاصد للتفتازاني (١/ ١٦٣).
(٣) انظر: أبجد العلوم (٢/ ٢٠٨).
(٤) انظر: كتاب القرآن ومنزلته عند السلف لمحمد هشام (ص٢/ ١٠٧٣).
(٥) انظر: شرح المقاصد للتفتازاني (١/ ١٦٣).
(٦) انظر: المنقذ من الضلال (ص٨٩)، ومجموع الفتاوى (٢/ ٥٥)، وشرح الأصبهانية (ص٥٠٩).
(٧) انظر: مجموع الفتاوى (٢/ ٥٧).

وقد يكون بعض أهل الكلام قد خلط مع علمه بالكلام الفلسفة، أو شابه شيء منه[١]، خصوصاً أن المنطق وليد الفلسفة؛ بل التفريق بينهما تفريق بين المتماثلات، خصوصاً في طريقة الاستدلال، وإن اختلفوا في النتائج، وقد يذكرون فرقاً آخر بينهما وهو: أن المتفلسف لا يستدل بالآيات، والمنطقي يذكر بعض الآيات وهي الأدلة السمعية[٢]، ولكن هذا الفرق غير ظاهر؛ فإن الفلسفي قد يستدل ببعض الآيات التي يظن أنها توافق مذهبه كالمنطقي، وقد يذكر آية أو حديثاً لتحريفهما كالمنطقي.

وأهل الكلام نشوءهم من المنطق اليوناني، والفلسفة الإغريقية، وهما حرام إدخالهما في شرع الله، ووسيلة غير شرعية في الوصول إلى معرفة الله، إذ لم يعرفها السلف الصالح، ولا قال بجوازها عالم من العلماء المقتدى بهم في الدين، المعروفين بالعلم والعمل. قال ابن الصلاح رحمه الله: «وأما المنطق فهو مدخل الفلسفة، ومدخل الشر شر، وليس الاشتغال بتعليمه، وتعلمه مما أباحه الشارع، ولا استباحه أحد من الصحابة والتابعين، والأئمة المجتهدين، والسلف الصالحين، وسائر من يقتدى به من أعلام الأئمة وسادتها، وأركان الأمة وقادتها، قد برأ الله الجميع من معرة ذلك وأدناسه، وطهرهم من أوضاره»[٣].

فعلم الكلام المبني على المنطق، إنما هو جزء من علوم الفلسفة اليونانية التي لها فروع كثيرة، ومنها المنطق[٤].

وقال ابن خلدون: «هو علم يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية، بالأدلة العقلية»[٥]. وفرّق بين الكلام الفلسفي، وكلام أهل الكلام فقال: «وفرّقوا بينه وبين العلوم الفلسفية بأنه: قانون ومعيار للأدلة فقط!!»[٦].

وبعضهم ظن أن علم الكلام أصبح مجملاً فلا بد فيه من التفصيل نفياً، أو إيجاباً. قال السبكي رحمه الله: «إن أريد بعلم الكلام: العلم بالله تعالى وصفاته وما يستحيل عليه ليرد على المبتدعة، وليميز بين الاعتقاد الصحيح والفاسد؛ فذاك من أجل العلوم الشرعية، والعالم به من أفضلهم، وقد جعلوه في كتاب السِّير من

(١) انظر: الصفدية (٢/ ١١٣).
(٢) انظر: شرح العقائد النسفية (ص٥٥).
(٣) فتاوى ابن الصلاح (ص٧١).
(٤) انظر: مبادئ الفلسفة لأحمد أمين (ص٢١).
(٥) المقدمة لابن خلدون (ص٨٢١).
(٦) المقدمة لابن خلدون (ص٨٣٥).

فروض الكفايات، وإن أريد به التوغل في شبهة والخوض فيه على طريق الفلسفة، وتضييع الزمان فيه، والزيادة على ذلك يكون مبتدعاً وداعياً إلى ضلالة؛ فذاك باسم الجهل أحق»[١].

والصواب أن «استعمال الاصطلاحات المنطقية في مباحث الأحكام الشرعية من المنكرات المستبشعة، والرقاعات المستحدثة، وليس بالأحكام الشرعية - والحمد لله - افتقار إلى المنطق أصلاً، وما يزعمه المنطقي للمنطق من أمر الحد، والبرهان، فقاقيع قد أغنى الله عنها كل صحيح الذهن، لا سيّما من خدم نظريات العلوم الشرعية، ولقد تمت الشريعة، وعلومها، وخاض في بحار الحقائق والدقائق علماؤها، حيث لا منطق، ولا فلسفة، ولا فلاسفة»[٢].

وإدخال العلوم الفلسفية إلى المسلمين باسم المنطق محدث في الإسلام، يقول ابن خلدون: «وأول من كتب في طريقة الكلام على هذا المنحى الغزالي رَحِمَهُ اللهُ وتبعه الإمام ابن الخطيب!! وجماعة قفوا أثرهم، واعتمدوا تقليدهم، ثم توغل المتأخرون من بعدهم في مخالطة كتب الفلسفة، والتبس عليهم شأن الموضوع في العلمين فحسبوه فيهما واحداً من اشتباه المسائل فيهما»[٣].

وبيّن ابن خلدون عدم الحاجة إلى الكلام فقال: «وعلى الجملة فينبغي أن يعلم أن هذا العلم الذي هو علم الكلام غير ضروري لهذا العهد على طالب العلم؛ إذ الملاحدة والمبتدعة قد انقرضوا!!»[٤]. نعم عدم الحاجة إلى علم الكلام ظاهر، ولكن التعليل بانتهاء الملاحدة والمبتدعة غير ظاهر، وإنما لا نحتاج إلى علم الكلام - إن كان علماً - لأنه لا جدوى فيه، وعلم القاصي والداني أن نفعه مُجدبٌ، وأن ضرره مُعدٍ.

وسُمي علم الكلام بالكلام كما قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ وغيره: بسبب أن أول ظهور خلاف علمي كان في مسألة إثبات الكلام لله عَزَّ وَجَلَّ، فوقع الخلاف فيه، وحينئذ سمي هذا العلم بعلم الكلام، وقيل لأنهم كانوا يقولون: الكلام في المسألة كذا وكذا!![٥].

---

(١) مغني المحتاج (٣/ ٦٠ - ٦١).
(٢) فتاوى ابن الصلاح (ص٧١).
(٣) المقدمة لابن خلدون (ص٨٣٦).
(٤) المقدمة لابن خلدون (ص٨٣٧).
(٥) انظر: تلبيس إبليس لابن الجوزي (ص١٠٨)، وشرح العقائد النسفية (ص٥٣).

والصواب أن أهل الكلام سموا بذلك لأنهم كانوا يستدلون بالمسائل الاعتقادية بالطرق العقلية، حتى قبل ظهور علم الكلام والمنطق كما قاله شيخ الإسلام رحمه الله[١].

٧ مراحل نشأة علم الكلام[٢]:

وقد مرّ أهل الكلام بمراحل أربع[٣] وهي:

١ ـ المرحلة الأولى: مرحلة الترجمة:

وأشهر من يمثل هذه المرحلة الجهمية الأول، وتابعوهم من المعتزلة، فهؤلاء قد تأثروا بالمصطلحات اليونانية المنطقية، خصوصاً بعد ترجمة كتبهم في عهد الخليفة المأمون المعتزلي، ولكن لم يكن لأهل الكلام كتب خاصة بهم، وكانت الكتب المترجمة مخلوطة بكثير من كلام الفلاسفة اليونان، ولم يتميز بعد أهل الكلام عن الفلاسفة، وكان مقصود هذه الترجمة تفريق المسلمين، وإضعاف قواهم[٤].

٢ ـ المرحلة الثانية: وهي مرحلة التمييز:

وقد دخل بعض المنتسبين إلى السنّة ـ بالمعنى العام ـ مع أهل الكلام[٥]، بحجة مناظرتهم باصطلاحاتهم، ومن ثم تأثر بهذه المصطلحات، وهذه المرحلة أبرز من يمثلها من أهل الكلام هم الكُلَّابية، والأشاعرة، والماتريدية، وهم يظنون أنهم على السنّة؛ بل ويصرحون أنهم إنما دخلوا لنصرة السنّة بسيوف القوم!! ولكنها أصبحت في أيديهم عليهم، ومن أشهر من يمثل هذه المدرسة: عبد الله بن سعيد بن كُلَّاب، وأبو الحسن الأشعري في طور، وأبو بكر الباقلاني، وعلى هذه الطريقة مشى الجويني أبو المعالي، ووضع القواعد الكلامية، وكذلك من المعتزلة أبو هاشم الجبائي، والقاضي عبد الجبار المعتزلي أيضاً وضعوا قواعد علم الكلام.

٣ ـ المرحلة الثالثة: مرحلة الفلاسفة ومناظرتهم:

ويمثلها أبو حامد الغزالي في بعض كتبه، والرازي كذلك.

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٣/ ١٨٣).
(٢) انظر كتاب: القرآن ومنزلته عند السلف لمحمد هشام (٢/ ١٠٧٦).
(٣) انظر: المعتزلة بين القديم والحديث لمحمد العبده وطارق عبد الحليم (ص٣٧ وما بعدها).
(٤) انظر: أثر الإيمان في تحصين الأمة ضد الأفكار الهدامة (١/ ١٢٨).
(٥) انظر: الروض الباسم في الذب عن سنة أبي القاسم لابن الوزير (٢/ ٢٤٤).

٤ ـ المرحلة الرابعة: مرحلة الخلط بين الفلسفة والمنطق:
وهذه المدرسة أصبحت هي الرائدة في المتأخرين، خصوصاً بعد البيضاوي، صاحب «الطوالع».

٨ فرق أهل الكلام[١]:

والمتكلمون في المسائل العقدية على طريق أهل الكلام أصناف، وأشهر فرقِهم هي[٢]:

١ ـ **الجهمية**: أتباع جهم بن صفوان، الذين أنكروا الأسماء والصفات لله ﷻ[٣].

٢ ـ **المعتزلة**: وهم فِرَق عدة، ولكن لهم أصول خمسة، ومنها إنكار صفات الله ﷻ[٤].

٣ ـ **الكُلَّابية**: وهم أتباع عبد الله بن سعيد بن كُلَّاب، وهم وافقوا المعتزلة في إنكار بعض الصفات الخبرية، وأنكروا الصفات الاختيارية.

٤ ـ **الأشاعرة**: وهم أتباع أبي الحسن الأشعري في طوره الثاني، والمتأخرون منهم ينكرون الصفات إلا السبع، وإثباتهم لها أيضاً على طريقة المتكلمين.

٥ ـ **الماتريدية**: وهم أتباع أبي منصور الماتريدي، وهم كالأشاعرة، والاختلاف بينهم يسير.

ويلحق بهم من كان مستدلاً في المسائل العقدية على طريقتهم، ومخالفاً للسلف في نحلتهم، ويذكرون مع من ذكروا من أهل الكلام، مثل:

٦ ـ **الكرَّامية**: وهم أتباع محمد بن كرَّام السجستاني، ونسبوا إلى التشبيه[٥].

٧ ـ **الهشامية**: وهم أتباع هشام بن سالم الجواليقي، وهم مشبهة[٦].

٨ ـ **الشيعة**: وهم المدعون حب آل البيت، وهم فِرَق مختلفة منها الروافض، والزيدية، ولكنهم في المسائل العقدية على طريقة المتكلمين من المعتزلة.

---

(١) انظر كتاب: القرآن ومنزلته عند السلف لمحمد هشام (٢/ ١٠٧٧) وما بعدها.
(٢) انظر: درء تعارض العقل والنقل (١٩/ ١٥٩).
(٣) انظر: أصول الدين للبغدادي (ص٣٣٣).
(٤) انظر: المصدر السابق (ص٣٣٥).
(٥) انظر: المصدر السابق (ص٣٣٧).
(٦) انظر: المصدر السابق.

٩ ـ **المرجئة**: وهم أقسام، ولكن يجمعهم القول بأن الإيمان لا يدخل في مسمَّاه الأعمال، وإنما دخل عليهم هذا مع مخالفته لنصوص الوحيين، استدلالاتهم العقلية، بعيدة عن نور الكتاب والسنن النبوية.

١٠ ـ **القدرية**: وهم الذين أنكروا تقدير الله ﷻ للأشياء، ومنهم طوائف أنكرت قدرة الله ﷻ على فعل العبد، وكل ذلك بسبب الاستدلالات العقلية الكلامية.

١١ ـ **الهشامية**: وهم أتباع هشام بن الحكم الرافضي(١).

وهؤلاء جميعاً يسمون بأهل الكلام، وبينهم من الاختلاف الشيء الكثير؛ بل بينهم المناوشات العلمية والواقعية، ولكن إذا أطلق أهل الكلام فالمراد هم هؤلاء من غير ملام، ويجمعهم أمور، وهي:

١ ـ اتفاقهم على أن المسائل العقدية تؤخذ من العقل، وأنه إذا تعارض العقل والنقل، فالمعتبر هو العقل، وأن الوحي لا يؤخذ منه المسائل الاعتقادية، ومنهم مكثر في هذا الضلال ومقل، فمنهم من يرى أن الوحي لا يؤخذ منه شيء سواء في باب التوحيد أو في باب المعاد إلا إذا وافق العقل!! ومنهم من يقول: إن العقل لا دخل له في مسائل الإيمان باليوم الآخر، وكثير من الأمور المتعلقة بيوم القيامة وبالمعاد، ولا يثبتها بعض المتكلمين، وبعضهم أثبتها ـ ويسميها السمعيات ـ؛ ومنهم من أثبتها أيضاً بدلالة العقل عليها، وذلك لكون هذه المسائل مبنية على الأصول التي سموها العقليات(٢)، فإثباتهم ونفيهم مبني على دلالة العقل، وليس على دلالة السمع، وإنما يكون دلالة السمع عندهم جميعاً تبعاً، لا أصلاً!!!.

٢ ـ اتفاقهم على النفي، وهم أيضاً مكثرون ومقلُّون في هذا الباب، فمنهم من ينفي الأسماء والصفات بالكلية، ويقول بأن ما جاء به الرسول في هذا الباب إنما هي أسماء وإضافات لا حقيقة لها ـ وهم الجهمية ـ، ومنهم من يقول ذلك في الأسماء دون الصفات ـ كالمعتزلة ـ، ومنهم من يقول ذلك إلا في بعض الصفات ـ كالأشاعرة والماتريدية ـ، ومنهم من يقول ذلك في الصفات الاختيارية ـ كالكُلابية ـ(٣).

(١) انظر: أصول الدين للبغدادي. (٢) انظر: شرح الأصبهانية (ص٦٣١).

(٣) انظر: التدمرية (ص١٨)، وشرح الواسطية للفوزان (ص١٢٣).

٣ ـ اتفاقهم على وجوب النظر في معرفة الله ﷻ وأنه أول واجب على العبد مع اختلافهم فيما بينهم في ماهية هذا الواجب، وقرروا ذلك وجعلوه أصلاً من أصول الدين!! بينما المقرر شرعاً، والمعروف نصاً: أن النبي ﷺ كان يأمر من يريد الإسلام أن ينطق بالشهادتين، وهكذا كان يأمر الدعاة الذين يرسلهم، وهكذا كان فعل السلف[١].

٤ ـ رجوعهم جميعاً إلى القواعد والأصول المنطقية، فهم كما قال شيخ الإسلام ﷺ: «يرون أن هذه الأصول العقلية ـ وهي العلم بما يجب للرب ويمتنع عليه، وما يجوز عليه من الأفعال ـ هي أعظم العلوم وأشرفها، وهم برزوا بها على الصحابة، وأن النبي ﷺ لم يعلِّمها الصحابة...، وهذه هي الأصول العقلية التي يعتمدون عليها هم ومن وافقهم...، وكل الأصول العقلية التي ابتدعها هؤلاء وهؤلاء باطلة في العقل والشرع، وإن كانت كل واحدة من الطائفتين تعتقد أنها من أعظم الدين، ويقدمونها على الأصول الشرعية»[٢]، وقال رحمه الله: «وقلوب كثير من الناس يجول فيها أمر النبوات، وما جاءت به الرسل، وهم وإن أظهروا تصديقهم والشهادة لهم ففي قلوبهم مرض ونفاق، إذ كان ما جعلوه أصولاً لدينهم معارضاً لما جاءت به الأنبياء، وهم لم يتعلموا ما جاءت به الأنبياء، ولم يأخذوا عنهم الدلائل والأصول والبينات والبراهين»[٣].

٥ ـ أن جميع الفِرَق الكلامية التي تعتمد الأصول المنطقية هي من الفِرَق المحدثة الغوية وإن ادعت نوع تعظيم للسلف، فذلك منها مجرد ادعاء، وإلا فهي كلها بدعية.

٦ ـ مناقضة بعضهم لبعض[٤]، فالجهمي يناقض المعتزلي، والمعتزلي يناقض الكُلَّابي، والأشاعرة تناقضهم، وهكذا؛ لأن أصولهم غير سوية، فالتناقض لهم لازم، ولم يرجعوا جميعاً إلى ما به يرتفع الخلاف، وهو الكتاب والسنّة.

قال ابن الوزير رحمه الله: «إن خوض جميع المتكلمين في عقائدهم الخلافية بين الفِرَق الإسلامية يتوقف دائماً أو غالباً على الخوض في مقدمات لتلك العقائد،

---

(١) انظر: المعتزلة بين القديم والحديث لمحمد العبده، وطارق عبد الحليم (ص٢٤ وما بعدها)، ومقدمة موسى محمد علي لكتاب قواعد العقائد (ص٢٤ وما بعدها).

(٢) مجموع الفتاوى (١٣/٢٢٨ ـ ٢٢٩). (٣) النبوات (ص٢٥٣).

(٤) انظر: درء تعارض العقل والنقل (٥/٢٤٥).

وجميع تلك المقدمات مختلف فيها أشد الاختلاف بين أذكياء العالم، وفحول علم المعقولات من علماء الإسلام، دع عنك غيرهم»[١]، ثم قال: «وأعجب من كل عجيب تكفير بعضهم لبعض لسبب الاختلاف في هذه المحارات»[٢].

٧ ـ اتفاقهم على التأويل، بغض النظر عما يختلفون فيه، مما يوجبون تأويله، فهذا يفسّره بمعنى، وهذا يخالفه، وهذا يوجبه هنا، وينكره هناك، وهذا يستحبه هنا، ويكرهه هناك!! وعمدتهم الحقيقية ليست على القرآن، ولكن على أصول ابتدعها لهم شيوخهم، وما ظنوا أنه موافق من القرآن احتجوا به، وما ظنوه مخالفاً لأصولهم أوّلوه[٣]، وحتى يتسنّى لهم مخالفة الكتاب أتوا بالتأويلات المستبشعة، والتحريفات الظاهرة، حتى توافق النصوص مذاهبهم، ولا يشنع عليهم في مناهجهم، ولهذا كان الأس الأساس لمذهب المتكلمين في نصوص الصفات على وجه الخصوص ـ وفي باقي النصوص على وجه العموم ـ التأويل، وهو في حقيقته التحريف[٤]، يقول الرازي موجباً التأويل، ومحسناً إياه: «نقل الشيخ الغزالي رحمه الله عن أحمد بن حنبل رحمه الله أنه أقرّ بالتأويل في ثلاثة أحاديث»[٥]، «فلا بدّ إذاً من التأويل»؛ وهذا باطل عن الإمام أحمد، ولا يثبت عنه لا سنداً، ولا متناً[٦].

٨ ـ اتفاقهم على أن القرآن الموجود بين الدفتين مخلوق، قال ابن الجوزي رحمه الله: «أهل الكلام يقولون: ما في السماء رب، ولا في المصحف قرآن، ولا في القبر نبي، ثلاث عورات لكم»[٧].

٩ ـ اتفاقهم على نفي إثبات ما جاء في القرآن والسنّة من الصفات على اختلاف بينهم فيما ينفى ويُثبت بحجة التشبيه[٨]، فهم شبّهوا أولاً واحتاجوا إلى النفي فعطلوا ثانياً.

---

(١) إيثار الحق لابن الوزير (ص١٥). (٢) إيثار الحق لابن الوزير (ص١٩).
(٣) انظر: مجموع الفتاوى (١٣/٥٨)، وشفاء العليل (١/٢١٧، ٢٢٠ ـ ٢٢١)، وإيثار الحق لابن الوزير (ص١٢٤).
(٤) منهج الأشاعرة في العقيدة للحوالي (ص٨٦)، والعصرانيون بين مزاعم التجديد وميادين التغريب (ص٢٠).
(٥) أساس التقديس للرازي (ص٨١). (٦) انظر: مجموع الفتاوى (٥/٣٩٨).
(٧) السير (٢١/٣٧٦)، وانظر: مجموع الفتاوى (٣/٢١٨).
(٨) انظر: ما نقله الحافظ في صدد نفي الصوت والحرف في كلام الله عز وجل بحجة التشبيه، والفتح (١٣/٤٦٦).

وأهل الكلام باعتبار نفي الصفات وإثباتها ينقسمون إلى قسمين:

١ ـ أهل الكلام النفاة، وهم الجهمية والمعتزلة، ومن وافقهم.

٢ ـ أهل الكلام المثبتة، وهم الكُلابية والكرَّامية والأشعرية، ومن وافقهم[١].

٩ ذم السلف لأهل الكلام[٢]:

اتفق السلف على ذم الكلام وأهله، وصنّفوا في التشنيع عليهم، وبيّنوا عوارهم، وسوء ما يؤدي إليه هذا الفن، الذي ليس فيه إلا العفن[٣]؛ بل إن أهل الكلام أنفسهم يوردون ذم السلف للكلام وأهله ثم يردونه بالتأويلات، وكأن السلف ما عرفوا أن يتكلموا إلا بالمجملات!!.

يقول الغزالي: فاعلم أن الناس في هذا غلواً وإسرافاً في أطراف، فمن قائل: إنه بدعة أو حرام، وأن العبد إن لقي الله ﷻ بكل ذنب سوى الشرك خير له من أن يلقاه بالكلام، ومن قائل: إنه واجب، وفرض، إما على الكفاية، أو على الأعيان، وأنه أفضل الأعمال، وأعلى القربات «فإنه تحقيق لعلم التوحيد، ونضال عن جنب الله تعالى، وإلى التحريم ذهب الشافعي، ومالك، وأحمد بن حنبل، وسفيان، وجميع أهل الحديث من السلف»[٤]، ثم ذكر قول الشافعي، في ذم السلف الصالح ـ رحمهم الله ـ للكلام وأهله بأصرح العبارات، وأدق التعبيرات ـ حتى باعتراف أهل الكلام ـ، حتى يهجروا، ولا يتبعوا، وأنقل بعض النقولات، لتقف على هذه العبارات التي فيها التحذيرات:

١ ـ قال الإمام مالك رحمه الله مبيناً أن العقول ليست هي الموازين لقبول الكتاب والسنّة منكراً على أمثال هؤلاء: «أو كلما جاءنا رجل أجدل من رجل تركنا ما جاء به جبريل إلى محمد ﷺ لجدل هؤلاء؟؟»[٥].

٢ ـ قال الشافعي رحمه الله تعالى: «ما ارتدى بالكلام أحد فأفلح»[٦]. وقال أيضاً: «لأن يلقى العبد ربه بكل ذنب ما عدا الشرك خير له من أن يلقاه

---

(١) انظر: نقض المنطق (ص١٢٣، ١٢٨)، ومجموع الفتاوى (٤/ ١٥٦).

(٢) انظر: كتاب القرآن ومنزلته عند السلف لمحمد هشام (ص٢/ ١٠٨١) وما بعدها.

(٣) انظر: كتاب ذم الكلام وأهله للهروي.

(٤) الإحياء للغزالي (١/ ١٥٣).

(٥) رواه المروزي في تعظيم قدر الصلاة (٢/ ٦٧٠)، وانظر: مجموع الفتاوى (٥/ ٢٩).

(٦) رواه إبو نعيم في الحلية (٩/ ١١١).

بالكلام»[١]. وقال أيضاً: «حكمي في أهل الكلام أن يضربوا بالجريد والنعال، ويطاف بهم في العشائر، والقبائل، ويقول: هذا جزاء من ترك الكتاب والسنّة، وأقبل على الكلام». وقال أيضاً:

كل العلوم سوى القرآن مشغلة إلا الحديث وإلا الفقه في الدين
العلم ما كان فيه قال حدثنا وما سوى ذاك وسواس الشياطين[٢]

٣ ـ قال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ: «ما أحب أحد الكلام فكان عاقبته إلى خير»[٣].

٤ ـ قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ مبيناً تحذير الأئمة من بدعة الكلام والتجهم: «وكلام الأئمة مثل: مالك، وسفيان بن عيينة، وابن المبارك، وأبي يوسف، والشافعي، وأحمد، وإسحاق، والفضيل بن عياض، وبشر الحافي، وغيرهم، كثير في ذمهم وتضليلهم»[٤].

١٠ حكم علم الكلام:

ذهب السلف إلى تحريم علم الكلام، واختاره ابن أبي العز لما فيه من الضرر في الدين وإثارة الشبه والشكوك. وذهب إلى ذلك جماعة من أهل العلم كأبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد وسفيان الثوري وجمع من أئمة الحديث»[٥]. وفي هذا يقول الإمام مالك: «لو كان الكلام علماً لتكلم فيه الصحابة والتابعون كما تكلموا في الأحكام والشرائع»[٦].

وقال أبو القاسم الأصبهاني: «أنكر السلف الكلام في الجوهر والأعراض، وقالوا: لم يكن على عهد الصحابة والتابعين رضي الله عن الصحابة ورحم التابعين، ولا يخلو أن يكونوا سكتوا عن ذلك وهم عالمون به فيسعنا السكوت عما سكتوا عنه، أو يكونوا سكتوا عنه وهم غير عالمين به فيسعنا ألا نعلم ما لم يعلموه»[٧].

١١ نهاية من خاض في علم الكلام:

إن التذبذب والاضطراب والتردد هو حال كل من عدل عن الكتاب والسنّة إلى

---

(١) رواه البيهقي في السنن الكبرى (١٠/٢٠٦).
(٢) رواه أبو نعيم في الحلية (٩/١١٦). (٣) العين والأثر (ص٩١).
(٤) مجموع الفتاوى (٥/ ٢٢)، وأقاويل الثقات (ص٢٣١).
(٥) انظر: الرد على المنطقيين (ص٥١٢)، والحجة في بيان المحجة (١/١٠٢ ـ ١٠٦).
(٦) ذم الكلام [ق١٧٣]. (٧) الحجة في بيان المحجة (١/٩٩ ـ ١٠٠).

علم الكلام المذموم، أو أراد أن يجمع بينه وبين الكتاب والسنّة، وعند التعارض يتأول النص ويرده إلى الرأي والآراء المختلفة فيؤول أمره إلى الحيرة والضلال والشك، كما قال ابن رشد الحفيد، وهو من أعلم الناس بمذاهب الفلاسفة ومقالاتهم في كتابه «تهافت التهافت»، ومن الذي قال في الإلهيات شيئاً يعتد به؟ وكذلك الآمدي أفضل أهل زمانه واقف في المسائل الكبائر حائر، وكذلك الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ انتهى آخر أمره إلى الوقف والحيرة في المسائل الكلامية، ثم أعرض عن تلك الطرق، وأقبل على أحاديث الرسول ﷺ فمات والبخاري على صدره، وكذلك أبو عبد الله محمد بن عمر الرازي قال في كتابه الذي صنّفه أقسام اللذات:

نهاية إقدام العقول عقال ... وغاية سعي العالمين ضلال
وأرواحنا في وحشة من جسومنا ... وحاصل دنيانا أذى ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا ... سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا
فكم قد رأينا من رجال ودولة ... فبادوا جميعاً مسرعين وزالوا
وكم من جبال قد علت شرفاتها ... رجال فزالوا والجبال جبال

لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيتها تشفي عليلاً ولا تروي غليلاً، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن، أقرأ في الإثبات: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥]، ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠]، وأقرأ في النفي: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾ [الشورى: ١١]، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا﴾ [طه: ١١٠]، ثم قال: ومن جرّب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي.

وكذلك قال الشيخ أبو عبد الله محمد بن عبد الكريم الشهرستاني إنه لم يجد عند الفلاسفة والمتكلمين إلا الحيرة والندم حيث قال:

لعمري لقد طفت المعاهد كلها ... وسيرت طرفي بين تلك المعالم
فلم أرَ إلا واضعاً كف حائر ... على ذقن أو قارعاً سن نادم

وكذلك قال أبو المعالي الجويني: «يا أصحابنا لا تشتغلوا بالكلام، فلو عرفت أن الكلام يبلغ بي إلى ما بلغ ما اشتغلت به»، وقال عند موته: «لقد خضت البحر الخضم وخليت أهل الإسلام وعلومهم، ودخلت في الذي نهوني عنه، والآن فإن لم يتداركني ربي برحمته، فالويل لابن الجويني، وها أنا ذا أموت على عقيدة أمي، أو قال على عقيدة عجائز نيسابور».

وكذلك قال شمس الدين الخسرو شاهي، وكان من أجلّ تلامذة فخر الدين الرازي لبعض الفضلاء وقد دخل عليه يوماً فقال: ما تعتقده؟ قال: ما يعتقده المسلمون؟ فقال: وأنت منشرح الصدر لذلك مستيقن به، أو كما قال، فقال: نعم، فقال: أشكر الله على هذه النعمة، لكني والله ما أدري ما أعتقد، والله ما أدري ما أعتقد، والله ما أدري ما أعتقد، وبكى حتى أخضل لحيته.

ولابن أبي الحديد الفاضل المشهور بالعراق:

فيك يا أغلوطة الفكر حار أمري وانقضى عمري
سافرتْ فيك العقول فما ربحت إلا أذى السفر
فلحى اللّه الأولى زعموا أنك المعروف بالنظر
كذبوا إن الذي ذكروا خارج عن قوة البشر

وقال الخوفجي عند موته: «ما عرفت مما حصلته شيئاً سوى أن الممكن يفتقر إلى المرجح»، ثم قال: «الافتقار وصف سلبي، أموت وما عرفت شيئاً».

وقال آخر: اضطجع على فراشي وأضع اللحفة على وجهي، وأقابل بين حجج هؤلاء وهؤلاء حتى يطلع الفجر ولم يترجح عندي منها شيء.

ومن يصل إلى مثل هذه الحال إن لم يتداركه الله برحمته وإلا تزندق، كما قال أبو يوسف: من طلب الدين بالكلام تزندق، ومن طلب المال بالكيمياء أفلس، ومن طلب غريب الحديث كذب. وقال الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ: حكمي في أهل الكلام أن يضربوا بالجريد والنعال ويطاف بهم في القبائل والعشائر، ويقال: هذا جزاء من ترك الكتاب والسنّة وأقبل على الكلام.

وقال: لقد اطلعت من أهل الكلام على شيء ما ظننت مسلماً يقوله ولأن يبتلى العبد بكل ما نهى الله عنه ما خلا الشرك بالله خير له من أن يبتلى بالكلام، انتهى.

وتجد أحد هؤلاء عند الموت يرجع إلى مذهب العجائز، فيقرّ بما أقروا به، ويعرض عن تلك الدقائق المخالفة لذلك، التي كان يقطع بها، ثم تبين له فسادها، أو لم يتبين له صحتها، فيكونون في نهاياتهم إذا سلموا من العذاب بمنزلة أهل العلم من الصبيان والنساء والأعراب.

(١٢) دخول الفساد في العالم:

إنما دخل الفساد في العالم من ثلاث فِرَق كما قال عبد الله بن المبارك رحمة الله عليه:

رأيت الذنوب تميت القلوب وقد يورث الذل إدمانها
وترك الذنوب حياة القلوب وخير لنفسك عصيانها
وهل أفسد الدين إلا الملوك وأحبار سوء ورهبانها

فالملوك جائرة يعترضون على الشريعة بالسياسات الجائرة ويعارضونها بها ويقدمونها على حكم الله ورسوله.

وأحبار السوء وهم العلماء الخارجون عن الشريعة بآرائهم وأقيستهم الفاسدة المتضمنة تحليل ما حرم الله ورسوله، وتحريم ما أباحه، واعتبار ما ألغاه، وإلغاء ما اعتبره، وإطلاق ما قيده، وتقييد ما أطلقه ونحو ذلك.

والرهبان وهم جهّال المتصوفة المعترضون على حقائق الإيمان والشرع بالأذواق والمواجيد والخيالات والكشوفات الباطلة الشيطانية المتضمنة شرع دين لم يأذن به الله وإبطال دينه الذي شرعه على لسان نبيه والتعوض عن حقائق الإيمان بخدع الشيطان وحظوظ النفس.

فقال الأولون: إذا تعارضت السياسة والشرع قدمنا السياسة، وقال الآخرون: إذا تعارض العقل والنقل قدمنا العقل، وقال أصحاب الذوق: إذا تعارض الذوق والكشف وظاهر الشرع قدمنا الذوق والكشف.

(١٣) أول من عارض النص إبليس ومثله أهل الفِرَق والرأي والسياسة:

وكل من قال برأيه وذوقه وسياسته مع وجود النص أو عارض النص بالمعقول فقد ضاهى إبليس؛ حيث لم يسلِّم لأمر ربه؛ بل قال: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢]، وقال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾﴾ [النساء: ٨٠]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [آل عمران: ٣١]، وقال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٥]، أقسم سبحانه بنفسه أنهم لا يؤمنون حتى يحكموا نبيه ويرضوا بحكمه ويسلِّموا تسليماً.

(١٤) الدواء النافع للحيرة والشك:

والدواء النافع لمثل هذا المرض ما كان طبيب القلوب ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ يقوله: إذا قام من الليل يفتتح الصلاة: (**اللهم ربّ جبرائيل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السمٰوات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك**

فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم)[١] خرّجه مسلم.

توجه ﷺ إلى ربه بربوبية جبرائيل وميكائيل وإسرافيل أن يهديه لما اختلف فيه من الحق بإذنه، إذ حياة القلب بالهداية، وقد وكّل الله سبحانه هؤلاء الثلاثة بالحياة، فجبرائيل موكل بالوحي الذي هو سبب حياة القلوب، وميكائيل بالقطر الذي هو سبب حياة الأبدان وسائر الحيوان، وإسرافيل بالنفخ في الصور الذي هو سبب حياة العالم وعود الأرواح إلى أجسادها، فالتوسل إلى الله سبحانه بربوبية هذه الأرواح العظيمة الموكلة بالحياة له تأثير عظيم في حصول المطلوب والله المستعان.

١٥ معنى التأويل:

التأويل مصدر أوّل من باب التفعيل، لغة: بمعنى الرجوع.

واصطلاحاً: له أربعة معانٍ ثلاثة منها صحيحة:

الأول: العمل بالنص؛ أي إتيان المأمور به واجتناب النواهي، هذا إذا كان النص إنشاءً: أمراً ونهياً (نحو يتأول القرآن).

والثاني: وقوع الخبر كما هو في الواقع ماضياً كان أو حالاً، أو مستقبلاً، نحو: ﴿هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰيَ﴾ [يوسف: ١٠٠] أو ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُۥ﴾ [الأعراف: ٥٣].

والثالث: التفسير والإيضاح والشرح للنص، نحو قول السلف: تأويل قوله تعالى: كذا؛ أي تفسيره كذا.

وأما المعنى الباطل: فهو صرف الكلام عن ظاهره المتبادر إلى الذهن إلى معنى آخر غير ظاهر.

وهذا في الحقيقة تحريف[٢]، وقد صرح بذلك أئمة السنّة.

والتأويل البدعي يكون بدافع الانحراف والزيغ والضلال وهو الأثر الذي يتكون في نفس الزائغ والضال، فهو باطل. وشرط قبول التأويل الصحيح استناده إلى قرينة أو دليل.

١٦ تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ٧]:

يخبر تعالى عن عظمته، وكمال قيوميته، وأنه هو الذي تفرّد بإنزال الكتاب

---

(١) أخرجه مسلم (٧٧٠).

(٢) تهذيب اللغة (١٥/٤٣٧)، ومجموع الفتاوى (٣/٥٥ ـ ٥٦، ٥/٣٥ ـ ٣٦)، والتعريفات (ص٥٠)، وتحفة المريد (ص٩١).

العظيم، الذي لم يوجد له نظير أو مقارب في هدايته وبلاغته وإعجازه وإصلاحه للخلق، وأن هذا الكتاب يحتوي على المحكم الواضح المعاني البيِّن، الذي لا يشبه بغيره، ومنه آيات متشابهات، تحتمل بعض المعاني، ولا يتعين منها واحد من الاحتمالين بمجردها حتى تضم إلى المحكم، فالذين في قلوبهم مرض وزيغ وانحراف لسوء قصدهم، يتبعون المتشابه منه، فيستدلون به على مقالاتهم الباطلة وآرائهم الزائفة، طلباً للفتنة وتحريفاً لكتابه، وتأويلاً له على مشاربهم ومذاهبهم لِيَضلوا ويُضلوا، أما أهل العلم الراسخون فيه، الذين وصل العلم واليقين إلى أفئدتهم، فأثمر لهم العمل والمعارف، فيعلمون أن القرآن كله من عند الله وأنه حق، محكمه ومتشابه، وأن الخلق لا يتناقض ولا يختلف، فلعلمهم أن المحكمات معناها في غاية الصراحة والبيان، يردون إليها المشتبه الذي تحصل فيه الحيرة لنا وناقص العلم وناقص المعرفة، فيردون المتشابه إلى المحكم، فيعود كله محكماً، ويقولون: «آمنّا به كل من عند ربنا وما يذكر» للأمور النافعة الصائبة «إلا أولو الألباب» أي أهل العقول الرزينة.

ففي هذا دليل على أن هذا من علامة أولي الألباب، وأن اتباع المتشابه من أوصاف أهل الآراء السقيمة، والعقول الواهية والمقاصد السيئة.

وقوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ إن أريد بها معرفة عاقبة الأمور، وما تنتهي إليه وتؤول، تعين الوقوف على ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ حيث هو تعالى المتفرد بالتأويل بهذا المعنى، وإن أريد بالتأويل، معنى التفسير، ومعرفة معنى الكلام، كان العطف أولىٰ فيكون هذا مدحاً للراسخين في العلم، وأنهم يعلمون كيف ينزلون نصوص الكتاب والسنّة محكمها ومتشابهها، المقصود أن الآية لا تدل على أن في القرآن شيئاً لا يعلم معناه إلا الله تعالى، إنما تدل على أن في القرآن شيئاً لا يعلم حقيقته وكنهه إلا الله على قراءة الوقف، وتدل على الراسخين في العلم يعلمون معنى المتشابه الذي يخفى على كثير من الناس على قراءة الوصل.

(١٧) الرد على من قال: أن الأخذ بظاهر القرآن ضلال:

زعم كثير من المعطلة أن ظواهر آيات الصفات وأحاديثها غير لائقة بالله، لأن ظواهرها المتبادرة منها ما هو تشبيه صفات الله بصفات خلقه، وعقد ذلك المقري في إضاءته في قوله:

والنص إن أوهم غير اللائق ... بالله كالتشبيه بالخلائق

فاصرفه عن ظاهره إجماعاً ... واقطع الممتنع الأطماعا

وكذا قال صاحب «الجوهرة»:

وكل نص أوهم التشبيها ... أوّله أو فوّض ورم تنزيها

ومعنى هذا أن كل نص في القرآن الكريم فيه صفة الله ﷻ، ويوهم المشابهة بصفات المخلوقين بزعمهم يصرف عن ظاهره.

وهذه الدعوى باطلة بل هي من أعظم الافتراء على آيات الله تعالى وأحاديث رسوله ﷺ، والواقع في نفس الأمر أن ظاهر آيات الصفات وأحاديثها المتبادرة منها لكل مسلم رَاجَعَ عقله هي مخالفة صفات الله لصفات خلقه، ولابدّ أن نتساءل هنا فنقول: أليس الظاهر المتبادر مخالفة الخالق للمخلوق في الذات والصفات والأفعال؟

والجواب الذي لا جواب غيره: بلى، وهل تشابهت صفات الله مع صفات خلقه حتى يقال: إن اللفظ الدال على صفته تعالى ظاهره المتبادر منه تشبيهه بصفة الخلق؟

فبأي وجه يتصور عاقل أن لفظاً أنزله الله في كتابه مثلاً دالًّا على صفة من صفات الله، أثنى بها الله تعالى على نفسه يكون ظاهره المتبادر منه مشابهته لصفة الخلق؟

سبحانك.. هذا بهتان عظيم، فالخالق والمخلوق متخالفان كل التخالف، وصفاتهما متخالفة كل التخالف، فبأي وجه يعقل دخول صفة المخلوق في اللفظ الدال على صفة الخالق؟ أو دخول صفة الخالق في اللفظ الدال على صفة المخلوق مع كمال المخلوق المنافاة بين الخالق والمخلوق؟

فكل لفظ دلّ على صفة الخالق ظاهره المتبادر منه أن يكون لائقاً بالخالق منزّهاً عن مشابهة صفات المخلوق، وكذلك اللفظ الدال على صفة المخلوق لا يعقل أن تدخل فيه صفة الخالق..

إن حقيقة قولهم: «إن ظاهر القرآن والحديث هو الضلال وإنه ليس فيه بيان ما يصلح من الاعتقاد ولا فيه بيان التوحيد والتنزيه» هي حقيقة قول المتأولين.

والحق أن ما دلّ عليه القرآن فهو حق، وما كان باطلاً لم يدل عليه، والمنازعون يدعون دلالته على الباطل الذي يتعين صرفه.

فيقال لهم: هذا الباب الذي فتحتموه وإن كنتم تزعموا أنكم تنتصرون به على

إخوانكم المؤمنين في مواضع قليلة خفية، فقد فتحتم عليكم باباً لأنواع المشركين والمبتدعين لا تقدرون على سدّه، فإنكم إذ سوغتم صرف القرآن عن دلالته المفهومة بغير دليل شرعي، فما الضابط فيما يسوغ تأويله وما لا يسوغ؟!

فإن قلتم: ما دل القاطع العقلي على استحالته تأولناه وإلا أقررناه، قيل لكم: وبأي عقل نزن القاطع العقلي؟ فإن القرمطي الباطني يزعم قيام القواطع على بطلان ظواهر الشرع، ويزعم الفيلسوف قيام القواطع على بطلان حشر الأجساد، ويزعم المعتزلي قيام القواطع على امتناع رؤية الله تعالى وعلى امتناع قيام علم أو كلام أو رحمة به تعالى، وباب التأويلات التي يدّعي أصحابها وجوبها بالمعقولات أعظم من أن تنحصر في هذا المقام.

ويلزم حينئذ محذوران عظيمان:

أحدهما: أن لا نقرّ بشيء من معاني الكتاب والسنّة حتى نبحث قبل ذلك بحوثاً طويلة عريضة في إمكان ذلك بالعقل، وكل طائفة من المختلفين في الكتاب يدعون أن العقل يدل على ما ذهبوا إليه فيؤول الأمر إلى الحيرة.

المحذور الثاني: أن القلوب تتخلى عن الجزم بشيء تعتقده مما أخبر به الرسول، إذ لا يوثق بأن الظاهر هو المراد والتأويلات مضطربة، فيلزم عزل الكتاب والسنّة عن الدلالة والإرشاد إلى ما أنبأ الله به العباد وخاصة النبي هي الأنبياء، والقرآن هو النبأ العظيم، ولهذا نجد أهل التأويل إنما يذكرون نصوص الكتاب والسنّة للاعتضاد لا للاعتماد، إن وافقت ما ادعوا أن العقل دلّ عليه قبلوه، وإن خالفته أوّلوه، وهذا فتح باب الزندقة، نسأل الله العافية.

(١٨) معنى قول الطحاوي: «ومن لم يَتَوَقَّ النفي والتشبيه، زلّ ولم يصب التنزيه»:

على المسلم أن يحذر من أمرين:

الأول: نفي ما وصف الله به نفسه، والإلحاد فيه وتحريفه عن معناه الحقيقي المراد منه.

الثاني: التشبيه بأن يشبه الخالق بالمخلوق في شيء مما يتعلق به في ذاته وأفعاله، وأسمائه وصفاته.

وهما مجموعان في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

فمن لم يتجنّب هذين الأمرين زلّ في عقيدته وأخطأ، وجانب الصواب، ولم يصب تنزيه الله ﷻ عن الشريك والمثيل والندّ والنظير؛ ذلك أن الله متصف بصفات الوحدانية في ذاته وأفعاله وأسمائه وصفاته، في خلقه وأمره.

(١٩) مفهوم التشبيه عند أهل السنّة:

هو وصف الله بشيء من خصائص المخلوقين، وذلك بأن يثبت لله تعالى في ذاته، أو صفاته، أو أفعاله من الخصائص مثل ما يثبت للمخلوقين من الصفات.

ومذهب أهل السنّة أن لا يوصف الله ﷻ إلا بما ثبت في الكتاب والسنّة من غير تشبيه ولا تمثيل ولا تكييف ولا تعطيل، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[(١)].

(٢٠) التشبيه في اصطلاح المتكلمين:

مفهومه: أنهم جعلوا إثبات الصفات كلها أو بعضها تشبيهاً، وظنوا أن هذا هو التشبيه الذي يجب نفيه عن الله تعالى، وأن إثبات صفة للخالق ﷻ مما فيه اشتراك بين صفات الخالق والمخلوق في اللفظ والمعنى العام هو التشبيه.

(٢١) أنواع التشبيه:

التشبيه نوعان:

النوع الأول: تشبيه الخالق بالمخلوق، كقول القائل: لله سمع كسمعي.

قال إسحاق: «وإنما يكون التشبيه إذا قال: يد كيدي، أو مثل يدي، أو سمع كسمعي، أو مثل سمعي، فهذا تشبيه، أما إذا قال كما قال الله تعالى: يد وسمع وبصر، ولا يقول كيف، ولا يقول مثل سمع، ولا كسمع، فهذا لا يكون تشبيهاً عنده»[(٢)].

وقال الإمام أحمد: «من قال: بصر كبصري، ويد كيدي، وقدم كقدمي، فقد شبّه الله»[(٣)].

النوع الثاني: تشبيه المخلوق بالخالق، كقول النصارى: إن عيسى هو ابن الله، أو ثالث ثلاثة.

(٢٢) أمراض القلوب:

إن نفي الصفات الواردة في الكتاب والسنّة أو تشبيهها بصفات المخلوقين هي من أمراض القلب؛ حيث أن أمراض القلوب نوعان:

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٦/ ٣٥ ـ ٣٦)، ودرء التعارض (٤/ ١٤٦)، ومنهاج السنة (٢/ ٥٩٤).
(٢) سنن الترمذي (٣/ ٥١). (٣) إبطال التأويلات (ص٤٣).

مرض شبهة ومرض شهوة.

(٢٣) معنى قول الطحاوي: «فإن ربنا جل وعلا، موصوف بصفات الوحدانية، منعوت بنعوت الفردانية، ليس في معناه أحد من البرية»:

صفات الوحدانية هي أن الله واحد لا شريك له، لا في ربوبيته ولا في ألوهيته، ولا في أسمائه ولا في صفاته، فهو واحد في كل هذه الحقائق، موصوف بصفات الكمال ونعوت الجلال، التي لا يشبهه فيها أحد من خلقه، بل أسماؤه وصفاته خاصة به ولائقة به، وصفات وأسماء المخلوقين خاصة بهم ولائقة بهم، وبهذا يتضح لك الحق والصواب وتبرأ من طريقة المعطلة والمشبهة.

(٢٤) الفرق بين الوصف والنعت:

والوصف والنعت مترادفان، وقيل: متقاربان؛ فالوصف للذات والنعت للفعل، وكذلك الوحدانية والفردانية، وقيل في الفرق بينهما: إن الوحدانية للذات، والفردانية للصفات، فهو تعالى موحد في ذاته، منفرد بصفاته، وهذا المعنى حق ولم ينازع فيه أحد، ولكن في اللفظ نوع تكرير، وللشيخ نظير هذا التكرير في مواضع من العقيدة وهو بالخطب والأدعية أشبه منه بالعقائد، والتسجيع بالخطب أليق و﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ أكمل في التنزيه من قوله: ليس في معناه أحد من البرية.

(٢٥) معنى قول الطحاوي: «وتعالى عن الحدود والغايات، والأركان والأعضاء والأدوات، لا تحويه الجهات الست كسائر المبتدعات»:

إن هذه الألفاظ التي ساقها الإمام الطحاوي فيها إجمال، ولكن يحمل كلامه على الحق؛ لأنه من أهل السنّة والجماعة، ولأنه من أئمة المحدثين، فلا يمكن أن يقصد المعاني الباطلة.

(٢٦) حكم الألفاظ التي لم ترد في الشرع وتنازع فيها المتأخرون:

ما تنازع فيه المتأخرون مما ليس في الكتاب ولا في السنّة ولا عند سلف الأمة فليس لأحد أن يثبته أو ينفيه، لعدم ورود السمع به، وليس له أن يقبل معناه أو يرده حتى يعلم المراد منه، فإن كان حقاً واجباً وجب قبوله، وإن كان باطلاً وجب ردّه. ولذلك أمثلة منها:

١ ـ **الجهة**: أي لو قال قائل: إن الله في جهة، أو هل لله جهة؟ فإذا أجريناه

على القاعدة قلنا: أما اللفظ فلا نثبته ولا ننفيه لعدم ورود ذلك، وأما المعنى فينظر ماذا يراد بالجهة: أيُراد بالجهة شيء مخلوق محيط بالله ﷻ؟ فهذا معنى باطل، لأن الله لا يحيط به شيء من مخلوقاته، أم يُراد بالجهة ما فوق العالم؟ فهذا حق ثابت؛ فإن الله فوق خلقه عال عليهم.

٢ ـ **الحيز أو المتحيز**: فإذا قال قائل: هل نصف الله بأنه متحيز أو في حيز؟ فإذا أجريناه على القاعدة قلنا: أما اللفظ فلا نثبته ولا ننفيه لعدم ورود ذلك، وأما المعنى فينظر ماذا يراد بالحيز أو المتحيز:

أ ـ أيُراد بالحيز أن الله تعالى منحاز عن المخلوقات؟ أي مباين لها منفصل عنها ليس حالّاً ولا هي حالَّةٌ فيه؟ فهذا ثابت، لأن الله فوق سماواته على عرشه بائن من خلقه.

ب ـ أم يُراد بالحيز أن الله تحوزه المخلوقات وتحيط به؟ فهذا معنى باطل، لأن الله أعظم وأكبر من أن تحيط به المخلوقات.

(٢٧) مذاهب الناس في المصطلحات الحادثة:

إن للناس في إطلاق مثل هذه الألفاظ ثلاثة أقوال: فطائفة تنفيها، وطائفة تثبتها، وطائفة تفصل، وهم المتبعون للسلف، فلا يطلقون نفيها ولا إثباتها إلا إذا تبين ما أثبت بها فهو ثابت، وما نفي بها فهو منفي، لأن المتأخرين قد صارت هذه الألفاظ في اصطلاحهم فيها إجمال وإبهام كغيرها من الألفاظ الاصطلاحية، فليس كلهم يستعملها في نفس معناها اللغوي، ولهذا كان النفاة ينفون بها حقاً وباطلاً ويذكرون عن مثبتها ما لا يقولون به، وبعض المثبتين لها يدخل لها معنى باطلاً مخالفاً لقول السلف ولما دلّ عليه الكتاب والميزان، ولم يرد نص من الكتاب ولا من السنّة بنفيها ولا إثباتها، وليس لنا أن نصف الله تعالى بما لم يصف به نفسه ولا وصفه به رسوله نفياً ولا إثباتاً، وإنما نحن متبعون لا مبتدعون.

فالواجب أن ينظر في هذا الباب ـ أعني باب الصفات، فما أثبته الله ورسوله أثبتناه، وما نفاه الله ورسوله نفيناه، والألفاظ التي ورد بها النص يعتصم بها في الإثبات والنفي، فنثبت ما أثبته الله ورسوله من الألفاظ والمعاني، وننفي ما نفته نصوصهما من الألفاظ والمعاني.

وأما الألفاظ التي لم يرد نفيها ولا إثباتها فلا تطلق حتى ينظر في مقصود

قائلها، فإن كان معنى صحيحاً قُبِل، لكن ينبغي التعبير عنه بألفاظ النصوص دون الألفاظ المجملة إلا عند الحاجة مع قرائن تبين المراد والحاجة، مثل أن يكون الخطاب مع من لا يتم المقصود معه إن لم يخاطب بها ونحو ذلك.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وأما مخاطبة أهل اصطلاحهم ولغتهم فليس بمكروه إذا احتيج إلى ذلك وكانت المعاني صحيحة، كمخاطبة العجم من الروم والفرس والترك بلغتهم وعرفهم، فإن هذا جائز حسن للحاجة، وإنما كرهه الأئمة إذا لم يحتج إليه، ولهذا قال النبي ﷺ لأم خالد بنت خالد بن سعيد بن العاص وكانت صغيرة ولدت بأرض الحبشة لأن أباها كان من المهاجرين إليها، فقال لها: **(يا أم خالد! هذا سنا)** و«السنا» **بلسان الحبشة؛ الحسن**؛ لأنها كانت من أهل هذه اللغة، وكذلك يترجم القرآن والحديث لمن يحتاج إلى تفهيمه إياه بالترجمة، وكذلك يقرأ المسلم ما يحتاج إليه من كتب الأمم وكلامهم بلغتهم، ويترجمها بالعربية كما أمر النبي زيد بن ثابت أن يتعلم كتاب اليهود ليقرأ له ويكتب له ذلك حيث لم يأمن من اليهود عليه.

فالسلف والأئمة لم يكرهوا الكلام لمجرد ما فيه من الاصطلاحات المولدة، كلفظ الجوهر والعرض والجسم وغير ذلك، بل لأن المعاني التي يعبرون عنها بهذه العبارات فيها من الباطل المذموم في الأدلة والأحكام ما يجب النهي عنه، لاشتمال هذه الألفاظ على معانٍ مجملة في النفي والإثبات، كما قال الإمام أحمد في وصفه لأهل البدع، فقال: هم مختلفون في الكتاب، مخالفون للكتاب، متفقون على مخالفة الكتاب، يتكلمون بالمتشابه من الكلام، ويلبسون على جهال الناس بما يتكلمون به من المتشابه.

فإذا عرفت المعاني التي يقصدونها بأمثال هذه العبارات ووزنت بالكتاب والسنّة، بحيث يثبت الحق الذي أثبته الكتاب والسنّة وينفي الباطل الذي نفاه الكتاب والسنّة كان ذلك هو الحق، بخلاف ما سلكه أهل الأهواء من التكلم بهذه الألفاظ نفياً وإثباتاً في الوسائل والمسائل من غير بيان التفصيل والتقسيم الذي هو الصراط المستقيم، وهذا من مثارات الشبهة فإنه لا يوجد في كلام النبي ﷺ ولا أحد من الصحابة والتابعين ولا أحد من الأئمة المتبوعين أنه علق بمسمى لفظ الجوهر والجسم والتحيز والعرض، ونحو ذلك شيء من أصول الدين لا الدلائل ولا المسائل، والمتكلمون بهذه العبارات يختلف مرادهم بها تارة لاختلاف

الوضع، وتارة لاختلافهم في المعنى الذي هو مدلول اللفظ، كمن يقول: الجسم هو المؤلف، ثم يتنازعون هل هو الجوهر الواحد بشرط تأليفه أو الجوهران فصاعداً، أو الستة أو الثمانية أو غير ذلك، ومن يقول: هو الذي يمكن فرض الأبعاد الثلاثة فيه وأنه مركب من المادة والصورة، ومن يقول: هو الموجود أو الموجود القائم بنفسه وأن الموجود لا يكون إلا كذلك.

والسلف والأئمة الذين ذموا وبدَّعوا الكلام في الجوهر والجسم والعَرَض تضمن كلامهم ذم من يدخل المعاني التي يقصدها هؤلاء بهذه الألفاظ في أصول الدين في دلائله وفي مسائله نفياً وإثباتاً.

فأما إذا عرف المعاني الصحيحة الثابتة بالكتاب والسنّة وعبّر عنها لم يفهم بهذه الألفاظ ليتبين ما وافق الحق من معاني هؤلاء وما خالفه، فهذا عظيم المنفعة، وهو من الحكم بالكتاب بين الناس فيما اختلفوا فيه، كما قال تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣]، وهو مثل الحكم بين سائر الأمم بالكتاب فيما اختلفوا فيه من المعاني التي يعبرون عنها بوضعهم وعرفهم، وذلك يحتاج إلى معرفة معاني الكتاب والسنّة ومعرفة معاني هؤلاء بألفاظهم ثم اعتبار هذه المعاني بهذه المعاني ليظهر الموافق والمخالف»(١).

٢٨ الخلاصة:

١ ـ إن المتكلمين تكلموا حيث وقف السلف، فلم يفيدوا علماً لم يكن معروفاً، وإنما أتوا بزيادة كلام قد لا يفيد.

٢ ـ ذهب السلف إلى تحريم علم الكلام، واختاره ابن أبي العز لما فيه من الضرر في الدين وإثارة الشبه والشكوك. وذهب إلى ذلك جماعة من أهل العلم كأبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد وسفيان الثوري وجمع من أئمة الحديث.

٣ ـ إن التذبذب والاضطراب والتردد هو حال كل من عدل عن الكتاب والسنّة إلى علم الكلام المذموم، أو أراد أن يجمع بينه وبين الكتاب والسنّة، وعند التعارض يتأول النص ويرده إلى الرأي والآراء المختلفة، فيؤول أمره إلى الحيرة والضلال والشك.

---

(١) مجموع الفتاوى (٣/٣٠٦ ـ ٣٠٨).

٤ ـ إنما دخل الفساد في العالم من ثلاث فرق: الملوك وأحبار السوء والرهبان.

٥ ـ كل من قال برأيه وذوقه وسياسته مع وجود النص، أو عارض النص بالمعقول، فقد ضاهى إبليس حيث لم يسلم لأمر ربه، بل قال: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾ [الأعراف: ١٢]، والدواء النافع للحيرة والشك هو ما كان طبيب القلوب صلوات الله وسلامه عليه يقوله إذا قام من الليل يفتتح الصلاة: (**اللهم ربّ جبرائيل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السمٰوات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم**).

٦ ـ التأويل البدعي يكون بدافع الانحراف والزيغ والضلال، وهو الأثر الذي يتكوّن في نفس الزائغ والضال، فهو باطل، وشرط قبول التأويل الصحيح استناده إلى قرينة أو دليل.

٧ ـ بطلان دعوى من قال: الأخذ بظاهر القرآن ضلال، بل هي من أعظم الافتراء على آيات الله تعالى وأحاديث رسوله ﷺ، ويلزم منها محاذير باطلة.

٨ ـ على المسلم أن يحذر من أمرين:

الأول: نفي ما وصف الله به نفسه، والإلحاد فيه وتحريفه عن معناه الحقيقي المراد منه.

الثاني: التشبيه بأن يشبه الخالق بالمخلوق في شيء مما يتعلق به في ذاته وأفعاله، وأسمائه وصفاته.

٩ ـ مذهب أهل السنّة أن لا يوصف الله ﷻ إلا بما ثبت في الكتاب والسنّة من غير تشبيه ولا تمثيل ولا تكييف ولا تعطيل، ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾.

١٠ ـ التشبيه نوعان:

النوع الأول: تشبيه الخالق بالمخلوق، كقول القائل: لله سمع كسمعي.

النوع الثاني: تشبيه المخلوق بالخالق، كقول النصارى: إن عيسى هو ابن الله أو ثالث ثلاثة.

١١ ـ إن نفي الصفات الواردة في الكتاب والسنّة أو تشبيهها بصفات المخلوقين هو من أمراض القلب.

١٢ ـ صفات الوحدانية هي: أن الله واحد لا شريك له، لا في ربوبيته ولا في ألوهيته، ولا في أسمائه ولا في صفاته، فهو واحد في كل هذه الحقائق، موصوف بصفات الكمال ونعوت الجلال، التي لا يشبهه فيها أحد من خلقه.

١٣ ـ الوصف والنعت مترادفان، وقيل: متقاربان، فالوصف للذات والنعت للفعل.

١٤ ـ ما تنازع فيه المتأخرون مما ليس في الكتاب ولا في السنّة ولا عند سلف الأمة فليس لأحد أن يثبته أو ينفيه، لعدم ورود السمع به، وليس له أن يقبل معناه أو يرده حتى يعلم المراد منه، فإن كان حقاً واجباً وجب قبوله، وإن كان باطلاً وجب ردّه.

٢٩ المناقشة:

- **س١:** عرِّف علم الكلام، وما سبب تسميته بذلك؟.
- **س٢:** ما حكم علم الكلام؟
- **س٣:** اضرب أمثلة لنهاية من خاض في علم الكلام.
- **س٤:** اذكر أوجه دخول الفساد في العالم.
- **س٥:** ما الدواء النافع للحيرة والشك؟
- **س٦:** ما معنى التأويل؟ مع ذكر المعاني الصحيحة والفاسدة.
- **س٧:** كيف ترد على من يقول أن ظاهر القرآن كفر؟
- **س٨:** ما مفهوم التشبيه عند أهل السنّة؟
- **س٩:** ما معنى التشبيه في اصطلاح المتكلمين؟
- **س١٠:** ما أنواع التشبيه؟
- **س١١:** بيّن أنواع أمراض القلوب.
- **س١٢:** ما الفرق بين الوصف والنعت؟
- **س١٣:** ما حكم الألفاظ والمصطلحات التي لم ترد في الشرع؟ مع بيان مذاهب الناس فيها.
- **س١٤:** عدّد فرق أهل الكلام.
- **س١٥:** تكلم حول مراحل نشأة الكلام.
- **س١٦:** اذكر بعض نصوص السلف في ذمهم لعلم الكلام وأهله.

الإسراء والمعراج

* كلام ابن أبي العز:

١ ـ غرض المصنف من عقد هذا الباب.

٢ ـ مناسبة الباب لما سبق.

٣ ـ معاني الكلمات.

٤ ـ معنى قول الطحاوي: «والمعراج حق، وقد أسري بالنبي ﷺ وعرج بشخصه في اليقظة إلى السماء، ثم إلى حيث شاء الله من العلا، وأكرمه الله بما شاء، وأوحى إليه ما أوحى، ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾﴾ [النجم: ١١]، فصلّى الله عليه وسلم في الآخرة والأولى».

٥ ـ مقام العبودية.

٦ ـ متى كانت حادثة الإسراء والمعراج.

٧ ـ هل لليلة الإسراء فضل خاص.

٨ ـ المفاضلة بين ليلة الإسراء وليلة القدر.

٩ ـ حكم الإيمان بالإسراء والمعراج ومناسبة ذكرهما في العقيدة.

١٠ ـ حكم منكر الإسراء والمعراج.

١١ ـ الحكمة من الإسراء من مكة إلى بيت المقدس.

١٢ ـ حديث الإسراء والمعراج.

١٣ ـ مذاهب الناس في شأن الإسراء والمعراج.

١٤ ـ الفرق بين القول بأن الإسراء والمعراج كان مناماً وبين القول أنه بالروح دون الجسد.

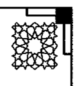
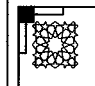
١٥ ـ أقوال الناس في مسألة رؤية النبي ﷺ لربه.

١٦ ـ تعدّد حادثة الإسراء عند بعض أهل العلم.

١٧ ـ رؤية النبي ﷺ لجبريل على صورته الحقيقية.

١٨ ـ فوائد مستنبطة من حديث الإسراء والمعراج.

١٩ ـ الخلاصة. ٢٠ ـ المناقشة.

الإسراء والمعراج

قال ابن أبي العز:

قوله: «والمعراج حق، وقد أسري بالنبي ﷺ وعرج بشخصه في اليقظة إلى السماء، ثم إلى حيث شاء الله من العلا، وأكرمه الله بما شاء، وأوحى إليه ما أوحى، ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾﴾ [النجم: ١١]، فصلّى الله عليه وسلم في الآخرة والأولى».

المعراج مِفْعَالٌ من العُروج، أي الآلة التي يعرج فيها؛ أي يصعد، وهو بمنزلة السُلَّم، لكن لا يعلم كيف هو، وحكمه كحكم غيره من المغيبات، نؤمن به ولا نشتغل بكيفيته.

وقوله: «وقد أسري بالنبي ﷺ وعرج بشخصه في اليقظة».

اختلف الناس في الإسراء:

فقيل(١): كان الإسراء بروحه ولم يفقد جسده، نقله ابن إسحاق عن عائشة ومعاوية ﵄ ونقل عن الحسن البصري نحوه.

لكن ينبغي أن يعرف الفرق بين أن يقال: كان الإسراء مناماً وبين أن يقال: كان بروحه دون جسده، وبينهما فرق عظيم. فعائشة ومعاوية ﵄ لم يقولا: كان مناماً، وإنما قالا: أسري بروحه ولم يفقد جسده، وفرق ما بين الأمرين أن ما يراه النائم قد يكون أمثالاً مضروبة للمعلوم في الصورة المحسوسة، فيرى كأنه قد عرج إلى السماء وذهب به إلى مكة وروحه لم تصعد ولم تذهب، وإنما ملك الرؤيا ضرب له المثال فما أراد أن الإسراء مناماً، وإنما أراد أن الروح ذاتها أسري بها ففارقت الجسد ثم عادت إليه، ويجعلان هذا من خصائصه، فإن غيره لا تنال ذات روحه الصعود الكامل إلى السماء إلا بعد الموت.

---

(١) انظر: زاد المعاد (٣/ ٤٠).

وقيل: كان الإسراء مرتين: مرة يقظة ومرة مناماً، وأصحاب هذا القول كأنهم أرادوا الجمع بين حديث شريك، وقوله: ثم استيقظت، وبين سائر الروايات.

وكذلك منهم من قال: بل كان مرتين، مرة قبل الوحي ومرة بعده، ومنهم من قال: بل ثلاث مرات، مرة قبل الوحي ومرتين بعده، وكلما اشتبه عليهم لفظ زادوا مرة للتوفيق[1]، وهذا يفعله ضعفاء أهل الحديث، وإلا فالذي عليه أئمة النقل أن الإسراء كان مرة واحدة بمكة بعد البعثة قبل الهجرة بسنة، وقيل بسنة وشهرين، ذكره ابن عبد البر.

قال شمس الدين ابن[2] القيم: يا عجباً لهؤلاء الذين زعموا أنه كان مراراً، كيف ساغ لهم أن يظنوا أنه في كل مرة يفرض عليهم الصلوات خمسين، ثم يتردد بين ربه وبين موسى حتى تصير خمساً، فيقول: أمضيت فريضتي وخففت عن عبادي، ثم يعيدها في المرة الثانية إلى خمسين ثم يحطها إلى خمس.

وقد غلَّط الحفاظ شريكاً في ألفاظ من حديث الإسراء، ومسلم أورد المسند منه، ثم قال: فقدم وأخّر، وزاد ونقص، ولم يسرد الحديث، وأجاد رحمه الله، انتهى كلام الشيخ شمس الدين رحمه الله.

وكان من حديث الإسراء: «أنه أسري بجسده في اليقظة على الصحيح من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى راكباً على البراق صحبة جبرائيل عليه السلام، فنزل هناك وصلّى بالأنبياء إماماً، وربط البراق بحلقة باب المسجد، وقد قيل: إنه نزل بيت لحم، وصلّى فيه، ولا يصح عنه ذلك البتة.

ثم عرج من بيت المقدس تلك الليلة إلى السماء الدنيا، فاستفتح له جبرائيل ففُتح لهما، فرأى هناك آدم أبا البشر فسلم عليه فرحّب به، ورد عليه السلام وأقرّ بنبوته، ثم عرج به إلى السماء الثانية فاستفتح له، فرأى فيها يحيى بن زكريا وعيسى ابن مريم، فلقيهما فسلّم عليهما فردّا عليه السلام ورحّبا به وأقرّا بنبوته، ثم عُرج به إلى السماء الثالثة فرأى فيها يوسف فسلّم عليه ورحّب به وأقرّ بنبوته، ثم عُرج به إلى السماء الرابعة فرأى فيها إدريس فسلّم عليه ورحّب به وأقرّ بنبوته، ثم

---

(١) حتى أوصلها بعضهم إلى ثلاثين مرة، انظر: لوامع الأنوار (٢/ ٢٨٩).

(٢) زاد المعاد (٣/ ٤٢).

عُرج به إلى السماء الخامسة فرأى فيها هارون بن عمران فسلّم عليه ورحّب به وأقرّ بنبوته، ثم عرج به إلى السماء السادسة فلقي فيها موسى فسلّم عليه ورحّب به وأقرّ بنبوته، فلما جاوزه بكى موسى فقيل له: ما يبكيك؟ قال: أبكي لأن غلاماً بعث بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر مما يدخلها من أمتي، ثم عرج به إلى السماء السابعة فلقي فيها إبراهيم فسلّم عليه ورحّب به وأقرّ بنبوته، ثم رفع إلى سدرة المنتهى، ثم رفع له البيت المعمور، ثم عرج به إلى الجبار جلّ جلاله وتقدّست أسماؤه، فدنا منه حتى كان قاب قوسين أو أدنى، فأوحى إلى عبده ما أوحى، وفرض عليه خمسين صلاة، فرجع حتى مرّ على موسى، فقال: بِمَ أُمرت؟ قال: بخمسين صلاة، فقال: إن أمتك لا تطيق ذلك، ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك، فالتفت إلى جبرائيل كأنه يستشيره في ذلك، فأشار أن نعم إن شئت، فعلا به جبرائيل حتى أتى به إلى الجبار تبارك وتعالى وهو في مكانه. هذا لفظ البخاري في «صحيحه»، وفي بعض الطرق: فوضع عنه عشراً، ثم نزل حتى مر بموسى فأخبره، فقال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فلم يزل يتردد بين موسى وبين الله تبارك وتعالى حتى جعلها خمساً، فأمره موسى بالرجوع وسؤال التخفيف، فقال: قد استحييت من ربي ولكن أرضى وأسلم، فلما نفذ نادى مناد قد أمضيت فريضتي وخففت عن عبادي»[(١)].

وقد تقدم ذكر اختلاف الصحابة في رؤيته ﷺ ربه ﷻ بعين رأسه، وإن الصحيح أنه رآه بقلبه، ولم يره بعين رأسه، وقوله: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾﴾ [النجم: ١١]، ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾﴾ [النجم: ١٣] صح عن النبي ﷺ أن هذا المرئي جبرائيل رآه مرتين على صورته التي خلق عليها.

وأما قوله تعالى في سورة النجم: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾﴾ فهو غير الدنو والتدلي المذكورين في قصة الإسراء؛ فإن الذي في سورة النجم هو دنو جبرائيل وتدليه كما قالت عائشة وابن مسعود رضي الله عنهما فإنه قال: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾﴾ [النجم: ٥ ـ ٨]، فالضمائر كلها راجعة

---

(١) سيأتي تخريج هذا الحديث عند سرد رواية الشيخين لحادثة الإسراء والمعراج.

إلى هذا المعلم الشديد القوى، وأما الدنو والتدلي الذي في حديث الإسراء فذلك صريح في أنه دنو[١] الرب تعالى وتدليه، وأما الذي في سورة النجم أنه رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى فهذا هو جبرائيل، رآه مرتين: مرة في الأرض، ومرة عند سدرة المنتهى.

ومما يدل على أن الإسراء بجسده في اليقظة قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ [الإسراء: ١]، والعبد عبارة عن مجموع الجسد والروح، كما أن الإنسان اسم لمجموع الجسد والروح، هذا هو المعروف عند الإطلاق، وهو الصحيح، فيكون الإسراء بهذا المجموع، ولا يمتنع ذلك عقلاً، ولو جاز استبعاد صعود البشر لجاز استبعاد نزول الملائكة وذلك يؤدي إلى إنكار النبوة وهو كفر.

فإن قيل: فما الحكمة في الإسراء إلى بيت المقدس؟.

أولاً: فالجواب: ـ والله أعلم ـ أن ذلك كان إظهاراً لصدق دعوى الرسول المعراج حين سألته قريش عن نعت بيت المقدس، فنعته لهم، وأخبرهم عن عيرهم التي مر عليها في طريقه[٢]، ولو كان عروجه إلى السماء من مكة لما حصل ذلك، إذ لا يمكن اطلاعهم على ما في السماء لو أخبرهم عنه، وقد اطلعوا على بيت المقدس فأخبرهم بنعته.

وفي حديث المعراج دليل على ثبوت صفة العلو لله تعالى من وجوه لمن تدبره، وبالله التوفيق.

---

(١) تقدم أنه مما تفرد به شريك بن عبد الله وهو صدوق يخطئ.
(٢) أخرجه البخاري (٣٨٨٦)، ومسلم (١٧٠).



عناصر الموضوع:

١ غرض المصنف من عقد هذا الباب:

أ ـ تقرير مذهب أهل السنّة والجماعة في الإسراء والمعراج؛ فهم يثبتون للنبي ﷺ عروجاً إلى السماء بشخصه بجسده وروحه، وذلك ليلة الإسراء، والإسراء ثابت بالكتاب والسنّة.

ب ـ الرد على المنكرين لوقوع الإسراء والمعراج من الملاحدة وغيرهم.

ج ـ بيان أن الإسراء مجمع عليه لا خلاف فيه، ولكن وقع الخلاف في المعراج، والذي عليه جمهور المسلمين أنه ﷺ عرج بروحه وبدنه[(١)].

٢ مناسبة هذا الباب لما سبق:

تقدم أن من الإيمان بالله الإيمان بما جاء في الكتاب والسنّة من المغيبات، ومن جملة المغيبات: الإسراء والمعراج.

٣ معاني الكلمات:

الكلمة	المعنى
المعراج	المعراج مِفْعَالٌ من العُروج، أي الآلة التي يعرج فيها، أي يصعد وهو بمنزلة السلم، لكن لا يعلم كيف هو وحكمه كحكم غيره من المغيبات نؤمن به ولا نشتغل بكيفيته.
الإسراء	هو السير ليلاً. فهو سير جبريل بالنبي (ﷺ) من مكة إلى بيت المقدس.
البراق:	هو دابة أبيض طويل فوق الحمار ودون البغل.

---

(١) العقائد السلفية (ص١٦٠).

(٤) معنى قول الطحاوي: «والمعراج حق، وقد أسري بالنبي ﷺ وعرج بشخصه في اليقظة إلى السماء، ثم إلى حيث شاء الله من العلا، وأكرمه الله بما شاء، وأوحى إليه ما أوحى، ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴿١١﴾﴾ [النجم: ١١]، **فصلّى الله عليه وسلم في الآخرة والأولى»:**

وأهل السنّة يثبتون للنبي ﷺ عروجاً إلى[1] السماء بشخصه، بجسده وروحه، وذلك ليلة الإسراء، والإسراء ثابت بالكتاب والسنّة والإجماع، كان من مكة إلى بيت المقدس، حيث قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ [الإسراء: ١]، حيث صلّى إماماً بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وثبت المعراج كذلك إلى السماء بشخصه الشريف، حيث صعد حتى السماء السابعة، حتى كان عند سدرة المنتهى، عندها جنة المأوى، وأكرمه الله بما شاء من تكليمه إياه بلا واسطة، وصعوده إلى مكان لم يصل إليه غيره، ومناجاة الله له، وما أطلعه عليه من أحوال الجنة والنار، وأوحى إليه ما أوحى، وشرع له خمس صلوات في اليوم والليلة، وما كذب فؤاد النبي ﷺ ما رأى، بل كل ما رآه بعيني رأسه حقٌّ، تعظيماً له وتشريفاً على سائر الأنبياء، وإظهاراً لعلو مقامه ﷺ فوق الجميع، وكل ما كان في هذه الليلة المباركة فهو على وجه ثابت عن النبي ﷺ، في «الصحيحين» وغيرهما.

(٥) مقام العبودية:

وقد ذكر الله ﷻ نبينا محمداً ﷺ بسمة العبودية في أشرف مقاماته:

١ ـ مقام الإسراء:

قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ [الإسراء: ١].

٢ ـ ومقام الدعوة:

قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾﴾ [الجن: ١٩].

٣ ـ ومقام التحدي:

قال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [البقرة: ٢٣].

---

(١) خالف أهل البدع من الجهمية فقالوا: أن النبي (ﷺ) عرج إلى كرامة الله لا إلى السماء.

٤ ـ ومقام الإنزال للقرآن:

قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١﴾ [الفرقان: ١]؛ لأنه ﷺ نال هذه المقامات الكبار بتكميله لعبودية ربه(١).

٦ متى كانت حادثة الإسراء والمعراج:

ذكر ابن كثير عدة أقوال في زمن حادثة الإسراء والمعراج:

القول الأول: أنها كانت في شهر ذي القعدة، وهو قول السدي.

القول الثاني: أنها كانت في ربيع الأول، وهو قول الزهري وعروة.

القول الثالث: أنها كانت في ليلة السابع والعشرين من رجب، وهذا لا يصح سنده.

ثم قال ابن كثير: ومن الناس من يزعم أن الإسراء كان أول ليلة جمعة من شهر رجب وهي ليلة الرغائب التي أحدثت فيها الصلاة المشهورة ولا أصل لذلك. والله أعلم(٢).

٧ هل لليلة الإسراء فضل خاص:

ليس لليلة الإسراء فضل عما سواها من الليالي، ولا تخص بنوع عبادة من دون الليالي من صيام أو قيام أو نحوها من العبادات، وما ورد من فضل صيام شهر رجب فهو لكونه من الأشهر الحرم التي يسنّ الصيام فيها، علماً أن القول بأن الإسراء كان في رجب قول لا أصل له كما تقدم.

٨ المفاضلة بين ليلة الإسراء وليلة القدر:

إن ليلة الإسراء أفضل في حق النبي ﷺ من ليلة القدر؛ لما أكرم به فيها من خوارق العادات التي أجَلُّها رؤيته لله ـ على الصحيح ـ وليلة القدر أفضل في حق الأمة؛ لأن العمل فيها خير من عمل ثمانين سنة في غيرها.

٩ حكم الإيمان بالإسراء والمعراج ومناسبة ذكرهما في العقيدة:

حكمه حكم غيره من المغيبات، نؤمن به ولا نشتغل بكيفيته، ومناسبة ذكر الإسراء والمعراج في كتاب «التوحيد» أنه مما يجب الإيمان به، وقد كذب به الكفار وارتد عن الإسلام بضعة أناس وازداد إيماناً آخرون.

---

(١) انظر: السعدي عند تفسير سورة الإسراء الآية ١، ومحاسن التأويل للقاسمي (١٠/ ٣٨٨٥).

(٢) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٢٦٩ ـ ٢٧٠) طبعة هجر.

(١٠) حكم منكر الإسراء والمعراج:

إن من أنكر الإسراء والمعراج كافر؛ لأنه مما تواتر خبره، ولأنه جاحد لكتاب الله وسنّة رسوله ﷺ، قال الله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ [الإسراء: ١].

(١١) الحكمة من الإسراء من مكة إلى بيت المقدس:

الحكمة في ذلك ـ والله أعلم ـ من أربعة وجوه:

الأول: أنه كانت إظهاراً لصدق دعوى النبي ﷺ، فحين سألته قريش عن نعت بيت المقدس فنعته لهم، وأخبرهم عن عيرهم التي مر عليها في طريقه، ولو كان الله عرجه إلى السماء من مكة لما حصل ذلك، إذ لا يمكن اطلاعهم على ما في السماء لو أخبرهم عنه، وقد اطلعوا على بيت المقدس فأخبرهم بنعته[(١)].

الثاني: الصعود بالنبي ﷺ بالمعراج تسهيلاً له وتأميناً.

الثالث: أنه جمع له الأنبياء عليهم السلام، وصلّى بهم إماماً، فبان فضله عليهم بالصلاة[(٢)].

الرابع: ليمر وهو في طريقه بمكان كلم الله فيه موسى، ثم يصعد الرسول ﷺ لما هو أعلى من ذلك حيث كلمه الله وهو في السماء لبيان فضله ﷺ على موسى.

(١٢) حديث الإسراء والمعراج:

سأكتفي هنا بذكر أوثق الروايات وأصحها، وهي ما ذكره الشيخان في «صحيحهما».

١ ـ رواية البخاري:

عن أنس بن مالك بن صعصعة رضي الله عنهما أن نبي الله ﷺ حدثه عن ليلة أسري به قال: (**بينما أنا في الحطيم**[(٣)] ـ وربما قال: في الحجر ـ **مضطجعاً إذ أتاني آت فقدّ**[(٤)] ـ قال: وسمعته يقول: ـ **فشق ما بين هذه إلى هذه**)، فقلت للجارود وهو إلى جنبي: ما يعني به؟ قال: من ثغرة[(٥)] نحره إلى شعرته، وسمعته يقول: من

---

(١) بهجة النفوس (٣/ ٢١٥).

(٢) انظر: الفتح (٧/ ١٥٤).

(٣) الحطيم: هو الحِجر على الصحيح.

(٤) القد: القطع.

(٥) الثغرة: المكان المنخفض بين الترقوتين.

قصّه إلى شعرته (**فاستخرج قلبي ثم أتيت بطست من ذهب مملوءة إيماناً فغسل قلبي ثم حشي ثم أعيد ثم أتيت بدابة دون البغل وفوق الحمار أبيض**).

فقال له الجارود: هو البراق[1] يا أبا حمزة؟ قال أنس: نعم.

يضع خطوه عند أقصى طرفه فحملت عليه، فانطلق بي جبريل حتى أتى السماء الدنيا فاستفتح، فقيل: من هذا؟

قال: جبريل.

قيل: ومن معك؟

قال: محمد.

قيل: وقد أرسل إليه؟

قال: نعم.

قيل: مرحباً به، فنِعْم المجي جاء، ففتح.

فلما خلصت فإذا فيها آدم فقال: هذا أبوك، فسلِّم عليه، فسلَّمت عليه فردّ السلام، ثم قال: مرحباً بالابن الصالح والنبي الصالح[2]، ثم صعد حتى أتى السماء الثانية فاستفتح. قيل: من هذا؟

قال: جبريل.

قيل: ومن معك؟

قال: محمد.

قيل: وقد أرسل إليه؟

قال: نعم.

قيل: مرحباً به، فنِعْم المجيء جاء، ففتح.

فلما خلصت إذا يحيى وعيسى وهما ابنا الخالة قال: هذا يحيى وعيسى فسلم عليهما، فسلمت فردّا ثم قالا: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح، ثم صعد بي إلى السماء الثالثة فاستفتح قيل: من هذا؟

---

(١) بضم الباء وتخفيف الراء، مشتق من البرق إذ سرعته في سيره مثل سرعة البرق في لمعانه.

(٢) الصالح: هو الطيب في نفسه الذي يقوم بما عليه من حقوق الله وحقوق العباد، وقد جمعت هذه الصفة الخير كله.

قال: جبريل.

قيل: ومن معك؟

قال: محمد.

قيل: وقد أرسل إليه؟

قال: نعم.

قيل: مرحباً به فنِعْم المجيء جاء ففتح.

فلما خلصت إذا يوسف، قال: هذا يوسف فسلم عليه فسلمت عليه فردّ، ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح، ثم صعد بي حتى أتى السماء الرابعة، فاستفتح قيل: من هذا؟

قال: جبريل.

قيل: ومن معك؟

قال: محمد.

قيل: أو قد أرسل إليه؟

قال: نعم.

قيل: مرحباً به، فنِعْم المجيء جاء، ففتح.

فلما خلصت إلى إدريس قال: هذا إدريس فسلِّم عليه، فسلّمت عليه، فردّ ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح، ثم صعد بي حتى أتى السماء الخامسة فاستفتح قيل: من هذا؟

قال: جبريل.

قيل: ومن معك؟

قال: محمد ﷺ.

قيل: وقد أرسل إليه؟

قال: نعم.

قيل: مرحباً به فنِعْم المجيء جاء.

فلما خلصت فإذا هارون، قال: هذا هارون فسلِّم عليه، فسلّمت عليه فردّ، ثم

قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح، ثم صعد بي حتى أتى السماء السادسة فاستفتح قيل: من هذا؟

قال: جبريل.

قيل: من معك؟

قال: محمد.

قيل: وقد أرسل إليه؟

قال: نعم.

قال: مرحباً به فنِعْم المجيء جاء.

فلما خلصت فإذا موسى، قال: هذا موسى فسلم عليه فسلّمت عليه، فردّ ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح، فلما تجاوزت بكى، قيل له: ما يبكيك؟ قال: أبكي لأن غلاماً بُعث بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر ممن يدخلها من أمتي، ثم صعد بي إلى السماء السابعة فاستفتح جبريل، قيل: من هذا؟

قال: جبريل.

قيل: ومن معك؟

قال: محمد.

قيل: وقد بعث إليه؟

قال: نعم.

قال: مرحباً به فنِعْم المجيء جاء.

فلما خلصت فإذا إبراهيم، قال: هذا إبراهيم فسلم عليه، فسلّمت عليه، فردّ السلام، قال: مرحباً بالابن الصالح والنبي الصالح.

ثم رفعت لي سدرة المنتهى، فإذا نبقها مثل قلال[1] هجر، وإذا ورقها مثل آذان الفيلة، قال: هذه سدرة المنتهى، وإذا أربعة أنهار: نهران باطنان، ونهران ظاهران، فقلت: ما هذان يا جبريل؟

---

(١) قلال: جمع قلة وهي الجرة. والنبق الثمر، يعني ثمرها في الكبر مثل قلال هجر، وكانت قلال هجر معروفة عند المخاطبين فلذلك وقع التمثيل بها، وهجر بفتح الهاء والجيم بلد بقرب المدينة.

قال: أما الباطنان فنهران في الجنة، وأما الظاهران فالنيل والفرات.

ثم رفع لي البيت المعمور، يدخله كل يوم سبعون ألف ملك، ثم أتيت بإناء من خمر وإناء من لبن وإناء من عسل، فأخذت اللبن فقال: هي الفطرة أنت عليها وأمتك، ثم فرضت عليّ الصلوات خمسين صلاة كل يوم، فرجعت فمررت على موسى فقال: بِمَ أمرت؟

قال: أمرت بخمسين صلاة كل يوم.

قال: أمتك لا تستطيع خمسين صلاة كل يوم، وإني والله قد جربت الناس قبلك، وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك، فرجعت فوضع عني عشراً، فرجعت إلى موسى فقال مثله، فرجعت فوضع عني عشراً، فرجعت إلى موسى فقال مثله، فرجعت فوضع عني عشراً، فرجعت إلى موسى فقال مثله، فرجعت فأمرت بعشر صلوات كل يوم، فرجعت فقال مثله، فرجعت فأمرت بخمس صلوات كل يوم فرجعت إلى موسى فقال: بما أمرت؟

قلت: أمرت بخمس صلوات كل يوم.

قال: إن أمتك لا تستطيع خمس صلوات كل يوم، وإني قد جربت الناس قبلك وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك.

قال: سألت ربي حتى استحييت، ولكن أرضى وأسلم.

قال: فلما جاوزت نادى مناد: أمضيت فريضتي وخففت عن عبادي)[(١)].

٢ ـ رواية مسلم:

عن مالك بن صعصعة رجل من قومه قال: قال نبي الله ﷺ: (بينا أنا عند البيت بين النائم واليقظان إذ سمعت قائلاً يقول: أحد الثلاثة بين الرجلين، فأتيت فانطلق بي فأتيت بطست من ذهب فيها من ماء زمزم فشرح صدري إلى كذا وكذا). قال قتادة: فقلت للذي معي: ما يعني؟ قال: إلى أسفل بطنه (فاستخرج قلبي فغسل بماء زمزم ثم أعيد مكانه ثم حشي إيماناً وحكمة، ثم أتيت بدابة أبيض يقال له: البُراق، فوق الحمار ودون البغل، يقع خطوه عند أقصى طرفه، فحُملت عليه، ثم انطلقنا حتى أتينا السماء الدنيا فاستفتح جبريل عليه السلام فقيل: من هذا؟

---

(١) أخرجه البخاري (٣٨٨٧).

قال: جبريل.

قيل: ومن معك؟

قال: محمد ﷺ.

قال: وقد بعث إليه؟

قال: نعم.

قال: ففتح لنا وقال: مرحباً به ولنِعْم المجيء جاء، قال: فأتينا على آدم ﷺ...) وساق الحديث بقصته، وذكر أنه لقي في السماء الثانية عيسى ويحيى عليهما السلام، وفي الثالثة يوسف، وفي الرابعة إدريس، وفي الخامسة هارون ﷺ.

قال: (ثم انطلقنا حتى انتهينا إلى السماء السادسة، فأتيت على موسى عليه السلام فسلّمت عليه فقال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح، فلما جاوزته بكى فنودي: ما يبكيك؟

قال: رب هذا غلام بعثته بعدي يدخل من أمته الجنة أكثر مما يدخل من أمتي.

قال: ثم انطلقنا حتى انتهينا إلى السماء السابعة فأتيت على إبراهيم، وقال في الحديث: وحدث نبي الله ﷺ أنه رأى أربعة أنهار يخرج من أصلها نهران ظاهران ونهران باطنان، فقلت: يا جبريل ما هذه الأنهار؟

قال: أما النهران الباطنان فنهران في الجنة، وأما الظاهران فالنيل والفرات، ثم رفع لي البيت المعمور فقلت: يا جبريل ما هذا؟

قال: هذا البيت المعمور، يدخله كل يوم سبعون ألف ملك إذا خرجوا منه لم يعودوا فيه آخر ما عليهم، ثم أتيت بإنائين أحدهما خمر والآخر لبن، فعرضا علي فاخترت اللبن فقيل: أصبت أصاب الله بك أمتك على الفطرة، ثم فرضت عليّ كل يوم خمسون صلاة) ثم ذكر قصتها... إلى آخر الحديث[1].

٣ ـ رواية أخرى لمسلم:

عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: **(أتيت بالبراق، وهو دابة فوق الحمار ودون البغل، يضع حافره عند منتهى طرفه، قال: فركبته حتى أتيت بيت المقدس، قال: فربطته بالحلقة التي يربط به الأنبياء، قال: ثم دخلت المسجد فصليت فيه ركعتين، ثم خرجت فجاءني جبريل عليه السلام بإناء من خمر وإناء من لبن**

---

(١) أخرجه مسلم (١٦٤).

فاخترت اللبن، فقال جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ: اخترت الفطرة، ثم عرج بنا إلى السماء، فاستفتح جبريل فقيل: من أنت؟

قال: جبريل.

قيل: ومن معك؟

قال: محمد.

قيل: وقد بعث إليه؟

قال: قد بعث إليه، ففتح لنا فإذا أنا بآدم فرحب بي ودعا لي بخير، ثم عرج بنا إلى السماء الثانية فاستفتح جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ فقيل: من أنت؟

قال: جبريل.

قيل: ومن معك؟

قال: محمد.

قيل: وقد بعث إليه؟

قال: قد بعث إليه، ففتح لنا فإذا أنا بابني الخالة عيسى ابن مريم ويحيى بن زكريا صلوات الله عليهما فرحّبا ودعوا لي بخير، ثم عرج بي إلى السماء الثالثة فاستفتح جبريل فقيل: من أنت؟

قال: جبريل.

قيل: ومن معك؟

قال: محمد ﷺ.

قيل: وقد بعث إليه؟

قال: قد بعث إليه، ففتح لنا فإذا أنا بيوسف ﷺ، إذا هو قد أعطي شطر الحسن فرحب ودعا لي بخير، ثم عرج بنا إلى السماء الرابعة فاستفتح جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ قيل: من هذا؟

قال: جبريل.

قيل: ومن معك؟

قال: محمد.

قال: وقد بعث إليه؟

قال: قد بعث إليه، ففتح لنا فإذا أنا بإدريس فرحّب ودعا لي بخير. قال الله ﷻ ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾، ثم عرج بنا إلى السماء الخامسة فاستفتح جبريل، قيل: من هذا؟

قال: جبريل.

قيل: ومن معك؟

قال: محمد.

قيل: وقد بعث إليه؟

قال: قد بعث إليه، ففتح لنا فإذا أنا بهارون ﷺ، فرحّب ودعا لي بخير، ثم عرج بنا إلى السماء السادسة فاستفتح جبريل عليه السلام قيل: من هذا؟

قال: جبريل.

قيل: ومن معك؟

قال: محمد.

قيل: وقد بعث إليه؟

قال: قد بعث إليه، ففتح لنا فإذا أنا بموسى ﷺ، فرحّب ودعا لي بخير، ثم عرج إلى السماء السابعة، فاستفتح جبريل فقيل: من هذا؟

قال: جبريل.

قيل: ومن معك؟

قال: محمد ﷺ.

قيل: وقد بعث إليه؟

قال: قد بعث إليه، ففتح لنا، فإذا أنا بإبراهيم ﷺ مسنداً ظهره إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه، ثم ذهب بي إلى سدرة المنتهى، وإذا ورقها كآذان الفيلة وإذا ثمرها كالقلال.

قال: فلما غشيها من أمر الله ما غشي تغيّرت، فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها، فأوحى الله إليّ ما أوحى، ففرض عليّ خمسين صلاة في كل يوم وليلة، فنزلت إلى موسى ﷺ فقال: ما فرض ربك على أمتك؟

قلت: خمسين صلاة.

قال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فإن أمتك لا يطيقون ذلك، فإني قد بلوت بني إسرائيل وخبرتهم.

قال: فرجعت إلى ربي، فقلت: يا رب خفف على أمتي، فحُط عني خمساً فرجعت إلى موسى فقلت: حط عني خمساً.

قال: إن أمتك لا يطيقون ذلك، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف.

قال: فلم أزل أرجع بين ربي تبارك وتعالى وبين موسى عليه السلام حتى قال: يا محمد إنهنّ خمس صلوات كل يوم وليلة، لكل صلاة عشر فذلك خمسون صلاة، ومن همّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة، فإن عملها كتبت له عشراً، ومن همّ بسيئة فلم يعملها لم تكتب شيئاً، فإن عملها كتبت سيئة واحدة.

قال: فنزلت حتى انتهيت إلى موسى ﷺ فأخبرته، فقال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف. فقال رسول الله ﷺ فقلت: قد رجعت إلى ربي حتى استحييت منه)[١].

١٣ مذاهب الناس في شأن الإسراء والمعراج:

للناس في ذلك أربعة أقوال:

القول الأول: وهو الصحيح: في حقيقة الإسراء هو أنه ﷺ أسري بشخصه (أي بروحه وجسده) وذلك من وجوه:

١ ـ قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ①﴾ [الإسراء: ١]، فالتسبيح إنما يكون عند الأمور العظام، فلو كان مناماً لم يكن فيه كبير شيء ولم يكن مستعظماً[٢].

٢ ـ إنه لو كان مناماً لما بادرت قريش إلى تكذيبه، ولما ارتدت جماعة ممن كان قد أسلم.

٣ ـ إن العبد عبارة عن مجموع الروح والجسد، وقد قال تعالى: ﴿أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾.

٤ ـ وقوله تعالى: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ⑰﴾ [النجم: ١٧] والبصر من آلات الذات لا الروح.

٥ ـ وإنه ﷺ قد حُمل على البراق، وإنما يكون هذا للبدن لا للروح؛ لأنها لا تحتاج حركاتها إلى حمل ومركب تركب عليه، والله أعلم..

٦ ـ إنه لا يستبعد عقلاً.

٧ ـ إنه لو جاز استبعاد صعود النبي ﷺ لجاز استبعاد نزول الملائكة، وذلك يؤدي إلى إنكار النبوة، ومن ينكرها فهو كافر.

٨ ـ إن العلم الحديث دلّ على صدق الرسول ﷺ حين أخبر أنه ذهب إلى بيت

---

(١) أخرجه مسلم (١٦٢).

(٢) انظر: (الآية الكبرى شرح قصة الإسراء) للعلامة السيوطي (ص١٠٥).

المقدس ورجع من ليلته حيث إن الإنسان في هذا العصر يستطيع أن يجوب الأرض بظروف ساعات قليلة، فكيف بقدرة الله تعالى؟ الفرق بينهما أن ما يراه النائم قد يكون أمثالاً مضروبة للعموم في الصورة، فيرى كأنه عرج به إلى السماء وذهب إلى مكة وروحه لم تصعد ولم تذهب، وإنما ملك الرؤيا ضرب له الأمثال.

القول الثاني: أن الإسراء كان بروحه[1] دون جسده.

القول الثالث: أن الإسراء كان مناماً.

القول الرابع: وهو القول بتعدد الإسراء، وهو مردود من وجوه كما سيأتي.

(١٤) الفرق بين القول بأن الإسراء والمعراج كان مناماً وبين القول أنه بالروح دون الجسد:

أما من قال بروحه دون جسده فلم يرد أن الإسراء كان مناماً، وإنما أراد أن الروح ذاتها أسري بها، ففارقت الجسد ثم عادت عليه، ويجعلون هذا من خصائصه، فإن غيره لا تنال ذات روحه الصعود الكامل إلى السماء إلا بعد الممات.

(١٥) أقوال الناس في مسألة رؤية النبي ﷺ لربه:

للناس في ذلك ثلاثة أقوال:

الأول: أنه رأى بعينه، ومن قال ذلك استدل بآية النجم، ولكن النزاع فيها موثوق والاحتمال ممكن.

الثاني: أنه رآه بقلبه، وهذا مروي عن ابن عباس.

الثالث: أنه لم يره بعينه، وهذا هو الراجح لما رواه مسلم في «صحيحه» عن أبي ذر قال: قلت لرسول الله ﷺ: هل رأيت ربك؟ فقال: **(نور أنّى أراه)**، أي: كيف أراه والنور حجاب بيني وبينه بمعنى يمنعني عن رؤيته، فهذا أصرح في نفي الرؤية، وحكي اتفاق الصحابة على ذلك.

وثَمَّ مذهب **رابع**: وهو التوقف في المسألة، وهو منقول عن الإمام القرطبي رحمه الله تعالى[2].

---

(١) زاد المعاد (٣/ ٤٠).

(٢) انظر: الفتح (٨/ ٤٦٨).

١٦ تعدد حادثة الإسراء عند بعض أهل العلم:

إن القول بتعدد الإسراء مردود من وجوه:

١ ـ أنه خلاف ما جاء به أئمة النقل من أهل السير أن الإسراء كان مرة واحدة قبل الهجرة بسنة، وقيل: بسنة وشهرين.

٢ ـ لا يستساغ أنه في كل مرة يفرض عليهم الصلوات خمسين ثم يتردد بين ربه وبين موسى حتى تصير خمساً فيقول: فرضت فريضتي وخففت عن عبادي، ثم يعيدها في المرة الثانية إلى خمسين ثم يحطها إلى خمس.

٣ ـ أن الحفَّاظ غلَّطوا شريكاً[١] في ألفاظ من حديث الإسراء. ومسلم أورد المسند منه ثم قال: «وقدم فيه شيئاً وأخّر وزاد ونقص».

أشكل عليهم رواية حديث شريك وفيها (ثم استيقظت) حيث أن سائر الروايات لم يأت فيها ذكر النوم والاستيقاظ، فأرادوا الجمع بين تلك الروايات فقالوا: بأن الإسراء كان مرة مناماً ومرة يقظة.

١٧ رؤية النبي ﷺ لجبريل على صورته الحقيقية:

ثبت أن رسول الله ﷺ رأى جبريل عليه السلام على صورته الحقيقية التي خلقه الله عليها مرتين:

الأولى: في الأرض في أوائل البعثة في مكان يسمى أجياد أو الأبطح.

الثانية: عند سدرة المنتهى في السماء السابعة ليلة المعراج.

فعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال عن رؤيته لجبريل: «**لم أره على صورته التي خلق عليها غير هاتين المرتين...**».

١٨ فوائد مستنبطة من حديث الإسراء والمعراج:

من الفوائد:

أولاً: الابتلاء والامتحان ليتبين المؤمن الذي يصدق بما جاء به الرسول ﷺ من الكافر الذي لا يصدق بذلك.

ثانياً: تضعيف الصلاة حيث أنقصها سبحانه إلى خمس، وإضعاف أجرها إلى خمسين صلاة رحمة منه لعباده.

ثالثاً: ما للصلاة من مكانة في الإسلام، حيث تولى الله تعالى فرضها في السماء من بين سائر العبادات.

---

(١) هو شريك بن عبد الله أبي نمير، قال الحافظ ابن حجر: «صدوق يخطئ».

رابعاً: جواز النسخ قبل التمكن من الفعل، فقد نسخت الصلاة من خمسين إلى خمس قبل أن يتمكن المسلمون من أدائها.

خامساً: مشاورة أهل الفضل؛ حيث استشار الرسول ﷺ جبريل في الرجوع إلى الله ليخفف عنه من الصلاة عندما أشار عليه موسى بذلك، فأشار جبريل: أي نعم إن شئت.

سادساً: كما تدل هذه القصة على صفة العلو لله ﷻ.

سابعاً: أنها معجزة الرسالة المحمدية.

١٩ الخلاصة:

١ ـ أهل السنّة يثبتون للنبي ﷺ عروجاً إلى السماء بشخصه، بجسده وروحه، وذلك ليلة الإسراء، والإسراء ثابت بالكتاب والسنّة والإجماع، وكان من مكة إلى بيت المقدس.

٢ ـ ذكر الله ﷻ نبينا محمداً ﷺ بسمة العبودية في أشرف مقاماته: مقام الإسراء ومقام الدعوة، ومقام التحدي، ومقام الإنزال للقرآن.

٣ ـ ليس لليلة الإسراء فضل عما سواها من الليالي، ولا تخص بنوع عبادة من دون الليالي من صيام أو قيام أو نحوها من العبادات.

٤ ـ ليلة الإسراء أفضل في حق النبي ﷺ من ليلة القدر؛ وليلة القدر أفضل في حق الأمة.

٥ ـ إن من أنكر الإسراء والمعراج كافر؛ لأنه مما تواتر خبره ولأنه جاحد لكتاب الله وسنّة رسوله ﷺ.

٦ ـ ثبت أن رسول الله ﷺ رأى جبريل عليه السلام على صورته الحقيقية التي خلقه الله عليها مرتين.

٢٠ المناقشة:

- **س١**: بيّن مذهب أهل السنّة والجماعة في حادثة الإسراء والمعراج.
- **س٢**: ما هي حقيقة الإسراء والمعراج مع الاستدلال لما تقول؟
- **س٣**: علام يعود الضمير في قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾، وهل هما نفس الدنو والتدلي المذكورين في حديث الإسراء أم لا، مع التوجيه؟
- **س٤**: مقام العبودية أشرف المقامات، وضّح ذلك.
- **س٥**: متى كانت حادثة الإسراء والمعراج؟

- **س٦:** هل لليلة الإسراء فضل خاص؟
- **س٧:** أيهما أفضل ليلة الإسراء أم ليلة القدر؟
- **س٨:** ما حكم الإيمان بالإسراء والمعراج؟ وما مناسبة ذكرهما في العقيدة؟
- **س٩:** ما حكم منكر الإسراء والمعراج؟
- **س١٠:** ما الحكمة من الإسراء من مكة إلى بيت المقدس؟
- **س١١:** ما مذاهب الناس في شأن الإسراء والمعراج؟
- **س١٢:** ما الفرق بين القول بأن الإسراء والمعراج كان مناماً وبين القول أنه بالروح دون الجسد؟
- **س١٣:** ما أقوال الناس في مسألة رؤية النبي ﷺ لربه؟
- **س١٤:** اذكر الأمور المستفادة من قصة الإسراء مع ذكر ما دلت عليه من صفات الله ﷻ؟
- **س١٥:** كيف ترد على من يقول بتعدد حادثة الإسراء؟
- **س١٦:** هل رأى النبي ﷺ جبريل على صورته الحقيقية؟



الحوض

* كلام ابن أبي العز:

١ ـ غرض المصنف من عقد هذا الباب.

٢ ـ مناسبة هذا الباب لما سبق.

٣ ـ معاني الكلمات.

٤ ـ معنى قول الطحاوي: «والحوض الذي أكرمه الله تعالى به غياثاً لأمته حق».

٥ ـ معنى الحوض.

٦ ـ حكم الإيمان بالحوض.

٧ ـ صفة حوض النبي ﷺ.

٨ ـ المذادون عن الحوض.

٩ ـ من يطرد عن الحوض؟

١٠ ـ أدلة الحوض.

١١ ـ التوفيق بين الروايات المتعارضة في ذكر مسافات الحوض.

١٢ ـ الأقوال في أسبقية الحوض على الصراط.

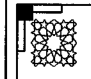
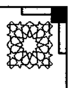
١٣ ـ صفة الحوض والكوثر.

١٤ ـ الفرق بين الحوض والكوثر.

١٥ ـ حكم من أنكر الحوض والكوثر.

١٦ ـ الخلاصة.

١٧ ـ المناقشة.

الحوض

قال ابن أبي العز: «قوله: والحوض الذي أكرمه الله تعالى به غياثاً لأمته حق» الأحاديث الواردة في ذكر الحوض تبلغ حدّ التواتر، رواها من الصحابة بضع وثلاثون صحابياً، ولقد استقصى طرقها شيخنا الشيخ عماد الدين ابن كثير تغمده الله برحمته في آخر تاريخه الكبير المسمى بـ«البداية والنهاية»[(١)].

فمنها ما رواه البخاري رحمه الله تعالى عن أنس بن مالك ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: (إن قدر حوضي كما بين أيلة إلى صنعاء من اليمن، وإن فيه من الأباريق كعدد نجوم السماء)[(٢)].

وعنه أيضاً عن النبي ﷺ: (ليردن عليّ ناس من أصحابي حتى إذا عرفتهم اختلجوا دوني، فأقول أصحابي، فيقول: لا تدري ما أحدثوا بعدك)[(٣)]. رواه مسلم.

وروى الإمام أحمد عن أنس بن مالك قال: أغفى رسول الله إغفاءة، فرفع رأسه مبتسماً إما قال لهم، وإما قالوا له: لِمَ ضحكت؟ فقال رسول الله ﷺ: (إنه أنزلت علي آنفاً سورة فقرأ: بسم الله الرحمن الرحيم. إنا أعطيناك الكوثر...) حتى ختمها ثم قال لهم: (هل تدرون ما الكوثر؟)، قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: (هو نهر أعطانيه ربي ﷻ في الجنة عليه خير كثير، ترد عليه أمتي يوم القيامة، آنيته عدد الكواكب، يختلج العبد منهم، فأقول: يا رب! إنه من أمتي، فيقال لي: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك)[(٤)].

وورواه مسلم ولفظه: (هو نهر وعدنيه ربي، عليه خير كثير هو حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة) والباقي مثله.

---

(١) انظر: النهاية (١/١٨٨).

(٢) أخرجه البخاري (٦٥٨٠)، ومسلم (٢٣٠٣).

(٣) أخرجه البخاري (٦٥٨٢)، ومسلم (٢٣٠٤).

(٤) أخرجه مسلم (٤٠٠)، وأحمد (٣/١٠٢).

ومعنى ذلك: أنه يشخب فيه ميزابان من ذلك الكوثر إلى الحوض، والحوض في العرصات قبل الصراط، لأنه يختلج عنه ويمنع منه أقوام قد ارتدوا على أعقابهم ومثل هؤلاء لا يجاوزون الصراط.

وروى البخاري ومسلم عن جندب بن عبد الله البجلي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (أنا فَرَطكم على الحوض)[١]، والفَرَط: الذي يسبق إلى الماء.

وروى البخاري عن سهل بن سعد الأنصاري قال: قال رسول الله ﷺ: (إني فرطكم على الحوض، من مرّ علي شرب، ومن شرب لم يظمأ أبداً، ليردن عليّ أقوام أعرفهم ويعرفونني ثم يحال بيني وبينهم)، قال أبو حازم: فسمعني النعمان بن أبي عياش فقال: هكذا سمعت من سهل؟ فقلت: نعم، فقال: نعم أشهد على أبي سعيد الخدري سمعته وهو يزيد: (فأقول إنهم من أمتي، فقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، فقال: سحقاً سحقاً لمن غير بعدي)[٢] سحقاً: أي بعداً.

والذي يتلخص من الأحاديث الواردة في صفة الحوض أنه حوض عظيم ومورد كريم، يمد من شراب الجنة من نهر الكوثر الذي هو أشد بياضاً من اللبن وأبرد من الثلج، وأحلى من العسل، وأطيب ريحاً من المسك، وهو في غاية الاتساع، عرضه وطوله سواء كل زاوية من زواياه مسيرة شهر، وفي بعض الأحاديث أنه كلما شرب منه وهو في زيادة واتساع، وأنه ينبت في خلاله من المسك والرضراض من اللؤلؤ وقضبان الذهب ويثمر ألوان الجواهر، فسبحان الخالق الذي لا يعجزه شيء.

وقد ورد في أحاديث: (أن لكل نبي حوضاً وأن حوض نبينا ﷺ أعظمها وأحلاها وأكثرها وارداً) جعلنا الله منهم بفضله وكرمه.

قال العلّامة أبو عبد الله القرطبي رَحِمَهُ اللهُ في «التذكرة»[٣]: «واختلف في الميزان والحوض أيهما يكون قبل الآخر؟ فقيل: الميزان، وقيل: الحوض. قال أبو الحسن القابسي: والصحيح أن الحوض قبل، قال القرطبي: والمعنى يقتضيه؛ فإن الناس يخرجون عطاشاً من قبورهم كما تقدم فيقدم قبل الميزان والصراط، قال أبو

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٨٩)، ومسلم (٢٢٨٩).

(٢) أخرجه البخاري (٧٠٥٠). (٣) (١/٣٦٨).

حامد الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ في كتاب «كشف علم الآخرة»: حكى بعض السلف من أهل التصنيف أن الحوض يورد بعد الصراط، وهو غلط من قائله، قال القرطبي: هو كما قال، ثم قال القرطبي: ولا يخطر ببالك أنه في هذه الأرض بل في الأرض المبدلة، أرض بيضاء كالفضة لم يسفك فيها دم ولم يظلم على ظهرها أحد قط، تظهر لنزول الجبار جلّ جلاله لفصل القضاء، انتهى.

فقاتل الله المنكرين لوجود الحوض، وأخلق بهم أن يُحال بينهم وبين وروده يوم العطش الأكبر.



عناصر الموضوع:

١ غرض المصنف من عقد هذا الباب:

عقد المصنف هذا الباب لتقرير مذهب أهل السنّة والجماعة في الإيمان بالحوض المورد لثبوته بالسنّة المتواترة من رواية بضعة وخمسين صحابياً، منهم الخلفاء الراشدون[١]، وحفاظ الصحابة المكثرون.

٢ مناسبة هذا الباب لما سبق:

تقدم أن من الإيمان بالله تعالى: الإيمان بما جاءت به النصوص الشرعية من المغيبات، ومن جملة المغيبات الحوض المورود في أرض المحشر.

٣ معاني الكلمات:

الكلمة	المعنى
التواتر	الخبر المتواتر: ما رواه جمع يستحيل في العادة تواطؤهم على الكذب إلى منتهاه.
الحوض	مجمع الماء.
غياثاً	أي نجدة وإغاثة.
لأمته	أي لأمة محمد ﷺ.
حق	هو الثابت الذي لا يسوغ إنكاره، وهو الحكم المطابق للواقع.
يختلج	يضطرب وينتفض.
يشخب	أي يتفجر فيه ماء الكوثر.
الرضراض	ما دقّ من الحصى[٢].

---

(١) انظر: العقائد السلفية (١/ ٥٠٠).

(٢) تهذيب اللغة (٢/ ١٤١٧).

٤ معنى قول الطحاوي: «والحوض الذي أكرمه الله تعالى به غياثاً لأمته حق»:

أخبرنا نبينا ﷺ أن له حوضاً يوم القيامة في المحشر، يرده أتباعه الذين آمنوا به واتبعوه، فيشربون منه شربة لا يظمؤون بعدها أبداً، وذلك لأن يوم القيامة يوم شديد عصيب وفيه حر شديد، فجعل هذا الحوض غياثاً لأمة محمد ﷺ.

٥ معنى الحوض:

الحوض لغة: مجمع الماء، وهو مادة مشتقة من السيلان ومنه الحيض، ومنه حاض الوادي إذا سال، وشرعاً: هو حوض الرسول ﷺ المورود في عرصات القيامة. والعرصات: المكان الواسع، والمراد بها مواقف العرض والحساب.

٦ حكم الإيمان بالحوض:

الإيمان بالحوض واجب على كل مسلم ومسلمة، فيثاب عليه من صدق به، ويبدع ويفسق جاحده، فأهل السنّة يثبتون الحوض ويؤمنون بأن للنبي ﷺ حوضاً عظيماً وموردا كريماً.

أما أهل الأهواء من المعتزلة[١] وغيرهم فنفوه ولم يثبتوا الحوض للنبي ﷺ ولا لغيره من الأنبياء.

٧ صفة حوض النبي ﷺ:

وردت صفة الحوض[٢] في الأحاديث الصحيحة وهي كما يلي:

أ ـ شكل الحوض ومساحته:

الحوض مربع الشكل، طوله وعرضه سواء، وكل منهما مسيرة شهر، ويشهد لذلك حديث عبد الله بن عمرو بن العاص المرفوع فيه: **(حوضي مسيرة شهر وزواياه سواء)**[٣]، وحديث أبي ذر المرفوع وفيه: **(عرضه مثل طوله)**[٤]. قال القاضي عياض: «الزوايا: الأركان، فهو مربع مستوي الأضلاع؛ لأن تساوي

---

(١) شرح الجوهرة للبيجوري (ص٢٤٠).
(٢) انظر: كتاب مرويات الصحابة في الحوض (ص٢١ ـ ٢٢).
(٣) متفق عليه.
(٤) أخرجه مسلم (٢٨).

الزوايا يدل على تساوي الأضلاع»[١].

ب ـ لون مائه وريحه وطعمه:

الماء الذي في الحوض أشد بياضاً من اللبن، وريحه أطيب من المسك، وطعمه أحلى من العسل.

ج ـ صفة آنيته[٢]:

جاء في حديث عبد الله بن عمرو بن العاص المتفق عليه: (**وكيزانه كنجوم السماء**). قال القسطلاني: «أي في الإشراق والكثرة»[٣]، وفي حديث عبد الله بن عمر المرفوع: (**فيه أباريق كنجوم السماء**)[٤]. وفي حديث جابر بن سمرة المرفوع: (**كأن الأباريق فيه النجوم**)[٥]. وهذه الألفاظ تحمل على ظاهرها، وهي تدل على أن عدد الآنية كعدد نجوم السماء وأكثر. قال الإمام النووي: «والمختار والصواب أن هذا العدد للآنية على ظاهرها، وأنها أكثر من عدد نجوم السماء، ولا مانع عقلي ولا شرعي يمنع من ذلك»[٦].

د ـ أول من يرد الحوض هم فقراء المهاجرين وصعاليكهم.

٨ المذادون عن الحوض[٧]:

دلّت الأحاديث الصحيحة عن النبي ﷺ أن الذود ذودان:

أ ـ ذود عام: ويشمل جميع الناس من غير أمة محمد ﷺ، ويشهد لذلك حديث أبي هريرة المرفوع: (**وإني لأصدّ الناس عنه كما يصدّ الرجل إبل الناس عن حوضه**)[٨]، وذود الناس من غير أمة محمد ﷺ إرشاد منه ﷺ لأولئك الناس أن يذهبوا إلى حياض أنبيائهم.

ب ـ ذود خاص: وهو لأناس من أمة محمد ﷺ، ويشهد لذلك حديث أسماء المرفوع فيه: (**وسيؤخذ ناس دوني، فأقول: يا ربّ! مني ومن أمتي، فيقال: هل**

---

(١) إكمال المعلم بشرح صحيح مسلم للأبي (٦/ ١٠٧)، وانظر: كتاب مرويات الصحابة في الحوض ص٢١.

(٢) انظر: مرويات الصحابة في الحوض (ص٢٢).

(٣) إرشاد الساري (٩/ ٣٣٨).

(٤) أخرجه مسلم (٤/ ١٧٩٨).

(٥) أخرجه مسلم (٤/ ١٨٠١).

(٦) شرح النووي على مسلم (٤/ ١٨٠١).

(٧) انظر: مرويات الصحابة في الحوض (ص٢٣).

(٨) أخرجه مسلم.

شعرت ما عملوا بعدك؟ والله! ما برحوا يرجعون على أعقابهم)[١]. ويظهر بوضوح من هذا الحديث أن سبب طردهم عن الحوض هو ارتدادهم ورجوعهم على أعقابهم.

(٩) من يطرد عن الحوض؟

يطرد من حوض نبينا محمد ﷺ كل من ارتد عن دين الله تعالى أو أحدث في الدين وابتدع فيه بما لم يأذن به الله[٢].

(١٠) أدلة الحوض:

دلّ على إثبات الحوض السنّة والإجماع، والأحاديث الواردة في الحوض تبلغ حد التواتر. قال القرطبي: «وأجمع على إثباته السلف وأهل السنّة من الخلف، وأنكر ذلك طائفة من المبتدعة»[٣].

وعقد ابن كثير في النهاية باباً خاصاً في إثبات الحوض، وقال: «ذكر ما ورد في الحوض النبوي المحمدي من الأحاديث المتواترة المتعددة من الطرق الكثيرة المتضافرة، وإن زعمت كثير من المبتدعة المعاندة المكابرة القائلين بجحوده، وأخلق بهم أن يحال بينهم وبين وروده»[٤].

وعدد الصحابة الذين رووا حديث الحوض بضعة وثلاثون صحابياً، فمن تلك الأحاديث:

١ ـ ما رواه البخاري رحمه الله تعالى عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن الرسول ﷺ قال: **(أن قدر حوضي كما بين آيلة إلى صنعاء باليمن، وإن فيه من الأباريق عدد نجوم السماء)**. وعنه عن النبي ﷺ قال: **(ليردنّ عليّ أناس من أصحابي حتى إذا عرفتهم اختلجوا دوني فأقول: أصحابي، فيقول: لا تدري ما أحدثوا بعدك)**. متفق عليه.

٢ ـ حديث: **(حوضي ما بين عدن وعَمَّان البلقا)**، وحديث: **(حوضي ما بين المدينة وعمان)**.

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم. (٢) انظر: لوامع الأنوار البهية (٢/ ٢٠٠).

(٣) انظر: فتح الباري (١١/ ٤٦٧)، وقد نص على التواتر القاضي عياض كما نقل عنه النووي في شرح مسلم (١٥/ ٥٣)، وابن كثير في النهاية (٢/ ٣).

(٤) البداية والنهاية (٢/ ٣).

١١ التوفيق بين الروايات المتعارضة في ذكر مسافات الحوض:

ورد في البخاري (٨/ ١٤٩): أنه ما بين جرباء وأذرح.

وفي رواية له: ما بين أيلة إلى صنعاء.

أما في مسلم (٧/ ٦٩): فهو ما بين الكعبة إلى بيت المقدس.

وفي رواية له: ما بين المدينة وعمان.

وعند أحمد (٣/ ١٨): ما بين صنعاء والمدينة.

وفي رواية له: بين مكة وأيلة.

وللجمع بين هذه الأحاديث من وجوه أرجحها:

١ ـ أن الاختلاف إنما أتى بحسب ما يعرفه السائل من حجازي ويماني وشامي فلا ينظر إلى الطول والعرض وإنما ينظر إلى السائل.

٢ ـ أن الاختلاف بالنسبة للمجتهد في السير والبطيء فيه.

١٢ الأقوال في أسبقية الحوض على الصراط:

اختلف العلماء في الحوض هل هو قبل الصراط والميزان أو بعدهما على قولين:

القول الأول: أن الحوض يكون بعد الميزان والصراط[1].

ووجه ذلك: للناس في ذلك قولان:

الأول: أنه قبل الصراط وهذا هو الراجح؛ وذلك من وجهين:

الأول: أن الناس يخرجون من قبورهم عطاشاً.

الثاني: أنه يختلج عنه ويمنع عنه أقوام قد ارتدوا على أعقابهم، ومثل هؤلاء لا يجوزون الصراط[2].

القول الثاني: ذهب جمهور العلماء إلى أن الحوض قبل الصراط والميزان.

١٣ صفة الحوض والكوثر:

الحوض هو مورد كريم يمد من شراب الجنة من نهر الكوثر الذي هو أشد بياضاً من اللبن وأبرد من الثلج، وأحلى من العسل، وأطيب ريحاً من المسك، وهو غاية في الاتساع عرضه وطوله سواء كل زاوية من زواياه مسيرة شهر، وقد

---

(١) انظر: التذكرة (ص٣٠٢)، والنهاية لابن كثير (٢/ ٣٦).

(٢) انظر: فتح الباري (١١/ ٤٦٧)، والتذكرة (ص٣٠٢)، ولوامع الأنوار (٢/ ١٩٥).

جاء أنه كلما شرب منه هو في ازدياد واتساع، وإنه ينبت في خلاله من المسك والرضراض من اللؤلؤ وقضبان الذهب، ويثمر ألوان الجواهر، وهما خاصان بالنبي ﷺ كما جاءت بذلك الأحاديث الصحيحة، وكل نبي له حوض، كما ورد بذلك الحديث إلا أن حوض نبينا أعظمها وأحلاها وأكثرها وارداً، جعلنا الله من الواردين له.

١٤ الفرق بين الحوض والكوثر:

ذكر بعض أهل العلم أن الحوض نهر طويل، قسم منه في الموقف والطرف الآخر في الجنة بعد الصراط، له ميزابان يصبان فيه من الجنة يمدان الحوض والكوثر، وهما اسمان لنهر واحد، فما كان منه في الموقف يسمى حوضاً؛ لأنه ـ والله أعلم ـ غير جار، أو أنه نهاية جريان الكوثر فيسمى كوثراً من الكثرة وهو الخير الكثير، وهذا القول يعدّ جمعاً بين الأحاديث. والله أعلم[1].

١٥ حكم من أنكر الحوض والكوثر:

قال البغدادي: «نقول لمنكر الحوض: لا سقاهم الله منه»[2].

وقال أيضاً: «ومن أنكر ذلك حرم الشرب منه»[3].

وقال شارح الطحاوية: «فقاتل الله المنكرين لوجود الحوض، وأَخْلِقْ بهم أن يحال بينهم وبين وروده يوم العطش الأكبر».

١٦ الخلاصة:

١ ـ أخبرنا نبينا ﷺ أن له حوضاً يوم القيامة في المحشر يرده أتباعه الذين آمنوا به واتبعوه، فيشربون منه شربة لا يظمؤون بعدها أبداً.

٢ ـ أهل السنّة والجماعة يثبتون الحوض، ويؤمنون بأن للنبي ﷺ حوضاً عظيماً، ومورداً كريماً.

٣ ـ دلّ على إثبات الحوض السنّة والإجماع، والأحاديث الواردة في الحوض بلغت حدّ التواتر.

٤ ـ ذهب جمهور العلماء إلى أن الحوض قبل الصراط والميزان.

٥ ـ الحوض هو مورد كريم يمدّ من شراب الجنة من نهر الكوثر الذي هو أشد بياضاً من اللبن وأبرد من الثلج، وأحلى من العسل، وأطيب ريحاً من

---

(١) انظر: لوامع الأنوار البهية (٢/ ١٩٤ ـ ٢٠٤).

(٢) أصول الدين (ص٢٤٦).

(٣) الفرق بين الفرق (ص٣٣٩).

المسك، وهو غاية في الاتساع، عرضه وطوله سواء، كل زاوية من زواياه مسيرة شهر.

٦ ـ من أنكر الحوض حرم الشرب منه.

١٧ المناقشة:

- **س١:** لماذا عقد المصنف هذا الباب؟
- **س٢:** عرّف الحوض لغةً وشرعاً.
- **س٣:** ما حكم الإيمان بالحوض؟
- **س٤:** ذكرت الأحاديث مسافات مختلفة للحوض، فكيف تجمع بينها؟
- **س٥:** أيهما يأتيه الناس قبل: الميزان أم الحوض؟
- **س٦:** بيّن الأقوال في أسبقية الحوض على الصراط مع التوجيه لما تختار.
- **س٧:** بيّن صفة الحوض والكوثر، مع بيان الفرق بينهما وموضعهما.
- **س٨:** هل لكل نبي حوض؟ بيّن ذلك.
- **س٩:** ما حكم من أنكر الحوض والكوثر؟
- **س١٠:** كيف نجمع بين حديث: **(هل تدرون ما الكوثر...)**، وحديث: **(يرد عليّ أناس من أصحابي...)**؟
- **س١١:** من أول من يرد الحوض؟



الشفاعة

* كلام ابن أبي العز.

١ ـ غرض المصنف من عقد هذا الباب.

٢ ـ مناسبة هذا الباب لما سبق.

٣ ـ معاني الكلمات.

٤ ـ معنى كلام الطحاوي: «والشفاعة التي ادخرها لهم حق كما روي في الأخبار».

٥ ـ أدلة ثبوت الشفاعة.

٦ ـ أقسام الناس في الشفاعة.

٧ ـ أقسام الشفاعة عند الخلق.

٨ ـ أقسام الشفاعة في القرآن وشروطها.

٩ ـ أنواع الشفاعة.

١٠ ـ الشفاعة التي تتكرر للنبي ﷺ.

١١ ـ تفسير قوله تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحۡمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩].

١٢ ـ الجمع بين قوله تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمۡ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [المدثر: ٤٨]، وبين ما ورد في شفاعة النبي ﷺ لعمه أبي طالب.

١٣ ـ الأعمال الموعود عليها بشفاعة النبي ﷺ.

١٤ ـ الجواب على شبه منكري الشفاعة.

١٥ ـ الجواب على تعلق المخالفين بحديث الشفاعة العظمى من أن الأنبياء تفزع إليهم الأمم ويكون المرجع الأخير سيد الثقلين محمد ﷺ ليشفع لهم عند الله.

١٦ ـ أقسام التوسل.

١٧ ـ أنواع التوسل المشروع.

١٨ ـ أنواع التوسل الممنوع.

١٩ ـ التوسل بالنبي ﷺ أمر مجمل يحتمل ثلاثة أمور.

٢٠ ـ حكم من قال: «اللهم إني أسألك بحق نبيك».

٢١ ـ الفرق بين قول القائل: «اللهم إن أسألك بحق فلان»، وبين «اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك».

٢٢ ـ معنى قول عمر: «اللهم إن كنا إذا أجدبنا توسلنا بنبينا وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا».

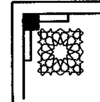
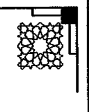
٢٣ ـ الفرق بين السؤال بالشيء وبين الإقسام به.

٢٤ ـ جهل الناس بالتوسل والتبرك المشروع.

٢٥ ـ حكم الاستشفاع بالأولياء والصالحين من أموات المسلمين.

٢٦ ـ الخلاصة.

٢٧ ـ المناقشة.

الشفاعة

قال ابن أبي العز:

قوله: «والشفاعة التي ادخرها لهم حق كما روي في الأخبار».

الشفاعة أنواع: منها ما هو متفق عليه بين الأمة، ومنها ما خالف فيه المعتزلة ونحوهم من أهل البدع:

النوع الأول: الشفاعة الأولى، وهي العظمى، الخاصة بنبينا ﷺ من بين سائر إخوانه من الأنبياء والمرسلين، صلوات الله عليهم أجمعين.

في «الصحيحين» وغيرهما عن جماعة من الصحابة رضي الله عنهم أجمعين أحاديث الشفاعة.

منها: عن أبي هريرة ﷺ قال: أُتِيَ رسول الله ﷺ بلحم، فدُفع إليه منها الذراع، وكانت تُعجِبُه، فنهس منها نهسة، ثم قال: «أنا سيد الناس يوم القيامة، وهل تدرون لم ذاك؟ يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد يسمعهم الداعي وينفذهم البصر، وتدنو الشمس، فيبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقون ولا يحتملون، فيقول بعض الناس لبعض: ألا ترون إلى ما أنتم فيه؟ ألا ترون ما قد بلغكم؟ ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم؟ فيقول بعض الناس لبعض: أبوكم آدم، فيأتون آدم، فيقولون: يا آدم، أنت أبو البشر، خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك، فاشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول آدم: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه نهاني عن الشجرة فعصيت، نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى نوح، فيأتون نوحاً، فيقولون: يا نوح، أنت أول الرسل إلى أهل الأرض، وسمَّاك الله عبداً شكوراً، فاشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول نوح: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه كانت لي دعوة دعوت بها على قومي، نفسي نفسي نفسي، اذهبوا

إلى غيري، اذهبوا إلى إبراهيم، فيأتون إبراهيم، فيقولون: يا إبراهيم، أنت نبي الله وخليله من أهل الأرض، ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وذكر كذباته، نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى موسى، فيأتون موسى، فيقولون: يا موسى، أنت رسول الله، اصطفاك الله برسالاته وبتكليمه على الناس، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول لهم موسى: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإني قتلت نفساً لم أومر بقتلها، نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى عيسى، فيأتون عيسى، فيقولون: يا عيسى، أنت رسول الله وكلمته، ألقاها إلى مريم، وروح منه، قال: هكذا هو، وكلمت الناس في المهد، فاشفع لنا ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول لهم عيسى: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، ولم يذكر له ذنباً، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى محمد ﷺ، فيأتوني، فيقولون: يا محمد، أنت رسول الله، وخاتم الأنبياء، غفر الله لك ما تقدم من ذنبك، وما تأخر، فاشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فأقوم، فآتي تحت العرش، فأقع ساجداً لربي ﷻ، ثم يفتح الله علي، ويلهمني من محامده، وحسن الثناء عليه ما لم يفتحه على أحد قبلي، فيقال: يا محمد، ارفع رأسك، سل تعطه، اشفع تشفع، فأقول: يا رب أمتي أمتي، يا رب أمتي أمتي، يا رب أمتي أمتي، فيقال: أدخل من أمتك من لا حساب عليه من الباب الأيمن من أبواب الجنة، وهم شركاء الناس فيما سواه من الأبواب، ثم قال: والذي نفسي بيده، لما بين مصراعين من مصاريع الجنة كما بين مكة وهجر، أو كما بين مكة وبصرى»[(١)] أخرجاه في الصحيحين بمعناه واللفظ للإمام أحمد.

والعجب كل العجب من إيراد الأئمة لهذا الحديث من أكثر طرقه لا يذكرون أمر الشفاعة الأولى في مأتى الرب ﷻ لفصل القضاء كما ورد هذا في حديث الصور، فإنه المقصود في هذا المقام ومقتضى سياق أول الحديث؛ فإن الناس إنما يستشفعون إلى آدم فمن بعده من الأنبياء في أن يفصل بين الناس ويستريحوا من

---

(١) أخرجه البخاري (٤٧١٢)، ومسلم (١٩٤)، وهو في المسند (٢/ ٤٣٥ ـ ٤٣٦).

مقامهم، كما دلت عليه سياقاته من سائر طرقه، فإذا وصلوا إلى الجزاء إنما يذكرون الشفاعة في عصاة الأمة وإخراجهم من النار.

وكان مقصود السلف في الاقتصار على هذا المقدار من الحديث هو الرد على الخوارج ومن تابعهم من المعتزلة الذين أنكروا خروج أحد من النار بعد دخولها فيذكرون هذا القدر من الحديث الذي فيه النص الصريح في الرد عليهم فيما ذهبوا إليه من البدعة المخالفة للأحاديث.

وقد جاء التصريح بذلك في حديث الصور، ولولا خوف الإطالة لسقته بطوله، لكن من مضمونه: «أنهم يأتون آدم ثم نوحاً ثم إبراهيم ثم موسى ثم عيسى ثم يأتون رسول الله محمداً ﷺ فيذهب فيسجد تحت العرش في مكان يقال له الفحص، فيقول الله: ما شأنك وهو أعلم، قال رسول الله ﷺ: فأقول: يا رب! وعدتني الشفاعة، فشفِّعني في خلقك، فاقض بينهم، فيقول ﷻ: شفعتك، أنا آتيكم فأقضي بينهم، قال: فأرجع فأقف مع الناس، ثم ذكر انشقاق السموات وتنزل الملائكة في الغمام ثم يجيء الرب ﷻ لفصل القضاء والكروبيون[1] والملائكة المقربون يسبحون بأنواع التسبيح، قال فيضع الله كرسيه حيث شاء من أرضه، ثم يقول: إني أنصت لكم منذ خلقتكم إلى يومكم هذا، أسمع أقوالكم وأرى أعمالكم فأنصتوا إلي، فإنما هي أعمالكم وصحفكم تقرأ عليكم، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه، إلى أن قال: فإذا أفضى أهل الجنة إلى الجنة قالوا: من يشفع لنا إلى ربنا فندخل الجنة، فيقولون: من أحق بذلك من أبيكم؛ إنه خلقه الله بيده ونفخ فيه من روحه وكلمه قُبُلاً، فيأتون آدم فيطلبون ذلك إليه، وذكر نوحاً ثم إبراهيم ثم موسى ثم عيسى ثم محمداً ﷺ إلى أن قال رسول الله ﷺ: فآتي الجنة بحلقة الباب، ثم أستفتح فيفتح لي، فأُحيَّا ويرحَّبُ بي، فإذا دخلت الجنة فنظرت إلى ربي ﷻ خررت له ساجداً، فيأذن لي من حمده وتمجيده بشيء ما أذن به لأحد من خلقه، ثم يقول الله لي: ارفع يا محمد، واشفع تُشفَّع، وسل تعطه، فإذا رفعت رأسي قال الله، وهو أعلم: ما شأنك؟ فأقول: يا رب! وعدتني الشفاعة فشفعني في أهل الجنة، يدخلون الجنة، فيقول الله ﷻ قد شفعتك وأذنت لهم في دخول الجنة»[2]، الحديث رواه الأئمة ابن

---

(١) بفتح الكاف هم أقرب الملائكة إلى العرش.

(٢) رواه الطبراني في المطولات (٢٥/٢٦٦) (٣٦)، وقال ابن كثير في تفسيره: هذا حديث مشهور، وهو غريب جداً.

جرير في تفسيره والطبراني وأبو يعلى الموصلي والبيهقي وغيرهم.

النوع الثاني والثالث: من الشفاعة شفاعته ﷺ في أقوام قد تساوت حسناتهم وسيئاتهم فيشفع فيهم ليدخلوا الجنة، وفي أقوام آخرين قد أُمر بهم إلى النار أن لا يدخلوها.

النوع الرابع: شفاعته في رفع درجات من يدخل الجنة فيها فوق ما كان يقتضيه ثواب أعمالهم، وقد وافقت المعتزلة على هذه الشفاعة خاصة، وخالفوا فيما عداها من المقامات مع تواتر الأحاديث فيها.

النوع الخامس: الشفاعة في أقوام أن يدخلوا الجنة بغير حساب، ويحسن أن يستشهد لهذا النوع بحديث عكاشة بن محصن حين دعا له رسول الله أن يجعله من السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب، والحديث مخرَّج في الصحيحين[1].

النوع السادس: الشفاعة في تخفيف العذاب عمن يستحقه كشفاعته في عمه أبي طالب أن يخفف عنه عذابه[2].

ثم قال القرطبي في التذكرة بعد ذكر هذا النوع: فإن قيل: فقد قال تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [المدثر: ٤٨] قيل له: لا تنفعه في الخروج من النار كما تنفع عصاة الموحدين الذين يخرجون منها ويدخلون الجنة.

النوع السابع: شفاعته أن يؤذن لجميع المؤمنين في دخول الجنة كما تقدم، وفي صحيح مسلم عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (أنا أول شفيع في الجنة)[3].

النوع الثامن: شفاعته في أهل الكبائر من أمته ممن يدخل النار فيخرجون منها، وقد تواترت بهذا النوع الأحاديث، وقد خفي علم ذلك على الخوارج والمعتزلة، فخالفوا في ذلك جهلاً منهم بصحة الأحاديث، وعناداً ممن علم ذلك واستمر على بدعته.

وهذه الشفاعة تشاركه فيها الملائكة والنبيون والمؤمنون أيضاً.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٨١١)، ومسلم (٢١٦).
(٢) انظر: صحيح البخاري (٣٨٨٣)، وصحيح مسلم (٢٠٩).
(٣) أخرجه مسلم (١٩٦).

وهذه الشفاعة تتكرر منه ﷺ أربع مرات.

ومن أحاديث هذا النوع حديث أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي)[١]، رواه الإمام أحمد رحمه الله.

وروى البخاري رحمه الله في كتاب التوحيد: حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا حماد بن زيد، حدثنا معبد بن هلال العنزي قال: اجتمعنا ناس من أهل البصرة فذهبنا إلى أنس بن مالك، وذهبنا معنا بثابت البناني إليه يسأله لنا عن حديث الشفاعة فإذا هو في قصره، فوافقناه يصلي الضحى فاستأذنا فأذن لنا وهو قاعد على فراشه، فقلنا لثابت: لا تسأله عن شيء أول من حديث الشفاعة، فقال: يا أبا حمزة هؤلاء إخوانك من أهل البصرة جاؤوك يسألونك عن حديث الشفاعة، فقال: حدثنا محمد ﷺ قال: (إذا كان يوم القيامة ماج الناس بعضهم في بعض، فيأتون آدم، فيقولون: اشفع لنا إلى ربك، فيقول: لست بها، ولكن عليكم بإبراهيم فإنه خليل الرحمن، فيأتون إبراهيم، فيقول: لست لها، ولكن عليكم بموسى؛ فإنه كليم الله، فيأتون موسى، فيقول: لست لها، ولكن عليكم بعيسى؛ فإنه روح الله وكلمته، فيأتون عيسى، فيقول: لست لها، ولكن عليكم بمحمد، فيأتوني فأقول: أنا لها فأستأذن على ربي، فيؤذَن لي ويلهمني محامد أحمده بها لا تحضرني الآن فأحمده بتلك المحامد، وأخرُّ له ساجداً، فيقال: يا محمد: ارفع رأسك، وقل: يسمع لك، واشفع تشفَّع وسل تعط، فأقول: يا رب: أمتي أمتي، فيقال: انطلق، فأخرج منها من كان في قلبه مثقال شعيرة من إيمان، فأنطلق فأفعل، ثم أعود فأحمده بتلك المحامد، ثم أخر له ساجداً، فيقال: يا محمد: ارفع رأسك، وقل: يسمع لك، واشفع تشفع، وسل تعط، فأقول: يا رب! أمتي أمتي، فيقال: انطلق فأخرج منها من كان في قلبه مثقال ذرة أو خردلة من إيمان، فأنطلق فأفعل، ثم أعود بتلك المحامد ثم أخر له ساجداً، فيقال: يا محمد، ارفع رأسك، وقل يسمع لك، وسل تعط، واشفع تشفع، فأقول: يا رب! أمتي أمتي فيقول: انطلق فأخرج من كان في قلبه أدنى مثقال حبة من خردل من إيمان فأخرجه من النار، فأنطلق فأفعل، قال: فلما خرجنا من عند أنس قلت لبعض أصحابنا: لو مررنا بالحسن وهو متوار في منزل أبي خليفة، فحدثناه بما حدثنا به

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٢١٣)، والترمذي (٢٤٣٥)، وأبو داود (٤٧٣٩).

أنس بن مالك فأتيناه، فسلمنا عليه، فأذن لنا، فقلنا له: يا أبا سعيد! جئناك من عند أخيك أنس بن مالك، فلم نر مثل ما حدثنا في الشفاعة، فقال: هيه وحدثناه بالحديث فانتهى إلى هذا الموضع، فقال: هيه، فقلنا: لم يزد لنا على هذا، فقال: لقد حدثني وهو جميع منذ عشرين سنة، فما أدري أنسي أم كره أن تتكلوا، فقلنا: يا أبا سعيد فحدِّثنا، فضحك، وقال: خلق الإنسان عجولاً، ما ذكرته إلا وأنا أريد أن أحدثكم، حدثني كما حدثكم به، قال: ثم أعود الرابعة فأحمده بتلك المحامد ثم أخر له ساجداً، فيقال: يا محمد! ارفع رأسك، وقل: يسمع، وسل تعطه، واشفع تشفع، فأقول: يا رب! ائذن لي فيمن قال لا إله إلا الله، فيقول: وعزتي وجلالي وكبريائي وعظمتي! لأخرجن منها من قال: لا إله إلا الله)(١)، وهكذا رواه مسلم.

وروى الحافظ أبو يعلى عن عثمان ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (يشفع يوم القيامة ثلاثة: الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء)(٢).

وفي الصحيح من حديث أبي سعيد ﷺ مرفوعاً، قال: (فيقول الله تعالى شفعت الملائكة، وشفع النبيون، وشفع المؤمنون، ولم يبق إلا أرحم الراحمين، فيقبض قبضة من النار، فيخرج منها قوماً لم يعملوا خيراً قط)(٣) الحديث.

ثم إن الناس في الشفاعة على ثلاثة أقوال(٤):

فالمشركون والنصارى والمبتدعون من الغلاة في المشايخ وغيرهم يجعلون شفاعة من يعظمونه عند الله كالشفاعة المعروفة في الدنيا.

والمعتزلة والخوارج أنكروا شفاعة نبينا ﷺ وغيره في أهل الكبائر.

وأما أهل السنة والجماعة فيقرون بشفاعة نبينا ﷺ في أهل الكبائر وشفاعة غيره لكن لا يشفع أحد حتى يأذن الله له ويحد له حداً كما في الحديث الصحيح حديث الشفاعة، إنهم يأتون آدم ثم نوحاً ثم إبراهيم ثم موسى ثم عيسى، فيقول لهم عيسى عليه السلام: اذهبوا إلى محمد فإنه عبد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر

---

(١) أخرجه البخاري (٧٥١٠)، ومسلم (١٩٣).

(٢) أخرجه ابن ماجه (٤٣١٣)، وفي إسناده عنبسة بن عبد الرحمن، قال البخاري تركوه، وقال أبو حاتم كان يضع الحديث. وشيخه فيه علاق بن أبي مسلم مجهول.

(٣) أخرجه مسلم (١٨٣).

(٤) انظر: كتاب الصفدية (٢/ ٢٩٠).

فيأتوني، فأذهب فإذا رأيت ربي خررت له ساجداً، فأحمد ربي بمحامد يفتحها علي لا أحسنها الآن، فيقول: أي محمد ارفع رأسك، وقل يسمع، واشفع تشفع، فأقول: ربي أمتي، فيحد لي حداً، فأدخلهم الجنة ثم أنطلق فأسجد، فيحد لي حداً، ذكرها ثلاث مرات.

وأما الاستشفاع بالنبي ﷺ وغيره في الدنيا إلى الله تعالى في الدعاء ففيه تفصيل، فإن الداعي تارة يقول: بحق نبيك، أو بحق فلان، يقسم على الله بأحد من مخلوقاته فهذا محذور من وجهين:

أحدهما: أنه أقسم بغير الله.

والثاني: اعتقاده أن لأحد على الله حقاً، ولا يجوز الحلف بغير الله، وليس لأحد على الله حق إلا ما أحقه على نفسه، كقوله تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]. وكذلك ما ثبت في الصحيحين من قوله لمعاذ رضي الله عنه وهو رديفه: «يا معاذ، أتدري ما حق الله على عباده؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: حقه عليهم أن يعبدوه، ولا يشركوا به شيئاً، أتدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: حقهم عليه أن لا يعذبهم»[١].

فهذا حق وجب بكلماته التامة، ووعده الصادق، لا أن العبد نفسه مستحق على الله شيئاً كما يكون للمخلوق على المخلوق؛ فإن الله هو المنعم على العباد بكل خير وحقهم الواجب بوعده هو أن لا يعذبهم وترك تعذيبهم معنى لا يصلح أن يقسم به ولا أن يسأل بسببه ويتوسل به؛ لأن السبب هو ما نصبه الله سبباً، وكذلك الحديث الذي في المسند من حديث أبي سعيد عن النبي ﷺ في قول الماشي إلى الصلاة: (أسألك بحق ممشاي هذا وبحق السائلين عليك)[٢]، فهذا حق السائلين هو أوجبه على نفسه فهو الذي أحق للسائلين أن يجيبهم وللعابدين أن يثيبهم، ولقد أحسن القائل:

ما للعباد عليه حق واجب	كلا ولا سعي لديه ضائع
إن عُذِّبوا فبعدله أو نُعِّموا	فبفضله وهو الكريم السامع

(١) أخرجه البخاري (٢٨٥٦)، ومسلم (٣٠).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٢١)، وابن ماجه (٧٧٨).

فإن قيل فأي فرق بين قول الداعي: بحق السائلين عليك وبين قوله بحق نبيك أو نحو ذلك؟ فالجواب أن معنى قوله: بحق السائلين عليك أنك وعدت السائلين بالإجابة وأنا من جملة السائلين فأجب دعائي، بخلاف قوله: بحق فلان؛ فإن فلاناً وإن كان له حق على الله بوعده الصادق فلا مناسبة بين ذلك وبين إجابة دعاء هذا السائل، فكأنه يقول: لكون فلان من عبادك الصالحين أجب دعاي، وأي مناسبة في هذا وأي ملازمة، وإنما هذا من الاعتداء في الدعاء، وقد قال تعالى: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ۝٥٥﴾ [الأعراف: ٥٥]، وهذا ونحوه من الأدعية المبتدعة، ولم ينقل عن النبي ﷺ ولا عن الصحابة ولا عن التابعين، ولا عن أحد من الأئمة رضي الله عنهم، وإنما يوجد مثل هذا في الحروز والهياكل التي يكتب بها الجهال والطرقية.

والدعاء من أفضل العبادات، والعبادات مبناها على السنة والاتباع لا على الهوى والابتداع.

وإن كان مراده: الإقسام على الله بحق فلان فذلك محذور أيضاً؛ لأن الإقسام بالمخلوق لا يجوز فكيف على الخالق؟ وقد قال ﷺ: (من حلف بغير الله فقد أشرك)[1]، ولهذا قال أبو حنيفة وصاحباه رضي الله عنهم: يكره أن يقول الداعي: أسألك بحق فلان، أو بحق أنبيائك ورسلك، وبحق البيت الحرام والمشعر الحرام ونحو ذلك، حتى كره أبو حنيفة ومحمد رضي الله عنهما أن يقول الرجل: اللهم إني أسألك بمعقد العز من عرشك، ولم يكرهه أبو يوسف رحمه الله لما بلغه الأثر فيه.

وتارة يقول: بجاه فلان عندك، أو يقول: نتوسل إليك بأنبيائك ورسلك وأوليائك، ومراده: أن فلاناً عندك ذو وجاهة وشرف ومنزلة، فأجب دعاءنا، وهذا أيضاً محذور؛ فإن لو كان هذا هو التوسل الذي كان الصحابة يفعلونه في حياة النبي ﷺ لفعلوه بعد موته، وإنما كانوا يتوسلون في حياته بدعائه، يطلبون منه أن يدعو لهم وهم يؤمِّنون على دعائه، كما في الاستسقاء وغيره، فلما مات ﷺ قال عمر رضي الله عنه لما خرجوا يستسقون: اللهم إنا كنا إذا أجدبنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا وإنا نتوسل إليك بعم نبينا)[2]، معناه بدعائه هو ربه وشفاعته وسؤاله ليس

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٦٩)، وأبو داود (٣٢٥١).

(٢) أخرجه البخاري (١٠١٠).

المراد: إنا نقسم عليك به، أو نسألك بجاهه عندك، إذ لو كان ذلك مراداً لكان جاه النبي ﷺ أعظم وأعظم من جاه العباس، وتارة يقول: باتباعي لرسولك ومحبتي له وإيماني به وسائر أنبيائك ورسلك وتصديقي لهم ونحو ذلك، فهذا من أحسن ما يكون في الدعاء والتوسل والاستشفاع.

فلفظ التوسل بالشخص والتوجه به فيه إجمال غلط بسببه من لم يفهم معناه، فإن أريد به التسبب به لكونه داعياً وشافعاً، وهذا في حياته يكون، أو لكون الداعي محباً له مطيعاً لأمره مقتدياً به، وذلك أهل للمحبة والطاعة والاقتداء فيكون التوسل إما بدعاء الوسيلة وشفاعته، وإما بمحبة السائل واتباعه، أو يراد به الإقسام به والتوسل بذاته، فهذا الثاني هو الذي كرهوه ونهوا عنه.

وكذلك السؤال بالشيء قد يراد به التسبب به لكونه سبباً في حصول المطلوب وقد يراد به الإقسام به.

ومن الأول[1] جاءت الثلاثة الذين أووا إلى الغار، وهو حديث مشهور في الصحيحين وغيرهما، فإن الصخرة انطبقت عليهم فتوسلوا إلى الله بذكر أعمالهم الصالحة الخالصة، وكل واحد منهم يقول: فإن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه فانفرجت الصخرة فخرجوا يمشون[2].

فهؤلاء دعوا الله بصالح الأعمال، لأن الأعمال الصالحة هي أعظم ما يتوسل به العبد إلى الله ويتوجه به إليه ويسأله به، لأنه وعد أن يستجيب للذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله.

فالحاصل[3] أن الشفاعة عند الله ليست كالشفاعة عند البشر، فإن الشفيع عند البشر كما أنه شافع للطالب شفعة في الطلب، بمعنى أنه صار شفعاً فيه بعد أن كان وتراً، فهو أيضاً قد شفع المشفوع إليه، وبشفاعته صار فاعلاً للمطلوب، فقد شفع الطالب والمطلوب منه، والله تعالى وتر لا يشفعه أحد فلا يشفع عنده أحد إلا بإذنه، فالأمر كله إليه، فلا شريك له بوجه، فسيد الشفعاء يوم القيامة إذا سجد

---

(١) انظر: اقتضاء الصراط المستقيم (٢/ ٧٧٣).

(٢) أخرجه البخاري (٢٢١٥)، ومسلم (٢٧٤٣).

(٣) انظر: الفتاوى العراقية (٢/ ١٠٦٦).

وحمد الله تعالى فقال له الله: ارفع رأسك وقل يسمع واسأل تعطه واشفع تشفع، فيحد له حداً فيدخلهم الجنة، فالأمر كله لله كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، وقال تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨]، وقال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤].

فإذا كان لا يشفع عند أحد إلا بإذنه لمن يشاء، ولكن يكرم الشفيع بقبول شفاعته كما قال ﷺ: (اشفعوا تؤجروا ويقضي الله على لسان نبيه ما يشاء)[١].

وفي الصحيح أن النبي ﷺ قال: (يا بني عبد مناف لا أملك لكم من الله شيئاً، يا صفية يا عمة رسول الله لا أملك لك من الله شيئاً، يا عباس عم رسول الله لا أملك لك من الله شيئاً)[٢].

وفي الصحيح أيضاً عن النبي ﷺ: (لا ألفين أحدكم يأتي يوم القيامة على رقبته بعير له رغاء، أو شاة لها يعار، أو رقاع تخفق، فيقول أغثني أغثني، فأقول قد أبلغتك، لا أملك لك من الله من شيء)[٣].

فإذا كان سيد الخلق وأفضل الشفعاء يقول لأخص الناس به: لا أملك لكم من الله من شيء، فما الظن بغيره، وإذا دعاه الداعي وشفع عنده الشفيع فسمع الدعاء وقبل الشفاعة لم يكن هذا هو المؤثر فيه كما يؤثر المخلوق في المخلوق، فإنه ﷻ هو الذي جعل هذا يدعو ويشفع وهو الخالق لأفعال العباد، فهو الذي وفق العبد للتوبة ثم قبلها، وهو الذي وفقه للعمل ثم أثابه، وهو الذي وفقه للدعاء ثم أجابه، وهذا مستقيم على أصول أهل السنة المؤمنين بالقدر وأن الله خالق كل شيء.

---

(١) أخرجه البخاري (١٤٣٢)، ومسلم (٢٦٢٧).
(٢) أخرجه البخاري (٢٧٥٣)، ومسلم (٢٠٤).
(٣) أخرجه البخاري (٣٠٧٣)، ومسلم (١٨٣١).



الشرح

عناصر الموضوع:

(١) غرض المصنف من عقد هذا الباب:

أ ـ تقرير مذهب أهل السنة والجماعة في الشفاعة والاستشفاع.

ب ـ اشتباه الشفاعة والاستشفاع والتشفع على كثير من الناس حتى وقعت منهم أمور عظيمة من الباطل، فترى أحدهم يدعو غير الله تعالى، ويستغيث بغيره ﷻ، ولا يحسب هذا دعاء لغير الله ولا يعده شركاً في عبادته ﷻ، وإذا قيل له في ذلك وأنكر عليه قال: هذا ليس بدعاء لغير الله وإنما هو استشفاع وتشفع[١].

(٢) مناسبة هذا الباب لما سبق:

تقدم أن من الإيمان بالله الإيمان بالنصوص الشرعية من المغيبات، ومن جملة المغيبات الشفاعة الموعودة للنبي ﷺ والأنبياء والملائكة وغيرهم يوم القيامة.

(٣) معاني الكلمات:

الكلمة	المعنى
الشفاعة	لغة: من الشفع ضد الوتر. واصطلاحاً: التوسط للغير بجلب منفعة أو دفع مضرة[٢].
حق	هو الثابت الذي لا يسوغ إنكاره، وهو الحكم المطابق للواقع.
الأخبار	جمع خبر، وهو حديث النبي ﷺ الصحيح.
التوسل	التوسل إلى الشيء في عرف أهل اللسان هو التقرب إليه واستعمال السبب الموصل إليه، والتوسل في الشرع هو خاص بالتقرب إلى الله تعالى.

(٤) معنى كلام الطحاوي: «والشفاعة التي ادخرها لهم حق كما روي في الأخبار»:

هذه إحدى الخصائص النبوية التي أكرم الله بها نبيه محمداً ﷺ، وهي الشفاعة

---

(١) انظر: عقيدة المؤمن (ص١٣٠).

(٢) شرح لمعة الاعتقاد للعثيمين (ص١٢٨).

يوم القيامة، وهي التي أشار الله إليها بقوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩].

وهذه الشفاعة شفاعة إقامة الحساب، وله ﷺ شفاعات أخرى منها شفاعته لأهل الكبائر من أمته، وشفاعته للذين استحقوا النار أن لا يدخلوها، وشفاعته في إخراج من دخل النار من أصحاب الكبائر، وشفاعته لعمه أبي طالب، وشفاعته لرفع درجة من دخل الجنة.

٥ أدلة ثبوت الشفاعة:

الشفاعة له ثلاثة أركان هي:

١ ـ المشفوع لها: وهو الطالب.

٢ ـ المشفوع إليه: وهو الذي بيده دفع المضرة وجلب المنفعة.

٣ ـ الشافع أو الشفيع: وهو الوسيط بينهما.

هذا وقد دل على ثبوت الشفاعة الأحاديث الصحيحة التي بلغت بمجموعها التواتر وإجماع السلف.

قال القاضي عياض: «وقد جاءت الآثار التي بلغت بمجموعها التواتر بصحة الشفاعة في الآخرة لمذنبي المؤمنين وأجمع السلف والخلف ومن بعدهم من أهل السنة عليها»[(١)].

٦ أقسام الناس في الشفاعة:

الشفاعة يوم القيامة الناس فيها على ثلاثة أقسام:

قوم غلوا في إثباتها حتى طلبوها من الأموات ومن القبور ومن الأصنام والأشجار والأحجار: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨].

وطائفة غلت في نفي الشفاعة كالمعتزلة والخوارج، فإنهم نفوا الشفاعة في أهل الكبائر، وخالفوا ما تواترت به الأدلة من الكتاب والسنة في إثبات الشفاعة.

وأهل السنة والجماعة توسطوا، فأثبتوا الشفاعة على الوجه الذي ذكره الله ورسوله، وآمنوا بها من غير إفراط ولا تفريط[(٢)].

---

(١) شرح النووي (٣/ ٣٥).

(٢) التعليقات المختصرة على العقيدة الطحاوية (ص٩٤ ـ ٩٥).

(٧) أقسام الشفاعة عند الخلق:

الشفاعة عند الخلق على قسمين:

القسم الأول: شفاعة حسنة:

وهي في الأمور الحسنة النافعة المباحة، تتوسط عند مَن عنده حاجات الناس من أجل أن يقضيها لهم، قال سبحانه: ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا﴾ [النساء: ٨٥]، وقال عليه الصلاة والسلام: **(اشفعوا تؤجروا، ويقضي الله على لسان رسوله ما يشاء)**[١].

القسم الثاني: شفاعة سيئة:

وهي التوسط في الأمور المحرمة، كالشفاعة في إسقاط الحدود إذا وجبت، قال تعالى: ﴿وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا﴾ [النساء: ٨٥][٢].

(٨) أقسام الشفاعة في القرآن وشروطها:

أما الشفاعة عند الله فليست كالشفاعة عند المخلوق، فالشفاعة عند الخالق: أن يكرم الله جل وعلا بعض عباده في أن يدعو لأحد المسلمين المستحقين للعذاب بسبب كبيرة ارتكبها، فيشفع عنده الشافع في أن يعفو عنه ولا يعذبه؛ لأنه مؤمن موحد، فيشفع الشافع عند الله جل وعلا بأن يعفو عنه، أو فيمن دخل النار في معصية فيشفع الشافع عند الله في أن يخرج ويرفع عنه العذاب، وهي ما تسمى بالشفاعة في أهل الكبائر.

لكن الشفاعة عند الله يشترط لها شرطان:

الشرط الأول: أن تكون بإذن الله، فلا أحد يشفع عند الله إلا بإذن، فهو الذي يأذن للشافع أن يشفع، أما من قبل أن يأذن فلا أحد يتقدم إلى الله ﷻ: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

الشرط الثاني: أن يكون المشفوع فيه من أهل التوحيد وأهل الإيمان ممن يرضى الله عنه قولهم وعملهم، ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨]، أي: رضي الله قوله وعمله وجاء الشرطان في قوله تعالى: ﴿۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾ [النجم: ٢٦][٣].

---

(١) البخاري (١٤٣٢)، ومسلم (٢٦٢٧).
(٢) التعليقات المختصرة على العقيدة الطحاوية (ص٩٤ ـ ٩٥).
(٣) المرجع السابق.

٩ أنواع الشفاعة:

اختلف استقراء أهل العلم لأنواع الشفاعة، فمنهم من قال: إنها نوعان، ومنهم من قال: خمسة، ومنهم من قال: ستة، ومنهم من قال: ثمانية، حيث ذكر ابن خزيمة في التوحيد الشفاعات المختصة للنبي ﷺ، فذكر شفاعتين فقط: الشفاعة العظمى، والشفاعة لأهل الكبائر من أمته[١]. وبه قال ابن حزم[٢].

وقال القاضي عياض: «شفاعات نبينا ﷺ يوم القيامة خمس:

١ - مختصة بنبينا ﷺ، وهي الإراحة من هول الموقف وتعجيل الحساب.

٢ - في إدخال قوم الجنة بغير حساب، وهذه وردت لنبينا ﷺ.

٣ - الشفاعة لقوم استوجبوا النار فيشفع فيهم نبينا ﷺ ومن شاء الله.

٤ - الشفاعة لمن دخل النار من المذنبين.

٥ - الشفاعة في زيادة الدرجات في الجنة لأهلها»[٣].

«واستدرك عليه القرطبي في التذكرة وذكر القسم السادس من الشفاعة، وهو شفاعته ﷺ لعمه أبي طالب في تخفيف العذاب عنه»[٤].

وأما ابن كثير فقد ذكر ثماني شفاعات:

١ - مختصة بنبينا ﷺ، وهي الإراحة من هول الموقف وتعجيل الحساب، وهي الشفاعة العظمى.

٢ - شفاعته ﷺ في تخفيف العذاب عمن يستحقه كشفاعته لعمه أبي طالب.

٣ - شفاعته ﷺ في الإذن لجميع المؤمنين في دخول الجنة.

٤ - الشفاعة لقوم قد أمر بهم إلى النار ألَّا يدخلوها وهؤلاء هم عصاة الموحدين.

٥ - شفاعته ﷺ في زيادة الدرجات في الجنة لأهلها.

٦ - الشفاعة في أقوام تساوت حسناتهم وسيئاتهم إلى أن يدخلوا الجنة، وهم أهل الأعراف ومن شابههم[٥].

---

(١) انظر: التوحيد (ص٢١٤، ٣٥٩). (٢) انظر: الفصل (٤/ ٦٤).

(٣) انظر: شرح مسلم (٣/ ٦)، ووافقه السفاريني في لوامع الأنوار (٢/ ٢١١).

(٤) التذكرة (ص٢٤٩).

(٥) إن الحديث الوارد في إثبات ذلك وهو ما خرجه الطبراني في الكبير (١١/ ١٨٩) عن ابن عباس. قال: السابق بالخيرات يدخل الجنة بغير حساب، والمقتصد رحمة الله والظالم نفسه، وأصحاب الأعراف يدخلونها بشفاعة النبي ﷺ. أورده في المجمع (١٠/ ٣٧٨) وقال: فيه موسى بن عبد الرحمن الصنعاني وهو وضاع.

٧ ـ شفاعته ﷺ في أناس أن يدخلوا الجنة بغير حساب.

٨ ـ شفاعته ﷺ في أهل الكبائر ممن دخلوا النار أن يخرجوا منها[(١)].

١٠ الشفاعة التي تتكرر للنبي ﷺ:

الشفاعة التي تتكرر للنبي ﷺ شفاعته في أهل الكبائر فيمن دخل النار أن يخرج منها، وهي تتكرر أربع مرات بقوله تعالى:

١ ـ أخرج من كان في قلبه مثقال شعيرة من إيمان.

٢ ـ انطلق فأخرج من كان في قلبه ذرة وخردلة من إيمان.

٣ ـ انطلق فأخرج من كان في قلبه أدنى مثقال حبة من خردل من إيمان.

٤ ـ انطلق فأخرج من قال: لا إله إلا الله[(٢)].

١١ تفسير قوله تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ۝٧٩﴾ [الإسراء: ٧٩]:

أي لتنال بذلك المقام المحمود، وهو المقام الذي يحمده فيه الأولون والآخرون، مقام الشفاعة العظمى، حين يستشفع الخلائق بآدم، ثم نوح، ثم إبراهيم، ثم موسى، ثم عيسى، وكلهم يعتذر ويتأخر عنها، حتى يستشفعوا بسيد ولد آدم، ليريحهم الله من هم الموقف وكربه، فيشفع عند ربه فيشفعه، ويقيمه مقاماً يغبطه به الأولون والآخرون، وتكون له المنة على الخلق.

١٢ الجمع بين قوله تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمۡ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ۝٤٨﴾ [المدثر: ٤٨]، وبين ما ورد في شفاعة النبي ﷺ لعمه أبي طالب:

الجمع من وجهين:

الوجه الأول: المراد بقوله تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمۡ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ أي الخروج من النار كما تنفع عصاة الموحدين الذين يخرجون من النار ويدخلون الجنة، وأبو طالب لم يخرج من النار، وإنما خفف عنه العذاب، فخروجه من غمرات الجحيم إلى ضحضاح يغلي منه دماغه، فأثبت الخروج فيكون الجمع بالعموم والخصوص أولى.

الوجه الثاني: قيل ـ وهو الراجح ـ إن الآية عامة والحديث خاص، فيحمل العام على الخاص، فيقال: خص شخصاً واحداً من هؤلاء الكفار، أما بقية الكفار فلا تنفعه شفاعة الشافعين.

---

(١) انظر: البداية والنهاية لابن كثير (٢/١٧٩ ـ ٢٢٠).

(٢) كما روى ذلك البخاري في صحيحه (٧٥١٠).

١٣ الأعمال الموعود عليها بشفاعة النبي ﷺ:

الأعمال هي:

١ ـ إخلاص بالتوحيد لله لحديث: **«من أحق الناس بشفاعتك؟ قال: من قال: لا إله إلا الله خالصاً من قلبه»**[١].

٢ ـ الدعاء بما ورد عند الأذان لما جاء في الحديث أن من داوم عليه حلَّت له شفاعته ﷺ[٢].

٣ ـ الصبر على شدة المدينة وجدبها.

٤ ـ الموت في أحد الحرمين لحديث: **«من مات في أحد الحرمين حلت له شفاعتي»**[٣]، وهذا ليس على إطلاق، وإنما ذلك إذا وجدت الشروط وانتفت الموانع.

٥ ـ الصلاة على النبي ﷺ عشراً في الصباح وعشراً في المساء لحديث: **(من صلى علي حين يصبح عشراً وصلى علي حين يمسي عشراً كنت له شفيعاً يوم القيامة)**[٤].

١٤ الجواب على شبه منكري الشفاعة[٥]:

وتمسك منكرو الشفاعة من المعتزلة والخوارج بقول الله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ﴾ [البقرة: ٤٨]، وقول الله تعالى: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨].

فإذا قال قائل: كيف يخرج قوم من النار بشفاعة رسول الله ﷺ ويدخلون الجنة، ويقول الله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [آل عمران: ١٩٢] ومن أخزاه الله لا يرتضيه ومن ارتضاه لا يخزيه.

والجواب:

١ ـ إن الذي أنزلت عليه هذه الآيات التي أوردتموها هو الذي نقل عنه نقلاً

---

(١) أخرجه البخاري (٩٩). (٢) أخرجه البخاري (٦١٤).

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (٦١٠٤)، وقال الهيثمي في المجمع (٢/٣١٩) وفيه عبد الغفور بن سعيد وهو متروك.

(٤) أخرجه الطبراني في الكبير، وقال الهيثمي في المجمع (١٠/١٢٠)، ورواه الطبراني بإسنادين وإسناد أحدهما جيد ورجاله وثقوا.

(٥) انظر: العقائد السلفية (٢/٥٠٤ ـ ٥٠٦).

متواتراً معنوياً في شفاعاته، وشفاعة غيره من الأنبياء والمرسلين، وقد قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧]، وقال تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [البقرة: ١٢٩].

والحكمة هي السنة على تفسير بعضهم.

وقال ﷺ: **(أوتيت القرآن ومثله معه)**. والوحي قسمان:

الأول: القرآن، وهو وحي لفظاً ومعنى.

الثاني: الحديث، وهو وحي معنى.

فالواجب علينا الإيمان بالوحيين ولا نضرب بعضه ما ببعض ولا نقول: نؤمن ببعض ونكفر ببعض، والسنة تفسر القرآن، وهذا معروف عند جميع العلماء.

٢ ـ إن الآيات التي فيها الشفاعة مخصوصة بالكفار، لأن الظالمين على الإطلاق هم الكفار، ويؤيد هذا سياق الخطاب مع الكفار.

٣ ـ إن النفي منصب على الشفاعة المعروفة عندهم بدون إذن من المشفوع عنده.

ونحن نقول: إنها تكون بإذن الله تعالى، لقوله تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾.

وأما قول الله تعالى: ﴿مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ﴾ أي من تدخله النار مخلداً فقد أهلكته وأبعدته، وإن سلم أنها في عصاة الموحدين فخزيهم: استحياؤهم من دخول النار مع الكفار، لكنهم يخرجون بشفاعة النبي الكريم ﷺ.

١٥ الجواب على تعلق المخالفين بحديث الشفاعة العظمى من أن الأنبياء تفزع إليهم الأمم ويكون المرجع الأخير سيد الثقلين محمد ﷺ ليشفع لهم عند الله[1]:

والجواب على حديث الشفاعة أن نقول:

١ ـ استشفاع الأمم بالمرسلين في حالة حياة أكمل من حياتنا هذه، ولا نزاع في جواز التشفع والاستغاثة بالحي فيما يمكنه.

٢ ـ إن هذا في الآخرة، ولا يصح أن نلحق شؤون الآخرة بالأولى، فإن لكلٍّ أحكاماً تغاير أحكام الأخرى، فهنا يقبل الله من العبد الإيمان والتوبة، وهناك لا يقبل، وقياس الدنيا على الآخرة من أفسد الأقيسة.

---

(١) العقائد السلفية (٢/٥٠٧).

وعلى التنزل فما فيه إلا الاستشفاع، فأين الاستغاثة؟

(١٦) أقسام التوسل:

أما التوسل في الشرع فهو خاص بالتقرب إلى الله تعالى.

ويقسم العلماء التوسل إلى الله إلى قسمين:

أولاً: توسل مشروع.

ثانياً: توسل ممنوع.

(١٧) أنواع التوسل المشروع:

فالتوسل المشروع ما قام عليه دليل من الشرع، وهو ثلاثة أنواع:

أ ـ التوسل بأسماء الله الحسنى وصفاته العلا:

وصفته أن يقول المسلم في دعائه: اللهم إني أسألك بأنك أنت الرحمن الرحيم اللطيف الخبير أن تعافيني. أو يقول: أسألك برحمتك التي وسعت كل شيء أن ترحمني وتغفر لي.

ودليل مشروعية هذا التوسل من الكتاب قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ [الأعراف: ١٨٠].

ومن السنة حديث أنس بن مالك رضي الله عنه وفيه: «**أنه كان مع رسول الله ﷺ جالساً ورجل يصلي، ثم دعا: اللهم إني أسألك بأن لك الحمد، لا إله إلا أنت المنان بديع السماوات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، يا حي يا قيوم، فقال النبي ﷺ: لقد دعا الله باسمه العظيم الذي إذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى**»(١).

ويوجد في كلام أبي حنيفة ذكر هذا النوع من التوسل كما في قوله: «ولا ينبغي لأحد أن يدعو الله إلا به، والدعاء المأذون فيه المأمور به ما استفيد من قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ [الأعراف: ١٨٠]. . .»(٢).

ب ـ التوسل بالعمل الصالح:

وصفته كأن يقول المسلم في دعائه: اللهم بإيماني بك ومحبتي لك واتباعي لرسولك اغفر لي.

---

(١) أخرجه أبو داود (١٤٩٥)، والنسائي (١٣٠٠).

(٢) الدر المختار مع حاشية رد المحتار (٦/٣٩٦ ـ ٣٩٧).

ودليل مشروعية هذا التوسل من الكتاب قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [المائدة: ٣٥].

وقوله سبحانه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾ [الإسراء: ٥٧].

وقوله جل وعلا: ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾﴾ [آل عمران: ١٦].

ومن السنة: قصة أصحاب الغار الثابتة في الصحيحين، فقد توسَّلوا بأعمالهم الصالحة، فتوسَّلَ أحدهم ببره لوالديه، والآخر بعفته عن الفاحشة، والثالث بإحسانه إلى أجير كان عنده[(١)].

ج ـ التوسل بدعاء الصالحين:

ودليل مشروعيته ما ورد في صحيح مسلم عن صفوان بن عبد الله بن صفوان قال: قدمت الشام فأتيت أبا الدرداء في منزله فلم أجده، ووجدت أم الدرداء، فقالت: أتريد الحج العام؟ فقلت: نعم، فقالت: فادع الله لنا بخير، فإن النبي ﷺ كان يقول: (**دعوة المرء المسلم لأخيه بظهر الغيب مستجابة، عند رأسه ملك موكل، كلما دعا لأخيه بخير، قال الملك الموكل به، آمين، ولك بمثل**)[(٢)].

وقد كان الصحابة يتوسلون بدعاء النبي ﷺ في حياته، ومنه قول الأعرابي حين أصابت سنة على عهد رسول الله ﷺ قال: يا رسول الله! هلكت الأموال، وانقطعت السبل، فادع الله يغيثنا، فرفع رسول الله ﷺ يديه، ثم قال: (**اللهم أغثنا، اللهم أغثنا، اللهم أغثنا...**)[(٣)].

فالصحابة توسلوا بدعاء النبي ﷺ في حياته، ثم بعد وفاته توسلوا بدعاء عمه العباس، فقد ثبت في صحيح البخاري عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «**اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا. قال: فيسقون**»[(٤)].

فالصحابة عدلوا عن التوسل برسول الله ﷺ بعد موته إلى التوسل بدعاء

(١) أخرجه البخاري (٢٢١٥)، ومسلم (٢٧٤٣).
(٢) أخرجه مسلم (٢٧٣٣).
(٣) أخرجه البخاري (١٠١٤)، ومسلم (٨٩٧).
(٤) البخاري (١٠١٠).

العباس، فدل على أن التوسل بدعاء النبي ﷺ قد انقطع بموته، فلو كان التوسل بالرسول بعد موته جائزاً لما عدل الصحابة عن الرسول ﷺ إلى العباس، وهذا من الوضوح بحيث لا يخفى على ذي لب.

(١٨) أنواع التوسل الممنوع:

أما التوسل الممنوع: فهو ما لا دليل عليه من كتاب أو سنة، وهو ثلاثة أنواع:

١ ـ التوسل إلى الله تعالى بذات وشخص المتوسل به سواء كان النبي ﷺ أو غيره:

وهو نوعان:

أ ـ أن يدعو المتوسَّل به:

ذلك بأن يدعوه، ويستغيث به، ويطلب منه ما لا يقدر عليه إلا الله، ولو جعله واسطة فيما يطلبه من الله. وهذا النوع من التوسل هو من الشرك الأكبر؛ لأنه دعاء لغير الله، والتجاء إليه في المهمات، وهو من صرف العبادة لغير الله، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [المؤمنون: ١١٧].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ ﴿٥﴾﴾ [الأحقاف: ٥].

وفي هذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «ومن أراد بالواسطة أنه لا بد من واسطة في جلب المنافع، ودفع المضار، مثل أن يكون واسطة في رزق العباد ونصرهم وهداهم، يسألونه ذلك ويرجعون إليه فيه، فهذا من أعظم الشرك الذي كفَّر الله به المشركين، حيث اتخذوا من دون الله أولياء يجتلبون المنافع ويجتنبون المضار»[(١)].

فلم يأمرنا الله أن نستغيث بالصالحين من عباده أو ندعو أنبياءه حتى تستجاب لنا المسألة، بل قال: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [غافر: ٦٠]، فأمر بدعاء العبادة ودعاء المسألة، ووعدنا بالإجابة، وتوعد من استكبر عنها بالعذاب والإهانة[(٢)].

---

(١) مجموع الفتاوى (١/ ١٢٣ ـ ١٢٤).

(٢) انظر: تفسير السعدي عند تفسير سورة غافر الآية ٦٠.

ب ـ التوسل بالذات في دعاء الله:

هو أن يجعل ذات النبي ﷺ أو غيره وسيلة في دعاء الله، كأن يقول في دعائه: «اللهم إني أسألك بنبيك محمد ﷺ».

وفي هذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «السؤال به فهذا يجوِّزه طائفة من الناس، ونقل في ذلك آثار عن بعض السلف، وهو موجود في كثير من الناس. لكن ما روي عن النبي ﷺ في ذلك كله ضعيف بل موضوع، وليس عنه حديث ثابت قد يظن أن لهم فيه حجة إلا حديث الأعمى... وحديث الأعمى لا حجة لهم فيه؟ فإنه صريح في أنه إنما توسل بدعاء النبي ﷺ وشفاعته... وساغ النزاع في السؤال بالأنبياء والصالحين دون الإقسام بهم، لأن بين السؤال والإقسام فرقاً، فإن السائل متضرع يسأل بسبب يناسب الإجابة، والمقسم أعلى من هذا فإنه طالب مؤكد طلبه بالقسم،... وهذا التوسل بالأنبياء ـ بمعنى السؤال بهم ـ هو الذي قال أبو حنيفة وأصحابه وغيرهم: أنه لا يجوز، وليس في المعروف من مذهب مالك ما يناقض ذلك فضلاً عن أن يجعل هذا من مسائل السبب؛ فمن نقل عن مذهب مالك أنه جوَّز التوسل بمعنى الإقسام به والسؤال به فليس معه في ذلك نقل عن مالك»[1].

وقال: «وقد نقل في منسك المروزي عن أحمد دعاء فيه سؤال بالنبي ﷺ، وهذا قد يخرج على إحدى الروايتين في جواز القسم به، ومعظم العلماء على النهي في الأمرين...»[2].

٢ ـ التوسل إلى الله تعالى بحق فلان أو جاهه ونحو هذا: منع الإمام أبو حنيفة رحمه الله تعالى هذا التوسل، وصفته أن يقول المسلم في دعائه: «اللهم إني أسألك بحق فلان عليك أو بجاهه عندك أن تغفر لي».

قال أبو حنيفة: «يكره أن يقول الداعي: أسألك بحق فلان أو بحق أنبيائك ورسلك وبحق البيت الحرام والمشعر الحرام»[3].

وقال بشير بن الوليد: حدثنا أبو يوسف قال: قال أبو حنيفة: «لا ينبغي لأحد أن يدعو الله إلا به، وأكره أن يقول: بمعاقد العز من عرشك، أو بحق خلقك»[4].

---

(١) قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة (ص١١٤ ـ ١١٧).

(٢) المصدر السابق.

(٣) شرح الفقه الأكبر للقاري (ص١٩٨).

(٤) التوسل والوسيلة (ص٨٢).

وقال أبو يوسف: «وأكره أن يقول بحق فلان أو بحق أنبيائك ورسلك وبحق البيت الحرام والمشعر الحرام»[(١)].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وهذا الذي قاله أبو حنيفة وأصحابه من أن الله لا يسأل بمخلوق له معنيان:

أحدهما: هو موافق لسائر الأئمة الذين يمنعون أن يقسم أحد بالمخلوق، فإنه إذا منع أن يقسم على مخلوق بمخلوق فلأن يمنع أن يقسم على الخالق بمخلوق أولى وأحرى... بخلاف المخلوق فإن إقسامه بالمخلوقات شرك بخالقها كما في السنن عن النبي ﷺ قال: **(من حلف بغير الله فقد أشرك)**.

وأما الثاني: وهو السؤال المعظم كالسؤال بحق الأنبياء، فهذا فيه نزاع، وقد تقدم عن أبي حنيفة وأصحابه أنه لا يجوز، ومن الناس من يجوّز ذلك»[(٢)].

قلت: من هؤلاء: العز بن عبد السلام حيث قال: «أما مسألة الدعاء فقد جاء في بعض الأحاديث أن رسول الله ﷺ علم بعض الناس الدعاء؛ فقال في أقواله: (قل: اللهم إن أقسم عليك بمحمد ﷺ نبي الرحمة).

وهذا الحديث إن صح فينبغي أن يكون مقصوراً على رسول الله ﷺ لأنه سيد ولد آدم، وألا يقسم على الله بغيره من الأنبياء والملائكة؛ لأنهم ليسوا في درجته، وأن يكون هذا مما خص به تنبيهاً على درجته ومرتبته»[(٣)].

قلت: لفظ الحديث هو: **«أن رجلاً ضرير البصر أتى النبي ﷺ فقال: ادع الله أن يعافيني، قال: (إن شئت دعوت، وإن شئت صبرت فهو خير لك)، قال: فادعه، قال: فأمره أن يتوضأ فيحسن وضوءه ويدعو بهذا الدعاء: اللهم إني أسألك، وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة، إني توجهت بك إلى ربي في حاجتي هذه لتقضى لي، اللهم فشفعه فيَّ»**[(٤)].

وليس فيه: «إني أقسم عليك بمحمد»، ولم أقف عليه بهذا اللفظ في دواوين السنة النبوية.

وهذا الحديث حكم عليه أئمة هذا الشأن بالصحة كالطبراني، والبيهقي، وشيخ

---

(١) إتحاف السادة المتقين (٢/ ٢٨٥). (٢) التوسل والوسيلة (ص٨٣، ٩٩).

(٣) فتاوى العز بن عبد السلام (ص١٢٦).

(٤) أخرجه أحمد (٤/ ١٣٨)، والترمذي (٣٥٧٨)، وابن ماجه (١٣٨٤)، والحاكم في المستدرك (١/ ٣١٣).

الإسلام، والحاكم، والذهبي، والسيوطي، والمناوي، والألباني[١].

وليس في هذا الحديث متمسك لمن يرى جواز التوسل بذات النبي ﷺ أو جاهه؛ فإن الحديث صريح في أن الغرض من مجيء هذا الرجل، وهو ضرير البصر إلى النبي ﷺ طلب الدعاء منه، وليس التوسل بذاته، أو جاهه، ولو أراد غير ذلك لجلس في بيته ودعا بجاه النبي ﷺ، يدل ذلك قوله للنبي ﷺ: **«ادع الله أن يعافيني»**.

ورد الرسول ﷺ بقوله: **(إن شئت دعوت، وإن شئت صبرت فهو خير لك)**.

فتبين لنا مما سبق أن الحديث ليس فيه ما يستدل به على جواز التوسل بجاه النبي ﷺ أو بذاته، إذ قوله: «بنبيك» على تقدير المضاف، أي بدعاء نبيك أو بشفاعته[٢].

٣ ـ **الإقسام على الله تعالى بالمتوسَّل به**: وهذا التوسل منعه الإمام أبو حنيفة[٣] رحمه الله تعالى، وصفته أن يقول المسلم في دعائه: «اللهم إني أقسم عليك بفلان أن تقضي حاجتي».

فالقسم والحلف بالله من تعظيمه، وتعظيمه عبادة، وإنما يكون الحلف بالله من تعظيمه مع الصدق وحفظ الأيمان عما يتضمن الاستهانة بالله.

يقول الإمام أبو حنيفة: «لا يحلف إلا بالله متجرداً بالتوحيد والإخلاص»[٤].

ومن صرف هذه العبادة لغير الله فقد أشرك، قال النبي ﷺ: **(من حلف بغير الله فقد أشرك)**[٥].

وقال النبي ﷺ: **(ألا إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم، من كان حالفاً فليحلف بالله، أو ليصمت)**[٦].

فإذا كان الحلف بمخلوق شركاً، فكيف بالحلف بالمخلوق على الخالق؟ فالمقصود أن الدعاء عبادة كما قاله النبي ﷺ: **(إن الدعاء هو العبادة، ثم قرأ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ**

---

(١) انظر: المعجم الصغير (١/ ١٨٤)، ودلائل النبوة (٦/ ١٦٧)، والتوسل والوسيلة (ص١٨٧)، والمستدرك (١/ ٣١٣)، وتلخيص المستدرك (١/ ٣١٣)، والجامع الصغير (١/ ٢٢٧)، وفيض الباري (٢/ ١٢٤، ١٢٥)، والتوسل أنواعه وأحكامه (ص٧٠).

(٢) التوسل والوسيلة (ص٢٥٩)، ط. السلفية.

(٣) التوسل والوسيلة (ص٨٢)، وانظر: روح المعاني (٦/ ١٢٦).

(٤) بدائع الصنائع (٣/ ٨).

(٥) سبق تخريجه.

(٦) البخاري (٦٦٤٦)، ومسلم (١٦٤٦).

دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠])[١].

فلا يتوسل إلى الله بشيء إلا ما جعله الله وسيلة فيه كالتوسل بأسمائه الحسنى، وصفاته العلا، وسائر أنواع التوسل المشروع؛ فالعبادات مبناها اتباع هدي النبي ﷺ ومُوافقتها لشرعه والإخلاص بالنية والقصد، لا على الهوى والابتداع. فالواجب على المسلم أن يتثبت في هذا، فلا يعبد الله إلا بما شرع وأمر به وأذن فيه...

وأن يحرص كل الحرص في أن يميز السنة من البدعة، والتوحيد من الشرك، والحق من الباطل، حتى يخلص وينجو من الوقوع فيما ينقض التوحيد.

(١٩) التوسل بالنبي ﷺ:

التوسل أمر مجمل يحتمل ثلاثة أمور:

الأول: التوسل بمحبته وطاعته والاقتداء به، والإيمان به، وهذا أمر جائز، وهذا من أحسن ما يكون من الدعاء والتوسل والاستشفاع.

الثاني: التوسل بدعائه، فهذا جائز إذا كان بحياته ﷺ وحضوره يوم القيامة، أما بعد وفاته في الدنيا فلا يجوز.

الثالث: التوسل بذاته والإقسام به على الله، وهذا لا يجوز، كأن تقول: أسألك بحق نبيك.

(٢٠) حكم من قال: «اللهم إني أسألك بحق نبيك»:

هذا غير جائز لثلاثة محاذير:

أ ـ أن هذا إقسام وحلف بغير الله؛ لأن الباء للقسم والقسم بغير الله حرام؛ لقول الرسول ﷺ: **(من حلف بغير الله فقد أشرك)**[٢].

ب ـ أنه جعل ما ليس سبباً شرعياً ولا عقلياً ولا عادياً سبباً لإجابة دعائه.

ج ـ أن ذلك لم يرد عن الرسول ﷺ ولا عن الصحابة ولا عن أحد من سلف الأمة، وإنما ذلك من التعدي بالدعاء، والله يقول: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الأعراف: ٥٥].

(٢١) الفرق بين قول القائل: «اللهم إني أسألك بحق فلان»، وبين: «اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك»:

يمكن أن نتخلص من هذا الإشكال بوجهين:

---

(١) أحمد (٤/٢٦٧)، وأبو داود (١٤٧٩)، والترمذي (٣٣٧٢)، وابن ماجه (٣٨٢٨).

(٢) سبق تخريجه.

الأول: أن يقال هذا الحديث ضعيف؛ لأنه من رواية عطية العوفي، فلا حاجة لنا إلى الجمع بين هذا وهذا.

الثاني: أنه إذا فرض صحة هذا الحديث فإن قول السائل: اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك كأنه يرى أن يقول أنك وعدت السائلين بالإجابة والمثوبة وأنا من جملة السائلين فأجب دعائي، بخلاف قوله بحق فلان؛ فإنه وإن كان له حق على الله بوعده الصادق فلا مناسبة بين ذلك وبين إجابة دعاء هذا السائل، كأنه يقول: لكون فلان من عبادك الصالحين أجب دعائي، وأي مناسبة في هذا؟ وأي ملازمة؟ وإنما ذلك من الاعتداء في الدعاء، والله يقول: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الأعراف: ٥٥]، بل إن مثل ذلك لم ينقل عن النبي ﷺ ولا عن الصحابة والتابعين، والدعاء من أفضل العبادات.

(٢٢) معنى قول عمر: «اللهم إنَّا كنا إذا أجدبنا توسلنا بنبينا، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا»:

معناه أن يقال: إن عمر وغيره من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين كانوا يتوسلون بدعاء النبي ﷺ لا بذاته ولا بإقسام على الله بمخلوق؛ لأنه لو كان هذا هو المقصود لكان ممكناً حتى بعد موته ﷺ، ولَمَا عدلوا إلى العباس؛ لأن ذات الرسول أفضل من ذات العباس.

(٢٣) الفرق بين السؤال بالشيء وبين الإقسام به:

هذا أمر مجمل يحتمل أمرين:

الأول: السؤال لكونه سبباً في حصول المطلوب، فهذا جائز، ومن ذلك قصة الثلاثة الذين أووا إلى الغار، فهؤلاء دعوا الله بصالح الأعمال وهي أعظم ما يتوسل به العبد.

الثاني: الإقسام بهذا الشيء، فهذا ممنوع، والفرق بين الإقسام بالشيء والسؤال بالشيء كما يلي:

أ ـ أن المقسم طالب مؤكد طلبه بالقسم، ويقسم على من يبر قسمه.

ب ـ أما السؤال فهو خاضع لمن سأله.

(٢٤) جهل الناس بالتوسل والتبرك المشروع:

إن التوسل والتشفع والتبرك أسيء فهمها عند كثير من الناس؛ وذلك لجهلهم بحقيقة التوسل والتبرك الشرعي، فباسم التبرك غير المشروع وتحت شعاره عبدت

الأشجار والأحجار، وانتهكت المحارم، وضيعت الفرائض، وأسقطت الواجبات، كما أنه باسم التوسل والاستشفاع ذبح لغير الله واستغيث بغيره.

٢٥ حكم الاستشفاع بالأولياء والصالحين من أموات المسلمين:

لم يأذن الشارع في الاستشفاع بالأولياء والصالحين من أموات المسلمين وطلب الشفاعة منهم، كأن يقال: يا سيدي فلان! اشفع لي عند ربي في قضاء كذا وكذا... ويا مولاي فلان! توسلت بك إلى ربي، فادع الله لي أن يفعل بي كذا وكذا... فجمعوا بين عظيمتين:

الأولى: دعاء غير الله تعالى وهو شرك أكبر.

الثانية: قياس الخالق على المخلوق وتشبيهه به، حيث طلبوا له واسطة كما تطلب للمخلوق من ذوي السلطان، وجهلوا أن المخلوق قد يخفى عليه أمر الإنسان فيحتاج إلى من يعلمه به وينبهه إليه، بخلاف الرب تبارك وتعالى؛ فإنه عليم بأحوال عباده لا يخفى عليه من أمرهم شيء.

٢٦ الخلاصة:

١ ـ الشفاعة يوم القيامة إحدى الخصائص النبوية التي أكرم الله بها نبيه محمداً ﷺ، وهذه الشفاعة شفاعة إقامة الحساب، وله ﷺ شفاعات أخرى.

٢ ـ دلَّت على ثبوت الشفاعة الأحاديث الصحيحة التي بلغت بمجموعها التواتر وإجماع السلف.

١ ـ الناس في الشفاعة على ثلاثة أقسام: قول غلوا في إثباتها، وطائفة غلت في نفيها، وأهل السنة والجماعة توسطوا، فأثبتوا الشفاعة على الوجه الذي ذكره الله ورسوله، وآمنوا بها من غير إفراط ولا تفريط.

٤ ـ الشفاعة عند الخلق على قسمين: شفاعة حسنة وشفاعة سيئة.

٥ ـ الشفاعة عند الله ليست كالشفاعة عند المخلوق، فالشفاعة عند الخالق: أن يكرم الله جل وعلا بعض عباده بأن يدعو لأحد المسلمين المستحقين للعذاب بسبب كبيرة ارتكبها، فيشفع عنده الشافع في أن يعفو عنه ولا يعذبه.

٦ ـ الشفاعة عند الله يشترط لها شرطان: أن تكون بإذن الله، وأن يكون المشفوع فيه من أهل التوحيد وأهل الإيمان ممن يرضى الله عنه قوله وعمله.

٧ ـ الشفاعة التي تتكرر للنبي ﷺ هي شفاعته في أهل الكبائر فيمن دخل النار أن يخرج منها، وهي تتكرر أربع مرات.

٨ - التوسل في الشرع هو خاص بالتقرب إلى الله تعالى، ويقسم العلماء التوسل إلى الله إلى قسمين: توسل مشروع، وتوسل ممنوع.

٢٧ المناقشة:

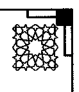
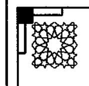
- **س١:** ما غرض المصنف من عقد هذا الباب؟
- **س٢:** ما هي الشفاعة لغة وشرعاً؟ مع بيان أنواعها.
- **س٣:** ما أدلة ثبوت الشفاعة؟
- **س٤:** ما أقوال الناس في الشفاعة؟
- **س٥:** ما أقسام الشفاعة في القرآن؟ وما شروطها؟
- **س٦:** ما الشفاعة التي تتكرر للنبي ﷺ؟ وكم مرة تتكرر؟ ثم وضح أيّاً من أنواع الشفاعة يختص بالنبي وأيها يشترك معه فيه غيره؟
- **س٧:** ما تفسير قوله تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحۡمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩]؟
- **س٨:** كيف تجمع بين قوله تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمۡ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [المدثر: ٤٨]، وبين ما ورد في شفاعة النبي ﷺ لعمه أبي طالب؟
- **س٩:** ما الأعمال الموعود عليها بشفاعة النبي ﷺ؟
- **س١٠:** ما أقسام التوسل؟
- **س١١:** ما أنواع التوسل الممنوع؟
- **س١٢:** ما أنواع التوسل المشروع؟
- **س١٣:** هل يجوز التوسل بالنبي ﷺ؟
- **س١٤:** هل يجوز أن يقول الإنسان في دعائه: «اللهم إن أسألك بحق نبيك»؟
- **س١٥:** ما الفرق بين قول القائل: «اللهم إن أسألك بحق فلان»، وبين «اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك»؟
- **س١٦:** ما معنى قول عمر: «اللهم إنا كنا إذا أجدبنا توسلنا بنبينا وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا»؟
- **س١٧:** لماذا أورد كثير من الأئمة حديث الشفاعة ولم يذكروا الشفاعة العظمى؟
- **س١٨:** ما حكم قول الداعي: «اللهم إني أسألك بحق فلان»؟
- **س١٩:** ما أدلة من أجاز التوسل بالنبي ﷺ؟ مع الرد.
- **س٢٠:** ما الفرق بين السؤال بالشيء وبين الإقسام به؟
- **س٢١:** ما الفرق بين الشفاعة عند الله والشفاعة عند البشر؟



الميثاق

*** كلام ابن أبي العز:**

١ ـ غرض المصنف من عقد هذا الباب.
٢ ـ مناسبة هذا الباب لما سبق.
٣ ـ معاني الكلمات.
٤ ـ معنى كلام الطحاوي: «والميثاق الذي أخذه الله تعالى من آدم وذريته حق».
٥ ـ اختلاف أهل العلم في معنى الميثاق اصطلاحاً.
٦ ـ تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾ [الأعراف: ١٧٢].
٧ ـ الجمع بين القولين.
٨ ـ الأدلة التي ذكرها ابن أبي العز لأصحاب القول الثاني.
٩ ـ الحكمة من الاستشهاد في قوله تعالى: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ﴾ [الأعراف: ١٧٢].
١٠ ـ هل الأرواح قبل الأجساد أم لا؟
١١ ـ الفرق بين دين التربية والعادة وبين دين العلم.
١٢ ـ المقصود بقول ابن أبي العز: «مسلمة الدار ومسلمة الاختيار».
١٣ ـ الإجابة على من احتج بتقليد الآباء في الاعتقاد الفاسد بجواز التقليد لهم بالعادات من لبس ومطعم.
١٤ ـ مراحل خلق الإنسان دليل على توحيد الربوبية.
١٥ ـ الخلاصة.
١٦ ـ المناقشة.

الميثاق

قال ابن أبي العز:

قوله: «والميثاق الذي أخذه الله تعالى من آدم وذريته حق»، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾ [الأعراف: ١٧٢].

أخبر سبحانه أنه استخرج ذرية بني آدم من أصلابهم شاهدين على أنفسهم أن الله ربهم ومليكهم وأنه لا إله إلا هو، وقد وردت أحاديث في أخذ الذرية من صلب آدم عليه السلام وتمييزهم إلى أصحاب اليمين وإلى أصحاب الشمال في بعضها الإشهاد عليهم بأن الله ربهم.

فمنها ما رواه الإمام أحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: (إن الله أخذ الميثاق من ظهر آدم عليه السلام بنعمان يوم عرفة، فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها فنثرها بين يديه ثم كلمهم قبلاً قال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾ إلى قوله: ﴿ٱلْمُبْطِلُونَ﴾)(١).

ورواه النسائي أيضاً وابن جرير وابن أبي حاتم والحاكم في المستدرك وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

وروى الإمام أحمد أيضاً عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه سئل عن هذه الآية، فقال: سمعت رسول الله ﷺ سئل عنها فقال: (إن الله خلق آدم عليه السلام ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية، قال: خلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية، قال: خلقت هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون، فقال رجل: يا رسول الله! ففيم العمل؟ قال رسول الله ﷺ: إن الله عز وجل إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢٧٢)، والطبري (١٥٣٣٨)، والحاكم (٢/ ٣٢٥)، وصححه ووافقه الذهبي.

من أعمال أهل الجنة فيدخل به الجنة، وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخل به النار)[١]، ورواه أبو داود والترمذي والنسائي وابن أبي حاتم وابن جرير وابن حبان في صحيحه.

وروى الترمذي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (لما خلق الله آدم مسح على ظهره فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة، وجعل بين عيني كل إنسان منهم وبيصاً من نور، ثم عرضهم على آدم، فقال: أي رب! من هؤلاء؟ قال: هؤلاء ذريتك، فرأى رجلاً منهم فأعجبه وبيص ما بين عينيه، فقال: أي رب! من هذا؟ قال: هذا رجل من آخر الأمم من ذريتك يقال له داود. قال: رب كم عمره. قال: ستون سنة. قال: أي رب: زده من عمري أربعين سنة، فلما انقضى عمر آدم جاء ملك الموت، قال: أو لم يبق من عمري أربعون سنة؟ قال: أو لم تعطها ابنك داود؟ قال: فجحد فجحدت ذريته، ونسي آدم فنسيت ذريته، وخطى آدم فخطيت ذريته)[٢].

ثم قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، ورواه الحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه.

وروى الإمام أحمد أيضاً عن أنس بن مالك ؓ عن النبي ﷺ قال: (يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة: أرأيت لو كان لك ما على الأرض من شيء أكنت مفتدياً به؟ قال: فيقول: نعم، قال: فيقول: قد أردت أهون من ذلك، قد أخذت عليك في ظهر آدم أن لا تشرك بي شيئاً، فأبيت إلا أن تشرك بي شيئاً)[٣] وأخرجاه في الصحيحين أيضاً.

وذكر أحاديث أخرى أيضاً كلها دالة على أن الله استخرج ذرية آدم من صلبه وميز بين أهل النار وأهل الجنة.

ومن هنا قال: من قال: إن الأرواح مخلوقة قبل الأجساد وهذه الآثار لا تدل على سبق الأرواح والأجساد سبقاً مستقراً ثابتاً، وغايتها أن تدل على أن بارئها

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٧٠٣)، والترمذي (٣٠٧٥)، وابن حبان (٦١٣٣) وصححه.
(٢) أخرجه الترمذي (٣٠٧٨)، والحاكم (١/ ٦٤)، وصححه ووافقه الذهبي.
(٣) أخرجه أحمد (٣/ ١٢٧)، والبخاري (٣٣٣٤)، ومسلم (٢٨٠٥).

وفاطرها سبحانه صور النسمة، وقدر خلقها وأجلها وعملها، واستخرج تلك الصور من مادتها ثم أعادها إليها، وقدر خروج كل فرد من أفرادها في وقته المقدر له، ولا يدل على أنها خلقت خلقاً مستقراً واستمرت موجودة ناطقة كلها في موضع واحد، ثم يرسل منها الأبدان جملة بعد جملة، كما قاله ابن حزم فهذا لا تدل الآثار عليه، نعم الرب سبحانه يخلق منها جملة بعد جملة، كما قاله على الوجه الذي سبق به التقدير أولاً، فيجيء الخلق الخارجي مطابقاً للتقدير السابق كشأنه سبحانه في جميع مخلوقاته، فإنه قدر لها أقداراً وآجالاً وصفات وهيئات ثم أبرزها إلى الوجود مطابقة لذلك التقدير السابق.

فالآثار المروية في ذلك إنما تدل على القدر السابق، وبعضها يدل على أنه سبحانه استخرج أمثالهم وصورهم وميز أهل السعادة من أهل الشقاوة.

وأما الإشهاد عليهم هناك فإنما هو في حديثين موقوفين على ابن عباس وعمر ﷺ ومن ثم قال قائلون من السلف والخلف إن المراد بهذا الإشهاد إنما هو فطرتهم على التوحيد كما تقدم كلام المفسرين على هذه الآية الكريمة في حديث أبي هريرة ﷺ، ومعنى قوله: ﴿شَهِدْنَا﴾ أي قالوا: بلى شهدنا أنك ربنا، وهذا قول ابن عباس وأبي ابن كعب، وقال ابن عباس أيضاً: أشهد بعضهم على بعض، وقيل: ﴿شَهِدْنَا﴾ من قول الملائكة، والوقف على قوله: ﴿بَلَىٰ﴾ وهذا قول مجاهد والضحاك، وقال السدي أيضاً: هو خبر من الله تعالى عن نفسه وملائكته أنهم شهدوا على إقرار بني آدم، والأول أظهر، وما عداه احتمال لا دليل عليه، وإنما يشهد ظاهر الآية للأول.

واعلم أن من المفسرين من لم يذكر سوى القول بأن الله استخرج ذرية آدم من ظهره وأشهدهم على أنفسهم ثم أعادهم كالثعلبي والبغوي وغيرهما، ومنهم من لم يذكره بل ذكر أنه نصب لهم الأدلة على ربوبيته ووحدانيته وشهدت بها عقولهم وبصائرهم التي ركبها الله فيهم كالزمخشري وغيره، ومنهم من ذكر القولين كالواحدي والرازي والقرطبي وغيرهم، لكن نسب الرازي القول الأول إلى أهل السنة والثاني إلى المعتزلة.

ولا ريب أن الآية لا تدل على القول الأول، أعني أن الأخذ كان من ظهر آدم، وإنما فيها أن الأخذ من ظهور بني آدم، وإنما ذكر الأخذ من ظهر آدم والإشهاد عليهم هناك في بعض الأحاديث، وفي بعضها الأخذ والقضاء بأن بعضهم إلى الجنة وبعضهم إلى النار كما في حديث عمر ﷺ، وفي بعضها الأخذ وإراءة آدم

إياهم من غير قضاء ولا إشهاد كما في حديث أبي هريرة، والذي فيه الإشهاد على الصفة التي قالها أهل القول الأول موقوف على ابن عباس وعمرو، وتكلم فيه أهل الحديث ولم يخرجه أحد من أهل الصحيح غير الحاكم في المستدرك على الصحيحين والحاكم معروف التساهل رَحِمَهُ اللهُ.

والذي فيه القضاء بأن بعضهم إلى الجنة وبعضهم إلى النار دليل على مسألة القدر، وذلك شواهده كثيرة ولا نزاع فيه بين أهل السنة، وإنما يخالف فيه القدرية المبطلون المبتدعون.

وأما الأول فالنزاع فيه بين أهل السنة من السلف والخلف، ولولا ما التزمته من الاختصار لبسطت الأحاديث الواردة في ذلك، وما قيل من الكلام عليها، وما ذكر فيها من المعاني المعقولة ودلالة ألفاظ الآية الكريمة.

قال القرطبي[1]: وهذه الآية مشكلة، وقد تكلم العلماء في تأويلها، فنذكر ما ذكروه من ذلك حسب ما وقفنا عليه، فقال قوم: معنى الآية: أن الله أخرج من ظهر بني آدم بعضهم من بعض، ومعنى: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢] دلهم على توحيده، لأن كل بالغ يعلم ضرورة أن له رباً واحداً ﷻ، قال: فقام ذلك مقام الإشهاد عليهم كما قال تعالى في السموات والأرض: ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١] ذهب إلى هذا القفال وأطنب.

وقيل: أنه ﷻ أخرج الأرواح قبل خلق الأجساد وأنه جعل فيها من المعرفة ما علمت به ما خاطبها.

ثم ذكر القرطبي بعد ذلك الأحاديث الواردة في ذلك إلى آخر كلامه، وأقوى ما يشهد لصحة القول الأول حديث أنس المخرج في الصحيحين الذي فيه: قد أردت منك ما هو أهون من ذلك، قد أخذت عليك في ظهر آدم أن لا تشرك بي شيئاً، فأبيت إلا أن تشرك بي، ولكن قد روي من طريق أخرى: قد سألتك أقل من ذلك وأيسر، فلم تفعل فيرد إلى النار، وليس فيه: في «ظهر آدم»، وليس في الرواية الأولى: «إخراجهم من ظهر آدم على الصفة التي ذكرها أصحاب القول الأول».

بل القول الأول متضمن لأمرين عجيبين:

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (٧/ ٣١٤).

أحدهما: كون الناس تكلموا حينئذٍ وأقروا بالإيمان، وأنه بهذا تقوم الحجة عليهم يوم القيامة.

والثاني: أن الآية دلت على ذلك، والآية لا تدل عليه لوجوه[1]:

أحدها: أنه قال: ﴿مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الأعراف: ١٧٢] ولم يقل: «من آدم».

الثاني: أنه قال: ﴿مِن ظُهُورِهِمۡ﴾ ولم يقل: «من ظهره»، وهذا بدل بعض أو بدل اشتمال وهو أحسن.

الثالث: أنه قال: ﴿ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾ ولم يقل: «ذريته».

الرابع: أنه قال: ﴿وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ ولا بد أن يكون الشاهد ذاكراً لما شهد به وهو إنما يذكر شهادته بعد خروجه إلى هذه الدار، كما تأتي الإشارة إلى ذلك لا يذكر شهادة قبله.

الخامس: أنه سبحانه أخبر أن حكمة هذا الإشهاد إقامة للحجة عليهم لئلا يقولوا يوم القيامة: ﴿إِنَّا كُنَّا عَنۡ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾، والحجة إنما قامت عليهم بالرسل والفطرة التي فطروا، عليها كما قال تعالى: ﴿رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ﴾ [النساء: ١٦٥].

السادس: تذكيرهم بذلك لئلا يقولوا يوم القيامة: ﴿إِنَّا كُنَّا عَنۡ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ ومعلوم أنهم غافلون عن الإخراج لهم من صلب آدم كلهم وإشهادهم جميعاً ذلك الوقت، فهذا لا يذكره أحد منهم.

السابع: قوله تعالى: ﴿أَوۡ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشۡرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةٗ مِّنۢ بَعۡدِهِمۡۖ﴾ [الأعراف: ١٧٣]، فذكر حكمتين في هذا الإشهاد لئلا يدَّعوا الغفلة أو يدعوا التقليد، فالغافل لا شعور له، والمقلِّد متبع في تقليده لغيره، ولا تترتب هاتان الحكمتان إلا على ما قامت به الحجة من الرسل والفطرة.

الثامن: قوله: ﴿أَفَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٣]، أي توعَّدهم بجحودهم وشركهم لما قالوا ذلك، وهو سبحانه إنما يهلكهم بمخالفة رسله وتكذيبهم، وقد أخبر سبحانه أنه لم يكن ليهلك القرى بظلم وأهلها غافلون، وإنما يهلكهم بعد الإعذار والإنذار بإرسال الرسل.

---

(١) انظر: كتاب الروح لابن القيم (ص٢٥٩) قال الألباني: «وقد أفاض - يعني ابن القيم -، جداً في تفسير الآية وتأويلها تأويلاً ينافي ظاهرها...»، انظر: السلسلة الصحيحة (٤/ ١٦١).

التاسع: أنه سبحانه أشهد كل واحد على نفسه أنه ربه وخالقه، واحتج عليه بهذا في غير موضع من كتابه كقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥]، فهذه هي الحجة التي أشهدهم على أنفسهم بمضمونها وذكرتهم بها رسله بقولهم: ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١٠].

العاشر: أنه جعل هذا آية وهي الدلالة الواضحة البينة المستلزمة لمدلولها، وهذا شأن آيات الرب تعالى، فقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝١٧٤﴾ [الأعراف: ١٧٤]، وإنما ذلك بالفطرة التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله فما من مولود إلا يولد على الفطرة، لا يولد مولود على غير هذه الفطرة، هذا أمر مفروغ منه، لا تبديل ولا تغيير، وقد تقدمت الإشارة إلى هذا، والله أعلم.

وقد تفطن لهذا ابن عطية وغيره ولكن هابوا مخالفة ظاهر تلك الأحاديث التي فيها التصريح بأن الله أخرجهم وأشهدهم على أنفسهم ثم أعادهم، وكذلك حكى القولين الشيخ أبو منصور الماتريدي في شرح التأويلات، ورجح القول الثاني وتكلم عليه، ومال إليه.

ولا شك أن الإقرار بالربوبية أمر فطري والشرك حادث طارئ والأبناء تقلدوه عن الآباء، فإذا احتجوا يوم القيامة بأن الآباء أشركوا ونحن جرينا على عادتهم كما يجري الناس على عادة آبائهم في المطاعم والملابس والمساكن يقال لهم أنتم كنتم معترفين بالصانع، مقرين بأن الله ربكم لا شريك له، وقد شهدتم بذلك على أنفسكم فإن شهادة المرء على نفسه هي إقراره بالشيء ليس إلا، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ﴾ [النساء: ١٣٥]، وليس المراد أن يقول: أشهد على نفسي بكذا، بل من أقر بشيء فقد شهد على نفسه به، فلم عدلتم عن هذه المعرفة والإقرار الذي شهدتم به على أنفسكم إلى الشرك؟ بل عدلتم عن المعلوم المتيقن إلى ما لا يعلم له حقيقة تقليداً لمن لا حجة معه بخلاف اتباعهم في العادات الدنيوية؛ فإن تلك لم يكن عندكم ما يعلم به فسادها وفيه مصلحة لكم بخلاف الشرك؛ فإنه كان عندكم من المعرفة والشهادة على أنفسكم ما يبين فساده وعدولكم فيه عن الصواب، فإن الدين الذي يأخذه الصبي عن أبويه هو دين التربية والعادة، وهو لأجل مصلحة الدنيا، فإن الطفل لا بد له من كافل وأحق الناس به أبواه ولهذا جاءت الشريعة بأن الطفل مع أبويه

على دينهما في أحكام الدنيا الظاهرة، وهذا الدين لا يعاقبه الله عليه على الصحيح حتى يبلغ ويعقل وتقوم عليه الحجة وحينئذٍ فعليه أن يتبع دين العلم والعقل وهو الذي يعلم بعقله هو أنه دين صحيح.

فإن كان آباؤه مهتدين كيوسف الصديق مع آبائه قال: ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَۚ﴾ [يوسف: ٣٨]، وقال ليعقوب بنوه: ﴿نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾ [البقرة: ١٣٣]، وإن كان الآباء مخالفين الرسل كان عليه أن يتبع الرسل كما قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًاۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآۚ﴾ [العنكبوت: ٨]، فمن اتبع دين آبائه بغير بصيرة وعلم بل يعدل عن الحق المعلوم إليه فهذا اتبع هواه كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ [البقرة: ١٧٠].

وهذه حال كثير من الناس من الذين ولدوا على الإسلام يتبع أحدهم أباه فيما كان عليه من اعتقاد ومذهب وإن كان خطأ ليس هو فيه على بصيرة بل هو من مسلمة الدار لا مسلمة الاختيار، وهذا إذا قيل له في قبره من ربك؟ قال: هاه هاه لا أدري سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته.

فليتأمل اللبيب هذا المحل ولينصح نفسه، وليقم معه، ولينظر من أي الفريقين هو، والله الموفق، فإن توحيد الربوبية لا يحتاج إلى دليل، فإنه مركوز في الفطر، وأقرب ما ينظر فيه المرء أمر نفسه لما كان نطفة وقد خرج من بين الصلب والترائب، والترائب عظام الصدر، ثم صارت تلك النطفة في قرار مكين في ظلمات ثلاث وانقطع عنها تدبير الأبوين وسائر الخلائق، ولو كانت موضوعة على لوح أو طبق واجتمع حكماء العالم على أن يصوروا منها شيئاً لم يقدروا.

ومحال توهم عمل الطبائع فيها، لأنها موات عاجزة ولا توصف بحياة ولن يتأتى من الموات فعل وتدبير، فإذا تفكر في ذلك وانتقال هذه النطفة من حال إلى حال علم بذلك توحيد الربوبية، فانتقل منه إلى توحيد الإلهية، فإنه إذا علم بالعقل أن له ربًّا أوجده كيف يليق به أن يعبد غيره؟ وكلما تفكر وتدبر ازداد يقيناً وتوحيداً، والله الموفق لا رب غيره ولا إله سواه.



عناصر الموضوع:

١ غرض المصنف من عقد هذا الباب:

بيان أن الميثاق من الأمور الغيبية لورود ذكره في القرآن على وجه الإجمال كما في سورة الأعراف، وقد جاءت السنة بذكره تفصيلاً، ففيها ذكر الميثاق الذي أخذ الله جل وعلا من آدم وذريته.

٢ مناسبة هذا الباب لما سبق:

تقدم أن من الإيمان بالله والإيمان بالنصوص الشرعية الدالة على أمور غيبية، ومن جملة المغيبات المذكورة في الكتاب والسنة الميثاق الذي أخذه الله جل وعلا من آدم وذريته.

٣ معاني الكلمات:

الكلمة	المعنى
الميثاق	قيل هو عقد مؤكد بيمن وعهد.
ذريته	هم جميع البشر.
نسمة	الروح والنفس.
الترائب	عظام الصدر.

٤ معنى كلام الطحاوي: «والميثاق الذي أخذه الله تعالى من آدم وذريته حق»:

الميثاق الذي أخذه الله تعالى من آدم وذريته أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً حق، كما جاء في الحديث أن النبي ﷺ أخبرنا أن الله استخرج ذرية آدم من ظهره كأمثال الذر، وأشهدهم على أنفسهم بالوحدانية، وأخذ عليهم الميثاق أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، فنحن نؤمن بذلك، وهذا العهد والميثاق لا يكفي، بل لا بد معه من إرسال الرسل، من أجل أن تذكر به وتدعو الناس إلى

ما تضمنه[(١)].

٥ اختلاف أهل العلم في معنى الميثاق اصطلاحاً:

الميثاق لغة: مطلق العهد، وشرعاً العهد الذي أخذه الله على ذرية بني آدم.

وللعلماء في ذلك قولان:

القول[(٢)] الأول: إن هذا الميثاق أخذه الله على بني آدم في عالم الذر، حيث إن الله استخرج ذرية آدم من ظهره كالذر، وأكد عليهم بلسان المقال لا بلسان الحال واستندوا لقولهم:

أ ـ بحديث: «**إن الله أخذ الميثاق من ظهر آدم بنعمان ـ يعني عرفة ـ فأخرج من صلبه كل ذرية ذراها فنثرهم بين يديه ثم كلمهم قائلاً: ألست بربكم؟ قالوا: بلى، شهدنا... ـ إلى قوله ـ المبطلون**».

ب ـ وبحديث عمر، وفيه أن الرسول ﷺ سئل عن هذه الآية، فقال: (**إن الله خلق آدم فمسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية فقال: خلقت هؤلاء إلى الجنة وبعمل أهل الجنة يعملون، ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية قال: خلقت هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون**).

ج ـ وبحديث: «**قد أخذت عليك في ظهر آدم أن لا تشرك بي شيئاً فأبيت إلا أن تشرك بي**». قال الشوكاني في فتح القدير (٢/ ٢٧٦): «وهذا هو الحق الذي لا ينبغي العدول عنه ولا المصير إلى غيره لثبوته مرفوعاً إلى النبي (ﷺ) وموقوفاً على غيره من الصحابة ولا ملجأ للمصير إلى المجاز».

القول الثاني: إن الله استخرج ذرية بني آدم بعضهم من بعض، والإشهاد هو ما فطرهم عليه من التوحيد بأن نصب لهم الأدلة على ربوبيته ووحدانيته فشهدت بها عقولهم وبصائرهم، لأن كل بالغ يعلم أن له رباً واحداً جل شأنه، وقام ذلك مقام الإشهاد بلسان الحال لا بلسان المقال، واستدلوا بما يأتي:

١ ـ حديث: «**كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه**». الحديث.

---

(١) التعليقات المختصرة على العقيدة الطحاوية (ص١٠٢ ـ ١٠٣).

(٢) هذا مذهب أهل الحديث وجمهور المفسرين ومال إليه جماعة من المتأخرين كالقاري في مرعاة المفاتيح (١/ ١٩٣)، والشنقيطي في أضواء البيان (٢/ ٣٣٥)، والحكمي في معارج القبول (١/ ٨٤)، والألباني في الصحيحة (٤/ ١٥٨).

٢ ـ حديث: «**خلقت عبادي حنفاء فاجتالتهم الشياطين**».

وردوا على من قال بالقول الأول بما يأتي:

أ ـ كون الناس يتكلمون حينئذٍ وأقروا بالإيمان وإنه بهذا تقوم عليهم الحجة يوم القيامة وذلك لم يتم.

ب ـ كون الآية دلت على ذلك، وهي لم تدل عليه لأمور يأتي ذكرها[1].

٦ تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾ [الأعراف: ١٧٢]:

قال ابن الجوزي: «وفي قوله: «وأشهد على أنفسهم» ثلاثة أقوال:

أحدها: أشهدهم على أنفسهم بإقرارهم، قاله مقاتل.

الثاني: دلهم بخلقه على توحيده، قاله الزجاج.

والثالث: أنه أشهد بعضهم على بعض بإقرارهم بذلك، قاله ابن جرير»[2].

قال شيخ الإسلام بعد ذكره للآية: «من الناس من يقول: هذا الإشهاد كان لما استخرجوا من صلب آدم، كما نقل ذلك عن طائفة من السلف ورواه بعضهم مرفوعاً إلى النبي ﷺ، وقد ذكره الحاكم، لكن رفعه ضعيف، وإنما المرفوع الذي في السنن كأبي داود والترمذي وموطأ مالك، من حديث أبي هريرة، ومن حديث عمر: (هو أنه استخرجهم)، ليس فيه أنهم نطقوا ولا تكلموا، ولكن في حديث عمر وغيره أنه قال: هؤلاء للجنة وهؤلاء للنار، ففيها إثبات القدر وأن الله علم ما سيكون قبل أن يكون، وعلم الشقي والسعيد من ذرية آدم، وسواء كان ما استخرجه فرآه آدم هي أمثالهم أو أعيانهم. فأما نطقهم فليس في شيء من الأحاديث المرفوعة الثابتة، ولا يدل عليه القرآن»[3].

٧ الجمع بين القولين:

قال بالجمع بين القولين بعض أهل العلم حيث ذكروا أنه لا تنافي بين القولين، فإن الأخذ للذرية من ظهر آدم والإشهاد عليهم كان تقدمة لبعثة الرسل،

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (٧/ ٢٧٥ ـ ٢٧٧).

(٢) زاد المسير تفسير سورة الأعراف الآية ١٧٢.

(٣) انظر: درء التعارض (٨/ ٤٨٣ ـ ٤٨٤).

والحجة إنما قامت ببعثة الرسل؛ فهم الذين ذكروا بتلك الشهادة، فقامت الحجة على الناس كما لو كان عند الإنسان شهادة ثم نسيها ثم ذكره أحد إياها، وقال له: يا فلان اذكر أن عندك شهادة في وقت كذا وكذا.

وأيضاً فإن الأخذ من ظهور بني آدم أخذ من ظهر آدم؛ فإن ظهورهم ظهر له، وعلى هذا فلا منافاة بين الأقوال، وظاهر هذه الأحاديث في أن الله تعالى استخرج ذرية آدم أمثال الذر ـ الأرواح ـ وأشهدهم ثم أعادهم ﷺ، وكون الإنسان لا يذكر الشهادة لا يستلزم أن يكون ذلك وقع، جاءت الرسل بعد ذلك وذكرتهم بالشهادة. والحجة إنما قامت ببعثة الرسل وعلى ذلك فلا منافاة بين القولين، والله أعلم.

(٨) الأدلة التي ذكرها ابن أبي العز لأصحاب القول الثاني:

أدلة ابن أبي العز تتمثل فيما يلي:

١ ـ أنه قال: «من بني آدم»، ولم يقل: «من آدم».

٢ ـ أنه قال: «من ظهورهم»، ولم يقل: «من ظهره».

٣ ـ أنه قال: «ذرياتهم»، ولم يقل: «ذريته».

٤ ـ أنه قال: «وأشهدهم على أنفسهم»، لا بد أن يكون الشاهد ذاكراً لما شهد به، وهو إنما يذكر الإشهاد بعد خروجه إلى هذه الدار ولا يذكر شهادته قبله.

٥ ـ إن الله تعالى أخبر عن حكمته لهذا الإشهاد، وهي إقامة الحجة عليهم لئلا يقولوا يوم القيامة: ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾، والحجة إنما قامت عليهم بالرسل والفطرة، قال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

٦ ـ تذكيرهم بذلك لئلا يقولوا يوم القيامة: ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

٧ ـ قال تعالى: ﴿أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ﴾ [الأعراف: ١٧٣]. فذكر حكمتين للإشهاد:

أ ـ لأجل عدم الغفلة.

ب ـ أو ادعاء التقليد، ولا تترتبان إلا على من قامت عليه الحجة بالرسل والفطرة.

٨ ـ قوله: ﴿أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٣]، أي: توعده بجحودهم وشركهم لما قالوا ذلك.

٩ ـ إنه سبحانه أشهد كل واحد أنه ربه ومليكه، وهذه هي الحكمة التي أشهدهم بمضمونها وذكرتهم بها الرسل، قال تعالى: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١٠].

١٠ ـ إنه جعل هذه الآية وهي الدلالة الواضحة المستلزمة لمدلولها، وكل آيات الله كذلك، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾﴾ [الأعراف: ١٧٤]، وإنما ذلك بالفطر التي فطر الناس عليها.

(٩) الحكمة من الاستشهاد في قوله تعالى: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا﴾ [الأعراف: ١٧٢]:

الحكمة من الإشهاد في قوله: ﴿بَلَىٰ شَهِدْنَا﴾ إقامة الحجة عليهم لئلا يقولوا يوم القيامة: ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾.

وكذلك لئلا يدَّعوا التقليد، قال تعالى: ﴿أَوْ تَقُولُوٓا إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الأعراف: ١٧٣]. والحجة إنما كانت بإرسال الرسل والفطرة التي فطروا عليها. أما القائل فقد:

١ ـ قيل هو من بني آدم، ويكون معناه: لست بربكم؟ قالوا: بلى شهدنا بأنك ربنا، فالضمير يرجع إلى بني آدم، هذا قول كعب وابن عباس.

٢ ـ وقيل: أشهد بعضهم بعضاً، وهو لابن عباس.

٣ ـ وقيل قوله: ﴿شَهِدْنَا﴾ من قول الملائكة فشهدنا بإقراركم بأن تقولوا يوم القيامة: ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾، والوقف على قوله: ﴿بَلَىٰ﴾، وهذا قول الضحاك والسدي.

٤ ـ وقيل هذا هو من قول الله تعالى يخبر عن نفسه وعن الملائكة أنهم شهدوا على إقرار بني آدم، والراجح الأول، لأن ظاهر الآية يشهد له وبقية الأقوال احتمالات لا دليل عليها.

(١٠) هل الأرواح قبل الأجساد أم لا؟

إن هذه الآثار الواردة في مسألة الميثاق لا تدل على سبق أرواح الأجسام سبقاً مستمراً ثابتاً، وإنما تدل على أن الله صوَّر الناس وقدر خلقها وأجلها وعملها واستخرج هذه الصور عن مادتها ثم أعادها إليها، وقدر خروج كل فرد من أفرادها في وقته المقدر له، فالله يخلق منها جملة بعد جملة على الوجه الذي سيعيد به التقدير أو لا يحيى الخلق الخارج مطابقاً للتقدير السابق، فهذه الآثار

إنما تدل على التقدير السابق وبعضها يدل على أنه سبحانه استخرج أمثالهم وصورهم وميز أهل السعادة من أهل الشقاوة، أما الاستشهاد عليهم فلا تدل عليه ولا يرد إلا في حديثين موقوفين على ابن عباس وعمر رضي الله عنهما.

(١١) الفرق بين دين التربية والعادة وبين دين العلم:

دين التربية والعادة هو ما يأخذه الصبي عن أبويه لأجل مصلحة الدنيا، فإن الطفل لا بد له من كافل، وأحق الناس به أبواه، أما في دين العلم والعقل فهو ما جاءت به الرسل، فإن كان أبواه على حق وهدى تبعهم كيوسف حيث قال: ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [يوسف: ٣٨]، وإن كان الآباء مخالفين للرسل فعليه أن يتبع الحق كما قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾ [العنكبوت: ٨]، فلا يجوز تقليد الآباء إن كانوا على ضلال، والذي يجوز فيه تقاليد الآباء هو دين العلم والعقل.

(١٢) المقصود بقول ابن أبي العز: «مسلمة الدار ومسلمة الاختيار»:

المراد بمسلمة الدار من يتبع آباءه سواء كانوا على حق أو ضلال، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ [البقرة: ١٧٠].

وأما مسلمة الاختيار فهم من يتبع ما جاء به الرسل، قال تعالى: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ﴾ [العنكبوت: ٨].

(١٣) الإجابة على من احتج بتقليد الآباء في الاعتقاد الفاسد بجواز التقليد لهم بالعادات من لبس ومطعم:

يرد عليهم بأن يقال لهم: إنكم كنتم مقرين بالصانع معترفين به فأنتم وذلك شهدتم على أنفسكم، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ [النساء: ١٣٥]، فجعل مجرد الإقرار شهادة. وليس أن يقول الإنسان شهدت على نفسي بكذا، فلما عدلتم عن هذه المعرفة وهذا الإقرار الذي شهدتم به على أنفسكم إلى الشرك بل عدلتم عن المعلوم المتيقن إلى ما لا يعلم له حقيقة تقليداً لما لا حجة معه بخلاف اتباعهم في العادات الدنيوية فإنه ليس عندكم ما يعلم به فسادها وفيه مصلحة لكم.

أما الشرك فإن عندكم من المعرفة والإقرار ما يدل على فساده وعدلكم فيه عن الصواب.

(١٤) مراحل خلق الإنسان دليل على توحيد الربوبية:

وجه ذلك هو أن الإنسان كان نطفة خارجة من بين الصلب والترائب، فصارت إلى قرار مكين في ظلمات ثلاث (هي ظلمة البطن، وظلمة الرحم، وظلمة المشيمة) وانقطع عنها تدبير الأبوين وسائر الخلائق، ولو كانت موضوعة على طبق أو لوح واجتمع عليها حكماء العالم على أن يصوروا منها شيئاً لم يقدروا على ذلك، وكذلك يستحيل أن تعمل الطبائع فيها لأنها أموات عاجزة لا توصف بحياة ولا يأتي من الموات فعل ولا تدبير فإذا تفكر الإنسان بذلك وتفكر بانتقال النطفة من حال إلى حال علم بذلك توحيد الربوبية وإن الله صانع ذلك كله.

(١٥) الخلاصة:

١ ـ الميثاق الذي أخذه الله تعالى من آدم وذريته أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً حق كما جاء في الحديث الصحيح.

٢ ـ إن الله استخرج ذرية بني آدم بعضهم من بعض، والإشهاد كما يقوله بعض أهل العلم ما فطرهم عليه من التوحيد بأن نصب لهم الأدلة على ربوبيته ووحدانيته فشهدت بها عقولهم وبصائرهم.

٣ ـ الحكمة من الإشهاد: لأجل عدم الغفلة، أو ادعاء التقليد، إقامة للحجة عليهم.

٤ ـ الآثار الواردة في مسألة الميثاق لا تدل على سبق أرواح الأجسام سبقاً مستمراً ثابتاً، وإنما تدل على أن الله صور الناس وقدر خلقها وأجلها وعملها واستخرج هذه الصور عن مادتها ثم أعادها إليها، وقدر خروج كل فرد من أفرادها في وقته المقدر له.

٥ ـ هناك فرق بين دين التربية والعادة وبين دين العلم.

٦ ـ مراحل خلق الإنسان تدل على توحيد الربوبية.

(١٦) المناقشة:

- **س١:** ما غرض المصنف من عقد هذا الباب؟
- **س٢:** وضح المقصود بالميثاق لغة وشرعاً؟
- **س٣:** بيِّن اختلاف أهل العلم في معنى الميثاق اصطلاحاً.

- **س٤:** ما تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾؟
- **س٥:** ما أدلة ابن أبي العز في حمله الآية على أخذ العهد في عالم الذر؟
- **س٦:** ما الحكمة من الاستشهاد في قوله تعالى: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾؟
- **س٧:** هل الأرواح قبل الأجساد أم لا؟
- **س٨:** ما الفرق بين دين التربية والعادة ودين العلم؟
- **س٩:** ما المقصود بقول ابن أبي العز: «مسلمة الدار» و«مسلمة الاختيار»؟
- **س١٠:** ما الأحكام التي تجري على الصبي في الدنيا والآخرة؟
- **س١١:** بماذا تجيب على من احتج بتقليد الآباء في الاعتقاد الفاسد بجواز التقليد لهم بالعادات من لبس ومطعم؟
- **س١٢:** كيف يمكن أن نجعل من مراحل خلق الإنسان دليلاً على توحيد الربوبية؟.
- **س١٣:** كيف يمكن الاستدلال بتوحيد الربوبية على توحيد الألوهية؟

القضاء والقدر

* **كلام ابن أبي العز:**

١ ـ غرض المصنف من عقد هذا الباب.

٢ ـ مناسبة هذا الباب لما سبق.

٣ ـ معاني الكلمات.

٤ ـ معنى كلام الطحاوي: «وقد علم الله تعالى فيما لم يزل عدد من يدخل الجنة وعدد من يدخل النار جملة واحدة، فلا يزداد في ذلك العدد ولا ينقص».

٥ ـ أدلة علم الله الأزلي.

٦ ـ منزلة الإيمان بالقدر.

٧ ـ معنى القضاء والقدر والفرق بينهما.

٨ ـ الرضا بالقدر.

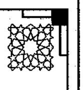
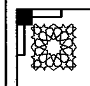
٩ ـ معنى كلام الطحاوي: «وكذلك أفعالهم فيما علم منهم أن يفعلوه، وكل ميسر لما خلق له، والأعمال بالخواتيم، والسعيد من سعد بقضاء الله، والشقي من شقي بقضاء الله».

١٠ ـ أدلة أن الأعمال بالخواتيم وأن الإنسان ميسر لما خلق له.

١١ ـ معنى كلام الطحاوي: «وأصل القدر سر الله تعالى في خلقه، لم يطلع على ذلك مَلَك مقرب ولا نبي مرسل، والتعمق والنظر في ذلك ذريعة الخذلان، وسلم الحرمان، ودرجة الطغيان، فالحذر كل الحذر من ذلك نظراً وفكراً ووسوسة، فإن الله تعالى طوى علم القدر عن أنامه، ونهاهم عن مرامه، كما قال تعالى في كتابه: ﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء: ٢٣]. فمن سأل: لِمَ فعل؟ فقد رد حكم الكتاب، ومن رد حكم الكتاب كان من الكافرين.

١٢ ـ إثبات الحكمة لله ﷻ.
١٣ ـ كراهية الخوض في مسائل القدر عند السلف.
١٤ ـ مراتب القدر عند أهل السنة.
١٥ ـ أنواع التقدير.
١٦ ـ أنواع قضاء الله ﷻ.
١٧ ـ أنواع الكتابة.
١٨ ـ الإرادة في القرآن على نوعين.
١٩ ـ مذاهب الناس في باب القدر.
٢٠ ـ نشأة الكلام في القدر.
٢١ ـ المنكرون لمراتب القدر.
٢٢ ـ الرد على من يقول بأن السعادة والشقاء مقدَّران فإذاً لا حاجة للعمل.
٢٣ ـ السبب في ضلال كل من الجبرية والقدرية.
٢٤ ـ السبب الذي دعا القدرية إلى القول بأن العبد يخلق فعل نفسه.
٢٥ ـ الجمع بين الإقرار بأن الله قدر على العباد كل شيء وبين تكليفه لهم.
٢٦ ـ الجمع بين الإرادة الكونية القدرية وبين الكراهية والبغض للشيء.
٢٧ ـ الفرق بين الاستعاذة برضا الله من سخطه، وبمعافاته من عقوبته وبين قول النبي ﷺ: (وبك منك).
٢٨ ـ التوفيق بين تقدير الله لقوى الشر وبين قوله ﷺ: (والشر ليس إليك).
٢٩ ـ هل يجب على الإنسان أن يرضى بقوى الشر أم لا؟
٣٠ ـ هل يمكن لله أن يرضى لعبده شيئاً ثم لا يعينه عليه؟
٣١ ـ الحكم التي بينها الشارع في خلق إبليس وغيره من قوى الشر.

٣٢ ـ الجمع بين رضا العبد لما قدر الله عليه، وبين بغضه للمعاصي.
٣٣ ـ احتجاج بعض العصاة بالقدر والرد على بعض شبههم.
٣٤ ـ معنى التعمق بالقدر وبيان كيف كان ذريعة الخذلان.
٣٥ ـ تفسير قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟﴾ [التوبة: ٦٩].
٣٦ ـ مراتب تعظيم أمر الله.
٣٧ ـ حكم رد الكتاب ومعنى قوله تعالى: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾.
٣٨ ـ معنى قول الطحاوي: «العلم علمان، علم في الخلق موجود وعلم في الخلق مفقود».
٣٩ ـ أثر الإيمان بالقدر وفوائده.
٤٠ ـ الخلاصة.
٤١ ـ المناقشة.

القضاء والقدر

قال ابن أبي العز:

قوله: «وقد علم الله تعالى فيما لم يزل عدد من يدخل الجنة وعدد من يدخل النار جملة واحدة فلا يزداد في ذلك العدد ولا ينقص منه، وكذلك أفعالهم فيما علم منهم أن يفعلوه».

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧٥] ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٠]، فالله تعالى موصوف بأنه بكل شيء عليم أزلاً وأبداً، لم يتقدم علمه بالأشياء جهالة: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: ٦٤]. وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: «كنا في جنازة في بقيع الغرقد، فأتانا رسول الله ﷺ فقعد وقعدنا حوله، ومعه مخصرة، فنكس رأسه، فجعل ينكت بمخصرته، ثم قال: ما منكم من أحد، ما من نفس منفوسة إلا قد كتب الله مكانها من الجنة والنار، وإلا قد كُتبت شقية أو سعيدة، قال: فقال رجل: يا رسول الله، أفلا نمكث على كتابنا، وندع العمل؟ فقال: من كان من أهل السعادة، فسيصير إلى عمل أهل السعادة، ومن كان من أهل الشقاوة فسيصير إلى عمل أهل الشقاوة، ثم قال: اعملوا فكل ميسَّر لما خلق له، أما أهل السعادة، فييسرون لعمل أهل السعادة، وأما أهل الشقاوة فييسرون لعمل أهل الشقاوة»، ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠﴾ [الليل: ٥ ـ ١٠][1]..

قوله: «وكل ميسر لما خلق له، والأعمال بالخواتيم، والسعيد من سعد بقضاء الله، والشقي من شقي بقضاء الله».

تقدم حديث علي رضي الله عنه وقوله ﷺ: (اعملوا فكل ميسَّر لما خُلق له). وعن

(١) أخرجه البخاري (١٣٦٢)، ومسلم (٢٦٤٧).

زهير، عن أبي الزبير، عن جابر بن عبد الله ﷺ قال: جاء سراقة بن مالك بن جعشم قال: يا رسول الله، بيِّن لنا ديننا كأنا خُلقنا الآن، فيم العمل اليوم؟ أفيما جفت به الأقلام، وجرت به المقادير، أم فيما يستقبل؟ قال: (لا بل فيما جفت به الأقلام، وجرت به المقادير)، قال: ففيم العمل؟ قال زهير: ثم تكلم أبو الزبير بشيء لم أفهمه، فسألت: ما قال؟ فقال: (اعملوا فكل ميسر)(١). رواه مسلم.

وعن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار، وإن الرجل ليعمل عمل أهل النار فيما يبدو للناس وهو من أهل الجنة)(٢)، خرجاه في «الصحيحين» وزاد البخاري: (وإنما الأعمال بالخواتيم).

وفي «الصحيحين» أيضاً عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق: (إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات: بكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد، فوالذي لا إله غيره، إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها)(٣).

والأحاديث في هذا الباب كثيرة، وكذلك الآثار عن السلف.

قال أبو عمر بن عبد البر في التمهيد: قد أكثر الناس من تخريج الآثار في هذا الباب، وأكثر المتكلمون من الكلام فيه، وأهل السنة مجتمعون على الإيمان بهذه الآثار واعتقادها، وترك المجادلة فيها، وبالله العصمة والتوفيق.

وقوله: (وأصل القدر سر الله تعالى في خلقه، لم يطلع على ذلك ملك مقرب، ولا نبي مرسل، والتعمق والنظر في ذلك ذريعة الخذلان، وسلم الحرمان، ودرجة

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٤٨).
(٢) أخرجه البخاري (٦٤٩٣)، ومسلم (١١٢).
(٣) أخرجه البخاري (٣٢٠٨)، ومسلم (٢٦٤٣).

الطغيان، فالحذر كل الحذر من ذلك نظراً وفكراً ووسوسة، فإن الله تعالى طوى علم القدر عن أنامه، ونهاهم عن مرامه، كما قال تعالى في كتابه: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء: ٢٣]. فمن سأل: لم فعل؟ فقد رد حكم الكتاب، ومن رد حكم الكتاب، كان من الكافرين).

أصل القدر سر الله في خلقه، وهو كونه أوجد وأفنى، وأفقر وأغنى، وأمات وأحيا، وأضل وهدى. قال علي رضي الله عنه: القدر سر الله، فلا نكشفه.

والنزاع بين الناس في مسألة القدر مشهور، والذي عليه أهل السنة والجماعة: أن كل شيء بقضاء الله وقدره، وأن الله تعالى خالق أفعال العباد، قال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القمر: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢]. وأن الله تعالى يريد الكفر من الكافر ويشاؤه، ولا يرضاه ولا يحبه، فيشاؤه كوناً، ولا يرضاه ديناً.

وخالف في ذلك القدرية والمعتزلة، وزعموا أن الله شاء الإيمان من الكافر، ولكن الكافر شاء الكفر، فرُّوا إلى هذا، لئلا يقولوا: شاء الكفر من الكافر، وعذبه عليه! ولكن صاروا كالمستجير من الرمضاء بالنار! فإنهم هربوا من شيء، فوقعوا فيما هو شر منه، فإنه يلزمهم أن مشيئة الكافر غلبت مشيئة الله تعالى، فإن الله قد شاء الإيمان منه ـ على قولهم ـ والكافر شاء الكفر، فوقعت مشيئة الكافر دون مشيئة الله تعالى! وهذا من أقبح الاعتقاد، وهو قول لا دليل عليه، بل هو مخالف للدليل.

روى اللالكائي، من حديث بقية، عن الأوزاعي، حدثنا العلاء بن الحجاج، عن محمد بن عبيد المكي، عن ابن عباس: أن رجلاً قدم علينا يكذب بالقدر، فقال: دلوني عليه، وهو يومئذٍ أعمى، فقالوا له: ما تصنع به؟ فقال: والذي نفسي بيده، لئن استمكنت منه، لأعضن أنفه حتى أقطعه، ولئن وقعت رقبته بيدي لأدقنها، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: (كأني بنساء بني فهم يطفن بالخزرج، تصطك ألياتهن مشركات، وهذا أول شرك في الإسلام، والذي نفسي بيده لا ينتهي بهم سوء رأيهم حتى يخرجوا الله من أن يقدّر الخير، كما أخرجوه من أن يقدر الشر).

قوله: وهذا أول شرك في الإسلام، إلى آخره، من كلام ابن عباس. وهذا يوافق

قوله: القدر نظام التوحيد، فمن وحّد الله، وكذب بالقدر، نقض تكذيبه توحيده.

وروى عمرو بن الهيثم قال: خرجنا في سفينة، وصحبنا فيها قدري ومجوسي، فقال القدري للمجوسي، أسلم، قال المجوسي: حتى يريد الله، فقال القدري، إن الله يريد، ولكن الشيطان لا يريد، قال المجوسي: أراد الله وأراد الشيطان، فكان ما أراد الشيطان! هذا شيطان قوي!! وفي رواية أنه قال: فأنا مع أقواهما!!

ووقف أعرابي على حلقة فيها عمرو بن عبيد، فقال: يا هؤلاء إن ناقتي سُرِقت، فادعوا الله أن يردها علي، فقال عمرو بن عبيد: اللهم إنك لم ترد أن تسرق ناقته فسرقت، فارددها عليه، فقال الأعرابي: لا حاجة لي في دعائك. قال: ولم؟ قال: أخاف كما أراد أن لا تُسرق فسرقت، أن يريد ردها فلا ترد!!.

وقال رجل لأبي عصام القسطلاني: أرأيت إن منعني الهدى وأوردني الضلال، ثم عذبني، أيكون منصفاً؟ فقال له أبو عصام: إن يكن الهدى شيئاً هو له، فله أن يعطيه من يشاء، ويمنعه من يشاء.

وأما الأدلة من الكتاب والسنة: فقد قال تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ۝١٣﴾ [السجدة: ١٣]. وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ۝٩٩﴾ [يونس: ٩٩]. وقال تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝٢٩﴾ [التكوير: ٢٩]. وقال تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝٣٠﴾ [الإنسان: ٣٠]. وقال تعالى: ﴿مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٣٩]. وقال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ ۚ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

ومنشأ[(١)] الضلال: من التسوية بين المشيئة والإرادة، وبين المحبة والرضا، فسوّى بينهما الجبرية والقدرية، ثم اختلفوا، فقالت الجبرية: الكون كله بقضائه وقدره، فيكون محبوباً مرضياً، وقالت القدرية النفاة: ليست المعاصي محبوبة لله، ولا مرضية له، فليست مقدرة، ولا مقضية، فهي خارجة عن مشيئته وخلقه.

---

(١) انظر: مدارج السالكين (١/ ٢٥١).

وقد دل على الفرق بين المشيئة والمحبة الكتاب والسنة والفطرة الصحيحة، أما نصوص المشيئة والإرادة من الكتاب، فقد تقدم ذكر بعضها، وأما نصوص المحبة والرضا، فقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥] ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ [الزمر: ٧]. وقال تعالى عقيب ما نهى عنه من الشرك والظلم والفواحش والكبر: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾﴾ [الإسراء: ٣٨].

وفي الصحيح عن النبي ﷺ: (إن الله كره لكم ثلاثاً: قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال)[1].

وفي المسند: (إن الله يحب أن يؤخذ برخصه، كما يكره أن تؤتى معصيته)[2].

وكان من دعائه ﷺ: (اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك، وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك)[3].

فتأمل ذكر استعاذته بصفة الرضى من صفة السخط، وبفعل المعافاة من فعل العقوبة، فالأول للصفة، والثاني لأثرها المرتب عليها، ثم ربط ذلك كله بذاته سبحانه، وأن ذلك كله راجع إليه وحده لا إلى غيره، فما أعوذ منه واقع بمشيئتك وإرادتك، وما أعوذ به من رضاك ومعافاتك هو بمشيئتك وإرادتك، إن شئت أن ترضى عن عبدك وتعافيه، وإن شئت أن تغضب عليه وتعاقبه، فإعاذتي مما أكره، ومنعه أن يحل بي، هي بمشيئتك أيضاً، فالمحبوب المكروه كله بقضائك ومشيئتك، فعياذي بك منك، وعياذي بحولك وقوتك ورحمتك مما يكون بحولك وقوتك، وعدلك وحكمتك، فلا أستعيذ بغيرك من غيرك، ولا أستعيذ بك من شيء صادر عن غير مشيئتك، بل هو منك، فلا يعلم ما في هذه الكلمات من التوحيد والمعارف والعبودية إلا الراسخون في العلم بالله ومعرفته ومعرفة عبوديته.

فإن قيل: كيف[4] يريد الله أمراً ولا يرضاه ولا يحبه؟ وكيف يشاؤه ويكوّنه؟ وكيف يجمع إرادته له وبغضه وكراهته؟

قيل: هذا السؤال هو الذي افترق الناس لأجله فرقاً، وتباينت طرقهم وأقوالهم.

---

(١) أخرجه البخاري (١٤٧٧)، ومسلم (١٥٩٣).

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ١٠٨).

(٣) سبق تخريجه.

(٤) انظر: المدارج (٣/ ١٩٣).

فاعلم أن المراد نوعان: مراد لنفسه، ومراد لغيره. فالمراد لنفسه، مطلوب محبوب لذاته وما فيه من الخير، فهو مراد إرادة الغايات والمقاصد.

والمراد لغيره، قد لا يكون مقصوداً للمريد، ولا فيه مصلحة له بالنظر إلى ذاته، وإن كان وسيلة إلى مقصوده ومراده، فهو مكروه له من حيث نفسه وذاته، مراد له من حيث إفضاؤه وإيصاله إلى مراده، فيجتمع فيه الأمران: بغضه وإرادته، ولا يتنافيان، لاختلاف متعلقهما. وهذا كالدواء الكريه، إذا علم المتناول له أن فيه شفاءه، وقطع العضو المتآكل، إذا علم أن في قطعه بقاء جسده، وكقطع المسافة الشاقة، إذا علم أنها توصل إلى مراده ومحبوبه. بل العاقل يكتفي في إيثار هذا المكروه وإرادته بالظن الغالب، وإن خفيت عنه عاقبته، فكيف ممن لا يخفى عليه خافية.

فهو سبحانه يَكرَه الشيء، ولا ينافي ذلك إرادته لأجل غيره، وكونه سبباً إلى أمر هو أحب إليه من فوته.

من ذلك: أنه خلق إبليس، الذي هو مادة لفساد الأديان والأعمال والاعتقادات والإرادات، وهو سبب لشقاوة كثير من العباد، وعملهم بما يغضب الرب سبحانه تبارك وتعالى، وهو الساعي في وقوع خلاف ما يحبه الله ويرضاه، ومع هذا، فهو وسيلة إلى محاب كثيرة للرب تعالى ترتبت على خلقه، ووجودها أحب إليه من عدمها:

منها: أنه يظهر للعباد قدرة الرب تعالى على خلق المتضادات المتقابلات، فخلق هذا الذات التي هي أخبث الذوات وشرها، وهي سبب كل شر في مقابلة ذات جبريل، التي هي من أشرف الذوات وأطهرها وأزكاها، وهي مادة كل خير، فتبارك خالق هذا وهذا. كما ظهرت قدرته في خلق الليل والنهار، والداء والدواء، والحياة والموت، والحسن والقبيح، والخير والشر. وذلك من أدل دليل على كمال قدرته وعزته وملكه وسلطانه، فإنه خلق هذه المتضادات وقابلها بعضها ببعض وجعلها محال تصرفه وتدبيره. فخلو الوجود عن بعضها بالكلية تعطيل لحكمته، وكما تصرفه، وتدبير ملكه.

ومنها: ظهور آثار أسمائه القهرية، مثل: القهار، والمنتقم، والعدل، والضار، والشديد العقاب، والسريع العقاب، وذي البطش الشديد، والخافض، والمذل، فإن

هذه الأسماء والأفعال كمال، لا بد من وجود متعلقها، ولو كان الجن والإنس على طبيعة الملائكة لم يظهر أثر هذه الأسماء.

ومنها ظهور آثار أسمائه المتضمنة لحلمه وعفوه ومغفرته وستره وتجاوزه عن حقه وعتقه لمن شاء من عبيده، فلولا خلق ما يكرهه من الأسباب المفضية إلى ظهور آثار هذه الأسماء، لتعطلت هذه الحكم والفوائد، وقد أشار النبي ﷺ إلى هذا بقوله: (لو لم تذنبوا، لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون، ويستغفرون، فيغفر لهم)[1].

ومنها: ظهور آثار أسماء الحكمة والخبرة، فإنه الحكيم الخبير، الذي يضع الأشياء مواضعها وينزلها منازلها اللائقة بها، فلا يضع الشيء في غير موضعه، ولا ينزله في غير منزلته التي يقتضيها كمال علمه وحكمته وخبرته، فهو أعلم حيث يجعل رسالاته، وأعلم بمن يصلح لقبولها، ويشكره على انتهائها إليه وأعلم بمن لا يصلح لذلك فلو قدر عدم الأسباب المكروهة لتعطلت حكم كثيرة ولفاتت مصالح عديدة، ولو عطلت تلك الأسباب لما فيها من الشر لتعطل الخير الذي هو أعظم من الشر الذي في تلك الأسباب، وهذا كالشمس والمطر والرياح التي فيها من المصالح ما هو أضعاف أضعاف ما يحصل بها من الشر.

ومنها حصول العبودية المتنوعة التي لولا خلق إبليس لما حصلت، فإن عبودية الجهاد من أحب أنواع العبودية إليه سبحانه، ولو كان الناس كلهم مؤمنين لتعطلت هذه العبودية وتوابعها من الموالاة لله ﷻ والمعاداة فيه، وعبودية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعبودية الصبر ومخالفة الهوى وإيثار محاب الله تعالى، وعبودية التوبة والاستغفار، وعبودية الاستعاذة بالله أن يجيره من عدوه ويعصمه من كيده وأذاه، إلى غير ذلك من الحكم التي تعجز العقول عن إدراكها.

فإن قيل: فهل كان يمكن وجود تلك الحكم بدون هذه الأسباب؟ فهذا سؤال فاسد وهو فرض وجود الملزوم بدون لازمه كفرض وجود الابن بدون الأب، والحركة بدون المتحرك، والتوبة بدون التائب.

فإن قيل: فإذا كانت هذه الأسباب مرادة لما تفضي إليه من الحكم فهل تكون مرضية محبوبة من هذا الوجه أم هي مسخوطة من جميع الوجوه؟ قيل: هذا

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٤٩).

السؤال يرد على وجهين: أحدهما من جهة الرب تعالى، وهل يكون محباً لها من جهة إفضالها إلى محبوبه وإن كان يبغضها لذاتها، والثاني من جهة العبد وهو أنه هل يسوغ له الرضى بها من تلك الجهة أيضاً فهذا سؤال له شأن.

فاعلم أن الشر كله يرجع إلى العدم، أعني عدم الخير وأسبابه المفضية إليه، وهو من هذه الجهة شر، وأما من جهة وجوده المحض فلا شر فيه، مثاله أن النفوس الشريرة وجودها خير من حيث هي موجودة، وإنما حصل لها الشر بقطع مادة الخير عنها، فإنها خلقت في الأصل متحركة فإن أعينت بالعلم وإلهام الخير تحركت به، وإن تركت تحركت بطبعها إلى خلافه، وحركتها من حيث هي حركة خير وإنما تكون شراً بالإضافة لا من حيث هي حركة، والشر كله ظلم وهو وضع الشيء في غير محله، فلو وضع في موضعه لم يكن شراً فعلم إن جهة الشر فيه نسبية إضافية.

ولهذا كانت العقوبات الموضوعة في محالها خيراً في نفسها وإن كانت شراً بالنسبة إلى المحل الذي حلت به لما أحدثت فيه من الألم الذي كانت الطبيعة قابلة لضده من اللذة مستعدة له، فصار ذلك الألم شراً بالنسبة إليها وهو خير بالنسبة إلى الفاعل حيث وضعه في موضعه، فإنه سبحانه لم يخلق شراً محضاً من جميع الوجوه والاعتبارات، فإن حكمته تأبى ذلك فلا يكون في جناب الحق تعالى أن يريد شيئاً يكون فساداً من كل وجه لا مصلحة في خلقه بوجه ما، هذا من أبين المحال، فإنه سبحانه الخير كله بيده، والشر ليس إليه، بل كل ما إليه فخير، والشر إنما حصل لعدم هذه الإضافة والنسبة إليه، فلو كان إليه لم يكن شراً فتأمله، فانقطاع نسبته إليه هو الذي صيره شراً.

فإن قيل: لم تنقطع نسبته إليه خلقاً ومشيئة، قيل: هو من هذه الجهة ليس بشر؛ فإن وجوده هو المنسوب إليه وهو من هذه الجهة ليس بشر والشر الذي فيه من عدم إمداده بالخير وأسبابه والعدم ليس بشيء حتى ينسب إلى من بيده الخير.

فإن أردت مزيد إيضاح لذلك فاعلم أن أسباب الخير ثلاثة: الإيجاد والإعداد والإمداد، فإيجاد هذا خير وهو إلى الله وكذلك إعداده وإمداده، فإن لم يحدث فيه إعداد ولا إمداد حصل فيه الشر بسبب هذا العدم الذي ليس إلى الفاعل وإنما إليه ضده.

فإن قيل: هلَّا أمده إذ أوجده؟ قيل: ما اقتضت الحكمة إيجاده وإمداده، وإنما

اقتضت إيجاده وترك إمداده، فإيجاده خير والشر وقع من عدم إمداده.

فإن قيل: فهلَّا أمد الموجودات كلها؟ فهذا سؤال فاسد يظن مورده أن التسوية بين الموجودات أبلغ في الحكمة، وهذا عين الجهل، بل الحكمة في هذا التفاوت العظيم الذي بين الأشياء، وليس في خلق كل نوع منها تفاوت، فكل نوع منها ليس في خلقه تفاوت، والتفاوت إنما وقع لأمور عدمية لم يتعلق بها الخلق وإلا فليس في الخلق من تفاوت، فإن اعتاص عليكم هذا ولم تفهمه حق الفهم فراجع قول القائل:

إذا لم تستطع شيئاً فدعه ... وجاوزه إلى ما تستطيع

فإن قيل: كيف يرضى لعبده شيئاً ولا يعينه عليه؟ قيل: لأن إعانته عليه قد تستلزم فوات محبوب له أعظم من حصول تلك الطاعة التي رضيها له، وقد يكون وقوع تلك الطاعة منه يتضمن مفسدة هي أكره إليه سبحانه من محبته لتلك الطاعة، وقد أشار تعالى إلى ذلك في قوله: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٦]. فأخبر سبحانه أنه كره انبعاثهم إلى الغزو مع رسوله، وهو طاعة، فلما كرهه منهم ثبطهم عنه، ثم ذكر سبحانه بعض المفاسد التي تترتب على خروجهم مع رسوله فقال: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ أي فساداً وشراً ﴿وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ﴾ أي سعوا بينكم بالفساد والشر ﴿يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٧] أي: قابلون منهم مستجيبون لهم، فيتولد من سعي هؤلاء وقبول هؤلاء من الشر ما هو أعظم من مصلحة خروجهم، فاقتضت الحكمة والرحمة أن أقعدهم عنه، فاجعل هذا المثال أصلاً وقس عليه.

وأما الوجه الثاني وهو الذي من جهة العبد فهو أيضاً ممكن بل واقع؛ فإن العبد يسخط الفسوق والمعاصي ويكرهها من حيث هي فعل العبد واقعة بكسبه وإرادته واختياره، ويرضى بعلم الله وكتابه ومشيئته وإرادته وأمره الكوني فيرضى بما [هو] من الله ويسخط ما هو منه، فهذا مسلك طائفة من أهل العرفان وطائفة أخرى كرهتها مطلقاً، وقولهم يرجع إلى هذا القول لأن إطلاقهم الكراهة لا يريدون به شموله لعلم الرب وكتابه ومشيئته.

وسر المسألة أن الذي إلى الرب منها غير مكروه والذي إلى العبد مكروه.

فإن قيل: ليس إلى العبد شيء منها؟

قيل: هذا هو الجبر الباطل الذي لا يمكن صاحبه التخلص من هذا المقام الضيق، والقدري المنكر أقرب إلى التخلص منه من الجبري، وأهل السنة المتوسطون بين القدرية والجبرية أسعد بالتخلص من الفريقين.

فإن قيل: كيف يتأتى الندم والتوبة مع شهود الحكمة في التقدير ومع شهود القيومية والمشيئة النافذة؟ قيل: هذا هو الذي أوقع من عميت بصيرته في شهود الأمر على غير ما هو عليه فرأى تلك الأفعال طاعات لموافقته فيها المشيئة والقدر وقال: إن عصيت أمره فقد أطعت إرادته وفي ذلك قيل:

أصبحت منفعلاً لما يختاره ... مني ففعلي كله طاعات

وهؤلاء أعمى الخلق بصائر، وأجهلهم بالله وأحكامه الدينية[١] والكونية[٢]، فإن الطاعة هي موافقة الأمر الديني الشرعي لا موافقة القدر والمشيئة ولو كان موافقة القدر طاعة لكان إبليس من أعظم المطيعين له، ولكان قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وقوم فرعون كلهم مطيعين وهذا غاية الجهل.

لكن إذا شهد العبد عجز نفسه ونفوذ الأقدار فيه وكمال فقره إلى ربه وعدم استغنائه عن عصمته وحفظه طرفة عين كان بالله في هذه الحال لا بنفسه، فوقوع الذنب منه لا يتأتى في هذه الحال البتة، فإن عليه حصناً حصيناً فبي يسمع وبي يبصر وبي يبطش وبي يمشي، فلا يتصور منه الذنب في هذه الحالة، فإذا حجب عن هذا المشهد وبقي بنفسه استولى عليه حكم النفس فهناك نصبت عليه الشباك والأشراك وأرسلت عليه الصيادون، فإذا انقشع عنه ضباب ذلك الوجود الطبعي فهنالك يحضره الندم والتوبة والإنابة، فإنه كان في المعصية محجوباً بنفسه عن ربه فلما فارق ذلك الوجود صار في وجود آخر فبقي بربه لا بنفسه.

فإن قيل: إذا كان الكفر بقضاء الله وقدره ونحن مأمورون أن نرضى بقضاء الله فكيف ننكره ونكرهه؟!

---

(١) الحكم الديني (الشرعي): هو المتعلق بالألوهية والشرع الذي يعصيه به الفجار والفساق. انظر: شفاء العليل (٢/ ٢٨٢).

(٢) الحكم الكوني (القدري): هو المتعلق بربوبية الله وخلقه الذي لا يعصى فيه والذي لا خروج لأحد عنه.

فالجواب أن يقال أولاً: نحن غير مأمورين بالرضى بكل ما يقضيه الله ويقدره، ولم يرد بذلك كتاب ولا سنة، بل من المقضي ما يُرضى به، ومنه ما يُسخط ويمقت كما لا يرضى به القاضي لأقضيته سبحانه، بل من القضاء ما يُسخط كما أن من الأعيان المقضية ما يغضب عليه ويمقت ويلعن ويذم.

ويقال ثانياً: هنا أمران: «قضاء الله»، وهو فعل قائم بذات الله تعالى، «ومقضي» وهو المفعول المنفصل عنه، فالقضاء كله خير وعدل وحكمة نرضى به كله، والمقضي قسمان: منه ما يرضى به، ومنه ما لا يرضى به.

ويقال ثالثاً: القضاء له وجهان: أحدهما تعلقه بالرب تعالى ونسبته إليه، فمن هذا الوجه يرضى به، والوجه الثاني تعلقه بالعبد ونسبته إليه، فمن هذا الوجه ينقسم إلى ما يرضى به وإلى ما لا يرضى به، مثال ذلك: قتل النفس، له اعتباران فمن حيث قدره الله وقضاه وكتبه وشاءه وجعله أجلاً للمقتول ونهاية لعمره يرضى به، ومن حيث صدر من القاتل وباشره وكسبه وأقدم عليه باختياره وعصى الله بفعله نسخطه ولا نرضى به.

وقوله: «والتعمق والنظر في ذلك ذريعة الخذلان إلى آخره».

التعمق: هو المبالغة في طلب الشيء، والمعنى أن المبالغة في طلب القدر والغوص في الكلام فيه ذريعة الخذلان، الذريعة الوسيلة، والذريعة والدرجة والسلم متقاربة المعنى، وكذلك الخذلان والحرمان والطغيان متقاربة المعنى أيضاً، لكن الخذلان في مقابلة النصر، والحرمان في مقابلة الظفر، والطغيان في مقابلة الاستقامة.

وقوله: «فالحذر كل الحذر من ذلك نظراً وفكراً ووسوسة».

عن أبي هريرة ﵁ قال: «جاء ناس من أصحاب النبي ﷺ إلى رسول الله ﷺ فسألوه: إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به، قال: (وقد وجدتموه؟) قالوا: نعم، قال: ذلك صريح الإيمان»[(١)]. رواه مسلم.

الإشارة بقوله: «ذلك صريح الإيمان» إلى تعاظم أن يتكلموا به، ولمسلم أيضاً عن عبد الله بن مسعود ﵁ قال: «سئل رسول الله عن الوسوسة فقال: تلك محض الإيمان»[(٢)].

---

(١) أخرجه مسلم (١٣٢). (٢) أخرجه مسلم (١٣٣).

وهو بمعنى حديث أبي هريرة، فإن وسوسة النفس أو مدافعة وسواسها بمنزلة المحادثة الكائنة بين اثنين، فمدافعة الوسوسة الشيطانية واستعظامها صريح الإيمان ومحض الإيمان.

هذه طريقة الصحابة رضي الله عنهم والتابعين لهم بإحسان، ثم خلف من بعدهم خلف، سوّدوا الأوراق بتلك الوساوس التي هي شكوك وشبه، بل وسوّدوا القلوب، جادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق، ولذلك أطنب الشيخ رحمه الله في ذم الخوض في الكلام في القدر والفحص عنه. وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: قال رسول الله ﷺ: (أبغض الرجال إلى الله الألدّ الخصم)[1]. وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا داود بن أبي هند عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: (خرج رسول الله ﷺ ذات يوم والناس يتكلمون في القدر، قال: فكأنما تفقأ في وجهه حب الرمان، من الغضب، قال: فقال لهم: ما لكم تضربون كتاب الله بعضه ببعض؟ بهذا هلك من كان قبلكم، قال: فما غبطت نفسي بمجلس فيه رسول الله لم أشهده بما غبطت نفسي بذلك المجلس أني لم أشهده)،[2] ورواه ابن ماجه أيضاً.

وقال تعالى: ﴿فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا﴾ [التوبة: ٦٩]، الخلاق: النصيب. قال تعالى: ﴿وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ [البقرة: ٢٠٠] أي: استمتعتم بنصيبكم كما استمتع الذين من قبلكم بنصيبهم وخضتم كالذي خاضوا؛ أي كالخوض الذي خاضوه، أو كالفوج أو الصنف أو الجيل الذي خاضوا.

وجمع سبحانه بين الاستمتاع بالخلاق وبين الخوض؛ لأن فساد الدين إما في العمل وإما في الاعتقاد، فالأول من جهة الشهوات، والثاني من جهة الشبهات، وروى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (لتأخذن أمتي مأخذ القرون قبلها شبراً بشبر وذراعاً بذراع)، قالوا: فارس والروم؟ قال: (فمن الناس إلا أولئك)[3].

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه أحمد (٢/١٧٨)، وابن ماجه (٨٥).

(٣) أخرجه البخاري (٧٣١٩).

وعن عبد الله بن عمر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (ليأتين على أمتي ما أتى على بني إسرائيل حذو النعل بالنعل حتى إن كان منهم من أتى أمه علانية كان من أمتي من يصنع ذلك، وإن بني إسرائيل تفرّقوا على اثنتين وسبعين ملة وتفترق أمتي على ثلاثة وسبعين ملة، كلهم في النار إلّا ملّة واحدة)، قالوا: من هي يا رسول الله؟ قال: (ما أنا عليه وأصحابي)[١]، رواه الترمذي.

وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: (تفرّقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة أو اثنتين وسبعين فرقة، والنصارى مثل ذلك، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة)[٢]، رواه أبو داود وابن ماجه والترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

وعن معاوية بن أبي سفيان ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (إن أهل الكتابين افترقوا في دينهم على اثنتين وسبعين ملة، وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاثة وسبعين ملة، يعني الأهواء، كلها في النار إلّا واحدة وهي الجماعة)[٣].

وأكبر المسائل التي وقع فيها الخلاف بين الأمة مسألة القدر، وقد اتسع الكلام فيها غاية الاتساع.

وقوله: «فمن سأل: لِمَ فعل؟ فقد ردّ حكم الكتاب، ومن ردّ حكم الكتاب كان من الكافرين».

اعلم أن مبنى العبودية والإيمان بالله وكتبه ورسله على التسليم وعدم الأسئلة عن تفاصيل الحكمة في الأوامر والنواهي والشرائع، ولهذا لم يحكم الله سبحانه عن أمة نبي صدقت بنبيها وآمنت بما جاء به أنها سألته عن تفاصيل الحكمة فيما أمرها به ونهاها عنه وبلغها عن ربها، ولو فعلت ذلك لما كانت مؤمنة بنبيها بل انقادت وسلَّمت وأذعنت، وما عرفت من الحكمة عرفته، وما خفي عنها لم تتوقف في انقيادها وتسليمها على معرفته ولا جعلت ذلك من شأنها، وكان رسولها أعظم عندها من أن تسأله عن ذلك كما في الإنجيل: يا بني إسرائيل! لا تقولوا لِمَ أمر ربنا؟ ولكن قولوا: بِمَ أمر ربنا؟ ولهذا كان سلف هذه الأمة التي هي أكمل الأمم

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٦٤١).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٥٩٦)، والترمذي (٢٦٤٠)، وابن ماجه (٣٩٩١).

(٣) أخرجه أبو داود (٤٥٩٧)، وأحمد (٤/ ١٠٢).

عقولاً ومعارف وعلوماً لا تسأل نبيها: لِمَ أمر الله بكذا! ولِمَ نهى عن كذا ولِمَ قدر كذا؟ ولِمَ فعل كذا، لعلمهم أن ذلك مضاد للإيمان والاستسلام، وأن قدم الإسلام لا تثبت إلا على درجة التسليم.

فأول مراتب تعظيم الأمر والتصديق به ثم العزم الجازم على امتثاله ثم المسارعة إليه والمبادرة به، والحذر عن القواطع والموانع، ثم بذل الجهد والنصح في الإتيان به على أكمل الوجوه، ثم فعله لكونه مأموراً بحيث لا يتوقف الإتيان به على معرفة حكمته، فإن ظهرت له فَعَله وإلّا عطله، فإن هذا ينافي الانقياد ويقدح في الامتثال.

قال القرطبي ناقلاً عن ابن عبد البر: فمن سأل مستفهماً راغباً في العلم ونفي الجهل عن نفسه باحثاً عن معنى يجب الوقوف في الديانة عليه، فلا بأس به، فشفاء العي السؤال، ومن سأل متعنتاً غير متفقّه ولا متعلّم فهو الذي لا يحلّ قليل سؤاله ولا كثيره.

قال ابن العربي: الذي ينبغي للعالم أن يشتغل به هو بسط الأدلة وإيضاح سبل النظر وتحصيل مقدمات الاجتهاد وإعداد الآلة المعينة على الاستمداد، قال: فإذا عرضت نازلة أتيت من بابها ونشدت من مظانها، والله يفتح وجه الصواب فيها. انتهى.

وقال ﷺ: (من حُسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه)[1]، رواه الترمذي وغيره.

ولا شك في تكفير من ردّ حكم الكتاب ولكن من تأوّل حكم الكتاب لشبهة عرضت له بيّن له الصواب ليرجع إليه، فالله ﷻ لا يسأل عما يفعل لكمال حكمته ورحمته وعدله لا لمجرد قهره وقدرته كما يقول جهم وأتباعه، وسيأتي لذلك زيادة بيان عند قول الشيخ: ولا نكفر أحداً من أهل القبلة بذنب ما لم يستحله.

قوله: «فهذا جملة ما يحتاج إليه من هو منوّر قلبه من أولياء الله تعالى وهي درجة الراسخين في العلم، لأن العلم علمان: علم في الخلق موجود، وعلم في الخلق مفقود، فإنكار العلم الموجود كفر، وادعاء العلم المفقود كفر، ولا يثبت الإيمان إلا بقبول العلم الموجود وترك طلب العلم المفقود».

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣١٧)، وابن ماجه (٣٩٧٦).

الإشارة بقوله فهذا إلى ما تقدم ذكره مما يجب اعتقاده والعمل به مما جاءت به الشريعة. وقوله: وهي درجة الراسخين في العلم؛ أي علم ما جاء به الرسول جملةً وتفصيلاً نفياً وإثباتاً، ويعني بالعلم المفقود علم القدر الذي طواه الله عن أنامه ونهاهم عن مرامه، ويعني بالعلم الموجود علم الشريعة أصولها وفروعها، فمن أنكر شيئاً مما جاء به الرسول كان من الكافرين، ومن ادعى علم الغيب كان من الكافرين. قال تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن: ٢٦ ـ ٢٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾﴾ [لقمان: ٣٤].

ولا يلزم من خفاء حكمة الله علينا عدمها ولا من جهلنا انتفاء حكمته، ألا ترى أن خفاء حكمة الله علينا في خلق الحيات والعقارب والفأر والحشرات التي لا يعلم منها إلا المضرة لم ينفِ أن يكون الله تعالى خالقاً لها، ولا يلزم أن لا يكون فيها حكمة خفيت علينا، لأن عدم العلم لا يكون علماً بالمعدوم.



عناصر الموضوع:

١ غرض المصنف من هذا الباب:

يتضح غرض المصنف من عقد هذا الباب فيما يلي:

أ ـ تقرير مذهب أهل السنّة في القدر، ومن أركان الإيمان به التصديق بأن الله قد علم في الأزل عدد من يدخل الجنة وعدد من يدخل النار.

ب ـ الرد على المخالفين لمذهب أهل السنّة والجماعة في القدر وهما طائفتان: القدرية والجبرية.

٢ مناسبة هذا الباب لما سبق:

تقدّم أن من الإيمان بالله بالنصوص الدالّة على أمور الغيب. ومن جملة المغيبات: الميثاق الذي هو من علم الله، فناسب أن يبين أن علم الله شامل لكل شيء، فالله علم ـ ولا زال ـ عدد من يدخل الجنة وعدد من يدخل النار.

٣ معاني الكلمات:

الكلمة	المعنى
الخذلان	عدم التوفيق.
الطغيان	مجاوزة الحد.
الأنام	الخلق.
الذريعة	الوسيلة.

٤ معنى كلام الطحاوي: «وقد علم الله تعالى فيما لم يزل عدد من يدخل الجنة وعدد من يدخل النار جملة واحدة فلا يزداد في ذلك العدد ولا ينقص»:

لقد علم الله تعالى في الأزل عدد من يدخل الجنة من بني آدم، وعدد من يدخل النار منهم، علم كل ذلك على سبيل الإجمال علماً تاماً، فلا يزداد في

عددهم ولا ينقص، وكل إنسان قد كتب في بطن أمه: شقي أو سعيد، وكذلك كتب في اللوح المحفوظ، ولا يتبدل علم الله تعالى بذلك أبداً.

٥ أدلة علم الله الأزلي:

الدليل الأول: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧٥].

الدليل الثاني: ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٠].

«فيعلم الله تعالى الأمور المتعلقة والأمور المتأخرة أزلاً وأبداً، ويعلم جليل الأمور وحقيرها وصغيرها وكبيرها، ويعلم تعالى ظواهر الأشياء وبواطنها غيبها وشهادتها، ما يعلم الخلق منها وما لا يعلمون، ويعلم الله تعالى الواجبات والمستحيلات والجائزات، ويعلم تعالى ما تحت الأرض السفلى كما يعلم ما فوق السماوات العلى، ويعلم تعالى جزئيات الأمور وخبايا الصدور وخفايا ما وقع وما يقع في أرجاء العالم وأنحاء المملكة، فهو الذي أحاط علمه بجميع الأشياء في كل الأوقات ولا يعرض لعلمه خفاء ولا نسيان»(١).

الدليل الثالث: عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: كنا في جنازة في بقيع الغرقد فأتانا رسول الله ﷺ فقعد وقعدنا حوله ومعه مخصرة، فنكس رأسه فجعل ينكت بمخصرته ثم قال: (**ما من نفس منفوسة إلّا وقد كتب الله مكانها من الجنة والنار وإلّا قد كتبت شقية أو سعيدة**)، قال: فقال رجل: يا رسول الله، أفلا نمكث على كتابنا وندع العمل؟ فقال: (**من كان من أهل السعادة فسيصير إلى عمل أهل السعادة، ومن كان من أهل الشقاوة فسيصير إلى عمل أهل الشقاوة**). ثم قال: (**اعملوا فكل ميسر لما خلق له، أما أهل السعادة فييسرون لعمل أهل السعادة، وأما أهل الشقاوة فييسرون لعمل أهل الشقاوة**)، ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠﴾ [الليل: ٥ ـ ١٠].

٦ منزلة الإيمان بالقدر:

الإيمان بالقدر جانب مهم من جوانب العقيدة الإسلامية؛ كيف لا وهو الركن السادس من أركان الإيمان، كما في حديث جبريل المشهور.

---

(١) انظر: تفسير السعدي (٥/ ١٤٥).

وقد دلّ على وجوب الإيمان بالقدر نصوص قرآنية كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القمر: ٤٩].

وقال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾﴾ [الحديد: ٢٢].

والإيمان بالقدر يدخل ضمن توحيد الأسماء والصفات؛ إذ هو مبني على الإيمان بصفات الله كالعلم والقدرة والإرادة.

وكذا يدخل ضمن الإيمان بربوبية الله على خلقه؛ إذ أن من آمن بأن الله هو الخالق المدبّر المتصرّف في شؤون خلقه كلها، فهو مؤمن بقضائه وقدره.

فالإيمان بالقدر وبربوبية الله يدخلان ضمن توحيد الأسماء والصفات، وذلك أن الرب اسم من أسمائه، والربوبية والقدرة والعلم والإرادة من صفات الله العليا.

ومما يجب معرفته أن الإيمان بأن الله قد قدّر علينا ما هو واقع بنا وأن الله سبحانه قد شاء جميع أفعالنا منّا قبل وقوعها منّا، وكذلك خلقها فينا وقت فعلنا لها، كل ذلك آمنا به واعتقدناه بناء على الأدلة الشرعية المثبتة لذلك من القرآن والسنّة، فهو إيمان بالغيب وفق خبر الله ﷻ وخبر رسوله ﷺ، كما أننا نؤمن بالجنة والنار وما أعدّ الله لأهل كل دار منهما بالغيب من غير مشاهدة منّا للجنة أو النار في هذه الحياة الدنيا، فكذلك الإيمان بالقدر إنما نؤمن به بناء على الأدلة الشرعية التي وضَّحت ذلك وبيّنته، وعليه فلا يجوز لأحد أن يعارض ذلك أو يردّه بناء على نظر عقلي قاصر، أو قياس على المخلوق، لأن الأدلة الشرعية لا يجوز معارضتها بشيء من ذلك بل الواجب التسليم لها، ثم ما عقلته عقولنا فلنحمد الله على ذلك، وما لم تعقله عقولنا فلنعلم أن القصور في عقولنا وليس في شرع الله وأمره، وحقيقة الأمر أنه لا يوجد في إثبات القدر ما يتعارض مع العقل السليم، لأن إثبات القدر لا يتعارض مع العقل السليم، لأن إثبات القدر هو إثبات لكمال الربوبية والملك والتصرف للخالق جلّ وعلا في عباده وخلقه، ولا يجوز الاعتراض على المالك إذا تصرف في ملكه، كما أن الله ﷻ في جميع تدبيراته وتصرُّفه في خلقه وكذا شرعه وأمره صادر عن حكمة بالغة[1].

---

(١) انظر: مذكرة العقيدة للدكتور سعود الخلف (ص١١٩).

٧ معنى القضاء والقدر والفرق بينهما:

القدر في اللغة: مصدر قدر يقدر قدراً وقد تسكّن الدال.

قدر: القاف والدال والراء أصل صحيح يدل على مبلغ الشيء وكنهه ونهايته، فالقدر مبلغ كل شيء، يقال: قدره كذا؛ أي مبلغه، وكذلك القدر، وقدّرت الشيء أقدره وأَقدُره من التقدير.

والقدر محركة: القضاء والحكم، وهو ما يقدره الله ﷻ من القضاء ويحكم من الأمور.

والتقدير: التروية والتفكير في تسوية أمر، والقدر كالقدْر، وجميعها جمعها أقدار[(١)].

أما القضاء في اللغة: فهو الحكم، والأمر والخلق، وإنفاذ الأمر وبلوغ منتهاه، والحتم، والبيان.

وأصله: القطع، والفصل، وقضاء الشيء، وإحكامه، وإمضاؤه، والفراغ منه، فيكون بمعنى الخلق[(٢)].

أما القضاء في القرآن فيطلق ويُراد به:

١ ـ إيجاد المقدر كقوله تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ١٢]، وقوله: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ﴾ [سبأ: ١٤].

٢ ـ ويطلق ويراد به الإخبار بما سيقع مما قدر كقوله: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الإسراء: ٤] أخبرهم في كتابهم أنهم يفسدون في الأرض مرتين.

٣ ـ ويطلق ويراد به الحكم كقوله: ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ [الزمر: ٧٥].

٤ ـ ويطلق ويراد به القدر[(٣)].

ومعنى القضاء والقدر شرعاً: تقدير الله للكائنات حسبما سبق به علمه، واقتضته حكمته[(٤)].

---

(١) انظر: النهاية في غريب الحديث (٤/ ٢٢)، ومقاييس اللغة (٥/ ٦٢)، ولسان العرب (٥/ ٧٢)، والقاموس المحيط (ص٥٩١).

(٢) انظر: لسان العرب (١٥/ ١٨٦)، والقاموس (ص١٧٠٨)، ومقاييس اللغة (٥/ ٩٩)، والمعجم الوسيط (٢/ ٧١٨).

(٣) الدرر السنية (٣/ ٢١٣ ـ ٢١٤).

(٤) رسائل في العقيدة لابن عثيمين (ص٣٧).

هو تقدير الله تعالى الأشياء في القدم، وعلمه سبحانه أنها ستقع في أوقات معلومة عنده، وعلى صفات مخصوصة، وكتابته سبحانه لذلك ومشيئته له، ووقوعها على حسب ما قدرها وخلقه لها.

أما الفرق بين القضاء والقدر[1]، فقد انقسم العلماء في ذلك إلى فريقين:

الفريق الأول: قالوا بأنه لا فرق بين القضاء والقدر، فكل واحد منهما في معنى الآخر.

الفريق الثاني: قالوا بالفرق بينهما، ولكن هؤلاء اختلفوا في التمييز بينهما على أقوال:

١ ـ أنه هناك بالنسبة لتدبير الله وخلقه ثلاثة أمور:

أ ـ الحكم: وهو التدبير الأول الكلي، والأمر الأزلي.

ب ـ القضاء: وهو الوضع الكلي للأسباب الكلية الدائمة.

جـ ـ القدر: وهو توجيه الأسباب الكلية بحركاتها المقدرة المحسوبة إلى مسبباتها المعدودة المحدودة، بقدر معلوم لا يزيد ولا ينقص. وهو رأي أبي حامد الغزالي.

٢ ـ أن القضاء هو الحكم بالكليات على سبيل الإجمال في الأزل، والقدر هو الحكم بوقوع الجزئيات التي لتلك الكليات على سبيل التفصيل.

٣ ـ أن القدر هو التقدير، والقضاء هو التفصيل والتقطيع. فالقضاء هو أخص من القدر.

٤ ـ أن القدر بمنزلة المعد للكيل، والقضاء بمنزلة الكيل.

٥ ـ أن القضاء هو الخلق الراجع إلى التكوين، والقدر هو ما يتعلق بعلم الله الأزلي. وهو قول الماتريدية.

٦ ـ أن القضاء هو إرادة الله الأزلية المتعلقة بالأشياء على وفق ما توجد عليه في وجودها الحادث.

والقدر إيجاد الله الأشياء على مقاديرها المحددة في كل ما يتعلق بها. وهو قول الأشاعرة وجمهور أهل السنّة.

---

(١) انظر في هذا المبحث رسالة القضاء والقدر في ضوء الكتاب والسنة ومذاهب الناس فيه للدكتور عبد الرحمن بن صالح المحمود (ص٣٠ ـ ٣٣).

والقول الراجح أنه لا فرق بين القضاء والقدر، والذين فرّقوا بينهما ليس لهم دليل فاصل من الكتاب والسنّة.

٨ الرضا بالقدر:

الرضا بالقضاء الذي وصف الله وفعله: واجب مطلقاً، لأنه تمام الرضا بالله رباً، وأما القضاء الذي هو المقضي فالرضا به مختلف؛ فإن كان المقضي به ديناً وجب الرضا به مطلقاً.

وإن كان كونياً فإما أن يكون نعماً أو نقماً أو طاعات أو معاصي؛ فالنِّعم يجب الرضا بها لأنه من تمام شكرها، وشكرها واجب. وأما النقم كالفقر والمرض ونحوهما، فالرضا بها مستحب عند الجمهور وقيل بوجوبه. وأما الطاعات فالرضا بها طاعة واجبة إن كانت الطاعة واجبة، ومستحبة إن كانت مستحبة. وأما المعاصي فالرضا بها معصية، والمكروهات الرضا بها مكروه، والمباحات مباح[١]. والله أعلم.

٩ معنى كلام الطحاوي: «وكذلك أفعالهم فيما علم منهم أن يفعلوه، وكل ميسّر لما خلق له، والأعمال بالخواتيم، والسعيد من سعد بقضاء الله، والشقي من شقي بقضاء الله»:

قد علم الله ﷻ أفعال خلقه قبل أن يفعلوها، علمها في الأزل وكتب ذلك وقضاه، وكل إنسان ميسّر لما خلق له، والأعمال بالخواتيم، فقد يختم للرجل بعمل صالح بعد إساءة فيدخل الجنة، وقد يختم للرجل بعمل خبيث بعد أعمال صالحة فيدخل النار، ولا سعيد إلا من قضى الله له بالسعادة وقدرها وكتبها له، ولا شقي إلا من قضى الله له بالشقاوة وقدرها وكتبها له.

١٠ أدلة أن الأعمال بالخواتيم وأن الإنسان ميسّر لما خلق له:

ـ تقدم حديث علي رضي الله عنه وقوله: **(اعملوا فكل ميسّر لما خلق له)**.

ـ وعن زهير عن أبي الزبير عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: «جاء سراقة بن مالك بن جعشم فقال: يا رسول الله، بيّن لنا ديننا كأنّا خلقنا الآن، فيم العمل اليوم؟ أفيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير أم فيما يستقبل؟ قال: **(لا، بل فيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير)**، قال: ففيم العمل؟ قال زهير: ثم تكلم

---

(١) المنتقى لابن عثيمين (ص١١٠).

أبو الزبير بشيء لم أفهمه، فسألت: ما قال؟ فقال: **(اعملوا فكل ميسّر)** رواه مسلم.

- وعن سهل بن سعد الساعدي ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: **(إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار، وإن الرجل ليعمل عمل أهل النار فيما يبدو للناس وهو من أهل الجنة)**، خرّجاه في «الصحيحين»، وزاد البخاري: **(وإنما الأعمال بالخواتيم)**.

- وفي «الصحيحين» أيضاً عن عبد الله بن مسعود ﵁ قال: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق: **(إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات بكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد، فوالذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلّا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها)**.

(١١) معنى كلام الطحاوي: (وأصل القدر سرّ الله تعالى في خلقه، لم يطلع على ذلك ملك مقرّب ولا نبي مرسل، والتعمق والنظر في ذلك ذريعة الخذلان، وسلم الحرمان، ودرجة الطغيان، فالحذر كل الحذر من ذلك نظراً وفكراً ووسوسة، فإن الله تعالى طوى علم القدر عن أنامه، ونهاهم عن مرامه، كما قال تعالى في كتابه: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ۝٢٣﴾ [الأنبياء: ٢٣]، فمن سأل: لِمَ فعل؟ فقد ردّ حكم الكتاب، ومن ردّ حكم الكتاب كان من الكافرين»:

أصل القدر سرّ الله تعالى، لم يطلع عليه أحد من الخلق، ولا يصح التعمّق فيه، ومحاولة الوصول إليه، كما قال النبي ﷺ: **(وإذا ذكر القدر فأمسكوا)**[1].

فمهما فكر الناس فلن يصلوا إلى حقيقته، غير أننا نؤمن بأن الله تعالى علم كل شيء وكتبه وأراده وخلقه وأوجده، هذه مراتب القدر الأربع لا بدّ من استيفائها وإلّا لم يكن الإنسان مؤمناً بالقدر، والواجب على المسلم الحذر من إعمال الفكر

(١) الطبراني في الكبير (١٠/ ٢٢٣ ـ ٢٢٤)، وأبو نعيم في الحلية (٤/ ١٠٨) وغيرهما. وقال الألباني في السلسلة الصحيحة (١/ ٤٢ ـ ٤٦)، حسن لغيره.

تعمّقاً في أمر القدر، أو الاستسلام للوساوس، وليعلم أن الله تعالى قد حجب علم القدر عن الخلق ونهاهم عن محاولة الوصول إلى حقيقته.

كما لا يجوز للعبد أن يسأل لماذا فعل الله كذا، فإن هذا رد على حكم القرآن وهو كفر مبين.

أما أن يحاول الإنسان معرفة الحكم الإلهية من تشريع كذا وكذا فلا بأس بذلك. والله أعلم.

١٢ إثبات الحكمة لله ﷻ:

مما يجب اعتقاده أن الله ﷻ حكيم في فعله وأمره، فلا يفعل ولا يخلق إلّا لحكمة، كما أنه لا يأمر ويشرع إلا لحكمة بالغة، وهذا مقتضى وصفه بالحكمة جلّ وعلا في آيات كثيرة مثل قوله ﷻ: ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١١]، فبناء عليه يجب اعتقاد أن جميع ما يقدره الله ﷻ له فيه حكمة بالغة قد تعلم وقد لا تعلم، كما أن جميع أوامره ونواهيه هي وفق حكمة بالغة قد تعلم وقد لا تعلم[١].

ولا يلزم من خفاء حكمة الله علينا عدمها ولا من جهلنا انتفاء حكمته، ألا ترى أن خفاء حكمة الله علينا في خلق الحيات والعقارب والفأر والحشرات التي لا يعلم منها إلّا المضرة، لم ينفِ أن يكون الله خالقاً لها ولا يلزم أن لا يكون فيها حكمة خفيت علينا، لأن عدم العلم لا يكون علماً بالمعدوم.

١٣ كراهية الخوض في مسائل القدر عند السلف:

لقد وردت النصوص الشرعية بالإمساك عن القدر والنهي عن الخوض فيه، ونبّه العلماء عند ذكر هذا الأصل على ذلك، فمما ورد في ذلك قول النبي ﷺ: **(إذا ذكر أصحابي فأمسكوا، وإذا ذكر القدر فأمسكوا)**[٢].

وقوله ﷺ للصحابة لما تنازعوا في القدر: **(عزمت عليكم ألّا تنازعوا فيه)**[٣].

وأخرج الإمام أحمد عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، قال: خرج النبي ﷺ ذات يوم والناس يتكلمون في القدر، فكأنما تفقأ في وجهه حب الرمان من الغضب،

---

(١) انظر: مذكرة العقيدة للدكتور سعود الخلف (ص١١٩).

(٢) الطبراني في الكبير (١٠/٢٢٣ ـ ٢٢٤)، وأبو نعيم في الحلية (٤/١٠٨) وغيرهما. وقال الألباني في السلسلة الصحيحة (١/٤٢ ـ ٤٦): حسن لغيره.

(٣) الترمذي (٢١٣٣).

فقال لهم: **(ما لكم تضربون كتاب الله بعضه ببعض، بهذا هلك من كان قبلكم)**(١).

ومما يجب أن يعلم أن الإمساك عن القدر، وترك الخوض فيه ليس بترك البحث فيه بإحقاق الحق وإبطال الباطل، فهذا من أهم مهام الدين، ومن العلم النافع، بل المراد من الإمساك الذي أمرنا به والخوض الذي نهينا عنه التعمق في القدر، ومحاولة معرفته عن طريق العقل.

فالعقل قاصر محدود لا يمكن أن يكتشف الغيب، ويطلع على المجهول الذي استأثره الله بعلمه، وليس أمامه إلا التسليم والإيمان بما يطلعه الله عليه من أمور الغيب، عن طريق الرسل، ويمسك عن الخوض فيما استأثر الله بعلمه.

وكذا عن الخوض بالباطل.

الاعتراض على الله لِمَ قدر كذا؟ ولِمَ فعل كذا؟ ولِمَ أمر بكذا؟ ولم ينهى عن كذا؟ وهذا مناف للعبودية القائمة على التسليم والاستسلام لله وحده.

قال الآجري: «باب ترك البحث والتنفير عن النظر في أمر القدر بكيف؟ ولِمَ؟ بل الإيمان به والتسليم، ثم قال بعد ذلك: فهذا طريق أهل العلم: الإيمان بالقدر خيره وشره، واقع من الله ﷻ بمقدور، يضل من يشاء ويهدي من يشاء ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء: ٢٣]»(٢).

وقال ابن بطة: «باب ما أمر الناس به من ترك البحث والتنفير عن القدر والخوض والجدال فيه»، ثم قال بعد ذلك: «فجميع ما قد رويناه في هذا الباب يلزم العقلاء الإيمان بالقدر، والرضا والتسليم لقضاء الله وقدره، وترك البحث والتنقير وإسقاط لِمَ، وكيف، وليست، ولولا، فإن هذه كلها اعتراضات من العبد على ربه، ومن الجاهل على العالم، معارضة من المخلوق الضعيف الذليل على الخالق القوي العزيز، والرضا والتسليم طريق الهدى، وسبيل أهل التقوى، ومذهب من شرح الله صدره للإسلام، فهو على نور من ربه فهو يؤمن بالقدر كله خيره وشره، وأنه واقع بمقدور الله»(٣).

وقال ابن عبد البر: «والقدر سرّ الله، لا يدرك بجدال ولا يشفي منه مقال،

---

(١) أحمد (٢/ ١٧٨)، وابن ماجه (٨٥). (٢) كتاب الشريعة (ص٢٣٥).
(٣) الإبانة (٢/ ٤١١).

والحجاج فيه مرتجة لا يفتح شيء منها إلا بكسره وغلقه، وقد تظاهرت الآثار، وتواترت الأخبار فيه عن السلف الأخيار الطيبين الأبرار بالاستسلام والانقياد والإقرار بأنه علم سابق ولا يكون في ملكه إلا ما يريد ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦]. . .»[١].

وعلى هذا المنهج سار الصحابة والتابعون وتابعوهم في النهي عن الخوض في القدر، فقد سئل علي رضي الله عنه عن القدر فقال: «طريق مظلم فلا تسلكه، ثم قال السائل: أخبرني عن القدر فقال: بحر عميق فلا تلجه، قال السائل: أخبرني عن القدر، قال: سر الله فلا تكلفه»[٢].

وكذا سئل ابن عمر عن القدر، فقال: «شيء أراد ﷻ ألا يطلعكم عليه؛ فلا تريدوا من الله ﷻ ما أبى عليكم»[٣].

وقال وهب بن منبه: «نظرت في القدر فتحيّرت، ثم نظرت فيه فتحيرت، ووجدت أعلم الناس بالقدر أكفهم عنه، وأجهل الناس بالقدر أنطقهم فيه»[٤].

وجاء رجل إلى الإمام أبي حنيفة يجادله في القدر فقال له: «أما علمت أن الناظر في القدر كالناظر في عين الشمس كلما ازداد نظراً يزداد تحيُّراً»[٥].

(١٤) مراتب القدر عند أهل السنّة:

الإيمان بالقدر يقوم على أصول ومراتب يقينية، تقوم عليها معاني القضاء والقدر، فلا يتم الإيمان بالقدر إلا بمعرفتها والإيمان بها. وفيما يلي ذكر هذه المراتب مع الاستدلال لها:

المرتبة الأولى: الإيمان بعلم الله المحيط بكل شيء والسابق لكل شيء.

المرتبة الثانية: الإيمان بكتابه الذي اشتمل على كل ما سيكون.

المرتبة الثالثة: الإيمان بأن الله خالق كل شيء.

المرتبة الرابعة: الإيمان بمشيئة الله وقدرته العامة على كل شيء، فهو المتفرد بالخلق والإيجاد[٦].

---

(١) التمهيد (٦/ ١٣ ـ ١٤).

(٢) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٢/ ٦٢٩)، وكتاب الشريعة (ص٢٤٠).

(٣) الشريعة (ص٢٣٥)، والإبانة لابن بطة (٢/ ٤٠٨).

(٤) شرح الفقه الأكبر للقاري (ص٦٩). (٥) قلائد عقود العقيان [ق٧٧ب].

(٦) انظر: شفاء العليل (ص٥٥).

قال شيخ الإسلام: «وتؤمن الفرقة الناجية ـ أهل السنّة والجماعة ـ بالقدر خيره وشره، والإيمان بالقدر على درجتين تتضمنان شيئين:

الدرجة الأولى: الإيمان بأن الله تعالى علم ما الخلق عاملون بعلمه القديم الذي هو موصوف به أزلاً، وعلم جميع أحوالهم من الطاعات والمعاصي والأرزاق والآجال، ثم كتب الله في اللوح المحفوظ مقادير الخلق... وأما **الدرجة الثانية**: فهي مشيئة الله النافذة وقدرته الشاملة، وهي الإيمان بأن ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه ما في السماوات والأرض من حركة ولا سكون إلا بمشيئة الله ﷻ، لا يكون في ملكه إلا ما يريد وأنه ﷻ على كل شيء قدير من الموجودات والمعدومات. فما من مخلوق في الأرض ولا في السماء إلا الله خالقه سبحانه، لا خالق غيره ولا رب سواه»[1].

دلّ على المرتبة الأولى والثانية قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾ [الحج: ٧٠]. وقوله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩]. وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق: ١٢]. وقوله تعالى: ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ١٢].

ومن السنّة قول النبي ﷺ: **(ما منكم أحد إلا وقد كتب الله مقعده من الجنة ومقعده من النار)**، فقالوا: يا رسول الله أفلا نتكل؟ فقال: (اعملوا فكل ميسر)، ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾﴾ إلى قوله: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾﴾ [الليل: ٥ ـ ١٠][2].

وقوله ﷺ: **(كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السمٰوات والأرض بخمسين ألف سنة)**[3].

ودلّ على المرتبة الثالثة والرابعة: قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ [آل عمران: ٤٧]. وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [هود: ١١٨]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: ٨٢]. وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [التكوير: ٢٩]. وقوله

---

(١) مجموع الفتاوى (٣/١٤٨ ـ ١٤٩). (٢) أخرجه البخاري (٤٩٤٥).
(٣) مسلم (٢٦٥٣).

تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٖ﴾ [الزمر: ٦٢]. وقوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٖ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا﴾ [الفرقان: ٢].

ومن السنّة قول النبي ﷺ: **(إن قلوب بني آدم كلها بين أصبعين من أصابع الرحمٰن كقلب واحد يصرفه حيث يشاء)**[1].

فلا يكون العبد مؤمناً بالقدر حتى يؤمن بهذا كله.

١٥ أنواع التقدير:

التقدير: هو ما قدّره الله على عباده وكتبه عليهم بعلمه القديم الأزلي، وكتابته للتقدير متعددة في أزمنة مختلفة فهناك خمسة تقديرات بحسب الزمن:

١ ـ في اللوح المحفوظ.

٢ ـ حيث أخرجهم من ظهر آدم عليه السلام.

٣ ـ تقدير عمري عند تعلق النفس به.

٤ ـ تقدير حولي.

٥ ـ تقدير يومي[2].

١٦ أنواع قضاء الله تعالى:

له نوعان:

١ ـ الديني الشرعي.

٢ ـ الكوني القدري.

يقول شيخ الإسلام: «قال في القضاء الديني الشرعي: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣] أي: أمر ربك بذلك، وقال في القضاء الكوني: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ﴾ [فصلت: ١٢]»[3].

والقضاء الكوني إما مصائب أو معايب.

يقول ابن القيم: «والقضاء نوعان: إما مصائب وإما معايب، وله عليه عبودية في هذه كلها، فعبوديته في قضاء المصائب الصبر عليها ثم الرضا بها وهو أعلى منه ثم الشكر عليها وهو أعلى من الرضا، وعبوديته في قضاء المعايب المبادرة

---

(١) مسلم (٢٦٥٤).

(٢) انظر: شفاء العليل لابن القيم (١/ ٥٥ ـ ١١٥).

(٣) الفتاوى (٢/ ٤١٢، ٤/ ٢٣٦).

إلى التوبة عالماً بأنه لا يرفعها عنه إلا هو، وأنه لا سبيل له إلى الإقلاع والتوبة إلا بتوفيقه وإعانته وأن ذلك بيده سبحانه لا بيد العبد فهو أعجز وأضعف»(١).

١٧ أنواع الكتابة:

كونية وشرعية.

يقول ابن القيم: «أما الكتابة فالكونية كقوله: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾ [المجادلة: ٢١]، والشرعية الأمرية كقوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ [البقرة: ١٨٣] فالأولى كتابة بمعنى القدر، والثانية كتابة بمعنى الأمر»(٢).

١٨ الإرادة في القرآن على نوعين:

إن الإرادة المضافة لله ﷻ في القرآن الكريم على نوعين:

١ ـ **إرادة كونية قدرية**: وهي تعني إرادة إيجاد الشيء وخلقه، وهذا النوع من الإرادة لا بدّ من وقوعه، فإنه لا يتخلف، إلا أنه لا يتعلق بالمحبة والرضا، فقد يكون مما يحبه الله ﷻ مثل طاعة المؤمنين وعباداتهم التي أراد الله وقوعها منهم، وقد تكون الإرادة مما لا يحب الله ﷻ مثل كفر الكافرين ومعصية العصاة الواقعة منهم، فإنها لم تقع منهم إلا بعد إرادة الله وقوعها، لكن الله ﷻ لا يحبها بل يبغضها ويكرهها وإن كانت واقعة بإرادته الكونية القدرية.

ومن الأدلة على الإرادة الكونية القدرية قول الله ﷻ: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾ [هود: ٣٤]، وقال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥]، فهذه الآيات وردت فيها الإرادة المضافة إلى الله ﷻ، ومنها ما يحبه الله مثل الهداية بشرح الصدور، ومنها ما لا يحبه الله مثل الضلال والقتل والغواية، لكن الجميع واقع بإرادته جلّ وعلا التي هي بمعنى المشيئة.

٢ ـ **إرادة دينية شرعية**: وهي النوع الثاني من أنواع الإرادة الواردة في القرآن الكريم وهي مستلزمة للمحبة والرضا ولا يلزم أن تقع، وذلك مثل محبة الله ﷻ طاعة العباد وإيمانهم وهدايتهم، ومن الأدلة على ذلك قوله ﷻ: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقوله ﷻ: ﴿وَلَٰكِن يُرِيدُ

---

(١) انظر: الفوائد لابن القيم (ص١١٢). (٢) انظر: شفاء العليل (ص٢٨١).

لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: ٦]، وقوله ﷻ: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٢٧]، فالإرادة في هذه الآيات تسمى الإرادة الدينية الشرعية المستلزمة للمحبة والرضا، ولكنها قد تقع إذا تعلق بها النوع الآخر من الإرادة وهي الإرادة الكونية القدرية، وقد لا تقع إذا لم يتعلق بإيجادها إرادته الكونية القدرية[1].

(١٩) مذاهب الناس في باب القدر:

للناس في القدر ثلاثة أقوال:

القول الأول:

وهو قول أهل السُّنة والجماعة، إن الله له إرادة ومشيئة والعبد له إرادة ومشيئة. وإرادة العبد متوقفة على إرادة الله ومشيئته، فالله ﷻ أراد الخير والشر بمشيئته الكونية ولم يرض من العبد الكفر والمعاصي شرعاً وديناً. قال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القمر: ٤٩]، وقوله: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ [الزمر: ٧]، وقال ﷺ: **(إن الله كره القيل والقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال)**[2].

القول الثاني:

القدرية والمعتزلة وهم الذين قالوا: إن الله لم يخلق أفعال العباد بل هم خالقو أفعال أنفسهم، وأنه لا يعلم بها إلا بعد وقوعها، فالله شاء الإيمان من الكافرين ولكن الكافر شاء الكفر وحجتهم قالوا: إن الله لم يقدر المعاصي ولم يرضاها قضاء أو قدراً، لأنّا لو قلنا: أنه شاءها وعذب عليها كان في ذلك نسبة الظلم إلى الله والله منزه عن ذلك.

ويرد عليهم بما يأتي:

أ ـ إن هذا القول مخالف للأدلة المثبتة لمشيئة الله سبحانه ومنها قوله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾﴾ [السجدة: ١٣].

وقوله: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾﴾ [الإنسان: ٣٠]، وقوله: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ

---

(١) انظر: مذكرة العقيدة للخلف (ص١٢٠ ـ ١٢١)، ومجموع الفتاوى (٨/ ١٨٨).

(٢) البخاري (٢٤٠٨)، ومسلم (١٧١٥).

صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [الأنعام: ١٢٥].

ب ـ أنكم فررتم من شيء ووقعتم في أقبح منه، فإنه يلزم من قولكم أن مشيئة الكافر غلبت مشيئة الله، وهذا من أقبح الاعتقاد.

ج ـ أن الله قدر الخير والشر وحذر من الشر وجعل للبشر عقولاً يميزون بها الخير من الشر. قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾﴾ [الشمس: ٧ ـ ٨]، وأرسل الرسل وقامت عليهم الحجة فلا يكون بعد ذلك ظالماً لهم.

القول الثالث:

الجبرية: وهم الذين غلوا في إثبات القدر والإرادة لله، وقالوا: كل ما يفعله الإنسان مجبور عليه، وليس في نفسه صرفه، بل كالريشة في الهواء، وإنما تنسب إليه الأفعال مجازاً كقولهم: سار النهر. وقالوا: إن كل ما يفعل العبد فهو طاعة محضة سواء ما هو كائن في اللوح المحفوظ، فعلى ذلك فهو مجبور عليه، ولا يمكن أن يخرج عنه، وهذا مذهب ظاهر الفساد لأمور:

أ ـ أن هناك فرقاً بين البطش وحركة الارتعاش، فإن الارتعاش بدون اختيار وحركة البطش باختيار.

ب ـ أن العبد لو لم يكن له فعل لما صح أن تنسب الأفعال إليه، ولما صح إن نسبت إليه مجازاً أنه يُجازى بالثواب عند الطاعة والعقاب عند المعصية.

وقد وردت نصوص كثيرة تدل على نسبة أفعال العبد إليه. قال تعالى: ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأحقاف: ١٤]. وقوله: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقوله: أنه يلزم على قولكم تعطيل الشرائع والكتب والرسل؛ لأن العبد لا صرفة له حتى يهتدي بما جاء به ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩].

٣٠ نشأة الكلام في القدر:

حدث القول بالقدر بعد انقراض عصر الخلفاء الراشدين بعد إمارة معاوية بن أبي سفيان في الفتنة التي كانت بين عبد الله بن الزبير وبين بني أمية، وأول من أظهر هذه المقالة معبد الجهني في البصرة وأدركها من الصحابة: عبد الله بن عمر وابن عباس وجابر بن عبد الله وواثلة بن الأسقع وغيرهم من الصحابة.

وقولهم في القدرية: أنهم أنكروا على القدرية وردّوا مقالتهم حتى قال

عبد الله بن عمر: لمن سأله عن القدرية إذا لقيت أولئك فأخبرهم أني منهم بريء وأنهم مني براء، وقد حكم أئمة الإسلام كمالك والشافعي وأحمد أن من أنكر علم الله المتقدم بالحوادث قبل وجودها فهو كافر، حتى قال الشافعي رضي الله عنه: ناظروا القدرية بالعلم فإن جحدوا كفروا وإن أقرّوا به خصموا.

ثم انتشر القول بنفي القدر على يد المعتزلة القدرية.

(٢١) المنكرون لمراتب القدر:

إن المنكرين للمرتبة الأولى ـ مرتبة العلم ـ هم القدرية الأولى معبد الجهني وأصحابه، وقد وُجدوا في أواخر عصر الصحابة، وهم القائلون إن هذا الأمر أُنُف، وأن الله لا يعلم بالأشياء إلا بعد وجودها، وقد أجمع العلماء على تكفير هذه الفئة من القدرية، وقد انقرضوا.

قال الشافعي: «ناظروا القدرية بالعلم، فإن أقروا به خصموا، وإن أنكروه كفروا».

وأنكرت المعتزلة مرتبة الخلق، ويسمون بالقدرية، أو نفاة القدر، وانتشر القول بنفي القدر على أيديهم، أما القدرية الأولى فقد اندثرت.

(٢٢) الرد على من يقول بأن السعادة والشقاوة مقدرتان فإذاً لا حاجة للعمل:

نقول له: لا ينبغي أن نحتج بالقدر لأنه ليس لديك علم متيقن أنك من أصحاب الجنة أو النار، ولو كان عندك علم لما أمرناك ولا نهيناك، ولكن اعمل وعسى الله أن يوفقك أن تكون من أصحاب الجنة، فإن أصحاب الرسول ﷺ قالوا: يا رسول الله، أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل؟ فعاب عليهم وقال: **(اعملوا فكل ميسّر لما خلق له).**

(٢٣) السبب في ضلال كل من الجبرية والقدرية:

منشأ ضلالهما هو التسوية بين المشيئة والإرادة وبين المحبة والرضا والإرادة، فقد سوَّى بينهما الجبرية والقدرية ثم اختلفوا فقالت القدرية: أن الله لم يرد المعاصي ولم يرضها وليست مقدرة ولا مقتضية، وهي خارجة عن مشيئة الله وخلقه.

وقالت الجبرية: الكون كله بإرادة الله وقدره أحبه ورضيه، وكلا المذهبين خطأ، لأن هناك فرقاً بين المشيئة والمحبة، وقد دلّ على ذلك الكتاب والسنّة، فقال في المشيئة قوله تعالى: ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ

﴿مُسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٣٩]، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟﴾ [البقرة: ٢٥٣]، وقال في المحبة والرضاء: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥]، وقوله: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ [الزمر: ٧]، وقال الرسول ﷺ: (**إن الله كره القيل والقال...**) الحديث، وقال عليه الصلاة والسلام: (**إن الله يحب أن تؤتى رخصه كما كره أن تؤتى معاصيه**)[1].

(٢٤) السبب الذي دعا القدرية إلى القول بأن العبد يخلق فعل نفسه:

الحامل للقدرية هو تنزيه الله عن الظلم في زعمهم فإنهم قالوا: لو كان الله خالقاً لفعل العبد لما صح أن يعذب الكافر والعاصي؛ لأن الله قد قدره عليهما فيكون تعذيبه على شيء قدره لهما وهو ظلم، والله منزّه عن الظلم فيبطل تقديره عليهما. وأصل ضلالهم في القدر أنهم شبهوا الخالق بالمخلوق فهم مشبّهة في الأفعال[2].

(٢٥) الجمع بين الإقرار بأن الله قدر على العباد كل شيء وبين تكليفه لهم:

الجمع بين ذلك أن يقال: إن الله قدر على عباده ما قدر من خير أو شر من باب ربط الأسباب بالمسببات، فإذا قدر على عبد أن يموت على الإسلام فلا بدّ من أن يهيئ له أسباباً تجعله يبقى على ذلك حتى يموت، وإذا أراد من عبده أن يموت على الكفر فلا بدّ أن يهيئ له من الأسباب ما تجعله يبقى على ذلك حتى يموت.

ثم إن تكليفه وإنزال الكتب والشرائع لنزول الحجة لئلا يكون للناس حجة بعد الرسل.

(٢٦) الجمع بين الإرادة الكونية القدرية وبين الكراهية والبغض للشيء:

الجمع: هو أن يقال: إن الشيء الذي قدره الله له جهتان:

الأولى: أن يكون مراداً لغيره كالمعاصي والفسوق وجميع قوى الشر التي قدّرها الله وأرادها، فالله لم يردها لذاتها وإنما أرادها لأنها توصله إلى غايات وحكم لا يعلمها إلا الله، فهذا سر إيجاد قوى الشر وتقديرها أولاً.

الثانية: إنه يريد لنفسه فهذا يكون مطلوباً محبوباً لذاته مراداً فيه الخير فهو مراد الغاية.

---

(١) رواه أحمد (٢/١٠٨)، وابن حبان (٢٧٤٢) وغيرهما.

(٢) انظر: شرح الأصبهانية (ص١٣٨)، والمنتقى لابن عثيمين (ص٨).

(٢٧) الفرق بين الاستعاذة برضا الله من سخطه، وبمعافاته من عقوبته وبين قول النبي ﷺ: (وبك منك):

الفرق واضح وبيّن، فالأولى هي الصفة التي يتصف بها ربنا، والثانية آثار الرضا المعافاة وآثار السخط العقوبة. فالرسول استعاذ بفعل المعافاة من فعل العقوبة، ووجه شمول قول الرسول ﷺ: (**بك منك**) لهما هو أن الرسول ﷺ قال: (**إن ما استعيذ به فهو حاصل بإرادتك ومشيئتك، وما استعيذ منه فهو حاصل أيضاً بقدرتك ومشيئتك، فأنا عبدك على كل حال، فإن شئت عافيتني، وإن شئت عاقبتني فعياذي بك أن يحل بي شيء أكرهه منك**).

(٢٨) التوفيق بين تقدير الله لقوى الشر وبين قوله ﷺ: (والشر ليس إليك):

التوفيق أن يقال: أنه ليس إليك إمداده وإعداده. أما من ناحية الإيجاد فهو إليك لأن الله حينما خلق عباده منهم من أمدّه وأعدّه، ومنهم من لم يعده ولم يمده، وأسباب الخير ثلاثة:

١ ـ إيجاد.

٢ ـ إعداد.

٣ ـ إمداد.

والإيجاد خير، وإنما التفاوت بالإعداد، فقد يرى أن الخير يقتضي أن هذا الشخص يحصل له إمداد وإعداد، فإذا لم يحصل ذلك جاءه الشر وحصل له بسبب العدم الذي ليس هو إلى الفاعل وإنما إليه ضده. فإن قيل: ولماذا لم يمدّه إذا أوجده؟ قلنا: ما اقتضت الحكمة إمداده وإنما اقتضت إيجاد وترك الإمداد، فإيجاده خير والشر من إمداده، أما القول بأن الله لم يسو بينهما في أسباب الخير فنقول: أن الله خلق النفوس الشريرة، فالشر لم يأتها من حيث أنها ذات، فهي متحركة قابلة للخير والشر، ولم يسوِّ بين عباده لأن هذا يرجع لحكمة عامة وهي أن الله علم من هذا الخير والصلاح فأعدّه وأمدّه، والآخر علم فيه الشر فلم يمده ويعده، فإن الله سبحانه هدى من هدى لحكمته، وأضلّ من أضلّ لحكمته، فإن استعصى عليك هذا فدعه وراجع قول الشاعر:

إذا لم تستطع شيئاً فدعه وجاوزه إلى ما تستطيع

(٢٩) هل يجب على الإنسان أن يرضى بقوى الشر أم لا؟:

في هذا تفصيل:

١ ـ فمن حيث إنها واقعة بتقدير الله ومشيئته ورضاه فيجب التسليم والرضا بما كتب الله وقدره.

٢ ـ أما من جهة أنها صادرة من العبد وهي من فعله واختياره، فعليه أن يكره ويسخط لفعله ويحاول التخلص منها حيث إن الخير إليه والمكروه إلى عباده.

(٣٠) هل يمكن لله أن يرضى لعبده شيئاً ثم يعينه عليه؟

الله يرضى لعبده الخير ولا يعينه عليه؛ لأنه قد يكون واقع الطاعة من ذلك العبد يتضمن مفسدة هي أكره إليه ﷻ من محبته لتلك الطاعة، مثال ذلك: أن الله كره من المنافق الغزو مع الرسول ﷺ. قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَرَادُواْ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٦]، والغزو محبوب إليه سبحانه وإنما كرهه لما يترتّب عليه من المفاسد التي هي أعظم كراهة عند الله من محبته لهذه الطاعة، وقد أشارت الآية هذه إلى المفاسد بقوله: ﴿لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٧] فاقتضت حكمة الله ورحمته أن أقعدهم عن الجهاد.

(٣١) الحكم التي بيّنها الشارع في خلق إبليس وغيره من قوى الشر:

الحكم هي:

أولاً: ظهور قدرته على خلقه المتضادات والمتقابلات، فخلق ذات جبريل ذات الخير والبركة، وخلق ذات إبليس ذات الشر، وخلق الليل والنهار والموت والحياة والخير والشر، وذلك من أكبر دليل على كمال قدرته وملكه وسلطانه، فخلو الكون من بعض هذه المتضادات تعطيل لحكمته وكمال تصرفه وتدبيره.

ثانياً: ظهور بعض أسمائه وصفاته القهرية مثل: المنتقم والجبار والقهار، فإن هذه الأسماء والصفات كمال ولا بدّ من وجود متعلقها ولو كان الإنس والجن على طبيعة الملائكة لم تظهر هذه الأسماء.

ثالثاً: ظهور آثار أسمائه المتضمنة لحفظه وعهده ومغفرته وعتقه لمن شاء من عباده، ولولا خلق ما يكره من الأسباب المغضبة إلى ظهور آثار هذه الأسماء لتعطّلت هذه الحكم والفوائد، وقد أشار النبي ﷺ بقوله: (**ولو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون ويستغفرون فيغفر لهم**).

رابعاً: ظهور آثار أسمائه الدالة على حكمته وخبرته مثل حكيم خبير، فهو

حكيم لا يضع الأشياء في غير موضعها، وخبير لا ينزلها إلّا في منازلها اللائقة بها، فهو أعلم حيث يجعل رسالاته، وأعلم بمن يصلح لقبولها ممن لا يصلح لذلك، فلو قدر تعطيل هذه الأسباب المكروهة لما فيها من الشر لتعطّل الخير الذي هو أعظم من الشر الذي في تلك الأسباب، وهذا مثل المطر والسماء والرياح ونحوها التي فيها من المصالح للبشر أضعاف ما فيها من الفساد.

خامساً: تقرّب عباده إليه بأنواع الطاعات والقربة، فلو كان إبليس لم يخلق لكان الناس كلهم مطيعين ولما كان هناك عبادة اسمها الجهاد وما يترتب عليها من الموالاة في الله والمعاداة فيه، ولما كان هناك عبادة اسمها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغير ذلك.

والردّ على من قال: هل يمكن وجود هذه الحكم بدون هذه الأسباب؟ هذا سؤال فاسد وباطل، وهو فرض وجود الملزوم بدون لازم، كفرض وجود الابن بدون أب والتوبة بدون تائب والحركة بدون متحرك.

(٣٢) الجمع بين رضا العبد لما قدر الله عليه، وبين بغضه للمعاصي:

الجواب أن يقال: العبد ليس مطالباً أن يرضي بكل ما قدّره الله عليه، فالمقضي منه ما يرضي ومنه ما يسخط.

وبيان ذلك أن القدر له وجهان:

١ ـ قضاء الله وهو الفعل المتعلق بذاته، وهذا يجب على العبد الرضا عن خيره وشره فإنه كله عدل وخير.

٢ ـ أما ما قضى الله وهو المنفصل عن ذاته ففيه تفصيل:

أ ـ ما يرضى به، وهو أن العبد إذا أصابته مصيبة ورضي بها، لأن الله هو الذي قدرها عليه وأنه ما أصابه مكتوب عليه.

ب ـ ومنه ما هو من جهة العبد من حيث تعلقه به ووقوعه منه فله حالتان: ما يرضى به كالبر والطاعة وما لا يرضى به كالسرقة والزنا ونحوه، بل عليه أن يسخطه وينفر منه ويحاول التخلُّص من هذه المعصية، ومثال ذلك:

قتل النفس له وجهان:

١ ـ من حيث إن الله قدره عليه وجعله نهاية أجله يرضى به.

٢ ـ من حيث فعل القاتل وإقامته عليه باختياره وعصيانه ربه بذلك نسخطه ولا نرضى به.

٣٣ احتجاج بعض العصاة بالقدر والرد على شبههم:

العاصي المنحرف عن دين الله قد يفعل الفعل المحرم المنهي عنه، ثم إذا اعترض عليه أحد ونبّهه على فعله وأنه ارتكب جرماً فعليه التوبة والإقلاع عما هو عليه من ارتكاب المحرم، فإن هذا العاصي يحتج بالقدر ويدّعي أن الله هو الذي قدر عليه ذلك، أو قد يدّعي حين يدعى إلى الصلاة ـ مثلاً ـ بأنه إذا أراد الله له أن يصلي سيصلي. فكيف جواب ذلك؟

الجواب عن ذلك أن يقال: إن احتجاج العاصي بالقدر وهو مقيم على المعصية من جنس احتجاج المشركين بالقدر في دعوة الأنبياء، وذلك كما حكى الله ﷻ في قوله: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨]، فالمشركون هنا احتجوا بالقدر على رد الشرع ودعوة الأنبياء، والعاصي المقيم على المعصية يحتج بالقدر على معصيته، والمشركون كاذبون، وكذلك العاصي كاذب لعدة أسباب:

أ ـ لأن القدر ليس حجة لعاص، ونحن إنما أمرنا أن نؤمن بالقدر، لا أن نحتج به.

ب ـ أن القدر لا يعلم حتى يقع، فإذا وقع علمنا بأن الأمر كان مقدراً، فكيف يجوز للإنسان أن يحتج بشيء غاب عنه، ولا يدري ما قدر له فيه.

ج ـ إن الله ﷻ قد خلق للإنسان الإرادة والقدرة، وأرسل له الرسل، وأنزل الكتب ليعلموه شرع الله، ويحذروه من معصية الله، فعليه فإنه ليس للعاصي أي حجة على الله، فاحتجاجه بالقدر غير صحيح وليس فيه حجة.

د ـ إن مما يبين كذب المحتج بالقدر على المعصية، أنه لو اعتدى أحد على ماله أو عرضه فاحتج ذلك المعتدي بالقدر فإن المعتدى عليه لا يقبل ذلك الاحتجاج، وسيسعى إلى إنزال العقوبة به، فكذلك لا يقبل احتجاج العاصي بالقدر.

الشبهة الأولى: الجواب على دعوى أن مشاهدة العبد تقدير الله للمعاصي تحول دون التوبة:

هذه الشبهة هي التي أوقعت كثيراً ممن عميت بصائرهم في الخطأ، وشهود تقدير الله على ما هو عليه وظنوا أن طاعة العبد إنما هي في مطابقة العبد فيما

قدر الله له في الأزل، وقالوا: إذا عصينا أمر الله فقد أطعنا إرادته قال بعضهم:

أصبحت منفعلاً لما يختار مني ففعلي كله طاعات

ولكن الأمر ليس كذلك، فالطاعة في الحقيقة هي موافقة العبد لأمر الله الشرعي الديني، فإنه يلزم من قولهم: أن لا فائدة من الرسل والشرائع والكتب ويلزم على ذلك أن يكون إبليس من أعظم المطيعين، وكذلك قوم نوح وغيرهم لأن هؤلاء لم يكفروا إلا بقضاء الله وقدره.

الشبهة الثانية: احتجاج بعض العصاة بالقدر بقولهم: بأنه إذا كان الله قدّر لي دخول الجنة فإني سأدخلها.

والرد على هذه الوسوسة الشيطانية بأن يقال:

أ ـ إن الجنة لا يحصلها الإنسان ولا يدخلها إلا بعمل، كما قال ﷺ: **(أيعرف أهل الجنة من أهل النار؟ قال: نعم، قال: فلم يعملون؟ قال: كل يعمل لما خلق له أو يسر له)**.

فعليه إن ما قدر لك لا يأتيك إلا بعمل، فلا بدّ من العمل، وذلك مثل من قدر له أن يكون طبيباً أو مهندساً أو طياراً أو عالماً في الشرع، فلا يمكن أن يكون كذلك إلّا بالتعلم والاجتهاد، فكذلك ما قدر للإنسان من جنة أو نار مثل ذلك، ويخشى على من استمر الوسوسة لنفسه بأنه إذا كان من أهل الجنة، فإنه سيدخلها فيترك طاعة الله، والشيطان يمنيه حتى يموت على ذلك فيكون من أهل النار، لأن من ترك طاعة الله وعبادته دخل النار.

ب ـ إن قائل هذا الكلام غير صادق في دعواه هذه، والذي يدل على ذلك ويؤكده بأن يقال له: فلتعلم أن كل شيء بقدر حتى رزقك وطعامك ونومك وحركتك، فإن كنت صادقاً في دعواك فاجلس في بيتك ولا تَسعَ لرزقك، لأن ما قدر لك سيأتيك، كما يقال له: لا تذهب تحضر الطعام ولا تصنعه؛ لأنه إذا كان مقدراً لك سيأتيك، فهل سيقبل ذلك؟ لا شك أنه لن يقبل ذلك، فكذلك دعواه هذه غير مقبولة، وإنما هي من اتباع النفس هواها وتمني الأماني على الله، أما لو قبل ذلك وقال: أبقى في البيت حتى يأتيني رزقي بدون سعي، أو أمكث في مكاني حتى يأتيني طعامي فهو لا شك بعدها مجنون لا فائدة من الكلام معه[1].

(١) انظر: مذكرة العقيدة للخلف (ص١٢٣).

٣٤ معنى التعمُّق بالقدر وبيان كيف كان ذريعة الخذلان:

التعمُّق في الشيء هو المبالغة فيه، أما التعلق بالقدر فهو المبالغة في طلب أسراره وحكمه والخوض ببحره المتلاطم.

وبيان كيف كان ذريعة للخذلان هو أن الإنسان متى تعمَّق بالقدر وبالغ فيه فلا شك أنه سيكون ذريعة للخذلان، لأنه يجد أمامه عدة شبهات قد يكون لها جواب وقد لا يكون لها جواب فينقله على الإلحاد والفسوق.

٣٥ تفسير قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ۚ﴾ [التوبة: ٦٩]:

يخبر الله ﷻ أنكم أيها المخاطبون من أمة محمد قد تمتعتم بنصيبكم كالخوض الذي خاضوه في معرفة كثير من أسرار الله ﷻ، ووجه الدلالة هو أن هؤلاء هلكوا بسببين:

الشهوات والشبهات، ومن أعظم الشبهات الخوض في القدر وأسراره، فذم الله هؤلاء الذين خاضوا، وأنكر عليهم ذلك.

٣٦ مراتب تعظيم أمر الله:

هي خمس مراتب:

١ ـ التصديق بالأمر.

٢ ـ العزم الجازم على امتثاله.

٣ ـ بذل الجهد والنصح في الإتيان بالأمر على الوجه الأكمل.

٤ ـ المسارعة إلى الأمر والمبادرة به والحذر من القواطع والموانع.

٥ ـ فعل الأمر بكونه مأموراً به بحيث لا يتوقف الإتيان به على معرفة حكمته، فإن ظهرت فعله وإلّا عطله، فإن هذا ينافي الانقياد ويقدح في الامتثال.

٣٧ حكم رد الكتاب ومعنى قوله تعالى: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء: ٢٣]:

يكون ردّ حكم الكتاب كفراً إذا كان من غير تأويل وإنما القصد التعنت والعناد، ولا يكون كفراً إذا كان مؤولاً لحكم الكتاب لشبهة عرضت له، فإنه يبين له الحق والصواب ليرجع إليه.

ومعنى الآية: إن الله سبحانه لا يُسئل عما يفعل لكمال حكمته وعدله، فإنه

سبحانه لا يعمل بمجرد قهره وقدرته كما قال الجهم بن صفوان وأتباعه، بل يجازي كلًّا بعمله. وقوله: «وهم يسألون» أي أن الله يسأل عباده عما عملوه في الحياة الدنيا.

٣٨ معنى قول الطحاوي: «العلم علمان، علم في الخلق موجود وعلم في الخلق مفقود»:

الإشارة ترجع إلى ما تقدم ذكره فيما يجب اعتقاده والعمل به مما جاءت به الشريعة. ومعنى قوله: «علم في الخلق موجود» العلم الموجود في الخلق هو علم الشريعة وأصولها وفروعها، وحكمه: يجب أن تصدق به وتؤمن، من أنكر شيئاً مما جاء به الرسول كان كافراً، ومعنى قوله: «وعلم في الخلق مفقود» أي علم القدر الذي طواه عن أنامه ونهاهم عن مرامه. وحكمه يجب أن تفوض علمه إلى الله ﷻ ولا تخوض فيه، ومن ادعى علم الغيب كان من الكافرين. قال تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ﴾ [الجن: ٢٦ ـ ٢٧]، وقال: ﴿وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ﴾ [لقمان: ٣٤].

٣٩ أثر الإيمان بالقدر وفوائده:

لا يشرع الله ﷻ شرعاً ولا يأمر بأمر إلّا وله حكمة بالغة، وللإيمان بالقدر آثار وفوائد عديدة نذكر منها:

أ ـ أن الإيمان بالقدر وفق ما أمر الله ﷻ وبيّن ووفّق ما بينه رسول الله ﷺ يصحح للمسلم إيمانه ويكمله له، ويكون بذلك مستجيباً لأمر الله ﷻ بالإيمان بالقدر ويحصل بذلك أجر المؤمنين بالغيب.

ب ـ أن اعتقاد المسلم أن ما قدر له سيصيبه، وأن أجله ورزقه مكتوبان مقدران يجعله شجاعاً مقداماً لا يخاف، لأن ما قدر له سيأتيه، فمن أي يخاف؟ أمن شيء لم يكتب عليه فلن يصيبه، أم من شيء كتب عليه فلن يفرّ منه، وهذا يدفعه إلى الإقدام والشجاعة إذا كان الأمر فيه رضى له ﷻ.

ج ـ أن الإيمان بالقدر فيه الإيمان بأن جميع ما يصيب العبد مقدر من الله والقدر لا مفرّ منه، فعندها تخف المصيبة على الإنسان إذا وقعت، فلو مات له قريب! أو ذهب له مال فإنه يصبر ويحتسب لأن ما وقع لا يمكن دفعه، فإذا صبر حصل له أجر الصابرين الذي ذكره الله ﷻ في قوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝١٥٥ ٱلَّذِينَ إِذَآ

أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة: ١٥٥ ـ ١٥٧].

كما أنه إذا أصابته نعمة علم أنها من عند الله فلا يبطر ولا يختال، بل يشكر الله ﷻ حتى يزيده، كما قال ﷻ: ﴿لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ﴾ [إبراهيم: ٧].

د ـ أن المؤمن بالقدر يعلم «أن قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمٰن، فما شاء من قلب أقامه وما شاء من قلب أزاغه»[1]. ويعلم أن الأعمال بالخواتيم، فذلك يدفعه إلى الاستمرار في الطاعة حتى الموت، كما أن علم الإنسان بأن الخير كله بيد الله ﷻ فلا يأتيك خير إلا من الله، كما أنه لا يصرف عنك الشر إلا الله ﷻ، فهذا يجعل الإنسان يرتبط بالله ﷻ إرتباطاً قوياً ويكثر من دعائه وسؤاله فيحصل بذلك الخير الذي يريد بإذن الله، ويندفع عنه الشر الذي يخاف بإذن الله، ويكون في نفس الوقت قد عبد الله ﷻ عبادة يحبها الله من عباده وهي الدعاء والسؤال، وفي هذا ورد عن النبي ﷺ أنه قال: **(من لم يسأل الله يغضب عليه)**[2]، وفيها استجابة لأمر الله ﷻ لقوله: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾ [غافر: ٦٠].

هـ ـ أن قول النبي ﷺ: **(اعملوا فكل ميسّر لما خلق له، فمن كان من أهل السعادة فسييسر لعمل أهل السعادة، ومن كان من أهل الشقاوة فييسر لعمل أهل الشقاوة)**.

هذا الحديث فيه بشارة للمسلم إذا كان على عمل صالح لعله يكون خلق للجنة، فيزداد تمسكاً واجتهاداً ليحصل على أعلى المراتب، كما أن فيه تحذيراً للمسلم فيما لو كان على عمل غير صالح، فلا يصلي أو يشرب الخمر ونحو ذلك، بأن في ذلك علامة وتخويفاً له من أن يكون خلق للنار، لأن علامة ذلك الاستمرار في معصية الله ﷻ، فينتبه ويحذر ويرجع عن فساده حتى لا يكون من أهل النار.

(٤٠) الخلاصة:

١ ـ لقد علم الله تعالى في الأزل عدد من يدخل الجنة من بني آدم، وعدد من يدخل النار منهم، علم كل ذلك علماً تاماً، فلا يزداد في عددهم ولا ينقص.

---

(١) مسند أحمد (٢/١٦٨).
(٢) المصدر السابق (٢/٤٤٣).

٢ ـ الإيمان بالقدر جانب مهم من جوانب العقيدة الإسلامية؛ كيف لا وهو الركن السادس من أركان الإيمان، كما في حديث جبريل المشهور.

٣ ـ الإيمان بالقدر يدخل ضمن توحيد الأسماء والصفات؛ إذ هو مبني على الإيمان بصفات الله كالعلم والقدرة والإرادة.

٤ ـ وكذا يدخل ضمن الإيمان بربوبية الله على خلقه؛ إذ أن من آمن بأن الله هو الخالق المدبر المتصرف في شؤون خلقه كلها، فهو مؤمن بقضائه وقدره.

٥ ـ علم الله ﷻ أفعال خلقه قبل أن يفعلوها، علمها في الأزل وكتب ذلك وقضاه، وكل إنسان ميسّر لما خلق له، والأعمال بالخواتيم.

٦ ـ أصل القدر سر الله تعالى، لم يطلع عليه أحد من الخلق، ولا يصح التعمق فيه.

٧ ـ لقد وردت النصوص الشرعية بالإمساك عن القدر والنهي عن الخوض فيه، ونبّه العلماء عند ذكر هذا الأصل على ذلك.

٨ ـ العقل قاصر محدود لا يمكن أن يكتشف الغيب، ويطلع على المجهول الذي استأثره الله بعلمه، وليس أمامه إلا التسليم والإيمان بما يطلعه الله عليه من أمور الغيب، عن طريق الرسل، ويمسك عن الخوض فيما استأثر الله بعلمه.

٩ ـ الإيمان بالقدر يقوم على أصول ومراتب يقينية، وهي العلم والكتابة والخلق والمشيئة. فلا يكون العبد مؤمناً بالقدر حتى يؤمن بهذا كله.

١٠ ـ أنواع التقدير خمسة تقديرات بحسب الزمن.

١١ ـ قضاء الله ﷻ له نوعان: الديني والشرعي، والكوني القدري.

١٢ ـ والقضاء الكوني إما مصائب أو معايب.

١٣ ـ أنواع الكتابة: كونية وشرعية.

١٤ ـ أنواع الإرادة: دينية شرعية، وكونية قدرية.

١٥ ـ إن الله له إرادة ومشيئة والعبد له إرادة ومشيئة. وإرادة العبد متوقفة على إرادة الله ومشيئته.

١٦ ـ حدث القول بالقدر بعد انقراض عصر الخلفاء الراشدين بعد إمارة معاوية بن أبي سفيان في الفتنة التي كانت بين عبد الله بن الزبير وبين بني أمية، وأول من أظهر هذه المقالة معبد الجهني في البصرة وأدركها من الصحابة

عبد الله بن عمر وابن عباس وجابر بن عبد الله وواثلة بن الأسقع وغيرهم من الصحابة.

١٧ ـ إن المنكرين للمرتبة الأولى ـ مرتبة العلم ـ هم القدرية الغلاة الأولى معبد الجهني وأصحابه.

١٨ ـ أنكرت المعتزلة مرتبة الخلقِ، ويسمون بالقدرية المتوسطة، أو نفاة القدر.

١٩ ـ منشأ ضلال كل من الجبرية والقدرية هو التسوية بين المشيئة والإرادة وبين المحبة والرضا والإرادة.

٢٠ ـ السبب الذي دعا القدرية إلى القول بأن العبد يخلق فعل نفسه هو تنزيه الله عن الظلم في زعمهم.

٢١ ـ أسباب الخير ثلاثة: إيجاد وإعداد وإمداد.

٢٢ ـ التعمق بالقدر المبالغة في طلب أسراره وحكمه والخوض ببحره المتلاطم، وهو ذريعة للخذلان لأنه يجد أمامه عدة شبهات قد يكون لها جواب وقد لا يكون لها جواب، فتنقله إلى الإلحاد والفسوق.

٢٣ ـ إن ردّ حكم الكتاب كفر إذا كان من غير تأويل وإنما القصد التعنت والعناد، ولا يكون كفراً إذا كان مؤولاً لحكم الكتاب لشبهة عرضت له، فإنه يبيّن له الحق والصواب ليرجع إليه.

٢٤ ـ لا يلزم من خفاء حكمة الله علينا عدمها، ولا من جهلنا انتفاء حكمته.

(٤١) المناقشة:

- **س١:** لماذا عقد المصنف هذا الباب؟
- **س٢:** ما أدلة علم الله الأزلي؟
- **س٣:** بيّن منزلة الإيمان بالقدر.
- **س٤:** ما معنى القضاء والقدر في اللغة؟
- **س٥:** ما معنى القضاء والقدر شرعاً؟
- **س٦:** ما الفرق بين القضاء والقدر؟
- **س٧:** اذكر أدلة أن الأعمال بالخواتيم وأن الإنسان ميسّر لما خلق له.
- **س٨:** متى ظهرت البدع في القدر؟ ومن الذي أظهرها؟
- **س٩:** ما مراتب القدر عند أهل السنّة؟ مع بيانها.
- **س١٠:** ما أنواع التقدير؟

- **س١١:** ما أنواع قضاء الله ﷻ؟
- **س١٢:** ما أنواع القضاء الكوني؟
- **س١٣:** ما أنواع الكتابة؟
- **س١٤:** ما أنواع الإرادة؟
- **س١٥:** فصل القول في مذاهب الناس في باب القدر، مع الرد على المذاهب الفاسدة.
- **س١٦:** من الذي أنكر المرتبة الأولى من مراتب القدر؟
- **س١٧:** من الذي أنكر مرتبتي الخلق والكتابة؟
- **س١٨:** ما معنى قول الطحاوي: «والقدر سرّ الله في خلقه»؟
- **س١٩:** كيف ترد على من يقول بأن السعادة والشقاوة مقدرتان، فإذاً لا حاجة للعمل؟
- **س٢٠:** لماذا قال ابن عباس حين أخبر عن مذهب القدرية: «هذا أول شرك في الإسلام»، ولماذا يعدّ التكذيب بالقدر شركاً؟
- **س٢١:** هل ترى فرقاً بين قول ابن عباس في مقالة القدرية: «هذا أول شرك في الإسلام»، وبين قوله: «القدر نظام التوحيد»؟
- **س٢٢:** ما السبب في ضلال كل من الجبرية والقدرية؟ وكيف تجيب عليهم؟
- **س٢٣:** ما السبب الذي دعا القدرية إلى القول بأن العبد يخلق فعل نفسه؟
- **س٢٤:** كيف يمكن الجمع بين الإقرار بأن الله قدر على العباد كل شيء وبين تكليفه لهم؟
- **س٢٥:** كيف تجمع بين الإرادة الكونية القدرية وبين الكراهية والبغض للشيء؟
- **س٢٦:** ما الفرق بين الاستعاذة برضا الله من سخطه، وبمعافاته من عقوبته، وبين قول النبي ﷺ: **(وبك منك)**؟
- **س٢٧:** كيف توفق بين تقدير الله لقوى الشر وبين قوله: **(والشر ليس إليك)**؟
- **س٢٨:** هل يجب على الإنسان أن يرضى بقوى الشر أم لا؟
- **س٢٩:** هل يمكن لله أن يرضى لعبده شيئاً ثم لا يعينه عليه؟
- **س٣٠:** بيِّن أسباب الخير الثلاثة، ولماذا لم يسوِّ الله بين عباده فيها؟
- **س٣١:** ما الحكم التي بيّنها الشارع في خلق إبليس وغيره من قوى الشر؟ وكيف ترد على من قال: هل يكون وجود تلك الحكم بدون هذه الأسباب؟

- **س٣٢:** كيف يتم الجمع بين رضا العبد لما قدر الله عليه، وبين بغضه للمعاصي، ووجوب بعده عنها؟
- **س٣٣:** يزعم البعض أن مشاهدة العبد تقدير الله للمعاصي تحول دون التوبة، فكيف ترد على هذه الدعوى؟
- **س٣٤:** ما معنى التعمق بالقدر؟ ولماذا كان ذريعة الخذلان؟
- **س٣٥:** اذكر الأدلة على منع الخوض في القدر؟
- **س٣٦:** ما معنى قول النبي ﷺ ـ لما سئل عن الوساوس واستعظامها ـ: **(ذلك محض الإيمان)**؟
- **س٣٧:** ما الواجب على المسلم فعله إذا وجد شيئاً من الوساوس الشيطانية؟
- **س٣٨:** ما المقصود بقوله تعالى: ﴿فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟﴾؟
- **س٣٩:** لماذا جيء بالموصول مفرداً وبصلته جمعاً في قوله تعالى: ﴿وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟﴾، ولماذا جمع الله الاستمتاع بالخلاق وبين الخوض؟
- **س٤٠:** ما أسباب ظهور البدع وانتشارها وتفرّق الأمة؟
- **س٤١:** ما مراتب تعظيم أمر الله؟
- **س٤٢:** متى يكون ردّ حكم الكتاب كفراً؟ ومتى لا يكون كفراً؟
- **س٤٣:** ما معنى قول الطحاوي: «العلم علمان، علم في الخلق موجود وعلم في الخلق مفقود»؟
- **س٤٤:** هل يلزم من الجهل بالحكمة عدمها؟ وضّح ذلك.

الإيمان باللوح والقلم

* كلام ابن أبي العز:

١ ـ غرض المصنف من عقد هذا الباب.

٢ ـ مناسبة هذا الباب لما سبق.

٣ ـ معاني الكلمات.

٤ ـ معنى كلام الطحاوي: «ونؤمن باللوح والقلم وبجميع ما فيه قد رقِّم، فلو اجتمع الخلق كلهم على شيء كتبه الله تعالى فيه أنه كائن ليجعلوه غير كائن ـ لم يقدروا عليه، ولو اجتمعوا كلهم على شيء لم يكتبه الله تعالى ليجعلوه كائناً ـ لم يقدروا عليه، جفّ القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة، وما أخطأ العبد لم يكن ليصيبه، وما أصابه لم يكن ليخطئه.

٥ ـ الأدلة على الإيمان باللوح والقلم.

٦ ـ هل القلم أول المخلوقات؟

٧ ـ الأقلام أربعة كما دلّت عليه السنّة.

٨ ـ معنى قول النبي ﷺ: (رفعت الأقلام وجفت الصحف).

٩ ـ موقف أهل السنّة من سبق علم الله للمخلوقات قبل إيجادها.

١٠ ـ معنى قول الشافعي: «ناظروا القدرية بالعلم، فإن أقروا به خصموا، وإن أنكروا كفروا».

١١ ـ الرد على من زعم أن الأخذ بالأسباب ينافي التوكل.

١٢ ـ الجواب على شبهة المعتزلة أن يكون العبد قادراً على تغيير علم الله.

١٣ ـ ذكر بعض النصوص في شأن القدرية.

١٤ ـ معنى قول الطحاوي: «وعلى العبد أن يعلم أن الله قد سبق علمه في كل كائن من خلقه فقدر ذلك تقديراً محكماً مبرماً، ليس فيه ناقض، ولا معقب، ولا مزيل ولا مغير، ولا ناقص ولا زائد في خلقه في سماواته وأرضه، وذلك من عقد الإيمان، وأصول المعرفة، والاعتراف بتوحيد الله تعالى وربوبيته، كما قال تعالى في كتابه: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢]، وقال تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨]».

١٥ ـ وجه اعتبار القدرية مجوس هذه الأمة.

١٦ ـ معنى قول ابن عباس رضي الله عنهما: «القدر نظام التوحيد».

١٧ ـ أصول التقدير المطابق للعلم.

١٨ ـ معنى قول الطحاوي: «فويل لمن صار لله تعالى في القدر خصيماً، وأحضر للنظر فيه قلباً سقيماً، لقد التمس بوهمه في فحص الغيب سراً كتيماً، وعاد بما قال فيه أفّاكاً أثيماً».

١٩ ـ حياة القلب وموته، ومرضه وشفاؤه.

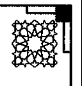
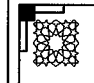
٢٠ ـ أنواع مرض القلب.

٢١ ـ الدواء النافع لأمراض القلب.

٢٢ ـ شروط الاستفادة من التداوي بالقرآن.

٢٣ ـ الخلاصة.

٢٤ ـ المناقشة.

الإيمان باللوح والقلم

قال ابن أبي العز:

قوله: «ونؤمن باللوح والقلم وبجميع ما فيه قد رُقم».

قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ۝﴾ [البروج: ٢١ ـ ٢٢]. روى الحافظ أبو القاسم الطبراني بسنده إلى النبي ﷺ أنه قال: (إن الله خلق لوحاً محفوظاً من درة بيضاء صفحاتها ياقوتة حمراء قلمه نور وكتابه نور، لله فيه كل يوم ستون وثلاث مئة لحظة، وعرضه ما بين السماء والأرض ينظر فيه كل يوم ستين وثلاثمائة نظرة، يخلق ويرزق ويميت ويحيي ويعز ويذل ويفعل ما يشاؤه)[1].

اللوح المذكور هو الذي كتب الله مقادير الخلائق فيه، والقلم المذكور هو الذي خلقه الله وكتب به في اللوح المذكور المقادير كما في سنن أبي داود عن عبادة بن الصامت قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إن أول ما خلق الله القلم فقال له: اكتب، قال: يا رب وماذا أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة)[2].

واختلف العلماء هل القلم أول[3] المخلوقات أو العرش على قولين ذكرهما الحافظ أبو العلاء الهمداني أصحهما أن العرش قبل القلم لما ثبت في الصحيح من حديث عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: (كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، قال: وعرشه على الماء)[4]. فهذا صريح أن التقدير وقع بعد خلق العرش، والتقدير وقع عند أول خلق القلم بحديث عبادة هذا، ولا يخلو قوله أول ما خلق الله القلم.. إلخ إما أن يكون جملة أو جملتين، فإن كان جملة وهو الصحيح كان معناه أنه عند أول خلقه قال له اكتب كما في اللفظ أول ما خلق الله القلم قال له اكتب بنصب «أول» و«القلم»،

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (١٢٥١١). (٢) أبو داود (٤٧٠٠)، وأحمد (٥/ ٣١٧).
(٣) انظر: التبيان في أقسام القرآن (ص١٢٨).
(٤) سبق تخريجه (٥٨٥).

وإن كان جملتين وهو مروي برفع «أول» و«القلم» فيتعين حمله على أنه أول المخلوقات من هذا العالم، فيتفق الحديثان، إذ حديث عبد الله بن عمرو صريح في أن العرش سابق على التقدير، والتقدير مقارن لخلق القلم، وفي اللفظ الآخر لما خلق الله القلم قال له: اكتب.

فهذا القلم أول الأقلام وأفضلها وأجلها، وقد قال غير واحد من أهل التفسير إنه القلم الذي أقسم الله به في قوله تعالى: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝﴾ [القلم: ١].

والقلم الثاني قلم الوحي وهو الذي كتب به وحي الله إلى أنبيائه ورسله، وأصحاب هذا القلم هم الحكام على العالم، والأقلام كلها خدم لأقلامهم، وقد رفع النبي ﷺ ليلة أسري به إلى مستوى يسمع فيه صريف الأقلام، فهذه الأقلام هي التي تكتب ما يوحيه الله تبارك وتعالى من الأمور التي يدبرها أمر العالم العلوي والسفلي.

قوله: «فلو اجتمع الخلق كلهم على شيء كتبه الله تعالى فيه أنه كائن ليجعلوه غير كائن لم يقدروا عليه، ولو اجتمعوا كلهم على شيء لم يكتبه الله تعالى فيه ليجعلوه كائناً لم يقدروا عليه، جف القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة».

تقدم حديث جابر عن رسول الله ﷺ قال: «جاء سراقة بن مالك بن جعشم فقال: يا رسول الله، بيّن لنا ديننا كأنا خلقنا الآن فيم العمل اليوم، أفيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير أم فيما استقبل؟ قال: لا بل فيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير».

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كنت خلف رسول الله ﷺ يوماً فقال: (يا غلام ألا أعلمك كلمات؟ احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف)[1]، رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

وفي رواية غير الترمذي: «احفظ الله تجده أمامك، تعرَّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة، واعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وما أصابك لم يكن

(١) أخرجه الترمذي (٢٥١٦)، وأحمد (١/ ٢٩٣).

ليخطئك، واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسراً»[1].

وقد جاءت الأقلام في هذه الأحاديث وغيرها مجموعة، فدل ذلك على أن للمقادير أقلاماً غير القلم الأول الذي تقدم ذكره مع اللوح المحفوظ.

والذي دلت عليه السنة أن الأقلام أربعة، وهذا التقسيم غير التقسيم المقدم ذكره.

القلم الأول: العام الشامل لجميع المخلوقات، وهو الذي تقدم ذكره مع اللوح.

القلم الثاني: خبر خلق آدم، وهو قلم عام أيضاً لكن لبني آدم، ورد في هذا آيات تدل على أن الله قدر أعمال بني آدم وأرزاقهم وآجالهم وسعادتهم عقيب خلق أبيهم.

القلم الثالث: حين يرسل الملك إلى الجنين في بطن أمه فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات بكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد كما ورد ذلك في الأحاديث الصحيحة.

القلم الرابع: الموضوع على العبد عند بلوغه الذي بأيدي الكرام الكاتبين الذين يكتبون ما يفعله بنو آدم كما ورد ذلك في الكتاب والسنة.

وإذا علم العبد أن كلًّا من عند الله، فالواجب إفراده سبحانه بالخشية والتقوى، قال تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ﴾ [المائدة: ٤٤]، ﴿وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ [البقرة: ٤٠] ﴿وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ﴾ [البقرة: ٤١]، ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [النور: ٥٢]، ﴿هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾ [المدثر: ٥٦]، ونظائر هذا المعنى في القرآن كثيرة ولا بد لكل عبد أن يتقي أشياء فإنه لا يعيش وحده ولو كان ملكاً مطاعاً فلا بد أن يتقي أشياء يراعي بها رعيته فحينئذ فلا بد لكل إنسان أن يتقي، فإن لم يتق الله اتقى المخلوق والخلق لا يتفق حبهم كلهم وبغضهم بل الذي يريده هذا يبغضه هذا فلا يمكن إرضاؤهم كلهم كما قال الشافعي رضي الله عنه: رضى الناس غاية لا تدرك، فعليك بالأمر الذي يصلحك فالزمه ودع ما سواه فلا تعانه فإرضاء الخلق لا مقدور ولا مأمور وإرضاء الخالق مقدور ومأمور.

(١) انظر: جامع العلوم والحكم (ص١٧٤).

وأيضاً فالمخلوق لا يغني عنه من الله شيئاً، فإذا اتقى العبد ربه كفاه مؤونة الناس كما كتبت عائشة رضي الله عنها إلى معاوية رضي الله عنه روي مرفوعاً وروي موقوفاً عليها: «من أرضى الله بسخط الناس رضي الله عنه وأرضى عنه الناس، ومن أرضى الناس بسخط الله عاد حامده من الناس له ذامّاً»(١)، فمن أرضى الله كفاه مؤونة الناس ورضي عنه ثم فيما بعد يرضون إذ العاقبة للتقوي، ويحبه الله فيحبه الناس كما في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: (إذا أحب الله العبد نادى يا جبرائيل إني أحب فلاناً فأحبه فيحبه جبرائيل، ثم ينادي جبرائيل في السماء إن الله يحب فلاناً فأحبوه فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض)(٢)، وقال في البغض مثل ذلك.

فقد بيّن أنه لا بد لكل مخلوق من أن يتقي إما المخلوق وإما الخالق، وتقوى المخلوق ضررها راجح على نفعها من وجوه كثيرة، وتقوى الله هي التي يحصل بها سعادة الدنيا والآخرة، فهو سبحانه أهل التقوى وهو أيضاً أهل المغفرة، فإنه هو الذي يغفر الذنوب، لا يقدر مخلوق على أن يغفر الذنوب ويجير من عذابها غيره، وهو الذي يجير ولا يجار عليه، قال بعض السلف: ما احتاج تقي قط لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢ - ٣]، فقد ضمن الله للمتقين أن يجعل لهم مخرجاً مما يضيق على الناس وأن يرزقهم من حيث لا يحتسبون، فإذا لم يحصل ذلك دل على أن في التقوى خللا فليستغفر الله وليتب إليه ثم قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣] أي فهو كافيه لا يحوجه إلى غيره.

وقد ظن بعض الناس أن التوكل ينافي الاكتساب وتعاطي الأسباب، وأن الأمور إذا كانت مقدرة فلا حاجة إلى الأسباب، وهذا فاسد، فإن الاكتساب منه فرض ومنه مستحب ومنه مباح ومنه مكروه ومنه حرام كما قد عرف في موضعه، وقد كان النبي أفضل المتوكلين يلبس لأْمة الحرب ويمشي في الأسواق للاكتساب حتى قال الكافرون: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٧]، ولهذا تجد كثيراً ممن يرى الاكتساب ينافي التوكل يرزقون على يد من يعطيهم إما صدقة وإما هدية، وقد يكون ذلك من مكاس أو والي شرطة أو نحو ذلك، وهذا

(١) أخرجه الترمذي (٢٤١٤).

(٢) أخرجه البخاري (٣٢٠٩)، ومسلم (٢٦٣٧).

مبسوط في موضعه لا يسعه هذا المختصر، وقد تقدمت الإشارة إلى بعض الأقوال التي في تفسير قوله تعالى: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾﴾ [الرعد: ٣٩]، وأما قوله تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩] فقال البغوي: قال مقاتل نزلت في اليهود حين قالوا إن الله لا يقضي يوم السبت، قال المفسرون: من شأنه أنه يحيي ويرزق، ويعز قوماً ويذل آخرين، ويشفي مريضاً، ويفك عانياً، ويفرج مكروباً، ويجيب داعياً، ويعطي سائلاً، ويغفر ذنباً، إلى ما لا يحصى من أفعاله وإحداثه في خلقه ما يشاء.

قوله: «وما أخطأ العبد لم يكن ليصيبه وما أصابه لم يكن ليخطئه». هذا بناء على ما تقدم من أن المقدور كائن لا محالة، ولقد أحسن القائل حيث يقول:

ما قضى الله كائن لا محالة ... والشقي الجهول من لام حاله

والقائل الآخر:

اقنع بما ترزق ياذا الفتى ... فليس ينسى ربنا نمله
إن أقبل الدهر فقم قائماً ... وإن تولى مدبراً نم له

قوله: «وعلى العبد أن يعلم أن الله قد سبق علمه في كل كائن من خلقه، فقدر ذلك تقديراً محكماً مبرماً ليس فيه ناقض ولا معقب ولا مزيل ولا مغير ولا ناقص ولا زائد من خلقه في سماواته وأرضه».

هذا بناء على ما تقدم من أن الله تعالى قد سبق علمه بالكائنات وأنه قدر مقاديرها قبل خلقها كما قال ﷺ: (قدر الله مقادير الخلق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وعرشه على الماء). فيعلم أن الله قد علم أن الأشياء تصير موجودة لأوقاتها على ما اقتضته حكمته البالغة فكانت كما علم، فإن حصول المخلوقات على ما فيها من غرائب الحكم لا يتصور إلا من عالم قد سبق علمه على إيجادها قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [الملك: ١٤].

وأنكر غلاة المعتزلة أن الله كان عالماً في الأزل، وقالوا إن الله تعالى لا يعلم أفعال العباد حتى يفعلوا، تعالى الله عما يقولون علو كبيراً، قال الإمام الشافعي رضي الله عنه: ناظروا القدرية بالعلم فإن أقروا به خصموا وإن أنكروا كفروا، فإن الله تعالى يعلم أن هذا مستطيع يفعل ما استطاعه فيثيبه، وهذا مستطيع لا يفعل

ما استطاعه فيعذبه، فإنما يعذبه لأنه لا يفعل مع القدرة وقد علم الله ذلك منه، ومن لا يستطيع لا يأمره ولا يعذبه على ما لم يستطعه.

وإذا قيل: فيلزم أن يكون العبد قادراً على تغيير علم الله، لأن الله علم أنه لا يفعل، فإذا قدر على الفعل قدر على تغيير علم الله.

قيل: هذه مغالطة، وذلك أن مجرد قدرته على الفعل لا تستلزم تغيير العلم، وإنما يظن من يظن تغيير العلم إذا وقع الفعل، ولو وقع الفعل لكان المعلوم وقوعه لا عدم وقوعه، فيمتنع أن يحصل وقوع الفعل مع علم الله بعدم وقوعه، بل إن وقع كان الله علم أنه يقع، وإن لم يقع كان الله قد علم أنه لا يقع، ونحن لا نعلم علم الله إلا بما يظهر، وعلم الله مطابق للواقع فيمتنع أن يقع شيء يستلزم تغيير العلم وبل أي شيء وقع كان هو المعلوم، والعبد الذي لم يفعل لم يأت بما يغير العلم بل هو قادر على فعل لم يقع، ولو وقع لكان الله قد علم أنه يقع لا أنه لا يقع.

وإذا قيل: فمن عدم وقوعه يعلم الله أنه لا يقع، فلو قدر العبد على وقوعه قدر على تغيير العلم، قيل: ليس الأمر كذلك، بل العبد يقدر على وقوعه وهو لم يوقعه ولو أوقعه لم يكن المعلوم إلا وقوعه، فمقدور العبد إذا وقع لم يكن المعلوم إلا وقوعه وهؤلاء فرضوا وقوعه مع العلم بعدم وقوعه، وهو فرض محال، وذلك بمنزلة من يقول: افرض وقوعه مع عدم وقوعه، وهو جمع بين النقيضين.

فإن قيل: فإذا كان قوعه مع علم الرب عدم وقوعه محالاً لم يكن مقدوراً، قيل: لفظ المحال مجمل، وهذا ليس محالاً لعدم استطاعته له ولا لعجزه عنه ولا لامتناعه في نفسه، بل هو ممكن مقدور مستطاع، ولكن إذا وقع كان الله عالماً بأنه سيقع، وإذا لم يقع كان عالماً بأنه لا يقع، فإذا فرض وقوعه مع انتفاء لازم الوقوع(١) صار محالاً من جهة إثبات الملزوم(٢) بدون لازمه، وكل الأشياء بهذا الاعتبار هي محال مما يلزم هؤلاء أن لا يبقى أحد قادراً على شيء لا الرب ولا الخلق، فإن الرب إذا علم من نفسه أنه سيفعل كذا لا يلزم من علمه ذلك انتفاء قدرته على تركه، وكذلك إذا علم من نفسه أنه لا يفعله لا يلزم منه انتفاء قدرته على فعله، فكذلك ما قدره من أفعال عباده والله تعالى أعلم.

---

(١) اللازم هنا: هو العلم؛ أي: علم الله بأنه لا يقع فمحال وقوعه.

(٢) المراد بالملزوم هنا: وقوع الفعل.

قوله: «وذلك من عقد الإيمان وأصول المعرفة والاعتراف بتوحيد الله تعالى وربوبيته كما قال تعالى في كتابه: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢]، وقال تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨].

الإشارة إلى ما تقدم من الإيمان بالقدر وسبق علمه بالكائنات قبل خلقها، قال ﷺ في جواب السائل عن الإيمان: (أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره). وقال ﷺ في آخر الحديث: (يا عمر أتدري من السائل؟ قال: الله ورسوله أعلم، قال: فإنه جبرائيل أتاكم يعلمكم دينكم)[١].

وقوله: «والإقرار بتوحيد الله وربوبيته»، أي: لا يتم التوحيد والإقرار بالربوبية إلا بالإيمان بصفاته تعالى، فإن من زعم خالقاً غير الله فقد أشرك، فكيف بمن يزعم أن كل أحد يخلق فعله، ولهذا كانت القدرية مجوس هذه الأمة وأحاديثهم في «السنن».

روى أبو داود عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: (القدرية مجوس هذه الأمة، إن مرضوا فلا تعودوهم، وإن ماتوا فلا تشهدوهم)[٢].

وروى أبو داود أيضاً عن حذيفة بن اليمان ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (لكل أمة مجوس ومجوس هذه الأمة الذين يقولون: لا قدر، من مات منهم فلا تشهدوا جنازته، ومن مرض منهم فلا تعودوهم، وهم شيعة الدجال، وحق على الله أن يلحقهم بالدجال)[٣].

وروى أبو داود أيضاً عن عمر بن الخطاب ﷺ عن النبي ﷺ قال: (لا تجالسوا أهل القدر ولا تفاتحوهم)[٤].

وروى الترمذي عن ابن عباس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (صنفان من بني آدم ليس لهم في الإسلام نصيب: المرجئة والقدرية)[٥].

لكن كل أحاديث القدرية المرفوعة ضعيفة، وإنما يصح الموقوف منها، فعن

---

(١) أخرجه مسلم (٨).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٦٩١) وفي سنده انقطاع.

(٣) أخرجه أبو داود (٤٦٩٢).

(٤) أخرجه أبو داود (٤٧١٠) قال محقق كتاب شرح الطحاوية (ص٢٦٣): (وفي سنده حكيم بن شريك الهندي مجهول).

(٥) أخرجه الترمذي (٢١٤٩)، وابن ماجه (٦٢) قال محقق كتاب شرح الطحاوية: (وفي سنده نزار بن حيان مولى بني هاشم وهو ضعيف).

ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: القدر نظام التوحيد فمن وحد الله وكذب بالقدر نقض تكذيبه توحيده، وهذا لأن الإيمان بالقدر يتضمن الإيمان بعلم الله القديم وما أظهر من علمه الذي لا يحاط به وكتابة مقادير الخلائق، وقد ضل في هذا الموضع خلائق من المشركين والصابئين والفلاسفة وغيرهم ممن ينكر علمه بالجزئيات[1] أو بغير ذلك، فإن ذلك كله مما يدخل في التكذيب بالقدر.

وأما قدرة الله على كل شيء فهو الذي يكذب به القدرية جملة حيث جعلوه لم يخلق أفعال العباد فأخرجوها عن قدرته وخلقه.

والقدر الذي لا ريب في دلالة الكتاب والسنة والإجماع عليه وأن الذي جحدوه هم القدرية المحضة بلا نزاع هو ما قدره الله من مقادير العباد وعامة ما يوجد من كلام الصحابة والأئمة في ذم القدرية يعني به هؤلاء، كقول ابن عمر رضي الله عنهما لما قيل له: يزعمون أن لا قدر وأن الأمر أُنُف[2]، أخبرهم أني منهم بريء وأنهم مني برآء.

والقدر الذي هو التقدير المطابق للعلم يتضمن أصولاً عظيمة:

أحدها: أنه عالم بالأمور المقدرة قبل كونها فيثبت علمه القديم، وفي ذلك الرد على من ينكر علمه القديم.

الثاني: أن التقدير يتضمن مقادير المخلوقات، ومقاديرها هي صفاتها المعينة المختصة بها، فإن الله قد جعل لكل شيء قدراً، قال تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢]، فالخلق يتضمن التقدير تقدير الشيء في نفسه بأن يجعل له قدراً، وتقديره قبل وجوده، فإذا كان قد كتب لكل مخلوق قدره الذي يخصه في كميته وكيفيته كان ذلك أبلغ في العلم بالأمور الجزئية المعينة خلافاً لمن أنكر ذلك وقال إنه يعلم الكليات دون الجزئيات، فالقدر يتضمن العلم القديم والعلم بالجزئيات.

الثالث: أنه يتضمن أنه أخبر بذلك وأظهره قبل وجود المخلوقات إخباراً مفصلاً، فيقضي أنه يمكن أن يعلم العباد الأمور قبل وجودها علماً مفصلاً فيدل ذلك بطريق التنبيه على أن الخالق أولى بهذا العلم، فإنه إذا كان يعلم عباده بذلك فكيف لا يعلمه هو؟!.

---

(١) انظر: في الرد عليهم درء التعارض (٥/ ١١٣)، والفتاوى (٩/ ٢٤٩)، والصواعق (٢/ ٤٩١).

(٢) أي: مستأنف لم يسبق به قدر ولا علم من الله تعالى وإنما يعلمه بعد وقوعه.

الرابع: أنه يتضمن أنه مختار لما يفعله محدث له بمشيئته وإرادته ليس لازماً لذاته[١].

الخامس: أنه يدل على حدوث هذا المقدور وأنه كان بعد أن لم يكن فإنه يقدره ثم يخلقه.

قوله: «فويل لمن صار لله تعالى في القدر خصيماً وأحضر للنظر فيه قلباً سقيماً، لقد التمس بوهمه في فحص الغيب سراً كتيماً، وعاد بما قال فيه أفاكاً أثيماً».

اعلم أن القلب له حياة وموت ومرض وشفاء، وذلك أعظم مما للبدن، قال تعالى: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢]، أي كان ميتاً بالكفر فأحييناه بالإيمان، فالقلب الصحيح الحي إذا عرض عليه الباطل والقبائح نفر منها بطبعه وأبغضها ولم يلتفت إليها، بخلاف القلب الميت فإنه لا يفرق بين الحسن والقبيح، كما قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: هلك من لم يكن له قلب يعرف به المعروف والمنكر.

وكذلك القلب المريض بالشهوة فإنه لضعفه يميل إلى ما يعرض له من ذلك بحسب قوة المرض وضعفه.

ومرض القلب نوعان كما تقدم مرض شهوة ومرض شبهة، وأردؤها مرض الشبهة وأردأ الشبه ما كان من أمر القدر، وقد يمرض القلب ويشتد مرضه ولا يشعر به صاحبه لاشتغاله وانصرافه عن معرفة صحته وأسبابها، بل قد يموت وصاحبه لا يشعر بموته وعلامة ذلك أنه لا تؤلمه جراحات القبائح ولا يوجعه جهله بالحق وعقائده الباطلة، فإن القلب إذا كان فيه حياة تألم بورود القبيح عليه وتألم بجهله بالحق بحسب حياته و:

.... ما لجرح بميت إيلام

وقد يشعر بمرضه ولكن يشتد عليه تحمل مرارة الدواء والصبر عليها فيؤثِر بقاء ألمه على مشقة الدواء فإن دواءه، في مخالفة الهوى وذلك أصعب شيء على النفس وليس له أنفع منه.

---

(١) هذا رد على الفلاسفة القائلين بأن العالم لازم لله أزلاً وأبداً، انظر: الفتاوى (٥/ ٥٣٩).

وتارة يوطن نفسه على الصبر ثم ينفسخ عزمه ولا يستمر معه لضعف علمه وبصيرته وصبره، كمن دخل في طريق مخوف مفض إلى غاية الأمن وهو يعلم أنه إن صبر عليه انقضى الخوف وأعقبه الأمن فهو محتاج إلى قوة صبر وقوة يقين بما يصير إليه، ومتى ضعف صبره ويقينه رجع من الطريق ولم يتحمل مشقتها ولا سيما إن عدم الرفيق واستوحش من الوحدة، وجعل يقول أين ذهب الناس فلي أسوة بهم، وهذه حال أكثر الخلق وهي التي أهلكتهم، فالصابر الصادق لا يستوحش من قلة الرفيق ولا من فقده إذا استشعر قلبه مرافقة الرعيل الأول: ﴿ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾ [النساء: ٦٩].

وما أحسن ما قال أبو محمد عبد الرحمن بن إسماعيل المعروف بأبي شامة في كتاب الحوادث والبدع: «حيث جاء الأمر بلزوم الجماعة فالمراد لزوم الحق واتباعه، وإن كان المتمسك به قليلاً والمخالف له كثيراً، لأن الحق هو الذي كانت عليه الجماعة الأولى من عهد النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم، ولا ننظر إلى كثرة أهل الباطل بعدهم».

وعن الحسن البصري رحمه الله أنه قال: «السنة والذي لا إله إلا هو بين الغالي والجافي، فاصبروا عليها رحمكم الله، فإن أهل السنة كانوا أقل الناس فيما مضى وهم أقل الناس فيما بقي الذين لم يذهبوا مع أهل الإتراف في إترافهم ولا مع أهل البدع في بدعتهم وصبروا على سنتهم حتى لقوا ربهم، فكذلك فكونوا».

وعلامة مرض القلب عدوله عن الأغذية النافعة الموافقة إلى الأغذية الضارة، وعدوله عن دوائه النافع إلى دوائه الضار.

فههنا أربعة أشياء: غذاء نافع، ودواء شاف، وغذاء ضار، ودواء مهلك.

فالقلب الصحيح يؤثر النافع الشافي على الضار المؤذي والقلب المريض بضد ذلك[١].

وأنفع الأغذية غذاء الإيمان، وأنفع الأدوية دواء القرآن، وكل منهما فيه الغذاء والدواء، فمن طلب الشفاء في غير الكتاب والسنة فهو من أجهل الجاهلين وأضل الضالين، فإن الله تعالى يقول: ﴿قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۚ وَٱلَّذِينَ لَا

(١) انظر: إغاثة اللهفان (١/ ٨١).

يُؤْمِنُونَ فِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾ [الإسراء: ٨٢]، و«من» في قوله: ﴿مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾ لبيان الجنس لا للتبعيض، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [يونس: ٥٧].

فالقرآن هو الشفاء التام من جميع الأدواء القلبية والبدنية وأدواء الدنيا والآخرة، وما كل أحد يؤهل للاستشفاء به، وإذا أحسن العليل التداوي به ووضعه على دائه بصدق وإيمان وقبول تام واعتقاد جازم واستيفاء شروطه لم يقاوم الداء أبداً، وكيف تقاوم الأدواء كلام رب الأرض والسماء الذي لو نزل على الجبال لصدعها أو على الأرض لقطعها، فما من مرض من أمراض القلوب والأبدان إلا وفي القرآن سبيل الدلالة على دوائه وسببه والحمية منه لمن رزقه الله فهماً في كتابه[1].

وقوله: «لقد التمس بوهمه في فحص الغيب سراً كتيماً»، أي: طلب بوهمه في البحث عن الغيب سراً مكتوماً، إذ القدر سر الله في خلقه، فهو يروم ببحثه الاطلاع على الغيب، وقد قال تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾﴾ [الجن: ٢٦] إلى آخر السورة.

وقوله: «وعاد بما قال فيه»، أي: في القدر، «أفاكاً» كذاباً، «أثيماً»، أي: مأثوماً.

---

(١) انظر: زاد المعاد (٤/ ٣٥٢).



عناصر الموضوع:

١ غرض المصنف من عقد هذا الباب:

تقرير مرتبة من مراتب القدر وهي الكتابة في اللوح المحفوظ، فيجب الإيمان إيماناً جازماً بأن اللوح حق كما قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴿٢٢﴾﴾ [البروج: ٢١ ـ ٢٢].

٢ مناسبة هذا الباب لما سبق:

ذكر المصنف أن من الإيمان: الإيمان بعلم الله الشامل لكل شيء، فناسب أن يذكر بقية مراتب القدر وهي مرتبة الكتابة والمشيئة.

٣ معاني الكلمات:

الكلمة	المعنى
المبرم	المعقود الموثق.
السقيم	المريض.
الأفاك	الكذاب.

٤ معنى كلام الطحاوي: «ونؤمن باللوح والقلم وبجميع ما فيه قد رُقم، فلو اجتمع الخلق كلهم على شيء كتبه الله تعالى فيه أنه كائن ليجعلوه غير كائن لم يقدروا عليه. ولو اجتمعوا كلهم على شيء لم يكتبه الله تعالى ليجعلوه كائناً لم يقدروا عليه، جف القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة، وما أخطأ العبد لم يكن ليصيبه، وما أصابه لم يكن ليخطئه»:

ونؤمن إيماناً جازماً وتصديقاً لازماً بأن اللوح حق كما قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴿٢٢﴾﴾ [البروج: ٢١ ـ ٢٢]. وهذا اللوح المحفوظ هو الذي كتب الله فيه مقادير الخلائق جميعاً. والقلم المذكور هو الذي خلقه الله تعالى وكتب به اللوح المحفوظ، كما قال النبي ﷺ: **(أول ما خلق الله القلم فقال**

له: اكتب، قال: يا رب وماذا أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة)[١].

فكل شيء مكتوب في هذا اللوح، لو أراد الخلق جميعاً أن يجعلوا ما قدره الله كائناً أن يجعلوه غير كائن ما استطاعوا، ولو أرادوا أن يوجدوا ما كتبه الله غير كائن ما استطاعوا، جف القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة فلا يتغير منه شيء، وما أخطأ العبد لم يكن ليصيبه، وما أصابه لم يكن ليخطئه، وما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

٥ الأدلة على الإيمان باللوح والقلم:

ـ قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴿٢٢﴾﴾ [البروج: ٢١ ـ ٢٢].

ـ عن عبادة بن الصامت قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **(إن أول ما خلق الله القلم فقال له: اكتب، قال: يا رب وماذا أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة)**[٢].

٦ هل القلم أول المخلوقات؟:

للعلماء في ذلك أقوال:

الأول: قول الجمهور: إن العرش مخلوق قبل القلم، والدليل على ذلك في حديث عبد الله بن عمر حيث قال: قال رسول الله ﷺ: **(كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء)**[٣].

الثاني: قيل: إن القلم قبل العرش، واستدل من قال به بحديث عبادة بن الصامت: **(إن أول ما خلق الله القلم قال له: اكتب)**[٤]. وهذا اختيار ابن جرير الطبري وابن الجوزي[٥].

والثالث: قيل: بل خلق الماء قبل العرش.

والراجح القول الأول لما يأتي:

١ ـ إن حديث عبد الله بن عمر صريح في أسبقية العرش.

---

(١) أبو داود (٤٧٠٠)، وأحمد (٥/٣١٧). (٢) أبو داود (٤٧٠٠)، وأحمد (٥/٣١٧).

(٣) أخرجه مسلم (٢٦٥٣).

(٤) أخرجه أحمد (٢٣١٧٩)، وأبو داود (٤٧٠٠)، والترمذي (٢١٥٥).

(٥) انظر: البداية والنهاية (١/٨).

٢ ـ إن حديث عبادة يمكن الجمع بينه وبين حديث عبد الله بن عمر بأن يقال: الأولية مقيدة بالكتابة أي عند أول خلقه للقلم قال له: اكتب، وهذا على رواية نصب «أول» على أنه ظرف ونصب «القلم» على أنه مفعول، والكلام جملة واحدة، وهذا هو الصحيح ويؤيده رواية: (لما خلق الله القلم). فهذه مقيدة بالكتابة والتقدير مقارن للخلق فيدفعهم الحديث مع حديث ابن عمر، وعلى رواية: رفع «أول» و«القلم» ـ أنهما جملة: (وقال له: اكتب) جملة أخرى والكلام يكون من جملتين فيكون معنى الحديث أن أول المخلوقات في العالم المشاهد القلم، قال له: اكتب مقادير الخلائق، فيتفق معنى الحديثين بذلك، إذ حديث ابن عمر صريح في أن العرش سابق على التقدير ـ والتقدير مقارن لخلق القلم.

(٧) الأقلام أربعة كما دلّت عليه السنّة:

الأول: القلم الشامل لجميع المخلوقات المتقدم ذكره.

الثاني: القلم الذي هو خبر خلق آدم وهو قلم عام أيضاً، لكن لبني آدم، وقد وردت آثار تدل على أن الله قدر مقادير بني آدم بعد خلق أبيهم منها حديث عمر: (**إن الله خلق آدم عليه السلام ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذريته**) الحديث.

الثالث: القلم الذي مع الملك (**ويؤمر بأربع كلمات حين يرسل إلى الجنين في بطن أمه فينفخ فيه الروح ويأمر بأربع كلمات: رزقه، وأجله، وشقي أو سعيد**).

الرابع: قلم التكليف الموضوع على العبد عند بلوغه بأيدي الكرام الكاتبين الذين يكتبون ما يفعله بنو آدم.

(٨) معنى قول النبي ﷺ: (رفعت الأقلام وجفت الصحف):

معنى ذلك: أن هذا الأمر قد فرغ منه فلا تغير فيه ولا تبديل، فكل يجري عليه ما كتب له إن خيراً فخير وإن شراً فشر: (**اعملوا فكل ميسّر لما خلق له، أما أهل السعادة فييسرون إلى عمل أهل السعاد، وأهل الشقاوة فييسرون إلى عمل أهل الشقاوة**).

(٩) موقف أهل السنّة من سبق علم الله للمخلوقات قبل إيجادها:

أولاً: أهل السنّة والجماعة يقولون: إن الله قد سبق علمه بالكائنات، وقد قدر مقاديرها قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، ووضع كل شيء على ما علم وقدره ورضي به.

ثانياً: وأنكر غلاة القدرية والمعتزلة أن الله كان عالماً بالأزل وقالوا: إن الله لا يعلم أفعال العباد حتى يفعلوه تنزّه الله عن قولهم.

ويرد عليهم بما يأتي:

١ ـ من الكتاب: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ١٤﴾ [الملك: ١٤].

٢ ـ ومن السنّة قول الرسول ﷺ: **(قدر الله مقادير الخلائق)** الحديث.

٣ ـ دليل عقلي وهو أننا نرى في هذه المخلوقات من الغرائب والحكم ما لا يتصور إيجاده إلّا إلٰه عالم سبق علمه إيجاده.

١٠ معنى قول الشافعي: «ناظروا القدرية بالعلم فإن أقرّوا به خصموا وإن أنكروا كفروا»:

الله تعالى يعلم ما كان وما يكون، فمن أنكر علم الله السابق بأفعال العباد وأن الله قسمهم قبل خلقهم إلى شقي وسعيد وكتب ذلك عنده، فقد كذب بالقرآن فيكفر بذلك وإن أقر بذلك وأنكر خلق الله لأفعال العباد فقد خصم.

١١ الرد على من زعم أن الأخذ بالأسباب ينافي التوكل:

هذه الدعوى باطلة لأن الاكتساب وتعاطي الأسباب لا ينافي التوكل، بل الاكتساب منه ما هو واجب وما هو مستحب وما هو مباح وما هو مكروه وما هو حرام، وقد كان الرسول ﷺ أفضل المتوكلين على الله، ومع ذلك يلبس الدروع في الحرب ويمشي في الأسواق للاكتساب، حتى قال عنه المشركون: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٧]. د، ص٢١٠ ـ ٢١١.

المقصود أن هذه المسألة من المسائل التي عرفت عن أهل التصوف والجهمية وهؤلاء وإن وافقوا الشرع في إثبات القدر والعلم السابق وأن الله خالق لأفعالهم غير أنهم مخطئون بالاحتجاج بالقدر على ترك الأسباب والاكتساب.

١٢ الجواب على شبهة المعتزلة أن يكون العبد قادراً على تغيير علم الله:

القول إن قدرته على الفعل لا تستلزم تغير العلم، إنما ظننتم أنه يتغير العلم إذا وقع الفعل، ولو وقع الفعل لكان هو المعلوم لعدم الوقوع؛ لأنه يستحيل وقوع الفعل مع علم الله بعدم وقوعه، ولكن إن وقع كان الله قد علم أنه يقع وإن لم يقع كان الله قد علم أنه لا يقع، وعلم الله لا نعلمه إلّا بما ظهر لنا.

(١٣) ذكر بعض النصوص في شأن القدرية:

١ ـ منها: «القدرية مجوس هذه الأمة، إن مرضوا فلا تعودوهم، وإن ماتوا فلا تشهدوهم».

٢ ـ ومنها ما روي عن عمر عن النبي ﷺ قال: **(لا تجالسوا أهل القدر ولا تفاتحوهم).**

وكل ما روي مرفوعاً للنبي ﷺ فهو ضعيف، وإنما الصحيح الموقوف منها على أصحابها.

ومنها ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «القدر نظام التوحيد فمن وحّد الله وكذب بالقدر نقض تكذيبه توحيده».

(١٤) معنى قول الطحاوي: «وعلى العبد أن يعلم أن الله قد سبق علمه في كل كائن من خلقه فقدر ذلك تقديراً محكماً مبرماً، ليس فيه ناقض، ولا معقب، ولا مزيل، ولا مغير، ولا ناقص، ولا زائد في خلقه في سماواته وأرضه، وذلك من عقد الإيمان، وأصول المعرفة، والاعتراف بتوحيد الله تعالى وربوبيته، كما قال تعالى في كتابه: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢]، وقال تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨]:

يجب على العبد أن يعلم أن الله تعالى قد سبق علمه في كل كائن من خلقه، فعلم كل شيء قبل أن يخلقه، وذلك على وجه الإجمال والتفصيل، وقدر ذلك تقديراً محكماً ليس فيه ما ينقصه أو يؤخره، أو يزيله أو يغيره، أو ينقص فيه، أو يزيد، لا في خلق السمٰوات ولا في خلق الأرض، ولا ما بينهما، بل كل شيء علمه الله تعالى وقدره وكتبه، وهذا العلم من ضروريات ولوازم الإيمان، ومن أصول المعرفة بالله ومن لوازم الإقرار بربوبيته ﷻ، فكل شيء علمه الله تعالى كما يكون، وكتب ذلك في اللوح المحفوظ، وأراده وخلقه فعلاً.

(١٥) وجه اعتبار القدرية مجوس هذه الأمة:

وجهه هو أن المجوس يدعون أن للكون خالقين هما النور إلٰه الخير، والظلمة إلٰه الشر.

والقدرية زعموا أن للكون خالقين غير الله، فالناس عندهم إنما يخلقون أفعال أنفسهم فهم شاركوهم من حيث تعدد الإلٰه.

(١٦) معنى قول ابن عباس رضي الله عنهما: «القدر نظام التوحيد»:

إن الإيمان بالقدر يتضمن الإيمان بعلم الله والعلم صفة من صفاته وهو توحيد الأسماء والصفات فيجب الإيمان بعلم الله القديم وما أظهره من علمه الذي لا يحاط به وكتابته مقادير الخلائق.

(١٧) أصول التقدير المطابق للعلم:

الأصول خمسة:

الأول: أنه عالم بالأمور المقدرة قبل كونها ولازمه إثبات علم الله القديم وفيه ردّ على من نفى علم الله القديم.

الثاني: التقدير يتضمن مقادير المخلوقات، فالله جعل لكل شيء قدراً وقال تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢]، فهو عالم بالكليات والجزئيات.

الثالث: أنه يتضمن أنه أخبر بذلك وأظهره قبل وجود المخلوقات إخباراً مفصلاً، فيقتضي أنه يمكن أن يعلم العباد الأمور قبل وجودها علماً مفصلاً، فيدل ذلك بطريق التسمية أن الخالق أولى بهذا العلم، فكيف إذا كان يعلم بذلك كيف لا يعلمه وهو لازمه إثبات علم الله القديم إذا كان يعلم عباده.

الرابع: أنه يتضمن أنه مختار في كل ما يفعله محدثاً له بمشيئته وإرادته ليس لازماً لذاته، ولازمه إثبات علم الله القديم.

الخامس: أنه يدل على حدوث هذا المقدور وأنه كان بعد أن لم يكن، فإنه يقدره ثم يخلقه، ولازمه إثبات علم الله القديم.

(١٨) معنى قول الطحاوي: «فويل لمن صار لله تعالى في القدر خصيماً، وأحضر للنظر فيه قلباً سقيماً، لقد التمس بوهمه في فحص الغيب سراً كتيماً، وعاد بما قال فيه أفاكاً أثيماً»:

فكل من خاصم الله تعالى في قدره وكذب بشيء من ذلك، فالويل له، إذ أنكر علم الرب وقدرته، وويل لمن نظر في القدر بقلب مريض، فضلاً عن معرفة الحق والصواب، إذ اعتمد على الأوهام المريضة في فحص الغيب والتماس السر المكتوم الذي ستره الله تعالى عن جميع خلقه، ومهما قال في القدر فسوف يعود من ذلك القول، ويصبح كذاباً، إذ أنه لن يصل إلى حقيقة القدر أبداً، وقد باء بالإثم حيث التمس علم ما حظر عنه علمه، وأمر بالكف عن فحصه ومحاولة كشفه.

١٩ حياة القلب[1] وموته، ومرضه وشفاؤه:

الدليل على أن للقلب حياة وموتاً ومرضاً وشفاءً قوله تعالى: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [الأنفال: ٤٩].

والقلب الحي هو الذي يفرق بين الطبائع ولا تضره الفتن ولا يلتفت إليها.

والقلب الميت هو الذي لا يفرّق بين الحسن والقبيح والطاعة والمعصية ولا غيرها. قال ابن مسعود: «هلك من لم يكن له قلب يعرف به المعروف والمنكر».

٢٠ أنواع مرض القلب:

مرض القلب نوعان وهما:

الأول: مرض شبهة وعلامته أن يميل إلى كل شبهة تعرض له وهذا النوع أخطرهما لأنه خاص بالعقيدة فيؤدي بالإنسان إلى الكفر، أما الشهوة فيفعلها الإنسان وهو معتقد أنها حرام.

الثاني: مرض شهوة، وعلامته أن يميل إلى الشهوات المخالفة لشرع الله.

٢١ الدواء النافع لأمراض القلب:

الدواء النافع ذلك اتباع ما جاء في الكتاب والسنّة، فإن أنفع الأغذية غذاء الإيمان، وأنفع الأدوية دواء القرآن، والصبر على الإيمان، ومخالفة الهوى. قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾ [الإسراء: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ﴾ [فصلت: ٤٤].

٢٢ شروط الاستفادة من التداوي بالقرآن:

الشروط هي:

الأول: أن يحسن العليل التداوي به.

ثانياً: أن يضعه على دائه بصدق وإيمان وقبول تام.

والموانع هي:

١ ـ ضعف الدعاء.

٢ ـ ضعف القلب، وضعفه على الله وقت الدعاء.

٣ ـ وجود موانع عن قبوله كأكل الحرام.

---

(١) انظر: إغاثة اللهفان (١/ ٨١ ـ ٨٤).

٢٣ الخلاصة:

١ - نؤمن إيماناً جازماً وتصديقاً لازماً بأن اللوح حق كما وردت بذلك النصوص الشرعية.

٢ - كل شيء مكتوب في هذا اللوح، ولو أراد الخلق جميعاً أن يجعلوا ما قدره الله كائناً أن يجعلوه غير كائن ما استطاعوا، ولو أرادوا أن يوجدوا ما كتبه الله غير كائن ما استطاعوا، جف القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة فلا يتغير منه شيء.

٣ - ما أخطأ العبد لم يكن ليصيبه، وما أصابه لم يكن ليخطئه، وما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

٤ - العرش مخلوق قبل القلم، والدليل على ذلك في حديث عبد الله بن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ: **(كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء)**.

٥ - الأقلام أربعة كما دلّت عليه السنّة.

٦ - أهل السنّة والجماعة يقولون: إن الله قد سبق علمه بالكائنات، وقد قدر مقاديرها قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة ووضع كل شيء على ما علم وقدره ورضي به.

٧ - يقول الشافعي: «ناظروا القدرية بالعلم فإن أقرّوا به خصموا وإن أنكروا كفروا».

٨ - الاكتساب وتعاطي الأسباب لا ينافي التوكل.

٩ - كل ما روي مرفوعاً للنبي ﷺ في شأن القدرية فهو ضعيف، وإنما الصحيح الموقوف منها على أصحابها.

١٠ - يجب على العبد أن يعلم أن الله تعالى قد سبق علمه في كل كائن من خلقه، فعلم كل شيء قبل أن يخلقه، وذلك على وجه الإجمال والتفصيل.

١١ - والقدرية زعموا أن للكون خالقين غير الله، فالناس عندهم إنما يخلقون أفعال أنفسهم، فهم شاركوا المجوس من حيث تعدد الإله.

١٢ - إن الإيمان بالقدر يتضمن الإيمان بعلم الله، والعلم صفة من صفاته وهو توحيد الأسماء والصفات، فيجب الإيمان بعلم الله القديم وما أظهره من علمه الذي لا يحاط به وكتابته مقادير الخلائق.

١٣ ـ كل من خاصم الله تعالى في قدره وكذب بشيء من ذلك، فالويل له إذا أنكر علم الرب وقدرته، وويل لمن نظر في القدر بقلب مريض، فضل عن معرفة الحق والصواب.

١٤ ـ والقلب الحي هو الذي يفرق بين الطبائع ولا تضره الفتن ولا يلتفت إليها.

١٥ ـ والقلب الميت هو الذي لا يفرق بين الحسن والقبيح والطاعة والمعصية ولا غيرها.

١٦ ـ مرض القلب نوعان وهما: مرض شبهة ومرض شهوة.

١٧ ـ الدواء النافع لأمراض القلب اتباع ما جاء في الكتاب والسنّة.

١٨ ـ شروط الاستفادة من التداوي بالقرآن أن يحسن العليل التداوي به، وأن يضعه على دائه بصدق وإيمان وقبول تام. وذلك مع انتفاء الموانع.

(٢٤) المناقشة:

- **س١:** ما المراد باللوح والقلم، وما حكم الإيمان بهما؟
- **س٢:** ما الأدلة على الإيمان باللوح والقلم؟
- **س٣:** هل القلم أول المخلوقات؟ اذكر الأقوال مع الترجيح.
- **س٤:** هل كتبت المقادير بقلم واحد؟ وضّح ذلك مع بيان أنواع الأقلام.
- **س٥:** هل تكون التقوى للخالق أم للمخلوق؟
- **س٦:** ما معنى قول النبي ﷺ: **«رفعت الأقلام وجفت الصحف»**؟
- **س٧:** ما موقف أهل السنّة ومخالفيهم من سبق علم الله للمخلوقات قبل إيجادها؟ وكيف ترد على المخالف؟
- **س٨:** ما معنى قول الشافعي: «ناظروا القدرية بالعلم، فإن أقروا به خصموا وإن أنكروا كفروا»؟
- **س٩:** ما الرد على من زعم أن الأخذ بالأسباب ينافي التوكل؟
- **س١٠:** ما الجواب على شبهة المعتزلة القائلة: إن قدرة العبد على الفعل يلزم أن يكون العبد قادراً على تغيير علم الله؟
- **س١١:** اذكر بعض النصوص الواردة في شأن القدرية.
- **س١٢:** ما وجه اعتبار القدرية مجوس هذه الأمة؟
- **س١٣:** ما معنى قول ابن عباس رضي الله عنهما: «القدر نظام التوحيد»؟
- **س١٤:** ما أصول التقدير المطابق للعلم؟ وما لازم كل أصل؟

- **س١٥:** ما الدليل على أن للقلب حياة وموتاً، ومرضاً وشفاءً؟
- **س١٦:** ما علامة القلب الصحيح والقلب الميت؟
- **س١٧:** وضح كيف يشتمل الإيمان بالقدر على الاعتراف بالله وربوبيته؟
- **س١٨:** ما حكم الشرع فيمن زعم أن العباد يخلقون أفعال أنفسهم؟ ولِمَ؟
- **س١٩:** ما أنواع مرض القلب؟ وما علامة مرض كل منها؟ وأي الأنواع أخطر؟ وضّح ذلك.
- **س٢٠:** اذكر الدواء النافع لأمراض القلوب بنوعيها؟
- **س٢١:** ما هي شروط الاستفادة من التداوي بالقرآن؟ اذكرها مع بيان موانع تأثير الدعاء.

العرش والكرسي

* كلام ابن أبي العز:

١ ـ غرض المصنف من عقد هذا الباب.

٢ ـ مناسبة هذا الباب لما سبق.

٣ ـ معاني الكلمات.

٤ ـ معنى كلام الطحاوي: «والعرش والكرسي حق».

٥ ـ معنى العرش لغةً واصطلاحاً.

٦ ـ الأدلة على ثبوت العرش.

٧ ـ تحريف الفلاسفة والمتكلمين لمعنى العرش والرد عليهم.

٨ ـ معنى الكرسي لغةً واصطلاحاً.

٩ ـ الأدلة على إثبات الكرسي.

١٠ ـ الفرق بين العرش والكرسي.

١١ ـ مذهب أهل السنّة في الكرسي ومذهب المخالفين لهم.

١٢ ـ معنى كلام الطحاوي: «وهو مستغن عن العرش وما دونه، محيط بكل شيء وفوقه، وقد أعجز عن الإحاطة خلقه».

١٣ ـ الأدلة على استغناء الله تعالى عن خلقه.

١٤ ـ الأدلة على إحاطة الله بخلقه.

١٥ ـ الأدلة على علوّ الله ﷻ.

١٦ ـ أنواع العلو.

١٧ ـ المقصود بقوله تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ١٦﴾.

١٨ ـ الاستدلال بقوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰهَـٰمَـٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَـٰبَ ۝٣٦﴾ [غافر: ٣٦]. وقال فرعون معارضاً لموسى، ومكذباً له في دعوته إلى الإقرار برب العالمين، الذي على العرش استوى وعلى الخلق اعتلى.

١٩ ـ قول الشارح ابن أبي العز: «من نفى العلو فهو فرعوني، ومن أثبته فهو موسوي».

٢٠ ـ حكم أبي حنيفة فيمن أنكر أن يكون الله فوق العرش.

٢١ ـ اعتراض المعطلة على الدليل العقلي والجواب عليه.

٢٢ ـ اعتراض المعطلة على الدليل الفطري والجواب عليه.

٢٣ ـ الجمع بين علو الله وبين معيته وقربه من خلقه.

٢٤ ـ المخالفون للسلف في مسألة العلو.

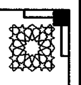
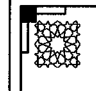
٢٥ ـ مذهب الأشاعرة والماتريدية في العلو.

٢٦ ـ الرد على الأشاعرة في دعواهم: إن الله لا داخل العالم ولا خارجه.

٢٧ ـ شبهات المعطلة حول مسألة العلو.

٢٨ ـ الخلاصة.

٢٩ ـ المناقشة.

العرش والكرسي

قال ابن أبي العز:

وقوله: «والعرش والكرسي حق».

كما بيّن تعالى في كتابه قال تعالى: ﴿ذُو ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡمَجِيدُ ۝١٥ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ ۝١٦﴾ [البروج: ١٥ ـ ١٦]، ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلۡعَرۡشِ﴾ [غافر: ١٥]، ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ [الأعراف: ٥٤]، في غير ما آية من القرآن: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥]، ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: ١١٦]، ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ۩ ۝٢٦﴾ [النمل: ٢٦]، ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾ [غافر: ٧]، ﴿وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ﴾ [الحاقة: ١٧]، ﴿وَتَرَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنۡ حَوۡلِ ٱلۡعَرۡشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡۖ﴾ [الزمر: ٧٥]، وفي دعاء الكرب المروي في الصحيح: «لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا هو رب العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السموات ورب الأرض رب العرش الكريم»[١].

وروى الإمام أحمد في حديث الأوعال عن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (هل تدرون كم بين السماء والأرض؟ قال: قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: بينهما مسيرة خمسمائة سنة ومن كل سماء إلى سماء مسيرة خمسمائة سنة، وكِثفُ كل سماء مسيرة خمسمائة، وفوق السماء السابعة بحر بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض، ثم فوق ذلك ثمانية أوعال بين ركبهن وأظلافهن كما بين السماء والأرض، ثم فوق العرش بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض، والله فوق ذلك ليس يخفى عليه من أعمال بني آدم شيء)[٢]. ورواه أبو داود والترمذي وابن ماجه.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٣٤٥)، ومسلم (٢٧٣٠).

(٢) أخرجه أحمد (١/٢٠٦ ـ ٢٠٧)، وأبو داود (٤٧٢٣)، والترمذي (٣٣٢٠)، وابن ماجه (١٩٣).

وروى أبو داود وغيره بسنده إلى رسول الله ﷺ من حديث الأطيط أنه ﷺ قال: «إن عرشه على سمواته لهكذا، وقال بأصابعه مثل القبة»[١] الحديث.

وفي «صحيح البخاري» عن رسول الله ﷺ أنه قال: (إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة وفوقه عرش الرحمٰن)[٢]، يروى: وفوقه بالنصب على الظرفية وبالرفع على الابتداء، أي: وسقفه.

وذهب طائفة من أهل الكلام إلى أن العرش فلك مستدير من جميع جوانبه محيط بالعالم من كل جهة وربما سموه الفلك الأطلس والفلك التاسع، وهذا ليس بصحيح، لأنه قد ثبت في الشرع أن له قوائم تحمله الملائكة كما قال ﷺ: (فإن الناس يصعقون فأكون أول من يفيق، فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش فلا أدري أفاق قبلي أم جوزي بصعقة الطور)[٣].

والعرش في اللغة عبارة عن السرير الذي للملك كما قال تعالى عن بلقيس: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النمل: ٢٣]، وليس هو فلكاً ولا تفهم منه العرب ذلك، والقرآن إنما نزل بلغة العرب، فهو سرير ذو قوائم تحمله الملائكة وهو كالقبة على العالم، وهو سقف المخلوقات، فمن شعر أمية بن أبي الصلت:

مجدوا الله فهو للمجد أهل ... ربنا في السماء أمسى كبيرا
بالبناء العالي الذي بهر النا ... س وسوّى فوق السماء سريرا
شرجعاً لا يناله بصر العين ... ترى حوله الملائك صورا

الصور هنا جمع أصور وهو: المائل العنق لنظره إلى العلو، والشرجع هو: العالي المنيف،، والسرير هو العرش في اللغة.

ومن شعر عبد الله بن رواحة ؓ الذي عرَّض به عن القراءة لامرأته حين اتهمته بجاريته:

شهدت بأن وعد الله حق ... وأن النار مثوى الكافرينا
وأن العرش فوق الماء طاف ... وفوق العرش رب العالمينا
وتحمله ملائكة شداد ... ملائكة الإله مسومينا

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٧٢٦)، وابن خزيمة في التوحيد (ص١٠٣ ـ ١٠٤).
(٢) أخرجه البخاري (٧٤٢٣).
(٣) متفق عليه.

ذكره ابن عبد البر وغيره من الأئمة، وروى أبو داود عن النبي ﷺ أنه قال: (أذن لي أن أحدث عن ملك من ملائكة الله ﷻ من حملة العرش إن ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام)[1]. ورواه ابن أبي حاتم ولفظه: (تخفق الطير سبعمائة عام).

وأما من حرَّف كلام الله وجعل العرش عبارة عن الملك كيف يصنع بقوله تعالى: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٧]، وقوله: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [هود: ٧]، أيقول: ويحمل ملكه يومئذ ثمانية، وكان ملكه على الماء، ويكون موسى ﷺ آخذاً بقائمة من قوائم الملك، هل يقول هذا عاقل يدري ما يقول؟!.

وأما الكرسي فقال تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وقد قيل هو العرش، والصحيح أنه غيره، نقل ذلك عن ابن عباس ﷺ وغيره. روى ابن أبي شيبة في كتاب صفة العرش والحاكم في مستدركه وقال: إنه على شرط الشيخين ولم يخرجاه عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [البقرة: ٢٥٥] أنه قال: الكرسي موضع القدمين والعرش لا يقدر قدره إلا الله تعالى. وقد روي مرفوعاً، والصواب أنه موقوف على ابن عباس.

وقال السدي: السموات والأرض في جوف الكرسي بين يدي العرش.

وقال ابن جرير: قال أبو ذر ﷺ: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (ما الكرسي في العرش إلا كحلقة من حديد ألقيت بين ظهري فلاة من الأرض)[2].

وقيل: كرسيه علمه، وينسب إلى ابن عباس، والمحفوظ عنه ما رواه ابن أبي شيبة كما تقدم، ومن قال غير ذلك فليس له دليل إلا مجرد الظن والظاهر أنه من جراب الكلام المذموم كما قيل في العرش، وإنما هو كما قال غير واحد من السلف بين يدي العرش كالمرقاة إليه.

قوله: «وهو مستغن عن العرش وما دونه محيط بكل شيء وفوقه وقد أعجز عن الإحاطة خلقه».

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٧٢٧)، وإسناده صحيح.

(٢) أخرجه ابن جرير في تفسيره (٥٧٩٤).

أما قوله: وهو مستغن عن العرش وما دونه، فقال تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧]، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥]، وإنما قال الشيخ رحمه الله هذا الكلام هنا لأنه لما ذكر العرش والكرسي ذكر بعد ذلك غناه سبحانه عن العرش وما دون العرش ليبين أن خلقه العرش لاستوائه عليه ليس لحاجته إليه بل له في ذلك حكمة اقتضته، وكون العالي فوق السافل لا يلزم أن يكون السافل حاوياً للعالي محيطاً به حاملاً له، ولا أن يكون الأعلى مفتقراً إليه، فانظر إلى السماء كيف هي فوق الأرض وليست مفتقرة إليها، فالرب تعالى أعظم شأناً وأجل من أن يلزم من علوه ذلك، بل لوازم علوه من خصائصه وهي حمله بقدرته للسافل وفقر السافل إليه وغناه هو سبحانه عن السافل وإحاطته عز وجل به، فهو فوق العرش مع حمله بقدرته للعرش وحملته، وغناه عن العرش وفقر العرش إليه وإحاطته بالعرش وعدم إحاطة العرش به، وحصره للعرش وعدم حصر العرش له، وهذه اللوازم منتفية عن المخلوق.

ونفاة العلو أهل التعطيل لو فصلوا بهذا التفصيل لهدوا إلى سواء السبيل وعلموا مطابقة العقل للتنزيل، ولسلكوا خلف الدليل، ولكن فارقوا الدليل فضلوا عن سواء السبيل، والأمر في ذلك كما قال الإمام مالك رحمه الله لما سئل عن قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤] وغيرها كيف استوى؟ فقال: الاستواء معلوم والكيف مجهول، ويروى هذا الجواب عن أم سلمة رضي الله عنها موقوفاً ومرفوعاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم.

وأما قوله: «محيط بكل بشيء وفوقه»، وفي بعض النسخ: «محيط بكل شيء فوقه»، بحذف الواو من قوله فوقه والنسخة الأولى هي الصحيحة، ومعناها أنه تعالى محيط بكل شيء وفوق كل شيء، ومعنى الثانية أنه محيط بكل شيء فوق العرش، وهذه والله أعلم إما أن يكون أسقطها بعض النساخ سهواً ثم استنسخ بعض الناس من تلك النسخة، أو أن بعض المحرفين الضالين أسقطها قصداً للفساد وإنكاراً لصفة الفوقية، وإلا فقد قام الدليل على أن العرش فوق المخلوقات وليس فوقه شيء من المخلوقات، فلا يبقى لقوله محيط بمعنى محيط بكل شيء فوق العرش والحالة هذه معنى إذ ليس فوق العرش من المخلوقات ما يحيط به، فتعيَّن ثبوت الواو ويكون المعنى: أنه سبحانه محيط بكل شيء وفوق كل شيء.

أما كونه محيطاً بكل شيء فقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ۝٢٠﴾ [البروج: ٢٠] ﴿أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌۢ﴾ [فصلت: ٥٤]، ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا ۝١٢٦﴾ [النساء: ١٢٦]. وليس المراد من إحاطته بخلقه أنه كالفلك وأن المخلوقات داخل ذاته المقدسة تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، وإنما المراد إحاطة عظمته وسعة علمه وقدرته وإنها بالنسبة إلى عظمته كخردلة كما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: ما السماوات السبع والأرضون السبع وما فيهن وما بينهن في يد الرحمن إلا كخردلة في يد أحدكم.

ومن المعلوم ولله المثل الأعلى أن الواحد منا إذا كان عنده خردلة إن شاء قبضها وأحاط قبضته بها، وإن شاء جعلها تحته، وهو في الحالين مباين لها عال عليها فوقها من جميع الوجوه، فكيف بالعظيم الذي لا يحيط بعظمته وصف واصف فلو شاء لقبض السماوات والأرض اليوم وفعل بها كما يفعل بها يوم القيامة فإنه لا يتجدد به إذ ذاك قدرة ليس عليها الآن، فكيف يستبعد العقل مع ذلك أنه يدنو سبحانه من بعض أجزاء العالم وهو على عرشه فوق سمواته أو يدني إليه من يشاء من خلقه، فمن نفى ذلك لم يقدره حق قدره. وفي حديث أبي رزين المشهور الذي رواه عن النبي ﷺ في رؤية الرب تعالى، فقال له أبو رزين: كيف يسعنا يا رسول الله وهو واحد ونحن جميع؟ فقال: (سأنبئك بمثل ذلك في آلاء الله هذا القمر آية من آيات الله كلكم يراه مخلياً به والله أكبر من ذلك)[1]، وإذا أفل تبين أنه أعظم وأكبر من كل شيء فهذا يزيل كل إشكال ويبطل كل خيال.

وأما كونه فوق المخلوقات فقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦۚ﴾ [الأنعام: ١٨] ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٥٠]، وقال ﷺ في حديث الأوعال المتقدم ذكره: (والعرش فوق ذلك والله فوق ذلك كله)، وقد أنشد عبد الله بن رواحة شعره المذكور بين يدي النبي ﷺ وأقره على ما قال وضحك منه، وكذا أنشده حسان بن ثابت رضي الله تعالى عنه قوله:

شهدت بإذن الله أن محمدا رسول الذي فوق السموات من عل

(١) أخرجه أبو داود (٤٧٣١)، وابن ماجه (١٨٠).

وأن أبا يحيى ويحيى كلاهما له عـمـل مـن ربـه مـتـقـبـل
وأن الذي عادى اليهود ابن مريم رسول أتى من عند ذي العرش مرسل
وأنا أخاف الأحقاف إذ قام فيهم يـجـاهـد فـي ذات الإلـه ويـعـدل

فقال النبي ﷺ: (وأنا أشهد).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: (لما قضى الله الخلق كتب في كتاب فهو عنده فوق العرش أن رحمتي سبقت غضبي)(١)، وفي رواية: (تغلب غضبي) رواه البخاري وغيره.

وروى ابن ماجه عن جابر يرفعه قال: (بينا أهل الجنة في نعيمهم إذ سطع لهم نور فرفعوا إليه رؤوسهم فإذا الجبار جل جلاله قد أشرف عليهم من فوقهم وقال: يا أهل الجنة سلام عليكم ثم قرأ قوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾ [يس: ٥٨] فينظر إليهم وينظرون إليه فلا يلتفتون إلى شيء من النعيم ما داموا ينظرون إليه)(٢).

وروى مسلم عن النبي في تفسير قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [الحديد: ٣] بقوله: (أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء)(٣).

والمراد بالظهور هنا العلو ومنه قوله تعالى: ﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ﴾ [الكهف: ٩٧] أي يعلوه.

فهذه الأسماء الأربعة متقابلة، اسمان منها لأزلية الرب ﷻ وأبديته واسمان لعلوه وقربه.

وروى أبو داود عن جبير بن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه عن جده قال: أتى رسول الله ﷺ أعرابي فقال: يا رسول الله، جهدت الأنفس وضاعت العيال ونهكت الأموال وهلكت الأنعام، فاستسق الله لنا نستشفع بك على الله ونستشفع بالله عليك، فقال رسول الله ﷺ: (ويحك أتدري ما تقول؟!)، وسبح رسول الله ﷺ فما زال يسبح حتى عرف ذلك في وجوه أصحابه ثم قال: (ويحك إنه لا يستشفع بالله على أحد من خلقه، شأن الله أعظم من ذلك، ويحك أتدري ما الله؟ إن الله

---

(١) أخرجه البخاري (٣١٩٤)، ومسلم (٢٧٥١).
(٢) سبق تخريجه.
(٣) سبق تخريجه (ص١٩٢).

فوق عرشه وعرشه فوق سمٰواته، وقال بأصابعه مثل القبة عليه، وإنه ليئط به أطيط الرحل بالراكب)[(١)].

وفي قصة سعد بن معاذ يوم بني قريظة لما حكم فيهم أن تقتل مقاتلتهم وتسبى ذراريهم فقال النبي ﷺ: (لقد حكمت فيهم بحكم الملك من فوق سبع سمٰوات)[(٢)]. وهو حديث صحيح أخرجه الأموي في مغازيه وأصله في الصحيحين.

وروى البخاري عن زينب ؓ أنه كانت تفخر عن أزواج النبي ﷺ وتقول: «زوجكن أهاليكن وزوجني الله من فوق سبع سموات»[(٣)].

وعن عمر ؓ أنه مر بعجوز فاستوقفته فوقف معها يحدثها فقال رجل: يا أمير المؤمنين حبست الناس بسبب هذه العجوز، فقال: ويلك أتدري من هذه؟ امرأة سمع الله شكواها من فوق سبع سموات، هذه خولة التي أنزل الله فيها: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَـٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [المجادلة: ١] أخرجه الدارمي[(٤)].

وروى عكرمة عن ابن عباس في قوله: ﴿ثُمَّ لَـَٔاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَـٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ﴾ [الأعراف: ١٧] قال: ولم يستطع أن يقول من فوقهم لأنه قد علم أن الله سبحانه من فوقهم.

ومن سمع أحاديث الرسول ﷺ وكلام السلف وجد منه في إثبات الفوقية ما لا ينحصر.

ولا ريب أن الله سبحانه لما خلق الخلق لم يخلقهم في ذاته المقدسة تعالى الله عن ذلك، فإنه الأحد الصمد، الذي لم يلد، ولم يولد، فتعين أنه خلقهم خارجاً عن ذلك ولو لم يتصف[(٥)] سبحانه بفوقية الذات مع أنه قائم بنفسه غير مخالط للعالم لكان متصفاً بضد ذلك لأن القابل للشيء لا يخلو منه أو من ضده، وضد الفوقية السفول وهو مذموم على الإطلاق لأنه مستقر إبليس وأتباعه وجنوده.

---

(١) أخرجه أبو داود (٧٤٢٦).
(٢) أخرجه البخاري (٣٠٤٣)، ومسلم (١٧٦٨).
(٣) أخرجه البخاري (٧٤٢٠).
(٤) في الرد على الجهمية (ص٢٦). قال الذهبي في العلو (ص١١٣): وهذا إسناد صالح فيه انقطاع، أبو يزيد لم يلحق عمر.
(٥) انظر: مختصر الصواعق (٢/ ٢١٤).

فإن قيل: لا نسلم أنه قابل للفوقية حتى يلزم من نفيها ثبوت ضدها، قيل لو لم يكن قابلاً للعلو والفوقية لم يكن له حقيقة قائمة بنفسها، فمتى أقررتم بأنه ذات قائم بنفسه غير مخالط للعالم وأنه موجود في الخارج ليس وجوده ذهنياً فقط بل وجوده خارج الأذهان قطعاً، وقد علم العقلاء كلهم بالضرورة أن ما كان وجوده كذلك فهو إما داخل العالم وإما خارج عنه، وإنكار ذلك إنكار ما هو أجلى وأظهر من الأمور البديهيات الضرورية بلا ريب، فلا يستدل على ذلك بدليل إلا كان العلم بالمباينة أظهر منه وأوضح وأبين، وإذا كان صفة العلو والفوقية صفة كمال لا نقص فيه ولا يستلزم نقصاً ولا يوجب محذوراً ولا يخالف كتاباً ولا سنة ولا إجماعاً فنفي حقيقته يكون عين الباطل والمحال الذي لا تأتي به شريعة أصلاً، فكيف إذا كان لا يمكن الإقرار بوجوده وتصديق رسله والإيمان بكتابه وبما جاء به رسوله إلا بذلك؟ فكيف إذا انضم إلى ذلك شهادة العقول السليمة والفطر المستقيمة والنصوص الواردة المتنوعة المحكمة على علو الله على خلقه وكونه فوق عباده التي تقرب من عشرين نوعاً[1]:

أحدها: التصريح بالفوقية مقروناً بأداة[2] «من» المعينة للفوقية بالذات كقوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٥٠].

الثاني: ذكرها مجردة عن الأداة كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٨].

الثالث: التصريح بالعروج إليه نحو: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المعارج: ٤] وقوله ﷺ: (فيعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم)[3].

الرابع: التصريح بالصعود إليه كقوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠].

الخامس: التصريح برفعه بعض المخلوقات إليه كقوله تعالى: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾ [النساء: ١٥٨]. وقوله: ﴿إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾ [آل عمران: ٥٥].

السادس: التصريح بالعلو المطلق والدال على جميع مراتب العلو ذاتاً وقدراً

---

(١) انظر: شرح النونية للهراس (ص١٧٩ ـ ٢٥٧).

(٢) الفرق بين النوع الأول والثاني أن المقرونة بأداة (من) نص في معناه لا يقبل التأويل.

(٣) أخرجه البخاري (٥٥٥)، ومسلم (٦٣٢).

وشرفاً كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣] ﴿إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾ [الشورى: ٥١].

السابع: التصريح بتنزيل الكتاب منه كقوله تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٢﴾ [غافر: ٢] ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝١﴾ [الزمر: ١] ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢﴾ [فصلت: ٢] ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢] ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ [النحل: ١٠٢] ﴿حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝٥﴾ [الدخان: ١ ـ ٥].

الثامن: التصريح باختصاص بعض المخلوقات بأنها عنده وأن بعضها أقرب إليه من بعض كقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ [الأعراف: ٢٠٦]، ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ﴾ [الأنبياء: ١٩] ففرق بين من له عموماً وبين من عنده من ملائكته وعبيده خصوصاً، وقول النبي ﷺ في الكتاب الذي كتبه الرب تعالى عن نفسه: (أنه عنده فوق العرش)[1].

التاسع: التصريح بأنه تعالى في السماء وهذا عند المفسرين من أهل السنة على أحد وجهين: إما أن تكون «في» بمعنى «على»، وإما أن يراد بالسماء العلو لا يختلفون في ذلك ولا يجوز الحمل على غيره.

العاشر: التصريح بالاستواء مقروناً بأداة «على» مختصاً بالعرش الذي هو أعلى المخلوقات مصاحباً في الأكثر لأداة «ثم» الدالة على الترتيب والمهلة.

الحادي عشر: التصريح برفع الأيدي إلى الله تعالى كقوله ﷺ: (إن الله يستحيي من عبده إذا رفع إليه يديه أن يردهما صفراً)[2]، والقول بأن العلو قبلة الدعاء فقط باطل بالضرورة والفطرة، وهذا يجده من نفسه كل داع كما يأتي إن شاء الله تعالى.

الثاني عشر: التصريح بنزوله كل ليلة إلى سماء الدنيا والنزول المعقول عند جميع الأمم إنما يكون من علو إلى سفل.

---

(١) سبق تخريجه (٦٣٦).

(٢) أخرجه أبو داود (١٤٨٨)، والترمذي (٣٥٥١)، وابن ماجه (٣٨٦٥)، وحسنه الحافظ في الفتح (١١/ ١٢١).

الثالث عشر: الإشارة إليه حساً إلى العلو كما أشار إليه من هو أعلم بربه وبما يجب له ويمتنع عليه من جميع البشر لما كان بالمجمع الأعظم الذي لم يجتمع لأحد مثله في اليوم الأعظم في المكان الأعظم، قال لهم: أنتم مسؤولون عني فماذا أنتم قائلون؟ قالوا نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت فرفع أصبعه الكريمة إلى السماء رافعاً لها إلى من هو فوقها وفوق كل شيء قائلاً: اللهمَّ اشهد[1]، فكأنّا نشاهد تلك الأصابع الكريمة وهي مرفوعة إلى الله وذلك اللسان الكريم وهو يقول لمن رفع أصبعه إليه: اللهم اشهد، ونشهد أنه بلغ البلاغ المبين وأدى رسالة ربه كما أمر ونصح أمته غاية النصيحة فلا يحتاج مع بيانه وتبليغه وكشفه وإيضاحه إلى تنطع المتنطعين وحذلقة المتحذلقين والحمد لله رب العالمين.

الرابع عشر: التصريح بلفظ «الأين»، كقول أعلم الخلق به وأنصحهم لأمته وأفصحهم بياناً عن المعنى الصحيح بلفظ لا يوهم باطلاً بوجه: أين الله، في غير موضع.

الخامس عشر: شهادته ﷺ لمن قال إن ربه في السماء بالإيمان.

السادس عشر: إخباره تعالى عن فرعون أنه رام الصعود إلى السماء ليطلع إلى إلٰه موسى فيكذبه فيما أخبره من أنه سبحانه فوق السموات فقال: ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ۝٣٦ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗاۚ﴾ [غافر: ٣٦ ـ ٣٧]، فمن نفى العلو من الجهمية فهو فرعوني ومن أثبته فهو موسوي محمدي.

السابع عشر: إخباره أنه تردد بين موسى عليه السلام وبين ربه ليلة المعراج بسبب تخفيف الصلاة فيصعد إلى ربه ثم يعود إلى موسى عدة مرار[2].

الثامن عشر: النصوص الدالة على رؤية أهل الجنة له تعالى من الكتاب والسنة وإخبار النبي ﷺ أنهم يرونه كرؤية الشمس والقمر ليلة البدر ليس دونه سحاب فلا يرونه إلا من فوقهم كما قال ﷺ: (بينا أهل الجنة في نعيمهم إذ سطع لهم نور فرفعوا رؤوسهم فإذا الجبار جل جلاله قد أشرف عليهم من فوقهم وقال: يا أهل

---

(١) أخرجه مسلم (١٢١٨).

(٢) متفق عليه سبق تخريجه في مبحث الإسراء والمعراج (٤٩٤).

الجنة سلام عليكم، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾ [يس: ٥٨] ثم يتوارى عنهم وتبقى رحمته وبركته عليهم في ديارهم)(١). رواه الإمام أحمد في المسند وغيره من حديث جابر رضي الله عنه.

ولا يتم إنكار الفوقية إلا بإنكار الرؤية، ولهذا طرد الجهمية الشقين وصدق أهل السنة بالأمرين معاً وأقروا بهما، وصار من أثبت الرؤية ونفى العلو مذبذباً بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، وهذه الأنواع من الأدلة لو بسطت أفرادها لبلغت نحو ألف دليل، فعلى المتأول أن يجيب عن ذلك كله وهيهات له بجواب صحيح عن بعض ذلك.

وكلام السلف في إثبات صفة العلو كثير جداً، فمنه ما روى شيخ الإسلام أبو إسماعيل الأنصاري في كتابه الفاروق بسنده إلى مطيع البلخي أنه سأل أبا حنيفة عمن قال لا أعرف ربي في السماء أم في الأرض، فقال: قد كفر؛ لأن الله يقول: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾﴾ [طه: ٥] وعرشه فوق سبع سمواته، قلت: فإن قال: إنه على العرش، ولكن يقول: لا أدري العرش في السماء أم في الأرض؟ قال: هو كافر؛ لأنه أنكر أنه في السماء، فمن أنكر أنه في السماء فقد كفر، وزاد غيره لأن الله في أعلى عليين وهو يدعى من أعلى لا من أسفل. انتهى.

ولا يلتفت إلى من أنكر ذلك ممن ينتسب إلى مذهب أبي حنيفة، فقد انتسب إليه طوائف معتزلة وغيرهم مخالفون له في كثير من اعتقاداته، وقد ينتسب إلى مالك والشافعي وأحمد من يخالفهم في بعض اعتقاداتهم، وقصة أبي يوسف في استتابة بشر المريسي لما أنكر أن يكون الله عز وجل فوق العرش مشهورة رواها عبد الرحمن بن أبي حاتم وغيره.

ومن تأول «فوق» بأنه خير من عباده وأفضل منهم وأنه خير من العرش وأفضل منه، كما يقال: الأمير فوق الوزير والدينار فوق الدرهم، فذلك مما تنفر عنه العقول السليمة وتشمئز منه القلوب الصحيحة، فإن قول القائل ابتداء الله خير من عباده وخير من عرشه من جنس قوله الثلج بارد والنار حارة والشمس أضوأ من السراج والسماء أعلى من سقف الدار والجبل أثقل من الحصى ورسول الله أفضل

---

(١) سبق تخريجه.

من فلان اليهودي، والسماء فوق الأرض، وليس في ذلك تمجيد ولا تعظيم ولا مدح، بل هو من أرذل الكلام وأسمجه وأهجنه، فكيف يليق بكلام الله الذي لو اجتمع الإنس والجن على أن يأتوا بمثله لما أتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً، في ذلك تنقص كما قيل في المثل السائر:

ألم تر أن السيف ينقص قدره إذا قيل أن السيف أمضى من العصا

ولو قال قائل: الجوهر فوق قشر البصل وقشر السمك لضحك منه العقلاء للتفاوت الذي بينهما، فإن التفاوت الذي بين الخالق والمخلوق أعظم وأعظم بخلاف ما إذا كان المقام يقتضي ذلك بأن كان احتجاجاً على مبطل كما في قول يوسف الصديق عليه السلام: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩]، وقوله تعالى: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل: ٥٩]، ﴿وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه: ٧٣].

وإنما يثبت هذا المعنى من الفوقية في ضمن ثبوت الفوقية المطلقة من كل وجه، فله سبحانه وتعالى فوقية القهر وفوقية القدر وفوقية الذات، ومن أثبت البعض ونفى البعض فقد تنقص.

وعلوه تعالى مطلق من كل الوجوه، فإن قالوا بل علو المكانة لا المكان فالمكانة تأنيث المكان، والمنزلة تأنيث المنزل، فلفظ المكانة والمنزلة تستعمل في المكانات النفسانية والروحانية كما يستعمل لفظ المكان والمنزل في الأمكنة الجسمانية، فإذا قيل: لك في قلوبنا منزلة ومنزلة فلان في قلوبنا وفي نفوسنا أعظم من منزلة فلان كما جاء في الأثر: «إذا أحب أحدكم أن يعرف كيف منزلته عند الله فلينظر كيف منزلة الله في قلبه، فإن الله ينزل العبد من نفسه حيث أنزله العبد من قلبه»، فقوله: منزلة الله في قلبه هو ما يكون في قلبه من معرفة الله ومحبته وتعظيمه وغير ذلك، فإذا عرف أن المكانة والمنزلة تأنيث المكان والمنزل والمؤنث فرع على المذكر في اللفظ والمعنى وتابع له، فعلو المثل الذي يكون في الذهن يتبع علو الحقيقة إذا كان مطابقاً كان حقاً وإلا كان باطلاً.

فإن قيل: المراد علوه في القلوب وأنه أعلى في القلوب من كل شيء، قيل: وكذلك هو، وهذا العلو مطابق لعلوه في نفسه على كل شيء، فإن لم يكن عالياً بنفسه عن كل شيء كان علوه في القلوب غير مطابق كمن جعل ما ليس بأعلى أعلى.

وعلوه سبحانه وتعالى كما هو ثابت بالسمع ثابت بالعقل والفطرة، أما ثبوته بالعقل فمن وجوه:

أحدها: العلم البديهي القاطع بأن كل موجودين إما أن يكون أحدهما سارياً في الآخر قائماً به كالصفات، وإما أن يكون قائماً بنفسه بائناً من الآخر.

الثاني: أنه لما خلق العالم فإما أن يكون خلقه في ذاته أو خارجاً عن ذاته والأول باطل، أما أولاً فبالاتفاق، وأما ثانياً فلأنه يلزم أن يكون محلاً للخسائس والقاذورات، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. والثاني يقتضي كون العلم واقعاً خارج ذاته فيكون منفصلاً، فتعينت المباينة لأن القول بأنه غير متصل بالعالم وغير منفصل عنه غير معقول.

الثالث: أن كونه تعالى لا داخل العالم ولا خارجه يقتضي نفي وجوده بالكلية لأنه غير معقول، فيكون موجوداً إما داخله وإما خارجه، والأول باطل فتعين الثاني فلزمت المباينة.

وأما ثبوته بالفطرة فإن الخلق جميعاً بطباعهم وقلوبهم السليمة يرفعون أيديهم عند الدعاء ويقصدون جهة العلو بقلوبهم عند التضرع إلى الله تعالى وذكر محمد بن طاهر المقدسي أن الشيخ أبا جعفر الهمداني حضر مجلس الأستاذ أبي المعالي الجويني المعروف بإمام الحرمين وهو يتكلم في نفي صفة العلو ويقول: كان الله ولا عرش وهو الآن على ما كان، فقال الشيخ أبو جعفر: أخبرنا يا أستاذ عن هذه الضرورة التي نجدها في قلوبنا فإن ما قال عارف قط: يا الله إلا وجد في قلبه ضرورة طلب العلو لا يتلفت يمنة ولا يسرة، فكيف ندفع بهذه الضرورة عن أنفسنا؟ قال: فلطم أبو المعالي على رأسه ونزل، وأظنه قال: وبكى، وقال: حيرني الهمداني حيرني، أراد الشيخ أن هذا أمر فطر الله عليه عباده من غير أن يتلقوه من المرسلين يجدون في قلوبهم طلباً ضرورياً يتوجه إلى الله ويطلبه في العلو.

وقد اعترض على الدليل العقلي بإنكار بداهته لأنه أنكره جمهور العقلاء، فلو كان بديهياً لما كان مختلفاً فيه بين العقلاء بل هو قضية وهمية خيالية.

والجواب عن هذا الاعتراض مبسوط في موضعه، ولكن أشير إليه هنا إشارة مختصرة وهو أن يقال: إن العقل إن قبل قولكم فهو لقولنا أقبل، وإن رد العقل قولنا فهو لقولكم أعظم رداً، فإن كان قولنا باطلاً في العقل فقولكم أبطل، وإن

كان قولكم حقاً مقبولاً في العقل فقولنا أولى أن يكون مقبولاً في العقل فإن دعوى الضرورة مشتركة.

فإنا نقول: نعلم بالضرورة بطلان قولكم وأنتم تقولون كذلك، فإذا قلتم تلك الضرورة التي تحكم ببطلان قولنا هي من حكم الوهم لا من حكم العقل قابلناكم بنظير قولكم وعامة فطر الناس ليسوا منكم ولا منا موافقون لنا على هذا، فإن كان حكم فطر بني آدم مقبولاً ترجحنا عليكم وإن كان مردوداً غير مقبول بطل قولكم بالكلية فإنكم إنما بنيتم قولكم على ما تدعون أنه مقدمات معلومة بالفطرة الآدمية وبطلت عقلياتنا أيضاً وكان السمع الذي جاءت به الأنبياء معنا لا معكم، فنحن مختصون بالسمع دونكم والعقل مشترك بيننا وبينكم.

فإن قلتم أكثر العقلاء يقولون بقولنا، قيل: ليس الأمر كذلك، فإن الذين يصرحون بأن صانع العالم شيء موجود ليس فوق العالم وأنه لا مباين للعالم ولا حال في العالم طائفة من النظار، وأول من عرف عنه ذلك في الإسلام جهم بن صفوان وأتباعه.

واعترض على الدليل الفطري أن ذلك إنما لكون السماء قبلة للدعاء كما أن الكعبة قبلة للصلاة، ثم هو منقوض بوضع الجبهة على الأرض مع أنه ليس في جهة الأرض وأجيب على هذا الاعتراض من وجوه:

أحدها: أن قولكم إن السماء قبلة للدعاء لم يقله أحد من سلف الأمة ولا أنزل الله به من سلطان، وهذا من الأمور الشرعية الدينية فلا يجوز أن يخفى على جميع سلف الأمة وعلمائها.

الثاني: أن قبلة الدعاء هي قبلة الصلاة، فإنه يستحب للداعي أن يستقبل القبلة وكان النبي ﷺ يستقبل في دعائه في مواطن كثيرة، فمن قال: إن للدعاء قبلة غير قبلة الصلاة أو أن له قبلتين إحداهما الكعبة والأخرى السماء فقد ابتدع في الدين وخالف جماعة المسلمين.

الثالث: أن القبلة هي ما يستقبله العابد بوجهه كما تستقبل الكعبة في الصلاة والدعاء والذكر والذبح، وكما يوجه المحتَضَر والمدفون، ولذلك سميت وجهة الاستقبال، خلاف الاستدبار، فالاستقبال بالوجه والاستدبار بالدبر، فأما ما حاذاه

الإنسان برأسه أو يديه أو جنبه فهذا لا يسمى قبلة لا حقيقة ولا مجازاً، فلو كانت السماء قبلة الدعاء لكان المشروع أن يوجه الداعي وجهه إليها وهذا لم يشرع والموضع الذي ترفع اليد إليه لا يسمى قبلة لا حقيقة ولا مجازاً، ولأن القبلة في الدعاء أمر شرعي تتبع فيه الشرائع ولم تأمر الرسل أن الداعي يستقبل السماء بوجهه بل نهوا عن ذلك ومعلوم أن التوجه بالقلب واللجأ والطلب الذي يجده الداعي من نفسه أمر فطري يفعله المسلم والكافر والعالم والجاهل، وأكثر ما يفعله المضطر والمستغيث بالله كما فطر على إنه إذا مسه الضر يدعو الله مع أن أمر القبلة مما يقبل النسخ والتحويل كما تحولت القبلة من الصخرة إلى الكعبة.

وأمر التوجه في الدعاء إلى الجهة العلوية مركوز في الفطر، والمستقبل للكعبة يعلم أن الله تعالى ليس هناك بخلاف الداعي فإنه يتوجه إلى ربه وخالقه ويرجو الرحمة أن تنزل من عنده.

وأما النقض بوضع الجبهة فما أفسده من نقض، فإن واضع الجبهة إنما قصده الخضوع لمن فوقه بالذل له لا أن يميل إليه إذ هو تحته، هذا لا يخطر في قلب ساجد، لكن يحكى عن بشر المريسي أنه سمع وهو يقول في سجوده: سبحان ربي الأسفل، تعالى الله عما يقول الظالمون والجاحدون علواً كبيراً، وإن من أفضى به النفي إلى هذه الحال حري أن يتزندق إن لم يتداركه الله برحمته وبعيد من مثله الصلاح. قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠]. وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، فمن لم يطلب الاهتداء من مظانه يعاقب بالحرمان. نسأل الله العفو والعافية.

وقوله: «وقد أعجز عن الإحاطة خلقه»، أي: لا يحيطون به علماً ولا رؤية ولا غير ذلك من وجوه الإحاطة، بل هو سبحانه محيط بكل شيء ولا يحيط به شيء.



عناصر الموضوع:

١ غرض المصنف من عقد هذا الباب:

يتضح غرض المصنف من عقد هذا الباب فيما يلي:

أ ـ تقرير مذهب أهل السنّة والجماعة في مسألتي العرش والكرسي، وكذا بيان صفة العلو والفوقية.

ب ـ الرد على المخالفين لمذهب أهل السنّة والجماعة في هذه المسألة من المتكلمين والفلاسفة حيث حرفوا معناهما، فزعموا أن العرش هو فلك مستدير وسموه بالفلك الأطلس، وكذا زعموا أن المراد بالكرسي هو العلم، وكذا حرفوا صفة العلو وقالوا بأن المراد بالعلو المكانة والمنزلة والرتبة، وغير ذلك مما سيأتي بيانه.

٢ مناسبة هذا الباب لما سبق:

تقدم أن من الإيمان بالله الإيمان بما ذكر في الكتاب والسنّة من الأمور الغيبية، ومن جملة المغيبات العرش والكرسي.

٣ معاني الكلمات:

الكلمة	المعنى
الشرجع	العالي المنيف.
الصُور	جمع أصْوَر، وهو المائل العنق لنظره إلى العلو.
الفطرة	الجبلة المتهيئة لقبول الدين.

٤ معنى كلام الطحاوي: «والعرش والكرسي حق»:

عرش الرحمٰن تعالى حق لا ريب فيه، قد ذكره الله ﷻ في آيات كثيرة من كتابه، وصحّ عن النبي ﷺ وصفه، وهو خلق عظيم هائل لا يحيط به إلّا الله تبارك وتعالى، ويحمله عدد من الملائكة العظام، وهو سقف جنة الفردوس، وله قوائم، وهذا يبطل تأويله بالملك.

والكرسي حق كذلك، وهو موضع القدمين، ولا يحيط به إلا الله تعالى، وقد وسع كرسيه السمٰوات والأرض، وذلك يبطل تأويله بالعلم.

٥ معنى العرش لغةً واصطلاحاً:

لغةً: سرير الملك، قال تعالى: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النمل: ٢٣].

وشرعاً: هو سرير ذو قوائم تحمله الملائكة، خلقه الله واستوى عليه، وهو سقف هذا العالم وهو كالقبة فوق المخلوقات.

٦ الأدلة على ثبوت العرش:

أ ـ من الكتاب: قوله تعالى: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ﴾ [البروج: ١٥]، وقوله تعالى: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ ﴿١٥﴾﴾ [غافر: ١٥].

ب ـ ومن السنّة: دعاء الكرب المروي في الصحيح: (**لا إلٰه إلا الله العظيم الحليم، لا إلٰه إلّا هو ربّ العرش العظيم، لا إلٰه إلّا الله ربّ السمٰوات وربّ الأرض ربّ العرش الكريم**).

٧ تحريف الفلاسفة والمتكلمين لمعنى العرش والرد عليهم:

العرش عند أهل السنّة هو السرير ذو القوائم، إلى قوله: وهو سقف المخلوقات.

روى ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، قال: (**الكرسي موضع القدمين والعرش لا يقدر قدره إلّا الله تعالى**)، وحديث: (**إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة وفوقه عرش الرحمٰن**).

وقول ابن رواحة:

وإن العرش فوق الماء طاف ... وفوق العرش رب العالمين

أما قول الفلاسفة: فإن العرش عبارة عن الملك.

وقال بعض المتكلمين: إن العرش فلك[(١)] مستدير من جميع جوانبه محيط بالعالم من كل وجه، وربما سموه الفلك الأطلس والفلك التاسع، ويرد[(٢)] على الفلاسفة والمتكلمين بما يأتي:

أولاً: إن قولهم مخالف للغة العرب، فإن العرش عندهم عبارة عن السرير

---

(١) الفلك: جسم كروي يحيط به سطحان ظاهري وباطني وهما متوازيان مركزهما واحد. انظر: التعريفات (ص١٦٩).

(٢) انظر: الفتاوى (٥/ ١٥١)، والبداية (١/ ٩).

الذي للملك. قال تعالى: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النمل: ٢٣]، وليس ملكاً ولا فلكاً ولا تفهم منه العرب ذلك، والقرآن إنما نزل بلغتهم.

ثانياً: ويرد عليهم بقوله ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٧]، فهل يقال: ويحمل ملكه يومئذ ثمانية؟ وقد ثبت أن له قوائم خلافاً لمن قال هو فلك مستدير لا منافذ له، وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ [هود: ٧]، فهل يقال: كان ملكه على الماء؟

ثالثاً: يقول الرسول ﷺ: **(فإن الناس يصعقون فأكون أول من يفيق، فإذا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش ولا أدري أفاق قبلي أم جوزي بصعقة الطور)**، فلا يعقل أن يقال: إن موسى آخذ بقائمة من قوائم الملك، فالأدلة أثبتت القوائم.

وغرضهم من هذا التحريف نفي العلو والاستواء، إذ يقولون استوى بمعنى استولى، وأن الله ليس له جهة لئلا يقال بالتحيز فيدعو إلى التجسيم والتشبيه بالمخلوقات، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

(٨) معنى الكرسي لغةً واصطلاحاً:

لغةً يطلق على السرير، وقيل العلم، وشرعاً: هو مخلوق عظيم، وهو موضع قدمي الرب جلّ وعلا.

(٩) الأدلة على إثبات الكرسي:

أ ـ قال تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

ب ـ قال ﷺ: **(ما الكرسي بين يدي العرش إلا كحلقة من حديد)**.

(١٠) الفرق بين العرش والكرسي:

الفرق بين الكرسي والعرش هو أن العرش سرير الملك، والكرسي هو موضع القدمين.

(١١) مذهب أهل السنّة في الكرسي ومذهب المخالفين لهم:

أ ـ أهل السنّة والجماعة أن الكرسي موضع القدمين لله، وهو الصحيح لثبوت ذلك. قال تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

ب ـ وقال بعض الناس: إن الكرسي هو العرش، وهذا ليس صحيحاً؛ لأنه قد وردت آثار تدل على أن الكرسي بين يدي العرش كما قال ﷺ: **(ما الكرسي بين يدي العرش إلا كحلقة من حديد)**.

ج ـ وقيل: الكرسي: علمه، وهو للمتكلمين، وغرضهم من عدم إثبات الكرسي هو نفي العلو.

١٢ معنى كلام الطحاوي: «وهو مستغن عن العرش وما دونه، محيط بكل شيء وفوقه، وقد أعجز عن الإحاطة خلقه»:

فالله ﷻ لم يستو على العرش لاحتياجه إليه، بل لحكمة بالغة قضاها، وهو منزّه عن أن يحتاج إلى العرش أو ما دونه، فشأن الله تعالى أعظم من ذلك، بل العرش والكرسي محمولان بقدرته وسلطانه.

وهو ﷻ محيط بكل شيء من المخلوقات، والعرش وما دونه، وليس فوق العرش إلا الله تعالى، وقد أحاط بكل خلقه إحاطة علم وإدراك، وإحاطة غلبة وقهر، ولا يحيط به أحد من خلقه، فسبحان ذي القوة والجبروت والعزة والجلال والملكوت.

١٣ الأدلة على استغناء الله تعالى عن خلقه:

قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧]، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥].

١٤ الأدلة على إحاطة الله بخلقه:

الدليل قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ۝٢٠﴾ [البروج: ٢٠]، ﴿أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ﴾ [فصلت: ٥٤]، ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطًا ۝١٢٦﴾ [النساء: ١٢٦]. والمراد بالإحاطة إحاطة عظمته وسعة علمه وقدرته وأن المخلوقات في يده كخردلة في يد أحدنا. قال ابن عباس ﵄: «ما السماوات والأرض السبع وما فيهن وما بينهن في يد الرحمٰن إلا كخردلة في يد أحدكم».

١٥ الأدلة على علوّ الله ﷻ:

أحدها: التصريح بالفوقية مقروناً بأداة «من» المعينة للفوقية بالذات كقوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٥٠].

الثاني: ذكرها مجردة عن الأداة كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٨].

الثالث: التصريح بالعروج إليه، نحو: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المعارج: ٤]، وقوله ﷺ: **(فيعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم)**.

الرابع: التصريح بالصعود إليه كقوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠].

الخامس: التصريح برفعه بعض المخلوقات إليه كقوله تعالى: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾ [النساء: ١٥٨]، وقوله: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران: ٥٥].

السادس: التصريح بالعلو المطلق والدال على جميع مراتب العلو ذاتاً وقدراً وشرفاً كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣]، ﴿إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الشورى: ٥١].

السابع: التصريح بتنزيل الكتاب منه كقوله تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٢﴾ [غافر: ٢]، ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝١﴾ [الزمر: ١]، ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢﴾ [فصلت: ٢]، ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]، ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ [النحل: ١٠٢]، ﴿حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝٥﴾ [الدخان: ١ ـ ٥].

الثامن: التصريح بالاستواء مقروناً بأداة «على» مختصاً بالعرش الذي هو أعلى المخلوقات مصاحباً في الأكثر لأداة «ثم» الدالة على الترتيب والمهلة.

التاسع: التصريح بأنه تعالى في السماء كقوله تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ۝١٦﴾ [الملك: ١٦].

العاشر: الإشارة إليه حساً إلى العلو، كما أشار إليه من هو أعلم بربه وبما يجب له ويمتنع عليه من جميع البشر لما كان بالمجمع الأعظم الذي لم يجتمع لأحد مثله في اليوم الأعظم في المكان الأعظم، قال لهم: أنتم مسؤولون عني فماذا أنتم قائلون؟ قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأدّيت ونصحت، فرفع أصبعه الكريمة إلى السماء رافعاً لها إلى من هو فوقها وفوق كل شيء قائلاً: اللهم اشهد. . .

الحادي عشر: التصريح بلفظ «الأين» كقول: أعلم الخلق به وأنصحهم لأمته وأفصحهم بياناً عن المعنى الصحيح بلفظ لا يوهم باطلاً بوجه «أين الله؟»[1].

---

(١) الأدلة على علو الله تعالى على خلقه واستوائه على عرشه كثيرة جداً، وقد تتبعها بعض الأئمة فوجدها أكثر من ألف دليل. انظر: الجواب الصحيح (٣/ ٨٤)، والصواعق المرسلة (٤/ ١٢٧٩).

أما الدليل العقلي فله وجوه ثلاثة:

الأول: العلم البديهي القاطع أن كل موجودين لا بدّ أن يكون أحدهما سارياً في الآخر سريان الصفة في الموصوف، وإما أن يكون كل واحد قائماً بذاته منفصلاً عن الآخر، فالأول باطل باتفاق؛ لأنه يقتضي كون العالم واقعاً خارج ذاته فيكون منفصلاً فاقتضت المباينة لأن القول بأنه غير منفصل عن العالم وغير متصل به غير معقول.

الثاني: أن الله لما خلق العالم فإما أن يكون خلقه داخل ذاته أو خارجها، فالأول باطل لأنه يلزم أن يكون الله محلًّا للخسائس والعيوب، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. والثاني يقتضي أن يكون العالم واقعاً خارج ذاته فيكون منفصلاً فثبتت المباينة لأن القول بأنه غير منفصل عن العالم وغير متصل به غير معقول.

الثالث: أن كونه سبحانه لا داخل العالم ولا خارجه يقضي نفي وجوده بالكلية لأنه غير معقول فيكون موجوداً إما داخله أو خارجه، الأول: باطل، والثاني: متعين فلزمت المباينة.

أما الدليل الفطري على علو الله:

فإن الخلق جميعهم بطبائعهم وقلوبهم السليمة يرفعون أيديهم عند الدعاء ويقصدون جهة العلو بقلوبهم عند التضرع إلى الله تعالى، وقصة أبي المعالي وإعجاز الهمداني له مشهورة.

(١٦) أنواع العلو:

أنواع الفوقية ثلاثة:

١ ـ علو الذات.

٢ ـ علو القهر. والغلبة والتصرف بكل الخلق.

٣ ـ علو القدر فهو العالي المنزه عن كل عيب ونقص.

(١٧) المقصود بقوله تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾﴾ [الملك: ١٦]:

وهو الله تعالى العالي على خلقه.

وبالنسبة لـ«في»: إما أن تكون «في» بمعنى على، وإما أن يراد بالسماء والعلو.

(١٨) الاستدلال بقوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾﴾ [غافر: ٣٦].

وقال فرعون معارضاً لموسى، ومكذباً له في دعوته إلى الإقرار برب العالمين، الذي على العرش استوى وعلى الخلق اعتلى.

(١٩) قول الشارح ابن أبي العز: «من نفى العلو فهو فرعوني ومن أثبته فهو موسوي»:

أي أن من نفى العلو فهو منسوب إلى إمامه في ذلك فرعون، حيث قد أنكر العلو فهو إمام الجهمية، ومن أثبته فهو منسوب إلى موسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام فهما إمامان له في ذلك، فقد ثبتت أخبار كثيرة عن الرسول ﷺ بإثبات العلو وصفته.

(٢٠) حكم أبي حنيفة فيمن أنكر أن يكون الله فوق العرش:

حكمه على من أنكر الله فوق العرش أنه كافر مستدلًّا بقوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾﴾ [طه: ٥] وعرشه فوق سماواته، وحكمه على من لا يؤمن بأن العرش فوق العالم أنه كافر؛ لأنه أنكر أن العرش في السماء، ومن أنكر أنه في السماء فقد كفر، وزاد غيره: لأن الله في أعلى عليين، وهو يدعى من أعلى لا من أسفل.

(٢١) اعتراض المعطلة على الدليل العقلي والجواب عليه:

اعترضوا عليه بإنكار بدهيته لأنه مختلف فيه حيث إنه قد أنكره - في رأيهم - جمهور العقلاء فهو قضية وهمية وخيالية.

ويرد عليهم:

إن كان العقل قبل قولكم فهو لقولنا أقبل، وإن كان قولنا قضية وهمية خيالية غير عقلية فقولكم أولى، فإن دعوى الضرورة مشتركة بيننا وبينكم، فإن ردّه العقل فهو لقولكم أعظم رداً، وإن كان قولنا باطلاً في العقل فقولكم أبطل، فإن كان قولكم حقاً مقبولاً في العقل فقولنا أولى أن يكون مقبول في العقل، فإن دعوى الضرورة مشتركة، وكل يدّعي صدق ما يقوله وبطلان القول الآخر، فترجحنا عليكم عقلاً.

فنرجع إلى عامة فطر الناس ممن ليسوا منّا ولا منكم فإنهم موافقون على قولنا بفطرهم معنا لا معكم، فترجحنا عليكم فطرة.

ونرجع إلى السمع وهو معنا وليس معكم ونحن مختصون به دونكم، فترجحنا عليكم سمعاً وفطرة، وعقلاً وفطرة.

والعقل مشترك بيننا وبينكم، ثم إن قولكم وإنما قال به طائفة من النظار وأول من عرف منه ذلك في الإسلام جهم بن صفوان وأتباعه، فبطل دعوى الأكثرية.

(٢٢) اعتراض المعطلة على الدليل الفطري والجواب عليه:

اعترض عليه أن ذلك إنما كان لكون السماء قبلة الدعاء، كما أن الكعبة قبلة للصلاة، ثم هو منقوض بوضع الجبهة على الأرض في السجود مع أنه ليس في جهة الأرض ويرد عليهم إن السماء قبلة للدعاء من وجوه:

الأول: إن قبلة الدعاء هي قبلة الصلاة وكان النبي يستقبل القبلة في دعائه في كثير من المواطن، فمن زعم أن للدعاء قبلة غير قبلة الصلاة، أو أن له قبلتين إحداهما السماء والأخرى الكعبة، فهو مخالف لإجماع المسلمين.

الثاني: أن هذا القول لم يقل به أحد من السلف ولا نزل به من الله سلطان، ثم إن هذه الأمور الشرعية الدينية لا يجوز أن تخفى على جميع علماء الأمة.

الثالث: إن القبلة هي ما يستقبله العابد بوجهه، كما يستقبل الكعبة بالصلاة ونحوهما، فأما ما حاذاه المرء برأسه أو بيده أو جبهته فلا يسمى قبلة لا حقيقة ولا مجازاً، ثم إن الرسل لم تأمر الداعي أن يستقبل السماء بوجهه بل نهوه عن ذلك، ثم إن أمر القبلة مما يقبل النسخ كما نسخت القبلة من المسجد الأقصى إلى الكعبة وأمر التوجه بالدعاء إلى جهة العلو مركوز في الفطرة، والمستقبل للكعبة يعلم أن الله ليس هناك بخلاف الداعي، فإنه يتوجه بقلبه إلى العلو، فيرد ذلك بأنه فاسد؛ لأن واضع الجبهة إنما قصد الخضوع لمن فوقه بالذل ولم يقصد أن الله في أسفل، بل إن هذا لا يخطر بقلب ساجد إلّا ما سمع عن المريسي أنه كان يقول في سجوده: سبحان ربي الأسفل، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

(٢٣) الجمع بين علو الله وبين معيته وقربه من خلقه:

يحتج المنكرون للعلو والفوقية بالآيات والأحاديث التي وصفت ﷻ بالقرب من خلقه.

وهذا احتجاج باطل، فليس هناك تناقض البتة بين علو الله واستوائه على عرشه وبين قربه من خلقه، فهو سبحانه مستو بذاته على عرشه، وعال على خلقه فوق سماواته، ومع هذا فهو قريب منهم بسمعه وبصره وقدرته وعلمه، ومن هنا فسّر

السلف المعية بأنها العلم، وقد حكى غير واحد من الإجماع على ذلك.

(٢٤) المخالفون للسلف في مسألة العلو:

لقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية أن المخالفين للسلف في مسألة العلو على ثلاثة أقوال:

القول الأول: قول معطلة الجهمية ونفاتهم، وهم الذين يقولون: لا داخل العالم ولا خارجه، ولا ميادين له ولا محاديث له، فنفوا الوصفين المتقابلين اللذين لا يخلو موجود عن أحدهما كما يقول ذلك أكثر المعتزلة، ومن وافقهم كالماتريدية والأشاعرة.

القول الثاني: قول حلولية الجهمية، الذين يقولون: إنه بذاته في كل مكان، كما يقول ذلك النجارية أتباع حسين النجار وغيرهم من الجهمية.

القول الثالث: قول من يقول: إن الله بذاته فوق العالم وهو بذاته في كل مكان، وهذا قول طوائف من أهل الكلام والتصوف[1].

وهناك **قول رابع** وهو قول الاتحادية، فهم يقولون: إن الله هو كل شيء، فالله هو الكلب والخنزير، (تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً)، وهم الصوفية الاتحادية كالحلاج وابن عربي والتلمساني وابن الفارض وابن سبعين والرومي والقونوي وغيرهم.

(٢٥) مذهب الأشاعرة والماتريدية في العلو:

تواترت النصوص من الكتاب والسنّة على علوّ الله ﷻ على عرشه وأنه بائن من خلقه، وحكى الإجماع على ذلك الأشعري في رسالة إلى أهل الثغر[2].

ولم يخالف في ذلك من بين آدم إلا شرذمة من الفلاسفة والجهمية وتابعيهم، وطوائف من الأشاعرة والماتريدية؛ حيث ادعوا أن الله تعالى لا داخل العالم ولا خارجه، ولا فوق العالم ولا تحته، ولا أمام العالم ولا خلفه، ولا متصلاً بالعالم ولا منفصلاً عنه.

(٢٦) الرد على الأشاعرة في دعواهم: إن الله لا داخل العالم ولا خارجه:

الوجه الأول:

أنه مصادم لنصوص الكتاب والسنّة الصحيحة، فإن نصوص الكتاب والسنّة

---

(١) انظر: الفتاوى (٢/٢٩٨ ـ ٢٩٩). (٢) رسالة أهل الثغر (ص٧٥).

تواترت على أن الله تعالى فوق العالم عالٍ على خلقه، فوق عباده مستو على عرشه.

فلو كانت هذه العقيدة من العقائد الإسلامية لجاء النص عليها في كتاب الله أو سنّة رسول الله ﷺ، بل نرى نصوصاً لا تعدّ ولا تُحصى ضد هذه العقيدة، فكيف تجعل هذه العقيدة هي العقيدة الصحيحة؟

ولم يأتِ نص واحد لا في الكتب السماوية، ولا في أحاديث الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، على أن الله تعالى لا داخل العالم ولا خارجه إلى آخر ذلك الهذيان.

الوجه الثاني:

أن هذه العقيدة مخالفة لعقيدة جميع الأنبياء والمرسلين، وعقيدة الصحابة والتابعين، وعقيدة أئمة هذا الدين، فقد تقدمت حكاية الإجماع على أن الله فوق العالم، وأنه عالٍ على عرشه، وأن هذه هي عقيدة أهل السنّة والجماعة، الطائفة المنصورة، الفرقة الناجية، أصحاب الحديث في القديم والحديث.

ولم يخالف في ذلك إلّا الفلاسفة والجهمية المعطلة، فكيف تعدّ هذه العقيدة عقيدة لأهل السنّة والجماعة؟! بل هي من أعظم عقائد أهل البدع والتعطيل والتحريف.

الوجه الثالث:

أنه مصادم لعقيدة جميع أئمة الإسلام ونصوص أعلام هذا الدين، فقد صرح أئمة الإسلام بأن الله تعالى فوق عرشه عالٍ على خلقه بائن عن العالم.

وفيما يلي نماذج من نصوص بعض هؤلاء الأئمة الأعلام:

١ ـ الإمام أبو حنيفة (١٥٠هـ):

فقد قال رحمه الله: «من قال لا أعرف ربي في السماء أو في الأرض فقد كفر، وكذا من قال إنه على العرش، ولا أدري العرش أفي السماء أو في الأرض، والله يدعى من أعلى لا من أسفل؛ لأن الأسفل ليس من وصف الربوبية والألوهية في شيء، وعليه ما روي في الحديث: أن رجلاً أتى النبي ﷺ بأمة سوداء، فقال: وجب علي عتق رقبة مؤمنة أفتجزئ هذه؟ فقال لها النبي ﷺ: **(أمؤمنة أنت؟)** فقالت: نعم، فقال: **(أين الله؟)** قالت: فأشارت إلى السماء، فقال:

(أعتقها إنها مؤمنة)[١].

أقول: تدبر أيها المسلم في نص هذا الإمام ستجد فيه ما يلي:

١ ـ تكفير الإمام أبي حنيفة لمن شك في فوقية الله تعالى على عرشه.

٢ ـ جواز السؤال عن الله تعالى بأين.

٣ ـ جواز الجواب عنه بأنه في السماء.

٢ ـ إمام أهل الشام الأوزاعي (١٥٧هـ):

لقد حكى الإجماع أئمة الإسلام عن الصحابة والتابعين على أن الله تعالى فوق عرشه حيث يقول: «كنا والتابعون متوافرون نقول: إن الله تعالى ذكره فوق عرشه ونؤمن بما وردت السنّة من صفاته جلّ وعلا»[٢].

٣ ـ الإمام مالك إمام دار الهجرة (١٧٩هـ):

فقد قال: «الله في السماء وعلمه في كل مكان»[٣].

٤ ـ الإمام شيخ الإسلام أحد أعلام السنّة والحديث والزهد عبد الله بن المبارك (١٨١هـ):

فقد قال رحمه الله تعالى مبيناً عقيدة أهل السنّة والجماعة: «نعرف ربنا فوق سبع سماوات على العرش استوى بائن من خلقه، ولا نقول كما قالت الجهمية أنه ههنا في الأرض، بل على العرش استوى»[٤].

٥ ـ الإمام عبد الرحمٰن بن مهدي (١٩٨هـ):

فقد قال: «إن الجهمية أرادوا أن ينفوا أن يكون الله قد كلّم موسى، وأن يكون على العرش، أرى أن يستتابوا وإلّا ضربت أعناقهم»[٥].

---

(١) الفقه الأبسط رواية أبي مطيع البلخي بتحقيق الكوثري (ص٤٩ ـ ٥٢)، ومع شرحه للسمرقندي (ص١٧).

(٢) رواه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٤/ ٤٠١).

(٣) رواه عبد الله بن أحمد في السنة (١/ ١١١، ٣٠٧)، والدارمي في الرد على الجهمية (ص٣٣)، وفي الرد على المريسي (ص٢٤، ١٠٣)، والبيهقي في الأسماء والصفات (ص٤٢٧)، وغيرهم، وصححه شيخ الإسلام في الحموية (ص٥٦).

(٤) رواه أبو داود في مسائله (٢٦٢)، وعبد الله بن أحمد في السنن (١/ ١١٩ ـ ١٢٠).

(٥) المصدر السابق.

٦ ـ عالم الري وإمام الحنفية في وقته: هشام بن عبد الله الرازي (٢٢١هـ):

فقد حبس رجلاً في تهمة التجهم فتاب، فجيء به إليه يمتحنه، فقال له: أتشهد أن الله على عرشه بائن من خلقه؟

فقال ذلك الجهمي المسجون: لا أدري ما بائن من خلقه؟ فقال هشام: ردوه إلى الحبس، فإنه لم يتب»[١].

٧ ـ الإمام علي بن عبد الله المديني وشيخ البخاري (٢٣٤هـ):

فقد سأل هذا الإمام: ما قول أهل السنّة والجماعة؟ فأجاب رحمه الله تعالى قائلاً: «يؤمنون بالرؤية وبالكلام، وأن الله ﷻ فوق السماوات على العرش استوى»[٢].

٨ ـ الإمام قتيبة بن سعيد أحد أعلام الأعلام (٢٤٠هـ):

فقد قال رحمه الله تعالى مبيناً عقيدة أهل السنّة والجماعة: «هذا قول الأئمة في الإسلام والسنّة والجماعة: نعرف ربنا في السماء السابعة على عرشه، وعلمه في كل مكان»[٣].

أقول: هذا النص من هذا الإمام في غاية الوضوح والصراحة في بيان عقيدة أهل السنّة والجماعة، وتوضيح عقيدة أن الله تعالى فوق العالم خارج عنه.

٩، ١٠ ـ الإمامان الجليلان: أبو حاتم وأبو زرعة الرازيان:

فقد قالا: أجمع أئمة الإسلام في جميع الأمصار في الحجاز والعراق ومصر وغيرهما على إثبات صفات الله تعالى، وأنه تعالى على عرشه بائن من خلقه، وعلمه في كل مكان، ومن قال غير هذا فعليه لعنة الله.

الوجه الرابع:

إن قولهم: إن الله لا داخل العالم ولا خارجه مستلزم لكون الله تعالى معدوماً بل ممتنعاً؛ لأن أي موجود إما أن يكون داخلاً في هذا العالم أو خارجاً عنه، أو متصلاً بالعالم أو منفصلاً عنه، أو فوق العالم أو تحته، ولا يمكن أن يكون شيئاً

---

(١) رواه الهروي في ذم الكلام [ق١٢٠ ـ أ]، كما في مختصر العلو للألباني (ص١٨١). وانظر: درء التعارض (٦/ ٢٦٥).

(٢) اجتماع الجيوش الإسلامية والعلو.

(٣) انظر: بيان تلبيس الجهمية (٢/٣٨)، واجتماع الجيوش الإسلامية (ص٢٣١)، والعلو للذهبي (ص١٢٨).

موجوداً غير متصل بالعالم ولا منفصل عنه، ولا داخلاً في العالم ولا خارجاً عنه، ولا فوق العالم ولا تحته.

فإن يكن هذا: فلا يكون شيئاً معدوماً بل ممتنعاً.

هكذا صرح كثير من أئمة الإسلام على هؤلاء الجهمية أن قولهم مستلزم لكون الله تعالى معدوماً، بل ممتنعاً، وإليكم نماذج من نصوص بعض أئمة الإسلام لتكون فيها عبرة:

١ ـ قول كثير من أهل العلم في هؤلاء المعطلة والممثلة لعلوّ الله تعالى ولكلامه:

«المعطل يعبد عدماً والممثل يعبد صنماً، والمعطل أعمى، والممثل أعشى، ودين الله بين الغالي فيه والجافي عنه».

٢ ـ الإمام محمد بن الحسن الشيباني (١٨٩هـ):

فقد قال: «فمن قال بقول الجهم فقد فارق الجماعة؛ لأنه قد وصفه بصفة لا شيء»[(١)].

٣ ـ إمام أهل السنّة أحمد بن حنبل (٢٤١هـ):

فقد قال في شرح عقيدة من أنكر علو الله تعالى: «فعند ذلك يتبين للناس أنهم لا يؤمنون بشيء»[(٢)].

٤ ـ الإمام عبد العزيز الكناني (٢٤٥هـ):

قال: قال لي أحد الجهمية: «أقول: إن الله في كل مكان لا كالشيء في الشيء، ولا كالشيء على الشيء، ولا كالشيء خارجاً عن الشيء ولا مبايناً للشيء، فقلت: فقد دلّلت بالقياس والمعقول على أنك لا تعبد شيئاً»[(٣)].

٥ ـ أقول: «لقد ذكر شيخ الإسلام هذا النص الكناني ثم علق عليه بقوله: فهذا عبد العزيز يبين أن القياس والمعقول يوجب أن ما لا يكون في الشيء، ولا خارجاً عنه، فإنه لا يكون شيئاً، وأن ذلك صفة معدوم»[(٤)].

---

(١) رواه اللالكائي في شرح أصول الاعتقاد (٣/ ٤٣٢ ـ ٤٣٣).

(٢) انظر: الرد على الجهمية للإمام أحمد (ص١٠٥ ـ ١٠٦).

(٣) درء التعارض (٦/ ١١٨ ـ ١١٩)، ومجموع الفتاوى (٥/ ٣١٧).

(٤) انظر: المصدرين السابقين.

٦ ـ وقال الإمام ابن كُلَّاب إمام الكلابية والأشعرية جميعاً (٢٤٠هـ) في الرد على المعطلة:

وأخرج من النظر والخبر قول من قال: «إن الله لا في العالم ولا خارج منه، فنفياه نفياً مستوياً؛ لأنه لو قيل له: صفه بالعدم، ما قدر أن يقول فيه أكثر منه، فإن قالوا: لا فوق ولا تحت أعدموه؛ لأن ما كان لا تحت ولا فوق فعدم، فإذا قيل لهم: فهو لا مماس للعالم ولا مبائن للعالم، قيل لهم: فهو بصفة المحال. قيل لهم: فأخبرونا عن معبودكم؟ مماس هو أم مبائن؟ فإذا قالوا: لا يوصف بهما، قيل لهم: فصفة إثبات خالقنا كصفة عدم المخلوق، فلماذا لا تقولون صريحاً: إن الله عدم»[1].

أقول: نص هذا الإمام صريح في أن من قال: إن الله لا داخل العالم ولا خارجه ولا متصل به ولا منفصل عنه، ولا فوقه ولا تحته، فقد وصف الله بصفة العدم والامتناع.

٧ ـ السلطان العادل كاسر الأصنام محمود بن سبكتكين (٤٢١هـ):

لما سمع ابن فورك الأشعري ينفي فوقية الله على خلقه، قال له: «فلو أردت أن تصف المعدوم كيف تصفه بأكثر من هذا؟ وقال هذا السلطان في الرد على ابن فورك أيضاً: فرق لي بين هذا «الرب» الذي تصفه وبين المعدوم»[2].

٨ ـ حافظ المغرب الإمام ابن عبد البر (٤٦٣هـ) قال:

«وهم (أي المعطلة) نافون للمعبود يلاشون، أي يقولون: لا شيء، والحق فيما قاله القائلون: مما نطق به كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ وهم أئمة الجماعة»[3].

٩ ـ شيخ الإسلام ابن تيمية (٧٢٨هـ):

فقد رفع إليه هذا السؤال في حق الأشعرية والماتريدية والجهمية:

يا منكراً أن الإله مباين ... للخلق يا مفتون بل يا فاتن
هب قد ضللت فأين أنت فإن تكن ... أنت المباين فهو أيضاً بائن
أقلت لست مبائناً قلنا إذن ... بالاتحاد أو الحلول تشاحن

---

(١) درء التعارض (٦/ ١١٩ ـ ١٢١)، ومجموع الفتاوى (٥/ ٣١٧ ـ ٣١٩)، والصواعق المرسلة (٤/ ١٢٤١)، واجتماع الجيوش (ص٢٨٢ ـ ٢٨٣) من كتاب المجرد لابن فورك.

(٢) مجموع الفتاوى (٣/ ٣٧)، ودرء التعارض (٦/ ٢٥٣)، والصواعق المرسلة (٤/ ١٢٨٧).

(٣) التمهيد (٧/ ١٤٥)، الصواعق المرسلة (٤/ ١٢٨٩).

أو قلت ما هو داخل أو خارج هذا يدل بأن ما هو كائن
إذ قد جمعت نقائضاً ووصفته عدماً بها هل أنت عنها ضاعن
فارجع وتب من قال مثلك إنه لمعطل والكفر فيه كامن[1]

فأجاب شيخ الإسلام:

«أن الذي يقول: إن الله لا داخل العالم ولا خارجه ولا فوق ولا تحت، ولا مباين عنه ولا متصل به، فقد جعل الله تعالى معدوماً بل ممتنعاً، وهذا اللازم لا محيد منه».

١٠ ـ الإمام الذهبي (٧٤٨هـ):

فقد قال: «مقالة السلف وأئمة السنّة بل الصحابة والله ورسوله ﷺ والمؤمنين: أن الله فوق سماواته، ومقالة الجهمية الأولى أنه في جميع الأمكنة، ومقالة متأخري المتكلمين (من المعتزلة والماتريدية والأشعرية) أن الله تعالى ليس في السماء ولا على العرش، ولا على السماوات، ولا في الأرض، ولا داخل العالم ولا خارج العالم، ولا هو بائن عن خلقه، ولا هو متصل بهم...، قال لهم أهل السنّة والأثر: فإن هذه السلوب نعوت المعدوم تعالى الله جلّ جلاله عن العدم، بل هو متميز عن خلقه موصوف بما وصف به نفسه في أنه فوق العرش بلا كيف»[2].

أقول: أرجو أن يتدبر كلام هذا الإمام، فقد ذكر في مسألة علو الله تعالى ثلاثة مذاهب:

الأول: مذهب أهل السنّة والجماعة أصحاب الحديث: وهو أن الله فوق العالم بائن من خلقه عال على العرش، وأن هذا هو قول الله ورسوله ﷺ وجميع المؤمنين.

الثاني: قول أصحاب جهم بن صفوان: وهو أن الله تعالى في كل مكان، وهو قول الحلولية والصوفية أيضاً.

الثالث: قول المعطلة كالمعتزلة والماتريدية والأشعرية، وهو أن الله تعالى لا فوق العالم ولا تحته، ولا داخل العالم ولا خارجه، ولا متصل بالعالم ولا

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٥/ ٢٦٧ ـ ٣٢٠).

(٢) العلو (ص١٠٧، ١٩٥)، ومختصر العلو (ص١٤٦ ـ ١٤٧، ٢٨٧).

منفصل عنه، وهو قول الفلاسفة أمثال: ابن سينا والفارابي والطوسي وغيرهم من الملاحدة الزنادقة.

١١ ـ الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ (٧٥١هـ):

فقد قال[١]:

فاحكم على من قال ليس بخارج — عنها ولا فيها بحكم بيان
بخلافه الوحيين والإجماع والعقل — الصريح وفطرة الرحمن
فعليه أوقع حد معدوم بلى — حد المحال بغير ما فرقان
يا للعقول إذا نفيتم مخبراً — ونقيض حد ذاك في إمكان
إذ كان نفي دخوله وخروجه — لا يصدقان معاً لذي إمكان
إلّا على عدم صريح نفيه — متحقق ببديهة الإنسان

١٢ ـ ١٥ ـ وهكذا نرى الإمام ابن أبي العز الحنفي (٧٩٢هـ) والشوكاني (١٢٥٠هـ) ومحمود الآلوسي (١٢٧٠هـ) وحفيده محمود شكري (١٣٤٢هـ):

قد صرحوا بأن عقيدة هؤلاء المعطلة من قولهم: إن الله لا داخل العالم ولا خارجه مستلزمة لكون الله تعالى معدوماً بل ممتنعاً.

الوجه الخامس:

تبيّن أن قول الأشاعرة ليس هو قول أهل الإسلام أهل السنّة والجماعة، بل هو قول المعطلة والفلاسفة من الذين تفلسفوا في الإسلام، ولعبوا كما لعب بولس بالنصرانية، أمثال: ابن سينا (٤٢٨هـ): فقد قال: «إن التحقيق الذي ينبغي أن يرجع إليه في صحة التوحيد عن الإقرار بالصانع موحداً عقد الكم والكيف، والأين والمتى، والوضع والتغير، حتى يعبر الاعتقاد به أنه ذات واحدة لا يمكن لها شريك في النوع، أو يكون لها جزء وجودي كمي أو نوعي، ولا يمكن أن تكون خارجة عن العالم أو داخلة فيه، ولا بحيث تصح الإشارة إليه أنه هناك، ممتنع التقاؤه إلى الجمهور»[٢].

أقول: الشاهد في كلام ابن سينا هذا هو قوله: «أنه ذات واحدة لا يمكن أن

---

(١) النونية (ص٥٥)، وشرحها توضيح المقاصد (١/ ٣٨٦ ـ ٣٨٩)، وشرحها للهراس (١/ ١٧٦ ـ ١٧٧)، وتوضيح الكافية الشافية للسعدي (ص٨٥).

(٢) الرسالة الأضحوية في أمر المعاد (ص٤٤ ـ ٥١)، وانظر نص ابن سينا في درء التعارض (٥/ ١٠ ـ ١٨)، والصواعق المرسلة (٣/ ١٠٩٧ ـ ١١٠٥).

تكون خارجة عن العالم أو داخلة فيه، ولا بحيث تصح الإشارة إليه أنه هناك».

الوجه السادس:

أن قول الأشعرية أن الله لا داخل العالم ولا خارجه، ولا فوقه ولا تحته، ولا متصل به ولا منفصل عنه رفع للنقيضين، ورفع النقيضين باطل بإجماع العقلاء.

ولقد صرح كثير من أئمة الإسلام أن قول المتكلمين: إن الله لا داخل العالم ولا خارجه، ولا فوقه، ولا تحته، ولا متصل به ولا منفصل عنه، قول برفع النقيضين[1].

الوجه السابع:

أن قول الأشعرية: إن الله لا داخل العالم ولا خارجه، ولا متصل به ولا منفصل عنه، ولا فوق العالم ولا تحته، قول مخالف لبداهة العقول، كما أنه مخالف للعقل الصحيح والفطرة السليمة، والإجماع إجماع أهل السنّة والجماعة؛ لأن الله تعالى لما خلق هذا العالم هل خلقه داخل ذاته أم خلقه خارجاً عنه، فإن قالوا: خلقه في داخل ذاته فقد كفروا، وإن قالوا: قد خلقه خارج ذاته فقد اعترفوا بالحق الذي أنكروه، وهو أن الله خارج عن هذا العالم وفوقه، ولأن الله تعالى موجود في الخارج، والموجود في الخارج لا بد أن يكون داخلاً في هذا الكون، أو أن يكون خارجاً عنه، وكذا إما أن يكون متصلاً بالعالم، أو منفصلاً عنه، وأما أن يكون بحيث لا يكون لا داخلاً في العالم ولا خارجاً عنه، فهذا شيء مخالف لبداهة العقول بل هو معدوم محض، بل ممتنع بحت[2].

والتحقيق أن قول الأشعرية مخالف لبداهة العقل الصريح، يقول ابن القيم رحمه الله تعالى:

وسل المعطل عن مسائل خمسة	تردي قواعده من الأركان
قل للمعطل هل تقول إلهنا الـ	ـمعبود حقاً خارج الأذهان
فإذا نفى هذا فذاك معطل	للرب حقاً بالغ الكفران

---

(١) مجموع الفتاوى (٣/ ٣٩ ـ ٤٠، ٤/ ٦٠ ـ ٦١)، ونقض المنطق (ص٥١)، والقصيدة النونية (ص٥٥)، وتوضيح المقاصد (١/ ٣٨٦ ـ ٣٨٩)، وتوضيح الكافية (ص٥٨ ـ ٥٩)، وشرح الهراس للنونية (١/ ١٧٦ ـ ١٧٧).

(٢) انظر: الصواعق المرسلة (٤/ ١٢٧٩ ـ ١٤٤١)، والرد على الجهمية للإمام أحمد (ص١٣٨ ـ ١٣٩)، ومجموع الفتاوى (٥/ ٢٦٧ ـ ٣٢٠)، والقصيدة النونية (ص٥٤ ـ ٥٧).

وإذ أقــرّ بــه فــسـلــه ثــانـيــاً أتـراه غـيـر جـمـيـع ذي الأكـوان
فـإذا نـفـى هـذا وقـال بـأنـه هـو عـيـنـهـا مـا هـهـنـا غـيـران
فـقـد ارتـدى بـالاتـحـاد مـصـرحـاً بـالـكـفـر جـاحـد ربـه الـرحـمٰـن
حاشا الـنـصارى أن يكـونـوا مثـلـه وهـم الـحـمـيـر وعـابـدو الـصـلـبـان
هـم خـصـصـوه بـالـمـسـيـح وأمـه وأولاء مـا صـانـوه عـن حـيـوان
وإذ أقــرّ بــأنــه غــيــر الــورى عـبـد ومـعـبـود هـمـا شـيـئـان
فـاسـألـه هـل هـذا الـورى فـي ذاتـه أم ذاتـه فـيـه هـنـا أمـران
فـإذا أقـرّ بـواحـد مـن ذيـنـك الـ أمـريـن قـبـل حـدّه الـنـصـرانـي
ويـقـول أهـلاً بـالـذي هـو مـثـلـنـا خـشـداشـنـا وحـبـيـبـنـا الـحـقـان
وإذا نـفـى الأمـريـن فـاسـألـه إذا هـل ذاتـه اسـتـغـنـت عـن الأكـوان
فـلـذاك قـام بـنـفـسـه أم قـال بـالـ أعـيـان كـالأعـراض والألـوان
فـإذا أقـرّ وقـال بـل هـو قـائـم بـالـنـفـس فـاسـألـه وقـل ذاتـان

إلى آخر كلام ابن القيم رحمه الله تعالى[١].

فيقال للأشاعرة: هل الله تعالى عندكم موجود ذهني أم موجود خارجي؟

فإن قلتم: إنه موجود ذهني فقط فقد كفرتم كفراً بواحاً حيث أنكرتم وجود ربكم، وإن قلتم: هو موجود وبوجود خارجي نقول لكم: هل الله تعالى عين هذا الكون أم غيره؟

فإن قلتم: هو عين هذا الكون، فقد بحتم بعقيدة الاتحادية، وإن قلتم: هو غير هذه الأكوان، نقول لكم: هل الله تعالى في هذه الأكوان أم الأكوان في الله تعالى، أم الله تعالى خارج عن هذه الأكوان؟ فإن قلتم: إن الله في هذه الأكوان فقد قلتم بعقيدة الحلولية الذين هم أكفر من النصارى واليهود.

وإن قلتم: إن الأكوان في الله تعالى فقد ارتكبتم كفراً آخر حيثما جعلتم الله محلًّا للمخلوقات وظرفاً لها.

وإن قلتم: إن الله تعالى خارج عن هذه الأكوان فقد اعترفتم بالحق، وهدمتم بنيانكم.

وإن قلتم: إن الله تعالى لا داخل العالم ولا خارجه، فقد كابرتم بداهة

(١) القصيدة النونية (ص٥٦ ـ ٥٧).

العقول، وخالفتم العقل والنقل والإجماع والفطرة في آن واحد.

وجعلتم الله تعالى عدماً محضاً، بل ممتنعاً بحتاً، والله المستعان وعليه التكلان.

هذا وللإمام المفسر الألوسي (١٢٧٠هـ)، وابنه نعمان الألوسي (١٣١٧هـ)، وحفيده محمود شكري الألوسي (١٣٤٢هـ) كلام قيّم متين مهم إلى الغاية في إبطال القائلين بأن الله لا داخل العالم ولا خارجه، وقطع دابرهم، وبيان أنهم مناقضون للنقل والعقل، وأن قولهم هذا مخالف لبداهة العقول الضرورية، «وأنه قد علم العقلاء كلهم بالضرورة أن ما كان وجوده كذلك (أي خارج الأذهان في الواقع) فهو إما داخل العالم، وإما خارج عنه، وإنكار ذلك إنكار لما هو أجلى وأظهر من الأمور البديهيات الضرورية بلا ريب»[1].

٢٧ شبهات المعطلة حول مسألة العلو:

زعم بعض الأشاعرة أن الله تعالى لو كان فوق العالم خارجاً عنه لزم أن يكون محدوداً، أن يكون في جهة ومكان[2].

والجواب: أن أئمة السنّة قد قالوا في مثل هذه الشبهات: إن هذه الشبهات شبهات المعطلة قديماً وحديثاً.

والجواب عنها من وجهين:

الأول: جواب إجمالي:

وهو أن هذه الألفاظ كلمات مجملة واصطلاحات محدثة لا يجوز قبولها ولا ردّها قبل بيان تفسيرها، ولكن إذا فسرت وعلمنا مراد قائلها، فإن كان المراد حقاً قبلناه، وإلّا رددناه، وهذه هي القاعدة السلفية في جميع الكلمات الكلامية والمصطلحات الإجمالية، وقد صرح بها أئمة السنّة[3].

والثاني: جواب تفصيلي:

وهو أن نقول: ما المراد من قولهم: «الحد» و«المحدود»؟

---

(١) انظر: روح المعاني (٧/ ١١٥)، وجلاء العينين (ص٣٥٦ ـ ٣٥٧، ٣٨٧ ـ ٣٨٨)، وغاية الأماني (١/ ٤٤٥).

(٢) انظر: حسن المحاججة (ص٦).

(٣) انظر: منهاج (١/ ٢٩٤)، والتدمرية (ص٦٥ ـ ٦٦)، ومجموع الفتاوى (٣/ ٤١ ـ ٤٢)، وجلاء العينين (ص٣٨٦).

فإن كنتم تعنون أن المراد من الحد أو المحدود أن يكون الله تعالى محبوساً محاطاً، فهذا منفي عن الله تعالى بلا ريب، ولكن لا يلزم من قولنا: «إن الله فوق العالم بائن عنه» أن الله محدود محبوس محاط، فإن الله تعالى هو المدبر وهو الرب الخالق للخلق والكون، وعلى هذا المعنى يحمل قول من نفى الحد عن الله تعالى من بعض السلف(١).

وإن كنتم تعنون بالحد والمحدود أن الله تعالى متميز عن الخلق بائن عنه، فالحدّ بهذا المعنى صحيح، ولا يلزم من هذا المعنى محذور؛ لأن الله فوق العالم عالٍ على العرش.

وعلى هذا المعنى يحمل قول من أثبت الحدّ لله تعالى من بعض السلف كعبد الله ابن المبارك والدارمي، وهو رواية عن الإمام أحمد(٢).

فأما الجهة فإن كان المراد بها جهة مخلوقة فلا شك في إبطالها، فإن الله ليس في جهة بهذا المعنى، فإن الله ليس داخلاً في شيء من خلقه، ولا حالًّا فيه؛ لأن الله تعالى ليس في مخلوق ولا المخلوق في الله تعالى، بل الله تعالى فوق المخلوق كله بائن عن المخلوق.

وإن كان المراد بها جهة عدمية غير مخلوقة، بمعنى أن الله تعالى فوق هذا العالم ووراء هذا الكون، فهذا المعنى صحيح.

لأن وراء هذا الكون ليست جهة مخلوقة حتى تكون طرفاً لله تعالى، ولا يلزم أن يكون الله مظروفاً فيها، بل المراد أن الله في العلو أي أن الله فوق هذا العالم بائن عن خلقه، وهذا مراد من أثبت الجهة لله تعالى من السلف(٣).

فنفي الجهة بهذا المعنى تعطيل للرب تعالى بالكلية، وليس هذا مذهب أهل السنّة بل هو طريق أهل البدع من المعطلة.

---

(١) كالثوري والحمادين وشريك وأبي عوانة والطيالسي، وهو رواية عن الإمام أحمد. انظر: درء التعارض (٢/ ٢٩ ـ ٣٢)، والسنة الأحمد رواية الإصطخري (ص٢٤).

(٢) انظر: التمهيد (٧/ ١٤٢)، ورد الدارمي على المريسي (٢٣ ـ ٢٥)، ودرء التعارض (٢/ ٣٤).

(٣) التدمرية (ص٦٦ ـ ٦٧)، ومجموع الفتاوى (٣/ ٤١ ـ ٤٢، ٤/ ٨٥ ـ ٩٥، ٥/ ٢٦٢ ـ ٢٦٣، ٦/ ٣٨ ـ ٤٠)، ونقض المنطق (ص٥٠)، ودرء التعارض (١/ ٢٥٣ ـ ٢٥٤)، وروح المعاني (٧/ ١١٦)، وجلاء العينين (ص٣٥٩).

قلت: إثبات الجهة لله تعالى بالمعنى الصحيح ـ وهو الفوقية والعلو ـ صحيح لا بدّ منه، وهو عقيدة الصحابة والتابعين وأئمة هذا الدين من أهل السنّة والجماعة أصحاب الحديث الفرقة الناجية الطائفة المنصورة.

وأما إنكار الجهة بهذا المعنى فهو مذهب المعطلة، فلقد صرح القاضي عياض (٥٤٤هـ)، والنووي (٦٧٦هـ)، والزبيدي الحنفي (١٢٠٥هـ): بأن إثبات الجهة هو مذهب المحدثين والفقهاء، وأما دهاة المتكلمين فينفون الجهة[(١)].

وقال ابن رشد (٥٩٥هـ): «القول بالجهة: وأما هذه الصفة فلم يزل أهل الشريعة في أول الأمر يثبتونها لله ﷻ حتى نفتها المعتزلة، ثم تبعهم على نفيها متأخرو الشريعة، وظواهر الشرع كلها تقتضي إثبات الجهة»[(٢)].

وقال القرطبي (٦٧١هـ) بعدما ذكر مذهب المعطلة نفاة العلو لله تعالى: «وقد كان السلف الأول لا يقولون بنفي الجهة، ولا ينطقون بذلك، بل نطقوا هم والكافة بإثباتها لله، كما نطق كتابه وأخبرت رسله، ولم ينكر أحد من السلف الصالح أنه استوى على عرشه حقيقة، وإنما جهلوا كيفية الاستواء»[(٣)].

وأما المكان، فإن قصد به أنه في شيء مخلوق، وأن الله تعالى مظروف لظرف مخلوق، فهذا المعنى باطل، ولكن لا يلزم من قولنا: «إن الله فوق العالم بائن من خلقه» أنه تعالى مظروف في شيء مخلوق.

وإن كان المراد من المكان ما فوق العالم فهذا المعنى صحيح؛ لأن الله تعالى فوق العالم بائن من خلقه، وهذا هو معنى علو الله تعالى على خلقه، ولكن الجهمية المعطلة يعنون بقولهم: «ولا له مكان» أن الله تعالى لا فوق العالم ولا خارج العالم، وأنه لا فوق العالم إله يعبد ولا رب يدعى ويسأل، ولا وراء هذا الكون خالق خلق هذا الكون، ولا عرج بالنبي ﷺ إلى ربه أصلاً، هذا هو مقصود هؤلاء المعطلة[(٤)].

---

(١) انظر: شرح صحيح مسلم للنووي (٥/ ٢٤ ـ ٢٥)، وشرح الإحياء للزبيدي (٢/ ١٠٥).
(٢) مناهج الأدلة (ص١٧٦ ـ ١٨٢).
(٣) الجامع لأحكام القرآن (٧/ ٢١٩ ـ ٢٢٠)، وانظر: درء التعارض (٦/ ٢٥٩ ـ ٢٦٠)، وتلبيس الجهمية (٢/ ٣٧)، والعلو للذهبي (ص١٩٤ ـ ١٩٥)، والصواعق المرسلة (٤/ ١٢٩٣ ـ ١٢٩٤)، واجتماع الجيوش (ص٢٦٣ ـ ٢٨١).
(٤) نقض المنطق (ص٥٠)، ومجموع الفتاوى (٤/ ٥٨ ـ ٥٩).

٢٨ الخلاصة:

١ - عرش الرحمٰن تعالى حق لا ريب فيه، قد ذكره الله ﷻ في آيات كثيرة من كتابه، وصح عن النبي ﷺ وصفه.

٢ - والكرسي حق كذلك، وهو موضع القدمين، ولا يحيط به إلّا الله تعالى، وقد وسع كرسيه السمٰوات والأرض، وذلك يبطل تأويله بالعلم.

٣ - حرف الفلاسفة والمتكلمون معنى العرش؛ فهو عند الفلاسفة عبارة عن الملك، وعند المتكلمين هو فلك مستدير من جميع جوانبه محيط بالعالم من كل وجه وربما سموه الفلك الأطلس والفلك التاسع.

٤ - الفرق بين الكرسي والعرش هو أن العرش سرير الملك والكرسي هو موضع القدمين.

٥ - الله ﷻ لم يستو على العرش لاحتياجه إليه، بل لحكمة بالغة قضاها، وهو منزّه عن أن يحتاج إلى العرش أو ما دونه، فشأن الله تعالى أعظم من ذلك، بل العرش والكرسي محمولان بقدرته وسلطانه.

٦ - وهو ﷻ محيط بكل شيء من المخلوقات، والعرش وما دونه، وليس فوق العرش إلا الله تعالى وقد أحاط بكل خلقه إحاطة علم وإدراك، وإحاطة غلبة وقهر، ولا يحيط به أحد من خلقه، فسبحان ذي القوة والجبروت والعزة والجلال والملكوت.

٧ - أنواع الفوقية ثلاثة: علو الذات، وعلو القهر، وعلو القدر.

٨ - إن من نفى العلو فهو منسوب إلى إمامه بذلك فرعون حيث قد أنكر العلو فهو إمام الجهمية، ومن أثبته فهو منسوب إلى موسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام، فهما إماماه له بذلك، فقد ثبتت أخبار كثيرة عن الرسول ﷺ بإثبات العلو وصفته.

٩ - حكم أبو حنيفة على من أنكر أن يكون الله فوق العرش أنه كافر مستدلًّا بقوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥].

٢٩ المناقشة:

- **س١:** ما معنى كلام الطحاوي: «والعرش والكرسي حق»؟
- **س٢:** ما معنى العرش والكرسي لغةً واصطلاحاً؟
- **س٣:** ما الأدلة على ثبوت العرش؟

- **س٤:** بيّن كيف حرَّف الفلاسفة والمتكلمين معنى العرش؟ وكيف ترد عليهم؟
- **س٥:** ما مقصود من فسَّر (العرش) بالملك أو الفلك؟
- **س٦:** ما الأدلة على إثبات الكرسي؟
- **س٧:** ما الفرق بين العرش والكرسي؟
- **س٨:** ما مذهب أهل السنّة في الكرسي؟ وما مذهب المخالفين لهم؟
- **س٩:** ما معنى كلام الطحاوي: «وهو مستغن عن العرش وما دونه، محيط بكل شيء وفوقه، وقد أعجز عن الإحاطة خلقه؟»
- **س١٠:** ما الأدلة على استغناء الله تعالى عن خلقه؟
- **س١١:** هات مثالاً من المخلوقات يبين استغناء الله تعالى عن العرش مع استوائه عليه.
- **س١٢:** اذكر شيئاً من لوازم علو الخالق على المخلوق، ثم بيّن هل يمكن أن تتحقق هذه اللوازم في حق المخلوق؟
- **س١٣:** بيّن لماذا اختار الشارح إثبات الواو في قول الطحاوي: «محيط بكل شيء وفوقه»؟ وبين وجه ما جاء في بعض النسخ من حذفها، وبيّن ما أبدته بإثباتها.
- **س١٤:** ما الأدلة على إحاطة الله بخلقه؟
- **س١٥:** ما أنواع الأدلة على علوّ الله ﷻ؟
- **س١٦:** اذكر الأدلة النقلية على علوّ الله ﷻ؟
- **س١٧:** اذكر الدليل العقلي على علوّ الله ﷻ؟
- **س١٨:** اذكر الدليل الفطري على علوّ الله ﷻ؟
- **س١٩:** ما أنواع العلوّ؟ مع بيان النوع الذي أنكرته الجهمية، ولماذا أنكروه؟ وكيف ترد عليهم؟
- **س٢٠:** ما المقصود بقوله بقوله: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ١٦﴾؟
- **س٢١:** كيف يتم الاستدلال بقوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ٣٦﴾؟
- **س٢٢:** ما معنى قول الشارح ابن أبي العز: «من نفى العلوّ فهو فرعوني ومن أثبته فهو موسوي محمدي»؟

- **س٢٣:** بيّن حكم أبي حنيفة فيمن أنكر أن يكون الله فوق العرش، أو أقرّ بذلك يؤمن بأن العرش فوق العالم، وما دليله على كلا الحكمين؟
- **س٢٤:** ذهبت طوائف من المعطلة إلى تفسير فوقيته تعالى عباده بالخيرية والفضل، فكيف ترد عليهم؟
- **س٢٥:** كيف ترد على من استدل بقوله تعالى: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩]؟
- **س٢٦:** متى يقبل تفسير من فسّر الفوقية بالخيرية بأنه صحيح؟
- **س٢٧:** اعترض بعض المبتدعة على الدليل العقلي لعلوّ الله، فلماذا كان هذا الاعتراض؟ وكيف تردّ عليهم؟
- **س٢٨:** أورد أهل الأهواء اعتراضاً على الدليل الفطري لعلوّ الله تعالى، وضّح هذا الاعتراض، وكيف تردّ عليه؟
- **س٢٩:** كيف تجمع بين علوّ الله وبين معيته وقربه من خلقه؟
- **س٣٠:** بيّن مذاهب المخالفين للسلف في مسألة العلوّ.
- **س٣١:** ما مذهب الأشاعرة والماتريدية في مسألة العلوّ؟
- **س٣٢:** كيف ترد على الأشاعرة في دعواهم: «إن الله لا داخل العالم ولا خارجه»؟
- **س٣٣:** اذكر بعضاً من شبهات المعطلة حول مسألة العلو، مع الرد عليها.



الخلة والمحبة

❋ كلام ابن أبي العز:

١ ـ غرض المصنف من عقد هذا الباب.

٢ ـ مناسبة هذا الباب لما سبق.

٣ ـ معاني الكلمات.

٤ ـ معنى كلام الطحاوي: «ونقول إن الله اتخذ إبراهيم خليلاً وكلّم الله موسى تكليماً إيماناً وتصديقاً وتسليماً».

٥ ـ تفسير قوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥].

٦ ـ تفسير قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤].

٧ ـ الدليل على إثبات الخلة لإبراهيم ومحمد عليهما الصلاة والسلام.

٨ ـ الجمع بين براءة الرسول ﷺ أن يكون له خليل وقول أبي هريرة أوصاني خليلي.

٩ ـ الجمع بين براءة الرسول ﷺ من أن يكون له خليل وبين اتخاذه لبعض أصحابه حبيباً.

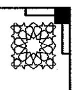
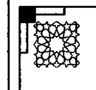
١٠ ـ الجمع بين طلب الصلاة على محمد مثل إبراهيم وآل إبراهيم مع أن المشبه فوق المشبه به.

١١ ـ كلام الله ﷻ للنبي ﷺ بلا واسطة.

١٢ ـ إنكار الجهمية لصفة الخلة والرد عليهم.

١٣ ـ الخلاصة.

١٤ ـ المناقشة.

صفة الخلة والمحبة

قال ابن أبي العز:

قوله: «ونقول إن الله اتخذ إبراهيم خليلاً، وكلَّم الله موسى تكليماً، إيماناً وتصديقاً وتسليماً».

قال الله تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤]. الخلة كمال المحبة، وأنكرت الجهمية حقيقة المحبة من الجانبين زعماً منهم أن المحبة لا تكون إلا لمناسبة بين المحب والمحبوب وأنه لا مناسبة بين القديم والمحدث توجب المحبة، وكذلك أنكروا حقيقة التكليم كما تقدم وكان أول من ابتدع هذا في الإسلام هو الجعد بن درهم في أوائل المائة الثانية، فضحَّى به خالد بن عبد الله القسري أمير العراق والمشرق بواسط، خطب الناس يوم الأضحى فقال: أيها الناس ضحوا تقبل الله ضحاياكم فإني مضح بالجعد بن درهم إنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً ولم يكلم موسى تكليماً، ثم نزل فذبحه وكان ذلك بفتوى أهل زمانه من علماء التابعين ﷺ، فجزاه الله عن الدين وأهله خيراً.

وأخذ هذا المذهب عن الجعد الجهمُ بن صفوان فأظهره وناظر عليه، وإليه أضيف قول الجهمية، فقتله مسلم بن أحوز أمير خراسان بها ثم انتقل ذلك إلى المعتزلة أتباع عمرو بن عبيد وظهر قولهم في أثناء خلافة المأمون حتى امتحن أئمة الإسلام ودعوهم إلى الموافقة لهم على ذلك.

وأصل هذا مأخوذ عن المشركين والصابئة، وهو ينكرون أن يكون إبراهيم خليلاً وموسى كليماً، لأن الخلة هي كمال المحبة المستغرقة للمحب كما قيل:

قد تخللت مسلك الروح مني ... ولذا سمي الخليل خليلاً

ولكن محبته وخلته كما يليق به تعالى كسائر صفاته، ويشهد لما دلت عليه الآية الكريمة ما ثبت في الصحيح عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: (لو كنت

متخذاً من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً ولكن صاحبكم خليل الله)[١] يعني نفسه.

وفي رواية: «إني أبرأ إلى كل خليل من خلته، ولو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً».

وفي رواية: «إن الله اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً»[٢].

فبين ﷺ أنه لا يصلح له أن يتخذ من المخلوقين خليلاً وأنه لو أمكن ذلك لكان أحق الناس به أبو بكر الصديق مع أنه ﷺ قد وصف نفسه بأنه يحب أشخاصاً كقوله لمعاذ: «والله إني لأحبك»[٣]، وكذلك قوله للأنصار وكان زيد بن حارثة حب رسول الله ﷺ وابنه أسامة حبه وأمثال ذلك، وقال له عمرو بن العاص: «أي الناس أحب إليك؟ قال: عائشة، قال: فمن الرجال؟ قال: أبوها»[٤].

فعلم أن الخلة أخص من مطلق المحبة والمحبوب بها لكمالها يكون محباً لذاته لا لشيء آخر، إذ المحبوب لغيره هو مؤخر في الحب عن ذلك الغير ومن كمالها لا تقبل الشركة ولا المزاحمة لتخللها المحبة ففيها كمال التوحيد وكمال الحب، ولذلك لما اتخذ الله إبراهيم خليلاً وكان إبراهيم قد سأل ربه أن يهب له ولداً صالحاً فوهب له إسماعيل فأخذ هذا الولد شعبة من قلبه فغار الخليل على قلب خليله أن يكون فيه مكان لغيره، فامتحنه به بذبحه ليظهر سر الخلة في تقديمه محبة خليله على محبة ولده، فلما استسلم لأمر ربه وعزم على فعله فظهر سلطان الخلة في الإقدام على ذبح الولد إيثاراً لمحبة خليله على محبته نسخ الله ذلك عنه وفداه بالذبح العظيم، لأن المصلحة في الذبح كانت ناشئة من العزم وتوطين النفس على ما أمر، فلما حصلت هذه المصلحة عاد الذبح نفسه مفسدة فنسخ في حقه وصارت الذبائح والقرابين من الهدايا والضحايا سنة في أتباعه إلى يوم القيامة.

وكما أن منزلة الخلة الثابتة لإبراهيم صلوات الله عليه قد شاركه فيها نبينا ﷺ

---

(١) سبق تخريجه.
(٢) سبق تخريجه (٣٢٧).
(٣) سبق تخريجه.
(٤) أخرجه أبو داود (١٥٢٢)، وأحمد (٥/ ٢٤٥، ٢٤٧).

كما تقدم، كذلك منزلة التكليم الثابتة لموسى صلوات الله عليه قد شارك فيها نبينا ﷺ كما ثبت ذلك في حديث الإسراء.

وهنا سؤال مشهور وهو أن النبي ﷺ أفضل من إبراهيم، فكيف طلب له من الصلاة مثل ما لإبراهيم مع أن المشبه به أصله أن يكون فوق المشبه، وكيف الجمع بين هذين الأمرين المتنافيين؟.

وقد أجاب عنه العلماء بأجوبة عديدة يضيق هذا المكان عن بسطها، وأحسنها أن آل إبراهيم فيهم الأنبياء الذين ليس في آل محمد مثلهم، فإذا طلب للنبي ﷺ ولآله من الصلاة مثل ما لإبراهيم وآله وفيهم الأنبياء حصل لآل محمد ما يليق بهم لأنهم لا يبلغون مراتب الأنبياء وتبقى الزيادة التي للأنبياء وفيهم إبراهيم لمحمد فيحصل له من المزية ما لم يحصل لغيره.

وأحسن من هذا أن النبي من آل إبرهيم بل هو أفضل آل إبراهيم، فيكون قولنا كما صليت على آل إبراهيم متناولاً الصلاة عليه وعلى سائر النبيين من ذرية إبراهيم، وهو متناول لإبراهيم أيضاً كما في قوله تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٣﴾ [آل عمران: ٣٣]، فإبراهيم وعمران دخلا في آل إبراهيم وآل عمران وكما في قوله تعالى: ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٖۖ نَّجَّيۡنَٰهُم بِسَحَرٖ﴾ [القمر: ٣٤]، فإن لوطاً داخل في آل لوط وكما في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ نَجَّيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ﴾ [البقرة: ٤٩]، وقوله: ﴿أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦]، فإن فرعون داخل في آل فرعون، ولهذا والله أعلم أكثر روايات حديث الصلاة على النبي ﷺ إنما فيها كما صليت على آل إبراهيم وفي كثير منها كما صليت على إبراهيم ولم يرد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إلا في قليل من الروايات وما ذلك إلّا لأن في قوله: كما صليت على إبراهيم يدخل آله تبعاً، وفي قوله: كما صليت على آل إبراهيم هو داخل في آل إبراهيم.

وكذلك لما جاء أبو أوفى رضي الله عنه بصدقة إلى النبي ﷺ دعا له النبي ﷺ وقال: (اللهم صلِّ على آل أبي أوفى)[1]، فعلى رواية من روى: «كما صليت على إبراهيم» لا يدخل فيهم لإفراده بالذكر.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٦٢)، ومسلم (٢٣٨٤).

ولما كان بيت إبراهيم عليه السلام أشرف بيوت العالم على الإطلاق خصهم الله بخصائص منها:

أنه جعل فيه النبوة والكتاب فلم يأت بعد إبراهيم نبي إلا من أهل بيته.

ومنها: أنه سبحانه جعلهم أئمة يهدون بأمره إلى يوم القيامة، فكل من دخل الجنة من أولياء الله بعدهم فإنما دخل من طريقهم وبدعوتهم.

ومنها: أنه سبحانه اتخذ منهم الخليلين كما تقدم ذكره.

ومنها: أنه جعل صاحب هذا البيت إماماً للناس، قال تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤].

ومنها: أنه أجرى على يديه بناء بيته الذي جعله قياماً للناس ومثابة للناس وأمناً وجعله قبلة لهم وحجّاً، فكان ظهور هذا البيت في الأكرمين.

ومنها: أنه أمر عباده أن يصلوا على أهل البيت إلى غير ذلك من الخصائص.



عناصر الموضوع:

١ غرض المصنف من عقد هذا الباب:

أ ـ تقرير مذهب أهل السنّة والجماعة في صفة من الصفات الفعلية ألا وهي صفة الخلة، وكذا صفة التكليم والكلام، وهي صفة فعلية وذاتية.

ب ـ الرد على المخالفين لأهل السنّة والجماعة في هذا الباب، وهما المعطلة والممثلة.

٢ مناسبة هذا الباب لما سبق:

قرر المؤلف فيما سبق صفة الفوقية والعلم وهما من جملة الصفات الفعلية، فناسب أن يقرر صفة فعلية أخرى ألا وهي صفة الخلة.

٣ معاني الكلمات:

الكلمة	المعنى
الخلة	كمال المحبة

٤ معنى كلام الطحاوي: «ونقول إن الله اتخذ إبراهيم خليلاً وكلم الله موسى تكليماً إيماناً وتصديقاً وتسليماً»:

«من عقيدة المسلمين أن الرسل أفضل الخلق، وأن الرسل يتفاضلون، فهم يعتقدون أن الله اتخذ إبراهيم خليلاً، كما قال الله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥]. والخلة هي أعلى(١) درجات المحبة، فالله جلّ وعلا يحب عباده المؤمنين والمتقين والمحسنين، ويحب التوابين ويحب المتطهرين، ولكن الخلة لم يحصل عليها إلّا اثنان من العالم: إبراهيم ومحمد عليهما الصلاة والسلام، وقد قال ﷺ: **(إن الله اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً)**.

---

(١) انظر: بدائع الفوائد (٣/ ٢٢٣)، وروضة المحبين (ص٦٤).

﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ [النساء: ١٦٤]، ففضل بعض النبيين على بعض، وإن كانوا كلهم بالمرتبة العليا، لكن الله جلّ وعلا فضّل بعضهم على بعض ﴿تِلۡكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۘ مِّنۡهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُۖ وَرَفَعَ بَعۡضَهُمۡ دَرَجَٰتٖۚ﴾ [البقرة: ٢٥٣] فكل نبي يعطيه الله ﷻ تفضيلاً خاصاً به.

فضل إبراهيم ومحمداً عليهما الصلاة والسلام بالخلة، وفضل موسى بأنه كلّمه تكليماً بدون واسطة الملك، وسمع موسى كلامه، ناداه سبحانه وناجاه؛ والمناداة: الصوت المرتفع، والمناجاة: الصوت الخفي، كل هذا حصل لموسى عليه الصلاة والسلام، وهذه فضيلة لم يحصل عليها غيره، وقال: ﴿تَكۡلِيمٗا﴾ للتأكيد، حتى لا يقول أحد: إن هذا مجاز، فلما أكّده بالمصدر دلّ على أنه تكليم حقيقي من الله ﷻ، وهذا فيه إثبات الكلام لله ﷻ، وفيه إثبات الفضيلة لموسى عليه الصلاة والسلام على غيره من النبيين في هذه الخصلة.

ولا يلزم إذا كان عند نبي من الأنبياء ميزة خاصة أن يكون أفضل من غيره على الإطلاق، بل هو أفضل من غيره من الأنبياء في هذه الخصلة»(١).

٥ تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا﴾ [النساء: ١٢٥]:

قال السعدي: «والخلة أعلى أنواع المحبة. وهذه المرتبة حصلت للخليلين محمد وإبراهيم عليهما الصلاة والسلام. وأما المحبة من الله فهي لعموم المؤمنين، وإنما اتخذ الله إبراهيم خليلاً لأنه وفى بما أمر به وقام بما ابتلي به فجعله الله إماماً للناس، واتخذه خليلاً، ونوّه بذكره في العالمين»(٢).

٦ تفسير قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ [النساء: ١٦٤]:

قال السعدي: «أي مشافهة منه إليه، لا بواسطة، حتى اشتهر بهذا عند العالمين، فيقال: موسى كليم الرحمٰن»(٣).

٧ الدليل على إثبات الخلة لإبراهيم ومحمد عليهما الصلاة والسلام:

الدليل قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا﴾ [النساء: ١٢٥].

ومن السنّة قوله ﷺ: **(إن الله اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً)**.

---

(١) التعليقات المختصرة على العقيدة الطحاوية (ص١٢٦ ـ ١٢٨).
(٢) تفسير السعدي: عند تفسير الآية ١٢٥ من سورة النساء.
(٣) تفسير السعدي: عند تفسير الآية ١٦٤ من سورة النساء.

وفي الحديث قال النبي ﷺ: **«لو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً لكن صاحبكم خليل الرحمٰن»**.

٨ الجمع بين براءة الرسول ﷺ أن يكون له خليل، وقول أبي هريرة: أوصاني خليلي:

وجه ذلك أن يقال: أن الرسول ﷺ يتبرأ من أن يتخذ هو أحداً خليلاً غير الله، أما الصحابي فإنه هو نفسه اتخذ الرسول ﷺ خليلاً، وهذا واجب على كل مسلم، فالرسول ﷺ لم ينف أن يتخذه أحد خليلاً وإنما نفى أن يتخذ هو أحداً خليلاً.

٩ الجمع بين براءة الرسول ﷺ من أن يكون له خليل وبين اتخاذه لبعض أصحابه حبيباً:

الجمع بين ذلك وقوله لمعاذ: **(والله إني أحبك)**، وكان زيد حِب رسول الله ﷺ هو أن يقال: الخلة أخص من مطلق المحبة، والمحبوب بها يكون محبوباً لذاته لا لشيء آخر بخلاف المحبة.

١٠ الجمع بين طلب الصلاة على محمد مثل إبراهيم وآل إبراهيم مع أن المشبه فوق المشبه به:

لذلك جوابان:

الأول: أن آل إبراهيم فيهم الأنبياء الذين ليس في آل محمد مثلهم، فإذا طلب للنبي ﷺ وآله من الصلاة مثل ما لإبراهيم وآله، وفيهم الأنبياء حصل لآل محمد ما يليق بهم لأنهم لا يرتقون مراتب الأنبياء وتبقى الزيادة التي للأنبياء وفيهم إبراهيم لمحمد ﷺ، فيحصل له من المزية ما لم يحصل لغيره.

الثاني: أن النبي ﷺ من آل إبراهيم، بل هو أفضلهم، فيكون قولنا كما صليت على آل إبراهيم متناولاً الصلاة عليه وعلى سائر النبيين من ذرية إبراهيم وهو متناول لإبراهيم أيضاً. قال تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٣﴾، فإبراهيم وعمران دخلا في آل إبراهيم وآل عمران.

١١ كلام الله ﷻ للنبي ﷺ بلا واسطة:

إن تكليم الله لموسى ليس خاصاً بموسى؛ فقد ثبت أن النبي ﷺ كلمه الله ليلة أسري به، وكما ثبت أن أهل الجنة يكلمهم الله ليس بينه وبينهم ترجمان.

والجهمية والمعتزلة أنكروا التكليم وشبهتهم لئلا يدعون إلى التجسيم لأننا لا

نعرف المتكلم إلا للجسم. ويرد عليهم: إننا إذا أثبتنا صفة التكليم على ما يليق بعظمته فإنه لا يلزم التشبيه فإن الله أثبت للأيدي والجلود يوم القيامة كلاماً مع أننا لا نعرف كيفيته كما قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ﴾ الآية [يسٓ: ٦٥]، فما دام أن للجلود كلاماً لا نعرف كيفيته فالخالق أولى بذلك.

١٢ إنكار الجهمية لصفة الخلة والرد عليهم:

نفت الجهمية محبة الله لعباده ومحبة العباد لربهم، وأولت أدلة الأول بالإحسان إليهم وإعطائهم الثواب، وأولت الثاني بمحبتهم للطاعة وأنكرت الجهمية صفة الخلة فقالوا: لو كانت من جانب الرسول لم تكن من جانب الله وشبهتهم أن المحبة لا تكون إلّا لمناسبة بين المحبوب والمحب ولا مناسبة بين القديم والمحدث، وفسّروا الخلة في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ أي: فقيراً ومحتاجاً.

ويرد عليهم[1]: إن هذا التأويل باطل لأن الفقر والاحتياج لازم لكل أحد مخلوق وليس خاصاً بإبراهيم، وعلى ذلك لا تكون الخلة بإبراهيم ذات معنى، وأيضاً كل مخلوق يتصف بالفقر والاحتياج حتى عبدة الأوثان، فيلزم من قولكم أن المؤمنين يحبون الله محبة حقيقية كما أحبهم محبة حقيقية واتخذ محمداً وإبراهيم أخلّاء له حقيقة.

١٣ الخلاصة:

١ - من عقيدة المسلمين أن الرسل أفضل الخلق، وأن الرسل يتفاضلون بينهم.

٢ - الخلّة لم يحصل عليها إلا اثنان من العالم: إبراهيم ومحمد عليهما الصلاة والسلام.

٣ - فضل موسى بأنه كلّمه الله ﷻ تكليماً بدون واسطة الملك، وسمع موسى كلامه، ناداه سبحانه وناجاه.

٤ - لا يلزم إذا كان عند نبي من الأنبياء ميزة خاصة أن يكون أفضل من غيره على الإطلاق، بل هو أفضل من غيره من الأنبياء في هذه الخصلة.

٥ - الخلة أعلى أنواع المحبة.

٦ - إن تكليم الله لموسى ليس خاصاً بموسى؛ فقد ثبت أن النبي ﷺ كلّمه الله ليلة أسري به، وكما ثبت أن أهل الجنة يكلمهم الله ليس بينه وبينهم ترجمان.

---

(١) انظر: الفتاوى (٦/٢٤٧)، وشرح الواسطية لابن عثيمين (١/٢٤٧).

١٤ المناقشة:

- **س١:** ما معنى كلام الطحاوي: «ونقول إن الله اتخذ إبراهيم خليلاً وكلّم الله موسى تكليماً إيماناً وتصديقاً وتسليماً»؟
- **س٢:** ما المراد بالخلة؟ وما الفرق بينها وبين المحبة؟
- **س٣:** ما المقصود بقوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥]؟
- **س٤:** ما المقصود بقوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤]؟
- **س٥:** ما الأدلة على إثبات الخلة لإبراهيم ومحمد عليهما الصلاة والسلام؟
- **س٦:** كيف تجمع بين براءة الرسول ﷺ أن يكون له خليل وقول أبي هريرة رضي الله عنه: «أوصاني خليلي»؟
- **س٧:** كيف تجمع بين براءة الرسول ﷺ من أن يكون له خليل وبين اتخاذه لبعض أصحابه حبيباً؟
- **س٨:** كيف تجمع بين طلب الصلاة على محمد مثل إبراهيم وآل إبراهيم مع أن المشبه فوق المشبه به؟
- **س٩:** هل تكليم الله لموسى خاصاً بموسى، أم كلم الله غيره؟ بيّن ذلك مع ذكر الأدلة على ما تقول.
- **س١٠:** من هم الذين أنكروا صفة الخلة من الجانبين؟ وكيف تجيب على إنكارهم وشبهتهم؟

أصول الإيمان
عند أهل السنّة ومخالفيهم

❊ **كلام ابن أبي العز:**

١ ــ غرض المصنف من عقد هذا الباب.

٢ ــ مناسبة هذا الباب لما سبق.

٣ ــ معاني الكلمات.

٤ ــ معنى كلام الطحاوي: «ونؤمن بالملائكة والنبيين والكتب المنزلة على المرسلين ونشهد أنهم كانوا على الحق المبين».

٥ ــ أصول الإيمان عند أهل السنّة.

٦ ــ موقف الفلاسفة من أصول الإيمان عند أهل السنّة.

٧ ــ أصول الدين عند المعتزلة.

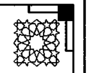
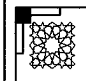
٨ ــ أصول الدين عند الرافضة.

٩ ــ من هم أولو العزم؟

١٠ ــ المفاضلة بين الملائكة وصالحي البشر.

١١ ــ الخلاصة.

١٢ ــ المناقشة.

أصول الإيمان عند أهل السنة

قال ابن أبي العز:

قوله: «ونؤمن بالملائكة والنبيين والكتب المنزلة على المرسلين ونشهد أنهم كانوا على الحق المبين».

هذه الأمور من أركان الإيمان، قال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥] الآيات، وقال تعالى: ﴿لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَـٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَـٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [البقرة: ١٧٧] الآية.

فجعل الله ﷻ الإيمان هو الإيمان بهذه الجملة وسمَّى من آمن بهذه الجملة مؤمنين كما جعل الكافرين من كفر بهذه الجملة بقوله: ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَـٰلَۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦]، وقال في الحديث المتفق على صحته حديث جبريل وسؤاله للنبي ﷺ عن الإيمان فقال: (أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره)[(١)].

فهذه الأصول التي اتفقت عليها الأنبياء والرسل صلوات الله عليهم وسلامه ولم يؤمن بها حقيقة الإيمان إلا أتباع الرسل.

وأما أعداؤهم ومن سلك سبيلهم من الفلاسفة وأهل البدع فهم متفاوتون في جحدها وإنكارها، وأعظم الناس لها إنكاراً الفلاسفة المسمون عند من يعظمهم بالحكماء، فإن من علم حقيقة قولهم علم أنهم لم يؤمنوا بالله ولا رسله ولا كتبه ولا ملائكته ولا باليوم الآخر، فإن مذهبهم أن الله سبحانه موجود لا ماهية له ولا حقيقة فلا يعلم الجزئيات بأعيانها وكل موجود في الخارج فهو جزئي ولا يفعل عندهم بقدرته ومشيئته وإنما العالم عندهم لازم له أزلاً وأبداً وإن سموه مفعولاً له

---

(١) سبق تخريجه.

فمصانعة ومصالحة للمسلمين في اللفظ، وليس عندهم بمفعول ولا مخلوق ولا مقدور عليه، وينفون عنه سمعه وبصره وسائر صفاته، فهذا إيمانهم بالله.

وأما كتبه عندهم فإنهم لا يصفونه بالكلام، فلا يكلم ولا يتكلم، ولا قال ولا يقول، والقرآن عندهم فيض فاض من العقل الفعال على قلب بشر زاكي النفس طاهر متميز عن النوع الإنساني بثلاث خصائص: قوة الإدراك وسرعته لينال من العلم أعظم ما يناله غيره، وقوة النفس ليؤثر بها في هيولى العالم يقلب صورة إلى صورة، وقوة التخييل ليخيل بها القوى العقلية في أشكال محسوسة وهي الملائكة عندهم وليس في الخارج ذات منفصلة تصعد وتنزل وتذهب وتجيء وترى وتخاطب الرسول، وإنما ذلك عندهم أمور ذهنية لا وجود لها في الأعيان.

وأما اليوم الآخر فهم أشد الناس تكذيباً وإنكاراً له في الأعيان، وعندهم أن هذا العالم لا يخرب ولا تنشق السماوات ولا تنفطر ولا تنكدر النجوم ولا تكور الشمس والقمر ولا يقوم الناس من قبورهم ويبعثون إلى جنة ونار، كل هذا عندهم أمثال مضروبة لتفهيم العوام لا حقيقة لها في الخارج كما يفهم منها أتباع الرسل، فهذا إيمان هذه الطائفة الذليلة الحقيرة بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وهذه هي أصول الدين الخمسة.

وقد أبدلتها المعتزلة بأصولهم الخمسة التي هدموا بها كثيراً من الدين، فإنهم بنوا أصل دينهم على الجسم والعرض الذي هو الموصوف والصفة عندهم، واحتجوا بالصفات التي هي الأعراض على حدوث الموصوف الذي هو الجسم وتكلموا في التوحيد على هذا الأصل فنفعوا عن الله كل صفة تشبيهاً بالصفات الموجودة في الموصوفات التي هي الأجسام، ثم تكلموا بعد ذلك في أفعاله التي هي القدر وسموا ذلك العدل، ثم تكلموا في النبوة والشرائع والأمر والنهي والوعد والوعيد وهي مسائل الأسماء والأحكام التي هي المنزلة بين المنزلتين ومسألة إنفاذ الوعيد، ثم تكلموا في إلزام الغير بذلك الذي هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وضمَّنوه جواز الخروج على الأئمة بالقتال، فهذه أصولهم الخمسة التي وضعوها بإزاء أصول الدين الخمسة التي بعث بها الرسول.

والرافضة المتأخرون يجعلوا الأصول أربعة: التوحيد والعدل والنبوة والإمامة.

وأصول أهل السنة والجماعة تابعة لما جاء به الرسول.

وأصل الدين الإيمان بما جاء به الرسول كما تقدم بيان ذلك، ولهذا كانت الآيتان من آخر سورة البقرة لما تضمنتا هذا الأصل لهما شأن عظيم ليس لغيرهما، ففي الصحيحين عن أبي مسعود عقبة بن عمرو عن النبي ﷺ قال: (من قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه)(١).

وفي صحيح مسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «بينا جبرائيل قاعد عند النبي ﷺ سمع نقيضاً من فوقه فرفع رأسه فقال: هذا باب من السماء فتح اليوم لم يفتح قط إلا اليوم فنزل منه ملك فقال: هذا ملك نزل إلى الأرض لم ينزل قط إلا اليوم فسلم وقال: أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك: فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة لن تقرأ بحرف منها إلا أوتيته»(٢).

وقال أبو طالب المكي: أركان الإيمان سبعة يعني هذه الخمسة والإيمان بالقدر والإيمان بالجنة والنار وهذا حق والأدلة عليه ثابتة محكمة قطعية، وقد تقدمت الإشارة إلى دليل التوحيد والرسالة.

وأما الملائكة فهم الموكلون بالسماوات والأرض، فكل حركة في العالم فهي ناشئة عن الملائكة كما قال تعالى: ﴿فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا ۝٤ فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا ۝٥﴾ [النازعات: ٤، ٥]، وهم الملائكة عند أهل الإيمان وأتباع الرسل، وأما المكذبون بالرسل المنكرون للصانع فيقولون هي النجوم.

وقد دلّ الكتاب والسنة على أصناف الملائكة وأنها موكلة بأصناف المخلوقات وأنه سبحانه وَكَّل بالجبال ملائكة، ووكَّل بالسحاب والمطر ملائكة، ووكل بالرحم ملائكة تدبر أمر النطفة حتى يتم خلقها، ثم وكل بالعبد ملائكة لحفظ ما يعمله وإحصائه وكتابته، ووكل بالموت ملائكة، ووكل بالسؤال في القبر ملائكة، ووكل بالأفلاك ملائكة يحركونها، ووكل بالشمس والقمر ملائكة، ووكل بالنار وإيقادها وتعذيب أهلها وعمارتها ملائكة، ووكل بالجنة وعمارتها وغرسها وعمل آلاتها ملائكة.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٠٠٨)، ومسلم (٨٠٨).

(٢) أخرجه مسلم (٨٠٦).

فالملائكة أعظم جنود الله، ومنهم: المرسلات عرفاً، والناشرات نشراً، والفارقات فرقاً، والملقيات ذكراً.

ومنهم: النازعات غرقاً، والناشطات نشطاً، والسابحات سبحاً، فالسابقات سبقاً.

ومنهم: الصافات صفاً، فالزاجرات زجراً، فالتاليات ذكراً، ومعنى جمع التأنيث في ذلك كله الفرق والطوائف والجماعات التي مفردها فرقة وطائفة وجماعة.

ومنهم: ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، وملائكة قد وكلوا بحمل العرش وملائكة قد وكلوا بعمارة السماوات بالصلاة والتسبيح والتقديس، إلى غير ذلك من أصناف الملائكة التي لا يحصيها إلا الله.

ولفظ الملك يشعر بأنه رسول منفذ لأمر مرسِله، فليس لهم من الأمر شيء بل الأمر كله للواحد القهار، وهم ينفذون أمره ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنبياء: ٢٧ ـ ٢٨] ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾﴾ [النحل: ٥٠].

فهم عباد مكرمون منهم الصافون ومنهم المسبحون ليس منهم إلا له مقام معلوم ولا يتخطاه، وهو على عمل قد أمر به لا يقصر عنه ولا يتعداه، وأعلاهم الذين عنده: ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأنبياء: ١٩ ـ ٢٠].

ورؤساؤهم الأملاك الثلاثة: جبرائيل وميكائيل وإسرافيل الموكلون بالحياة، فجبرائيل موكل بالوحي الذي به حياة القلوب والأرواح، وميكائيل موكل بالقطر الذي به حياة الأرض والنبات والحيوان، وإسرافيل موكل بالنفخ في الصور الذي به حياة الخلق بعد مماتهم.

فهم رسل الله في خلقه وأمره وسفراؤه بينه وبين عباده ينزلون الأمر من عنده في أقطار العالم ويصعدون إليه بالأمر، قد أطت السماوات بهم وحق لها أن تئط، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك قائم أو راكع أو ساجد لله ويدخل البيت المعمور منهم كل يوم سبعون ألفاً لا يعودون إليه آخر ما عليهم.

والقرآن مملوء بذكر الملائكة وأصنافهم ومراتبهم، فتارة يقرن الله تعالى اسمه

باسمهم وصلاته بصلاتهم ويضيفهم إليه في مواضع التشريف.

وتارة يذكر حفهم بالعرش وحملهم له ومراتبهم من الدنو.

وتارة يصفهم بالإكرام والكرم والتقريب والعلو والطهارة والقوة والإخلاص.

قال تعالى: ﴿كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [آل عمران: ١٨]، ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [الأحزاب: ٤٣]، ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [غافر: ٧]، ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [الزمر: ٧٥]، ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ (٢٠٦)﴾ [الأعراف: ٢٠٦]، ﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩ (٣٨)﴾ [فصلت: ٣٨]، ﴿كِرَامًا كَٰتِبِينَ (١١)﴾ [الانفطار: ١١]، ﴿كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ (١٦)﴾ [عبس: ١٦]، ﴿يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ (٢١)﴾ [المطففين: ٢١]، ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [الصافات: ٨]. وكذلك الأحاديث النبوية طافحة بذكرهم، فلهذا كان الإيمان بالملائكة أحد الأصول الخمسة التي هي أركان الإيمان.

وقد تكلم الناس في المفاضلة بين الملائكة وصالحي البشر، وينسب إلى أهل السنة تفضيل صالحي البشر والأنبياء فقط على الملائكة والى المعتزلة تفضيل الملائكة.

وأتباع الأشعري على قولين منهم من يفضل الأنبياء والأولياء، ومنهم من يقف ولا يقطع في ذلك قولاً، وحكي عن بعضهم ميلهم إلى تفضيل الملائكة وحكي ذلك عن غيرهم من أهل السنة وبعض الصوفية.

وقالت الشيعة: إن جميع الأئمة أفضل من جميع الملائكة، ومن الناس من فصَّل تفصيلاً آخر ولم يقل أحد ممن له قول يؤثر إن الملائكة أفضل من بعض الأنبياء دون بعض، وكنت ترددت في الكلام على هذه المسألة لقلة ثمرتها وأنها قريب مما لا يعني، ومن حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه.

والشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ لم يتعرض إلى هذه المسألة بنفي ولا إثبات، ولعله يكون قد ترك الكلام فيها قصداً، فإن الإمام أبا حنيفة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وقف في الجواب عنها على ما ذكره

في مآل الفتاوى فإنه ذكر مسائل لم يقطع أبو حنيفة فيها بجواب، وعدَّ منها التفضيل بين الملائكة والأنبياء وهذا هو الحق.

فإن الواجب علينا الإيمان بالملائكة والنبيين وليس علينا أن نعتقد أي الفريقين أفضل، فإن هذا لو كان من الواجب لبُيِّنَ لنا نصاً، وقد قال تعالى ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣]، ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: ٦٤].

وفي الصحيح: «إن الله فرض فرائض فلا تضيِّعوها، وحدَّ حدوداً فلا تعتدوها، وحرَّم أشياء فلا تنتهكوها، وسكت عن أشياء رحمة بكم غير نسيان فلا تسألوا عنها»[١].

فالسكوت عن الكلام في هذه المسألة نفياً وإثباتاً والحالة هذه أولى.

ولا يقال: إن هذه المسألة نظير غيرها من المسائل المستنبطة من الكتاب والسنة، لأن الأدلة هنا متكافئة على ما أشير إليه إن شاء الله تعالى، وحملني على بسط الكلام هنا أن بعض الجاهلين يسيئون الأدب بقولهم كان الملك خادماً للنبي أو أن بعض الملائكة خدام بني آدم، يعنون الملائكة الموكلين بالبشر، ونحو ذلك من الألفاظ المخالفة للشرع المجانبة للأدب.

والتفضيل إذا كان على وجه التنقص أو الحمية والعصبية للجنس لا شك في رده، وليس هذه المسألة نظير المفاضلة بين الأنبياء، فإن تلك قد وجد فيها نص وهو قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [الإسراء: ٥٥]، وقد تقدم الكلام في ذلك عند قول الشيخ وسيد المرسلين يعني النبي ﷺ.

والمعتبر رجحان الدليل ولا يهجر القول لأن بعض أهل الأهواء وافق عليه بعد أن تكون المسألة مختلفاً فيها بين أهل السنة، وقد كان أبو حنيفة رضي الله عنه يقول أولاً بتفضيل الملائكة على البشر ثم قال بعكسه، والظاهر أن القول بالتوقف أحد أقواله.

والأدلة في هذه المسألة من الجانبين إنما تدل على الفضل لا على الأفضلية ولا نزاع في ذلك.

---

(١) أخرجه الدارقطني (٤/ ١٨٤)، والحاكم (٢/ ٣٧٥)، وصححه ووافقه الذهبي.

وللشيخ تاج الدين الفزاري رَحِمَهُ اللَّهُ مصنف سمَّاه: «الإشارة في البشارة في تفضيل البشر على الملك» قال في آخره: اعلم أن هذه المسألة من بدع علم الكلام التي لم يتكلم فيها الصدر الأول من الأمة ولا من بعدهم من أعلام الأئمة، ولا يتوقف عليها أصل من أصول العقائد، ولا يتعلق بها من الأمور الدينية كبير من المقاصد، ولهذا خلا عنها طائفة من مصنفات هذا الشأن وامتنع من الكلام فيها جماعة من الأعيان، وكل متكلم فيها من علماء الظاهر بعلمه لم يخل كلامه عن ضعف واضطراب. انتهى.

فمما استدل به على تفضيل الأنبياء على الملائكة أن الله أمر الملائكة أن يسجدوا لآدم وذلك دليل على تفضيله عليهم، ولذلك امتنع إبليس واستكبر وقال: ﴿أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ﴾ [الإسراء: ٦٢]. قال الآخرون: إن سجود الملائكة كان امتثالاً لأمر ربهم وعبادة وانقياداً وطاعة له وتكريماً لآدم وتعظيماً ولا يلزم من ذلك الأفضلية كما لم يلزم من سجود يعقوب لابنه عَلَيْهِ السَّلَامُ تفضيل ابنه عليه ولا تفضيل الكعبة على بني آدم بسجودهم إليها امتثالاً لأمر ربهم.

وأما امتناع إبليس فإنه عارض النص برأيه وقياسه الفاسد بأنه خير منه، وهذه المقدمة الصغرى والكبرى محذوفة تقديرها والفاضل لا يسجد للمفضول وكلتا المقدمتين فاسدة.

أما الأولى فإن التراب يفوق النار في أكثر صفاته، ولهذا خان إبليس عنصره فأبى واستكبر، فإن من صفات النار طلب العلو والخفة والطيش والرعونة وإفساد ما تصل إليه ومحقه وإهلاكه وإحراقه، ونفع آدم عنصره في التوبة والاستكانة والانقياد والاستسلام لأمر الله والاعتراف وطلب المغفرة، فإن من صفات التراب الثبات والسكون والرصانة والتواضع والخضوع والخشوع والتذلل، وما دنا منه ينبت ويزكو وينمي ويبارك فيه ضد النار.

وأما المقدمة الثانية وهي أن الفاضل لا يسجد للمفضول فباطلة، فإن السجود طاعة لله وامتثال لأمره ولو أمر الله عباده أن يسجدوا لحجر لوجب عليهم الامتثال والمبادرة، ولا يدل ذلك على أن المسجود له أفضل من الساجد وإن كان فيه تكريمه وتعظيمه، وإنما يدل على فضله، قالوا: وقد يكون قوله: ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ

عَلَيَّ﴾ [الإسراء: ٦٢] بعد طرده لامتناعه عن السجود له لا قبله فينتفي الاستدلال به.

ومنه أن الملائكة لهم عقول وليست لهم شهوات، والأنبياء لهم عقول وشهوات، فلما نهوا أنفسهم عن الهوى ومنعوها عما تميل إليه الطباع كانوا بذلك أفضل.

وقال الآخرون: يجوز أن يقع من الملائكة من مداومة الطاعة وتحمل العبادة وترك الونى والفتور فيها ما يفي بتجنب الأنبياء شهواتهم مع طول مدة عبادة الملائكة.

ومنه أن الله تعالى جعل الملائكة رسلاً إلى الأنبياء وسفراء بينه وبينهم، وهذا الكلام قد اعتل به من قال: إن الملائكة أفضل واستدلالهم به أقوى، فإن الأنبياء المرسلين إن ثبت تفضيلهم على المرسل إليهم بالرسالة ثبت تفضيل الرسل من الملائكة إليهم عليهم، فإن الرسول الملكي يكون رسولاً إلى الرسول البشري.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١] الآيات.

قال الآخرون: وهذا دليل على الفضل لا على التفضيل، وآدم والملائكة لا يعلمون إلا ما علَّمهم الله وليس الخضر أفضل من موسى بكونه علم ما لم يعلمه موسى، وقد سافر موسى وفتاه في طلب العلم إلى الخضر وتزود لذلك وطلب موسى منه العلم صريحاً وقال له الخضر: إنك على علم من علم الله.. إلى آخر كلامه. ولا الهدهد أفضل من سليمان عليه السلام بكونه أحاط بما لم يحط به سليمان عليه السلام علماً.

ومنه قوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [صَ: ٧٥].

قال الآخرون: هذا دليل الفضل لا الأفضلية وإلا لزم تفضيله على محمد فإن قلتم هو من ذريته فمن ذريته البر والفاجر، بل يوم القيامة إذا قيل لآدم ابعث من ذريتك بعثاً إلى النار يبعث من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين إلى النار وواحداً إلى الجنة، فما بال هذا التفضيل سري إلى هذا الواحد من الألف فقط.

ومنه قول عبد الله بن سلام رضي الله عنه: ما خلق الله خلقاً أكرم عليه من محمد، الحديث. فالشأن في ثبوته وإن صح عنه، فالشأن في ثبوته في نفسه فإنه يحتمل أن يكون من الإسرائيليات.

ومنه حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (إن الملائكة

قالت يا ربنا أعطيت بني آدم الدنيا يأكلون فيها ويشربون ويلبسون ونحو نسبح بحمدك ولا نأكل ولا نشرب ولا نلهو فكما جعلت لهم الدنيا فاجعل لنا الآخرة قال: لا أجعل صالح ذرية من خلقت بيدي كمن قلت له: كن فكان)[١]. أخرجه الطبراني.

وأخرجه عبد الله بن أحمد بن محمد بن محمد حنبل عن عروة بن رويم أنه قال: أخبرني الأنصاري عن النبي ﷺ: (أن الملائكة قالوا الحديث وفيه وينامون ويستريحون، فقال الله تعالى: لا، فأعادوا القول ثلاث مرات كل ذلك يقول: لا)[٢] والشأن في ثبوتها فإن في سنديهما مقالاً وفي متنهما شيئاً، فكيف يظن بالملائكة الاعتراض على الله مرات عديدة وقد أخبر الله تعالى عنهم أنهم لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون، وهل يظن بهم أنهم متبرمون بأحوالهم متشوفون إلى ما سواها من شهوات بني آدم؟ والنوم أخو الموت فكيف يغبطونهم به، وكيف يظن بهم أنهم يغبطونهم باللهو وهو من الباطل؟ قالوا: بل الأمر بالعكس فإن إبليس إنما وسوس إلى آدم ودلاه بغرور إذ أطمعه في أن يكون مَلَكاً بقوله: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠]، فدل أن أفضلية الملك أمر معلوم مستقر في الفطرة يشهد لذلك قوله تعالى حكاية عن النسوة اللاتي قطعن أيديهن عند رؤية يوسف: ﴿وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف: ٣١]، وقال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ﴾ [الأنعام: ٥٠].

قال الأولون: إن هذا إنما كان لما هو مركوز في النفس أن الملائكة خلق جميل عظيم مقتدر على الأفعال الهائلة خصوصاً العرب، فإن الملائكة كانوا في نفوسهم من العظمة بحيث قالوا: إن الملائكة بنات الله، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً.

ومنه قوله تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [آل عمران: ٣٣].

---

(١) قال الهيثمي في المجمع (١/ ٨٢): رواه الطبراني في الكبير والأوسط وفيه إبراهيم بن عبد الله بن خالد المصيصي وهو كذاب متروك، وفي إسناد الأوسط طلحة بن زيد وهو كذاب أيضاً.

(٢) أخرجه عبد الله بن أحمد في كتاب السنة (٩٠٢)، وسنده ضعيف لجهالة الأنصاري.

قال الآخرون: قد يذكر العالمون ولا يقصد به العموم المطلق بل في كل مكان بحسبه كما في قوله تعالى: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]، ﴿قَالُوٓاْ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾﴾ [الحجر: ٧٠]، ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾﴾ [الشعراء: ١٦٥]، ﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [الدخان: ٣٢].

ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾﴾ [البينة: ٧]. والبرية مشتقة من البرء بمعنى الخلق، فثبت أن صالحي البشر خير الخلق.

قال الآخرون: إنما صاروا خير البرية لكونهم آمنوا وعملوا الصالحات والملائكة في هذا الوصف أكمل فإنهم لا يسأمون ولا يفترون فلا يلزم أن يكونوا خيراً من الملائكة، هذا على قراءة من قرأ البريئة بالهمز وعلى قراءة من قرأ بالياء إن قلنا إنها مخففة من الهمزة، وإن قلنا: إنها نسبة إلى البري وهو التراب كما قاله الفراء فيما نقله عنه الجوهري في الصحاح يكون المعنى أنهم خير من خلق من التراب فلا عموم فيها إذ الغير من خلق من التراب.

قال الأولون: إنما تكلمنا في تفضيل صالحي البشر إذا كملوا ووصلوا إلى غايتهم وأقصى نهايتهم، وذلك إنما يكون إذا دخلوا الجنة ونالوا الزلفى وسكنوا الدرجات العلى وحباهم الرحمن بمزيد قربه، وتجلى لهم ليستمتعوا بالنظر إلى وجهه الكريم.

وقال الآخرون: الشأن في أنهم هل صاروا إلى حالة يفوقون فيها الملائكة أو يساوونهم فيها، فإن كان قد ثبت لهم أنهم يصيرون إلى حال يفوقون فيها الملائكة سلم المدعى وإلا فلا.

ومما استدل به على تفضيل الملائكة على البشر قوله تعالى: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء: ١٧٢]. وقد ثبت من طريق اللغة أن مثل هذا الكلام يدل على أن المعطوف أفضل من المعطوف عليه لأنه لا يجوز أن يقال: لن يستنكف الوزير أن يكون خادماً للملك ولا الشرطي أو الحارس وإنما يقال: لن يستنكف الشرطي أن يكون خادماً للملك ولا الوزير، ففي مثل هذا التركيب يترقى من الأدنى إلى الأعلى، فإذا ثبت تفضيلهم على عيسى عليه السلام

ثبت في حق غيره إذ لم يقل أحد أنهم أفضل من بعض الأنبياء دون بعض.

أجاب الآخرون بأجوبة أحسنها أو من أحسنها أنه لا نزاع في فضل قوة الملك وقدرته وشدته وعظم خلقه وفي العبودية خضوع وذل وانقياد، وعيسى عليه السلام لا يستنكف عنها ولا من هو أقدر منه أقوى وأعظم خلقاً، ولا يلزم من مثل هذا التركيب الأفضلية المطلقة من كل وجه.

ومنه قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ﴾ [الأنعام: ٥٠]. ومثل هذا يقال بمعنى: إني لو قلت ذلك لادعيت فوق منزلتي ولست ممن يدعي ذلك، أجاب الآخرون أن الكفار كانوا قد قالوا: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٧]، فأمر أن يقول لهم: إني بشر مثلكم أحتاج إلى ما يحتاج إليه البشر من الاكتساب والأكل والشرب، ولست من الملائكة الذين لم يجعل الله لهم حاجة إلى الطعام والشراب، فلا يلزم حينئذ الأفضلية المطلقة.

ومنه ما روى مسلم بإسناده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير)[١]. ومعلوم أن قوة البشر لا تداني قوة الملك ولا تقاربها.

قال الآخرون: الظاهر أن المراد المؤمن من البشر والله أعلم، فلا تدخل الملائكة في هذا العموم.

ومنه ما ثبت في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال فيما يروي عن ربه عز وجل قال: (يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم)[٢] الحديث وهذا نص في الأفضلية.

قال الآخرون: يحتمل أن يكون المراد خيراً منه للمذكور لا الخيرية المطلقة.

ومنه ما رواه إمام الأئمة محمد بن خزيمة بسنده في كتاب التوحيد عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (بينا أنا جالس إذ جاء جبرائيل فوكز بين

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٦٤).

(٢) أخرجه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥).

كتفي فقمت إلى شجرة مثل وكري الطير فقعد في إحداهما وقعدت في الأخرى فسمت وارتفعت حتى سدت الخافقين وأنا أقلب بصري ولو شئت أن أمس السماء مسست، فنظرت إلى جبرائيل كأنه حلس لاطئ فعرفت فضل علمه بالله علي)[١]. الحديث.

قال الآخرون: في سنده مقال فلا نسلم الاحتجاج به إلا بعد ثبوته.

وحاصل الكلام أن هذه المسالة من فضول المسائل، ولهذا لم يتعرض لها كثير من أهل الأصول وتوقف أبو حنيفة رضي الله عنه في الجواب عنها كما تقدم، والله اعلم بالصواب.

وأما الأنبياء والمرسلون فعلينا الإيمان بمن سمَّى الله تعالى في كتابه من رسله والإيمان بأن الله تعالى أرسل رسلاً سواهم وأنبياء لا يعلم أسماءهم وعددهم إلا الله تعالى الذي أرسلهم.

فعلينا الإيمان بهم جملة لأنه لم يأت في عددهم نص، وقد قال تعالى: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ [النساء: ١٦٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: ٧٨].

وعلينا الإيمان بأنهم بلَّغوا جميع ما أرسلوا به على ما أمرهم الله به وأنهم بينوه بياناً لا يسع أحداً ممن أرسلوا إليه جهله ولا يحل خلافه. قال تعالى: ﴿فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [النحل: ٣٥]، ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٨٢﴾﴾ [النحل: ٨٢] ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [النور: ٥٤]، ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٢﴾﴾ [التغابن: ١٢].

وأما أولو العزم من الرسل فقد قيل فيهم أقوال أحسنها ما نقله البغوي وغيره عن ابن عباس وقتادة أنهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم، قال وهم المذكورون في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ [الأحزاب: ٧]. وفي قوله: ﴿شَرَعَ لَكُم

(١) أخرجه ابن خزيمة في التوحيد (ص٢٠٩ ـ ٢١٠)، وأبو نعيم في الحلية (٢/٣١٦).

مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ﴾ [الشورى: ١٣].

وأما الإيمان بمحمد فتصديقه واتباع ما جاء به من الشرائع إجمالاً وتفصيلاً.

وأما الإيمان بالكتب المنزلة على المرسلين فنؤمن بما سمَّى الله تعالى منها في كتابه من التوراة والإنجيل والزبور، ونؤمن بأن لله تعالى سوى ذلك كتباً أنزلها على أنبيائه لا يعرف أسماءها وعددها إلا الله تعالى.

وأما الإيمان بالقرآن فالإقرار به واتباع ما فيه وذلك أمر زائد على الإيمان بغيره من الكتب، فعلينا الإيمان بأن الكتب المنزلة على رسل الله أتتهم من عند الله وأنها حق وهدى ونور وبيان وشفاء.

قال تعالى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾ **إلى قوله:** ﴿وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ﴾ [البقرة: ١٣٦]، ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ **إلى قوله:** ﴿وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَۗ﴾ [آل عمران: ٢ ـ ٤]، ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء: ٨٢]، **إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن الله تكلم بها وأنها نزلت من عنده، وفي ذلك إثبات صفة الكلام والعلو.**

وقال تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ﴾ [البقرة: ٢١٣]، ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ﴿٤١﴾ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت: ٤١ ـ ٤٢]، ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلۡحَقَّ﴾ [سبأ: ٦]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [يونس: ٥٧]، ﴿قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۚ﴾ [فصلت: ٤٤]، ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَاۚ﴾ [التغابن: ٨]، **وأمثال ذلك في القرآن كثيرة.**



عناصر الموضوع:

١ غرض المصنف من عقد هذا الباب:

يتضح غرض المصنف من عقد هذا الباب فيما يلي:

أ ـ تقرير أركان الإيمان وأصول الدين عند أهل السنّة والجماعة.

ب ـ بيان مواقف المخالفين لأهل السنّة والجماعة في أركان الإيمان، وتقرير أصول الدين عند المعتزلة والرافضة.

٢ مناسبة هذا الباب لما سبق:

قرر المصنف فيما سبق أركان الإيمان وأصول الدين عند أهل السنّة والجماعة، فناسب أن يذكر موقف المخالفين لأهل السنّة من الفلاسفة والمعتزلة والرافضة من أصول الدين وأركان الإيمان.

٣ معاني الكلمات:

الكلمة	المعنى
المبين	الواضح.
الجزئي	هو المنسوب إلى الجزء ويطلق على معنيين: الأول: هو الجزئي الحقيقي، وهو كون المفهوم بحيث يمنع تصوره من وقوع الشركة فيه. الثاني: هو الجزئي الإضافي وهو كون المفهوم مندرجاً في كلي أعم منه.
الهيولى	مادة الشيء التي يصنع منها، كالخشب للكرسي والحديد للمسمار.
العَرَض	العرض ضد الجوهر، وهو ما كان قائماً بالجوهر كاللون مثلاً[١].
البرية	الخلق.

---

(١) التعريفات (ص١٩٢).

(٤) معنى كلام الطحاوي: «ونؤمن بالملائكة والنبيين والكتب المنزلة على المرسلين ونشهد أنهم كانوا على الحق المبين»:

ونؤمن بالملائكة وهم مخلوقات نورانية عظيمة، ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦] ولهم أجنحة كما قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾ [فاطر: ١].

نؤمن بهم على وجه الإجمال، ونؤمن بما ورد مفصلاً: جبريل وميكائيل وإسرافيل، وملك الموت، وخازن النار، وخازن الجنة، ومنكر ونكير، ورقيب وعتيد، والحفظة، وكل ما ورد خبره على سبيل التفصيل.

ونؤمن بالنبيين الذين اصطفاهم الله تعالى على الناس واختصهم بوحيه وشرائعه، وهم ذكور أحرار من أوساط أقوامهم، نؤمن بمن ورد خبره مفصلاً، ومن لم يرد، كما قال تعالى: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ﴾ [النساء: ١٦٤].

ونؤمن بالكتب التي أنزلها الله تعالى عليهم، ما عرفناه منها كالتوراة والإنجيل والزبور والقرآن وصحف إبراهيم، على ما ورد في الكتاب والسنّة على سبيل التفصيل، ونؤمن بما ورد في الأخبار على سبيل الإجمال، ونشهد أن جميع رسله كانوا على الحق المبين والطريق القويم والصراط المستقيم، وأنهم بلَّغوا رسالات الله تعالى على الوجه المطلوب ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦].

(٥) أصول الإيمان عند أهل السنّة:

أصول الإيمان عند أهل السنّة ستة وهي: الإيمان بالله، وملائكته، ورسله، وكتبه، واليوم الآخر، والإيمان بالقدر خيره وشره.

وزاد بعضهم أصلاً وهو الإيمان بالجنة والنار..

ودليلهم قوله تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦].

وجواب الرسول ﷺ لجبريل حين سأله عن الإيمان قال: **(أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره).**

وقوله تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

٦ موقف الفلاسفة من أصول الإيمان عند أهل السنّة:

الفلاسفة ينكرون هذه الأصول وأعظم الناس إنكاراً لها الفلاسفة المسمون عند من يعظمهم بالحكماء، فإن من علم حقيقة قولهم علم أنهم لم يؤمنوا بالله ورسله وكتبه، ولا ملائكته، ولا باليوم الآخر، ولا بالجنة ولا بالنار.

١ ـ إيمانهم بالله يقولون هو موجود لا حقيقة له ولا ماهية، ولا هو يعلم الجزئيات بأعيانها ولا يفعل بقدرته ومشيئته، والعالم[1] لازم له أزلاً وأبداً، وليس مفعولاً ولا مخلوقاً ولا مقدوراً عليه، وينفون عن الله جميع صفاته. تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

٢ ـ وإيمانهم بالكتاب: هم لا يصفون الله بالتكلم وأنه لا يكلم ولا يتكلم، ولا قال ولا يقول، والقرآن عندهم فيض فاض من العقل على قلب بشر زاكي النفس طاهر متميز عن النوع الإنساني بثلاث خصائص:

أ ـ قوة إدراك وسرعته.

ب ـ قوة النفس.

ج ـ قوة التخيل.

٣ ـ إيمانهم بالملائكة قالوا: إن الرسول تخيل القوى الفعلية في أشكال محسوسة وهي الملائكة عندهم، وليس لها في الخارج ذات منفصلة تصعد وتنزل وتجيء وتذهب وترى وتخاطب الرسول، وإنما هي أمور ذهنية لا وجود لها في الخارج.

٤ ـ وإيمانهم باليوم الآخر هو أشد الناس تكذيباً له في الأعيان، وعندهم أن كل ما ذكر عن يوم القيامة أمثال مضروبة، لتفهم العوام لا حقيقة لها في الخارج كما يفهم منه أتباع الرسل ﷺ، فهذا إيمان هذه الطائفة الذليلة الحقيرة بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر.

٧ أصول الدين عند المعتزلة:

بنى المعتزلة عقيدتهم على الجسم والعَرَض الذي هو الموصوف، والصفات عندهم خمس:

---

(١) هذا هو القول بقدم العالم فإن معناه أن العالم مقارن لله في الوجود «أزلاً» أي: في الماضي «وأبداً» أي: في المستقبل فامتنع حينئذٍ أن يكون العالم مفعولاً لله فإن الفاعل لا بدّ أن يتقدم على فعله وحقيقة قول هؤلاء: أن العالم حدث من غير محدث ولا صانع وأول من قال بأن العالم قديم هو أرسطو، انظر: الفتاوى (٥/ ٥٣٩) و(١٨/ ٢٢٨).

١ ـ العدل[١] ويريدون به نفي القدر.

٢ ـ التوحيد ويريدون به نفي الصفات.

٣ ـ المنزلة بين المنزلتين وهي مسائل الأسماء والأحكام؛ أي أن مرتكب الكبيرة يخرج من الإسلام ولا يدخل في الكفر. فلا يقال: لا هو مؤمن ولا هو كافر.

٤ ـ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويريدون به الخروج على الأئمة إذا جاروا وظلموا.

٥ ـ **الوعد والوعيد**: ومعنى هذا الأصل: أنه يجب على الله إثابة المطيع ومعاقبة العاصي، ثم أدرجوا فيه مسألة صاحب الكبيرة فقالوا: يجب على الله أن يخلده في النار، ومعنى الوعيد: كل خبر يتضمن إيصال ضرر إلى الغير، وتفويت نفع عنه، ومعنى الوعد: كل خبر يتضمن إيصال نفع إلى الغير أو دفع ضرر عنه[٢]. فالمعتزلة كما هو في الأصل الثالث عندهم مرتكب الكبيرة قد خرج من الإسلام ولم يدخل في الكفر، ويقولون هو في منزلة بين المنزلتين أي بين الإيمان والكفر، وفي الأصل الخامس فإن مرتكب الكبيرة في الآخرة مخلّد في النار لا يخرج منه أبداً ويرون عذابه دون عذاب الكفار مثله مثل الكفار، وأول من ابتدع بدعة منزلة بين المنزلتين واصل بن عطاء الذي كان من ضمن حلقة الحسن البصري، فجاء سائل يسأل الحسن البصري عن مرتكب الكبيرة فقبل أن يجيب الحسن أجاب واصل بن عطاء بأنه في منزلة بين منزلتين ثم اعتزل ناحية المسجد يقرر ذلك، فقال الحسن البصري: اعتزلنا واصل فسموا لذلك معتزلة، أما دعواهم في الحكم على مرتكب الكبيرة بالخلود في النار فقد أخذوا ذلك عن الخوارج[٣].

(٨) أصول الدين عند الرافضة:

الأصول عندهم أربعة:

١ ـ **التوحيد**: ويريدون به نفي الصفات.

---

(١) قال ابن القيم في الصواعق المرسلة (٣/٩٤٩): «لفظ العدل جعلته المعتزلة اسماً لإنكار قدرة الله على أفعال عباده وخلقه لها ومشيئته، فجعلوا إخراجها عن قدرته ومشيئته وخلقه هو العدل».

(٢) انظر: شرح الأصول الخمسة (ص١٢٨ ـ ١٤١).

(٣) انظر: مذكرة العقيدة للخلف (ص٧٩).

٢ ـ **العدل**: ويريدون به نفي القدر.

٣ ـ **النبوة**: وهي عندهم وظيفة إلٰهية وهي لطف من الله بعباده.

٤ ـ **الإمامة**: وهي عندهم رئاسة عامة في أمور الدين والدنيا لشخص من الأشخاص نيابة عن النبي ﷺ، ويعتقدون أن الإمامة منصب إلٰهي كالنبوة، فكما أن الله يختار من يشاء من عباده للنبوة، فكذلك يختار للإمامة من يشاء ويأمر نبيه بالنص عليه وأن ينصّبه إماماً للناس من بعده للقيام بالوظائف التي كان على النبي ﷺ أن يقوم بها، سوى أن الإمام لا يوحى إليه كالنبي، وإنما يتلقى الأحكام منه مع تسديد إلٰهي، فالنبي مبلغ عن الله والإمام مبلغ عن النبي[(١)].

قال المفيد من علماء الرافضة: «إن الأئمة القائمة مقام الأنبياء في تنفيذ الأحكام وإقامة الحدود وحفظ الشرائع وتأديب الأنام معصومون كعصمة الأنبياء، وأنهم لا يجوز منهم صغيرة إلا ما قدمت ذكر جوازه على الأنبياء، وأنه لا يجوز منهم سهو في شيء في الدين ولا ينسون شيئاً من الأحكام»[(٢)].

المقصود أن الرافضة يغلون في حب علي وآل بيته، ويقدمونهم على سائر الصحابة ويعتقدون الإمامة في اثني عشر إماماً من أولاد علي ويطعنون في الصحابة، بل يكفرونهم، وهم أشر أهل البدع وأسفههم مقالاً، فلا عقل لهم يعتمدون عليه ولا شرع، حيث يزعمون أن الأئمة الاثني عشر رجلاً من آل البيت لم يتول منهم الإمامة فعلاً إلّا علي والحسن مدة ستة أشهر ثم تركها وتنازل عنها، كما يزعمون عصمة أولئك الأئمة وأنهم مشرعون يوحى إليهم عند طائفة كبيرة منهم، كما يطعنون في القرآن الكريم ويردون السنّة كلها ويبغضون أصحاب رسول الله ﷺ وزوجاته وسائر أئمة الدين، وهم في توحيد الألوهية عباد للقبور ويدعون أصحابها ويستغيثون بهم ويطوفون بقبورهم[(٣)]، وهم في الصفات والقدر مثل المعتزلة ينفون الصفات وينفون القدر[(٤)].

٩ من هم أولو العزم؟:

أولو العزم هم: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلوات الله وسلامه

---

(١) أصل الشيعة وأصولها لمحمد حسين آل كاشف الغطاء (ص٩٨).

(٢) أوائل المقالات (ص٧٦ ـ ٧٧).

(٣) انظر: كشف الأسرار للخميني (ص٤٩).

(٤) انظر: حق اليقين في معرفة أصول الدين لعبد الله شبر الرافضي (١/٥٨).

عليهم، المذكورن في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى﴾ [الأحزاب: ٧].

وقوله: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ [الشورى: ١٣]، وسمّوا بذلك لأنهم أكثر الأنبياء ابتلاء وصبروا وتحمّلوا أكثر من غيرهم.

١٠ المفاضلة بين الملائكة وصالحي البشر:

لقد تكلم الناس[١] في المفاضلة بين الملائكة وصالحي البشر، وينسب إلى أهل السنّة تفضيل[٢] صالحي البشر والأنبياء فقط على الملائكة، وإلى المعتزلة تفضيل الملائكة[٣].

وأتباع الأشعري على قولين: منهم من يفضّل الأنبياء والأولياء، ومنهم من يقف ولا يقطع في ذلك قولاً. وحكي عن بعضهم ميلهم إلى تفضيل الملائكة، وحكي ذلك عن غيرهم من أهل السنّة وبعض الصوفية.

وقالت الشيعة: إن جميع الأئمة أفضل من جميع الملائكة، ومن الناس من فصّل تفصيلاً آخر ولم يقل أحد ممن له قول يؤثر: إن الملائكة أفضل من بعض الأنبياء دون بعض.

وهذه المسألة قليلة الثمرة وهي قريبة مما لا يعني، ومن حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه.

فالحاصل: أن الكلام في هذه المسألة من فضول المسائل، ولهذا لم يتعرض لها كثير من أهل الأصول، وتوقف أبو حنيفة رضي الله عنه في الجواب عنها. والله أعلم بالصواب.

---

(١) انظر: الفتاوى (٤/ ٣٥٠)، والتفسير الكبير (٢/ ٢١٥).

(٢) هذا التفضيل عندهم قائم على اعتبار كمال النهاية لا البداية بمعنى آخر: أن الأفضلية لهم إنما تكون في العقبى حين يدخلون الجنان ويحل عليهم رضى الرحمٰن أما باعتبار البداية أي: قبل أن يدخلوا الجنة فإن حال الملائكة الآن أفضل من صالحي البشر، انظر: الفتاوى (١٠/ ٢٩٩)، وبدائع الفوائد (٣/ ١٦٣).

(٣) وهو قول ابن حزم حيث جعل الأفضل هم الملائكة ثم الرسل ثم الأنبياء ثم أصحاب النبي ﷺ، انظر: الفصل (٥/ ١٢٥).

١١ الخلاصة:

١ ـ الملائكة: مخلوقات نورانية عظيمة، نؤمن بهم على وجه الإجمال، ونؤمن بما ورد منهم مفصلاً.

٢ ـ ونؤمن بالنبيين الذين اصطفاهم الله تعالى على الناس واختصهم بوحيه وشرائعه، نؤمن بهم إجمالاً وتفصيلاً.

٣ ـ ونؤمن بالكتب التي أنزلها الله تعالى عليهم.

٤ ـ أصول الإيمان عند أهل السنّة ستة وهي: الإيمان بالله، وملائكته، ورسله، وكتبه، واليوم الآخر، والإيمان بالقدر خيره وشره.

٥ ـ أصول الدين عند المعتزلة هي: العدل، والتوحيد، والمنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإنفاذ الوعيد.

٦ ـ أصول الدين عند الرافضة: التوحيد، والعدل، والنبوة، والإمامة.

٧ ـ أولو العزم هم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم.

٨ ـ مسألة المفاضلة بين الملائكة وصالحي البشر، قليلة الثمرة، وهي من فضول المسائل، ولهذا لم يتعرض لها كثير من أهل الأصول.

١٢ المناقشة:

- **س١:** ما هي أصول الإيمان عند أهل السنّة؟ مع بيان أدلتهم.
- **س٢:** ما موقف الفلاسفة من أصول الإيمان عند أهل السنّة؟
- **س٣:** ما أصول الدين عند المعتزلة؟ مع بيان غرضهم منها.
- **س٤:** ما أصول الدين عند الرافضة؟ مع بيان ما وافقهم عليه المعتزلة؟
- **س٥:** لماذا كان للآيتين من آخر سورة البقرة شأن عظيم؟
- **س٦:** هل يمكن أن يتصرف أحد من الملائكة فيما أوكل إليه من الأعمال استقلالاً؟ دلّل على ذلك.
- **س٧:** لماذا تكلم القرآن عن الملائكة بصيغة التأنيث في عدة مواضع من سوره؟
- **س٨:** ما المقصود بالإيمان بكل من الملائكة والأنبياء والكتب المنزلة عليهم والقرآن؟
- **س٩:** من هم أولو العزم من الرسل؟ ولماذا سمّاهم الله تعالى بذلك الاسم؟

نعت أهل القبلة بالإسلام ولو ارتكبوا المعاصي التي دون الشرك

* كلام ابن أبي العز.

١ ـ غرض المصنف من عقد هذا الباب.

٢ ـ مناسبة هذا الباب لما سبق.

٣ ـ معاني الكلمات.

٤ ـ معنى كلام الطحاوي: «ونسمي أهل قبلتنا مسلمين مؤمنين ما داموا بما جاء به النبي ﷺ معترفين، وله بكل ما قاله وأخبر مصدقين».

٥ ـ المراد بأهل القبلة.

٦ ـ معنى كلام الطحاوي: «ولا نخوض في الله ولا نماري في دين الله».

٧ ـ الأدلة على عدم الخوض في الله.

٨ ـ معنى كلام الطحاوي: «ولا نجادل في القرآن، ونشهد أنه كلام رب العالمين نزل به الروح الأمين، فعلمه سيد المرسلين محمداً ﷺ وهو كلام الله تعالى، لا يساويه شيء من كلام المخلوقين، ولا نقول بخلقه، ولا نخالف جماعة المسلمين».

٩ ـ المراد بالجدال في قول الطحاوي: «ولا نجادل في القرآن».

١٠ ـ السبب الذي حدا بالصحابيين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما إلى جمع القرآن.

١١ ـ جمع الناس على القراءة بحرف واحد.

١٢ ـ هل القراءة بالأحرف السبعة نسخت أم لا؟

١٣ ـ هل ترتيب السور والآيات اجتهاد أم توقيفي؟

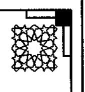
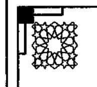
١٤ ـ حكم القول بخلق القرآن.

١٥ ـ المراد بالروح في قوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ١٩٣﴾.

١٦ ـ المراد بالرسول في قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ٤٠﴾.

١٧ ـ الخلاصة.

١٨ ـ المناقشة.

نعت أهل القبلة بالإسلام ولو ارتكبوا المعاصي

قال ابن أبي العز:

قوله: «ونسمي أهل قبلتنا مسلمين مؤمنين ما داموا بما جاء به النبي ﷺ معترفين وله بكل ما قاله وأخبر مصدقين».

قال رسول الله ﷺ: (من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا فهو المسلم له ما لنا وعليه ما علينا)[1]. ويشير الشيخ رحمه الله بهذا الكلام إلى إن الإسلام والإيمان واحد وأن المسلم لا يخرج من الإسلام بارتكاب الذنب ما لم يستحله.

والمراد بقوله: «أهل قبلتنا» من يدعي الإسلام ويستقبل الكعبة وإن كان من أهل الأهواء أو من أهل المعاصي ما لم يكذب بشيء مما جاء به الرسول وسيأتي الكلام على هذين المعنين عند قول الشيخ: «ولا نكفر أحداً من أهل القبلة بذنب من لم يستحله»، وعند قوله: و«الإسلام والإيمان واحد وأهله في أصله سواء».

قوله: «ولا نخوض في الله ولا نماري في دين الله».

يشير الشيخ رحمه الله إلى الكف عن كلام المتكلمين الباطل وذم علمهم فإنهم يتكلمون في الإله بغير علم وغير سلطان أتاهم: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٣].

وعن أبي حنيفة رحمه الله أنه قال: لا ينبغي لأحد أن ينطق في ذات الله بشيء بل يصفه بما وصف به نفسه وقال بعضهم[2]: الحق سبحانه يقول من ألزمته القيام مع أسمائي وصفاتي ألزمته الأدب، ومن كشفت له حقيقة ذاتي ألزمته العطب، فاختر الأدب أو العطب. ويشهد لهذا أنه سبحانه لما كشف للجبل عن ذاته ساخ الجبل وتدكدك ولم يثبت على عظمة الذات، قال الشبلي: الانبساط بالقول مع الحق ترك الأدب.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٩١).

(٢) انظر: مدارج السالكين (٢/ ٣٧٧).

وقوله: «ولا نماري في دين الله». معناه: لا نخاصم أهل الحق بإلقاء شبهات أهل الأهواء عليهم التماساً لامترائهم وميلهم لأنه في معنى الدعاء إلى الباطل وتلبيس الحق وإفساد دين الإسلام.

قوله: «ولا نجادل في القرآن، ونشهد أنه كلام رب العالمين نزل به الروح الأمين فعلمه سيد المرسلين محمداً، وهو كلام الله تعالى لا يساويه شيء من كلام المخلوقين، ولا نقول بخلقه ولا نخالف جماعة المسلمين».

فقوله: «ولا نجادل في القرآن». يحتمل أنه أراد أنا لا نقول فيه كما قال أهل الزيغ واختلفوا وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق، بل نقول إنه كلام رب العالمين نزل به الروح الأمين إلى آخر كلامه.

ويحتمل أنه أراد أنا لا نجادل في القراءة الثابتة بل نقرؤه بكل ما ثبت وصح وكل من المعنيين حق ويشهد بصحة المعنى الثاني ما روي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: سمعت رجلاً قرأ آية سمعت رسول الله يقرأ خلافها فأخذت بيده فانطلقت به إلى رسول الله ﷺ فذكرت ذلك له فعرفت في وجهه الكراهة وقال: «كلاكما محسن لا تختلفوا، فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا»[1]. رواه مسلم.

نهى رسول الله ﷺ عن الاختلاف الذي فيه جحد كل واحد من المختلفين ما مع صاحبه من الحق، لأن كلا القارئين كان محسناً فيما قرأه، وعلل ذلك بأن من كان قبلنا اختلفوا فهلكوا، ولهذا قال حذيفة رضي الله عنه لعثمان رضي الله عنه: أدرك هذه الأمة لا تختلف كما اختلفت الأمم قبلهم[2]، فجمع الناس على حرف واحد اجتماعاً سائغاً وهم معصومون أن يجتمعوا على ضلالة، ولم يكن في ذلك ترك لواجب ولا فعل لمحظور إذ كانت قراءة القرآن على سبعة أحرف جائزة لا واجبة رخصة من الله تعالى، وقد جعل الاختيار إليهم في أي حرف اختاروه.

كما أن ترتيب السور لم يكن واجباً عليهم منصوصاً، ولهذا كان ترتيب مصحف عبد الله على غير ترتيب المصحف العثماني، وكذلك مصحف غيره. وأما ترتيب

---

(١) أخرجه البخاري (٢٤١٠)، وليس هو في مسلم.
(٢) أخرجه البخاري (٤٩٨٧).

آيات السور فهو ترتيب منصوص عليه فلم يكن لهم أن يقدموا آية على آية بخلاف السور، فلما رأى الصحابة أن الأمة تفترق وتختلف وتتقاتل إن لم تجتمع على حرف واحد جمعهم الصحابة عليه، هذا قول جمهور السلف من العلماء والقراء قاله ابن جرير وغيره.

ومنهم من يقول: إن الترخص في الأحرف السبعة كان في أول الإسلام لما في المحافظة على حرف واحد من المشقة عليهم أولاً، فلما تذللت ألسنتهم بالقراءة وكان اتفاقهم على حرف واحد يسيراً عليهم وهو أوفق لهم أجمعوا على الحرف الذي كان في العرضة الأخيرة. وذهب طوائف من الفقهاء وأهل الكلام إلى أن المصحف يشتمل على الأحرف السبعة لأنه لا يجوز أن يهمل شيء من الأحرف السبعة، وقد اتفقوا على نقل المصحف العثماني وترك ما سواه، وقد تقدمت الإشارة إلى الجواب وهو أن ذلك كان جائزاً لا واجباً أو أنه صار منسوخاً.

وأما من قال عن ابن مسعود: إنه كان يجوز القراءة بالمعنى فقد كذب عليه وإنما قال: قد نظرت إلى القراءة فرأيت قراءتهم متقاربة، وإنما هو كقول أحدكم هلم وأقبل وتعال فاقرؤوا كما علمتم أو كما قال.

والله تعالى قد أمرنا أن لا نجادل أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم، فكيف بمناظرة أهل القبلة، فإن أهل القبلة من حيث الجملة خير من أهل الكتاب فلا يجوز أن يناظر من لم يظلم منهم إلا بالتي هي أحسن، وليس إذا أخطأ يقال: إنه كافر قبل أن تقام عليه الحجة التي حكم الرسول بكفر من تركها والله تعالى قد عفا لهذه الأمة عن الخطأ والنسيان، ولهذا ذم السلف أهل الأهواء وذكروا أن آخر أمرهم السيف، وسيأتي لهذا المعنى زيادة بيان إن شاء الله تعالى عند قول الشيخ: ونرى الجماعة حقاً وصواباً والفرقة زيغاً وعذاباً.

وقوله: «ونشهد أنه كلام رب العالمين». قد تقدم الكلام على هذا المعنى عند قوله: وإن القرآن كلام الله منه بدا بلا كيفية قولاً.

وقوله: «نزل به الروح الأمين» هو جبريل عليه السلام، سُمِّي روحاً لأنه حامل الوحي الذي به حياة القلوب إلى الرسل من البشر صلوات الله عليهم أجمعين، وهو أمين حق أمين، صلوات الله عليه، قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ

مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ [الشعراء: ١٩٣ ـ ١٩٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾﴾ [التكوير: ١٩ ـ ٢١] وهذا وصف جبرائيل بخلاف قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الحاقة: ٤٠ ـ ٤١] الآيات، فإن الرسول هنا هو محمد ﷺ.

وقوله: «فعلمه سيد المرسلين» تصريح بتعليم جبرائيل إياه إبطالاً لتوهم القرامطة وغيرهم أنه تصوره في نفسه إلهاماً.

وقوله: «ولا نقول بخلقه ولا نخالف جماعة المسلمين»، تنبيه على أن من قال بخلق القرآن فقد خالف جماعة المسلمين، فإن سلف الأمة كلهم متفقون على أنه كلام الله بالحقيقة غير مخلوق، بل قوله ولا نخالف جماعة المسلمين مجرى على إطلاقه أنا لا نخالف جماعة المسلمين في جميع ما اتفقوا عليه فإن خلافهم زيغ وضلال وبدعة.



عناصر الموضوع:

١ غرض المصنف من عقد هذا الباب:

عقد المصنف هذا الباب لبيان أن من نطق بالشهادتين واستقام عليهما فإنه مسلم، ولو صدر منه بعض المعاصي، ولو كانت من الكبائر، وما دامت المعاصي دون الشرك.

٢ مناسبة هذا الباب لما سبق:

قرر المؤلف فيما سبق أركان الدين وأصول الإيمان فناسب بعد ذلك أن يبين أن من نطق بالشهادتين واستقام عليهما فإنه مسلم، ولو صدر منه بعض المعاصي، ولو كانت من الكبائر، وما دامت المعاصي دون الشرك.

٣ معاني الكلمات:

الكلمة	المعنى
القنوط	اليأس
الجحود	التكذيب والإنكار.
النفي	عبارة عن الإخبار بترك الفعل، وقيل عبارة عن الإخبار عن صدور الفعل عن الفاعل في الزمان الآتي.

٤ معنى كلام الطحاوي: «ونسمي أهل قبلتنا مسلمين مؤمنين ما داموا بما جاء به النبي ﷺ معترفين بكل ما قاله وأخبر مصدقين»:

«هذا من العقيدة، أنه من نطق بالشهادتين واستقام عليهما فإنه مسلم، ولو صدر منه بعض المعاصي، ولو كانت من الكبائر، وما دامت المعاصي دون الشرك، ولكن يكون مسلماً ناقص الإسلام وناقص الإيمان، ولكنه لا يحكم بكفره إن كانت معاصيه دون الشرك، هذه عقيدة أهل السنّة والجماعة، لا يكفرون بالمعاصي التي هي دون الشرك، ولكن ينقص بها الإيمان، وصاحبها يفسق بها

الفسق الأصغر الذي لا يخرج من الملة. خلافاً للخوارج الذين يكفرون بالكبائر ويخرجون بها من الملة، ويخلدون صاحبها في النار. وخلافاً للمعتزلة الذين يخرجون صاحب الكبيرة من الإسلام، ولكن لا يدخلونه في الكفر، ويقولون: هو في منزلة بين المنزلتين، ولكن لو ماتوا على الكبيرة فالمعتزلة مثل الخوارج في الحكم عليهم، وخلاف عقيدة المرجئة الذين يقولون: إنه لا يضر مع الإيمان معصية، من صدق بالله ﷻ فإنه يكون مؤمناً، وإن فعل ما فعل، ولو ترك جميع أركان الإسلام عندهم لا يكون كافراً، المهم التصديق والاعتقاد، أما الأعمال فلا تزيد في الإيمان ولا تنقصه وليست منه، فهو مؤمن تام الإيمان ما دام مصدقاً.

هذا مذهب المرجئة، وهو مذهب ضال.

فهم مع الخوارج على طرفي نقيض، قوم تشددوا وهم الخوارج، وقوم ذابوا وماعوا وقالوا: إن هذه المعاصي لا تضر، وهم المرجئة، وأما أهل السنّة والجماعة فتوسطوا، ومذهبهم مأخوذ من الكتاب والسنّة، وهو العدل، وفيه الجمع بين الأدلة. أما الخوارج والمعتزلة فأخذوا نصوص الوعيد وتركوا نصوص الوعد، وأما المرجئة فأخذوا بنصوص الوعد وتركوا نصوص الوعيد، لكن أهل السنّة والجماعة أخذوا بنصوص الوعد وبنصوص الوعيد، وجمعوا بينها، وهذا الحق ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧] فيردون هذا إلى هذا، ولا يأخذون بطرف ويتركون الطرف الآخر كما هو مذهب أهل الزيغ ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٧]، يأخذون بالمتشابه ويتركون المحكم الذي يفسر المتشابه.

وقول المصنف: «مسلمين مؤمنين» ليس على إطلاقه؛ لأنهم قد يكونون ناقصين في الإسلام والإيمان، ومتوعدين من الله ﷻ.

أما لو جحدوا شيئاً مما جاء به النبي ﷺ ولم يعترفوا، صاروا كفاراً، ولو آمنوا ببعض ما جاء به، فإن جحدوا بعضه فهم كافرون بجميع ما جاء به، فالواجب الإيمان به كله، سواء وافق أهواءنا أو خالفها؛ لأنه حق.

أما من كذب ببعض الأحاديث الصحيحة فهو كافر، فلو ردّ حديثاً في البخاري، والحديث صحيح، وقال: أنا لا أؤمن بهذا الحديث ولا أصدقه؛ لأنه يخالف العلم الحديث، فسبحان الله! كلام النبي ﷺ يتهم، وكلام البشر لا يتهم؟

أيضاً العلم الحديث قد لا يخالف الأحاديث الصحيحة، والحمد لله، فمثلاً ورد في حديث الذباب الذي ينكره هؤلاء أن في أحد جناحيه داء وفي الآخر دواء، والطب يقرّ بهذا أن السم يعالج بضده، وبما يناقضه، والذباب فيه النقيضان، فإنه إذا وقع في الماء فإنه يرفع الجناح الذي فيه الدواء، ويغمس الجناح الذي فيه السم، فالنبي ﷺ أمر بغمسه بجناحه الذي فيه الدواء، فيغالب السم، فهذا يقرّه الطب ولا يرده، ولكنه لما خالف أذواق هؤلاء الجهال صاروا يتكلمون بهذا الكلام، وهذا كفر والعياذ بالله، ولهم مقالات شنيعة نحو السنّة، يردونها ويشككون فيها، ويقولون إن النبي ﷺ قال: **(أنتم أعلم بأمر دنياكم)**، يقولون هذا وهم يدعون أنهم دعاة للإسلام، وهذا موقفهم من سنّة النبي ﷺ، فهؤلاء الجهّال يقولون: هذه من أمور الدنيا، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول: **(أنتم أعلم بأمر دنياكم)**، فمعناه: أنهم يجهِّلون النبي ﷺ.

وقوله: «معترفين» «مصدقين»، لا يكفي الاعتراف والتصديق إلّا على مذهب المرجئة، بل لا بدّ مع ذلك من العمل بما جاء به، ولا بدّ من الإخلاص في ذلك»[1].

٥ المراد بأهل القبلة:

المراد بهم هم من يدّعي الإسلام ويستقبل القبلة وإن كانوا من أهل الأهواء ومن أهل المعاصي ما لم يكذب بشيء مما جاء به الرسول. وأن المؤمن لا يخرج من الإسلام بارتكاب الذنب ما لم يستحله.

٦ معنى كلام الطحاوي: «ولا نخوض في الله ولا نماري في دين الله»:

«لا نخوض في الله، بل نؤمن به وبصفاته وأسمائه، ولا نؤولها ونصرفها عن ظاهرها، ونأتي بمعان ما أرادها الله ولا أرادها النبي ﷺ، اتباعاً لأهوائنا وعقولنا القاصرة، وهذا كفر بالله ﷻ. وكذلك في دين الله لا نماري ـ أي نجادل ـ ونقول: هذا نؤمن به وهذا نتوقف في الإيمان به، فما دام ثبت في الكتاب والسنّة فليس فيه مجال للخوض، بل نؤمن به ونسلم، وإن كان في عقولنا ما لا يدرك هذا الشيء، فعقولنا قاصرة، ولو كانت كاملة لما احتاجت إلى النبي ﷺ، ولما احتاجت البشرية إلى الرسل، فدلّ على أن العقول قاصرة، ولا بدّ من إرسال

(١) التعليقات المختصرة على العقيدة الطحاوية (ص١٣١ ـ ١٣٤).

الرسل؛ لإحقاق الحق وإبطال الباطل»[١].

(٧) الأدلة على عدم الخوض في الله:

قال تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٣].

وعن أبي حنيفة رَحِمَهُ اللهُ أنه قال: لا ينبغي لأحد أن ينطق في ذات الله بشيء بل يصفه بما وصف به نفسه.

(٨) معنى كلام الطحاوي: «ولا نجادل في القرآن، ونشهد أنه كلام رب العالمين نزل به الروح الأمين، فعلمه سيد المرسلين محمداً ﷺ وهو كلام الله تعالى، لا يساويه شيء من كلام المخلوقين، ولا نقول بخلقه، ولا نخالف جماعة المسلمين»:

قوله: لا نجادل في القرآن، يشمل عدم القول بأنه ليس من عند الله، كما يقوله الكفار، ويقولون: هو من عند محمد ﷺ، وكذلك الجدال في تفسير معاني القرآن، فلا نفسّر القرآن من عند أنفسنا، فالقرآن لا يفسّر إلّا بما جاء في كتاب الله أو ما جاء في سنّة رسول الله ﷺ، أو ما قاله الصحابة أو ما قاله التابعون، أو ما اقتضته اللغة العربية التي نزل بها.

فلا نقول فيه بعقولنا القاصرة، إنما يفسّره الله سبحانه الذي نزله، أو النبي عليه الصلاة والسلام الذي وكل إليه بيانه، أو الصحابة الذين تتلمذوا على المصطفى عليه الصلاة والسلام، أو التابعون الذين رووا عن تلاميذ النبي ﷺ، أو باللغة التي نزل بها؛ لأنه نزل بلسان عربي مبين. أما تفسيره بما يقوله الطبيب الفلاني أو المفكر الفلاني أو الفلكي الفلاني، فالنظريات تختلف، فاليوم نظرية وغداً نظرية تبطلها؛ لأنها من عمل البشر، فلا يفسّر كلام الله بهذه الأشياء التي تتبدل وتتغير كما يفعله بعض الناس اليوم ويقولون: هذا من الإعجاز العلمي.

وقوله: «ونشهد أنه كلام رب العالمين»، نشهد أن القرآن كلام الله تكلم الله به حقيقة، وسمعه جبريل من الله، وبلغه إلى النبي ﷺ، وبلغه محمد عليه الصلاة والسلام إلى أمته، وبلغته أمته كل جيل إلى الجيل الذي بعده، نحن نكتبه ونقرؤه

---

(١) انظر المصدر السابق (ص١٣٤ ـ ١٣٥).

ونحفظه، وهو بذلك كلام الله، ليس بكلامنا، ولا كلام النبي ﷺ، ولا كلام جبريل عليه السلام.

والروح الأمين هو جبريل، وسمي بهذا لأنه مؤتمن لا يغيّر ولا يبدّل، مؤتمن على ما حمله الله، لا يتهم بالخيانة كما تقوله اليهود يقولون: جبريل عدونا، أو كما يقوله غلاة الشيعة: إن الرسالة لعلي ولكن جبريل خان وبلغها إلى محمد ﷺ فهذا تكذيب لله؛ لأن الله سمّاه أميناً.

فأنزل الله في اليهود: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [البقرة: ٩٧] ثم قال: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [البقرة: ٩٨].

فمن عادى جبريل، أو ملكاً من الملائكة، فالله عدوه، وكذا من عادى رسولاً من الرسل، فهو كافر، ومن عادى ولياً من أولياء الله فإنه مبارز الله بالمحاربة، كما صحّ في الحديث، فجبريل علّمه للنبي ﷺ، قال تعالى: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾﴾ [النجم: ٥]، وضمير المفعول في ﴿عَلَّمَهُۥ﴾ راجع إلى النبي ﷺ، و﴿شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾: جبريل عليه الصلاة والسلام، فعلم النبي ﷺ بأمر الله.

والقرآن هو كلام الله، تكلم به سبحانه حقيقة، وسمعه جبريل من الله حقيقة، وبلغه إلى النبي ﷺ من غير زيادة ولا نقصان، وهو كلام الله تعالى كما نزل، فالله حفظه من الزيادة والنقص: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحجر: ٩].

ولا نقول: القرآن مخلوق كما تقول الجهمية، فهذا كفر وجحود لكلام الله، ووصف لله بالنقص وأنه لا يتكلم، والذي لا يتكلم يكون ناقصاً ولا يكون إلهاً.

أما جماعة المسلمين فيؤمنون بأنه منزل حقيقة غير مخلوق، منه بدأ وإليه يعود[1].

٩ المراد بالجدال في قول الطحاوي: «ولا نجادل في القرآن»:

يحتمل ذلك معنيين:

الأول: أن لا نقول فيه كما قال أهل الزيغ واختلفوا وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق، بل نقول: كلام رب العالمين نزل به الروح الأمين.

---

(١) انظر: التعليقات المختصرة على العقيدة الطحاوية (ص١٣٥ ـ ١٣٨).

الثاني: أو أنه أراد أنا لا نجادل في القراءات الثابتة بل بقراءة كل ما ثبت وصح، وكلا المعنيين صحيح ويشهد بصحة المعنى ما روي عن عبد الله بن مسعود أنه قال: سمعت رجلاً قرأ آية سمعت رسول الله ﷺ كان يقرأ خلافها فأخذت بيده وانطلقت به إلى رسول الله فذكرت ذلك فعرفت في وجهه الكراهية وقال: **(كلاكما محسن لا تختلفوا، فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا)**.

١٠ السبب الذي حدا بالصحابيين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما إلى جمع القرآن:

الحامل لأبي بكر على جمع القرآن هو أنه قُتل في موقعة اليمامة عدد كبير من القراء والذي خاف ذلك هو عمر رضي الله عنه، وقد تردد أبو بكر كثيراً في ذلك حتى شرح الله صدره فأمر بجمعه.

وأما الحامل لعثمان فهو مخافة الفتنة باختلاف القراءة.

١١ جمع الناس على القراءة بحرف واحد:

يجوز جمع الناس على القراءة بحرف واحد؛ لأن الصحابة أجمعوا على ذلك فإجماعهم سائغ لأنهم لا يجتمعون على ضلالة، ولم يكن في ذلك ترك لواجب ولا فعل لمحظور، إذ كانت قراءة القرآن على سبعة أحرف جائزة لا واجبة، رخصة من الله، وقد جعل الاختيار إليهم في أي حرف اختاروه.

١٢ هل القراءة بالأحرف السبعة نسخت أم لا؟:

قيل: إن الترخيص في الأحرف السبعة كان في أول الإسلام لما في المحافظة على الحرف الواحد من المشقة عليهم أولاً، فلما تذللت ألسنتهم بالقراءة وكان اتفاقهم على حرف واحد يسيراً أجمعوا على الحرف الذي كان في العرضة الأخيرة.

وقال جماعة من الفقهاء وأهل الكلام: إن المصحف العثماني مشتمل على الأحرف السبعة وقد اتفق الجميع على نقل المصحف العثماني وترك ما سواه، أما من قال: إن ابن مسعود كان يجوّز القراءة بالمعنى فقد كذب عليه فإنما قال: نظرت في القراء فرأيت قراءاتهم متقاربة إنما هو كقولكم: هلمّ وأقبل وتعال فاقرؤوا كما علمتم.

١٣ هل ترتيب السور والآيات اجتهاد أم توقيفي؟:

ترتيب الآيات في كل سورة أمر توقيفي، والدليل هو أن النبي ﷺ كان إذا

نزلت آية قال: (**ضعوها في مكان كذا من السورة، أي من سورة كذا**)، فهو منصوص على مكانها.

وأما ترتيب السور في المصحف فهو أمر اجتهادي توقيفي.

والدليل على ترتيب السور هو اختلاف ترتيب مصاحف الصحابة، فمثلاً مصحف ابن مسعود على غير ترتيب مصحف عثمان وغيره.

(١٤) حكم القول بخلق القرآن:

حكمه أنه كافر مخالف لجماعة المسلمين وإنما قال ذلك لينكر صفة الكلام، ومذهب السلف أنه كلام الله نزل به جبريل على قلب محمد ﷺ وأنه متعبّد بتلاوته فهو منزل غير مخلوق.

(١٥) المراد بالروح في قوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾﴾:

المراد به جبريل عليه السلام، وسمي روحاً لأنه حامل الوحي الذي فيه حياة القلوب إلى محمد ﷺ.

(١٦) المراد بالرسول في قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾﴾:

قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾﴾ [التكوير: ١٩ ـ ٢٠] المراد بالرسول هنا هو جبريل.

وأما المراد في قوله تعالى في سورة الحاقة: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾﴾ [الحاقة: ٤٠] فهو الرسول ﷺ. والدليل على ذلك سياق الآيات.

(١٧) الخلاصة:

١ ـ إن من نطق بالشهادتين واستقام عليهما فإنه مسلم، ولو صدر منه بعض المعاصي، ولو كانت من الكبائر، وما دامت المعاصي دون الشرك.

٢ ـ من كذب ببعض الأحاديث الصحيحة فهو كافر.

٣ ـ لا يكفي الاعتراف والتصديق إلّا على مذهب المرجئة، بل لا بدّ مع ذلك من العمل بما جاء له، ولا بدّ من الإخلاص في ذلك.

٤ ـ المراد بأهل القبلة من يدّعي الإسلام ويستقبل القبلة وإن كانوا من أهل الأهواء ومن أهل المعاصي ما لم يكذب بشيء مما جاء به الرسول.

٥ ـ لا نخوض في الله، بل نؤمن به وبصفاته وأسمائه، ولا نؤولها ونصرفها عن ظاهرها.

٦ - عدم الجدل في القرآن يشمل عدم القول بأنه ليس من عند الله، كما يقوله الكفار، ويقولون: هو من عند محمد ﷺ وكذلك الجدال في تفسير معاني القرآن.

٧ - إن القرآن كلام الله تكلم الله به حقيقة، وسمعه جبريل من الله، وبلغه إلى النبي ﷺ، وبلغه محمد عليه الصلاة والسلام إلى أمته، وبلغته أمته كل جيل إلى الجيل الذي بعده.

٨ - الروح الأمين هو جبريل، وسمي بهذا لأنه مؤتمن لا يغيّر ولا يبدّل مؤتمن على ما حمله الله.

٩ - من عادى جبريل، أو ملكاً من الملائكة، فالله عدوه، وكذا من عادى رسولاً من الرسل، فهو كافر، ومن عادى ولياً من أولياء الله فإنه مبارز لله بالمحاربة.

١٠ - يجوز جمع الناس على القراءة بحرف واحد؛ لأن الصحابة أجمعوا على ذلك.

١١ - ترتيب الآيات في كل سورة أمر توقيفي.

(١٨) المناقشة:

- **س١:** ما المراد بأهل القبلة؟
- **س٢:** ما معنى كلام الطحاوي: «ولا نخوض في الله ولا نماري في دين الله»؟
- **س٣:** ما الأدلة على عدم الخوض في الله؟
- **س٤:** قال الطحاوي: «ولا نجادل في القرآن: ما المقصود بالجدال المذكور»؟
- **س٥:** ما السبب الذي حدا بالصحابيين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما إلى جمع القرآن؟
- **س٦:** هل يجوز جمع الناس على القراءة بحرف واحد؟ دلّل على ذلك.
- **س٧:** هل القراءة بالأحرف السبعة نسخت أم لا؟
- **س٨:** هل ترتيب السور والآيات اجتهاد أم توقيفي؟
- **س٩:** ما حكم القول بخلق القرآن؟ مع بيان مذهب السلف في هذا الباب.
- **س١٠:** ما المراد بالروح في قوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾﴾؟
- **س١١:** ما المراد بالرسول في قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾﴾ في كل من سورتي التكوير والحاقة؟

التكفير

* كلام ابن أبي العز:

١ ـ غرض المصنف من عقد هذا الباب.

٢ ـ مناسبة هذا الباب لما سبق.

٣ ـ معاني الكلمات.

٤ ـ معنى كلام الطحاوي: «ولا نكفر أحداً من أهل القبلة بذنب، ما لم يستحله. ولا نقول: لا يضر مع الإيمان ذنب لمن عمله».

٥ ـ تعريف التكفير.

٦ ـ خطورة التكفير.

٧ ـ أقوال السلف في التحذير من التكفير.

٨ ـ التفريق بين التكفير المعين والتكفير المطلق.

٩ ـ لا يكفر إلا من كفره الله ورسوله ﷺ.

١٠ ـ ضوابط التكفير وشروطه وموانعه.

١١ ـ أهل السنة لا يكفرون من كفرهم.

١٢ ـ المخالفون لأهل السنة في التكفير.

١٣ ـ تعريف الكفر.

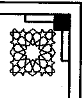
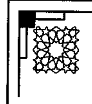
١٤ ـ أنواع الكفر.

١٥ ـ أمثلة على ألفاظ وأفعال الكفر.

١٦ ـ الفرق بين الكفر الأكبر والأصغر.

١٧ ـ الردة، أقسامها وأحكامها.

١٨ ـ الإشكال في قول الطحاوي: «ولا نكفر أحداً من أهل القبلة بذنب ما لم يستحله».
١٩ ـ مذاهب الناس في تكفير أهل الكبائر.
٢٠ ـ تكفير المعين.
٢١ ـ تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤].
٢٢ ـ معنى كلام الطحاوي: «ونرجو للمحسنين من المؤمنين أن يعفو عنهم ويدخلهم الجنة برحمته ولا نأمن عليهم، ولا نشهد لهم بالجنة ونستغفر لمسيئهم ونخاف عليهم ولا نقنطهم».
٢٣ ـ أدلة الرجاء والخوف.
٢٤ ـ استلزام الرجاء للأمور الثلاثة.
٢٥ ـ المشرك لا يرجى له المغفرة.
٢٦ ـ أسباب المغفرة.
٢٧ ـ معنى قول الطحاوي: «والأمن والإياس ينقلان عن ملة الإسلام، وسبيل الحق بينهما لأهل القبلة».
٢٨ ـ الخوف المحمود والرجاء المحمود واستلزام كل منهما للآخر.
٢٩ ـ نقد حول صاحب منازل السائرين «الرجاء أضعف منازل المريد».
٣٠ ـ يجب ترجيح الرجاء عند الموت.
٣١ ـ معنى قول الطحاوي: «ولا يخرج العبد من الإيمان إلا بجحود ما أدخله فيه».
٣٢ ـ الخلاصة.
٣٣ ـ المناقشة.

التكفير

قوله: «ولا نكفر أحداً من أهل القبلة بذنب ما لم يستحله ولا نقول لا يضر مع الإيمان ذنب لمن عمله».

أراد بأهل القبلة الذين تقدم ذكرهم في قوله ونسمي أهل قبلتنا مسلمين مؤمنين ما داموا بما جاء به النبي معترفين وله بكل ما قال وأخبر مصدقين. يشير الشيخ رَحِمَهُ اللهُ بهذا الكلام إلى الرد على الخوارج القائلين بالتكفير بكل ذنب.

واعلم رحمك الله وإيانا أن باب التكفير وعدم التكفير باب عظمت الفتنة والمحنة فيه، وكثر فيه الافتراق، وتشتتت فيه الأهواء والآراء، وتعارضت فيه دلائلهم، فالناس فيه في جنس تكفير أهل المقالات والعقائد الفاسدة المخالفة للحق الذي بعث الله به رسوله في نفس الأمر أو المخالفة لذلك في اعتقادهم على طرفين ووسط من جنس الاختلاف في تكفير أهل الكبائر العملية.

فطائفة تقول لا نكفر من أهل القبلة أحداً فتنفي التكفير نفياً عاماً مع العلم بأن في أهل القبلة المنافقين الذين فيهم من هو أكفر من اليهود والنصارى بالكتاب والسنة والإجماع، وفيهم من قد يظهر بعض ذلك حيث يمكنهم وهم يتظاهرون بالشهادتين.

وأيضاً فلا خلاف بين المسلمين أن الرجل لو أظهر إنكار الواجبات الظاهرة المتواترة والمحرمات الظاهرة المتواترة ونحو ذلك فإنه يستتاب، فإن تاب وإلا قتل كافراً مرتداً والنفاق والردة مظنتها البدع والفجور كما ذكره الخلال في كتاب السنة بسنده إلى محمد بن سيرين أنه قال: إن أسرع الناس ردة أهل الأهواء، وكان يرى هذه الآية نزلت فيهم: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ﴾ [الأنعام: ٦٨].

ولهذا امتنع كثير من الأئمة عن إطلاق القول بأنا لا نكفر أحداً بذنب، بل يقال لا نكفرهم بكل ذنب كما تفعله الخوارج، وفرق بين النفي العام ونفي العموم،

والواجب إنما هو نفي العموم مناقضة لقول الخوارج الذين يكفرون بكل ذنب.

ولهذا والله أعلم قيده الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ بقوله ما لم يستحله، وفي قوله ما لم يستحله إشارة إلى أن مراده من هذا النفي العام لكل ذنب من الذنوب العملية لا العلمية وفيه إشكال، فإن الشارع لم يكتف من المكلف في العمليات بمجرد العمل دون العلم، ولا في العلميات بمجرد العلم دون العمل، وليس العمل مقصوراً على عمل الجوارح بل أعمال القلوب أصل لعمل الجوارح، وأعمال الجوارح تبع إلا أن يضمن قوله يستحله بمعنى يعتقده أو نحو ذلك.

وقوله: «ولا نقول لا يضر مع الإيمان ذنب لمن عمله» إلى آخر كلامه، رد على المرجئة فإنهم يقولون: لا يضر مع الإيمان ذنب كما لا ينفع مع الكفر طاعة، فهؤلاء في طرف والخوارج في طرف، فإنهم يقولون نكفر المسلم بكل ذنب أو بكل ذنب كبير، وكذلك المعتزلة الذين يقولون يحبط إيمانه كله بالكبيرة فلا يبقى معه شيء من الإيمان، لكن الخوارج يقولون: يخرج من الإيمان ويدخل في الكفر، والمعتزلة يقولون: يخرج من الإيمان ولا يدخل في الكفر، وهذه المنزلة بين المنزلتين، وبقولهم بخروجه من الإيمان أوجبوا له الخلود في النار.

وطوائف من أهل الكلام والفقه والحديث لا يقولون ذلك[١] في الأعمال لكن في الاعتقادات البدعية وإن كان صاحبها متأولاً فيقولون يكفر كل من قال هذا القول لا يفرقون بين المجتهد المخطئ وغيره أو يقولون يكفر كل مبتدع وهؤلاء يدخل عليهم في هذا الإثبات العام أمور عظيمة فإن النصوص المتواترة قد دلت على أنه يخرج من النار من في قلبه مثقال ذرة من إيمان، ونصوص الوعد[٢] التي يحتج بها هؤلاء تعارض نصوص الوعيد التي يحتج بها أولئك.

والكلام في الوعيد[٣] مبسوط في موضعه وسيأتي بعضه عند الكلام على قول الشيخ وأهل الكبائر في النار لا يخلدون إذا ماتوا وهم موحدون.

والمقصود هنا أن البدع هي من هذا الجنس[٤] فإن الرجل يكون مؤمناً باطناً

---

(١) الإشارة تعود إلى التكفير بكل ذنب أو بكل ذنب كبير.

(٢) المقصود به: كل خبر يتضمن نفع العبد أو دفع الضرر عنه.

(٣) المقصود به: كل خبر يتضمن إيصال الضرر إلى العبد أو تفويت نفع عنه.

(٤) أي: من جنس الأعمال والاعتقادات البدعية منها ما هو كفر، ومنها ما هو فسق ومعصية وهذا كله له شروط وموانع سيأتي ذكرهما في الشرح.

وظاهراً لكن تأول تأويلاً أخطأ فيه إما مجتهداً وإما مفرطاً مذنباً، فلا يقال إن إيمانه حبط لمجرد ذلك إلا أن يدل على ذلك دليل شرعي، بل هذا من جنس قول الخوارج والمعتزلة، ولا نقول لا يكفر بل العدل هو الوسط، وهو أن الأقوال الباطلة المبتدعة المحرمة المتضمنة نفي ما أثبته الرسول أو إثبات ما نفاه أو الأمر بما نهى عنه أو النهي عما أمر به يقال فيها الحق ويثبت لها الوعيد الذي دلت عليه النصوص ويبين أنها كفر ويقال من قالها فهو كافر ونحو ذلك كما يذكر من الوعيد في الظلم في النفس والأموال، وكما قد قال كثير من أهل السنة المشاهير بتكفير من قال بخلق القرآن وأن الله لا يرى في الآخرة ولا يعلم الأشياء قبل وقوعها، وعن أبي يوسف رَحِمَهُ اللَّهُ أنه قال: ناظرت أبا حنيفة رَحِمَهُ اللَّهُ مدة حتى اتفق رأيي ورأيه أن من قال بخلق القرآن فهو كافر.

وأما الشخص المعين إذا قيل هل تشهدون أنه من أهل الوعيد وأنه كافر فهذا لا نشهد عليه إلا بأمر تجوز معه الشهادة، فإنه من أعظم البغي أن يشهد على معين أن الله لا يغفر له ولا يرحمه بل يخلده في النار، فإن هذا حكم الكافر بعد الموت ولهذا ذكر أبو داود في سننه في كتاب الأدب باب النهي عن البغي وذكر فيه عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله يقول: (كان رجلان في بني إسرائيل متواخيين فكان أحدهما يذنب والآخر مجتهد في العبادة، فكان لا يزال المجتهد يرى الآخر على الذنب فيقول: أقصر، فوجده يوماً على ذنب فقال له أقصر فقال خلني وربي أبُعثت عليَّ رقيباً؟ فقال: والله لا يغفر الله لك، أو لا يدخلك الله الجنة، فقبض أرواحهما فاجتمعا عند رب العالمين، فقال لهذا المجتهد: أكنت بي عالماً أو كنت على ما في يدي قادراً؟ وقال للمذنب: اذهب فادخل الجنة برحمتي، وقال للآخر: اذهبوا به إلى النار، قال أبو هريرة: والذي نفسي بيده لتكلم بكلمة أوبقت دنياه وآخرته)[١] وهو حديث حسن.

ولأن الشخص المعين يمكن أن يكون مجتهداً مخطئاً مغفوراً له، ويمكن أن يكون ممن لم يبلغه ما وراء ذلك من النصوص، ويمكن أن يكون له إيمان عظيم وحسنات أوجبت له رحمة الله، كما غفر للذي قال: إذا مت فاسحقوني ثم ذروني، ثم غفر الله له لخشيته[٢]، وكان يظن أن الله لا يقدر على جمعه وإعادته أو شك في ذلك، لكن هذا التوقف في أمر الآخرة لا يمنعنا أن نعاقبه في الدنيا لمنع بدعته وأن نستتيبه فإن تاب وإلا قتلناه.

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٩٠١).

(٢) انظر: صحيح البخاري (٣٤٨١)، وصحيح مسلم (٢٧٥٦).

ثم إذا كان القول في نفسه كفراً قيل إنه كفر والقائل له يكفر بشروط وانتفاء موانع ولا يكون ذلك إلا إذا صار منافقاً زنديقاً، فلا يتصور أن يكفر أحد من أهل القبلة المظهرين الإسلام إلا من يكون منافقاً زنديقاً، وكتاب الله يبين ذلك، فإن الله صنف الخلق فيه ثلاثة أصناف: صنف كفار من المشركين ومن أهل الكتاب وهم الذين لا يقرون بالشهادتين، وصنف المؤمنين باطناً وظاهراً، وصنف أقروا به ظاهراً لا باطناً، وهذه الأقسام الثلاثة مذكورة في أول سورة البقرة، وكل من ثبت أنه كافر في نفس الأمر وكان مقراً بالشهادتين فإنه لا يكون إلا زنديقاً، والزنديق هو المنافق.

وهنا يظهر غلط الطرفين، فإنه من كفَّر كل من قال القول المبتدع في الباطن يلزمه أن يكفر أقواماً ليسوا في الباطن منافقين بل هم في الباطن يحبون الله ورسوله ويؤمنون بالله ورسوله وإن كانوا مذنبين، كما ثبت في صحيح البخاري عن أسلم مولى عمر رضي الله عنه عن عمر أن رجلاً كان على عهد النبي ﷺ كان اسمه عبد الله وكان يلقب حماراً وكان يُضحك رسول الله، وكان رسول الله ﷺ قد جلده في الشراب فأتي به يوماً فأمر به فجُلد، فقال رجل من القوم: اللهم العنه ما أكثر ما يؤتى به، فقال رسول الله: (لا تلعنه فوالله ما علمت إنه يحب الله ورسوله)[1]، وهذا أمر متيقن به في طوائف كثيرة وأئمة في العلم الدين وفيهم بعض مقالات الجهمية أو المرجئة أو القدرية أو الشيعة أو الخوارج، ولكن الأئمة في العلم والدين لا يكونون قائمين بجملة تلك البدعة بل بفرع منها، ولهذا انتحل أهل هذه الأهواء لطوائف من السلف المشاهير.

فمن عيوب أهل البدع تكفير بعضهم بعضاً، ومن ممادح أهل العلم أنهم يخطِّئون ولا يكفِّرون.

ولكن بقي هنا إشكال يرد على كلام الشيخ رحمه الله وهو أن الشارع قد سمَّى بعض الذنوب كفراً، قال الله: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]، وقال ﷺ: (سباب المسلم فسوق وقتاله كفر)[2]، متفق عليه من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

وقال ﷺ: (لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض)[3].

---

(١) أخرجه البخاري (٦٧٨٠).

(٢) أخرجه البخاري (٤٨)، ومسلم (٦٤).

(٣) أخرجه البخاري (٤٤٠٣)، ومسلم (٦٦).

(وإذا قال الرجل لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما)[١]، متفق عليهما من حديث ابن عمرو رضي الله عنهما.

وقال ﷺ: (أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خصلة منهن كان فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر)[٢]. متفق عليه من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

وقال ﷺ: (لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن، والتوبة معروضة بعد)[٣].

وقال ﷺ: (بين المسلم وبين الكفر ترك الصلاة)[٤]، رواه مسلم عن جابر رضي الله عنه.

وقال ﷺ: (من أتى كاهناً فصدَّقه أو أتى امرأة في دبرها فقد كفر بما أُنزل على محمد»[٥].

وقال ﷺ: (من حلف بغير الله فقد كفر)[٦]. رواه الحاكم بهذا اللفظ.

وقال ﷺ: (ثنتان في أمتي بهم كفر: الطعن في الأنساب، والنياحة على الميت)[٧]. ونظائر ذلك كثيرة.

والجواب أن أهل السنة متفقون كلهم على أن مرتكب الكبيرة لا يكفر كفراً ينقل عن الملة بالكلية كما قالت الخوارج، إذ لو كفر كفراً ينقل عن الملة لكان مرتداً يقتل على كل حال ولا يقبل عفو ولي القصاص، ولا تجري الحدود في الزنا والسرقة وشرب الخمر، وهذا القول معلوم بطلانه وفساده بالضرورة من دين الإسلام.

ومتفقون على أنه لا يخرج من الإيمان والإسلام، ولا يدخل في الكفر، ولا يستحق الخلود مع الكافرين كما قالت المعتزلة، فإن قولهم باطل أيضاً إذ قد جعل الله مرتكب الكبيرة من المؤمنين، قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى﴾ [البقرة: ١٧٨] إلى أن قال: ﴿فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ

---

(١) أخرجه البخاري (٦١٠٣)، ومسلم (١١). (٢) أخرجه البخاري (٣٤)، ومسلم (٥٨).
(٣) أخرجه البخاري (٢٤٧٥)، ومسلم (٥٧). (٤) أخرجه مسلم (٨٢).
(٥) أخرجه أبو داود (٣٩٠٤)، والترمذي (١٣٥).
(٦) سبق تخريجه (ص٥٢٠). (٧) أخرجه مسلم (٦٧).

بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ١٧٨]، فلم يخرج القاتل من الذين آمنوا وجعله أخاً لولي القصاص، والمراد أخوة الدين بلا ريب، وقال تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾ [الحجرات: ٩] إلى أن قال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: ١٠].

ونصوص الكتاب والسنة والإجماع[١] تدل على أن الزاني والسارق والقاذف لا يقتل بل يقام عليه الحد، فدل على أنه ليس بمرتد، وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: (من كانت عنده لأخيه اليوم مظلمة من عرض أو شيء فليتحلله منه اليوم قبل أن لا يكون درهم ولا دينار، إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته، وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فطرحت عليه ثم ألقي في النار)[٢]، أخرجاه في الصحيحين.

فثبت أن الظالم يكون له حسنات يستوفي المظلوم منها حقه.

وكذلك ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: (ما تعدون المفلس فيكم؟ قالوا: المفلس فينا من لا له درهم ولا دينار، قال: المفلس من يأتي يوم القيامة وله حسنات أمثال الجبال فيأتي وقد شتم هذا وأخذ مال هذا وسفك دم هذا وقذف هذا وضرب هذا، فيقتص هذا من حسناته وهذا من حسناته، فإذا فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار)[٣]. رواه مسلم.

وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ١١٤]، فدل ذلك على أنه في حال إساءة يعمل حسنات تمحو سيئاته وهذا مبسوط في موضعه.

والمعتزلة موافقون للخوارج هنا في حكم الآخرة فإنهم وافقوهم على أن مرتكب الكبيرة مخلد في النار، لكن قالت الخوارج نسميه كافراً، وقالت المعتزلة نسميه فاسقاً، فالخلاف بينهم لفظي فقط.

وأهل السنة أيضاً متفقون على أنه يستحق الوعيد المرتب على ذلك الذنب كما وردت به النصوص لا كما يقوله المرجئة من أنه لا يضر مع الإيمان ذنب ولا ينفع مع الكفر طاعة، وإذا اجتمعت نصوص الوعد التي استدلت بها المرجئة ونصوص

---

(١) انظر: منهاج السنّة (٣/٣٩٦)، والفتاوى (٤/٣٠٧).

(٢) أخرجه البخاري (٢٤٤٩). (٣) أخرجه مسلم (٢٥٨١).

الوعيد التي استدلت بها الخوارج والمعتزلة تبين لك فساد القولين، ولا فائدة في كلام هؤلاء سوى أنك تستفيد من كلام كل طائفة فساد مذهب الطائفة الأخرى.

ثم بعد هذا الاتفاق تبين أن أهل السنة اختلفوا خلافاً لفظياً لا يترتب عليه فساد وهو أنه هل يكون الكفر على مراتب كفراً دون كفر، كما اختلفوا هل يكون الإيمان على مراتب إيماناً دون إيمان، وهذا الاختلاف نشأ من اختلافهم في مسمى الإيمان هل هو قول وعمل يزيد وينقص أم لا، بعد اتفاقهم على أن من سماه الله تعالى ورسوله كافراً نسميه كافراً، إذ من الممتنع أن يسمي الله سبحانه الحاكم بغير ما أنزل الله كافراً ويسمي رسوله من تقدم ذكره كافراً ولا نطلق عليهما اسم الكفر، ولكن من قال إن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص قال هو كفر عملي لا اعتقادي، والكفر عنده على مراتب كفر دون كفر كالإيمان عنده.

ومن قال إن الإيمان هو التصديق ولا يدخل العمل في مسمى الإيمان، والكفر هو الجحود ولا يزيدان ولا ينقصان، قال: هو كفر مجازي[1] غير حقيقي، إذ الكفر الحقيقي هو الذي ينقل عن الملة، وكذلك يقول في تسمية بعض الأعمال بالإيمان كقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْۚ﴾ [البقرة: ١٤٣] أي صلاتكم إلى بيت المقدس إنها سميت إيماناً مجازاً لتوقف صحتها على الإيمان أو لدلالتها على الإيمان، إذ هي دالة على كون مؤديها مؤمناً، ولهذا يحكم بإسلام الكافر إذا صلى صلاتنا فليس بين فقهاء الأمة نزاع في أصحاب الذنوب إذا كانوا مقرِّين باطناً وظاهراً بما جاء به الرسول وما تواتر عنهم أنهم من أهل الوعيد، ولكن الأقوال المنحرفة قول من يقول بتخليدهم في النار كالخوارج والمعتزلة، ولكن أردأ ما في ذلك التعصب على من يضادهم وإلزامه لمن يخالف قوله بما لا يلزمه والتشنيع عليه، وإذا كنا مأمورين بالعدل في مجادلة الكافرين وأن يجادلوا بالتي هي أحسن، فكيف لا يعدل بعضنا على بعض في مثل هذا الخلاف، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ﴾ [المائدة: ٨].

وهنا أمر يجب أن يتفطن له وهو أن الحكم بغير ما أنزل الله قد يكون كفراً

(١) انظر: الرد عليهم في الفتاوى (٧/ ٨٧).

ينقل عن الملة، وقد يكون معصية كبيرة أو صغيرة، ويكون كفراً إما مجازياً وإما كفراً أصغر على القولين المذكورين، وذلك بحسب حال الحاكم، فإنه إن اعتقد أن الحكم بما أنزل الله غير واجب وأنه مخير فيه، أو استهان به مع تيقنه أنه حكم الله فهذا كفر أكبر، وإن اعتقد وجوب الحكم بما أنزل الله وعلمه في هذه الواقعة وعدل عنه مع اعترافه بأنه مستحق للعقوبة فهذا عاص ويسمى كافراً كفراً مجازياً أو كفراً أصغر، وإن جهل حكم الله فيها مع بذل جهده واستفراغ وسعه فيه معرفة الحكم وأخطأه فهذا مخطئ له أجر على اجتهاده وخطؤه مغفور.

وأراد الشيخ رحمه الله بقوله: ولا نقول لا يضر مع الإيمان ذنب لمن عمله، مخالفة المرجئة، وشبهتهم كانت قد وقعت لبعض الأولين فاتفق الصحابة على قتلهم إن لم يتوبوا من ذلك، فإن قدامة بن عبد الله شرب الخمر بعد تحريمها هو وطائفة وتأولوا قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [المائدة: ٩٣] الآية، فلما ذكروا ذلك لعمر بن الخطاب رضي الله عنه اتفق هو وعلي بن أبي طالب وسائر الصحابة على أنهم إن اعترفوا بالتحريم جلدوا وإن أصروا على استحلالها قتلوا، وقال عمر لقدامة أخطأت استك الحفرة، أما إنك لو اتقيت وآمنت وعملت الصالحات لم تشرب الخمر.

وذلك أن هذه الآية نزلت بسبب أن الله سبحانه لما حرم الخمر وكان تحريمها بعد وقعة أحد قال بعض الصحابة فكيف بأصحابنا الذين ماتوا وهم يشربون الخمر، فأنزل الله هذه الآية يبين فيها أن من طعم الشيء في الحال التي لم يحرم فيها فلا جناح عليه إذا كان من المؤمنين المتقين المصلحين كما كان من أمر استقبال بيت المقدس ثم إن أولئك الذين فعلوا ذلك يذمون على أنهم أخطأوا وأيسوا من التوبة فكتب عمر إلى قدامة يقول له: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾ [غافر: ١ ـ ٢]، ما أدري أي ذنبيك أعظم؟ استحلالك المحرم أولاً أم يأسك من رحمة الله ثانياً، وهذا الذي اتفق عليه الصحابة هو متفق عليه بين أئمة الإسلام.

قوله: «ونرجو للمحسنين من المؤمنين أن يعفو عنهم ويدخلهم الجنة برحمته ولا نأمن عليهم ولا نشهد لهم بالجنة ونستغفر لمسيئهم ونخاف عليهم ولا نقنطهم».

وعلى المؤمن أن يعتقد هذا الذي قاله الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ في حق نفسه وفي حق غيره قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾ [الإسراء: ٥٧]. وقال تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران ١٧٥]. وقال تعالى: ﴿وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ﴾ [البقرة: ٤١]، ﴿وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ [البقرة: ٤٠]، ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾ [البقرة: ١٥٠]. ومدح أهل الخوف فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴿٦١﴾﴾ [المؤمنون: ٥٧ ـ ٦١].

وفي «المسند» والترمذي عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «قلت: يا رسول الله، ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ هو الذي يزني ويشرب الخمر ويسرق؟ قال: لا يا ابنة الصديق ولكنه الرجل يصوم ويصلي ويتصدق ويخاف أن لا يقبل منه»[1]. قال الحسن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عملوا والله بالطاعات واجتهدوا فيها وخافوا أن ترد عليهم، إن المؤمن جمع إحساناً وخشية، والمنافق جمع إساءة وأمناً، انتهى.

وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾﴾ [البقرة: ٢١٨]. فتأمل كيف جعل رجاءهم مع إيمانهم بهذه الطاعات، فالرجاء إنما يكون مع الإتيان بالأسباب التي اقتضتها حكمة الله تعالى شرعه وقدرته وثوابه وكرامته، ولو أن رجلاً له أرض يؤمل أن يعود عليه من مغلها[2] ما ينفعه فأهملها ولم يحرثها ولم يبذرها ورجا أنه يأتي من مغلها مثل ما يأتي من حرث وزرع وتعاهد الأرض لعده الناس من أسفه السفهاء، وكذا لو رجا وحسن ظنه أن يجيئه ولد من غير جماع أو يصير أعلم أهل زمانه من غير طلب العلم وحرص تام وأمثال ذلك، فكذلك من حسن ظنه وقوي رجاؤه في الفوز بالدرجات العلى والنعيم المقيم من غير طاعة ولا تقرب إلى الله تعالى بامتثال أوامره واجتناب نواهيه.

ومما ينبغي أن يعلم[3] أن من رجا شيئاً استلزم رجاؤه أموراً:

---

(١) أخرجه الترمذي (٣١٧٥)، وابن ماجه (٤١٩٨).
(٢) أي: نتاجهما، انظر: المعجم الوسيط (ص٩١٧).
(٣) انظر: الجواب الكافي (ص٤٥).

أحدها: محبة ما يرجوه.

الثاني: خوفه من فواته.

الثالث: سعيه في تحصيله بحسب الإمكان.

وأما رجاء لا يقارنه شيء من ذلك فهو من باب الأماني، والرجاء شيء والأماني شيء آخر، فكل راج خائف، والسائر على الطريق إذا خاف أسرع السير مخافة الفوات.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: ٤٨]، فالمشرك لا ترجى له المغفرة لأن الله نفى عنه المغفرة وما سواه من الذنوب في مشيئة الله إن شاء الله غفر له وإن شاء عذبه.

وفي «معجم الطبراني»: «الدواوين عند الله يوم القيامة ثلاثة دواوين: ديوان لا يغفر الله منه شيئاً وهو الشرك بالله ثم قرأ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾، وديوان لا يترك الله منه شيئاً وهو مظالم العباد بعضهم بعضاً، وديوان لا يعبأ الله به وهو ظلم العبد نفسه بينه وبين ربه»[(١)].

وقد اختلفت عبارات العلماء في الفرق بين الكبائر والصغائر، وستأتي الإشارة إلى ذلك عند قول الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ وأهل الكبائر من أمة محمد في النار لا يخلدون.

ولكن ثَمَّ أمر ينبغي التفطن له وهو أن الكبيرة قد يقترن بها من الحياء والخوف والاستعظام لها ما يلحقها بالصغائر، وقد يقترن بالصغيرة من قلة الحياء وعدم المبالاة وترك الخوف والاستهانة بها ما يلحقها بالكبائر، وهذا أمر مرجعه إلى ما يقوم بالقلب وهو قدر زائد على مجرد الفعل، والإنسان يعرف ذلك من نفسه وغيره.

وأيضاً فإنه قد يعفى لصاحب الإحسان العظيم ما لا يعفى لغيره، فإن فاعل السيئات يسقط عنه عقوبة جهنم بنحو عشرة أسباب عرفت[(٢)] بالاستقراء من الكتاب والسنة:

السبب الأول: التوبة. قال تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ﴾ [مريم: ٦٠]، ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ﴾ [البقرة: ١٦٠]. والتوبة النصوح وهي ـ الخالصة ـ لا يختص بها ذنب دون ذنب،

(١) أخرجه أحمد (٦/ ٢٤٠)، والحاكم (٤/ ٥٧٥ ـ ٥٧٦)، وصححه.

(٢) انظر: منهاج السنّة (٦/ ٢٠٥)، والفتاوى (٧/ ٤٨٧).

لكن هل تتوقف صحتها على أن تكون عامة؟ حتى لو تاب من ذنب وأصر على آخر لا تقبل[١]؟ والصحيح أنها تقبل، وهل يَجُبُّ الإسلام ما قبله من الشرك وغيره من الذنوب وإن لم يتب منها، لا بد مع الإسلام من التوبة من غير الشرك، حتى لو أسلم وهو مصر على الزنا وشرب الخمر مثلاً هل يؤاخذ بما كان منه في كفره من الزنا وشرب الخمر أم لا بد أن يتوب من ذلك الذنب مع إسلامه أو يتوب توبة عامة من كل ذنب؟ وهذا هو الأصح أنه لا بد من التوبة مع الإسلام وكون التوبة سبباً لغفران الذنوب وعدم المؤاخذة بها مما لا خلاف فيه بين الأمة وليس شيء يكون سبباً لغفران جميع الذنوب إلا التوبة قال تعالى: ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزمر: ٥٣]، وهذا لمن تاب، ولهذا قال: «لا تقنطوا»، وقال بعدها: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ [الزمر: ٥٤].

السبب الثاني: الاستغفار. قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣]، لكن الاستغفار تارة يذكر وحده وتارة يقرن بالتوبة، فإن ذكره وحده دخلت معه التوبة كما إذا ذكرت التوبة وحدها شملت الاستغفار، فالتوبة تتضمن الاستغفار والاستغفار يتضمن التوبة، وكل واحد منهما يدخل في مسمى الآخر عند الإطلاق، وأما عند اقتران إحدى اللفظتين بالأخرى فالاستغفار طلب وقاية شر ما مضى، والتوبة الرجوع وطلب وقاية شر ما يخافه في المستقبل من سيئات أعماله.

ونظير هذا: الفقير والمسكين، إذا ذُكر أحد اللفظين شمل الآخر، وإذا ذُكرا معاً كان لكل منهما معنى، قال تعالى: ﴿إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ﴾ [المائدة: ٨٩]، ﴿فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًاۚ﴾ [المجادلة: ٤]، ﴿وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْۚ﴾ [البقرة: ٢٧١] لا خلاف أن كل واحد من الاسمين في هذه الآيات لما أفرد شمل المقل والمعدم، ولما قرن أحدهما بالآخر في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ [التوبة: ٦٠] كان المراد بأحدهما المقل والآخر المعدم على خلاف فيه.

وكذلك الإثم[٢] والعدوان[٣]، والبر[٤] والتقوى[٥]، والفسوق والعصيان.

---

(١) انظر: مدارج السالكين (١/ ٢٧٣).
(٢) الإثم: التجري على المعاصي.
(٣) العدوان: التعدي على الخلق.
(٤) البر: فعل الطاعات.
(٥) التقوى: تجنب المعاصي.

ويقرب من هذا المعنى الكفر والنفاق، فإن الكفر أعم، فإذا ذكر الكفر شمل النفاق، وإن ذكرا معاً كان لكل منهما معنى، وكذلك الإيمان والإسلام على ما يأتي الكلام فيه إن شاء الله تعالى.

السبب الثالث: الحسنات. فإن الحسنة بعشر أمثالها والسيئة بمثلها، فالويل لمن غلبت آحاده عشراته، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ١١٤]، وقال ﷺ: (وأتبع السيئة الحسنة تمحها)[١].

والسبب الرابع: المصائب الدنيوية. قال ﷺ: (ما يصيب المؤمن من وصب ولا نصب، ولا غم ولا هم ولا حزن، حتى الشوكة يشاكها إلا كفِّر بها من خطاياه)[٢]. وفي «المسند» أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النساء: ١٢٣] قال أبو بكر: يا رسول الله، نزلت قاصمة الظهر وأينا لم يعمل سوءاً، فقال: (يا أبا بكر ألست تنصب، ألست تحزن، ألست يصيبك اللأواء، فذلك ما تجزون به)[٣].

فالمصائب نفسها مكفرة، وبالصبر عليها يثاب العبد وبالسخط يأثم، والصبر والسخط أمر آخر غير المصيبة، فالمصيبة من فعل الله لا من فعل العبد وهي جزاء من الله للعبد على ذنبه ويكفر ذنبه بها، وإنما يثاب المرء ويأثم على فعله والصبر والسخط من فعله، وإن كان الأجر قد يحصل بغير عمل من العبد بل هدية من الغير أو فضلاً من الله من غير سبب قال تعالى: ﴿وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠] فنفس المرض جزاء وكفارة لما تقدم.

وكثيراً ما يفهم من الأجر غفران الذنوب، وليس ذلك مدلوله، وإنما يكون من لازمه.

السبب الخامس: عذاب القبر. وسيأتي الكلام عليه إن شاء الله تعالى.

السبب السادس: دعاء المؤمنين واستغفارهم في الحياة وبعد الممات.

السبب السابع: ما يهدى إليه بعد الموت من ثواب صدقة أو قراءة أو حج ونحو ذلك، وسيأتي الكلام على ذلك إن شاء الله تعالى.

---

(١) أخرجه الترمذي (١٩٨٧)، وأحمد (٥/ ٢٢٨).

(٢) أخرجه البخاري (٥٦٤١)، ومسلم (٢٥٧٣).

(٣) أخرجه أحمد (١/ ١١)، والحاكم (٣/ ٧٤ ـ ٧٥)، وصححه ووافقه الذهبي.

السبب الثامن: أهوال يوم القيامة وشدائده.

السبب التاسع: ما ثبت في «الصحيحين»: (أن المؤمنين إذا عبروا الصراط وقفوا على قنطرة بين الجنة والنار فيقتص لبعضهم من بعض، فإذا هُذِّبوا ونقوا أُذن لهم في دخول الجنة)[١].

السبب العاشر: شفاعة الشافعين. كما تقدم عند ذكر الشفاعة وأقسامها.

السبب الحادي عشر: عفو أرحم الراحمين من غير شفاعة. كما قال تعالى: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]، فإن كان ممن لم يشأ الله أن يغفر له لعظم جرمه فلا بد من دخوله إلى الكير ليخلص طيب إيمانه من خبث معاصيه، فلا يبقى في النار من في قلبه أدنى أدنى أدنى مثقال ذرة من إيمان، بل من قال لا إله إلا الله كما تقدم من حديث أنس رضي الله عنه.

وإذا كان الأمر كذلك امتنع القطع لأحد معين من الأمة غير من شهد له الرسول بالجنة، ولكن نرجو للمحسنين ونخاف عليهم.

قوله: «والأمن والإياس ينقلان عن ملة الإسلام، وسبيل الحق بينهما لأهل القبلة».

يجب أن يكون العبد خائفاً راجياً، فإن الخوف المحمود الصادق ما حال بين صاحبه وبين محارم الله، فإذا تجاوز ذلك خيف منه اليأس والقنوط والرجاء المحمود رجاء رجل عمل بطاعة الله على نور من الله فهو راج لثوابه، أو رجل أذنب ذنباً ثم تاب منه إلى الله فهو راج لمغفرته، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾﴾ [البقرة: ٢١٨].

أما إذا كان الرجل متمادياً في التفريط والخطايا يرجو رحمة الله بلا عمل فهذا هو الغرور والتمني والرجاء الكاذب، قال أبو علي الروذباري رحمه الله: الخوف والرجاء كجناحي الطائر إذا استويا استوى الطير وتم طيرانه، وإذا نقص أحدهما وقع فيه النقص، وإذا ذهبا صار الطائر في حد الموت.

وقد مدح الله أهل الخوف والرجاء بقوله: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا

---

(١) أخرجه البخاري (٢٤٤٠).

يَحْذَرُ ٱلْآخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾﴾ [الزمر: ٩]، وقال تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السجدة: ١٦]. فالرجاء يستلزم الخوف، ولولا ذلك لكان أمناً، والخوف يستلزم الرجاء، ولولا ذلك لكان قنوطاً ويأساً، وكل أحد إذا خفته هربت منه إلا الله تعالى فإنك إذا خفته هربت إليه، فالخائف هارب من ربه إلى ربه.

وقال صاحب منازل السائرين رحمه الله: الرجاء أضعف منازل المريد[1]، وفي كلامه نظر[2]، بل الرجاء والخوف على الوجه المذكور من أشرف منازل المريد، وفي الصحيح عن النبي ﷺ: (يقول الله عز وجل: أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء)[3]. وفي «صحيح مسلم» عن جابر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول قبل موته بثلاث: (لا يموتن أحدكم إلا وهو يُحسن الظن بربه)[4]، ولهذا قيل إن العبد ينبغي أن يكون رجاؤه في مرضه أرجح من خوفه بخلاف زمن الصحة فإنه يكون خوفه أرجح من رجائه.

وقال بعضهم: مَنْ عَبَدَ الله بالحب وحده فهو زنديق، ومن عبده بالخوف وحده فهو حروري، وروي: ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجئ ومن عبده بالحب والخوف والرجاء فهو مؤمن موحد، ولقد أحسن محمود الوراق في قوله:

لو قد رأيت الصغير من عمل الخـ ـير ثواباً عجبت من كبره
أو قد رأيت الحقير من عمل الشـ ـر جزاء أشفقت من حذره

قوله: «ولا يخرج العبد من الإيمان إلا بجحود ما أدخله فيه».

يشير الشيخ إلى الرد على الخوارج والمعتزلة في قولهم بخروجه من الإيمان بارتكاب الكبيرة، وفيه تقرير لما قال أولاً: لا نكفر أحداً من أهل القبلة بذنب ما لم يستحله، وتقدم الكلام على هذا المعنى.

---

(١) المريد عند الصوفية: هو التلميذ المحب لشيخه المستسلم له.

(٢) قال ابن القيم في مدارج السالكين (٢/ ٤١) معلقاً على عبارة صاحب منازل السائرين قال: «فأما قوله: «الرجاء أضعف منازل المريدين» فليس كذلك بل هو من أجل منازلهم وأعلاها وأشرفها وعليه وعلى الحب والخوف مدار السير إلى الله».

(٣) أخرجه أحمد (٣/ ٤٩١).

(٤) أخرجه مسلم (٢٨٧٧).



عناصر الموضوع:

١ غرض المصنف من عقد هذا الباب:

أ ـ تقرير مذهب أهل السنة والجماعة في التكفير وبيان ضوابطه وشروطه وموانعه وأنواعه.

ب ـ الرد على المخالفين لمذهب أهل السنة والجماعة من الخوارج والمعتزلة والوعيدية من المرجئة وغيرهم.

٢ مناسبة هذا الباب لما سبق:

قرر المؤلف فيما سبق أركان الدين وأصول الإيمان، فناسب بعد ذلك أن يبين ما يناقض أركان الإيمان وأصول الدين ألا وهو الكفر والجحود والشرك والنفاق وغير ذلك من النواقض.

٣ معاني الكلمات:

الكلمة	المعنى
القنوط	اليأس.
الجحود	التكذيب والإنكار.
النفي	عبارة عن الإخبار بترك الفعل، وقيل: عبارة عن الإخبار عن صدور الفعل عن الفاعل في الزمان الآتي.

٤ معنى كلام الطحاوي: «ولا نكفر أحداً من أهل القبلة بذنب ما لم يستحله، ولا نقول: لا يضر مع الإيمان ذنب لمن عمله»:

«ولا نكفر أحداً من أهل القبلة بذنب ما لم يستحله»، هذا كما سبق أن الذنب إذا لم يكن كفراً أو شركاً مخرجاً من الملة، فإننا لا نكفر به المسلم، بل نعتقد أنه مؤمن ناقص الإيمان، معرض للوعيد وتحت المشيئة. هذه عقيدة المسلم، ما لم يستحله، فإذا استحل ما حرم الله فإنه يكفر، كما لو استحل الربا أو الخمر أو

الميتة أو لحم الخنزير أو الزنا، إذا استحل ما حرم الله كفر بالله، وكذلك العكس: لو حرم ما أحل الله كفر: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ﴾ [التوبة: ٣١]، وجاء تفسير الآية بأنهم أحلوا لهم الحرام وحرموا عليهم الحلال فأطاعوهم. أما لو فعل الذنب وهو لم يستحله بل يعترف أنه حرام فهذا لا يكفر ولو كان الذنب كبيرة دون الشرك والكفر، لكنه يكون مؤمناً ناقص الإيمان أو فاسقاً بكبيرته مؤمناً بإيمانه.

وقوله: «لا نكفر بذنب» ليس على إطلاقه، فتارك الصلاة متعمداً يكفر، كما دل على ذلك الكتاب والسنة.

ولا نقول: لا يضر مع الإيمان ذنب لمن عمله كما تقوله المرجئة، يقولون: ما دام مصدقاً بقلبه فهو مؤمن كامل الإيمان، أما الأعمال فأمرها هين، فالذي لا يصلي ولا يصوم ولا يحج ولا يزكي ولا يعمل شيئاً من أعمال الطاعة، يقولون: هو مؤمن بمجرد ما في قلبه وهذا من أعظم الضلال.

فالرد عليهم أن الذنوب تضر على كل حال، منها ما يزيل الإيمان بالكلية، ومنها ما لا يزيله بالكلية بل ينقصه وصاحبها معرض للوعيد المرتب عليها.

(٥) تعريف التكفير:

التكفير: هو الحكم على أحد من الناس بأنه قد خرج من الإسلام ووصفه بالكفر لإتيانه بما يوجب كفره شرعاً.

(٦) خطورة التكفير:

لقد جاءت نصوص الكتاب والسنة بالوعيد الشديد لمن يكفِّر مسلماً بدون دليل من كتاب أو سنة.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا تَبۡتَغُونَ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٞۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبۡلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَتَبَيَّنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ﴿٩٤﴾﴾ [النساء: ٩٤].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **(إذا قال الرجل لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما، فإن كان كما قال وإلا رجعت عليه)**[١].

---

(١) رواه مسلم (٧١).

فالتكفير أمره عظيم وخطره جسيم، فإنه من أعظم البغي أن يشهد على معين أن الله لا يغفر له ولا يرحمه بل يخلده في النار، فالحكم على المعين بالكفر يترتب عليه أمور في الدنيا وأمور في الآخرة، أما أمور الدنيا فيترتب عليه قطع الأخوة الدينية وفسخ نكاحه ومنع التوارث بينه وبين قرابته المسلمين كما يوجب شرعاً قتله للردة.

أما أمور الآخرة فهي أخطر وأعظم، وهي حرمان الإنسان من رحمة الله والخلود في النار وعدم استحقاقه للشفاعة.

٧ أقوال السلف في التحذير من التكفير:

يقول الإمام أحمد رحمه الله تعالى: «إن الإيجاب والتحريم والثواب والعقاب والتكفير والتفسيق هو إلى الله ورسوله، ليس لأحد في هذا حكم». فالتكفير من الأحكام الشرعية التي يرجع فيها إلى الكتاب والسنة، وليس لأحد أن يتكلم فيه بالاجتهاد أو غلبة الظن أو بحكم العقل المجرد.

٨ التفريق بين التكفير المعين والتكفير المطلق:

التكفير عند أهل السنة على نوعين: معين ومطلق، أما تكفير المعين: فهو وصف شخص ما لعمل قام به أو قول بأنه كافر، وهذا لا يجوز إلا بشروط وانتفاء موانع.

أما التكفير المطلق: فهو إطلاق الكفر على الفعل أو القول أو الاعتقاد، وهذا النوع قد ورد في الشرع إطلاقه، فنطلق كما أطلقه الشارع، فيقال مثلاً: من اعتقد أن الله ليس فوق السماء فهو كافر، أو آكل الربا ملعون[١]. ونحو ذلك.

٩ لا يكفر إلا من كفره الله ورسوله ﷺ:

الكفر والتكفير حكم شرعي مثل الإسلام والإيمان لا يجوز إطلاقهما على أحد إلا من استحقهما من خلال الشرع، فمن كفر بالله ورسوله ﷺ فهو كافر، ومن لم يكفره الله ورسوله ﷺ فلا يكفر، ومن كفر بعقله أو قياسه فهو مخطئ متجاوز للحدود الشرعية[٢].

---

(١) انظر: مذكرة العقيدة للخلف (ص٥٧).

(٢) انظر: مذكرة العقيدة للخلف (ص٥٦).

(١٠) ضوابط التكفير وشروطه وموانعه:

أولاً ـ ضوابط التكفير:

لا بد في هذا الباب من قاعدتين[١] ذهبيتين:

القاعدة الأولى: أن القول أو الفعل قد يكون كفراً ولكن صاحبه لا يكفر، وذلك لاحتمال وجود مانع من موانع الكفر، فلا بد من التثبت.

القاعدة الثانية: الحكم على قول أو فعل بأنه كفر، لا يلزم منه تكفير المعين.

ثانياً ـ شروط التكفير:

استنبط العلماء من النصوص الشرعية شروط التكفير، فقد يقع المسلم في فعل كفري أو يقول قولاً كفرياً أو يعتقد اعتقاداً كفرياً إلا أننا لا نحكم بكفره إلا إذا تحققت فيه الشروط التالية:

١ ـ أن يظهر من الإنسان الكفر بقول أو فعل.

٢ ـ أن تبلغه الحجة، وتزول الشبهة.

٣ ـ أن تكون تلك الحجة ثابتة لديه.

٤ ـ أن يكون عاقلاً بالغاً.

٥ ـ أن لا يكون معذوراً بقرب عهد بالإسلام.

٦ ـ أن لا يكون مكرهاً.

٧ ـ أن لا يكون جاهلاً.

ثالثاً ـ موانع التكفير: وهي:

١ ـ أن لا تقوم عليه الحجة، إما لتمكن الشبهة من قلبه، أو لعدم وضوح الحجة عنده.

٢ ـ أن لا تثبت الحجة عنده لجهله.

٣ ـ الصغر والجنون والخرف.

٤ ـ بعده عن ديار المسلمين بحيث لا تبلغه الدعوة.

٥ ـ جهله بما تقوم به الحجة.

٦ ـ الإكراه الملجئ.

---

(١) انظر: الفتاوى (١٢/ ٤٨٩).

٧ ـ أن لا يكون معذوراً بكفره، كمن عاش في بادية أو كان قريب عهد بكفر ولم يعرف أحكام الشرع بعد.

١١ أهل السنة لا يكفرون من كفَّرهم:

أهل السنة والجماعة من إنصافهم واتباعهم للشرع المطهر لا يكفرون من كفَّرهم، لأن التكفير حكم شرعي وليس داخلاً في العقوبة بالمثل، ومما يدل على ذلك أن الصحابة رضوان الله عليهم لم يكفروا الخوارج مع أن الخوارج كانوا يكفِّرون علياً ومن كان معه من الصحابة(١).

١٢ المخالفون لأهل السنة في التكفير:

يخالف أهل السنة والجماعة في باب التكفير أهلُ البدع من الخوارج والمعتزلة والمرجئة وغيرهم.

أما الخوارج فهم يكفرون المسلمين بما لا يوجب كفرهم، فيرون أن من ارتكب كبيرة من الكبائر فقد كفر وخرج من الإسلام وهو في الآخرة مخلد في النار(٢).

أما المعتزلة فيقولون هو في منزلة بين المنزلتين، أي بين الإيمان والكفر، وفي الآخرة مخلد في النار.

أما المرجئة فلا يكفرون من ظهر عليه ما يوجب الكفر، وحصروا الكفر في الجهل والتكذيب(٣)، ويكفي في نقضه الإجماع على أن من سَبَّ الله ورسوله فهو كافر، وكذلك من استهزأ بالله ورسوله فهو كافر بذلك كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥، ٦٦]، فدل ذلك على أن الاستهزاء مجرداً، وكذلك السب، وهو أكبر منه كفر مخرج من الملة(٤)، وسيأتي بسط المسألة.

١٣ تعريف الكفر:

الكفر لغة: التغطية والستر.

وشرعاً: ضد الإيمان ـ فإن الكفر عدم الإيمان بالله ورسله ـ سواء كان معه تكذيباً أو لم يكن معه تكذيب، أو شكّاً وريباً أو إعراضاً أو حسداً أو كبراً أو اتباعاً لبعض الأهواء الصادة عن اتباع الرسالة. وإن كان المكذب أعظم كفراً.

---

(١) انظر: منهاج السنة (٥/ ٩٢ ـ ٩٣).
(٢) انظر: مقالات الإسلاميين (١/ ١٧٤).
(٣) التمهيد للباقلاني (ص٣٩٤).
(٤) انظر: مذكرة العقيدة للخلف (ص٢٧٤).

١٤ أنواع الكفر:

الكفر نوعان:

النوع الأول: كفر أكبر يُخرج من الملة وهو موجب للخلود في النار، وهو خمسة أقسام: كفر التكذيب، وكفر الإباء والاستكبار مع التصديق، وكفر الشك، وكفر الإعراض، وكفر نفاق.

النوع الثاني: كفر أصغر لا يخرج من الملة ـ وهو الذنوب التي وردت تسميتها في الكتاب والسنة كفراً، وهي لا تصل إلى حد الكفر الأكبر، فمن ذلك كفر النعمة، والحلف بغير الله تعالى، وقتال المسلم.

١٥ أمثلة على ألفاظ وأفعال الكفر:

أولاً ـ أمثلة على ألفاظ الكفر:

١ ـ سب الله تعالى، أو سب الدين أو أحد الأنبياء، أو الملائكة.

٢ ـ الاستهزاء بالله أو بأمر من أمور الدين.

٣ ـ من قال: أنا لا أحب الله، أو لا أخاف الله.

٤ ـ من قال: إن بعض الناس يمكنه التصرف في الكون كله أو بعضه.

٥ ـ من قال: اليهودية أو النصرانية خير من دين الإسلام.

٦ ـ من دعا غير الله وطلب منه ما لا يقدر عليه إلا الله معتقداً ذلك.

٧ ـ من قال: الزنا حلال، أو الخمر حلال ونحو ذلك.

٨ ـ من قال: ليتني لم أكن مسلماً، أو قال: أنا يهودي، أو: نصراني، عامداً عالماً راضياً.

٩ ـ من قال: إن تعاليم الإسلام لا تناسب زماننا الحالي معتقداً ذلك.

ثانياً ـ أمثلة على أفعال الكفر:

١ ـ السجود لغير الله تعالى.

٢ ـ الذبح لغير الله تعالى من صنم أو ولي صالح تعظيماً له.

٣ ـ إلقاء المصحف وما فيه ذكر الله في أماكن القذارة عمداً وهو يعلم.

٤ ـ الحكم بغير ما أنزل الله تعالى معتقداً جواز ذلك.

٥ ـ عمل السحر وتعلمه وتعليمه معتقداً جوازه.

٦ ـ الطواف بالأضرحة وقبور الصالحين تعظيماً لها.

٧ ـ لبس شيء من شعار أهل الكفر كالصليب ونحوه عالماً عامداً راضياً بذلك.

٨ ـ مشاركة أهل الكفر في عباداتهم كصلاتهم ونحوها عامداً عالماً راضياً بذلك.

٩ ـ هدم المساجد الإسلامية ونحو ذلك عامداً عالماً.

١٠ ـ بناء دور العبادة للمشركين كمعابد اليهود وكنائس النصارى ونحو ذلك عامداً عالماً راضياً.

١٦ الفرق بين الكفر الأكبر والأصغر:

١ ـ الكفر الأكبر يخرج صاحبه من الملة ويُحبط جميع أعماله، والكفر الأصغر لا يخرج صاحبه من الملة ولا يحبط الأعمال لكن ينقصها بحسبه ويعرض صاحبها للوعيد، وقد يُحبط العمل الذي يقع فيه، مثل الرياء، لقوله ﷺ فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى: (**من عمل عملاً أشرك فيه غيري تركته وشركه**).

٢ ـ الكفر الأكبر يخلد صاحبه في النار، والكفر الأصغر لا يخلد صاحبه في النار إن دخلها. وقد يعفو الله عنه فلا يدخله النار أصلاً.

٣ ـ الكفر الأكبر يبيح الدم والمال، والكفر الأصغر لا يبيح الدم والمال.

٤ ـ الكفر الأكبر يوجب العداوة الخالصة بين صاحبه وبين المؤمنين فلا يجوز للمؤمنين محبته وموالاته ولو كان أقرب قريب. وأما الكفر الأصغر فإنه لا يمنع الموالاة مطلقاً، بل صاحبه يُحَب ويوالى بقدر ما فيه من الإيمان، ويُبغَض ويُعادَى بقدر ما فيه من العصيان.

١٧ الردة، أقسامها وأحكامها:

الردة لغة: الرجوع كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ﴾ [المائدة: ٢١].

واصطلاحاً: الرجوع إلى الكفر بعد الدخول في الإسلام، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢١٧].

أقسام الردة:

تقع الردة إذا ارتكب الشخص ناقضاً من نواقض الإسلام، وهي متعددة لكنها ترجع إلى أربعة أقسام:

١ ـ ردة بالقول:

كمن وقع في سب الله تعالى أو رسوله، أو سب الملائكة أو الرسل، أو دعا غير الله، أو استغاثه فيما لا يقدر عليه إلا الله تعالى، ونحو ذلك.

٢ ـ ردة بالفعل:

كالسجود لغير الله تعالى، أو الذبح له، أو إهانة المصحف عمداً، أو عمل السحر، وتعلمه وتعليمه والحكم بغير ما أنزل الله مع اعتقاد إباحته.

٣ ـ الردة بالاعتقاد:

كاعتقاد شريك مع الله، أو اعتقاد إباحة شيء من المحرمات، أو حرمة شيء من المباحات، أو اعتقاد عدم وجود شيء من الواجبات المجمع على وجوبها المعلومة من الدين ضرورة.

٤ ـ الردة بالشك:

كمن شك في تحريم شيء من المحرمات المعلوم تحريمها، أو شك في إباحة شيء مما علم بالسنة، أو شك في شيء من مسائل أصول الاعتقاد.

الأحكام المترتبة على الردة بعد ثبوتها:

يترتب على الحكم بالردة إذا ثبتت في حق شخص عدة أحكام هي:

١ ـ وجوب استتابته: أي دعوته إلى الرجوع للإسلام والإقلاع عن ردته. وذلك مدة ثلاثة أيام، فإن تاب ورجع قُبل ذلك منه.

٢ ـ قتله إذا أصر على الردة: وذلك لقوله عليه الصلاة والسلام: **(من بدَّل دينه فاقتلوه)**.

٣ ـ الحجر على ماله: مدة الاستتابة فلا يتصرف فيه، فإن تاب رجع إليه ماله، وإلا أصبح فيئاً لبيت مال المسلمين.

٤ ـ التفريق بينه وبين زوجته: إذا كانت باقية على إسلامها فلا يحل له شيء منها بعد ردته.

٥ ـ انقطاع التوارث: بينه وبين قرابته المسلمين، لا يرث ولا يرثونه، وذلك لقوله ﷺ: **«لا يرث الكافر المسلم ولا المسلم الكافر»**.

٦ ـ لا يغسل المرتد بعد موته ولا يكفن ولا يصلى عليه ولا يدفن في مقابر المسلمين على الإطلاق.

٧ ـ يحكم له بالخلود في النار إن مات على ردته، لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢١٧].

١٨ الإشكال في قول الطحاوي: «ولا نكفر أحداً من أهل القبلة بذنب ما لم يستحله»[١]:

هناك إشكالان في قوله: (ما لم يستحله):

الأول: أنه ظهر من كلامه النفي العام من الذنوب العملية والعلمية، والإشكال هو أن الشارح لم يكتف من المكلف في العمليات بمجرد العمل دون العلم ولا هي في العمليات بمجرد العلم دون العمل. وليس العمل مقصوراً على عمل الجوارح بل أعمال القلوب أصل لأعمال الجوارح وأعمال الجوارح تبع، وأجاب الشارح بقوله: «إلا أن يضمن ما لم يستحله بمعنى يعتقده وهذا لم يزل الإشكال بل لا زال باقياً».

الثاني: ويرد الإشكال على قوله: «ولا نكفر أحداً بذنب ما لم يستحله»، وهو أن الشارح سمى بعض الذنوب كفراً كقوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، وقول الرسول ﷺ: **(من حلف بغير الله فقد كفر)**.

وأجاب الشارح بأن أهل السنة متفقون على أن مرتكب الكبيرة لا يكفر كفراً مخرجاً عن الملة ولا يخرج من الإيمان خلافاً للخوارج الذين يقولون إن مرتكب الكبيرة يكفر كفراً ينقل عن الملة، والمعتزلة قالوا يخرج عن الإيمان ولا يدخل في الكفر، فالله سبحانه قد سمى مرتكب الكبيرة مؤمناً قال تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: ٩ ـ ١٠] فهاهم إخوة لهم مع أنهم ارتكبوا ذنباً ولم يخرجهم به عما سمى الإيمان وهذا الجواب من الشارح على مذهب الأحناف القائل إن الكفر واحد ولكن الأولى أن يقال الكفر نوعان: عملي واعتقادي، وأن هذه النصوص كفرت المرتكب للذنب عملياً لا اعتقادياً.

---

(١) الاستحلال: هو جعل المحرم شرعاً حلالاً وهو قسمان:
أ ـ قلبي «اعتقادي»: وهو أن يعتقد أن ما حرم الله أو بعض ما حرم الله حلالاً كأن يعتقد الزنا حلال فهذا كفر بالإجماع وإن لم يفعل الزنا.
ب ـ عملي وهو الإسترسال في فعل المعاصي والمحرمات دون أن يعتقد حلها فصاحبه آثم معرض للعقوبة إن لم يتداركه الله بعفوه، انظر: فتح الباري (١٠/ ٧٠)، والصارم المسلول (ص٥٢١).

١٩ مذاهب الناس في تكفير أهل الكبائر:

اختلف الناس في ذلك على أقوال أربعة:

الأول: المرجئة قالوا: لا نكفر أحداً من أهل القبلة فلا يضر مع الإيمان ذنب كما لا ينفع مع الكفر طاعة واستدلوا بنصوص الوعد كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾، وقول الرسول ﷺ: **(إن الله حرم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله)**.

وفي الحديث القدسي: **(يا ابن آدم لو أتيتني بقراب الأرض خطايا لا تشرك بي لأتيتك بقرابها مغفرة)**، ويرد عليهم من وجوه:

١ ـ أن أهل القبلة فيهم المنافقون الذين هم أشد كفراً من اليهود والنصارى كما جاء في الكتاب والسنة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ فكيف لا يكفر مثلاً هؤلاء.

٢ ـ أنه لا خلاف بين المسلمين أن الإنسان لو أنكر الواجبات الثابتة والمحرمات الثابتة ونحو ذلك أنه يستتاب فإن تاب وإلا قتل كافراً. وكل من النفاق والردة باطنها البدع والفجور كما ذكر الخلال في كتاب السنة بسنده إلى محمد بن سيرين أنه قال أن أسرع الناس ردة أهل الأهواء، وكان يرى هذه الآية نزلت فيهم ﴿وَإِذَا رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦۚ﴾ [الأنعام: ٦٨].

الثاني: الخوارج والمعتزلة قالت المعتزلة يحبط إيمانه ويكون في الدنيا بين منزلتين وقالت الخوارج يحبط إيمانه ويكون في الدنيا كافراً[١]. واتفق الجميع على أنه مخلد في النار، فعند المعتزلة الناس ثلاثة: مسلم أو كافر أو فاسق، وعند الخوارج الناس قسمان: «مسلم أو كافر»، واستدلوا بأدلة الوعيد مثل قوله: ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]، وقال الرسول ﷺ: **(لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن)** الحديث، ويرد عليهم من وجوه:

١ ـ إن الله جعل مرتكب الكبيرة من المؤمنين قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ [البقرة: ١٧٨]، فسمَّى القاتل مؤمناً وجعله أخاً لولي القصاص والمراد أخوه في الدين قطعاً.

---

(١) قال ابن حزم في الفصل (٤/٧٩): (ومنهم من قال بأن كل ذنب صغير أو كبير فهو مخرج من الإيمان والإسلام). واستثنى الشهرستاني فرقة النجدات، انظر: الملل (١/١١٥).

٢ ـ إن الرسول ﷺ نهى عن لعن شارب الخمر حين جيء به فجلده الرسول ﷺ قال: (**لا تلعنوه فما علمت عليه شيئاً يوجب لعناً**) ثم قال: (**إنه يحب الله ورسوله**). فدل على أن مرتكب الكبيرة ليس كافراً، لو كان كافراً لاستحق المعاداة الخالصة.

الثالث: بعض أهل الكلام والفقه والحديث قالوا يكفر في البدع الاعتقادية مطلقاً سواء كان متأولاً أو غيره، أما البدع العملية فلا يكفر بها واستدلوا بنصوص الوعيد ويرد عليهم من وجوه:

١ ـ أنه لا فرق بين الكبائر العملية والاعتقادية بل هم جنس واحد يكون الرجل مؤمناً ظاهراً وباطناً، لكن تأول تأويلاً أخطأ فيه فبهذا أو بشرط الذنب فلا يقال أنه خرج من الإسلام بمجرد ذلك إلا إن دل عليه دليل شرعي فهذا القول من جنس قول الخوارج والمعتزلة.

٢ ـ إن النصوص المتواترة دلت على أنه: (**يخرج من النار من في قلبه مثقال ذرة من إيمان**).

٣ ـ أنه يلزم عليه أن يكفر أقواماً ليسوا منافقين بل هم في الباطن مؤمنون ويحبون الله ورسوله وإن كانوا مذنبين كما جاء في قصة شارب الخمر. الحديث.

الرابع: قول أهل السنة والجماعة إنه مؤمن بإيمانه فاسق بمعصيته فهم لا يكفرون كل أحد يفعل الذنب لاحتمال أن عنده شبهة؛ أما إن كان مكابراً فهم يحكمون بكفر من فعل مثل فعله ولا يحكمون على مؤمن بالكفر.

٢٠ تكفير المعين:

المعين من الناس ممن ثبت إسلامه بيقين لا يزول عنه بالشك والظن، وإنما يكفر بعد أن تقوم عليه الحجة وتنتفي عنه الشبهة، لهذا حدد العلماء لإطلاق الكفر على المعين شروطاً إذا وجدت فيه وانتفت الموانع المانعة من إطلاق الكفر عليه فإنه يكفر ويحكم عليه به ويقام عليه حد الكفر إذا لم يتب ويرجع[1].

فلا يجوز الشهادة على شخص معين أنه من أهل الوعيد ولا أنه كافر لأن هذا من البغي والتعالي على الله، ويدل على ذلك ما ورد عن الرسول ﷺ من قصة الرجلين من بني إسرائيل: (**وأنه كان أحدهما مجتهداً والآخر مذنباً وكان ينهاه عن الذنب حتى وجده يوماً على ذنب فقال له: أقصر، قال: خلني وربي أبعثت عليَّ**

(١) انظر: مذكرة العقيدة للخلف (ص٥٨).

رقيباً، فقال: والله لا يغفر الله لك ولا يدخلك الجنة، فقبض الله أرواحهما فاجتمعا عند رب العالمين، فقال لهذا: أنت على ما يدي قادر، قال اذهب فادخل الجنة برحمتي، وقال للآخر: اذهبوا به إلى النار) والأسباب هي:

١ ـ لأن الشخص المعين إما أن يكون مجتهداً مخطئاً فهو مغفور له.

٢ ـ أو يمكن أن يكون ممن لم يبلغه ما ورد في ذلك من النصوص.

٣ ـ ويمكن أن يكون له إيمان عظيم وحسنات أوجبت له الرحمة من الله كما غفر للذي قال: «إذا مت فاسحقوني ثم ذروني ثم غفر له الله لخشيته»، وكان يظن أن الله لا يقدر على جمعه وإعادته أو شك في ذلك.

٢١ تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤].

قال السعدي: «فالحكم بغير ما أنزل الله من أعمال أهل الكفر، وقد يكون كفراً ينقل عن الملة. وذلك إذا اعتقد حله وجوازه.

وقد يكون كبيرة من كبائر الذنوب، ومن أعمال الكفر، قد استحق من فعله العذاب الشديد»[(١)].

قال ابن الجوزي في «زاد المسير»: «وفي المراد بالكفر المذكور في الآية الأولى قولان:

أحدهما: أنه الكفر بالله تعالى.

والثاني: أنه الكفر بذلك الحكم، وليس بكفر ينقل عن الملة.

وفصل الخطاب: أن من لم يحكم بما أنزل الله جاحداً له، وهو يعلم أن الله أنزله كما فعلت اليهود، فهو كافر، ومن لم يحكم به ميلاً إلى الهوى من غير جحود فهو ظالم وفاسق»[(٢)].

٢٢ معنى كلام الطحاوي: «ونرجو للمحسنين من المؤمنين أن يعفو عنهم ويدخلهم الجنة برحمته ولا نأمن عليهم، ولا نشهد لهم بالجنة ونستغفر لمسيئهم ونخاف عليهم ولا نقنطهم»:

«هذا بحث للشهادة لمعين أنه من أهل الجنة، أو أنه من أهل النار، نحن لا نشهد لأحد بجنة أو نار إلا بدليل، إلا من شهد له المصطفى عليه الصلاة

---

(١) تفسير السعدي، سورة المائدة الآية ٤٤.

(٢) زاد المسير عند تفسير سورة المائدة الآية ٤٤.

والسلام أنه من أهل الجنة، شهدنا له بذلك، ومن شهد له النبي ﷺ بالنار شهدنا له بذلك، أما غيرهم فلا نحكم على أحد بجنة أو نار، لكن نرجو للمحسن ونخاف على المسيء. هذه عقيدة المسلمين.

نستغفر للمسيء؛ لأنه أخونا، وندعو له بالتوبة والتوفيق، وإن كان مذنباً، وهذا حق الإيمان علينا ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [محمد: ١٩].

ولا نقنط المذنب من رحمة الله كما تقوله الخوارج والمعتزلة، لا نقنطه من رحمة الله، بل هو معرض للوعيد وتحت المشيئة، وإن تاب تاب الله عليه ﷻ: ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزمر: ٥٣].

والوعيدية الذين هم الخوارج ومن سار في ركابهم، هم الذين يقنطون الناس من رحمة الله، ويخرجونهم من الملة بذنوبهم، وإن كانت دون الشرك»[1].

٢٣ أدلة الرجاء والخوف:

قال تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾ [الإسراء: ٥٧].

وقال تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥].

وقال تعالى: ﴿وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ﴾ [البقرة: ٤١].

وقال تعالى: ﴿وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ [البقرة: ٤٠].

وقال تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى﴾ [البقرة: ١٥٠].

ومدح أهل الخوف فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾ [المؤمنون: ٥٧ ـ ٦١].

وفي «المسند» والترمذي عن عائشة رضي الله عنها قالت: «قلت يا رسول الله، ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ هو الذي يزني ويشرب الخمر ويسرق؟ قال: **لا يا ابنة الصديق، ولكنه الرجل يصوم ويصلي ويتصدق ويخاف أن لا يقبل منه**».

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾﴾ [البقرة: ٢١٨].

---

(١) انظر: التعليقات المختصرة على العقيدة الطحاوية (ص١٤٠ ـ ١٤١).

(٢٤) استلزام الرجاء للأمور الثلاثة:

ومما ينبغي أن يعلم أن من رجا شيئاً استلزم رجاؤه أموراً:

أحدها: محبة ما يرجوه.

الثاني: خوفه من فواته.

الثالث: سعيه في تحصيله بحسب الإمكان.

وأما رجاء لا يقارنه شيء من ذلك فهو من باب الأماني، والرجاء شيء والأماني شيء آخر، فكل راج خائف والسائر على الطريق إذا خاف أسرع السير مخافة الفوات.

(٢٥) المشرك لا يرجى له المغفرة:

إن المشرك قد سد على نفسه أبواب المغفرة وأغلق دونه أبواب الرحمة، فلا تنفعه الطاعات من دون التوحيد.

(٢٦) أسباب المغفرة:

السبب الأول: التوبة.

قال تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ﴾ [مريم: ٦٠] ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟﴾ [البقرة: ١٦٠]. والتوبة النصوح وهي الخالصة لا يختص بها ذنب دون ذنب.

السبب الثاني: الاستغفار.

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣].

السبب الثالث: الحسنات.

فإن الحسنة بعشر أمثالها والسيئة بمثلها، فالويل لمن غلبت آحاده عشراته، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ١١٤]، وقال ﷺ: **(وأتبع السيئة الحسنة تمحها)**.

والسبب الرابع: المصائب الدنيوية.

قال ﷺ: **(ما يصيب المؤمن من وصب ولا نصب، ولا غم ولا هم، ولا حزن، حتى الشوكة يشاكها إلا كفر بها من خطاياه).**

السبب الخامس: عذاب القبر.

السبب السادس: دعاء المؤمنين واستغفارهم في الحياة وبعد الممات.

السبب السابع: ما يهدى إليه بعد الموت من ثواب صدقة أو قراءة أو حج ونحو ذلك.

السبب الثامن: أهوال يوم القيامة وشدائده.

السبب التاسع: ما ثبت في «الصحيحين» أن المؤمنين إذا عبروا الصراط وقفوا على قنطرة بين الجنة والنار فيقتص لبعضهم من بعض، فإذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة.

السبب العاشر: **شفاعة الشافعين**، كما تقدم عند ذكر الشفاعة وأقسامها.

السبب الحادي عشر: **عفو أرحم الراحمين من غير شفاعة.**

كما قال تعالى: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨].

٢٧ معنى قول الطحاوي: «والأمن واليأس ينقلان عن ملة الإسلام، وسبيل الحق بينهما لأهل القبلة»:

«من أصول العقيدة الإسلامية: الخوف والرجاء، وهما من أعظم أصول العقيدة، والخوف والرجاء لا بد من الجمع بينهما، لا يكفي الاقتصار على واحد منهما فقط، كما قال تعالى في وصف أنبيائه: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

رغباً: هذا هو الرجاء، ورهباً: هذا هو الخوف، وقال ﷻ: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾ [الإسراء: ٥٧]، فهم يجمعون بين الخوف والرجاء.

وقال جل وعلا: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٩]، ولا بد معهما من المحبة لله، فلا بد من هذه الأمور الثلاثة: المحبة لله، والخوف منه ﷻ، والرجاء لفضله.

فمن اقتصر على المحبة[1] فقط فهو صوفي، فالصوفية يعبدون الله ﷻ بالمحبة، ولا يخافون ولا يرجون، يقول قائلهم: أنا لا أعبده طمعاً في جنته، ولا خوفاً من ناره، وإنما أعبده للمحبة فقط. وهذا ضلال والعياذ بالله.

ومن عبد الله بالخوف[2] فقط فهو من الخوارج؛ لأن الخوارج أخذوا جانب الخوف والوعيد فقط، فكفروا بالمعاصي.

---

(١) قال حافظ حكمي: (دعوى الحب من غير عبادة ولا خوف ولا رجاء... دعوى كاذبة فلا تكون المحبة صحيحة إلا إذا كانت باتباع مراد المحبوب وترك مبغضاته).

(٢) وكذلك الخوف وحده إذا استرسل فيه العبد ساء ظنه بربه وقنطه من رحمته.

ومن عبد الله بالرجاء[(١)] فقط فهو من المرجئة، الذين أخذوا جانب الرجاء فقط، وتركوا جانب الخوف.

أما أهل التوحيد فيعبدون الله بجميع الثلاث: **بالحب والخوف والرجاء**، قال ابن رجب: «وقد علم أن العبادة تبنى على ثلاثة أصول: الخوف والرجاء والمحبة، وكل منهم فرض لازم والجمع بين الثلاثة حتم واجب فلهذا كان السلف يذمون من تعبد بواحد منها وأهمل الآخرين»[(٢)]، ثم إن الخوف لا يكون معه قنوط، فإن كان معه قنوط من رحمة الله صار كفراً ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

وكذلك الرجاء لا يكون رجاء مع الأمن من مكر الله وعدم الخوف، وهذا مذهب المرجئة، وهو مذهب ضال: ﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأعراف: ٩٩]. فالرجاء فقط كفر، والخوف دون الرجاء كفر، ولذلك قال المصنف: ينقلان عن ملة الإسلام.

لذا يقول بعض السلف: يجب على العبد أن يكون بين الخوف والرجاء؛ يعني: يسوي بينهما، كجناحي الطائر، وجناحا الطائر معتدلان، لو اختل واحد منهما سقط، فكذلك العبد بين الخوف والرجاء كجناحي الطائر.

و(الحق بينهما) أي: الخوف والرجاء (لأهل القبلة) أي: المسلمين، سموا أهل القبلة؛ لأنهم يصلون إلى الكعبة، أما من لا يصلي إلى الكعبة فليس من المسلمين لأن الله أمر بالتوجه إلى الكعبة، فالواجب اتباع أمره سبحانه حينما نسخ الاستقبال لبيت القدس، فالمؤمن يدور مع الأوامر؛ لأنه عبدٌ لله ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ﴾ [البقرة: ١٤٣]»[(٣)].

٢٨ الخوف المحمود والرجاء المحمود واستلزام كل منهما للآخر:

يجب أن يكون العبد خائفاً راجياً، فإن الخوف المحمود الصادق ما حال بين صاحبه وبين محارم الله، فإذا تجاوز ذلك خيف منه اليأس والقنوط. والرجاء المحمود رجاء رجل عمل بطاعة الله على نور من الله فهو راج لثوابه، أو رجل أذنب ذنباً ثم

---

(١) وكذلك الرجاء وحده إذا استرسل فيه العبد تجرأ على معاصي الله وأمن مكر الله.

(٢) استنشاق نسيم الأنس (ص١٨).

(٣) انظر: التعليقات المختصرة على العقيدة الطحاوية (ص١٤١ ـ ١٤٤).

تاب منه إلى الله فهو راج لمغفرته، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٢١٨﴾﴾ [البقرة: ٢١٨].

أما إذا كان الرجل متمادياً في التفريط والخطايا يرجو رحمة الله بلا عمل فهذا هو الغرور والتمني والرجاء الكاذب، قال أبو علي الروذباري رَحِمَهُ اللَّهُ: الخوف والرجاء كجناحي الطائر إذا استويا استوى الطير وتم طيرانه، وإذا نقص أحدهما وقع فيه النقص، وإذا ذهبا صار الطائر في حد الموت.

وقد مدح الله أهل الخوف والرجاء بقوله: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحْذَرُ ٱلْأٓخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦۗ﴾ [الزمر: ٩]. وقال تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفٗا وَطَمَعٗا﴾ [السجدة: ١٦]. فالرجاء يستلزم الخوف ولولا ذلك لكان أمناً، والخوف يستلزم الرجاء ولولا ذلك لكان قنوطاً ويأساً، وكل أحد إذا خفته هربت منه إلا الله تعالى فإنك إذا خفته هربت إليه، فالخائف هارب من ربه إلى ربه.

٢٩ نقد حول صاحب منازل السائرين «الرجاء أضعف منازل المريد»:

قال صاحب منازل السائرين رَحِمَهُ اللَّهُ: «الرجاء أضعف منازل المريد» وفي كلامه نظر، بل الرجاء والخوف على الوجه المذكور من أشرف منازل المريد، وفي الصحيح عن النبي ﷺ: (**يقول الله ﷻ: أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء**).

قال ابن القيم معلقاً على هذا العبارة: «فأما قوله: «الرجاء أضعف منازل المريدين» فليس كذلك بل هو من أجل منازلهم وأعلاها وأشرفها وعليه وعلى الحب والخوف مدار السير إلى الله».

٣٠ يجب ترجيح الرجاء عند الموت:

جاء في «صحيح مسلم» عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول قبل موته بثلاث: (**لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بربه**)، ولهذا قيل إن العبد ينبغي أن يكون رجاؤه في مرضه أرجح من خوفه بخلاف زمن الصحة فإنه يكون خوفه أرجح من رجائه.

٣١ معنى قول الطحاوي: «ولا يخرج العبد من الإيمان إلا بجحود ما أدخله فيه»:

«هذا الكلام فيه مؤاخذة؛ لأن قصر الكفر على الجحود مذهب المرجئة، ونواقض الإسلام كثيرة، منها: الجحود، ومنها: الشرك بالله ﷻ، ومنها: الاستهزاء بالدين أو بشيء منه ولو لم يجحد، وهي نواقض كثيرة ذكرها العلماء والفقهاء في أبواب الردة، ومنها: تحليل الحرام وتحريم الحلال.

وذكر شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب منها عشرة، وهي أهمها، وإلا فالنواقض كثيرة. فقصر نواقض الإسلام على الجحود فقط غلط.

وبعض الكُتّاب المتعالمين اليوم يحاولون إظهار هذا المذهب من أجل أن يصير الناس في سعة من الدين، ما دام أنه لم يجحد فهو عندهم مسلم، إذا سجد للصنم وقال: أنا ما جحدت، وأنا معترف بالتوحيد، إنما هو ذنب من الذنوب، أو ذبح لغير الله أو سب الله أو سب الرسول أو سب الدين، يقولون: هذا مسلم؛ لأنه لم يجحد، وهذا غلط كبير، وهذا يضيع الدين تماماً، فلا يبقى دين، فالواجب الحذر من هذا الخطر العظيم»(١).

(٣٢) الخلاصة:

١ - لا نكفر أحداً من أهل القبلة بذنب ما لم يستحله، هذا إذا لم يكن كفراً أو شركاً مخرجاً من الملة.

٢ - لقد جاءت نصوص الكتاب والسنة بالوعيد الشديد لمن يكفر مسلماً بدون دليل من كتاب أو سنة.

٣ - تقع الردة إذا ارتكب الشخص ناقضاً من نواقض الإسلام.

٤ - نواقض الإسلام متعددة لكنها ترجع إلى أربعة أقسام: ردة بالقول، وردة بالفعل، وردة بالاعتقاد، وردة بالشك.

٥ - لا يجوز الشهادة على شخص معين أنه من أهل الوعيد ولا أنه كافر لأن هذا من البغي والتعالي على الله.

٦ - لا نشهد لأحد بجنة أو نار إلا بدليل.

٧ - ينبغي أن يعلم أن من رجا شيئاً استلزم رجاؤه: محبة ما يرجوه، وخوفه من فواته، وسعيه في تحصيله بحسب الإمكان.

٨ - إن المشرك قد سد على نفسه أبواب المغفرة وأغلق دونه أبواب الرحمة، فلا تنفعه الطاعات من دون التوحيد.

٩ - من أصول العقيدة الإسلامية: الخوف والرجاء، وهما من أعظم أصول العقيدة، والخوف والرجاء لا بد من الجمع بينهما، لا يكفي الاقتصار على واحد منهما فقط.

---

(١) التعليقات المختصرة على العقيدة الطحاوية (ص١٤٤).

١٠ ـ يجب ترجيح الرجاء عند الموت.

٣٣ المناقشة:

- **س١:** قال الطحاوي: «ولا نكفر أحداً من أهل القبلة بذنب، ما لم يستحله» ما الفرق بين هذا القول وبين القول بأننا لا نكفر أحداً بكل ذنب؟ مع التوجيه.
- **س٢:** بيِّن خطورة التكفير.
- **س٣:** اذكر بعضاً من أقوال السلف في التحذير من التكفير.
- **س٤:** اذكر ضوابط التكفير.
- **س٥:** ما شروط التكفير؟
- **س٦:** ما موانع التكفير؟
- **س٧:** عرف الكفر.
- **س٨:** ما أنواع الكفر؟
- **س٩:** اذكر بعض الأمثلة على ألفاظ الكفر.
- **س١٠:** اذكر بعض الأمثلة على أفعال الكفر.
- **س١١:** ما الفرق بين الكفر الأكبر والأصغر؟
- **س١٢:** ما المقصود بالردة؟ بيِّن أقسامها وأحكامها.
- **س١٣:** ما الإشكال في قول الطحاوي: «ولا نكفر أحداً من أهل القبلة بذنب ما لم يستحله»؟ مع ذكر الجواب عنه.
- **س١٤:** اذكر مذاهب الناس في تكفير أهل الكبائر، مع بيان الحق في هذا الباب وكيف ترد عليهم؟
- **س١٥:** تكلم عن اختلاف الناس في شأن البدع، مع بيان مذاهبهم في ذلك.
- **س١٦:** هل يجوز تكفير المعين؟ وهل يستتبع ذلك الجزم بأنه من أهل الوعيد؟ وضح ذلك.
- **س١٧:** هل يكون عدم تكفير المعين عند من لم يكفره مانعاً من عقوبته في الدنيا؟
- **س١٨:** ما هي أصناف الناس في كتاب الله؟
- **س١٩:** ما تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]؟

- **س٢٠:** ما أدلة الرجاء والخوف؟
- **س٢١:** ما هي الأمور التي لا بد من تحقيقها لكي يرجو الإنسان الشيء؟ وإذا انتفى شيء منها فما الحكم؟
- **س٢٢:** هل يرجى للمشرك المغفرة؟
- **س٢٣:** ما أسباب المغفرة؟
- **س٢٤:** ما قولك فيمن يقول: «الرجاء أضعف منازل المريد»؟
- **س٢٥:** ما الذي يجب ترجيحه عند الموت الرجاء أم الخوف؟
- **س٢٦:** ما معنى قول الطحاوي: «ولا يخرج العبد من الإيمان إلا بجحود ما أدخله فيه»؟

حقيقة الإيمان ومسمّاه

* **كلام ابن أبي العز:**

١ ـ غرض المصنف من عقد هذا الباب.

٢ ـ مناسبة هذا الباب لما سبق.

٣ ـ معاني الكلمات.

٤ ـ معنى كلام الطحاوي: «والإيمان: هو الإقرار باللسان، والتصديق بالجَنان. وجميع ما صح عن رسول الله ﷺ من الشرع والبيان كله حق».

٥ ـ معنى الإيمان لغة.

٦ ـ معنى الإيمان في الاصطلاح.

٧ ـ تفاضل الناس في الإيمان.

٨ ـ أقسام الناس من حيث الإتيان بالأعمال.

٩ ـ أدلة أهل السنة.

١٠ ـ الآثار المترتبة على منهج السلف في الإيمان وثمراته.

١١ ـ المخالفون لأهل السنة في مسمى الإيمان.

١٢ ـ لوازم تعريف الإيمان عند الكرامية والجهمية.

١٣ ـ آثار قول المرجئة في مسمى الإيمان.

١٤ ـ أدلة مرجئة الفقهاء والرد عليها.

١٥ ـ موقف الأشعرية والماتريدية من النصوص على أن العمل داخل في مسمى الإيمان.

١٦ ـ الخلاف بين أصحاب أبي حنيفة وجمهور أهل السنة خلاف حقيقي.

١٧ ـ عقيدة أهل السنة والجماعة في زيادة الإيمان ونقصانه.

١٨ ـ أدلة أهل السنة والجماعة على أن الإيمان يزيد وينقص.

١٩ ـ المخالفون لأهل السنة في مسألة زيادة الإيمان ونقصانه.

٢٠ ـ موقف الماتريدية والأشعرية من النصوص الدالة على زيادة الإيمان ونقصانه.

٢١ ـ معنى كلام الطحاوي: «والإيمان واحد، وأهله في أصله سواء والتفاضل بينهم بالخشية والتقى، ومخالفة الهوى وملازمة الأولى».

٢٢ ـ مذهب أهل السنة والجماعة في الاستثناء في الإيمان.

٢٣ ـ مذهب مرجئة الفقهاء في الاستثناء والجواب عليه.

٢٤ ـ معنى الإسلام.

٢٥ ـ علاقة الإسلام بالإيمان.

٢٦ ـ معنى كلام الطحاوي: «وجميع ما صح عن النبي ﷺ حق».

٢٧ ـ مذهب أهل السنة في خبر الواحد.

٢٨ ـ حجية خبر الواحد.

٢٩ ـ التفريق بين المتواتر والآحاد بدعة دخيلة على الإسلام.

٣٠ ـ تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾ [الأحزاب].

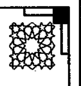
٣١ ـ المخالفون لأهل السنة في خبر الواحد.

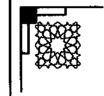
٣٢ ـ مستند نفاة الصفات في رد الأحاديث الصحيحة ولازم قولهم.

٣٣ ـ الأدلة العقلية قطعية عند المتكلمين، وأما الأحاديث فهي ظواهر.

٣٤ ـ الخلاصة.

٣٥ ـ المناقشة.





حقيقة الإيمان ومسماه

قوله: «والإيمان هو الإقرار باللسان والتصديق بالجنان وجميع ما صح عن رسول الله من الشرع والبيان كله حق، والإيمان واحد وأهله في أصله سواء[١] والتفاضل بينهم بالخشية والتقى ومخالفة الهوى وملازمة[٢] الأولى».

اختلف الناس فيما يقع عليه اسم الإيمان اختلافاً كثيراً، فذهب مالك والشافعي وأحمد والأوزاعي وإسحاق بن راهويه وسائر أهل الحديث وأهل المدينة رحمهم الله وأهل الظاهر وجماعة من المتكلمين[٣] إلى أنه تصديق بالجَنان وإقرار باللسان وعمل بالأركان.

وذهب كثير من أصحابنا إلى ما ذكره الطحاوي رَحِمَهُ اللَّهُ أنه الإقرار باللسان والتصديق بالجنان.

ومنهم من يقول إن الإقرار باللسان ركن زائد ليس بأصلي، وإلى هذا ذهب أبو منصور الماتريدي رَحِمَهُ اللَّهُ، ويروى عن أبي حنيفة رَحِمَهُ اللَّهُ.

وذهب الكرَّامية إلى أن الإيمان هو الإقرار باللسان فقط، فالمنافقون عندهم مؤمنون كاملو الإيمان ولكنهم يقولون بأنهم يستحقون الوعيد الذي أوعدهم الله به وقولهم ظاهر الفساد.

وذهب الجهم بن صفوان وأبو الحسن الصالحي أحد رؤساء القدرية إلى أن الإيمان هو المعرفة بالقلب وهذا القول أظهر فساداً مما قبله، فإن لازمه أن فرعون

---

(١) هذا غلط؛ لأن الإيمان ليس واحداً وليس أهله سواء بل الإيمان يتفاضل ويزيد وينقص، قاله الشيخ صالح الفوزان في تعليقه على متن الطحاوية (ص١٤٩).

(٢) قال الشيخ صالح الفوزان في تعليقه على الطحاوية (ص١٥١): «وهذا لا يكفي لأن معناه إخراج الأعمال عن مسمى الإيمان».

(٣) كالمعتزلة والخوارج وإن وافقوا أهل السنة في تعريف الإيمان إلا أنهم فارقوهم في أن الإيمان إذا ذهب بعضه يذهب كله، انظر: مرعاة المفاتيح (١/ ٣٦).

وقومه كانوا مؤمنين فإنهم عرفوا صدق موسى وهارون عليهما الصلاة والسلام ولم يؤمنوا بهما، ولهذا قال موسى لفرعون: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء: ١٠٢]، **وقال تعالى:** ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾ [النمل: ١٤]، **وأهل الكتاب كانوا يعرفون النبي كما يعرفون أبناءهم ولم يكونوا مؤمنين به بل كافرين به معادين له، وكذلك أبو طالب عنده يكون مؤمناً فإنه قال:**

ولقد علمتُ بأن دين محمد ... من خير أديان البرية دينا

لولا الملامة أو حذار مسبة ... لوجدتني سمحاً بذاك مبينا

بل إبليس يكون عند الجهم مؤمناً كامل الإيمان(١)، فإنه لم يجهل ربه بل هو عارف به، ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الحجر: ٣٦]، ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى﴾ [الحجر: ٣٩]، ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾﴾ [ص: ٨٢]. **والكفر عند الجهم هو الجهل بالرب تعالى ولا أحد أجهل منه بربه، فإنه جعله الوجود المطلق(٢) وسلب عنه جميع صفاته، ولا جهل أكبر من هذا فيكون كافراً بشهادته على نفسه.**

وبين هذه المذاهب مذهب آخر بتفاصيل وقيود أعرضت عن ذكرها اختصاراً، ذَكَرَ هذه المذاهب أبو المعين النسفي في تبصرة الأدلة وغيره.

وحاصل الكل يرجع إلى أن الإيمان إما أن يكون ما يقوم به القلب واللسان وسائر الجوارح كما ذهب إليه جمهور السلف من الأئمة الثلاثة وغيرهم رحمهم الله كما تقدم، أو بالقلب واللسان دون الجوارح كما ذكره الطحاوي عن أبي حنيفة وأصحابه رحمهم الله، أو باللسان وحده كما تقدم ذكره عن الكرَّامية، أو بالقلب وحده وهو إما المعرفة كما قاله الجهم أو التصديق كما قاله أبو منصور الماتريدي رحمه الله، وفساد قول الكرامية والجهم بن صفوان ظاهر.

والاختلاف الذي بين أبي حنيفة والأئمة الباقين من أهل السنة اختلاف صوري،

---

(١) انظر: المحلى (١٢/ ٩).

(٢) هو الوجود الذي لا يجوز أن ينعت فلا يوصف بنفي ولا إثبات، انظر: درء التعارض (١/ ٢٨٨).

فإن كون أعمال الجوارح لازمة لإيمان القلب أو جزءاً من الإيمان مع الاتفاق على أن مرتكب الكبيرة لا يخرج من الإيمان بل هو في مشيئة الله إن شاء عذبه وإن شاء عفا عنه نزاع لفظي لا يترتب عليه فساد اعتقاد، والقائلون بتكفير تارك الصلاة ضموا إلى هذا الأصل أدلة أخرى، وإلا فقد نفى النبي ﷺ الإيمان عن الزاني والسارق وشارب الخمر والمنتهب ولم يوجب ذلك زوال اسم الإيمان عنهم بالكلية اتفاقاً[١].

ولا خلاف بين أهل السنة أن الله تعالى أراد من العباد القول والعمل، وأعني بالقول التصديق بالقلب والإقرار باللسان، وهذا الذي يعني به عند إطلاق قولهم الإيمان قول وعمل، لكن هذا المطلوب من العباد هل يشمله اسم الإيمان[٢] أم الإيمان أحدهما وهو القول وحده والعمل مغاير له لا يشمله اسم الإيمان عند إفراده بالذكر، وإن أطلق عليهما كان مجازاً[٣] هذا محل النزاع.

وقد أجمعوا على أنه لو صدَّق بقلبه وأقرَّ بلسانه وامتنع عن العمل بجوارحه أنه عاص لله ورسوله مستحق للوعيد، لكن فيمن يقول إن الأعمال غير داخلة في مسمى الإيمان من قال لما كان الإيمان شيئاً واحداً فإيماني كإيمان أبي بكر الصديق وعمر رضي الله عنهما، بل قال كإيمان الأنبياء والمرسلين وجبرائيل وميكائيل عليهم السلام، وهذا غلو منه، فإن الكفر مع الإيمان كالعمى مع البصر ولا شك أن البصراء يختلفون في قوة البصر وضعفه، فمنهم الأخفش والأعشى ومن يرى الخط الثخين دون الدقيق إلا بزجاجة ونحوها ومن يرى عن قرب زائد على العادة وآخر بضده.

ولهذا والله أعلم قال الشيخ رحمه الله وأهله في أصله سواء يشير إلى أن التساوي إنما هو في أصله ولا يلزم منه بالتساوي من كل وجه بل تفاوت درجات نور لا إله إلا الله في قلوب أهلها لا يحصيها إلا الله تعالى، فمن الناس[٤] من نور لا إله إلا الله في قلبه

(١) يعني: عند أهل السنّة والمرجئة، أما الخوارج والمعتزلة فيذهبون عن صاحب الكبيرة اسم الإيمان بالكلية لكن مما يجب التنبيه إليه أن أهل السنّة يقولون في صاحب الكبيرة: مسلم أو مؤمن فاسق بكبيرته فلا يعطونه الإيمان المطلق ولا يسلبون عنه مطلق الإيمان بخلاف المرجئة فيعطونه الإيمان المطلق وهذا خطأ، انظر: شرح الطحاوية بتعليق العدني.

(٢) هذا قول أهل السنّة.

(٣) هذا قول المرجئة.

(٤) انظر: مدارج السالكين (١/ ٣٢٩).

كالشمس، ومنهم من نورها في قلبه كالكوكب الدري، وآخر كالمشعل العظيم، وآخر كالسراج المضيء، وآخر كالسراج الضعيف، ولهذا تظهر الأنوار يوم القيامة بأيمانهم وبين أيديهم على هذا المقدار بحسب ما في قلوبهم من نور الإيمان والتوحيد علماً وعملاً، وكلما اشتد نور هذه الكلمة وعظم أحرق من الشبهات والشهوات بحسب قوته بحيث إنه ربما وصل إلى حال لا يصادف شهوة ولا شبهة ولا ذنباً إلا أحرقه، وهذه حال الصادق في توحيده، فسماء إيمانه قد حُرس بالرجوم من كل سارق، ومن عَرَفَ هذا عرف معنى قول النبي ﷺ: (إن الله حرم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله)[1]، وقوله ﷺ: (لا يدخل النار من قال لا إله إلا الله)[2]، وما جاء من هذا النوع من الأحاديث التي أشكلت على كثير من الناس حتى ظنها بعضهم منسوخة، وظنها بعضهم قبل ورود الأوامر والنواهي، وحملها بعضهم على نار المشركين والكفار، وأوَّل بعضهم الدخول بالخلود ونحو[3] ذلك.

والشارع صلوات الله وسلامه عليه لم يجعل ذلك حاصلاً بمجرد قول اللسان فقط، فإن هذا من المعلوم بالاضطرار من دين الإسلام فإن المنافقين يقولونها بألسنتهم وهم تحت الجاحدين في الدرك الأسفل من النار، فإن الأعمال لا تتفاضل بصورها وعددها وإنما تتفاضل بتفاضل ما في القلوب.

وتأمل حديث البطاقة التي توضع في كفة ويقابلها تسعة وتسعون سجلاً كل سجل منها مد البصر فتثقل البطاقة وتطيش السجلات فلا يعذب صاحبها.

ومعلوم أن كل موحد له مثل هذه البطاقة، وكثير منهم يدخل النار، وتأمل ما قام بقلب قاتل المائة من حقائق الإيمان التي لم تشغله عند السياق عن السير إلى القرية وحملته وهو في تلك الحال أن جعل ينوء بصدره وهو يعالج سكرات الموت.

وتأمل ما قام بقلب البغي من الإيمان حيث نزعت موقها وسقت الكلب من الركية فغفر لها.

وهكذا العقل أيضاً فإنه يقبل التفاضل، وأهله في أصله سواء متساوون في أنهم عقلاء غير مجانين، وبعضهم أعقل من بعض.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٢٥)، ومسلم (٣٣). (٢) انظر: صحيح مسلم (٢٩).

(٣) انظر: شرح صحيح مسلم للنووي (١/ ٣٣٣)؛ وفتح الباري (٣/ ١٤٢).

وكذلك الإيجاب والتحريم، فيكون إيجاب دون إيجاب وتحريم دون تحريم، هذا هو الصحيح، وإن كان بعضهم قد طرد ذلك في العقل والوجوب.

وأما زيادة الإيمان من جهة الإجمال والتفصيل فمعلوم أنه لا يجب في أول الأمر ما وجب بعد نزول القرآن كله، ولا يجب على كل أحد من الإيمان المفصل مما أخبر به الرسول ما يجب على من بلغه خبره كما في حق النجاشي وأمثاله.

وأما الزيادة بالعمل والتصديق المستلزم لعمل القلب والجوارح فهو أكمل من التصديق الذي لا يستلزمه، فالعلم الذي يعمل به صاحبه أكمل من العلم الذي لا يعمل به، فإذا لم يحصل اللازم دل على ضعف الملزوم، ولهذا قال النبي ﷺ: (ليس المُخْبَر كالمعايِن)[1]، وموسى عليه السلام لما أُخبر أن قومه عبدوا العجل لم يلق الألواح، فلما رآهم قد عبدوه ألقاها، وليس ذلك لشك موسى في خبر الله لكن المخبَر وإن جزم بصدق المخبِر فقد لا يتصور المخبر به نفسه كما يتصوره إذا عاينه كما قال إبراهيم الخليل صلوات الله على نبينا محمد وعليه: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾ [البقرة: ٢٦٠].

وأيضاً فمن وجب عليه الحج والزكاة مثلاً يجب عليه الإيمان أن يعلم ما أمر به ويؤمن بأن الله أوجب عليه ما لا يجب على غيره الإيمان به إلا مجملاً وهذا يجب عليه فيه الإيمان المفصل.

وكذلك الرجل أول ما يسلم إنما يجب عليه الإقرار المجمل، ثم إذا جاء وقت الصلاة كان عليه أن يؤمن بوجوبها ويؤديها، فلم يتساو الناس فيما أمروا به من الإيمان.

ولا شك أن من قام بقلبه التصديق الجازم الذي لا يقوى على معارضته شهوة ولا شبهة لا تقع معه معصية ولولا ما حصل له من الشهوة والشبهة أو إحداهما لما عصى بل يشتغل قلبه ذلك الوقت بما يواقعه من المعصية فيغيب عنه التصديق والوعيد فيعصي، ولهذا والله أعلم قال: (لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن) الحديث، فهو حين يزني يغيب عنه تصديقه بحرمة الزنا وإن بقي أصل التصديق في قلبه ثم يعاوده فإن المتقين كما وصفهم الله بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾ [الأعراف: ٢٠١].

(١) أخرجه ابن حبان (٢٠٨٨)، وأحمد (١/ ٢١٥)، والحاكم (٢/ ٣٢١).

قال ليث عن مجاهد هو الرجل يهم بالذنب فيذكر الله فيدعه. والشهوة والغضب مبدأ السيئات فإذا أبصر رجع ثم قال تعالى: ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾﴾ [الأعراف: ٢٠٢]، أي وإخوان الشياطين تمدهم الشياطين في الغي ثم لا يقصرون، قال ابن عباس: لا الإنس تقصر عن السيئات ولا الشياطين تمسك عنهم، فإذا لم يبصر بقي قلبه في عمى والشيطان يمده في غيه، وإن كان التصديق في قلبه لم يكذب فذلك النور والإبصار وتلك الخشية والخوف تخرج من قلبه، وهذا كما أن الإنسان يغمض عينه فلا يرى وإن لم يكن أعمى فكذلك القلب بما يغشاه من رين الذنوب لا يبصر الحق وإن لم يكن أعمى كعمى الكافر، وجاء هذا المعنى مرفوعاً إلى النبي ﷺ أنه قال: (إذا زنا العبد نزع منه الإيمان فإذا تاب أعيد إليه)[1].

وإذا كان النزاع في هذه المسألة بين أهل السنة نزاعاً لفظياً فلا محذور فيه سوى ما يحصل من عدوان إحدى الطائفتين على الأخرى والافتراق بسبب ذلك وأن يصير ذلك ذريعة إلى بدع أهل الكلام المذموم من أهل الإرجاء ونحوهم وإلى ظهور الفسق والمعاصي بأن يقول: أنا مؤمن مسلم حقاً كامل الإيمان والإسلام ولي من أولياء الله فلا يبالي بما يكون منه من المعاصي، وبهذا المعنى قالت المرجئة لا يضر مع الإيمان ذنب لمن عمله وهذا باطل قطعاً.

فالإمام أبو حنيفة ﷺ نظر إلى حقيقة الإيمان لغة مع أدلة من كلام الشارع، وبقية الأئمة رحمهم الله نظروا إلى حقيقته في عُرف الشارع، فإن الشارع ضم إلى التصديق أوصافاً وشرائط كما في الصلاة والصوم والحج ونحو ذلك.

فمن أدلة الأصحاب لأبي حنيفة رحمه الله أن الإيمان في اللغة عبارة عن التصديق، قال تعالى خبراً عن إخوة يوسف: ﴿وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ [يوسف: ١٧] أي بمصدق لنا، ومنهم من ادعى إجماع أهل اللغة على ذلك. ثم هذا المعنى اللغوي وهو التصديق بالقلب هو الواجب على العبد حقاً لله وهو أن يصدق الرسول فيما جاء به من عند الله، فمن صدق الرسول فيما جاء به من عند الله فهو مؤمن فيما بينه وبين الله تعالى، والإقرار شرط إجراء أحكام الإسلام في الدنيا هذا على أحد القولين كما تقدم، ولأنه ضد الكفر وهو التكذيب

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٩٠)، والحاكم (١/ ٢٢)، وصححه ووافقه الذهبي.

والجحود وهما يكونان بالقلب فكذا ما يضادهما، وقوله: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ [النحل: ١٠٦] يدل على أن القلب هو موضع الإيمان لا اللسان ولأنه لو كان مركباً من قول وعمل لزال كله بزوال جزئه، ولأن العمل قد عطف على الإيمان والعطف يقتضي المغايرة، قال تعالى: ﴿ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ في مواضع من القرآن.

وقد اعترض على استدلالهم[١] بأن الإيمان في اللغة عبارة عن التصديق، بمنع الترادف بين التصديق والإيمان، وهب أن الأمر يصح في موضع فلم قلتم إنه يوجب الترادف مطلقاً؟ وكذلك اعترض على دعوى الترادف بين الإسلام والإيمان، ومما يدل على عدم الترادف أنه يقال للمخبر إذا صدق صدقه ولا يقال آمنه ولا آمن به بل يقال آمن له كما قال تعالى: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُ لُوطٌ﴾ [العنكبوت: ٢٦] ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ﴾ [يونس: ٨٣]، وقال تعالى: ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ٦١]، ففرق بين المُعَدَّى بالباء والمُعدى باللام، فالأول يقال للمخبَر به والثاني للمخبر ولا يرد كونه يجوز أن يقال ما أنت بمصدق لنا لأن دخول اللام لتقوية العامل كما إذا تقدم المعمول أو كان العامل اسم فاعل أو مصدراً على ما عرف في موضعه.

فالحاصل أنه لا يقال قد آمنته ولا صدقت له، إنما يقال آمنت له كما يقال أقررت له، فكان تفسيره بأقررت أقرب من تفسيره بصدَّقت مع الفرق بينهما، لأن الفرق بينهما ثابت في المعنى فإن كل مخبر عن مشاهد أو غيب يقال له في اللغة صدقت كما يقال له كذبت، فمن قال: السماء فوقنا، قيل له: صدقت.

وأما لفظ الإيمان فلا يستعمل إلا في الخبر عن الغائب، فيقال لمن قال: طلعت الشمس، صدَّقناه، ولا يقال: آمنَّا له، فإن فيه أصل معنى الأمن، والائتمان إنما يكون في الخبر عن الغائب، فالأمر الغائب هو الذي يؤتمن عليه المخبر، ولهذا لم يأت في القرآن وغيره لفظ آمن له إلا في هذا النوع لأنه لم يقابل لفظ الإيمان قط بالتكذيب كما يقابل لفظ التصديق، وإنما يقابل بالكفر، والكفر لا يختص بالتكذيب بل لو قال أنا أعلم أنك صادق ولكن لا أتبعك بل أعاديك وأبغضك

(١) انظر: كتاب الإيمان لشيخ الإسلام (٢٧٤).

وأخالفك لكان كفراً أعظم، فعُلم أن الإيمان ليس التصديق فقط ولا الكفر التكذيب فقط بل إذا كان الكفر يكون تكذيباً ويكون مخالفة ومعاداة بل تكذيب فكذلك الإيمان يكون تصديقاً وموافقة وموالاة وانقياداً، ولا يكفي مجرد التصديق فيكون الإسلام جزء مسمى الإيمان.

ولو سلم الترادف فالتصديق يكون بالأفعال أيضاً كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: (العينان تزنيان وزناهما النظر، والأذن تزني وزناها السمع ـ إلى أن قال ـ والفرج يصدِّق ذلك ويكذبه)[1].

وقال الحسن البصري رحمه الله: ليس الإيمان بالتحلي ولا بالتمني ولكنه ما وقر في الصدور وصدَّقته الأعمال، ولو كان تصديقاً فهو تصديق مخصوص كما في الصلاة ونحوها كما قد تقدم، وليس هذا نقلاً للفظ ولا تغييراً له، فإن الله لم يأمرنا بإيمان مطلق بل بإيمان خاص وصفه وبيّنه فالتصديق الذي هو الإيمان أدنى أحواله أن يكون نوعاً من التصديق العام فلا يكون مطابقاً له في العموم والخصوص من غير تغير اللسان ولا قلبه بل يكون الإيمان في كلام الشارع مؤلفاً من العام والخاص كالإنسان الموصوف بأنه حيوان ناطق، ولأن التصديق التام القائم بالقلب مستلزم لما وجب من أعمال القلب والجوارح فإن هذه من لوازم الإيمان التام، وانتفاء اللازم دليل على انتفاء الملزوم.

ونقول إن هذه لوازم تدخل في مسمى اللفظ تارة وتخرج عنه أخرى، أو إن اللفظ باق على معناه في اللغة ولكن الشارع زاد فيه أحكاماً، أو أن يكون الشارع استعمله في معناه المجازي فهو حقيقة شرعية مجاز لغوي، أو أن يكون قد نقله الشارع وهذه الأقوال لمن سلك الطريق.

وقالوا إن الرسول قد وافقنا على معاني الإيمان وعلمنا من مراده علماً ضرورياً أن من قيل إنه صدق ولم يتكلم بلسانه بالإيمان مع قدرته على ذلك ولا صلى ولا صام ولا أحب الله ورسوله ولا خاف الله بل كان مبغضاً للرسول معادياً له يقاتله أن هذا ليس بمؤمن.

كما علمنا أنه رتب الفوز والفلاح على التكلم بالشهادتين مع الإخلاص والعمل بمقتضاهما، فقد قال ﷺ: (الإيمان بضع وسبعون شعبة أعلاها قول لا إله إلا الله،

---

(١) أخرجه البخاري (٦٢٤٣)، ومسلم (٢٦٥٧).

وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، وقال أيضاً الحياء شعبة من الإيمان)[١].

وقال أيضاً: (أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً)[٢].

وقال أيضاً: (البذاذة من الإيمان)[٣].

فإذا كان الإيمان أصلاً له شعب متعددة وكل شعبة منها تسمى إيماناً، فالصلاة من الإيمان، وكذلك الزكاة والصوم والحج والأعمال الباطنة كالحياء والتوكل والخشية من الله والإنابة إليه، حتى تنتهي هذه الشعب إلى إماطة الأذى عن الطريق فإنه من شعب الإيمان، وهذه الشعب منها ما يزول الإيمان بزوالها إجماعاً كشعبة الشهادتين ومنها ما لا يزول بزوالها إجماعاً كترك إماطة الأذى عن الطريق، وبينهما شعب متفاوتة تفاوتاً عظيماً منها ما يقرب من شعبة الشهادة ومنها ما يقرب من شعبة إماطة الأذى، وكما أن شعب الإيمان إيمان فكذا شعب الكفر كفر، فالحكم بما أنزل الله مثلاً من شعب الإيمان، والحكم بغير ما أنزل الله كفر، وقد قال ﷺ: (من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان)[٤]، رواه مسلم.

وفي لفظ: (ليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل).

وروى الترمذي عن رسول الله ﷺ أنه قال: (من أحب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان)[٥]، ومعناه والله أعلم: أن الحب والبغض أصل حركة القلب، وبذل المال ومنعه هو كمال ذلك، فإن المال آخر المتعلقات بالنفس، والبدن متوسط بين القلب والمال، فمن كان أول أمره وآخره كله لله كان الله إلهه في كل شيء، فلم يكن فيه شيء من الشرك وهو إرادة غير الله وقصده ورجاؤه، فيكون مستكملاً الإيمان، إلى غير ذلك من الأحاديث الدالة على قوة الإيمان وضعفه بحسب العمل.

وسيأتي في كلام الشيخ رحمه الله في شأن الصحابة رضي الله عنهم وحبهم دين وإيمان

---

(١) أخرجه البخاري (٩)، ومسلم (٣٥).

(٢) أخرجه أبو داود (٢٦٨٢)، والترمذي (١١٦٢).

(٣) أخرجه أبو داود (٤١٦١)، وابن ماجه (٤١١٨).

(٤) أخرجه مسلم (٤٩ ـ ٥٠).

(٥) أخرجه الترمذي (٢٥٢١)، وأبو داود (٤٦٨١).

وإحسان وبغضهم كفر ونفاق وطغيان، فسمى حب الصحابة إيماناً وبغضهم كفراً.

وما أعجب ما أجاب به أبو المعين النسفي وغيره عن استدلالهم بحديث شعب الإيمان المذكور وهو أن الراوي قال بضع وستون أو بضع وسبعون، فقد شهد الراوي بفعله نفسه حيث شك فقال بضع وستون أو بضع وسبعون ولا يظن برسول الله الشك في ذلك، وأن هذا الحديث مخالف للكتاب.

فطعن فيه بغفلة الراوي ومخالفة الكتاب، فانظر إلى هذا الطعن ما أعجبه، فإن تردد الراوي بين الستين والسبعين لا يلزم منه عدم ضبطه مع أن البخاري رحمه الله إنما رواه بضع وستون من غير شك.

وأما الطعن بمخالفة الكتاب فأين في الكتاب ما يدل على خلافه؟ وإنما فيه ما يدل على وفاقه، وإنما هذا الطعن من ثمرة شؤم التقليد والتعصب.

وقالوا أيضاً وهنا أصل آخر وهو أن القول قسمان: قول القلب وهو الاعتقاد، وقول اللسان وهو التكلم بكلمة الإسلام. والعمل قسمان: عمل القلب وهو نيته وإخلاصه، وعمل الجوارح، فإذا زالت هذه الأربعة زال الإيمان بكماله، وإذا زال تصديق القلب لم ينفع بقية الآخر، فإن تصديق القلب شرط في اعتبارها وكونها نافعة، وإذا بقي تصديق القلب وزال الباقي فهذا موضع[1] المعركة[2].

ولا شك أنه يلزم من عدم طاعة الجوارح عدم طاعة القلب، إذ لو أطاع القلب وانقاد لأطاعت الجوارح وانقادت، ويلزم من عدم طاعة القلب وانقياده عدم التصديق المستلزم للطاعة، قال ﷺ: (إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد، وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد، ألا وهي القلب)[3]، فمن صلح قلبه صلح جسده قطعاً بخلاف العكس، وأما كونه يلزم من زوال جزئه زوال كله فإن أريد أن الهيئة الاجتماعية لم تبق مجتمعة كما كانت فمسلَّم، ولكن لا يلزم من زوال بعضها زوال سائر الأجزاء فيزول عنه الكمال فقط.

---

(١) انظر: كتاب الصلاة لابن القيم ص٣٥.

(٢) هذا الكلام مأخوذ من كلام ابن القيم في كتاب الصلاة (ص٣٥) وتتمته «وإذا زال عمل القلب مع اعتقاد التصديق فهذا موضوع المعركة بين المرجئة وأهل السنة، فأهل السنة مجمعون على زوال الإيمان وأنه لا ينفع التصديق مع انتفاء عمل القلب وهو محبته وانقياده. . .».

(٣) أخرجه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩).

والأدلة على زيادة الإيمان ونقصانه من الكتاب والسنة والآثار السلفية كثيرة جداً، منها قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال: ٢]، ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى﴾ [مريم: ٧٦]، ﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا﴾ [المدثر: ٣١]، ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ [الفتح: ٤]، ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [آل عمران: ١٧٣].

وكيف يقال في هذه الآية والتي قبلها إن الزيادة باعتبار زيادة المؤمن به، فهل في قول الناس: «قد جمعوا لكم فاخشوهم» زيادة مشروع، وهل في إنزال السكينة على قلوب المؤمنين زيادة مشروع، وإنما أنزل الله السكينة في قلوب المؤمنين مرجعهم من الحديبية ليزدادوا طمأنينة ويقيناً، ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ [آل عمران: ١٦٧]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [التوبة: ١٢٤ ـ ١٢٥].

وأما ما رواه الفقيه أبو الليث السمرقندي رحمه الله في تفسيره عند هذه الآية فقال: حدثنا محمد بن الفضل وأبو القاسم الساباذي قالا: حدثنا فارس بن مردويه قال: حدثنا محمد بن الفضل بن العابد قال: حدثنا يحيى بن عيسى قال: حدثنا أبو مطيع عن حماد بن سلمة عن أبي المهزم عن أبي هريرة قال: جاء وفد ثقيف إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله، الإيمان يزيد وينقص، فقال: (لا، الإيمان مكمل في القلب زيادته ونقصانه كفر)[1].

فقد سئل شيخنا الشيخ عماد الدين بن كثير رحمه الله عن هذا الحديث فأجاب بأن الإسناد من أبي الليث إلى أبي مطيع مجهولون لا يعرفون في شيء من كتب التواريخ المشهورة، وأما أبو مطيع فهو الحكم بن عبد الله بن مسلمة البلخي ضعفه أحمد بن حنبل ويحيى بن معين وعمرو بن علي الفلاس والبخاري وأبو داود والنسائي وأبو حاتم الرازي وأبو حاتم محمد بن حبان البستي والعقيلي وابن

(١) باطل، انظر: ميزان الاعتدال (٣/ ٤٢)، واللآلئ المصنوعة (١/ ٣٨).

عدي والدارقطني وغيرهم، وأما أبو المهزم الراوي عن أبي هريرة وقد تصحَّف على الكتاب واسمه يزيد بن سفيان فقد ضعفه أيضاً غير واحد وتركه شعبة بن الحجاج وقال النسائي: متروك، وقد اتهمه شعبة بالوضع حيث قال: لو أعطوه فلسين لحدثهم سبعين حديثاً.

وقد وصف النبي ﷺ النساء بنقصان العقل والدين، وقال ﷺ: (لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين)[١].

والمراد نفي الكمال، ونظائره كثيرة، وحديث شعب الإيمان وحديث الشفاعة وأنه يخرج من النار من في قلبه أدنى أدنى مثقال ذرة من إيمان.

فكيف يقال بعد هذا أن إيمان أهل السماوات والأرض سواء؟ وإنما التفاضل بينهم بمعان أخر غير الإيمان؟!

وكلام الصحابة رضي الله عنهم في هذا المعنى كثير أيضاً:

منه قول أبي الدرداء رضي الله عنه: «من فقه العبد أن يتعاهد إيمانه وما نقص منه، ومن فقه العبد أن يعلم أيزداد هو أم ينتقص؟».

وكان عمر رضي الله عنه يقول لأصحابه: «هلموا نزدد إيماناً»، فيذكرون الله تعالى عز وجل.

وكان ابن مسعود رضي الله عنه يقول في دعائه: «اللهم زدنا إيماناً ويقيناً وفقهاً».

وكان معاذ بن جبل رضي الله عنه يقول لرجل: «اجلس بنا نؤمن ساعة»، ومثله عن عبد الله بن رواحة رضي الله عنه.

وصح عن عمار بن ياسر رضي الله عنه أنه قال: «ثلاث من كن فيه فقد استكمل الإيمان: إنصاف من نفسه، والإنفاق من إقتار، وبذل السلام للعالم»، ذكره البخاري رحمه الله في صحيحه، وفي هذا المقدار كفاية وبالله التوفيق.

وأما كون عطف العمل على الإيمان يقتضي المغايرة فلا يكون العمل داخلاً في مسمى الإيمان، فلا شك أن الإيمان تارة يذكر مطلقاً عن العمل وعن الإسلام، وتارة يقرن بالعمل الصالح، وتارة يقرن بالإسلام، فالمطلق مستلزم للأعمال قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢]، ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ

---

(١) أخرجه البخاري (١٥)، ومسلم (٤٤).

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾ [الحجرات: ١٥]، ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ [المائدة: ٨١].

وقال ﷺ: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن»[(١)] الحديث.

(لا تؤمنوا حتى تحابوا)[(٢)].

(من غشنا فليس منا)، (من حمل علينا السلاح فليس منا)[(٣)].

وما أبعد قول من قال إن معنى قوله فليس منا أي فليس مثلنا، فليت شعري فمن لم يغش يكون مثل النبي ﷺ وأصحابه.

أما إذا عطف عليه العمل الصالح فاعلم أن عطف الشيء على الشيء يقتضي المغايرة بين المعطوف والمعطوف عليه مع الاشتراك في الحكم الذي ذكر لهما والمغايرة على مراتب:

أعلاها أن يكونا متباينين ليس أحدهما هو الآخر ولا جزءاً منه ولا بينهما تلازم كقوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام: ١]، ﴿وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ [آل عمران: ٣]، وهذا هو الغالب.

ويليه أن يكون بينهما تلازم كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [البقرة: ٤٢]، ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ [المائدة: ٩٢].

الثالث: عطف بعض الشيء عليه كقوله تعالى: ﴿حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٨]، ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ [البقرة: ٩٨]، ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ﴾ [الأحزاب: ٧].

وفي مثل هذا وجهان:

أحدهما: أن يكون داخلاً في الأول فيكون مذكوراً مرتين.

والثاني: أن عطفه عليه يقتضي أنه ليس داخلاً فيه هنا وإن كان داخلاً فيه منفرداً كما قيل مثل ذلك في لفظ الفقراء والمساكين ونحوهما تتنوع دلالته بالإفراد والاقتران.

الرابع: عطف الشيء على الشيء لاختلاف الصفتين كقوله تعالى: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ﴾ [غافر: ٣].

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه مسلم (٥٤).

(٣) أخرجه مسلم (١٠١).

وقد جاء في الشعر العطف لاختلاف اللفظ فقط كقوله:

فألفى قولها كذباً وميناً.

ومن الناس من زعم أن في القرآن من ذلك قوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨]. والكلام على ذلك معروف في موضعه.

فإذا كان العطف في الكلام يكون على هذه الوجوه نظرنا في كلام الشارع كيف ورد فيه الإيمان فوجدناه إذا أطلق يراد به ما يراد بلفظ البر والتقوى والدين ودين الإسلام.

ذكر في أسباب النزول أنهم سألوا عن الإيمان فأنزل الله هذه الآية: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ [البقرة: ١٧٧] الآيات، قال محمد بن نصر: حدثنا إسحاق بن إبراهيم، حدثنا عبد الله بن يزيد المقرئ والملائي قالا: حدثنا المسعودي عن القاسم قال: «جاء رجل إلى أبي ذر رضي الله عنه فسأله عن الإيمان فقرأ: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾ إلى آخر الآية، فقال الرجل: ليس عن هذا سألتك، فقال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فسأله عن الذي سألتني عنه فقرأ عليه الذي قرأت عليك، فقال له الذي قلت لي، فلما أبى أن يرضى قال: إن المؤمن الذي إذا عمل الحسنة سرته ورجا ثوابها، وإذا عمل السيئة ساءته وخاف عقابها»(١). وكذلك أجاب جماعة من السلف بهذا الجواب.

وفي «الصحيح» قوله ﷺ لوفد عبد القيس: (آمركم بالإيمان بالله وحده، أتدرون ما الإيمان بالله، شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وأن تؤدوا الخمس من المغنم)(٢).

ومعلوم أنه لم يرد أن هذه الأعمال تكون إيماناً بالله بدون إيمان القلب لما قد أخبر في مواضع أنه لا بد من إيمان القلب، فعلم أن هذه مع إيمان القلب هو الإيمان.

وأي دليل على أن الأعمال داخلة في مسمى الإيمان فوق هذا الدليل، فإنه فسر الإيمان بالأعمال ولم يذكر التصديق للعلم بأن هذه الأعمال لا تفيد مع الجحود، وفي المسند عن أنس عن النبي ﷺ أنه قال: (الإسلام علانية والإيمان في القلب)(٣).

---

(١) أخرجه الحاكم من رواية أبي أمامة (١/ ١٤)، وصححه ووافقه الذهبي.

(٢) أخرجه البخاري (٥٣)، ومسلم (١٧). (٣) أخرجه أحمد (٣/ ١٣٥).

وفي هذا الحديث دليل على المغايرة بين الإسلام والإيمان ويؤيده قوله في حديث سؤالات جبريل في معنى الإسلام والإيمان، وقد قال فيه النبي ﷺ: (هذا جبرائيل أتاكم يعلمكم دينكم)، فجعل الدين هو الإسلام والإيمان والإحسان، فتبين أن ديننا يجمع الثلاثة، لكن هو درجات ثلاث مسلم ثم مؤمن ثم محسن. والمراد بالإيمان ما ذكر مع الإسلام قطعاً، كما أنه أريد بالإحسان ما ذكر مع الإيمان والإسلام لا أن الإحسان يكون مجرداً عن الإيمان هذا محال، وهذا ما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [فاطر: ٣٢]، والمقتصد والسابق كلاهما يدخل الجنة بلا عقوبة بخلاف الظالم لنفسه فإنه معرض للوعيد.

وهكذا من أتى بالإسلام الظاهر مع التصديق بالقلب لكن لم يقم بما يجب عليه من الإيمان الباطن فإنه معرض للوعيد.

فأما الإحسان فهو أعم من جهة نفسه وأخص من جهة أهله، والإيمان أعم من جهة نفسه وأخص من جهة أهله من الإسلام، فالإحسان يدخل فيه الإيمان والإيمان يدخل فيه الإسلام، والمحسنون أخص من المؤمنين والمؤمنون أخص من المسلمين، وهذا كالرسالة والنبوة، فالنبوة داخلة في الرسالة، والرسالة أعم من جهة نفسها وأخص من جهة أهلها، فكل رسول نبي ولا ينعكس.

وقد صار الناس في مسمى الإسلام على ثلاثة أقوال:

فطائفة جعلت الإسلام هو الكلمة.

وطائفة أجابوا بما أجاب به النبي ﷺ حين سئل عن الإسلام والإيمان، حيث فسر الإسلام بالأعمال الظاهرة والإيمان بالإيمان بالأصول الخمسة.

وطائفة جعلوا الإسلام مرادفاً للإيمان، وجعلوا معنى قول الرسول ﷺ: (الإسلام شهادة أن لا إله إلا الله وإقام الصلاة)(١) الحديث: شعائر الإسلام، والأصل عدم التقدير مع أنهم قالوا إن الإيمان هو التصديق بالقلب، ثم قالوا الإسلام والإيمان شيء واحد فيكون الإسلام هو التصديق، وهذا لم يقله أحد من أهل اللغة وإنما هو الانقياد والطاعة، وقد قال النبي ﷺ: (اللهم لك أسلمت وبك آمنت)(٢)،

(١) أخرجه مسلم (٨).

(٢) أخرجه البخاري (١١٢٠)، ومسلم (٧٦٩).

وفسَّر الإسلام بالأعمال الظاهرة والإيمان بالإيمان بالأصول الخمسة، فليس لنا إذا جمعنا بينهما أن نجيب بغير ما أجاب النبي ﷺ.

وأما إذا أفرد اسم الإيمان فإنه يتضمن الإسلام، وإذا أفرد الإسلام فقد يكون مع الإسلام مؤمناً بلا نزاع، وهذا هو الواجب. وهل يكون مسلماً ولا يقال له مؤمن؟ وقد تقدم الكلام فيه.

وكذلك هل يستلزم الإسلام الإيمان فيه النزاع المذكور، وإنما وعد الله بالجنة في القرآن وبالنجاة من النار باسم الإيمان كما قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ۝٦٣﴾ [يونس: ٦٣]، وقال تعالى: ﴿سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ [الحديد: ٢١].

وأما اسم الإسلام مجرداً فما علَّق به في القرآن دخول الجنة لكنه فرضه وأخبر أنه دينه الذي لا يقبل من أحد سواه وبه بعث النبيين: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥].

فالحاصل أن حالة اقتران الإسلام بالإيمان غير حالة إفراد أحدهما عن الآخر، فمثل الإسلام من الإيمان كمثل الشهادتين إحداهما من الأخرى، فشهادة الرسالة غير شهادة الوحدانية فهما شيئان في الأعيان وإحداهما مرتبطة بالأخرى في المعنى والحكم كشيء واحد، كذلك الإسلام والإيمان لا إيمان لمن لا إسلام له ولا إسلام لمن لا إيمان له، إذ لا يخلو المؤمن من إسلام به يتحقق إيمانه، ولا يخلو المسلم من إيمان به يصح إسلامه.

ونظائر ذلك في كلام الله ورسوله وفي كلام الناس كثيرة أعني في الإفراد والاقتران منها لفظ الكفر والنفاق، فالكفر إذا ذكر مفرداً في وعيد الآخرة دخل فيه المنافقون كقوله تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [المائدة: ٥]، ونظائره كثيرة، وإذا قرن بينهما كان الكافر من أظهر كفره والمنافق من آمن بلسانه ولم يؤمن بقلبه.

وكذلك لفظ البر والتقوى، ولفظ الإثم والعدوان، ولفظ التوبة والاستغفار، ولفظ الفقير والمسكين وأمثال ذلك.

ويشهد للفرق بين الإسلام والإيمان قوله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾ [الحجرات: ١٤] إلى آخر السورة، وقد اعترض على هذا بأن معنى الآية: ﴿قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾ انقدنا بظواهرنا فهم منافقون في الحقيقة، وهذا أحد قولي المفسرين في هذه الآية الكريمة، وأجيب بالقول الآخر ورُجح وهو أنهم ليسوا بمؤمنين كاملي الإيمان لا أنهم منافقون، كما نفى الإيمان عن القاتل والزاني والسارق ومن لا أمانة له، ويؤيد هذا سياق الآية، فإن السورة من أولها إلى هنا في النهي عن المعاصي وأحكام بعض العصاة ونحو ذلك وليس فيها ذكر المنافقين، ثم قال بعد ذلك: ﴿وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا﴾ [الحجرات: ١٤] ولو كانوا منافقين ما نفعتهم الطاعة، ثم قال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾ [الحجرات: ١٥]، يعني والله أعلم أن المؤمنين الكاملي الإيمان هم هؤلاء لا أنتم بل أنتم منتف عنكم الإيمان الكامل، يؤيد هذا أنه أمرهم أو أذن لهم أن يقولوا أسلمنا، والمنافق لا يقال له ذلك، ولو كانوا منافقين لنفى عنهم الإسلام كما نفى عنهم الإيمان ونهاهم أن يمنوا بإسلامهم، فأثبت لهم إسلاماً ونهاهم أن يمنوا به على رسوله ولو لم يكن إسلاماً صحيحاً لقال لم تسلموا بل أنتم كاذبون كما كذبهم في قولهم: ﴿نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ [المنافقون: ١]. والله أعلم بالصواب.

وينتفي بعد هذا التقدير والتفصيل دعوى الترادف وتشنيع من ألزم بأن الإسلام لو كان هو الأمور الظاهرة لكان ينبغي أن لا يقابل بذلك ولا يقبل إيمان المخلص، وهذا ظاهر الفساد فإنه قد تقدم تنظير الإيمان والإسلام بالشهادتين وغيرهما وأن حالة الاقتران غير حالة الانفراد، فانظر إلى كلمة الشهادة فإن النبي ﷺ قال: (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله)[1] الحديث، فلو قالوا لا إله إلا الله وأنكروا الرسالة ما كانوا يستحقون العصمة، بل لا بد أن يقولوا لا إله إلا الله قائمين بحقها، ولا يكون قائماً بـ (لا إله إلا الله) حق القيام إلا من صدق الرسالة، وكذا من شهد أن محمداً رسول الله لا يكون قائماً بهذه الشهادة حق القيام إلا من صدَّق هذا الرسول في كل ما جاء به، فتضمنت التوحيد، وإذا ضممت شهادة أن لا إله إلا الله إلى شهادة محمداً رسول الله كان

(١) سبق تخريجه وهو حديث متواتر.

المراد من شهادة أن لا إله إلا الله إثبات التوحيد، ومن شهادة أن محمداً رسول الله إثبات الرسالة، كذلك الإسلام والإيمان إذا قرن أحدهما بالآخر كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥]، وقوله ﷺ: (اللهم لك أسلمت وبك آمنت)، كان المراد من أحدهما غير المراد من الآخر، وكما قال ﷺ: (الإسلام علانية والإيمان في القلب). وإذا انفرد أحدهما شمل معنى الآخر وحكمه، وكما في الفقير والمسكين ونظائره، فإن لفظي الفقير والمسكين إذا اجتمعا افترقا وإذا افترقا اجتمعا، فهل يقال في قوله تعالى: ﴿إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ﴾ [المائدة: ٨٩] أنه يعطى المقل دون المعدم أو بالعكس، وكذا في قوله تعالى: ﴿وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٧١].

ويندفع أيضاً تشنيع من قال: ما حكم من آمن ولم يسلم، أو أسلم ولم يؤمن في الدنيا والآخرة؟ فمن أثبت لأحدهما حكماً ليس بثابت للآخر ظهر بطلان قوله.

ويقال له في مقابلة تشنيعه: أنت تقول المسلم هو المؤمن والله تعالى يقول: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥] فجعلهما غيرين، وقد قيل لرسول الله ﷺ: (ما لك عن فلان، والله إني لأراه مؤمناً، قال: أو مسلماً، قالها ثلاثاً)[1]، فأثبت له الإسلام وتوقف في اسم الإيمان، فمن قال هما سواء كان مخالفاً والواجب رد موارد النزاع إلى الله ورسوله، وقد يتراءى في بعض النصوص معارضة ولا معارضة بحمد الله تعالى، ولكن الشأن في التوفيق وبالله التوفيق.

وأما الاحتجاج بقوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [الذاريات: ٣٥ ـ ٣٦] على ترادف الإسلام والإيمان فلا حجة فيه، لأن البيت المخرج كانوا متصفين بالإسلام والإيمان ولا يلزم من الاتصاف بهما ترادفهما.

والظاهر أن هذه المعارضات لم تثبت عن أبي حنيفة رضي الله عنه وإنما هي من الأصحاب، فإن غالبها ساقط لا يرتضيه أبو حنيفة، وقد حكى الطحاوي حكاية أبي حنيفة مع حماد بن زيد لما روي له حديث: أي الإسلام أفضل إلى آخره قال له: ألا تراه يقول أي الإسلام أفضل؟ قال: الإيمان، ثم جعل الهجرة والجهاد من

(١) أخرجه البخاري (٢٧)، ومسلم (١٥٠).

الإيمان، فسكت أبو حنيفة فقال بعض أصحابه: ألا تجيبه يا أبا حنيفة؟ قال: بما أجيبه وهو يحدثني بهذا عن رسول الله ﷺ.

ومن ثمرات هذا الاختلاف مسألة الاستثناء في الإيمان وهو أن يقول أي الرجل أنا مؤمن إن شاء الله، والناس فيه على ثلاثة أقوال طرفان ووسط، منهم من يوجبه ومنهم من يحرمه ومنهم من يجيزه باعتبار ويمنعه باعتبار، وهذا أصح الأقوال.

أما من يوجبه فلهم مأخذان: أحدهما أن الإيمان هو ما مات الإنسان عليه والإنسان إنما يكون عند الله مؤمناً أو كافراً باعتبار الموافاة وما سبق في علم الله أنه يكون عليه، وما قبل ذلك لا عبرة به، قالوا: والإيمان الذي يعقبه الكفر فيموت صاحبه كافراً ليس بإيمان كالصلاة التي أفسدها صاحبها قبل الكمال، والصيام الذي يفطر صاحبه قبل الغروب، وهذا مأخذ كثير من الكُلَّابية وغيرهم، وعند هؤلاء أن الله يحب في الأزل من كان كافراً إذا علم منه أنه يموت مؤمناً، فالصحابة ما زالوا محبوبين قبل إسلامهم وإبليس ومن ارتد عن دينه ما زال الله يبغضه وإن كان لم يكفر بعد، وليس هذا قول السلف ولا كان يقول بهذا من يستثني من السلف في إيمانه وهو فاسد، فإن الله تعالى قال: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١] فأخبر أنهم يحبهم أن اتبعوا الرسول، فاتباع الرسول شرط المحبة والمشروط يتأخر عن الشرط وغير ذلك من الأدلة.

ثم صار إلى هذا القول طائفة غلوا فيه حتى صار الرجل منهم يستثني في الأعمال الصالحة يقول: صليت إن شاء الله، ونحو ذلك، يعني القبول، ثم صار كثير منهم يستثنون في كل شيء فيقول أحدهم: هذا ثوب إن شاء الله، هذا حبل إن شاء الله، فإذا قيل لهم: هذا لا شك فيه، يقولون: نعم لكن إذا شاء الله أن يغيره غيره.

المأخذ الثاني: أن الإيمان المطلق يتضمن فعل ما أمر الله به عبده كله وترك ما نهاه عنه كله، فإذا قال الرجل أنا مؤمن بهذا الاعتبار فقد شهد لنفسه أنه من الأبرار المتقين القائمين بجميع ما أمروا به وترك كل ما نهوا عنه فيكون من أولياء الله المقربين، وهذا مع تزكية الإنسان لنفسه، ولو كانت هذه الشهادة صحيحة لكان ينبغي أن يشهد لنفسه بالجنة إن مات على هذه الحال.

وهذا مأخذ عامة السلف الذين كانوا يستثنون، وإن جوَّزوا ترك الاستثناء بمعنى

آخر كما سنذكره إن شاء الله تعالى، ويحتجون أيضاً بجواز الاستثناء فيما لا شك فيه كما قال تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [الفتح: ٢٧]، وقال ﷺ حين وقف على المقابر: (وإنا إن شاء الله بكم لاحقون)(١)، وقال أيضاً: (إني لأرجو أن أكون أخشاكم لله)(٢)، ونظائر هذا.

وأما من يحرمه فكل من جعل الإيمان شيئاً واحداً فيقول: أنا أعلم أني مؤمن كما أعلم أني تكلمت بالشهادتين فقولي أنا مؤمن كقولي أنا مسلم، فمن استثنى في إيمانه فهو شاك فيه، وسمّوا الذين يستثنون في إيمانهم الشكاكة، وأجابوا عن الاستثناء الذي في قوله تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [الفتح: ٢٧] بأنه يعود إلى الأمن والخوف، فأما الدخول فلا شك فيه، وقيل: لتدخلن جميعكم أو بعضكم لأنه علم أن بعضهم يموت.

وفي كلا الجوابين نظر، فإنهم وقعوا فيما فروا منه، فأما الأمن والخوف فقد أخبر أنهم يدخلون آمنين مع علمه بذلك فلا شك في الدخول ولا في الأمن ولا في دخول الجميع أو البعض، فإن الله قد علم من يدخل فلا شك فيه أيضاً، فكان قول إن شاء الله هنا تحقيقاً للدخول كما يقول الرجل فيما عزم على شيء أن يفعله لا محالة والله لأفعلن كذا إن شاء الله، لا يقولها لشك في إرادته وعزمه ولكن إنما لا يحنث الحالف في مثل هذه اليمين لأنه لا يجزم بحصول مراده.

وأجيب بجواب آخر لا بأس به وهو أنه قال ذلك تعليماً لنا كيف نستثني إذا أخبرنا عن مستقبل، وفي كون هذا المعنى مراداً من النص نظر فإنه ما سيق الكلام إلا أن يكون مراداً من إشارة النص.

وأجاب الزمخشري بجوابين آخرين باطلين وهما أن يكون الملك قد قاله فأثبت قرآناً أو أن الرسول قاله، فعند هذا المسكين يكون من القرآن ما هو غير كلام الله فيدخل في وعيد من قال إن هذا إلا قول البشر نسأل الله العافية.

وأما من يجوِّز الاستثناء وتركه فهم أسعد بالدليل من الفريقين، وخير الأمور أوسطها فإن أراد المستثني الشك في أصل إيمانه منع من الاستثناء، وهذا مما لا خلاف فيه، وإن أراد أنه مؤمن من المؤمنين الذين وصفهم الله في قوله: ﴿إِنَّمَا

(١) أخرجه مسلم (٢٤٩).
(٢) أخرجه مسلم (١١١٠).

ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾ [الأنفال: ٢ ـ ٤]، وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الحجرات: ١٥]، فالاستثناء حينئذٍ جائز، وكذلك من استثنى وأراد عدم علمه بالعاقبة، وكذلك من استثنى تعليقاً للأمر بمشيئة الله لا شكّاً في إيمانه، وهذا القول في القوة كما ترى.

قوله: وجميع ما صح عن رسول الله ﷺ من الشرع والبيان كله حق، يشير الشيخ رحمه الله بذلك إلى الرد على الجهمية والمعطلة والمعتزلة والرافضة القائلين بأن الأخبار قسمان متواتر وآحاد، فالمتواتر وإن كان قطعي السند لكنه غير قطعي الدلالة، فإن الأدلة اللفظية لا تفيد اليقين، ولهذا قدحوا في دلالة القرآن على الصفات، قالوا: والآحاد لا تفيد العلم ولا يحتج بها من جهة طريقها ولا من جهة متنها، فسدُّوا على القلوب معرفة الرب تعالى وأسمائه وصفاته وأفعاله من جهة الرسول، وأحالوا الناس على قضايا وهمية ومقدمات خيالية سموها قواطع عقلية وبراهين يقينية وهي في التحقيق: ﴿كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾ [النور: ٣٩ ـ ٤٠].

ومن العجب أنهم قدموها على نصوص الوحي وعزلوا لأجلها النصوص فأقفرت قلوبهم من الاهتداء بالنصوص ولم يظفروا بالعقول الصحيحة المؤيدة بالفطرة السليمة والنصوص النبوية، ولو حكَّموا نصوص الوحي لفازوا بالمعقول الصحيح الموافق للفطرة السليمة.

بل كل فريق من أرباب البدع يعرض النصوص على بدعته وما ظنه معقولاً فما وافقه قال إنه محكم وقبله واحتج به، وما خالفه قال إنه متشابه ثم رده وسمى رده تفويضاً أو حرفه وسمى تحريفه تأويلاً، فلذلك اشتد إنكار أهل السنة عليهم.

وطريق أهل السنة أن لا يعدلوا عن النص الصحيح ولا يعارضوه بمعقول ولا

قول فلان كما أشار إليه الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ، وكما قال البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ: «سمعت الحميدي يقول: كنا عند الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ فأتاه رجل فسأله عن مسألة فقال: قضى فيها رسول الله ﷺ كذا وكذا، فقال رجل للشافعي: ما تقول أنت؟ فقال: سبحان الله تراني في كنيسة؟ تراني في بيعة؟ تراني على وسطي زنار؟ أقول لك قضى رسول الله ﷺ وأنت تقول ما تقول أنت؟!».

ونظائر ذلك في كلام السلف كثير، وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

وخبر الواحد إذا تلقته الأمة بالقَبول عملاً به وتصديقاً له يفيد العلم اليقيني عند جماهير الأمة، وهو أحد قسمي المتواتر، ولم يكن بين سلف الأمة في ذلك نزاع كخبر عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (إنما الأعمال بالنيات)[(١)]، وخبر ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: (نهى عن بيع الولاء وهبته)[(٢)]، وخبر أبي هريرة: (لا تنكح المرأة على عمتها ولا على خالتها)[(٣)]، وكقوله: (يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب)[(٤)]، وأمثال ذلك، وهو نظير خبر الذي أتى مسجد قباء وأخبر أن القبلة تحوَّلت إلى الكعبة فاستداروا إليها[(٥)].

وكان رسول الله ﷺ يرسل رسله آحاداً ويرسل كتبه مع الآحاد ولم يكن المرسل إليهم يقولون لا نقبله لأنه خبر واحد، وقد قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [التوبة: ٣٣]، فلا بد أن يحفظ الله حججه وبيناته على خلقه لئلا تبطل حججه وبيناته.

ولهذا فضح الله من كذب على رسوله في حياته وبعد وفاته وبيَّن حاله للناس، قال سفيان بن عيينة: ما ستر الله أحداً يكذب في الحديث، وقال عبد الله بن المبارك: لو هَمَّ رجل في البحر أن يكذب في الحديث لأصبح والناس يقولون فلان كذاب.

وخبر الواحد وإن كان يحتمل الصدق والكذب ولكن التفريق بين صحيح

---

(١) أخرجه البخاري (١).

(٢) أخرجه البخاري (٢٥٣٥)، ومسلم (١٥٠٦).

(٣) أخرجه البخاري (٥١٠٩)، ومسلم (١٤٠٨).

(٤) أخرجه البخاري (٢٦٤٥).

(٥) انظر: صحيح البخاري (٤٠٣).

الأخبار وسقيمها لا يناله أحد إلا بعد أن يكون معظم أوقاته مشتغلاً بالحديث والبحث عن سير الرواة ليقف على أحوالهم وأقوالهم وشدة حذرهم من الطغيان والزلل، وكانوا بحيث لو قتلوا لم يسامحوا أحداً في كلمة يتقولها على رسول الله ﷺ ولا فعلوا هم بأنفسهم ذلك، وقد نقلوا هذا الدين إلينا كما نقل إليهم، فهم عصابة الإيمان ونقاد الأخبار وصيارفة الأحاديث، فإذا وقف المرء على هذا من شأنهم وعرف حالهم وخبر صدقهم وورعهم وأمانتهم ظهر له العلم فيما نقلوه ورووه.

ومن له عقل ومعرفة يعلم أن أهل الحديث لهم من العلم بأحوال نبيهم وسيرته وأخباره ما ليس لغيرهم به شعور، فضلاً أن يكون معلوماً لهم أو مظنوناً، كما أن النحاة عندهم من أخبار سيبويه والخليل وأقوالهما ما ليس عند غيرهم، وعند الأطباء من كلام بقراط وجالينوس ما ليس عند غيرهم، وكل ذي صنعة هو أخبر بها من غيره، فلو سألت البقال عن أمر العطر، أو العطار عن البز ونحو ذلك، لعد ذلك جهلاً كبيراً.

ولكن النفاة قد جعلوا قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١] مستنداً لهم في رد الأحاديث الصحيحة، فكلما جاءهم حديث يخالف قواعدهم وآراءهم وما وضعته خواطرهم وأفكارهم ردوه بـ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ تلبيساً منهم وتدليساً على من هو أعمى قلباً منهم وتحريفاً لمعنى الآي عن مواضعه.

ففهموا من أخبار الصفات ما لم يرده الله ولا رسوله ولا فهمه أحد من أئمة الإسلام أنه يقتضي إثباتها التمثيل بما للمخلوقين، ثم استدلوا على بطلان ذلك بـ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ تحريفاً للنصين، ويصنفون الكتب ويقولون هذا أصول دين الإسلام الذي أمر الله به وجاء من عنده، ويقرأون كثيراً من القرآن ويفوضون معناه إلى الله تعالى من غير تدبر لمعناه الذي بيّنه الرسول وأخبر أنه معناه الذي أراده الله.

وقد ذم الله تعالى أهل الكتاب الأول على هذه الصفات الثلاث وقص ذلك علينا من خبرهم لنعتبر وننزجر عن مثل طريقتهم فقال تعالى: ﴿۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ

يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [البقرة: ٧٥] إلى أن قال: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾﴾ [البقرة: ٧٨]، والأماني: التلاوة المجردة، ثم قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [البقرة: ٧٩]، فذمهم على نسبة ما كتبوه إلى الله وعلى اكتسابهم بذلك، فكلا الوصفين ذميم أن ينسب إلى الله ما ليس من عنده وأن يأخذ بذلك عوضاً من الدنيا مالاً أو رياسة، نسأل الله أن يعصمنا من الزلل في القول والعمل بمنِّه وكرمه.

ويشير الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله من الشرع والبيان إلى أن ما صح عن النبي نوعان: شرع ابتدائي وبيان لما شرعه الله في كتابه العزيز، وجميع ذلك حق واجب الاتباع.

وقوله: وأهله في أصله سواء والتفاضل بينهم بالحقيقة ومخالفة الهوى وملازمة الأولى، وفي بعض النسخ: بالخشية والتقى بدل قوله بالحقيقة، ففي العبارة الأولى يشير إلى أن الكل مشتركون في أصل التصديق، ولكن التصديق يكون بعضه أقوى من بعض وأثبت كما تقدم نظيره بقوة البصر وضعفه، وفي العبارة الأخرى يشير إلى أن التفاوت بين المؤمنين بأعمال القلوب، وأما التصديق فلا تفاوت فيه، والمعنى الأول أظهر قوة، والله أعلم بالصواب.



عناصر الموضوع:

١ غرض المصنف من عقد هذا الباب:

يتضح غرض المصنف من عقد هذا الباب فيما يلي:

أ ـ تقرير مذهب أهل السنة والجماعة في بيان حقيقة الإيمان ومسمَّاه، فقرر أن الإيمان هو الإقرار باللسان والتصديق بالجَنان، وهذا خطأ، فإن الحق الذي عليه جماهير أهل العلم هو ما قرره الشارح ابن أبي العز أن الإيمان تصديق بالجنان ـ أي القلب ـ وإقرار باللسان وعمل بالأركان أي الجوارح يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية.

ب ـ الرد على المخالفين لأهل السنة والجماعة في هذا الباب من المرجئة والوعيدية وغيرهم.

٢ مناسبة هذا الباب لما سبق:

قرر المصنف فيما سبق أصول الدين وأركان الإيمان عند أهل السنة والجماعة ثم بيَّن المخالفين لهم في ذلك، ثم ذكر بعض نواقض الإيمان، فناسب في هذا الموضع أن يبين حقيقة الإيمان ومسمَّاه عند أهل السنة والجماعة.

٣ معاني الكلمات:

الكلمة	المعنى
الإقرار	الاعتراف.
الجنان	القلب.
الشرط	ما يتوقف وجود الشيء عليه، وهو خارج عن ماهيته.
الاستلزام	هو دلالة اللفظ على ما يلازمه في الذهن
الترادف	اشتراك الألفاظ المتعددة في معنى واحد مثل «ليث، أسد»، فهذه ألفاظ موضوعة لمعنى واحد.
العموم	في اللغة: عبارة عن إحاطة الأفراد دفعة. وفي الاصطلاح: قيل ما يقع بمعنى الاشتراك.

الكلمة	المعنى
الخصوص	أحدية كل شيء عن كل شيء بتعيينه، فلكل شيء وحدة تخصه.
الحقيقة	الحقيقة لها عدة معان: الأول: مطابقة التصور أو الحكم للواقع. الثاني: مطابقة الشيء لصورة نوعه أو لمثاله الذي أريد له. الثالث: الماهية أو الذات.
المجاز	هو اللفظ المستعمل في غير معناه الذي وضع له لوجود علاقة بين المعنيين.
المتواتر	ما نقله جمع يحصل العلم بصدقهم بضرورة، ولا يمكن تواطؤهم على الكذب عن مثلهم من أول الإسناد إلى آخره.
الآحاد	ما لم يجمع شروط الخبر المتواتر.

٤ معنى كلام الطحاوي: «والإيمان: هو الإقرار باللسان، والتصديق بالجنان. وجميع ما صح عن رسول الله ﷺ من الشرع والبيان كله حق»:

إن الحق الذي عليه أهل السنة والجماعة وجماهير العلماء أن الإيمان بالجنان؛ أي: القلب، وإقرار باللسان، وعمل بالأركان ـ الجوارح ـ، وأن هذه الثلاثة داخلة في مسمّى الإيمان المطلق: وهو الذي يمنع دخول صاحبه النار، فصاحبه مستحق دخول الجنة والنجاة من النار، ومطلق الإيمان: هو الإيمان الناقص وهو الذي يمنع من الخلود في النار، فيكون صاحبه مآله الجنة المقصود أن حقيقة الإيمان هو اعتقاد بالجنان وإقرار باللسان وعمل بالأركان وهذه الثلاثة هي من أصول أهل السنة والجماعة، والأدلة على أن العمل من الإيمان لا تحصى من الكتاب والسنة، وينبني على ذلك عند أهل السنة أن الإيمان يزيد وينقص، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية.

ولو كانت الأعمال غير داخلة في مسمى الإيمان لاستوى جميع الناس في الإيمان: البر والفاجر، والمطيع والعاصي، ما داموا قد أقروا بالخالق وألوهيته وأمور الإيمان الأخرى وصدقوا بها. غير أن هذا من الأصول الفاسدة.

وكل ما صح عن رسول الله ﷺ من الشرع والبيان لأمور الدين، فهذا كله حق، سواء ما ورد بالتواتر أو كما ورد بطريق الآحاد، وهو مذهب أهل الحق.

وكل من كذب على رسول الله ﷺ في الحديث فإن الله قد فضحه.

٥ معنى الإيمان لغة:

مادة أمن معناها في اللغة: وثق واطمأن، والأمانة: الوثوق.

قال أبو زيد: ما أمنت أن أجد صاحبه، أي: ما وثقت(١).

والإيمان في اللغة مصدر من باب الإفعال، ومعناه لغة: إعطاء الأمان لشيء آخر من الضياع، فإعطاء الأمان للإنسان العفو عنه وعدم قتله.

وقيل: الإيمان في اللغة التصديق.

قال الشيخ حافظ الحكمي: «ومن هنا يتبين لك أن من قال من أهل السنّة في الإيمان هو التصديق على ظاهر اللغة أنهم إنما عنوا التصديق الإذعاني المستلزم للانقياد ظاهراً وباطناً بلا شك ولم يعنوا مجرد التصديق»(٢).

٦ معنى الإيمان في الاصطلاح:

معنى الإيمان في الاصطلاح: اعتقاد بالجَنان وقول باللسان وعمل بالأركان، وقد حكى الإجماع على ذلك غير واحد من أهل العلم كالشافعي والبغوي وابن عبد البر وغيرهم(٣).

وتارة يعبرون عنه فيقولون: قول وعمل، قول القلب واللسان، وعمل القلب والجوارح(٤).

فقول القلب: هو التصديق والإيقان وقول اللسان: هو النطق بالشهادتين، وعمل القلب: هو النية والانقياد والمحبة، وعمل اللسان: تلاوة القرآن وسائر الأدعية.

وتارة يقولون: قول وعمل ونية(٥).

وتارة يقولون: قول وعمل ونية واتباع سنة(٦).

وتارة يقولون: قول وعمل وعقيدة(٧).

---

(١) انظر: القاموس (١/ ١٨٢)، والمعجم الوسيط (١/ ٢٨)، وكتاب الأفعال للمعافري (١/ ٧٦)، واللسان (١٣/ ٢١).

(٢) انظر: معارج القبول (٢/ ٥٩٤).

(٣) انظر: جامع العلوم والحكم (١/ ٦٢)، وشرح السنة (١/ ٣٨)، والتمهيد (٩/ ٢٣٨)، والسنة لعبد الله بن أحمد (١/ ٣٤٧)، والشريعة للآجري (ص١١٩).

(٤) الإيمان لابن تيمية (ص١٧٦).

(٥) الإيمان لابن تيمية (ص١٦٢).

(٦) الإيمان لابن تيمية (ص١٦٢)، وشرح السنة (١/ ٣٩).

(٧) شرح السنة (١/ ٣٩).

٧ تفاضل الناس في الإيمان:

الناس يتفاضلون في الإيمان من ناحيتين:

أ ـ من جهة العمل: فكلما كان العمل أفضل كانت زيادة الإيمان أكثر.

ب ـ من جهة العامل، وذلك نوعان:

النوع الأول: في الاعتقاد ومعرفة الله تعالى، فإن كل أحد يعرف تفاضل يقينه في معلوماته بل في المعلوم الواحد وقتاً يرى يقينه فيه أكمل من الوقت الآخر.

النوع الثاني: في القيام بالأعمال الظاهرة كالصلاة والحج(١) وغير ذلك.

٨ أقسام الناس من حيث الإتيان بالأعمال:

الناس من حيث الإتيان بالأعمال على قسمين:

أحدهما: الكامل، وهم الذين أتوا بالعمل على الوجه المطلوب شرعاً.

الثاني: ناقصون. وهم نوعان:

النوع الأول: ملامون وهم من ترك شيئاً منه مع القدرة وقيام أمر الشارع، لكنهم تركوا واجباً أو فعلوا محرماً فهم آثمون وإن فعلوا مكروهاً أو تركوا مستحباً فلا إثم.

النوع الثاني: ناقصون غير ملامين وهم نوعان:

الأول: من عجز عنه حساً كالعاجز عن الصلاة قائماً.

الثاني: العاجزون شرعاً مع القدرة عليه حساً كالحائض تمتنع من الصلاة، فإن هذه قادرة عليه، لكن لم يقم عليها أمر الشارع، ولذلك جعلها النبي ﷺ ناقصة الإيمان بذلك(٢).

٩ أدلة أهل السنة:

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾ [الأنفال: ٢ ـ ٤].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ [آل عمران: ١٧٥].

---

(١) انظر: المنتقى لابن عثيمين (ص٥)، وكتاب الإيمان لشيخ الإسلام.

(٢) انظر: المنتقى لابن عثيمين (ص٥)، وكتاب الإيمان لشيخ الإسلام.

وقال تعالى: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [المائدة: ٢٣].

وقال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾﴾ [الأنفال: ١].

وقال تعالى: ﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ [التوبة: ١٣].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾﴾ [البقرة: ٢٧٨].

وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣].

وأما الأدلة من السنة فكثيرة جداً:

منها: قوله ﷺ لوفد عبد القيس: (**أتدرون ما الإيمان؟ قالوا: الله ورسوله أعلم قال: شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وأن تؤدوا الخمس من المغنم**)(١).

وقوله ﷺ: (**الإيمان بضع وستون شعبة، والحياء من الإيمان**).

وحكى اتفاق السلف على أن الإيمان اعتقاد وقول وعمل غير واحد من أهل العلم كالشافعي وأحمد والبخاري وابن عبد البر والبغوي(٢).

١٠ الآثار المترتبة على منهج السلف في الإيمان وثمراته(٣):

إن التزام الكتاب والسنة يوصل المسلم إلى بر السلامة وشاطئ الأمان في جميع شؤونه، لأن الخير منوط بهما، والشر بالإعراض عنهما وابتغاء الهدى في غيرهما.

وإن لالتزام السلف بالكتاب والسنة ثمرات وآثاراً عظيمة دنيوية وأخروية، وسنشير في عجالة مختصرة إلى آثار وثمرات منهج السلف في الإيمان وهي:

---

(١) البخاري (٥٣)، ومسلم (٢٤).

(٢) انظر: شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٣/٨٨٦ ـ ٨٨٧)، ومناقب الإمام أحمد لابن الجوزي (ص٢٢٨)، وفتح الباري (١/٤٧)، والتمهيد (٩/٢٣٨)، وشرح السنة (١/٣٨ ـ ٣٩).

(٣) مذكرة العقيدة للخلف (ص٥١ ـ ٥٣).

١ ـ الالتزام بالتحديدات الشرعية في المسألة.

من آثار منهج السلف في الإيمان هو الارتباط بكلام الله ﷻ وكلام رسوله ﷺ في هذه المسألة العظيمة. وهذا له أهمية كبرى من ناحية تعظيم كلام الله تعالى وكلام رسوله ﷺ وابتغاء الهدى منهما، كما أن في الوقوف على مراد الشارع في المسألة عصمة من الوقوع في مناقضة كلام الله تعالى وكلام رسوله ﷺ في الأمور المترتبة على المسميات الشرعية في العقائد والأحكام. وأيضاً فإن الوقوف على مراد الشارع في ذلك فيه أجر عظيم لأن ذلك من تدبر كلام الله والتفقه في دين الله الذي أمر به المسلم.

٢ ـ فتح باب التنافس في ارتقاء درجات الإيمان للوصول إلى أعلى الجنان.

إن اعتقاد السلف أن الإيمان قول وعمل يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية يفتح الباب واسعاً للتنافس المحمود بين أهل الإيمان، لأنه كلما ازداد طاعة ازداد إيماناً، وكلما ازداد إيماناً ازداد إقبالاً على الخير والطاعة، وبالتالي ازداد رفعة وقرباً من خالقه جل وعلا، وهذا ما وصف الله ﷻ به عباده الصالحين، قال جل وعلا: ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ﴾ [الإسراء: ٥٧]، وقال: ﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ۝٣٢﴾ [فاطر: ٣٢].

٣ ـ تنزيل الناس منازلهم وعدم التسوية بين المؤمنين والفجار.

إن من الآثار المترتبة على قول السلف في الإيمان عدم المساواة بين الناس في الإيمان، فلا يساوي العبد الصالح التقي بالعبد الفاجر الفاسق. فعدم المساواة بينهما من العدل الذي يحبه الله ﷻ، أما المساواة بينهما فهو من الظلم الذي نفاه الله تعالى عن نفسه، قال جل وعلا: ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجۡتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجۡعَلَهُمۡ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءٗ مَّحۡيَاهُمۡ وَمَمَاتُهُمۡۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ۝٢١﴾ [الجاثية: ٢١]، وقال جل وعلا: ﴿أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلۡمُفۡسِدِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلۡمُتَّقِينَ كَٱلۡفُجَّارِ ۝٢٨﴾ [ص: ٢٨].

٤ ـ عدم فتح باب التمني والرجاء الكاذب للعصاة بظنهم أنهم أهل الإيمان الداخلون فيما وعد به المؤمنون.

إن العصاة لا يصح أن يقال عنهم بإطلاق إنهم مؤمنون، لأن وصف الإيمان

اسم مدح رتب الله ﷻ عليه دخول الجنة. قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ [التوبة: ٧٢]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾﴾ [الحديد: ١٢]، والعصاة ليسوا من أهل هذا الوعد بل هم تحت المشيئة.

والسلف يمنعون أن يوصف العصاة بالإيمان المطلق، فلا يقال عنهم مؤمنون بإطلاق وإنما يقال عن العاصي مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته، أو مؤمن عاص. وذلك حتى لا يظن في نفسه أو يغرر به الشيطان أنه من أهل الوعد مع أن حقيقته أقرب إلى الوعيد بسبب عصيانه وانحرافه، وهذا له دور كبير في تنبيه العاصي وتخويفه لعله يقلع عن ذنبه ويثوب إلى رشده ويستقيم على أمر ربه.

٥ ـ إثبات أصل الإيمان للعصاة وتصحيح إسلامهم وعدم تكفيرهم.

العصاة لهم إيمان وهم مسلمون، وفسقهم لا ينافي إسلامهم، وقول السلف في الإيمان يثبت لهم ذلك، وذلك أمر مهم جداً حتى يندرجوا في عداد المسلمين وتصح أيضاً عباداتهم وقرباتهم التي أتوا بها على وجه صحيح، لأن فسقهم بناء على قول السلف لم يخرجهم من الإيمان ولا يصح أن يحكم عليهم بالكفر بسببه.

٦ ـ فتح باب الرجاء للعصاة وعدم تقنيطهم من رحمة الله ﷻ لوجود أصل الإيمان معهم.

من آثار مذهب السلف أنه يفتح باب الرجاء في رحمة الله تعالى للعصاة، وأنه لا يقنطهم من رحمة الله ﷻ، وهذا له دور كبير في أن الفاسق يشعر بأنه غير مطرود، وأن حباله ممدودة، وأن سبل نجاته متيسرة، وما عليه إلا أن يحطم أغلال هواه وينتشل نفسه من أسر شيطانه فيسلك سبيل الصالحين، ويدرج على خطى المؤمنين ليكون من عباد الله المتقين الصالحين.

١١ المخالفون لأهل السنة في مسمى الإيمان:

اختلف الناس في مسمى الإيمان على أقوال نوجزها فيما يأتي:

١ ـ الإيمان مجرد معرفة القلب، وأنه لا يتبعض ولا يتفاضل أهله فيه، وهو قول الجهمية[١].

---

(١) انظر: مقالات الإسلاميين (١/٢١٣ ـ ٢١٤).

٢ ـ الإيمان قول اللسان دون القلب، وهو قول الكَرَّامية[(١)]:

٣ ـ الإيمان هو التصديق القلبي، ومنهم من قال إنه لا يزيد ولا ينقص كالباقلاني والجويني والرازي وعليه أكثر الماتريدية[(٢)]. ومنهم من قال: إن التصديق القلبي يقبل الزيادة والنقصان من حيث القوة والضعف لوضوح الأدلة والبراهين، وقال بهذا الإيجي والغزالي[(٣)].

فجميع هذه الطوائف أخرجت العمل من مسمى الإيمان، فبالتالي أنكروا زيادة الإيمان ونقصانه، ومن قال بالزيادة والنقصان فإنما نظر إلى تصديق القلب يقوى ويضعف بقوة الأدلة ووضوح البراهين، وهذا وإن كان وجهاً في الزيادة والنقصان في الإيمان إلا أنه ليس هو المقصود فقط في كلام السلف، بل الزيادة والنقصان في كلامهم تقع على ما في القلب والجوارح[(٤)].

٤ ـ الإيمان التصديق والإقرار، وهو قول أبي حنيفة ومن تبعه من الفقهاء وهم مرجئة الفقهاء[(٥)].

٥ ـ الإيمان هو جميع الطاعات الواجبة وهو لا يزيد ولا ينقص[(٦)]، ومن أخل بشيء من الواجبات أو ارتكب شيئاً من المنهيات فقد خرج من الإسلام ودخل في الكفر عند الخوارج، وأما المعتزلة فعندهم أنه خرج من الإسلام ولم يدخل الكفر فهو في منزلة بين المنزلتين[(٧)].

(١٢) لوازم تعريف الإيمان عند الكرامية والجهمية:

يلزم على تعريف الكرامية أن يكون المنافقون مؤمنين كاملي الإيمان، ولكن قالوا إنهم مستحقون الوعيد الذي أوعدهم به وهو قول فاسد.

ويلزم على تعريف الجهمية للإيمان بأنه معرفة بالقلب أن فرعون وقومه كانوا

---

(١) انظر: مقالات الإسلاميين (١/ ٢٢٣)، والإرشاد للجويني (ص٣٩٦).

(٢) انظر: التمهيد للباقلاني (ص٣٨٨)، والإرشاد للجويني (ص٣٣٥)، والمحصل للرازي (ص٥٧٠)، والماتريدية (ص٤٥٣)، ومذكرة العقيدة للخلف (ص٥٥).

(٣) قواعد العقائد (ص٢٣٦، ٢٦٣)، والمواقف للإيجي (ص٣٨٨).

(٤) مذكرة العقيدة للخلف (ص٦٦).

(٥) مقالات الإسلاميين (١/ ٢١٩ ـ ٢٢١).

(٦) انظر: كتاب الإيمان لأبي عبيد (ص١٠١)، ومقالات الإسلاميين (١/ ١٦٨)، وأصول الدين للبغدادي (ص٢٤٩).

(٧) مذكرة العقيدة للخلف (ص٦٦).

مؤمنين فإنهم عرفوا صدق موسى ولم يؤمنوا به، ولهذا قال موسى لفرعون: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء: ١٠٢]، ويلزم أن أهل الكتاب مؤمنون بمحمد ﷺ فإنهم كانوا يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ولكنهم به كافرون، ويلزم أن أبا طالب مؤمن لأنه كان يعترف بالرسول وإنما ترك الإيمان خشية العار، قال: لولا الملامة أو حذار مسبة لوجدتني سمحاً محباً مبيناً.

ويلزم عليه أن إبليس مؤمن كامل الإيمان لأنه لم يجهل ربه بل هو عارف به، قال الله تعالى حكاية عنه: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الحجر: ٣٦]، وخلاصة الكلام أنه يلزم أن فرعون وقومه وأهل الكتاب وأبا طالب وإبليس كلهم مؤمنون لأن كل أولئك معترفون بقلوبهم، ولكنهم مع ذلك لم يكونوا مؤمنين بل كفروا وكانوا أشد عداوة لله.

١٣ آثار قول المرجئة في مسمى الإيمان[١]:

إن قول المرجئة الذين أخرجوا العمل عن مسمى الإيمان له آثار ولوازم فاسدة من أهمها:

أ ـ مخالفة كلام الله ﷻ وكلام رسوله ﷺ في تحديد الإيمان ووصفه:

المرجئة زعموا أن الإيمان هو التصديق فقط أو التصديق مع القول على قول بعضهم، وهذا أخذ ببعض الكتاب وترك للبعض الآخر، إذ هو أخذ للنصوص التي ذكرت أن الإيمان هو ما في القلوب، مثل قوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾ [المجادلة: ٢٢]، أو الآيات التي تضمنت ذكر قول اللسان وذلك في مثل قوله ﷺ: (**أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فمن قال لا إله إلا الله فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله**)[٢]، وتركوا النصوص التي تجعل الأعمال من ضمن الإيمان مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الحجرات: ١٥]، وقوله ﷺ: (**الإيمان بضع وسبعون شعبة، فأعلاها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان**)، ونحوه من الأحاديث التي أدخلت العمل في الإيمان.

---

(١) مذكرة العقيدة للخلف (ص٦٣ ـ ٦٥).

(٢) أخرجه البخاري (١٣٩٩)، ومسلم (١٢٤).

كما خالفوا كلام الشارع في وصف الإيمان بأنه يزيد وينقص، حيث وردت آيات وأحاديث عديدة في وصف الإيمان بأنه يزيد وينقص، فخالفها المرجئة فزعموا أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص وليس لهم في ذلك مستند شرعي.

ب ـ زعمهم أن الفاسق مؤمن كامل الإيمان ومنهم من يدخل النار يوم القيامة.

المرجئة زعموا أن الفاسق لما أتى بالتصديق فهو مؤمن كامل الإيمان، وإن ارتكب من المعاصي ما ارتكب وعندهم كما سبق أن العصاة يوم القيامة تحت المشيئة، ومنهم من يدخل النار كما ثبت بالأحاديث، وهذا يلزم منه أن يدخل العصاة أو بعضهم النار مع أنهم مؤمنون كاملو الإيمان، وهذا خلاف ما وعد الله به المؤمنين في مثل قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ [التوبة: ٧٢].

جـ ـ وصفهم الفساق بصفة المدح والثناء وهي الإيمان.

المرجئة زعموا أن الفاسق مؤمن كامل الإيمان. ووصف الإيمان وصف مدح وثناء رتب الله عليه الجنة، وهو مثل: بر وتقي وصالح، مع أن الفساق ليسوا كذلك بل ورد في الشرع ذمهم لتلبسهم بالأعمال المحرمة، فكيف يستقيم أن يكون ممدوحاً على جهة الكمال والتمام وهو في نفس الوقت مذموم.

د ـ مساواتهم بين أفسق الناس وأتقى الناس في الإيمان.

المرجئة جعلوا الإيمان شيئاً واحداً أو من شيئين لا يتفاوت أهله فيه، فبالتالي من أنفق ساعاته وحياته كلها في معاصي الله ﷻ، والوقوع فيما حرمه الله، وهو مقر بالربوبية والألوهية ومصدق للنبي ﷺ في الرسالة فإيمانه مثل إيمان جبريل وميكائيل وسائر الأنبياء عليهم السلام. ولا شك أن المساواة بين أفسق الناس وأتقى الناس قول باطل.

هـ ـ تهاونهم بأعظم الأصول الدينية وهو توحيد الألوهية.

لما زعم المرجئة أن العمل ليس داخلاً في أصل الإيمان أخرجوا في كلامهم عن التوحيد ما له علاقة بالعمل وهو توحيد الألوهية، فتراهم في تعريفهم وذكرهم للتوحيد لا يذكرون سوى الربوبية والأسماء والصفات لتعلقهما بالاعتقاد، ويهملون ذكر توحيد الألوهية، ويبدو أن هذا من آثار تعريفهم للإيمان.

وتوحيد الألوهية هو الغاية التي من أجلها خلق الإنسان، وهو أعظم مطالب الشريعة، مع ذلك أهمله المرجئة، وكفى بهذا أثراً فاسداً لقولهم في الإيمان أنه التصديق دون العمل.

(١٤) أدلة مرجئة الفقهاء والرد عليها:

من أدلة مرجئة الفقهاء ما يلي:

أولاً: أنه في كثير من الأوقات يرتفع العمل عن المؤمن، فلا يجوز أن يقال ارتفع عنه الإيمان[١].

ثانياً: أن النبي ﷺ دعا الناس إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله والإقرار بما جاء به من الله تعالى، وكان الداخل في الإسلام مؤمناً بريئاً من الشرك، ثم نزلت الفرائض بعد ذلك على أهل التصديق[٢].

ثالثاً: أن المضيع للعمل ليس مضيعاً للتصديق؛ فلو كان المضيع للعمل مضيعاً للتصديق لانتقل من اسم الإيمان بتضييعه العمل[٣].

رابعاً: أن الهدى في التصديق ليس كالهدى في الأعمال، قال الإمام أبو حنيفة: «إن الهدى في التصديق بالله ورسوله ليس كالهدى فيما افترض من الأعمال»[٤].

خامساً: أن الإيمان في اللغة التصديق، وعمدتهم في ذلك قول الله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا﴾ [يوسف: ١٧]، أي: بمصدق لنا.

قال النسفي: «الإيمان معروف أنه عند أهل اللسان التصديق لا غير»[٥].

وحكى الباقلاني الإجماع عليه فقال: «فإن قال: وما الدليل على ما قلتم؟ قيل: إجماع أهل اللغة قاطبة على أن الإيمان في اللغة قبل نزول القرآن وبعثة النبي ﷺ هو التصديق»[٦].

سادساً: أن الله فرّق بين الإيمان وبين كل عبادة بالاسم المعطوف عليه ما فرّق بين العبادات بالأسماء المعطوفة المفعولة لها، على ما قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا

---

(١) كتاب الوصية مع شرحها (ص٦).
(٢) رسالة أبي حنيفة إلى عثمان البتي (ص٣٥).
(٣) المصدر السابق.
(٤) رسالة أبي حنيفة إلى عثمان البتي (ص٣٥).
(٥) تبصرة الأدلة [ق ـ ٣٤٦/أ]، وانظر: التمهيد (ص٩٩ ـ ١٠٠)، وانظر: كتاب التوحيد للماتريدي (ص٣٧٣ ـ ٣٧٧)، والعمدة لحافظ الدين النسفي [١٧/أ]، والبداية للصابوني (ص١٥٢)، وشرح العقائد النسفية (ص١١٩ ـ ١٢٣)، وشرح المقاصد (٥/٢١٧٦) كلاهما للتفتازاني، ونشر الطوائع (ص٣٧٣ ـ ٣٧٤).
(٦) التمهيد للباقلاني (ص٣٤٦ ـ ٣٤٧).

يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [التوبة: ١٨]. فقد عطف إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة على الإيمان، ولا شك في ثبوت المغايرة بين المعطوف والمعطوف عليه»(١).

سابعاً: قول النسفي: «ويدل عليه لو أن رجلاً آمن بالله ورسوله ضحوة ومات قبل الزوال يكون من أهل الجنة، ولو كان العمل من الإيمان لا يكون من أهل الجنة، لأنه لم يوجد منه ذلك»(٢).

ثامناً: أن الله تعالى خاطب المؤمنين باسم الإيمان، ثم أوجب الأعمال على ما قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٣]»(٣).

تاسعاً: أن الله تعالى قال في الكفرة: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨].

والانتهاء عن الكفر يكون بالإيمان، ولو كانت الأعمال كلها إيماناً، لم يكن المنتهي عن الكفر منتهياً عنه ما لم يأت بجميع الطاعات، وإذا ثبت الانتهاء بالتصديق وحصلت له المغفرة عما سلف به دل أنه هو الإيمان(٤).

عاشراً: أن الله تعالى قال: ﴿إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٠٠].

«ثبت أن الإيمان هو الذي به ترك الكفر، والكفر هو الذي به ترك الإيمان»(٥).

الحادي عشر: لو قلنا: إن الأعمال داخلة في حقيقة الإيمان، لزم أن يزول الإيمان بزوال بعض الأعمال ولزم تكفير مرتكب الكبيرة(٦).

الثاني عشر: أن النبي ﷺ لما سأله جبريل صلوات الله عليه عن الإيمان، ما أجاب عنه إلا بالتصديق حيث قال: (**أن تؤمن بالله وملائكته**.. ولم يذكر فيه إلا . . . التصديق، ثم قال: **هذا جبريل أتاكم يعلمكم أمر دينكم**)(٧).

---

(١) التمهيد للنسفي (ص٩٩ ـ ١٠٠)، وتبصرة الأدلة [ق٣٣٦/أ ـ ب]، وشرح العقائد النسفية (ص١٢٣ ـ ١٢٤).

(٢) بحر الكلام (ص٣٩).

(٣) تبصرة الأدلة [ق ـ ٣٧٥/أ].

(٤) تبصرة الأدلة [ق ـ ٣٧٥/أ].

(٥) تبصرة الأدلة [ق ـ ٣٧٦/أ].

(٦) تبصرة الأدلة [ق ـ ٣٧٦/أ] بتصرف.

(٧) أخرجه البخاري (ص٥٠).

ولو كان الإيمان اسماً لما وراء التصديق، لكان أتى ليلبس عليهم أمر دينهم، لا ليعلمهم، وكان النبي ﷺ قصر في الجواب[١].

الثالث عشر: إن ضد الإيمان هو الكفر، والكفر هو التكذيب والجحود، يصدقه أن الله تعالى قابَل الكفر بالإيمان فقال: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

ثم المراد منها التكذيب والتصديق، فدل أن الإيمان ذلك[٢] يعني[٣]: أن الإيمان هو التصديق.

الجواب عن الأدلة:

أولاً: قولهم: في كثير من الأوقات يرتفع العمل عن المؤمن ولا يجوز أن يقال ارتفع عنه الإيمان.

هذا القول فيه نظر، إذ العمل لا يرتفع عن المؤمن كلية، بل قد يرتفع عمل دون عمل، وكون الحائض يرتفع عنها عمل الصلاة والصوم، ليس معناه أن جميع الأعمال التي قد كلفت بها قد ارتفعت، ثم يقول القائل: إن إيمانها قد ارتفع. كلا فإن الحائض لم تترك الصلاة ولن تترك العمل إلا استجابة لأمر الله، وهذا في حد ذاته عمل منها، لأن الأعمال تنقسم إلى قسمين: عمل تركي، وعمل مأتي. فكون الحائض قد تركت الصلاة استجابة لأمر الله فالعمل ما زال قائماً في حقها، ثم إن المرأة إذا حاضت لا يرتفع عنها جميع الأعمال التي كلفت بها، بل جميع الأعمال التكليفية تؤديها كما كانت تؤديها إبان طهرها، إذاً العمل في حقها ما فتئ مستمراً لم يرتفع بحيضها ولا بطهرها.

وأيضاً يقال: إن الصلاة سماها الله إيماناً في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣].

وهي من أعظم شعب الإيمان، والإيمان كما قال النبي ﷺ: **(الإيمان بضع وستون شعبة، والحياء من الإيمان)**[٤].

---

(١) تبصرة الأدلة [ق ـ ٣٣٦، ٣٣٧]. (٢) تبصرة الأدلة [ق ـ ٣٦٦/أ].

(٣) توضيحه أنهم قالوا: الإيمان ضد الكفر والكفر هو التكذيب والتكذيب محله القلب: فالنتيجة: أن الإيمان يكون في القلب لأنه ضد الكفر والذي يكون في القلب هو التصديق لا الأعمال لأن محلها الجوارح فالإيمان هو التصديق والقول بأن الكفر والإيمان لا يكونان إلا بالقلب هو قول الجهمية، انظر: شرح الطحاوية بتعليق العدني (ص٥١١).

(٤) أخرجه البخاري (٩).

إذاً فقد رفع عن الحائض بعض شعب الإيمان بحكم الشرع، ومع ذلك فهو نقص في دينها كما قال النبي ﷺ: **(ما رأيت من ناقصات عقل ودين أغلب لذي لب منكن)**، قالت: يا رسول الله وما نقصان العقل والدين؟ قال: **(أما نقصان العقل فشهادة امرأتين تعدل شهادة رجل فهذا نقصان العقل، وتمكث الليالي ما تصلي وتفطر في رمضان فهذا نقصان الدين)**[1].

ثانياً: قولهم: «إن النبي ﷺ دعا الناس إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله والإقرار بما جاء به من الله تعالى، وكان الداخل في الإسلام مؤمناً بريئاً من الشرك ثم نزلت الفرائض بعد ذلك على أهل التصديق».

جوابه من ثلاثة أوجه:

١ ـ أنه فرضت قبل فرض الصلاة والزكاة والصوم أعمال شرعية غير الشهادتين، كالصدق وإيفاء الوعد وتجنب الحرام كارتكاب الزنى وأكل مال اليتيم وغير ذلك.

٢ ـ إن الشهادتين مقتضاهما العمل، والعمل هو ترك عبادة ما سوى الله وإفراده وحده بالعبادة لأنه الإله الحق المحبوب المطاع الذي يستحق أن يعبد وحده فلا يعصى، ويخص بنهاية الحب والخضوع والذل، وأما ما عداه مما عبده الناس فآلهة زائفة باطلة صنعتها الجهالة والأوهام فيجب البراءة منها؛ وممن عبدها من دون الله تعالى، قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ [الممتحنة: ٤].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾﴾ [الزخرف: ٢٧].

فإخلاص العبادة لله تعالى والكفر بالطواغيت والبراءة منها وممن عبدها من أعظم الأعمال، بل هذا أعظم من الفرائض العملية الظاهرة، بل التصديق بدون هذا غير معتد به.

٣ ـ إن الرسول ﷺ كما دعا إلى الإقرار به وبما جاء به، دعا إلى اتباعه، والتزام طاعته؛ لأن الإقرار وحده بدون التزام متابعة الرسول ﷺ وطاعته لا يحصل به الدخول في الإسلام ولا ينجو به من العذاب، فصح أن العمل من مقومات الإيمان وأنه لا إيمان بدون جنس العمل.

---

(١) أخرجه مسلم (١٣٢).

ثالثاً: قولهم: فلم يكن المضيع للعمل مضيعاً للتصديق، وقد أصاب التصديق بغير عمل، ولو كان المضيع للعمل مضيعاً للتصديق لانتقل من اسم الإيمان وحرمته لتضييعه العمل.

جوابه من وجهين:

١ ـ أن يقال: إن أراد تضييع العمل مطلقاً فقد تقدم أن التصديق المجرد لا يحصل به الإيمان، فلا ينفع التصديق إذاً مع تضييع العمل مطلقاً، فإن من الأعمال ما يزول الإيمان بزواله مثل محبة الله ورسوله وبغض الشرك وأهله بالبراءة منه، وكذلك الصلاة يزول الإيمان بتركها عند كثير من المحققين من أهل العلم، كأحمد بن حنبل والأوزاعي وسفيان الثوري وابن المبارك وإسحاق بن راهويه وغيرهم[١].

وإن أراد عملاً دون عمل، فمعلوم أنه لا يرفع العمل عنه أصل الإيمان بتضييع أي عمل وليس من شرط وجود الإيمان ألا يرتكب معصية.

٢ ـ أن المسلم لا يتصور منه أن يترك العمل مطلقاً بل لا بد أن يعمل شيئاً من الأعمال الظاهرة كالإحسان والصدق والبر وصلة الأرحام، فإذا فرض أن شخصاً لا يعمل مطلقاً أي عمل كان، فهذا ليس بمصدق تصديقاً يدخله في عداد المؤمنين، بل يكون في الحقيقة من المكذبين كما قال تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنعام: ٣٣].

رابعاً: قولهم: إن الهدى في التصديق بالله ورسوله ليس كالهدى فيما افترض من الأعمال.

خامساً: قولهم: إن الإيمان في اللغة التصديق، ثم حكوا الإجماع عليه، فالجواب عنه من وجوه:

١ ـ دعوى أن الإيمان مرادف للتصديق ممنوع لما يأتي:

أ ـ أنه يقال للمخبر إذا صدق: صدقت ولا يقال آمنت[٢].

ب ـ أن كل مخبر عن مشاهدة أو غيب يقال له في اللغة: صدقت، كما يقال: كذبت، فمن قال: السماء فوقنا قيل له: صدق كما يقال: كذب، وأما لفظ الإيمان فلا يستعمل إلا في الخبر الغائب[٣].

---

(١) انظر: اعتقاد السلف أصحاب الحديث (ص٧٦)، وكتاب الصلاة لابن القيم (ص١٦ ـ ٢٠).

(٢) مجموع الفتاوى (٧/ ٢٩٠) بتصرف. (٣) مجموع الفتاوى (٧/ ٢٩١).

ج ـ أن لفظ الإيمان في اللغة لم يقابل بالتكذيب كلفظ التصديق، فإنه من المعلوم في اللغة أن كل مخبر يقال له: صدقت أو كذبت، ويقال: صدقناه أو كذبناه، ولا يقال لكل مخبر: آمنا له أو كذبناه[١].

د ـ وأما استدلالهم بقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾ [يوسف: ١٧].

فليس في الآية ما يدل على أن المصدق مرادف للمؤمن، فإن صحة هذا المعنى بأحد اللفظين لا يدل على أنه مرادف للآخر[٢].

٢ ـ ولو سلمنا جدلاً أن الإيمان في اللغة هو التصديق، فالألفاظ الشرعية الواردة في الكتاب والسنة كالإيمان والإسلام والصلاة والزكاة والحج وغيرها ليست على معانيها اللغوية المطلقة، بل زاد فيها الشرع قيوداً لا تخرج بها هذه الأسماء عن معناها في اللغة، فمثلاً الصلاة في اللغة الدعاء لكن في الشرع عبارة عن الأفعال والأقوال المخصوصة في أوقات مخصوصة بشروط مخصوصة، وإن كانت مشتملة على الدعاء. فهكذا الإيمان الشرعي مشتمل على التصديق بالجَنان والعمل بالأركان والإقرار باللسان. ولا شك أن بين المعنى اللغوي والمعنى الشرعي مناسبة بالعموم والخصوص؛ لأن المعنى الشرعي أخص من المعنى اللغوي، ومعلوم أن الإيمان ليس هو التصديق بكل شيء مخصوص وهو ما أخبر به الرسول ﷺ، وحينئذٍ فيكون الإيمان في كلام الشارع أخص من الإيمان في اللغة[٣].

٣ ـ أن دعوى الإجماع على كون الإيمان في اللغة التصديق ممنوعة وذلك لما يأتي:

أ ـ نعم نقل الإجماع الباقلاني في كتابه التمهيد، لكن من سلفه في هذا؟ وكيف يعلم هذا الإجماع؟[٤]

ب ـ إن كان يعني بالإجماع إجماع أهل اللغة فهل مراده نقلتها كأبي عمرو والأصمعي والخليل ونحوهم، أو مراده المتكلمون بهذا اللفظ؟

فإن عنى الأول فهؤلاء لا ينقلون كل ما كان قبل الإسلام، وإنما ينقلون ما سمعوه من العرب في زمانهم وما سمعوه في دواوين الشعر وكلام العرب، ولا

---

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ٢٩٢) بتصرف.
(٢) مجموع الفتاوى (٧/ ١٢٦) بتصرف.
(٣) مجموع الفتاوى (٧/ ١٢٧) بتصرف.
(٤) المصدر السابق.

نعلم فيما نقلوه لفظ الإيمان فضلاً عن أن يكونوا أجمعوا عليه. وإن عنى المتكلمين بهذا اللفظ قبل الإسلام، فهؤلاء لم نشهدهم ولا نقل لنا أحد عنهم ذلك[١].

ج ـ أنه لا يعرف عن هؤلاء جميعهم أنهم قالوا: الإيمان في اللغة هو التصديق، بل ولا عن بعضهم، وإن قدر أنه قاله واحد أو اثنان فليس هذا إجماعاً[٢].

د ـ أن يقال: هؤلاء لا ينقلون عن العرب أنهم قالوا: معنى هذا اللفظ كذا وكذا، وإنما ينقلون الكلام المسموع من العرب، وأنه يفهم منه كذا كذا، وحينئذٍ، فلو قدر أنهم نقلوا كلاماً عن العرب يُفهم أن الإيمان هو التصديق، لم يكن ذلك أبلغ من نقل المسلمين كافة للقرآن عن النبي ﷺ. وإذا كان مع ذلك قد يظن بعضهم أنه يريد به معنى ولم يرده، فظن هؤلاء ذلك فيما نقلوه عن العرب أولى[٣].

هـ ـ أنه لو قدر أنهم قالوا هذا، فهم آحاد لا يثبت بنقلهم التواتر، والتواتر من شرطه استواء الطرفين والواسطة، وأين الموجود عن العرب قاطبة قبل نزول القرآن في أنهم كانوا لا يعرفون للإيمان معنى غير التصديق[٤].

و ـ أنه لم يذكر شاهداً من كلام العرب على ما ادعاه عليهم[٥].

سادساً: قولهم: إن الله فرّق بين الإيمان والعمل في غير موضع من القرآن الكريم...

الجواب:

التشبث بالمغايرة في جعل الإيمان تصديقاً وجعل الأعمال خارجة عنه باطل؛ لأن العطف بين شيئين يقتضي مغايرة ما، لا كل المغايرات، فيكفي في العطف بين شيئين نوع من المغايرة، كالمغايرة بين الكل والجزء، والخاص والعام، والمطلق والمقيد، فيجوز عطف الأعمال على الإيمان؛ لأن الإيمان كل والأعمال جزء منه فتتحقق المغايرة، فكيف يستدلون بالعطف على إخراج الأعمال من الإيمان، والعطف لا يقتضي ذلك فيكون تشبثهم بالعطف في غير محله ولا يتم لهم المقصود، وبمثل ما ذكرت أجاب أئمة السنة أمثال أبي يعلى وشيخ

---

(١) المصدر السابق.

(٢) مجموع الفتاوى (٧/ ١٢٣).

(٣) مجموع الفتاوى (٧/ ١٢٣، ١٢٤).

(٤) مجموع الفتاوى (٧/ ١٢٤).

(٥) مجموع الفتاوى (٧/ ١٢٥).

الإسلام وغيرهما، وحاصل ما قالوه: أن الله عطف الأعمال الصالحة والعطف يقتضي المغايرة، فيقال لهم هذا غير صحيح فإن الله عطفها على الإيمان من باب عطف الخاص على العام كقوله تبارك وتعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبۡرِيلَ﴾ [البقرة: ٩٨].

ومن المعلوم قطعاً أن جبريل وميكال من جنس الملائكة، ولو كان العطف يقتضي المغايرة كما قالوا لكان جبريل من جنس آخر، وهذا لم يقل به أحد من السلف، إلى غير ذلك من الأمثلة التي تناقض ذلك، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٨].

ومن المعلوم أن الصلاة الوسطى من جنس باقي الصلوات، فلو كان العطف يقتضي المغايرة بين المعطوف والمعطوف عليه لكانت الصلاة الوسطى غير باقي الصلوات، وهذا خلاف المعروف والمعلوم[(١)].

والحاصل أن عطف الأعمال في بعض النصوص لا يدل على خروج الأعمال عن حقيقة الإيمان ومسمَّاه، فتشبُّث هؤلاء بشبهة العطف لا يفيدهم إخراج الأعمال عن مسمَّى الإيمان وحقيقته.

سابعاً: قول النسفي: لو أن رجلاً آمن بالله ورسوله ضحوة ومات قبل الزوال يكون من أهل الجنة، ولو كان العمل من الإيمان لا يكون من أهل الجنة لأنه لم يوجد منه ذلك.

قلت: هذا لا يدل على كون الإيمان هو التصديق فقط، لأن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها، فمن صدق بالقلب ولم يجد فرصة للإقرار بأن كان أبكم مثلاً فهو مؤمن، وكذا لو صدق وأقر ومات على الفور فهو مؤمن، لأنه التزم شرائع الإيمان وعزم على العمل بالأركان، فهذا يعتبر في حقه كأنه عمل بالأركان، غير أنه لم يجد فرصة. فمثل هذا كيف يكون حجة بأن الإيمان هو التصديق فقط، وهذا ظاهر لمن وفقه الله للهداية.

ثامناً: قول بعضهم: إن الله تعالى خاطب المؤمنين باسم الإيمان ثم أوجب عليهم الأعمال.

أجاب عن هذا الإشكال شيخ الإسلام ابن تيمية حيث قال: «وبهذا يظهر

---

(١) راجع مسائل الإيمان لأبي يعلى (ص٢٤١ ـ ٢٤٢)، ومجموع الفتاوى (٧/ ١٧٩ ـ ١٧٨).

الجواب عن قولهم: خوطبوا بالإيمان قبل الأعمال. فنقول: إن قلتم: إنهم خوطبوا قبل أن تجب تلك الأعمال فقبل وجوبها لم تكن من الإيمان، وكانوا مؤمنين الإيمان الواجب عليهم قبل أن يفرض عليهم ما خوطبوا بفرضه، فلما نزل إن لم يقروا بوجوبه لم يكونوا مؤمنين، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧].

ولهذا لم يجئ ذكر الحج في أكثر الأحاديث التي فيها ذكر الإسلام والإيمان.. وذلك لأن الحج آخر ما فرض من الخمس، فكان قبل فرضه لا يدخل في الإيمان والإسلام، فلما فرض أدخله النبي ﷺ في الإيمان إذا أفرد، وأدخله في الإسلام إذا قرن بالإيمان وإذا أفرد...»[(١)].

تاسعاً: قولهم: إن الله تعالى قال في الكفرة: ﴿إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨]. والانتهاء عن الكفر يكون بالإيمان ولو كانت الأعمال كلها إيماناً لم يكن المنتهي عن الكفر منتهياً عنه ما لم يأت بجميع الطاعات...

فالجواب عنه:

إن معنى قول الله تعالى: ﴿إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا۟ فَقَدْ مَضَتْ﴾ [الأنفال][(٢)]. أن هؤلاء المشركين والكفرة إن تابوا إلى الله عن شركهم وكفرهم وقتال المؤمنين وعداوتهم ودخلوا في الإسلام والتزموا الطاعة وانقادوا لأوامر الله، يغفر لهم ما قد سلف من الكفر والشرك.

وليس معنى الآية: أن الله تعالى لا يغفر لهم إلا أن يأتوا بجميع الطاعات دفعة واحدة في آن واحد؛ لأن هذا ليس في استطاعة البشر، فلا يستطيع أحد أن يأتي بطاعات جميع العمر دفعة واحدة، وإنما عليهم أن يلتزموا الطاعة وينقادوا ويتعهدوا الإتيان بالأوامر واجتناب النواهي، وهذه التوبة وهذا الالتزام هما من الأعمال، وهما شرط في مغفرة ما قد سلف منهم، ولا مخرج لهم من الكفر إلا بذلك، فيلزم أن تكون هذه الأعمال من الإيمان، وعلى هذا فالآية حجة عليهم لا لهم، وهي كذلك لا تنفي تسمية سائر الأعمال إيماناً.

---

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ١٩٦ ـ ١٩٧).

(٢) انظر: تفسير هذه الآية في جامع البيان للطبري (٩/ ٢٤٧)، ومعالم التنزيل (٢/ ٢٤٨)، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير (٢/ ٣٠٩)، وتيسير الكريم الرحمن (٣/ ١٦٧)، وتفسير القاسمي (٨/ ٥٥).

فالحاصل أن هذه الآية لا تدل على خروج الأعمال عن الإيمان كما قال أنها لا تدل على الإتيان بجميع المأمورات دفعة واحدة، وإنما فيها بيان لشرط العفو عنهم والمغفرة لهم، وهو أن يتوبوا من الشرك والكفر ويدخلوا في الإسلام ويخضعوا لأوامر الله تعالى وينقادوا لحكمه.

عاشراً: قولهم: إن الله تعالى قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾﴾ [آل عمران: ١٠٠]. ثبت أن الإيمان هو الذي به ترك الكفر. . .

فالجواب عنه:

أن الله تعالى نهى المؤمنين عن طاعة الكفار، وحذرهم من موالاتهم وحبهم؛ لأن هذا سبيل لارتدادهم عن الإسلام[١].

ولا شك أن الإيمان هو الذي به ترك الكفر، وأن الكفر هو الذي به ترك الإيمان، وكلاهما لا يجتمعان.

ولكن أين في هذه الآية الكريمة ما يدل على أن الإيمان تصديق بالقلب فقط، وأن الأعمال ليست من حقيقة الإيمان، وأنها خارجة عن مسمَّاه؟ بل الآية تدل على خلاف ما زعموه؛ لأن طاعة أهل الكتاب من اليهود والنصارى وطاعة غيرهم من الكفرة قد تحقق في الأعمال فيكون بذلك مرتداً عن دين الإسلام، وإن كان يعتقد أن دين الإسلام حق كما وقع من أمثال أبي طالب وهرقل وغيرهما فهؤلاء قد أطاعوا الكفار، وصاروا بذلك كافرين مع بقاء تصديقهم بقلوبهم بل وبألسنتهم، فكان كفرهم بالأعمال، فكيف يقال: إن الإيمان هو التصديق وأن الأعمال ليست من مسمَّاه.

الحادي عشر: قولهم: لو قلنا: إن الأعمال داخلة في حقيقة الإيمان لزم أن يزول الإيمان بزوال بعض الأعمال، ولزوم تكفير مرتكب الكبيرة. .

فالجواب عنه من وجهين:

١ ـ أن الأعمال جزء من حقيقة الإيمان، والإيمان كلٌّ له أجزاء ثلاثة فهو مركب منها:

---

(١) انظر: تفسير هذه الآية في جامع البيان (ص٢٤، ٢٥)، وتفسير القرآن العظيم (٢/ ٨١)، وزاد المسير (١/ ٤٣٠)، وتيسير كلام المنان (١/ ٤٠٤)، والمنار (٤/ ١٧).

الأول: التصديق بالجنان.

الثاني: الإقرار باللسان.

الثالث: والعمل بالأركان.

ولا شك أن العمل يتفاوت ويتجزأ، ويزيد وينقص، وبحسب الأعمال يتفاوت التصديق ويتجزأ، ويزيد وينقص.

وإذا كان الأمر كذلك فمن المعلوم أن الكل المركب من أجزاء تتفاوت وتتجزأ وتزيد وتنقص، فلا يزول بزوال بعض أجزائه. فالذي ارتكب معصية فقد نقص من عمله جزء، وبذلك قد نقص من إيمانه شيء مع بقاء شيء منه، حيث نقص إيمانه بنقص بعض عمله، وبذلك قد زال جزء من إيمانه ولم يزل كل إيمانه.

مثال ذلك أن الشجرة كلٌّ مركبة من أغصان ومع ذلك لا تزول الشجرة بزوال بعض أغصانها، وكذا الإنسان كل مركب من أجزاء لكن لا يزول الإنسان بزوال بعض أجزائه[1].

وهكذا في باب الإيمان فهو لا يزول بالكلية بزوال بعض الأعمال، وإذا تحقق هذا ثبت أنه لا يلزم تكفير مرتكب الكبيرة، كما لا يلزم مخالفة الإجماع، وظهر بطلان القول بعدم دخول الأعمال في مسمى الإيمان.

٢ ـ أن لفظ الإيمان ورد مطلقاً دخل في مفهومه الأعمال كما تدخل الأعمال في مفهوم البر والتقوى والدين إذا وردت هذه الكلمات مطلقة.

وإذا ورد مقيداً فيغاير الأعمال، وعلى هذا يقال: إذا اجتمعا افترقا وإذا افترقا اجتمعا.

فالإيمان له مرتبتان:

مرتبة الشيء المطلق، وهي مرتبة الإيمان المطلق أي الكامل، ومرتبة مطلق الشيء، وهي مرتبة مطلق الإيمان أي ما يصدق عليه الإيمان في الجملة سواء كان كاملاً أو ناقصاً، فمن وفقه الله تعالى للعمل وقوي تصديقه بالقلب وعمل ما يقتضيه إقراره باللسان فإيمانه كامل في مرتبة الشيء المطلق، أي الإيمان المطلق أي الكامل، وأما من أخل بالعمل فقد نقص إيمانه وضعف تصديقه بقلبه بقدر ما

---

(١) مجموع الفتاوى (٧/٤٠٣ ـ ٤٠٥) بتصرف. وانظر: فتح الملهم بشرح صحيح مسلم (١/ ١٥٧)، والسنة لعبد الله بن أحمد (ص٧٦)، وجامع العلوم والحكم (ص٤٣)، والإيمان لأبي يعلى (ص٢٦٤).

أخل به من العمل، ولم يستوف ما يقتضي إقراره بلسانه، فإيمانه ناقص في مرتبة «مطلق الشيء»، أي «مطلق الإيمان» أي الإيمان الناقص، فتارك العمل، ومرتكب الكبيرة لا يستحق اسم «الإيمان المطلق» الكامل لإخلاله بالعمل تصديقه ونقص إيمانه، ولنعم ما قال شيخ الإسلام في رده على هؤلاء بعدما حكى شبهتهم هذه حيث قال:

«وجواب هذا أن يقال: الذين قالوا من السلف إنهم خرجوا من الإيمان إلى الإسلام لم يقولوا: إنه لم يبق معهم من الإيمان شيء بل هذا قول الخوارج والمعتزلة، وأهل السنة الذين قالوا هذا، يقولون: الفساق يخرجون من النار بالشفاعة، وإن معهم إيماناً يخرجون به من النار، لكن لا يطلق عليهم اسم الإيمان؛ لأن الإيمان المطلق هو الذي يستحق صاحبه الثواب ودخول الجنة، وهؤلاء ليسوا من أهله وهم يدخلون في الخطاب بالإيمان...». ثم قال شيخ الإسلام: «والتحقيق أن يقال: إنه مؤمن ناقص الإيمان مؤمن بإيمانه، فاسق بكبيرته، ولا يعطى اسم الإيمان المطلق، فإن الكتاب والسنة نفيا عنه الاسم المطلق واسم الإيمان يتناوله...»(١).

الثاني عشر: قولهم: إن النبي ﷺ لما سأله جبريل صلوات الله عليه عن الإيمان ما أجاب عنه إلا بالتصديق...

فالجواب عنه:

أن يقال: إن النصوص التي ذكر فيها لفظ الإيمان والإسلام على ثلاثة أنواع:

النوع الأول: نصوص فيها ذكر الإيمان وحده كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾﴾ [الأنفال: ٢].

النوع الثاني: نصوص فيها ذكر الإسلام وحده كقوله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

النوع الثالث: نصوص فيها ذكر الإيمان والإسلام كقوله تعالى: ﴿۞ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾﴾ [الحجرات: ١٤].

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ٢٤٠ ـ ٢٤١).

فإذا عُرف هذا عُرف أيضاً أنه إذا ذكر الإيمان وحده فهو يشمل الإسلام، وكذا إذا ذكر الإسلام وحده فإنه يشمل الإيمان، وإذا ذكر الإيمان والإسلام معاً فهما يتغايران ويختلفان، فيراد بالإيمان غير ما يراد بالإسلام، فيختص الأول بما يتعلق بالقلوب، ويختص الثاني بما يتعلق بالجوارح مع ملازمة كل منهما الآخر بحيث لا ينفك أحدهما عن الآخر، وإن كانا يتفاوتان مفهوماً ومصداقاً، وهذا كما يقال: (إذا اجتمعا افترقا، وإذا افترقا اجتمعا)، أي: إذا ذكر أحدهما فقط يراد به الآخر أيضاً، وإذا ذكر معاً يراد من أحدهما غير ما يراد من الآخر مثل البر التقوى، والمسكين والفقير[1].

فالبر إن ذُكر وحده دخل فيه التقوى، وهكذا التقوى يدخل فيه البر، ولكن إذا اجتمعا يراد بالبر فعل الخير ويراد بالتقوى تجنب الشر[2].

وهكذا الحال في المسكين والفقير إذا اجتمعا أو افترقا.

ومن هنا يتبين لنا خطأ من قال: إن الإيمان غير الإسلام مطلقاً، وكذا خطأ من قال مطلقاً: إن الإيمان هو الإسلام، والصحيح: أن الإيمان إذا ذكر وحده يشمل الإسلام، وكذا الإسلام إذا ذكر وحده يشمل الإيمان، وإذا ذكرا معاً يراد من الإيمان العقائد، ويراد من الإسلام الأعمال كما في حديث جبريل.

وإذا عرف هذا تبين لك بطلان كلامهم هذا[3].

أما إلزامهم أن الأعمال لو كانت من الإيمان، لكان جبريل أتى لتلبيس الدين وكان النبي ﷺ قاصراً في الجواب.

فنقول: إن جبريل عليه السلام لم يأت لتلبيس الدين، ولم يكن النبي ﷺ قاصراً في الجواب، بل كان جبريل أتى لتعليم الدين، وكان جواب النبي ﷺ في غاية الصواب، والله المستعان.

الثالث عشر: قولهم: إن ضد الإيمان هو الكفر، والكفر هو التكذيب والجحود..

فالجواب عنه:

قوله: (الكفر هو التكذيب والجحود) فيه نظر؛ لأنه لا شك أن التكذيب

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (١٠/ ٢٧٥).
(٢) انظر: كتاب الإيمان (ص١٥٦، ١٥٧).
(٣) انظر: تفصيل هذا في كتاب الإيمان ضمن مجموع الفتاوى (٧/ ١٥٤ ـ ١٨٦).

والجحود نوعان من الكفر، لكنهما ليسا جميع الكفر، والكفر أعم من التكذيب والجحود فلا يتحقق الكفر في صورة التكذيب والجحود فقط، بل الإعراض والمخالفة والمعاداة بلا تكذيب جحود، مثل كفر أبي طالب فإنه لم يكذب ولم يجحد، ومع ذلك فهو كافر حيث أعرض عن الاعتراف بالحق، ولم يظهره.

وأما قوله: «إن التكذيب والجحود يكونان بالقلب فكذا ما يضادهما وهو الإيمان يكون بالقلب».

فأول من عُرف عنه هذا القول هو الجهم بن صفوان، فقد قال: «إن الإيمان والكفر لا يكونان إلا بالقلب دون غيره من الجوارح»[(١)].

وهذا قول فاسد، والحق أن الكفر كما يكون بالقلب، كذلك يكون باللسان والجوارح، وهذا التكذيب كما يكون بالقلب، كذلك يكون باللسان والجوارح، لأن كثيراً من صناديد الكفار من مشركي قريش كانوا يكفرون ويكذبون باللسان فقط مع تصديقه للرسول ﷺ بقلوبهم، عناداً منهم وجحوداً واستكباراً بل لو قيل: إن الجحود لا يكون بالقلب فقط بل وباللسان لكان هو الصواب، فإن فرعون وأمثاله كانوا مستيقنين في أنفسهم وإن جحدوا بألسنتهم، كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾ [النمل: ١٤].

وقال تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنعام: ٣٣].

فالمؤمنون يصدقون بالقلوب وباللسان وبالجوارح، والكفار يكذبون باللسان، والمنافقون يصدقون بالألسنة ويكذبون بالقلوب.

ثم إن لفظ الإيمان لا يقابل التكذيب فقط، وفي هذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «إن لفظ الإيمان في اللغة لم يقابل بالتكذيب كلفظ التصديق، فإنه من المعلوم في اللغة أن كل مخبر يقال له: صدقت أو كذبت، ويقال: صدقناه أو كذبناه، ولا يقال لكل مخبر: آمنا له أو كذبناه ولا يقال: أنت مؤمن له، أو مكذب له، بل المعروف في مقابلة الإيمان لفظ الكفر يقال: هو مؤمن أو كافر، والكفر لا يختص بالتكذيب بل لو قال: أنا أعلم أنك صادق، لكن لا أتبعك بل أعاديك

---

(١) مقالات الإسلاميين (ص١٣٢).

وأبغضك وأخالفك ولا أوافقك لكان كفره أعظم، فلما كان الكفر المقابل للإيمان ليس هو التكذيب فقط علم أن الإيمان ليس هو التصديق فقط بل إذا كان الكفر يكون تكذيباً ويكون مخالفة ومعاداة وامتناعاً بلا تكذيب فلا بد أن يكون الإيمان تصديقاً مع موافقة وموالاة وانقياد، لا يكفي مجرد التصديق فيكون جزءاً من مسمى الكفر فيجب أن يكون كل مؤمن مسلماً منقاداً للأمر وهذا هو العمل»[(١)].

١٥ موقف الأشعرية والماتريدية من النصوص على أن العمل داخل في مسمى الإيمان:

وقف الأشعرية والماتريدية من النصوص الدالة على أن العمل من مسمى الإيمان موقف القدح والتأويل كقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣].

فحملوها على المجاز[(٢)]، ومثل قول النبي ﷺ: **(الإيمان بضع وستون شعبة)**.

وفي رواية: **(بضع وسبعون)** فقد قدحوا فيه بأنه مخالف للكتاب وبغفلة الراوي حيث تردد بين الستين والسبعين فشهد بغفلة نفسه[(٣)].

الجواب عن تلك التأويلات:

أولاً: حملهم قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣] على المجاز الجواب عنه ما يأتي:

١ ـ الأصل في كتاب الله تعالى الحقيقة، والمجاز يحتاج إلى دليل[(٤)].

٢ ـ أن الحقيقة عند القائلين بالمجاز هي اللفظ الذي يدل بإطلاقه بلا قرينة، والمجاز إنا يدل بقرينة. وقد تبين أن لفظ الإيمان حيث أطلق في الكتاب والسنة دخلت فيه الأعمال، وإنما يدعى خروجها منها عند التقييد، وهذا يدل على أن الحقيقة قوله: **(الإيمان بضع وسبعون شعبة)**[(٥)].

٣ ـ أن المجاز ثبت أنه اصطلاح حادث فلم يتكلم به العرب ولا الصحابة ولا الأئمة، فهو شبيه بمصطلحات النحو، ولكن النحو جاء اصطلاحاً مستقيماً وليس فيه مفسدة، أما المجاز فهو اصطلاح غير مستقيم، وفيه مفاسد عقلية وشرعية ولغوية.

---

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ٢٩٢).
(٢) انظر: تبصرة الأدلة [٣٣٧/ب].
(٣) انظر: تبصرة الأدلة [٣٣٧/ب].
(٤) مسائل الإيمان للقاضي أبي يعلى (ص١٦٤).
(٥) مجموع الفتاوى (٧/ ١١٦).

أما المفسدة العقلية فهي عدم تميزه تمييزاً ظاهراً صحيحاً، أما الشرعية ففيها مفاسد يوجب الشرع إزالتها ألا وهي تحريف كلام الله ﷻ وكلام رسول الله ﷺ عن حقيقة الألفاظ على معان ورد النهي عن حملها عليها وأنها يصح نفيها وكلام الله ﷻ وكلام رسوله ﷺ أرفع من ذلك، وأنه كلام غير حقيقي والله ﷻ كلامه حق وعدل وصدق.

أما اللغوية فهي تغيير للأوضاع اللغوية لغير مصلحة راجحة، بل لمفسدة[١].

ثانياً: أما قدحهم في قول النبي ﷺ: **(الإيمان بضع وستون)**، وفي رواية: **(بضع وسبعون)** بمخالفة للكتاب وبغفلة الراوي، فالجواب عليه من وجوه:

الأول: أن ما يدل عليه هذا الحديث من تسمية الأعمال إيماناً فأين في القرآن نفي اسم الإيمان عن شرائع الإسلام الواردة فيه، بل القرآن سمى بعض الأعمال إيماناً كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣] أي: صلاتكم.

فالحديث موافق للقرآن لا مخالف، ولا تأتي السنة بما يخالف القرآن البتة، قال ابن القيم رحمه الله تعالى: «السنة مع القرآن على ثلاثة أوجه:

أحدها: أن تكون موافقة له من كل وجه، فيكون توارد القرآن والسنة على الحكم واحداً من باب توارد الأدلة وتضافرها.

ثانيها: أن تكون بياناً لما أريد من القرآن وتفسيراً له.

ثالثها: أن تكون موجبة لحكم سكت عن إيجابه، أو محرمة لما سكت عن تحريمه. ولا تخرج البتة عن هذه الأقسام، فلا تعارض القرآن بوجه ما»[٢].

الثاني: أن هذا الحديث متفق عليه مخرج في الصحيحين، والأحاديث التي في الصحيحين قطعية الثبوت، تفيد العلم القطعي باتفاق أئمة الإسلام واعتراف بعض الحنفية[٣].

فمن استجرأ الطعن في حديث هو في «الصحيحين» فهو لا يؤذي إلا نفسه، فلا ينبغي لمسلم أن يطعن في الثقات أو يسيء الظن بهم. قال الشاه ولي الله الدهلوي إمام الحنفية في عصره: «أما الصحيحان فقد اتفق المحدثون على أن جميع ما فيهما من المتصل المرفوع صحيح بالقطع فإنهما متواتران إلى مصنفيهما

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٠/ ٤٥١ _ ٤٥٨) بتصرف.

(٢) إعلام الموقعين (٢/ ٣٠٧ _ ٣٠٩). (٣) انظر: فيض الباري (١/ ٤٥).

وأن كل من يهون أمرهما مبتدع متبع غير سبيل المؤمنين، فإن الشيخين لا يذكران إلا حديثاً قد تناظر فيه مشايخهما وأجمعوا على القول به والتصحيح له»[١].

وبهذا يتبين ضعف استدلالاتهم وتهافتها، والقول الحق في هذه المسألة هو ما دل عليه الكتاب والسنة وما عليه سلف الأمة من أن الإيمان: تصديق بالجنان، وقول باللسان، وعمل بالأركان.

(١٦) الخلاف بين أصحاب أبي حنيفة وجمهور أهل السنة خلاف حقيقي:

ذهب الألوسي وعبيد الله المباركفوري والألباني وابن باز إلى أن الخلاف حقيقي[٢].

وذهب الغزالي والذهبي وابن أبي العز إلى أن الخلاف بين أصحاب أبي حنيفة وجمهور أهل السنة هو خلاف لفظي[٣].

وأما شيخ الإسلام ابن تيمية فذهب إلى أن الخلاف لفظي في بعض من المسائل المتنازع فيها، حقيقي في بعضها. وفي ذلك يقول: «إنه لم يكفر أحد من السلف من مرجئة الفقهاء، بل جعلوا هذا من بدع الأقوال والأفعال لا بدع العقائد، فإن كثيراً من النزاع فيها لفظي، لكن اللفظ المطابق للكتاب والسنة هو الصواب»[٤].

ويقول: «ومما ينبغي أن يعرف أن أكثر التنازع بين أهل السنة في هذه المسألة هو نزاع لفظي، وإلا فالقائلون بأن الإيمان قول من الفقهاء كحماد بن أبي سليمان وهو أول من قال ذلك، ومن اتبعه من أهل الكوفة وغيرهم، متفقون مع جميع علماء السنة على أن أصحاب الذنوب داخلون تحت الذم والوعيد وإن قالوا أن إيمانهم كامل كإيمان جبريل، فهم يقولون أن الإيمان بدون العمل المفروض ومع فعل المحرمات يكون صاحبه مستحقاً للذم والعقاب كما تقوله الجماعة. ويقولون أيضاً: إن من أهل الكبائر من يدخل النار كما تقوله الجماعة»[٥].

قلت: وما ذهب إليه ابن تيمية من أن الخلاف في أكثر المسائل الخلافية بين

---

(١) حجة الله البالغة (١/ ٤٩).

(٢) انظر: روح المعاني (٩/ ١٧٦)، ومرقاة المفاتيح (١/ ٣٧)، ومتن العقيدة الطحاوية بتعليق وشرح الألباني (ص٤٢). وتعليق الشيخ ابن باز على متن الطحاوية (ص٤٨).

(٣) انظر: سير أعلام النبلاء (٥/ ٣٣).

(٤) كتاب الإيمان (ص٣٣٧).

(٥) مجموع الفتاوى (٧/ ٢٩٧).

مرجئة الفقهاء وبين بقية أئمة السنة يرجع إلى نزاع لفظي معناه: أن هناك بعض الجوانب يرجع الخلاف فيها إلى نزاع حقيقي، وتفصيل ذلك أن بين مرجئة الفقهاء، وبين بقية أئمة السنة قدراً مشتركاً وقدراً مفترقاً. فأما القدر المشترك فهو:

١ ـ أن الإيمان مركب وليس بسيطاً، كما عليه غلاة المرجئة من الكرامية والماتريدية.

٢ ـ أن مرتكب الكبيرة لا يكفر ولا ينفى عنه مسمى الإيمان ولا يخلد في النار بل هو مؤمن فاسق.

٣ ـ أن الإقرار يزول وقت الإكراه، دون التصديق.

٤ ـ أن الاستثناء في الإيمان لا يجوز لأجل الشك.

وأما القدر المفترق فهو:

١ ـ الإيمان عند أبي حنيفة التصديق بالجنان والإقرار باللسان فقط، وأما عند بقية الأئمة فهو هذان الأمران والعمل بالأركان.

٢ ـ أن الأعمال خارجة عن مسمى الإيمان عند أبي حنيفة داخلة عند بقية الأئمة.

٣ ـ أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص عند أبي حنيفة، ويزيد وينقص عند بقية أئمة السنة.

٤ ـ لا يجوز الاستثناء في الإيمان عند أبي حنيفة مطلقاً، ويجوز في حال دون حال عند أئمة السنة.

والذي يظهر أن القول بأن الخلاف حقيقي أرجح لما ترتب عليه من وجوه الافتراق المذكورة. والله أعلم.

وأما قول شيخ الإسلام، فليس مقصوده النزاع اللفظي الذي لا يترتب عليه خلاف في معنى، فيكون من قبيل اختلاف التنوع، بل مقصوده أنه نزاع يتعلق بالأسماء وهي من الألفاظ، ويدل على ذلك قوله: «بل جعلوا هذا من بدع الأقوال والأفعال لا بدع العقائد، فإن كثيراً من النزاع فيها لفظي لكن اللفظ المطابق للكتاب والسنة هو الصواب»[1].

---

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ٢٩٧).

(زيادة الإيمان ونقصانه).

(١٧) عقيدة أهل السنة والجماعة في زيادة الإيمان ونقصانه:

ذهب أهل السنة والجماعة إلى أن الإيمان يزيد وينقص، وزيادته تكون بالطاعة ونقصانه يكون بالمعصية. قال الحافظ الصابوني: «ومن مذهب أهل الحديث أن الإيمان قول وعمل ومعرفة يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية»(١).

وقال ابن تيمية: «ولهذا كان أهل السنة والحديث على أنه يتفاضل، وجمهورهم يقولون يزيد وينقص... فقد ثبت لفظ الزيادة والنقصان فيه عن الصحابة ولم يعرف فيه مخالف من الصحابة»(٢).

(١٨) أدلة أهل السنة والجماعة على أن الإيمان يزيد وينقص:

أما الأدلة من الكتاب فهي:

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [آل عمران: ١٧٣].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾﴾ [الأنفال: ٢].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [التوبة: ١٢٤ ـ ١٢٥].

وقال تعالى: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾﴾ [مريم: ٧٦].

وقال تعالى: ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾﴾ [الكهف: ١٣].

وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾ [الأحزاب: ٢٢].

وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾﴾ [الفتح: ٤].

---

(١) عقيدة أصحاب الحديث من المجموعة المنيرية (١/ ١٢٣).

(٢) الإيمان (ص٢١٠ ـ ٢١١)، وقد حكى الأشعري إجماع أهل السنة كما جاء في رسالة أهل الثغر (ص٢٧٢)، والبغوي في شرح السنة (١/ ٣٨ ـ ٣٩).

وقال تعالى: ﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنًا﴾ [المدثر: ٣١].

وأما الأدلة من السنة:

فقد عقد البخاري باب «زيادة الإيمان ونقصانه وقوله تعالى: ﴿وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾ [الكهف: ١٣]، ﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنًا﴾ [المدثر: ٣١]. وقال: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣]، فإذا ترك شيئاً من الكمال فهو ناقص»(١).

ثم ساق حديث أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: **(يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله وفي قلبه وزن شعيرة من خير، ويخرج من النار من قال: لا إله إلا الله وفي قلبه وزن بُرة من خير، ويخرج من النار من قال: لا إله إلا الله وفي قلبه وزن ذرة من خير)**(٢).

ومن الأدلة: حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: **(يا معشر النساء تصدقن وأكثرن من الاستغفار فإني رأيتكن أكثر أهل النار، فقالت امرأة منهن جزلة: وما لنا يا رسول الله أكثر أهل النار؟ قال: تكثرن اللعن وتكفرن العشير ما رأيت من ناقصات عقل ودين أغلب لذي لب منكن، قالت: يا رسول الله وما نقصان العقل والدين؟ قال: أما نقصان العقل فشهادة امرأتين شهادة رجل فهذا نقصان العقل، وتمكث الليالي ما تصلي وتفطر في رمضان فهذا نقصان الدين)**(٣).

وفي «صحيح مسلم»: «لقي أبو بكر حنظلة الأسدي فقال له: كيف أنت يا حنظلة؟ قال: قلت: نافق حنظلة، قال: سبحان الله! ما تقول؟ قال: قلت: نكون عند رسول الله ﷺ يذكرنا النار والجنة حتى كأنا رأي عين، فإذا خرجنا من عند رسول الله ﷺ عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات، فنسينا كثيراً. قال أبو بكر: فوالله إنا لنلقى مثل هذا. فانطلقت أنا وأبو بكر حتى دخلنا على رسول الله ﷺ وقلت: نافق حنظلة يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: وما ذاك؟ قلت: يا رسول الله نكون عندك تذكرنا بالنار والجنة حتى كأنا رأي عين، فإذا خرجنا من عندك عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات فنسينا كثيراً. فقال رسول الله ﷺ: **(والذي نفسي بيده إنكم لو تدومون على ما تكونون عندي من الذكر لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقكم، ولكن يا حنظلة ساعة وساعة»)**(٤).

---

(١) صحيح البخاري مع فتح الباري (١/ ١٠٣).
(٢) أخرجه البخاري (٤٤)، ومسلم (٣٢٥).
(٣) أخرجه البخاري (٥٠٤)، ومسلم (٨٠). (٤) أخرجه مسلم (٢٧٥٠).

ومن الأدلة حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **(أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً، وخياركم خياركم لنسائكم)**[١].

وأما الآثار عن السلف فمنها قول عبد الله بن مسعود في دعائه: **(اللهم زدنا إيماناً ويقيناً وفقهاً)**[٢].

وقول عمير بن حبيب الخطمي: «الإيمان يزيد وينقص، قيل له: وما زيادته ونقصانه؟ قال: إذا ذكرنا الله ﷻ وحمدناه وخشيناه فذلك زيادته، فإذا غفلنا وضيعنا فذلك نقصانه»[٣].

وكان عمر بن الخطاب ﷺ يقول لأصحابه: **(هلموا نزدد إيماناً فيذكرون الله)**[٤].

وكان معاذ بن جبل ﷺ يقول للرجل: «اجلس بنا نؤمن ساعة، فيجلسان فيذكران الله ويحمدانه»[٥].

قال أبو عبيد القاسم بن سلام: «فالأمر الذي عليه أهل السنة عندنا ما نص عليه علماؤنا مما اقتصصناه في كتابنا هذا أن الإيمان بالنية والقول والعمل جميعاً، وأنه درجات بعضها فوق بعض، إلا أن أولها وأعلاها الشهادة باللسان كما قال ﷺ في الحديث الذي جعله فيه بضعة وسبعين جزءاً، فإذا نطق بها القائل أقر بما جاء من عند الله لزمه اسم الإيمان بالدخول فيه بالاستكمال عند الله لا على تزكية النفوس، وكلما ازداد لله طاعة وتقوى ازداد به إيماناً»[٦].

قال ابن عبد البر: «أجمع أهل الفقه والحديث على أن الإيمان قول وعمل ولا عمل إلا بنية، والإيمان عندهم يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية، الطاعات كلها عندهم إيمان»[٧].

والأدلة من الكتاب والسنة والآثار الواردة عن السلف في أن الإيمان يزيد

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٢)، والترمذي (١١٦٢)، قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.
(٢) شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٣/ ٩٤٢)، وكتاب الشريعة (ص١١٢).
(٣) الإيمان لابن أبي شيبة (ص٣٦)، والشريعة للآجري (ص١١٢).
(٤) الإيمان لابن أبي شيبة (ص٣٦)، والشريعة للآجري (ص١١٢).
(٥) الإيمان لابن أبي شيبة (ص٣٥)، والإيمان لأبي عبيدة (ص٧٢)، وشرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٣/ ٩٤٣).
(٦) الإيمان (ص٦٦).
(٧) التمهيد (٩/ ٢٣٨).

وينقص كثيرة جداً. وبمناسبة كثرة الأدلة في هذه المسألة وعدم حصرها يقول العلامة الألوسي مفتي الحنفية في بغداد: «وما علي إذا خالفت في بعض المسائل مذهب الإمام الأعظم أبي حنيفة للأدلة التي لا تكاد تحصى، فالحق أحق بالاتباع، والتقليد في مثل هذه المسائل من سنن العوام»[(١)].

فظهر لي القول بأن الإيمان يزيد وينقص هو الصواب، لأنه موجب الشرع، بل وموجب العقل لما تقدم بيانه من أن التصديق يزيد وينقص، وأن اليقين على ثلاث مراتب: علم اليقين، وعين اليقين، وحق اليقين. وهذا أمر معلوم بالفطرة إذ ليس المخبر كالمعاين.

١٩ المخالفون لأهل السنة في مسألة زيادة الإيمان ونقصانه:

ذهب مرجئة الفقهاء أبو حنيفة وأصحابه إلى أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص وقرر ذلك الطحاوي فقال: «والإيمان واحد وأهله في أصله سواء، والتفاضل بينهم بالخشية والتقى، ومخالفة الهوى وملازمة الأولى».

ذهب الإمام أبو حنيفة رحمه الله تعالى إلى أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص[(٢)]، والإيمان هو التصديق بالقلب والإقرار باللسان كما تقدم.

قال الإمام أبو حنيفة رحمه الله تعالى: «والإيمان لا يزيد ولا ينقص»[(٣)].

وقرر هذا الطحاوي في بيان اعتقاد أهل السنة والجماعة على مذهب أبي حنيفة وصاحبيه، حيث قال: «والإيمان واحد وأهله في أصله سواء، والتفاضل بينهم بالخشية والتقى ومخالفة الهوى وملازمة الأولى».

واستدل الإمام أبو حنيفة رحمه الله تعالى على مذهبه بما يأتي:

أولاً: لا يتصور نقصان الإيمان إلا بزيادة الكفر، ولا يتصور زيادته إلا بنقصان الكفر. قال الإمام أبو حنيفة رحمه الله تعالى: «الإيمان لا يزيد ولا ينقص، لأنه

---

(١) روح المعاني (٩/ ١٦٧).

(٢) انظر: مقالات الإسلاميين (ص١٣٩)، وشرح المقاصد (٥/ ٢١١)، وشرح المواقف (٨/ ٣٩٧)، والفرق بين الفرق (ص١٢٣)، تحقيق الكوثري، والملل والنحل للشهرستاني (١/ ١٤١)، والملل والنحل للبغدادي (ص١٤٠)، والتبصير في الدين (ص٦٠)، والتمهيد للنسفي (ص١٠٢)، وبحر الكلام (ص٤١)، والمسامرة بشرح المسايرة (ص٣١٧)، والنبراس (ص٤٠٢)، وشرح العقيدة الطحاوية للميداني (ص٩٩).

(٣) كتاب الوصية (ص٣).

لا يتصور نقصانه بزيادة الكفر ولا يتصور زيادته بنقصان الكفر، وكيف يجوز أن يكون الشخص الواحد في حالة واحدة مؤمناً وكافراً»(١).

ثانياً: «أن الناس لا يختلفون في التصديق، ولا يتفاضلون فيه، وقد يتفاضلون في العمل وتختلف فرائضهم، ودين أهل السماء ودين الرسل واحد، فلذلك يقول الله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣]»(٢).

هذا وقد جاء في الفقه الأكبر قول الإمام أبي حنيفة: «وإيمان أهل السماء والأرض لا يزيد ولا ينقص من جهة المؤمن به، ويزيد وينقص من جهة اليقين والتصديق، والمؤمنون مستوون في الإيمان والتوحيد، متفاضلون في الأعمال»(٣).

وهذا النص فيه إشكال، وهو أنه مخالف للمتقدم من قول أبي حنيفة: الإيمان لا يزيد ولا ينقص مع تفسير الإمام للإيمان بالتصديق والإقرار، ولما ثبت عن أبي حنيفة في بيان اعتقاد أهل السنة والجماعة على مذهب أبي حنيفة وصاحبيه كما تقدم.

وهذا صريح في أن الإيمان وهو التصديق عنده لا تفاضل فيه بين المؤمنين، وإنما التفاضل بينهم في الأعمال من الخشية والتقى ومخالفة الهوى وملازمة الأولى. وهذا يقتضي أن التصديق لا يزيد ولا ينقص، وفي هذا النص من الفقه الأكبر صرح بأن الإيمان يزيد وينقص، من جهة اليقين والتصديق. فيظهر لي والله أعلم أن كلمة (لا) في الجملة الأولى من خطأ النساخ ومحلها الجملة الثانية لتكون العبارة هكذا: «وإيمان أهل السماء والأرض يزيد وينقص من جهة المؤمن به ولا يزيد ولا ينقص من جهة اليقين والتصديق».

لنتفق مع ما تقدم من كلام أبي حنيفة وما نقله الطحاوي.

ولكن شراح(٤) الفقه الأكبر لم يروا هذا النص مشكلاً، فخرجوه على الفرق بين اليقين وأصل التصديق. فأصل التصديق لا يتفاوت، وأما اليقين فإنه يجري

---

(١) كتاب الوصية (ص٣).
(٢) رسالة أبي حنيفة لعثمان البتي (ص٣٥).
(٣) الفقه الأكبر (ص٣٠٤).
(٤) انظر: شرح الفقه الأكبر لأبي منتهى المغنيساوي (ص٣٣)، وشرح الفقه الأكبر للقاري (ص١٢٦، ١٢٧).

فيه التفاضل. وهذا عندي لا يرفع الإشكال، فإن اليقين[١] هو التصديق الجازم الذي تستقر معه النفس، فهو مرتبة من مراتب التصديق.

هذا ما استدل به الإمام أبو حنيفة، أما أصحابه فاستدلوا بما هو آت:

أولاً: أن الأعمال تشارك الإيمان في اسم الطاعة والعبادة دون اسم الإيمان. فبزيادة الأعمال تزداد الطاعة والعبادة ولا أثر لها في زيادة الإيمان[٢].

ثانياً: «أن التصديق شيء بسيط لا يتجزأ ولا ينقسم، فلا يحتمل الزيادة ولا النقصان، لأنه لو اختل لتبدل بالتكذيب، وصار باطلاً زائلاً بالكلية، ولم يبق منه شيء أصلاً، ولو لم يختل بقي كاملاً، فالقول بزيادته ونقصانه باطل»[٣].

ثالثاً: «أنه يلزم من القول بزيادة الإيمان ونقصانه بسبب زيادة الأعمال ونقصانها ألا يوجد أحد استكمل الإيمان حتى الأنبياء والمرسلون لأنه لا حد للأعمال الصالحة، فكل من يزداد من الحسنات إلى ما لا نهاية يزداد إيمانه إلى ما لا نهاية، فمن كانت طاعته أكبر يكون إيمانه أكبر، ومع ذلك لم يستكمل الإيمان لأنه لو زاد طاعة أخرى زاد إيمانه أيضاً»[٤].

رابعاً: «أن الزيادة لا تتصور إلا على شيء كامل وشيء له نهاية، أما الإيمان فهو لم يزل غير كامل لأنه في صدده الزيادة، والزيادة على ما هو لم يكمل بعد ـ وهو في حد النقصان ـ محال كما الزيادة على ما لا نهاية له محال أيضاً»[٥].

خامساً: «إن زيادة التصديق ونقصانه يجعلانه في مرتبة الشك والظن وهذا غير مفيد في مقام الاعتقاد»[٦].

سادساً: استدل أبو الليث السمرقندي بحديث أبي هريرة[٧] رضي الله عنه مرفوعاً ولفظه: **(جاء وفد ثقيف إلى الرسول ﷺ فقالوا: يا رسول الله الإيمان يزيد وينقص؟ فقال: لا، الإيمان كمل في القلب، زيادته ونقصانه كفر)**.

قلت: وفي معنى هذا الحديث تروى أحاديث أخرى كحديث ابن عباس وابن عمر مرفوعاً: **(الإيمان لا يزيد ولا ينقص)**.

---

(١) انظر: كتاب التعريفات (ص٢٥٩)، والمفردات (ص٥٥٢)، والمعجم الفلسفي (ص٢١٦)، والمعجم الوسيط (ص١٠٦٦).

(٢) تبصرة الأدلة [ق ـ ٣٩٩/أ].

(٣) تبصرة الأدلة [ق ـ ٣٩٩/أ]، وشرح العقائد النسفية (ص١٢٤).

(٤) تبصرة الأدلة [ق ـ ٣٩٩/أ].

(٥) تبصرة الأدلة [ق ـ ٣٩٩/أ].

(٦) روح المعاني (٩/ ١٦٥).

(٧) بحر العلوم [ق ـ ٩٩/أ].

وحديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: (**من زعم أن الإيمان يزيد وينقص فزيادته نفاق، ونقصانه كفر، فإن تابوا، وإلا فاضربوا أعناقهم بالسيف، أولئك أعداء الرحمن**).

الجواب عن أدلة أبي حنيفة:

أولاً: قول أبي حنيفة رحمه الله: «الإيمان لا يزيد ولا ينقص لأنه لا يتصور نقصانه إلا بزيادة الكفر...».

الجواب عنه:

أن العقل يتصور اجتماع الإيمان وشعبة من شعب الكفر، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يوسف: ١٠٦]. قال حذيفة بن اليمان رضي الله عنه: «القلوب أربعة: قلب أجرد كأنما فيه سراج يزهر، فذلك قلب المؤمن، وقلب أغلف فذلك قلب الكافر، وقلب مصفح فذلك قلب المنافق، وقلب فيه إيمان ونفاق، ومثل الإيمان فيه كمثل شجرة يسقيها ماء طيب، ومثل النفاق فيه كمثل قرحة يمدها قيح ودم فأيما غلب عليه غلبه»[(١)].

ويدل على قول حذيفة رضي الله عنه قول الله تعالى: ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ [آل عمران: ١٦٧].

فقد كان فيه نفاق مغلوب، فلما كان يوم أحد غلب نفاقهم فصاروا إلى الكفر أقرب[(٢)].

وفي هذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «وتمام هذا أن الإنسان قد يكون فيه شعبة من شعب الإيمان وشعبة من شعب النفاق، وقد يكون مسلماً وفيه كفر دون الكفر الذي ينقل عن الإسلام بالكلية، كما قال الصحابة ابن عباس وغيره: كُفر دون كفر، وهذا قول عامة السلف وهو الذي نص عليه أحمد وغيره»[(٣)].

ويقال أيضاً: زيادة الإيمان ونقصانه قد تكونان في صفة الإيمان كتفاوت التصديق قوة وضعفاً، وقد يكونان في الأعمال المستحبة، فلا يلزم إذن من زيادة الإيمان ونقصانه وجود كفر ولا عدمه، فالتفاضل في اليقين وفي الأعمال المستحبة لا يوجب وجود كفر عند المفضول، وهذا ظاهر، نعم الإيمان والكفر الناقل عن الملة لا يجتمعان.

---

(١) السنة لعبد الله بن أحمد (ص١٠٢).

(٢) انظر: كتاب الإيمان لابن تيمية (ص٢٩٨).

(٣) كتاب الإيمان (ص٣٠٠).

ثانياً: قول الإمام أبي حنيفة رَحِمَهُ اللَّهُ: «إن الناس لا يختلفون في التصديق ولا يتفاضلون فيه، وقد يتفاضلون في العمل وتختلف فرائضهم...».

الجواب عنه:

لا نسلم أن الناس لا يختلفون في التصديق ولا يتفاضلون فيه، إذ أنهم كما يتفاوتون في الأعمال كذلك يتفاوتون في التصديق ضعفاً وقوة.

فلا يشك عاقل أن تصديق الأنبياء والملائكة أقوى من تصديق عامة البشر كما صرح بذلك بعض الحنفية[١].

وأما قوله: «ودين أهل السماء ودين الرسل واحد».

فالجواب عنه: أن مسائل الدين التفصيلية والأحكام التكليفية ليست كلها مشتركة بيننا وبين الملائكة، بل ليست مشتركة بين أتباع سائر الأنبياء، بل ولا بين أتباع الرسول الواحد.

وأما قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ [الشورى: ١٣].

فالمراد منها أن حقيقة دين الرسل واحدة وأصله واحد وهو عبادة الله وحده لا شريك له وطاعته في أمره ونهيه، وأما تفاصيل الشرائع فمعلوم أنها مختلفة كما قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨][٢].

(ب) الجواب عن أدلة أصحاب أبي حنيفة:

الدليل الأول:

«إن الأعمال تشارك الإيمان في اسم الطاعة والعبادة دون اسم الإيمان...».

الجواب عنه:

يقال: هذا مبني على أن الأعمال ليست داخلة في مسمى الإيمان شرعاً. وقد سبق القول وذكر الأدلة على أن الأعمال داخلة في مسمى الإيمان، فإذا بطل هذا الأصل بطلت هذه الدعوى المبنية عليه، والله أعلم.

الدليل الثاني:

«إن التصديق شيء بسيط لا يتجزأ ولا ينقسم، فلا يحتمل الزيادة والنقصان...».

---

(١) كالألوسي في روح المعاني (٩/ ١٦٧)، والقاري في شرح الفقه الأكبر (ص١٢٧).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٦/ ١٩٢).

الجواب عنه:

أن يقال هذه الشبهة مركبة من مقدمتين:

الأولى: أن الإيمان هو التصديق بالقلب فقط.

الثانية: أن التصديق بسيط غير مركب لا ينقسم.

أما المقدمة الأولى: فقد ظهر بطلانها مما تقدم ذكره من أدلة الكتاب والسنة الصحيحة، واتفاق سلف الأمة وأئمة السنة على أن الأعمال داخلة في حقيقة الإيمان ومسماه.

وأما المقدمة الثانية: فباطلة لأنها مخالفة لدلالة الكتاب والسنة والآثار السلفية والمعقول الصريح.

فأما الكتاب فقد قال تعالى: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾ [الأحزاب: ٢٢].

ولا شك أن المراد من الإيمان في هذه الآية إنما هو التصديق واليقين بتحقيق وعد الله تعالى ورسوله ﷺ من تحقيق النصر للمؤمنين. وهكذا قول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [آل عمران: ١٧٣].

فأنت ترى أن المراد من الإيمان في هذه الآية ليس إلا تصديق القلب وإيقانه وإذعانه، فهاتان الآيتان تدلان على زيادة التصديق نفسه، إذ ليس هنا قطعاً زيادة الأعمال.

وأما من السنة فمنها ما رواه أحمد عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: **(ليس الخبر كالمعاينة، إن الله أخبر موسى بما صنع قومه في العجل فلم يلق الألواح، فلما عاين ما صنعوا ألقى الألواح فانكسرت)**[١].

وحديث الشفاعة الكبرى المتواتر وفيه[٢]:

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند (١/ ٢٧١)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٣٢١)، كلاهما من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس. قال الحاكم على أثره: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي في التلخيص، والألباني في مشكاة المصابيح (٣/ ١٥٩٩).

(٢) انظر: قطف الأزهار المتناثرة للسيوطي (ص٣٠٣)، ولقط اللآلئ المتناثرة للزبيدي (ص٧٥ ـ ٧٨)، ونظم المتناثر للكتاني (ص٢٣٣).

«فيقال انطلق فأخرج منها من كان في قلبه مثقال ذرة أو خردلة من إيمان. . . فيقول: أنطلق فأخرج من كان في قلبه أدنى أدنى أدنى مثقال حبة خردل من إيمان»(١).

ولا شك أن المراد من الإيمان في هذا الحديث في القلب، لأن ما في القلب ليس إلا التصديق لا غير. فهذا الحديث صريح في أن التصديق القلبي قد ينقص إلى حد يصل إلى مثقال ذرة أو خردلة، وقد يصل إلى حد يكون أدنى من مثقال حبة من خردل، فدل على أن التصديق نفسه يتفاوت يزيد وينقص. وأما الآثار عن سلف هذه الأمة فمنها قول عبد الله بن مسعود ﵁: **(اللهم زدنا إيماناً ويقيناً وفقهاً)**(٢).

فهذا الأثر صريح في المقصود، بل قال الحافظ ابن حجر: «وهذا أصرح في المقصود»(٣).

لأن اليقين والفقه لا يتعلقان إلا بالقلب لأنهما من أنواع العلم، بل اليقين هو التصديق الجازم(٤) وهو على ثلاث مراتب:

١ ـ علم اليقين.

٢ ـ وعين اليقين.

٣ ـ وحق اليقين.

فقد دل على أن التصديق يتفاوت، هذا وقد قال أئمة السنة كسعيد بن جبير وسعيد والضحاك وقتادة رحمهم الله تعالى في قوله تعالى عن إبراهيم خليل الرحمن عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام: ﴿وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠].

قالوا: «ليزداد إيماني ويقيني»(٥).

وأما المعقول الصريح فلا يشك عاقل في أن إيمان الصدِّيقين أقوى من إيمان

---

(١) أخرجه البخاري (٧٥١٠)، ومسلم (٣٢٦).

(٢) الأثر رواه أحمد في الإيمان كما قال الحافظ في الفتح (١/ ٤٨)، وعبد الله بن أحمد في السنة (١/ ٣٦٨، ٣٦٩)، والآجري في الشريعة (١١٢)، واللالكائي في شرح أصول الاعتقاد (٣/ ٩٤٢)، وقال الحافظ في الفتح (١/ ٤٨)، إسناده صحيح.

(٣) فتح الباري (١/ ٤٨).

(٤) انظر: المفردات (ص٥٥٢)، التعريفات (ص٢٥٩)، والمعجم الوسيط (ص١٠٦٦)، والمعجم الفلسفي (ص٢١٦).

(٥) انظر: جامع البيان (٨/ ٥٠ ـ ٥١)، والسنة لعبد الله بن أحمد (ص٣٦٩).

غيرهم، فلا تعتريهم الشبهة ولا يتزلزل إيمانهم بعارض، وأما غيرهم من المؤلفة قلوبهم فليسوا كذلك[(١)]، ويؤيده أن كل أحد يعلم أن ما في قلبه يتفاضل حتى إنه في بعض الأحيان أعظم يقيناً وإخلاصاً وتوكلاً منه في بعضها[(٢)].

وبهذا سلم بعض المنصفين من الأشاعرة الماتريدية، كابن اللبان والرازي والبغدادي والإيجي والجرجاني[(٣)] والباقلاني.

قال الإيجي: «والحق أن التصديق يقبل الزيادة والنقصان بوجهين:

الأول: القوة والضعف...

الثاني: التصديق التفصيلي في إفراد ما علم مجيئه به جزء من الإيمان يثاب على تصديقه بالإجمال، والنصوص دالة على قبوله لهما»[(٤)].

وقال الجرجاني: «فإن التصديق من الكيفيات النفسانية المتفاوتة قوة وضعفاً»[(٥)].

الدليل الثالث: «أنه يلزم من القول بزيادة الإيمان ونقصانه ألا يوجد أحد استكمل الإيمان حتى الأنبياء والمرسلون...».

الجواب عنه من وجوه:

١ ـ يقال: «إنه يقال إذا جاز عندك في النوافل أن تصفها أنها طاعة وعبادة ولا آخر لها، فما يمنع أن تصف الإيمان بذلك وإن لم يكن لها آخر في الفعل، كما أن للفرائض آخراً في الوصف دون الفعل، لأنه لو قيل بينوا في الفرائض حداً لا زيادة معه، لم يمكن لأنه لا يعلم منتهى أجله فيعلم قدر ما يلزمه من الفرائض»[(٦)].

٢ ـ أن الإيمان من الكليات المشككة تتفاوت أفرادها، كما أن العلم من الكليات المشككة، وهكذا من يوصف بالإيمان والعلم، فالمؤمن والعالم أيضاً

---

(١) انظر: المنهاج شرح صحيح مسلم (١/١٤٨، ١٤٩)، وفتاوى الإمام النووي المسماة بالمسائل المنثورة (ص٣٠٤).

(٢) فتح الباري (١/٤٦ ـ ٤٧).

(٣) انظر: أصول الدين للبغدادي (ص٢٥٢)، والمواقف (ص٣٣٨)، وشرح المواقف (٨/ ٣٣١)، وتحفة المريد (ص٥١)، والإيمان للقاضي أبي يعلى (ص٣٣٩)، والإنصاف (ص٥٨)، والمحصل للرازي (ص٢٣٩).

(٤) المواقف (ص٣٨٨).

(٥) شرح المواقف (٨/ ٣٣١).

(٦) مسائل الإيمان للقاضي أبي يعلى (ص٢٥٠).

من الكليات المشككة، قال الله تعالى: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦]. فإذا كان الأمر كذلك فالأنبياء والمرسلون بعد استكمال إيمانهم بأداء الواجبات واجتناب النواهي يتفاوتون في الدرجات بسبب النوافل، وهذا لا شك فيه، ولا عيب في ذلك عليهم، ولا يؤثر على مراتبهم بعد أن استكملوا الإيمان بأداء الواجبات واجتناب المنهيات، كيف وهم أكمل الناس إيماناً وعلماً وبعضهم فُضِّل على بعض.

٣ ـ يقال: إن الأنبياء قد استكملوا الإيمان، وإن كان أذنب بعضهم فقد غفر الله لهم ذلك، أما من عداهم فليس مثلهم في هذا، فالطاعات لا حد لها من ناحية فعل العبد، بل العبد على الدوام في السعي إلى إكمال إيمانه حتى يدركه الموت وهو على هذا(١). وقد ورد عن السلف نحو هذا.

من ذلك ما رواه الخلال عن إسحاق بن منصور قال: «قلت لإسحاق: هل للإيمان منتهى حتى نستطيع أن نقول: المرء مستكمل الإيمان؟ قال: لا لأن جميع الطاعة من الإيمان، فلا يمكن أن نشهد باستكمال الإيمان لأحد إلا الأنبياء؛ لأن الأنبياء وإن كانوا قد أذنبوا فقد غفر لهم ذلك الذنب قبل أن يخلقوا»(٢).

وروى عبد الله بن أحمد في السنة بسنده عن الوليد بن مسلم قال: «سمعت أبا عمرو ـ يعني الأوزاعي ـ ومالكاً وسعيد بن عبد العزيز إنه مستكمل الإيمان وأن إيمانه كإيمان جبريل وميكال»(٣).

الدليل الرابع: «إن الزيادة لا تتصور إلا على شيء كامل وشيء له نهاية، وأما الإيمان فهو لم يزل غير كامل لأنه في صدد الزيادة...».

الجواب عنه:

يقال: لا شك أن الزيادة على الشيء إنما تكون بعد كماله، ولكن ما قلناه: إنه يزاد شيء على الإيمان، بل قلنا: إن الإيمان نفسه يزيد وينقص، ـ ولم نقل: إن شيئاً آخر يزاد على الإيمان، فلا ترد هذه الشبهة إطلاقاً.

الدليل الخامس: «إن زيادة التصديق ونقصانه تجعلانه في مرتبة الشك والظن...».

---

(١) مسائل الإيمان للقاضي أبي يعلى (ص٢٥١) بتصرف.

(٢) كتاب السنة للخلال (ص٥٦٩).

(٣) السنة لعبد الله بن أحمد (ص٨٢).

الجواب عنه:

إن التصديق له مراتب تتفاوت قوة وضعفاً وكلها فوق الظن والشك، فالشك إذن ضد التصديق لا جزء منه، فإذا صار التصديق ضعيفاً فلا يقال: إن صاحبه وقع في الشك، ولا يقال للشاك: مصدق، فالشك والتصديق لا يجتمعان.

قال الألوسي الحنفي: «مراتب اليقين متفاوتة: إلى علم اليقين وحق اليقين وعين اليقين مع أنه لا شك معها»[١].

- **الدليل السادس**: «استدل أبو الليث السمرقندي بحديث أبي هريرة ﷺ مرفوعاً... قلت: وفي معنى هذا الحديث تروى[٢] أحاديث أخرى كحديث ابن عباس...».

الجواب عنه:

حديث أبي هريرة أخرجه أبو الليث السمرقندي في تفسير بحر العلوم (ق ـ ٩٩/أ) والجوزقاني وقال: «هذا حديث لا يرجع منه إلى الصحة، وليس لهذا الحديث أصل من رسول الله ﷺ»[٣].

وقال ابن كثير: «إن الإسناد من أبي الليث إلى أبي مطيع مجهولون، لا يعرفون في شيء من كتب التاريخ المشهورة. وأما أبو مطيع فهو الحكم بن عبد الله بن مسلمة البلخي، ضعفه أحمد بن حنبل ويحيى بن معين، وعمرو بن علي الفلاس، والبخاري، وأبو داود والنسائي، وأبو حاتم الرازي، وأبو حاتم ابن حبان البستي والعقيلي، وابن عدي، والدارقطني، وغيرهم».

وأما أبو المهزوم الراوي عن أبي هريرة وقد تصحف على الكاتب، واسمه يزيد بن سفيان، فقد ضعفه أيضاً غير واحد وتركه شعبة بن الحجاج، وقال النسائي: متروك وقد اتهمه بالوضع، حيث قال: «لو أعطوه فلسين لحدثهم بسبعين حديثاً».

وبهذا يتبين لنا أن ما استدل به السمرقندي لا تقوم به الحجة، إذ هو موضوع.

وأما حديث ابن عباس فقد أخرجه الجوزقاني في الأباطيل والمناكير، وابن الجوزي في الموضوعات وقال: هذا حديث موضوع من موضوعات الجويباري[٤].

---

(١) روح المعاني (٩/ ١٦٥).

(٢) انظر: السواد الأعظم (ص٣٤)، والنبراس (ص٤٠٢).

(٣) الأباطيل والمناكير (١/ ٢٣).

(٤) الأباطيل والمناكير (١/ ١٦ ـ ١٧)، والموضوعات (١/ ١٣٢).

وهو أحمد بن عبد الله الهروي الجويباري، ويقال: الجوباري، وجوبار من أعمال هراة، قال عنه ابن عدي: «كان يضع الحديث لابن كرَّام على ما يريده، وكان ابن كرام يضعها في كتبه عنه، ويسميه أحمد بن عبد الله الشيباني»(١).

وقال عنه ابن حبان: «دجال من الدجاجلة كذاب، يروي عن ابن عيينة ووكيع وأبي ضمرة وغيرهم من ثقات أصحاب الحديث، ويضع عليهم ما لم يحدثوا، وقد روى عن هؤلاء الأئمة ألوف الأحاديث ما حدثوا بشيء منها، كان يضعها عليهم، لا يحل ذكره في الكتب إلا على سبيل الجرح فيه»(٢).

وأما حديث عبد الله بن عمر، فقد أخرجه الجوزقاني في الأباطيل والمناكير، وابن الجوزي في الموضوعات.

وقال الجوزقاني: «هذا حديث موضوع باطل وليس له أصل».

وقال ابن الجوزي: «هذا حديث موضوع من موضوعات أحمد بن عبد الله الجويباري»(٣).

وأما حديث أبي سعيد الخدري، فأخرجه ابن حبان في المجروحين، وابن الجوزي في الموضوعات وقال: «هذا حديث موضوع وهو من موضوعات محمد بن القاسم الطالكاني»(٤).

وبهذا يتبين لنا أن الأحاديث في عدم زيادة الإيمان ونقصانه لم يصح منها شيء، وما استدل به أبو الليث السمرقندي لا تقوم به حجة إذ هو موضوع.

(٢٠) موقف الماتريدية والأشعرية من النصوص الدالة على زيادة الإيمان ونقصانه:

أما موقفهم من النصوص الدالة على زيادة الإيمان ونقصانه فتأوَّلوها بما لا يتفق مع ظاهرها، وإليك نماذج من ذلك:

أ ـ أن المراد من الزيادة والنقصان في الإيمان الواردين في نصوص الكتاب والسنة: أنهم آمنوا في الجملة، ثم يأتي فرض فيؤمنون بعد كل فرض جاء جديداً، فيزداد إيمانهم بالتفصيل مع إيمانهم السابق في الجملة(٥)، وقالوا في قوله

---

(١) الكامل في ضعفاء الرجال (١/ ١٨١). (٢) المجروحين (١/ ١٤٢).

(٣) الأباطيل والمناكير (١/ ١٨)، والموضوعات (١/ ١٣٢).

(٤) انظر: المجروحين (٢/ ٣١١)، والموضوعات (١/ ١٣٣).

(٥) تبصرة الأدلة [ق ـ ب، ق ـ ٣٣٩/أ]، وانظر: النور اللامع [ق ـ ١٠٤/أ]، والكفاية =

تعالى: ﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنًا﴾ [المدثر: ٣١].

بأن هذا في حق الصحابة ﷺ، فالقرآن كان يتنزل في كل وقت فيؤمنون به، ويكون تصديقهم الثاني زيادة على الأول، وأما في حقنا فلا، لأنه انقطع الوحي(١).

ب ـ أن المراد من الزيادة الثبات على الإيمان والدوام عليه زيادة عليه في كل ساعة، إذ يوجد في كل ساعة مثلما انعدم في الأولى(٢).

ج ـ أن المراد من نصوص الزيادة والنقصان في الإيمان ازدياد نوره وضيائه في القلوب بالأعمال الصالحة ونقص ذلك النور بالمعاصي(٣).

الجواب عن تلك التأويلات:

أولاً: قولهم: «إن المراد من الزيادة والنقصان في الإيمان أنهم آمنوا في الجملة ثم يأتي فرض بعد فرض...».

الجواب عنه: من وجهين:

أ ـ يقال: إنكم إذا سلمتم أن المؤمن أولاً يؤمن إجمالياً ثم إذا جاء فرض جديد فيؤمنون به فيزداد إيمانهم بالتفصيل، فقد اعترفتم بزيادة الإيمان، وهذا هو المطلوب.

ب ـ أنه قد ورد النص الشرعي بزيادة الإيمان بدون إتيان شرع جديد كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [آل عمران: ١٧٣].

ثم إن المسلمين من غير الصحابة لايعرفون أحكام الإسلام دفعة واحدة بل يعرفونها تدريجياً شيئاً فشيئاً، فيلزم من قولكم هذا أن إيمانهم أيضاً يزيد وينقص فلا وجه للتخصيص بالصحابة.

ثانياً: قولهم: «إن المراد من الزيادة الثبات على الإيمان والدوام عليه...».

الجواب عنه:

١ ـ يقال: إن الدوام والثبات على الإيمان ليسا من باب الزيادة في الإيمان في

= (ص١٥٥)، وشرح العقائد النسفية (ص١٢٥)، وشرح الطحاوية للميداني (ص١٠٢)، وإتحاف السادة المتقين (٢/ ٢٦١).

(١) بحر الكلام (ص٤٢).

(٢) تبصرة الأدلة [ق ـ ب، ق ـ ٣٣٩/أ]، وشرح العقائد النسفية (ص١٢٥).

(٣) تبصرة الأدلة [ق ـ ٣٣٩/أ]، وانظر: شرح العقائد النسفية (ص١٢٥)، وإتحاف السادة المتقين (٢/ ٢٦٠)، والنبراس (ص٤٠٤)، والسواد الأعظم (ص٣٨)، والبداية (ص١٥٥).

شيء، وذلك لأن الرجل إذا لم يداوم ويثبت على الإيمان فهو مرتد والعياذ بالله تعالى، فتأويل نصوص الزيادة في الإيمان بالدوام والثبات باطل بل هو تحريف محض، وحقيقة هذا التأويل تفسير زيادة الإيمان بزيادة زمنه بسبب الثبات والاستمرار عليه، ومعلوم أن ما ثبت عل حاله إذا طالت مدته لا يقال له قد زاد، لأنه حقيقة ثابتة لم تحصل بها زيادة. نعم لا شك أن من داوم وثبت على الإيمان يكثر طاعته وعبادته لله تعالى، فمن هذه الناحية يزيد إيمانه.

٢ ـ لو سلم قولكم لزم منه ألا يفضل رسول الله ﷺ على أدنى أفراد أمته إلا باستمرار الإيمان لا بزيادة اليقين والأعمال. وبطلانه لا يخفى على الحمقى فضلاً عن العقلاء.

ثالثاً: قولهم: «إن المراد من نصوص الزيادة والنقصان ازدياد نوره وضيائه في القلوب. . .».

الجواب عنه:

إن حمل نصوص زيادة الإيمان ونقصانه على ازدياد نور الإيمان وضعفه حمل للنصوص على المجاز بدون تعذر الحقيقة. ويقال كذلك: إن زيادة نور الإيمان وضعفه يلزم منهما قوة الإيمان وضعفه وزيادته ونقصانه، وذلك أنه إذا لم تحدث الزيادة والنقصان في الإيمان لم تحدث القوة والضعف في نوره، فقوة نور الإيمان وضعفه لأجل قوة الإيمان نفسه وضعفه وهذا أمر واضح لا يخفى على ذي لب.

بل يمكن أن يقال: إن هذا اعتراف بزيادة الإيمان، فإن الإيمان نور يجعله الله في قلب من شاء من عباده، فسواء قيل: الإيمان يزيد وينقص، أو نور الإيمان يزيد وينقص، فلا مشاحة بالتعبير إذا كانت الحقيقة واحدة. فتبين أن هذا التأويل نقض لأصل مذهبهم، وهو أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص.

رابعاً: قولهم: «إن المراد من الزيادة الثواب على الإيمان. . .».

الجواب عنه:

أن قول السلف يقتضي الزيادة والنقصان في الإيمان وثواب الإيمان ليس بإيمان، وهذا ظاهر لأن الثواب جزاء على عمل الطاعة، وليس هو الطاعة كما أن العقاب على المعصية ليس هو المعصية[1].

---

(١) انظر: كتاب مسائل الإيمان للقاضي أبي يعلى (ص٤٠٧).

وبهذا يتبين لنا ضعف استدلالاتهم وتهافت تأويلاتهم، والقول الحق في هذه المسألة هو ما دل عليه الكتاب والسنة وما عليه سلف الأئمة من أن الإيمان يزيد وينقص.

٢١ معنى كلام الطحاوي: «والإيمان واحد، وأهله في أصله سواء والتفاضل بينهم بالخشية والتقى، ومخالفة الهوى وملازمة الأولى»:

هذا غلط؛ لأن الإيمان ليس واحداً، وليس أهله سواء، بل الإيمان يتفاضل، ويزيد وينقص، إلا عند المرجئة.

والتصديق ليس الناس فيه سواء، فليس إيمان أبي بكر كإيمان الفاسق من المسلمين، هذا من ناحية أصله.

وكذلك من ناحية العمل فالناس يتفاضلون في العمل، فمنهم الظالم لنفسه، ومنهم المقتصد، ومنهم السابق بالخيرات.

قال ابن أبي العز: «درجات نور «لا إله إلا الله» في قلوب أهلها لا يحصيها إلا الله تعالى، فمن الناس من نور «لا إله إلا الله» في قلبه كالشمس، ومنهم من نورها في قلبه كالكوكب الدري، وآخر كالمشعل العظيم، وآخر كالسراج المضيء وآخر كالسراج الضعيف، وهكذا تظهر الأنوار يوم القيامة بأيمانهم وبين أيديهم على هذا المقدار بحسب ما في قلوبهم من نور الإيمان والتوحيد علماً وعملاً»[١].

٢٢ مذهب أهل السنة والجماعة في الاستثناء في الإيمان:

سلك أهل السنة والجماعة مسلكاً وسطاً في الاستثناء في الإيمان وتركه، وفصَّلوا في ذلك؛ فلم يقولوا بتحريم الاستثناء مطلقاً كقول المرجئة، ولا بوجوب الاستثناء مطلقاً كقول الكُلَّابية، وإنما أوجبوه في حال ومنعوه في حال، مستدلين بأدلة من الكتاب والسنة، وقولهم هذا راجع إلى أن الإيمان يزيد وينقص، فلما كان الإيمان منه مطلق ومقيد فهو على مرتبتين: مرتبة الإيمان المطلق الكامل، ومرتبة الإيمان؛ فأجازوا الاستثناء في الأول دون الثاني.

٢٣ مذهب مرجئة الفقهاء في الاستثناء والجواب عليه:

منع الإمام أبو حنيفة رحمه الله تعالى الاستثناء في الإيمان وهو أن يقول المؤمن: أنا مؤمن إن شاء الله. نص على ذلك غير واحد من أهل العلم

(١) شرح العقيدة الطحاوية (ص٣١٦) تحقيق أحمد شاكر.

كالتفتازاني، والنسفي، والسمرقندي، وابن الهمام، وقاسم بن قطلوبغا. ومنع الاستثناء بناء على ما ذهب إليه في حقيقة الإيمان من أنه تصديق وإقرار باللسان، لأن القول بالاستثناء عندي يقتضي الشك في الإيمان، إذ التصديق أمر معلوم لا تردد فيه عند تحقيقه، ومن تردد في تحقيقه لم يكن مؤمناً قطعاً. وإذا لم يكن الاستثناء للشك والتردد فالأولى أن يترك بل يقال: أنا مؤمن حقاً دفعاً للإيهام[1].

واستدل الإمام أبو حنيفة رحمه الله تعالى على مذهبه بما يأتي:

ورد في الوصية عن أبي حنيفة أنه قال: «المؤمن مؤمن حقاً والكافر كافر حقاً وليس في الإيمان شك، كما ليس في الكفر شك لقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾ [الأنفال: ٤].

﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾ [النساء: ١٥١]...»[2].

قال شارح الوصية: «أقول: إن من قام به التصديق فهو مؤمن حقاً، ومن قام به خلافه فهو كافر حقاً.. قال أهل السنة والجماعة: إذا أتى بالإيمان يقول أنا مؤمن حقاً من غير شك ولا يقول: أنا مؤمن إن شاء الله... كذا في بحر الكلام»[3].

واستدل أصحاب أبي حنيفة لمذهبه ذلك بوجوه:

أحدها: أنه قرر أن الإيمان اسم للتصديق، والتصديق من المعاني الحقيقية المعلومة التي إذا تحققت في محل وجب اتصافه بها كالقعود والجلوس والسواد والبياض، ولا شك أن هذه الأوصاف إذا حصلت لشيء صح أن يقال له قاعد، جالس، أسود، أبيض، لا محالة بدون استثناء. فكذلك الإيمان إذا حصل لشخص صح أن يقال إنه مؤمن حقاً بدون استثناء[4].

الثاني: «أن من فرق بين الاستثناء في كونه مؤمناً عنده، وبين الاستثناء في كونه مؤمناً عند الله بأن يقول: أنا مؤمن ـ أي عندي ـ بلا استثناء، ولكن أنا مؤمن عند الله، فتفريقه هذا باطل، لأن الإيمان إذا تحقق في الحقيقة كان صاحبه مؤمناً عند الله حقيقة أيضاً، إذ لا شك في حصول الإيمان الآن، وإنما الشك في كون الإيمان باقياً عند موت صاحبه، لأن كون الرجل يموت على الإيمان خارج عن موضوعنا هذا.

---

(١) انظر: شرح المقاصد (٥/ ٢١٥)، بحر الكلام (ص٤١)، الصحائف الإلهية (ص٤٦١)، المسايرة (٢/ ٣٨١)، وحاشية قاسم بن قطلوبغا على المسايرة (٢/ ٣٨١).

(٢) الوصية مع شرحها لحسين بن إسكندر الحنفي (ص٤).

(٣) شرح كتاب الوصية (ص٤).

(٤) تبصرة الأدلة [٣٤٠/ب].

بل الكلام في صحة إطلاق المؤمن على من عنده إيمان لا استثناء، سواء يبقى هذا الإيمان أم يزول، كما أن من حصل له القعود والقيام صح إطلاق قاعد وقائم عليه بلا استثناء، سواء يزول القعود والقيام أم لا»[(١)].

الثالث: «أن الله ﷻ قد شهد قطعاً بالإيمان لمن آمن بالله ورسله بدون استثناء فقال: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ﴾ [البقرة: ٢٨٥]. . .»[(٢)].

الرابع: «أن الله تعالى مدح المؤمنين بقطعهم بإيمانهم دون استثناء حيث قال حكاية عن المؤمنين: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ﴾ [آل عمران: ١٩٣].

ولم يأمرهم بالاستثناء»[(٣)].

الخامس: «أن الاستثناء يرفع جميع العقود نحو الطلاق والعتاق والنكاح والبيع فكذلك يرفع عقد الإيمان»[(٤)].

السادس: استدل قاسم بن قطلوبغا بحديث الحارث بن مالك الأنصاري ولفظه: (**أنه مر برسول الله ﷺ فقال له: كيف أصبحت يا حارث؟ قال: أصبحت مؤمناً حقاً**).

وحديث عبد الله بن زيد الخطمي ولفظه: (**إذا سئل أحدكم أمؤمن أنت فلا يشك**).

وحديث علي بن أبي طالب ولفظه: (**كنا جلوساً عند النبي ﷺ إذ دخل علينا عويمر أبو الدرداء فقال: يا نبي الله، إني أقول أنا مؤمن حقاً، فقال: يا أبا الدرداء، إن لم تقل حقاً فكأنك قلت أنا مؤمن باطلاً**).

الجواب عن أدلة أبي حنيفة وأصحابه:

أ ـ الجواب عن دليل أبي حنيفة:

قول الإمام أبي حنيفة رحمه الله تعالى: «المؤمن مؤمن حقاً، والكافر كافر حقاً، وليس في الإيمان شك، كما ليس في الكفر شك. . .».

الجواب عنه:

إن هذا الاستدلال في غير محله، لأن قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُمۡ

---

(١) تبصرة الأدلة [٣٤٠/ب ـ ٣٤١/أ، خ] الأزهرية.

(٢) تبصرة الأدلة [٣٤١/ب]. (٣) بحر الكلام (ص٤٠).

(٤) حاشية قاسم بن قطلوبغا على المسايرة (٢/ ٣٨١ ـ ٣٨٢).

دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾ [الأنفال: ٤]. وورد بعد قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾﴾ [الأنفال: ٢].

فالمؤمنون حقاً هم المتصفون بهذه الصفات، وليس كل مؤمن كذلك. فهؤلاء هم الكُمَّل من المؤمنين الذين حققوا الإيمان ظاهراً وباطناً. ومن لم يتصف بتلك الصفات التي ذكرها الله لم يكن مؤمناً حقاً، وإن كان مؤمناً، كما يفيد ذلك القصر في قوله تعالى: ﴿حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٤].

المعنى هؤلاء هم المؤمنون حقاً لا غيرهم، فكيف يصح مع ذلك أن يقول كل من حصل له أصل الإيمان أنا مؤمن حقاً. أما قوله: «فليس في الإيمان شك» فنعم إن الشك ينافي صحة الإيمان فلا يجتمع الإيمان والشك وهذا لا يوجب منع الاستثناء في الإيمان على وجه البراءة من تزكية النفس، لكن يوجب منع الاستثناء على وجه التردد، وهذا لا يصدر ممن يؤمن بالله واليوم الآخر ولا يقصده من يعلم من نفسه الإيمان واليقين.

ب ـ الجواب عن أدلة أصحاب أبي حنيفة:

الدليل الأول:

«إنه تقرر أن الإيمان اسم للتصديق، والتصديق من المعاني الحقيقية المعلومة...».

الجواب عنه:

يقال: إن أساس هذه الشبهة هو أن الإيمان هو التصديق بالقلب فقط، وأنه لا يزيد ولا ينقص. وهذا الأساس باطل والحق المعلوم بالاضطرار من دين الإسلام أن الإيمان هو التصديق بالجنان، والإقرار باللسان، والعمل بالأركان كما تقدم بيانه.

وإذا ثبت أن الإيمان شيء مركب من أمور ثلاثة وأنه يزيد وينقص وأن الإيمان مثل القعود والقيام ونحوهما من الأمور المحسوسة المعلومة بالقطع، حتى يقطع الإنسان بأنه مؤمن كما يقطع بأنه قاعد أو قائم، لأن للإنسان أن يجزم قطعاً بأنه أتى بجميع متطلبات الإيمان وجميع مقتضياته، وأنه قد تجنب جميع ما يناقض الإيمان ويخالفه، إذاً فقياس «الإيمان» على «القيام والقعود» قياس مع الفارق، لأن الإنسان إذا قام أو قعد صح أن يقال عنه: إنه قائم أو قاعد قطعاً لأن ذلك

من الأمور المحسوسة التي تختلف عن الأمور القلبية والنفسية كالإيمان الذي له مقتضياته ومتطلباته، فإذا قال: أنا مؤمن «بدون الاستثناء» فقد زكى نفسه بشيء لم يتوفر فيه مقتضياته وقال قولاً بدون علم.

فالحاصل أن قياس الإيمان على القعود باطل، لأنه قياس مع الفارق، وتمثيل في غير محله، وخارج عن الموضوع وبالله التوفيق.

الدليل الثاني:

«إن من فرق بين الاستثناء في كونه مؤمناً عنده وبين الاستثناء في كونه مؤمناً عند الله...».

الجواب عنه:

يقال: إن هذه الشبهة مبنية على أساسين:

الأول: أنه ظن الاستثناء في الإيمان لأجل الموافاة والخاتمة، لا لأجل الإيمان الموجود الآن.

الثاني: أنه لا فرق بين كون الرجل مؤمناً عند نفسه، وبين كونه مؤمناً عند الله.

وكلا هذين الأساسين ممنوع:

أما الأول: فلأن سلف هذه الأمة وأئمة السنة لم يقولوا بجواز الاستثناء في الإيمان لأجل الموافاة والخاتمة، وليس هذا مأخذهم في جواز الاستثناء قطعاً، وهذا خارج عن محل النزاع، بل محل النزاع هو الإيمان الحالي الموجود الآن، فكان سلف هذه الأمة وأئمة السنة يرون جواز الاستثناء في الإيمان الموجود بقطع النظر عن الموافاة والخاتمة لئلا يقع الإنسان في تزكية نفسه بدون علم.

والذي ظن أن السلف إنما كانوا يجوّزون الاستثناء في الإيمان، إنما أرادوا الموافاة والخاتمة فقد أبعد النجعة وأتى بالباطل، وكذب على سلف هذه الأمة أو أخطأ عليهم في بيان تفسير مأخذهم ظناً منه أن هذا هو مذهب السلف، فأخطأ في بيان مذهبهم، ومثل هذا قد وقع فيه بعض الكُلَّابية والأشعرية، بل بعض من ينتسب إلى مذهب أحمد وغيرهم أيضاً، مع أن كلام بعض السلف صريح في أن الاستثناء في الإيمان لأجل أن لا يقع الإنسان في تزكية نفسه، ولم يقل منهم إن الاستثناء لأجل الموافاة والخاتمة[1].

---

(١) انظر: كتاب الإيمان لشيخ الإسلام (ص٣١٩، ٤١٣، ٤١٨، ٤١٩، ٤٢٦).

وأما الثاني: فلا شك أن الرجل يكون مؤمناً عند نفسه ولا يكون مؤمناً عند الله، كالذي يرتكب شركاً أكبر أو غيره من نواقض الإسلام ومع ذلك يظن أنه مؤمن وهذا واضح، أفلا يحبط عمل الإنسان وهو لا يشعر؟ فكيف مع ذلك يقال أن من كان مؤمناً عند نفسه يجب أن يكون مؤمناً عند الله.

ولا شك أن من كان مؤمناً كما أمر الله فهو مؤمن عند الله، ولا يقدح فيه الاستثناء الذي منشؤه الحذر من تزكية النفس، وإنما يقدح فيه الاستثناء الذي منشؤه الشك. ومعلوم أن الاستثناء على هذا الوجه لا يصدر من مؤمن صحيح الإيمان، لأن الإيمان والشك لا يجتمعان.

الدليل الثالث:

«إن الله ﷻ قد شهد قطعاً بالإيمان لمن آمن بالله ورسوله بدون استثناء...».

الجواب عنه:

يقال: إن قياس شهادة العبد لنفسه بالإيمان بدون استثناء على شهادة الله تعالى للمؤمنين بالإيمان بدون الاستثناء قياس باطل، لأن الله تعالى لا يقول إلا حقاً ولا يشهد على حق واقع، فإذا شهد الله تعالى لشخص أو أشخاص بالإيمان دل ذلك قطعاً ويقيناً على حصول الإيمان وأنهم مؤمنون. وهكذا شهادة رسول الله ﷺ لشخص بالإيمان دليل على كونه مؤمناً حقاً يقيناً، أما شهادة الناس بعضهم لبعض بالإيمان، أو شهادة الشخص لنفسه بالإيمان، فقد تكون صحيحة وقد تكون غير صحيحة، ولهذا أنكر الله تعالى على الأعراب حين ادعوا الإيمان حين لم يتمكن الإيمان في قلوبهم قال تعالى: ﴿۞ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾﴾ [الحجرات: ١٤].

فقد ظنوا أنفسهم مؤمنين كغيرهم من المؤمنين المجاهدين الصادقين المذكورين في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الحجرات: ١٥].

ولم يكن هؤلاء الأعراب كذلك.

الدليل الرابع:

«إن الله تعالى مدح المؤمنين بقطعهم بإيمانهم دون استثناء...».

الجواب عنه:

يقال: ما في هذه الآية خارج عن النزاع لأن النزاع في قول القائل: أنا مؤمن

إن شاء الله بصيغة اسم الفاعل وبالجملة الاسمية التي تدل على الثبات والدوام فتشعر بالكمال الذي في دعواه تزكية النفس، وأما الجملة الفعلية فهي بخلاف ذلك، ثم إنها في الآية قد وردت في مقام التوسل إلى الله، لا في مقام الإخبار عن النفس في خطاب الناس الذي تدخله الدعوى والفخر. وفي ضوء هذا الفرق بين الجملة الاسمية والفعلية يجوز أن يقول المرء: آمنت بالله ورسوله وكتبه بدون استثناء وقد كان السلف يرون الاستثناء في الإيمان بأن يقول المرء: أنا مؤمن إن شاء الله، ولكن لو قال: آمنت بالله وملائكته وكتبه ورسله لم يحتج للاستثناء.

قال الإمام أبو بكر الخلال جامع علوم الإمام أحمد: «أخبرني أحمد بن أصرم المزني أن أبا عبد الله قيل له: إذا سألني الرجل أمؤمن أنت؟

قال: سؤاله بدعة، لا يشك في إيمانك أو قال: لا نشك في إيماننا.

قال المزني: وحفظي أن أبا عبد الله قال: أقول كما قال طاووس: آمنت بالله وملائكته وكتبه ورسله»[(١)].

وهذا لأن المرء إذا قصد المطلق الكامل ينبغي له أن يستثني، وإذا قصد مطلق الإيمان فلا يحتاج إلى الاستثناء. قال شيخ الإسلام: «... فلما علم السلف مقصدهم ـ يعني كيد المرجئة ـ صاروا يكرهون الجواب ـ أي جواب قولهم أمؤمن أنت ـ أو يفصلون في الجواب، وهذا لأن لفظ الإيمان فيه إطلاق وتقييد، فكانوا يجيبون بالإيمان المقيد الذي لا يستلزم أنه شاهد فيه لنفسه بالكمال، ولهذا كان الصحيح أنه يجوز أن يقال: أنا مؤمن بلا استثناء إذا أراد ذلك، لكن ينبغي أن يقرن كلامه بما يبين أنه لم يرد الإيمان المطلق الكامل، ولهذا كان أحمد يكره أن يجيب عن المطلق بلا استثناء يقدمه»[(٢)].

وقال: فصل: وأما الاستثناء في الإيمان... فالناس فيه على ثلاثة أقوال:

«منهم من يوجبه، ومنهم من يحرمه، ومنهم من يجوّز الأمرين باعتبارين، وهذا أصح الأقوال...»[(٣)].

فتبين بهذا أن قول السلف في الاستثناء راجع إلى أن الإيمان يزيد وينقص،

---

(١) السنة للخلال (ص٦٠١)، وقال محققها: إسناده صحيح ونقل كلام الإمام أحمد هذا بهذا الإسناد بالجزم شيخ الإسلام في كتاب الإيمان ضمن مجموع الفتاوى (٧/ ٤٤٩).
(٢) كتاب الإيمان ضمن مجموع الفتاوى (٧/ ٤٤٨، ٤٤٩).
(٣) كتاب الإيمان ضمن مجموع الفتاوى (٧/ ٤٢٩).

فلما كان الإيمان منه مطلق ومقيد فهو على مرتبتين: مرتبة الإيمان المطلق الكامل، ومرتبة مطلق الإيمان، فأجازوا في الأول دون الثاني.

الدليل الخامس:

«إن الاستثناء برفع جميع العقود نحو: الطلاق والعتاق والنكاح والبيع، فكذلك يرفع عقد الإيمان».

الجواب عنه:

أن يقال هذا من التلبيس، فإنه ليس في الاستثناء في عقد الإيمان، وهو ما يحصل به الدخول في الإسلام، فإن ذلك عقد ينافيه الاستثناء، وإنما النزاع في قول المسلم مخبراً عن نفسه: أنا مؤمن وهذا إخبار وليس بإنشاء.

الدليل السادس:

«استدل قاسم قطلوبغا بحديث ابن مالك الأنصاري ولفظه: **(أنه مر برسول الله ﷺ فقال له: كيف أصبحت يا حارثة، قال: أصبحت مؤمناً حقاً)**.

وحديث عبد الله بن زيد الخطمي ولفظه: **(إذا سئل أحدكم أمؤمن أنت فلا يشك)**. وحديث علي بن أبي طالب ولفظه: **(كنا جلوساً عند النبي ﷺ إذ دخل علينا عويمر أبو الدرداء فقال: يا نبي الله إني أقول: أنا مؤمن حقاً، فقال: يا أبا الدرداء إن لم تقل حقاً فكأنك قلت: أنا مؤمن باطلاً)**.

الجواب عنه:

أما حديث الحارث بن مالك فأخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» ٣/ ٣٠٢) من طريق زيد بن الحباب، قال: حدثنا ابن لهيعة، عن خالد بن يزيد السكسكي، عن سعيد ابن أبي هلال، عن محمد بن الجهم، عن الحارث بن مالك، قال الهيثمي: «رواه الطبراني في الكبير وفيه ابن لهيعة وفيه من يحتاج إلى الكشف عنه»[١].

فيظهر لي أنه أراد بمن يحتاج إلى الكشف عنه محمد بن الجهم، فلم أر من ترجم له سوى الحافظ ابن حجر، إذ ذكره في القسم الرابع من الإصابة وقال: إنه من أتباع التابعين[٢].

وعلى هذا فإسناد هذا الحديث منقطع، إذ محمد بن الجهم لم يدرك أحداً من الصحابة.

---

(١) مجمع الزوائد (١/ ٥٧).
(٢) الإصابة (٦/ ٣٣٠).

وأخرجه عبد الرزاق في («المصنف» ١١/ ١٢٩ح ٢١١٤) من طريق معمر عن صالح بن مسمار وجعفر بن برقان أن النبي ﷺ قال للحارث بن مالك، وأخرجه ابن المبارك في كتاب («الزهد» ص١٠٦ ح٣١٤) من طريق معمر عن صالح بن مسمار أن رسول الله ﷺ قال للحارث بن مالك، وأورده ابن حجر في الإصابة وقال: «هو معضل».

وأخرجه ابن أبي شيبة في («المصنف» ١١/ ٤٣ح ١٠٤٧٤) وفي كتاب («الإيمان» ص٣٨) من طريق ابن نمير عن مالك بن مغول عن زبيد.

قال الألباني في حاشيته على كتاب الإيمان لابن شيبة: «والحديث معضل فإن زبيداً من الطبقة السادسة التي لم تلق أحداً من الصحابة».

وأخرجه البزار كما في («كشف الأستار» ١/ ٢٦ ح٣٢)، والبيهقي في الشعب كما في («الإصابة» ١/ ٣٠٣) كلاهما من طريق يوسف بن عطية عن ثابت عن أنس بن مالك.

قال البزار على أثره: «تفرد به يوسف وهو لين الحديث».

وقال الهيثمي: «رواه البزار وفيه يوسف بن عطية لا يحتج به»[(١)].

وقال البيهقي كما في «الإصابة»: «منكر، وقد خبط فيه يوسف فقال مرة: الحارث، وقال مرة: حارثة»[(٢)].

قلت: يوسف بن عطية قال عنه الحافظ في التقريب: «متروك».

وأما حديث عبد الله بن زيد الخطمي، فأخرجه الطبراني كما في («مجمع الزوائد» ١/ ٥٥)، وقال عنه الهيثمي: «وفي إسناده أحمد بن بديل وثقه النسائي وأبو حاتم وضعفه آخرون».

قلت: قال فيه الحافظ في التقريب: «صدوق له أوهام».

لكن الحديث لو صح، لم يكن دليلاً على منع الاستثناء في الإيمان الذي يقول به أهل السنة، بل على منع الاستثناء الذي يتضمن الشك والتردد في الإيمان، وهو محرم عند الجميع، أنه يناقض الإيمان.

فالحديث يدل على منع الشك في الإيمان، لا على منع الاستثناء الذي يقول به أهل السنة خوف التزكية بدون علم مع عدم (الشك) في الإيمان. وهذا

---

(١) مجمع الزوائد (١/ ٥٧).
(٢) الإصابة (١/ ٣٠٣).

الحديث لا ينافي الاستثناء فضلاً عن أن الاستدلال بهذا الحديث باطل.

فواعجباً لأهل الكلام يقولون: إن أخبار الآحاد ظنية فلا يحتجون بها في العقائد، ثم يحتجون بمثل هذا الحديث الذي لا يعرف في كتب السنة المسندة، أليس تناقضاً واضحاً؟

وبعد، فقد تبين مما تقدم ضعف القول بتحريم الاستثناء في الإيمان.

(علاقة الإسلام بالإيمان).

٢٤ معنى الإسلام:

هو الاستسلام لله وحده بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت، فهو الخضوع لله تعالى والعبودية له وحده، فمن استكبر عن عبادته وأشرك معه غيره فغير مسلم[١].

٢٥ علاقة الإسلام بالإيمان:

اختلف الناس في مسمى الإيمان والإسلام على مذاهب:

أحدها: أن الإسلام والإيمان شيء واحد وهما مترادفان، وهذا قول البخاري على ما قاله الحافظ ابن حجر في الفتح والمزني والمروزي، وابن منده، وابن عبد البر والبغوي، وأبو يعلى[٢].

الثاني: التفريق بين الإسلام والإيمان، فالإسلام الكلمة، والإيمان العمل. وهذا قول الزهري[٣].

الثالث: قول طائفة أجابوا بما أجاب به النبي ﷺ حين سئل عن الإسلام والإيمان، حيث فسر الإسلام بالأعمال الظاهرة، والإيمان بالإيمان بالأصول الستة، ذكره ابن أبي العز ولم ينسبه إلى أحد.

الرابع: أن النسبة بين الإسلام والإيمان عموم وخصوص مطلق. فالإسلام أعم مطلقاً والإيمان أخص مطلقاً، وذلك أن الإسلام اسم لما ظهر من الأعمال، والإيمان اسم لما بطن من الاعتقاد كما في حديث جبريل. فدل على أن المسلم

---

(١) المنتقى لابن عثيمين (ص٤).

(٢) انظر: فتح الباري (١/ ١١٤)، ومسند أبي عوانة (١/ ٤٩)، وتعظيم قدر الصلاة (١/ ٤١٨، ٢/ ٥٠٦، ٥٣٥)، والإيمان لابن منده (١/ ٣٢١)، والتمهيد (٩/ ٢٤٧ ـ ٢٥٠)، وشرح السنة (١/ ١٠)، ومسائل الإيمان للقاضي أبي يعلى (ص٤٢٩).

(٣) مختصر سنن أبي داود (٧/ ٤٩).

قد يكون مؤمناً، وقد لا يكون مؤمناً، أما المؤمن فهو مسلم في جميع الأحوال، فالمسلم أعم مطلقاً والمؤمن أخص مطلقاً. فكل مؤمن مسلم ولا عكس، إذ يجوز أن يكون مسلماً ولا يكون مؤمناً. وإليه ذهب الإمام أبو سليمان الخطابي[١].

الخامس: أن الإيمان والإسلام يتفقان في موطن إذا أفردا ويختلفان في موطن آخر إذا ذكرا معاً، فقد يطلق الإسلام ويراد به ما يشمل الإيمان، ويطلق الإيمان ويراد به ما يشمل الإسلام كذلك، وقد يذكر الإسلام ولا يراد به الإيمان، وقد يطلق الإيمان ولا يراد به الإسلام.

وحاصل هذا المذهب أن الإسلام والإيمان إذا افترقا اجتمع مدلولهما، وإذا اجتمعا اختلف مدلولهما، وهذا وقول أبي بكر الإسماعيلي وابن الصلاح وشيخ الإسلام وابن رجب وابن أبي العز[٢].

أما أبو حنيفة فهل الإسلام والإيمان عنده بمعنى واحد؟ أم أن أحدهما غير الآخر؟

فالذي ورد في الفقه الأكبر برواية ابنه حماد ما حاصله أن الإسلام والإيمان بينهما فرق من ناحية اللغة، فالإسلام هو التسليم والانقياد لأوامر الله، والإيمان هو التصديق كما تقدم تقرير مذهبه، فيطلق الإسلام على الأعمال الظاهرة والإيمان على التصديق.

وأما من ناحية الشرع فبين الإسلام والإيمان تلازم، فلا يوجد إسلام بلا إيمان لا إيمان بلا إسلام.

قال أبو حنيفة: «والإسلام هو التسليم والانقياد لأوامر الله تعالى، فمن طريق اللغة فرق بين الإسلام والإيمان، ولكن لا يكون إيمان بلا إسلام، ولا يوجد إسلام بلا إيمان فهما كالظهر مع البطن. والدين اسم واقع على الإيمان والإسلام والشرائع كلها»[٣].

وهذا يدل دلالة صريحة على المغايرة بين مسمى الإيمان والإسلام في اللغة لكنهما في الشرع متلازمان.

هذا وقد شرح المغنساوي كلام الإمام أبي حنيفة هذا على وفق ما تقدم ذكره

---

(١) مختصر سنن أبي داود (٧/ ٤٩، ٥٠).

(٢) انظر: جامع العلوم والحكم (١/ ٦٤، ٦٧، ٧٢)، وشرح مسلم للنووي (١/ ١٤٧ ـ ١٤٨)، وكتاب الإيمان (ص٢٤٦، ٢٥٧).

(٣) الفقه الأكبر (ص٣٠٤ ـ ٣٠٥).

وكذا القاري[١].

وزاد المغنساوي قائلاً في شرح كلام أبي حنيفة: «ولا يوجد إسلام بلا إيمان: لأن الإسلام هو التسليم والانقياد لأوامر الله تعالى، وذلك لا يوجد إلا بعد التصديق والإقرار، فلا يعقل بحسب الشرع مؤمن ليس بمسلم، أو مسلم ليس بمؤمن، وهذا مراد القوم بترادف الاسمين واتحاد المعنى»[٢].

قلت: مراده بالقوم ها هنا الحنفية الماتريدية، ومعنى ترادف الاسمين مع اتحاد المعنى أن يكون لمسمى واحد اسمان فما فوق.

قال الجرجاني: «الترادف عبارة عن الاتحاد في المفهوم، وقيل: هو توالي الألفاظ المفردة الدالة على شيء واحد باعتبار واحد»[٣].

أما الحنفية الماتريدية فنجد بعضهم يصرح بأن الإسلام والإيمان مترادفان: منهم أبو المعين النسفي فقد قال: «فصل. وإذا عرف أن الإيمان هو التصديق؛ عرف أن الإيمان والإسلام واحد. والاسمان من قبيل الأسماء المترادفة وكل مؤمن مسلم وكل مسلم مؤمن»[٤].

ونرى بعضهم يصرح بأنهما واحد، كنور الدين الصابوني فقد قال: «ثم إن الإسلام والإيمان واحد عندنا خلاف أصحاب الظواهر، وذلك أن الإيمان تصديق الله تعالى فيما أخبر من أوامره ونواهيه، والإسلام هو الانقياد والخضوع للألوهية، فالإيمان لا ينفك عن الإسلام حكماً فلا يتغايران»[٥].

وعمر النسفي فقد قال: «والإيمان والإسلام واحد»[٦].

وقال التفتازاني[٧] في تعليل هذا القول: «عين ما نقلت عن الصابوني آنفاً وهكذا عبد الله النسفي فقد صرح بأنهما واحد، وقال في تفسيره لقوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٣٥ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝٣٦﴾ [الذاريات: ٣٥ ـ ٣٦] قال: (وفيه دليل على أن الإيمان والإسلام واحد»[٨].

---

(١) شرح الفقه الأكبر (ص١٣٠ ـ ١٣١).
(٢) شرح الفقه الأكبر للمغنساوي (ص٣٥).
(٣) التعريفات (ص٧٧).
(٤) تبصرة الأدلة [٣٤١/أ].
(٥) البداية (ص١٥٧).
(٦) العقيدة النسفية مع شرحها للتفتازاني (ص١٢٨).
(٧) العقيدة النسفية مع شرحها للتفتازاني (ص١٢٨).
(٨) مدارك التنزيل (٣/٤١٩).

والذي يظهر لي أن هؤلاء الذين قالوا بالترادف لا يقصدون الترادف الاصطلاحي بمعنى أن الإسلام والإيمان اسمان لمسمى واحد، بل يقصدون أن الإسلام والإيمان في الشرع لا ينفك أحدهما عن الآخر، فهما متلازمان. وهذا يوافق ما قاله أبو حنيفة في الفقه الأكبر، ولذلك قال المغنساوي في التوفيق بين قول من قال بالترادف وقول من قال بالتلازم: «وهذا مراد القوم بترادف الاسميين واتحاد المعنى»(١).

وقد علمنا مما تقدم من قول الصابوني، وشارح الفقه الأكبر المغنساوي أن معنى ترادف الإسلام والإيمان كونهما متلازمين، فيرجع هذا القول في المعنى إلى ما تقدم عن الإمام أبي حنيفة من التغاير مع التلازم بين الإسلام والإيمان. أما ما ذكره أبو المعين النسفي فلا يتفق مع مذهب أبي حنيفة ويلزم منه على قوله أن الإيمان هو التصديق، وأن الإسلام كذلك هو التصديق.

واستدل أبو المعين النسفي بما يأتي:

١ ـ قوله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥].

٢ ـ قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩].

٣ ـ قوله تعالى حكاية عن موسى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [الذاريات: ٣٥ ـ ٣٦].

٤ ـ وقوله تعالى حكاية عن موسى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [يونس: ٨٤].

٥ ـ وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [الروم: ٥٣].

٦ ـ وقول النبي ﷺ: **(لا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة)**(٢)، وفي رواية: **(إلا نفس مسلمة)**(٣).

الجواب عن أدلة أبي المعين النسفي:

أ ـ يقال: إن غاية ما في هاتين الآيتين: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ

---

(١) شرح الفقه الأكبر للمغنساوي (ص٣٥).

(٢) أحمد (١/٧٩)، والترمذي (٣٠٩٢)، وقال: هذا حديث حسن، والحاكم في المستدرك (٤/١٧٨)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وأقره الذهبي.

(٣) مسلم (١٧٨).

مِنْهُ﴾ ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ أن كل دين غير دين الإسلام باطل. وليس فيهما إشارة إلى أن الإسلام المذكور في هاتين الآيتين هو الإسلام الشرعي المتضمن للإيمان الشرعي. وليس المراد بالإسلام في هاتين الآيتين الانقياد ظاهراً فقط، فلا دلالة في هذه الآية على أن الإسلام والإيمان مترادفان.

ب ـ أما قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [الذاريات: ٣٥ ـ ٣٦].

فغاية ما في هذه الآية جواز إطلاق المؤمن على المسلم وليس فيهما إشارة إلى ترادفهما.

قال ابن أبي العز: «فلا حجة فيه لأن أهل البيت المخرج كانوا متصفين بالإسلام والإيمان ولا يلزم من الاتصاف بهما ترادف».

وأيضاً رد هذا الاستدلال أحد أئمة الحنفية الماتريدية الهندية عبد العزيز الفريهاري حيث قال: «الاستثناء لا يستلزم اتحاد المستثنى والمستثنى منه، بل يجوز أن يكون الأول أعم، كقولك أخرجنا العلماء فلم نجد إلا النحاة»(١).

ج ـ وأما الاستدلال بقوله تعالى حكاية عن موسى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [يونس: ٨٤].

٥ ـ وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [الروم: ٥٣].

يقال: غاية ما في هاتين الآيتين صحة إطلاق المسلم على المؤمن، لأن الإسلام والإيمان مترادفان، أعني أن هؤلاء كانوا مسلمين مؤمنين ولا يلزم من ذلك الترادف بين الإيمان والإسلام، أو أن كل مؤمن مسلم، كإطلاق الكتاب على القرآن فهما ليسا مترادفين؛ إذ كل منهما يدل على معنى في القرآن، وإن كان المسمى واحداً وهو كلام الله المنزل على محمد ﷺ.

وأما قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [الروم: ٥٣].

ففيه أن من آمن الإيمان الشرعي المتضمن الإقرار والعمل، فلا شك أنه مسلم لكن ليس فيه دليل على كون الإيمان والإسلام مترادفين.

---

(١) النبراس (ص٤١٣).

قال الإمام ابن جرير الطبري في تفسيره لهذه الآية: «لأن الذي يؤمن بآياتنا إذا سمع كتاب الله تدبره وفهمه وعقله وعمل بما فيه وانتهى إلى حدود الله الذي حد فيه فهو الذي سمع السماع النافع»(١).

د ـ وأما الاستدلال بحديث: **(لا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة)**، وفي رواية: **(إلا نفس مسلمة)**.

يقال: غاية ما في هذا الحديث جواز إطلاق المؤمن على المسلم وبالعكس، لكن هل فيه أن الإسلام والإيمان مترادفان، بمعنى أنهما اسمان لمفهوم واحد؟

لأن النفس المؤمنة التي تدخل الجنة هي مسلمة، وكذا النفس المسلمة التي تدخل الجنة هي مؤمنة. وليس المراد من الإسلام الانقياد ظاهراً كإسلام المنافقين، كما أنه ليس المراد من الإيمان مجرد التصديق بدون العمل والإقرار؟ فهذا لم يقصده رسول الله ﷺ، لأن الذي صدق بقلبه فقط ولم يقر بلسانه ولم يعمل بالأركان فهذا ليس من المؤمنين، كما أنه ليس من المسلمين؛ فلا يدخل الجنة.

الترجيح:

الذي يظهر لي أن الراجح قول من يقول إن الإسلام والإيمان يتفقان في موطن ويختلفان في موطن آخر، فقد يطلق الإيمان ويراد به الإسلام، وبالعكس، وقد يطلق الإسلام على الأعمال الظاهرة، ويطلق الإيمان على الأعمال القلبية؛ لأنه قول وسط وبه تجمع النصوص الشرعية المختلفة، لأن للإيمان حقيقة لغوية وحقيقة شرعية، وهكذا للإسلام حقيقة لغوية شرعية. فباعتبار الحقيقة اللغوية يفترق الإسلام والإيمان، وباعتبار الحقيقة الشرعية يتضمن الإيمان الإسلام.

وكذا يستلزم الإيمان الإسلام هذا مقتضى النصوص الواردة في الكتاب والسنة.

«وحاصل هذا المذهب أن الإسلام والإيمان إذا اجتمعا اختلفا في مدلولهما وإذا افترقا اجتمعا في مدلولهما، وذلك مثل ألفاظ الفقير مع المسكين والبر مع التقوى والفحشاء والمنكر، والخير والمعروف، والإثم والعدوان ونحوهما من الألفاظ التي فيها اشتراك في موطن وافتراق في موطن آخر بحسب التقييد والإطلاق. فأنت ترى أن النبي ﷺ جمع بين الإسلام والإيمان في حديث

(١) تفسير ابن جرير (٢١/٥٦).

جبريل؛ ففسر الإسلام بالأعمال الظاهرة والإيمان بالأعمال القلبية، فالإسلام في هذا الحديث الإيمان المقيد باعتقاد القلب، وليس المراد من الإسلام والإيمان الإيمان المطلق، والإسلام المطلق، لأن الإيمان المطلق يتضمن الإسلام والإسلام المطلق يتضمن الإيمان.

ففي حديث جبريل لما اجتمع الإسلام والإيمان افترق مدلولهما، وترى في قوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩] ذكر الإسلام بدون الإيمان.

فالمراد من الإسلام هنا الإسلام المطلق الشامل للإيمان، لأنه ليس المراد الإسلام الظاهر فقط، بل المراد الإسلام الذي يشمل الأعمال الظاهرة والأعمال القلبية، وهكذا لفظ الإيمان في حديث: **(لا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة)** يراد به الإيمان المطلق المتضمن للإسلام، وليس المراد بالإيمان هنا الإيمان المقيد الذي هو التصديق بالقلب فقط دون الإقرار باللسان والعمل بالأركان، ولذلك صح لنا أن نقول: إذا افترق الإيمان والإسلام اتفق مدلولهما. ثم يجب ألا يفهم أحد من قولنا: إذا اجتمعا افترقا أن الفرق بين الإسلام والإيمان فرق التباين والمغايرة الضدية بحيث لا يجتمعان في محل واحد كما هو الشأن في المتضادين المتباينين، لأن هذا المعنى ليس المقصود من التفريق، بل المراد من هذا التفريق بين الإسلام والإيمان أن لكل واحد مسمى غير الآخر مع التلازم بينهما تلازم الروح والبدن، فقد شبه شيخ الإسلام التلازم والتباين بين الإسلام والإيمان بالروح والبدن، فالروح شيء والبدن شيء إلا أنه لا حياة للبدن بلا روح والروح لا بد لها في بدن. فالإيمان كالروح والإسلام كالبدن فهما متلازمان، لا أن مسمى أحدهما غير الآخر»[1].

قال ابن أبي العز مبيناً ارتباط الإسلام بالإيمان: **(لا إيمان لمن لا إسلام له، ولا إسلام لمن لا إيمان له، إذا لا يخلو المؤمن من إسلام به يتحقق إيمانه، ولا يخلو المسلم من إيمان به يصح إسلامه»**.

فالمقصود أن الفرق بين الإسلام والإيمان ليس للتضاد والتباين بل لأجل أن لكل منهما حقيقة لغوية وشرعية يجب اعتبارها، مع التلازم بينهما بحيث لا ينفك

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٧/ ٣٦٧).

أحدهما عن الآخر كالشهادتين، لأن لكل من الشهادتين غير حقيقة الأخرى، مع التلازم بينهما، وعدم انفكاك إحداهما عن الأخرى.

(٢٦) معنى كلام الطحاوي: «وجميع ما صح عن النبي ﷺ حق»:

كل ما صح عن رسول الله ﷺ من الشرع والبيان لأمور الدين، فهذا كله حق، نؤمن به ونصدق به ونقبله سواء ما ورد بالتواتر، أما ما ورد بطريق الآحاد، وهذا هو مذهب أهل الحق. أهل السنة والجماعة وكل من كذب على رسول الله ﷺ في الحديث فإن الله قد فضحه.

(٢٧) مذهب أهل السنة في خبر الواحد:

مذهب أهل السنة والجماعة أنه إذا ثبت خبر الواحد فإنهم يأخذون به سواء كان في الاعتقاد أو الأحكام، ولا يعدلون عن النص الصحيح ولا يعارضونه بالمعقول أو الرأي أو الذوق.

وخبر الواحد إذا تلقته الأمة بالقبول عملاً به وتصديقاً له فإنه يفيد العلم اليقيني، وهو أحد قسمي المتواتر، علماً أنه لم يكن بين سلف الأمة في ذلك نزاع. ومثاله حديث عمر: **(إنما الأعمال بالنيات)**، وخبر ابن عمر: **(نهى عن بيع الولاء وهبته)**، وخبر أبي هريرة: **(لا تنكح المرأة على عمتها ولا على خالتها)**، وحديث: **(يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب)**[(١)].

(٢٨) حجية خبر الواحد:

وحجة من استدل بالآحاد:

١ - خبر من أتى مسجد قباء وأخبرهم بتحويل القبلة واستداروا إليها، وكان الرسول ﷺ يرسل رسله آحاداً ويرسل كتبه مع الآحاد ولم يكن المرسل إليهم يقولون لا نقبله لأنه خبر واحد.

٢ - قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [التوبة: ٣٣] فلا بد أن يحفظ الله حججه وبيناته على خلقه ومن أجل ذلك فضح الله من كذب على الرسول في حياته وبعد وفاته وبين حاله للناس. قال سفيان بن عيينة: ما ستر الله أحداً يكذب في الحديث. وقال عبد الله بن المبارك: لو هم رجل في البحر أن يكذب في الحديث لأصبح والناس يقولون كذاب.

---

(١) سبق تخريج هذه الأحاديث.

ولكن من وقف على سيرة الرواة وقف على شدة حذرهم من الزلل وكانوا بحيث لو قتلوا لم يسامحوا أحداً بكلمة ينقلونها على الرسول ﷺ ولا فعلوا بأنفسهم ذلك، وقد نقلوا هذا الدين إلينا كما نقل إليهم فهم حماة الإسلام وعصابة الإيمان ونقاد الأخبار، فمن ظهر له ذلك ظهر له العلم فيما نقلوه وروره.

وذكر الشافعي إجماع السلف على حجية خبر الواحد. فقد قال في كتابه «الرسالة» [ص٤٥٣ ـ ٤٥٧]: «أجمع المسلمون قديماً وحديثاً على تثبيت خبر الواحد والانتهاء إليه، بأنه لم يعلم من فقهاء المسلمين أحد إلا وقد ثبته». ا.هـ.

وقال: «ولم يزل سبيل سلفنا والقرون بعدهم إلا من شاهدنا هذه السبيل». ا.هـ.

(٢٩) التفريق بين المتواتر والآحاد بدعة دخيلة على الإسلام:

أحدث المتكلمون بدعة التفريق بين المتواتر والآحاد ثم بعد ذلك تلقاه بعض الفقهاء والأصوليون.

قال ابن القيم في الرد عليهم: «ونحن نشهد بالله ولله شهادة على البت والقطع أن الصحابة ﭫ كانوا يجزمون بما يُحَدَّث به عن رسول الله ﷺ ولم يكن أحد من الصحابة ولا أحد من أهل الإسلام بعدهم يشك فيما أخبر به أبو بكر الصديق ولا عمر ولا عثمان ولا علي ولا عبد الله بن مسعود ولا غيرهم عن رسول الله ﷺ، بل كانوا لا يشكون في خبر أبي هريرة مع تفرده بكثير من الحديث ولم يقل أحد منهم يوماً واحداً من الدهر خبرك هذا خبر واحد لا يفيد العلم. وكان حديث رسول الله ﷺ أجل في صدورهم من أن يقال فيه ذلك، وكان أحدهم إذا روى لغيره حديثاً عن رسول الله ﷺ في الصفات تلقاه بالقبول واعتقد تلك الصفة به على القطع واليقين...».

إلى أن قال: «فهذا الذي اعتمده نفاة العلم عن أخبار رسول الله ﷺ خرقوا به إجماع الصحابة المعلوم بالضرورة وإجماع التابعين وإجماع أئمة الإسلام ووافقوا به المعتزلة والجهمية والرافضة والخوارج الذين انتهكوا هذه الحرمة وتبعهم بعض الأصوليين والفقهاء وإلا فلا يعرف لهم سلف في الأمة بذلك...»[1].

---

(١) انظر: مختصر الصواعق (٢/ ٥٠٤ ـ ٥٠٨، ٢/ ٤٧٣ ـ ٤٧٥) بتصرف.

(٣٠) تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾ [الأحزاب: ٣٦]:

أي لا ينبغي ولا يليق من اتصف بالإيمان إلا الإسراع في مرضاة الله ورسوله والهرب من سخط الله ورسوله وامتثال أمرهما واجتناب نهيهما. فلا يليق بمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً من الأمور وحتماً به وألزما به أن يكون لهم الخيار هل يفعلونه أم لا؟

بل يعلم المؤمن والمؤمنة أن الرسول أولى به من نفسه. فلا يجعل بعض أهواء نفسه حجاباً بينه وبين أمر الله ورسوله.

(٣١) المخالفون لأهل السنة في خبر الواحد:

أهل البدع من الجهمية والمعتزلة وغيرهم عندهم أن الحديث المتواتر وإن كان قطعي السند فهو غير قطعي الدلالة؛ لأن الدلالة اللفظية لا تفيد اليقين والعلم، ولهذا قدحوا في دلالة القرآن على الصفات، وأما حديث الآحاد فقالوا عنه أنه لا يفيد العلم واليقين فلا يحتج به لا من جهة السند ولا المتن فأفسدوا على القلوب معرفة الرب وأسمائه وصفاته وأفعاله من جهة الرسول ﷺ وأحالوا الناس إلى قضايا وهمية ومقدمات خيالية سموها قواطع عقلية وبراهين في التحقيق ﴿كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ﴾ [النور: ٣٩].

أما أخبار الآحاد من جهة الاحتجاج وهو أن كل فريق من أرباب البدع يعرض النصوص على بدعته وما ظنه معقولاً فيما وافقه قال أنه محكم وقبله واحتج به، وما خالفه قال إنه متشابه ثم رده تفويضاً أو حرفه ويسمي تحريفه تأويلاً.

(٣٢) مستند نفاة الصفات في رد الأحاديث الصحيحة ولازم قولهم:

مستندهم في رد الأحاديث الصحيحة ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١] فكل ما جاءهم حديث يخالف قواعدهم وآراءهم وما وضعته خواطرهم وأفكارهم ردوه بـ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١] تلبيساً منهم. وتدليساً على من هو أعمى قلباً منهم وتحريفاً لمعنى الآي عن مواضعه، ففهموا من أخبار الصفات ما لم يرده الله ولا رسوله ولا فهمه أحد من أئمة الإسلام أنه يقتضي إثباتها التمثيل بما للمخلوقين ثم استدلوا على بطلان ذلك بقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١].

ولزم من قول النفاة ـ ما وقعوا فيه من الضلال ـ مفاسد منها:

١ ـ أنهم حرفوا النصين.

٢ ـ وضعوا الكتب ونسبوها إلى الله.

٣ ـ فسَّروا كثيراً من القرآن بمجرد تلاوات من غير تدبر لمعناه.

(٣٣) الأدلة العقلية قطعية عند المتكلمين، وأما الأحاديث فهي ظواهر باطنية:

قسم (المتكلمون) أصول الدين بحسب مصدر التلقي إلى عقليات وسمعيات (أحاديث)، فما سمّوه عقليات فمصدر التلقي عندهم هو العقل، والعقل أصل والنقل تابع معارض له.

وما سمّوه سمعيات فمصدر التلقي عندهم هو النقل، والعقل تابع له كعذاب القبر والصراط والميزان وأحوال الآخرة.

قال الزبيدي: وهو أن الشرع إنما ثبت بالعقل... فلو أتى الشرع بما يكذب العقل وهو شاهده لبطل الشرع والعقل معاً. إذ تقرر هذا فنقول كل لفظ يرد في الشرع... وهو مخالف للعقل.. إما أن يتواتر أو ينقل آحاداً. والآحاد إن كان نصاً لا يحتمل التأويل قطعنا بافتراء ناقله أو سهوه أو غلطه، وإن كان ظاهراً فظاهره غير مراد... وإن كان متواتراً فلا يتصور نص لا يحتمل التأويل بل لا بد أن يكون ظاهراً[1].

وهذا المنهج منهج فاسد باطل؛ لأنه صريح في أن العقل أصل والشرع فرع. والواجب على المسلم أن يجعل ما قال الله ورسوله ﷺ هو الأصل والعمدة فيسلم بنصوصهما، وينقاد لهما ولا يعترض عليهما ولا يعارضهما برأيه ومعقوله وقياسه.

(٣٤) الخلاصة:

١ ـ إن الحق الذي عليه أهل السنة والجماعة وجماهير العلماء أن الإيمان بالجَنان؛ أي القلب، وإقرار باللسان، وعمل بالأركان (الجوارح)، وهذا من أصول أهل السنة والجماعة، والأدلة على أن العمل من الإيمان لا تحصى من الكتاب والسنة.

٢ ـ يلزم على تعريف الكرامية للإيمان أن يكون المنافقون مؤمنين كاملي الإيمان ولكن قالوا إنهم مستحقون الوعيد الذي أوعدهم به وهو قول فاسد.

---

(١) شرح الإحياء للزبيدي (٢/ ١٠٥ ـ ١٠٦).

٣ ـ ويلزم على تعريف الجهمية للإيمان بأنه معرفة بالقلب أن فرعون وقومه كانوا مؤمنين، فإنهم عرفوا صدق موسى ولم يؤمنوا به.

٤ ـ ذهب أهل السنة والجماعة إلى أن الإيمان يزيد وينقص، وزيادته تكون بالطاعة ونقصانه يكون بالمعصية. والأدلة على ذلك متوافرة من الكتاب والسنة وأقوال سلف الأمة.

٥ ـ إن الإيمان ليس واحداً، وليس أهله سواء، بل الإيمان يتفاضل، ويزيد وينقص، إلا عند المرجئة.

والتصديق ليس الناس فيه سواء، فليس إيمان أبي بكر كإيمان الفاسق من المسلمين، هذا من ناحية أصله.

وكذلك من ناحية العمل فالناس يتفاضلون في العمل، فمنهم الظالم لنفسه، ومنهم المقتصد، ومنهم السابق بالخيرات.

٦ ـ سلك أهل السنة والجماعة مسلكاً وسطاً في الاستثناء في الإيمان وتركه، وفصَّلوا في ذلك؛ فلم يقولوا بتحريم الاستثناء مطلقاً كقول المرجئة، ولا بوجوب الاستثناء مطلقاً كقول الكلابية، وإنما أوجبوه في حال ومنعوه في حال، مستدلين بأدلة من الكتاب والسنة.

٧ ـ إن الإسلام والإيمان يتفقان في موطن ويختلفان في موطن آخر، فقد يطلق الإيمان ويراد به الإسلام، وبالعكس، وقد يطلق الإسلام على الأعمال الظاهرة، ويطلق الإيمان على الأعمال القلبية؛ لأنه قول وسط وبه تجمع النصوص الشرعية المختلفة، لأن للإيمان حقيقة لغوية وحقيقة شرعية، وهكذا للإسلام حقيقة لغوية شرعية. فباعتبار الحقيقة اللغوية يفترق الإسلام والإيمان، وباعتبار الحقيقة الشرعية يتضمن الإيمان الإسلام.

٨ ـ مذهب أهل السنة والجماعة أنه إذا ثبت خبر الواحد فإنهم يأخذون به سواء كان في الاعتقاد أو الأحكام، ولا يعدلون عن النص الصحيح ولا يعارضونه بالمعقول أو الرأي أو الذوق.

٩ ـ التفريق بين المتواتر والآحاد بدعة دخيلة على الإسلام، أحدثها المتكلمون، ثم بعد ذلك تلقاه بعض الفقهاء والأصوليون.

١٠ ـ لا ينبغي ولا يليق من اتصف بالإيمان إلا الإسراع في مرضاة الله ورسوله والهرب من سخط الله ورسوله وامتثال أمرهما واجتناب نهيهما. فلا يليق

بمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً من الأمور وحتماً به وألزما به أن يكون لهم الخيار هل يفعلونه أم لا؟

(٣٥) المناقشة:

- **س١:** ما القول الحق الذي عليه أهل السنة والجماعة وجماهير العلماء في تعريف الإيمان؟
- **س٢:** ما معنى الإيمان لغة؟
- **س٣:** ما معنى الإيمان في الاصطلاح؟ مع ذكر مذاهب الناس في ذلك.
- **س٤:** اذكر لوازم تعريف الإيمان عند الكرامية والجهمية.
- **س٥:** اذكر أدلة مرجئة الفقهاء في مسألة الإيمان مع الرد عليها.
- **س٦:** ما مراتب المغايرة بين المعطوف والمعطوف عليه؟
- **س٧:** بين موقف الأشعرية والماتريدية من النصوص الدالة على أن العمل داخل في مسمى الإيمان.
- **س٨:** هل الخلاف بين أصحاب أبي حنيفة وجمهور أهل السنة خلاف حقيقي، أم لفظي؟ بين ذلك.
- **س٩:** ما موقف كل من الجمهور والحنفية مما جاء عن النصوص في التكفير على بعض المعاصي؟
- **س١٠:** ما جواب مرجئة الفقهاء عن قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ﴾؟
- **س١١:** اشرح ما الذي تتفاوت به الأعمال، ووجه ذلك؟
- **س١٢:** وضح عقيدة أهل السنة والجماعة في مسألة زيادة الإيمان ونقصانه.
- **س١٣:** اذكر أدلة أهل السنة والجماعة على أن الإيمان يزيد وينقص.
- **س١٤:** بين مذاهب المخالفين لأهل السنة في مسألة زيادة الإيمان ونقصانه.
- **س١٥:** ما موقف الماتريدية والأشعرية من النصوص الدالة على زيادة الإيمان ونقصانه؟
- **س١٦:** بيِّن مذهب أهل السنة والجماعة في الاستثناء في الإيمان.
- **س١٧:** اذكر مذهب مرجئة الفقهاء في الاستثناء والجواب عليه.
- **س١٨:** وضح العلاقة بين الإسلام والإيمان، مع بيان اختلاف الناس في ذلك، مع التوجيه للقول الصحيح.
- **س١٩:** اشرح قول الطحاوي: «وجميع ما صح عن النبي ﷺ حق».

- **س٢٠:** ما مذهب أهل السنة في خبر الواحد؟ وما الأدلة على حجيته؟
- **س٢١:** بيِّن أن التفريق بين المتواتر والآحاد بدعة دخيلة على الإسلام.
- **س٢٢:** ما معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾ [الأحزاب: ٣٦]؟
- **س٢٣:** اذكر مذهب المخالفين لأهل السنة في خبر الواحد، مع بيان مستندهم في ذلك، والرد عليهم.
- **س٢٤:** كيف ترد على من قال أن الأدلة العقلية قطعية، وأما الأحاديث فهي ظواهر باطنية؟
- **س٢٥:** بما يجاب على مرجئة الحنفية في قولهم إن الإيمان مرادف للتصديق؟
- **س٢٦:** بم يجاب على الحنفية في قولهم إن الإيمان ضد الكفر والتكذيب وهو الجحود؟
- **س٢٧:** تقول الحنفية إنه إذا ذهب بعض الإيمان ذهب كله، فما جوابك على ذلك؟
- **س٢٨:** استدلت الحنفية بحديث أبي الليث السمرقندي على أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص، فبم رد عليهم الجمهور؟
- **س٢٩:** ما هو جواب النسفي عن حديث: (**الإيمان بضع وسبعون شعبة أو بضع وستون شعبة**)؟ وما الموقف منه؟
- **س٣٠:** ما أقوى الأدلة وأصرحها على دخول الأعمال في مسمى الإيمان؟
- **س٣١:** اختلف العلماء في حكم الاستثناء في الإيمان، وضح ذلك، مع ذكر الأدلة والترجيح.
- **س٣٢:** هناك وجه شبه بين النفاة وأهل الكتاب، وضحه مستنداً إلى القرآن في جوابك.
- **س٣٣:** قال الشيخ الطحاوي: وأهله في أصله سواء، والتفاضل بينهم بالحقيقة ومخالفة الهوى وبملازمة الأولى. وفي بعض النسخ (بالخشية والتقى) بدل الحقيقة. فما الفرق بين اللفظين؟
- **س٣٤:** بم أجاب الحنفية عن الأدلة المصرحة بزيادة الإيمان ونقصانه، مثل قوله: ﴿لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ﴾؟
- **س٣٥:** إلى أي شيء يشير الشيخ الطحاوي بقوله: «من الشرع والبيان»؟



الولاية والأولياء

* **كلام ابن أبي العز.**

١ ــ غرض المصنف من عقد هذا الباب.

٢ ــ مناسبة هذا الباب لما سبق.

٣ ــ معاني الكلمات.

٤ ــ معنى كلام الطحاوي: «والمؤمنون كلهم أولياء الرحمن، وأكرمهم عند الله أطوعهم وأتبعهم للقرآن».

٥ ــ تعريف الولاية والولي.

٦ ــ الولاية لا تختص بأحد من البشر.

٧ ــ تفاضل الناس في الولاية.

٨ ــ أقسام الناس في الولاية.

٩ ــ تفاضل الناس في العداوة.

١٠ ــ أوصاف الأولياء.

١١ ــ الأنبياء أفضل من جميع الأولياء.

١٢ ــ المخالفون لأهل السنة في مسألة الولاية.

١٣ ــ شروط الولي عند الصوفية.

١٤ ــ أدلة الولاية.

١٥ ــ اجتماع الولاية والعداوة في الشخص الواحد عند جمهور أهل السنة.

١٦ ــ الولاية الكاملة.

١٧ ــ مراتب الأولياء.

١٨ ــ الاستثناء في الولاية.

١٩ ــ أكرم المؤمنين عند الله.

٢٠ ــ الخلاصة.

٢١ ــ المناقشة.

الولاية والأولياء

قال ابن أبي العز:

قوله: «والمؤمنون كلهم أولياء الرحمن».

قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [يونس: ٦٢ ـ ٦٣]. الولي: من الولاية بفتح الواو التي هي ضد العداوة، وقد قرأ حمزة: ﴿مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ﴾ [الأنفال: ٧٢] بكسر الواو والباقون بفتحها، وقيل: هما لغتان، وقيل: بالكسر النصرة وبالكسر الإمارة، قال الزجاج: وجاز الكسر؛ لأن في تولي بعض القوم بعضاً جنساً من الصناعة والعمل وكل ما كان كذلك مكسور مثل الخياطة ونحوها.

فالمؤمنون أولياء الله، والله تعالى وليهم، قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾﴾ [محمد: ١١]، والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض، وقال تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ﴾ [التوبة: ٧١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ﴾ [الأنفال: ٧٢] إلى آخر السورة، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المائدة: ٥٥، ٥٦].

فهذه النصوص كلها ثبت فيها موالاة المؤمنين بعضهم لبعض وأنهم أولياء الله وأن الله وليهم ومولاهم، فالله يتولى عباده المؤمنين فيحبهم ويحبونه ويرضى عنهم ويرضون عنه ومن عادى له ولياً فقد بارزه بالمحاربة، وهذه الولاية من رحمته وإحسانه ليست كولاية المخلوق للمخلوق لحاجة إليه قال تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴿١١١﴾﴾

[الإسراء: ١١١]. فالله تعالى ليس له ولي من الذل، بل لله العزة جميعاً خلاف الملوك وغيرهم ممن يتولاه لذله وحاجته إلى ولي ينصره.

والولاية أيضاً نظير الإيمان، فيكون مراد الشيخ أن أهلها في أصلها سواء وتكون كاملة وناقصة، فالكاملة تكون للمؤمنين المتقين كما قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾ [يونس: ٦٢ ـ ٦٤] فـ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ منصوب على أنه صفة أولياء الله أو بدل منه أو بإضمار أمدح أو مرفوع بإضمارهم أو خبر ثان لـ إن وأجيز فيه الجر بدلاً من ضمير عليهم.

وعلى هذه الوجوه كلها فالولاية لمن كان من الذين آمنوا وكانوا يتقون وهم أهل الوعد المذكور في الآيات الثلاث، وهي عبارة عن موافقة الولي الحميد في محابه ومساخطه ليس بكثرة صوم ولا صلاة ولا تملق ولا رياضة[١]، وقيل: الذين آمنوا مبتدأ والخبر ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾ وهو بعيد لقطع الجملة عما قبلها وانتثار نظم الآية.

ويجتمع في المؤمن ولاية من وجه وعداوة من وجه كما قد يكون فيه كفر وإيمان وشرك وتوحيد وتقوى وفجور ونفاق وإيمان، وإن كان في هذا الأصل نزاع لفظي بين أهل السنة ونزاع معنوي بينهم وبين أهل البدع كما تقدم في الإيمان ولكن موافقة الشارع في اللفظ والمعنى أولى من موافقته في المعنى وحده، قال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يوسف: ١٠٦]، وقال تعالى: ﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾ [الحجرات: ١٤] الآية، وقد تقدم الكلام على هذه الآية وأنهم ليسوا منافقين على أصح القولين وقال ﷺ: (أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا وعد أخلف، وإذا خاصم فجر)، وفي رواية: (وإذا ائتمن خان بدل وإذا وعد أخلف)، أخرجاه في الصحيحين وحديث شعب الإيمان تقدم.

وقوله ﷺ: (يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان)[٢].

---

(١) الرياضة: هي تمرين النفس على الصدق والإخلاص، انظر: المدارج (١/ ٤٧٥) والتعريفات.

(٢) سبق تخريج هذه الأحاديث في المبحث السابق.

فعلم أن من كان معه من الإيمان أقل القليل لم يخلد في النار، وإن كان معه كثير من النفاق فهو يعذب في النار على قدر ما معه من ذلك ثم يخرج من النار.

فالطاعات من شعب الإيمان والمعاصي من شعب الكفر، وإن كان رأس شعب الكفر الجحود ورأس شعب الإيمان التصديق.

وأما ما يروى مرفوعاً إلى النبي ﷺ أنه قال: (ما من جماعة اجتمعت إلا وفيهم ولي لله لا هم يدرون به ولا هو يدري بنفسه)[1]، فلا أصل له، وهو كلام باطل، فإن الجماعة قد يكونون كفاراً، وقد يكونون فساقاً يموتون على الفسق.

وأما أولياء الله الكاملون فهم الموصوفون في قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ **- إلى قوله -** ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [يونس: ٦٢ - ٦٤]، **والتقوى هي المذكورة في قوله تعالى:** ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ **إلى قوله:** ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وهم قسمان مقتصدون ومقربون، فالمقتصدون الذين يتقربون إلى الله بالفرائض من أعمال القلوب والجوارح والسابقون الذين يتقربون إلى الله بالنوافل بعد الفرائض كما في «صحيح البخاري» عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (يقول الله تعالى: من عادى لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة، وما تقرب إلي عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن يكره الموت وأكره مساءته)[2].

والولي خلاف العدو، وهو مشتق من الولاء وهو الدنو والتقرب، فولي الله هو من والى الله بموافقته محبوباته والتقرب إليه بمرضاته، وهؤلاء كما قال الله تعالى فيهم: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾[الطلاق: ٢ - ٣]، **قال أبو**

---

(١) موضوع قاله شيخ الإسلام كما في الفتاوى (١١/ ٦٠)، وانظر: المصنوع في معرفة الموضوع رقم (٢٨٨).

(٢) أخرجه البخاري (٦٥٠٢).

ذر رضي الله عنه لما نزلت الآية: قال النبي ﷺ: (يا أبا ذر لو عمل الناس بهذه الآية لكفتهم)[(١)] فالمتقون يجعل الله لهم مخرجاً مما ضاق على الناس ويرزقهم من حيث لا يحتسبون فيدفع الله عنهم المضار ويجلب لهم المنافع ويعطيهم الله أشياء يطول شرحها من المكاشفات والتأثيرات.

قوله: (وأكرمهم عند الله أطوعهم وأتبعهم للقرآن).

أراد أكرم المؤمنين هو الأطوع لله والأتبع للقرآن وهو الأتقى، والأتقى هو الأكرم قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، وفي السنن عن النبي ﷺ أنه قال: (لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأبيض على أسود، ولا لأسود على أبيض، إلا بالتقوى، الناس من آدم وآدم من تراب)[(٢)].

وبهذا الدليل يظهر ضعف تنازعهم في مسألة الفقير الصابر والغني الشاكر وترجيح أحدهما على الآخر، وأن التحقيق أن التفضيل لا يرجع إلى ذات الفقر والغنى وإنما يرجع إلى الأعمال والأحوال والحقائق، فالمسألة فاسدة في نفسها فإن التفضيل عند الله بالتقوى وحقائق الإيمان لا بفقر ولا غنى، ولهذا والله أعلم قال عمر رضي الله عنه: الغنى والفقر مطيتان لا أبالي أيهما ركبت، والفقر والغنى ابتلاء من الله تعالى لعبده كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾﴾ [الفجر: ١٥]، فإن استويا الفقير الصابر والغني الشاكر في التقوى استويا في الدرجة، وإن فضل أحدهما فيها فهو الأفضل عند الله فإن الفقر والغنى لا يوزنان، وإنما يوزن الصبر والشكر.

ومنهم من أحال المسألة من وجه آخر وهو أن الإيمان نصف صبر ونصف شكر فكل منهما لا بد له من صبر وشكر، وإنما أخذ الناس فرعاً من الصبر وفرعاً من الشكر وأخذوا في الترجيح، فجردوا غنياً منفقاً متصدقاً باذلاً ماله في وجوب القرب شاكراً لله عليه، وفقيراً متفرغاً لطاعة الله ولأداء العبادات صابراً على فقره، وحينئذٍ يقال إن أكملها أطوعهما وأتبعهما، فإن تساويا تساوت درجتهما[(٣)] والله أعلم، ولو صح التجريد لصح أن يقال أيما أفضل معافى شاكر أو مريض صابر أو مطاع شاكر أو مهان صابر أو آمن شاكر أو خائف صابر؟ ونحو ذلك.

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٤٢٢٠)، والحاكم (٢/ ٤٩٢)، وفي سنده انقطاع.

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٤١١).

(٣) انظر: المدارج (٢/ ٤٤٢).



الشرح

عناصر الموضوع:

١ غرض المصنف من عقد هذا الباب:

غرض المصنف من عقد هذا الباب يتضح من خلال ما يلي:

أ ـ تقرير مذهب أهل السنة والجماعة في مسألة الولاية.

ب ـ الرد على المخالفين لمذهب أهل السنة في هذا الباب من الغلاة والجفاة، فالغلاة يثبتونها لكل أحد حتى الفسقة والعصاة من المؤمنين، والجفاة لا يثبتونها إلا للمؤمن الكامل في الإيمان.

٢ مناسبة هذا الباب لما سبق:

بيَّن المصنف في الباب السابق أن المؤمنين يتفاضلون في إيمانهم بحسب أعمالهم فليسوا في الإيمان سواء، فناسب أن يذكر أن المؤمنين يتفاضلون في ولاية الله بحسب تفاضلهم في الإيمان والتقوى.

٣ معاني الكلمات:

الكلمة	المعنى
الوَلاية	بفتح الواو ضد العداوة. وبالكسر الإمارة.

٤ معنى كلام الطحاوي: «والمؤمنون كلهم أولياء الرحمن، وأكرمهم عند الله أطوعهم وأتبعهم للقرآن»:

والمؤمنون كلهم أولياء الرحمن تعالى، وعلى حسب تفاوتهم في الإيمان والتقوى تتفاوت درجة ولايتهم عند الله تعالى، وأكرمهم عند الله هو أكثرهم طاعة لله ورسوله ﷺ، وأكثرهم اتباعاً لكتاب الله تعالى، وسنة رسوله ﷺ.

٥ تعريف الولاية والولي:

الولاية: بالفتح: المَحبة والنصرة والمؤازرة والمناصرة.

والولي من آمن بالله واتقاه، كما قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

(٦) الولاية لا تختص بأحد من البشر:

كما يزعم بعض الناس فيقصرون الولاية على شخص معين أو بيت معين، أو ملة معينة... إلخ.

وليست الخوارق مقياساً للولاية، بل الولاية مرادفة للإيمان كما جاءت النصوص الشرعية بذلك.

(٧) تفاضل الناس في الولاية:

الناس يتفاضلون في ولاية الله بحسب تفاضلهم في الإيمان والتقوى، فالولاية لا يتساوى الناس في أصلها فهي نظير الإيمان لا يتساوى الناس في أصله، بل الولاية تزيد وتنقص وتكون كاملة وناقصة، فالمطيع يزيد إيمانه وتقواه والعاصي ينقص إيمانه ويضعف.

قال ابن أبي العز: (تفاوت درجات نور «لا إله إلا الله» في قلوب أهلها لا يحصيها إلا الله تعالى، فمن الناس من نور «لا إله إلا الله» في قلبه كالشمس، ومنهم من نورها في قلبه كالكوكب الدري، وآخر كالمشعل العظيم، وآخر كالسراج المضيء، وآخر كالسراج الضعيف، وهكذا تظهر الأنوار يوم القيامة)[1].

(٨) أقسام الناس في الولاية:

يرى جمهور أهل السنة أن الناس على ثلاثة أقسام:

القسم الأول: عدو لله كامل العداوة وهو الكافر.

القسم الثاني: مؤمن ولي لله كامل الولاية، وهو المؤمن المطيع الذي أدى الواجبات وانتهى عن المحرمات.

القسم الثالث: ولي لله من وجه عدو لله من وجه آخر، وهو المؤمن العاصي، فهو ولي لله بحسب ما فيه من الإيمان والطاعات، وعدو لله بحسب ما فيه من المعاصي والتقصير في الواجبات.

(٩) تفاضل الناس في العداوة:

الناس يتفاضلون في عداوة الله بحسب تفاضلهم في الكفر الأكبر والأصغر

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية (ص٣١٦) تحقيق الشيخ أحمد شاكر.

والنفاق، فالكفر والنفاق على مراتب كما أن الإيمان والولاية على مراتب.

(١٠) أوصاف الأولياء:

قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾. ففي هذه الآية يتبين أن الولي من آمن بالله ﷻ حق الإيمان واتقاه، فإن التقوى هي الميزان الذي يعرف به الولي من غيره.

(١١) الأنبياء أفضل من جميع الأولياء:

ومن ادعى أن الولاية درجة فوق درجة النبوة فقد افترى على الله الكذب، وتقوَّل على الله بلا علم. وسيأتي تفصيل ذلك في آخر الكتاب.

(١٢) المخالفون لأهل السنة في مسألة الولاية:

خالف أهلَ السنة في مفهوم الولاية طائفتان:

الأولى: المعتزلة.

يرى المعتزلة أن الولاية لا تكون إلا للمؤمن الكامل، أما المؤمن المرتكب بعض المعاصي فهو في منزلة بين المنزلتين، ولما لم يكن عندهم مؤمن ناقص الإيمان، فبناء عليه جميع المؤمنين عندهم أولياء.

وبناء على ذلك يكرمه الله ﷻ ويمنحه الدرجات العلى جزاء على أعماله، وهذا الإكرام عند المعتزلة واجب بناء على قولهم بوجوب إكرام المؤمن، لأنهم يرون الجزاء في مقابل الأعمال واجباً.

الثانية: المرجئة.

فيقولون المؤمنون كلهم أولياء الرحمن، فالناس عندهم قسمان: عدو وولي، فالكافر عدو الله والمؤمن ولي لله سواء كان مطيعاً أو عاصياً.

ووفق الله أهل السنة والجماعة للوسط فقالوا: الناس على ثلاثة أقسام: عدو لله كامل العداوة وهو الكافر، ومؤمن ولي لله كامل الولاية وهو المؤمن المطيع الذي أدى الواجبات وانتهى عن المحرمات، وولي لله من وجه عدو لله من وجه آخر، وهو المؤمن العاصي، فهو ولي لله بحسب ما فيه من الإيمان والطاعات، وعدو لله بحسب ما فيه من المعاصي والتقصير في الواجبات.

(١٣) شروط الولي عند الصوفية:

يشترط في الولي عند الصوفية: أن يكون معصوماً، وقد يعبرون عن العصمة بالحفظ والحراسة.

وللولي عندهم علامات منها:

١ ـ أنهم المحافظون على الذكر، وإذا رُؤوا ذُكر الله تعالى.

٢ ـ أن لهم سلطان الحق، فلا يقاومهم أحد، وهذا يعني أن لهم قوة غير القوة الإنسانية، وتصرفاً غير التصرف الإنساني.

٣ ـ أنهم أصحاب الفراسة والحكمة والأقوال الملهمة، فهم يتكلمون عن مراد الله ويتحدثون بمراد الله.

٤ ـ أنهم أصحاب إلهام ومكاشفة ومخاطبة.

٥ ـ من آذاهم صرع، وأوذي بسوء الخاتمة.

٦ ـ يوضع لهم القبول في الأرض.

٧ ـ أنهم مستجابو الدعوة.

٨ ـ أن لهم كرامات ظاهرة، وتظهر على أيديهم خوارق باهرة، كالمشي على الماء والطير في الهواء.

٩ ـ أن الله يُجري على ألسنتهم أصول العلم، ولا يحتاجون إلى تعلم.

(١٤) أدلة الولاية:

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾﴾ [محمد: ١١].

وقال تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ﴾ [التوبة: ٧١].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ﴾ [الأنفال: ٧٢] إلى آخر السورة.

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المائدة: ٥٥، ٥٦].

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **(يقول الله تعالى: من عادى لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة، وما تقرب إلي عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينَّه، ولئن استعاذني لأعيذنَّه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله**

ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن يكره الموت وأكره مساءته)[١].

١٥ اجتماع الولاية والعداوة في الشخص الواحد عند جمهور أهل السنة:

ويجتمع في المؤمن ولاية من وجه وعداوة من وجه، كما قد يكون فيه كفر وإيمان وشرك وتوحيد وتقوى وفجور ونفاق وإيمان، وإن كان في هذا الأصل نزاع لفظي بين أهل السنة ونزاع معنوي بينهم وبين أهل البدع كما تقدم في الإيمان ولكن موافقة الشارع في اللفظ والمعنى أولى من موافقته في المعنى وحده، قال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يوسف: ١٠٦]، وقال تعالى: ﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ [الحجرات: ١٤] الآية، وقد تقدم الكلام على هذه الآية وأنهم ليسوا منافقين على أصح القولين، وقال ﷺ: **(أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا وعد أخلف، وإذا خاصم فجر)**.

وقوله ﷺ: **(يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان)**.

فعلم أن من كان معه من الإيمان أقل القليل لم يخلد في النار، وإن كان معه كثير من النفاق فهو يعذب في النار على قدر ما معه من ذلك ثم يخرج من النار.

فالطاعات من شعب الإيمان والمعاصي من شعب الكفر، وإن كان رأس شعب الكفر الجحود ورأس شعب الإيمان التصديق، .

١٦ الولاية الكاملة:

وأما أولياء الله الكاملون فهم الموصوفون في قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [يونس: ٦٢ ـ ٦٤]، فكل من آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره، وصدق إيمانه باستعمال التقوى بامتثال الأوامر واجتناب النواهي كان لله ولياً.

١٧ مراتب الأولياء:

الناس في ولاية الله ﷻ بحسب تفاضلهم في الإيمان، ويرى ابن أبي العز أنهم قسمان:

الأول: المقتصدون: وهم الذين يتقربون إلى الله بالفرائض من أعمال القلوب والجوارح.

---

(١) أخرجه البخاري (١/ ٨٩ ح٣٤)، ومسلم (١/ ٧٨ ح٥٨)

والثاني: السابقون: وهم الذين يتقربون إلى الله بالنوافل بعد الفرائض.

١٨ الاستثناء في الولاية:

الاستثناء في الولاية هو أن يقول قائل: أنا ولي إن شاء الله، فإن أراد بالاستثناء الشك في أصل ولايته فلا، وإن لم يرد الشك وأراد الأعمال المترتبة على أعمال الإيمان وأعمال الولاية كثيرة لا يجزم الشخص بأنه أدى ما عليه فلا بأس في الاستثناء، أو أراد به عدم علمه بالعاقبة فلا بأس بالاستثناء ومنعه جمهور فقهاء الحنفية.

١٩ أكرم المؤمنين عند الله:

أكرم المؤمنين عند الله أطوعهم وأتبعهم للقرآن، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، وقال ﷺ: **(لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى)**. فأكرم الناس عند الله أتقاهم وأكثرهم إيماناً واتباعاً للقرآن والسنة.

٢٠ الخلاصة:

١ ـ المؤمنون كلهم أولياء الرحمن تعالى، وعلى حسب تفاوتهم في الإيمان والتقوى تتفاوت درجة ولايتهم عند الله تعالى، وأكرمهم عند الله هو أكثرهم طاعة لله ورسوله ﷺ، وأكثرهم اتباعاً لكتاب الله تعالى، وسنة رسوله ﷺ.

٢ ـ الولاية: بالفتح: المحبة والنصرة والمؤازرة والمناصرة. والولي من آمن بالله واتقاه.

٣ ـ الولاية لا تختص بأحد من البشر.

٤ ـ الأنبياء أفضل من جميع الأولياء.

٥ ـ قد يجتمع الولاية والعداوة في الشخص الواحد.

٦ ـ أولياء الله الكاملون فهم الموصوفون في قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [يونس: ٦٢ ـ ٦٣].

٧ ـ الناس في ولاية الله ﷻ بحسب تفاضلهم في الإيمان، ويرى ابن أبي العز أنهم قسمان: المقتصدون، والسابقون.

٢١ المناقشة:

- **س١:** ما معنى كلام الطحاوي: «والمؤمنون كلهم أولياء الرحمن، وأكرمهم عند الله أطوعهم وأتبعهم للقرآن»؟

- **س٢:** ما تعريف الولاية والولي؟
- **س٣:** هل الولاية تختص بأحد من البشر؟
- **س٤:** بيِّن أوصاف الأولياء كما وردت في الكتاب والسنة.
- **س٥:** بيِّن فساد مقالة من يقول أن الأنبياء أفضل من جميع الأولياء.
- **س٦:** اذكر مذاهب المخالفين لأهل السنة في مسألة الولاية.
- **س٧:** اذكر أدلة الولاية.
- **س٨:** هل تجتمع الولاية والعداوة في الشخص الواحد؟ وضح ذلك.
- **س٩:** من هم أولياء الله الكاملون؟
- **س١٠:** ما مراتب الأولياء عند ابن أبي العز؟
- **س١١:** ما الفرق بين ولاية المخلوق للمخلوق، وولاية الخالق للمخلوق؟
- **س١٢:** ما أنواع الكرامات؟ ولمن تكون الكرامة؟

الإيمان والإسلام

* **كلام ابن أبي العز:**

١ ـ غرض الشارح من عقد هذا الباب.

٢ ـ مناسبة هذا الباب لما سبق.

٣ ـ معاني الكلمات.

٤ ـ معنى كلام الطحاوي: «والإيمان: هو الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره حلوه ومره من الله تعالى».

٥ ـ معنى الإسلام.

٦ ـ الإسلام والإيمان إذا اجتمعا افترقا، وإذا افترقا اجتمعا.

٧ ـ كان النبي ﷺ يقرأ في ركعتي الفجر بسورتي الإخلاص.

٨ ـ تفسير الإيمان في حديث وفد عبد القيس بأركان الإسلام.

٩ ـ حكمة اقتصار النبي ﷺ في حديث جبريل على الأمور الخمسة الظاهرة.

١٠ ـ الجمع بين قول الله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ﴾ [النساء: ٧٨]، وبين قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ﴾ [النساء: ٧٩].

١١ ـ معنى قوله تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾﴾ [النساء: ٧٩].

١٢ ـ اختلاف العلماء في معنى الحسنة والسيئة في قوله تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ﴾ [النساء: ٧٩].

١٣ ـ الحكمة من إضافة الحسنة إلى الله والسيئة إلى العبد.

١٤ ـ الفوائد المستنبطة من قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَۚ﴾.

١٥ ـ الجواب على احتجاج المعتزلة بالآية: ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَۚ﴾ على أن العبد يخلق فعل نفسه.

١٦ ـ معنى قوله ﷺ: (والخير كله بيديك والشر ليس إليك).

١٧ ـ حكم إضافة الشر مفرداً إلى الله تعالى.

١٨ ـ تأييد الله للملوك الظالمين ألا يعتبر شراً محضاً؟!

١٩ ـ معنى قوله تعالى: (اهدنا الصراط المستقيم).

٢٠ ـ الحكمة من أمر الناس بالدعاء: (اهدنا الصراط المستقيم في كل صلاة).

٢١ ـ جمع النبي ﷺ في صلاته بين التوحيد والاستغفار.

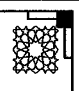
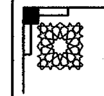
٢٢ ـ معنى قول النبي ﷺ: (ولا ينفع ذا الجد منك الجد).

٢٣ ـ حكم من آمن ببعض الرسل وكفر ببعض.

٢٤ ـ معنى قول الطحاوي: «ونحن مؤمنون بذلك كله، لا نفرق بين أحد من رسله، ونصدقهم كلهم على ما جاءوا به».

٢٥ ـ الخلاصة.

٢٦ ـ المناقشة.

الإيمان والإسلام

قال ابن أبي العز:

قوله: «والإيمان هو الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره وحلوه ومره من الله تعالى».

تقدم أن هذه الخصال هي أصول الدين، وبها أجاب النبي ﷺ في حديث جبرائيل المشهور المتفق على صحته حين جاء إلى النبي ﷺ على صورة رجل أعرابي وسأله عن الإسلام فقال: (أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً، وسأله عن الإيمان فقال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره، وسأله عن الإحسان فقال: أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك)(١).

وقد ثبت كذلك في الصحيح عنه أنه كان يقرأ في ركعتي الفجر تارة بسورتي الإخلاص: «قل يا أيها الكافرون»، «قل هو الله أحد»(٢)، وتارة بآيتي الإيمان والإسلام التي في سورة البقرة: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾ [البقرة: ١٣٦] الآية، والتي في آل عمران: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ﴾(٣) [آل عمران ٦٤]، وفسر الإيمان في حديث وفد عبد القيس المتفق على صحته حيث قال لهم: (آمركم بالإيمان بالله وحده، أتدرون ما الإيمان بالله وحده؟ شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وأن تؤدوا خُمس ما غنمتم)(٤).

ومعلوم أنه لم يرد أن هذه الأعمال تكون إيماناً بالله بدون إيمان القلب لما قد أخبر في غير موضع أنه لا بد من إيمان القلب، فعلم أن هذه مع إيمان القلب هو الإيمان، وقد تقدم الكلام على هذا.

---

(١) سبق تخريجه.
(٢) أخرجه مسلم (٧٢٦).
(٣) أخرجه مسلم (٧٢٧).
(٤) سبق تخريجه في المبحث السابق.

والكتاب والسنة مملوءان بما يدل على أن الرجل لا يثبت له حكم الإيمان إلا بالعمل مع التصديق، وهذا أكثر من معنى الصلاة والزكاة، فإن تلك إنما فسرتها السنة والإيمان بين معناه الكتاب والسنة، فمن الكتاب قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾ [الحجرات: ١٥]، وقوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٥]، فنفي الإيمان حتى توجد هذه الغاية دل على أن هذه الغاية فرض على الناس فمن تركها كان من أهل الوعيد ولم يكن قد أتى بالإيمان الواجب الذي وعد أهله بدخول الجنة بلا عذاب ولا يقال إن بين تفسير النبي الإيمان في حديث جبرائيل وتفسيره إياه في حديث وفد عبد القيس معارضة لأنه فسر الإيمان في حديث جبرائيل بعد تفسير الإسلام فكان المعنى أنه الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر مع الأعمال التي ذكرها في تفسير الإسلام، كما أن الإحسان متضمن للإيمان الذي قدم تفسيره قبل ذكره بخلاف حديث وفد عبد القيس لأنه فسره ابتداء لم يتقدم قبله تفسير الإسلام، ولكن هذا الجواب لا يتأتى على ما ذكره الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ من تفسير الإيمان فحديث وفد عبد القيس مشكل عليه.

ومما يسأل عنه أنه إذا كان ما أوجبه الله من الأعمال الظاهرة أكثر من الخصال الخمس التي أجاب بها النبي في حديث جبرائيل المذكور، فلما قال إن الإسلام هذه الخصال الخمس، وقد أجاب بعض الناس بأن هذه أظهر شعائر الإسلام وأعظمها وبقيامه بها يتم استسلامه وتركه لها يشعر بانحلال قيد انقياده.

والتحقيق أن النبي ﷺ ذكر الدين الذي هو استسلام العبد لربه مطلقاً الذي يجب لله على عباده محضة على الأعيان، فيجب على كل من كان قادراً عليه ليعبد الله مخلصاً له الدين وهذه هي الخمس وما سوى ذلك فإنما يجب بأسباب مصالح فلا يعم وجوبها جميع الناس، بل إما أن يكون فرضاً على الكفاية كالجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وما يتبع ذلك من إمارة وحكم وفتيا وإقراء وتحديث وغير ذلك.

وأما ما يجب بسبب حق الآدميين فيختص به من وجب له وعليه وقد يسقط بإسقاطه من قضاء الديون ورد الأمانات والغصوب والإنصاف من المظالم من الدماء والأموال والأعراض وحقوق الزوجة والأولاد وصلة الأرحام ونحو ذلك، فإن الواجب من ذلك على زيد غير الواجب على عمرو بخلاف صوم رمضان وحج البيت والصلوات الخمس والزكاة، فإن الزكاة وإن كانت حقاً مالياً فإنها واجبة لله والأصناف الثمانية مصارفها ولهذا وجبت فيها النية ولم يجز أن يفعلها الغير بلا إذنه ولم تطلب من الكفار، وحقوق العباد لا يشترط لها النية ولو أداها غيره عنه بغير إذنه برئت ذمته ويطالب بها الكفار، وما يجب حقاً لله تعالى كالكفارات هو بسبب من العبد وفيها معنى العقوبة، ولهذا كان التكليف شرطاً في الزكاة فلا تجب على الصغير والمجنون عند أبي حنيفة وأصحابه رحمهم الله تعالى على ما عرف في موضعه.

وقوله: والقدر خيره وشره وحلوه ومره من الله تعالى، تقدم قوله في حديث جبرائيل: وتؤمن بالقدر خيره وشره، وقال تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ [التوبة: ٥١]، وقال تعالى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٧٨]، ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ﴾ [النساء: ٧٩].

فإن قيل: فكيف الجمع بين قوله: ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ﴾ وبين قوله: ﴿فَمِن نَّفْسِكَ ۚ﴾؟ قيل: قوله: ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ﴾ الخصب والجدب والنصر والهزيمة كلها من عند الله، وقوله: ﴿فَمِن نَّفْسِكَ ۚ﴾ أي ما أصابك من سيئة من الله فبذنب نفسك عقوبة لك كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠]، يدل على ذلك ما روي عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قرأ: ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ﴾، «وأنا كتبتها عليك».

والمراد بالحسنة هنا النعمة وبالسيئة البلية في أصح الأقوال، وقد قيل الحسنة الطاعة والسيئة المعصية، وقيل الحسنة ما أصابه يوم بدر والسيئة ما أصابه يوم أحد، والقول الأول شامل لمعنى القول الثالث والمعنى الثاني ليس مراداً دون الأول قطعاً، ولكن لا منافاة بين أن تكون سيئة العمل وسيئة الجزاء من نفسه مع أن الجميع مقدر، فإن المعصية الثانية قد تكون عقوبة الأولى فتكون من سيئات

الجزاء مع أنها من سيئات العمل، والحسنة الثانية قد تكون من ثواب الأولى كما دل على ذلك الكتاب والسنة.

وليس للقدرية أن يحتجوا بقوله تعالى: فمن نفسك، فإنهم يقولون إن فعل العبد حسنة كان أو سيئة فهو منه لا من الله والقرآن قد فرق بينهما وهم لا يفرقون، ولأنه قال تعالى: ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ فجعل الحسنات من عند الله كما جعل السيئات من عند الله، وهم لا يقولون بذلك في الأعمال بل في الجزاء، وقوله بعد هذا: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ﴾ و﴿مِن سَيِّئَةٍ﴾ مثل قوله: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ﴾ ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾.

وفرَّق ﷻ بين الحسنات التي هي النعم وبين السيئات التي هي المصائب فجعل هذه من الله وهذه من نفس الإنسان، لأن الحسنة مضافة إلى الله إذ هو أحسن بها من كل وجه فما من وجه من أوجهها إلا وهو يقتضي الإضافة إليه، وأما السيئة فهو إنما يخلقها لحكمة وهي باعتبار تلك الحكمة من إحسانه، فإن الرب لا يفعل سيئة قط بل فعله كله حسن وخير[(١)].

ولهذا[(٢)] كان النبي ﷺ يقول في الاستفتاح: «والخير كله بيدك والشر ليس إليك»[(٣)]، أي فإنك لا تخلق شراً محضاً بل كل ما يخلقه ففيه حكمة هو باعتبارها خير، ولكن قد يكون فيه شر لبعض الناس فهذا شر جزئي إضافي، فأما شر كلي أو شر مطلق فالرب ﷻ منزه عنه، وهذا هو الشر الذي ليس إليه.

ولهذا لا يضاف الشر إليه مفرداً قط، بل إما أن يدخل في عموم المخلوقات كقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الرعد: ١٦] ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾، وإما أن يضاف إلى السبب[(٤)] كقوله: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢﴾ [الفلق: ٢]، وإما أن يحذف فاعله كقول الجن: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ۝١٠﴾ [الجن: ١٠].

وليس[(٥)] إذا خلق ما يتأذى به بعض الحيوان لا يكون فيه حكمة بل به من

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (١٤/ ٢٢٩)، وشفاء العليل (٢/ ٢٠).
(٢) انظر: الفتاوى (١٤/ ٢٦٦).
(٣) أخرجه مسلم (٧٧١). وانظر: أقوال الناس في معنى الحديث في شرح صحيح مسلم للنووي (٦/ ٣٠٥).
(٤) أي: من قام به الشر فقوله؛ ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢﴾ معناه: من شر مخلوق فيه شر.
(٥) الفتاوى (١٤/ ٢٦٨).

الرحمة والحكمة ما لا يقدر قدره إلا الله تعالى، وليس إذا وقع في المخلوقات ما هو شر جزئي بالإضافة يكون شراً كلياً عاماً، بل الأمور العامة الكلية لا تكون إلا خيراً أو مصلحة للعباد كالمطر العام وكإرسال رسول عام.

وهذا مما يقتضي أنه لا يجوز أن يؤيد كذاباً عليه بالمعجزات التي أيد بها الصادقين، فإن هذا شر عام للناس يضلهم فيفسد عليهم دينهم ودنياهم وأخراهم.

وليس هذا كالملك الظالم والعدو، فإن الملك الظالم لا بد أن يدفع الله به من الشر أكثر من ظلمه، وقد قيل ستون سنة بإمام ظالم خير من ليلة واحدة بلا إمام، وإذا قدر كثرة ظلمه فذاك خير في الدين كالمصائب تكون كفارة لذنوبهم ويثابون على الصبر عليه ويرجعون فيه إلى الله ويستغفرونه ويتوبون إليه، وكذلك ما يسلط عليهم من العدو، ولهذا قد يمكِّن الله كثيراً من الملوك الظالمين مدة، وأما المتنبئون الكذابون فلا يطيل تمكينهم بل لا بد أن يهلكهم لأن فسادهم عام في الدين والدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الحاقة: ٤٤ ـ ٤٦].

وفي قوله: ﴿فَمِن نَّفْسِكَ﴾ من الفوائد[1] أن العبد لا يطمئن إلى نفسه ولا يسكن إليها، فإن الشر كامن فيها لا يجيء إلا منها، ولا يشتغل بملام الناس ولا ذمهم إذا أساؤوا إليه، فإن ذلك من السيئات التي أصابته، وهي إنما أصابته بذنوبه فيرجع إلى الذنوب ويستعيذ بالله من شر نفسه وسيئات عمله، ويسأل الله أن يعينه على طاعته، فبذلك يحصل له كل خير ويندفع عنه كل شر.

ولهذا كان أنفع الدعاء وأعظمه وأحكمه دعاء الفاتحة: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾﴾ [الفاتحة: ٦، ٧]، فإنه إذا هداه هذا الصراط أعانه على طاعته وترك معصيته فلم يصبه شر لا في الدنيا ولا في الآخرة.

لكن الذنوب هي لوازم نفس الإنسان وهو محتاج إلى الهدى كل لحظة، وهو إلى الهدى أحوج منه إلى الطعام والشراب، ليس كما يقوله بعض المفسرين أنه قد هداه فلماذا يسأل الهدى، وأن المراد التثبيت أو مزيد الهداية، بل العبد محتاج

---

(١) الفتاوى (١٤/ ٢٢٧).

إلى أن يعلمه الله ما يفعله من تفاصيل أحواله، وإلى ما يتركه من تفاصيل الأمور في كل يوم، وإلى أن يلهمه أن يعمل ذلك، فإنه لا يكفي مجرد علمه إن لم يجعله مريداً للعمل بما يعلمه وإلا كان العلم حجة عليه ولم يكن مهتدياً ومحتاجاً إلى أن يجعله قادراً على العمل بتلك الإرادة الصالحة، فإن المجهول لنا من الحق أضعاف المعلوم، وما لا نريد فعله تهاوناً وكسلاً مثل ما نريده أو أكثر منه أو دونه، وما لا نقدر عليه مما نريده كذلك وما نعرف جملته ولا نهتدي لتفاصيله فأمر يفوت الحصر ونحن محتاجون إلى الهداية التامة، فمن كملت له هذه الأمور كان سؤاله سؤال تثبيت وهي آخر الرتب.

وبعد ذلك كله هداية أخرى وهي الهداية إلى طريق الجنة في الآخرة، ولهذا كان الناس مأمورين بهذا الدعاء في كل صلاة لفرط حاجتهم إليه فليسوا إلى شيء أحوج منهم إلى هذا الدعاء، فيجب أن يعلم أن الله بفضل رحمته جعل هذا الدعاء من أعظم الأسباب المقتضية للخير المانعة من الشر، فقد بيَّن القرآن أن السيئات من النفس وإن كانت بقدر الله، وأن الحسنات كلها من الله تعالى.

وإذا كان الأمر كذلك وجب أن يُشكر سبحانه وأن يستغفره العبد من ذنوبه وألا يتوكل إلا عليه وحده، فلا يأتي بالحسنات إلا هو، فأوجب ذلك توحيده والتوكل عليه وحده والشكر له وحده والاستغفار من الذنوب.

وهذه الأمور كان النبي يجمعها في الصلاة كما ثبت عنه في «الصحيح» أنه كان إذا رفع رأسه من الركوع يقول: (ربنا لك الحمد حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، ملء السماوات وملء الأرض وملء ما شئت من شيء بعد، أهل الثناء والمجد أحق ما قاله العبد وكلنا لك عبد)، فهذا حمد وهو شكر لله تعالى وبيان أن حمده أحق ما قاله العبد، ثم يقول بعد ذلك: (لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد)[1].

وهذا تحقيق لوحدانيته لتوحيد الربوبية خلقاً وقدراً وبداية ونهاية، هو المعطي المانع، لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع، ولتوحيد الإلهية شرعاً وأمراً ونهياً وإن العباد وإن كانوا يعطون جداً ملكاً وعظمة وبختاً ورياسة في الظاهر أو في

---

(١) أخرجه مسلم (٤٧٧).

الباطن كأصحاب المكاشفات والتصرفات الخارقة فلا ينفع ذا الجد منك الجد، أي لا ينجيه ولا يخلصه، ولهذا قال: لا ينفعه منك، ولم يقل: ولا ينفعه عندك، لأنه لو قيل ذلك أوهم أنه لا يتقرب به إليك لكن قد لا يضره.

فتضمن هذا الكلام تحقيق التوحيد أو تحقيق قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝﴾ [الفاتحة: ٥] فإنه لو قدر أن شيئاً من الأسباب يكون مستقلاً بالمطلوب وإنما يكون بمشيئة الله وتيسيره لكان الواجب أن لا يرجى إلا الله ولا يتوكل إلا عليه ولا يسأل إلا هو ولا يستغاث إلا به ولا يستعان إلا هو، فله الحمد وإليه المشتكى وهو المستعان وبه المستغاث ولا حول ولا قوة إلا به، فكيف وليس شيء من الأسباب مستقلاً بمطلوب بل لا بد من انضمام أسباب أخر إليه، ولا بد أيضاً من صرف الموانع والمعارضات عنه حتى يحصل المقصود فكل سبب فله شريك وله ضد، فإن لم يعاونه شريكه ولم ينصرف عنه ضده لم يحصل مسببه والمطر وحده لا ينبت النبات إلا بما يضم إليه من الهواء والتراب وغير ذلك، ثم الزرع لا يتم حتى تصرف عنه الآفات المفسدة له، والطعام والشراب لا يغذي إلا بما جعل في البدن من الأعضاء والقوى، ومجموع ذلك لا يفيد إن لم تصرف عنه المفسدات.

والمخلوق الذي يعطيك أو ينصرك فهو مع أن الله يجعل فيه الإرادة والقوة والفعل فلا يتم ما يفعله إلا بأسباب كثيرة خارجة عن قدرته تعاونه على مطلوبه ولو كان ملكاً مطاعاً، ولا بد أن يصرف عن الأسباب المتعاونة ما يعارضها ويمانعها فلا يتم المطلوب إلا بوجود المقتضى وعدم المانع.

وكل سبب معين فإنما هو جزء من المقتضى، فليس في الوجود شيء واحد هو مقتضى تام وإن سمي مقتضياً وسمي سائر ما يعينه شروطاً فهذا نزاع لفظي، وأما أن يكون في المخلوقات علة[1] تامة تستلزم معلولها فهذا باطل.

ومن عرف هذا حق المعرفة انفتح له باب توحيد الله وعلم أنه لا يستحق أن يسأل غيره فضلاً عن أن يعبد غيره، ولا يتوكل على غيره، ولا يرجى غيره.

---

(١) العلة التامة: ما يجب وجود المعلول عندها وقيل: ما يتوقف عليه وجود الشيء. انظر: التعريفات (ص١٥٤).

قوله: «ونحن مؤمنون بذلك كله لا نفرق بين أحد من رسله ونصدقهم كلهم على ما جاؤوا به». الإشارة بذلك إلى ما تقدم مما يجب الإيمان به تفصيلاً، وقوله: لا نفرق بين أحد من رسله إلى آخر كلامه، أي: لا نفرق بينهم بأن نؤمن ببعض ونكفر ببعض، بل نؤمن بهم ونصدقهم كلهم، فإن من آمن ببعض وكفر ببعض كافر بالكل، قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾ [النساء: ١٥٠، ١٥١]، فإن المعنى الذي لأجله آمن بمن آمن به منهم موجود في الذي لم يؤمن به، وذلك الرسول الذي آمن به قد جاء بتصديق بقية المرسلين، فإذا لم يؤمن ببعض المرسلين كان كافراً بمن في زعمه أنه مؤمن به لأن ذلك الرسول قد جاء بتصديق المسلمين كلهم فكان كافراً حقاً وهو يظن أنه مؤمن، فكان من الأخسرين أعمالاً الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً.



عناصر الموضوع:

(١) غرض الشارح من عقد هذا الباب:

يتضح غرض الشارح من عقد هذا الباب فيما يلي:

أ ـ تقرير أصول الإيمان والدين عند أهل السنة والجماعة من خلال شرح ما قرره الطحاوي في ذلك.

ب ـ بيان أن من لم يؤمن بهذه الأصول أو جحد واحداً منها خرج من دائرة الإيمان.

(٢) مناسبة هذا الباب لما سبق:

بيَّن المصنف فيما تقدم حقيقة الإيمان ومسمَّاه وأنه يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، وأن الناس يتفاضلون فيه، وكذا الولاية الناس يتفاضلون فيها بحسب تفاضلهم في الإيمان والتقوى، فناسب بعد ذلك أن يبين أركان الإيمان.

(٣) معاني الكلمات:

الكلمة	المعنى
المانع	ما يمنع من حصول الشيء.
السبب	هو ما يكون الشيء محتاجاً إليه إما في ماهيته أو في وجوده.

(٤) معنى كلام الطحاوي: «والإيمان: هو الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره وحلوه ومره من الله تعالى»:

والإيمان هو عبارة عن الإيمان بالله تعالى ووحدانيته في ذاته وأفعاله وأسمائه وصفاته واستحقاقه للعبودية، وصرف جميع الأعمال إليه، والإيمان بالملائكة على الوجه الذي سبق ذكره من الإيمان بهم وبوجودهم إجمالاً وتفصيلاً، وما ورد من صفاتهم وأعيانهم، والإيمان بالكتب كذلك على ما سبق ذكره، وما علمنا خبره وما لم نعلم، والإيمان بالرسل من عرفنا منهم ومن لم نعرف إجمالاً وتفصيلاً

على ما سبق، وأولهم نوح وآخرهم محمد عليهم الصلاة والسلام، وبأنهم بلغوا رسالات الله تعالى كاملة، وبأن هديهم أكمل هدي وأحسنه، والإيمان باليوم الآخر وما فيه من البعث والحساب والجنة والنار وغير ذلك، ثم الإيمان بالقدر وأنه من عند الله وأن الخير والشر بقضائه، والحلو والمر بقدره وإرادته.

فهذه أصول الإيمان الستة التي إن فقد أحدها ارتفع اسم الإيمان بالأصل وأطلق مكانه اسم الكفر والعياذ بالله تعالى.

٥ معنى الإسلام:

هو الاستسلام لله وحده بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت، فهو الخضوع لله تعالى والعبودية له وحده فمن استكبر عن عبادته وأشرك معه غيره فغير مسلم[1].

٦ الإسلام والإيمان إذا اجتمعا افترقا، وإذا افترقا اجتمعا:

الإيمان والإسلام يتفقان في موطن إذا أفردا، ويختلفان في موطن آخر إذا ذكرا معاً، فقد يطلق الإسلام ويراد به ما يشمل الإيمان، ويطلق الإيمان ويراد به ما يشمل الإسلام.

وحاصله أن الإسلام والإيمان إذا افترقا في النص اجتمع مدلولهما.

وإذا اجتمعا في النص اختلف مدلولهما.

٧ كان النبي ﷺ يقرأ في ركعتي الفجر بسورتي الإخلاص:

وقد ثبت كذلك في الصحيح عنه أنه كان يقرأ في ركعتي الفجر تارة بسورتي الإخلاص: «قل يا أيها الكافرون»، «قل هو الله أحد»، وتارة بآيتي الإيمان والإسلام التي في سورة البقرة: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾ [البقرة: ١٣٦] الآية، والتي في آل عمران: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ﴾ [آل عمران: ٦٤].

٨ تفسير الإيمان في حديث وفد عبد القيس بأركان الإسلام:

حديث وفد عبد القيس المتفق على صحته حين قال لهم: (**آمركم بالإيمان بالله وحده، أتدرون ما الإيمان بالله وحده؟**

شهادة أن لا إله إلا الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وأن تؤدوا خمس ما غنمتم).

---

(١) المنتقى لابن عثيمين (ص٤).

وجه الدلالة:

أنه جعل الإيمان هو الاعتقاد بوحدانية الله تعالى وذلك من أعمال القلب لم يكتف بذلك. بل أضاف الصلاة، والزكاة وتأدية الخمس من المغنم إليه.

قال ابن القيم فيه أن الإيمان مجموع الأمرين من القول والعمل. ويدعى بعضهم بأن الحديث متعارض مع حديث جبريل؛ وبيان ذلك أنه فسر الإيمان في حديث جبريل بالتصديق دون العمل. وفي حديث عبد القيس فسر الإيمان بالعمل دون التصديق، والصحيح أنه لا تعارض بين التفسيرين، فقد فسر حديث جبريل الإيمان بعد تفسيره للإسلام. فكان مقتضى كلامه أن تؤمن بالله، أي علاوة على ما سبق في تفسير الإيمان، كما أن الإحسان الذي سأل عنه أخيراً متضمن للإيمان خلاف حديث وفد عبد القيس.

فقد فسر الإيمان بالأعمال الظاهرة، وأغفل الأمور الباطنة استناداً إلى علم المخاطبين بأن الأعمال الظاهرة لا تنفع من دون إقرار القلب واعتقاده.

٩ حكمة اقتصار النبي ﷺ في حديث جبريل على الأمور الخمسة الظاهرة:

الحكمة في اقتصاره ﷺ على ذلك في تفسيره للإسلام أحد أمرين:

أولها: أن هذه الأمور الخمسة هي أظهر شعائر الدين وأعظمها وإتيان المرء عليها دليل على كمال انقياده واستسلامه لله في أوامره، وعدم إتيانه بها يشعر بانحلاله قيد انقياده وتركه ما سواها.

ثانيهما: أن الرسول ﷺ ذكر الأمور التي تجب على العباد عبادة محضة خالصة لله سبحانه على الأعيان، وما سوى ذلك فإنما يجب بأسباب مصالح فلا يعم وجوبها جميع الناس فهي إنما تجب:

أ ـ إما بفرض الكفاية كالجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والفتيا.

ب ـ وإما بسبب حقوق الآدميين فيختص به من وجب له وعليه.

وقد يسقط بإسقاطه من قضاء الديون، ورد الأمانات، وحقوق الوالدين والأولاد وصلة الأرحام، والإنصاف من المظالم ونحو ذلك.

اعتراض متوقع:

إن الزكاة حق مالي وليست عبادة محضة، ولهذا بينت مصارفها الثمانية، فلماذا ذكرها ﷺ؟

والجواب: أن بينها وبين حقوق العباد فروقاً فهي عبادة محضة. ولهذا وجبت

فيها النية ولم يجز أن يفعلها الغير بلا إذنه، ولم تطلب من الكفار بخلاف حقوق العباد فلا يشترط لها النية، ولو أداها غيره عنه بغير إذنه برئت ذمته ويطالب بها الكفار، وكون الأصناف الثمانية مصارف لها لا يدل على كونها حقاً للآدميين، وما يجب يكون حقاً لله تعالى محضاً غير الخمسة كالكفارات فهو بسبب من العبد وفيها معنى العقوبة.

(١٠) الجمع بين قول الله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٧٨]، وبين قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩]:

لا تعارض بين هاتين الآيتين، فقد أضاف ﷻ في الآية الأولى الحسنة والسيئة إليه، إضافة خلق وإيجاد وتقدير، وأضافها في الآية الثانية إلى العبد إضافة تسبب وكسب، ومباشرة. وقوله: «فمن نفسك» أي من ذنب نفسك عقوبة لك، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠]، ويدل لذلك قراءة ابن عباس: **(وما أصابك من سيئة فمن نفسك)**، **(وأنا كتبتها عليك)**.

(١١) معنى قوله تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾﴾ [النساء: ٧٩]:

ما أصابك من حسنة، أي في الدين والدنيا فمن الله هو الذي من بها ويسرها بتيسير أسبابها، وما أصابك من سيئة في الدين والدنيا فمن نفسك أي بذنوبك وكسبك وما يعفو الله عنه أكثر.

فالله قد فتح لعباده أبواب إحسانه وأمرهم بالدخول لبره وفضله وأخبرهم أن المعاصي مانعة من فضله، فإذا فعلها العبد فلا يلومن إلا نفسه عن وصول فضل الله وبره.

(١٢) اختلاف العلماء في معنى الحسنة والسيئة في قوله تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩]:

اختلف العلماء في الحسنة والسيئة على أقوال:

١ ـ الجمهور: على أن المراد بالحسنة: النعمة، وبالسيئة: البلية.

٢ ـ وقيل الحسنة هي الطاعة، والسيئة هي المعصية.

٣ ـ وقيل الحسنة ما أصابه يوم بدر. والسيئة: ما أصابه يوم أحد.

قال الشارح: «والقول الأول هو أصح الأقوال لأنه شامل لمعنى القول الثالث، والمعنى الثاني ليس مراداً دون الأول قطعاً».

قال الشارح: «ولكن لا منافاة بين أن تكون سيئة العمل وسيئة الجزاء من نفسه مع أن الجميع مقدر، فإن المعصية الثانية قد تكون عقوبة الأولى: فتكون من سيئات الجزاء مع أنها من سيئات العمل.

والحسنة الثانية قد تكون من ثواب الدنيا كما يدل على ذلك الكتاب والسنة».

(١٣) الحكمة من إضافة الحسنة إلى الله والسيئة إلى العبد:

الحكمة من إضافة الحسنة إليه سبحانه في صدر الآية لأنه هو خالقها ومقدرها وهي الحسنة من كل وجه. فما من وجه من وجوهها إلا وهو يقتضي الإضافة إليه.

٢ ـ وإضافة السيئة إلى العبد لأن الله إنما خلقها لحكمة، وهو باعتبار تلك الحكمة من إحسانه. فإن الرب لا يفعل سيئة قط.. بل فعله كله حسنة وخير، وأما من جهة العبد فهي سيئة اقترفها، ولهذا أضيفت إليه إضافة تسبب ومباشرة.

(١٤) الفوائد المستنبطة من قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَۚ﴾:

هناك فوائد كثيرة ومن أهمها:

١ ـ أن العبد لا يطمئن إلى نفسه ولا يسكن إليها؛ لأن الشر كامن فيها، وقد ورد أن الرسول ﷺ قال: «**نعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا**».

٢ ـ أن على العبد ألا يشتغل بكلام الناس وذمهم إذا أساؤوا إليه فإن ذلك من السيئات التي أصابته بذنوبه، فعليه أن يستعيذ بالله من شر نفسه وسيئات عمله، ويسأل الله أن يعينه على طاعته.

(١٥) الجواب على احتجاج المعتزلة بالآية: ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَۚ﴾ على أن العبد يخلق فعل نفسه:

لا دلالة للمعتزلة والقدرية بهذه الآية على ما زعموه لأمرين:

أولها: أن الله فرّق بين الحسنة والسيئة، فأضاف الحسنة إليه والسيئة إلى العبد، والمعتزلة لا يفرقون بينهما، بل يقولون أن كلاً منهما مخلوق للعبد.

ثانيهما: أن الله قال في الآية التي قبلها: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِۖ﴾ [النساء: ٧٨] فإضافتها إليه خلقاً وإيجاداً وتقديراً، فدل ذلك على أن إضافة السيئة إلى العبد إضافة تسبب ومباشرة لا كما تزعم المعتزلة والقدرية.

(١٦) معنى قوله ﷺ: (والخير كله بيديك والشر ليس إليك):

المعنى: أنك لا تخلق شراً محضاً بل كل ما تخلقه فيه حكمة.

وهي في حد ذاتها خير، ولكن قد يكون فيه شر لبعض الناس فهذا شر جزئي إضافي، فأما الشر الكلي أو الشر المطلق فالرب ﷻ منزه عنه، وهذا هو الشر الذي ليس إليه.

(١٧) حكم إضافة الشر مفرداً إلى الله تعالى:

أسماء الله كلها حسنى وأفعاله صادرة عنها، فالشر ليس إليه فعلاً ولا وصفاً وإنما يدخل في مفعولاته البائنة عنه دون فعله الذي هو وصفه بالشر[١]، فالشر لا يضاف مفرداً إلى الله، وذلك لأمرين:

أولهما: للتأدب معه سبحانه. فهو خالق كل شيء.. ولهذا لما سئل بعض العلماء: وهل خلق الله الكلاب؟ قال: الله خالق كل شيء.

ثانيهما: لأن الله سبحانه لا يخلق شراً محضاً وما كان من الأشياء فيه شر فهو شر جزئي إضافي بالنسبة لبعض المخلوقات.. وقد يكون خيراً له فيما بعد، أو يكون خيراً لغيره من المخلوقات، «ومصائب قوم عند قوم فوائد»، ولذلك لم يرد في القرآن الكريم إضافة الشر مفرداً إلى الله... بل إما:

١ ـ أن يضاف في عموم المخلوقات كما في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢]، وقوله: ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾، وبحذف فاعله كما في قوله تعالى حكاية عن الجن: ﴿أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن: ١٠].

قال الشارح: «وليس إذا خلق ما يتأذى به بعض الحيوان، لا يكون فيه حكمة.. بل به من الرحمة والحكمة ما لا يقدر قدره إلا الله وليس إذا وقع في المخلوقات ما هو شر جزئي بالإضافة يكون شراً كلياً عاماً بل الأمور العامة الكلية لا تكون إلا خيراً أو مصلحة للعباد كالمطر وكإرسال رسول عام... وهذا مما يقتضي أنه لا يجوز أن يؤيد كذاباً عليه بالمعجزات التي أيّد بها الصادقين فإن هذا شر عام للناس يضلهم فيفسد عليهم دينهم ودنياهم وأخراهم، وليس هذا كالملك الظالم لهذا يبقى الظلمة، أما المتنبئون الكاذبون فلا يطيل تمكينهم بل لا بد أن يهلكهم؛ لأن فسادهم عام شامل، قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ

---

(١) انظر: بدائع الفوائد (ص١٥٩)، والمنتقى لابن عثيمين (ص١٢).

﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الحاقة: ٤٤ ـ ٤٦].

١٨ تأييد الله للملوك الظالمين ألا يعتبر شراً محضاً؟!

لا يعتبر شراً محضاً لأمرين:

١ ـ لأن الله سبحانه يدفع بالملوك الظلمة من الشر أكثر من ظلمهم، ولهذا قيل: ستون سنة بإمام جائر خير من ليلة واحدة بلا إمام...

٢ ـ ولأنه لو قدر كثرة ظلمهم للناس فإن ذلك يكون خيراً للرعية حيث يكون تكفيراً للذنوب التي ارتكبوها لعلهم أن يرجعوا.

١٩ معنى قول تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾:

أي: دلنا وأرشدنا ووفقنا إلى الصراط المستقيم وهو الطريق الواضح الموصل إلى الله وإلى جنته، وهو معرفة الحق والعمل به، فاهدنا إلى الصراط واهدنا في الصراط، فالهداية إلى الصراط لزوم دين الإسلام وترك ما سواه من الأديان، والهداية في الصراط تشمل الهداية لجميع التفاصيل الدينية علماً وعملاً.

فهذا الدعاء من أجمع الأدعية وأنفعها للعبد، ولهذا وجب على الإنسان أن يدعو الله به في كل ركعة من صلاته لضرورته إلى ذلك.

٢٠ الحكمة من أمر الناس بالدعاء: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ في كل صلاة:

أ ـ كان أعظم الدعاء وأنفعه؛ لأنه سؤال للهداية إلى الصراط المستقيم، فإذا هداهم إليه فقد أعانهم على فعل الطاعة، واجتناب المعصية فلا يصيبهم شر في الدارين لا في الدنيا ولا في الآخرة.

ب ـ وأمر الناس به في كل صلاة لمسيس حاجتهم إليه، فهم له أشد من احتياجهم إلى الطعام والشراب، لأن الذنوب هي لوازم نفس الإنسان وهو محتاج إلى الهدى في كل لحظة؛ ذلك لأن الهداية على أنواع أربعة:

١ ـ هدايتهم للدخول في الإسلام.

٢ ـ هدايتهم بأن يعلمهم الله ما يتعلق بتفاصيل أحوالهم.

٣ ـ هدايتهم بأن يلهمهم العمل بما عملوه وإلا كان حجة عليهم.

٤ ـ هدايتهم بأن يجعلهم قادرين على فعل ما طلب منهم.

فإذا هدوا إلى هذه الأمور، فالدعاء طلب منهم للثبات والمزيد.

ثم هو طلب هداية أخرى وهي هدايتهم إلى الجنة في الدار الآخرة.

اعتراض:

فإن قيل: الذي يدعو بهذا هو المؤمن، وقد هداه الله لما ذكره فكيف يطلبه..؟

الجواب: بأحد الأمرين:

١ ـ أن المراد بالهداية حينئذٍ طلب التثبيت والمزيد.

٢ ـ أن الهداية أنواع فهو يطلب أصولها له كلها.

(٢١) جمع النبي ﷺ في صلاته بين التوحيد والاستغفار:

أما توحيد الله فهو في دعاء الاستفتاح وفي التشهد وفي الفاتحة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، وأما استغفاره فقد كان يستغفر بين السجدتين، وأما تعظيمه ففي حالات التكبير والتسبيح، وأما الشكر ففي قوله في الفاتحة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، وقوله ﷺ: **(ربنا ولك الحمد... لا مانع لما أعطيت)** الحديث متضمن لتحقيق التوحيد بنوعيه، متضمن لتوحيد الألوهية وتوحيد الربوبية:

أ ـ فأما توحيد الربوبية: وهو الاعتقاد الجازم بأن الله رب كل شيء ومليكه، ولا يقع في هذا الكون إلا ما يريد متضمنة في: **(لا مانع لما أعطيت)**.

ب ـ وأما توحيد الألوهية فهو إفراد الله سبحانه بالعبادة دون ما سواه شرعاً وأمراً ونهياً متضمنة في: **(وكلنا لك عبد)**، وكذا قوله: **(لا ينفع ذا الجد منك الجد)** أي لا يخلصه من عقابه إذا استحقه..

(٢٢) معنى قول النبي ﷺ: (ولا ينفع ذا الجد منك الجد).

الجد: بمعنى الحظ والنصيب.

المعنى: لا يخلصه ولا ينجيه إذا استحق عقابك، وقال «منك» ولم يقل «عندك» لأنه لو قال «عندك» لأوهم اللفظ أنه لا يخلصه جده من عقابك.

(٢٣) حكم من آمن ببعض الرسل وكفر ببعض:

من آمن ببعض الرسل فقط دون بعض يعد كافراً، وقد دل على ذلك الكتاب والسنة والإجماع والعقل.

أ ـ فأما الكتاب:

فقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا﴾ [النساء: ١٥٠ ـ ١٥١].

ب ـ ومن السنة:

حديث جبريل، فقوله: «ورسله» دل على وجوب الإيمان بهم جميعاً أن الشخص لا يكون مؤمناً إلا بالإيمان بهم جميعاً.

ج ـ وأما الإجماع:

فقد أجمعت الأمة استناداً إلى ما ذكره على أن من فرق بين الرسل لا يعتبر من المؤمنين بل يعتبر كافراً.

د ـ وأما الدليل العقلي:

فقد ذكر الشارح دليلين:

أولهما: أن المعنى الذي من أجله آمن بمن آمن به من الرسل موجود في الذي لم يؤمن به منهم، فكان إيمانهم بالبعض وكفره بالبعض الآخر تفريقاً بين المتماثلين والعقل يقتضي المساواة بينهم.

ثانيهما: أن الرسول الذي آمن به جاء بتصديق من لم يؤمن به من الرسل فكان مقتضى إيمانه بذلك الرسول أن يؤمن ببعض الرسل الذين جاء رسوله بتصديقهم، فلما آمن بالبعض وكفر بالبعض الآخر كان كافراً بمن هو في زعمه مؤمن به، فكان من الأخسرين أعمالاً الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً.

(٢٤) معنى قول الطحاوي: «ونحن مؤمنون بذلك كله، لا نفرق بين أحد من رسله، ونصدقهم كلهم على ما جاءوا به»:

أي ونحن نؤمن بكل ما سبق ونقر به، ونسلم له، ولا نفرق بين أحد من رسله، ولا نؤمن ببعضهم ونكفر ببعض، بل نؤمن بهم جميعاً ونصدقهم كلهم في كل ما جاءوا به من الوحي من عند الله تعالى.

(٢٥) الخلاصة:

١ ـ الإيمان هو عبارة عن الإيمان بالله تعالى ووحدانيته في ذاته وأفعاله وأسمائه وصفاته واستحقاقه للعبودية، وصرف جميع الأعمال إليه، والإيمان بالملائكة على الوجه الذي سبق ذكره من الإيمان بهم وبوجودهم إجمالاً وتفصيلاً، وما ورد من صفاتهم وأعيانهم، الإيمان بالكتب كذلك على ما سبق ذكره، وما علمنا خبره وما لم نعلم، والإيمان بالرسل من عرفنا منهم ومن لم نعرف إجمالاً وتفصيلاً على ما سبق، وأولهم نوح وآخرهم محمد

عليهم الصلاة والسلام، وبأنهم بلَّغوا رسالات الله تعالى كاملة، وبأن هديهم أكمل هدي وأحسنه، والإيمان باليوم الآخر وما فيه من البعث والحساب والجنة والنار وغير ذلك، ثم الإيمان بالقدر وأنه من عند الله وأن الخير والشر بقضائه، والحلو والمر بقدره وإرادته.

فهذه أصول الإيمان الستة التي إن فقد أحدها ارتفع اسم الإيمان بالأصل وأطلق مكانه اسم الكفر والعياذ بالله تعالى.

٢ ـ الإيمان والإسلام يتفقان في موطن إذا أفردا، ويختلفان في موطن آخر إذا ذكرا معاً، فقد يطلق الإسلام ويراد به ما يشمل الإيمان، ويطلق الإيمان ويراد به ما يشمل الإسلام.

٣ ـ لا تعارض بين قول الله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٧٨]، وبين قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩].

٤ ـ ما أصاب العبد من حسنة في الدين والدنيا فمن الله هو الذي مَنَّ بها ويسرها بتيسير أسبابها، وما أصابك من سيئة في الدين والدنيا فمن نفسك أي بذنوبك وكسبك وما يعفو الله عنه أكثر.

٥ ـ الحكمة من إضافة الحسنة إليه سبحانه؛ لأنه هو خالقها ومقدرها وهي الحسنة من كل وجه، فما من وجه من وجوهها إلا وهو يقتضي الإضافة إليه.

٦ ـ وإضافة السيئة إلى العبد لأن الله إنما خلقها لحكمة هو باعتبار تلك الحكمة من إحسانه.

٧ ـ على العبد ألا يطمئن إلى نفسه ولا يسكن إليها؛ لأن الشر كامن فيها.

٨ ـ على العبد ألا يشتغل بكلام الناس وذمهم إذا أساؤوا إليه فإن ذلك من السيئات التي أصابته بذنوبه، فعليه أن يستعيذ بالله من شر نفسه وسيئات عمله، ويسأل الله أن يعينه على طاعته.

٩ ـ الله ﷻ لا يخلق شراً محضاً بل كل ما يخلقه فيه حكمة، ولا يضاف الشر إلى الله مفرداً.

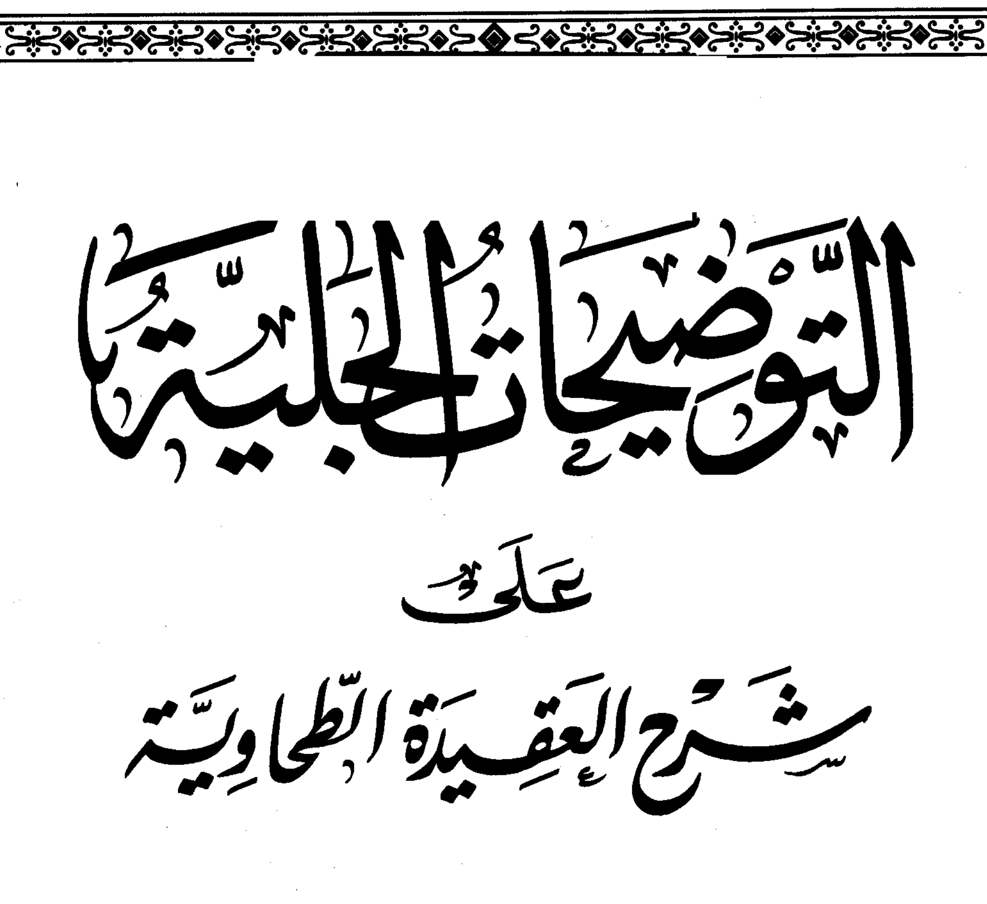
١٠ ـ تأييد الله للملوك الظالمين لا يعتبر شراً محضاً.

١١ ـ قولنا: «اهدنا الصراط المستقيم» من أجمع الأدعية وأنفعها للعبد، ولهذا وجب على الإنسان أن يدعو الله به في كل ركعة من صلاته لضرورته إلى ذلك.

١٢ ـ من آمن ببعض الرسل فقط دون بعض يعد كافراً، قد دل على ذلك الكتاب والسنة والإجماع والعقل.

(٢٦) **المناقشة:**

- **س١:** ما معنى كلام الطحاوي: «والإيمان: هو الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره حلوه ومره من الله تعالى»؟
- **س٢:** الإسلام والإيمان إذا اجتمعا افترقا، وإذا افترقا اجتمعا، وضح ذلك.
- **س٣:** بما كان النبي ﷺ يقرأ في ركعتي الفجر بسورتي الإخلاص؟
- **س٤:** بما فسر الإيمان في حديث وفد عبد القيس؟ وما وجه الدلالة في ذلك؟
- **س٥:** ما الحكمة في اقتصار النبي ﷺ في حديث جبريل على الأمور الخمسة الظاهرة؟
- **س٦:** كيف تجمع بين قول الله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٧٨] وبين قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩]؟
- **س٧:** ما معنى قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٧٩]؟
- **س٨:** بين اختلاف العلماء في معنى الحسنة والسيئة في قوله تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩].
- **س٩:** ما الحكمة من إضافة الحسنة إلى الله والسيئة إلى العبد؟
- **س١٠:** ما الفوائد المستنبطة من قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾
- **س١١:** وكيف ترد على المعتزلة والقدرية في استدلالهم بهذه الآية؟
- **س١٢:** ما معنى قوله ﷺ: **(والخير كله بيديك والشر ليس إليك)**؟
- **س١٣:** ما حكم إضافة الشر مفرداً إلى الله تعالى؟
- **س١٤:** هل تأييد الله للملوك الظالمين يعتبر شراً محضاً؟!
- **س١٥:** ما معنى قول تعالى: «اهدنا الصراط المستقيم»؟
- **س١٦:** بين الحكمة من أمر الناس بالدعاء: «اهدنا الصراط المستقيم في كل صلاة».
- **س١٧:** ما المراد بقول النبي ﷺ: **(ولا ينفع ذا الجد منك الجد)**؟
- **س١٨:** ما حكم من آمن ببعض الرسل وكفر ببعض؟
- **س١٩:** ما معنى قول الطحاوي: «ونحن مؤمنون بذلك كله، لا نفرق بين أحد من رسله، ونصدقهم كلهم على ما جاءوا به»؟



التوضيحات الجلية على شرح العقيدة الطحاوية

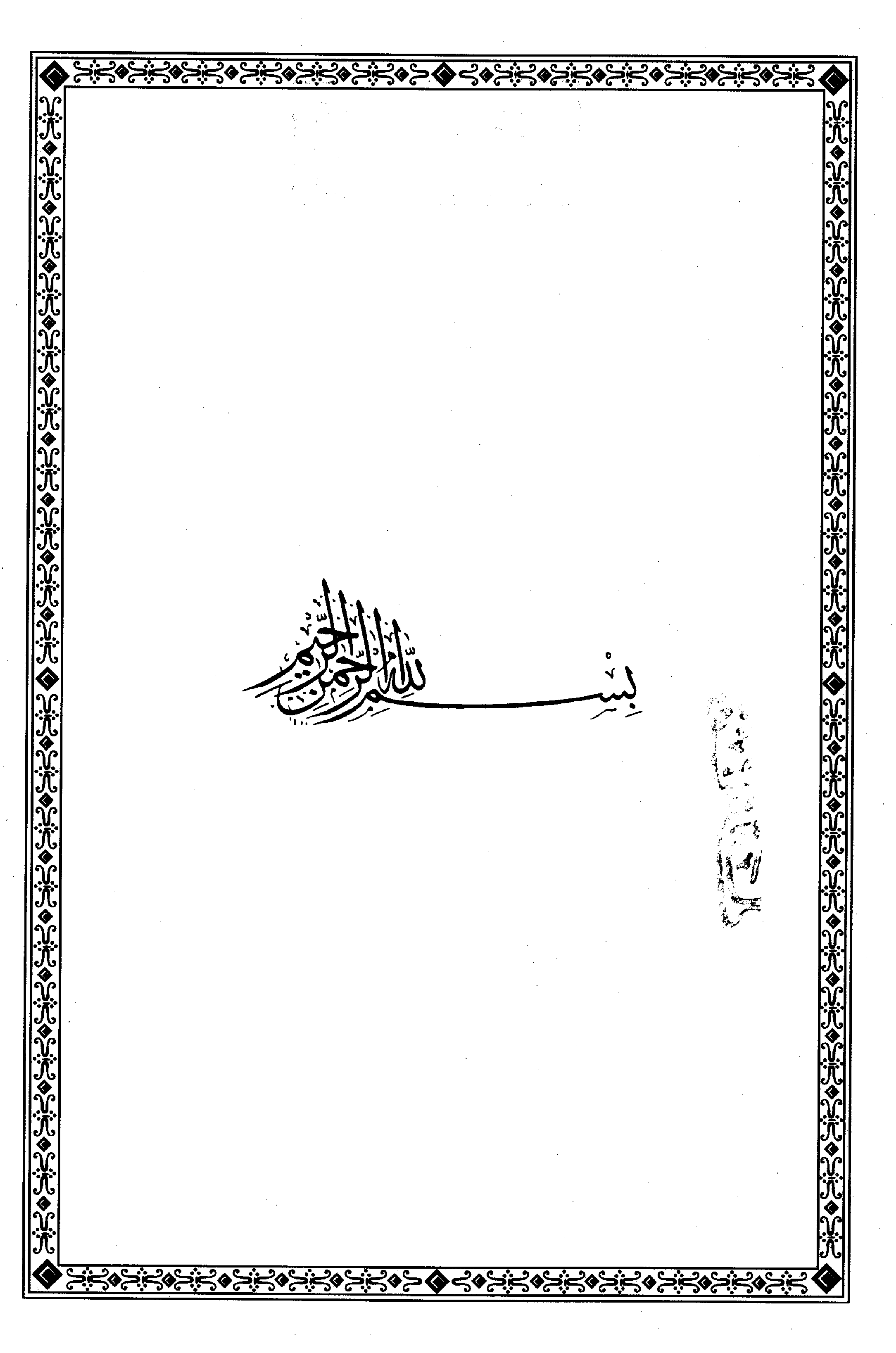
تأليف

الأستاذ الدكتور محمد بن عبد الرحمن الخميس

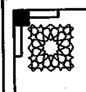
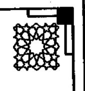
الأستاذ بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية - كلية أصول الدين
قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة

الجزء الثالث

دار ابن الجوزي



بسم الله الرحمن الرحيم

حكم مرتكب الكبيرة

قال الطحاوي:

قوله: «وأهل الكبائر من أمة محمد في النار لا يخلدون إذا ماتوا وهم موحدون وإن لم يكونوا تائبين بعد أن لقوا الله عارفين وهم في مشيئته وحكمه إن شاء غفر لهم وعفا عنهم بفضله كما ذكر ﷻ في كتابه: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]، وإن شاء عذبهم في النار بعدله ثم يخرجهم منها برحمته وشفاعة الشافعين من أهل طاعته ثم يبعثهم إلى جنته، وذلك بأن الله تعالى تولى أهل معرفته ولم يجعلهم في الدارين كأهل نكرته الذين خابوا من هدايته ولم ينالوا من ولايته، اللهم يا ولي الإسلام وأهله ثبتنا على الإسلام حتى نلقاك به».

قال الشارح ابن أبي العز: «وأهل الكبائر من أمة محمد في النار لا يخلدون إذا ماتوا وهم موحدون»، رد لقول الخوارج والمعتزلة القائلين بتخليد أهل الكبائر في النار، لكن الخوارج تقول بتكفيرهم والمعتزلة بخروجهم عن الإيمان لا بدخولهم في الكفر بل لهم منزلة بين منزلتين كما تقدم عند الكلام على قول الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ولا نكفر أحداً من أهل القبلة بذنب ما لم يستحله.

وقوله: وأهل الكبائر من أمة محمد، تخصيصه أمة محمد يفهم منه أن أهل الكبائر من أمة غير محمد قبل نسخ تلك الشرائع به حكمهم مخالف لأهل الكبائر من أمة محمد وفي ذاك نظر، فإن النبي أخبر أنه يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان ولم يخص أمته بذلك بل ذكر الإيمان مطلقاً فتأمله، وليس في بعض النسخ ذكر الأمة.

وقوله: «في النار» معمول لقوله: «لا يخلدون»، وإنما قدمه لأجل السجعة لا أن يكون «في النار» خبر لقوله: «وأهل الكبائر» كما ظنه بعض الشارحين.

واختلف العلماء في الكبائر[1] على أقوال:

---

(١) انظر: الفتاوى (١١/ ٦٥٠).

فقيل: سبعة.

وقيل: سبعة عشر.

وقيل ما اتفقت الشرائع على تحريمه، وقيل: ما يسد باب المعرفة بالله.

وقيل: ذهاب الأموال والأبدان.

وقيل: سميت كبائر بالنسبة والإضافة إلى ما دونها.

وقيل: لا تعلم أصلاً أو أنها أخفيت كليلة القدر.

وقيل: إنها إلى السبعين أقرب.

وقيل: كل ما نهى الله عنه فهو كبيرة.

وقيل: إنها ما يترتب عليها حد أو توعد عليها بالنار أو اللعنة أو الغضب. وهذا أمثل الأقوال.

واختلفت عبارات السلف في تعريف الصغائر:

منهم من قال: الصغيرة ما دون الحدين حد الدنيا وحد الآخرة.

ومنهم من قال: كل ذنب لم يختم بلعنة أو غضب أو نار.

ومنهم من قال: الصغيرة ما ليس فيها حد في الدنيا ولا وعيد في الآخرة، والمراد بالوعيد الوعيد الخاص بالنار أو اللعنة أو الغضب، فإن الوعيد الخاص في الآخرة كالعقوبة الخاصة في الدنيا أعني المقدرة، فالتعزير في الدنيا نظير الوعيد بغير النار أو اللعنة أو الغضب.

وهذا الضابط يسلم من القوادح الواردة على غيره فإنه يدخل فيه كل ما ثبت بالنص أنه كبيرة كالشرك والقتل والزنا والسحر وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات ونحو ذلك كالفرار من الزحف وأكل مال اليتيم وأكل الربا وعقوق الوالدين واليمين الغموس وشهادة الزور وأمثال ذلك.

وترجيح هذا القول من وجوه:

أحدها: أنه هو المأثور عن السلف كابن عباس وابن عيينة وابن حنبل رضي الله عنهما وغيرهم.

الثاني: أن الله تعالى قال: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾ [النساء: ٣١]، فلا يستحق هذا الوعد الكريم من أوعد بغضب الله ولعنته وناره، وكذلك من استحق أن يقام عليه الحد لم تكن سيئاته مكفرة عنه باجتناب الكبائر.

الثالث: أن هذا الضابط مرجعه إلى ما ذكره الله ورسوله من الذنوب فهو حد متلقى من خطاب الشارع.

الرابع: أن هذا الضابط يمكن الفرق به بين الكبائر والصغائر بخلاف تلك الأقوال، فإن من قال سبعة أو سبعة عشر أو إلى السبعين أقرب مجرد دعوى.

ومن قال: ما اتفقت الشرائع على تحريمه دون ما اختلفت فيه يقتضي أن شرب الخمر والفرار من الزحف والتزوج ببعض المحارم والمحرم بالرضاعة والصهرية ونحو ذلك ليس من الكبائر، وأن الحبة من مال اليتيم والسرقة له والكذبة الواحدة الخفيفة ونحو ذلك من الكبائر وهذا فاسد.

ومن قال: ما سد باب المعرفة بالله أو ذهاب الأموال والأبدان يقتضي أن شرب الخمر وأكل الخنزير والميتة والدم وقذف المحصنات ليس من الكبائر وهذا فاسد.

ومن قال: إنها سميت كبائر بالنسبة إلى ما دونها أو كل ما نهى الله عنه فهو كبيرة يقتضي أن الذنوب في نفسها لا تنقسم إلى صغائر وكبائر وهذا فاسد، لأنه خلاف النصوص الدالة على تقسيم الذنوب إلى صغائر وكبائر.

ومن قال: إنها لا تعلم أصلاً أو إنها مبهمة فإنما أخبر عن نفسه أنه لا يعلمها فلا يمنع أن يكون قد علمها غيره، والله أعلم.

وقوله: وإن لم يكونوا تائبين لأن التوبة لا خلاف أنها تمحو الذنوب وإنما الخلاف في غير التائب[١].

وقوله: بعد أن لقوا الله تعالى عارفين، لو قال مؤمنين بدل قوله عارفين كان أولى، لأن من عرف الله ولم يؤمن به فهو كافر وإنما اكتفى بالمعرفة وحدها الجهم وقوله مردود باطل كما تقدم، فإن إبليس عارف بربه: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الحجر: ٣٦]، ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [ص: ٨٢، ٨٣]، وكذلك فرعون وأكثر الكافرين، قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥] ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن

---

(١) بين أهل السنّة وبين الخوارج والمعتزلة.

فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ [المؤمنون: ٨٤ ـ ٨٥] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على هذا المعنى.

وكان الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أراد المعرفة الكاملة المستلزمة للاهتداء التي يشير إليها أهل الطريقة وحاشا أولئك أن يكونوا من أهل الكبائر بل هم سادة الناس وخاصتهم.

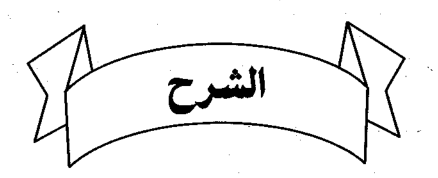
وقوله: وهم في مشيئة الله وحكمه إن شاء غفر لهم وعفا عنهم بفضله إلى آخر كلامه، فصَّل الله تعالى بين الشرك وغيره لأن الشرك أكبر الكبائر كما قال وأخبر الله تعالى أن الشرك غير مغفور وعلق غفران ما دونه بالمشيئة، والجائز يعلق بالمشيئة دون الممتنع، ولو كان الكل سواء لما كان للتفصيل معنى، ولأنه علق هذا الغفران بالمشيئة وغفران الكبائر والصغائر بعد التوبة مقطوع به غير معلق بالمشيئة كما قال تعالى: ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزمر: ٥٣]، فوجب أن يكون الغفران المعلق بالمشيئة هو غفران الذنوب سوى الشرك بالله قبل التوبة.

وقوله: ذلك أن الله مولى أهل معرفته، فيه مؤاخذة لطيفة كما تقدم.

وقوله: اللهم يا ولي الإسلام وأهله مسكنا بالإسلام، وفي نسخة: ثبتنا على الإسلام حتى نلقاك به، روى شيخ الإسلام أبو إسماعيل الأنصاري في كتابه الفاروق بسنده عن أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: كان من دعاء رسول الله ﷺ يقول: (يا ولي الإسلام وأهله مسِّكني بالإسلام حتى ألقاك عليه)[1]، ومناسبة ختم الكلام المتقدم بهذا الدعاء ظاهرة، وبمثل هذا الدعاء دعا يوسف الصديق صلوات الله عليه حيث قال: ﴿۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾ [يوسف: ١٠١]، وبه دعا السحرة الذين كانوا أول من آمن بموسى صلوات الله على نبينا وعليه حيث قالوا: ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٦]، ومن استدل بهاتين الآيتين على جواز تمني الموت فلا دليل له فيه، فإن الدعاء إنما هو بالموت على الإسلام لا بمطلق الموت، ولا بالموت الآن، والفرق ظاهر.

---

(١) قال الهيثمي في المجمع (١٠/١٧٦): رواه الطبراني في الأوسط ورجاله ثقات.



الشرح

عناصر الموضوع:

١ غرض المصنف من عقد هذا الباب:

يتبين غرض المصنف من عقد هذا الباب فيما يلي:

أ ـ تقرير مذهب أهل السنة والجماعة في المؤمنين الذين ماتوا وهم يفعلون الكبائر من الذنوب ولم يتوبوا ويقلعوا عنها.

الرد على المخالفين لمذهب أهل السنة والجماعة في هذا الباب وهم:

١ ـ الوعيدية من الخوارج وغيرهم الذين حكموا على مرتكب الكبيرة بالكفر في الدنيا والخلود في النار يوم القيامة.

٢ ـ المرجئة الذين يرون أن مرتكب الكبيرة كامل الإيمان.

٢ مناسبة هذا الباب لما سبق:

بيَّن المصنف فيما سبق حقيقة الإيمان ومسمَّاه وأركانه وأن الناس يتفاضلون فيه وفي ولاية الله بحسب الإيمان والتقوى، فناسب بعد ذلك أن يبين معتقد أهل السنة والجماعة في المؤمنين الذين ارتكبوا الكبائر وماتوا على ذلك ولم يتوبوا ويقلعوا عن الذنب.

٣ معاني الكلمات:

الكلمة	المعنى
نكرته	إنكاره وجحوده.

٤ معنى كلام الطحاوي:

«وأهل الكبائر من أمة محمد ﷺ في النار لا يخلدون، إذا ماتوا وهم موحدون، وإن لم يكونوا تائبين بعد أن لقوا الله عارفين مؤمنين، وهم في مشيئته وحكمه، إن شاء غفر لهم وعفا عنهم بفضله، كما ذكر ﷻ في كتابه: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦] إن شاء عذبهم في النار بعدله، ثم يخرجهم منها برحمته

وشفاعة الشافعين من أهل طاعته، ثم يبعثهم إلى جنته، وذلك بأن الله تعالى تولى أهل معرفته، ولم يجعلهما في الدارين كأهل نكرته، الذين خابوا من هدايته، ولم ينالوا من ولايته. اللهم يا ولي الإسلام وأهله، ثبتنا على الإسلام حتى نلقاك به»:

إن مرتكب الكبيرة لا يخلد في النار إن دخلها، لأنه مات على التوحيد، حتى وإن مات من غير توبة، وما دام قد لقي الله ﷻ مؤمناً له عارفاً به، فإنه تحت المشيئة إن شاء الله عاقبه بعدله وعذبه بالنار لكن لا يخلد فيها، بل يخرج منها برحمة الله وبشفاعة الشافعين من أهل الطاعة، وأعظمهم محمد ﷺ، وإن شاء عفا عنه وغفر له بفضله وكرمه، وكل ذنب سوى الشرك ترجى له المغفرة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨] وكما في حديث النبي ﷺ: (**ومن أصاب من ذلك شيئاً ثم ستره الله فهو إلى الله إن شاء غفر له وإن شاء عذبه**)، وهذا حتى لو مات مرتكب الكبيرة من غير توبة، وهذا هو الحق، خلافاً للمعتزلة والخوارج الذين قالوا بخلوده في النار، وذلك أن الله تعالى برحمته لم يجعل أهل معرفته والإقرار به كأهل إنكاره سواء في الدنيا أو في الآخرة، كما قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الجاثية: ٢١].

ونسأل الله ولي الإسلام وأهله أن يثبت قلوبنا على الإسلام حتى نلقاه مسلمين مؤمنين... آمين.

٥ تحرير محل النزاع:

محل النزاع هو في المؤمن الذي مات وهو مرتكب للكبيرة من غير توبة، أما الكبيرة التي تاب منها صاحبها فإن التوبة تَجُبُّ ما قبلها، ومن تاب قبل الموت توبة صادقة فالله ﷻ يقبل توبته.

٦ انقسام الذنوب إلى كبائر وصغائر:

اختلف العلماء في انقسام الذنوب إلى كبائر وصغائر على قولين:

١ ـ ذهب الجمهور من السلف والخلف إلى أن من الذنوب كبائر وصغائر[1].

---

(١) شرح مسلم للنووي (٢/٨٥)، وفتح الباري (١٠/٤٠٩)، والمرقاة في شرح المشكاة (١/١٢١).

٢ ـ وشذَّت طائفة فقالت: إن جميع الذنوب كبائر ليس فيها صغائر[١].

ونسب هذا القول إلى الخوارج القاضي عبد الجبار[٢]، ونسبه إلى الأشعرية[٣]، ونسب النووي والحافظ ابن حجر هذا القول إلى أبي إسحاق الإسفراييني. وقال أيضاً: «وحكى القاضي عياض المذهب عن المحققين»[٤].

ونسب الحافظ ابن حجر هذا القول إلى الباقلاني وأصحابه[٥].

قلت: روي هذا أيضاً عن ابن عباس رضي الله عنه[٦]، ولكن القرطبي علَّق على ما قاله الحافظ: «ما أظنه يصح عن ابن عباس؛ لأنه مخالف لظاهر القرآن في الفرق بين الصغائر والكبائر»[٧].

قلت: لو سلمت صحته؛ فيحمل على قوله الآخر المفسر المفصل تحديد الكبيرة[٨].

وقد تفلسف إمام الحرمين أبو المعالي عبد الملك الجويني فقال: «كل ذنب كبيرة بالنسبة إلى حق الله تعالى، وإن كان في الذنوب تفاوت في الصغر والكبر فيما بينهما»[٩].

وقد نوَّه الحافظ ابن حجر بكلام الجويني هذا بعض التنويه[١٠]. ولكن الحقيقة أن كلامه هذا من قبيل القياس الفلسفي، بل الحق أن من الذنوب كبائر وصغائر.

قال أبو حامد الغزالي: «إنكار الفرق بين الصغيرة والكبيرة لا يليق بالفقيه»[١١].

وقال النووي والحافظ ابن حجر: «وقد تظاهر على ذلك ـ أي على الفرق ـ دلائل من الكتاب والسنة واستعمال سلف الأمة وخلفها»[١٢].

---

(١) فتح الباري (١٠/ ٤٠٩)، والمراعاة (١/ ١٢١).

(٢) شرح الأصول الخمسة (ص٦٣٢).

(٣) انظر: فتح الباري (١٠/ ٤٥٩).

(٤) شرح مسلم للنووي (٢/ ٨٤)، وفتح الباري (١٠/ ٤٠٩).

(٥) فتح الباري (١٠/ ٤٠٩).

(٦) رواه ابن جرير في تفسيره (٥/ ٤١).

(٧) فتح الباري (١٠/ ٤٠٩).

(٨) انظر: حد الكبيرة عند ابن عباس في تفسير ابن جرير (٥/ ٤١).

(٩) انظر: الإرشاد (ص٣٢٨)، وشرح الإرشاد لأبي بكر بن ميمون (ص٦٣١).

(١٠) انظر: فتح الباري (١٠/ ٤٠٩ ـ ٤١٠).

(١١) شرح مسلم للنووي (٢/ ٨٥)، وفتح الباري (١٠/ ٤٠٩)، عن كتاب البسيط للغزالي.

(١٢) شرح مسلم للنووي (٢/ ٨٥)، وفتح الباري (١٠/ ٤٠٩)، والمرقاة في شرح المشكاة (١/ ١٢١).

وقال ابن القيم في الجواب الكافي: «وقد دل القرآن والسنة وإجماع الصحابة والتابعين بعدهم والأئمة على أن من الذنوب كبائر وصغائر»[١].

وقال في المدارج: «الذنوب تنقسم إلى صغائر وكبائر بنص القرآن والسنة وإجماع السلف»[٢].

أما القرآن فقوله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾ [النساء: ٣١]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ [النجم: ٣٢].

أما من السنة فقول النبي ﷺ: **(الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات ما بينهن إذا اجتنبت الكبائر)**[٣].

٧ ضابط الكبيرة:

المراد بها في اللغة: الكبائر جمع كبيرة، من كبر الشيء إذا عظم، وأصلها في الاستعمال بوصف ثم انتقلت إلى الاسمية وأطلقت على معان مخصوصة.

أما من حيث الاصطلاح فقد اختلف القائلون بانقسام الذنوب في حد الكبيرة والصغيرة على ضربين:

الأول: من حصر الكبيرة في عدد معين ثم اختلفوا، فقيل: هي ثلاث[٤]، وقيل: هي أربع[٥]، وقيل: هي سبع[٦]، وقيل: هي تسع[٧]، وقيل: هي إحدى عشرة[٨]، وقيل: هي سبع عشرة[٩]، وقيل: سبعون[١٠]، وقيل: سبعمائة.

ولا يخفى أن حصر الكبائر في عدد معين لا وجه له ولا دليل عليه، وقد نص النبي ﷺ على بعض الذنوب بأنها من الكبائر، فقد قال ﷺ: **(اجتنبوا السبع الموبقات)**[١١].

---

(١) الجواب الكافي (ص١٨٦). (٢) مدارج السالكين (١/ ٣٤٢).

(٣) رواه مسلم (٢٣٣).

(٤) روى ذلك ابن جرير عن عبد الله بن مسعود (٥/ ٤١).

(٥) روى ذلك ابن جرير عن عبد الله بن مسعود (٥/ ٤١).

(٦) روى ذلك ابن جرير عن علي رضي الله عنه (٥/ ٣٧).

(٧) روى ذلك ابن جرير عن عمر رضي الله عنه (٥/ ٣٩).

(٨) الجواب الكافي (ص١٨٨). (٩) الجواب الكافي (ص١٨٨).

(١٠) روى ذلك ابن جرير عن عبد الله بن مسعود (٥/ ٤١).

(١١) البخاري (٧٧٦).

وقال: (ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ قول الزور)[١].

وقال: (من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه)[٢].

الضرب الثاني: من عرف الكبيرة بضابط دون ذكر عدد معين، ثم اختلفوا فقيل: الكبيرة كل ذنب ختمه الله بنار أو غضب أو لعنة أو عذاب فهو كبيرة[٣].

وقيل: الكبائر ما كان فيه من المظالم بينك وبين العباد، والصغائر ما كان بينك وبين الله[٤].

وقيل: كل معصية يقدم عليها المرء من غير استشعار خوف وحذار ندم كالمتهاون بارتكابها والتجرؤ عليها اعتياداً[٥].

وقيل: كل ذنب عظم عظماً يصح معه أن يطلق عليه اسم الكبيرة[٦].

وقيل: كل ما اتفقت الشرائع على تحريمه فهو من الكبائر. والراجح: هو أن كل ذنب توعد عليه بالنار أو اللعنة أو الغضب فهو كبيرة، وهذا أمثل الأقوال قاله ابن أبي العز.

ومن أجمع ما قيل في بيانه؛ ما قاله المباركفوري: «والراجح أن كل نص على كبره أو عظمه أو توعد عليه بالعقاب في الآخرة أو ختم بالغضب واللعنة أو علق عليه حد أو شدد النكير عليه أو وصف فاعله بالفسق فهو كبيرة»[٧].

قال شيخ الإسلام: «إن هذا الضابط أولى من سائر تلك الضوابط المذكورة لوجوه:

أحدها: أنه المأثور عن السلف بخلاف تلك الضوابط فإنها لا تعرف عن أحد من الصحابة والتابعين والأئمة..

الثاني: أن الله قال: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾ [النساء: ٣١].

فقد وعد مجتنب الكبائر بتكفير السيئات واستحقاق الوعد الكريم، وكل من وعد بغضب الله أو لعنته أو نار أو حرمان جنة أو يقتضي ذلك فإنه خارج عن هذا الوعد..

---

(١) البخاري (٥٩٧٦).
(٢) البخاري (٥٩٧٣)، ومسلم (٩٠).
(٣) روى ذلك ابن جرير عن ابن عباس (٥/ ٤١).
(٤) مدارج السالكين (١/ ٣٤٩).
(٥) شرح مسلم للنووي (٢/ ٨٥).
(٦) شرح مسلم للنووي (٢/ ٨٥).
(٧) مرقاة المفاتيح (١/ ١٢).

الثالث: أن هذا الضابط مرجعه إلى ما ذكره الله ورسوله في الذنوب، فهو حد يُتلقى من خطاب الشارع، وما سوى ذلك ليس متلقى من كلام الله ورسوله.

الرابع: أن هذا الضابط يمكن الفرق به بين الكبائر والصغائر، وأما تلك الأمور فلا يمكن الفرق بها بين الكبائر والصغائر...»[(١)].

وبما ذكر من هذه الوجوه يتبين رجحان هذا القول، وإنه أولى من سائر تلك الضوابط.

وأما الصغيرة فهي خلاف الكبيرة؛ فكل ذنب لم يقترن بوعيد أو حد أو لعن أو لم يشدد النكير عليه ولم يوصف فاعله بالفسق فهو صغيرة[(٢)].

٨ حكم مرتكب الكبيرة في الكتاب والسنة:

نصوص الكتاب والسنة تدل دلالة واضحة على أن مرتكب الكبيرة لا يكفر ولا يخرج من الدين بسبب ارتكابه للكبيرة، وإنما ينقص إيمانه، ولا يذهب عنه الإيمان بالكلية، بل يبقى معه مطلق الإيمان، وارتكاب الكبيرة ليس سبباً للخلود في النار، إلا الشرك بالله.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾ [النساء: ٤٨].

قال ابن جرير في تفسير هذه الآية: «وقد أبانت هذه الآية أن كل صاحب كبيرة ففي مشيئة الله، إن شاء عفا عنه، وإن شاء عاقبه عليها ما لم تكن الكبيرة شركاً بالله»[(٣)].

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ۗ﴾ [البقرة: ١٧٨].

فسمى المقتول أخاً للقاتل: ﴿فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ﴾.

وقال تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾﴾ [الحجرات: ٩].

فالإيمان والأخوة الإيمانية لا يزولان مع وجود الاقتتال كغيره من الذنوب

---

(١) مجموع الفتاوى (١١/ ٦٥٤ ـ ٦٥٥). (٢) انظر: الجواب الكافي (ص١٨٨).
(٣) تفسير الطبري (٥/ ١٢٦).

والكبائر التي دون الشرك[١].

وقال النبي ﷺ: (**بايعوني على ألا تشركوا بالله شيئاً ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تقتلوا أولادكم ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ولا تعصوا في معروف، فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب في الدنيا فهو كفارة له، ومن أصاب من ذلك شيئاً ثم ستره الله فهو إلى الله إن شاء عفا عنه وإن شاء عاقبه**)[٢].

وقول النبي ﷺ: (**إن الله يدني المؤمن فيضع عليه كنفه ويستره فيقول: أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ فيقول: نعم أي رب حتى إذا قرره بذنوبه ورأى في نفسه أنه هالك قال: سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم فيعطى كتاب حسناته. وأما الكافر والمنافق فيقول الأشهاد: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾** [هود: ١٨])[٣].

وأدلة الكتاب والسنة جميعها متضافرة على تقرير ذلك، ولقد بوب البخاري باب المعاصي من أمر الجاهلية، ولا يكفر صاحبها بارتكابها إلا بالشرك لقول النبي ﷺ: (**إنك امرؤ فيك جاهلية**)[٤].

وقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: ٤٨].

وهذا هو قول أهل السنة والجماعة جميعهم.

٩ أقسام أصحاب الكبائر:

يقسم بعض العلماء أصحاب الكبائر إلى قسمين:

١ ـ الكبائر الاعتقادية: كالجبر والاعتزال، وكبائرهم ناشئة عن شبهة.

٢ ـ الكبائر العملية: كالزنا والقذف وشرب الخمر، وكبائرهم ناشئة عن شهوة.

والمقصود به هنا هم أصحاب الكبائر العملية لا الاعتقادية.

١٠ المخالفون لأهل السنة في مرتكب الكبيرة:

اختلفت الأمة في حكم أصحاب الكبائر العملية في الدنيا.. هل يحكم عليهم بالإيمان أو بالكفر، أو لا يحكم عليهم بإيمان ولا كفر؟

---

(١) تفسير السعدي (٧/ ١٣٤، ١٣٥).
(٢) البخاري (١١)، ومسلم (١٧٠٩).
(٣) البخاري (٢٤٤١)، ومسلم (٢٧٦٨).
(٤) مسلم (١٦٦١).

أ ـ فيرى الخوارج أنه كافر يعامل معاملة الكفار.

ب ـ ويرى المعتزلة أنه خارج من الإيمان ولم يدخل في الكفر فهو في منزلة بين منزلتين.

ج ـ ويرى المرجئة أن مرتكب الكبيرة مؤمن كامل الإيمان.

د ـ ويرى أهل السنة أنه مؤمن بإيمانه، فاسق بمعصيته ناقص الإيمان.

ومنهم من لا ينفون عنه مطلق الإيمان، كالخوارج والمعتزلة ولا يثبتون له الإيمان المطلق كالمرجئة.

دليل كل طائفة:

دليل الخوارج: استدلوا بما يأتي:

١ ـ قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤] فإن الله يحكم على من لم يحكم بما أنزل الله ـ بالكفر ـ وهو مرتكب الكبيرة.

٢ ـ قوله ﷺ: (**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن**)، وجه الدلالة: أنه نفى الإيمان عن كل من الزاني والسارق وشارب الخمر. وإذا انتفى عنهم الإيمان ثبت لهم الكفر.

٣ ـ قوله ﷺ: (**سباب المسلم فسوق وقتاله كفر**). فقد أخبر بأن قتال المؤمن كفر، فدل ذلك على أن مرتكب الكبيرة خارج عن دائرة الإيمان.

دليل المعتزلة: استدلوا بقوله ﷺ: (**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن**)، فنفى الإيمان عنهم ولم يثبت لهم الكفر. قالوا: فننفي عنه الإيمان ولا نثبت له الكفر بل نجعله في منزلة وسطى بين منزلتين.

دليل المرجئة: استدلوا بالقياس العكسي وقالوا: كما لا ينفع مع الكفر طاعة كذلك لا يضر مع الإيمان معصية.

دليل أهل السنة: استدلوا بما يأتي:

١ ـ قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ﴾ [البقرة: ١٧٨]، فأثبت للقاتل أخوة الإيمان وهو مرتكب كبيرة يصدق عليه مسمى الإيمان.

٢ ـ قال تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ٩ ـ ١٠]، فإن الله أطلق على الطائفتين المتقابلتين الإيمان وأثبت لهم أخوة الإيمان. فدل ذلك على أن مرتكب الكبيرة لا يخرج عن مسمى الإيمان.

٣ ـ لو قلنا بأن مرتكب الكبيرة كافر للزم عليه أن يكون كافراً يقتل على كل حال، فلا يقبل عفو ولي الدم في القصاص ولا يقام حد على الزاني والسارق. وهذا باطل.

قال أهل السنة: وسميناه فاسقاً أخذاً من الفسق وهو الخروج، لأنه خرج من طاعة الله إلى معصيته.

الترجيح:

والراجح هو قول أهل السنة لما يأتي:

أولاً: لقوة أدلتهم على إثبات مسمى الإيمان لمرتكب الكبيرة.

ثانياً: أما ما استدل به الخوارج والمعتزلة من قوله ﷺ: **(لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن)** فيجاب عنه بأن المراد: نفي الإيمان الكامل لا نفي أصل الإيمان، واستدل الخوارج بآية: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤] يجاب عنه بأحد جوابين:

١ ـ أن المراد بالكفر هنا الكفر العملي لا الاعتقادي، فهو كفر مجازي أو هو كفر دون كفر لا يخرج من الملة.

٢ ـ وقد يقال: إن هذا في حق من ارتكب الكبيرة مستحلاً لها. فيكون كفره لاستحلاله الكبيرة لا لارتكابه لها، أما استدلال المرجئة فيجاب عنه بأنه قياس مع وجود النص لا يعتبر حجة في حالة وجود النص.

(١١) حكم مرتكب الكبيرة في الآخرة:

تحرير محل النزاع:

اتفقت الأمة على أن مرتكب الكبيرة إذا كانت الإشراك بالله ومات على ذلك فهو في النار.

كما اتفقوا على أن مرتكب الكبيرة إذا كانت غير الإشراك بالله وتاب توبة نصوحاً قبلت توبته إذا توافرت شروطها.

أما إذا كانت الكبيرة غير الإشراك بالله سبحانه ومات قبل أن يتوب فهل يدخل النار أم لا؟ فيه خلاف بين الفرق:

أ ـ فعند الخوارج والمعتزلة: هو في نار جهنم.

ب ـ وعند المرجئة: لا يدخل النار أصلاً.

ج ـ وعند أهل السنة قالوا: تحت مشيئة الله إن شاء عفا عنه وإن شاء عذبه بقدر ذنبه ثم يخرجه بعد التمحيص وشفاعة الشافعين.

دليل كل طائفة:

أ ـ استدل الخوارج والمعتزلة على رأيهم بعدة أدلة منها:

١ ـ قوله تعالى: **﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ﴾** [النساء: ٩٣]، وجه الاستشهاد: أن قاتل المؤمن عمداً مرتكب لكبيرة، وقد أخبر عنه أنه في النار.

٢ ـ قوله تعالى: **﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾﴾** [النساء: ١٠].

أخبر أن آكل مال اليتيم ظلماً سيصلى سعيراً وهو مرتكب لكبيرة، فدل على أنه في النار في الآخرة.

٣ ـ من السنة قوله ﷺ: **(من قتل نفسه بحديدة فحديدته بيده يجاء بها في نار جهنم خالداً مخلداً)**، وجه الاستدلال: أن قاتل نفسه مرتكب لكبيرة وأنه في النار.

ب ـ دليل المرجئة: وقد استدلوا على زعمهم بدليلين هما:

١ ـ قوله ﷺ: **(من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة)**.

٢ ـ قوله ﷺ: **(من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة)**.

ج ـ أدلة أهل السنة: وقد استدلوا بعدة أدلة منها:

١ ـ قوله تعالى: **﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾** [النساء: ٤٨]، فقد علق غفران ما دون الشرك على المشيئة. والمعلق عليها جائز لا ممتنع، فدل هذا على أنه تحت مشيئة الله.

٢ ـ قوله ﷺ: **(بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تقتلوا أولادكم ولا تأتوا ببهتان، فمن وفىٰ منكم فأجره على الله، ومن عوقب به في الدنيا فهو كفارة له، ومن ستر الله عليه فأمره إلى الله إذا ستر عليه)** كما هو صريح في أن العقوبة مكفرة للذنب.

اعتراض: وقد يرد عليه أنه ﷺ ذكر الشرك مع الذنوب.

ويجاب عنه: بأنه قد خرج بدليل خاص، وهو أن الله لا يغفر أن يشرك به...

الترجيح:

الرأي المختار: هو ما ذهب إليه أهل السنة لما يأتي:

أولاً: لصراحة الأدلة التي استدل بها أهل السنة على أن مرتكب الكبيرة في الآخرة تحت مشيئة الله.

ثانياً: وأما ما قالت به الخوارج والمعتزلة من أنه في النار فيجاب عنه بعدة أجوبة:

١ ـ أن هذا الوعيد وارد في حق المستحل للذنب، فمن ارتكبها غير مستحل له لا يلحقه الوعيد بالخلود فيها وإن لحقه وعيد الدخول فيها.

٢ ـ أن هذا الوعيد على تقدير شيء مضمر تقديره فجزاؤه جهنم خالداً فيها إن شاء الله إدخاله وتخليده فيها.

٣ ـ أن هذا وعيد وإخلاف الوعيد لا يذم بل يمدح، لأن عدم عقوبة الله لمن توعده يكون من باب عفوه وكرمه وتفضله، فالعرب تعد إخلاف الوعيد مدحاً قال الشاعر:

فإني إذا أوعدته أو وعدته ... لمخلف إيعادي ومنجز موعدي

ثالثاً: أما استدلال المرجئة: فغاية ما فيه الإخبار بأن الموحد سيدخل الجنة وليس فيه ما يدل على أنه إذا ارتكب الكبيرة العملية لا يدخل النار.

١٢ استدراك ابن أبي العز على الطحاوي في تعبيره بالمعرفة في قوله: «بعد أن لقوا الله عارفين»:

لو قال مؤمنين بدل قوله عارفين كان أولى لأن من عرف الله ولم يؤمن به فهو كافر، وإنما اكتفى بالمعرفة وحدها الجهم بن صفوان[1]، وقوله مردود باطل كما تقدم، فإن إبليس عارف بربه: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ٣٦﴾ [الحجر: ٣٦]. ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ٨٣﴾ [ص: ٨٢ ـ ٨٣]. وكذلك فرعون وأكثر الكافرين، قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥]، ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ٨٤ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ [المؤمنون: ٨٤ ـ ٨٥] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على هذا المعنى.

---

(١) حقيقة الإيمان عند جهم بن صفوان هي معرفة الله، والكفر هو الجهل بالله.

وكأن الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ أراد المعرفة الكاملة المستلزمة للاهتداء.

(١٣) استدراك الشارح على الطحاوي في تخصيص أمة محمد بالحكم، حيث قال: «وأهل الكبائر من أمة محمد لا يخلدون»:

ويفهم من هذا أن أصحاب الشرائع السابقة مخلدون في النار يعذبون، وهذا ليس عليه دليل، بل النصوص دلت على أن أهل الكبائر من هذه الأمة ومن سائر الأمم أتباع الأنبياء لا يخلدون في النار إذا ماتوا وهم موحدون ولم يحدثوا توبة من الذنوب.

قال الشارح: «وفي ذلك نظر، فإن النبي ﷺ أخبر (**أنه يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان**) ولم يخص أمته بذلك بل ذكر الإيمان مطلقاً»، وقد اعتذر عنه بأن لم يرد ذكر الأمة في بعض النسخ فلعل ذكرها في البعض الآخر سبق قلم من بعض النساخ.

(١٤) الرد على فهم بعض شارحي الطحاوية أن قول الطحاوي: «في النار» هو خبر لأهل الكبائر».

جعل بعض الشارحين الجار والمجرور «في النار» خبراً «لأهل الكبائر» فيكون محكوماً به، وينتج عن هذا أن أهل الكبائر في النار حتماً وهذا غير صحيح.

والصحيح أن جملة «لا يخلدون» خبر لأهل الكبائر، وجملة «في النار» متعلقة بلا يخلدون، وإنما قدم في النار على متعلقها لأجل السجعة والتحسين اللفظي.

(١٥) حكم تمني الموت والاستدلال بقول يوسف: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١].

استدل بعضهم بقول يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١]، وقول السحرة الذين آمنوا بموسى: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٦] على جواز تمني الموت، وهذا غير صحيح، لأن في الآيات المتقدمة دعاء بالموت على الإسلام لا دعاء بالموت المطلق، وهناك فرق بينهما، فالأول: جائز، وقد دعا به النبي ﷺ فقال: (**يا ولي الإسلام وأهله مسكني بالإسلام حتى إلقاك عليه**).

أما الثاني: فمكروه لما فيه من الجزع وكراهية القضاء والقدر، ولهذا قال ﷺ:

(لا يتمنين أحدكم الموت لضُرٍّ أصابه، فإن كان ولا بد فليقل: اللهم أحيني ما دامت الحياة خيراً لي، وتوفني ما دام الموت خيراً لي).

(١٦) الخلاصة:

١ - إن مرتكب الكبيرة لا يخلد في النار إن دخلها، لأنه مات على التوحيد، حتى وإن مات من غير توبة، وما دام قد لقي الله ﷻ مؤمناً به، فإنه تحت المشيئة إن شاء الله عاقبه بعدله وعذبه بالنار لكن لا يخلد فيها، بل يخرج منها برحمة الله وبشفاعة الشافعين من أهل الطاعة، وأعظمهم محمد ﷺ.

٢ - ذهب الجمهور من السلف والخلف إلى أن من الذنوب كبائر وصغائر.

٣ - الكبيرة كل ذنب ختمه الله بنار أو غضب أو لعنة أو عذاب فهو كبيرة.

٤ - نصوص الكتاب والسنة تدل دلالة واضحة على أن مرتكب الكبيرة يكفر ولا يخرج من الدين بسبب ارتكابه للكبيرة، وإنما ينقص إيمانه، فلا يذهب عنه الإيمان بالكلية، بل يبقى معه مطلق الإيمان، وارتكاب الكبيرة ليس سبباً للخلود في النار، إلا الشرك بالله.

٥ - يقسم بعض العلماء أصحاب الكبائر إلى قسمين:

١ - الكبائر الاعتقادية: كالجبر والاعتزال، وكبائرهم ناشئة عن شبهة.

٢ - الكبائر العملية: كالزنا والقذف وشرب الخمر، وكبائرهم ناشئة عن شهوة.

(١٧) المناقشة:

- **س١:** اشرح كلام الطحاوي: «وأهل الكبائر من أمة محمد ﷺ في النار لا يخلدون، إذا ماتوا وهم موحدون، وإن لم يكونوا تائبين بعد أن لقوا الله عارفين مؤمنين، وهم في مشيئته وحكمه، إن شاء غفر لهم وعفا عنهم بفضله، كما ذكر ﷻ في كتابه: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦] وإن شاء عذبهم في النار بعدله، ثم يخرجهم منها برحمته وشفاعة الشافعين من أهل طاعته، ثم يبعثهم إلى جنته، وذلك بأن الله تعالى تولى أهل معرفته، ولم يجعلهما في الدارين كأهل نكرته، الذين خابوا من هدايته، ولم ينالوا من ولايته. اللهم يا ولي الإسلام وأهله، ثبتنا على الإسلام حتى نلقاك به».
- **س٢:** وضح المقصود بالكبائر لغة واصطلاحاً.

- **س٣:** بيِّن الضابط الدقيق الذي يتم به التفريق بين الكبائر والصغائر، مع ذكر الأقوال مع الترجيح والتوجيه.
- **س٤:** ما حكم مرتكب الكبيرة في الكتاب والسنة؟
- **س٥:** اذكر أقسام أصحاب الكبائر.
- **س٦:** وضح مذهب المخالفين لأهل السنة في مرتكب الكبيرة، مع ذكر أدلة كل طائفة.
- **س٧:** ما حكم مرتكب الكبيرة في الآخرة؟
- **س٨:** استدرك ابن أبي العز على الطحاوي في تعبيره بالمعرفة في قوله: «بعد أن لقوا الله عارفين»، وضح ذلك.
- **س٩:** استدرك الشارح على الطحاوي في تخصيص أمة محمد بالحكم، حيث قال: «وأهل الكبائر من أمة محمد لا يخلدون»، وضح ذلك.
- **س١٠:** استدرك الشارح على الطحاوي تعبيره بالمعرفة في قوله: «بعد أن لقوا الله عارفين»، وقوله: «تولىٰ أهل معرفته»، وضح ذلك؟
- **س١١:** كيف ترد على فهم بعض شارحي الطحاوية أن قول الطحاوي: «في النار» هو خبر لأهل الكبائر.
- **س١٢:** ما حكم تمني الموت؟ وكيف ترد على من استدل على جواز ذلك بقول يوسف: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١]؟

الصلاة خلف كل بر وفاجر

* **كلام ابن أبي العز:**

١ ـ غرض المصنف من عقد هذا الباب.

٢ ـ مناسبة هذا الباب لما سبق.

٣ ـ معاني الكلمات.

٤ ـ معنى كلام الطحاوي: «ونرى الصلاة خلف كل بر وفاجر من أهل القبلة، وعلى من مات منهم».

٥ ـ الصلاة خلف البر والفاجر من مسائل الفقه.

٦ ـ أنواع أئمة الصلاة.

٧ ـ هل يبحث عن حال الإمام أو يختبر في اعتقاده؟

٨ ـ حكم الصلاة خلف الإمام البر العادل.

٩ ـ حكم الصلاة خلف الإمام مستور الحال.

١٠ ـ حكم الصلاة خلف الإمام الفاسق.

١١ ـ يمنع الإمام الفاسق من الإمامة إذا أمنت الفتنة.

١٢ ـ حكم الصلاة خلف الإمام المخطئ.

١٣ ـ حكم الصلاة خلف الإمام المبتدع.

١٤ ـ المراد بولي الأمر.

١٥ ـ حكم الصلاة على من مات من أهل القبلة.

١٦ ـ حكم الصلاة على الشهيد.

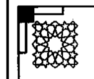
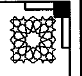
١٧ ـ الحكمة من عدم وجوب الصلاة على الشهيد.

١٨ ـ حكم الصلاة على الكفار والمنافقين.

١٩ ـ حكم الصلاة على الفساق.

٢٠ ـ الاستغفار لأهل القبلة.

٢١ ـ الخلاصة. ٢٢ ـ المناقشة.

الصلاة خلف كل بر وفاجر

قوله: «ونرى الصلاة خلف كل بر وفاجر من أهل القبلة وعلى من مات منهم».

قال ﷺ: «صلوا خلف كل بر وفاجر»(١). رواه مكحول عن أبي هريرة رضي الله عنه وأخرجه الدارقطني وقال: مكحول لم يلق أبا هريرة وفي إسناده معاوية بن صالح متكلم فيه، وقد احتج به مسلم في صحيحه وخرج له الدارقطني أيضاً وأبو داود عن مكحول عن ابن هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الصلاة واجبة عليكم مع كل مسلم براً كان أو فاجراً وإن عمل بالكبائر، والجهاد واجب عليكم مع كل أمير براً كان أو فاجراً وإن عمل الكبائر»(٢).

وفي صحيح البخاري أن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما كان يصلي خلف الحجاج بن يوسف الثقفي وكذا أنس بن مالك وكان الحجاج فاسقاً ظالماً.

وفي صحيحه أيضاً أن النبي قال: «يصلون لكم فإن أصابوا فلكم ولهم وإن أخطأوا فلكم وعليهم»(٣).

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله قال: «صلوا خلف من قال لا إله إلا الله، وصلوا على من مات من أهل لا إله إلا الله»، أخرجه الدراقطني من طرق وضعفها(٤).

اعلم رحمك الله وإيانا أنه يجوز للرجل أن يصلي خلف من لم يعلم منه بدعاً ولا فسقاً باتفاق الأئمة وليس من شرط الائتمام أن يعلم المأموم اعتقاد إمامه ولا أن يمتحنه فيقول ماذا تعتقد بل يصلي خلف المستور الحال.

ولو صلى خلف مبتدع يدعو إلى بدعته أو فاسق ظاهر الفسق وهو الإمام الراتب الذي لا يمكنه الصلاة إلا خلفه كإمام الجمعة والعيدين والإمام في صلاة الحج

---

(١) أخرجه الدارقطني (٢/ ٥٧).

(٢) أخرجه أبو داود.

(٣) أخرجه البخاري (٦٩٤).

(٤) انظر: سنن الدارقطني (٢/ ٥٦).

بعرفة ونحو ذلك فإن المأموم يصلي خلفه عند عامة السلف والخلف.

ومن ترك الجمعة والجماعة خلف الإمام الفاجر فهو مبتدع عند أكثر العلماء والصحيح أنه يصليها ولا يعيدها، فإن الصحابة ﷺ كانوا يصلون الجمعة والجماعة خلف الأئمة الفجار ولا يعيدون كما كان عبد الله بن عمر يصلي خلف الحجاج بن يوسف، وكذلك أنس ﷺ كما تقدم، وكذلك عبد الله بن مسعود ﷺ وغيره يصلون خلف الوليد بن عقبة بن أبي معيط وكان يشرب الخمر حتى إنه صلى بهم الصبح مرة أربعاً ثم قال: أزيدكم، فقال له ابن مسعود: ما زلنا معك منذ اليوم في زيادة.

وفي الصحيح أن عثمان بن عفان ﷺ لما حصر صلى بالناس شخص فسأل سائل عثمان إنك إمام عامة وهذا الذي صلى بالناس إمام فتنة، فقال: يا ابن أخي إن الصلاة من أحسن ما يعمل الناس، فإذا أحسنوا فأحسن معهم، وإذا أساءوا فاجتنب إساءتهم[(١)].

والفاسق والمبتدع صلاته في نفسها صحيحة فإذا صلى المأموم خلفه لم تبطل صلاته، لكن إنما كره من كره الصلاة خلفه لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب.

ومن ذلك أن من أظهر بدعة وفجوراً لا يترتب إماماً للمسلمين فإنه يستحق التعزير حتى يتوب، فإن أمكن هجره حتى يتوب كان حسناً، وإذا كان بعض الناس إذا ترك الصلاة خلفه وصلى خلف غيره أثر ذلك في إنكار المنكر حتى يتوب أو يعزل أو ينتهي الناس عن مثل ذنبه فمثل هذا إذا ترك الصلاة خلفه كان في ذلك مصلحة شرعية ولم تفت المأموم جمعة ولا جماعة.

وأما إذا كان ترك الصلاة خلفه يفوت المأموم الجمعة والجماعة فهنا لا يترك الصلاة خلفه إلا مبتدع مخالف للصحابة ﷺ، وكذلك إذا كان الإمام قد رتبه ولاة الأمور ليس في ترك الصلاة خلفه مصلحة شرعية فهنا لا يترك الصلاة خلفه بل الصلاة خلفه أفضل، فإذا أمكن الإنسان أن لا يقدم مظهراً للمنكر في الإمامة وجب عليه ذلك لكن إذا ولاه غيره ولم يمكنه صرفه عن الإمامة، أو كان لا يتمكن من

(١) أخرجه البخاري (٦٩٥).

صرفه عن الإمامة إلا بشر أعظم ضرراً من ضرر ما أظهر من المنكر فلا يجوز دفع الفساد القليل بالفساد الكثير ولا دفع أخف الضررين بحصول أعظمهما، فإن الشرائع جاءت بتحصيل المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد وتقليلها بحسن الإمكان، فتفويت الجمع والجماعات أعظم فساداً من الاقتداء فيهما بالإمام الفاجر لا سيما إذا كان التخلف عنها لا يدفع فجوراً فيبقى تعطيل المصلحة الشرعية بدون دفع تلك المفسدة.

وأما إذا أمكن فعل الجمعة والجماعة خلف البر فهذا أولى من فعلها خلف الفاجر، وحينئذ فإذا صلى خلف الفاجر من غير عذر فهو موضع اجتهاد العلماء، منهم من قال: يعيد، ومنهم من قال: لا يعيد، وموضع بسط ذلك في كتب الفروع.

وأما الإمام إذا نسي أو أخطأ ولم يعلم المأموم بحاله فلا إعادة على المأموم للحديث المتقدم، وقد صلى عمر رضي الله عنه وغيره وهو جنب ناسياً للجنابة فأعاد الصلاة ولم يأمر المأمومين بالإعادة، ولو علم أن إمامه بعد فراغه كان على غير طهارة أعاد عند أبي حنيفة خلافاً لمالك والشافعي وأحمد في المشهور عنه، وكذلك لو فعل الإمام ما لا يسوغ عند المأموم وفيه تفاصيل موضعها كتب الفروع، ولو علم أن إمامه يصلي على غير وضوء فليس له أن يصلي خلفه لأنه لاعب وليس بمصل.

وقد دلت نصوص الكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة أن ولي الأمر وإمام الصلاة والحاكم وأمير الحرب وعامل الصدقة يطاع في مواضع الاجتهاد وليس عليه أن يطيع أتباعه في موارد الاجتهاد بل عليهم طاعته في ذلك وترك رأيهم لرأيه فإن مصلحة الجماعة والائتلاف ومفسدة الفرقة والاختلاف أعظم من أمر المسائل الجزئية، ولهذا لم يجز للحكام أن ينقض بعضهم حكم بعض، والصواب المقطوع به صحة صلاة بعض هؤلاء خلف بعض، يروى عن أبي يوسف أنه لما حج مع هارون الرشيد فاحتجم الخليفة وأفتاه مالك بأنه لا يتوضأ وصلى بالناس، فقيل لأبي يوسف: أصليت خلفه؟ قال: سبحان الله! أمير المؤمنين، يريد بذلك أن ترك الصلاة خلف ولاة الأمور من فعل أهل البدع. وحديث أبي هريرة والذي رواه البخاري أن رسول الله قال: يصلون لكم فإن أصابوا فلكم ولهم وإن أخطأوا فلكم وعليهم نص صحيح صريح في أن الإمام إذا أخطأ فخطؤه عليه لا على المأموم

والمجتهد غايته أنه أخطأ بترك واجب اعتقد أنه ليس واجباً أو فعل محظور اعتقد أنه ليس محظوراً، ولا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يخالف هذا الحديث الصريح الصحيح بعد أن يبلغه وهو حجة على من يطلق من الحنفية والشافعية والحنبلية أن الإمام إذا ترك ما يعتقد المأموم وجوبه لم يصح اقتداؤه به فإن الاجتماع والائتلاف مما يجب رعايته وترك الخلاف المفضي إلى الفساد.

وقوله: وعلى من مات منهم، أي: ونرى الصلاة على من مات من الأبرار والفجار وإن كان يستثنى من هذا العموم البغاة وقطاع الطريق وكذا قاتل نفسه خلافاً لأبي يوسف لا الشهيد خلافاً لمالك والشافعي رحمهما الله على ما عُرف في موضعه، لكن الشيخ إنما ساق هذا لبيان أنا لا نترك الصلاة على من مات من أهل البدع والفجور لا للعموم الكلي.

ولكن المظهرون للإسلام قسمان: إما مؤمن، وإما منافق، فمن علم نفاقه لم تجز الصلاة عليه والاستغفار له، ومن لم يعلم ذلك منه صلي عليه، فإذا علم شخص نفاق شخص لم يصل هو عليه وصلى عليه من لم يعلم نفاقه، وكان عمر ﷺ لا يصلي على من لم يصل عليه حذيفة لأنه كان في غزوة تبوك قد عرف المنافقين وقد نهى الله ﷻ رسوله ﷺ عن الصلاة على المنافقين وأخبر أنه لا يغفر لهم باستغفاره، وعلل ذلك بكفرهم بالله ورسوله، فمن كان مؤمناً بالله ورسوله لم ينه عن الصلاة عليه ولو كان له من الذنوب الاعتقادية البدعية أو العملية أو الفجور ما له، بل قد أمره الله تعالى بالاستغفار للمؤمنين فقال تعالى: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ﴾ [محمد: ١٩]. فأمره سبحانه بالتوحيد والاستغفار لنفسه وللمؤمنين والمؤمنات، فالتوحيد أصل الدين والاستغفار له وللمؤمنين كماله، فالدعاء لهم بالمغفرة والرحمة وسائر الخيرات إما واجب وإما مستحب، وهو على نوعين: عام وخاص، أما العام فظاهر كما في هذه الآية، وأما الدعاء الخاص فالصلاة على الميت، فما من مؤمن يموت إلا وقد أمر المؤمنون أن يصلوا عليه صلاة الجنازة، وهم مأمورون في صلاتهم عليه أن يدعوا له كما روى أبو داود وابن ماجه عن أبي هريرة ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا صليتم على الميت فأخلصوا له الدعاء»[1].

---

(١) أخرجه أبو داود (٣١٩٩)، وابن ماجه (١٤٩٧).



عناصر الموضوع:

(١) غرض المصنف من عقد هذا الباب:

غرض المصنف من عقد هذا الباب يتضح فيما يلي:

أ ـ تقرير أصل من أصول أهل السنة والجماعة ألا وهو الصلاة خلف البر والفاجر من المسلمين.

ب ـ الرد على المخالفين لمذهب أهل السنة والجماعة من أهل البدع، فإنهم لا يصلون خلف أئمة الفسق والفجور، لأن الفاسق كافر عند الخوارج، وعند المعتزلة خرج من الإيمان ولم يدخل الكفر، وعند الرافضة أيضاً لا يصلون خلف الفاسق لأنهم لا يرون الصلاة إلا خلف المعصوم.

(٢) مناسبة هذا الباب لما سبق:

لمَّا بيَّن المصنف أن المؤمن مرتكب المعاصي هو مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته، ناسب بعد ذلك أن يبين حكم الصلاة خلف الفاجر، وأن من أصول أهل السنة والجماعة الصلاة خلف كل بر وفاجر.

(٣) معاني الكلمات:

الكلمة	المعنى
بر	مطيع تقي

(٤) معنى كلام الطحاوي: «ونرى الصلاة خلف كل بر وفاجر من أهل القبلة، وعلى من مات منهم»:

هذا فيه مسألتان:

الأولى: أن الصلاة عمل وإحسان، فإذا فعلها الناس خصوصاً ولاة الأمور، فإنهم عملوا معروفاً وإحساناً، وفي ترك الصلاة خلفهم محظور عظيم، من شق العصا، وتفريق الكلمة، وسفك الدماء، وهذا خطر عظيم، فيجب أن يتلافى،

هذا من حيث العموم، فكيف بولاة الأمور الذين في منابذتهم ومخالفتهم شق لعصا الطاعة، وتفريق الكلمة، وآثار سيئة على المسلمين؟

هذا مذهب أهل السنة والجماعة، يصلون الجمع والجماعات، ويجاهدون في سبيل الله مع كل أمير، براً كان أو فاجراً، ما لم يخرج عن الإسلام.

هذا أصل من أصول أهل السنة والجماعة، من عهد الصحابة إلى عهد الأئمة، وهو الذي عليه إجماع المسلمين من أهل السنة والجماعة.

المسألة الثانية: الصلاة على جنازة المسلم وإن كان فاسقاً، ما لم يخرج من الإسلام، فهو مسلم له ما للمسلمين وعليه ما على المسلمين، أما إذا خرج عن الإسلام فلا يصلى عليه، لأنه ليس بمسلم، وليس كل إنسان يحكم على الناس بالردة، إنما يحكم بذلك أهل العلم والبصيرة بالرجوع إلى قواعد أهل السنة والجماعة، أما كل أحد فلا يحكم بذلك، وإن كانت نيته طيبة ومقصده حسناً، إنما الحكم لأهل البصيرة والراسخين في العلم[1].

٥ الصلاة خلف البر والفاجر من مسائل الفقه:

الصلاة خلف البر والفاجر من مسائل الفقه التي أدخلها العلماء في كتب العقائد، وذلك للرد على أهل البدع من الخوارج والمعتزلة والرافضة وغيرهم.

٦ أنواع أئمة الصلاة:

الأصل أن يكون الإمام عدلاً براً، لكن هناك أئمة ما اجتمعت فيهم هذه الصفات وهم أقسام:

١ - مستور الحال: وهو من لا يعلم منه فسوق ظاهر، ولا تعلم عدالته.
٢ - الإمام المبتدع الداعي إلى بدعته.
٣ - الإمام الفاسق ظاهر الفسق.
٤ - الإمام المخطئ المعذور.
٥ - الإمام العدل البر.

٧ هل يبحث عن حال الإمام أو يختبر في اعتقاده؟

لا يجب على المأموم أن يسأل عن عقيدة الإمام أو يختبره، بل يصلي وراءه، ويحمله على الأصل على العدالة، فإن ظهر له بعد ذلك شيء حكم بمقتضاه.

---

(١) التعليقات المختصرة على العقيدة الطحاوية للفوزان (ص١٦١ - ١٦٢).

٨ حكم الصلاة خلف الإمام البر العادل:

المراد بالإمام البر هو ما توافرت فيه شروط ثلاثة:

أ ـ اجتنابه لكبائر الذنوب.

ب ـ عدم إصراره على الصغائر.

ج ـ استعماله للمروءة وتحليه بها... وهي تمسك الإنسان بما يجمله ويزينه وابتعاده عما يدنسه ويشينه.

حكم الصلاة خلفه:

جائز بالاتفاق. ودليل الجواز: ما سيأتي في الأدلة في جواز الصلاة خلف الفاسق... ولم يخالف في ذلك سوى فرقة من غلاة الرافضة القائلين بأنه لا تقام الجمع والأعياد والجماعات إلا إذا ظهر «المنتظر» (الإمام المعصوم) ورأيهم شاذ مخالف للجماعة.

٩ حكم الصلاة خلف الإمام مستور الحال:

المراد به: من لم يظهر بدعة ولا فجوراً بأن كانت حالته الظاهرة العدالة ولم يعلم بحالته الباطنة، وحكم الصلاة خلفه: جائزة بالاتفاق أيضاً، ذلك لأن الأصل في المسلم العدالة إلا إذا ظهر منه خلاف ذلك. وليس من شرطه أن تسأله ماذا تعتقد ونحو ذلك.

وأدلة الجواز علاوة على الإجماع ما سيأتي من أدلة جواز الصلاة خلف الفاسق...

قال شيخ الإسلام: «فالصلاة خلف المستور جائزة باتفاق علماء المسلمين»[١].

١٠ حكم الصلاة خلف الإمام الفاسق:

المراد به من اقترف الكبائر أو أصر على الصغائر ولم يجعل فقدان المروءة شرطاً فيه لأنها مكملة للمرء ولا يوصله فقدانها إلى الفسق.

حكم الصلاة خلفه:

اختلف العلماء في حكمها على قولين:

أ ـ ذهب الجمهور إلى جواز الصلاة خلفه ولا ينبغي له أن يعيدها.

---

(١) قاعدة أهل السنة والجماعة في رحمة أهل البدع (ص٧ ـ ٨).

ب ـ ذهب بعضهم إلى عدم جواز الصلاة خلفه، وهو رواية عن الإمام أحمد واستثنى من ذلك حالتين:

١ ـ إذا خشي فوات الجمعة أو الجماعة، فإن من ترك الجمعة والجماعة خلف الإمام الفاجر فهو مبتدع عند أكثر العلماء.

٢ ـ إذا خشي الفتنة في ماله أو بدنه أو عرضه، فإن درء المفاسد مقدم على جلب المصالح...

أدلة المجيزين:

استدلوا بعدة أدلة منها:

١ ـ ما روى عن أبي هريرة أنه ﷺ قال: «**صلوا خلف كل بر وفاجر**»، قال المخالف، إن هذا الحديث منقطع فإنه من رواية مكحول، وهو لم ير أبا هريرة. قلنا: الحديث الثاني يعضده...

٢ ـ ما رواه أبو هريرة عنه ﷺ أنه قال: «**الصلاة واجبة عليكم مع كل مسلم براً كان أو فاجراً، وإن عمل بالكبائر، والجهاد واجب عليكم مع كل أمير براً كان أو فاجراً وإن عمل بالكبائر**».

٣ ـ ما رواه ابن عمر أنه ﷺ قال: «**صلوا خلف كل من قال لا إله إلا الله وصلوا على من مات من أهل لا إله إلا الله**».

٤ ـ قوله ﷺ في الأئمة الأشرار: «**يصلون لكم فإن أصابوا فلكم ولهم، وإن أخطأوا فلكم وعليهم**».

٥ ـ فعل الصحابة:

أ ـ فقد روي أن عبد الله بن عمر وأنس بن مالك رضي الله عنهما كانا يصليان خلف الحجاج. وكان فاسقاً ظالماً ولو لم يجيزوا الصلاة خلفه لم يصليا خلفه.

ب ـ ما روي أن عبد الله بن مسعود وغيره كانوا يصلون خلف الوليد بن عقبة ابن أبي معيط وكان يشرب الخمر حتى أنه صلى بهم الصبح مرة أربعاً ثم قال أأزيدكم؟ فقال له ابن مسعود: «ما زلنا معك في زيادة منذ اليوم».

ج ـ ما ورد في الصحيح أن عثمان بن عفان رضي الله عنه لما حصر صلى بالناس شخص، فدخل عبيد الله بن عدي فقال لعثمان رضي الله عنه: «**إنك إمام عامة وهذا الذي صلى بالناس إمام فتنة؟ فقال: إذا أحسن الناس فأحسن معهم**» الحديث.

قال شيخ الإسلام: «وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يصلون خلف من

يعرفون فجوره كما صلى ابن مسعود وغيره من الصحابة خلف الوليد بن عقبة بن أبي معيط، وقد كان يشرب الخمر، وصلى بهم يوماً الصبح أربعاً، وجلده عثمان بن عفان رضي الله عنه على ذلك»[١].

(١١) يمنع الإمام الفاسق من الإمامة إذا أمنت الفتنة:

ج ـ إذا أمكن الإنسان أن يمتنع من الائتمام وجب عليه، وإن لم يتمكن من منعه أو تمكن من ذلك ولكن يترتب عليه شر كبير فلا يجوز، وذلك لما تقدم من أنه لا يجوز دفع أخف الضررين بارتكاب أعظمهما ولا يدفع الفساد القليل بالكثير فإن الشرائع جاءت بتحصيل المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد وتقليلها بحسب الإمكان.

(١٢) حكم الصلاة خلف الإمام المخطئ:

ج: المراد به: من ترك شرطاً من شروط الصلاة أو واجباً من واجباتها ناسياً.

وحكم الصلاة خلفه: إذا لم يعلم المأموم بحاله فإن صلاته صحيحة ولا تلزم الإعادة، وكذلك إذا علم بعد الصلاة عند مالك والشافعي وأحمد في المشهور عنه ويلزمه إعادة الصلاة عند أبي حنيفة.

ودليل الأولين ما روي أن عمر رضي الله عنه صلى بالناس وهو جنب فأعاد صلاته ولم يأمرهم بالإعادة.

ولما تقدم من حديثه ﷺ في الأئمة الأشرار: «**يصلون بكم، فإن أصابوا فلكم ولهم، وإن أخطأوا فلكم وعليهم**». فهذان دليلان على أنه لا تلزمه إعادة الصلاة ولو علم المأموم بذلك».

قال الشارح: «وكذلك لو فعل الإمام ما لا يسوغ عند المأموم وفيه تفاصيل موضعها كتب الفروع، ولو علم أن إمامه يصلي على غير وضوء!! فليس له أن يصلي خلفه، لأنه لاعب وليس بمصل، وقد دلت نصوص الكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة أن ولي الأمر وإمام الصلاة يطاع في مواضع الاجتهاد وليس عليه أن يطيع أتباعه في مواد الاجتهاد، بل عليهم طاعته في ذلك وترك رأيهم لرأيه، فإن مصلحة الجماعة في الائتلاف ومفسدتهم في الفرقة والاختلاف أعظم من أمر المسائل الجزئية... فإن الاجتماع والائتلاف مما يوجب رعايته وترك الخلاف المفضي إلى الفساد».

---

(١) قاعدة أهل السنة والجماعة في رحمة أهل البدع (ص٧ ـ ٨).

(١٣) حكم الصلاة خلف الإمام المبتدع:

لا يخلو الأمر من حالتين:

١ ـ أن توصله بدعته إلى الكفر كغلاة المشبهة وغلاة الشيعة القائلين بالحلول وغلاة المعطلة من الجهمية والمعتزلة ونحوهم المنكرين لعلو الله تعالى والقائلين بخلق القرآن، وهؤلاء لا تصح الصلاة خلفهم لأن بدعته تؤدي بهم إلى الكفر.

٢ ـ ألا تبلغ به بدعته الكفر، وهنا خلاف بين الفقهاء، فمنهم من قال: يصلي خلفه وهو الراجح، ومنهم من قال: لا يصلي خلفه إلا إذا خشي فوات الجمعة والجماعات أو خشي على ماله أو بدنه أو عرضه.

(١٤) المراد بولي الأمر:

المراد بولي الأمر هو الإمام الأعظم، أي: خليفة المسلمين.

والمراد بفروعه:

١ ـ أمراء البلدان.

٢ ـ وأمير الحرب.

٣ ـ وعامل الصدقة ونحو ذلك.

ولا يجوز مخالفة ولي الأمر ولا فروعه في المسائل الاجتهادية التي لا نص فيها شرعي.

وقد دلت النصوص من الكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة على ذلك؛ ولأن مصلحة الجماعة في الاتحاد والاتفاق ومفسدتهم في الفرقة والاختلاف أعظم من أمر المسائل الجزئية، ولهذا لم يجز للحكام أن ينقض بعضهم حكم بعض.

(١٥) حكم الصلاة على من مات من أهل القبلة:

اتفق العلماء على أن صلاة الجنازة من فروض الكفاية إذا قام بها من يكفي سقط الإثم عن الباقين، وإذا تركها الكل أثموا، وذلك لأمر الرسول ﷺ بها ومحافظته عليها، وبناء عليه فإن من مات من الأبرار ولم يكن شهيداً تجب الصلاة عليه، وقد ورد في الحث على الصلاة على الجنازة آثار منها:

قوله ﷺ: **«من تبع جنازة وصلى عليها فله قيراط، ومن تبعها حتى يفرغ منها فله قيراطان، أصغرهما مثل أحد»**.

(١٦) حكم الصلاة على الشهيد:

حكم الصلاة عليه:

اختلف العلماء في حكمها على أقوال ثلاثة:

أ ـ فذهب الجمهور إلى أنه لا يصلىٰ عليه.

ب ـ وذهب البعض إلى أنه يصلىٰ عليه.

ج ـ وذهب ابن حزم إلى التخيير، فقال: إن صلى عليه فحسن، وإن تركها فحسن وهذا القول رواية في المذهب استصوبها ابن القيم.

منشأ الخلاف بين العلماء في حكم الصلاة على الشهيد هو: اختلاف الآثار المنقولة عن الرسول ﷺ في شهداء أحد هل صلى عليهم الرسول أم لا؟ فمن قال يصلىٰ عليهم فهو آخذ بالآثار التي ورد فيها أن الرسول ﷺ صلى على شهداء أحد... والعكس بالعكس.

وقد اقتصرنا على شهداء أحد لأنه لم ينقل عن الرسول أنه صلى في شيء من المعارك على غير شهداء أحد... وهذا مما يجعلنا نرجح عدم جواز الصلاة عليه لأنه يبعد أن يصلي الرسول على غير شهداء أحد ولم ينقل إلينا مع وجود الجمع الغفير... ولو كانت الصلاة على الشهداء مشروعة لصلى الرسول عليهم ولو صلى عليهم لنقل إلينا.

(١٧) الحكمة من عدم وجوب الصلاة على الشهيد:

التمس بعضهم حكمة لذلك فقال: إن ذلك لسببين هما:

١ ـ لأن الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون. كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [آل عمران: ١٦٩] والصلاة إنما على الميت.

٢ ـ لأن الصلاة على الميت إنما شرعت للشفاعة له والدعاء له، والشهيد ليس في حاجة إلى الشفاعة لأنه كما ورد (يشفع في سبعين من أهله).

(١٨) حكم الصلاة على الكفار والمنافقين:

من مات من الكفار والمنافقين، فلا تجوز الصلاة عليه بل تحرم بدليل:

١ ـ قوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [التوبة: ٨٤]، فقد نهى الله نبيه عن الصلاة على المنافقين والنهي يقتضي التحريم.

٢ ـ قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ١١٣]، فإن الله بيَّن أنه لا ينبغي ولا يجوز للنبي والمؤمنين أن يستغفروا للمشركين

والصلاة على الميت استغفار له. فدلت على عدم جواز الصلاة على المشركين.

٣ ـ ومن أجل أنه لا يصلىٰ على الكفار والمنافقين كان عمر لا يصلي على من لم يصل عليه حذيفة بن اليمان... لأن حذيفة قد علم المنافقين من النبي ﷺ في غزوة تبوك.

قال شيخ الإسلام: «ولا يصلى على الكفار والمنافقين»[١].

١٩ حكم الصلاة على الفساق:

اختلف العلماء في ذلك علىٰ أقوال ثلاثة:

أ ـ ذهب الجمهور إلى أنه يصلىٰ عليهم.

ب ـ وذهب البعض إلى عدم الصلاة عليهم.

ج ـ وذهب أبو حنيفة إلى أنه يصلىٰ عليهم باستثناء ثلاثة وهم:

١ ـ البغاة.

٢ ـ وقطاع الطريق.

٣ ـ وقاتل نفسه.

أدلة كل طائفة:

أ ـ أدلة الجمهور: وقد استدلوا بما يأتي:

١ ـ قوله تعالى: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ﴾ [محمد: ١٩]، وجه الدلالة بأن الله أمر نبيه ﷺ بعد التوحيد والاستغفار له وللمؤمنين والمؤمنات. قالوا: والاستغفار للمؤمنين والمؤمنات على قسمين عام وخاص.

وهو إما واجب أو مستحب، فأما العام وهو المستحب فهو دعاء المؤمنين للمؤمنين والمؤمنات في سائر الأوقات.

وأما الخاص: وهو الواجب فهو صلاة الجنازة، قالوا: فما من ميت يموت إلا وقد أمر المسلمون بالصلاة عليه. وهم: مأمورون بالدعاء له فقد ورد في الحديث عن النبي ﷺ: **«إذا صليتم على الميت فأخلصوا له الدعاء»**، وبما أن الآية عامة في الأمر بالاستغفار فيدخل في مسمى المؤمنين الفاسق وغير الفاسق.

٢ ـ أدلة المانعين:

استدلوا بما ورد من أن الرسول ﷺ لم يصل على قاتل نفسه ولم يصل على الغالّ.

---

(١) قاعدة أهل السنة والجماعة في رحمة أهل البدع (ص٨).

قالوا: والغالُّ وقاتل نفسه فاسقان فيقاس عليهما سائر الفساق.

ج ـ أدلة أبي حنيفة:

١ ـ استدل على المنع من الصلاة على قاتل نفسه بما ورد من أنه ﷺ لم يصل عليه.

٢ ـ أما دليله على منع الصلاة على قاطع الطريق والبغاة... فقال لأنهم باينوا دار الإسلام فأشبهوا أهل الحرب، وأهل الحرب لا يصلى عليهم.

الرأي المختار:

هو ما ذهب إليه الجمهور من أنه يصلى على الفساق لعموم الأدلة التي استدلوا بها ولردهم على أدلة المخالفين:

أ ـ أما استدلال من قال: لا يصلى عليهم بأنه ﷺ: لم يصل على الغال وقاتل نفسه فيجاب عنه: بأن الرسول لم يصل عليهما للزجر عن فعلهم وليس لأن الصلاة عليهم لا تجوز بدليل: أمره للصحابة بالصلاة على قاتل نفسه حيث قال: صلوا على صاحبكم.

ب ـ وأما استدلال أبي حنيفة بأن البغاة وقطاع الطريق باينوا دار الإسلام، فأشبهوا أهل الحرب.

فنقول: هذا الدليل لا يقوى على تخصيص عموم الأدلة الدالة على الصلاة على من مات من أهل القبلة.

قال شيخ الإسلام: «ويصلى على من مات من المسلمين وإن كان فاجراً، كأن يكون زانياً أو شارباً للخمر، أو سارقاً ما لم يكن مستحلاً»[١].

وذكر الأشعري مذهب أهل السنة في عدم ترك الصلاة على أهل المعاصي فقال: «ويرون الصلاة على كل من مات من أهل القبلة برهم وفاجرهم»[٢].

وقال القاضي عياض: «مذهب العلماء كافة الصلاة على كل مسلم ومحدود ومرجوم وقاتل نفسه وولد الزنا»[٣].

(٢٠) الاستغفار لأهل القبلة:

اتفق أهل السنة على عدم ترك الاستغفار لأهل الكبائر من المسلمين والصلاة

---

(١) قاعدة أهل السنة والجماعة في رحمة أهل البدع (ص٨).

(٢) انظر: مقالات الإسلاميين (١/ ٣٢٤). (٣) شرح مسلم للنووي (٧/ ٤٦ ـ ٤٧).

عليهم فمن ارتكب المعاصي وقارف الذنوب مع اعتقاده أنها منهي عنها فإن مات يجوز الاستغفار له، وقد أمر الله تعالى نبيه ﷺ فقال: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾﴾ [محمد: ١٩]. فأمره بالاستغفار لنفسه وللمؤمنين والمؤمنات ولم يفرق بين العصاة وغيرهم من المسلمين.

٢١ الخلاصة:

١ - مذهب أهل السنة والجماعة. أنهم يصلون الجمع والجماعات، ويجاهدون في سبيل الله مع كل أمير، براً كان أو فاجراً، ما لم يخرج عن الإسلام، وهو أصل من أصول أهل السنة والجماعة، من عهد الصحابة إلى عهد الأئمة، وهو الذي عليه إجماع المسلمين من أهل السنة والجماعة.

٢ - الأصل أن يكون الإمام عدلاً براً.

٣ - لا يجب على المأموم أن يسأل عن عقيدة الإمام أو يختبره، بل يصلي وراءه، ويحمله على الأصل على العدالة، فإن ظهر له بعد ذلك شيء حكم بمقتضاه.

٤ - اتفق العلماء على أن صلاة الجنازة من فروض الكفاية إذا قام بها من يكفي سقط الإثم عن الباقين وإذا تركها الكل أثموا.

٥ - من مات من الكفار والمنافقين، فلا تجوز الصلاة عليه بل تحرم.

٦ - مذهب الجمهور أنه يصلى على الفساق لعموم الأدلة.

٧ - اتفق أهل السنة على عدم ترك الاستغفار لأهل الكبائر من المسلمين والصلاة عليهم.

٢٢ المناقشة:

- **س١:** شرح قول الطحاوي: «ونرى الصلاة خلف كل بر وفاجر من أهل القبلة، وعلى من مات منهم».
- **س٢:** وضح أقسام أئمة الصلاة.
- **س٣:** ما السبب الذي لأجله ذكر الطحاوي هذا المبحث في عقيدته؟
- **س٤:** ما المراد بالبر «العدل»؟ وما حكم الصلاة خلفه؟
- **س٥:** هل يبحث عن حال الإمام أو يختبر في اعتقاده؟
- **س٦:** وضح المقصود بمستور الحال، وما حكم الصلاة خلفه؟

- **س٧:** من هو الفاجر «الفاسق» وما حكم الصلاة خلفه؟
- **س٨:** هل يجوز منع الفاسق من الإمامة؟
- **س٩:** ما المقصود بالمخطئ «المعذور»؟ وما حكم الصلاة خلفه؟
- **س١٠:** ما حكم الصلاة خلف الإمام المبتدع؟
- **س١١:** من هو ولي الأمر؟ ومن هم فروعه؟ وما حكم مخالفتهم في الأمور الاجتهادية؟
- **س١٢:** هل تجب الصلاة على من مات براً ولكنه لم يمت شهيداً؟
- **س١٣:** من هو الشهيد؟ وما حكم الصلاة عليه؟
- **س١٤:** ما الحكمة من عدم وجوب الصلاة على الشهيد؟
- **س١٥:** هل تجوز الصلاة على الكفار والمنافقين؟
- **س١٦:** هل تجوز الصلاة على فساق المسلمين؟
- **س١٧:** بيِّن وجوب الاستغفار لأهل القبلة، مع الأدلة.

الحكم على معين بجنة أو نار، أو كفر أو إشراك

* كلام ابن العز:

١ ـ غرض المصنف من عقد هذا الباب.

٢ ـ مناسبة هذا الباب لما سبق.

٣ ـ معاني الكلمات.

٤ ـ معنى كلام الطحاوي: «ولا ننزل أحداً منهم جنة ولا ناراً، ولا نشهد عليهم بكفر ولا بشرك ولا بنفاق، ما لم يظهر منهم شيء من ذلك، ونذر سرائرهم إلى الله تعالى».

٥ ـ من أصول أهل السنة والجماعة عدم الشهادة لمعين بجنة أو نار.

٦ ـ أقوال السلف للشهادة لمعين بالجنة.

٧ ـ حكم تكفير المسلم المعني أو تفسيقه.

٨ ـ معنى كلام الطحاوي: «ولا نرى السيف على أحد من أمة محمد ﷺ إلا من وجب عليه السيف».

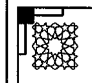
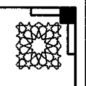
٩ ـ الحكم على عقائد الناس أكبر من الحكم على أموالهم وأعراضهم.

١٠ ـ الأصل أن دماء المسلمين وأموالهم معصومة.

١١ ـ الحالات التي يباح فيها دم المسلم.

١٢ ـ الخلاصة.

١٣ ـ المناقشة.

الحكم على معين بجنة أو نار، أو كفر أو إشراك

قال ابن أبي العز:

قوله: «ولا ننزل أحداً منهم جنة ولا ناراً».

يريد إنا لا نقول على أحد معين من أهل القبلة إنه من أهل الجنة أو من أهل النار إلا من أخبر الصادق أنه من أهل الجنة كالعشرة ﷺ، وإن كنا نقول إنه لا بد أن يدخل النار من أهل الكبائر من شاء الله إدخاله النار ثم يخرج منها بشفاعة الشافعين، ولكنا نقف في الشخص المعين فلا نشهد له بجنة ولا نار إلا عن علم لأن الحقيقة باطنة وما مات عليه لا نحيط به، لكن نرجو للمحسنين ونخاف على المسيئين، وللسلف في الشهادة بالجنة ثلاثة أقوال:

أحدها: أن لا يشهد لأحد إلا للأنبياء[1]، وهذا ينقل عن محمد بن الحنفية والأوزاعي.

والثاني: أنه يشهد بالجنة لكل مؤمن جاء فيه النص، وهذا قول كثير من العلماء وأهل الحديث.

والثالث: أنه يشهد بالجنة لهؤلاء ولمن شهد له المؤمنون كما في الصحيحين أنه مر بجنازة فأثنوا عليها بخير فقال النبي وجبت، ومر بأخرى فأثنى عليها بِشَر فقال وجبت، وفي رواية كرر وجبت ثلاث مرات، فقال عمر: يا رسول الله ما وجبت؟ فقال رسول الله ﷺ: «هذا أثنيتم عليه خيراً وجبت له الجنة، وهذا أثنيتم عليه شراً وجبت له النار، أنتم شهداء الله في الأرض»[2].

وقال ﷺ: «توشكون أن تعلموا أهل الجنة من أهل النار، قالوا: بم يا

---

(١) انظر: منهاج السنّة (٦/ ٢٠٣).

(٢) أخرجه البخاري (١٣٦٧)، ومسلم (٩٤٩).

رسول الله؟ قال: بالثناء الحسن والثناء السيء»[١]، فأخبر أن ذلك مما يعلم به أهل الجنة وأهل النار.

قوله: «لا نشهد عليهم بكفر ولا بشرك ولا بنفاق ما لم يظهر منهم شيء من ذلك ونذر سرائرهم إلى الله تعالى».

لأنا قد أمرنا بالحكم بالظاهر ونهينا عن الظن واتباع ما ليس لنا به علم، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ﴾ [الحجرات: ١١]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: ١٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾ [الإسراء: ٣٦].

قوله: «ولا نرى السيف على أحد من أمة محمد إلا من وجب عليه السيف».

في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة»[٢].

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٤٢٢١).

(٢) أخرجه البخاري (٦٨٧٨)، ومسلم (١٦٧٦).



الشرح

عناصر الموضوع:

(١) غرض المصنف من عقد هذا الباب:

يتضح غرض المصنف من عقد هذا الباب فيما يلي:

تقرير مذهب أهل السنة والجماعة أنهم لا يشهدون لمعين بجنة ولا نار إلا من شهدت له النصوص بذلك، ولا يشهدون على مسلم بكفر ولا بشرك ولا نفاق ما لم يظهر منه شيء من ذلك، ويتركون علة السرائر والبواطن لله ﷻ.

(٢) مناسبة هذا الباب لما سبق:

لما بين المؤلف فيما سبق أن المؤمن مرتكب الكبيرة هو مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته وأن الصلاة تجوز خلفه، والصلاة عليه إذا مات، ناسب أن يبين أنَّ من معتقد أهل السنة والجماعة أنهم لا يحكمون لمعين بجنة ولا نار إلا من شهدت له النصوص بذلك.

(٣) معاني الكلمات:

الكلمة	المعنى
نَذَر	نترك
سرائر	جمع سريرة، وهي دخيلة الإنسان.

(٤) معنى كلام الطحاوي: «ولا ننزل أحداً منهم جنة ولا ناراً، ولا نشهد عليهم بكفر ولا بشرك ولا بنفاق، ما لم يظهر منهم شيء من ذلك، ونذر سرائرهم إلى الله تعالى»:

ولا يحكم أهل السنة لأهل القبلة بجنة ولا نار على سبيل التعيين والقطع، بل من أحسن منهم رجونا له الجنة ولم نأمن عليه مكر الله تعالى، ومن أساء أشفقنا عليه ولم نقنطه من رحمة الله تعالى.

ولا يشهد أهل السنة على مسلم بكفر ولا بشرك ولا نفاق، مما يخرج عن

الملة الإسلامية، إلا أن يكون قد ظهر منهم شيء من ذلك مع تحقق الشروط وانتفاء الموانع، ويتركون السرائر والبواطن إلى الله تعالى حيث إنه العليم بها، ويأخذون الناس بما ظهر منهم.

٥ من أصول أهل السنة والجماعة عدم الشهادة لمعين بجنة أو نار:

إن من أصول أهل السنة والجماعة عدم الشهادة لمعين بجنة أو نار إلا من شهد له الله ورسوله ﷺ، وإنما يشهدون الأوصاف، فيشهدون للمتقين بالجنة، ولا يعينون واحداً منهم بعينه، ويشهدون للكفار بالنار ولا يعينون أحداً منهم بعينه قبل موته.

وذلك لأن الحقيقة باطنة لم نطلع عليها. وما مات عليه المرء لم يظهر لنا وإن كنا نرجو للمحسنين الثواب ونخشى على المسيئين العقاب.

٦ أقوال السلف للشهادة لمعين بالجنة:

اختلف العلماء في ذلك على أقوال عدة:

أ ـ أنه لا يشهد إلا للأنبياء فقط. وهذا ينقل عن محمد بن الحنفية والأوزاعي.

ب ـ يشهد لمن ورد فيهم النص. وهذا قول كثير من العلماء وأهل الحديث.

ج ـ يشهد لمن ورد فيهم النص ولمن شهد له المسلمون بذلك.

دليل كل طائفة:

أ ـ دليل الأولين: قالوا إن الأنبياء وحدهم هم المعصومون ومن سواهم فغير معصومين فيشهد للأنبياء دون من سواهم.

ب ـ دليل الرأي الثاني: أن الرسول ﷺ هو المخبر عن ربه وهو الصادق الأمين، فإذا أخبر عن أحد وشهد له بالجنة فقد وجبت له الشهادة بها...

ج ـ دليل الرأي الثالث: قالوا: دليلنا ما يأتي:

١ ـ ما ورد في الصحيحين: أنه مر بجنازة فأثنوا عليها بخير فقال النبي ﷺ: «وجبت»، وفي رواية كرر: «وجبت» ثلاث مرات.

فقال عمر: يا رسول الله، ما وجبت؟ فقال رسول الله: **«هذا أثنيتم عليه خيراً فوجبت له الجنة، وهذا أثنيتم عليه شراً حتى وجبت له النار، أنتم شهداء الله في الأرض»**.

٢ ـ قوله ﷺ: **«توشكون أن تعلموا أهل الجنة من أهل النار، قالوا: بم يا رسول الله؟ قال: بالثناء الحسن والثناء السيء»**.

ثمرة الخلاف: إن الرأي الأول يتوقف على الأنبياء، أما الثاني والثالث فلا يتوقف على الأنبياء بل يتعداهم إلى غيرهم على خلاف في مقدار ذلك التجاوز، وتظهر ثمرة الخلاف في مثل عمر بن عبد العزيز والأئمة الأربعة هل يشهد لهم بالجنة أم لا؟ فعلى الرأي الثالث يشهد لهم بالجنة، وعلى الرأيين الأوليين لا يشهد. . .

الرأي المختار: هو الرأي الثاني وذلك لما يأتي:

أولاً: وجاهة ما استدلوا به وقوته.

ثانياً: أما عن دليل الأولين فإن عصمة الأنبياء تقتضي تصديقهم فيما أخبروا به. . . فإذا أخبروا بالشهادة لأحد في الجنة فيجب تصديقهم وذلك بالشهادة لمن شهدوا.

ثالثاً: وأما عن دليل الآخرين الأول: فنقول: إن الشهادة لإحدى الجنازتين بالجنة والأخرى بالنار إنما هي لإخبار الرسول ﷺ، وأما قوله «هذا أثنيتم» فليس هذا من ربط الأشياء بمسبباتها التي لا تختلف عنها أبداً، وإنما هو من ربط الأشياء بالقرائن التي تختلف في بعض الأمور.

ويدل على ذلك دليلهم الثاني حيث قال ﷺ توشكون ولم يقل تعلمون، وهناك فرق بينهما، وهذا دليل على رجحان الرأي الثاني.

٧ حكم تكفير المسلم المعين أو تفسيقه:

من أصول أهل السنة ألا يحكم على أحد من أهل القبلة بشيء من ذلك إلا إذا ظهر منه، وذلك لأننا قد نهينا عن اتباع الظن وقد دلت على ذلك آيات منها: ﴿ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: ١٢]، وقال: ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ [الحجرات: ١١] والسخرية قول بالظن وكلام على الإنسان بما لا يعلم، وقال: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦] والنهي يقتضي التحريم.

٨ معنى كلام الطحاوي: «ولا نرى السيف على أحد من أمة محمد ﷺ إلا من وجب عليه السيف»:

يرى أهل السنة أن المسلم معصوم الدم، فلا يجوز قتاله ولا قتله إلا في حالات نص عليها الشارع يأتي بيانها في مبحث مستقل.

(٩) الحكم على عقائد الناس أكبر من الحكم على أموالهم وأعراضهم:

الحكم على عقائد الناس أكبر بكثير من الحكم على أموالهم وأعراضهم، لأن الأصل في دماء المسلمين وأعراضهم التحريم إلا بإذن الشرع، ونحن مطالبون بأن نحكم على ظواهر الناس ونكل البواطن إلى الله ﷻ.

قال النبي ﷺ: **«كل المسلم على المسلم حرام: دمه وماله وعرضه»** رواه مسلم.

(١٠) الأصل أن دماء المسلمين وأموالهم معصومة:

المسلم معصوم الدم والمال والعرض إلا بإذن من الشرع، قال شيخ الإسلام: «الأصل أن دماء المسلمين وأموالهم وأعراضهم محرمة فيما بينهم لا تحل إلا بإذن الله ورسوله»[١].

(١١) الحالات التي يباح فيها دم المسلم:

اختلف العلماء في هذا الحديث هل هو محكم أم منسوخ:

أ ـ فجمهور العلماء على أنه محكم، وما ورد من الجرائم داخل فيه، فاللواط وإتيان البهيمة داخل في الزنا، والباغي وقاطع الطريق داخل في الارتداد عن الدين أو داخل في قتل النفس، وأما الباغي فهو داخل في الارتداد وإن لم يفارق دينه.

ب ـ وقال قوم: هذا الحديث منسوخ، والناسخ له آية الحرابة ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ﴾ [المائدة: ٣٣]، والمنسوخ هو حكم الحصر لا الأحكام التي وردت فيها.

ج ـ ويقال بأن الحديث عام مخصوص، فعموم النص خصص بأمور أخرى.

(١٢) الخلاصة:

١ ـ لا يحكم أهل السنة لأهل القبلة بجنة ولا نار على سبيل التعيين والقطع.

٢ ـ ولا يشهد أهل السنة على مسلم بكفر ولا بشرك ولا نفاق، مما يخرج عن الملة الإسلامية، إلا أن يكون قد ظهر منهم شيء من ذلك مع تحقق الشروط وانتفاء الموانع.

٣ ـ ويترك أهل السنة السرائر والبواطن إلى الله تعالى حيث إنه العليم بها، ويأخذون الناس بما ظهر منهم.

---

(١) قاعدة أهل السنة (ص١١).

٤ ـ يرى أهل السنة أن المسلم معصوم الدم فلا يجوز قتاله ولا قتله إلا في حالات نص عليها الشارع.

٥ ـ الحكم على عقائد الناس أكبر من الحكم على أموالهم وأعراضهم.

٦ ـ الأصل أن دماء المسلمين وأموالهم معصومة.

(١٣) المناقشة:

- **س١:** ما معنى كلام الطحاوي: «ولا ننزل أحداً منهم جنة ولا ناراً، ولا نشهد عليهم بكفر ولا بشرك ولا بنفاق، ما لم يظهر منهم شيء من ذلك، ونذر سرائرهم إلى الله تعالى»؟
- **س٢:** وضح ما حكم الجزم لمسلم معين بجنة أو نار؟
- **س٣:** اذكر أقوال السلف للشهادة لمعين بالجنة.
- **س٤:** ما حكم تكفير المسلم المعين أو تفسيقه أو الحكم عليه بالنفاق؟
- **س٥:** ما معنى كلام الطحاوي: «ولا نرى السيف على أحد من أمة محمد ﷺ إلا من وجب عليه السيف»؟
- **س٦:** ما الحالات التي يباح فيها دم المسلم؟
- **س٧:** وردت نصوص أخرى في حل دم أصناف من الناس غير الثلاثة المذكورين في الحديث، فكيف توفق بين هذه النصوص؟

طاعة ولاة الأمر وعدم الخروج عليهم

❋ كلام ابن أبي العز:

١ ـ غرض المصنف من عقد هذا الباب.

٢ ـ مناسبة هذا الباب لما سبق.

٣ ـ معاني الكلمات.

٤ ـ معنى كلام الطحاوي: «ولا نرى الخروج على أئمتنا وولاة أمورنا وإن جاروا ولا ندعو عليهم ولا ننزع يداً من طاعتهم ونرى طاعتهم من طاعة الله ﷻ فريضة ما لم يأمروا بمعصية وندعو لهم بالصلاة والمعافاة».

٥ ـ وجه إدخال مسألة الخروج على ولي الأمر في الأصول.

٦ ـ حكم الخروج على ولي أمر المسلمين.

٧ ـ تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ﴾ [النساء: ٥٩].

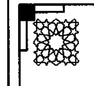
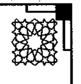
٨ ـ الحالات التي يجوز فيها الخروج على ولي الأمر.

٩ ـ الحكمة من النهي عن الخروج على ولي الأمر.

١٠ ـ الوسيلة الشرعية للخلاص من جور الأئمة.

١١ ـ الخلاصة.

١٢ ـ المناقشة.

الخروج على الأئمة

قال ابن أبي العز:

قوله: «ولا نرى الخروج على أئمتنا وولاة أمورنا وإن جاروا ولا ندعو عليهم ولا ننزع يداً من طاعتهم، ونرى طاعتهم من طاعة الله ﷻ فريضة ما لم يأمروا بمعصية وندعو لهم بالصلاح والمعافاة».

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾ [النساء: ٥٩]. وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصا الله، ومن يطع الأمير فقد أطاعني ومن يعصي الأمير فقد عصاني»(١).

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: «إن خليلي أوصاني أن أسمع وأطيع وإن كان عبداً حبشياً مجدع الأطراف». وعند البخاري: «ولو لحبشي كأن رأسه زبيبة»(٢).

وفي الصحيحين أيضاً: «على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره إلا أن يؤمر بمعصية فإن أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة»(٣).

وعن حذيفة بن اليمان قال: «كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني فقلت: يا رسول الله إنا كنا في جاهلية وشر فجاءنا الله بهذا الخير فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال: نعم، فقلت: هل بعد ذلك الشر من خير؟ قال: نعم وفيه دخن(٤). قال: قلت: وما دخنه؟ قال: قوم يستنون بغير سنتي ويهدون بغير هديي تعرف منهم وتنكر. فقلت: هل بعد ذلك الخير من شر؟ قال: نعم دعاة على أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها، فقلت: يا رسول الله صفهم لنا. قال: نعم قوم من جلدتنا يتكلمون بألسنتنا. قلت:

---

(١) أخرجه البخاري (٧١٣٧)، ومسلم (١٨٣٥).

(٢) أخرجه البخاري (٦٩٣)، ومسلم (٦٤٨).

(٣) أخرجه البخاري (٢٩٥٥)، ومسلم (١٨٣٩).

(٤) هو الحقد وقيل: فساد في القلب.

يا رسول الله فما ترى إذا أدركني ذلك؟ قال: تلزم جماعة المسلمين وإمامهم. فقلت: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام. قال: فاعتزل تلك الفرق كلها ولو أن تعض على أصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك»(١).

وعن ابن عباس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «من رأى من أميره شيئاً يكرهه فليصبر فإنه من فارق الجماعة شبراً فمات فميتته جاهلية»(٢).

وفي رواية: «فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه».

وعن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قال رسول الله: «إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما»(٣).

وعن عوف بن مالك ﷺ عن رسول الله ﷺ قال: «خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم وتصلون عليهم ويصلون عليكم، وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم وتلعنونهم ويلعنونكم، فقلنا: يا رسول الله أفلا ننابذهم بالسيف عند ذلك؟ قال: لا ما أقاموا فيكم الصلاة، ألا من ولي عليه وال فرآه يأتي شيئاً من معصية الله فليكره ما يأتي من معصية الله ولا ينزعن يداً من طاعة»(٤).

فقد دل الكتاب والسنة على وجوب طاعة أولي الأمر ما لم يأمروا بمعصية فتأمل قوله تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩]، كيف قال: ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ ولم يقل: ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾، لأن أولي الأمر لا يفردون بالطاعة بل يطاعون فيما هو طاعة الله ورسوله، وأعاد الفعل مع الرسول لأن من يطع الرسول فقد أطاع الله، فإن الرسول لا يأمر بغير طاعة الله بل هو معصوم في ذلك، وأما ولي الأمر فقد يأمر بغير طاعة الله فلا يطاع إلا فيما هو طاعة لله ورسوله.

وأما لزوم طاعتهم وإن جاروا فلأنه يترتب على الخروج من طاعتهم من المفاسد أضعاف ما يحصل من جورهم بل في الصبر على جورهم تكفير السيئات ومضاعفة الأجور، فإن الله تعالى ما سلطهم علينا إلا لفساد أعمالنا والجزاء من جنس العمل

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٠٦)، ومسلم (١٨٤٧).
(٢) أخرجه البخاري (٧٠٥٣)، ومسلم (١٨٤٩).
(٣) أخرجه مسلم (١٨٥٣). (٤) أخرجه مسلم (١٨٥٥).

فعلينا الاجتهاد في الاستغفار والتوبة وإصلاح العمل، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٍ ۝٣٠﴾ [الشورى: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ﴾ [آل عمران: ١٦٥]، وقال تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَۚ﴾ [النساء: ٧٩]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعۡضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعۡضَۢا بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ۝١٢٩﴾ [الأنعام: ١٢٩]، فإذا أراد الرعية أن يتخلصوا من ظلم الأمير الظالم فليتركوا الظلم.

وعن مالك بن دينار أنه جاء في بعض كتب الله: أنا الله مالك الملك قلوب الملوك بيدي، فمن أطاعني جعلتهم عليه رحمة، ومن عصاني جعلتهم عليه نقمة، فلا تشغلوا أنفسكم بسبِّ الملوك لكن توبوا أعطفهم عليكم.



عناصر الموضوع:

(١) غرض المصنف من عقد هذا الباب:

يتضح غرض المصنف من عقد هذا الباب فيما يلي:

أ ـ تقرير أصل من أصول أهل السنة والجماعة ألا وهو عدم الخروج على ولاة الأمر بالمعاصي ولو جاروا وظلموا.

ب ـ الرد على المخالفين لأهل السنة والجماعة في هذا الباب من الخوارج والمعتزلة والرافضة.

(٢) مناسبة هذا الباب لما سبق:

قرر المصنف فيما سبق أن مرتكب الكبيرة مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته، فناسب بعد ذلك أن يبين بعد ذلك معتقد أهل السنة والجماعة بأنهم لا يرون الخروج على ولاة الأمر بالمعاصي ولو جاروا وظلموا.

(٣) معاني الكلمات:

الكلمة	المعنى
جاروا	ظلموا
الدخن	أصل الدخن أن يكون في لون الدابة أو الثوب كدرة إلى سواد، والمعنى تكون القلوب هكذا لا يصفو بعضها إلى بعض ولا ينصع حبها كما كانت وإن لم تكن فتنة[1].

(٤) معنى كلام الطحاوي: «ولا نرى الخروج على أئمتنا وولاة أمورنا وإن جاروا ولا ندعو عليهم ولا ننزع يداً من طاعتهم، ونرى طاعتهم من طاعة الله ﷻ فريضة ما لم يأمروا بمعصية وندعو لهم بالصلاح والمعافاة»:

يرى أهل السنة حرمة الخروج على الأئمة وولاة الأمور، حتى لو ظلموا

(١) انظر: تهذيب اللغة (٢/ ١١٦٢).

الناس، وحتى إذا ظهر منهم فسوق في أنفسهم، وذلك لما للخروج من آثار سيئة: كإراقة الدماء ونشر الفوضى، وذلك ما دام الأمراء باقين في حظيرة الإسلام ولم يبدلوا دين الله ولم يظهر منهم الكفر البواح، ولا يدعون عليهم ولا يعصونهم ويرون طاعتهم واجبة ما داموا يأمرون بمعروف، فإن أمروا بمعصية فلا يسمع لهم ولا يطاع، ويدعون للأمراء بالصلاح في دينهم والمعافاة، فإن صلاحهم صلاح للأمة، وفسادهم فساد وإفساد لها. والله أعلم.

٥ وجه إدخال مسألة الخروج على ولي الأمر في الأصول:

وجه إدخال مسألة الخروج على ولي الأمر وهي من مسائل الفقه في أصول مذهب أهل السنة والجماعة لمخالفة أهل البدع وللرد على الخوارج والمعتزلة، ومن سلك مسلكهم ممن يوجب الخروج على الحاكم المسلم الفاسق أو الضال، أما أهل السنة والجماعة فالذي يدينون الله ﷻ به السمع والطاعة للحاكم المسلم وإن كان فاسقاً أو ظالماً ما لم يأمر بمعصية، فإن أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة، ويناصحونه بالحكمة والموعظة الحسنة، ولا يدعون للخروج عليه لما يترتب على ذلك من مفاسد كبيرة وشرور عظيمة، إلا إذا رأوا منه كفراً بواحاً عندهم فيه من الله برهان، وكانوا قادرين على الخروج عليه، فيتعين عليهم.

٦ حكم الخروج على ولي أمر المسلمين:

ذهب الجمهور من أهل السنة[1] إلى عدم جواز الخروج على الإمام الجائر، لما يترتب على الخروج على السلطان من المفاسد الكثيرة من سفك للدماء، وإزهاق للأرواح ونهب للأموال، واستحلال للمحارم، بل في الصبر على جورهم تكفير للسيئات، ومضاعفة للأجور.

وقد دلت الأدلة من الكتاب والسنة على وجوب طاعة ولي الأمر وعدم الخروج عليه، ما لم يأمر بمعصية لأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾ [النساء: ٥٩].

وقال النبي ﷺ: **«من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن**

---

(١) انظر: شرح النووي على مسلم (١٢/ ٢٢٩)، وشرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (١/ ١٦٧، ١٦٨، ١٧٥، ١٧٦)، وكتاب الشريعة (ص٣٨)، وأصول السنة (ص٩٨).

أطاع أميري فقد أطاعني، ومن عصى أميري فقد عصاني»[١].

وقال النبي ﷺ: «**السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره ما لم يؤمر بمعصية، فإذا أمر فلا سمع ولا طاعة**»[٢].

وقال النبي ﷺ: «**من رأى من أميره شيئاً يكرهه فليصبر عليه، من فارق الجماعة شبراً فمات إلا مات ميتة جاهلية**»[٣].

قال ابن المديني: «... ومن خرج على إمام من أئمة المسلمين وقد اجتمع عليه الناس فأقروا له بالخلافة بأي وجه كانت برضا أو بغلبة فهو شاق هذا الخارج عليه العصا، وخالف الآثار عن رسول الله ﷺ فإن مات الخارج عليه مات ميتة جاهلية، ولا يحل قتال السلطان ولا الخروج عليه لأحد من الناس، فمن عمل ذلك فهو مبتدع على غير السنة»[٤].

وقال الإمام أحمد: «ودفع الصدقات والأعشار والخراج والفيء والغنائم إلى الأمراء عدلوا فيها أو جاروا، والانقياد لمن ولاه الله ﷻ أمركم لا تنزع يداً من طاعته، ولا تخرج عليه بسيفك يجعل الله لك فرجاً ومخرجاً، ولا تخرج على السلطان، بل تسمع وتطيع. فإن أمرك السلطان بأمر ـ هو لله ﷻ معصية ـ فليس لك أن تطيعه، وليس لك أن تخرج عليه ولا تمنعه حقه ولا تعن على فتنة بيد ولا لسان، بل كف يدك ولسانك وهواك، والله ﷻ المعين»[٥].

وقال البخاري: «وألا تنازع الأمر أهله لقول النبي ﷺ: «**ثلاث لا يغل عليهن قلب امرئ مسلم: إخلاص العمل لله، وطاعة ولاة الأمر، ولزوم جماعتهم، فإن دعوتهم تحيط من ورائهم**»[٦]، وألا يرى السيف على أمة محمد ﷺ»[٧].

وقال أبو زرعة الرازي: «ولا نرى الخروج على الأئمة ولا القتال في فتنة

---

(١) البخاري (٧١٣٧)، ومسلم (١٨٣٥). (٢) البخاري (٧١٤٤)، ومسلم (١٨٣٩).

(٣) البخاري (٧٠٥٤)، ومسلم (١٨٤٩).

(٤) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (١/ ١٦٨).

(٥) كتاب السنة للإمام أحمد (ص٤٦).

(٦) الترمذي (٥/ ٣٤)، وأحمد (١/ ٨٠)، وابن ماجه (٣٠٥٦)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦/ ٣٠).

(٧) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (١/ ١٧٥ ـ ١٧٦).

ونسمع ونطيع لمن ولاه الله ﷻ أمرنا ولا ننزع يداً من طاعة ونتبع السنة والجماعة ونجتنب الشذوذ والخلاف والفرقة»[(١)].

وقال ابن أبي زمنين: «فالسمع والطاعة لولاة الأمر واجب مهما قصروا في ذاتهم، فلم يبلغوا الواجب عليهم، غير أنهم يدعون إلى الحق ويأمرون به ويذبون عنه، فعليهم ما حُمِّلوا، وعلى رعاياهم ما حُمِّلوا من السمع والطاعة لهم»[(٢)].

وقال النووي: «أجمع العلماء على وجوبها ـ أي طاعة الأمراء ـ في غير معصية، وعلى تحريمها في المعصية. نقل الإجماع على هذا القاضي عياض» إلى أن قال: «ولا تنازعوا ولاة الأمور في ولايتهم، ولا تعترضوا عليهم إلا أن تروا منهم منكراً محققاً تعلمونه من قواعد الإسلام، فإذا رأيتم ذلك فأنكروه عليهم وقولوا بالحق حيثما كنتم، وأما الخروج عليهم وقتالهم فحرام بإجماع المسلمين وإن كانوا فسقة ظالمين. وقد تظاهرت الأحاديث بمعنى ما ذكرته، وأجمع أهل السنة أنه لا ينعزل السلطان بالفسق»[(٣)].

٧ تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾ [النساء: ٥٩]:

أمر الله ﷻ بطاعة أولي الأمر وهم الولاة على الناس من الأمراء والحكام والمفتين، فإنه لا يستقيم للناس أمر دينهم ودنياهم إلا بطاعتهم والانقياد لهم طاعة لله ورغبة فيما عنده.

والنكتة في ذلك أن الرسول ﷺ طاعته واجبة على كل حال، لأنه لا يأمر إلا بما فيه طاعة الله، ولذلك أعاد الله الفعل معه، أما أولي الأمر فلما كانوا لا يقرون بالطاعة المطلقة وإنما يطاعون في ما هو طاعة الله، ولا يطاعون فيما هو معصية لله، لذا لم يُعد الفعل معه للدلالة على أنهم يطاعون فيما هو طاعة لله ولا يطاعون فيما ليس بطاعة الله.

٨ الحالات التي يجوز فيها الخروج على ولي الأمر:

يباح الخروج عليهم في حالتين:

---

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (١/ ١٧٧).

(٢) أصول السنة (ص٩٨٠).

(٣) شرح مسلم (١٢/ ٢٢٢، ٢٢٣، ٢٢٩).

أولاهما: إن أتوا كفراً صريحاً لا شبهة فيه، وذلك لأنهم يعتبرون والحالة هذه كفاراً... وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤١].

الثانية: إذا عطلوا شعيرة من شعائر الله الظاهرة، كأن لم يقيموا الصلاة جماعة ونحو ذلك... ويدل لجواز الخروج عليهم في مثل هذه الحالة: ما روي عن عوف بن مالك الأشجعي إن النبي ﷺ قال: «**خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم وتقبلون عليهم ويقبلون عليكم، وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم وتلعنونهم ويلعنونكم. قال: فقلنا: أفلا ننابذهم بالسيف؟ قال: لا ما أقاموا فيكم الصلاة، ألا من ولي عليه والٍ فرآه يأتي شيئاً من معصية الله... ولا ينزعن يداً من طاعته**» وجه الدلالة: مأخوذ من قوله: «**لا ما أقاموا فيكم الصلاة**» فقد دل بمنطوقه على عدم جواز الخروج عليهم ما أقاموا الصلاة.

٩ الحكمة من النهي عن الخروج على ولي الأمر:

دلت النصوص الشرعية على عدم جواز الخروج على الأئمة، وذلك لحكم متعددة منها:

١ ـ منع الفساد والفوضى، فإنه يترتب على الخروج على الأئمة من المفاسد أضعاف ما يحصل من وجورهم، وذلك لأنه سبب من أسباب انتشار القتل وكثرة الفواحش.

٢ ـ لأن في الصبر على جورهم تكفيراً للسيئات ومضاعفة للأجور، وذلك أن الله إنما سلطهم بسبب ظلم الرعية، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًا﴾ [الأنعام: ١٢٩].

١٠ الوسيلة الشرعية للخلاص من جَور الأئمة:

السبيل إلى ذلك كما قال شارح الطحاوية هو: «ابتعاد الرعية عن الظلم والتظالم فيما بينهم واجتهادهم في الاستغفار والتوبة وإصلاح العمل والنية... روى مالك بن دينار أنه جاء في بعض كتب الله: «**أنا الله مالك الملك، قلوب الملوك بيدي، فمن أطاعني جعلتهم عليه رحمة، ومن عصاني جعلتهم عليه نقمة، فلا تشغلوا أنفسكم بسَبِّ الملوك ولكن توبوا أعطفهم عليكم**»، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠]، على أن تسليط

الملوك الظلمة إنما هو بسبب الذنوب التي اقترفوها، فعليهم اجتناب تلك المعاصي.

١١ الخلاصة:

١ - يرى أهل السنة حرمة الخروج على الأئمة وولاة الأمور، حتى لو ظلموا الناس، وحتى إذا ظهر منهم فسوق في أنفسهم، وذلك لما للخروج من آثار سيئة، دل على ذلك الكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة.

٢ - عقد المصنف هذا الباب للرد على الخوارج والمعتزلة، ومن سلك مسلكهم ممن يوجب الخروج على الحاكم المسلم الفاسق أو الضال.

٣ - أمر الله ﷻ بطاعة أولي الأمر وهم الولاة على الناس من الأمراء والحكام والمفتين، فإنه لا يستقيم للناس أمر دينهم ودنياهم إلا بطاعتهم والانقياد لهم طاعة لله ورغبة فيما عنده.

٤ - الوسيلة الشرعية للخلاص من جَور الأئمة هو ابتعاد الرعية عن الظلم والتظالم فيما بينهم واجتهادهم في الاستغفار والتوبة وإصلاح العمل والنية.

١٢ المناقشة:

- **س١:** ما معنى كلام الطحاوي: «ولا نرى الخروج على أئمتنا وولاة أمورنا وإن جاروا، ولا ندعو عليهم ولا ننزع يداً من طاعتهم ونرى طاعتهم من طاعة الله ﷻ فريضة ما لم يأمروا بمعصية وندعو لهم بالصلاة والمعافاة»؟
- **س٢:** لماذا عقد المصنف هذا الباب؟
- **س٣:** وضح حكم الخروج على ولي أمر المسلمين، مع ذكر الدليل لما تقول.
- **س٤:** يقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ﴾ [النساء: ٥٩]، ما النكتة في إعادة الأمر بالطاعة مع الرسول دون أولي الأمر؟.
- **س٥:** اذكر الحالات التي يجوز فيها الخروج على ولي الأمر.
- **س٦:** ما الحكمة من النهي عن الخروج على ولي الأمر؟
- **س٧:** بين الوسيلة الشرعية للخلاص من جور الأئمة.

اتباع السنة والجماعة

❁ **كلام ابن أبي العز:**

١ ـ غرض المصنف من عقد هذا الباب.

٢ ـ مناسبة هذا الباب لما سبق.

٣ ـ معاني الكلمات.

٤ ـ معنى كلام الطحاوي: «ونتبع السنة والجماعة، ونجتنب الشذوذ والخلاف والفرقة».

٥ ـ وجه إدخال مسألة اتباع السنة في كتب الاعتقاد.

٦ ـ أدلة وجوب لزوم الجماعة.

٧ ـ تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ۝١١٥﴾ [النساء: ١١٥].

٨ ـ المراد بالجماعة.

٩ ـ المراد بالسنة.

١٠ ـ نشأة التسمية بأهل السنة والجماعة.

١١ ـ خطورة التفرق.

١٢ ـ الأدلة على ذم الفرقة.

١٣ ـ الأسباب المؤدية للتفرق.

١٤ ـ طريق الخلاص من الفرقة والخلاف.

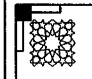
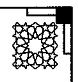
١٥ ـ أنواع الخلاف.

١٦ ـ هل الاختلاف رحمة؟!

١٧ ـ الواجب على المسلم عند اختلاف الأمة.

١٨ ـ الخلاصة.

١٩ ـ المناقشة.

اتباع السنة والجماعة

قال ابن أبي العز:

قوله: «ونتبع السنة والجماعة ونجتنب الشذوذ والخلاف والفرقة».

السنة طريقة الرسول، والجماعة جماعة المسلمين، وهم الصحابة والتابعون لهم بإحسان إلى يوم الدين، فأتباعهم هدى وخلافهم ضلال، قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [آل عمران: ٣١].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾ [النساء: ١١٥].

وقال تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾﴾ [النور: ٥٤].

وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾﴾ [آل عمران: ١٠٥].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [الأنعام: ١٥٩].

وثبت في السنن الحديث الذي صححه الترمذي عن العرباض بن سارية قال: وعظنا رسول الله ﷺ موعظة بليغة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب، فقال قائل: يا رسول الله كأن هذه موعظة مودع فماذا تعهد إلينا؟ فقال: «أوصيكم بالسمع والطاعة فإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة»(١).

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٦٧٦)، وأبو داود (٤٦٠٣)، وابن ماجه (٤٢).

وقال ﷺ: «إن أهل الكتابين افترقوا في دينهم على ثنتين وسبعين ملة، وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين ملة يعني الأهواء كلها في النار إلا واحدة وهي الجماعة».

وفي رواية قالوا: «من هي يا رسول الله؟ قال: ما أنا عليه وأصحابي»(١).

فبيَّن ﷺ أن عامة المختلفين هالكون من الجانبين إلا أهل السنة والجماعة.

وما أحسن قول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه حيث قال: «من كان منكم مستناً فليستن بمن قد مات، فإن الحي لا تؤمن عليه الفتنة، أولئك أصحاب محمد كانوا أفضل هذه الأمة، أبرَّها قلوباً، وأعمقها علماً، وأقلها تكلفاً، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه وإقامة دينه فاعرفوا لهم فضلهم واتبعوهم في آثارهم وتمسكوا بما استطعم من أخلاقهم ودينهم، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم».

وسيأتي لهذا المعنى زيادة بيان إن شاء الله تعالى عند قول الشيخ: ونرى الجماعة حقاً وصواباً، والفرقة زيغاً وعذاباً.

---

(١) سبق تخريجه.



عناصر الموضوع:

١ غرض المصنف من عقد هذا الباب:

يتضح غرض المصنف من عقد هذا الباب فيما يلي:

أ ـ تقرير أن من طريقة أهل السنة والجماعة اتباع الكتاب والسنة، والتحاكم إليهما، ورد المتشابه إلى المحكم عند العلم به، وإلا وُكِّل العلم إلى عالمه.

ب ـ الرد على أهل الأهواء ممن فارقوا السنة والجماعة واتبعوا المتشابه وتركوا المحكم وتأولوا النصوص الشرعية بما يناسب أهوائهم وأغراضهم.

٢ مناسبة هذا الباب لما سبق:

قرر المؤلف فيما سبق أصل من أصول أهل السنة والجماعة ألا وهو عدم الخروج على ولاة الأمر بفعلهم المعاصي وإن جاروا وإن ظلموا، هذا ما جاءت به السنة، فناسب بعد ذلك أن يبين سبيل أهل السنة والجماعة وطريقتهم في عدم الخروج على جماعة المسلمين وأن الهدى في اتباع سنة النبي ﷺ ودين الجماعة من الصحابة وسلف الأمة، وأن الضلال والغواية في الفرقة والخلاف والشذوذ.

٣ معاني الكلمات:

الكلمة	المعنى
الزيغ	الانحراف
الوجل	الخوف والخشية
الشذوذ	الانفراد عن الجماعة.

٤ معنى كلام الطحاوي: «ونتبع السنة والجماعة ونجتنب الشذوذ والخلاف والفرقة»:

يتجنب أهل السنة والجماعة الخروج عن جماعة المسلمين، بل يرون الهدى في اتباع سنة النبي ﷺ وجماعة المسلمين، والضلال والغواية في الشذوذ عن

الجماعة والخلاف والاختلاف على أمور الدين، والفرقة بما يترتب عليها شق صفوف المسلمين، كل هذا ما دامت جماعة المسلمين قائمة على أمر الله، على الحق والهدى، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأما إذا فسد الناس وبدلت الشرائع، وصارت السنة بدعة والبدعة سنة، والمنكر معروفاً والمعروف منكراً، فحينئذٍ حل الاعتزال والانفراد عن الناس، واعتزال فرق الهوى والضلالة كما جاء بذلك الأثر.

(٥) وجه إدخال مسألة اتباع السنة في كتب الاعتقاد:

المراد بالسنة هنا طريقة الرسول ﷺ التي يسير عليها من قول أو فعل أو تقرير، والجماعة هم الصحابة والتابعون لهم بإحسان إلى يوم الدين، فاتباعهم هدى وخلافهم ضلال، من أجل ذلك أدخل المصنف هذه المسألة في هذا الكتاب المختص ببيان الاعتقاد، وكذا للرد على أهل الأهواء والبدع الذين خالفوا السنة وفارقوا الجماعة كالخوارج والمعتزلة وغيرهم من أهل الأهواء والبدع.

(٦) أدلة وجوب لزوم الجماعة:

الأدلة على وجوب لزوم الجماعة أدلة كثيرة منها:

١ ـ قال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [آل عمران: ١٠٣].

٢ ـ قال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾ [النساء: ١١٥].

٣ ـ قول النبي ﷺ: «**أمرني ربي بخمس أن أعمل بهن وآمركم بهن ومنها الجماعة، فإنه من فارق الجماعة قِيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام عن عنقه**»، رواه أحمد والترمذي بسند صحيح.

(٧) تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾:

أي ومن يخالف الرسول ﷺ ويعانده فيما جاءه من بعد ما تبين له الهدى بالدلائل القرآنية والبراهين النبوية ويتبع غير سبيل المؤمنين، وسبيلهم هو طريقهم في عقائدهم وأعمالهم، نوله ما تولى، أي: نتركه وما اختاره لنفسه، ونخذله فلا

نوفقه للخير، لكونه رأى الحق وعلمه وتركه، فجزاؤه من الله عدلاً أن يبقيه في ضلالة حائراً، ويزداد ضلالاً إلى ضلالة.

ولهذا الوعيد المترتب على الشقاق ومخالفة المؤمنين مراتب لا يحصيها إلا الله بحسب حالة الذنب صغراً وكبراً، فمنه ما يخلد في النار ويوجب جميع الخذلان، ومنه ما هو دون ذلك.

و«سبيل المؤمنين» مفرد مضاف يشمل سائر ما المؤمنون عليه من العقائد والأعمال.

وفي الآية دليل على أن إجماع الأمة حجة، وأنها معصومة من الخطأ(١).

٨ المراد بالجماعة:

الجماعة لغة ضد الفرقة، ومعناها الطائفة من الناس والمقصود بها هنا: الصحابة والتابعون لهم بإحسان إلى يوم الدين، وهم من كان على مثل ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه.

٩ المراد بالسنة:

السنة في اللغة: هي الطريقة والسيرة، سواء كانت حسنة أو قبيحة، يقال لكل من ابتدأ عملاً أو تبعه غيره فيه أن قد سنَّه.

والمراد هنا الطريقة التي سار عليها النبي ﷺ، سواء كانت من قبيل الواجب أو المستحب. وليس المراد بها ما يرادف المستحب كما اصطلح عليه الفقهاء، وإنما المراد العموم.

١٠ نشأة التسمية بأهل السنة والجماعة:

نشأت التسمية بأهل السنة والجماعة بعد ظهور الفرق كالخوارج والرافضة، وتوالىٰ ظهور الفرق بعد ذلك.

وقد وردت التسمية في كلام ابن عباس رضي الله عنه كما ذكر اللالكائي في أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة [١/ ٧٩] برقم [٧٤] بسنده عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾: «فأما الذين ابيضت وجوههم فأهل السنة والجماعة وأولوا العلم، وأما الذين اسودت وجوههم فأهل البدع والضلالة».

لذا قال شيخ الإسلام: «ومذهب أهل السنة والجماعة مذهب قديم معروف قبل

---

(١) انظر: تفسير السعدي، سورة النساء الآية ١١٥.

أن يخلق الله أبا حنيفة ومالكاً والشافعي وأحمد، فإنه مذهب الصحابة الذين تلقوه عن نبيهم، ومن خالفه كان مبتدعاً عند أهل السنة والجماعة»[١].

(١١) خطورة التفرق:

إن تفرق المسلمين فرقاً وأحزاباً وشيعاً، مما يشتت شملهم ويجعلهم ضعفاء، وبالتالي يسهل القضاء عليهم لا لقلتهم أو قلة عتادهم، وإنما نتيجة الفرقة والنزاع. قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الأنفال: ٤٦].

(١٢) الأدلة على ذم الفرقة:

قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾﴾ [آل عمران: ١٠٥].

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [الأنعام: ١٥٩].

وثبت في السنن الحديث الذي صححه الترمذي عن العرباض بن سارية قال: وعظنا رسول الله ﷺ موعظة بليغة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب، فقال قائل: يا رسول الله كأن هذه موعظة مودع فماذا تعهد إلينا؟ فقال: **«أوصيكم بالسمع والطاعة، فإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة»**.

وقال ﷺ: **«إن أهل الكتابين افترقوا في دينهم على ثنتين وسبعين ملة، وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين ملة يعني الأهواء كلها في النار إلا واحدة وهي الجماعة»**.

(١٣) الأسباب المؤدية للتفرق:

١ ـ الابتداع في دين الله ما ليس منه.

٢ ـ الجهل.

٣ ـ اتباع الهوى[٢].

---

(١) منهاج السنة (٢/ ٤٨٢).

(٢) انظر: الاعتصام (٢/ ١٧٢ ـ ١٨٠).

٤ ـ تحكيم العقل وتقديمه على النقل[١].

٥ ـ التعصب والتقليد واتباع العوائد والتقاليد.

٦ ـ الدعاية السيئة ضد أهل السنة والجماعة وعقيدتهم.

(١٤) طريق الخلاص من الفرقة والخلاف:

جاء في كتاب الله وسنة النبي ﷺ الحث على اتباع السنة، وسبيل المؤمنين السابقين من الصحابة والتابعين، وترسم خطاهم والسير على منهجهم، ومن طريقتهم أنهم متبعون للحق والهدى مجانبون للباطل والضلال، ومخلصون لله ﷻ في دينهم، متبعون لسنة نبيهم ﷺ، لذا فسبيل الجماعة:

١ ـ لزوم سنة النبي ﷺ.

٢ ـ الاقتداء بالصحابة رضوان الله عليهم في دينهم والرجوع إلى عقيدة السلف الصالح.

٣ ـ الإخلاص لله تعالى وتحكيم الكتاب والسنة.

٤ ـ تجريد المتابعة للنبي ﷺ.

٥ ـ طلب الحق وتحريه واتباع الدليل والالتزام به.

(١٥) أنواع الخلاف:

الخلاف على ثلاثة أنواع:

الأول: اختلاف تنوع: كما في أدعية الاستفتاح وهذا جائز.

الثاني: اختلاف أفهام: كما في وضع اليدين على الصدر بعد الرفع من الركوع، وهذا جائز.

الثالث: خلاف تضاد: وهو تقابل حق مع باطل، أو مخالفة صريح النص الشرعي، وهذا خلاف مذموم حذر منه الشارع.

(١٦) هل الاختلاف رحمة؟!

لقد دل القرآن على أن الاختلاف لا يتفق مع الرحمة بل هو ضدها، قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ [هود: ١١٨، ١١٩]﴾.

ولا يتصور عاقل أن الاختلاف رحمة بعد ورود النصوص الشرعية بذمه، فضلاً عما يترتب على الاختلاف من المفاسد العظيمة في الدين والدنيا.

---

(١) انظر: الاعتصام (٢/ ٢٩٣).

١٧ الواجب على المسلم عند اختلاف الأمة:

الواجب على المسلم عند اختلاف الأمة لزوم جماعة المسلمين والدليل على هذا حديث حذيفة الطويل وفيه: «**تلزم جماعة المسلمين وإمامهم**»، وحديث العرباض بن سارية فإن الرسول ﷺ نصحه عند اختلاف الأمة بالتزام سنته وسنة الخلفاء الراشدين حيث قال: وعظنا رسول الله ﷺ موعظة بليغة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب، فقال قائل: يا رسول الله كأن هذه موعظة مودع فماذا تعهد إلينا؟ فقال: «**أوصيكم بالسمع والطاعة فإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة**».

١٨ الخلاصة:

١ ـ يتجنب أهل السنة والجماعة الخروج عن جماعة المسلمين، بل يرون الهدى في اتباع سنة النبي ﷺ وجماعة المسلمين، والضلال والغواية في الشذوذ عن الجماعة والخلاف والاختلاف على أمور الدين.

٢ ـ الفرقة سبب في شق صفوف المسلمين.

٣ ـ عقد المصنف هذا المبحث للرد على أهل الأهواء والبدع الذين خالفوا السنة وفارقوا الجماعة كالخوارج والمعتزلة وغيرهم من أهل الأهواء والبدع.

٤ ـ الجماعة هم الصحابة والتابعون لهم بإحسان إلى يوم الدين، وهم من كان على مثل ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه.

٥ ـ السنة هي الطريقة التي سار عليها النبي ﷺ سواء كانت من قبيل الواجب أو المستحب.

٦ ـ نشأت التسمية بأهل السنة والجماعة بعد ظهور الفرق كالخوارج والرافضة، وتوالىٰ ظهور الفرق بعد ذلك.

٧ ـ الأدلة متوافرة على ذم الفرقة والاختلاف.

٨ ـ الأسباب المؤدية للتفرق: البدع، والجهل، واتباع الهوى، وتحكيم العقل وتقديمه على النقل، والتعصب والتقليد، والدعاية السيئة ضد أهل السنة والجماعة وعقيدتهم.

٩ ـ طريق الخلاص من الفرقة والخلاف هو اتباع السنة، وسبيل المؤمنين السابقين من الصحابة والتابعين، وترسُّم خطاهم والسير على منهجهم.

١٠ ـ الخلاف على ثلاثة أنواع: تنوع، وتضاد، واختلاف أفهام.

١٩ **المناقشة:**

- **س١:** ما معنى كلام الطحاوي: «ونتبع السنة والجماعة ونجتنب الشذوذ والخلاف والفرقة»؟
- **س٢:** لماذا عقد المصنف هذا المبحث؟
- **س٣:** اذكر أدلة وجوب لزوم الجماعة.
- **س٤:** ما المراد بالشذوذ والخلاف والفرقة؟
- **س٥:** ما المراد بالجماعة؟
- **س٦:** ما المراد بالسنة؟
- **س٧:** متى نشأت التسمية بأهل السنة والجماعة؟
- **س٨:** بَيِّن خطورة التفرق.
- **س٩:** اذكر الأدلة على ذم الفرقة.
- **س١٠:** ما الأسباب المؤدية للتفرق؟
- **س١١:** بَيِّن طريق الخلاص من الفرقة والخلاف.
- **س١٢:** عدد أنواع الخلاف.
- **س١٣:** هل الاختلاف رحمة؟!

الحب في الله والبغض في الله

* **كلام ابن أبي العز:**

١ ـ غرض المصنف من عقد هذا الباب.

٢ ـ مناسبة هذا الباب لما سبق.

٣ ـ معاني الكلمات.

٤ ـ معنى كلام الطحاوي: «ونحب أهل العدل والأمانة، ونبغض أهل الجور والخيانة».

٥ ـ المحبة الشرعية.

٦ ـ الحب في الله والبغض في الله كمال الإيمان.

٧ ـ المقصود بالحب في الله والبغض في الله.

٨ ـ حكم الحب في الله والحب مع الله.

٩ ـ الفرق بين الحب في الله والحب مع الله.

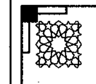
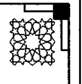
١٠ ـ لوازم المحبة.

١١ ـ معنى محبة الله للمحسنين والمتقين.

١٢ ـ اجتماع الحب في الله والبغض في الله في شخص واحد.

١٣ ـ الخلاصة.

١٤ ـ المناقشة.

الحب في الله والبغض في الله

قال ابن أبي العز:

قوله: «ونحب أهل العدل والأمانة ونبغض أهل الجور والخيانة».

وهذا من كمال الإيمان وتمام العبودية، فإن العبادة تتضمن كمال المحبة ونهايتها وكمال الذل ونهايته، فمحبة رسل الله وأنبيائه وعباده المؤمنين من محبة الله وإن كانت المحبة التي لله لا يستحقها غيره، فغير الله يحب في الله لا مع الله، فإن المحب يحب ما يحب محبوبه ويبغض ما يبغض، ويوالي من يواليه ويعادي من يعاديه، ويرضى لرضائه ويغضب لغضبه، ويأمر بما يأمر به وينهى عما ينهى عنه، فهو موافق لمحبوبه في كل حال.

والله تعالى يحب المحسنين، ويحب المتقين، ويحب التوابين، ويحب المتطهرين، ونحن نحب من أحبه الله.

والله لا يحب الخائنين، ولا يحب المفسدين، ولا يحب المستكبرين، ونحن لا نحبهم أيضاً ونبغضهم موافقةً له ﷻ.

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله، ومن كان يكره أن يرجع في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار»(١).

فالمحبة التامة مستلزمة لموافقة المحبوب في محبوبه ومكروهه وولايته، وعداوته، ومن المعلوم أن من أحب الله المحبة الواجبة فلا بد أن يبغض أعداءه ولا بد أن يحب ما يحبه من جهادهم كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ ۝٤﴾ [الصف: ٤].

والحب والبغض بحسب ما فيهم من خصال الخير والشر، فإن العبد يجتمع فيه

---

(١) أخرجه البخاري (١٦)، ومسلم (٤٣).

سبب الولاية وسبب العداوة والحب والبغض، فيكون محبوباً من وجه ومبغوضاً من وجه، والحكم للغالب، وكذلك حكم العبد عند الله، فإن الله قد يحب الشيء من وجه ويكرهه من وجه آخر، كما قال ﷺ فيما يروي عن ربه ﷻ: «وما ترددت في شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته، ولا بد له منه»[1].

فبيَّن أنه يتردد، لأن التردد تعارض إرادتين، وهو سبحانه يحب ما يحب عبده المؤمن ويكره ما يكرهه، وهو يكره الموت فهو يكرهه، كما قال: وأنا أكره مساءته، وهو سبحانه قضى بالموت فهو يريد كونه، فسمى ذلك تردداً، ثم بيَّن أنه لا بد من وقوع ذلك إذ هو يفضي إلى ما هو أحب منه.

(١) سبق تخريجه ص.



الشرح

عناصر الموضوع:

١ غرض المصنف من عقد هذا الباب:

يتضح غرض المصنف من عقد هذا الباب فيما يلي:

أ ـ تقرير أصل من أصول أهل السنة والجماعة أن من كمال الإيمان محبة أهل العدل والأمانة وبغض أهل الفجور والخيانة، وكذا من أصولهم اجتماع الحب والبغض في الشخص الواحد خلافاً لأهل البدع من المرجئة وغيرهم.

ب ـ الرد على الغلاة في الحب والبغض من أهل الأهواء والبدع.

٢ مناسبة هذا الباب لما سبق:

قرر المصنف فيما سبق أن من طريقة أهل السنة والجماعة اتباع الكتاب والسنة، فناسب أن يبين أن ما جاءت به السنة هو محبة أهل العدل والأمانة وبغض أهل الجور والخيانة.

٣ معاني الكلمات:

الكلمة	المعنى
الجور	الظلم والعدوان.

٤ معنى كلام الطحاوي: «ونحب أهل العدل والأمانة، ونبغض أهل الجور والخيانة»:

أي ونحب كل عادل حاكماً أو محكوماً، ونحب كل أمين مع الله ومع الناس، ونبغض كل جائر ظالم، حاكماً أو محكوماً، وكل خائن لله ولرسوله ولأماناته.

ونرى ذلك هو الحق، فإن المؤمن يحب المؤمنين المتقين، ويبغض العصاة الفاسقين، فنحن نحب المرء على قدر ما فيه من الطاعة والصلاح، ونبغضه على قدر ما فيه من المعصية والفجور.

٥ المحبة الشرعية:

المحبة الخاصة بالله تتضمن كمال الحب وكمال الذل، ومعنى الحب والبغض في الله هو أن يحب العبد أو الفعل أو الحكم لا يحبه إلا لله كحبه الشريعة، ويحب الحكم وهو وجوب الصلاة، ويحب الفعل وهو أفعال الصلاة، والبغض في الله هو بغض ما يبغضه الله لا يبغضه إلا لأجل الله.

٦ الحب في الله والبغض في الله كمال الإيمان:

دل على ذلك قوله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٢٢)﴾ [المجادلة: ٢٢].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ (٥٥) وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ (٥٦)﴾ [المائدة: ٥٥، ٥٦].

فمن تمام الإيمان محبة أهل العدل والإيمان المتمسكين بكتاب الله وسنة رسوله على فهم سلف الأمة، وبغض أهل الظلم والخيانة والبدع والأهواء.

٧ المقصود بالحب في الله والبغض في الله:

الحب في الله: مرادف للحب لله. فإن قلت: أحب فلاناً في الله، فكأنك قلت: أحبه لله. والحب في الله هو: محبة الشيء لأجل محبة الله له سواء كان شخصاً أو فعلاً أو غيره.

والبغض في الله: مرادف للبغض لله، وعلى هذا فهو بغض الشيء لأجل بغض الله له سواء كان شخصاً أو فعلاً أو غيره.

٨ حكم الحب في الله والحب مع الله:

الحب في الله من كمال الدين وغاية العبودية، ولا يجد العبد حلاوة الإيمان حتى يحب في الله ويبغض في الله. فقد ورد في الصحيحين عن رسول الله ﷺ: **«ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله، ومن كان يكره أن يرجع في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار»**، فبدون الحب في الله

والحب لله، وكراهيته الرجوع في الكفر الذي هو البغض في الله، لا يجد المرء حلاوة الإيمان.

أما الحب مع الله فلا يخلو من حالتين:

أ ـ أن يقترن به كمال الذل والخضوع، وهو في هذه الحالة شرك لأن المحبة التامة والخضوع الكامل من أنواع العبادة، ومن أشرك مع الله غيره فيها فقد كفر. ومثل ذلك محبة المشركين لأصنامهم.

ب ـ ألا يقترن بها ذل وخضوع، وهنا لا يخلو الأمر من حالتين:

١ ـ ألا يقدم المحب محبوبه على أوامر الله ونواهيه، وهي هنا مباحة كسائر المباحات، ومن ذلك قوله ﷺ: «**حبب إلي من دنياكم النساء والطيب، وجعلت قرة عيني في الصلاة**».

٢ ـ أن يقدم المحب محبوبه على أوامر الله سبحانه ونواهيه، فهي هنا تكون محرمة وإن كانت لا تصل إلى الشرك.

(٩) الفرق بين الحب مع الله والحب في الله:

الحب في الله هو محبة الشيء لأجل محبة الله له، فهو حب مقيد بما يحبه الله ﷻ.

أما الحب مع الله فهو محبة الشيء بغض النظر عن كون الله يحبه أو لا يحبه.

(١٠) لوازم المحبة:

قال الشارح: «فإن المحب يحب ما يحب محبوبه ويبغض ما يبغض ويأمر بما يأمر به وينهى عما ينهى عنه، فهو موافق لمحبوبه في كل حال، والله تعالى يحب المحسنين ويحب المتقين ويحب التوابين ويحب المتطهرين، ونحن نحب من أحبه الله والله، لا يحب الخائنين ولا يحب المفسدين، ولا يحب المستكبرين، ونحن لا نحبهم أيضاً بل نبغضهم، موافقة له ﷻ. ومن المعلوم أن من أحب الله المحبة الواجبة فلا بد أن يبغض أعداءه، ولا بد أن يحب ما يحبه من جهادهم كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٌ مَّرۡصُوصٌ ۝٤﴾ [الصف: ٤]».

(١١) معنى محبة الله للمحسنين والمتقين:

من أصول أهل السنة والجماعة إثبات صفة المحبة لله على ما يليق بجلاله وعظمته من غير تحريف ولا تكييف ولا تمثيل ولا تعطيل، بخلاف بعض الفرق

الضالة من المعتزلة والجهمية فقد نفوا صفة المحبة وقالوا: إن المراد بها: إرادة الإحسان.

١٢ اجتماع الحب في الله والبغض في الله في شخص واحد:

قد يجتمع في الشخص ذلك... وذلك بحسب الخصال التي فيه فيحبه في الله لما فيه من خصال الخير ويبغضه في الله لما فيه من خصال الشر والحكم للغالب منهما في النهاية.

فإن العبد يجتمع فيه سبب الولاية وسبب العداوة... فيكون محبوباً من وجه مبغضاً من وجه آخر، كما في المؤمن الفاسق ونحوه. هذا رأي الجمهور.

أما عند الأحناف فلا يمكن أن نجتمع لأنه عندهم لا يجتمع عند الإنسان إيمان وكفر، وحب وبغض فالإيمان عندهم لا يزيد ولا ينقص، وكذلك حكم العبد عند الله قد يحب الشيء من وجه ويكرهه من وجه آخر. كما قال ﷺ فيما يرويه عن ربه ﷻ: **«وما ترددت في شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته ولا بد منه»**، فبيَّن أنه يتردد تردداً يليق بجلاله وعظمته، لأن التردد تعارض بين إرادتين... وهو سبحانه يحب ما يحب عبده المؤمن ويكره ما يكرهه وهو يكره الموت فهو يكرهه كما قال: **«وأنا أكره مساءته»**، وهو سبحانه قضى بالموت فهو يريد موته فسمى ذلك تردداً، ثم بين أنه لا بد من وقوع ذلك إذ هو يفضي إلى ما هو أحب منه.

١٣ الخلاصة:

١ ـ إن المؤمن يحب المؤمنين المتقين، ويبغض العصاة الفاسقين، فنحن نحب المرء على قدر ما فيه من الطاعة والصلاح، ونبغضه على قدر ما فيه من المعصية والفجور.

٢ ـ عقد المصنف هذا المبحث للرد على الغلاة في الحب والبغض من أهل الأهواء والبدع.

٣ ـ الحب في الله والبغض في الله كمال الإيمان.

٤ ـ والحب في الله هو: محبة الشيء لأجل محبة الله له، سواء كان شخصاً أو فعلاً أو غيره.

٥ ـ البغض في الله: مرادف للبغض لله وعلى هذا فهو بغض الشيء لأجل بغض الله له سواء كان شخصاً أو فعلاً أو غيره.

٦ ـ من أصول أهل السنة والجماعة إثبات صفة المحبة لله على ما يليق بجلاله وعظمته من غير تحريف ولا تكييف ولا تمثيل ولا تعطيل.

٧ ـ قد يجتمع الحب في الله والبغض في الله في شخص واحد.

(١٤) المناقشة:

- **س١:** ما معنى كلام الطحاوي: «ونحب أهل العدل والأمانة، ونبغض أهل الفجور والخيانة؟».
- **س٢:** لماذا عقد المصنف هذا المبحث؟
- **س٣:** بين أن الحب في الله والبغض في الله كمال الإيمان، مع ذكر الدليل.
- **س٤:** ما المقصود بالحب في الله والبغض في الله؟
- **س٥:** ما حكم الحب في الله والحب مع الله؟
- **س٦:** وضح الفرق بين الحب في الله والحب مع الله.
- **س٧:** اذكر لوازم المحبة.
- **س٨:** بيِّن معنى محبة الله للمحسنين والمتقين.
- **س٩:** هل يجتمع الحب في الله والبغض في الله في شخص واحد؟

موقف المسلم من النصوص المتشابهة والمحكمة

❁ كلام ابن أبي العز:

١ ـ غرض المصنف من عقد هذا الباب.

٢ ـ مناسبة هذا الباب لما سبق.

٣ ـ معاني الكلمات.

٤ ـ معنى كلام الطحاوي: «ونقول الله أعلم فيما اشتبه علينا علمه».

٥ ـ طريقة أهل العلم إذا اشتبه عليهم من الدين.

٦ ـ القول على الله بغير علم من كبائر الذنوب.

٧ ـ المقصود بالمحكم والمتشابه.

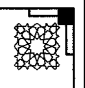
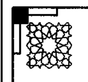
٨ ـ هل في القرآن محكم ومتشابه؟ والحكمة من ذلك.

٩ ـ الواجب على المسلم فيما اشتبه علمه.

١٠ ـ الطوائف التي ضلت من جهة المتشابه.

١١ ـ الخلاصة.

١٢ ـ المناقشة.

موقف المسلم من النصوص المتشابهة والمحكمة

قال ابن أبي العز:

قوله: «ونقول الله أعلم فيما اشتبه علينا علمه».

تقدم في كلام الشيخ رحمه الله أنه ما سلم في دينه إلا من سلم لله عز وجل ولرسوله ورد علم ما اشتبه عليه إلى عالمه.

ومن تكلم بغير علم فإنما يتبع هواه، وقد قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ﴾ [القصص: ٥٠].

وقال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ (٣) كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ (٤)﴾ [الحج: ٣، ٤].

وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ (٣٥)﴾ [غافر: ٣٥].

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٣)﴾ [الأعراف: ٣٣].

وقد أمر الله نبيه أن يرد علم ما لم يعلم إليه، فقال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الكهف: ٢٦]، ﴿قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ﴾ [الكهف: ٢٢]، وقد قال ﷺ لما سئل عن أطفال المشركين: «الله أعلم بما كانوا عاملين»[١].

وقال عمر رضي الله عنه: «اتهموا الرأي في الدين فلو رأيتني يوم أبي جندل فلقد رأيتني وإني لأرد أمر رسول الله برأيي فأجتهد ولا آلو، وذلك يوم أبي جندل والكتاب يكتب وقال: اكتب بسم الله الرحمٰن الرحيم، قال: اكتب باسمك اللهم فرضي رسول الله ﷺ وكتب وأبيت، فقال: يا عمر تراني قد رضيت وتأبى»[٢].

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٨٤)، ومسلم (٢٦٥٩).

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٨٢)، وقال الهيثمي في المجمع (١/ ١٧٩): رواه أبو يعلى ورجاله موثقون. وانظر: فتح الباري (٥/ ٣٤٥ ـ ٣٤٦).

وقال أيضاً رضي الله عنه: «السنة ما سنه الله ورسوله ﷺ لا تجعلوا خطأ الرأي سنة للأمة».

وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: «أي أرض تقلُّني وأي سماء تظلني إن قلت في آية من كتاب الله برأيي أو بما لا أعلم».

وذكر الحسن بن علي الحلواني: حدثنا عارم، حدثنا حماد بن زيد عن سعيد بن أبي صدقة عن ابن سيرين قال: «لم يكن أحد أهيب لما لا يعلم من أبي بكر، ولم يكن بعد أبي بكر أهيب لما لا يعلم من عمر رضي الله عنه، وإن أبا بكر نزلت به قضية فلم يجد في كتاب الله منها أصلاً ولا في السنة أثراً فاجتهد برأيه ثم قال: هذا رأيي، فإن يكن صواباً فمن الله، وإن يكن خطأ فمني وأستغفر الله».



الشرح

عناصر الموضوع:

(١) غرض المصنف من عقد هذا الباب:

عقد المصنف هذا الباب لبيان معتقد أهل السنة والجماعة وموقفهم من النصوص المتشابهة والمحكمة، فيؤمنون بالمحكم فيعلمونه ويفسرونه، أما المتشابه فلا يعلمونه بل يفوضون أمره إلى الله تعالى.

(٢) مناسبة هذا الباب لما سبق:

قرر المصنف في الباب السابق أن سبيل أهل السنة والجماعة اتباع سنة النبي ﷺ واجتناب أسباب الفرقة والغواية في الشذوذ عن جماعة المسلمين، والخلاف والاختلاف على أمور الدين، فناسب في هذا الباب أن يقرر أن طريقة أهل السنة رد نصوص المتشابه إلى المحكم بخلاف أهل الأهواء فهم يأخذون بالمتشابه ويردون المحكم.

(٣) معاني الكلمات:

الكلمة	المعنى
الجدل	مراء يتعلق بإظهار المذاهب وتقريرها.

(٤) معنى كلام الطحاوي: «ونقول الله أعلم فيما اشتبه علينا علمه»:

أهل السنة دائماً يكلون علم ما اشتبه عليهم إلى الله تعالى ويقولون: الله أعلم، وذلك هو العدل، وهو المقصود من تحريم القول على الله بغير علم، وهو من أعظم الذنوب وشرها، وهكذا إذا سئل الإنسان عما لا يعلم فليقل: الله أعلم.

(٥) طريقة أهل العلم إذا اشتبه عليهم من الدين:

طريقة أهل العلم إذا اشتبه عليهم من الدين أنهم يكلون علمه إلى عالمه، قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾﴾ [الأحزاب: ٦٣]، وأمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يقول: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ

عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّى مَلَكٌ﴾ [الأنعام: ٥٠].

لذا لما سئل النبي ﷺ عن أولاد المشركين قال: «**الله أعلم بما كانوا عاملين**».

٦ القول على الله بغير علم من كبائر الذنوب:

دل على ذلك قوله تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلۡسِنَتُكُمُ ٱلۡكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٞ وَهَٰذَا حَرَامٞ لِّتَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ﴿١١٦﴾﴾ [النحل: ١١٦].

وقوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف: ٣٣].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا ﴿٣٦﴾﴾ [الإسراء: ٣٦].

فلا تحرموا وتحللوا من تلقاء أنفسكم افتراء على الله وتقوُّلاً عليه.

٧ المقصود بالمحكم والمتشابه:

للعلماء آراء في تحديدهما، ويمكن أن يستنتج من مجموعها ما يأتي:

المحكم هو: ما كان واضحاً في دلالته على المقصود منه.

والمتشابه: هو ما خفيت دلالته على المقصود منه، وأنواعه كثيرة ومنها:

١ ـ نوع لا يعلمه أحد من البشر، ولكن استأثر الله بعلمه. وذلك كالعلم بكيفية صفاته، وكذلك ما ورد في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ﴾ [لقمان: ٣٤].

٢ ـ نوع قد يتوصل إليه كل إنسان عن طريق البحث والدرس. وذلك كالأب في قوله تعالى: ﴿وَفَٰكِهَةٗ وَأَبّٗا ﴿٣١﴾﴾ [عبس: ٣١]، قالوا: الأب: هو ما ترعاه البهائم.

٣ ـ نوع قد يتوصل إليه بعض الناس عن طريق الفهم الذي يلقيه الله في قلبه كقوله ﷺ في دعائه لابن عباس: «**اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل**».

٨ هل في القرآن محكم ومتشابه؟ والحكمة من ذلك:

١ ـ قد ورد في القرآن ما يدل أنه كله محكم كقوله تعالى: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ﴾ [هود: ١].

٢ ـ وقد ورد في القرآن ما يدل على أنه متشابه كقوله: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ﴾ [الزمر: ٢٣].

٣ ـ ورد ما يدل على أن بعضه محكم وبعضه متشابه: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ [آل عمران: ٧] ولا تعارض بين الإطلاقات الثلاثة. وذلك لما يأتي:

١ ـ لأن الإحكام في الآية الأولى المراد به الإتقان الذي لا يتطرق إليه الخلل.

٢ ـ والتشابه في الآية تشابه في الجودة والإتقان وكونه معجزاً.

٣ ـ وأما الثالث فالمراد به أن من القرآن ما هو واضح في الدلالة على المقصود منه، وهذا هو المحكم ومنه ما هو غير واضح في الدلالة. وهو المتشابه.

أما الحكمة من وجود المتشابه في القرآن الكريم فقد ذكر العلماء عدة حكم منها:

١ ـ رحمة الله بهذا الإنسان الضعيف الذي لا يطيق معرفة كل شيء فأخفى عنه موعد الساعة لكي لا يتكاسل عن الاستعداد لها، ولا يجزع إذا علم بقرب موعدها وأخفى عنه موعد أجله لما تقدم وأخفى عنه كنه ذاته سبحانه وصفاته من أنه لا يستطيع إدراك كنهه ولا يقدر على تحمله.

٢ ـ إظهار عجز الإنسان وجهالته، وأنه مهما بلغ من الاستعداد والقوة لا يمكن أن يعلم ما حجب الله علمه عنه.

٣ ـ ابتلاء الإنسان واختباره أيؤمن بما أخبر به لصادقون عن الله.

(٩) الواجب على المسلم فيما اشتبه علمه:

الواجب عليه أن يوكل علمه ويفوضه إلى الله سبحانه قائلاً: والله أعلم، وتاركاً الخوض فيما لا يعلم، وقد دلت أدلة الكتاب والسنة والآثار على عدم جواز الخوض للإنسان فيما لا يعلم:

أ ـ فأما من الكتاب:

فقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ﴾ [الإسراء: ٣٦].

وقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف: ٣٣].

وقوله: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ ۖ لَهُۥ غَيْبُ﴾ [الكهف: ٢٦].

وقوله: ﴿قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم﴾ [الكهف: ٢٢].

ب ـ ومن السنة:

قوله ﷺ: **«إن القرآن لم ينزل يكذب بعضه بعضاً، ولكن يصدق بعضه بعضاً. فما علمتم فاعملوا به، وما جهلتم فردوه إلى عالمه»**.

فقد أمر برد ما لا نعلم علمه إلى عالمه والأمر يقتضي الوجوب. وكذلك قوله ﷺ حين سئل عن أطفال المشركين قال: **«الله أعلم بما كانوا عاملين»**.

ج ـ ومن الآثار ما يأتي:

ما روي عن أبي بكر رضي الله عنه قال: **«أي أرض تقلني وأي سماء تظلني إن قلت في كتاب الله بما لا أعلم»**، فهذا يدل على عدم جواز الخوض.

٢ ـ قال عمر رضي الله عنه: **«السنة ما سنه الله عز وجل وما سنه رسوله ﷺ، لا تجعلوا خطأ الرأي سنة»**.

وقال أيضاً: **«اتهموا الرأي على الدين فلو رأيتني يوم أبي جندل، ولقد رأيتني وأني لأرد أمر رسول الله ﷺ برأي فأجتهد ولا آلو، وذلك يوم أبي جندل والكاتب يكتب بين يدي رسول الله ﷺ وأهل مكة، وقال رسول الله ﷺ: اكتبوا بسم الله الرحمٰن الرحيم، قال: فقالوا: ترانا قد صدقناك بما تقول؟ ولكنك تكتب باسمك اللهم، فرضي رسول الله ﷺ وأبيت فقال: يا عمر تراني أرضى وتأبى أنت؟»**.

٤ ـ ما روي عن ابن سيرين قال: «لم يكن أحد أهيب لما لا يعلم من أبي بكر ولا بعد أبي بكر من عمر، وأن أبا بكر نزلت به قضية فلم يجدها في الكتاب والسنة فاجتهد برأيه»، ثم قال: هذا رأيي، فإن يكن صواباً فمن الله، وإن يكن خطأ فمني وأستغفر الله...

(١٠) الطوائف التي ضلَّت من جهة المتشابه:

ضل في ذلك طوائف منها:

الطائفة الأولى: أهل وحدة الوجود: وهي طائفة ادعت التحقيق والتوحيد والمعرفة بالله تعالى، وهم أهل الإلحاد القائلون بوحدة الوجود.

الطائفة الثانية: الجهمية والمعتزلة وبعض الفلاسفة توهموا أنه إذا قيل: الموجودات تشترك في مسمى الوجود لزم التشبيه والتركيب.

الطائفة الثالثة: طائفة من الفلاسفة ظنت أنه إذا كانت الموجودات تشترك في مسمى الوجود لزم أن يكون في الخارج عن الأذهان موجود مشترك كلي، أي مطلق عن التقييد، فقالوا: بالوجود المطلق.

١١ الخلاصة:

١ ـ أهل السنة دائماً يكلون علم ما اشتبه عليهم إلى الله تعالى ويقولون: الله أعلم، وهي طريقة أهل العلم أنهم إذا اشتبه عليهم من الدين شيء أنهم يكلون علمه إلى عالمه.

٢ ـ القول على الله بغير علم من كبائر الذنوب.

٣ ـ المحكم هو: ما كان واضحاً في دلالته على المقصود منه.

والمتشابه: هو ما خفيت دلالته على المقصود منه.

٤ ـ الطوائف التي ضلت من جهة المتشابه؛ هم أهل وحدة الوجود، الجهمية والمعتزلة والفلاسفة.

١٢ المناقشة:

- **س١:** اشرح كلام الطحاوي: «ونقول الله أعلم فيما اشتبه علينا علمه».
- **س٢:** ما طريقة أهل العلم إذا اشتبه عليهم من الدين؟
- **س٣:** بيِّن أن القول على الله بغير علم من كبائر الذنوب.
- **س٤:** ما المقصود بالمحكم والمتشابه؟
- **س٥:** هل في القرآن محكم ومتشابه؟ وما الحكمة من ذلك؟
- **س٦:** ما الواجب على المسلم فيما اشتبه علمه؟
- **س٧:** اذكر الطوائف التي ضلت من جهة المتشابه، مبيناً وجه الضلالة.

المسح على الخفين في السفر والحضر

* **كلام ابن أبي العز:**

١ ـ غرض المصنف من عقد هذا الباب.

٢ ـ مناسبة هذا الباب لما سبق.

٣ ـ معاني الكلمات.

٤ ـ معنى كلام الطحاوي: «ونرى المسح على الخفين في السفر والحضر، كما جاء في الأثر».

٥ ـ مناسبة ذكر هذا المبحث في العقيدة الطحاوية.

٦ ـ حكم المسح على الخفين.

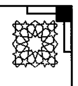
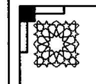
٧ ـ أيهما أفضل المسح على الخفين أم غسل الرجلين؟

٨ ـ الحكمة من مسح الرأس بدل الغسل.

٩ ـ أقوال العلماء في فرض غسل الرجلين في الوضوء.

١٠ ـ الخلاصة.

١١ ـ المناقشة.

المسح على الخفين

قال ابن أبي العز:

قوله: «ونرى المسح على الخفين في السفر والحضر كما جاء في الأثر».

تواترت[١] السنّة عن رسول الله ﷺ بالمسح على الخفين وبغسل الرجلين، والرافضة تخالف هذه السنّة المتواترة، فيقال لهم: الذين نقلوا عن النبي ﷺ الوضوء قولاً وفعلاً، والذين تعلموا الوضوء منه وتوضؤوا على عهده وهو يراهم ويقرّهم ونقلوه إلى من بعدهم أكثر عدداً من الذين نقلوا لفظ هذه الآية، فإن جميع المسلمين كانوا يتوضؤون على عهده ولم يتعلموا الوضوء إلّا منه، فإن هذا العمل لم يكن معهوداً عندهم في الجاهلية، وهم قد رأوه يتوضأ ما لا يحصي عدده إلّا الله تعالى، ونقلوا عنه ذكر غسل الرجلين في ما شاء الله من الحديث حتى نقلوا عنه من غير وجه في كتب الصحيح وغيرها أنه قال: (ويل للأعقاب وبطون الأقدام من النار)[٢].

مع أن الفرض إذا كان مسح ظاهر القدم كان غسل الجميع كلفة لا تدعو إليها الطباع، كما تدعو الطباع إلى طلب الرياسة والمال، فلو جاز الطعن في تواتر صفة الوضوء لكان في نقل لفظ آية الوضوء أقرب إلى الجواز.

وإذا قالوا لفظ الآية ثبت بالتواتر الذي لا يمكن فيه الكذب ولا الخطأ فثبوت التواتر في نقل الوضوء عنه أولى وأكمل، ولفظ الآية لا يخالف ما تواتر من السنّة فإن المسح كما يطلق ويراد به الإصابة، كذلك يطلق ويراد به الإسالة[٣] كما تقول العرب: تمسَّحت للصلاة.

---

(١) انظر: منهاج السنّة (٤/ ١٧٠).

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ١٩١)، وابن خزيمة (١٦٣)، وأخرجه البخاري (٦٠)، ومسلم (١٦٣)، دون قوله: «وبطون الأقدام».

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن (٦/ ٩٢) للقرطبي.

وفي الآية ما يدل على أنه لم يرد بمسح الرجلين المسح الذي هو قسيم الغسل، بل المسح الذي الغسل قسم منه فإنه قال: ﴿إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾ ولم يقل إلى الكعاب كما قال: ﴿إِلَى ٱلْمَرَافِقِ﴾، فدلّ على أنه ليس في كل رجل كعب واحد كما في كل يد مرفق واحد، بل في كل رجل كعبان، فيكون تعالى قد أمر بالمسح إلى العظمين الناتئين وهذا هو الغسل، فإن من يمسح المسح الخاص يجعل المسح لظهور القدمين وجعل الكعبين في الآية غاية يرد قولهم، فدعواهم أن الفرض مسح الرجلين إلى الكعبين اللذين هما مجتمع الساق والقدم عند معقد الشراك مردود بالكتاب والسنّة.

وفي الآية قراءتان مشهورتان النصب والخفض، وتوجيه إعرابهما مبسوط في موضعه، وقراءة النصب نص في وجوب الغسل، لأن العطف على المحل إنما يكون إذا كان المعنى واحداً كقوله:

فلسنا بالجبال ولا الحديدا

وليس معنى: مسحت برأسي ورجلي، هو معنى: مسحت رأسي ورجلي، بل ذكر الباء يفيد معنى زائداً على مجرد المسح وهو إلصاق شيء من الماء بالرأس فتعين العطف على قوله: ﴿وَأَيْدِيَكُمْ﴾، فالسنّة المتواترة تقضي على ما يفهمه بعض الناس من ظاهر القرآن، فإن الرسول بيَّن للناس لفظ القرآن.

ومعناه كما قال أبو عبد الرحمٰن السلمي: حدثنا الذين كانوا يقرئونا القرآن عثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي ﷺ عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعملوا معناها[1].

وفي ذكر المسح في الرجلين تنبيه على قلة الصب في الرجلين، فإن السرف يُعتاد فيهما كثيراً، والمسألة معروفة والكلام عليها في كتب الفروع.

(١) أخرجه الطبري (٨١ ـ ٨٢) وهو حسن بشواهده.



عناصر الموضوع:

١ غرض المصنف من عقد هذا الباب:

أ ـ بيان أن أهل السنّة والجماعة يرون المسح على الخفين في الحضر والسفر.

ب ـ الرد على المبتدعة الذين لا يرون المسح على الخفين لا في السفر ولا في الحضر، وهم الرافضة، فلا يرون غسل الرجلين المكشوفتين ولا يرون المسح على الخفين، بل يوجبون مسح ظهور الرجلين إذا كانت الرجلان مكشوفتين، قالوا: تمسحان كما يمسح الرأس، فهم ينكرون غسل الرجلين المكشوفتين وينكرون المسح على الخفين[1].

٢ مناسبة هذا الباب لما سبق:

قرر المصنف فيما سبق أن سبيل أهل السنّة والجماعة اتباع سنّة النبي ﷺ والجماعة، واجتناب أسباب الخلاف والفرقة، فناسب أن يبين أن مما جاءت به السنّة المتواترة المسح على الخفين في الحضر والسفر، فأهل السنّة يرون المسح على الخفين في الحضر والسفر اتباعاً للسنّة والأثر، أما الرافضة فلا يرون المسح على الخفين لا في السفر ولا في الحضر فخالفوا السنّة واتبعوا أسباب الخلاف والشذوذ والفرقة.

٣ معاني الكلمات:

الكلمة	المعنى
المتواتر	ما رواه جمع يستحيل تواطؤهم على الكذب إلى منتهاه وكان مستندهم الحس.

٤ معنى كلام الطحاوي: «ونرى المسح على الخفين في السفر والحضر، كما جاء في الأثر»:

ويرى أهل السنّة المسح على الخفين بالشروط الواردة في كتب الفقه، ثلاثة

(١) الهداية الربانية (ص٢٥٥).

أيام بلياليهن للمسافر ويوم وليلة للمقيم، وكذلك المسح على الجوربين والنعلين، وقد خالفت الرافضة[١] في ذلك، غير أن المسح على الخفين متواتر عن رسول الله ﷺ.

٥ مناسبة ذكر هذا المبحث في العقيدة الطحاوية:

لما كان مذهب أهل السنّة وجوب غسل الرجلين في الوضوء وجواز المسح على الخفين، وقد خالفهم في ذلك بعض طوائف أهل البدع... لهذا ذكر الطحاوي والشارح هذا المبحث لبيان مذهب أهل السنّة كي يتميز عن غيره...

٦ حكم المسح على الخفين:

للعلماء في جواز المسح على الخفين أقوال منها:

أ ـ ذهب جمهور أهل السنّة إلى أن المسح على الخفين جائز في الحضر والسفر لثبوت ذلك عن الرسول في آثار عدة.

ب ـ وذهب الخوارج والشيعة إلى عدم جواز المسح على الخفين وحجتهم في ذلك بأن الآثار التي ورد فيها المسح منسوخة.

والرأي المختار: ما ذهب إليه الجمهور من أن المسح على الخفين جائز.

والدليل: أن القول بالنسخ لا بدّ معه من معرفة تأخر الناسخ عن المنسوخ وليس هناك ما يدل على أن آية المائدة متأخرة عن مسحه ﷺ على خفيه، بل قد ورد ما يدل على أنه مسح على خفيه بعد نزول آية المائدة، ومن ذلك ما روي عن جرير رضي الله عنه أنه بال ثم توضأ ومسح على خفيه فقيل له: أتفعل هكذا؟ قال: نعم رأيت رسول الله ﷺ بال ثم توضأ ومسح على خفيه، وكان إسلام جرير بعد نزول آية المائدة.

ومن ذلك أيضاً: أن آية المائدة نزلت في غزوة المريسيع، وقد ثبت أنه ﷺ مسح في غزوة تبوك، وغزوة تبوك كانت بعد غزوة المريسيع بسنتين.

٧ أيهما أفضل المسح على الخفين أم غسل الرجلين؟:

اختلف العلماء على آراء:

أ ـ فقيل: إن غسل الرجلين أفضل بشرط ألّا يفعل الغسل رغبة عن رخصة

---

(١) مذهب الرافضة في هذا: أنهم يمسحون ظهر القدمين ولا يغسلون ظاهر القدمين ولا العقب، انظر: الاستذكار لابن عبد البر (٢/٢٣٦)، ومجموع الفتاوى (٢١/١٢٨).

المسح، وهذا قول المالكية والشافعية، ودليلهم: أن الغسل هو الأصل، وقد واظب عليه الرسول ﷺ وهو أكثر مشقة من المسح.

ب ـ وقيل: إن المسح هو الأفضل، وهو أصح الروايات عن أحمد ودليلهم ما روى المغيرة بن شعبة أنه قال: توضأ رسول الله ﷺ ومسح على خفيه فقلت: يا رسول الله أنسيت؟ قال: **(بل أنت نسيت بهذا أمرني ربي)**. ومنها ما روي عن صفوان بن عسال قال: أمرنا رسول الله ﷺ **(أن نمسح على الخفين)** والأمر يقتضي الوجوب، إن وجد ما يصرفه عن الندب، وهو ما ثبت عن رسول الله ﷺ أنه كان يغسل رجليه.

ج ـ ما ذكره ابن القيم ونسبه إلى الإمام شيخ الإسلام ابن تيمية وهو أن الرسول ﷺ لم يكن ليتكلف ضد الحالة التي هو عليها، فإن كان لابساً للخفين مع استيفاء الشروط مسح عليهما، وإن لم يكن كذلك غسل رجليه وكذلك المسلم فالأفضل له ألّا يتكلف ضد الحالة التي هو عليها.

التوجيه: وهذا هو أرجح الأقوال لجمعه بين فعلي الرسول ﷺ.

(٨) الحكمة من مسح الرأس بدل الغسل:

قال تعالى: ﴿وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ [المائدة: ٦]، ففي ذكر المسح على الرجلين تنبيه على قلة الصب على الرجلين فإن السرف يعتاد فيهما كثيراً.

وذكر بعضهم نكتة ثانية: وهي اختصار الكلام لأن الفعلين من جنس واحد والمعطوف عليه إذا كان الفعلان من جنس واحد فيجوز الاستغناء لأحدهما كما في قوله: «علفتها تبناً وماءً بارداً».

(٩) أقوال العلماء في فرض غسل الرجلين في الوضوء:

اختلف العلماء في فرض الرجلين في الوضوء ومقداره على أقوال:

١ ـ مذهب جمهور أهل السنّة: أن فرضهما الغسل إلى الكعبين وهما العظمان الناتئان في جانبي القدم.

٢ ـ ذهب الشيعة والإمامية إلى أن الواجب فيهما المسح إلى الكعب، وهو العظم الناتئ في ظهر القدم عند معقد الشراك.

٣ ـ نقل عن بعض أهل الظاهر أنه يجب الجمع بين الغسل والمسح.

٤ ـ نقل عن ابن جرير الطبري أن المكلف مخيّر بين الغسل والمسح، وقد

أنكر الألوسي هذه النسبة إلى ابن جرير وقال: لعل القائل هو محمد بن جرير بن رستم الشيعي صاحب «الإيضاح» السمرقند... لا الطبري، فإن المذكور في تفسيره إنما هو الغسل لا المسح ولا الجمع ولا التخيير.

والرأي المختار هو ما ذهب إليه أهل السنّة والجماعة من أن الفرض هو غسل الرجلين إلى الكعبين لتواتر صفة الوضوء عن النبي ﷺ قولاً وفعلاً، وفيها على أن الواجب الغسل لا المسح، ولما في هذا القول من الجمع بين القراءتين ـ النصب والجر ـ في قوله: ﴿وَأَرْجُلَكُمْ﴾ على وجه لا مانع منه لغةً ولا شرعاً.

١٠ الخلاصة:

١ ـ يرى أهل السنّة المسح على الخفين بالشروط الواردة في كتب الفقه.

٢ ـ ذهب جمهور أهل السنّة إلى أن المسح على الخفين جائز في الحضر والسفر لثبوت ذلك عن الرسول في آثار عدة.

٣ ـ الحكمة من مسح الرأس بدل الغسل هو التنبيه على قلة الصب على الرجلين فإن السرف يعتاد فيهما كثيراً.

٤ ـ وجوب غسل الرجلين إلى الكعبين وهما العظمان الناتئان في جانبي القدم.

١١ المناقشة:

- **س١:** اشرح قول الطحاوي: «ونرى المسح على الخفين في السفر والحضر، كما جاء في الأثر».
- **س٢:** لماذا ذكر هذا المبحث في العقيدة الطحاوية؟
- **س٣:** بيّن حكم المسح على الخفين.
- **س٤:** أيهما أفضل المسح على الخفين أم غسل الرجلين؟
- **س٥:** ما الحكمة من مسح الرأس بدل الغسل؟
- **س٦:** وضّح مذاهب العلماء في فرض غسل الرجلين في الوضوء.

الحج والجهاد ماضيان مع ولي الأمر إلى قيام الساعة

* **كلام ابن أبي العز:**

١ ـ غرض المصنف من عقد هذا الباب.

٢ ـ مناسبة هذا الباب لما سبق.

٣ ـ معاني الكلمات.

٤ ـ معنى كلام الطحاوي: «والحج والجهاد ماضيان مع أولي الأمر من المسلمين برهم وفاجرهم إلى قيام الساعة لا يبطلهما شيء ولا ينقضهما».

٥ ـ مناسبة ذكر المصنف هذا المبحث في العقيدة.

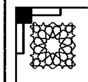
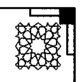
٦ ـ الحكمة من ذكر الطحاوي للحج والجهاد دون غيرهما.

٧ ـ حكم الجهاد.

٨ ـ الأدلة على أن الحج ركن من أركان الإسلام.

٩ ـ الخلاصة.

١٠ ـ المناقشة.

الحج والجهاد ماضيان مع ولي الأمر إلى قيام الساعة

قال ابن أبي العز:

قوله: «والحج والجهاد ماضيان مع أولي الأمر من المسلمين برّهم وفاجرهم إلى قيام الساعة لا يبطلهما شيء ولا ينقضهما».

يشير الشيخ رحمه الله إلى الرد على الرافضة حيث قالوا: لا جهاد في سبيل الله حتى يخرج الرضي من آل محمد وينادي مناد من السماء: اتبعوه، وبطلان هذا القول أظهر من أن يستدل عليه بدليل، وهم شرطوا في الإمام أن يكون معصوماً اشتراطاً من غير دليل بل في «صحيح مسلم» عن عوف بن مالك الأشجعي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم وتصلون عليهم ويصلون عليكم، وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم وتلعنونهم ويلعنونكم)، قال: قلت: يا رسول الله أفلا ننابذهم عند ذلك؟ قال: (لا ما أقاموا فيكم الصلاة، ألا من ولي عليه وال فرآه يأتي شيئاً من معصية الله فليكره ما يأتي من معصية الله ولا ينزعنّ يداً من طاعته)[1].

وقد تقدم بعض نظائر هذا الحديث في الإمامة ولم يقل: إن الإمام يجب أن يكون معصوماً. والرافضة أخسر الناس صفقة في هذه المسألة لأنهم جعلوا الإمام المعصوم هو الإمام المعدوم الذي لم ينفعهم في دين ولا دنيا، فإنهم يدعون أنه الإمام المنتظر محمد بن الحسن العسكري الذي دخل السرداب في زعمهم سنة ستين ومائتين أو قريباً من ذلك بسامرا، وقد يقيمون هناك دابة إما بغلاً وإما فرساً ليركبها إذا خرج ويقيمون هناك في أوقات عيّنوا فيها من ينادي عليه بالخروج: يا مولانا اخرج يا مولانا اخرج، ويشهرون السلاح ولا أحد هناك يقاتلهم[2] إلى غير ذلك من الأمور التي يضحك عليهم منها العقلاء.

---

(١) أخرجه مسلم (١٨٥٥).

(٢) انظر: منهاج السنّة (١/ ٤٤).

وقوله: «مع أولي الأمر برّهم وفاجرهم» لأن الحج والجهاد فرضان يتعلقان بالسفر، فلا بدّ من سائس يسوس الناس فيهما ويقاوم العدو هذا المعنى يحصل بالإمام البرّ يحصل بالإمام الفاجر.



الشرح

عناصر الموضوع:

(١) غرض المصنف من عقد هذا الباب:

أ ـ بيّن أن من أصول أهل السنّة هو مضي الحج والجهاد مع أولي الأمر برّاً كان أو فاجراً.

ب ـ الرد على المخالفين لأهل السنّة في هذا الأصل وهم الروافض والخوارج والمعتزلة، فإنهم لا يرون الحج ولا الجهاد مع ولي الأمر البر والفاجر، لأن الخوارج يرون أن الإمام إذا كان فاجراً وجب قتله وخلعه وإخراجه من الإمامة لأنه كافر عندهم، والمعتزلة يرون أنه خرج من الإيمان ودخل الكفر، والرافضة لا يرون الإمامة إلا إمامة المعصوم.

وأهل السنّة يخالفونهم فيرون الحج والجهاد مع ولي الأمر برّاً كان أو فاجراً اتباعاً للأدلة التي جاءت في السنّة.

(٢) مناسبة هذا الباب لما سبق:

سبق أن قرر المصنف أن سبيل أهل السنّة والجماعة اتباع سنّة النبي ﷺ والجماعة واجتناب الشذوذ والفرقة والخلاف، فناسب أن يبيّن أن مما جاءت به السنّة المستفيضة مضي الحج والجهاد مع أولي الأمر برّاً كان أم فاجراً إلى قيام الساعة. وهذا من أصول أهل السنّة خلافاً لأهل البدع الذين فارقوا الجماعة واتبعوا الشذوذ والخلاف والفرقة.

(٣) معاني الكلمات:

الكلمة	المعنى
ماضيان	باقيان.
لا ينقضهما	لا يمحوهما ولا ينفيهما ولا يرفع بقاءهما.

٤ معنى كلام الطحاوي: «والحج والجهاد ماضيان مع أولي الأمر من المسلمين برّهم وفاجرهم إلى قيام الساعة لا يبطلهما شيء ولا ينقضهما»:

ويرى أهل السنّة والجماعة أن الحج والجهاد باقيان مستمران مع أمراء المسلمين الأبرار والفجار، لا يبطلهما شيء ولا ينقضهما ولا يرفع حكم وجوبهما، وذلك إلى قيام الساعة، كل ذلك مع الأئمة العدول والجورة، فالجائر قوته للمسلمين وجوره على نفسه ما داموا باقين في حظيرة الإسلام، أما إن خرجوا من الإسلام فلذلك شيء آخر.

٥ مناسبة ذكر المصنف هذا المبحث في العقيدة:

هذا المبحث من مسائل الفقه وذكره الطحاوي لبيان مذهب أهل السنّة والردّ على أهل البدع من الروافض والخوارج والمعتزلة، فأورد هذا المبحث للردّ عليهم.

٦ الحكمة من ذكر الطحاوي للحج والجهاد دون غيرهما:

لأن الحج والجهاد فرضان يتعلقان بالسفر فلا بدّ من سائس يسوس الناس فيهما وفيهما يقاومون العدو. وهذا المعنى كما يحصل بالإمام البرّ فهو كذلك يحصل بالإمام الفاجر.

٧ حكم الجهاد:

اختلف الناس في حكمه:

فعند أهل السنّة واجب مع كل أمير براً كان أو فاجراً، ووجوبه وجوب كفائي إذا قام به البعض سقط عن الباقين، وقد يتعين أن يكون فرض عين على كل مكلف في بعض الحالات والدليل على وجوبه:

١ ـ قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦] فقد دلّت الآية على أن القتال مما فرض عليهم وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ٧٣] وقد أمر الله نبيه ﷺ بجهاد الكفار والأمر يقتضي الوجوب.

٢ ـ ومن السنّة ما روي عنه ﷺ أنه قال: **(الصلاة واجبة عليكم مع كل مسلم براً كان أو فاجراً وإن عمل الكبائر، والجهاد واجب عليكم)**، وقوله ﷺ: **(الجهاد ماض منذ بعثني الله تعالى إلى أن يقاتل آخر أمتي الدجال)**.

أما دليل كونه واجباً كفائياً (فرض كفاية) فهو فعل الرسول ﷺ حيث لم يكن

يصطحب معه كل أصحابه، بل كان يتخلف بعضهم ولو لم يكن وجوبه كفائياً لما تخلّف عنه البعض بل أمر بسير الجميع.

أما عند الرافضة فلا يجب إلا في حالات خمس:

١ ـ مع الرسول ﷺ.

٢ ـ مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

٣ ـ مع الحسن بن علي قبل صلحه مع معاوية رضي الله عنهما.

٤ ـ مع الحسين بن علي رضي الله عنه.

٥ ـ مع الإمام المعصوم (المنتظر) في زعمهم.

أما غير هؤلاء فلا يجب معهم الجهاد في زعمهم. وحجتهم في ذلك أن أمير الحرب لا بدّ أن يكون معصوماً، لكي لا تسفك دماء الأبرياء، وأما غيرهم فليس بمعصوم فليس يجب الجهاد معهم.

الردّ عليهم: هذا دليل مرفوض مردود بما يأتي:

١ ـ عموم الأدلة الدالة على وجوب الجهاد، وليس فيها ما يدل على اشتراط العصمة.

٢ ـ وقولهم باشتراط العصمة غير وارد؛ لأنه يؤدي إلى استحالة الجهاد إذ لا معصوم إلا الأنبياء عليهم السلام.

٣ ـ مما يؤيد عدم الاشتراط قوله ﷺ: (**خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم وشرارهم الذين تبغضونهم ويبغضونكم؟**) قيل: ألا ننابذهم العداء يا رسول الله؟ قال: (**لا، ما أقاموا فيكم الصلاة**). فقد وصفهم الرسول ﷺ بأنهم شرار، ومع ذلك سماهم أئمة ولو كانت العصمة مشترطة في الإمام لما سمّاهم الرسول ﷺ أئمة.

٨ الأدلة على أن الحج ركن من أركان الإسلام:

الحج ركن من أركان الإسلام أوجبه الله على المستطيع له مرة واحدة في العمر وقد دلّ على وجوبه الكتاب والسنّة والإجماع.

أما الكتاب فقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًاۚ﴾ [آل عمران: ٩٧].

وأما السنّة فأحاديث كثيرة منها: ما روي أن رسول الله ﷺ قال في حديث

جبريل: (**بني الإسلام على خمس... وتحج البيت**) فقد دلّ أنه ركن من أركان الإسلام.

وأما الإجماع: فقد أجمعت الأمة على أن الحج ركن من أركان الإسلام، وعلى المستطيع أن يؤديه في العمر مرة واحدة.

(٩) الخلاصة:

١ - يرى أهل السنّة والجماعة أن الحج والجهاد باقيان مستمران مع أمراء المسلمين الأبرار والفجار، لا يبطلهما شيء ولا ينقضهما ولا يرفع حكم وجوبهما، وذلك إلى قيام الساعة.

٢ - ذكر الطحاوي هذا المبحث لبيان مذهب أهل السنّة والرد على الروافض الذين حصروا وجوب الجهاد في أمور معينة.

٣ - الحج ركن من أركان الإسلام أوجبه الله على المستطيع له مرة واحدة في العمر، وقد دلّ على وجوبه الكتاب والسنّة والإجماع.

(١٠) المناقشة:

- **س١:** اشرح قول الطحاوي: «والحج والجهاد ماضيان مع أولي الأمر من المسلمين برّهم وفاجرهم إلى قيام الساعة لا يبطلهما شيء ولا ينقضهما».
- **س٢:** ما مناسبة ذكر المصنف هذا المبحث في العقيدة؟
- **س٣:** ما الحكمة من ذكر الطحاوي للحج والجهاد دون غيرهما؟
- **س٤:** بيّن حكم الجهاد، مع الأدلة.
- **س٥:** اذكر الأدلة على أن الحج ركن من أركان الإسلام.



الإيمان بالملائكة

❁ **كلام ابن أبي العز:**

١ ـ غرض المصنف من عقد هذا الباب.

٢ ـ مناسبة هذا الباب لما سبق.

٣ ـ معاني الكلمات.

٤ ـ معنى كلام الطحاوي: «ونؤمن بالكرام الكاتبين، فإن الله قد جعلهم علينا حافظين».

٥ ـ التعريف بالملائكة وحكم الإيمان بهم.

٦ ـ كيف يكون الإيمان بالملائكة.

٧ ـ أسماء الملائكة الواردة في الكتاب والسنّة.

٨ ـ موت الملائكة.

٩ ـ المراد بالكرام الكاتبين وعددهم.

١٠ ـ حكم الإيمان بالكرام الكاتبين وعددهم.

١١ ـ الأمور التي يكتبها الكرام الكاتبون.

١٢ ـ معنى قوله ﷺ في حق قرينه: (ولكن الله أعانني عليه فأسلم).

١٣ ـ معنى كلام الطحاوي: «ونؤمن بملك الموت، الموكل بقبض الأرواح».

١٤ ـ حكم الإيمان بملك الموت.

١٥ ـ الجمع بين قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الزمر: ٤٢]، وقوله تعالى: ﴿۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾﴾ [السجدة: ١١]، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الأنعام: ٦١].

١٦ ـ حقيقة الروح التي في البدن ولِمَ سميت بهذا الاسم.

١٧ ـ هل الروح والنفس شيء واحد أم أنهما متغايران؟!

١٨ ـ مسكن الروح.

١٩ ـ الروح مخلوقة.

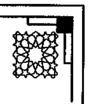
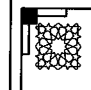
٢٠ ـ هل تموت الروح؟

٢١ ـ مستقر الأرواح.

٢٢ ـ هل مسمى الإنسان هو الروح فقط؟ أم البدن فقط؟ أم مجموعهما؟

٢٣ ـ الخلاصة.

٢٤ ـ المناقشة.

الإيمان بالملائكة

قال ابن أبي العز:

قوله: «ونؤمن بالكرام الكاتبين فإن الله قد جعلهم علينا حافظين».

قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الانفطار: ١٠ ـ ١٢].

وقال تعالى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ [ق: ١٧ ـ ١٨].

وقال تعالى: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد: ١١].

وقال تعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [الزخرف: ٨٠].

وقال تعالى: ﴿هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [الجاثية: ٢٩].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ [يونس: ٢١].

وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: (يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون في صلاة الصبح وصلاة العصر، فيصعد إليه الذين كانوا فيكم فيسألهم والله أعلم بهم كيف تركتم عبادي، فيقولون: أتيناهم وهم يصلون وفارقناهم وهم يصلون)[1].

وفي الحديث الآخر: (إن معكم من لا يفارقكم إلا عند الخلاء وعند الجماع فاستحيوهم وأكرموهم)[2].

جاء في التفسير: اثنان عن اليمين وعن الشمال يكتبان الأعمال، صاحب اليمين

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٨٠٠) وقال: حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

يكتب الحسنات وصاحب الشمال يكتب السيئات، وملكان آخران يحفظانه ويحرسانه واحد من ورائه وواحد أمامه فهو بين أربعة أملاك بالنهار وأربعة آخرين بالليل بدلاً حافظان وكاتبان، وقال عكرمة عن ابن عباس: ﴿يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ قال: ملائكة يحفظونه من بين يديه ومن خلفه فإذا جاء قدر الله خلوا عنه.

وروى مسلم والإمام أحمد عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: (ما منكم من أحد إلا وقد وكِّل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة)، قالوا: وإياك يا رسول الله، قال: (وإياي، لكن الله أعانني عليه فأسلم فلا يأمرني إلا بخير). الرواية بفتح الميم مِنْ فأسلم، ومن رواه فأسلم برفع الميم، فقد حرّف لفظه. ومعنى فأسلم: أي فاستسلم وانقاد لي في أصح القولين، ولهذا قال: فلا يأمرني إلا بخير[١]. ومن قال: إن الشيطان صار مؤمناً فقد حرّف معناه فإن الشيطان لا يكون مؤمناً.

ومعنى: ﴿يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ قيل: حفظهم له من أمر الله، أي: الله أمرهم بذلك، يشهد لذلك قراءة من قرأ يحفظونه بأمر الله.

ثم قد ثبت بالنصوص المذكورة أن الملائكة تكتب القول والفعل وكذلك النية لأنها فعل القلب فدخلت في عموم: ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۝﴾، ويشهد لذلك قوله ﷺ: (قال الله ﷻ: إذا همّ عبدي بسيئة فلا تكتبوها عليه، فإن عملها فاكتبوها عليه سيئة وإذا همّ عبدي بحسنة فلم يعملها فاكتبوها له حسنة، فإن عملها فاكتبوها عشراً)[٢].

وقال رسول الله ﷺ: (قالت الملائكة ذاك عبد يريد أن يعمل سيئة وهو أبصر به فقال: ارقبوه فإن عملها فاكتبوها بمثلها، وإن تركها فاكتبوها له حسنة، إنما تركها من جراي)[٣]. خرجاهما في الصحيحين واللفظ لمسلم.

قوله: «ونؤمن بملك الموت الموكل بقبض أرواح العالمين».

قال تعالى: ﴿۞ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨١٤).
(٢) أخرجه البخاري (٧٥٠١)، ومسلم (١٢٨).
(٣) أخرجه مسلم (١٢٩).

﴿١١﴾ [السجدة: ١١]. ولا تعارض هذه الآية قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام: ٦١]، وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ﴾ [الزمر: ٤٢] لأن ملك الموت يتولى قبضها واستخراجها ثم يأخذها منه ملائكة الرحمة أو ملائكة العذاب ويتولونها بعده كل ذلك بإذن الله وقضائه وقدره وحكمه وأمره فصحت إضافة التوفي إلى كل بحسبه[١].

وقد اختلف في حقيقة النفس ما هي، وهل هي جزء من أجزاء البدن، أو عرض من أعراضه، أو جسم ساكن له مودع فيه، أو جوهر مجرد؟ وهل هي الروح أو غيرها؟ وهل الأمَّارة وهل اللوَّامة والمطمئنة نفس واحدة أم هي ثلاثة أنفس، وهل تموت الروح أو الموت للبدن وحده؟ وهذه المسألة تحتمل مجلداً، ولكن أشير إلى الكلام عليها مختصراً إن شاء الله تعالى.

فقيل: الروح قديمة[٢]، وقد أجمعت الرسل على أنها محدثة مخلوقة مصنوعة مربوبة مدبرة، وهذا معلوم بالضرورة من دينهم أن العالم محدث ومضى على هذا الصحابة والتابعون حتى نبغت نابغة ممن قصر فهمه في الكتاب والسنة فزعم أنها قديمة واحتج بأنها من أمر الله وأمره غير مخلوق، وبأن الله أضافها إليه بقوله: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [الإسراء: ٨٥]، وبقوله: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ [الحجر: ٢٩] كما أضاف إليه علمه وقدرته وسمعه وبصره ويده وتوقف آخرون.

واتفق أهل السنة والجماعة أنها مخلوقة، وممن نقل الإجماع على ذلك محمد بن نصر المروزي وابن قتيبة وغيرهما، ومن الأدلة على أن الروح مخلوقة قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الرعد: ١٦]، فهذا عام لا تخصيص فيه بوجه ما ولا يدخل في ذلك صفات الله تعالى فإنها داخلة في مسمى اسمه، فالله تعالى هو الإله الموصوف بصفات الكمال فعلمه وقدرته وحياته وسمعه وبصره وجميع صفاته داخل في مسمى اسمه فهو سبحانه بذاته وصفاته الخالق وما سواه مخلوق، ومعلوم قطعاً أن الروح ليست هي الله ولا صفة من صفاته وإنما هي من

---

(١) انظر: التذكرة للقرطبي (١/ ٨٦).

(٢) انظر: الروح لابن القيم (ص٢٢٦).

مصنوعاته، ومنها قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝١﴾ [الإنسان: ١]. وقوله تعالى لزكريا: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٩] والإنسان اسم لروحه وجسده، والخطاب لزكريا لروحه وبدنه والروح توصف بالوفاة والقبض والإمساك والإرسال، وهذا شأن المخلوق المحدث.

وأما احتجاجهم بقوله: ﴿مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ فليس المراد هنا بالأمر الطلب بل المراد به المأمور، والمصدر يذكر ويراد به اسم المفعول وهذا معلوم مشهور.

وأما استدلالهم بإضافتها إليه بقوله: ﴿مِن رُّوحِى﴾ فينبغي أن يعلم أن المضاف إلى الله تعالى نوعان: صفات لا تقوم بأنفسها كالعلم والقدرة والكلام والسمع والبصر، فهذه إضافة صفة إلى الموصوف بها فعلمه وكلامه وقدرته وحياته صفات له، وكذا وجهه ويده سبحانه.

والثاني: إضافة أعيان منفصلة عنه كالبيت والناقة والعبد والرسول والروح، فهذه إضافة مخلوق إلى خالقه، لكن إضافة تقتضي تخصيصاً وتشريفاً يتميز به المضاف عن غيره.

واختلف[١] في الروح هل هي مخلوقة قبل الجسد أم بعده؟ وقد تقدم عند ذكر الميثاق الإشارة إلى ذلك.

واختلف[٢] في الروح ما هي؟ فقيل: هي جسم، وقيل: عَرَض، وقيل: لا ندري ما الروح أجوهر أم عرض؟ وقيل: ليس الروح شيئاً أكثر من اعتدال الطبائع[٣] الأربع، وقيل: هي الدم الصافي الخالص من الكدرة والعفونات، وقيل: هي الحرارة الغريزية وهي الحياة، وقيل: هو جوهر بسيط منبث في العالم كله من الحيوان على جهة الإعمال له والتدبير، وهي على ما وصفت من الانبساط في العالم غير منقسمة الذات والبنية وأنها في كل حيوان العالم بمعنى واحد لا غير، وقيل: النفس هي النسيم الداخل والخارج بالتنفس، وقيل غير ذلك.

وللناس في مسمى الإنسان أربعة أقوال: هل هو الروح فقط، أو البدن فقط، أو

(١) انظر: كتاب الروح (ص٢٤٤).

(٢) انظر: كتاب الروح (ص٢٧٢).

(٣) الطبائع الأربع هي: الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة.

مجموعهما، أو كل منهما؟ وهذه الأقوال الأربعة لهم في كلامه هل هو اللفظ أو المعنى فقط، أو هما أو كل منهما، فالخلاف بينهم في الناطق ونطقه.

والحق أن الإنسان اسم لهما، وقد يطلق على أحدهما بقرينة، وكذا الكلام.

والذي يدل عليه الكتاب والسنة وإجماع الصحابة وأدلة العقل أن النفس جسم مخالف بالماهية لهذا الجسم المحسوس، وهو جسم نوراني علوي خفيف حي متحرك ينفذ في جوهر الأعضاء ويسري فيها سريان الماء في الورد، وسريان الدهن في الزيتون، والنار في الفحم، فما دامت هذه الأعضاء صالحة لقبول الآثار الفائضة عليها من هذا الجسم اللطيف بقي ذلك الجسم اللطيف سارياً في هذه الأعضاء وأفادها هذه الآثار من الحس والحركة الإرادية، وإذا فسدت هذه بسبب استيلاء الأخلاط الغليظة عليها وخرجت عن قبول تلك الآثار فارق الروح البدن وانفصل إلى عالم الأرواح.

والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر: ٤٢] ففيها الإخبار بتوفِّيها وإمساكها وإرسالها.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ﴾ [الأنعام: ٩٣]، ففيها بسط الملائكة أيديهم لتناولها ووصفها بالإخراج والخروج والإخبار بعذابها ذلك اليوم والإخبار عن مجيئها إلى ربها.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ﴾ [الأنعام: ٦٠]، ففيها الإخبار بتوفي النفس بالليل وبعثها إلى أجسادها بالنهار وتوفي الملائكة لها عند الموت.

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾ [الفجر: ٢٧ ـ ٣٠]، ففيها وصفها بالرجوع والدخول والرضا.

وقال ﷺ: (إن الروح إذا قبض تبعه البصر)[١]، ففيه وصفه بالقبض وأن البصر يراه. وقال ﷺ في حديث بلال: (قبض أرواحكم وردها عليكم)[٢]، وقال ﷺ:

---

(١) أخرجه مسلم (٩٢٠).
(٢) أخرجه البخاري (٥٩٥).

(نسمة المؤمن طائر يعلق في شجر الجنة)[١].

وسيأتي في الكلام على عذاب القبر أدلة كثيرة من خطاب ملك الموت لها وأنها تخرج تسيل كما تسيل القطرة من في السقاء، وأنها تصعد ويوجد منها من المؤمن كأطيب ريح، ومن الكافر كأنتن ريح، إلى غير ذلك من الصفات. وعلى ذلك أجمع السلف ودل العقل، وليس مع من خالف سوى الظنون الكاذبة والشبه الفاسدة التي لا يعارض بها ما دل عليه نصوص الوحي والأدلة العقيلة.

وأما اختلاف الناس في مسمى النفس[٢] والروح هل هما متغايران أو مسمَّاهما واحد؟ فالتحقيق أن النفس تطلق على أمور، وكذلك الروح، فيتحد مدلولهما تارة ويختلف تارة.

فالنفس تطلق على الروح، ولكن غالب ما يسمى نفساً إذا كانت متصلة بالبدن، وأما إذا أخذت مجردة فتسمية الروح أغلب عليها.

ويطلق على الدم ففي الحديث: «ما لا نفس له سائلة لا ينجس الماء إذا مات فيه»[٣].

والنفس العين يقال: أصابت فلاناً نفس أي عين.

والنفس الذات، كقوله تعالى: ﴿فَسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ [النور: ٦١]، ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩] ونحو ذلك، وأما الروح فلا يطلق على البدن لا بانفراده ولا مع النفس، وتطلق الروح على القرآن وعلى جبرائيل ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢] ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾﴾ [الشعراء: ١٩٣].

ويطلق الروح على الهواء المتردد في بدن الإنسان أيضاً.

وأما ما يؤيد الله به أولياءه فهي روح أخرى كما قال تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢].

وكذلك القوى التي في البدن فإنها أيضاً تسمى أرواحاً فيقال: الروح الباصر والروح السامع والروح الشام.

---

(١) أخرجه النسائي (٤/ ١٠٨)، وابن ماجه (٤٢٧١)، وإسناده صحيح.
(٢) انظر: الروح (ص٣٢٥).
(٣) أخرجه الدارقطني (١/ ٣٧)، والبيهقي (٢/ ٢٥٣).

ويطلق الروح على أخص من هذا كله وهو قوة المعرفة بالله والإنابة إليه ومحبته وانبعاث الهمة إلى طلبه وإرادته، ونسبة هذا الروح إلى الروح كنسبة الروح إلى البدن، فالعلم روح والإحسان روح والمحبة روح والتوكل روح والصدق روح.

والناس متفاوتون في هذه الروح، فمن الناس من تغلب عليه هذه الأرواح فيصير روحانياً، ومنهم من يفقدها أو أكثرها فيصير أرضياً بهيمياً .

وقد وقع في كلام كثير من الناس أن لابن آدم ثلاثة أنفس: مطمئنة ولوامة وأمارة، قالوا: وإن منهم من تغلب عليه هذه، ومنهم من تغلب عليه هذه كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾﴾ [الفجر: ٢٧]، ﴿وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾﴾ [القيامة: ٢] ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يوسف: ٥٣].

والتحقيق أنها نفس واحدة لها صفات، فهي أمارة بالسوء، فإذا عارضها الإيمان صارت لوامة تفعل الذنب ثم تلوم صاحبها، وتلوم بين الفعل والترك، فإذا قوي الإيمان صارت مطمئنة، ولهذا قال النبي ﷺ: (من سرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن)[١] مع قوله: (لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن)[٢] الحديث.

واختلف الناس هل تموت الروح أم لا؟ فقالت طائفة تموت لأنها نفس وكل نفس ذائقة الموت، وقد قال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن: ٢٦ ـ ٢٧]، وقال تعالى: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨] قالوا: وإذا كانت الملائكة تموت فالنفوس البشرية أولى بالموت.

وقال آخرون: لا تموت الأرواح فإنها خلقت للبقاء وإنما تموت الأبدان، قالوا: وقد دل على ذلك الأحاديث الدالة على نعيم الأرواح وعذابها بعد المفارقة إلى أن يرجعها الله في أجسادها.

والصواب أن يقال: موت النفوس هو مفارقتها لأجسادها وخروجها منها، فإن أريد بموتها هذا القدر فهي ذائقة الموت، وإن أريد أنها تعدم وتفنى بالكلية فهي لا تموت بهذا الاعتبار بل هي باقية بعد خلقها في نعيم أو في عذاب كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

(١) أخرجه الترمذي (٢١٦٥)، والحاكم (١/ ١١٤)، وصححه ووافقه الذهبي.
(٢) سبق تخريجه.

وقد أخبر سبحانه أن أهل الجنة: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الدخان: ٥٦]، وتلك الموتة هي مفارقة الروح للجسد، وأما قول أهل النار: ﴿رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ [غافر: ١١]، وقوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨]، فالمراد أنهم كانوا أمواتاً وهم نطف في أصلاب آبائهم وفي أرحام أمهاتهم، ثم أحياهم بعد ذلك، ثم أماتهم ثم يحييهم يوم النشور، وليس في ذلك إماتة أرواحهم قبل يوم القيامة وإلا كانت ثلاث موتات.

وصعق الأرواح عند النفخ في الصور لا يلزم منه موتها، فإن الناس يصعقون يوم القيامة إذا جاء الله لفصل القضاء وأشرقت الأرض بنوره وليس ذلك بموت، وسيأتي ذكر ذلك إن شاء الله تعالى، وكذلك صعق موسى عليه السلام لم يكن موتاً والذي يدل عليه أن نفخة الصعق والله أعلم موت كل من لم يذق الموت قبلها من الخلائق، وأما من ذاق الموت أو لم يكتب عليه الموت من الحور والولدان وغيرهم فلا تدل الآية على أنه يموت موتة ثانية، والله أعلم.



عناصر الموضوع:

١ غرض المصنف من عقد هذا الباب:

عقد المصنف هذا الباب لبيان أن من عقيدة أهل السنّة والجماعة الإيمان بالكرام الكاتبين، وهم الملائكة الذين كلَّفهم الله بكتابة أفعال العباد وأقوالهم من خير وشر وعددهم أربعة، اثنان بالنهار واثنان بالليل، واحد عن اليمين يكتب الحسنات والآخر عن الشمال يكتب السيئات، وكذا من معتقد أهل السنّة والجماعة الإيمان بملك الموت الموكل بقبض أرواح العالمين.

٢ مناسبة هذا الباب لما سبق:

قرّر المصنف فيما سبق أن سبيل أهل السنّة والجماعة اتباع السنّة والجماعة واجتناب الفرقة والخلاف، هذا ومما جاءت به النصوص من الكتاب والسنّة الإيمان بالكرام الكاتبين المكلفين بكتابة أفعال العباد وأقوالهم من خير وشر، وقد جعلهم الله علينا حافظين، والإيمان بملك الموت الموكل بقبض أرواح العالمين.

٣ معاني الكلمات:

الكلمة	المعنى
الموكل	الموظف.
البرزخ	الحاجز الخفي، وهو ما بين شيئين. ومنه قيل للميت: هو في البرزخ؛ لأنه بين الدنيا والآخرة[1].

٤ معنى كلام الطحاوي: «ونؤمن بالكرام الكاتبين، فإن الله قد جعلهم علينا حافظين»:

يؤمن أهل السنّة والجماعة بالملائكة الكرام الكاتبين الذين جعلهم الله تعالى حفظة علينا، يحصون علينا جميع أقوالنا وأفعالنا، ولا يفارقوننا إلّا عند الخلاء

---

(١) انظر: تهذيب اللغة (١/ ٣١٠ ـ ٣١١).

والجماع، وهم المذكورون في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۝١٢﴾ [الانفطار: ١٠ ـ ١٢]. ومنهم رقيب عتيد الذين ذكرهم الله تعالى في قوله: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ۝١٨﴾ [قٓ: ١٨].

٥ التعريف بالملائكة وحكم الإيمان بهم:

الملائكة عالم غير عالم الإنس وعالم الجن، وهو عالم كريم، كله طهر وصفاء ونقاء، وهم كرام أتقياء، يعبدون الله حق العبادة، ويقومون بتنفيذ ما يؤمرون به، ولا يعصون الله أبداً.

والملك: أصله ألك، والمألكة، والمألك: الرسالة، ومنه اشتق الملائك؛ لأنهم رسل الله.

وقيل: اشتق من (ل أ ك) الملائكة: الرسالة، وألكني إلى فلان؛ أي بلغه عني، والملأك: الملك؛ لأنه يبلغ عن الله تعالى.

وقال بعض المحققين: الملك من الملك. قال: والمتولي من الملائكة شيئاً من السياسات يقال له: ملَك، ومن البشر ملِك[1].

والإيمان بالملائكة من أصول الإيمان، لا يصح إيمان عبد ما لم يؤمن بهم، قال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

٦ كيف يكون الإيمان بالملائكة؟:

نقل السيوطي عن البيهقي في كتابه «شعب الإيمان»: «أن الإيمان بالملائكة ينتظم في معانٍ:

أحدها: التصديق بوجودهم.

الثاني: إنزالهم منازلهم، وإثبات أنهم عباد الله وخلقه، كالإنس والجن مأمورون مكلفون، لا يقدرون إلّا على ما أقدرهم الله عليه، والموت عليهم جائز، ولكن الله تعالى جعل لهم أمداً بعيداً، فلا يتوفاهم حتى يبلغوه، ولا يوصفون بشيء يؤدي وصفهم به إلى إشراكهم بالله تعالى، ولا يدعون آلهة كما دعتهم الأوائل.

الثالث: الاعتراف بأن منهم رسلاً يرسلهم إلى من يشاء من البشر، وقد يجوز

---

(١) انظر: بصائر ذوي التمييز (٤/ ٥٢٤).

أن يرسل بعضهم إلى بعض، ويتبع ذلك الاعتراف بأن منهم حملة العرش، ومنهم الصافُّون، ومنهم خزنة الجنة، ومنهم خزنة النار، ومنهم كتبة الأعمال، ومنهم الذين يسوقون الحساب، فقد ورد القرآن بذلك كله أو بأكثره»(١).

٧ أسماء الملائكة الواردة في الكتاب والسنّة:

الملائكة كثر، ولهم أسماء، إلّا أننا لا نعرف من أسماء الملائكة إلّا القليل، وفيما يلي أسماء بعض الملائكة كما وردت في الكتاب والسنّة.

١، ٢ ــ جبريل وميكائيل:

قال تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [البقرة: ٩٧ ـ ٩٨].

٣ ــ إسرافيل:

ومن الملائكة إسرافيل الذي ينفخ في الصور.

وجبريل وميكائيل وإسرافيل هم الذين كان يذكرهم الرسول ﷺ في دعائه عندما يستفتح صلاته من الليل: (**اللهم ربّ جبريل وميكائيل وإسرافيل...**) الحديث.

٤ ــ مالك:

ومنهم مالك خازن النار، قال تعالى: ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [الزخرف: ٧٧].

٥ ــ رضوان:

قال ابن كثير: «وخازن الجنة مَلَك يقال له رضوان، جاء مصرحاً به في بعض الأحاديث»(٢).

٦، ٧ ــ منكر ونكير:

ومن الملائكة الذين سمَّاهم الرسول ﷺ منكر ونكير، وقد استفاض ذكرهما في الأحاديث الصحيحة في سؤال القبر.

٨، ٩ ــ هاروت وماروت:

قال تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ

---

(١) الحبائك في أخبار الملائك للسيوطي (ص١٠).

(٢) البداية والنهاية (١/ ٥٣).

ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْۚ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِي ٱلْآخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [البقرة: ١٠٢].

١٠ ـ ملك الموت:

وقد جاء في بعض الآثار تسمية ملك الموت باسم عزرائيل، ولا وجود لهذا الاسم في القرآن ولا في الأحاديث الصحيحة.

٨ موت الملائكة:

الملائكة يموتون كما يموت الجن والإنس، وقد جاء ذلك صريحاً في قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [الزمر: ٦٨].

فالملائكة تشملهم الآية؛ لأنهم في السماء. يقول ابن كثير عند تفسير هذه الآية: «هذه هي النفخة الثانية، وهي نفخة الصعق، وهي التي يموت بها الأحياء من أهل السماوات والأرض إلّا من شاء الله، كما جاء مصرحاً به في حديث الصُّور المشهور، ثم يقبض أرواح الباقين حتى يكون آخر من يموت ملك الموت، وينفرد الحي القيوم، الذي كان أولاً، وهو الباقي آخراً بالديمومة والبقاء، ويقول: لمن الملك اليوم؟ ثلاث مرات، ثم يجيب نفسه بنفسه فيقول: ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦].

ومما يدل على أنهم يموتون قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥۚ﴾ [القصص: ٨٨].

وهل يموت أحد منهم قبل نفخة الصور؟ هذا ما لم نعلمه، ولا نستطيع الخوض فيه، لعدم وجود النصوص المثبتة له أو النافية.

٩ المراد بالكرام الكاتبين وعددهم:

الكرام الكاتبون: هم صنف من ملائكة الله ﷻ كلّفهم الله سبحانه بكتابة أقوال العباد وأفعالهم ونياتهم، وسموا كاتبين لقيامهم بكتابة تلك الأشياء وسمّوا كراماً لكرامتهم، وليستشعر الإنسان الحياء إذا أراد أن يواقع المعصية أو يسوفه أو يبتذل فهو يستحي من كرام الناس أن يفعل معصية أمامهم، فكيف من يحضر من كرام الملأ الأعلى.

(١٠) حكم الإيمان بالكرام الكاتبين وعددهم:

الإيمان بهم واجب، بل هو ركن من أركان الإيمان، ذلك أن الكرام الكاتبين صنف من أصناف الملائكة، ومن أركان الإيمان: الإيمان بالملائكة بجميع أصنافهم، فدل ذلك على وجوب الإيمان بهم والدليل على وجودهم:

أ ـ من الكتاب:

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الانفطار: ١٠ ـ ١٢]، وكذلك قوله ﷻ: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ [ق: ١٧ ـ ١٨].

وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ [يونس: ٢١].

ب ـ ومن السنّة:

قوله ﷺ: (**يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون في صلاة الصبح وصلاة العصر، فيصعد إليه الذين كانوا فيكم فيسألهم والله أعلم بهم، كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: أتيناهم وهم يصلون وفارقناهم وهم يصلون**). وفي الحديث الآخر: (**إن معكم من لا يفارقكم إلّا عند الخلاء وعند الجماع فاستحيوا منهم وأكرموهم**).

(١١) الأمور التي يكتبها الكرام الكاتبون:

ورد في النصوص أنهم يكتبون الأقوال والأفعال والنيات، أما دليل كتابة الأقوال، فقوله تعالى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ [ق: ١٧ ـ ١٨].

وأما دليل كتابتهم للأعمال قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية: ٢٩]، وقوله تعالى: ﴿كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾. وأما دليل كتابتهم للنيات مفهوم قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الانفطار: ١٢] بنية فعل القلب... ولما ورد أنه ﷺ قال حكاية عن ربه: (**إذا همّ عبدي بحسنة ولم يعملها فاكتبوها حسنة، وإن عملها فاكتبوها عشراً، وإذا همّ بسيئة ولم يعملها فلا تكتبوها، وإن عملها فاكتبوها سيئة** ـ وقد ورد ـ **أنه إذا ترك عمل السيئة كتبت له حسنة**).

(١٢) معنى قوله ﷺ في حق قرينه: (ولكن الله أعانني عليه فأسلم):

روى مسلم بسنده أن رسول الله ﷺ قال: (**ما منكم من أحد إلّا وقد وكل به**

قرينه من الملائكة وقرينه من الجن)، قالوا: وإياك يا رسول الله؟ قال: **(وإياي، لكن الله أعانني عليه فأسلم فلا يأمرني إلّا بخير)**. وقد ورد في قوله: **(فأسلم)** روايتان بالضم: فأسلمُ، وبالفتح: فأسلمَ، وقد قال النووي: هما روايتان مشهورتان. وإن قال الشارح: «ومن رواه بالضم فقد حرّف لفظه». فأما على رواية الرفع فالضمير في الفعل يعود إلى الرسول ﷺ، أي: «فأنا أسلم منه»: والمعنى: «فأسلم من تأثيره ووساوسه».

وأما رواية النصب فقد اختلف في توجيهها، فقيل: المعنى: «فاستسلم وانقاد لي فلا يوسوس لي بشر». وقد رجّحه الشارح.

وقيل: المعنى: أسلم أي دخل في الإسلام. ويدل على ذلك آخر الحديث حيث قال ﷺ: **(فلا يأمرني إلا بخير)**، وقد اعترض الشارح على هذا المعنى بقوله: ومن قال: إن الشيطان صار مؤمناً، فقد حرّف معناه فإن الشيطان لا يكون مؤمناً.

قال أحمد شاكر: وادعاء الشارح هذا تحريف للمعنى نظراً لما يأتي:

أولاً: اللفظ من الحديث: **(قرينه من الجن)** ولم يقل: شيطانه.

ثانياً: إن الجن فيهم المؤمن والكافر، والشياطين هم كفارهم فمن آمن منهم لم يسمّ شيطاناً. . .

(١٣) معنى كلام الطحاوي: «ونؤمن بملك الموت، الموكل بقبض الأرواح»:

يؤمن أهل السنّة والجماعة بملك الموت الذي كلّفه الله ﷻ بقبض أرواح العالمين من الثقلين، كما قال تعالى: ﴿۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾﴾ [السجدة: ١١].

ونسبة التوفي إلى ملك الموت باعتبار أنه هو الذي يباشر قبض الروح بإذن الله تعالى، ولما كان ذلك بإذن الله تعالى وإرادته نسب التوفي إلى الله تعالى أيضاً، إذ هو الفاعل الحقيقي كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الزمر: ٤٢]، ولا تعارض بين الآيتين كما سيأتي بيانه.

ولم يرد لملك الموت اسم محدد في الكتاب والسنّة مما يعتمد عليه، وما ورد في ذلك من تسميته بعزرائيل فلا يصح عن رسول الله ﷺ، وإنما هو كلام أهل الكتاب.

(١٤) حكم الإيمان بملك الموت:

الإيمان بملك الموت واجب لأنه واحد من الملائكة والتصديق بالملائكة ركن من أركان الإيمان، فيجب الإيمان بملك الموت، ومن لم يؤمن به لم يكن مؤمناً بملائكة الله جميعهم.

الدليل على وجوده:

وقد دلّ على وجوده الكتاب والسنّة:

أ ـ فأما الكتاب:

فقد قال تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة: ١١]، فقد أسند الله التوفي إلى ملك الموت.

ب ـ ومن السنّة:

قوله ﷺ: (**إن العبد المؤمن إذا كان في إقبال من الآخرة وانقطاع من الدنيا نزلت ملائكة، كأن وجوههم الشمس ومعهم أكفان من أكفان الجنة وحنوط من الجنة، فيجلسون منه مدّ البصر ثم يجيء ملك الموت فيجلس عند رأسه فيقول: يا أيتها النفس الطيبة، اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان من الله...**) الحديث، فقد أسند الرسول قبض الأرواح إلى ملك الموت والإسناد لا يكون إلّا إلى موجود فدلّ على أن ملك الموت موجود.

(١٥) الجمع بين قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الزمر: ٤٢]، **وقوله تعالى:** ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾﴾ [السجدة: ١١]، **وقوله تعالى:** ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الأنعام: ٦١]:

الجمع بين هذه الإضافات الثلاث:

لا تعارض بين هذه الآيات، وذلك لأن الله أضاف توفي الأنفس له سبحانه؛ لأنه هو الآمر بذلك، فلا تتوفى الأنفس إلّا بأمره وإضافته إلى ملك الموت؛ لأنه هو الذي يتولى قبض الروح واستخراجها، وإضافة التوفي إلى الملائكة؛ لأن ملائكة الرحمة وملائكة العذاب لا يدعون الروح في يد ملك الموت بعد الوفاة

طرفة عين، حتى يجعلوها في الكفن والحنوط المعدين لها من الجنة إذا كان مؤمناً، أو يضعونها في المسوح إذا كان المتوفى كافراً. . . فإضافة التوفي إلى كلٍّ بحَسَبه، ولذلك فلا تعارض بين هذه الآيات.

(١٦) حقيقة الروح التي في البدن ولِما سُميت بهذا الاسم:

واختلف في[١] الروح ما هي؟ فقيل: هي جسم، وقيل: عَرَض، وقيل: لا ندري ما الروح أجوهر أم عرض، وقيل: ليس الروح شيئاً أكثر من اعتدال الطبائع الأربع، وقيل: هي الدم الصافي الخالص من الكدرة والعفونات، وقيل: هي الحرارة الغريزية، وهي الحياة، وقيل: هو جوهر بسيط منبث في العالم كله من الحيوان على جهة الإعمال له والتدبير، وهي على ما وصفت من الانبساط في العالم غير منقسمة الذات والبنية وأنها في كل حيوان العالم بمعنى واحد لا غير.

وهي جسم نوراني علوي خفيف حي متحرك، ينفذ في جوهر الأعضاء ويسري فيها سريان الماء في الورد وسريان الدهن في الزيتون والنار في الفحم، فما دامت هذه الأعضاء صالحة لقبول الآثار الفائضة عليها من هذا الجسم اللطيف بقي ذلك الجسم اللطيف سارياً في هذه الأعضاء وأفادها هذه الآثار من الحس والحركة الإرادة، وإذا فسدت هذه بسبب استيلاء الأخلاط الغليظة عليها وخرجت عن قبول تلك الآثار فارق الروح البدن وانفصل إلى عالم الأرواح.

وسميت الروح بهذا الاسم لأن بها حياة البدن.

(١٧) هل الروح والنفس شيء واحد أم أنهما متغايران؟!:

وأما اختلاف الناس[٢] في مسمى النفس والروح هل هما متغايران أو مسمَّاهما واحد، فالتحقيق أن النفس تطلق على أمور، وكذلك الروح، فيتحد مدلولهما تارة ويختلف تارة.

فالنفس تطلق على الروح، ولكن غالب ما يسمى نفساً إذا كانت متصلة بالبدن، وأما إذا أخذت مجردة فتسمية الروح أغلب عليها.

ويطلق على الدم. ففي الحديث: **(ما لا نفس له سائلة لا ينجس الماء إذا مات فيه)**.

والنفس: العين، يقال: أصابت فلاناً نفس، أي: عين.

---

(١) انظر: كتاب الروح (ص٢٧٢).

(٢) انظر: كتاب الروح (ص٣٢٥).

والنفس: الذات، كقوله تعالى: ﴿فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ [النور: ٦١]، ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩] ونحو ذلك. وأما الروح فلا يطلق على البدن لا بانفراده ولا مع النفس، وتطلق الروح على القرآن وعلى جبرائيل: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]، ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾﴾ [الشعراء: ١٩٣].

ويطلق الروح على الهواء المتردد في بدن الإنسان أيضاً.

وأما ما يؤيد الله به أولياءه فهي روح أخرى كما قال تعالى: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢].

وكذلك القوى التي في البدن فإنها أيضاً تسمى أرواحاً فيقال: الروح الباصر والروح السامع والروح الشام.

ويطلق الروح على أخص من هذا كله وهو قوة المعرفة بالله والإنابة إليه ومحبته وانبعاث الهمة إلى طلبه وإرادته، ونسبة هذا الروح إلى الروح كنسبة الروح إلى البدن، فالعلم روح، والإحسان روح، والمحبة روح، والتوكل روح، والتصدق روح.

والناس متفاوتون في هذه الروح، فمن الناس من تغلب عليه هذه الأرواح فيصير روحانياً، ومنهم من يفقدها أو أكثرها فيصير أرضياً بهيمياً.

وقد وقع في كلام كثير من الناس أن لابن آدم ثلاثة أنفس مطمئنة ولوّامة وأمّارة، قالوا: وإن منهم من تغلب عليه هذه، ومنهم من تغلب عليه هذه كما قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾﴾ [الفجر: ٢٧]، ﴿وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾﴾ [القيامة: ٢]، ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يوسف: ٥٣].

والتحقيق أنها نفس واحدة لها صفات، فهي أمارة بالسوء، فإذا عارضها الإيمان صارت لوّامة تفعل الذنب ثم تلوم صاحبها وتلوم بين الفعل والترك، فإذا قوي الإيمان صارت مطمئنة، ولهذا قال النبي ﷺ: **(من سرَّته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن)** مع قوله: **(لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن)** الحديث.

١٨ مسكن الروح:

قال شيخ الإسلام: «لا اختصاص للروح بشيء من الجسد؛ بل هي سارية في الجسد... فإن الحياة مشروطة بالروح، فإذا كانت الروح في الجسد كان فيه حياة، وإذا فارقته الروح فارقته الحياة».

١٩ الروح مخلوقة:

أجمعت الرسل على أن الروح محدثة مخلوقة مصنوعة مربوبة مدبرة، ومعلوم بالضرورة من دينهم أن العالم محدث ومضى على هذا الصحابة والتابعون حتى نبغت نابغة ممن قصر فهمه في الكتاب والسنّة، فزعم أنها قديمة واحتج بأنها من أمر الله وأمره غير مخلوق وبأن الله أضافها إليه بقوله: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: ٨٥] وبقوله: ﴿وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [الحجر: ٢٩] كما أضاف إليه علمه وقدرته وسمعه وبصره ويده وتوقف آخرون.

واتفق أهل السنّة والجماعة أنها مخلوقة، وممن نقل الإجماع على ذلك محمد بن نصر المروزي وابن قتيبة وغيرهما. ومن الأدلة على أن الروح مخلوقة قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ [الرعد: ١٦]، فهذا عام لا تخصيص فيه بوجه ما ولا يدخل في ذلك صفات الله تعالى فإنها داخلة في مسمى اسمه، فالله تعالى هو الإله الموصوف بصفات الكمال فعلمه وقدرته وحياته وسمعه وبصره وجميع صفاته داخل في مسمى اسمه، فهو سبحانه بذاته وصفاته الخالق وما سواه مخلوق.

ومعلوم قطعاً أن الروح ليست هي الله ولا صفة من صفاته وإنما هي من مصنوعاته، ومنها قوله تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا ١﴾ [الإنسان: ١]، وقوله تعالى لزكريا: ﴿وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ شَيۡـٔٗا﴾ [مريم: ٩]، والإنسان اسم لروحه وجسده، والخطاب لزكريا لروحه وبدنه، والروح توصف بالوفاة والقبض والإمساك والإرسال، وهذا شأن المخلوق المحدث.

وأما احتجاجهم بقوله: ﴿مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾ فليس المراد هنا بالأمر الطلب، بل المراد به المأمور، والمصدر يذكر ويراد به اسم المفعول وهذا معلوم مشهور.

وأما استدلالهم بإضافتها إليه بقوله: ﴿مِن رُّوحِي﴾ فينبغي أن يعلم أن المضاف إلى الله تعالى نوعان: صفات لا تقوم بأنفسها كالعلم والقدرة والكلام والسمع، فهذه إضافة صفة إلى الموصوف بها فعلمه وكلامه وقدرته وحياته صفات له، وكذا وجهه ويده سبحانه.

والثاني: إضافة أعيان منفصلة عنه كالبيت والناقة والعبد والرسول والروح، فهذه إضافة مخلوق إلى خالقه، لكن إضافة تقتضي تخصيصاً وتشريفاً يتميز به المضاف عن غيره.

واختلف في الروح هل هي مخلوقة قبل الجسد أم بعده؟ وقد تقدم عن ذكر الميثاق الإشارة إلى ذلك.

٢٠ هل تموت الروح؟:

واختلف الناس[(١)] هل تموت الروح أم لا؟ فقالت طائفة: تموت لأنها نفس وكل نفس ذائقة الموت. وقد قال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمٰن: ٢٦ ـ ٢٧]. وقال تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨] قالوا: وإذا كانت الملائكة تموت فالنفوس البشرية أولى بالموت.

وقال آخرون: لا تموت الأرواح فإنها خلقت للبقاء وإنما تموت الأبدان، قالوا: وقد دلّ على ذلك الأحاديث الدالة على نعيم الأرواح وعذابها بعد المفارقة إلى أن يرجعها الله في أجسادها.

والصواب أن يقال: موت النفوس هو مفارقتها لأجسادها وخروجها منها، فإن أريد بموتها هذا القدر فهي ذائقة الموت، وإن أريد أنها تعدم وتفنى بالكلية فهي لا تموت بهذا الاعتبار بل هي باقية بعد خلقها في نعيم أو في عذاب كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

وقد أخبر سبحانه أن أهل الجنة: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ﴾ [الدخان: ٥٦]، وتلك الموتة هي مفارقة الروح للجسد. وأما قول أهل النار: ﴿رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾ [غافر: ١١]، وقوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨]، فالمراد أنهم كانوا أمواتاً وهم نطف في أصلاب آبائهم وفي أرحام أمهاتهم ثم أحياهم بعد ذلك، ثم أماتهم ثم يحييهم يوم النشور، وليس في ذلك إماتة أرواحهم قبل يوم القيامة وإلّا كانت ثلاث موتات.

وصعق الأرواح عند النفخ في الصور لا يلزم منها موتها، فإن الناس يصعقون يوم القيامة إذا جاء الله لفصل القضاء وأشرقت الأرض بنوره وليس ذلك بموت وسيأتي ذكر ذلك إن شاء الله تعالى، وكذلك صعق موسى عليه السلام لم يكن موتاً والذي يدل عليه أن نفخة الصعق والله أعلم موت كل من لم يذق الموت قبلها من الخلائق، وأما من ذاق الموت أو لم يكتب عليه الموت من الحور والولدان وغيرهم فلا تدل الآية على أنه يموت موتة ثانية، والله أعلم.

---

(١) انظر: كتاب الروح (ص٧٠).

٢١ مستقر الأرواح:

وقد اختلف في مستقر الأرواح ما بين الموت إلى قيام الساعة، فقيل: أرواح المؤمنين في الجنة وأرواح الكافرين في النار.

وقيل: إن أرواح المؤمنين بفناء الجنة على بابها يأتيهم من رَوحها ونعيمها ورزقها.

وقيل: على أفنية قبورهم. وقال مالك: بلغني أن الروح مرسلة تذهب حيث شاءت.

وقالت طائفة: بل أرواح المؤمنين عند الله ﷻ ولم يزيدوا على ذلك.

وقيل: إن أرواح المؤمنين بالجابية من دمشق، وأرواح الكافرين ببرهوت بئر بحضرموت.

وقال كعب: أرواح المؤمنين في عليين في السماء السابعة، وأرواح الكافرين في سجِّين في الأرض السابعة تحت خدّ إبليس.

وقيل: أرواح المؤمنين ببئر زمزم وأرواح الكافرين ببئر برهوت.

وقيل: أرواح المؤمنين عن يمين آدم وأرواح الكفار عن شماله.

قال ابن حزم وغيره: مستقرها حيث كانت قبل خلق أجسادها.

وقال أبو عمر بن عبد البر: أرواح الشهداء في الجنة وأرواح عامة المؤمنين على أفنية قبورهم.

وعن ابن شهاب أنه قال: بلغني أن أرواح الشهداء كطير خضر معلقة بالعرش تغدو وتروح إلى رياض الجنة تأتي ربها كل يوم تسلم عليه.

وقالت فرقة: مستقرها العدم المحض، وهذا قول من يقول: إن النفس عرض من أعراض البدن كحياته وإدراكه وقولهم مخالف للكتاب والسنّة.

وقالت فرقة: مستقرها بعد الموت أبدان أُخر تناسب أخلاقها وصفاتها التي اكتسبتها في حال حياتها فتصير كل روح إلى بدن حيوان يشاكل تلك الروح، وهذا قول التناسخية منكري المعاد، وهو قول خارج عن أهل الإسلام كلهم، ويضيق هذا المختصر عن بسط أدلة هذه الأقوال والكلام عليها.

ويتلخص من أدلتها أن الأرواح في البرزخ متفاوتة أعظم تفاوت.

فمنها أرواح في أعلى عليين في الملأ الأعلى وهي أرواح الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم وهم متفاوتون في منازلهم.

ومنها: أرواح في حواصل طير خضر تسرح في الجنة حيث شاءت وهي أرواح بعض الشهداء لا كلهم، بل من الشهداء من تحبس روحه عن دخول الجنة لدَين عليه كما في «المسند» عن عبد الله بن جحش: أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله ما لي إن قُتلت في سبيل الله؟ قال: **(الجنة)**، فلما ولى قال: **(إلّا الدَّين سارَّني به جبرائيل آنفاً)**.

ومن الأرواح من يكون محبوساً على باب الجنة كما في الحديث الذي قال فيه رسول الله ﷺ: **(رأيت صاحبكم محبوساً على باب الجنة)**.

ومنهم من يكون محبوساً في قبره، ومنهم من يكون في الأرض، ومنها أرواح تكون في تنور الزناة والزواني، وأرواح في نهر الدم تسبح فيه وتلقم الحجارة. كل ذلك تشهد له السنّة، والله أعلم.

وأما الحياة التي اختص بها الشهيد وامتاز بها عن غيره في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [آل عمران: ١٦٩]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ [البقرة: ١٥٤]، فهي أن الله تعالى جعل أرواحهم في جوف طير خضر كما في حديث عبد الله بن العباس رضي الله عنهما أنه قال: قال رسول الله ﷺ: **(لما أصيب إخوانكم يعني يوم أُحد جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها وتأوي إلى قناديل من ذهب مظلة في ظل العرش)** الحديث. رواه الإمام أحمد وأبو داود وبمعناه في حديث ابن مسعود رواه مسلم.

فإنهم لما بذلوا أبدانهم لله ﷻ حتى أتلفها أعداؤه فيه أعاضهم منها في البرزخ أبداناً خيراً منها تكون فيها إلى يوم القيامة، ويكون تنعمها بواسطة تلك الأبدان أكمل من تنعُّم الأرواح المجردة عنها.

ولهذا كانت نسمة المؤمن في صورة طير أو كطير، ونسمة الشهيد في جوف طير وتأمل لفظ الحديثين، ففي الموطأن أن كعب بن مالك كان يحدث أن رسول الله ﷺ قال: **(إن نسمة المؤمن طائر يعلق في شجر الجنة حتى يرجعه الله إلى جسده يوم يبعثه)**.

فقوله: نسمة المؤمن، تعم الشهيد وغيره، ثم خص الشهيد بأن قال: هي في جوف طير خضر. ومعلوم أنها إذا كانت في جوف طير صدق عليها أنها طير

فتدخل في عموم الحديث الآخر بهذا الاعتبار، فنصيبهم من النعيم في البرزخ أكمل من نصيب غيرهم من الأموات على فرشهم، وإن كان الميت أعلى درجة من كثير منهم فلهم نعيم يختص به لا يشاركه فيه من هو دونه، والله أعلم.

(٢٢) هل مسمى الإنسان هو الروح فقط؟ أم البدن فقط؟ أم مجموعهما؟:

وللناس في مسمى الإنسان هل هو الروح فقط أو البدن فقط أو مجموعهما أو كل منهما، وهذه الأقوال الأربعة لهم في كلامه هل هو اللفظ أو المعنى فقط، أو هما أو كل منهما، فالخلاف بينهم في الناطق ونطقه.

والحق أن الإنسان اسم لهما، وقد يطلق على أحدهما بقرينة وكذا الكلام.

(٢٣) الخلاصة:

١ ـ يؤمن أهل السنّة والجماعة بالملائكة الكرام الكاتبين الذين جعلهم الله تعالى حفظة علينا، يحصون علينا جميع أقوالنا وأفعالنا، ولا يفارقوننا إلّا عند الخلاء والجماع.

٢ ـ الملائكة عالم غير عالم الإنس وعالم الجن، وهو عالم كريم، كله طهر وصفاء ونقاء، وهم كرام أتقياء، يعبدون الله حق العبادة، ويقومون بتنفيذ ما يؤمرون به، ولا يعصون الله أبداً.

٣ ـ الإيمان بالملائكة هو التصديق بوجودهم، وإنزالهم منازلهم، وإثبات أنهم عباد الله وخلقه، والاعتراف بأن منهم رسلاً يرسلهم إلى من يشاء من البشر.

٤ ـ الملائكة كثر، ولهم أسماء، إلّا أننا لا نعرف من أسماء الملائكة إلّا ما ورد في الكتاب والسنّة؛ وهم جبريل وميكائيل، وإسرافيل، ومالك، ورضوان، ومنكر ونكير، وهاروت وماروت، وملك الموت.

٥ ـ الملائكة يموتون كما يموت الجن والإنس، وقد جاء ذلك صريحاً في قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [الزمر: ٦٨].

٦ ـ الكرام الكاتبون: هم صنف من ملائكة الله ﷻ كلفهم الله سبحانه بكتابة أقوال العباد وأفعالهم ونياتهم.

٧ ـ الإيمان بالكرام الكاتبين واجب، بل هو ركن من أركان الإيمان، ذلك أن الكرام الكاتبين صنف من أصناف الملائكة.

٨ ـ يؤمن أهل السنّة والجماعة بملك الموت الذي كلّفه الله ﷻ بقبض أرواح العالمين من الثقلين.

٩ ـ أجمعت الرسل على أن الروح محدثة مخلوقة مصنوعة مربوبة مدبرة، وهذا معلوم بالضرورة من دينهم أن العالم محدث ومضى على هذا الصحابة والتابعون.

(٢٤) المناقشة:

- **س١:** اشرح قول الطحاوي: «ونؤمن بالكرام الكاتبين، فإن الله قد جعلهم علينا حافظين».
- **س٢:** عرّف الملائكة وبيّن حكم الإيمان بهم.
- **س٣:** كيف يكون الإيمان بالملائكة؟
- **س٤:** اذكر بعضاً من أسماء الملائكة الواردة في الكتاب والسنّة.
- **س٥:** هل الملائكة تموت؟
- **س٦:** ما المراد بالكرام الكاتبين وما عددهم؟
- **س٧:** ما حكم الإيمان بالكرام الكاتبين؟
- **س٨:** عدّد الأمور التي يكتبها الكرام الكاتبون.
- **س٩:** بيّن معنى قوله ﷺ في حق قرينه: **(ولكن الله أعانني عليه فأسلم)**.
- **س١٠:** اشرح قول الطحاوي: «ونؤمن بملك الموت، الموكل بقبض الأرواح».
- **س١١:** ما حكم الإيمان بملك الموت؟
- **س١٢:** كيف تجمع بين قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الزمر: ٤٢]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾﴾ [السجدة: ١١]، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الأنعام: ٦١]؟ حيث أضاف الله التوفي إلى نفسه وإلى الملائكة مرة، وإلى ملك الموت مرة؟
- **س١٣:** بيّن حقيقة الروح التي في البدن ولما سُميت بهذا الاسم؟
- **س١٤:** هل الروح والنفس شيء واحد أم أنهما متغايران؟!

- **س١٥:** أين مسكن الروح؟
- **س١٦:** هل الروح مخلوقة؟
- **س١٧:** هل تموت الروح؟
- **س١٨:** أين مستقر الأرواح؟
- **س١٩:** هل مسمى الإنسان هو الروح فقط؟ أم البدن فقط؟ أم مجموعهما؟

عذاب القبر

* كلام ابن أبي العز:

١ ـ غرض المصنف من عقد هذا الباب.

٢ ـ مناسبة هذا الباب لما سبق.

٣ ـ معاني الكلمات.

٤ ـ معنى كلام الطحاوي: «وبعذاب القبر لمن كان له أهلاً وسؤال منكر ونكير في قبره عن ربه ودينه ونبيه، على ما جاءت به الأخبار عن رسول الله ﷺ، وعن الصحابة رضوان الله عليهم. والقبر روضة من رياض الجنة، أو حفرة من حفر النيران».

٥ ـ لماذا أورد الطحاوي هذا المبحث في عقيدته؟

٦ ـ عذاب القبر دلّ عليه الكتاب والسنّة والإجماع.

٧ ـ إنكار المعتزلة لاسم الملكين منكر ونكير.

٨ ـ حكم التصديق بسؤال منكر ونكير للميت.

٩ ـ الأصول الثلاثة التي يسأل عنها الملكان.

١٠ ـ سؤال الملكين عام لكل من يموت من البشر.

١١ ـ هل يمتحن الأطفال في قبورهم؟

١٢ ـ تعريف نعيم القبر وعذابه.

١٣ ـ المستثنون من فتنة القبر.

١٤ ـ عقيدة أهل السنّة والجماعة في عذاب القبر ونعيمه.

١٥ ـ الملاحدة ينكرون عذاب القبر ونعيمه.

١٦ ـ العذاب والنعيم للروح والبدن معاً.

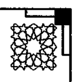
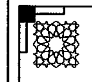
١٧ ـ استمرار عذاب القبر إلى يوم القيامة.

١٨ ـ الحكمة من تغييب عذاب القبر عن الثقلين.

١٩ ـ أجساد الأنبياء والشهداء لا تفنى.

٢٠ ـ الخلاصة.

٢١ ـ المناقشة.

عذاب القبر

قوله: «وبعذاب القبر لمن كان له أهلاً وسؤال منكر ونكير في قبره عن ربه ودينه ونبيه على ما جاءت به الأخبار عن رسول الله ﷺ وعن الصحابة رضوان الله عليهم، والقبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النيران».

قال تعالى: ﴿وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ [غافر: ٤٥ ـ ٤٦].

وقال تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الطور: ٤٥ ـ ٤٧]. وهذا يحتمل أن يراد به عذابهم بالقتل وغيره في الدنيا وإن يراد به عذابهم في البرزخ وهو أظهر لأن كثيراً منهم مات ولم يعذب في الدنيا أو المراد أعم من ذلك.

وعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: «كنا في جنازة في بقيع الغرقد فأتانا النبي ﷺ فقعد وقعدنا حوله كأن على رؤوسنا الطير وهو يلحد له فقال: أعوذ بالله من عذاب القبر ـ ثلاث مرات ـ ثم قال: إن العبد المؤمن إذا كان في إقبال من الآخرة وانقطاع من الدنيا نزلت إليه الملائكة كأن على وجوههم الشمس معهم كفن من أكفان الجنة وحنوط من حنوط الجنة فجلسوا منه مد البصر ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول: يا أيتها النفس الطيبة اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان قال: فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من في السقاء فيأخذها فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن وذلك الحنوط ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض، قال: فيصعدون بها فلا يمرون بها يعني على ملأ من الملائكة إلا قالوا ما هذه الروح الطيبة فيقولون فلان ابن فلان بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا حتى ينتهوا بها إلى السماء فيستفتحون له فيفتح له فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها حتى

ينتهي بها إلى السماء التي فيها الله فيقول الله ﷻ: اكتبوا كتاب عبدي في عليين وأعيدوه إلى الأرض فإني منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى.

قال: فتعاد روحه في جسده فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول: ربي الله، فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام، فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هو رسول الله، فيقولان له: ما علمك؟ فيقول: قرأت كتاب الله فآمنت به وصدقت فينادي مناد من السماء أن صدق عبدي فافرشوه من الجنة وافتحوا له باباً إلى الجنة، قال: فيأتيه من روحها وطيبها ويفسح له في قبره مد بصره، قال: ويأتيه رجل حسن الوجه حسن الثياب طيب الريح، فيقول: أبشر بالذي يسرك هذا يومك الذي كنت توعد، فيقول له: من أنت فوجهك الوجه الذي يجيء بالخير، فيقول: أنا عملك الصالح، فيقول: يا رب أقم الساعة حتى أرجع إلى أهلي ومالي.

قال: وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه من السماء ملائكة سود الوجوه معهم المسوح فيجلسون منه مد البصر ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الخبيثة اخرجي إلى سخط من الله وغضب، قال: تتفرق في جسده فينتزعها كما ينتزع السفود من الصوف المبلول فيأخذها فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يجعلوها في تلك المسوح ويخرج منها كأنتن ريح خبيثة وجدت على وجه الأرض فيصعدون بها فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الخبيث فيقولون: فلان ابن فلان بأقبح أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا حتى ينتهي بها إلى السماء الدنيا فيستفتح له فلا يفتح له، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠] فيقول الله ﷻ: اكتبوا كتابه في سجين في الأرض السفلى. فتطرح روحه طرحاً ثم قرأ: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١].

فتعاد روحه في جسده ويأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول: هاه هاه لا أدري، فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هاه هاه لا أدري، فينادي مناد من السماء أن كذب فافرشوه من النار وافتحوا له باباً إلى النار، فيأتيه من حرها وسمومها ويضيق عليه قبره حتى تختلف أضلاعه، ويأتيه رجل قبيح الوجه قبيح الثياب منتن الريح، فيقول: أبشر بالذي يسوؤك هذا يومك الذي كنت

توعد، فيقول: من أنت فوجهك الوجه الذي يجيء بالشر، فيقول أنا عملك الخبيث فيقول رب لا تقم الساعة»[(١)].

رواه الإمام أحمد وأبو داود وروى النسائي وابن ماجه أوله ورواه الحاكم أبو عوانة الإسفرائيني في صحيحهما وابن حبان.

وذهب إلى موجب هذا الحديث جميع أهل السنة والحديث وله شواهد من الصحيح، فذكر البخاري رحمه الله عن سعيد عن قتادة عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: (إن العبد إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه إنه ليسمع قرع نعالهم فيأتيه ملكان فيقعدانه، فيقولان له: ما كنت تقول في هذا الرجل محمّد فأما المؤمن، فيقول: أشهد أنه عبد الله ورسوله، فيقول له: انظر إلى مقعدك من النار أبدلك الله به مقعداً من الجنة فيراهما جميعاً)[(٢)].

قال قتادة: وروي لنا أنه يفسح له في قبره، وذكر الحديث.

وفي الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ مر بقبرين فقال: (إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير، أما أحدهما فكان لا يستبرئ من البول، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة، فدعا بجريدة رطبة فشقها نصفين، وقال: لعله يخفف عنهما ما لم ييبسا)[(٣)].

وفي صحيح أبي حاتم عن أبي هريرة قال: قال النبي ﷺ: (إذا قبر أحدكم أو الإنسان أتاه ملكان أسودان أزرقان يقال لأحدهما: المنكر، وللآخر: النكير)[(٤)]، وذكر الحديث... إلخ.

وقد تواترت الأخبار عن رسول الله ﷺ في ثبوت عذاب القبر ونعيمه لمن كان لذلك أهلاً وسؤال الملكين فيجب اعتقاد ثبوت ذلك والإيمان به ولا نتكلم في كيفيته إذ ليس للعقل وقوف على كيفيته لكونه لا عهد له به في هذه الدار والشرع لا يأتي بما تحيله العقول، ولكنه قد يأتي بما تحار فيه العقول، فإن عود الروح إلى الجسد ليس على الوجه المعهود في الدنيا بل تعاد الروح إليه إعادة غير الإعادة المألوفة في الدنيا.

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٢٨٧، ٢٩٥ ـ ٢٩٦)، وأبو داود (٤٧٥٣)، والحاكم (١/ ٣٧ ـ ٤٠).

(٢) أخرجه البخاري (١٣٣٨)، ومسلم (٢٨٧٠).

(٣) أخرجه البخاري (٢١٦)، ومسلم (٢٩٢).

(٤) صحيح ابن حبان (٧٨٠).

فالروح لها بالبدن خمسة أنواع من التعلق متغايرة الأحكام:

أحدها: تعلقها به في بطن الأم جنيناً.

الثاني: تعلقها به بعد خروجه إلى وجه الأرض.

الثالث: تعلقها به في حال النوم فلها به تعلق من وجه ومفارقة من وجه.

الرابع: تعلقها به في البرزخ فإنها وإن فارقته وتجردت عنه فإنها لم تفارقه فراقاً كلياً بحيث لا يبقى لها إليه التفات البتة، فإنه ورد ردها إليه وقت سلام المسلم وورد أنه يسمع خفق نعالهم حين يولون عنه، وهذا الرد إعادة خاصة لا يوجب حياة البدن قبل يوم القيامة.

الخامس: تعلقها به يوم بعث الأجساد وهو أكمل أنواع تعلقها بالبدن ولا نسبة لما قبله من أنواع التعلق إليه، إذ هو تعلق لا يقبل البدن معه موتاً ولا نوماً ولا فساداً، فالنوم أخو الموت، فتأمل هذا يزح عنك إشكالات كثيرة.

وليس السؤال في القبر للروح وحدها كما قال ابن حزم وغيره، وأفسد منه قول من قال: إنه للبدن بلا روح، والأحاديث الصحيحة ترد القولين.

وكذلك عذاب القبر يكون للنفس والبدن جميعاً باتفاق أهل السنة والجماعة تنعم النفس وتعذب مفردة عن البدن ومتصلة به.

واعلم أن عذاب القبر هو عذاب البرزخ، فكل من مات وهو مستحق للعذاب ناله نصيبه منه قبر أو لم يقبر، أكلته السباع أو احترق حتى صار رماداً ونسف في الهواء، أو صلب، أو غرق في البحر، وصل إلى روحه وبدنه من العذاب ما يصل إلى المقبور.

وما ورد من إجلاسه واختلاف أضلاعه ونحو ذلك فيجب أن يفهم عن الرسول ﷺ مراده من غير غلو ولا تقصير، فلا يحمل كلامه ما لا يحتمله، ولا يقصر به عن مراده وما قصده من الهدى والبيان، فكم حصل بإهمال ذلك والعدول عنه من الضلال والعدول عن الصواب ما لا يعلمه إلا الله، بل سوء الفهم عن الله ورسوله أصل كل بدعة وضلالة نشأت في الإسلام، وفي أصل كل خطأ في الفروع والأصول ولا سيما إن أضيف إليه سوء القصد والله المستعان.

فالحاصل أن الدور ثلاث[١]: دار الدنيا، ودار البرزخ، ودار القرار، وقد

---

(١) الروح (ص١١٤).

جعل الله لكل دار أحكاماً تخصها وركب هذا الإنسان من بدن ونفس وجعل أحكام الدنيا على الأبدان، والأرواح تبع لها، وجعل أحكام البرزخ على الأرواح، والأبدان تبع لها، فإذا جاء يوم حشر الأجساد وقيام الناس من قبورهم صار الحكم والنعيم والعذاب على الأرواح والأجساد جميعاً، فإذا تأملت هذا المعنى حق التأمل ظهر لك أن كون القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار مطابق للعقل وأنه حق لا مرية فيه، وبذلك يتميز المؤمنون بالغيب من غيرهم.

ويجب أن يعلم أن النار التي في القبر والنعيم ليس من جنس نار الدنيا ولا نعيمها، وإن كان الله تعالى يحمي عليه التراب والحجارة التي فوقه وتحته حتى يكون أعظم حراً من جمر الدنيا ولو مسها أهل الدنيا لم يحسوا بها، بل أعجب من هذا أن الرجلين يدفن أحدهما إلى جنب صاحبه وهذا في حفرة من النار وهذا في روضة من رياض الجنة لا يصل من هذا إلى جاره شيء من حر ناره ولا من هذا إلى جاره شيء من نعيمه، وقدرة الله أوسع من ذلك وأعجب، ولكن النفوس مولعة بالتكذيب بما لم تحط به علماً، وقد أرانا الله في هذه الدار من عجائب قدرته ما هو أبلغ من هذا بكثير وإذا شاء الله أن يطلع على ذلك بعض عباده أطلعه وغيَّبه عن غيره، ولو أطلع الله على ذلك العباد كلهم لزالت حكمة التكليف والإيمان بالغيب ولما تدافن الناس كما في الصحيح عنه ﷺ: (لولا أن لا تدافنوا لدعوت الله أن يسمعكم من عذاب القبر ما أسمع)[1]. ولما كانت هذه الحكمة منتفية في حق البهائم سمعته وأدركته.

وللناس في سؤال منكر ونكير[2] هل هو خاص بهذه الأمة أم لا ثلاثة أقوال، الثالث: التوقف وهو قول جماعة منهم أبو عمر بن عبد البر فقال: وفي حديث زيد بن ثابت عن النبي ﷺ قال: (إن هذه الأمة تبتلى في قبورها) منهم من يرويه تسأل، وعلى هذا اللفظ يحتمل أن تكون هذه الأمة قد خصت بذلك وهذا أمر لا يقطع به ويظهر عدم الاختصاص، والله اعلم.

وكذلك اختلف في سؤال الأطفال أيضاً.

وهل يدوم عذاب القبر أو ينقطع؟ جوابه أنه نوعان: منه ما هو دائم كما قال

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٦٧).

(٢) الروح (ص١٤٧).

تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ [غافر: ٤٦]. وكذلك في حديث البراء بن عازب في قصة الكافر ثم يفتح له باب إلى النار فينظر إلى مقعده فيها حتى تقوم الساعة. رواه الإمام أحمد في بعض طرقه.

والنوع الثاني: أنه مدة ثم ينقطع وهو عذاب بعض العصاة الذين خفت جرائمهم فيعذب بحسب جرمه ثم يخفف عنه كما تقدم ذكره في الممحِّصات العشرة.

وقد اختلف في مستقر الأرواح[1] ما بين الموت إلى قيام الساعة فقيل: أرواح المؤمنين في الجنة وأرواح الكافرين في النار.

وقيل إن أرواح المؤمنين بفناء الجنة على بابها يأتيهم من رَوحها ونعيمها ورزقها.

وقيل: على أفنية قبورهم، وقال مالك: بلغني أن الروح مرسلة تذهب حيث شاءت.

وقالت طائفة: بل أرواح المؤمنين عند الله ﷻ ولم يزيدوا على ذلك.

وقيل: إن أرواح المؤمنين بالجابية من دمشق وأرواح الكافرين ببرهوت بئر بحضرموت.

وقال كعب: أرواح المؤمنين في عليين في السماء السابعة وأرواح الكافرين في سجين في الأرض السابعة تحت خد إبليس.

وقيل: أرواح المؤمنين ببئر زمزم وأرواح الكافرين ببئر برهوت[2].

وقيل: أرواح المؤمنين عن يمين آدم وأرواح الكفار عن شماله.

قال ابن حزم[3] وغيره: مستقرها حيث كانت قبل خلق أجسادها.

وقال أبو عمر[4] بن عبد البر: أرواح الشهداء في الجنة وأرواح عامة المؤمنين على أفنية قبورهم.

---

(١) انظر: الروح (ص١٥٤)، وأهوال القبور لابن رجب (ص١٠٢).

(٢) بَرَهُوت: قال ابن الأثير في النهاية (١/ ١٢٢)، بئر عميقة بحضرموت لا يستطاع النزول إلى قعرها.

(٣) الفصل (٤/ ١٢٢).

(٤) التمهيد (٦/ ٣٣٦).

وعن ابن شهاب أنه قال: بلغني أن أرواح الشهداء كطير خضر معلقة بالعرش تغدو وتروح إلى رياض الجنة تأتي ربها كل يوم تسلم عليه.

وقالت فرقة: مستقرها العدم المحض وهذا قول من يقول: إن النفس عرض من أعراض البدن كحياته وإدراكه وقولهم مخالف للكتاب والسنّة.

وقالت فرقة: مستقرها بعد الموت أبدان أخر تناسب أخلاقها وصفاتها التي اكتسبتها في حال حياتها فتصير كل روح إلى بدن حيوان يشاكل تلك الروح، وهذا قول التناسخية[١] منكري المعاد وهو قول خارج عن أهل الإسلام كلهم ويضيق هذا المختصر عن بسط أدلة هذه الأقوال والكلام عليها.

ويتلخص من أدلتها أن الأرواح في البرزخ متفاوتة أعظم تفاوت.

فمنها: أرواح في أعلى عليين في الملأ الأعلى، وهي أرواح الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه وهم متفاوتون في منازلهم.

ومنها: أرواح في حواصل[٢] طير خضر تسرح في الجنة حيث شاءت وهي أرواح بعض الشهداء لا كلهم بل من الشهداء من تحبس روحه عن دخول الجنة لدَين عليه كما في المسند عن عبد الله بن جحش: «أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله ما لي إن قتلت في سبيل الله؟ قال: (الجنة) فلما ولى قال: (إلا الدَّين سارَّني به جبرائيل آنفاً)»[٣].

ومن الأرواح من يكون محبوساً على باب الجنة كما في الحديث الذي قال فيه رسول الله ﷺ: (رأيت صاحبكم محبوساً على باب الجنة)[٤].

ومنهم من يكون محبوساً في قبره، ومنهم من يكون في الأرض، ومنها أرواح تكون في تنور الزناة والزواني وأرواح في نهر الدم تسبح فيه وتلقم الحجارة كل ذلك تشهد له السنّة، والله اعلم.

وأما الحياة التي اختص بها الشهيد وامتاز بها عن غيره في قوله تعالى: ﴿وَلَا

---

(١) قال الجرجاني في التعريفات (ص٦٨): التناسخ عبارة عن تعلق الروح بالبدن بعد المفارقة من بدن آخر من غير تخلل زمان بين التعلقين للتعشق الذاتي بين الروح والجسد.

(٢) الحوصلة من الطير: كالمعدة للإنسان.

(٣) أخرجه أحمد (٤/ ٣٥٠)، والنسائي (٧/ ٣١٤).

(٤) أخرجه أحمد (٤/ ١٣٦)، وابن ماجه (٢٤٣٣)، وصحح إسناده البوصيري في الزوائد.

تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [آل عمران: ١٦٩]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ [البقرة: ١٥٤]، فهي أن الله تعالى جعل أرواحهم في أجواف طير خضر كما في حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أنه قال: قال رسول الله ﷺ: (لما أصيب إخوانكم يعني يوم أحد جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها وتأوي إلى قناديل من ذهب مظلة في ظل العرش)[1] الحديث رواه الإمام أحمد وأبو داود، وبمعناه في حديث ابن مسعود رواه مسلم.

فإنهم لما بذلوا أبدانهم لله عز وجل حتى أتلفها أعداؤه فيه أعاضهم منها في البرزخ أبداناً خيراً منها تكون فيها إلى يوم القيامة، ويكون تنعمها بواسطة تلك الأبدان أكمل من تنعم الأرواح المجردة عنها.

ولهذا كانت نسمة المؤمن في صورة طير أو كطير ونسمة الشهيد في جوف طير، وتأمل لفظ الحديثين. ففي الموطأ: أن كعب بن مالك كان يحدث أن رسول الله ﷺ قال: (إن نسمة المؤمن طائر يعلق في شجر الجنة حتى يرجعه الله إلى جسده يوم يبعثه)[2].

فقوله: «نسمة المؤمن» تعم الشهيد وغيره، ثم خص الشهيد بأن قال: هي في جوف طير خضر، ومعلوم أنها إذا كانت في جوف طير صدق عليها أنها طير فتدخل في عموم الحديث الآخر بهذا الاعتبار، فنصيبهم من النعيم في البرزخ أكمل من نصيب غيرهم من الأموات على فرشهم، وإن كان الميت أعلى درجة من كثير منهم فلهم نعيم يختص به لا يشاركه فيه من هو دونه، والله اعلم.

وحرَّم الله على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء كما روي في السنن، وأما الشهداء فقد شوهد منهم بعد مدد من دفنه كما هو لم يتغير فيحتمل بقاؤه كذلك في تربته إلى يوم محشره، ويحتمل أنه يبلى مع طول المدة والله اعلم، وكأنه والله اعلم كلما كانت الشهادة أكمل والشهيد أفضل كان بقاء جسده أطول.

---

(١) أخرجه مسلم (١٨٨٧)، من حديث ابن مسعود.

(٢) سبق تخريجه.



عناصر الموضوع:

١ غرض المصنف من عقد هذا الباب:

عقد المصنف هذا الباب لبيان أن من عقيدة أهل السنة والجماعة الإيمان بعذاب القبر وأنه عذاب حقيقي يقع على الكفار والمنافقين، وعلى من شاء الله من فسقة المسلمين. وللرد على من أنكره من أهل البدع والأهواء.

٢ مناسبة هذا الباب لما سبق:

قرر المصنف فيما سبق أن سبيل أهل السنة والجماعة اتباع السنة والجماعة واجتناب الفرقة والخلاف، هذا ومما جاءت به النصوص من الكتاب والسنة الإيمان بالغيبيات، ومن جملة المغيبات عذاب القبر الثابت بالنصوص الشرعية، وسؤال الملكين منكر ونكير.

٣ معاني الكلمات:

الكلمة	المعنى
الموكل	الموظف.
البرزخ	الحاجز الخفي، وهو ما بين شيئين. ومنه قيل للميت: هو في البرزخ؛ لأنه بين الدنيا والآخرة(١).

٤ معنى كلام الطحاوي: «وبعذاب القبر لمن كان له أهلاً وسؤال منكر ونكير في قبره عن ربه ودينه ونبيه، على ما جاءت به الأخبار عن رسول الله ﷺ، وعن الصحابة رضوان الله عليهم. والقبر روضة من رياض الجنة، أو حفرة من حفر النيران»:

ويؤمن أهل السنة والجماعة بأن في القبر عذاباً حقيقياً يقع على الكفار

(١) انظر: تهذيب اللغة (١/ ٣١٠ ـ ٣١١).

والمنافقين، وعلى من شاء الله من فسقة المسلمين. وليس المراد من القبر هذه الحفرة في الأرض، بل المراد عالم البرزخ، فالمسيء يعذب في البرزخ سواء كان في الحفرة في باطن الأرض أو في البحر في باطن الحيتان أو في حواصل الطير أو في بطون السباع وغيرها. ويؤمنون بأن ذلك جزاء عادل لهم وأنهم يستحقون ذلك.

ويؤمنون بأن منكراً ونكيراً هما ملكان غليظان يباشران سؤال كل إنسان في قبره عن ربه ودينه ونبيه، وكل هذه الأخبار ثبتت عن رسول الله ﷺ بطريق التواتر فوجب اعتقاد ما دلت عليه.

والقبر إما روضة من رياض الجنة، وذلك على المؤمن الصالح الذي يثبته الله ويجيب على أسئلة الملائكة، وإما حفرة من حفر النار على الكافر والمنافق ومن أراد الله من ظلمة المسلمين وفسَّاقهم، ولم يصح ذلك اللفظ: «القبر إما روضة من رياض الجنة، وإما حفرة من حفر النيران» لم يصح عن رسول الله ﷺ، ولكنه مضمون الأحاديث المتواترة عن رسول الله ﷺ في شأن القبر.

(٥) لماذا أورد الطحاوي هذا المبحث في عقيدته؟:

أورد المؤلف هذا المبحث للرد على المعتزلة الجهمية والفلاسفة وغلاة الرافضة الذين ينكرون عذاب القبر.

(٦) عذاب القبر دل عليه الكتاب والسنة والإجماع:

دل على عذاب القبر الكتاب والسنة والإجماع:

أما الكتاب:

فقوله تعالى: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ [غافر: ٤٥ ـ ٤٦].

وقوله تعالى: ﴿ٱلظَّـٰلِمِينَ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

وقوله تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾﴾ [السجدة: ٢١].

أما السنّة:

فقوله ﷺ: **(استعيذوا بالله من عذاب القبر ثلاثاً).**

وقوله ﷺ: **(اللهم إنا نعوذ بك من عذاب جهنم وعذاب القبر...).**

وقوله ﷺ لما مر على قبرين: (**إنهما ليعذبان...**).

وأجمع السلف على إثبات عذاب القبر نقل ذلك شيخ الإسلام...

٧ إنكار المعتزلة لاسم الملكين منكر ونكير:

منكر ونكير: اسمان لملكين من ملائكة الله ﷻ ويسألان الميت عن بعض المعتقدات، وقد ورد تسميتهما بهذين الاسمين في الحديث الذي رواه أبو هريرة عنه ﷺ قال: (**إذا قبر الإنسان أتاه ملكان أسودان أزرقان يقال لأحدهما: المنكر وللآخر: النكير**).

وأنكر بعض المعتزلة ذلك فقالوا: لا يجوز تسمية ملائكة الله بذلك، وإنما المنكر ما يبدو من تلججه عند السؤال، والنكير هو تقريع الملكين له.

ولا عبرة بما ذكروه بعد ورود النص بذلك.

٨ حكم التصديق بسؤال منكر ونكير للميت:

التصديق بسؤالهما واجبٌ شرعاً.. وذلك ورد الشرع به في الكتاب والسنة..

أما الكتاب:

فقوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾﴾ [إبراهيم: ٢٧].

فقد أخرج الشيخان عنه ﷺ قال: (**نزلت في عذاب القبر**)، زاد مسلم: (**فيسأل من ربك: فيقول ربي الله ونبي محمد ﷺ**)، فذلك قوله: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾.

أما من السنة:

فحديث أبي هريرة المتقدم: «**إذا قبر الإنسان...**»، وكذلك ما روي عن البراء بن عازب في حديث جنازة بقيع الغرقد الطويل أن الملكين يسألان العبد المؤمن والعبد الكافر أيضاً.

فيجب التصديق بذلك لوروده في القرآن والسنة.

أما من لم يصدق بهذه الأمور، فهل يكون كافراً؟.

فيه قولان للعلماء أصحهما أنه لا يكفر؛ لأنه لا يمكن التكفير بإنكار حكم إلا إذا كان دليله قطعي الثبوت والدلالة معاً.

٩ الأصول الثلاثة التي يسأل عنها الملكان:

ورد أن الملكين يسألان الميت عن ربه ودينه ونبيه، وقد دل على ذلك ما رواه

البراء رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال في العبد المؤمن: (**فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول: ربي الله، فيقولان: وما دينك؟ فيقول ديني الإسلام، فيقولان: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هو عبد الله ورسوله، فيقولان: ما عملك؟ فيقول: قرأت كتاب الله وعملت به وصدقت به. فينادي مناد من السماء: صدق عبدي فافرشوا له من الجنة.**

ويأتيان العبد الكافر فيقولان له: من ربك؟ وما دينك؟ ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول في كل: هاه هاه لا أدري، فينادي مناد من السماء: أن كذب فافرشوه من النار وافتحوا له باباً من النار).

(١٠) سؤال الملكين عام لكل من يموت من البشر:

اختلف في هذه المسألة على آراء ثلاثة:

أ ـ فقيل إن سؤالهما خاص بهذه الأمة.

ب ـ وقيل بل هو عام يشمل هذه الأمة وغيرها من الأمم.

ج ـ وقيل بالتوقف.

أدلة كل طائفة:

أ ـ استدل القائلون بأن سؤالهما خاص بهذه الأمة بما يأتي:

١ ـ قوله ﷺ: (**إن هذه الأمة تبتلى في قبورها**)، وفي رواية: تُسئل، ومفهومه أن غيرها من الأمم لا يبتلى في قبره ولا يسئل فيه.

٢ ـ ما روي عنه ﷺ أنه قال: (**أوحي إلي أنكم تفتنون في قبوركم**)، قالوا: والخطاب منه ﷺ، فدل ذلك على أنه خاص بهم.

ب ـ وقد استدل من قال السؤال هو عام يشمل هذه الأمة وغيرها من الأمم بما يأتي:

١ ـ عموم قوله ﷻ: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْآخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧]. فهو لفظ عام يشمل أمة محمد وغيرها من الأمم.

٢ ـ عموم قوله ﷺ: (**إن العبد المؤمن: ... وإن العبد الكافر...**).

وأما القائلون بالتوقف: فتوقفوا لعدم وجود دليل صحيح في هذه المسألة التي لا تعرف إلا عن طريق الشرع.

الرأي المختار:

إن سؤال الملكين عام يشمل أمة محمد ﷺ وغيرها من الأمم لعموم الآية

والأثر.. أما استدلال القائلين بأنه خاص بالحديثين، فهو استدلالٌ بمفهوم المخالفة ومفهوم المخالفة لا يقوى على تخصيص العموم...

١١ هل يمتحن الأطفال في قبورهم؟

اختلف في هذه المسألة على قولين:

١ ـ إنهم يُسئلون، وحجة من قال بذلك أنه يشرع الصلاة عليهم، وسؤال الله أن يقيهم عذاب القبر وفتنة القبر.

٢ ـ إنهم لا يسئلون؛ لأن السؤال لمن عقل الرسول والمرسل. وأما الطفل الذي لا تمييز له فكيف يسئل؟[(١)].

١٢ تعريف نعيم القبر وعذابه:

هم اسم لنعيم البرزخ وعذابه، وهو نتيجة لفتنة القبر، فنعيم القبر للمؤمنين الصادقين وعذابه للكافرين والمنافقين.

١٣ المستثنون من فتنة القبر:

ورد بعض الآثار التي تدل على أن هناك أشخاصاً لا يسئلون في القبر ولا يأتيهم الملكان منكر ونكير، ومن أولئك ما يأتي:

١ ـ الشهداء، فقد روي أن رجلاً قال: يا رسول الله، ما بال المؤمنين يفتنون في قبورهم إلا الشهيد، فقال ﷺ: **(كفى ببارقة السيوف على رأسه فتنة)**. فإجابته تدل على التقرير.

٢ ـ من مات يوم الجمعة أو ليلتها وهو من المسلمين، وقد روي أنه لا يفتن في قبره، ولعل ذلك لفضل يوم الجمعة، قال ﷺ: **(ما من مسلم يموت يوم الجمعة أو ليلتها إلا وقاه الله من فتنة القبر)**.

٣ ـ من قرأ قل هو الله أحد في مرضه الذي مات فيه، فقد ورد أنه يسلم منه.

٤ ـ من داوم على قراءة سورة تبارك كل ليلة.

٥ ـ الأنبياء على رأي بعضهم، وقال آخرون: أنهم يُسئلون، وهما وجهان في المذهب.

٦ ـ الأطفال على رأي، لأنهم غير مكلفين. وقد قال بعضهم: أنهم يُسئلون.

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٤/٢٥٧، ٢٧٧ ـ ٢٨١)، كتاب الروح (ص١٤٩ ـ ١٥١).

١٤ عقيدة أهل السنة والجماعة في عذاب القبر ونعيمه:

من أصول أهل السنّة والجماعة: وجوب الإيمان والتصديق بهما دون تعرض لكيفية ذلك؛ لأن الكيفية أمر لا يتلقى إلا من كلام الشرع، وليس في كلامه ما يدل على الكيفية.

الأدلة:

وقد دل على ثبوتها عدة أدلة من الكتاب والسنة:

أ ـ من الكتاب ما يأتي:

١ ـ قوله تعالى في آل فرعون: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ [غافر: ٤٦].

فإن عرضهم على النار في هذه الآية: هو في الحياة البرزخية بدليل (يوم تقوم الساعة).

٢ ـ قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الطور: ٤٧]، يقول الشارح: وهذا يحتمل أن يراد به عذابهم بالقتل وغيره في الدنيا، وأن يراد به عذابهم في البرزخ، وهو أظهر؛ لأن كثيراً منهم مات ولم يعذب في الدنيا، أو المراد أعم من ذلك.

روى البراء في قوله: (إن للذين...) قال: هو عذاب القبر...

٣ ـ قوله ﷻ: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾ [طه: ١٢٤]، روي عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: العيشة الضنك: عذاب القبر.

ب ـ وأما من السنّة فآثار عدة منها:

ما روي عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: «كنا في جنازة في بقيع الغرقد فأتانا النبي ﷺ...» الحديث، وفيه: (**إن العبد المؤمن يأتيه من رَوح الجنة وطيبها ويفسح له في قبره مد بصره، وأن العبد الكافر يأتيه من حر النار وسمومها ويضيق عليه القبر حتى تختلف أضلاعه**)، فدل الحديث على عذاب القبر من ناحيتين:

أولاهما: استعاذة النبي ﷺ من عذاب القبر، ولا يستعاذ إلا من شيء موجود وذلك حين قال في قصة بقيع الغرقد: (**أعوذ بالله من عذاب القبر**) ثلاث مرات.

الثانية: إخباره ﷺ بتنعم المؤمن وتأذي الكافر في القبر.

(١٥) الملاحدة ينكرون عذاب القبر ونعيمه:

أنكر الملاحدة والزنادقة عذاب القبر، وشبهتهم في ذلك: أن عذاب القبر ونعيمه من الأمور التي لا تحس، وما لا يحس فليس بموجود حيث قالوا: إنا نكشف القبر عن الميت فلا نجد ملائكة تسأل فقالوا: لو وضعنا في يمين الميت الزئبق، وعلى صدره الخردلة، ثم كشفنا عنه، لوجدناها على حالتها تلك. ولو كان الأمر كما ذكرتم لوجدنا أن الزئبق انتثر وأن الخردلة قد سقطت، وقالوا: إنا نحن نحفر القبر، ثم نكشفه بعد وضع الميت فيه فنجده على حالته لم يتغير.

ولو كان الأمر ما ذكرتم من النعيم والعذاب صحيحاً لشوهد...

وخلاصة دليلهم: إن عذاب القبر لا يحس.

الرد عليهم:

إن هذه الشبهة فاسدة باطلة؛ لما فيها من قياس أحوال الحياة البرزخية على أصول الحياة في الدنيا، وذلك غير صحيح وغير مستقيم، لأن الله ﷻ قد جعل الدور ثلاثاً: دار الدنيا ودار البرزخ ودار القرار.

وجعل الإنسان مكوناً من نفس وبدن، وجعل الأحكام في الدنيا متعلقة بالبدن والروح.

وفي الحياة البرزخية جعل الأحكام متعلقة بالروح والبدن تبع لها.

أما في الحياة الأخرى فإن الأحكام متعلقة بالروح والبدن، ثم إن عدم إحساسنا بالأشياء لا يدل على عدم وجودها، فإننا لا نحس بالروح التي بها حياتنا لا يدل على عدم وجودها، وكذلك الإنسان لا يرى بعينه المجردة ولا يحس بيده الجراثيم المسببة للأمراض، وعدم رؤيتنا لها وإحساسنا بها لا يدل على عدم وجودها، وكذلك فإن الله قد ضرب الأمثال، وجعل لنا في هذه الحياة الدنيا مثلاً لمن تدبره وتفكر فيه رأى أن عذاب القبر لا يحيله العقل، فالنائم يكون بين مجموعة من الناس يرى الرؤيا فيسر بها ويتلذذ بها ويرى الأخرى فيحزن لها ويتألم، والناس من حوله لا يحسون شيئاً من تلذذه وتألمه، ومن تأمل هذا المثل المضروب جزم غاية الجزم بوجود عذاب القبر ونعيمه.

١٦ العذاب والنعيم للروح والبدن معاً:

اختلف الناس في هذه المسألة على آراء ثلاثة:

أ ـ قال بعضهم: أن العذاب والسؤال للروح فقط، وبه قال ابن حزم[١] وغيره.

ب ـ قال آخرون: أنهما للبدن فقط، قالوا: فإن الله ﷻ يجعل في البدن من الآلام ما لا يشعر به الموتى، فإذا حشروا أحسوا بتلك الآلام ومثل السكران والمغمى عليه يضرب أشد الضرب فلا يحس بذلك، فإذا عاد إليه عقله وإدراكه أحس تلك الضربات وتألم منها.

ج ـ وقال الجمهور: أن العذاب والسؤال للروح والبدن معاً. فالروح تنعم أو تعذب منفردة عن البدن، وتنعم أو تعذب وهي متصلة به.

وهذا هو اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم[٢] والشارح.

قال الشارح: «فالحاصل أن الدور ثلاث: دار الدنيا ودار البرزخ ودار القرار. وقد جعل الله لكل دار أحكاماً تخصها، وركب هذا الإنسان من بدن ونفس، وجعل أحكام الدنيا على الأبدان... والأرواح تبع لها، وجعل أحكام البرزخ على الأرواح والأبدان تبع لها، فإذا جاء يوم حشر الأجساد وقيام الناس من قبورهم ـ صار والحكم والنعيم والعذاب على الأرواح والأجساد جميعاً».

واستدلوا بحديث البراء: **(فتعاد روحه إلى جسده)**، وقول ﷺ: **(نسمة المؤمن في حاصلة طير في الجنة)** وقوله: **(... فيضرب بمطرقة من حديد...)**.

١٧ استمرار عذاب القبر إلى يوم القيامة:

عذاب القبر على نوعين:

أولهما: عذاب دائم وهو المشار إليه بقوله تعالى في شأن آل فرعون: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ [غافر: ٤٦]، فبينت الآية عرضهم على النار دون أن تحدد نهاية هذه المدة مما يدل على أنه مستمر مدة بقائهم في قبورهم، ومن ذلك ما ورد في بعض الروايات عنه ﷺ أنه قال: **(فيفتح له باب إلى النار فينظر إلى مقعده منها حتى قيام الساعة)**.

---

(١) انظر: الفصل (٤/ ١١٩).

(٢) انظر: كتاب الروح (ص٩٥).

ثانيهما: عذاب مستمر فترة ثم ينقطع، وذلك كعذاب بعض العصاة الموحدين فيعذبون بحسب جرمهم، ثم يخفف عنهم العذاب. وقد يخفف عنهم بدعاء واستغفار بعض المسلمين لهم، أو بغير ذلك من الأسباب.

(١٨) الحكمة من تغييب عذاب القبر عن الثقلين:

عذاب القبر من الأمور الغيبية التي شاءت إرادة الله ﷻ عدم اطلاع كثير من الثقلين عليها. وذلك لحكم منها:

١ ـ إنهم لو اطلعوا عليها لزالت حكمة التكليف والإيمان بالأمور الغيبية.

٢ ـ ما أشار إليه ﷺ بقوله: **(لولا أن لا تدافنوا لدعوت الله أن يسمعكم من عذاب القبر ما أسمع)**، فالإنسان كائن ضعيف لو اطلع على عذاب القبر لأصابه الوجل والخوف، وقد يصعق مما يؤدي به إلى عدم دفنه لأخيه المسلم، ولذلك حجب عنه عقاب القبر. ولما كانت البهائم منتفية في حكمها من عذاب القبر كانت تسمعه كما ورد في بعض الآثار.

(١٩) أجساد الأنبياء والشهداء لا تفنى:

صحّ عن النبي ﷺ أنه قال: **(إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء)**.

وأما الشهداء فقد شوهد منهم بعد مدد من دفنه كما هو لم يتغير فيحتمل بقاؤه كذلك في تربته إلى يوم محشره، ويحتمل أنه يبلى مع طول المدة والله أعلم، وكأنه والله أعلم كلما كانت الشهادة أكمل والشهيد أفضل كان بقاء جسده أطول.

(٢٠) الخلاصة:

١ ـ يؤمن أهل السنة والجماعة بأن في القبر عذاباً حقيقياً يقع على الكفار والمنافقين، وعلى من شاء الله من فسقة المسلمين.

٢ ـ ويؤمنون بأن منكراً ونكيراً هما ملكان غليظان يباشران سؤال كل إنسان في قبره عن ربه ودينه ونبيه، وكل هذه الأخبار ثبتت عن رسول الله ﷺ بطريق التواتر فوجب اعتقاد ما دلت عليه.

٣ ـ والقبر إما روضة من رياض الجنة، وذلك على المؤمن الصالح الذي يثبته الله ويجيب على أسئلة الملائكة، وإما حفرة من حفر النار على الكافر والمنافق ومن أراد الله من ظلمة المسلمين وفساقهم.

٤ ـ أورد المؤلف هذا المبحث للرد على المعتزلة الجهمية والفلاسفة وغلاة الرافضة الذين ينكرون عذاب القبر.

٥ ـ عذاب القبر دل عليه الكتاب والسنة والإجماع.
٦ ـ ثبت أن الملكين يسألان الميت عن ربه ودينه ونبيه.
٧ ـ من أصول أهل السنة والجماعة: وجوب الإيمان والتصديق بهما دون تعرض لكيفية ذلك؛ لأن الكيفية أمر لا يتلقى إلا من كلام الشرع، وليس في كلامه ما يدل على الكيفية.
٨ ـ أنكر الملاحدة والزنادقة عذاب القبر، وشبهتهم في ذلك: أن عذاب القبر ونعيمه من الأمور التي لا تحس، وما لا يحس فليس بموجود، وهذه الشبهة فاسدة باطلة، تم تفنيدها.
٩ ـ عذاب القبر على نوعين: عذاب دائم، مستمر فترة ثم ينقطع.
١٠ ـ عذاب القبر من الأمور الغيبية التي شاء الله ﷻ عدم اطلاع كثير من الثقلين عليها، وذلك لحكم بالغة.
١١ ـ صح عن النبي ﷺ أنه قال: **(إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء)**.

٢١ المناقشة:

- **س١:** اشرح قول الطحاوي: «وبعذاب القبر لمن كان له أهلاً وسؤال منكر ونكير في قبره عن ربه ودينه ونبيه، على ما جاءت به الأخبار عن رسول الله ﷺ، وعن الصحابة رضوان الله عليهم. والقبر روضة من رياض الجنة، أو حفرة من حفر النيران».
- **س٢:** لماذا أورد الطحاوي هذا المبحث في عقيدته؟
- **س٣:** ما الأدلة على عذاب القبر؟
- **س٤:** من الفرق التي أنكرت اسم الملكين منكر ونكير؟
- **س٥:** ما حكم التصديق بسؤال منكر ونكير للميت؟
- **س٦:** ما الأصول الثلاثة التي يسأل عنها الملكان؟
- **س٧:** هل سؤال الملكين عام لكل من يموت من البشر؟
- **س٨:** هل يمتحن الأطفال في قبورهم؟
- **س٩:** عرِّف نعيم القبر وعذابه.
- **س١٠:** هل يستثنى أحد من فتنة القبر؟ وضّح ذلك.
- **س١١:** بيِّن عقيدة أهل السنة والجماعة في عذاب القبر ونعيمه.

- **س١٢:** ما الطوائف التي أنكرت عذاب القبر ونعيمه؟ وما شبهتهم في ذلك؟ وكيف ترد عليها؟
- **س١٣:** هل العذاب والنعيم للروح والبدن معاً؟ وضّح ذلك.
- **س١٤:** بيّن أنواع عذاب القبر.
- **س١٥:** ما الحكمة من تغييب عذاب القبر عن الثقلين؟
- **س١٦:** هل أجساد الأنبياء والشهداء تفنى؟ اذكر الدليل لما تقول.
- **س١٧:** هل يستمر عذاب القبر لمن عذب إلى يوم القيامة؟
- **س١٨:** أشار القرآن إلى عذاب القبر من غير تصريح، فلماذا؟

البعث والجزاء والعرض

❊ **كلام ابن أبي العز:**

١ ـ غرض المصنف من عقد هذا الباب.

٢ ـ مناسبة هذا الباب لما سبق.

٣ ـ معاني الكلمات.

٤ ـ معنى كلام الطحاوي: «ونؤمن بالبعث وجزاء الأعمال يوم القيامة، والعرض والحساب، وقراءة الكتاب، والثواب والعقاب، والصراط والميزان».

٥ ـ تعريف البعث والنشور.

٦ ـ منزلة الإيمان بالبعث من الدين.

٧ ـ الأدلة على ثبوت البعث.

٨ ـ أدلة إمكان البعث.

٩ ـ حكم إنكار البعث.

١٠ ـ الحكمة من اهتمام القرآن بإثبات المعاد.

١١ ـ الحكمة من إخبار النبي ﷺ لأمور الآخرة تفصيلاً.

١٢ ـ دعوى النبي ﷺ في أمور المعاد دون غيره من الأنبياء.

١٣ ـ أساليب القرآن في إثبات المعاد.

١٤ ـ آيات المعاد في سورة يس.

١٥ ـ آيات المعاد في سورة الإسراء.

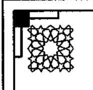
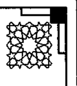
١٦ ـ ذكر مذاهب في المعاد هل هو جسماني أم روحاني؟ أم بهما معاً؟.

١٧ ـ أقوال الناس في إعادة الأجسام بعد فنائها.

١٨ ـ الجواب عما استشكله بعض الناس من قوله ﷺ: (إن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من تنشق عنه الأرض فأجد موسى باطشاً جنب العرش).

١٩ ـ الخلاصة.

٢٠ ـ المناقشة.

البعث والجزاء والعرض

قال ابن أبي العز:

قوله: «ونؤمن بالبعث وجزاء الأعمال يوم القيامة والعرض والحساب وقراءة الكتاب والثواب والعقاب والصراط والميزان».

الإيمان بالمعاد مما دل عليه الكتاب والسنة والعقل والفطرة السليمة، فأخبر الله سبحانه عنه في كتابه العزيز وأقام الدليل عليه ورد على منكريه في غالب سور القرآن.

وذلك أن الأنبياء عليهم السلام كلهم متفقون على الإيمان بالله، فإن الإقرار بالرب عام في بني آدم وهو فطري، كلهم يقر بالرب إلا من عاند كفرعون بخلاف الإيمان باليوم الآخر فإن منكريه كثيرون، ومحمد ﷺ لما كان خاتم الأنبياء وكان قد بعث هو والساعة كهاتين، وكان هو الحاشر المقفي بيَّن تفصيل الآخرة بياناً لا يوجد شيء من كتاب الأنبياء، ولهذا ظن طائفة من المتفلسفة ونحوهم أنه لم يفصح بمعاد الأبدان إلا محمد ﷺ وجعلوا هذه حجة لهم في أنه من باب التخييل والخطاب الجمهوري.

والقرآن بيّن معاد النفس عند الموت ومعاد البدن عند القيامة الكبرى في غير موضع، وهؤلاء ينكرون القيامة الكبرى وينكرون معاد الأبدان ويقول من يقول منهم: إنه لم يخبر به إلا محمد ﷺ على طريق التخيل وهذا كذب، فإن القيامة الكبرى هي معروفة عند الأنبياء من آدم إلى نوح إلى إبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم عليهم السلام.

وقد أخبر الله بها من حين أهبط آدم فقال تعالى: ﴿قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الأعراف: ٢٤ ـ ٢٥]. ولما قال إبليس اللعين: ﴿رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ ـ إلى قوله ـ: إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾﴾ [صٓ: ٧٩ ـ ٨١].

وأما نوح عليه السلام فقال: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا ۝١٧ ثُمَّ يُعِيدُكُمۡ فِيهَا وَيُخۡرِجُكُمۡ إِخۡرَاجٗا ۝١٨﴾ [نوح: ١٧ ـ ١٨].

وقال إبراهيم عليه السلام: ﴿وَٱلَّذِيٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوۡمَ ٱلدِّينِ ۝٨٢﴾ [الشعراء: ٨٢] إلى آخر القصة، وقال: ﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ ۝٤١﴾ [إبراهيم: ٤١]، وقال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ﴾ [البقرة: ٢٦٠].

وأما موسى عليه السلام فقال الله تعالى لما ناجاه: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ ۝١٥ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنۡهَا مَن لَّا يُؤۡمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرۡدَىٰ ۝١٦﴾ [طه: ١٥ ـ ١٦].

بل مؤمن آل فرعون كان يعلم المعاد وإنما آمن بموسى، قال تعالى حكاية عنه: ﴿وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ ۝٣٢ يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ۝٣٣﴾ [غافر: ٣٢ ـ ٣٣] إلى قوله: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ ۝٣٩﴾ [غافر: ٣٩] إلى قوله: ﴿أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦]، وقال موسى: ﴿وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَۚ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

وقد أخبر الله في قصة البقرة: ﴿فَقُلۡنَا ٱضۡرِبُوهُ بِبَعۡضِهَاۚ كَذَٰلِكَ يُحۡيِ ٱللَّهُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝٧٣﴾ [البقرة: ٧٣].

وقد أخبر الله أنه أرسل الرسل مبشرين ومنذرين في آيات من القرآن وأخبر عن أهل النار أنهم إذا قال لهم خزنتها: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [الزمر: ٧١].

وهذا اعتراف من أصناف الكفار الداخلين جهنم أن الرسل أنذرتهم لقاء يومهم هذا، فجميع الرسل أنذروا بما أنذر به خاتمهم من عقوبات المذنبين في الدنيا والآخرة، فعامة سور القرآن التي فيها ذكر الوعد والوعيد يذكر ذلك فيها في الدنيا والآخرة.

وأمر نبيه أن يقسم به على المعاد فقال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِۖ﴾ [سبأ: ٣] الآيات، وقال تعالى: ﴿۞ وَيَسۡتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَۖ قُلۡ

إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [يونس: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾﴾ [التغابن: ٧].

وأخبر عن اقترابها فقال: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾﴾ [القمر: ١]، ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾﴾ [الأنبياء: ١]، ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ﴿٢﴾﴾ [المعارج: ١ ـ ٢] إلى أن قال: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾﴾ [المعارج: ٦ ـ ٧]، وذم المكذبين بالمعاد فقال: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾ [يونس: ٤٥] ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِي ٱلسَّاعَةِ لَفِي ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ [الشورى: ١٨]، ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِي ٱلْـَٔاخِرَةِۚ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَاۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [النمل: ٦٦]، ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [النحل: ٣٨] إلى أن قال: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [النحل: ٣٩] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾﴾ [النساء: ٥٩] ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّاۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ ۞ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾﴾ [الإسراء: ٩٧ ـ ٩٩].

﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ۞ قُلْ كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾﴾ [الإسراء: ٤٩ ـ ٥٢].

فتأمل[(١)] ما أجيبوا به عن كل سؤال على التفصيل فإنهم قالوا أولاً: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ فقيل لهم في جواب هذا السؤال: إن كنتم تزعمون أنه لا خالق لكم ولا رب لكم فهلّا كنتم خلقاً لا يفنيه الموت كالحجارة والحديد وما هو أكبر في صدوركم من ذلك، فإن قلتم كنا خلقاً على هذه الصفة

---

(١) انظر: الصواعق المرسلة (٢/٤٧٨ ـ ٤٨٠).

التي لا تقبل البقاء فما الذي يحول بين خالقكم ومنشئكم وبين إعادتكم جديداً؟.

وللحجة تقدير آخر وهو: لو كنتم من حجارة أو حديد أو خلق أكبر منهما فإنه قادر على أن يفنيكم ويحيل ذواتكم وينقلها من حال إلى حال ومن يقدر على التصرف في هذه الأجسام مع شدتها وصلابتها بالإفناء والإحالة فما الذي يعجزه فيما دونها، ثم أخبر أنهم يسألون آخر بقولهم: ﴿مَن يُعِيدُنَا﴾ إذا استحالت جسومنا وفنيت؟ فأجابهم بقوله: ﴿قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ لما أخذتهم الحجة ولزمهم حكمها انتقلوا إلى سؤال آخر يتعللون به بعلل المنقطع وهو قولهم: ﴿مَتَىٰ هُوَ﴾ فأجيبوا بقوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾.

ومن هذا قوله: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾﴾ [يسٓ: ٧٨] إلى آخر السورة، فلو رام أعلم البشر وأفصحهم وأقدرهم على البيان أن يأتي بأحسن من هذه الحجة أو بمثلها بألفاظ تشابه هذه الألفاظ في الإيجاز ووضح الأدلة وصحة البرهان لما قدر، فإنه سبحانه افتتح هذه الحجة بسؤال أورده ملحد اقتضى جواباً فكان في قوله: ﴿وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ﴾ ما وفَّى بالجواب وأقام الحجة وأزال الشبهة لما أراد سبحانه من تأكيد الحجة وزيادة تقريرها فقال: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس: ٧٩]، فاحتج بالإبداء على الإعادة وبالنشأة الأولى على النشأة الأخرى إذ كل عاقل يعلم ضرورياً أن من قدر على هذه قدر على هذه، وأنه لو كان عاجزاً عن الثانية لكان عن الأولى أعجز وأعجز، ولما كان الخلق يستلزم قدرة الخالق على المخلوق وعلمه بتفاصيل خلقه اتبع ذلك بقوله: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٩] فهو عليم بتفاصيل الخلق الأول وجزئياته ومواده وصورته، فكذلك الثاني فإذا كان تام العلم كامل القدرة كيف يتعذر عليه أن يحيي العظام وهي رميم.

ثم أكد الأمر بحجة قاهرة وبرهان ظاهر يتضمن جواباً عن سؤال ملحد آخر، يقول: العظام إذا صارت رميماً عادت طبيعتها باردة يابسة، والحياة لا بد أن تكون مادتها وحاملها طبيعة حارة رطبة بما يدل على أمر البعث، ففيه الدليل والجواب معاً فقال: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [يس: ٨٠]، فأخبر سبحانه بإخراج هذا العنصر الذي هو في غاية الحرارة واليبوسة

من الشجر الأخضر الممتلئ بالرطوبة والبرودة، فالذي يخرج الشيء من ضده وتنقاد له مواد المخلوقات وعناصرها ولا تستعصي عليه هو الذي يفعل ما أنكره الملحد ودفعه من إحياء العظام وهي رميم.

ثم أكد هذا بأخذ الدلالة من الشيء الأجل الأعظم على الأيسر الأصغر، فإن كل عاقل يعلم أن من قدر على العظيم الجليل فهو على ما دونه بكثير أقدر، وأقدر فمن قدر على حمل قنطار فهو على حمل أوقية أشد اقتداراً فقال: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾ [يس: ٨١]. **فأخبر أن الذي أبدع السماوات والأرض على جلالتهما وعظم شأنهما وكبر أجسامها وسعتهما وعجيب خلقهما أقدر على أن يحيي عظاماً قد صارت رميماً فيردها إلى حالتها الأولى كما قال في موضع آخر:** ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [غافر: ٥٧]، **وقال:** ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ﴾ [الأحقاف: ٣٣]. **ثم أكد سبحانه ذلك وبيَّنه ببيان آخر وهو أنه ليس فعله بمنزلة غيره الذي يفعل بالآلات والكلفة والنصب والمشقة ولا يمكنه الاستقلال بالفعل، بل لا بد معه من آلة ومعين، بل يكفي في خلقه لما يريد أن يخلقه ويكونه نفس إرادته وقوله للمكون كن فإذا هو كائن كما شاءه وأراده.**

ثم ختم هذه الحجة بإخباره أن ملكوت كل شيء بيده فيتصرف فيه بفعله وقوله: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: ٨٣].

ومن هذا قوله سبحانه: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ [القيامة: ٣٦ ـ ٤٠]. **فاحتج سبحانه على أنه لا يتركه مهملاً عن الأمر والنهي والثواب والعقاب وأن حكمته وقدرته تأبى ذلك أشد الإباء كما قال تعالى:** ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ [المؤمنون: ١١٥] **إلى آخر السورة، فإن من نقله من النطفة إلى العلقة ثم إلى المضغة ثم شق سمعه وبصره وركب فيه الحواس والقوى والعظام والمنافع والأعصاب والرباطات التي هي أشده، وأحكم خلقه غاية الإحكام، وأخرجه على هذا الشكل والصورة التي**

هي أتم الصور وأحسن الأشكال، كيف يعجز عن إعادته وإنشائه مرة ثانية، أم كيف تقتضي حكمته وعنايته أن يتركه سدى؟ فلا يليق ذلك بحكمته ولا تعجز عنه قدرته.

فانظر إلى هذا الاحتجاج العجيب بالقول الوجيز الذي لا يكون أوجز منه والبيان الجليل الذي لا يتوهم أوضح منه ومأخذه القريب الذي لا تقع الظنون على أقرب منه.

وكم في القرآن من مثل هذا الاحتجاج كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ﴾ [الحج: ٥] إلى أن قال: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾ [الحج: ٧]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ ﴿١٢﴾﴾ [المؤمنون: ١٢] إلى أن قال: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تُبۡعَثُونَ ﴿١٦﴾﴾ [المؤمنون: ١٦]. وذكر قصة أصحاب الكهف وكيف أبقاهم موتى ثلاثمائة سنة شمسية وهي ثلاثمائة وتسع سنين قمرية وقال فيها: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعۡثَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ لِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيۡبَ﴾ [الكهف: ٢١].

والقائلون[1] بأن الأجسام مركبة من الجواهر المفردة لهم في المعاد خبط واضطراب وهم فيه على قولين؛ منهم من يقول: تعدم الجواهر ثم تعاد، ومنهم من يقول: تفرق الأجزاء ثم تجمع فأورد عليهم الإنسان الذي يأكله حيوان وذلك الحيوان أكله إنسان، فإن أعيدت تلك الأجزاء من هذا لم تعد من هذا، وأورد عليهم أن الإنسان يتحلل دائماً، فماذا الذي يعاد أهو الذي كان وقت الموت؟ فإن قيل بذلك لزم أن يعاد على صورة ضعيفة وهو خلاف ما جاءت به النصوص، وإن كان غير ذلك فليس بعض الأبدان بأولى من بعض، فادعى بعضهم أن في الإنسان أجزاء أصلية لا تتحلل ولا يكون فيها شيء من ذلك الحيوان الذي أكله الثاني والعقلاء يعلمون أن بدن الإنسان نفسه كله يتحلل ليس فيه شيء باق فصار ما ذكروه في الميعاد مما قوى شبهة المتفلسفة في إنكار معاد الأبدان.

والقول الذي عليه السلف وجمهور العقلاء أن الأجسام تنقلب من حال إلى حال فتستحيل تراباً ثم ينشئها الله نشأة أخرى كما استحال في النشأة الأولى، فإنه

(١) انظر: الفتاوى (١٧/٢٤٦).

كان نطفة ثم صار علقة ثم صار مضغة ثم صار عظاماً ولحماً، ثم أنشأه خلقاً سوياً، كذلك الإعادة يعيده الله بعد أن يبلى كله إلا عجب الذنب كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: (كل ابن آدم يبلى إلا عجب الذنب منه خلق ابن آدم ومنه يركب)(١).

وفي حديث آخر: (إن السماء تمطر مطراً كمني الرجال ينبتون في القبور كما ينبت النبات)(٢).

فالنشأتان نوعان تحت جنس يتفقان ويتماثلان من وجه ويفترقان ويتنوعان من وجه، والمعاد هو الأول بعينه وإن كان بين لوازم الإعادة ولوازم البداءة فرق، فعجب الذنب هو الذي يبقى وأما سائره فيستحيل فيعاد من المادة التي استحال إليها، ومعلوم أن من رأى شخصاً وهو صغير ثم رآه وقد صار شيخاً علم أن هذا هو ذاك مع أنه دائماً في تحلل واستحالة، وكذلك سائر الحيوان والنبات فمن رأى شجرة وهي صغيرة ثم رآها كبيرة قال: هذه تلك وليست صفة تلك النشأة الثانية مماثلة لصفة هذه النشأة حتى يقال: إن الصفات هي المغيرة لا سيما أهل الجنة إذا دخلوها فإنهم يدخلونها على صورة آدم طوله ستون ذراعاً كما ثبت في الصحيحين وغيرهما، وروي أن عرضه سبعة أذرع وتلك نشأة باقية غير معرضة للآفات، وهذه النشأة فانية معرضة للآفات.

وقوله: (وجزاء الأعمال). قال تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ [الفاتحة: ٤] ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ۝٢٥﴾ [النور: ٢٥]. والدين: الجزاء، يقال: كما تدين تدان؛ أي كما تجازي تجازى. وقال تعالى: ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧] ﴿جَزَآءً وِفَاقًا ۝٢٦﴾ [النبأ: ٢٦] ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝١٦٠﴾ [الأنعام: ١٦٠] ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ۝٨٩ وَمَن جَآءَ

(١) أخرجه البخاري (٤٨١٤)، ومسلم (٢٩٥٥).

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٩٧٦١)، والحاكم (٤/٥٩٨ ـ ٦٠٠)، وقال الهيثمي في المجمع (١٠/٣٢٩ ـ ٣٣٠): رواه الطبراني وهو موقوف مخالف للحديث الصحيح. انظر: مجمع الزوائد.

بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [النمل: ٨٩ ـ ٩٠] ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾﴾ [القصص: ٨٤] وأمثال ذلك.

وقال ﷺ فيما يروي عن ربه ﷻ من حديث أبي ذر الغفاري ﵁: (يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه)(١).

وسيأتي لذلك زيادة بيان عن قريب إن شاء الله تعالى.

وقوله: والعرض والحساب وقراءة الكتاب والثواب والعقاب، قال تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾﴾ [الحاقة: ١٥ ـ ١٨] إلى آخر السورة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ﴿٦﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴿١٥﴾﴾ [الانشقاق: ٦ ـ ١٥].

﴿وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ﴾ [الكهف: ٤٨].

﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف: ٤٩].

﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾﴾ [إبراهيم: ٤٨] إلى آخر السورة.

﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [غافر: ١٥ ـ ١٧].

﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾ [البقرة: ٢٨١].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٧٧).

وروى البخاري رَحِمَهُ اللهُ في «صحيحه» عن عائشة أن النبي ﷺ قال: (ليس أحد يحاسب يوم القيامة إلا هلك)، فقلت: يا رسول الله أليس قد قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ⑧﴾؟ فقال رسول الله ﷺ: (إنما ذلك العرض، وليس أحد يناقش الحساب يوم القيامة إلا عذب)(١). يعني: أنه لو ناقش في حسابه لعبيده لعذبهم وهو غير ظالم لهم، ولكنه تعالى يعفو ويصفح وسيأتي لذلك زيادة بيان إن شاء الله تعالى.

وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: (إن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق، فإذا موسى آخذ بقائمة العرش فلا أدري أفاق قبلي أم جوزي بصعقة يوم الطور؟)(٢).

وهذا صعق في موقف القيامة إذا جاء الله لفصل القضاء وأشرقت الأرض بنوره فحينئذ يصعق الخلائق كلهم.

فإن قيل: كيف تصنعون بقوله في الحديث: (إن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من تنشق عنه الأرض فأجد موسى باطشاً بقائمة العرش)(٣).

قيل: لا ريب أن هذا اللفظ قد ورد هكذا ومنه نشأ الإشكال، ولكنه دخل فيه على الراوي حديث في حديث فركب بين اللفظين، فجاء هذان الحديثان هكذا أحدهما أن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق كما تقدم، والثاني أنا أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة، فدخل على الراوي هذا الحديث في الآخر، وممن نبّه على هذا أبو الحجاج المزي وبعده الشيخ شمس الدين ابن القيم، وشيخنا الشيخ عماد بن كثير رحمهم الله.

وكذلك اشتبه على بعض الرواة فقال: فلا أدري أفاق قبلي أم كان ممن استثنى الله ﷻ. والمحفوظ الذي تواطأت عليه الروايات الصحيحة هو الأول وعليه المعنى الصحيح، فإن الصعق يوم القيامة لتجلي الله لعباده إذا جاء لفصل القضاء، فموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ إن كان لم يصعق معهم فيكون قد جوزي بصعقة يوم تجلى

---

(١) أخرجه البخاري (١٠٣)، ومسلم (٢٨٧٦).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه البخاري (٢٤١٢)، ومسلم (٢٣٧٤).

ربه للجبل فجعله دكاً، فجعلت صعقة هذا التجلي عوضاً عن صعقة الخلائق لتجلي ربه يوم القيامة، فتأمل هذا المعنى العظيم ولا تهمله.

وروى الإمام أحمد والترمذي وأبو بكر ابن أبي الدنيا عن الحسن قال: سمعت أبا موسى الأشعري يقول: قال رسول الله ﷺ: (يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات، فعرضتان جدال ومعاذير، وعرضة تطاير الصحف، فمن أوتي كتابه بيمينه وحوسب حساباً يسيراً دخل الجنة، ومن أوتي كتابه بشماله دخل النار)(١).

وقد روى ابن أبي الدنيا عن ابن المبارك أنه أنشد في ذلك شعراً:

وطارت الصحف في الأيدي منشرة ... فيها السرائر والأخبار تطلع
فكيف سهوك والأنباء واقعة ... عما قليل ولا تدري بما تقع
أفي الجنان وفوز لا انقطاع له ... أم الجحيم فلا تبقي ولا تدع
تهوي بساكنها طوراً وترفعهم ... إذا رجوا مخرجاً من غمِّها قُمعوا
طال البكاء فلم يرحم تضرعهم ... فيها ولا رُقية تغني ولا جزع
لينفع العلم قبل الموت عالمه ... قد سأل قوم بها الرجعى فما رجعوا

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٢٧)، وابن ماجه (٤٢٧٧)، وقال الترمذي: ولا يصح هذا الحديث من قبل أن الحسن لم يسمع من أبي موسى.



عناصر الموضوع:

١ غرض المصنف من عقد هذا الباب:

أ ـ بيان معتقد أهل السنة والجماعة في البعث ومعاد الأبدان وجزاء الأعمال والعرض والحساب وقراءة الكتاب والثواب والعقاب والصراط والميزان.

ب ـ الرد على المخالفين لأهل السنة في ذلك من أهل الأهواء والبدع.

٢ مناسبة هذا الباب لما سبق:

قرر المصنف فيما سبق أن من أصول أهل السنة والجماعة اتباع السنة والجماعة واجتناب الشذوذ والفرقة والخلاف، هذا ومما جاءت به النصوص الشرعية من الكتاب والسنة الإيمان بالبعث ومعاد الأبدان وجزاء الأعمال والعرض والحساب وقراءة الكتاب والثواب والعقاب والصراط والميزان، وغير ذلك من المغيبات.

٣ معاني الكلمات:

الكلمة	المعنى
البعث	الإحياء بعد الممات يوم القيامة.
النصب	التعب.
الفطرة	الجِبِلَّة المتهيئة لقبول الدين.

٤ معنى كلام الطحاوي: «ونؤمن بالبعث وجزاء الأعمال يوم القيامة، والعرض والحساب، وقراءة الكتاب، والثواب والعقاب، والصراط والميزان»:

ويؤمن أهل السنة أيضاً بأن الله تعالى يبعث الموتى يوم القيامة، فيجازيهم بأعمالهم كما قال تعالى: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن: ٧].

ويؤمنون بالعرض على الله كما قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾﴾ [الحاقة: ١٨]، وبالحساب حيث يحاسب الله كل إنسان بما عمل، وبقراءة الكتاب كما قال تعالى: ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾ [الإسراء: ١٤]، وبالثواب والعقاب لأهل الحسنات والسيئات، الحسنة بعشرة أمثالها أو يزيد، والسيئة بمثلها أو يعفو.

ويؤمنون بالصراط وهو جسر على شفير جهنم أدق من الشعرة وأحد من السيف، يعبره الصالحون إلى الجنة، ويتخطف من فوقه أهل العذاب، ويؤمنون بالميزان الذي توزن به أعمال العباد، وهو ميزان حقيقي توضع الحسنات في إحدى كفتيه والسيئات في الكفة الثانية.

٥ تعريف البعث والنشور:

البعث في اللغة: بسكون العين مصدر بعث يبعث من باب فتح، ويطلق على عدة معان فيطلق ويراد به الإرسال نحو بعثت فلاناً إلى الأمير أي أرسلته، ويطلق ويراد به الإثارة والتهييج نحو بعثت البعير أي أثرته... والنشور في اللغة: مصدر نشر الله الموتى نشوراً، أي: أحياهم... والمراد بهما في كتب العقيدة إحياء الله للموتى وإخراجهم للحساب والجزاء... فعلى هذا هما لفظان مترادفان.

٦ منزلة الإيمان بالبعث من الدين:

الإيمان بالبعث داخل ضمن الإيمان باليوم الآخر، والإيمان بالغيب عموماً. ولا يخفى أهمية ذلك.

ومما يدل على أهميته أن الله ﷻ أقسم على وقوعه، وأثنى على المؤمنين به، وأخبر أنه وعد صادق وخبر لازم، وذم المكذبين بوقوعه.

٧ الأدلة على ثبوت البعث:

توافرت الأدلة على إثبات البعث فمن ذلك:

١ ـ قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ [المؤمنون: ١١٥].

٢ ـ وقال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾﴾ [المؤمنون: ١٥ ـ ١٦].

٣ ـ وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي

ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾﴾ [الحج: ٥].

٤ ـ وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٧﴾﴾ [الحج: ٧].

٥ ـ وقال ﷺ: **(يحشر الناس يوم القيامة حفاة غُرلاً...)**.

إلى غير ذلك من الأدلة التي تكاد لا تحصى.

٨ أدلة إمكان البعث:

أدلة إمكان البعث ثابتة بالكتاب والسنة والعقل والحس.

١ ـ دليل السمع:

قال تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾﴾ [التغابن: ٧]. حيث أكدت الآية ببلى، وبالقسم، وباللام، وبنون التوكيد.

٢ ـ دليل الحس:

فقد أرى الله ﷻ عباده قدرته على الإحياء بعد الإماتة، ومن ذلك قوله تعالى في قصة القتيل الذي اختصم فيه بنو إسرائيل: ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [البقرة: ٧٣]، وغير ذلك من الآيات الدالة على الإحياء بعد الإماتة، وفي سورة البقرة وحدها خمسة أمثلة.

٣ ـ دليل العقل:

وذلك من وجهين:

١ ـ من ابتدأ الخلق لا يعجز عن إعادته، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾ [الروم: ٢٧]. وقال تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

٢ ـ من أحيا الأرض بعد موتها قادر على إحياء الموتى، قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [فصلت: ٣٩].

٩ حكم إنكار البعث:

منكر البعث كافر بالله ﷻ وبرسله وبكتبه واليوم الآخر.

قال تعالى: ﴿۞ وَإِن تَعۡجَبۡ فَعَجَبٞ قَوۡلُهُمۡ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَاقِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٥﴾ [الرعد: ٥].

وقال تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ۝٧﴾ [التغابن: ٧].

١٠ الحكمة من اهتمام القرآن بإثبات المعاد:

اهتم القرآن الكريم اهتماماً عظيماً بإثبات المعاد والرد على منكريه في معظم سوره، وذلك لأن منكري المعاد كثيرون فاستدعى ذلك كثرة الكلام فيه لإثباته والرد على منكريه. بخلاف إثبات الربوبية فإنه عام في بني آدم فطري فيهم - إلا من عاند كفرعون فإنه وإن كان جاحداً للربوبية في الظاهر إلا أنه مؤمن بها في الباطن. قال تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ﴾ [النمل: ١٤].

١١ الحكمة من إخبار النبي ﷺ عن أمور الآخرة تفصيلاً:

بيّن ﷺ أحوال الآخرة بياناً لا يوجد في كثير من الكتب السماوية السابقة، فقد أوضح قضايا البعث والنشور والحساب والجزاء والنار. وذلك لأنه ﷺ خاتم الأنبياء ويقتضي أن يبين ويوضح ما يبينه غيره من الأنبياء، ويبين ويوضح ما ورد ذكره مجملاً في الكتب السماوية السابقة.

١٢ دعوى النبي ﷺ في أمور المعاد دون غيره من الأنبياء:

هناك من الفلاسفة من يقول بأن أمر المعاد إنما جاء به محمد ﷺ عن طريق التخيل لكي يتقبله العامة ويتمثل أوامره ونواهيه بدليل أن غيره من الأنبياء لم يأت به. وهذا القول كذب وبهتان ويمكن الرد عليه بأحد جوابين:

أولاهما: مجمل، وهو أن الأمم السابقة قد أنذرت يوم البعث وسيعاقب كفار جميع الأمم بهذا الإنذار، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٧١﴾ [الزمر: ٧١]، فقد دلت هذه الآية على أن كفار جميع الأمم سيعترفون بأن رسلاً أنذروهم لقاء يوم البعث وبهذا يبطل ما زعموه.

الثاني: مفصل، وهو أن الله ﷻ أخبرنا في كتابه أن أنبياءه كانوا عارفين بيوم البعث، ومن مقتضى معرفتهم بهذا اليوم أنهم أنذروا قومهم ذلك اليوم، فما ورد في القرآن يدل على ذلك:

أولاً: قوله تعالى في قصة آدم: ﴿قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الأعراف: ٢٤ ـ ٢٥]، فقد دلّت الآية على أن الله سبحانه أخبر آدم وهو أول الأنبياء بأمر البعث في قوله: ﴿وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾.

ثانياً: قول الله ﷻ حكاية عن نوح في خطابه لقومه: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾﴾ [نوح: ١٧ ـ ١٨]، فقد دلت الآية أن نوحاً أنذر قومه يوم البعث في قوله: ﴿وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ [نوح: ١٨].

ثالثاً: وقد أخبرنا الله ﷻ أن إبراهيم دعا ربه وكان من دعائه: ﴿وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [الشعراء: ٨٧ ـ ٨٨]، فقد دلّت الآية على أنه عارف بيوم البعث. ولا شك أنه أخبر قومه به لأن هذا من لوازم رسالته.

رابعاً: قول الله ﷻ مخاطباً موسى عليه السلام: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾﴾ [طه: ١٥]، فقد أخبر سبحانه نبيه موسى بأن الساعة آتية حتماً، وبأن كل نفس ستجزى عما عملت، ولا شك أن موسى أنذر قومه بها.

خامساً: بل إن مؤمن آل فرعون كان عارفاً بيوم البعث بدليل قوله تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ [غافر: ٣٢ ـ ٣٣]؛ وإذا كان مؤمن آل فرعون عارفاً بذلك فهذا ناتج ولا شك عن التعاليم التي تلقاها موسى من الله سبحانه.

سادساً: بل إن إبليس كان عارفاً بيوم البعث بدليل طلبه من الله أن ينذره إلى يوم يبعثون، ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الحجر: ٣٦]، فإذا كان كذلك فالأنبياء أولى بالعلم منهم، وبهذه الأدلة جميعها يبطل قول من قال بأن أمر البعث إنما جاء به محمد ﷺ دون غيره من الأنبياء.

(١٣) أساليب القرآن في إثبات المعاد:

اتخذ القرآن عدة أساليب في إثبات المعاد منها:

١ ـ أمر الله ﷻ نبيه ﷺ أن يقسم على المعاد وأنه حق واقع لا محالة. كما

قال تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ﴾ [التغابن: ٧]، وكما في قوله: ﴿وَيَسۡتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَۖ قُلۡ إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقّٞۖ﴾ [يونس: ٥٣].

٢ ـ مجرد الإخبار عن اقتراب الساعة كما في قوله تعالى: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ۝١﴾ [القمر: ١]، وقوله: ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ ۝١﴾ [الأنبياء: ١].

٣ ـ ذم المكذبين بالمعاد كما في قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ كَأَن لَّمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيۡنَهُمۡۚ قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ۝٤٥﴾ [يونس: ٤٥]، وكما في قوله: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِي ٱلسَّاعَةِ لَفِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٍ﴾ [الشورى: ١٨].

٤ ـ الاستدلال بالبدء على الإعادة، وبالنشأة الأولى على النشأة الأخرى كما في قوله: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلٗا وَنَسِيَ خَلۡقَهُۥۖ﴾، ﴿قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ﴾ [يسٓ: ٧٨ ـ ٧٩]، فمن خلق الإنسان من العدم قادر ولا شك على إعادته بعد فنائه، إذ لو كان عاجزاً عن الإعادة لكان عن النشأة الأولى أعجز من باب أولى.

٥ ـ الاستدلال بأن الله يخرج الشيء من ضده على إنكار المعاد: ﴿قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ ۝٧٩ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلۡأَخۡضَرِ نَارٗا فَإِذَآ أَنتُم مِّنۡهُ تُوقِدُونَ ۝٨٠﴾ [يسٓ: ٧٩ ـ ٨٠]، فمن انقادت له عناصر الكون لا يعجزه شيء فهو قادر على إعادة الإنسان بعد مماته وبعد تفتت أجزائه.

٦ ـ الاستدلال بخلق ما هو أكبر من الإنسان على إعادة الإنسان: ﴿أَوَلَيۡسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۚ بَلَىٰ﴾ [يسٓ: ٨١]، فمن يستطيع خلق الأكبر فهو قادر على خلق الأصغر.

٧ ـ الإخبار بأن حكمة الله تأبى أشد الإباء أن يترك الإنسان مهملاً من الأوامر والنواهي ومعفى من الثواب والعقاب، كما في قوله تعالى: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى ۝٣٦ أَلَمۡ يَكُ نُطۡفَةٗ مِّن مَّنِيّٖ يُمۡنَىٰ ۝٣٧﴾ [القيامة: ٣٦ ـ ٣٧]، هذه هي أهم الأساليب، وهناك أساليب قرآنية كثيرة غير ما قدمناه.

١٤ آيات المعاد في سورة يسٓ:

ورد في آخر السورة سبع آيات تتعلق بالمعاد، وهي قوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ ۝٧٧﴾ [يسٓ: ٧٧] الخ... السورة. وقد ورد في سبب نزولها: أن العاص بن وائل أخذ عظماً منتناً حائلاً

فجاء به إلى النبي ﷺ ففتّه أمامه وقال: يا محمد أيحيي الله هذا بعد ما بلي وأرم؟ قال: **(نعم يبعث الله هذا ثم يميتك ثم يحييك ثم يدخلك جهنم)**، ثم نزلت الآيات السبع وفيها من الأدلة القاطعة على إثبات المعاد ما تعجز الألسن عن الإتيان بمثله لبلاغته، وتذعن العقول لإقناعه، فلا تلبث أن ترضى وتسلم:

١ ـ فأول ما استهل به الجواب: الإشارة إلى بدء خلق الإنسان وأنه خلق من نطفة ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ﴾ [يس: ٧٧].

٢ ـ ثم ذكر شبهة الملحد وعقب عليها بجملة هي غاية في الروعة والإيجاز وهي قوله: ﴿وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ﴾، إذ لو تفكر العاص بن وائل في خلقه لما أورد سؤاله هذا.

٣ ـ وزيادة في تأكيد الحجة وتقريرها قال: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ﴾ فاحتج بالإبداء على الإعادة وبالنشأة الأولى على الأخرى إذ كل عاقل يعلم بالضرورة أن من قدر على هذه قدر على تلك. ومن عجز عن الثانية فهو عن الأولى أشد عجزاً.

٤ ـ لما كان الخلق يستلزم قدرة الخالق على المخلوق وعلمه بتفاصيل خلقه اتبع ذلك بقوله: . . ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾، فهو عليم بتفاصيل الخلق الأول فكذلك الثاني، فإذا كان تام العلم كامل الإرادة فكيف يتعذر عليه أن يحيي العظام وهي رميم؟.

٥ ـ ثم أكد الأمر بحجة قاهرة وبرهان ظاهر يتضمن جواباً عن سؤال ملحد آخر بقوله: العظام إذا بليت وصارت رميماً عادت طبيعتها باردة يابسة والحياة لا بد أن تكون مادتها وحاملها طبيعة حارة رطبة، فكيف يكون البعث؟ فأجاب بما يحمل الدليل والجواب معاً فقال: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [يس: ٨٠]، فأخبر سبحانه بإخراج هذا العنصر الذي هو في غاية الحرارة واليبوسة وهو النار من الشجر الأخضر الممتلئ بالرطوبة والبرودة. وهو المرخ والعفار فالذي يخرج الشيء من ضده وتنقاد له مواد المخلوقات وعناصرها ولا تستعصي عليه هو الذي يفعل ما أنكر الملحد من إحياء العظام وهي رميم.

٦ ـ ثم أكد هذا بأخذ الدلالة من الشيء الأجل الأعظم على الأيسر الأصغر فإن كل عاقل يعلم أن من قدر على العظيم الجليل فهو على ما دونه بكثير أقدر وأقدر، فمن قدر على حمل قنطار من الحديد فهو على حمل أوقية أشد اقتداراً

فقال: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ﴾ [يسٓ: ٨١]، كما قال في موضع آخر: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٥٧﴾ [غافر: ٥٧]، فإن الذي أبدع السماوات والأرض مع عظم شأنهما لقادر على إحياء العظام وهي رميم.

٧ ـ ثم أكد سبحانه ذلك بأمر آخر وهو أن فعله ليس بمنزلة غيره الذي يفعل بواسطة الآلات ويعاني الكلفة والنصب والمشقة ولا يمكنه الاستقلال بالفعل بل لا بد معه من آلة تعينه، بل يكفي في خلقه سبحانه لما يريد مجرد إرادته وقوله للشيء كن فيكون: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٨٢﴾ [يسٓ: ٨٢].

٨ ـ وأخيراً ختم بالتسبيح لتنزيه ذاته عن كل ما يراد لتنقيصه سبحانه والإخبار بأن بيده ملكوت كل شيء فلا يعجزه شيء: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٨٣﴾ [يسٓ: ٨٣].

١٥ آيات المعاد في سورة الإسراء:

مما ورد عن المعاد فيها قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ۝٤٩ ۞ قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ۝٥٠ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ۝٥١﴾ [الإسراء: ٤٩ ـ ٥١]، وفي هذه الآيات ذكر بعض ما يرد على ألسنة الملحدين وأجاب عنه:

١ ـ فأخبر أولاً أنهم يقولون المستبعد للمعاد: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا﴾، وأجاب عن ذلك بقوله: ﴿۞ قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ۝٥٠﴾ وهذا الجواب يحتمل معنيين:

الأول: إن زعمتم أنه لا خالق لكم ولا رب لكم فهلّا كنتم خلقاً لا يفنيه الموت كالحجارة والحديد وما هو أكبر في صدوركم منهما؟ فإن قلتم: إننا كنا خلقاً على هذه الصفة التي تفعل الفناء، قلنا: فما الذي يحول بين خالقكم ومنشئكم وبين إعادتكم من جديد مرة أخرى.

الثاني: أن المراد لو كنتم حجارة أو حديداً أو خلقاً أكبر من ذلك لكان الله ﷻ قادراً على إفنائكم وإحالة أجسادكم ونقلها من حال إلى حال، والذي يقدر على التصرف في هذه الأشياء قارد على التصرف فيما دونها بطريق الأولى.

٢ ـ ثم أخبر ﷻ أنهم يسألون قائلين من يعيدنا؟ فكأنهم بهذا يستنكرون

القدرة، قال سبحانه رداً عليهم: قل الذي فطركم أول مرة، فالذي أوجده من عدم قادر على إعادته بعد إفنائه.

٣ ـ ثم أخبر الله ثالثاً بأنه حينما لزمتهم الحجة أخذوا يتعللون ويسألون سؤال المنقطع: «متى هو»؟ فأجيبوا بقوله: عسى أن يكون قريباً، ولما كان أمر الساعة من الأمور التي استأثر الله ﷻ بها رأفة بالعباد لكي لا يصيبهم الجزع والخوف إن علموا بقربها، أو يتكاسلوا عن فعل الخيرات إن علموا بتأخرها أجيبوا بذلك، والله اعلم.

(١٦) ذكر مذاهب في المعاد هل هو جسماني أم روحاني؟ أم بهما معاً؟

اختلف الناس في المعاد هل هو جسماني أم روحاني على أقوال خمسة:

أ ـ فقالت طائفة من المتكلمين: إن المعاد جسماني...

ب ـ وقال الفلاسفة: إن المعاد روحاني.

ج ـ وقال الغزالي وجمهور العلماء أنه جسماني روحاني معاً.

د ـ وقال قوم بالتوقف، وهو رأي «جالينوس» حيث قال: «لم يتبين لي أن النفس هي المزاج فتنعدم بالموت وتستحيل إعادتها أو أنها جوهر باق، فيمكن بذلك إعادتها». فهو توقف لتوقفه في حقيقة الروح.

هـ ـ وقال قدماء الفلاسفة الطبيعيين بإنكار المعاد الجسماني والروحاني معاً. والقولان الآخران خارجان عن أقوال أهل الإسلام ـ أما الأقوال الثلاثة الأولى منها فهي أقوال أهل الإسلام. ومن العلماء من كفر الرأي الثاني وهو أن المعاد روحاني فقط لأنه أنكر ما ورد في القرآن من أنه معاد جسماني كقوله تعالى: ﴿قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ۝٧٨ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس: ٧٨ ـ ٧٩]، فهذا دليل على أن البعث جسماني.

الرأي المختار:

إن المعاد جسماني وروحاني معاً، أما أنه جسماني فذلك بإعادة الله لهذا الجسم بعد أن يتفتت ويبلى وتتفرق أجزاؤه، وأما أنه روحاني فبإعادة الروح إلى البدن بعد أن فارقته.

(١٧) أقوال الناس في إعادة الأجسام بعد فنائها:

اختلف الناس في ذلك على قولين:

أولهما: إن إعادة الأجسام بعد فنائها. إعادة عن عدم فبعد أن يعدمها ويفنيها يعيدها خلقاً آخر.

الثاني: إن الإعادة عن تفريق، فبعد أن يفرق الله أجزاء البدن يجمعها سبحانه ثم يعيد خلقه.

أدلة كل طائفة:

أ ـ استدل أصحاب الرأي الأول بما يأتي:

١ ـ قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨] قالوا: والهلاك عبارة عن الفناء والعدم.

٢ ـ قوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]، وقد أخبر سبحانه أن الإعادة كالخلق، فكما أن الخلق من العدم فكذلك الإعادة.

ب ـ واستدل أصحاب الرأي الثاني بقوله تعالى حكاية عن إبراهيم: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٠] الآية. فقد أخبر الله نبيّه إبراهيم بصفة الإعادة وقال له قولاً يفهم منه أن الإعادة تكون عن طريق الأجزاء وليس عن إعدامها، بدليل أمره بتفريق الأجزاء على الجبال. وقد ذكر صاحب «لوامع الأنوار البهية» أن القول الأول هو الصحيح.. أما الثاني فقال إنه هو المشهور وينسب إلى ابن القيم أنه اختار الثاني.

(١٨) الجواب عما استشكله بعض الناس من قوله ﷺ: (إن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من تنشق عنه الأرض فأجد موسى باطشاً جنب العرش):

روي عن النبي ﷺ أنه قال: **(إن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من تنشق عنه الأرض فأجد موسى باطشاً جنب العرش).**

قبل الجواب على هذا الإشكال أود أن أبين أن الصعق يقع مرتين الأولى: عند النفخة قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ...﴾ وهذا الصعق: موت من كان حياً إلا من شاء الله: والصعق الثاني: هي عند أن يجمعهم الله لفصل القضاء[1].

والصعق هو أن يغشى على الإنسان صوت شديد يسمعه وربما مات[2] منه أما وجه الإشكال:

استشكل منه ما يفهم من أن انشقاق الأرض عن الخلائق يكون بعد تجلي الله

(١) انظر: التذكرة (١/ ٢١١) للقرطبي، والروح (ص٧١).

(٢) انظر: النهاية (٣/ ٣١).

لفصل القضاء. وهذا المفهوم معارض لقول الله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [الزمر: ٦٨ ـ ٦٩] فواضح من الآية أن مجيء الرب ﷻ يكون بعد النفخة الثانية.

وسبب هذا الإشكال:

هو خلط الراوي بين[1] التجلي وحديث نفخة البعث.. فقد أدخل حديثاً في حديث فركب بين اللفظ وجاء الحديث هكذا.

والإجابة عن هذا الإشكال... تكون برد كل حديث إلى أصله.

فحديث صعق التجلي كما هو في الصحيحين: **(إن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق، فإذا موسى آخذ بقائمة العرش فلا أدري أجوزي بصعقة الطور أم أفاق قبلي)**. وهذه إجابة بعض العلماء على هذا الإشكال، ومنهم المزي وابن كثير، فهذا صعق في يوم القيامة إذا جاء الله لفصل القضاء وأشرقت الأرض بنوره.

وأما الحديث الثاني فهو: **(أنا أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة)**. قال الشارح: «وكذلك اشتبه على بعض الرواة فقال: **فلا أدري أفاق قبلي أم كان ممن استثنى الله** ﷻ... والمحفوظ الذي تواطأت عليه الروايات الصحيحة هو الأول» وعليه المعنى الصحيح، وقد ذكر الألباني أن الصعقة المرادة في الحديث إنما هي صعقة البعث المذكورة في الآية: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾، وليست صعقة تقع لفصل القضاء... كما قال الأولون، وقد ساق لذلك عدة روايات في الحديث جمعت بين انشقاق الأرض عنه ﷺ. ووجود موسى آخذاً بقائمة العرش، ويرد على قوله أمران:

أولهما: أن المراد بالنفخ في الآية نفخة البعث. ولا تسمى صعقة...

الثاني: على فرض أنها تسمى صعقاً فإن الصعق هو فقدان الوعي والإدراك والميت فاقد الوعي أصلاً.. فكيف يفقد وعيه وإدراكه؟.

١٩ الخلاصة:

١ ـ يؤمن أهل السنة أيضاً بأن الله تعالى يبعث الموتى يوم القيامة، فيجازيهم

---

(١) انظر: كتاب الروح (ص٧٤)، والنهاية لابن كثير (ص١٥٧).

بأعمالهم كما قال تعالى: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن: ٧].

٢ ـ يؤمنون بالعرض على الله كما قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ⑱﴾ [الحاقة: ١٨]، وبالحساب حيث يحاسب الله كل إنسان بما عمل، وبقراءة الكتاب كما قال تعالى: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ⑭﴾ [الإسراء: ١٤]، وبالثواب والعقاب لأهل الحسنات والسيئات، الحسنة بعشرة أمثالها أو يزيد، والسيئة بمثلها أو يعفو.

٣ ـ ويؤمنون بالصراط وهو جسر على شفير جهنم أدق من الشعرة وأحد من السيف، يعبره الصالحون إلى الجنة، ويتخطف من فوقه أهل العذاب، ويؤمنون بالميزان الذي توزن به أعمال العباد، وهو ميزان حقيقي توضع الحسنات في إحدى كفتيه والسيئات في الكفة الثانية.

٤ ـ الإيمان بالبعث داخل ضمن الإيمان باليوم الآخر، والإيمان بالغيب عموماً. ولا يخفى أهمية ذلك. توافرت الأدلة على إثبات البعث.

٥ ـ وأدلة البعث ثابتة بالكتاب والسنة والعقل والحس.

٦ ـ منكر البعث كافر بالله ﷻ وبرسله وبكتبه واليوم الآخر.

٧ ـ اهتم القرآن الكريم اهتماماً عظيماً بإثبات المعاد والرد على منكريه في معظم سوره، وذلك لأن منكري المعاد كثيرون.

٨ ـ اتخذ القرآن عدة أساليب في إثبات المعاد، كالقسم على المعاد، والإخبار، وذم المكذبين... الخ.

٩ ـ إن المعاد جسماني وروحاني معاً، أما أنه جسماني فذلك بإعادة الله لهذا الجسم بعد أن يتفتت ويبلى وتتفرق أجزاؤه، وأما أنه روحاني فبإعادة الروح إلى البدن بعد أن فارقته.

(٢٠) المناقشة:

- **س١:** بيّن المقصود بكلام الطحاوي: «ونؤمن بالبعث وجزاء الأعمال يوم القيامة، والعرض والحساب، وقراءة الكتاب، والثواب والعقاب، والصراط والميزان».
- **س٢:** عرّف البعث والنشور.
- **س٣:** بيّن منزلة الإيمان بالبعث من الدين.

- **س٤:** اذكر الأدلة على ثبوت البعث.
- **س٥:** اذكر أدلة إمكان البعث.
- **س٦:** ما حكم إنكار البعث؟.
- **س٧:** ما الحكمة من اهتمام القرآن بإثبات المعاد أكثر من الكلام عن إثبات ذات الرب؟.
- **س٨:** ما الحكمة من إخبار النبي ﷺ عن أمور الآخرة تفصيلاً؟.
- **س٩:** دعوى أن النبي ﷺ قد تكلم في أمور المعاد دون غيره من الأنبياء، وضّح ذلك.
- **س١٠:** عدّد أساليب القرآن في إثبات المعاد، مع الأدلة.
- **س١١:** اذكر آيات المعاد في سورة يس، وبيّن المراد منها.
- **س١٢:** اذكر آيات المعاد في سورة الإسراء، وبيّن المراد منها.
- **س١٣:** اذكر المذاهب في أمر المعاد هل هو جسماني أم روحاني؟ أم بهما معاً؟.
- **س١٤:** بيّن أقوال الناس في إعادة الأجسام بعد فنائها.
- **س١٥:** كيف تجيب عما استشكله بعض الناس من قوله ﷺ: **(إن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من تنشق عنه الأرض فأجد موسى باطشاً جنب العرش)**؟.
- **س١٦:** لقد قام النبي ﷺ ببيان أمور الآخرة تفصيلاً أكثر من غيره من الأنبياء، فلماذا؟

الحساب والصراط والميزان

*** كلام ابن أبي العز:**

١ ـ غرض المصنف من عقد هذا الباب.

٢ ـ مناسبة هذا الباب لما سبق.

٣ ـ معاني الكلمات.

٤ ـ تعريف الحساب.

٥ ـ الأدلة على ثبوت الحساب.

٦ ـ كيفية وصفة الحساب.

٧ ـ أنواع الحساب.

٨ ـ كيفية محاسبة الكفار.

٩ ـ أول من يحاسب من الأمم.

١٠ ـ أول ما يحاسب عليه العبد.

١١ ـ أول ما يقضى به بين الناس.

١٢ ـ حكم الإيمان بنشر الصحف وقراءة الكتاب.

١٣ ـ الجمع بين قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾﴾ [الانشاق: ٨] وبيّن قوله ﷺ: (ليس أحد يحاسب يوم القيامة إلا هلك).

١٤ ـ الجزاء مظهر من مظاهر عدل الله ﷻ.

١٥ ـ أنواع الجزاء الرباني.

١٦ ـ جزاء الحسنة والسيئة كما وردت في القرآن والسنة.

١٧ ـ المقصود بالعرض وأنواعه وأدلته.

١٨ ـ تعريف الصراط وصفته.

١٩ ـ الحكمة من الصراط وحكم الإيمان به.

٢٠ ـ أول من يعبر الصراط.

٢١ ـ هل يمر الكفار بالصراط؟.

٢٢ ـ الصراط الثاني.

٢٣ ـ تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَاۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ۝٧١﴾ [مريم: ٧١].

٢٤ ـ تعريف الميزان وصفته وحكم الإيمان به.

٢٥ ـ الأشياء التي توزن في الميزان.

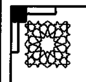
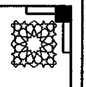
٢٦ ـ الحكمة من تقديم الحساب على الميزان.

٢٧ ـ هل الميزان واحد؟.

٢٨ ـ الجواب على دعوى أن أعمال العباد أعراض لا يمكن وزنها.

٢٩ ـ الخلاصة.

٣٠ ـ المناقشة.

الحساب والصراط والميزان

قال ابن أبي العز:

قوله: «والصراط» أي: ونؤمن بالصراط وهو جسر على جهنم إذا انتهى الناس بعد مفارقتهم مكان الموقف إلى الظلمة التي دون الصراط كما قالت عائشة رضي الله عنها: «إن رسول الله ﷺ سئل أين الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات، فقال: هم في الظلمة دون الجسر»(١). وفي هذا الموضع يفترق المنافقون عن المؤمنين ويتخلفون عنهم، ويسبقهم المؤمنون ويحال بينهم بسور يمنعهم من الوصول إليهم.

وروى البيهقي بسنده عن مسروق عن عبد الله قال: «يجمع الله الناس يوم القيامة إلى أن قال: فيعطون نورهم على قدر أعمالهم، وقال: فمنهم من يعطى نوره مثل الجبل بين يديه، ومنهم من يعطى نوره فوق ذلك، ومنهم من يعطى نوره مثل النخلة بيمينه، ومنهم من يعطى دون ذلك بيمينه حتى يكون آخر من يعطى نوره على إبهام قدمه يضيء مرة ويطفأ مرة، إذا أضاء قدَّم قدمه، وإذا طفئ قام قال: فيمر ويمرون على الصراط والصراط كحد السيف دحض مزلة، فيقال لهم: امضوا على قدر نوركم، فمنهم: من يمر كانقضاض الكوكب، ومنهم: من يمر كالريح، ومنهم من يمر كالطرف، ومنهم من يمر كشد الرجل يرمل رملاً فيمرون على قدر أعمالهم حتى يمر الذي نوره على إبهام قدمه تخر يد وتعلق يد، وتخر رجل وتعلق رجل، وتصيب جوانبه النار فيخلصون، فإذا خلصوا قالوا: الحمد لله الذي نجانا منك بعد أراناك، لقد أعطانا الله ما لم يعط أحد»(٢).

واختلف المفسرون في المراد بالورود المذكور في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ

---

(١) أخرجه مسلم (٣١٥).

(٢) أخرجه الحاكم (٢/ ٣٧٦ ـ ٣٧٧)، والطبراني في الكبير (٩٧٦٣)، وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٣٤٠ ـ ٣٤٣): رواه الطبراني من طرق ورجال أحدهما رجال الصحيح غير أبي خالد الدالاني وهو ثقة.

اتَّقَوا وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾ [مريم ٧٢] ما هو؟ والأظهر والأقوى أنه المرور على الصراط، قال تعالى: ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ قَالُواْ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾﴾ [مريم: ٢٧]. وفي الصحيح أنه ﷺ قال: (والذي نفسي بيده لا يلج النار أحد بايع تحت الشجرة)، قالت حفصة: فقلت يا رسول الله، أليس الله يقول: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾؟ فقال: «ألم تسمعيه قال: ﴿ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾»[1]، أشار ﷺ إلى أن ورود النار لا يستلزم دخولها وأن النجاة من الشر لا تستلزم حصوله، بل تستلزم انعقاد سببه، فمن طلبه عدوه ليهلكوه ولم يتمكنوا منه، يقال: نجاه الله منهم، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا﴾ [هود: ٥٨] ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا﴾ [هود: ٦٦] ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا﴾ [هود: ٩٤]، ولم يكن العذاب أصابهم، ولكن أصاب غيرهم ولولا ما خصهم الله به من أسباب النجاة لأصابهم ما أصاب أولئك.

وكذلك حال الوارد في النار يمرون فوقها على الصراط ثم ينجي الله الذين اتقوا ويذر الظالمين فيها جثياً، فقد بيّن ﷺ في حديث جابر المذكور أن الورود هو الورود على الصراط.

وروى الحافظ أبو نصر الوائلي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال ﷺ: (علم الناس سنتي وإن كرهوا ذلك وإن أحببت أن لا توقف على الصراط طرفة عين حتى تدخل الجنة فلا تحدثن في دين الله حدثاً برأيك)[2]، أورده القرطبي.

وروى أبو بكر ابن أحمد بن سليمان النجار عن يعلى بن منية عن رسول الله قال: (تقول النار للمؤمن يوم القيامة جُز يا مؤمن فقد أطفأ نورك لهبي)[3].

وقوله: «والميزان» أي: ونؤمن بالميزان. قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء: ٤٧]. وقال تعالى: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [المؤمنون: ١٠٢ ـ ١٠٣]..

---

(١) أخرجه مسلم (٢٤٩٦).

(٢) أخرجه الخطيب البغدادي في تاريخه (٤/ ٣٨٠).

(٣) أورده الهيثمي في المجمع (١٠/ ٣٦٠) عن الطبراني، وضعفه بسليم بن منصور بن عمار.

قال القرطبي: قال العلماء: إذا انقضى الحساب كان بعده وزن الأعمال لأن الوزن للجزاء، فينبغي أن يكون بعد المحاسبة، فإن المحاسبة لتقرير الأعمال والوزن لإظهار مقاديرها ليكون الجزاء بحسبها، قال: وقوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ يحتمل أن يكون ثَمَّ موازين متعددة توزن فيها الأعمال، ويحتمل أن يكون المراد الموزونات، فجمع باعتبار تنوع الأعمال الموزونة، والله اعلم.

والذي دلّت عليه السنّة أن ميزان الأعمال له كفتان حسيَّتان مشاهدتان، روى الإمام أحمد من حديث أبي عبد الرحمن الحبلي قال: سمعت عبد الله بن عمرو يقول: قال رسول الله ﷺ: (إن الله سيخلص رجلاً من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة فينشر عليه تسعة وتسعين سجلاً كل سجل مد البصر ثم يقول له: أتنكر من هذا شيئاً، أظلمتك كتبتي الحافظون؟ قال: لا يا رب، فيقول: ألك عذر أو حسنة، فيبهت الرجل فيقول: لا يا رب، فيقول: بلى إن لك عندنا حسنة واحدة لا ظلم اليوم عليك، فتخرج له بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، فيقول: أحضروه، فيقول: يا رب وما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فيقال: إنك لا تظلم، قال: فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة، قال: فطاشت السجلات وثقلت البطاقة ولا يثقل شيء بسم الله الرحمن الرحيم)[1] وهكذا روى الترمذي وابن ماجه وابن أبي الدنيا من حديث الليث، زاد الترمذي: «ولا يثقل مع اسم الله شيء، وفي سياق آخر: توضع الموازين يوم القيامة فيؤتى بالرجل فيوضع في كفة» الحديث.

وفي هذا السياق فائدة جليلة وهي أن العامل يوزن مع عمله، ويشهد له ما روى البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: (إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة وقال: اقرؤوا إن شئتم: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: ١٠٥]).

وروى الإمام أحمد عن ابن مسعود: أنه كان يجني سواكاً من الأراك وكان دقيق الساقين، فجعلت الريح تكفؤه، فضحك القوم منه، فقال رسول الله ﷺ: (مم

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٢١٣)، والترمذي (٢٦٣٩)، وابن ماجه (٤٣٠٠)، والحاكم (١/ ٦)، وصححه ووافقه الذهبي.

تضحكون؟)، قالوا: يا نبي الله من دقة ساقيه، فقال: (والذي نفسي بيده لهما أثقل في الميزان من أُحُد)[١].

وقد وردت الأحاديث أيضاً بوزن الأعمال أنفسها كما في صحيح مسلم عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: (الطهور شطر الإيمان والحمد لله تملأ الميزان)[٢].

وفي الصحيح وهو خاتمة كتاب البخاري قوله ﷺ: (كلمتان خفيفتان على اللسان، حبيبتان إلى الرحمن، ثقيلتان في الميزان: سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم)[٣].

وروى الحافظ أبو بكر البيهقي عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (يؤتى بابن آدم يوم القيامة فيوقف بين كفتي الميزان ويوكل به ملك، فإن ثقل ميزانه نادى الملك بصوت يسمع الخلائق سعد فلان سعادة لا يشقى بعدها أبداً، وإن خف ميزانه نادى الملك بصوت يسمع الخلائق شقي فلان شقاوة لا يسعد بعدها أبداً)[٤].

فلا يلتفت إلى ملحد معاند، يقول: الأعمال أعراض لا تقبل الوزن، وإنما يقبل الوزن الأجسام، فإن الله يقلب الأعراض أجساماً كما تقدم، وكما روى الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (يؤتى بالموت كبشاً أغر فيوقف بين الجنة والنار، فيقال: يا أهل الجنة فيشرئبون وينظرون، ويقال: يا أهل النار فيشرئبون وينظرون ويرون أن قد جاء الفرج، فيذبح ويقال: خلود لا موت)[٥]. ورواه البخاري بمعناه، فثبت وزن الأعمال، والعامل وصحائف الأعمال، وثبت أن الميزان له كفتان، والله تعالى أعلم بما وراء ذلك من الكيفيات.

فعلينا الإيمان بالغيب كما أخبرنا الصادق من غير زيادة ولا نقصان.

ويا خيبة من ينفي وضع الموازين القسط ليوم القيامة كما أخبر الشارع لخفاء

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٤٢٠ ـ ٤٢١)، والحاكم (٣/ ٣١٧)، وصححه ووافقه الذهبي.
(٢) أخرجه مسلم (٢٢٣).
(٣) أخرجه البخاري (٧٥٦٣)، ومسلم (٢٦٩٤).
(٤) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٦/ ١٧٤)، وفي إسناده داود بن المحبر وهو متروك.
(٥) أخرجه أحمد (٢/ ٤٢٣)، وانظر: صحيح البخاري (٤٧٣٠).

الحكمة عليه ويقدح في النصوص بقوله لا يحتاج إلى الميزان إلا البقال والفوال، وما أحراه بأن يكون من الذين لا يقيم الله لهم يوم القيامة وزناً، ولو لم يكن من الحكمة في وزن الأعمال إلا ظهور عدله سبحانه لجميع عباده فإنه لا أحد أحب إليه العذر من الله، من أجل ذلك أرسل الرسل مبشرين ومنذرين، فكيف ووراء ذلك من الحكم ما لا اطلاع لنا عليه، فتأمل قول الملائكة لما قال الله لهم: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [البقرة: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

وقد تقدم عند ذكر الحوض كلام القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن الحوض قبل الميزان والصراط بعد الميزان.

ففي «الصحيحين»: «أن المؤمنين إذا عبروا الصراط وقفوا على قنطرة بين الجنة والنار فيقتص لبعضهم من بعض، فإذا هُذِّبوا ونُقوا أذن لهم في دخول الجنة»[١]، وجعل القرطبي في التذكرة[٢] هذه القنطرة صراطاً ثانياً للمؤمنين خاصة، وليس يسقط منه أحد في النار، والله تعالى أعلم.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٤٤٠).
(٢) (٢/٤١٠).



عناصر الموضوع:

١ غرض المصنف من عقد هذا الباب:

أ ـ بيان معتقد أهل السنة والجماعة في الحساب وقراءة الكتاب والثواب والعقاب والصراط والميزان.

ب ـ الرد على المخالفين لأهل السنة في ذلك من أهل الأهواء والبدع.

٢ مناسبة هذا الباب لما سبق:

قرر المصنف فيما سبق أن من أصول أهل السنة والجماعة اتباع السنة والجماعة واجتناب الشذوذ والفرقة والخلاف، هذا ومما جاءت به النصوص الشرعية من الكتاب والسنة الإيمان بالحساب وقراءة الكتاب والثواب والعقاب والصراط والميزان وغير ذلك من المغيبات.

٣ معاني الكلمات:

الكلمة	المعنى
النصب	التعب.
الفطرة	الجبلة المتهيئة لقبول الدين.

٤ تعريف الحساب:

الحساب لغة: مأخوذ من حسب، فالحاء والسين والباء أصل صحيح يدل على عدة معان؛ منها العد والإحصاء[١].

والحساب شرعاً: هو إطلاع الله ﷻ عباده على أعمالهم يوم القيامة، وإخبارهم بما قدموه من خير وشر[٢].

---

(١) انظر: معجم مقاييس اللغة (٢/٥٩)، ولسان العرب (١/٣١١).

(٢) انظر: لمعة الاعتقاد (ص١١٧)، وشرح الواسطية للهراس (ص٢٠٩).

٥ الأدلة على ثبوت الحساب:

أ ـ من الكتاب:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ۝ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ۝﴾ [الغاشية: ٢٥ ـ ٢٦]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [غافر: ١٧].

ب ـ ومن السنّة:

قوله ﷺ في بعض صلاته: **(اللهم حاسبني حساباً يسيراً)، فقالت عائشة** رضي الله عنها: ما الحساب اليسير؟ قال: **(أن ينظر في كتابه فيتجاوز عنه)**[1].

٦ كيفية وصِفَة الحساب:

يوقف الله ﷻ العباد بين يديه فيقررهم بذنوبهم، وبأعمالهم وأقوالهم وكل ما فعلوه في الحياة الدنيا من كفر وإيمان، ومعصية وطاعة، وخير وشر... الخ. فيثيب على الإحسان، وإن شاء عاقب أو عفا من الإساءة.

والحساب شامل لكل ما سبق بالإضافة لوزن الأعمال وما جرى مجرى ذلك.

٧ أنواع الحساب:

الحساب منه اليسير، ومنه العسير، ومنه حساب التقرير والتكريم، ومنه حساب التوبيخ والتقريع، ومنه الفضل والصفح، ومنه المؤاخذة والمجازاة، وكل ذلك بيد أرحم الراحمين وأعدل الحاكمين.

٨ كيفية محاسبة الكفار:

قال شيخ الإسلام: «وتنشر الدواوين وهي صحائف الأعمال، فآخذٌ كتابه بيمينه وآخذ كتابه بشماله أو من وراء ظهره كما قال ﷻ: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ۝ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ۝﴾ [الإسراء: ١٣ ـ ١٤]. ويحاسب الله الخلائق ويخلو بعبده المؤمن فيقرره بذنوبه كما وصف ذلك في الكتاب والسنّة.

وأما الكفار فلا يحاسبون محاسبة من توزن حسناته وسيئاته فإنه لا حسنات لهم، ولكن تعد أعمالهم وتحصى فيوقفون عليها ويقررون بها ويجزون بها»[2].

---

(١) أحمد (٦/٤٨)، وابن أبي عاصم في السنة (٨٨٥)، وقال الألباني: إسناده صحيح.

(٢) مجموع الفتاوى (٣/١٤٦).

(٩) أول من يحاسب من الأمم:

قال ﷺ: **(نحن الآخرون السابقون يوم القيامة، المقضي بينهم قبل الخلائق)**(١).

(١٠) أول ما يحاسب عليه العبد:

ورد أن أول ما يحاسب عليه العبد هو الصلاة؛ وذلك لأنها عماد الدين.. فمن حافظ عليها كان حرياً له بأن يأتي ببقية الشعائر، ومن تركها كان لما سواها أضيع، وقد دل على ذلك ما روي عنه ﷺ أنه قال: **(أول ما يحاسب عليه العبد: الصلاة)**.

(١١) أول ما يقضى بين الناس في الدماء:

قال ﷺ: **(أول ما يقضى بين الناس في الدماء)**(٢).

(١٢) حكم الإيمان بنشر الصحف وقراءة الكتاب:

نشر الصحف وقراءة الكتاب وأخذه باليمين والشمال من الأمور التي يجب الإيمان والتصديق بها، وذلك لورودها في الكتاب الكريم ولإجماع أهل الحق عليها:

أ ـ فأما ورودها في الكتاب فقوله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾ [الإسراء: ١٣ ـ ١٤]، وقوله: ﴿يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾﴾ [الإسراء: ٧١ ـ ٧٢].

ب ـ وأما الإجماع فقد أجمع أهل الحق على ذلك كما نقله السفاريني في «لوامع الأنوار البهية»، فيجب الإيمان بكل ذلك لوروده في الكتاب والإجماع.

(١٣) الجمع بين قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾﴾ [الانشقاق: ٨]، وبين قوله ﷺ: (ليس أحد يحاسب يوم القيامة إلا هلك):

لا تعارض بين ما ورد في الآية وما ورد في الحديث، لأن الحساب المراد في الآية هو العرض؛ أي: عرض الأعمال.

---

(١) البخاري (٨٧٦)، ومسلم (٨٥٥).

(٢) البخاري (٦٨٦٤)، ومسلم (١٦٧٨).

أما الحساب المراد في الحديث فهو المناقشة. فقد جاء عن عائشة ﵂ أنها قالت: «ليس أحد يحاسب يوم القيامة إلا هلك، قلت: يا رسول الله أليس الله يقول: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ⑧﴾، قال: إن ذلك العرض وليس أحد يناقش الحساب يوم القيامة إلا عُذِّب».

١٤ الجزاء مظهر من مظاهر عدل الله ﷻ:

خلق الله الإنسان وميزه بالعقل الذي يدرك به الخير من الشر والحق من الباطل، وقد كلفه في الحياة الدنيا بتكاليف إن امتثلها استحق الثواب وإن خالفها استحق العقاب، وهذا كله أثر لصفة من صفات الله ﷻ وهي صفة العدل التي تأبى المساواة بين المسلم والكافر وبين المحسن والمسيء، قال تعالى مقرراً لهذه الحقيقة: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [القلم: ٣٥ ـ ٣٦]، وقال: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الجاثية: ٢١]، وقد دلت الآية على أن عدل الله يأبى أن يسوَّى بين المحسن والمسيء وبين المسلم والكافر، فالتسوية بينهما إجحاف وظلم يأباه العقل والفطرة السليمة.

١٥ أنواع الجزاء الرباني:

الجزاء الرباني على نوعين:

أولهما: جزاء معجل وهو الذي يكون في هذه الحياة، فقد يعجل الله الثواب أو جزءاً منه فيتحقق في الحياة الدنيا وكذلك العقاب، ويشهد لتعجيل الثواب أو جزء منه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦]. وقوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [النحل: ٣٠]... فلقد دلت الآية الأولى على أن أهل القرى لو آمنوا واتقوا لكان لهم الجزاء المعجل... بركات كثيرة... وكذلك الآية الثانية ويشهد لتعجيل العقاب أو جزء منه قوله تعالى: ﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ﴾ [الزمر: ٢٥ ـ ٢٦]، وكذلك قوله تعالى في الآية السابقة: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ [الأعراف: ٩٦]، إلى قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦]، فقد دلت الآية على الجزاء المعجل سواء كان ثواباً أو عقاباً.

ثانيهما: الجزاء المؤجل وهو الذي يكون في الحياة البرزخية أو الآخرة وهي بهذا على صنفين:

أ ـ ما يكون في الحياة البرزخية: ونعني به عذاب القبر ونعيمه ويشهد له قوله تعالى في شأن آل فرعون: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ [غافر: ٤٦]، وكذلك ما ورد في حديث البراء: (**إن العبد المؤمن يأتيه من روح الجنة وطيبها، ويتسع له قبره مد بصره، وأن العبد الكافر يأتيه من حر النار وسمومها، ويضيق عليه قبره حتى تختلف أضلاعه**).

ب ـ ما يكون في الآخرة، ويدل له قوله ﷻ: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾﴾ [النبأ: ٢١ ـ ٣٤]، فقد دلّت الآيات على الجزاء المؤجل للطاغين وللمتقين أيضاً.

١٦ جزاء الحسنة والسيئة كما وردت في القرآن والسنة:

تدل النصوص الشرعية على أن أوفى جزاء للحسنة هو عشر أمثالها، كما تدل النصوص على أن أعلى جزاء للسيئة هو مثلها، قال تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾ [الأنعام: ١٦٠]، وروي عنه ﷺ أنه قال حكاية عن الله ﷻ: (**إذا همّ عبدي بسيئة ولم يعملها فلا تكتبوها عليه، فإن عملها فاكتبوها عليه سيئة، وإذا همّ عبدي بحسنة ولم يعملها فاكتبوها حسنة، فإن عملها فاكتبوها عشراً**).

أما أعلى جزاء للحسنة فلا يعلم مقدارها إلا الله سبحانه، فإنه سبحانه قد يضاعف أجور الحسنات أضعافاً كثيرة، قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾ [البقرة: ٢٦١].

ولم نتعرض لأوفى جزاء للسيئة ـ لأن السيئة قد لا يعاقب عليها امتناناً منه ـ قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الشورى: ٢٥].

١٧ المقصود بالعرض وأنواعه وأدلته:

هو عرض الناس على الله ﷻ يوم القيامة للحساب، وهو أمر ثابت في الكتاب والسنة، فيجب الإيمان به والتصديق به لوروده فيهما.

أ ـ فمن الكتاب:

دلّ عليه قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾﴾ [الحاقة: ١٨]، وقوله: ﴿وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾﴾ [الكهف: ٤٨].

ب ـ ومن السنّة:

ما روي عنه ﷺ أنه قال: (**يعرض الناس على ربهم ثلاث عرضات.. فعرضتا جدال ومعاذير، وعرضة تطاير الصحف، فمن أوتي كتابه بيمينه وحوسب حساباً يسيراً دخل الجنة، ومن أوتي كتابه بشماله دخل النار**).

للعرض أنواع كثيرة:

١ ـ فهناك عرض الصحف: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴿٧﴾﴾ [الانشقاق: ٧].

٢ ـ وهناك عرض على الله: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ ﴿٦﴾﴾ [الانشقاق: ٦].

٣ ـ وعرض أعمال.. ودليله ما تقدم من عرض الصحف.

٤ ـ وعرض الناس على جهنم، وعرض جهنم على الناس يدل لذلك: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ [غافر: ٤٦]، ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ﴾ [الأحقاف: ٢٠].

١٨ تعريف الصراط وصفته:

الصراط لغة: الطريق الواضح المستقيم ومنه قول جرير:

أمير المؤمنين على صراط ... إذا اعوج الموارد فتستقيم

وقد يقال له: سراط بالسين، وزراط على خلاف في حرف الزاي.

أما في **الاصطلاح:** فهو جسر منصوب على متن جهنم... يمر عليه الأولون والآخرون...

صفته:

وقد ورد في صفته أنه أدق من الشعر... وأحد من السيف، وأن عليه كلاليب وحسكاً تأخذ من شاء الله إيقاعه في جهنم.

روي عنه ﷺ أنه قال: (**إن لجهنم جسراً أدق من الشعر وأحد من السيف عليه كلاليب وحسك تأخذ من شاء الله... والناس يمرون عليه كالطرف وكالبرق وكأجاويد الخيل والركاب... والملائكة تقول: رب سلِّم، فناج مسلَّم، ومخدوش مرسل، ومكردس على وجهه في نار جهنم..**). وروي عن أبي سعيد الخدري أنه قال: بلغني أنه أدق من الشعر وأحد من السيف.

(١٩) الحكمة من الصراط وحكم الإيمان به:

حكم الإيمان به:

١ ـ الإيمان به واجب وأهل الحق يؤمنون بما جاء في صفته.

٢ ـ وبعض المعتزلة يقرون بوجوده وينكرون صفته... بل يقولون أنه طريق الجنة والنار.. وممن يقول به عبد الجبار، وأما القرافي والعز بن عبد السلام، وغيرهما فقد أقروا بوجوده... وأنكروا صفته وأوَّلوا ذلك بتأويلات فاسدة... ودليل ذلك الآثار التي تقدمت.

الحكمة من الصراط:

هي زيادة تنعيم المؤمن حيث يرى الشر الذي نجاه الله منه، وزيادة تأنيب الكافر حيث يرى الناجون يمرون بينما يسقط هو في النار، وكذلك إظهار عدل الله بين عباده في صورة محسوسة.

(٢٠) أول من يعبر الصراط:

قال ﷺ: (**فأكون أنا وأمتي أول من يجيز يومئذ إلا الرسل، ودعوى الرسل يومئذ: اللهم سلِّم سلِّم**)[١].

إذا فأول من يعبر الصراط من الأنبياء محمد ﷺ، ومن الأمم أمته ﷺ.

(٢١) هل يمر الكفار بالصراط؟:

قال ابن رجب: «واعلم أن الناس منقسمون إلى مؤمن يعبد الله لا يشرك به شيئاً، ومشرك يعبد مع الله غيره، فأما المشركون فإنهم لا يمرون على الصراط، وإنما يقعون في النار قبل وضع الصراط»[٢].

(٢٢) الصراط الثاني:

لقد ذكر القرطبي أن هناك صراطين:

(١) البخاري (٧٤٣٧)، ومسلم (١٨٢). (٢) التخويف من النار (ص٢٣٢).

أ ـ صراط عام: وهو الذي منصوب على متن جهنم. . . والساقط فيه هالك في النار.

ب ـ صراط خاص: وهو قنطرة بين الجنة والنار بعد خروجهم من النار فيسيرون على هذه القنطرة الفاصلة.

(٢٣) تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾﴾ [مريم: ٧١]:

هذا خطاب لسائر الخلائق، برهم وفاجرهم، مؤمنهم وكافرهم، أنه ما منهم من أحد إلا سيرد النار، حكماً حتمه الله على نفسه، وأوعد به عباده، فلا بد من نفوذه ولا محيد عن وقوعه.

واختلف في معنى الورود، فقيل: ورودها للخلائق كلهم، حتى يحصل الانزعاج من كل أحد، ثم بعدُ ينجي الله المتقين.

وقيل: ورودها دخولها، فتكون على المؤمنين برداً وسلاماً.

وقيل: الورود هو المرور على الصراط الذي هو على متن جهنم، فيمر الناس على قدر أعمالهم، فمنهم من يمر كلمح البصر وكالريح وكأجاويد الخيل وكأجاويد الركاب، ومنهم من يسعى، ومنهم من يمشي مشياً، ومنهم من يزحف زحفاً، ومنهم من يخطف فيلقى في النار، كل بحسب تقواه[١].

(٢٤) تعريف الميزان وصفته وحكم الإيمان به:

الميزان في اللغة: اسم للآلة التي يوزن بها الأشياء، أو ما تقدر به الأشياء خفة وثقلاً[٢].

والميزان شرعاً: هو ما يضعه الله ﷻ يوم القيامة لوزن أعمال العباد[٣].

وحكم الإيمان به: يجب الإيمان به والتصديق بما ورد من صفاته لما ورد في الكتاب الكريم والسنة المطهرة لإجماع أهل الحق عليه.

فأما الكتاب:

فقول الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾﴾ [القارعة: ٦ ـ ٩]، ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ

---

(١) انظر: تفسير السعدي عند تفسير سورة مريم، الآية ٧١، وأضواء البيان (٤/٣٤٨)

(٢) انظر: لسان العرب.

(٣) انظر: لمعة الاعتقاد (ص١٢٠).

هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [المؤمنون: ١٠٢ ـ ١٠٣]، وقوله: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

وأما من السنّة:

فأحاديث كثيرة منها:

١ ـ ما روى عنه ﷺ أنه قال: (**كلمتان خفيفتان على اللسان حبيبتان إلى الرحمٰن ثقيلتان في الميزان: سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم**).

٢ ـ روي عنه ﷺ أنه قال: (**الطهور شطر الإيمان والحمد لله تملأ الميزان**).

٣ ـ وروي عنه ﷺ أنه قال في ابن مسعود حينما ضحك القوم من دقة ساقيه: (**والذي نفسي بيده لهما أثقل في الميزان من أُحُد**).

وكذلك ما روي عنه في حديث البطاقة أنه قال: (**فتوضع السجلات في كفة وتوضع البطاقة في كفة فطاشت السجلات وثقلت البطاقة، ولا يثقل شيء بسم الله الرحمٰن الرحيم**).

وأما الإجماع: فقد نقل السفاريني إجماع أهل الحق على الميزان.

صفته:

وقد دلّت الآثار على أنه ميزان حقيقي[(١)] له كفتان ولسان أيضاً... روي عن ابن عباس أنه قال: «للميزان كفتان ولسان».

والحكمة من نصب الميزان: إظهار عدل الله لجميع عباده، فإنه لا أحد أحب إليه العذر من الله.

٢٥ الأشياء التي توزن في الميزان:

يفهم من النصوص الواردة في الميزان أن الأشياء التي توزن هي: العامل وعمله، والسجلات التي كتبت فيها أعماله.

ومن هذه النصوص:

ـ ما روي عنه ﷺ أنه قال: (**كلمتان خفيفتان على اللسان حبيبتان إلى الرحمن ثقيلتان في الميزان: سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم**).

---

(١) هذا ما عليه الجمهور والسواد الأعظم وهو الحق، وقال الحافظ ابن حجر: «وقد ذهب بعض السلف إلى أن الميزان بمعنى العدل والقضاء»... إلى أن قال: «والراجح ما ذهب إليه الجمهور»، انظر: فتح الباري (١٣/ ٦٧١)، والتذكرة (١/ ٣٨١).

٢ ـ روي عنه ﷺ أنه قال: (**الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان**).

٣ ـ وروي عنه ﷺ أنه قال في ابن مسعود حينما ضحك القوم من دقة ساقيه: (**والذي نفسي بيده لهما أثقل في الميزان من أحد**).

وكذلك ما روي عنه في حديث البطاقة أنه قال: (**فتوضع السجلات في كفة وتوضع البطاقة في كفة فطاشت السجلات وثقلت البطاقة، ولا يثقل شيء بسم الله الرحمن الرحيم**).

٢٦ الحكمة من تقديم الحساب على الميزان:

الحساب يكون قبل الوزن، وذلك لأن الحساب هو كما ذكرنا تقرير الأعمال والتعريف بها، أم الوزن فهو وزن الأعمال وبيان مقاديرها ليكون الجزاء في حسبها، ولا يكون بيان مقدار الشيء إلا بعد التعريف به وتقريره.

٢٧ هل الميزان واحد؟:

اختلف في هذا على قولين:

أ ـ قال بعضهم: إن هناك أكثر من ميزان.

دليلهم: ورودها مجموعة في عدة آيات كما في قوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وقوله: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾﴾ [القارعة: ٦ ـ ٧].

ب ـ وقال بعضهم: هو ميزان واحد لا أكثر وإنما جمعت الآيات باعتبار الأشياء التي توزن فيه.

والراجح أنه ميزان واحد، وأما قوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ﴾ فإنه جمع باعتبار الموزونات أي: الأعمال والأشخاص، وقيل: جمع للتفخيم والتعظيم كما قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾﴾ مع أنه لم يرسل إلا واحد فقط وقال ابن الجوزي: «لما كانت أعمال الخلائق توزن وزنة بعد وزنة سميت موازين»[1].

٢٨ الجواب على دعوى أن أعمال العباد أعراض لا يمكن وزنها:

المعتزلة أنكرت الميزان بحجة أن الأعمال أعراض لا يمكن وزنها وفسرت الميزان بالعدل.

---

(١) انظر: التذكرة (١/ ٢٩٠)، وزاد المسير (٥/ ٣٥٤)، وفتح الباري (١٣/ ٦٧٠).

ويرد عليهم: بأن النصوص الشرعية جاءت بذكر الموازين، فيجب الإيمان كما جاءت به النصوص من غير تأويل له ولا صرف له عن ظاهره.

إذ لا يقال بالمجاز إلا مع وجود قرينة اللفظ عن ظاهره ولا قرينة هنا..

ويجاب عن شبهتهم بأن الله ﷻ يقلب الأعراض أجساماً، فقد ورد في الآثار ما يدل على قلب الأعراض أجساماً، فقد ورد في أحاديث عذاب القبر ونعيمه: **(إن العمل الصالح يأتي على صورة رجل حسن الوجه حسن المنظر يسر به صاحبه)**. وقد ورد في النصوص: **(أنه يؤتى بالموت على شكل كبش فينادى: يا أهل الجنة، فيشرئبون وينظرون ويرون أنه قد جاء الفرج فيذبح ويقال: خلود بلا موت)**.

قال الشارح: «ولو لم يكن من الحكمة من وزن الأعمال إلا ظهور عدله سبحانه لجميع عباده فلا أحد أحب إليه العذر من الله، من أجل ذلك أرسل الرسل مبشرين ومنذرين فكيف ووراء ذلك من الحكم ما لا اطلاع لنا عليه».

(٢٩) الخلاصة:

١ - يؤمن أهل السنّة بالصراط وهو جسر على شفير جهنم أدق من الشعرة وأحد من السيف، يعبره الصالحون إلى الجنة، ويتخطف من فوقه أهل العذاب، ويؤمنون بالميزان الذي توزن به أعمال العباد، وهو ميزان حقيقي توضع الحسنات في إحدى كفتيه والسيئات في الكفة الثانية.

٢ - الحساب هو إطلاع الله عز وجل عباده على أعمالهم يوم القيامة، وإخبارهم بما قدموه من خير وشر. والأدلة على الحساب متوافرة من الكتاب والسنة.

٣ - يوقف الله ﷻ العباد بين يديه فيقررهم بذنوبهم، وبأعمالهم وأقوالهم وكل ما فعلوه في الحياة الدنيا من كفر وإيمان، ومعصية وطاعة، وخير وشر... إلخ. فيثيب على الإحسان، وإن شاء عاقب أو عفا عن الإساءة.

٤ - أول ما يحاسب من الأمم أمة محمد ﷺ.

٥ - أول ما يحاسب عليه العبد هو الصلاة.

٦ - أول ما يقضى بين الناس في الدماء.

٧ - نشر الصحف وقراءة الكتاب وأخذه باليمين والشمال من الأمور التي يجب الإيمان والتصديق بها وذلك لورودها في الكتاب الكريم ولإجماع أهل الحق عليها.

٨ ـ الجزاء مظهر من مظاهر عدل الله ﷻ.

٩ ـ الجزاء الرباني على نوعين: جزاء معجل، وجزاء مؤجل.

١٠ ـ تدل النصوص الشرعية على أن أوفى جزاء للحسنة هو عشر أمثالها كما تدل النصوص على أن أعلى جزاء للسيئة هو مثلها.

١١ ـ الصراط هو جسر منصوب على متن جهنم... يمر عليه الأولون والآخرون... والإيمان به واجب وأهل الحق يؤمنون بما جاء في صفته.

١٢ ـ أول من يعبر الصراط من الأنبياء محمد ﷺ، ومن الأمم أمته ﷺ.

١٣ ـ الكفار والمشركون لا يمرون على الصراط، وإنما يقعون في النار قبل وضع الصراط.

١٤ ـ الميزان هو ما يضعه الله ﷻ يوم القيامة لوزن أعمال العباد. ويجب الإيمان به والتصديق بما ورد من صفاته لما ورد في الكتاب الكريم والسنة المطهرة لإجماع أهل الحق عليه.

١٥ ـ الحكمة من نصب الميزان: إظهار عدل الله لجميع عباده، فإنه لا أحد أحب إليه العذر من الله.

١٦ ـ يفهم من النصوص الواردة في الميزان أن الأشياء التي توزن هي: العامل وعمله، والسجلات التي كتبت فيها أعماله.

(٣٠) المناقشة:

- **س١:** بيّن المقصود بكلام الطحاوي: «ونؤمن بالبعث وجزاء الأعمال يوم القيامة، والعرض والحساب، وقراءة الكتاب، والثواب والعقاب، والصراط والميزان».
- **س٢:** عرّف الحساب.
- **س٣:** اذكر الأدلة على ثبوت الحساب والإيمان به.
- **س٤:** بيّن كيفية وصِفَة الحساب.
- **س٥:** ما أنواع الحساب؟.
- **س٦:** كيف يحاسب الكفار؟.
- **س٧:** من أول من يحاسب من الأمم؟.
- **س٨:** ما أول ما يحاسب عليه العبد؟.
- **س٩:** ما أول ما يقضى به بين الناس؟.

- **س١٠:** بيّن حكم الإيمان بنشر الصحف وقراءة الكتاب.
- **س١١:** كيف تجمع بين قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾﴾ [الانشقاق: ٨]، وبيّن قوله ﷺ: **(ليس أحد يحاسب يوم القيامة إلا هلك)؟**.
- **س١٢:** بيّن أن الجزاء مظهر من مظاهر عدل الله ﷻ.
- **س١٣:** ما أنواع الجزاء الرباني؟.
- **س١٤:** بيّن جزاء الحسنة والسيئة كما وردت في القرآن والسنة.
- **س١٥:** ما المقصود بالعرض؟ وما أنواعه؟ مع ذكر أدلته.
- **س١٦:** عرف الصراط، وبيِّن صفته.
- **س١٧:** ما الحكمة من الصراط؟ وما حكم الإيمان به؟.
- **س١٨:** من أول من يعبر الصراط؟.
- **س١٩:** هل يمر الكفار بالصراط؟.
- **س٢٠:** هل يوجد صراط ثانٍ؟.
- **س٢١:** بيّن معنى قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾﴾ [مريم: ٧١].
- **س٢٢:** عرّف الميزان.
- **س٢٣:** ما صفة الميزان؟ وما حكم الإيمان به؟.
- **س٢٤:** ما الحكمة من نصب الميزان؟.
- **س٢٥:** اذكر الأشياء التي توزن في الميزان يوم القيامة.
- **س٢٦:** ما الحكمة من تقديم الحساب على الميزان؟.
- **س٢٧:** هل الميزان واحد؟.
- **س٢٨:** كيف ترد على دعوى أن أعمال العباد أعراض لا يمكن وزنها؟.

الجنة والنار مخلوقتان موجودتان لا تفنيان أبداً

*** كلام ابن أبي العز:**

١ ـ غرض المصنف من عقد هذا الباب.

٢ ـ مناسبة هذا الباب لما سبق.

٣ ـ معاني الكلمات.

٤ ـ معنى كلام الطحاوي: «والجنة والنار مخلوقتان لا تفنيان أبداً ولا تبيدان، وأن الله تعالى خلق الجنة والنار قبل الخلق، وخلق لهما أهلاً، فمن شاء منهم إلى الجنة فضلاً منه، ومن شاء منهم إلى النار عدلاً منه، وكل يعمل لما قد فرغ له، وصائر إلى ما خلق له. والخير والشر مقدران على العباد».

٥ ـ لماذا عقد المصنف هذا المبحث؟

٦ ـ تعريف الجنة ولماذا سميت بذلك ومكانها.

٧ ـ تعريف النار في اللغة والشرع ومكانها.

٨ ـ الجنة والنار مخلوقتان موجودتان.

٩ ـ الجنة والنار لا تفنيان.

١٠ ـ المخالفون لأهل السنة في خلق الجنة والنار ووجودهما.

١١ ـ المخالفون لأهل السنة في شأن فناء الجنة والنار ودوامهما.

١٢ ـ أقوال الناس في أبدية النار ودوامها.

١٣ ـ اختلاف أهل العلم في توجيه الاستثناء في قوله تعالى: ﴿۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾﴾ [هود: ١٠٨].

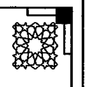
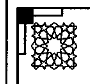
١٤ ـ حكم أطفال المسلمين في الآخرة.

١٥ ـ أنواع المخلوقات من حيث الإرادة.

١٦ ـ منع الثواب عن العبد.

١٧ ـ الخلاصة.

١٨ ـ المناقشة.

الجنة والنار مخلوقتان موجودتان لا تفنيان أبداً

قال ابن أبي العز:

وقوله: «والجنة والنار مخلوقتان لا تفنيان أبداً ولا تبيدان، فإن الله تعالى خلق الجنة والنار قبل الخلق وخلق لهما أهلاً فمن شاء منهم إلى الجنة فضلاً منه ومن شاء منهم إلى النار عدلاً منه، وكل يعمل لما قد فرغ له وصائر إلى ما خلق له والخير والشر مقدران على العباد».

أما قوله: «إن الجنة والنار مخلوقتان» فاتفق[1] أهل السنة على أن الجنة والنار مخلوقتان موجودتان الآن ولم يزل أهل السنة على ذلك حتى نبغت نابغة من المعتزلة والقدرية فأنكرت ذلك وقالت بل ينشئهما الله يوم القيامة، وحملهم على ذلك أصلهم الفاسد الذي وضعوا به شريعة لما يفعله الله وأنه ينبغي أن يفعل كذا ولا ينبغي له أن يفعل كذا وقاسوه على خلقه في أفعالهم فهم مشبهة في الأفعال، ودخل التجهم فيهم فصاروا مع ذلك معطلة، وقالوا خلق الجنة قبل الجزاء عبث لأنها تصير معطلة مدداً متطاولة، فردوا من النصوص ما خالف هذه الشريعة الباطلة التي وضعوها للرب تعالى، وحرفوا النصوص عن مواضعها وضللوا وبدَّعوا من خالف شريعتهم.

فمن نصوص الكتاب قوله تعالى عن الجنة: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣] ﴿أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ [الحديد: ٢١]، وعن النار: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤]، ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾﴾ [النبأ: ٢١ ـ ٢٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾﴾ [النجم: ١٣ ـ ١٥]، وقد رأى النبي ﷺ سدرة المنتهى ورأى عندها جنة المأوى كما في الصحيحين من حديث أنس ﷺ في قصة الإسراء وفي آخره: «ثم انطلق بي جبرائيل حتى أتى سدرة المنتهى فغشيها ألوان لا أدري ما هي؟ قال: ثم دخلت الجنة فإذا هي جنابذة اللؤلؤ وإذا ترابها المسك»[2].

---

(١) انظر: حادي الأرواح (ص١٨).
(٢) سبق تخريجه.

وفي «الصحيحين» من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: (إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار، يقال: هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة)[(١)].

وتقدم حديث البراء بن عازب وفيه: «ينادي منادي من السماء أن صدق عبدي فأفرشوه من الجنة وافتحوا له باباً إلى الجنة، قال: فيأتيه من رَوحها وطيبها»[(٢)].

وتقدم حديث أنس بمعنى حديث البراء، وفي «صحيح مسلم» عن عائشة رضي الله عنها قالت: «خسفت الشمس على عهد رسول الله ﷺ...» فذكرت الحديث، وفيه: قال رسول الله ﷺ: (رأيت في مقامي هذا كل شيء وعدتم به حتى لقد رأيتني آخذ قطفاً من الجنة حين رأيتموني تقدمت، ولقد رأيت النار يحطم بعضها بعضاً حين رأيتموني تأخرت)[(٣)].

وفي الصحيحين واللفظ للبخاري عن عبد الله بن عباس قال: «انخسفت الشمس على عهد رسول الله ﷺ...» فذكر الحديث، وفيه: فقالوا: يا رسول الله رأيناك تناولت شيئاً في مقامك ثم رأيناك تكعكعت فقال: (إن رأيت الجنة وتناولت عنقوداً ولو أصبته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا ورأيت النار فلم أر منظراً كاليوم قط أفظع ورأيت أكثر أهلها النساء)، قالوا: بم يا رسول الله؟ قال: (بكفرهن) قيل: أيكفرن بالله؟ قال: (يكفرن العشير ويكفرن الإحسان لو أحسن إلى إحداهن الدهر كله ثم رأت منك شيئاً قالت: ما رأيت خيراً قط)[(٤)].

وفي «صحيح مسلم» من حديث أنس: (وأيم الذي نفسي بيده لو رأيتم ما رأيت لضحكتم قليلاً وبكيتم كثيراً)، قالوا: وما رأيت يا رسول الله؟ قال: (رأيت الجنة والنار)[(٥)].

وفي «الموطأ» و«السنن» من حديث كعب بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ:

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٧٩)، ومسلم (٢٨٦٦).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه مسلم (٩٠١).

(٤) أخرجه البخاري (١٠٥٢)، ومسلم (٩٠٧).

(٥) أخرجه مسلم (٤٢٦).

(إنما نسمة المؤمن طير تعلق في شجر الجنة حتى يرجعها الله إلى جسده يوم القيامة، وهذا صريح دخول الروح في الجنة قبل يوم القيامة)[١].

وفي «صحيح مسلم» و«السنن» و«المسند» من حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (لما خلق الله الجنة والنار أرسل جبرائيل إلى الجنة فقال: اذهب فانظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها، فذهب فنظر إليها وإلى ما أعد الله لأهلها فيها، فرجع فقال: وعزتك لا يسمع بها أحد إلا دخلها، فأمر بالجنة فحفت بالمكاره، فقال: ارجع فانظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها، قال: فنظر إليها ثم رجع، فقال: وعزتك لقد خشيت أن لا يدخلها أحد، قال: ثم أرسله إلى النار، قال: اذهب فانظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها، قال: فنظر إليها فإذا هي يركب بعضها بعضاً، ثم رجع فقال: وعزتك لا يدخلها أحد سمع بها، فأمر بها فحفت بالشهوات ثم قال: اذهب فانظر إلى ما أعددت لأهلها فيها، فذهب فنظر إليها فرجع فقال: وعزتك لقد خشيت أن لا ينجو منها أحد إلا دخلها)[٢]، ونظائر ذلك في السنة كثيرة.

وأما على قول من قال: إن الجنة الموعود بها هي الجنة التي كان فيها آدم ثم أخرج منها، فالقول بوجودها الآن ظاهر والخلاف في ذلك معروف.

وأما شبهة من قال إنها لم تخلق بعد وهي أنها لو كانت مخلوقة الآن لوجب اضطراراً أن تفنى يوم القيامة وأن يهلك كل من فيها ويموت لقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨] و﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

وقد روى الترمذي في جامعه من حديث ابن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (لقيت إبراهيم ليلة أسري بي فقال: يا محمد أقرئ أمتك مني السلام وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة عذبة الماء، وأنها قيعان، وأن غراسها سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر)[٣]. قال: هذا حديث حسن غريب.

وفيه أيضاً من حديث أبي الزبير عن جابر عن النبي ﷺ أنه قال: (من قال:

---

(١) سبق تخريجه.
(٢) أخرجه أبو داود (٤٧٤٤)، والترمذي (٢٥٦٣)، والنسائي (٧/ ٣ ـ ٤).
(٣) أخرجه الترمذي (٣٤٥٨)، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٠٥).

سبحان الله وبحمده غرست له نخلة في الجنة)[1]. قال: هذا حديث حسن صحيح. قالوا: فلو كانت مخلوقة مفروغاً منها لم تكن قيعاناً ولم يكن لهذا الغراس معنى.

قالوا: وكذا قوله تعالى عن امرأة فرعون أنها قالت: ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ﴾ [التحريم: ١١].

فالجواب: إنكم إن أردتم بقولكم إنها الآن معدومة بمنزلة النفخ في الصور وقيام الناس من القبور، فهذا باطل يرده ما تقدم من الأدلة وأمثالها مما لم يذكر، وإن أردتم أنها لم يكمل خلق جميع ما أعد الله فيها لأهلها، وأنها لا يزال الله يحدث فيها شيئاً بعد شيء وإذا دخلها المؤمنون أحدث الله فيها عند دخولهم أموراً أخر فهذا حق لا يمكن رده، وأدلتكم هذه إنما تدل على هذا القدر.

وأما احتجاجكم بقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨]، فأُتيتم من سوء فهمكم معنى الآية، واحتجاجكم بها على عدم وجود الجنة والنار الآن نظير احتجاج إخوانكم على فنائهما وخرابهما وموت أهلهما، فلم توفقوا أنتم ولا إخوانكم لفهم معنى الآية، وإنما وفق لذلك أئمة الإسلام، فمن كلامهم أن المراد كل شيء مما كتب الله عليه الفناء والهلاك هالك والجنة والنار خلقتا للبقاء لا للفناء، وكذلك العرش فإنه سقف الجنة، وقيل: المراد إلا ملكه، وقيل: إلا ما أريد به وجهه، وقيل: إن الله تعالى أنزل: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾﴾ [الرحمن: ٢٦].

فقالت الملائكة هلك أهل الأرض وطمعوا في البقاء، فأخبر تعالى عن أهل السماء والأرض أنهم يموتون فقال: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨] لأنه حي لا يموت، فأيقنت الملائكة عند ذلك بالموت، وإنما قالوا ذلك توفيقاً بينها وبين النصوص المحكمة الدالة على بقاء الجنة وعلى بقاء النار أيضاً على ما يذكر عن قريب إن شاء الله تعالى.

وقوله: «لا تفنيان أبداً ولا تبيدان». هذا قول جمهور الأئمة من السلف والخلف.

وقال ببقاء الجنة وبفناء النار: جماعة من السلف والخلف، والقولان مذكوران في كثير من كتب التفسير وغيرها. وقال بفناء الجنة والنار: الجهم بن صفوان إمام

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٤٦٠).

المعطلة، وليس له سلف قط لا من الصحابة ولا من التابعين لهم بإحسان ولا من أئمة المسلمين ولا من أهل السنة، وأنكره عليه عامة أهل السنة وكفروه به وصاحوا به وبأتباعه من أقطار الأرض، وهذا قاله لأصله الفاسد الذي اعتقده وهو امتناع وجود ما لا يتناهى من الحوادث وهو عمدة أهل الكلام المذموم التي استدلوا بها على حدوث الأجسام وحدوث ما لم يَخِلْ من الحوادث، وجعلوا ذلك عمدتهم في حدوث العالم، فرأى جهم أن ما يمنع من حوادث لا أول لها في الماضي يمنعه في المستقبل، فدوام الفعل عنده على الرب في المستقبل ممتنع كما هو ممتنع عنده عليه في الماضي، وأبو الهذيل العلاف شيخ المعتزلة وافقه على هذا الأصل لكن قال: إن هذا يقتضي فناء الحركات، فقال بفناء حركات أهل الجنة حتى يصيروا في سكون دائم لا يقدر أحد منهم على حركة، وقد تقدم الإشارة إلى اختلاف الناس في تسلسل الحوادث في الماضي والمستقبل، وهي مسألة دوام فاعلية الرب تعالى وهو لم يزل رباً قادراً فعالاً لما يريد، فإنه لم يزل حياً عليماً قديراً، ومن المحال أن يكون الفعل ممتنعاً عليه لذاته ثم ينقلب فيصير ممكناً لذاته من غير تجدد شيء، وليس للأول حد محدود حتى يصير الفعل ممكناً له عند ذلك الحد ويكون قبله ممتنعاً عليه، فهذا القول تصوره كاف في الجزم بفساده.

فأما أبدية الجنة وأنها لا تفنى ولا تبيد، فهذا مما يعلم بالضرورة أن الرسول أخبر به. قال تعالى: ﴿۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾﴾ [هود: ١٠٨]، أي: غير مقطوع ولا ينافي ذلك قوله: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾.

واختلف السلف في هذا الاستثناء، فقيل معناه: إلا مدة مكثهم في النار، وهذا يكون لمن دخل منهم إلى النار ثم أخرج منها لا لكلهم.

وقيل: إلا مدة مقامهم في الموقف، وقيل: إلا مدة مقامهم في القبور والموقف.

وقيل: هو استثناء الرب ولا يفعله، كما تقول: والله لأضربنك إلا أن أرى غير ذلك، وأنت لا تراه بل تجزم بضربه.

وقيل: إلا بمعنى الواو، وهذا على قول بعض النحاة وهو ضعيف، وسيبويه يجعل إلا بمعنى لكن، فيكون الاستثناء مقطعاً، ورجحه ابن جرير وقال: إن الله تعالى لا

خُلف لوعده، وقد وصل الاستثناء بقوله: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ قالوا: ونظيره أن تقول: أسكنتك داري حولاً إلا ما شئت؛ أي: سوى ما شئت، ولكن ما شئت من الزيادة عليه.

وقيل: الاستثناء لإعلامهم بأنهم مع خلودهم في مشيئة الله لأنهم لا يخرجون عن مشيئته، ولا ينافي ذلك عزيمته وجزمه لهم بالخلود كما في قوله تعالى: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾﴾ [الإسراء: ٨٦]، وقوله تعالى: ﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشورى: ٢٤]، وقوله: ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ﴾ [يونس: ١٦]، ونظائره كثيرة يخبر عباده سبحانه أن الأمور كلها بمشيئته، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

وقيل: إن «ما» بمعنى «من» أي: إلا من شاء الله دخوله النار بذنوبه من السعداء وقيل غير ذلك، وعلى كل تقدير فهذا الاستثناء من المتشابه، وقوله: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ محكم، وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَـٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾﴾ [ص: ٥٤]، وقوله: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾ [الرعد: ٣٥]، وقوله: ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ [الحجر: ٤٨]، وقد أكد الله خلود أهل الجنة بالتأبيد في عدة مواضع من القرآن وأخبر أنهم: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الدخان: ٥٦]، وهذا الاستثناء منقطع، وإذا ضممته إلى الاستثناء في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ تبين أن المراد من الآيتين استثناء الوقت الذي لم يكونوا فيه في الجنة من مدة الخلود كاستثناء الموتة الأولى من جملة الموت، فهذه موتة تقدمت على حياتهم الأبدية، وذلك مفارقة للجنة تقدمت على خلودهم فيها.

والأدلة من السنة على أبدية الجنة ودوامها كثيرة كقوله ﷺ: (من يدخل الجنة ينعم ولا يبأس ويخلد ولا يموت). وقوله ﷺ: (ينادي مناد يا أهل الجنة إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً، وأن تشبوا فلا تهرموا أبداً، وأن تحيوا فلا تموتوا أبداً)[١].

وتقدم ذكر ذبح الموت بين الجنة والنار، ويقال: «يا أهل الجنة خلود فلا موت ويا أهل النار خلود فلا موت»[٢].

وأما أبدية النار[٣] ودوامها فللناس في ذلك ثمانية أقوال:

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٣٧).
(٢) سبق تخريجه.
(٣) انظر: حادي الأرواح (ص٢٥٢).

أحدها: أن من دخلها لا يخرج منها أبد الآباد، وهذا قول الخوارج والمعتزلة.

والثاني: أن أهلها يعذبون فيها ثم تنقلب طبيعتهم وتبقى طبيعة نارية يتلذذون بها لموافقتها لطبعهم، وهذا قول إمام الاتحادية ابن عربي الطائي.

الثالث: أن أهلها يعذبون فيها إلى وقت محدود ثم يخرجون منها ويخلفهم فيها قوم آخرون، وهذا القول حكاه اليهود للنبي وأكذبهم فيه، وقد أكذبهم الله تعالى فقال عز من قائل: ﴿وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾﴾ [البقرة: ٨٠ ـ ٨١].

الرابع: يخرجون منها وتبقى على حالها ليس فيها أحد.

الخامس: أنها تفنى بنفسها لأنها حادثة وما ثبت حدوثه استحال بقاؤه، وهذا قول الجهم وشيعته ولا فرق عنده في ذلك بين الجنة والنار كما تقدم.

السادس: تفنى حركات أهلها ويصيرون جماداً لا يحسون بألم، وهذا قول أبي الهذيل العلاف كما تقدم.

السابع: أن الله يخرج منها من يشاء كما ورد في الحديث ثم يبقيها شيئاً ثم يفنيها، فإنه جعل لها أمداً تنتهي إليه.

الثامن: أن الله تعالى يُخرج منها من شاء كما ورد في السنة ويبقى فيها الكفار بقاء لا انقضاء له كما قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وما عدا هذين القولين الأخيرين ظاهر البطلان.

وهذان القولان أهل السنّة ينظر في أدلتهما.

فمن أدلة القول الأول منهما: قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٢٨]، وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾﴾ [هود: ١٠٦ ـ ١٠٧]، ولم يأت بعد هذين الاستثناءين ما أتى بعد الاستثناء المذكور لأهل الجنة وهو قوله: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾، وقوله تعالى: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾﴾ [النبأ: ٢٣].

وهذا القول أعني القول بفناء النار دون الجنة منقول عن عمر وابن مسعود وأبي هريرة وأبي سعيد وغيرهم.

وقد روى عبد بن حميد في تفسيره المشهور بسنده إلى عمر ﷺ أنه قال: لو لبث أهل النار في النار كقدر رمل عالج لكان لهم على ذلك وقت يخرجون فيه ذكر ذلك في تفسير قوله تعالى: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابٗا ٢٣﴾ قالوا: والنار موجب غضبه والجنة موجب رحمته، وقد قال ﷺ: (لما قضى الله الخلق كتب كتاباً فهو عنده فوق العرش إن رحمتي سبقت غضبي)[1]، وفي رواية: «تغلب غضبي»، رواه البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة ﷺ.

قالوا: والله سبحانه يخبر عن العذاب أنه: ﴿عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ [الأنعام: ١٥] و﴿أَلِيمٌ﴾ و﴿عَقِيمٍ﴾، ولم يخبر ولا في موضع واحد عن النعيم أنه نعيم يوم وقد قال تعالى: ﴿عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، وقال تعالى حكاية عن الملائكة: ﴿رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا﴾ [غافر: ٧]، فلا بد أن تسع رحمته هؤلاء المعذبين، فلو بقوا في العذاب لا إلى غاية لم تسعهم رحمته، وقد ثبت في الصحيح تقدير يوم القيامة بخمسين ألف سنة والمعذبون فيها متفاوتون في مدة لبثهم في العذاب بحسب جرائمهم، وليس في حكمة أحكم الحاكمين ورحمة أرحم الراحمين أن يخلق خلقاً يعذبهم أبد الآباد عذاباً سرمداً لا نهاية له، وأما أنه يخلق خلقاً ينعم عليهم ويحسن إليهم نعيماً سرمداً فمن مقتضى الحكمة والإحسان مراد لذاته والانتقام مراد بالعرض.

قالوا: وما ورد من الخلود فيها والتأبيد وعدم الخروج وأن عذابها مقيم وأنه غرام كله حق مُسَلَّم لا نزاع فيه، وذلك يقتضي الخلود في دار العذاب ما دامت باقية، وإنما يخرج منها في حال بقائها أهل التوحيد، ففرق بين من يخرج من الحبس وهو حبس على حاله، وبين من يبطل حبسه بخراب الحبس وانتقاضه.

ومن أدلة القائلين ببقائها وعدم فنائها قوله: ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٞ﴾ [المائدة: ٣٧] ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنۡهُمۡ وَهُمۡ فِيهِ مُبۡلِسُونَ ٧٥﴾ [الزخرف: ٧٥] ﴿فَلَن نَّزِيدَكُمۡ إِلَّا عَذَابًا﴾ [النبأ: ٣٠]، ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ﴾ [البينة: ٨]، ﴿وَمَا هُم مِّنۡهَا بِمُخۡرَجِينَ﴾ [الحجر: ٤٨]، ﴿وَمَا هُم

(١) سبق تخريجه.

بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٧]، ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠]، ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر: ٣٦] ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ [الفرقان: ٦٥] أي: مقيماً لازماً.

وقد دلت السنّة المستفيضة أنه يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله، وأحاديث الشفاعة صريحة في خروج عصاة الموحدين من النار، وأن هذا حكم مختص بهم، فلو خرج الكفار منها لكانوا بمنزلتهم ولم يختص الخروج بأهل الإيمان وبقاء الجنة والنار ليس لذاتها بل بإبقاء الله لهما.

وقوله: «وخلق لهما أهلاً». قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ [الأعراف: ١٧٩] الآية. وعن عائشة رضي الله عنها قالت: دعي رسول الله ﷺ إلى جنازة صبي من الأنصار فقلت: يا رسول الله، طوبى لهذا عصفور من عصافير الجنة لم يعمل سوءاً ولم يدركه، فقال: (أو غير ذلك يا عائشة إن الله خلق للجنة أهلاً خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم وخلق للنار أهلاً خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم)[١]. رواه مسلم وأبو داود والنسائي.

وقال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾ [الإنسان: ٢ ـ ٣]. والمراد الهداية العامة وأعم منها الهداية المذكورة في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠]، فالموجودات نوعان أحدهما مسخر بطبعه والثاني متحرك بإرادته، فهدى الأول لما سخره له طبيعة، وهدى الثاني هداية إرادية تابعة لشعوره وعلمه بما ينفعه ويضره.

ثم قسم هذا النوع إلى ثلاثة أنواع:

نوع لا يريد إلا الخير ولا يتأتى منه إرادة سواه كالملائكة.

ونوع لا يريد إلا الشر ولا يتأتى منه إرادة سواه كالشياطين.

ونوع يتأتى منه إرادة القسمين كالإنسان ثم جعله ثلاثة أصناف: صنفاً يغلب إيمانه ومعرفته وعقله هواه وشهوته فيلتحق بالملائكة وصنفاً عكسه فيلتحق

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٦٢).

بالشياطين، وصنفاً تغلب شهوته البهيمية عقله فيلتحق بالبهائم.

والمقصود أنه سبحانه أعطى الوجودين العيني والعلمي فكما أنه لا موجود إلا بإيجاده فلا هداية إلا بتعليمه وذلك كله من الأدلة على كمال قدرته وثبوت وحدانيته وتحقيق ربوبيته ﷻ.

وقوله: «فمن شاء منهم إلى الجنة فضلاً منه ومن شاء منهم إلى النار عدلاً منه..» إلخ. مما يجب أن يعلم الله تعالى لا يمنع الثواب إلا إذا منع سببه وهو العمل الصالح فإنه: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾﴾ [طه: ١١٢]. **وكذلك لا يعاقب أحداً إلا بعد حصول سبب العقاب فإن الله تعالى يقول:** ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الشورى: ٣٠].

وهو سبحانه المعطي المانع لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع، لكن إذا منّ على الإنسان بالإيمان والعمل الصالح فلا يمنعه موجب ذلك أصلاً بل يعطيه من الثواب والقرب ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر وحيث منعه ذلك فلانتفاء سببه وهو العمل الصالح.

ولا ريب أنه يهدي من يشاء ويضل من يشاء، لكن ذلك كله حكمة منه وعدل، فمنعه للأسباب التي هي الأعمال الصالحة من حكمته وعدله، وأما المسببات بعد وجود أسبابها فلا يمنعها بحال إذا لم تكن أسباباً غير صالحة إما لفساد في العمل وإما لسبب يعارض موجبه ومقتضاه فيكون ذلك لعدم المقتضى أو لوجود المانع، وإذا كان منعه وعقوبته من عدم الإيمان والعمل الصالح وهو لم يعط ذلك ابتلاء وابتداء إلا حكمة منه وعدلاً فله الحمد في الحالين، وهو المحمود على كل حال كل عطاء منه فضل وكل عقوبة منه عدل، فإن الله تعالى حكيم يضع الأشياء في مواضعها التي تصلح لها كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤]**، وكما قال تعالى:** ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [الأنعام: ٥٣]. **ونحو ذلك وسيأتي لذلك زيادة إن شاء الله تعالى.**



عناصر الموضوع:

١ غرض المصنف من عقد هذا الباب:

أ ـ بيان معتقد أهل السنة والجماعة بأن الجنة والنار مخلوقتان موجودتان دائمتان لا تفنيان أبداً، وأن الله تعالى خلقهما وخلق لكل منهما أهلاً وكتب ذلك في اللوح المحفوظ قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة.

وهذا مذهب الصحابة والتابعين من سلف الأمة.

ب ـ الرد على أهل البدع من المعتزلة والقدرية وغيرهم الذين قالوا أن الجنة والنار معدومتان وإنما تخلقان يوم القيامة، والصواب ما عليه أهل السنة والجماعة وهو ما قاله الصحابة والتابعون لهم بإحسان أنهما مخلوقتان الآن موجودتان دائمتان لا تفنيان.

٢ مناسبة هذا الباب لما سبق:

قرر المصنف فيما سبق أن من أصول أهل السنة والجماعة اتباع السنة والجماعة واجتناب الشذوذ والفرقة والخلاف، هذا ومما جاءت به النصوص الشرعية الإيمان بالمغيبات مثل الجنة والنار، وأنهما مخلوقتان موجودتان الآن دائمتان لا تفنيان أبداً، وأن الله تعالى خلق الجنة والنار قبل الخلق وخلق لهما أهلاً.

٣ معاني الكلمات:

الكلمة	المعنى
لا تفنيان أبداً ولا تبيدان	لا تنقضيان ولا ينتهي وجودهما.
التسلسل	ترتيب أمور غير متناهية.
المانع	ما يمنع من حصول الشيء.
مقدران	مكتوبان مرادان.

(٤) معنى كلام الطحاوي: «والجنة والنار مخلوقتان لا تفنيان أبداً ولا تبيدان، وأن الله تعالى خلق الجنة والنار قبل الخلق، وخلق لهما أهلاً، فمن شاء منهم إلى الجنة فضلاً منه، ومن شاء منهم إلى النار عدلاً منه، وكل يعمل لما قد فرغ له، وصائر إلى ما خلق له. والخير والشر مقدران على العباد»:

يؤمن أهل السنة بالجنة والنار وأنهما مخلوقتان وموجودتان الآن، فالجنة دار المتقين، والنار دار الكافرين والمذنبين، فأما نار المذنبين فتفنى، وأما نار الكافرين فلا تفنى، وأما الجنة فإنها لا تفنى أبداً، وقد خلقهما الله قبل الخلق، وقد خلق الله لكل منهما أهلاً، أما أهل الجنة فييسرون لعمل أهل الجنة، وأما أهل النار فييسرون لعمل أهل النار، فأهل الجنة يدخلونها بفضل الله ورحمته، وأهل النار يدخلونها بعدل الله، وكل واحد يعمل على حسب ما قدره الله له وكل واحد يصير إلى ما قدره الله له، فالخير والشر كلاهما كائن بقضاء الله وقدره، كما قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٧٨]؛ فكل شيء يجري في هذا الكون من خير وشر إنما بتقدير الله وإرادته، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

(٥) لماذا عقد المصنف هذا المبحث؟

للرد على الجهمية والمعتزلة القائلين بأن الجنة والنار لم تخلقا بعد، وأنهما تفنيان يوم القيامة.

(٦) تعريف الجنة ولما سُميت بذلك ومكانها:

الجنة لغة: هي البستان الكثير الأشجار. وشرعاً: هي دار النعيم التي أعدها الله في الآخرة للمؤمنين المتقين المخلصين لله المتبعين لرسله.

وسميت بذلك إما تشبيهاً بالجنة في الأرض وإن كان بينهما بون شاسع، وإما لستره نعيمها عنا المشار إليها بقوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السجدة: ١٧][(١)].

وهي في أعلى عليين لقوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾﴾ [المطففين: ١٨].

---

(١) انظر: معجم مفردات ألفاظ القرآن (ص٩٦)، ولمعة الاعتقاد (ص١٣١).

تعريف النار في اللغة والشرع ومكانها:

(٧) النار في اللغة تقال للهيب الذي يبدو للحاسة، وللحرارة المجردة، ولنار جهنم، ولنار الحرب. وفي الشرع: هي دار العذاب التي أعدها الله في الآخرة للكافرين الذين كفروا بالله وعصوا رسله[(١)].

وهي في أسفل السافلين لقوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ۝٧﴾ [المطففين: ٧].

(٨) الجنة والنار مخلوقتان موجودتان:

اتفق أهل السنة على أن الجنة والنار مخلوقتان موجودتان الآن ولم يزل أهل السنة على ذلك حتى نبغت نابغة من المعتزلة[(٢)] والقدرية فأنكرت ذلك وقالت بل ينشئهما الله يوم القيامة، وحملهم على ذلك أصلهم الفاسد الذي وضعوا به شريعة لما يفعله الله، وأنه ينبغي أن يفعل كذا ولا ينبغي له أن يفعل كذا، وقاسوه على خلقه في أفعالهم، فهم مشبهة في الأفعال ودخل التجهم فيهم فصاروا مع ذلك معطلة، وقالوا: خلق الجنة قبل الجزاء عبث لأنها تصير معطلة مدداً متطاولة فردوا من النصوص ما خالف هذه الشريعة الباطلة التي وضعوها للرب تعالى، وحرفوا النصوص عن مواضعها وضلَّلوا وبدَّعوا من خالف شريعتهم.

فمن نصوص الكتاب قوله تعالى عن الجنة: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣] ﴿أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ [الحديد: ٢١]، وعن النار: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤]، ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ۝٢١ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ۝٢٢﴾ [النبأ: ٢١، ٢٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝١٤ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ۝١٥﴾ [النجم: ١٣ ـ ١٥]، وقد رأى النبي ﷺ سدرة المنتهى ورأى عندها جنة المأوى كما في الصحيحين من حديث أنس رضي الله عنه في قصة الإسراء وفي آخره: «**ثم انطلق بي جبرائيل حتى أتى سدرة المنتهى فغشيها ألوان لا أدري ما هي قال: ثم دخلت الجنة فإذا هي جنابذة اللؤلؤ وإذا ترابها المسك**».

وفي الصحيحين من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة وإن**

(١) انظر: لمعة الاعتقاد (ص١٣١ ـ ١٣٣).

(٢) انظر: الفصل (٤/ ١٤١).

كان من أهل النار فمن أهل النار، يقال هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة».

وتقدم حديث البراء بن عازب وفيه: **(ينادي مناد من السماء أن صدق عبدي فأفرشوه من الجنة وافتحوا له باباً إلى الجنة، قال: فيأتيه من رَوحها وطيبها)**.

وتقدم حديث أنس بمعنى حديث البراء، وفي صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: خسفت الشمس على عهد رسول الله ﷺ فذكرت الحديث وفيه قال رسول الله ﷺ: **(رأيت في مقامي هذا كل شيء وعدتم به، حتى لقد رأيتني آخذ قطفاً من الجنة حين رأيتموني تقدمت، ولقد رأيت النار يحطم بعضها بعضاً حين رأيتموني تأخرت)**.

وفي الصحيحين واللفظ للبخاري عن عبد الله بن عباس قال: انخسفت الشمس على عهد رسول الله ﷺ فذكر الحديث وفيه: **(فقالوا يا رسول الله رأيناك تناولت شيئاً في مقامك ثم رأيناك تكعكعت فقال: إني رأيت الجنة وتناولت عنقوداً ولو أصبته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا، ورأيت النار فلم أر منظراً كاليوم قط أفظع، ورأيت أكثر أهلها النساء، قالوا: بم يا رسول الله؟ قال: بكفرهن، قيل: أيكفرن بالله؟ قال: يكفرن العشير ويكفرن الإحسان، لو أحسنت إلى إحداهن الدهر كله ثم رأت منك شيئاً قالت: ما رأيت خيراً قط)**.

وفي صحيح مسلم من حديث أنس: **(وايم الذي نفسي بيده لو رأيتم ما رأيت لضحكتم قليلاً وبكيتم كثيراً، قالوا: وما رأيت يا رسول الله؟ قال: رأيت الجنة والنار)**.

وفي الموطأ والسنن من حديث كعب بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: **(إنما نسمة المؤمن طير تعلق في شجر الجنة حتى يرجعها الله إلى جسده يوم القيامة وهذا صريح دخول الروح في الجنة قبل يوم القيامة)**.

وفي صحيح مسلم والسنن والمسند من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **(لما خلق الله الجنة والنار أرسل جبرائيل إلى الجنة فقال: اذهب فانظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها، فذهب فنظر إليها وإلى ما أعد الله لأهلها فيها فرجع فقال: وعزتك لا يسمع بها أحد إلا دخلها، فأمر بالجنة فحُفَّت بالمكاره فقال: ارجع فانظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها قال: فنظر إليها ثم رجع فقال: وعزتك لقد خشيت أن لا يدخلها أحد، قال: ثم أرسله إلى النار قال: اذهب فانظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها، قال: فنظر إليها فإذا هي يركب بعضها بعضاً ثم رجع فقال: وعزتك لا يدخلها أحد سمع بها، فأمر بها فحفت بالشهوات ثم قال:**

اذهب فانظر إلى ما أعددت لأهلها فيها، فذهب فنظر إليها فرجع فقال: وعزتك لقد خشيت أن لا ينجو منها أحد إلا دخلها). ونظائر ذلك في السنة كثيرة.

(٩) الجنة والنار لا تفنيان:

الجنة والنار لا تنفيان، هذا قول جمهور الأئمة من السلف والخلف.

(١٠) المخالفون لأهل السنة في خلق الجنة والنار ووجودهما:

اختلف في وجودهما الآن على قولين:

أ ـ مذهب الجمهور أنهما مخلوقتان موجودتان... الآن.

ب ـ وذهب بعض المعتزلة[1] إلى إنكار وجودهما الآن وقالوا ينشئهما الله يوم القيامة.

أدلة كل قول:

أ ـ استدل الجمهور على قولهم بعدة أدلة من الكتاب والسنة والإجماع.

أولاً: من الكتاب:

١ ـ قوله تعالى: ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣﴾ [آل عمران: ١٣٣].

٢ ـ قوله في شأن النار: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ١٣١﴾ [آل عمران: ١٣١].

٣ ـ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ ١٣ عِندَ سِدۡرَةِ ٱلۡمُنتَهَىٰ ١٤ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلۡمَأۡوَىٰٓ ١٥﴾ [النجم: ١٣ ـ ١٥].

فأخبر سبحانه أن جنة المأوى عند سدرة المنتهى ولو كانت غير موجودة لما شاع هذا التعبير.

٤ ـ قوله تعالى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتۡ مِرۡصَادٗا ٢١ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابٗا ٢٢﴾ [النبأ: ٢١، ٢٢].

ثانياً: من السنة:

١ ـ ما روي عن أنس ﷺ قال: قال ﷺ: **(والذي نفسي بيده: لو رأيتم ما رأيت لضحكتم قليلاً، ولبكيتم كثيراً. قالوا: وما رأيت؟ قال: رأيت الجنة والنار).**

٢ ـ ما روي عن عبد الله بن عباس أنه قال: انخسفت الشمس على عهد رسول الله ﷺ فذكر الحديث وفيه، قالوا: **«رأيناك يا رسول الله تناولت شيئاً في مقامك ثم تكعكعت فقال: رأيت الجنة وتناولت عنقوداً لو أصبته لأكلتم منه ما**

---

(١) انظر: الفصل (٤/١٤١)، وحادي الأرواح (ص٤٥).

بقيت الدنيا، ورأيت النار فلم أر منظراً كاليوم قط أفظع ورأيت أكثر أهلها من النساء قالوا: بم يا رسول الله؟ قال: بكفرهن، قيل: أيكفرن بالله قال: يكفرن العشير ويكفرن الإحسان» الحديث.

٣ ـ ما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «**لما خلق الله الجنة والنار أرسل جبريل إلى الجنة فقال: انظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها. فذهب ينظر إليها فرجع فقال: والذي نفسي بيده لا يسمع بها أحد إلا دخلها، ثم أمر بها فحفت بالمكاره فقال: ارجع فانظر ما أعددت لأهلها فيها فرجع فنظر إليها فقال: والذي نفسي بيده لخشيت ألا يدخلها أحد أبداً، ثم أرسله إلى النار فقال: انظر إليها وما أعددت لأهلها فيها، وذهب ونظر إليها، فرآها يركب بعضها بعضاً فقال: وعزتك لا يدخلها أحد سمع بها ثم أمر بها فحفت بالشهوات»** الحديث.

ثالثاً: الإجماع:

فقد اتفق أهل السنة على أن الجنة والنار مخلوقتان موجودتان الآن، ولم يزل أهل السنة على ذلك حتى نبتت نابتة من المعتزلة فأنكرت ذلك.

شبهات المعتزلة القائلين بأنهما غير مخلوقتين الآن. قالوا:

١ ـ لو كانتا موجودتين الآن للزم عليه ما اضطراراً أن تفنيا يوم القيامة، وأن يهلك كل ما فيهما ويموت لقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨].

٢ ـ لو كانتا موجودتين الآن لزم عليه العبث لبقائهما زمناً متطاولاً معطلتين وأفعاله ﷻ منزهة عن العبث.

٣ ـ قالوا: «وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: (**لقيت إبراهيم ليلة أسرى بي فقال: يا محمد أقرئ أمتك مني السلام وأخبرهم أن الجنة طيبة عذبة الماء وأنها قيعان، غراسها سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر**). وقال تعالى حكاية عن امرأة فرعون: ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ﴾ [التحريم: ١١]، قالوا: فلو كانت الجنة مفروغاً منها لما كانت قيعاناً، ولما كان لهذا الغراس معنى، ولما ساغ دعاء امرأة فرعون.

الرد على شبهتهم:

أولاً: أما استدلالهم بقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨] فيجاب عنه بأن المراد كل شيء مما كتب الله عليه الهلاك والفناء، والجنة والنار

خلقتا للبقاء... وقيل: كل عمل هالك باطل إلا ما أريد به وجهه... وقيل: إنه لما أنزل الله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾﴾ [الرحمٰن: ٢٦] قال الملائكة: هلك أهل الأرض وطمعوا في البقاء، فأنزل الله ﷻ: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨] فأيقنت الملائكة عند ذلك بالموت.

ثانياً: أما الشبهة الثانية فهي شبهة باطلة نشأت من قياس أفعال الله على أفعال خلقه، وهو قياس مع الفارق، لأنه سبحانه لا يُسئل عما يفعل، ثم إننا لا نسلم أنه يلزم على خلقهما الآن العبث لبقائهما معطلتين بل نقول: إن الجنة والنار يحصل لهما آثار قبل يوم القيامة، فقد ورد أن العبد المؤمن يأتيه من روح الجنة وطيبها ويفتح له باب إلى الجنة، وأن العبد الكافر يأتيه من حر النار وسمومها، كما ورد أن بعض أرواح المؤمنين في الجنة وأرواح الكافرين في النار، وهذا ينفي ما زعموه.

ثالثاً: أما الشبهة الثالثة: فيجاب عنها بأن ما ذكروه «لا يدل على عدم خلق الجنة والنار ووجودهما الآن، غاية ما فيه: الإخبار بأن الله ﷻ لم يكمل خلق الجنة أنه لا يزال يحدث فيها شيئاً بعد شيء حتى إذا دخلها المؤمنون أحدث فيها أشياء لم تكن فيها قبل هذا، وهذا أمر خارج عن محل النزاع».

(١١) المخالفون لأهل السنة في شأن فناء الجنة والنار ودوامهما:

اختلف في ذلك على أقوال عدة أهمها:

أ ـ قال الجمهور ببقائهما وعدم فنائهما. وبه قال جمهور الأمة من السلف.

ب ـ ونقل عن بعض السلف أنه قال ببقاء الجنة وفناء النار ولو بعد حين.

ج ـ ويرى الجهم بن صفوان أن الجنة والنار غير باقيتين.

د ـ ونسب إلى ابن القيم القول ببقاء الجنة والتوقف في النار. كما في حادي الأرواح فلعله رجع عنه فله عبارات أخرى تبين تراجعه عن هذا القول كما في الوابل الصيب (ص٦٤) ط. دار البيان وزاد المعاد (٣/ ٣٢٧).

الأدلة:

أ ـ استدل الجمهور على بقاء الجنة: بقول الله تعالى: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾ [الرعد: ٣٥].

فقد أخبر ﷻ أن أكلها وظلها دائمان...

وهذا يقتضي بقاءهما وعدم فنائهما، وكذلك قوله تعالى: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [الحجر: ٤٨]، فقد أخبر سبحانه عن أصحاب

الجنة بأنهم لا يخرجون من الجنة ولم يحدد ذلك بزمن، فدل ذلك على عدم فنائها، وكذلك قوله تعالى: ﴿۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾﴾ [هود: ١٠٨]، فقد دلت الآيات على بقاء الجنة. ولا ينافي هذا الاستثناء ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ لأن الله ﷻ عقب عليه بقوله: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾، أي: غير مقطوع، أما الاستثناء فقد قيل:

١ - المراد: مدة مكثهم في النار، وهذا خاص لمن دخل منهم لا عام.

٢ - وقيل المراد: مدة مقامهم في الموقف وفي قبورهم.

٣ - وقيل المراد: إعلامهم بأنهم مع خلودهم في الجنة فمنهم داخلون تحت مشيئة الله.

أما أدلتهم من السنة:

فقد استدلوا بما ورد عنه ﷺ أنه قال: (**من يدخل الجنة ينعم فلا يبؤس، ويخلد فلا يموت**)، وكذلك ما روي عنه ﷺ أنه قال: (**فينادي مناد يا أهل الجنة أن لكم أن تصحُّوا فلا تسقموا، وأن تشبُّوا فلا تهرموا أبداً... وأن تحيوا فلا تموتوا أبداً**).

أما أدلتهم على بقاء النار فما يأتي:

١ - قوله تعالى في أصحاب النار: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٧].

٢ - قوله سبحانه: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر: ٣٦].

٣ - قوله ﷻ: ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠].

أما من السنة:

ما روي عنه: (**أنه يؤتى بالموت على صورة كبش أقرن، فيذبح بين الجنة والنار فيقال: يا أهل الجنة، خلود بلا موت، ويا أهل النار خلود بلا موت**).

ب - أدلة القائلين بفناء النار فقط:

١ - قوله تعالى: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾﴾ [النبأ: ٢٣]، والأحقاب جمع حقب وهو مدة محدودة من الزمن.

٢ - قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِي ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ [هود: ١٠٦، ١٠٧]، ولم يأت بعد هذا الاستثناء ما يدل على استمرار بقائهم في النار كما في الآيات التي وردت في أهل الجنة، فورود ما يدل على استمرار العطاء لأهل الجنة دون أهل النار يدل على أن الجنة باقية وأن النار فانية.

٣ ـ ما روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: «لو لبث أهل النار في النار كقدر رمل عالج، لكان لهم على ذلك وقت يخرجون فيه».

شبهة القائلين بفناء الجنة والنار ـ وهم جهم وأتباعه ـ هي:

أن الجنة والنار حادثتان وكل حادث يفنى فالجنة والنار تفنيان، كما استدل بقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨].

يجاب عن الشبهة الأولى: إن بقاء الجنة والنار ليس بذاتهما ولكن بإبقاء الله تعالى لهما.

أما عن الاستدلال بالآية: فيجاب عن الآية بما سبق وإن ما ذكرناه من أن المراد كل شيء مما كتب الله عليه الفناء فهو هالك، والجنة والنار خلقتا للبقاء لا للفناء. بهذا يبطل ما ذهب إليه الجهم وأتباعه.

المختار من الرأيين السابقين:

من السلف من اختار القول بفناء النار... والجمهور على أن الجنة والنار باقيتان، وابن القيم رحمه الله يفهم مما ذكره في شفاء العليل أنه يختار القول بفناء النار ويفهم مما ذكره في اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية أنه يرى القول ببقاء الجنة والنار، أما في كتابه (حادي الأرواح) فقد ذهب إلى التوقف في هذه المسألة حيث قال كلاماً مفاده: «فإن قيل إلى أين إقدامكم في هذه المسألة العظيمة الشأن قلنا: عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٧] قال: وإلى هنا انتهى قدم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب حيث ذكر دخول أهل الجنة وأهل النار وما يلاقيه كل منهما، ثم قال بعد ذلك ثم يفعل الله ما يشاء، ولعل ابن القيم رحمه الله قال بهذه الآراء الثلاثة جميعاً من باب تغيير الاجتهاد...

والراجح والله أعلم: القول ببقاء النار كما هو مذهب جمهور أهل السنة، أما الاستدلالات على صحة القول الثاني فليس فيها من الدلالة بما يقوى على معارضة أدلة القول الأول، أما قول عمر فيجاب عنه بما يأتي:

١ ـ أنه ضعيف لا يثبت.

٢ ـ على فرض صحته فقد روي بطريق مطول غير هذا، وهو أنه مر على كثيب من الرمل فبكى، قالوا: وما يبكيك؟ قال: ذكرت النار وأهلها، ثم قال: (لو لبث أهل النار في النار كقدر رمل عالج لكان لهم وقت يخرجون منها ولكنه الخلود أبداً)، فهذا يعطي خلاف ما استدل به عليه، لأن المعنى: «لو قدر الله مكث أهل

النار كقدر رمل عالج فكأنهم سيخرجون لكنه الخلود أبداً. إذ إنه لا يقدر عدد معين، والله أعلم».

(١٢) **أقوال الناس في أبدية النار ودوامها:**

للناس في ذلك ثمانية أقوال:

١ ـ أنه من دخلها لا يخرج منها أبد الآباد، وهذا قول للخوارج والمعتزلة.

٢ ـ أن أهلها يعذبون فيها... ثم تنقلب طبيعتهم وتبقى طبيعة نارية يتلذذ بها لموافقتها لطبعهم، وهذا قول ابن عربي إمام الصوفية الاتحادية.

٣ ـ أن أهلها يعذبون فيها إلى وقت محدود، ثم يخرجون منها ويخلفهم فيها قوم آخرون... وهذا القول حكاه اليهود للنبي ﷺ وكذبهم الله تعالى، وقال سبحانه: ﴿وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ [البقرة: ٨٠].

٤ ـ قال قوم: يخرجون منها وتبقى على حالها. ليس فيها أحد.

٥ ـ إنها تفنى بنفسها لأنها حادثة وما ثبت حدوثه استحال بقاؤه، وهذا قول الجهم وشيعته، ولا فرق عنده في ذلك بين الجنة والنار كما تقدم.

٦ ـ تفنى حركات أهلها ويصيرون جماداً لا يحسون بألم، وهذا قول القلائل.

٧ ـ إن الله يخرج منها من يشاء ثم يبقيها زمناً، ثم يعفو ثم يفنيها، فإنه جعل لها أمداً تنتهي إليه.

٨ ـ إن الله يخرج منها من يشاء ويبقى فيها الكفار بقاء لا انقضاء له.

والقولان الأخيران لأهل السنة وما عداهما باطل لا محالة.

وهذان القولان قد تقدم تقرير أدلة كل منهما في الخلاف حول ثبوت أبدية الجنة والنار.

فأما القول الأول: وبه قال بعض الصحابة كعمر وابن مسعود فيما روي عنهم واستدلوا على ذلك علاوة على تقدم بالنصوص الدالة على سعة عفو الله وإن رحمته سبقت غضبه... قالوا: ولا بد أن تسع رحمته هؤلاء المعذبين، فلو بقوا في العذاب لا إلى غاية لم تسعهم رحمته، وقد قال: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦] قالوا: وما ورد من النصوص بالخلود فيها والتأبيد وعدم الخروج كله حق مسلَّم... لكنه يقتضي الخلود ما دامت باقية... وإنما يخرج منها في حال بقائها أهل التوحيد.

وأما القول الثاني: وبه قال جمهور الصحابة والتابعين أن النار باقية لا تفنى

واستدلوا على ذلك علاوة على ما تقدم بقوله تعالى لأهل النار: ﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾﴾ [النبأ: ٣٠]، كما استدلوا بالآية المتقدمة التي أنزلها الله رداً على اليهود، فقد دلت السنة المستفيضة أنه يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله وأحاديث الشفاعة صريحة في خروج عصاة الموحدين من النار وإن هذا حكم مختص بهم، فلو خرج الكفار منها لكانوا بمنزلتهم، ولم يختص الخروج بأهل الإيمان وبقاء الجنة والنار ليس بذاتهما ولكن بإبقاء الله لهما.

الترجيح:

والقول الأخير: وهو بقاء النار ودوامها هو الذي تسكن إليه النفس ويطمئن إليه القلب لصراحة أدلته المتقدمة. والله أعلم.

١٣ اختلاف أهل العلم في توجيه الاستثناء في قوله تعالى: ﴿۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾﴾ [هود: ١٠٨]:

اختلف السلف في توجيه هذا الاستثناء على أقوال منها:

١ ـ فقيل معناه: «إلا مدة مكثهم في النار»، وهذا يكون لمن أدخل منهم إلى النار ثم أخرج منها، لا لكلهم، فهو خاص لا عام.

٢ ـ وقيل: إلا مدة مقامهم في الموقف.

٣ ـ وقيل: إلا مدة مقامهم في القبور والموقف.

٤ ـ وقيل: استثناء لإعلامهم بأنهم مع خلودهم داخلون تحت مشيئته لا يخرجون عنها، ولا ينافي ذلك عزيمته وجزمه لهم بالخلود كما في قوله تعالى: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ [الإسراء: ٨٦]، وقوله: ﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشورى: ٢٤] ونظائره كثيرة.

٥ ـ وقيل: أن (ما) بمعنى (من) أي إلا من شاء الله دخوله النار بذنوبه.

٦ ـ وقيل: (إلا) بمعنى (الواو)، وهذا على قول بعض النحاة وهو ضعيف، وسيبويه يجعل (إلا) بمعنى (لكن) فيكون الاستثناء منقطعاً، ورجحه ابن جرير وقال: إن الله لا يخلف وعده وقد وصل الاستثناء بقوله (عطاء غير) قالوا ونظيره أن تقول: أسكنتك داري حولاً إلا ما شئت أي ما شئت (ولكن ما شئت من الزيادة عليه).

٧ ـ وقيل: هو استثناء الرب ولا يفعله كما تقول: والله لأضربنك إلا أن أرى غير ذلك، وأنت لا تراه بل تجزم بضربه.

١٤ حكم أطفال المسلمين في الآخرة:

روت عائشة رضي الله عنها قالت: «دعي رسول الله ﷺ إلى جنازة صبي من الأنصار فقلت: يا رسول الله طوبى لهذا عصفور من عصافير الجنة لم يعمل سوءاً ولم يدركه فقال: (**أو غير ذلك يا عائشة إن الله خلق للجنة أهلاً لها وهم في أصلاب آبائهم، وخلق للنار أهلاً لها وهم في أصلاب آبائهم...**) رواه مسلم.

١٥ أنواع المخلوقات من حيث الإرادة:

- الموجودات نوعان:

أحدهما: مسخر بطبعه هداه الله لما سخره له طبعه كالشمس والقمر.

ثانيهما: متحرك بإرادته، وقد ركب الله فيه هداية إرادية شعورية تابعة لشعوره وعلمه بما ينفعه ويضره. ثم قسم هذا النوع إلى ثلاثة أنواع:

١ - نوع لا يريد إلّا الخير ولا يتأتى منه إرادة سواه كالملائكة.

٢ - نوع لا يريد إلا الشر ولا يتأتى منه إرادة سواه كالشياطين.

٣ - نوع يتأتى منه إرادة القسمين كالإنسان ثم جعله ثلاثة أصناف:

أ - صنف يغلب إيمانه ومعرفته وعقله هواه وشهوته، وهذا يلتحق بالملائكة.

ب - وصنف عكسه تماماً فيلتحق بالشياطين.

ج - وصنف تغلب شهوته البهيمية عقله فيلتحق بالبهائم.

١٦ منع الثواب عن العبد:

مما تجب معرفته أن الله لا يمنع الثواب إلا إذا منع سببه وهو العمل الصالح، قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾﴾ [طه: ١١٢]، وكذلك لا يعاقب أحداً إلا بعد حصول سبب العقاب، فإن الله تعالى يقول: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الشورى: ٣٠] فلا ريب أنه يهدي من يشاء ويضل من يشاء، ولكن ذلك كله حكمة منه وعدل، فمنعه للأسباب التي هي الأعمال الصالحة من كمال حكمته وعدله سبحانه.

١٧ الخلاصة:

١ - يؤمن أهل السنة بالجنة والنار وأنهما مخلوقتان وموجودتان الآن، ولا تفنيان أبداً.

٢ - عقد المصنف هذا المبحث للرد على المعتزلة القائلين بأن الجنة والنار لم تخلقا بعد، وأنهما تفنيان يوم القيامة.

٣ ـ الجنة هي دار النعيم التي أعدها الله في الآخرة للمؤمنين المتقين المخلصين لله المتبعين لرسله.

٤ ـ النار هي دار العذاب التي أعدها الله في الآخرة للكافرين الذين كفروا بالله وعصوا رسله.

٥ ـ الموجودات نوعان: مسخر بطبعه، ومتحرك بإرادته.

٦ ـ مما تجب معرفته أن الله لا يمنع الثواب إلا إذا منع سببه وهو العمل الصالح، وكذلك لا يعاقب أحداً إلا بعد حصول سبب العقاب.

١٨ المناقشة:

- **س١:** اشرح قول الطحاوي: «والجنة والنار مخلوقتان لا تفنيان أبداً ولا تبيدان، وأن الله تعالى خلق الجنة والنار قبل الخلق، وخلق لهما أهلاً، فمن شاء منهم إلى الجنة فضلاً منه، ومن شاء منهم إلى النار عدلاً منه، وكل يعمل لما قد فرغ له، وصائر إلى ما خلق له. والخير والشر مقدران على العباد».
- **س٢:** لماذا عقد المصنف هذا المبحث؟
- **س٣:** عرّف الجنة، ولما سميت بذلك؟ وأين مكانها؟
- **س٤:** عرّف النار في اللغة والشرع، وأين مكانها؟
- **س٥:** هل الجنة والنار مخلوقتان موجودتان؟
- **س٦:** هل الجنة والنار تفنيان؟ بيّن المذاهب في ذلك.
- **س٧:** اذكر مذهب المخالفين لأهل السنة في خلق الجنة والنار ووجودهما.
- **س٨:** اذكر المخالفين لأهل السنة في شأن فناء الجنة والنار ودوامهما.
- **س٩:** اذكر أقوال الناس في أبدية النار ودوامها.
- **س١٠:** بيّن اختلاف أهل العلم في توجيه الاستثناء في قوله تعالى: ﴿۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾﴾ [هود: ١٠٨].
- **س١١:** ما حكم أطفال المسلمين في الآخرة؟ مع ذكر الدليل.
- **س١٢:** ما أنواع المخلوقات من حيث الهداية والإرادة؟ فصل القول في ذلك.
- **س١٣:** بيّن كيف يمنع الثواب عن العبد؟



الاستطاعة

* **كلام ابن أبي العز:**

١ ـ غرض المصنف من عقد هذا الباب.

٢ ـ مناسبة هذا الباب لما سبق.

٣ ـ معاني الكلمات.

٤ ـ معنى كلام الطحاوي: «والاستطاعة التي يجب بها الفعل من نحو التوفيق الذي لا يجوز أن يوصف المخلوق به تكون مع الفعل، وأما الاستطاعة من جهة الصحة والوسع والتمكن وسلامة الآلات فهي قبل الفعل وبها يتعلق الخطاب وهو كما قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

٥ ـ تعريف الاستطاعة.

٦ ـ أنواع الاستطاعة.

٧ ـ المقارنة بين الاستطاعة التي تكون قبل الفعل والاستطاعة التي تكون مع الفعل.

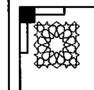
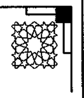
٨ ـ مذهب أهل السنة في مسألة الاستطاعة.

٩ ـ الأدلة على الاستطاعة.

١٠ ـ المخالفون لأهل السنة في مسألة الاستطاعة.

١١ ـ الخلاصة.

١٢ ـ المناقشة.

الاستطاعة

قال ابن أبي العز:

قوله: «والاستطاعة التي يجب بها الفعل من نحو التوفيق الذي لا يجوز أن يوصف المخلوق به تكون مع الفعل، وأما الاستطاعة من جهة الصحة والوسع والتمكن وسلامة الآلات فهي قبل الفعل وبها يتعلق الخطاب وهو كما قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]».

الاستطاعة[١] والطاقة والقدرة والوسع ألفاظ متقاربة، وتنقسم الاستطاعة إلى قسمين كما ذكره الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ وهو قول عامة أهل السنة وهو الوسط، وقالت القدرية والمعتزلة لا تكون القدرة إلا قبل الفعل، وقابلهم طائفة من أهل السنة فقالوا لا تكون إلا مع الفعل.

والذي قاله عامة أهل السنة أن للعبد قدرة هي مناط الأمر والنهي، وهذه قد تكون قبله لا يجب أن تكون معه، والقدرة التي بها الفعل لا بد أن تكون مع الفعل لا يجوز أن يوجد الفعل بقدرة معدومة.

وأما القدرة التي[٢] من جهة الصحة والوسع والتمكن وسلامة الآلات فقد تتقدم الأفعال، وهذه القدرة المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧]، فأوجب الحج على المستطيع، فلو لم يستطع إلا من حج لم يكن الحج قد وجب إلا على من حج ولم يعاقب أحداً على ترك الحج، وهذا خلاف المعلوم بالضرورة من دين الإسلام.

وكذلك قوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، فأوجب التقوى بحسب الاستطاعة، فلو كان من لم يتق الله لم يستطع التقوى لم يكن قد أوجب التقوى إلا على من اتقى ولم يعاقب من لم يتق وهذا معلوم الفساد.

---

(١) انظر: منهاج السنّة (٣/ ٤١ ـ ٥٣). (٢) انظر: الفتاوى (٨/ ٣٧٢).

وكذا قوله تعالى: ﴿فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾ [المجادلة: ٤] المراد منه استطاعة الأسباب والآلات، وكذا ما حكاه سبحانه من قول المنافقين: ﴿لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ [التوبة: ٤٢] وكذبهم في ذلك القول، ولو كانوا أرادوا الاستطاعة التي هي حقيقة قدرة الفعل ما كانوا بنفيهم عن أنفسهم كاذبين وحيث كذبهم دل على أنهم أرادوا بذلك المرض أو فقد المال على ما بيَّن تعالى بقوله: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ﴾ [التوبة: ٩١]، إلى أن قال: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ﴾ [التوبة: ٩٣]، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم﴾ [النساء: ٢٥]، والمراد استطاعة الآلات والأسباب، ومن ذلك قوله ﷺ لعمران بن حصين: «صل قائماً، فإن لم تستطع فقاعداً، فإن لم تستطع فعلى جنب»[(١)]، إنما نفى استطاعة الفعل معها[(٢)].

وأما ثبوت الاستطاعة التي هي حقيقة القدرة فقد ذكروا فيها قوله تعالى: ﴿مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ﴾ [هود: ٢٠]، والمراد نفي حقيقة القدرة لا نفي الأسباب والآلات لأنها كانت ثابتة، وسيأتي لذلك زيادة بيان عند قوله: ولا يطيقون إلا ما كلفهم إن شاء الله تعالى، وكذا قول صاحب موسى: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٦٧] وقوله: ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٢]، والمراد منه حقيقة قدرة الصبر لا أسباب الصبر وآلاته، فإن تلك كانت ثابتة له، ألا ترى أنه عاتبه على ذلك، ولا يلام من عُدم آلات الفعل وأسبابه على عدم الفعل وإنما يلام من امتنع من الفعل لتضييع قدرة الفعل لاشتغاله بغير ما أمر به أو لعدم شغله إياها بفعل ما أُمر به، ومن قال إن[(٣)] القدرة لا تكون إلا حين الفعل يقولون إن القدرة لا تصلح للضدين[(٤)]، فإن القدرة المقارنة للفعل لا تصلح إلا لذلك الفعل وهي مستلزمة له لا توجد بدونه.

وما قالته القدرية بناء على أصلهم الفاسد وهو إقدار الله للمؤمن والكافر والبر والفاجر سواء، فلا يقولون إن الله خص المؤمن المطيع بإعانة حصل بها الإيمان

---

(١) أخرجه البخاري (١١١٧).
(٢) في منهاج السنّة (فإنما نفي استطاعه لا فعل معها).
(٣) يعني: الأشاعرة.
(٤) أي: الفعل والترك.

بل هذا بنفسه رجح الطاعة، وهذا بنفسه رجح المعصية، كالوالد الذي أعطى كل واحد من بنيه سيفاً فهذا جاهد به في سبيل الله وهذا قطع به الطريق.

وهذا القول فاسد باتفاق أهل السنة والجماعة المثبتين للقدر، فإنهم متفقون على أن لله على عبده المطيع نعمة دينية خصه بها دون الكافر، وأنه أعانه على الطاعة إعانة لم يعن بها الكافر كما قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ [الحجرات: ٧]، فالقدرية يقولون إن هذا التحبيب والتزيين عام في كل الخلق وهو بمعنى البيان وإظهار دلائل الحق، والآية تقتضي أن هذا خاص بالمؤمن ولهذا قال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ [الحجرات: ٧] والكفار ليسوا راشدين، وقال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [الأنعام: ١٢٥]، وأمثال هذه الآية في القرآن كثير يبين أن الله سبحانه هدى هذا وأضل هذا، قال تعالى: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٧]، وسيأتي لهذه المسألة زيادة بيان إن شاء الله تعالى.

وأيضاً فقول القائل يرجح بلا مرجح إن كان لقوله يرجح معنى زائد على الفعل فذاك هو السبب المرجح، وإن لم يكن له معنى زائد كان حال الفاعل قبل وجود الفعل كحاله عند الفعل، ثم الفعل حصل في إحدى الحالتين دون الأخرى بلا مرجح وهذا مكابرة للعقل، فلما كان أصل قول القدرية أن فاعل الطاعات وتاركها كلاهما في الإعانة والإقدار سواء امتنع على أصلهم أن يكون مع الفعل قدرة تخصه لأن القدرة التي تخص الفعل لا تكون للتارك وإنما تكون للفاعل ولا تكون القدرة إلا من الله تعالى، وهم لما رأوا أن القدرة لا بد أن تكون قبل الفعل قالوا لا تكون مع الفعل لأن القدرة هي التي يكون بها الفعل والترك، وحال وجود الفعل يمتنع الترك، فلهذا قالوا: القدرة لا تكون إلا قبل الفعل، وهذا باطل مطلقاً، فإن وجود الأمر مع عدم بعض شروطه الوجودية ممتنع بل لا بد أن يكون جميع ما يتوقف عليه الفعل من الأمور الوجودية موجوداً عند الفعل فنقيض قولهم حق وهو أن الفعل لا بد أن يكون معه قدرة.

لكن صار أهل الإثبات هنا حزبين: حزب قالوا: لا تكون القدرة إلا معه، ظناً منهم أن القدرة نوع واحد لا يصلح للضدين، وظناً من بعضهم أن القدرة عرض[١]، فلا تبقى زمانين[٢]، فيمتنع وجودها قبل الفعل.

والصواب أن القدرة نوعان كما تقدم نوع مصحح للفعل يمكن معه الفعل والترك وهذه هي التي يتعلق بها الأمر والنهي وهذه تحصل للمطيع والعاصي وتكون قبل الفعل وهذه تبقى إلى حين الفعل إما بنفسها عند من يقول ببقاء الإعراض، وإما بتجدد أمثالها عند من يقول إن الأعراض لا تبقى زمانين، وهذه قد تصلح للضدين، وأمر الله مشروط بهذه الطاقة فلا يكلف الله من ليس معه هذه الطاقة وضد هذا العجز كما تقدم.

وأيضاً فالاستطاعة المشروطة في الشرع أخص من الاستطاعة التي يمتنع الفعل مع عدمها، فإن الاستطاعة الشرعية قد تكون ما يتصور الفعل مع عدمها وإن لم يعجز عنه فالشارع ييسر على عباده ويريد بهم اليسر ولا يريد بهم العسر، وما جعل عليكم في الدين من حرج، والمريض قد يستطيع القيام مع زيادة المرض وتأخر برئه، فهذا في الشرع غير مستطيع لأجل حصول الضرر عليه وإن كان قد يسمى مستطيعاً، فالشارع لا ينظر في الاستطاعة الشرعية إلى مجرد إمكان الفعل بل ينظر إلى لوازم ذلك، فإن كان الفعل ممكناً مع المفسدة الراجحة لم تكن هذه استطاعة شرعية، كالذي يقدر على الحج مع ضرر يلحقه في بدنه أو ماله أو يصلي قائماً مع زيادة مرضه أو يصوم الشهرين مع انقطاعه عن معيشته ونحو ذلك، فإذا كان الشارع قد اعتبر في المُكنة عدم المفسدة الراجحة فكيف يكلف مع العجز.

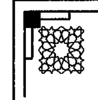
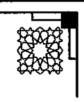
ولكن هذه الاستطاعة مع بقائها إلى حين الفعل لا تكفي في وجود الفعل، ولو كانت كافية لكان التارك كالفاعل، بل لا بد من إحداث إعانة أخرى تقارن، مثل جعل الفاعل مريداً، فإن الفعل لا يتم إلا بقدرة وإرادة، والاستطاعة المقارنة تدخل

---

(١) العرض: هو الموجود الذي يحتاج في وجوده إلى موضع أي: محل يقوم به، انظر: التعريفات (ص١٤٨).

(٢) قول الأشاعرة العرض لا يبقى زمانين قول محدث في الإسلام. انظر: الرد عليهم في الفتاوى (٩/ ٤١) و(١٦/ ٢٧٥).

فيها الإرادة الجازمة بخلاف المشروطة في التكليف فإنه لا يشترط فيها الإرادة، فالله تعالى يأمر بالفعل من لا يريده لكن لا يأمر به من لو أراده لعجز عنه، وهكذا أمر الناس بعضهم لبعض، فالإنسان يأمر عبده بما لا يريده العبد لكن لا يأمره بما يعجز عنه العبد، وإذا اجتمعت الإرادة الجازمة والقوة التامة لزم وجود الفعل، وعلى هذا ينبني تكليف ما لا يطاق، فإن من قال: القدرة لا تكون إلا مع الفعل يقول كل كافر وفاسق قد كلف ما لا يطيق وما لا يطاق يفسر بشيئين بما يطاق للعجز عنه، فهذا لم يكلفه الله أحداً ويفسر بما لا يطاق للاشتغال بضده، فهذا هو الذي وقع فيه التكليف كما في أمر العباد بعضهم بعضاً فإنهم يفرقون بين هذا وهذا، فلا يأمر السيد عبده الأعمى بنقط المصاحف ويأمره إذا كان قاعداً أن يقوم ويعلم الفرق بين الأمرين بالضرورة.

الشرح

عناصر الموضوع:

١ غرض المصنف من عقد هذا الباب:

أ ـ تقرير مذهب أهل السنة والجماعة في الاستطاعة وهي عندهم نوعان:
نوع مقارن للفعل وهي بمعنى التوفيق والتسديد.
ونوع يكون قبل الفعل ومعناه توفر الأسباب والآلات وبها يتعلق الخطاب.
ب ـ الرد على المخالفين لأهل السنة والجماعة الذين جعلوا الاستطاعة نوعاً واحداً وهما طائفتان:

١ ـ الجبرية والجهمية والأشاعرة: فأثبتوا الاستطاعة التي تكون مقارنة للفعل فقط، ونفوا الاستطاعة التي تكون قبل الفعل وهي بمعنى التوفيق للفعل.
٢ ـ القدرية والمعتزلة أثبتوا الاستطاعة التي تكون قبل الفعل وهي التي بمعنى توفر الأسباب والآلات(١).

٢ مناسبة هذا الباب لما سبق:

قرر المصنف فيما سبق أن من أصول أهل السنة والجماعة اتباع السنة واجتناب الشذوذ والفرقة والخلاف، هذا ومما جاءت به النصوص من الكتاب والسنة أن الاستطاعة نوعان: نوع مقارن للفعل وهي بمعنى التوفيق والتسديد.

ونوع يكون قبل الفعل، ومعناه توفر الأسباب والآلات وبها يتعلق الخطاب.

٣ معاني الكلمات:

الكلمة	المعنى
الاستطاعة	القدرة والطاقة والوسع.

(١) انظر: الهداية الربانية (ص٢٠٣).

(٤) معنى كلام الطحاوي: «والاستطاعة التي يجب بها الفعل من نحو التوفيق الذي لا يجوز أن يوصف المخلوق به تكون مع الفعل، وأما الاستطاعة من جهة الصحة والوسع والتمكن وسلامة الآلات فهي قبل الفعل، وبها يتعلق الخطاب وهو كما قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]»:

الاستطاعة نوعان: استطاعة بمعنى وجود آلات الفعل والطاقة والقدرة اللازمة لفعله، والوسع المطلوب للفعل، فهذه تكون قبل الفعل، وعلى أساسها يكون الأمر والنهي، فالخطاب متعلق التي بها والتكليف منوط بها.

والاستطاعة الثانية: هي القدرة والإرادة التي بها الفعل، وهذه تكون مع الفعل، وهي بمثابة التوفيق والهداية الذي لا يوصف به إلا الله تعالى.

(٥) تعريف الاستطاعة:

الاستطاعة لغة: استفعال من الطوع وهو نقيض الكره[١] وهي القدرة.

واصطلاحاً: هي القدرة من الإنسان.

هذا عند أهل السنة، أما أهل الكلام فيرى البعض أنها مرادفة للقدرة، قال نور الدين الصابوني: «الاستطاعة والقوة والقدرة والطاقة والوسع متقاربة عند أهل اللغة ومترادفة عند المتكلمين»[٢].

٦ ـ أنواع الاستطاعة:

الاستطاعة نوعان: استطاعة بمعنى وجود آلات الفعل والطاقة والقدرة، اللازمة لفعله، والوسع المطلوب للفعل[٣]، فهذه تكون قبل الفعل، وعلى أساسها يكون الأمر والنهي، فالخطاب متعلق بها والتكليف منوط بها.

والاستطاعة الثانية: هي القدرة والإرادة التي بها الفعل، وهذه تكون مع الفعل، وهي بمثابة التوفيق والهداية الذي لا يوصف به إلا الله تعالى.

---

(١) انظر: تهذيب اللغة (٣/ ١٠٣)، والكليات (ص١٠٧)، ومقاييس اللغة: مادة طوع.

(٢) البداية من الكفاية للصابوني (ص١٠٧).

(٣) وهي صحة الجوارح وارتفاع الموانع كالمرض ونحوه ويقال لها: الاستطاعة الصحيحة وضدها العجز، ولا يلزم من وجودها وجود الفعل، فليس كل من كان سليماً صحيحاً قادراً يُوجد الفعل المأمور به وبها يتعلق خطاب الشارع بمعنى أن صاحبها أهل للتكليف، وهي صفة تعود إلى العبد.

ويلزم من وجودها وجود الفعل فمن وفقه الله لشيء فلا بدّ من ظهوره ووجوده وهي مناط القضاء والقدر وهي صفة تعود إلى الله فهو الموفق الخالق للأفعال.



٧ المقارنة بين الاستطاعة التي تكون قبل الفعل والاستطاعة التي تكون مع الفعل:

الاستطاعة المقارنة للفعل	الاستطاعة التي تكون قبل الفعل
ليست مناط التكليف ولا يتعلق بها خطاب الشارع	مناط للتكليف
تكون مع الفعل فلا تتقدمه	قد تتقدم الفعل وقد تصحبه، تكون قبل الفعل وتكون مع الفعل
خاصة بالمؤمن	عامة للمؤمن والكافر
صفة لله تعالى فهو الموفق للفعل	صفة للمخلوق وهي توفر الآلات والأسباب
لا يتخلف عنها الفعل، فلا بد أن يحصل الفعل	قد يحصل الفعل وقد لا يحصل
هذه الاستطاعة ضدها الخذلان	هذه الاستطاعة ضدها العجز.

٨ مذهب أهل السنة في مسألة الاستطاعة:

والذي قاله عامة أهل السنة أن للعبد قدرة هي مناط الأمر والنهي، وهذه قد تكون قبله لا يجب أن تكون معه، والقدرة التي بها الفعل لا بد أن تكون مع الفعل لا يجوز أن يوجد الفعل بقدرة معدومة.

وأما القدرة التي من جهة الصحة والوسع والتمكن وسلامة الآلات فقد تتقدم الأفعال، وهذه القدرة المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧]، فأوجب الحج على المستطيع، فلو لم يستطع إلا من حج لم يكن الحج قد وجب إلا على من حج ولم يعاقب أحداً على ترك الحج، وهذا خلاف المعلوم بالضرورة من دين الإسلام.

وكذلك قوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، فأوجب التقوى بحسب الاستطاعة، فلو كان من لم يتق الله لم يستطع التقوى لم يكن قد أوجب التقوى إلا على من اتقى ولم يعاقب من لم يتق، وهذا معلوم الفساد.

وكذا قوله تعالى: ﴿فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾ [المجادلة: ٤]، والمراد منه استطاعة الأسباب والآلات، وكذا ما حكاه سبحانه من قول المنافقين: ﴿لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ [التوبة: ٤٢] وكذبهم في ذلك القول ولو كانوا أرادوا الاستطاعة التي هي حقيقة قدرة الفعل ما كانوا بنفيهم عن أنفسهم كاذبين، وحيث كذبهم دل على أنهم أرادوا بذلك المرض أو فقد المال على ما بيَّن تعالى بقوله: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ﴾ [التوبة: ٩١]، إلى أن قال: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ﴾ [التوبة: ٩٣]، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم﴾ [النساء: ٢٥]، والمراد استطاعة الآلات والأسباب، ومن ذلك قوله ﷺ لعمران بن حصين: «**صل قائماً، فإن لم تستطع فقاعداً، فإن لم تستطع فعلى جنب**»، إنما نفى استطاعة الفعل معها.

وأما ثبوت الاستطاعة التي هي حقيقة القدرة فقد ذكروا فيها قوله تعالى: ﴿مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ﴾ [هود: ٢٠]، والمراد نفي حقيقة القدرة لا نفي الأسباب والآلات لأنها كانت ثابتة، وسيأتي لذلك زيادة بيان عند قوله: ولا يطيقون إلا ما كلفهم إن شاء الله تعالى، وكذا قول صاحب موسى: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٦٧] وقوله: ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٢]، والمراد منه حقيقة قدرة الصبر لا أسباب الصبر وآلاته، فإن تلك كانت ثابتة له ألا ترى أنه عاتبه على ذلك ولا يلام من عدم آلات الفعل وأسبابه على عدم الفعل، وإنما يلام من امتنع من الفعل لتضييع قدرة الفعل لاشتغاله بغير ما أمر به أو لعدم شغله إياها بفعل ما أمر به، ومن قال إن القدرة لا تكون إلا حين الفعل يقولون إن القدرة لا تصلح للضدين فإن القدرة المقارنة للفعل لا تصلح إلا لذلك الفعل وهي مستلزمة له لا توجد بدونه.

٩ الأدلة على الاستطاعة:

قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧].

وقال تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦].

وقال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وقال تعالى: ﴿فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾ [المجادلة: ٤].

وقال ﷺ لعمران بن حصين: «**صل قائماً، فإن لم تستطع فقاعداً، فإن لم تستطع فعلى جنب**».

١٠ المخالفون لأهل السنة في مسألة الاستطاعة:

وخالف أهل السنة الجهميةُ والمعتزلة[١] والأشعرية، أما الجهمية فقالوا: إنه ليس للعبد أي استطاعة لا قبل الفعل ولا معه[٢].

وأما المعتزلة فقالوا: إن الله تعالى قد مكن الإنسان من الاستطاعة، وهذه الاستطاعة قبل الفعل وهي قدرته عليه وعلى ضده، وهي غير موجبة للفعل[٣].

وأما الأشعرية[٤] فقالوا: إن الاستطاعة مع الفعل، لا يجوز أن تتقدمه ولا أن تتأخر عنه وما يفعله الإنسان فهو كسب له[٥].

١١ الخلاصة:

١ ـ **الاستطاعة نوعان**: استطاعة بمعنى وجود آلات الفعل والطاقة والقدرة اللازمة لفعله، والوسع المطلوب للفعل، فهذه تكون قبل الفعل، وعلى أساسها يكون الأمر والنهي، فالخطاب متعلق بها والتكليف منوط بها.

والاستطاعة الثانية: هي القدرة والإرادة التي بها الفعل، وهذه تكون مع الفعل، وهي بمثابة التوفيق والهداية الذي لا يوصف به إلا الله تعالى.

٢ ـ الاستطاعة هي القدرة من الإنسان.

٣ ـ الذي قاله عامة أهل السنة أن للعبد قدرة هي مناط الأمر والنهي، وهذه قد تكون قبله لا يجب أن تكون معه، والقدرة التي بها الفعل لا بد أن تكون مع الفعل لا يجوز أن يوجد الفعل بقدرة معدومة.

---

(١) حيث لم يثبتوا إلا الاستطاعة التي هي سلامة الآلات والجوارح وارتفاع الموانع، ومعلوم أن مذهب المعتزلة في باب أفعال العباد هو أن العباد يخلقون أفعالهم وليس الله هو الخالق لها فلهذا فإنهم لا يثبتون الاستطاعة التي هي بمعنى التوفيق، انظر: الفتاوى (١٨/ ١٧٣).

(٢) انظر: الملل والنحل (١/ ٨٥)، والفرق بين الفرق (ص٢١١).

(٣) انظر: مقالات الإسلاميين (١/ ٣٠٠)، والفرق بين الفرق (ص١١٦)، وشرح الأصول الخمسة (ص٣٨٩).

(٤) لما كانت الأشاعرة تميل إلى الجبر، والقول بأن القدرة المؤثرة هي قدرة الرب لا العبد، تناسب هذا القول مع إثباتهم للاستطاعة التي هي مع الفعل فالعبد مجبور على أفعاله ولا قدرة له وليس له إرادة تؤثر والفاعل حقيقة إنما هو الله، فإذا كان الأمر كذلك فلا فائدة في إثبات الاستطاعة التي تكون قبل الفعل فالعبد مجبور على أفعاله.

(٥) انظر: الإرشاد (ص٢١٩)، والإنصاف (ص٤٦).

وأما القدرة التي من جهة الصحة والوسع والتمكن وسلامة الآلات فقد تتقدم الأفعال وهذه القدرة المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧].

٤ ـ الأدلة على الاستطاعة متوافرة من الكتاب والسنة.

٥ ـ وخالف أهلَ السنة الجهميةُ والمعتزلة والأشعرية.

١٢ المناقشة:

- **س١:** بيّن معنى كلام الطحاوي: «والاستطاعة التي يجب بها الفعل من نحو التوفيق الذي لا يجوز أن يوصف المخلوق به تكون مع الفعل، وأما الاستطاعة من جهة الصحة والوسع والتمكن وسلامة الآلات فهي قبل الفعل وبها يتعلق الخطاب وهو كما قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]».
- **س٢:** عرِّف الاستطاعة، واذكر أنواعها.
- **س٣:** وضح مذهب أهل السنة في مسألة الاستطاعة.
- **س٤:** اذكر أدلة على الاستطاعة.
- **س٥:** بين مذاهب المخالفين لأهل السنة في مسألة الاستطاعة.

أفعال العباد خلق الله وكسب من العباد

*** كلام ابن أبي العز:**

١ ـ غرض المصنف من عقد هذا الباب.

٢ ـ مناسبة الباب لما سبق.

٣ ـ معاني الكلمات.

٤ ـ معنى كلام الطحاوي: «وأفعال العباد هي خلق الله وكسب من العباد».

٥ ـ مذهب أهل السنة والجماعة في أفعال العباد.

٦ ـ أقوال السلف في إثبات خلق الله لأفعال العباد.

٧ ـ أدلة أهل السنة والجماعة في مسألة خلق أفعال العباد.

٨ ـ المخالفون لأهل السنة في خلق أفعال العباد.

٩ ـ شبهات القدرية «المعتزلة» حول أفعال العباد والجواب عليها.

١٠ ـ شبهات الجبرية حول أفعال العباد والجواب عليها.

١١ ـ عدم التعارض بين فعل العبد والمشيئة.

١٢ ـ أنواع العقوبة.

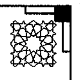
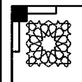
١٣ ـ أفعال العباد نوعان.

١٤ ـ استخدام الجبل بدل الجبر.

١٥ ـ شبهة خلق الفعل مع العقوبة ظلم.

١٦ ـ الخلاصة.

١٧ ـ المناقشة.

أفعال العباد خلق الله وكسب من العباد

قال ابن أبي العز:

قوله: «وأفعال العباد هي خلق الله وكسب من العباد».

اختلف الناس في أفعال العباد الاختيارية.

فزعمت الجبرية ورئيسهم الجهم بن صفوان السمرقندي أن التدبير في أفعال الخلق كلها لله تعالى، وهي كلها اضطرارية كحركات المرتعش والعروق النابضة وحركات الأشجار، وإضافتها إلى الخلق مجاز وهي على حسب ما يضاف الشيء إلى محله دون ما يضاف إلى محصله.

وقابلتهم المعتزلة فقالوا: إن جميع الأفعال الاختيارية من جميع الحيوانات بخلقها لا تعلُّق لها بخلق الله تعالى، واختلفوا فيما بينهم أن الله تعالى يقدر على أفعال العباد أم لا؟

وقال أهل الحق: «أفعال العباد بها صاروا مطيعين وعصاة وهي مخلوقة لله تعالى، والحق ﷻ منفرد بخلق المخلوقات لا خالق لها سواه، فالجبرية غلوا في إثبات القدر فنفوا صنع العبد أصلاً كما عملت المشبهة في إثبات الصفات فشبهوا، والقدرية نفاة القدر جعلوا العباد خالقين مع الله تعالى، ولهذا كانوا مجوس هذه الأمة، بل أردأ من المجوس من حيث إن المجوس أثبتوا خالقين، وهم أثبتوا خالقين.

وهدى الله المؤمنين أهل السنة لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، فكل دليل صحيح يقيمه الجبري فإنما يدل على أن الله خالق كل شيء وأنه على كل شيء قدير، وأن أفعال العباد من جملة مخلوقاته وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، ولا يدل على أن العبد ليس بفاعل في الحقيقة ولا مريد ولا مختار وأن حركاته الاختيارية بمنزلة حركة المرتعش وهبوب الرياح وحركات الأشجار.

وكل دليل صحيح يقيمه القدري فإنما يدل على أن العبد فاعل لفعله حقيقة وأنه مريد له مختار له حقيقة، وأن إضافته ونسبته إليه إضافة حق، ولا يدل على أنه غير مقدور لله تعالى وأنه واقع بغير مشيئته وقدرته.

فإذا ضممت ما مع كل طائفة منهما من الحق إلى حق الأخرى فإنما يدل ذلك على ما دل عليه القرآن وسائر كتب الله المنزلة من عموم قدرة الله ومشيئته لجميع ما في الكون من الأعيان والأفعال، وأن العباد فاعلون لأفعالهم حقيقة وأنهم يستوجبون عليها المدح والذم.

وهذا هو الواقع في نفس الأمر، فإن أدلة الحق لا تتعارض والحق يصدق بعضه بعضاً، ويضيق هذا المختصر عن ذكر أدلة الفريقين ولكنها تتكافأ وتتساقط ويستفاد من دليل كل فريق بطلان قول الآخر، ولكن أذكر شيئاً مما استدل به كل من الفريقين ثم أبين أنه لا يدل على ما استدل عليه من الباطل.

فما استدلت به الجبرية قوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧]، فنفى الله عن نبيه الرمي وأثبته لنفسه سبحانه، فدل على أنه لا صنع للعبد قالوا: والجزاء غير مرتب على الأعمال بدليل قوله ﷺ: «لن يدخل أحد الجنة بعمله قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل»(١).

ومما استدل به القدرية قوله تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤] قالوا: والجزاء مرتب على الأعمال ترتب العوض كما قال تعالى: ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧]، ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [الزخرف: ٧٢] ونحو ذلك.

فأما ما استدلت به الجبرية من قوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧] فهو دليل عليهم، لأنه تعالى أثبت لرسوله رمياً بقوله إذ رميت فعلم أن المثبت غير المنفي، وذلك أن الرمي له ابتداء وانتهاء، فابتداؤه الحذف وانتهاؤه الإصابة، وكل منهما يسمى رمياً، فالمعنى حينئذ والله تعالى أعلم: وما أصبت إذ حذفت، ولكن الله أصاب، وإلا فطرد قولهم: وما صليت إذ صليت ولكن الله صلى، وما صمت إذ صمت، وما زنيت إذ زنيت، وما سرقت إذ سرقت، وفساد هذا ظاهر.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٦٤)، ومسلم (٢٨١٨).

وأما ترتب الجزاء على الأعمال فقد ضلت فيه الجبرية والقدرية وهدى الله أهل السنة وله الحمد والمنة، فإن الباء التي في النفي غير الباء التي في الإثبات، فالمنفي في قوله لن يدخل الجنة أحد بعمله باء العوض وهو أن يكون العمل كالثمن لدخول الرجل إلى الجنة كما زعمت المعتزلة أن العامل مستحق دخول الجنة على ربه بعمله بل ذلك برحمة الله وفضله، والباء التي في قوله تعالى: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧] ونحوها باء السبب[١] أي بسبب عملكم والله تعالى هو خالق الأسباب والمسببات فرجع الكل إلى محض فضل الله ورحمته.

وأما الاستدلال المعتزلة بقوله تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤] فمعنى الآية أحسن المصورين المقدرين، والخلق يذكر ويراد به التقدير وهو المراد هنا بدليل قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ [الرعد: ١٦] أي الله خالق كل شيء مخلوق، فدخلت أفعال العباد في عموم كلٍّ، وما أفسد قولهم في إدخال كلام الله تعالى في عموم كل الذي هو صفة من صفاته يستحيل عليه أن يكون مخلوقاً وأخرجوا أفعالهم التي هي مخلوقة من عموم كل، وهل يدخل في عموم كل إلا ما هو مخلوق، فذاته المقدسة وصفاته غير داخله في هذا العموم ودخل سائر المخلوقات في عمومها، وكذا قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ٩٦﴾ [الصافات: ٩٦] ولا نقول إن ما مصدرية، أي خلقكم وعملكم، إذ سياق الآية يأباه لأن إبراهيم عليه السلام إنما أنكر عليهم عبادة المنحوت لا النحت، والآية تدل على أن المنحوت مخلوق لله تعالى وهو ما صار منحوتاً إلا بفعلهم فيكون ما هو من آثار فعلهم مخلوقاً لله تعالى، ولو لم يكن النحت مخلوقاً لله تعالى لم يكن المنحوت مخلوقاً له، بل الخشب أو الحجر لا غير. وذكر أبو الحسين البصري[٢] إمام المتأخرين من المعتزلة أن العلم بأن العبد يحدث فعله ضروري، وذكر الرازي أن افتقار الفعل المحدث الممكن إلى مرجِّح يجب وجوده عنده ويمتنع عند عدمه

---

(١) قال ابن الوزير في العواصم والقواصم (٧/ ٢٩٩): واعلم أن أهل السنّة لا ينكرون أن الجنة تدخل بعمل كما ورد في القرآن وإنما ينكرون ما ليس في القرآن من كونها تستحق على الله بالعمل استحقاق المبيعات بأثمانها بحيث أنه لا فضل للبائع على المشتري... والقرآن إنما نص على العمل لا على أن الباء فيه للثمن المساوي.

(٢) انظر: الفتاوى (١٦/ ٢٣٥) (٨/ ٣٧٥).

ضروري، وكلاهما صادق فيما ذكره من العلم الضروري ثم ادعاء كل منهما أن هذا العلم الضروري يبطل ما ادعاه الآخر من الضرورة غير مسلم بل كلاهما صادق فيما ادعاه من العلم الضروري، وإنما وقع غلطه في إنكاره ما مع الآخر من الحق فإنه لا منافاة بين كون العبد محدثاً لفعله وكون هذا الإحداث وجب وجوده بمشيئة الله تعالى كما قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨﴾ [الشمس: ٧، ٨] فقوله: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨﴾ [الشمس: ٨] إثبات للقدر بقوله فألهمها وإثبات، لفعل العبد بإضافة الفجور والتقوى إلى نفسه ليعلم أنها هي الفاجرة والمتقية، وقوله بعد ذلك: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ [الشمس: ٩، ١٠] إثبات أيضاً لفعل العبد ونظائر ذلك كثيرة.

وهذه شبهة أخرى[١] من شبه القوم التي فرقتهم بل مزقتهم كل ممزق وهي أنهم قالوا: كيف يستقيم الحكم على قولكم بأن الله يعذب المكلفين على ذنوبهم وهو خلقها فيهم، فأين العدل في تعذيبهم على ما هو خالقه وفاعله فيهم، وهذا السؤال لم يزل مطروقاً في العالم على ألسنة الناس وكل منهم يتكلم في جوابه بحسب علمه ومعرفته وعنه تفرقت بهم الطرق، فطائفة أخرجت أفعالهم عن قدرة[٢] الله تعالى وطائفة أنكرت الحكم والتعليل وسدت باب السؤال[٣]، وطائفة أثبتت كسباً لا يعقل جعلت الثواب والعقاب عليه، وطائفة التزمت لأجله وقوع مقدور بين قادرين ومفعول بين فاعلين، وطائفة التزمت الجبر وأن الله يعذبهم على ما لا يقدرون عليه، وهذا السؤال هو الذي أوجب التفرق والاختلاف.

والجواب الصحيح عنه أن يقال: إن ما يبتلى به العبد من الذنوب الوجودية وإن كانت خلقاً لله تعالى فهي عقوبة له على ذنوب قبلها، فالذنب يكسب الذنب، ومن عقاب السيئة سيئة بعدها، فالذنوب كالأمراض التي يورث بعضها بعضاً.

يبقى أن يقال: فالكلام في الذنب الأول الجالب لما بعده من الذنوب يقال هو عقوبة أيضاً على عدم فعل ما خلق له وفطر عليه، فإن الله سبحانه خلقه لعبادته وحده لا شريك له وفطره على محبته وتأليهه والإنابة إليه كما قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ

---

(١) مختصر الصواعق (١/ ٣٢٥).
(٢) وهؤلاء هم المعتزلة.
(٣) وهؤلاء هم الجهمية.

وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠]، فلما لم يفعل ما خلق له وفطر عليه من محبة الله وعبوديته والإنابة إليه عوقب على ذلك بأن زين له الشيطان ما يفعله من الشرك والمعاصي فإنه صادف قلباً خالياً قابلاً للخير والشر ولو كان فيه الخير الذي يمنع ضده لم يتمكن منه الشر كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤]، وقال إبليس: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [ص: ٨٢، ٨٣]، وقال الله ﷻ: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الحجر: ٤١، ٤٢]، والإخلاص خلوص القلب من تأليه ما سوى الله تعالى وإرادته ومحبته، فخلص لله فلم يتمكن منه الشيطان، وأما إذا صادفه فارغاً من ذلك تمكن منه بحسب فراغه فيكون جعله مذنباً مسيئاً في هذه الحال عقوبة له على عدم هذا الإخلاص وهي محض العدل.

فإن قلت: فذلك العدم مَن خلقه فيه؟ قيل: هذا سؤال فاسد، فإن العدم كاسمه لا يفتقر إلى تعلق التكوين والإحداث به، فإن عدم الفعل ليس أمراً وجودياً حتى يضاف إلى الفاعل بل هو شر محض، والشر ليس إلى الله سبحانه كما قال ﷺ في حديث الاستفتاح: «لبيك وسعديك، والخير كله في يديك، والشر ليس إليك».

وكذا في حديث الشفاعة يوم القيامة حين يقول الله له: «يا محمد، فيقل: لبيك وسعديك والخير في يديك والشر ليس إليك».

وقد أخبر الله تعالى أن تسليط الشيطان إنما هو على الذين يتولونه والذين هم به مشركون، فلما تولوه دون الله وأشركوا به معه عوقبوا على ذلك بتسليطه عليهم، وكانت هذه الولاية والإشراك عقوبة خلو القلب وفراغه من الإخلاص، فإلهام البر والتقوى ثمرة هذا الإخلاص ونتيجته، وإلهام الفجور عقوبة على خلوه من الإخلاص.

فإن قلت: إن كان هذا الترك أمراً وجودياً عاد السؤال جذعاً، وإن كان أمراً عدمياً فكيف يعاقب على العدم المحض؟.

قيل: ليس هنا ترك هو كف النفس ومنعها عما تريده وتحبه، فهذا قد يقال إنه أمر وجودي، وإنما هنا عدم وخلو من أسباب الخير وهذا العدم هو محض خلوها مما هو أنفع شيء لها، والعقوبة على الأمر العدمي هي بفعل السيئات لا بالعقوبات التي تناله بعد إقامة الحجة عليه بالرسل فلله فيه عقوبتان:

إحداهما: جعله مذنباً خاطئاً، وهذه عقوبة عدم إخلاصه وإنابته وإقباله على الله وهذه العقوبة قد لا يحس بألمها ومضرتها لموافقتها شهوته، وهي في الحقيقة من أعظم العقوبات.

والثانية: العقوبات المؤلمة بعد فعله للسيئات، وقد قرن الله تعالى بين هاتين العقوبتين في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٤٤]، فهذه العقوبة الأولى ثم قال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً﴾ [الأنعام: ٤٤] فهذه العقوبة الثانية.

فإن قيل: فهل كان يمكنهم أن يأتوا بالإخلاص والإنابة والمحبة له وحده من غير أن يخلق ذلك في قلوبهم ويجعلهم مخلصين له منيبين له محبين له، أم ذلك محض جعله في قلوبهم وإلقائه فيها؟ قيل: لا بل هو محض منته وفضله وهو من أعظم الخير الذي هو بيده، والخير كله في يديه، ولا يقدر أحد أن يأخذ من الخير إلا ما أعطاه ولا يتقي من الشر إلا ما وقاه.

فإن قيل: فإذا لم يخلق ذلك في قلوبهم ولم يوفقوا له ولا سبيل لهم إليه بأنفسهم عاد السؤال وكان منعهم منه ظلماً ولزمكم القول بأن العدل هو تصرف المالك في ملكه بما يشاء لا يسأل عما يفعل وهم يسألون.

قيل: لا يكون سبحانه بمنعهم من ذلك ظالماً وإنما يكون المانع ظالماً إذا منع غيره حقاً لذلك الغير عليه، وهذا هو الذي حرمه الرب على نفسه وأوجب على نفسه خلافه، وأما إذا منع غيره ما ليس بحق له بل هو محض فضله ومنته عليه لم يكن ظالماً بمنعه، فمنع الحق ظلم ومنع الفضل والإحسان عدل، وهو سبحانه العدل في منعه كما هو المحسن المنان بعطائه.

فإن قيل: فإذا كان العطاء والتوفيق إحساناً ورحمة فهلَّا كان العمل له والغلبة كما أن رحمته تغلب غضبه.

قيل: المقصود في هذا المقام بيان أن هذه العقوبة المترتبة على هذا المنع والمنع المستلزم للعقوبة ليس بظلم بل هو محض العدل.

وهذا سؤال عن الحكمة التي أوجبت تقديم العدل على الفضل في بعض المحال، وهلَّا سوَّى بين العباد في الفضل، وهذا السؤال حاصله: لِمَ تفضل على

هذا ولم يتفضل على الآخر، وقد تولى الله سبحانه الجواب عنه بقوله: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الجمعة: ٤] وقوله: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢٩]، ولما سأله اليهود والنصارى عن تخصيص هذه الأمة بأجرين وإعطائهم هم أجراً قال: هل ظلمتكم من حقكم شيئاً؟ قالوا: لا، قال: فذلك فضلي أوتيه من أشاء. وليس في الحكمة إطلاع كل فرد من أفراد الناس على كمال حكمته في عطائه ومنعه، بل إذا كشف الله عن بصيرة العبد حتى أبصر طرفاً يسيراً من حكمته في خلقه وأمره وثوابه وعقابه وتخصيصه وحرمانه وتأمل أحوال محال ذلك استدل بما علمه على ما لم يعلمه.

ولمّا استشكل أعداؤه المشركون هذا التخصيص قالوا: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾ [الأنعام: ٥٣] قال تعالى مجيباً لهم: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣]، فتأمل هذا الجواب تر في ضمنه أنه سبحانه أعلم بالمحل الذي يصلح لغرس شجرة النعمة فتثمر بالشكر من المحل الذي لا يصلح لغرسها، فلو غرست فيه لم تثمر، فكان غرسها هناك ضائعاً لا يليق بالحكمة كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

فإن قيل: إذا حكمتم باستحالة الإيجاد من العبد فإذاً لا فعل للعبد أصلاً، قيل: العبد فاعل لفعله حقيقة وله قدرة حقيقية، قال تعالى: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ﴾ [البقرة: ١٩٧]، ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [هود: ٣٦] وأمثال ذلك.

وإذا ثبت كون العبد فاعلاً فأفعاله نوعان:

نوع يكون منه من غير اقتران قدرته وإرادته، فيكون صفة له ولا يكون فعلاً كحركات المرتعش.

ونوع يكون منه مقارناً لإيجاد قدرته واختياره فيوصف بكونه صفة وفعلاً وكسباً للعبد كالحركات الاختيارية، والله تعالى هو الذي جعل العبد فاعلاً مختاراً وهو الذي يقدر على ذلك وحده لا شريك له، ولهذا أنكر السلف الجبر فإن الجبر لا يكون إلا من عاجز فلا يكون إلا مع الإكراه، يقال: للأب ولاية إجبار البكر الصغيرة على النكاح وليس له إجبار الثيب البالغ، أي: ليس له أن يزوجها مكرهة.

والله تعالى لا يوصف بالإجبار بهذا الاعتبار لأنه سبحانه خالق الإرادة، والمراد قادر على أن يجعله مختاراً بخلاف غيره، ولهذا جاء في ألفاظ الشارع الجبل دون الجبر كما قال ﷺ لأشج عبد القيس: «إن فيك لخلتين يحبهما الله: الحلم والأناة، فقال: أخلقين تخلَّقت بهما أم خلقين جُبلت عليهما؟ فقال: بل خلقان جُبلت عليهما، فقال: الحمد لله الذي جبلني على خلقين يحبهما الله ورسوله»[1].

والله تعالى إنما يعذب عبده على فعله الاختياري، والفرق بين العقاب على الفعل الاختياري وغير الاختياري مستقر في الفطر والعقول.

وإذا قيل: خلق الفعل مع العقوبة عليه ظلم كان بمنزلة أن يقال خلق أكل السم ثم حصول الموت به ظلم، فكما أن هذا سبب للموت فهذا سبب للعقوبة ولا ظلم فيهما.

فالحاصل: أن فعل العبد فعل له حقيقة ولكنه مخلوق لله تعالى ومفعول لله تعالى ليس هو نفس فعل الله، ففرق بين الفعل والمفعول والخلق والمخلوق، وإلى هذا المعنى أشار الشيخ رحمه الله بقوله: وأفعال العباد خلق الله وكسب من العباد، أثبت للعباد فعلاً وكسباً وأضاف الخلق لله تعالى. والكسب هو الفعل الذي يعود على فاعله منه نفع أو ضرر كما قال تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

---

(١) أخرجه مسلم (١٧).



عناصر الموضوع:

(١) غرض المصنف من عقد هذا الباب:

أ ـ تقرير معتقد أهل السنة والجماعة أن أفعال العباد قدَّرها الله تعالى وخلقها، والعباد باشروها مختارين فصاروا بها عصاة ومطيعين.

ب ـ الرد على المخالفين لأهل السنة والجماعة، وهم طائفتان:

١ ـ مذهب الجبرية: قالوا إن الأفعال هي أفعال الله والعباد مجبورون على أفعالهم، وهم وعاء للأفعال، فالعباد ليس لهم أفعال ولا اختيار ولا تنسب الأفعال إليهم، بل الأفعال أفعال الله لأن الله أجبرهم على ذلك، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

٢ ـ مذهب القدرية: قالوا أفعال العباد اختيارية وهم الذين خلقوا أفعالهم والله لا يقدر على أفعالهم، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

(٢) مناسبة هذا الباب لما سبق:

قرر المصنف فيما سبق أن من أصول أهل السنة والجماعة أن الاستطاعة نوعان: قبل الفعل ومقارنة للفعل، فناسب أن يبين أن أفعال العباد من الله خلقاً وتقديراً ومن العبد فعلاً وتسبباً وكسباً ومباشرة.

(٣) معاني الكلمات:

الكلمة	المعنى
السبب	هو ما يكون الشيء محتاجاً إليه إما في ماهيته أو في وجوده.

(٤) معنى كلام الطحاوي: «وأفعال العباد هي خلق الله وكسب من العباد»:

وأفعال العباد كلها خلق الله تعالى كما قال ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الصافات: ٩٦] لكنها كسب من العباد، وهذا هو قول أهل الحق، خلافاً للجبرية الذين نفوا أي إرادة للعبد، وخلافاً للمعتزلة الذين جعلوا العبد خالق

أفعال الشر دون إرادة الله، فهما في طرفي النقيض: الإفراط والتفريط، والوسط قول أهل السنة والجماعة هذا وأفعال العباد قسمان:

أ ـ قسم اختياري: وهو الذي يجد الإنسان من نفسه القدرة في التحكم فيه فقد يريده وتتعلق قدرته به فيفعله، وقد لا يريده فلا تتعلق به قدرته فلا يفعله.

ب ـ قسم اضطراري: وهو بعكس الأول حيث لا يجد العبد من نفسه القدرة على منعه أو التحكم فيه كحرمة المرتعش ونبضات القلب.

(٥) مذهب أهل السنة والجماعة في أفعال العباد:

مذهب أهل السنة والجماعة في أن أفعال العباد مخلوقة لله تعالى ومقدورة له والله ﷻ هو الخالق لكل شيء من الأعيان والأوصاف والأفعال وغيرها، وأن مشيئة الله عامة شاملة لجميع الكائنات فلا يقع منها شيء إلا بتلك المشيئة، وأن خلقه سبحانه الأشياء بمشيئة إنما يكون وفقاً لما علمه منها بعلمه القديم ولما كتبه وقدره في اللوح المحفوظ، وأن للعباد قدرة وإرادة تقع بها أفعالهم، وأنهم الفاعلون حقيقة لهذه الأفعال باختيارهم، وأنهم لهذا يستحقون عليها الجزاء إما بالمدح والمثوبة وإما بالذم والعقوبة، وأن نسبة هذه الأفعال إلى العباد فعلاً لا ينافي نسبتها إلى الله إيجاداً وخلقاً لأنه هو الخالق لجميع الأسباب التي وقعت بها.

(٦) أقوال السلف في إثبات خلق الله لأفعال العباد:

يقول الإسماعيلي: «ويقولون إنه لا خالق على الحقيقة إلا الله ﷻ وأن أكساب العباد كلها مخلوقة لله، وأن الله يهدي من يشاء ويضل من يشاء لا حجة لمن أضله الله ﷻ ولا عذر كما قاله الله ﷻ: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ [الأنعام: ١٤٩]، وقال: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ [الأعراف: ٢٩، ٣٠]، وقال: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، وقال: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾ [الحديد: ٢٢] ومعنى نبرأها أي نخلقها وبلا خلاف في اللغة وقال مخبراً عن أهل الجنة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣]، وقال: ﴿أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [الرعد: ٣١]، وقال: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩].

ويقول الصابوني: «ومن قول أهل السنة والجماعة في أكساب العباد أنها مخلوقة لله تعالى، لا يمترون فيه، ولا يعدون من أهل الهدى ودين الحق من

ينكر هذا القول وينفيه، ويشهدون أن الله يهدي من يشاء إلى دينه ويضل من يشاء عنه، لا حجة لمن أضله الله عليه ولا عذر له لديه...»(١).

ويقول: التيمي: «أفعال العباد وليست بفعل الله وإنما هي مخلوقة له»(٢).

٧ أدلة أهل السنة والجماعة في مسألة خلق أفعال العباد:

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ [الزمر: ٦٢].

فيخبر الله تعالى أنه خالق الأشياء كلها وربها ومليكها وربها المتصرف فيها فالكلُّ تحت تدبيره وقهره وكلاءته، فأفعال العباد من جملة المخلوقات.

وقال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴿٢٢﴾﴾ [الحديد: ٢٢].

وقال تعالى: ﴿قَالَ أَتَعۡبُدُونَ مَا تَنۡحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الصافات: ٩٥، ٩٦].

وعن حذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«الله يصنع كل صانع وصنعته»**(٣).

وصح عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال: **«كل شيء بقدر حتى العجز والكَيس»**(٤).

٨ المخالفون لأهل السنة في خلق أفعال العباد:

من المخالفين لأهل السنة في مسألة خلق أفعال العباد:

الجهمية الجبرية(٥): فقد سلبوا عن العبد قدرته وإرادته، فالعبد عندهم كالريشة المعلقة في الهواء.

وإضافة الأفعال إلى الخلق مجاز عندهم وهي على حسب ما يضاف الشيء إلى محله دون ما يضاف إلى مخلصه وهذا الكلام باطل فإن الصفة إذا قامت بمحل

---

(١) اعتقاد أئمة أهل الحديث (ص٦٠ ـ ٦١).

(٢) عقيدة السلف أصحاب الحديث (ص٧٥ ـ ٨٩).

(٣) الحجة (١/ ٤٢١).

(٤) أخرجه البخاري في خلق أفعال العباد (ص٣٩ ـ ٤٠)، والحاكم (١/ ٣١ ـ ٣٢)، وقال الهيثمي في المجمع (١/ ١٥٨): رجاله رجال الصحيح غير أحمد وهو ثقة. وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٤/ ١٨١).

(٥) تأثر بهم الأشاعرة فقالوا بالكسب وهو اقتران الفعل بالقدرة الحادثة من غير أن يكون لها فيه أمر وحقيقة هذا أن الإنسان ليس بفاعل حقيقة والفاعل هو الله، انظر: شفاء العليل (١/ ٣٢٩)، ومنهاج السنة (١/ ٤٥٩).

عاد حكمها على ذلك المحل لا على غيره، فإذا خلق حركة في محل كان ذلك المحل هو المتحرك بها، لم يكن المتحرك بها هو الخالق لها[١].

ومن المخالفين: القدرية المعتزلة: وهؤلاء يقولون إن للعبد قدرة وإرادة مطلقتين مستقلتين عن الله تعالى.

وسيأتي الرد على هذه الشبه.

٩ شبهات القدرية «المعتزلة» حول أفعال العباد والجواب عليها:

ومما استدل به القدرية قوله تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤] قالوا: والجزاء مرتب على الأعمال ترتب العوض كما قال تعالى: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧] ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [الزخرف: ٧٢] ونحو ذلك.

وأما استدلال المعتزلة بقوله تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤] فمعنى الآية أحسن المصورين المقدرين، والخلق يذكر ويراد به التقدير وهو المراد هنا بدليل قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ [الرعد: ١٦] أي الله خالق كل شيء مخلوق فدخلت أفعال العباد في عموم كل، وما أفسد قولهم في إدخال كلام الله تعالى في عموم كل الذي هو صفة من صفاته يستحيل عليه أن يكون مخلوقاً وأخرجوا أفعالهم التي هي مخلوقة من عموم كل، وهل يدخل في عموم كل إلا ما هو مخلوق، فذاته المقدسة وصفاته غير داخلة في هذا العموم ودخل سائر المخلوقات في عمومها، وكذا قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الصافات: ٩٦] ولا نقول إن ما[٢] مصدرية[٣] أي خلقكم وعملكم، إذ سياق الآية يأباه لأن إبراهيم عليه السلام إنما أنكر عليهم عبادة المنحوت لا النحت، والآية تدل على أن المنحوت مخلوق لله تعالى وهو ما صار منحوتاً إلا بفعلهم، فيكون ما

---

(١) انظر: منهاج السنّة (١/٤٥٦).

(٢) يحتمل أن تكون بمعنى (الذي) تقدير الكلام: والله خلقكم والذي تعملونه ويحتمل أن يكون (ما) مصدرية فيكون تقدير الكلام: والله خلقكم وعملكم، انظر: بدائع الفوائد (١/ ١٤٦)، والمسائل الاعتزالية في تفسير الكشاف (٢/ ٩٣٠).

(٣) الجبرية قالوا: (ما) هنا مصدرية لكون ذلك يوافق معتقدهم في أن الله هو الخالق والفاعل لأفعال العباد أما المعتزلة فقالوا: (ما) في الآية موصولة فتأويل الآية والله خلقكم وخلق الذي تعملونه لاعتقادهم أن أعمال العباد ليست مخلوقة لله بل العبد يخلق فعله.

هو من آثار فعلهم مخلوقاً لله تعالى، ولو لم يكن النحت مخلوقاً لله تعالى لم يكن المنحوت مخلوقاً له بل الخشب أو الحجر لا غير، وذكر أبو الحسين البصري إمام المتأخرين من المعتزلة أن العلم بأن العبد يحدث فعله ضروري، وذكر الرازي أن افتقار الفعل المحدث الممكن إلى مرجح يجب وجوده عنده ويمتنع عند عدمه ضروري، وكلاهما صادق فيما ذكره من العلم الضروري، ثم ادعاء كل منهما أن هذا العلم الضروري يبطل ما ادعاه الآخر من الضرورة غير مسلم بل كلاهما صادق فيما ادعاه من العلم الضروري، وإنما وقع غلطه في إنكاره ما مع الآخر من الحق.

وهذه شبهة أخرى من شبه القوم التي فرقتهم بل مزقتهم[١] كل ممزق وهي أنهم قالوا: كيف يستقيم الحكم على قولكم بأن الله يعذب المكلفين على ذنوبهم وهو خلقها فيهم، فأين العدل في تعذيبهم على ما هو خالقه وفاعله فيهم؟ وهذا السؤال لم يزل مطروقاً في العالم على ألسنة الناس وكل منهم يتكلم في جوابه بحسب علمه ومعرفته وعنه تفرقت بهم الطرق، فطائفة أخرجت[٢] أفعالهم عن قدرة الله تعالى، وطائفة أنكرت الحكم والتعليل وسدت[٣] باب السؤال، وطائفة أثبتت كسباً لا يعقل جعلت الثواب والعقاب عليه، وطائفة التزمت لأجله وقوع مقدور بين قادرين ومفعول بين[٤] فاعلين، وطائفة التزمت الجبر وأن الله يعذبهم على ما لا يقدرون عليه، وهذا السؤال هو الذي أوجب التفرق والاختلاف.

والجواب الصحيح عنه أن يقال: إن ما يبتلى به العبد من الذنوب الوجودية وإن كانت خلقاً لله تعالى فهي عقوبة له على ذنوب قبلها، فالذنب يكسب الذنب، ومن عقاب السيئة سيئة بعدها، فالذنوب كالأمراض التي يورث بعضها بعضاً.

١٠ شبهات الجبرية حول أفعال العباد والجواب عليها:

فما استدلت به الجبرية قوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧]، فنفى الله عن نبيه الرمي وأثبته لنفسه سبحانه، فدل على أنه لا صنع للعبد، قالوا: والجزاء غير مرتب على الأعمال بدليل قوله ﷺ: «**لن يدخل أحد**

---

(١) انظر: مختصر الصواعق (١/ ٣٢٥ ـ ٣٣٠).

(٢) هم المعتزلة.

(٣) هم الجهمية والأشاعرة.

(٤) هو قول الغزالي في الإحياء، انظر: العواصم والقواصم (٧/ ١٢).

الجنة بعمله، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل».

فأما ما استدلت به الجبرية من قوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧] فهو دليل عليهم، لأنه تعالى أثبت لرسوله رمياً بقوله إذ رميت فعلم أن المثبت غير المنفي، وذلك أن الرمي له ابتداء وانتهاء، فابتداؤه الحذف وانتهاؤه الإصابة، وكل منهما يسمى رمياً، فالمعنى حينئذ والله تعالى أعلم: وما أصبت إذ حذفت ولكن الله أصاب، وإلا فطرد قولهم: وما صليت إذ صليت ولكن الله صلى، وما صمت إذ صمت، وما زنيت إذ زنيت، وما سرقت إذ سرقت، وفساد هذا ظاهر.

وأما ترتب الجزاء على الأعمال فقد ضلت فيه الجبرية والقدرية وهدى الله أهل السنة وله الحمد والمنة، فإن الباء التي في النفي غير الباء التي في الإثبات. فالمنفي في قوله لن يدخل الجنة أحد بعمله باء العوض وهو أن يكون العمل كالثمن لدخول الرجل إلى الجنة كما زعمت المعتزلة أن العامل مستحق دخول الجنة على ربه بعمله بل ذلك برحمة الله وفضله، والباء التي في قوله تعالى: ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧] ونحوها باء السبب، أي: بسبب عملكم، والله تعالى هو خالق الأسباب والمسببات، فرجع الكل إلى محض فضل الله ورحمته.

١١ عدم التعارض بين فعل العبد والمشيئة:

إنه لا منافاة بين كون العبد محدثاً لفعله وكون هذا الإحداث وجب وجوده بمشيئة الله تعالى كما قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨﴾ [الشمس: ٧، ٨]، فقوله: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨﴾ [الشمس: ٨] إثبات للقدر بقوله فألهمها وإثبات لفعل العبد بإضافة الفجور والتقوى إلى نفسه ليعلم أنها هي الفاجرة والمتقية، وقوله بعد ذلك: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ [الشمس: ٩، ١٠] إثبات أيضاً لفعل العبد ونظائر ذلك كثيرة.

١٢ أنواع العقوبة:

نوعان:

إحداهما: جعله مذنباً خاطئاً وهذه عقوبة عدم إخلاصه وإنابته وإقباله على الله، وهذه العقوبة قد لا يحس بألمها ومضرتها لموافقتها شهوته وإرادته وهي في الحقيقة من أعظم العقوبات.

والثانية: العقوبات المؤلمة بعد فعله للسيئات، وقد قرن الله تعالى بين هاتين العقوبتين في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٤٤]، فهذه العقوبة الأولى ثم قال: ﴿حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً﴾ [الأنعام: ٤٤] فهذه العقوبة الثانية.

(١٣) أفعال العباد نوعان:

وإذا ثبت كون العبد فاعلاً فأفعاله نوعان:

نوع يكون منه من غير اقتران قدرته وإرادته فيكون صفة له ولا يكون فعلاً كحركات المرتعش.

ونوع يكون منه مقارناً لإيجاد قدرته واختياره فيوصف بكونه صفة وفعلاً وكسباً للعبد كالحركات الاختيارية، والله تعالى هو الذي جعل العبد فاعلاً مختاراً وهو الذي يقر على ذلك وحده لا شريك له.

(١٤) استخدام الجبل بدل الجبر:

ولهذا أنكر السلف الجبر[1]، فإن الجبر لا يكون إلا من عاجز فلا يكون إلا مع الإكراه يقال: للأب ولاية إجبار البكر الصغيرة على النكاح وليس له إجبار الثيب البالغ أي ليس له أن يزوجها مكرهة.

والله تعالى لا يوصف بالإجبار بهذا الاعتبار لأنه سبحانه خالق الإرادة، والمراد قادر على أن يجعله بخلاف غيره، ولهذا جاء في ألفاظ الشارع الجبل دون الجبر كما قال ﷺ لأشج عبد القيس: «**إن فيك لخلتين يحبهما الله الحلم والأناة، فقال: أخلقين تخلقتُ بهما أم خلقين جُبلتُ عليهما؟ فقال: بل خلقان جُبلتَ عليهما، فقال: الحمد لله الذي جبلني على خلقين يحبهما الله ورسوله**».

(١٥) شبهة خلق الفعل مع العقوبة ظلم:

وإذا قيل: خلق الفعل مع العقوبة عليه ظلم كان بمنزلة أن يقال خلق أكل السم ثم حصول الموت به ظلم، فكما أن هذا سبب للموت فهذا سبب للعقوبة ولا ظلم فيهما.

فإن قيل: فإذا لم يخلق ذلك في قلوبهم ولم يوفَّقوا له ولا سبيل لهم إليه

---

(١) انظر: منهاج السنّة (٣/٢٤٦)، ودرء التعارض (١/٦٦).

بأنفسهم عاد السؤال وكان منعهم منه ظلماً ولزمكم القول بأن العدل هو تصرف المالك في ملكه بما يشاء لا يسأل عما يفعل وهم يسألون.

قيل: لا يكون سبحانه بمنعهم من ذلك ظالماً وإنما يكون المانع ظالماً إذا منع غيره حقاً لذلك الغير عليه، وهذا هو الذي حرمه الرب على نفسه وأوجب على نفسه خلافه، وأما إذا منع غيره ما ليس بحق له بل هو محض فضله ومنته عليه لم يكن ظالماً بمنعه، فمنع الحق ظلم ومنع الفضل والإحسان عدل، وهو سبحانه العدل في منعه كما هو المحسن المنان بعطائه.

(١٦) الخلاصة:

١ ـ أفعال العباد كلها خلق الله تعالى كما قال ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ۝٩٦﴾ [الصافات: ٩٦] لكنها كسب من العباد، وهذا هو قول أهل الحق، خلافاً للجبرية الذين نفوا أي إرادة للعبد، وخلافاً للمعتزلة الذين جعلوا العبد خالق أفعال الشر دون إرادة الله، فهما في طرفي النقيض: الإفراط والتفريط، والوسط قول أهل السنة والجماعة.

٢ ـ من المخالفين لأهل السنة في مسألة خلق أفعال العباد: الجهمية الجبرية، والقدرية المعتزلة، ولكل شبهات.

٣ ـ لا منافاة بين كون العبد محدثاً لفعله وكون هذا الإحداث وجب وجوده بمشيئة الله تعالى كما قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨﴾ [الشمس: ٨].

٤ ـ العقوبة نوعان: الأولى جعله مذنباً خاطئاً، والثانية: العقوبات المؤلمة بعد فعله للسيئات.

٥ ـ إذا ثبت كون العبد فاعلاً فأفعاله نوعان:

نوع يكون منه من غير اقتران قدرته وإرادته فيكون صفة له ولا يكون فعلاً كحركات المرتعش.

ونوع يكون منه مقارناً لإيجاد قدرته واختياره.

٦ ـ أنكر السلف الجبر، فإن الجبر لا يكون إلا من عاجز، والله تعالى لا يوصف بالإجبار بهذا الاعتبار.

٧ ـ إذا قيل: خلق الفعل مع العقوبة عليه ظلم كان بمنزلة أن يقال خلق أكل

السم ثم حصول الموت به ظلم، فكما أن هذا سبب للموت فهذا سبب للعقوبة ولا ظلم فيهما.

١٧ المناقشة:

- **س١:** بيِّن معنى كلام الطحاوي: «وأفعال العباد هي خلق الله وكسب من العباد».
- **س٢:** وضح مذهب أهل السنة والجماعة في أفعال العباد.
- **س٣:** اذكر بعضاً من أقوال السلف في إثبات خلق الله لأفعال العباد.
- **س٤:** ما أدلة أهل السنة والجماعة في مسألة خلق أفعال العباد؟
- **س٥:** من خالف أهل السنة في خلق أفعال العباد؟
- **س٦:** اذكر شبهات القدرية «المعتزلة» حول أفعال العباد مع الجواب عليها.
- **س٧:** اذكر شبهات الجبرية حول أفعال العباد مع الجواب عليها.
- **س٨:** هل يوجد تعارض بين فعل العبد والمشيئة؟ وضح ذلك.
- **س٩:** ما أنواع العقوبة؟
- **س١٠:** ما أنواع أفعال العباد؟
- **س١١:** ما الفرق بين الجبل والجبر؟ وأيهما استخدم السلف؟
- **س١٢:** كيف ترد على من يقول: إن خلق الفعل مع العقوبة ظلم؟

التكليف بحسب الطاقة

❋ **كلام ابن أبي العز:**

١ ـ غرض المصنف من عقد هذا الباب.

٢ ـ مناسبة هذا الباب لما سبق

٣ ـ معاني الكلمات.

٤ ـ معنى كلام الطحاوي: «ولم يكلفهم الله تعالى إلا ما يطيقون ولا يطيقون إلا ما كلفهم، وهو تفسير لا حول ولا قوة إلا بالله، نقول: لا حيلة لأحد ولا تحول لأحد ولا حركة لأحد عن معصية الله، إلا بمعونة الله، ولا قوة لأحد على إقامة طاعة الله والثبات عليها إلا بتوفيق الله، وكل شيء يجري بمشيئة الله تعالى وعلمه وقضائه وقدره، غلبت مشيئته المشيئات كلها وعكست إرادته الإرادات كلها، وغلب قضاؤه الحيل كلها، يفعل ما يشاء وهو غير ظالم أبداً: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء: ٢٣].

٥ ـ المراد بالطاقة.

٦ ـ تفسير قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾ [البقرة: ٢٨٦].

٧ ـ إطلاق القول بالتكليف بما لا يطاق من البدع.

٨ ـ أقوال الناس في تكليف ما لا يطاق.

٩ ـ منشأ النزاع بين الفرق في التكليف بما لا يطاق.

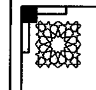
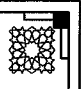
١٠ ـ توضيح المصطلحات العلمية كوناً وشرعاً.

١١ ـ الفوائد المستنبطة من حديث: «يا عبادي إني حرَّمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا».

١٢ ـ توجيه حديث: «لو أن الله عذب أهل سماواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم ولو رحمهم كانت رحمته خيراً لهم من أعمالهم».

١٣ ـ الخلاصة.

١٤ ـ المناقشة.

التكليف بحسب الطاقة

قال ابن أبي العز:

قوله: «ولم يكلفهم الله تعالى إلا ما يطيقون ولا يطيقون إلا ما كلفهم، وهو تفسير لا حول ولا قوة إلا بالله، نقول: لا حيلة لأحد ولا تحول لأحد ولا حركة لأحد عن معصية الله إلا بمعونة الله، ولا قوة لأحد على إقامة طاعة الله والثبات عليها إلا بتوفيق الله، وكل شيء يجري بمشيئة الله تعالى وعلمه وقضائه وقدره، غلبت مشيئته المشيئات كلها، وعكست إرادته الإرادات كلها، وغلب قضاؤه الحيل كلها يفعل ما يشاء وهو غير ظالم أبداً: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ۝٢٣﴾ [الأنبياء: ٢٣]».

فقوله: «لم يكلفهم الله تعالى إلا ما يطيقون»، قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [الأنعام: ١٥٢].

وعند أبي الحسن الأشعري أن تكليف ما لا يطاق جائز عقلاً، ثم تردد أصحابه أنه هل ورد به الشرع أم لا؟ واحتج من قال بوروده بأمر أبي لهب بالإيمان فإنه تعالى أخبر بأنه لا يؤمن وأنه سيصلى ناراً ذات لهب، فكان مأموراً بأن يؤمن بأنه لا يؤمن، وهذا تكليف بالجمع بين الضدين وهو محال.

والجواب عن هذا بالمنع فلا نسلم بأنه مأمور بأن يؤمن بأنه لا يؤمن والاستطاعة التي بها يقدر على الإيمان كانت حاصلة فهو غير عاجز عن تحصيل الإيمان، فما كلف إلا يطيقه كما تقدم في تفسير الاستطاعة، ولا يلزم قوله تعالى للملائكة: ﴿أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ٣١] مع عدم علمهم بذلك ولا للمصورين يوم القيامة أحيوا ما خلقتم، وأمثال ذلك لأنه ليس بتكليف طلب فعل يثاب فاعله ويعاقب تاركه بل هو خطاب تعجيز.

وكذا لا يلزم دعاء المؤمنين في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٦] لأن تحميل ما لا يطاق ليس تكليفاً بل يجوز أن يحمله جبلاً لا يطيقه فيموت، وقال ابن الأنباري أي لا تحملنا ما يثقل علينا أداؤه وإن كنا مطيقين

له على تجشم وتحمل مكروه، قال: فخاطب العرب على حسب ما تعقل، فإن الرجل منهم يقول للرجل يبغضه ما أطيق النظر إليك وهو مطيق لذلك، لكنه يثقل عليه، ولا يجوز في الحكمة أن يكلفه بحمل جبل بحيث لو فعل يثاب ولو امتنع يعاقب كما أخبر سبحانه عن نفسه أنه لا يكلف نفساً إلا وسعها.

ومنهم من يقول: يجوز تكليف الممتنع عادة دون الممتنع لذاته، لأن ذلك لا يتصور وجوده فلا يعقل الأمر به بخلاف هذا.

ومنهم من يقول: ما لا يطاق للعجز عنه لا يجوز تكليفه بخلاف ما لا يطاق للاشتغال بضده فإنه يجوز تكليفه، وهؤلاء موافقون للسلف والأئمة في المعنى، لكن كونهم جعلوا ما بتركه العبد لا يطاق لكونه تاركاً له مشتغلاً بضده بدعة في الشرع واللغة، فإن مضمونه أن فعل ما لا يفعله العبد لا يطيقه.

وهم التزموا هذا لقولهم إن الطاقة التي هي الاستطاعة وهي القدرة لا تكون إلا مع الفعل، فقالوا كل من لم يفعل فعلاً فإنه لا يطيقه، وهذا خلاف الكتاب والسنة وإجماع السلف، وخلاف ما عليه عامة العقلاء كما تقدمت الإشارة إليه عند ذكر الاستطاعة.

وأما ما لا يكون إلا مقارناً للفعل فذلك ليس شرطاً في التكليف مع أنه في الحقيقة إنما هناك إرادة الفعل، وقد يحتجون بقوله تعالى: ﴿مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ﴾ [هود: ٢٠]، ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٦٧] وليس في ذلك إرادة ما سموه استطاعة وهو ما لا يكون إلا مع الفعل، فإن الله ذم هؤلاء على كونهم لا يستطيعون السمع ولو أراد بذلك المقارن لكان جميع الخلق لا يستطيعون السمع قبل السمع فلم يكن لتخصيص هؤلاء بذلك معنى، ولكن هؤلاء لبغضهم الحق وثقله عليهم إما حسداً لصاحبه وإما اتباعاً للهوى لا يستطيعون السمع وموسى عليه السلام لا يستطيع الصبر لمخالفة ما يراه لظاهر الشرع، وليس عنده منه علم وهذه لغة العرب وسائر الأمم، فمن يبغض غيره يقال: إنه لا يستطيع الإحسان إليه، ومن يحبه يقال: إنه لا يستطيع عقوبته لشدة محبته له لا لعجزه عن عقوبته، فيقال ذلك للمبالغة كما تقول لأضربنه حتى يموت، والمراد الضرب الشديد وليس هذا عذراً، فلو لم يأمر العباد إلا بما يهوونه لفسدت السماوات والأرض، قال تعالى: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون: ٧١].

وقوله: «ولا يطيقون إلا ما كلفهم به» إلى آخر كلامه أي ولا يطيقون إلا ما أقدرهم عليه، وهذه الطاقة هي التي من نحو التوفيق لا التي من جهة الصحة والوسع والتمكن وسلامة الآلات، ولا حول ولا قوة إلا بالله دليل على إثبات القدر، وقد فسرها الشيخ بعدها، ولكن في كلام الشيخ إشكال، فإن التكليف لا يستعمل بمعنى الإقدار وإنما يستعمل بمعنى الأمر والنهي، وهو قد قال: لا يكلفهم إلا ما يطيقون ولا يطيقون إلا ما كلفهم، وظاهره أنه يرجع إلى معنى واحد، ولا يصح ذلك لأنهم يطيقون فوق ما كلفهم به، لكنه سبحانه يريد بعباده اليسر والتخفيف كما قال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾ [النساء: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨] فلو زاد فيما كلفنا به لأطقناه ولكنه تفضل علينا ورحمنا وخفف عنا ولم يجعل علينا في الدين من حرج، ويجاب عن هذا الإشكال بما تقدم أن المراد الطاقة التي من نحو التوفيق لا من جهة التمكن وسلامة الآلات، ففي العبارة قلق فتأمله.

وقوله: «وكل شيء يجري بمشيئة الله وعلمه وقضائه وقدره» يريد بقضائه القضاء الكوني لا الشرعي، فإن القضاء يكون كونياً وشرعياً وكذلك الإرادة والأمر والإذن والكتاب والحكم والتحريم والكلمات ونحو ذلك.

أما القضاء الكوني ففي قوله تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ١٢].

والقضاء الديني الشرعي في قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣].

وأما الإرادة الكونية والدينية فقد تقدم ذكرها عند قول الشيخ: ولا يكون إلا ما يريد.

وأما الأمر الكوني، ففي قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: ٨٢]، وكذا قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾﴾ [الإسراء: ١٦] في أحد الأقوال وهو أقواها.

والأمر الشرعي في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ [النحل: ٩٠] وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨].

وأما الإذن الكوني، ففي قوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٠٢].

والإذن الشرعي في قوله تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ٥].

وأما الكتاب الكوني، ففي قوله تعالى: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [فاطر: ١١]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

والكتاب الشرعي الديني في قوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾ [المائدة: ٤٥]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ [البقرة: ١٨٣].

وأما الحكم الكوني، ففي قوله تعالى عن ابن يعقوب عليه السلام: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [يوسف: ٨٠] وقوله تعالى: ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ ۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [الأنبياء: ١١٢].

والحكم الشرعي في قوله تعالى: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ [المائدة: ١].

وأما التحريم الكوني ففي قوله تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [المائدة: ٢٦]، ﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾﴾ [الأنبياء: ٩٥].

والتحريم الشرعي في قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ﴾ [المائدة: ٣] و﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ﴾ [النساء: ٢٣].

وأما الكلمات الكونية، ففي قوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟﴾ [الأعراف: ١٣٧]، وفي قوله ﷺ: «أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر»(١).

والكلمات الشرعية الدينية في قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٢٤].

وقوله: «يفعل ما يشاء وهو غير ظالم أبداً» الذي دل عليه القرآن من تنزيه الله نفسه عن ظلم العباد يقتضي قولاً وسطاً بين قولي القدرية والجبرية، فليس ما كان من بني آدم ظلماً وقبيحاً يكون منه ظلماً وقبيحاً كما تقوله القدرية والمعتزلة

(١) خلق أفعال العباد (ص٤١).

ونحوهم فإن ذلك تمثيل لله بخلقه وقياس له عليهم، هو الرب الغني القادر وهم العباد الفقراء المقهورون، وليس الظلم عبارة عن الممتنع الذي لا يدخل تحت القدرة كما يقوله من يقوله من المتكلمين[١] وغيرهم، يقولون إنه يمتنع أن يكون في الممكن المقدور ظلم بل كان ما كان ممكناً فهو منه لو فعله عدل إذ الظلم لا يكون إلا من مأمور من غيره منهي والله ليس كذلك، فإن قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾﴾ [طه: ١١٢]، وقوله تعالى: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾﴾ [ق: ٢٩]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [الزخرف: ٧٦]، وقوله تعالى: ﴿وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]، وقوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾﴾ [غافر: ١٧] وذلك يدل على نقيض هذا القول.

ومنه قوله الذي رواه عنه رسوله ﷺ: «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا»[٢]، فهذا دل على شيئين:

أحدهما: أنه حرم على نفسه الظلم والممتنع لا يوصف بذلك.

الثاني: أنه أخبر أنه حرمه على نفسه كما أخبر أنه كتب على نفسه الرحمة وهذا يبطل احتجاجهم بأن الظلم لا يكون إلا من مأمور منهي، والله ليس كذلك فيقال لهم هو سبحانه كتب على نفسه الرحمة وحرم على نفسه الظلم، وإنما كتب على نفسه وحرم على نفسه ما هو قادر عليه لا ما هو ممتنع عليه.

وأيضاً فإن قوله: ﴿فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه: ١١٢] قد فسره السلف بأن الظلم أن توضع عليه سيئات غيره والهضم أن ينقص من حسناته كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

وأيضاً فإن الإنسان لا يخاف الممتنع الذي لا يدخل تحت القدرة حتى يأمن من ذلك، وإنما يأمن مما يمكن فلما آمنه من الظلم بقوله: ﴿فَلَا يَخَافُ﴾ [طه: ١١٢] علم

---

(١) هذا قول الجهمية والجبرية حيث زعموا أن الله تعالى لما تنزه عن فعله للظلم إنما كان لامتناعه عليه وهذا باطل مردود، انظر: الرد عليهم مختصر الصواعق (١/٣١٤، ٣١٥)، وشرح النونية للهراس (ص٢٤).

(٢) سبق تخريجه.

أنه ممكن مقدور عليه، وكذا قوله: ﴿لَا تَخْتَصِمُوا لَدَىَّ﴾ [ق: ٢٨] إلى قوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [ق: ٢٩] لم يعن بها نفي ما لا يقدر عليه ولا يمكن منه وإنما نفى ما هو مقدور عليه ممكن وهو أن يجزوا بغير أعمالهم، فعلى قول هؤلاء ليس الله منزهاً عن شيء من الأفعال أصلاً ولا مقدساً عن أن يفعله بل كل ممكن فإنه لا ينزه عن فعله بل فعله حسن ولا حقيقة للفعل السوء بل ذلك ممتنع والممتنع لا حقيقة له.

والقرآن يدل على نقيض هذا القول في مواضع نزه الله نفسه فيها عن فعل ما لا يصلح له ولا ينبغي له، فعلم أنه منزه مقدس عن فعل السوء والفعل المعيب المذموم كما أنه منزه مقدس عن وصف السوء والوصف المعيب المذموم، وذلك كقوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ [المؤمنون: ١١٥] فإنه نزه نفسه عن خلق الخلق عبثاً وأنكر على من حسب ذلك وهذا فعل، وقوله تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [القلم: ٣٥]، وقوله تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾ [ص: ٢٨] إنكار منه على من جوَّز أن يسوي الله بين هذا وهذا، وكذا قوله: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الجاثية: ٢١] إنكار على من حسب أنه يفعل هذا، وإخبار أن هذا حكم سيء قبيح وهو مما ينزه الرب عنه.

وروى أبو داود والحاكم في المستدرك من حديث ابن عباس وعبادة بن الصامت وزيد بن ثابت عن النبي ﷺ: «لو أن الله عذب أهل سمواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم ولو رحمهم كانت رحمته خيراً لهم من أعمالهم»(١).

وهذا الحديث مما يحتج به الجبرية وأما القدرية فلا يتأتى على أصولهم الفاسدة ولهذا قابلوه إما بالتكذيب أو بالتأويل.

وأسعد الناس به أهل السنة الذين قابلوه بالتصديق وعلموا من عظمة الله وجلاله قدر نعم الله على خلقه وعدم قيام الخلق بحقوق نعمه عليهم إما عجزاً وإما جهلاً وإما تفريطاً وإضاعة وإما تقصيراً في المقدور من الشكر ولو من بعض الوجوه، فإن حقه على أهل السماوات والأرض أن يطاع فلا يعصى ويذكر فلا ينسى ويشكر فلا

---

(١) سبق تخريجه.

يكفر وتكون قوة الحب والإنابة والتوكل والخشية والمراقبة والخوف والرجاء جميعها متوجهة إليه ومتعلقة به بحيث يكون القلب عاكفاً على محبته وتأليهه بل على إفراده بذلك واللسان محبوساً على ذكره والجوارح وقفاً على طاعته.

ولا ريب أن هذا مقدور في الجملة ولكن النفوس تشح به وهي في الشح على مراتب لا يحصيها إلا الله تعالى، وأكثر المطيعين تشح به نفسه من وجه وإن أتى به من وجه آخر فأين الذي لا تقع منه إرادة تزاحم مراد الله وما يحبه منه، ومن ذا الذي لم يصدر منه خلاف ما خلق له ولو في وقت من الأوقات فلو وضع الرب سبحانه عدله على أهل سمواته وأرضه لعذبهم بعدله ولم يكن ظالماً لهم.

وغاية ما يقدر توبة العبد من ذلك واعترافه وقبول التوبة محض فضله وإحسانه وإلا فلو عذب عبده على جنايته لم يكن ظالماً ولو قدر أنه تاب منها، لكن أوجب على نفسه بمقتضى فضله ورحمته أنه لا يعذب من تاب، وقد كتب على نفسه الرحمة فلا يسع الخلائق إلا رحمته وعفوه، ولا يبلغ عمل أحد منهم أن ينجو به من النار أو يدخل الجنة كما قال أطوع الناس لربه وأفضلهم عملاً وأشدهم تعظيماً لربه وإجلالاً: «لن ينجي أحداً منكم عمله، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل»[١].

وسأله الصدِّيق دعاء يدعو به في صلاته فقال: «قل اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم»[٢].

فإذا كان هذا حال الصدِّيق الذي هو أفضل الناس بعد الأنبياء والمرسلين فما الظن بسواه، بل إنما صار صديقاً بتوفيته هذا المقام حقه الذي يتضمن معرفة ربه وحقه وعظمته وما ينبغي له وما يستحقه على عبده ومعرفة تقصيره، فسحقاً وبعداً لمن زعم أن المخلوق يستغني عن مغفرة ربه ولا يكون به حاجة إليها وليس وراء هذا الجهل بالله وحقه غاية، فإن لم يتسع فهمك لهذا فأنزل إلى وطأة النعم وما عليها من الحقوق ووازن من شكرها وكفرها فحينئذ تعلم أنه سبحانه لو عذب أهل سمواته وأرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم.

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٩٩)، وابن ماجه (٧٧).

(٢) سبق تخريجه.



عناصر الموضوع:

(١) غرض المصنف من عقد هذا الباب:

أ ـ تقرير معتقد أهل السنة والجماعة أن الله تعالى لا يكلف العبد إلا ما يستطيع، دل على ذلك الأدلة من الكتاب والسنة.

ب ـ الرد على المخالفين لأهل السنة من الأشاعرة وغيرهم الذين قالوا أن تكليف ما لا يطاق جائز عقلاً، واختلفوا هل ورد به الشرع على قولين.

(٢) مناسبة هذا الباب لما سبق:

قرر المصنف فيما سبق أن الاستطاعة نوعان، وأن أفعال العباد خلق الله وكسب العباد، فناسب أن يبين أن معتقد أهل السنة أن الله تعالى لا يكلف العبد إلا ما يستطيع.

(٣) معاني الكلمات:

الكلمة	المعنى
الضدين	صفتان مختلفتان تتعاقبان على موضوع واحد ولا تجتمعان كالسواد والبياض.

(٤) معنى كلام الطحاوي: **«ولم يكلفهم الله تعالى إلا ما يطيقون ولا يطيقون إلا ما كلفهم[(١)]، وهو تفسير لا حول ولا قوة إلا بالله نقول: لا حيلة لأحد ولا تحول لأحد ولا حركة لأحد عن معصية الله إلا بمعونة الله، ولا قوة لأحد على إقامة طاعة الله والثبات عليها إلا بتوفيق الله، وكل شيء يجري بمشيئة الله تعالى وعلمه وقضائه وقدره، غلبت مشيئته المشيئات كلها وعكست إرادته الإرادات كلها، وغلب قضاؤه الحيل كلها، يفعل ما يشاء وهو غير ظالم أبداً: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ۝٢٣﴾ [الأنبياء: ٢٣]»**:

الله تعالى لم يكلف الناس إلا بما يطيقون كما قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ

---

(١) قال الإمام ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ معلقاً على هذه العبارة: «هذا غير صحيح بل المكلفون يطيقون أكثر مما كلفهم به سبحانه ولكنه عَزَّ وَجَلَّ لطيف بعباده ويسّر عليهم ولم يجعل عليهم في دينهم حرجاً فضلاً منه وإحساناً».

نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]؛ فالتكليف بالشيء دليل على استطاعته، والعباد لا يطيقون إلا بما كلفهم الله به، فلو أنهم أطاقوا غيره لكلفهم الله به، فلما لم يكلفهم بأكثر مما كلفهم به، دل على أنهم لا يطيقون غيره، ومعنى لا حول ولا قوة إلا بالله: أي لا تحول عن المعصية ولا قدرة على الطاعة إلا بمعونة الله تعالى وتوفيقه.

وكل شيء يجري في هذا الكون بمشيئة الله تعالى وعلمه، وبقضائه وقدره، فمشيئة الله غلبت كل مشيئة، ومشيئته تنفذ، ومهما احتال الناس للإفلات مما قضاه الله تعالى لم يستطيعوا؛ فقضاؤه غلب الحيل كلها، يفعل الله تعالى ما يشاء، وهو متنزه عن الظلم، وكل شيء قضاه فهو عين العدل، وقد تنزه الله ﷻ وتقدس عن كل سوء وظلم وهلاك وعيب وشين ونقص.

(٥) المراد بالطاقة:

الطاقة هي الاستطاعة، والخلاف بين المذاهب حول تحديد المقصود بما لا يطاق، هل هو الممتنع عادة أو المستحيل كالجمع بين الضدين، أو هو تكليف الكافر وهو لا يؤمن.

(٦) تفسير قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾ [البقرة: ٢٨٦]:

قال ابن الجوزي في زاد المسير: «الوسع الطاقة، قاله ابن عباس وقتادة. ومعناه: لا يكلفها ما لا قدرة لها عليه لاستحالته، كتكليف الزمن السعي والأعمى النظر، فأما تكليف ما يستحيل من المكلف لا لفقد الآلات فيجوز، كتكليف الكافر الذي سبق في العلم القديم أنه لا يؤمن الإيمان». اهـ.

(٧) إطلاق القول بالتكليف بما لا يطاق من البدع:

إطلاق القول بالتكليف بما لا يطاق من البدع الحادثة في الإسلام، فقد أحدثها المتكلمون[١].

قال شيخ الإسلام: «ومثل هذا التكليف لم يكن واقعاً في الشريعة باتفاق

---

(١) انظر: الدرء (١/ ٦٥).

طوائف المسلمين إلا شرذمة قليلة من المتأخرين ادعوا وقوع مثل هذا التكليف في الشريعة ونقلوا ذلك عن الأشعري وأكثر أصحابه وهو خطأ عليهم»[١].

٨ أقوال الناس في تكليف ما لا يطاق:

وقد وقع مع الخلاف في تكليف ما لا يطاق على أقوال:

١ ـ جواز تكليف ما لا يطاق مطلقاً، ومنه تكليف أعمى البصر، والزَّمِنِ أن يسير إلى مكة. وهذا قول جهم بن صفوان[٢].

٢ ـ عدم جواز تكليف ما لا يطاق، وقد منعوه لقبحه عقلاً، وهذا مبني على مذهبهم في أن القدرة تكون قبل الفعل فقط، حتى يتحقق التكليف، ومن ثم يترتب عليه الثواب والعقاب، ولذلك منعوا أن تكون القدرة مقارنة لمقدورها، لأن معنى ذلك أن يكون تكليف الكافر بالإيمان تكليفاً بما لا يطاق؛ إذ لو أطاقه لوقع منه، فلما لم يقع منه دل على أنه غير قادر عليه، وتكليف ما لا يطاق قبيح، والله لا يفعل القبيح، وهذا قول المعتزلة ومن وافقهم[٣].

٣ ـ أن تكليف ما لا يطاق جائز، وهذا مذهب الأشاعرة، وبنوا ذلك على ما في مذهبهم من أنه لا يجب على الله شيء ولا يقبح منه شيء، لكن الأشاعرة يقولون: إن ما لا يطاق أقسام:

أ ـ أن يمتنع الفعل لعلم الله بعدم وقوعه، كتكليف الكافر الإيمان في حالة كفره، وهذا جائز عند جميع الأشاعرة، وهذا النوع هو ما لا يستطيعه المكلف لاشتغاله بضده فقط، وهو الذي منعه المعتزلة[٤].

ب ـ أن يمتنع الفعل لنفسه، بكونه محالاً كالجمع بين الضدين. وهذا اختلف فيه الأشاعرة، منهم من أجازه كالرازي ومنهم من منعه[٥].

ج ـ ألا تتعلق به القدرة الحادثة عادة، كحمل الجبل، والطيران، فهذا يجوِّزه

---

(١) انظر: الفتاوى (٨/ ٤٣٨).

(٢) انظر: مجموع الفتاوى (٨/ ٢٩٧).

(٣) انظر: شرح الأصول الخمسة (ص٣٩٦)، والمختصر في أصول الدين لعبد الجبار الهمذاني (ص٢١٨)، ونظرية التكليف لعبد الكريم عثمان (ص٣٠١)، وشرح المواقف (ص٣٣١)، الجزء المحقق.

(٤) انظر: شرح المواقف (ص٣٣١ ـ ٣٣٢)، الجزء المحقق.

(٥) انظر: الإرشاد (ص٢٢٦) وما بعدها، ومعالم أصول الدين للرازي (ص٨٥ ـ ٨٦)، ط. مكتبة الكليات الأزهرية، وشرح المواقف (ص٣٣٢)، الجزء المحقق.

بعض الأشاعرة وإن لم يقع من خلال الاستقراء، وبعض المجوِّزين يحتج لذلك بتكليف أبي لهب الإيمان مع ورود الخبر أنه لا يؤمن[(١)].

٤ ـ مذهب السلف: التفصيل، وذلك أن يقال: تكليف ما لا يطاق على وجهين:

أحدها: ما لا يقدر على فعله لاستحالته، وهو نوعان:

أ ـ ما هو ممتنع عادة كالمشي على الوجه والطيران، وكالمُقعد الذي لا يقدر على القيام، والأخرس الذي لا يقدر على الكلام.

ب ـ وما هو ممتنع في نفسه كالجمع بين الضدين، وجعل المحدث قديماً، والقديم محدثاً، ونحو ذلك.

فهذان النوعان قد اتفق حملة الشريعة على أن مثل هذا ليس بواقع، وأنه لا يجوز تكليفه[(٢)].

والثاني: ما لا يقدر عليه، لا لاستحالته، ولا للعجز عنه، لكن لتركه والاشتغال بضده، مثل تكليف الكافر الإيمان في حال كفره، فهذا جائز خلافاً للمعتزلة، لأنه من التكليف الذي اتفق المسلمون على وقوعه في الشريعة. ولكن إطلاق تكليف ما لا يطاق على هذا مما منعه جمهور أهل العلم، وإن كان بعض المنتسبين إلى السنة قد أطلقه في ردهم على القدرية[(٣)].

بقي الكلام في ما احتج به بعض الأشاعرة من جواز تكليف الممتنع عادة، بقصة أبي لهب[(٤)]، فشيخ الإسلام يرى أن هذا خطأ، لأن من أخبر الله أنه لا يؤمن وأنه يصلىٰ النار، بعد دعاء النبي ﷺ له إلى الإيمان، فهذا قد حقت عليه كلمة العذاب، فهو كالذي يعاين الملائكة وقت الموت، فلم يبق هذا مخاطباً من

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٨/ ٢٩٥)، وشرح المواقف (ص٣٣٣)، الجزء المحقق.

(٢) انظر: مجموع الفتاوى (٨/ ٣٠١).

(٣) انظر: المعتمد في أصول الدين للقاضي أبي يعلى (ص١٤٦ ـ ١٤٧)، ومجموع الفتاوى (٨/ ٢٩٨ ـ ٣٠٢)، ودرء التعارض (١/ ٦٠).

(٤) كالرازي في معالم أصول الدين (ص٨٥)، ط. مكتبة الكليات الأزهرية، وانظر: مجموع الفتاوى (٨/ ٣٠٣ ـ ٤٣٨) ثم إن الله أمر أبا لهب قبل أن تنزل السورة فلما أصر وعاند استحق الوعيد كما استحق قوم نوح حين قيل له: ﴿أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ وحين استحق الوعيد أخبر الله بالوعيد الذي لم يلحقه ولم يكن حينئذٍ مأمور أمر يطلب به من ذلك، انظر: الفتاوى (٨/ ٤٣٨).

جهة الرسول بالأمرين المتناقضين. هو أيضاً كقوم نوح حين أخبر الله نوحاً عليه السلام أنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن، فلم يكن بعد هذا يأمرهم بالإيمان بهذا الخطاب[١].

بل إذا قدر أنه أخبر بصليه النار المستلزم لموته على الكفر وأنه سمع هذا الخطاب، ففي هذا الحال انقطع تكليفه، ولم ينفعه إيمانه حينئذ، كإيمان من يؤمن بعد معاينة العذاب، قال تعالى: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ [غافر: ٨٥][٢].

فأبو لهب قد حقت عليه كلمة العذاب، فلا ينفعه الإيمان[٣].

وهكذا فالقول الراجح هو التفصيل فيها. ومن ذلك يتبين خطأ المعتزلة والجهمية وبعض الأشاعرة. علماً أن من الأشاعرة من ذكر القول الحق بتفصيله في هذه المسألة[٤].

٩ منشأ النزاع بين الفرق في التكليف بما لا يطاق:

يرى شيخ الإسلام أن هذا الخلاف ناتج عن عدم التفريق بين أمرين متعلقين بالنزاع في هذه المسألة:

١ ـ ما يرجع إلى الفعل المأمور به، وهذا فيما يتعلق بالقضاء والقدر.

٢ ـ وما يرجع إلى جواز الأمر بالشيء، وهذا فيما يتعلق بمسائل الأمر والنهي.

والذين خلطوا بين هذين القسمين وقعوا في المحذور، مثل قياس بعضِهِم أمرَ اللهِ الكافرَ بالإيمان مع علمه تعالى أنه لا يفعل، بمسألة العاجز الذي لو أراد الفعل لم يقدر عليه، وجعلهم القسمين قسماً واحداً وأنه تكليف بما لا يطاق. فهذا جمع مخالف لما يعلم بالاضطرار من الفرق بينهما، وهو من مثارات الأهواء بين القدرية والجبرية[٥].

ولذا يرى شيخ الإسلام أن إطلاق القول تكليف ما لا يطاق من البدع الحادثة في الإسلام[٦].

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٢/ ٣٠٨)، ودرء التعارض (١/ ٦٣).

(٢) انظر: درء التعارض (١/ ٦٣ ـ ٦٤).

(٣) انظر: مجموع الفتاوى (٨/ ٤٣٩، ٤٧٣ ـ ٤٧٤).

(٤) انظر: المعتمد في أصول الدين (ص١٤٦)، والاقتصاد للغزالي (ص١١٢ ـ ١١٤)، ط. دار الكتب العلمية، ومجموع الفتاوى (٨/ ٢٩٦، ٤٦٩ ـ ٤٧٠).

(٥) انظر: درء التعارض (١/ ٦٤ ـ ٦٥). (٦) انظر: المصدر السابق (١/ ٦٥).

١٠ توضيح المصطلحات العلمية كوناً وشرعاً:

١ ـ **أما القضاء الكوني:** ففي قوله تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ١٢]. وهو ما تعلق بكل ما شاء الله كونه ووقوعه مما سبق به قدره سبحانه وأنه سيقع لا محالة.

والقضاء الديني الشرعي: في قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣]. فيتناول كل ما كلف الله به عباده في كتابه أو ألسنة رسله عليهم السلام من أفعال وترك وهذا القسم قد يقع وقد لا يقع[1].

القضاء هو الحكم والأمر، فالقضاء الكوني هو ما لا يختص بالمحبوبات فقط بل يشمل كل قضاء يقضي به الله تعالى ويقدره فيكون بمشيئته وإرادته، وأما القضاء الشرعي فهو مما يحبه الله تعالى، فهذا قد يقع ويحصل المقضي به وقد لا يحصل.

٢ ـ **وأما الأمر الكوني:** ففي قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: ٨٢]، وكذا قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾﴾ [الإسراء: ١٦] في أحد الأقوال وهو أقواها.

والأمر الشرعي: في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ [النحل: ٩٠] وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨].

فالأمر الكوني يأمر الله به كوناً وقدراً فيكون بمشيئته وإرادته، ويقع حين يشاء ويريد، ولا يشترط فيه أن يكون الأمر مما يحبه الله ويرضاه.

أما الأمر الشرعي فهو ما أمر الله به عباده وشرعه لهم ديناً وأمرهم بالالتزام به، وهو مما يحبه الله ويرضاه، إلا أنه قد يتخلف بعض الناس عن فعله وامتثاله.

٣ ـ **وأما الإذن الكوني:** ففي قوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٠٢].

والإذن الشرعي: في قوله تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾﴾ [الحشر: ٥].

فالإذن الكوني هو كل مأذون أذن به الله تعالى وقدره وشاء أن يقع وهو حاصل

---

(١) شرح (النونية) للهراس (٤٦٥).

لا محالة، فهو عام شامل لكل مخلوق مما يحبه أو يبغضه ويكرهه، وأما الإذن الشرعي فهو كل ما أذن الله به للعبد فعله وتناوله شرعاً، وقد يفعل العبد ما أذن الله به وقد لا يفعل.

٤ ـ **وأما الكتاب الكوني**: ففي قوله تعالى: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [فاطر: ١١]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

والكتاب الشرعي الديني: في قوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾ [المائدة: ٤٥]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ [البقرة: ١٨٣].

فالكتاب الكوني هو ما يكتبه الله تعالى على عباده قدراً وكوناً ويقع لا محالة ولا يلزم أن يكون المكتوب مما يحبه الله ويرضاه.

أما الكتاب الشرعي فهو ما كتبه الله على عباده شرعاً وأمرهم بامتثاله ونهاهم عن مخالفته، فالله ﷻ لا يكتب إلا ما يحبه ويرضاه، إلا أنه لا يلزم من الكتابة الشرعية أن يحصل المكتوب، فقد يتخلف ذلك عن بعض المخلوقات.

٥ ـ **وأما الحكم الكوني**: ففي قوله تعالى عن ابن يعقوب عليه السلام: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [يوسف: ٨٠]، وقوله تعالى: ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ ۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [الأنبياء: ١١٢].

والحكم الشرعي: في قوله تعالى: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ [المائدة: ١]، وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ [الممتحنة: ١٠].

فالحكم الكوني هو الذي حكم الله به بين العباد وقدره عليهم فهو سبحانه يفعل ما يشاء وما يريد، وهذا الحكم لا يمكن لأحد رده ولا مخالفته ولا إبطاله، ولا يلزم منه أيضاً المحبة والرضا.

أما الحكم الشرعي فهو الأحكام الشرعية التي أنزل الله بها كتبه وأرسل بها رسله من الأوامر والنواهي. وهي مما يحبه الله ويرضاه وفيها مصالح للعباد آجلاً أو عاجلاً.

٦ ـ **وأما التحريم الكوني**: ففي قوله تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [المائدة: ٢٦]، ﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾﴾ [الأنبياء: ٩٥].

والتحريم الشرعي: في قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ﴾ [المائدة: ٣] و﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾ [النساء: ٢٣].

وهذا التقسيم كسابقه، فالتحريم الكوني ما حرمه الله ومنعه قدراً وكوناً، وهو كائن لا محالة ولا يلزم منه المحبة والرضا.

وأما التحريم الشرعي فهو ما حرمه الله ونهى عنه على ألسنة رسله عليهم السلام من الذنوب والمعاصي فهو تحريم شرعي، ولا يلزم منه أن لا يحصل الشيء المحرم البتة بل قد يعصى في ذلك.

٧ ـ **وأما الكلمات الكونية**: ففي قوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾ [الأعراف: ١٣٧]، وفي قوله ﷺ: «**أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر**».

والكلمات الشرعية الدينية: في قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٢٤].

فالكلمات الكونية هي التي تكلم الله بها لخلق شيء ووجوده وبها يخلق الكائنات وما فيها مما يحبه الله ومما يكرهه، ولا يمكن لأحد مخالفتها.

أما الكلمات الشرعية فهي الأوامر والنواهي والأخبار والقصص والوعد والوعيد ونحوها، وهذه الكلمات صادرة من ألوهيته ﷻ ومتعلقة بما يحبه ويرضاه، وهي التي يجاوزهن الكفار والفجار الذين يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما تهوى أنفسهم.

١١ الفوائد المستنبطة من حديث: «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا»(١):

دل الحديث على شيئين:

أحدهما: أنه حرم على نفسه الظلم، والممتنع لا يوصف بذلك.

الثاني: أنه أخبر أنه حرمه على نفسه كما أخبر أنه كتب على نفسه الرحمة، وهذا يبطل احتجاجهم بأن الظلم لا يكون إلا من مأمور منهي، والله ليس كذلك، فيقال لهم، هو سبحانه كتب على نفسه الرحمة وحرم على نفسه الظلم، وإنما كتب على نفسه وحرم على نفسه ما هو قادر عليه، لا ما هو ممتنع عليه.

---

(١) هذا الحديث شرحه شيخ الإسلام في الفتاوى (١٨/ ١٣٧).

١٢ توجيه حديث: «لو أن الله عذب أهل سماواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم، ولو رحمهم كانت رحمته خيراً لهم من أعمالهم»:

وروى أبو داود والحاكم في المستدرك من حديث ابن عباس وعبادة بن الصامت وزيد بن ثابت عن النبي ﷺ: **«لو أن الله عذب أهل سماواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم، ولو رحمهم كانت رحمته خيراً لهم من أعمالهم»**.

وهذا الحديث مما يحتج به الجبرية، وأما القدرية فلا يتأتى على أصولهم الفاسدة ولهذا قابلوه إما بالتكذيب أو بالتأويل.

وأسعد الناس به أهل السنة الذين قابلوه بالتصديق وعلموا من عظمة الله وجلاله قدر نعم الله على خلقه وعدم قيام الخلق بحقوق نعمه عليهم إما عجزاً وإما جهلاً، وإما تفريطاً وإضاعة، وإما تقصيراً في المقدور من الشكر ولو من بعض الوجوه، فإن حقه على أهل السماوات والأرض أن يطاع فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى، ويشكر فلا يكفر، وتكون قوة الحب والإنابة والتوكل والخشية والمراقبة والخوف والرجاء جميعها متوجهة إليه ومتعلقة به بحيث يكون القلب عاكفاً على محبته وتأليهه، بل على إفراده بذلك، واللسان محبوساً على ذكره والجوارح وقفاً على طاعته.

ولا ريب أن هذا مقدور في الجملة، ولكن النفوس تشح به وهي في الشح على مراتب لا يحصيها إلا الله تعالى، وأكثر المطيعين تشح به نفسه من وجه وإن أتى به من وجه آخر، فأين الذي لا تقع منه إرادة تزاحم مراد الله وما يحبه منه، ومن ذا الذي لم يصدر منه خلاف ما خلق له ولو في وقت من الأوقات، فلو وضع الرب سبحانه عدله على أهل سماواته وأرضه لعذبهم بعدله ولم يكن ظالماً لهم.

وغاية ما يقدر توبة العبد من ذلك واعترافه وقبول التوبة محض فضله وإحسانه، وإلا فلو عذب عبده على جنايته لم يكن ظالماً، ولو قدر أنه تاب منها، لكن أوجب على نفسه بمقتضى فضله ورحمته أنه لا يعذب من تاب، وقد كتب على نفسه الرحمة فلا يسع الخلائق إلا رحمته وعفوه، ولا يبلغ عمل أحد منهم أن ينجو به من النار أو يدخل الجنة كما قال أطوع الناس لربه وأفضلهم عملاً وأشدهم تعظيماً لربه وإجلالاً: **«لن ينجي أحداً منكم عمله، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل»**.

وسأله الصديق دعاء يدعو به في صلاته فقال: «**قل: اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم**».

فإذا كان هذا حال الصدِّيق الذي هو أفضل الناس بعد الأنبياء والمرسلين، فما الظن بسواه، بل إنما صار صدِّيقاً بتوفيته هذا المقام حقه الذي يتضمن معرفة ربه وحقه وعظمته، وما ينبغي له وما يستحقه على عبده، ومعرفة تقصيره، فسحقاً وبعداً لمن زعم أن المخلوق يستغني عن مغفرة ربه ولا يكون به حاجة إليها، وليس وراء هذا الجهل بالله وحقه غاية، فإن لم يتسع فهمك لهذا فانزل إلى وطأة النعم وما عليها من الحقوق ووازن من شكرها وكفرها، فحينئذ تعلم أنه سبحانه لو عذب أهل سماواته وأرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم.

(١٣) الخلاصة:

١ ـ مسألةُ ما لا يطاق، من المسائل الفرعية، إلا أنها ذات صلة بمسائل متعلقة بالقدر، وللرد على المنحرفين المخالفين لأهل السنة والجماعة في هذه المسألة من الجهمية والأشاعرة وغيرهم.

٢ ـ والله تعالى لم يكلف الناس إلا بما يطيقون كما قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ﴾ [البقرة: ٢٨٦]؛ فالتكليف بالشيء دليل على استطاعته، والعباد لا يطيقون إلا بما كلفهم الله به.

٣ ـ كل شيء يجري في هذا الكون بمشيئة الله تعالى وعلمه، وبقضائه وقدره، فمشيئة الله غلبت كل مشيئة، ومشيئته تنفذ، ومهما احتال الناس للإفلات مما قضاه الله تعالى لم يستطيعوا.

٤ ـ الطاقة هي الاستطاعة، والخلاف بين المذاهب حول تحديد المقصود بما لا يطاق هل هو الممتنع أو المستحيل كالجمع بين الضدين أو هو تكليف الكافر وهو لا يؤمن.

٥ ـ إطلاق القول بالتكليف بما لا يطاق من البدع الحادثة في الإسلام، فقد أحدثها المتكلمون.

٦ ـ الخلاف في مسألة التكليف بما لا يطاق ناتج عن عدم التفريق بين أمرين متعلقين بالنزاع في هذه المسألة:

أ ـ ما يرجع إلى الفعل المأمور به، وهذا فيما يتعلق بالقضاء والقدر.

ب ـ وما يرجع إلى جواز الأمر بالشيء، وهذا فيما يتعلق بمسائل الأمر والنهي.

٦ ـ هناك فرق بين المصطلح الكوني والشرعي.

٧ ـ لو أن الله عذب أهل سماواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم، ولو رحمهم كانت رحمته خيراً لهم من أعمالهم.

(١٤) المناقشة:

- **س١:** لماذا عقد المصنف هذا المبحث؟
- **س٢:** بيّن معنى كلام الطحاوي: «ولم يكلفهم الله تعالى إلا ما يطيقون، ولا يطيقون إلا ما كلفهم، وهو تفسير لا حول ولا قوة إلا بالله، نقول: لا حيلة لأحد ولا تحول لأحد ولا حركة لأحد عن معصية الله إلا بمعونة الله، ولا قوة لأحد على إقامة طاعة الله والثبات عليها إلا بتوفيق الله، وكل شيء يجري بمشيئة الله تعالى وعلمه وقضائه وقدره، غلبت مشيئته المشيئات كلها وعكست إرادته الإرادات كلها، وغلب قضاؤه الحيل كلها، يفعل ما يشاء وهو غير ظالم أبداً: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء: ٢٣]».
- **س٣:** ما المراد بالطاقة؟
- **س٤:** بيّن معنى قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾ [البقرة: ٢٨٦].
- **س٥:** اذكر أقوال الناس في تكليف ما لا يطاق.
- **س٦:** ما منشأ النزاع بين الفرق في التكليف بما لا يطاق؟
- **س٧:** أوضح الفرق بين المصطلح الكوني والشرعي، مع التمثيل.
- **س٨:** اذكر بعضاً من الفوائد المستنبطة من حديث: «**يا عبادي إني حرَّمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرَّماً فلا تظالموا**».
- **س٩:** كيف توجه حديث: «**لو أن الله عذب أهل سماواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم، ولو رحمهم كانت رحمته خيراً لهم من أعمالهم**»؟

انتفاع الأموات بسعي الأحياء

* كلام ابن أبي العز:

١ ـ غرض المصنف من عقد هذا الباب.

٢ ـ مناسبة هذا الباب لما سبق.

٣ ـ معاني الكلمات.

٤ ـ معنى كلام الطحاوي: «وفي دعاء الأحياء وصدقاتهم منفعة الأموات».

٥ ـ وجه إدخال الطحاوي مسألة فقهية في الاعتقاد.

٦ ـ اتفاق أهل السنة على انتفاع الميت بسعي الأحياء.

٧ ـ ما يصل إلى الميت من ثواب الحج.

٨ ـ أقوال الناس في مسألة انتفاع الأموات بسعي الأحياء.

٩ ـ الأدلة على انتفاع الميت.

١٠ ـ حكم التطوع بقراءة القرآن وإهداء ثوابها للميت.

١١ ـ حكم استئجار من يقرأ القرآن ويهدي ثوابه للميت.

١٢ ـ حكم من يوصي بجزء من ماله لمن يقرأ القرآن على قبره.

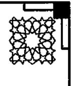
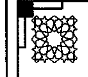
١٣ ـ حكم إهداء ثواب القراءة أو أي عمل صالح للنبي ﷺ.

١٤ ـ حكم قراءة القرآن على القبور.

١٥ ـ حكم أخذ الأجرة على تعليم القرآن.

١٦ ـ الخلاصة.

١٧ ـ المناقشة.

انتفاع الأموات بسعي الأحياء

قال ابن أبي العز:

قوله: «وفي دعاء الأحياء وصدقاتهم للأموات».

اتفق أهل السنة(١) أن الأموات ينتفعون من سعي الأحياء بأمرين:

أحدهما: ما تسبب إليه الميت في حياته.

والثاني: دعاء المسلمين واستغفارهم له والصدقة والحج على نزاع فيما يصل إليه من ثواب الحج، فعن محمد بن الحسن أنه إنما يصل إلى الميت ثواب النفقة والحج للحاج، وعند عامة العلماء ثواب الحج للمحجوج عنه وهو الصحيح.

واختلف في العبادات البدنية كالصوم والصلاة وقراءة القرآن والذكر، فذهب أبو حنيفة وأحمد وجمهور السلف إلى وصوله، والمشهور من مذهب الشافعي ومالك عدم وصولها.

وذهب بعض أهل البدع من أهل الكلام إلى عدم وصول شيء البتة لا الدعاء ولا غيره، وقولهم مردود بالكتاب والسنة، لكنهم استدلوا بالمتشابه من قوله تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۝٣٩﴾ [النجم: ٣٩]، وقوله: ﴿وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [يس: ٥٤]، وقوله: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦] وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: (إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية أو ولد صالح يدعو له أو علم ينتفع به من بعده)(٢). فأخبر أنه ينتفع بما كان تسبب فيه في الحياة، وما لم يكن تسبب فيه في الحياة فهو منقطع عنه.

واستدل المقتصرون على وصول العبادات التي [تدخلها النيابة كالصدقة والحج بأن النوع الذي](٣) لا تدخلها النيابة بحال كالإسلام والصلاة والصوم وقراءة القرآن وأنه

---

(١) انظر: كتاب الروح (ص١٩٠)، وجامع المسائل (٣/ ١٣٣)، وشرح صحيح مسلم (١١/ ٩٤)، والاستذكار (١٥/ ١٢).

(٢) أخرجه مسلم (١٦٣١).

(٣) المثبت من كتاب الروح لابن القيم (ص١٦٦).

يختص ثوابها بفاعله لا يتعداه كما أنه في الحياة لا يفعله أحد عن أحد ولا ينوب فيه عن فاعله غيره بما روى النسائي بسنده عن ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: (لا يصلي أحد عن أحد، ولا يصوم أحد عن أحد، ولكن يطعم عنه مكان كل يوم مداً من حنطة)[١].

والدليل على انتفاع الميت بغير ما تسبب فيه: الكتاب والسنة والإجماع والقياس الصحيح.

أما الكتاب فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ [الحشر: ١٠]، فأثنى عليهم باستغفارهم للمؤمنين قبلهم، فدل على انتفاعهم باستغفار الأحياء، وقد دل على انتفاع الميت بالدعاء إجماع الأمة على الدعاء له في صلاة الجنازة، والأدعية التي وردت بها السنة في صلاة الجنازة مستفيضة، وكذا الدعاء له بعد الدفن، ففي سنن أبي داود من حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: (كان النبي ﷺ إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه فقال: استغفروا لأخيكم وأسألوا له التثبيت فإنه الآن يُسئل)[٢].

وكذلك الدعاء لهم عند زيارة قبورهم كما في صحيح مسلم من حديث بريدة بن الحصيب قال: (كان رسول الله ﷺ يعلمهم إذا خرجوا إلى المقابر أن يقولوا: السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون، نسأل الله لنا ولكم العافية)[٣].

وفي صحيح مسلم أيضاً عن عائشة رضي الله عنها سألت النبي ﷺ: كيف تقول إذا استغفرت لأهل القبور؟ قال: (قولي السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، ويرحم الله المستقدمين منا ومنكم والمستأخرين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون)[٤].

وأما وصول ثواب الصدقة، ففي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها: (أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إن أمي افتلتت نفسها ولم توص، وأظنها لو تكلمت تصدقت، أفلها أجر إن تصدَّقت عنها؟ قال: نعم)[٥].

---

(١) أخرجه النسائي في الكبرى رقم (٢٩١٨).
(٢) أخرجه أبو داود (٣٢٢١).
(٣) أخرجه مسلم (٩٧٥).
(٤) أخرجه مسلم (٩٧٤).
(٥) أخرجه البخاري (١٣٨٨)، ومسلم (١٠٠٤).

وفي صحيح البخاري عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: «أن سعد بن عبادة توفيت أمه وهو غائب عنها فأتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إن أمي توفيت وأنا غائب عنها، فهل ينفعها إن تصدقت عنها؟ قال: نعم، قال: فإني أشهدك أن حائطي المخراف صدقة عنها»(١)، وأمثال ذلك كثيرة في السنة.

وأما وصول ثواب الصوم، ففي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: (من مات وعليه صيام صام عنه وليه)(٢). وله نظائر في الصحيح.

ولكن أبو حنيفة رحمه الله قال بالإطعام عن الميت دون الصيام عنه لحديث ابن عباس المتقدم، والكلام على ذلك معروف في كتب الفروع.

وأما وصول ثواب الحج، ففي صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما أن امرأة من جهينة جاءت إلى النبي ﷺ فقالت: إن أمي نذرت أن تحج فلم تحج حتى ماتت أفأحج عنها؟ قال: (حجي عنها، أرأيتِ لو كان على أمكِ دَين أكنت قاضيته؟ اقضوا الله، فالله أحق بالوفاء)(٣). ونظائره أيضاً كثيرة.

وأجمع المسلمون على أن قضاء الدَّين يسقطه من ذمة الميت ولو كان من أجنبي ومن غير تركته، وقد دل على ذلك حديث أبي قتادة حيث ضمن الدينارين عن الميت، فلما قضاهما قال النبي ﷺ: (الآن بردت عليه جلدته)(٤).

وكل ذلك جار على قواعد الشرع وهو محض القياس، فإن الثواب حق العامل فإذا وهبه لأخيه المسلم لم يمنع من ذلك كما لم يمنع من هبة ماله في حياته وإبرائه له منه بعد وفاته.

وقد نبّه الشارع بوصول ثواب الصوم على وصول ثواب القراءة ونحوها من العبادات البدنية، يوضحه أن الصوم كف النفس عن المفطرات بالنية وقد نص الشارع على وصول ثوابه إلى الميت، فكيف بالقراءة التي هي عمل ونية؟

والجواب عما استدلوا به من قوله تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ [النجم: ٣٩] قد أجاب العلماء بأجوبة أصحها جوابان:

---

(١) أخرجه البخاري (٢٧٥٦).
(٢) أخرجه البخاري (١٩٥٢)، ومسلم (١١٤٧).
(٣) أخرجه البخاري (١٨٢٥). (٤) أخرجه البخاري (٢٢٨٩).

أحدهما: أن الإنسان بسعيه وحسن عشرته اكتسب الأصدقاء وأولد الأولاد ونكح الأزواج وأسدى الخير وتودد إلى الناس، فترحموا عليه ودعوا له وأهدوا له ثواب الطاعات، فكان ذلك أثر سعيه، بل دخول المسلم مع جملة المسلمين في عقد الإسلام من أعظم الأسباب في وصول نفع كل من المسلمين إلى صاحبه في حياته وبعد مماته، ودعوة المسلمين تحيط من ورائهم.

يوضحه أن الله تعالى جعل الإيمان سبباً لانتفاع صاحبه بدعاء إخوانه من المؤمنين وسعيهم، فإذا أتى به فقد سعى في السبب الذي يوصل إليه ذلك.

الثاني وهو أقوى منه: أن القرآن لم ينف انتفاع الرجل بسعي غيره وإنما نفى ملكه لغير سعيه، وبين الأمرين فرق ما لا يخفى، فأخبر تعالى أنه لا يملك إلا سعيه، وأما سعي غيره فهو ملك لساعيه فإن شاء أن يبذله لغيره وإن شاء أن يبقيه لنفسه.

وقوله سبحانه: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ [النجم: ٣٨، ٣٩] آيتان محكمتان مقتضيتان عدل الرب تعالى.

فالأولى: تقتضي أنه لا يعاقب أحداً بجرم غيره، ولا يؤاخذه بجريرة غيره كما يفعله ملوك الدنيا.

والثانية: تقتضي أنه لا يفلح إلا بعمله لينقطع طمعه من نجاته بعمل آبائه وسلفه ومشايخه كما عليه أصحاب الطمع الكاذب، وهو سبحانه لم يقل لا ينتفع إلا بما سعى.

وكذلك قوله تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ [البقرة: ١٣٤] وقوله: ﴿وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [يس: ٥٤]، على أن سياق هذه الآية يدل على أن المنفي عقوبة العبد بعمل غيره، فإنه تعالى قال: ﴿فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [يس: ٥٤].

وأما استدلالهم بقوله ﷺ: (إذا مات ابن آدم انقطع عمله) فاستدلال ساقط، فإنه لم يقل انقطاع انتفاعه وإنما أخبر عن انقطاع عمله، وأما عمل غيره فهو لعامله فإن وهبه له وصل إليه ثواب عمل العامل لا ثواب عمله هو، وهذا كالدَّين يوفيه الإنسان عن غيره فتبرأ ذمته ولكن ليس له ما وفى به الدين.

وأما تفريق من فرَّق بين العبادات المالية والبدنية، فقد شرع النبي ﷺ الصوم

عن الميت كما تقدم مع أن الصوم لا تجزئ فيه النيابة، وكذلك حديث جابر رضي الله عنه قال: صليت مع رسول الله ﷺ عيد الأضحى فلما انصرف أتي بكبش فذبحه فقال: «بسم الله والله أكبر، اللهمّ هذا عني وعمن لم يضح من أمتي»[١]، رواه أحمد وأبو داود والترمذي، وحديث الكبشين اللذين قال في أحدهما: (اللهم هذا عن أمتي جميعاً، وفي الآخر: اللهم هذا عن محمد وآل محمد)[٢] رواه أحمد، والقربة في الأضحية إراقة الدم وقد جعلها لغيره.

وكذلك عبادة الحج بدنية وليس المال ركناً فيه وإنما هو وسيلة، ألا ترى أن المكي يجب عليه الحج إذا قدر على المشي إلى عرفات من غير شرط المال، وهذا هو الأظهر، أعني أن الحج غير مركب من مال وبدن، بل بدني محض كما قد نص عليه جماعة من أصحاب أبي حنيفة المتأخرين.

وانظر إلى فروض الكفايات كيف قام فيها البعض عن الباقين.

ولأن هذا إهداء ثواب وليس من باب النيابة كما أن الأجير الخاص ليس له أن يستنيب عنه وله أن يعطي أجرته لمن شاء.

وأما استئجار قوم يقرؤون القرآن ويهدونه للميت فهذا لم يفعله أحد من السلف ولا أمر به أحد من أئمة الدين ولا رخص فيه، والاستئجار على نفس التلاوة غير جائز بلا خلاف وإنما اختلفوا في جواز الاستئجار على التعليم ونحوه مما فيه منفعة تصل إلى الغير، والثواب لا يصل إلى الميت إلا إذا كان العمل لله وهذا لم يقع عبادة خالصة فلا يكون له من ثوابه ما يهدي إلى الموتى، ولهذا لم يقل أحد أنه يكتري من يصوم ويصلي ويهدي ثواب ذلك إلى الميت، لكن إذا أعطى لمن يقرأ القرآن ويعلمه ويتعلمه معونة لأهل القرآن على ذلك كان هذا من جنس الصدقة عنه فيجوز.

وفي الاختيار لو أوصى بأن يعطىٰ شيء من ماله لمن يقرأ القرآن على قبره فالوصية باطلة لأنه في معنى الأجرة انتهى.

وذكر الزاهدي في الغنية أنه لو وقف على من يقرأ عند قبره فالتعيين باطل.

وأما قراءة القرآن وإهداؤها له تطوعاً بغير أجرة، فهذا يصل إليه كما يصل ثواب الصوم والحج.

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٣٥٦)، وأبو داود (٢٨١٠).

(٢) أخرجه أحمد (٦/ ٣٩١).

فإن قيل: هذا لم يكن معروفاً في السلف ولا أرشدهم إليه النبي ﷺ.

فالجواب: إن كان مورد هذا السؤال معترفاً بوصول ثواب الحج والصيام والدعاء قيل له ما الفرق بين ذلك وبين وصول ثواب قراءة القرآن وليس كون السلف لم يفعلوه حجة في عدم الوصول ومن أين لنا هذا النفي العام.

فإن قيل: فرسول الله ﷺ أرشدهم إلى الصوم والحج والصدقة دون القراءة قيل: هو ﷺ لم يبتدئهم بذلك بل خرج ذلك منه مخرج الجواب لهم، فهذا سأله عن الحج عن ميته فأذن له فيه وهذا سأله عن الصوم عنه فأذن له فيه ولم يمنعهم مما سوى ذلك وأي فرق بين وصول ثواب الصوم الذي هو مجرد نية وإمساك وبين وصول ثواب القراءة والذكر؟

فإن قيل: ما تقولون في الإهداء إلى رسول الله ﷺ؟

قيل: من المتأخرين من استحبه ومنهم من رآه بدعة لأن الصحابة لم يكونوا يفعلونه ولأن النبي ﷺ له مثل أجر كل من عمل خيراً من أمته من غير أن ينقص من أجر العامل شيء لأنه هو الذي دل أمته على كل خير وأرشدهم إليه.

ومن قال: إن الميت ينتفع بقراءة القرآن عنده باعتبار سماعه كلام الله فهذا لم يصح عن أحد من الأئمة المشهورين ولا شك في سماعه، ولكن انتفاعه بالسماع لا يصح فإن ثواب الاستماع مشروط بالحياة فإنه عمل اختياري وقد انقطع بموته بل ربما يتضرر ويتألم لكونه لم يمتثل أوامر الله ونواهيه أو لكونه لم يزدد من الخير.

واختلف العلماء في قراءة القرآن عند القبور على ثلاثة أقوال، هل تكره أم لا بأس بها وقت الدفن وتكره بعده؟

فمن قال بكراهتها كأبي حنيفة ومالك وأحمد في رواية، قالوا لأنه محدث لم ترد به السنة، والقراءة تشبه الصلاة والصلاة عند القبور منهي عنها فكذلك القراءة.

ومن قال لا بأس بها كمحمد بن الحسن وأحمد في رواية استدلوا بما نقل عن ابن عمر رضي الله عنه أنه أوصى أن يقرأ على قبره وقت الدفن بفواتح سورة البقرة وخواتمها، ونقل أيضاً عن بعض المهاجرين قراءة سورة البقرة.

ومن قال لا بأس بها وقت الدفن فقط، وهو رواية عن أحمد، أخذ بما نقل عن ابن عمر وبعض المهاجرين.

وأما بعد ذلك كالذين يتناوبون القبر للقراءة عنده فهذا مكروه، فإنه لم تأت به السنة ولم ينقل عن أحد من السلف مثل ذلك أصلاً، وهذا القول لعله أقوى من غيره لما فيه من التوفيق بين الدليلين.



عناصر الموضوع:

١ غرض المصنف من عقد هذا الباب:

تقرير أن معتقد أهل السنة والجماعة أن الميت ينتفع بصدقات الأحياء وكذلك دعائهم، فالعبد ينقطع عمله بموته إلا ما تسبب في بقائه بعد موته كما جاء في الحديث: (**إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له**)[1].

٢ مناسبة هذا الباب لما سبق:

قرر المصنف فيما سبق أن أفعال العباد خلق الله وكسب العباد، فناسب بعد ذلك أن يبين الأعمال التي لمن يكسبها العبد وإنما تسبب فيها وعملها غيره، ويبين الأعمال التي يعملها الأحياء ويهدون ثوابها للأموات.

٣ معاني الكلمات:

الكلمة	المعنى
القياس	وهو مساواة فرع بأصل في حكم لعلة جامعة بينهما
فرض الكفاية	إذا فعله البعض سقط الفرض عن الباقين

٤ معنى كلام الطحاوي: «وفي دعاء الأحياء وصدقاتهم منفعة الأموات:

والميت ينتفع بدعاء الحي له، كما في الحديث: (**... أو ولد صالح يدعو له**)، وكذلك ينتفع الميت بصدقة الحي عنه، سواء من ولده أو غيره.

٥ وجه إدخال الطحاوي مسألة فقهية في الاعتقاد:

بعد أن انتهى من ذكر مسائل الاعتقاد انتقل إلى مسألة أخرى تتعلق

---

(١) أخرجه مسلم (١٦٣١).

بالحسنات وبالأعمال الصالحة التي يعملها الأحياء ويهدون ثوابها للأموات، فذكر رَحِمَهُ اللَّهُ أن الميت ينتفع بصدقات الأحياء وكذلك دعائهم.

٦ اتفاق أهل السنة على انتفاع الميت بسعي الأحياء:

اتفق[١] أهل السنة أن الأموات ينتفعون من سعي الأحياء بأمرين:

أحدهما: ما تسبب إليه الميت في حياته.

والثاني: دعاء المسلمين واستغفارهم له والصدقة والحج على نزاع فيما يصل إليه من ثواب الحج.

قال العلامة الشيخ الألباني في تعليقه على متن الطحاوية (ص٥٦)، «قلت: نقل الشارح [يعني: ابن أبي العز] اتفاق أهل السنّة على ذلك ثم ساق الأدلة من الكتاب والسنّة عليه ولكنه فيما يتعلق بالصدقة لم يذكر إلا ما يدل على انتفاع الوالد بصدقه ولده وهذا أخص من الدعوى. وقال الشوكاني في نيل الأوطار: وأحاديث الباب تدل على أن الصدقة من الولد تلحق الوالدين بعد موتهما بدون وصيه منهما ويصل إليهما ثوابهما فيخصص بهذه الأحاديث عموم قوله تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ ولكن ليس في أحاديث الباب إلا لحوق الصدقة من الولد..»[٢].

٧ ما يصل إلى الميت من ثواب الحج:

والحج على نزاع فيما يصل إليه من ثواب الحج؛ فعن محمد بن الحسن أنه إنما يصل إلى الميت ثواب النفقة والحج للحاج، وعند عامة العلماء ثواب الحج للمحجوج عنه وهو الصحيح.

٨ أقوال الناس في مسألة انتفاع الأموات بسعي الأحياء:

واختلف أهل العلم في العبادات البدنية كالصوم والصلاة وقراءة القرآن والذكر، فذهب أبو حنيفة وأحمد وجمهور السلف إلى وصولها، والمشهور من مذهب الشافعي ومالك عدم وصولها.

وذهب بعض أهل البدع من أهل الكلام إلى عدم وصول شيء البتة لا الدعاء ولا غيره، وقولهم مردود بالكتاب والسنة، لكنهم استدلوا بالمتشابه من قوله

(١) انظر: كتاب الروح (ص١٩٠)، وجامع المسائل (٣/ ١٣٣).

(٢) نيل الأوطار (٢/ ٧٨٤).

تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۝٣٩﴾ [النجم: ٣٩]، وقوله: ﴿وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [يس: ٥٤]، وقوله: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: **(إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو ولد صالح يدعو له، أو علم ينتفع به من بعده)**. فأخبر أنه إنما ينتفع بما كان تسبب فيه في الحياة، وما لم يكن تسبب فيه في الحياة فهو منقطع عنه.

واستدل المقتصرون على وصول العبادات التي لا تدخلها النيابة بحال كالإسلام والصلاة والصوم وقراءة القرآن وأنه يختص ثوابها بفاعله لا يتعداه كما أنه في الحياة لا يفعله أحد عن أحد ولا ينوب فيه عن فاعله غيره بما روى النسائي بسنده عن ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: **(لا يصلي أحد عن أحد، ولا يصوم أحد عن أحد، ولكن يطعم عنه مكان كل يوم مداً من حنطة)**.

(٩) الأدلة على انتفاع الميت:

والدليل على انتفاع الميت بغير ما تسبب فيه الكتاب والسنة والإجماع والقياس الصحيح.

أما الكتاب: فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [الحشر: ١٠]، فأثنى عليهم باستغفارهم للمؤمنين قبلهم فدل على انتفاعهم باستغفار الأحياء، وقد دل على انتفاع الميت بالدعاء إجماع الأمة على الدعاء له في صلاة الجنازة والأدعية التي وردت بها السنة في صلاة الجنازة مستفيضة، وكذا الدعاء له بعد الدفن، ففي سنن أبي داود من حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: **(كان النبي ﷺ إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه فقال: (استغفروا لأخيكم وأسألوا له التثبيت فإنه الآن يُسئل)**.

وكذلك الدعاء لهم عند زيارة قبورهم كما في «صحيح مسلم» من حديث بريدة بن الحصيب قال: كان رسول الله ﷺ يعلمهم إذا خرجوا إلى المقابر أن يقولوا: **(السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون نسأل الله لنا ولكم العافية)**.

وفي «صحيح مسلم» أيضاً عن عائشة رضي الله عنها سألت النبي ﷺ كيف أقول إذا استغفرت لأهل القبور قال: **(قولي السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، ويرحم الله المستقدمين منا ومنكم والمستأخرين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون)**.

وأما وصول ثواب الصدقة ففي «الصحيحين» عن عائشة رضي الله عنها: **(أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إن أمي افتلتت نفسها ولم توص وأظنها لو تكلمت تصدقت أفلها أجر إن تصدقت عنها؟ قال: نعم)**.

وفي «صحيح البخاري» عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: **(أن سعد بن عبادة توفيت أمه وهو غائب عنها فأتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إن أمي توفيت وأنا غائب عنها فهل ينفعها إن تصدقت عنها؟ قال: نعم، قال: فإني أشهدك أن حائطي المخراف صدقة عنها)**، وأمثال ذلك كثيرة في السنة.

وأما وصول ثواب الصوم ففي «الصحيحين» عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: **(من مات وعليه صيام صام عنه وليه)**. وله نظائر في «الصحيح».

ولكن أبو حنيفة رحمه الله قال بالإطعام عن الميت دون الصيام عنه لحديث ابن عباس المتقدم، والكلام على ذلك معروف في كتب الفروع.

وأما وصول ثواب الحج ففي «صحيح البخاري» عن ابن عباس رضي الله عنهما أن امرأة من جهينة جاءت إلى النبي ﷺ فقالت: إن أمي نذرت أن تحج، فلم تحج حتى ماتت، أفأحج عنها؟ قال: **(حجي عنها، أرأيت لو كان على أمك دين أكنت قاضيته، اقضوا الله فالله أحق بالوفاء)**. ونظائره أيضاً كثيرة.

وأجمع المسلمون على أن قضاء الدين يسقطه من ذمة الميت ولو كان من أجنبي ومن غير تركته، وقد دل على ذلك حديث أبي قتادة حيث ضمن الدينارين عن الميت، فلما قضاهما قال النبي ﷺ: **(الآن بردت عليه جلدته)**.

وكل ذلك جار على قواعد الشرع وهو محض القياس، فإن الثواب حق العامل فإذا وهبه لأخيه المسلم لم يمنع من ذلك كما لم يمنع من هبة ماله في حياته وإبرائه له منه بعد وفاته.

وقد نبّه الشارع بوصول ثواب الصوم على وصول ثواب القراءة ونحوها من العبادات البدنية، يوضحه أن الصوم كف النفس عن المفطرات بالنية، وقد نص الشارع على وصول ثوابه إلى الميت، فكيف بالقراءة التي هي عمل ونية؟

(١٠) حكم التطوع بقراءة القرآن وإهداء ثوابها للميت:

قراءة القرآن عبادة بدنية. وفيها يجري الخلاف السابق في وصول العبادات البدنية إلى الميت.

أ ـ فجمهور السلف قالوا: تصل العبادات إلى الميت. ومنها القراءة، وقاسوا القراءة على الصوم والحج لأن كلاً منها عبادة بدنية.

ب ـ وذهب بعض السلف إلى عدم وصول القراءة إلى الميت؛ لأن السلف لم يفعلوا ذلك ولم يرشد إليه النبي ﷺ، قال شيخ الإسلام: «ولم تكن من عادة السلف إذا صلوا تطوعاً أو صاموا تطوعاً أو حجوا تطوعاً أو قرؤا القرآن أن يهدوا ثواب ذلك إلى أموات المسلمين فلا ينبغي العدول عن طريق السلف فإنه أفضل وأكمل»[(١)] ثم نقل عنه البعلي قولاً[(٢)] آخر نقيض هذا. وأجيب عن هذا: بأن هذا النفي العام لا دليل عليه.. ثم ما الفرق بين وصول ثواب الصوم والحج والدعاء وبين وصول ثواب القراءة، فإن قيل أن النبي ﷺ أرشدهم إلى ثواب الصوم والحج دون قراءة القرآن.

فإن جوابي عن ذلك: أن النبي ﷺ لم يبتدئهم بهذا، ولكنه خرج منه مخرج الجواب، فهذا سأله عن الحج فأذن له، وذلك سأله عن الصدقة فأذن له، ولم يمنعهم عما سوى ذلك.

(١١) حكم استئجار من يقرأ القرآن ويهدي ثوابه للميت:

حكم هذا أنه عمل غير جائز لم يفعله الصحابة، ولم يرشد إليه أحد من أئمة الدين ولم يرخص فيه، لهذا فلا يجوز استئجارهم مطلقاً، ولو حصل شيء من ذلك فإن الميت لا ينتفع بشيء من تلك القراءة لأن القارئ قد أخذ أجره فلا ثواب له، فكيف يهدي ما لم يكن له ثواب فيه وفاقد الشيء لا يعطيه.

(١٢) حكم من يوصي بجزء من ماله لمن يقرأ القرآن على قبره:

هذا العمل بدعة ومحرم والوصية باطلة لا تنفذ... والحجة في هذا أن سلف الأمة لم يكونوا يعملون هذه الأعمال.

(١٣) حكم إهداء ثواب القراءة أو أي عمل صالح للنبي ﷺ:

اختلف العلماء في ذلك:

أ ـ فمنهم من استحبه لأن النبي ﷺ قد أنقذ الله به الناس من الظلمات إلى النور، فكان في إهداء الثواب إليه اعتراف بالجميل.

---

(١) الاختيارات للبعلي (ص٩٢).

(٢) الاختيارات للبعلي (ص٩٢ ـ ٩٤).

ب ـ ومن العلماء من قال: إنه بدعة، قال شيخ الإسلام: «ولا يستحب إهداء القرب للنبي (ﷺ) بل هو بدعة وهذا هو الصواب المقطوع به»[1]. وذلك لأمرين:

١ ـ إن الصحابة ﭭ عنهم لم يفعلوه، ولو كان مشروعاً لفعلوه.

٢ ـ إن للنبي ﷺ مثل أجر كل من عمل خيراً من أمته لأنه هو الذي دل على ذلك الخير، والدال على الخير كفاعله، فكان في إهداء ثواب الأعمال إليه تحصيل للحاصل وحرمان النفس من ثوابه مع عدم إفادة الرسول ﷺ منه، ولعل هذا هو الراجح.

(١٤) حكم قراءة القرآن على القبور:

اختلف العلماء في هذه المسألة على آراء ثلاثة:

أ ـ فمن العلماء من قال: هي جائزة مطلقاً عند الدفن وبعده.

ب ـ ومنهم من قال: هي مكروهة مطلقاً عند الدفن وبعده.

ج ـ ومنهم من قال: جائزة وقت الدفن ومكروهة بعده.

الأدلة:

أ ـ استدل الأولون بما روي أن ابن عمر ﭭ أوصى بأن يقرأ على قبره عند الدفن فواتح سورة البقرة وخواتمها... ولما روي عن بعض المهاجرين أنه أوصى بقراءة سورة البقرة على قبره.

ب ـ استدل القائلون بالكراهية مطلقاً: أنه أمر محدث ولم ينقل عن النبي ﷺ الإرشاد إليه، ولأن القراءة كالصلاة، والصلاة منهي عنها على القبر.

ج ـ واستدل القائلون بالجواز عند الدفن والمنع بعده بأن الأثر المنقول عن ابن عمر أنه أوصى بالقراءة عند الدفن لا بعده. والشارح ﵀ رجح هذا لما فيه من التوفيق بين الأدلة.

(١٥) حكم أخذ الأجرة على تعليم القرآن:

اختلف في هذه المسألة:

أ ـ فقيل: يجوز أخذ الأجرة على تعليم القرآن.. والدليل ما روي عن النبي ﷺ أنه قال: (**إن أحق ما أخذتم عليه أجراً كتاب الله**)، ولما روي أنه ﷺ

(١) الاختيارات للبعلي (ص٩٢).

(زوج رجلاً بامرأة بما معه من القرآن).

ب - وقيل: لا يجوز مطلقاً، والدليل ما روي عن عبادة أنه علّم رجلاً شيئاً من كتاب الله فأهدى إليه سوطاً فأخبر النبي ﷺ بذلك قال: **(إن أحببت أن تطوقه سوطاً من النار فخذه)**، فقد ذكر ﷺ ما ذكره عقاباً لذلك الفعل ولا يعاقب إلا عن أمر محرم.

أما حديث عبادة فهو ضعيف الإسناد عند بعض أهل العلم. وعلى فرض صحته يكون النبي ﷺ إنما أشار إلى أنه لا ينبغي لعبادة أن يأخذ ذلك السوط لكون من علمه فقيراً، أو لكون عبادة علمه القرآن متبرعاً. فكان في أخذه لذلك السوط إحباط لثواب عمله.

والرأي المختار: جواز أخذ الأجرة على تعليم القرآن للأدلة التي ساقوها.

لأن القول بجواز أخذ الأجرة فيه تشجيع على تعليم القرآن ومساعدة على انتشاره وحفظه وقراءته بين الناس.. أما أخذ الأجرة على تعليم القرآن من بيت المال: فهو جائز؛ لأنه يجب على الإمام أن يصرف رواتب للقضاة والأئمة ونحوهم إبقاء على شعائر الدين، وتشجيعاً لمن يعتنون بها. أما أخذ الأجرة من الأفراد ففيه الخلاف المتقدم.

(١٦) الخلاصة:

١ - الميت ينتفع بدعاء الحي له، كما في الحديث: **(... أو ولد صالح يدعو له)**، وكذلك ينتفع الميت بصدقة الحي عنه، سواء من ولده أو غيره.

٢ - اتفق أهل السنة أن الأموات ينتفعون من سعي الأحياء بأمرين: أحدهما ما تسبب إليه الميت في حياته. والثاني دعاء المسلمين واستغفارهم له والصدقة والحج على نزاع فيما يصل إليه من ثواب الحج.

٣ - واختلف في العبادات البدنية كالصوم والصلاة وقراءة القرآن والذكر، فذهب أبو حنيفة وأحمد وجمهور السلف إلى وصولها، والمشهور من مذهب الشافعي ومالك عدم وصولها.

٤ - والدليل على انتفاع الميت بغير ما تسبب فيه الكتاب والسنة والإجماع والقياس الصحيح.

٥ - إن استئجار من يقرأ القرآن ويهدي ثوابه للميت عمل غير جائز لم يفعله الصحابة ولم يرشد إليه أحد من أئمة الدين ولم يرخص فيه، ولهذا فلا يجوز استئجارهم مطلقاً.

٦ ـ الوصية بجزء من المال لمن يقرأ القرآن على القبر بدعة ومحرم والوصية باطلة لا تنفذ.

٧ ـ جواز أخذ الأجرة على تعليم القرآن للأدلة.

١٧ المناقشة:

- **س١:** بيّن معنى كلام الطحاوي: «وفي دعاء الأحياء وصدقاتهم منفعة الأموات».
- **س٢:** ما وجه إدخال الطحاوي مسألة فقهية في الاعتقاد؟
- **س٣:** بماذا ينتفع الميت من سعي الأحياء؟
- **س٤:** ما الذي يصل إلى الميت من ثواب الحج؟
- **س٥:** ما الذي يصل من العبادات البدنية إلى الميت؟
- **س٦:** اذكر الأدلة على انتفاع الميت.
- **س٧:** ما حكم التطوع بقراءة القرآن وإهداء ثوابها للميت؟
- **س٨:** ما حكم استئجار من يقرأ القرآن ويهدي ثوابه للميت؟
- **س٩:** ما حكم من يوصي بجزء من ماله لمن يقرأ القرآن على قبره؟
- **س١٠:** ما حكم إهداء ثواب القراءة أو أي عمل صالح للنبي ﷺ؟
- **س١١:** ما حكم قراءة القرآن على القبور؟
- **س١٢:** ما حكم أخذ الإجرة على تعليم القرآن؟



استجابة الله تعالى دعاء عباده

* **كلام ابن أبي العز:**

١ ـ غرض المصنف من عقد هذا الباب.

٢ ـ مناسبة هذا الباب لما سبق.

٣ ـ معاني الكلمات.

٤ ـ معنى كلام الطحاوي: «والله تعالى يستجيب الدعوات ويقضي الحاجات».

٥ ـ معنى الدعاء.

٦ ـ تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ [البقرة: ١٨٦].

٧ ـ أنواع الدعاء.

٨ ـ شروط إجابة الدعاء.

٩ ـ أنواع القرب.

١٠ ـ مذهب أهل السنة والجماعة أن الدعاء أقوى الأسباب في جلب المنافع ودفع المضار.

١١ ـ أدلة أهل السنة والجماعة في مسألة الانتفاع بالدعاء.

١٢ ـ المخالفون لأهل السنة في مسألة الانتفاع بالدعاء.

١٣ ـ الرد على شبه المخالفين لأهل السنة في مسألة الانتفاع بالدعاء.

١٤ ـ الجواب على دعوى البعض: دعونا فلم يستجب لنا، والله يقول: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ﴾ [غافر: ٦٠].

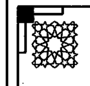
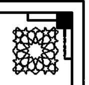
١٥ ـ المعاني المستلزمة للدعاء.

١٦ ـ معنى كلام الطحاوي: «ويملك كل شيء ولا يملكه شيء، ولا غنى عن الله تعالى طرفة عين، ومن استغنى عن الله طرفة عين فقد كفر وصار من أهل الحين».

١٧ ـ معنى قول طائفة من العلماء: «أن الالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد».

١٨ ـ الخلاصة.

١٩ ـ المناقشة.

استجابة الله تعالى دعاء عباده

قال ابن أبي العز:

قوله: «والله تعالى يستجيب الدعوات ويقضي الحاجات».

قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]، ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦]، والذي عليه أكثر الخلق من المسلمين وسائر أهل الملل وغيرهم أن الدعاء من أقوى الأسباب في جلب المنافع ودفع المضار، وقد أخبر تعالى عن الكفار أنهم إذا مسهم الضر في البحر دعوا الله مخلصين له الدين، وأن الإنسان إذا مسه الضر دعاه لجنبه أو قاعداً أو قائماً، وإجابة الله لدعاء العبد مسلماً كان أو كافراً وإعطاؤه سؤله من جنس رزقه لهم ونصره لهم، وهو مما توجبه الربوبية للعبد مطلقاً؛ ثم قد يكون ذلك فتنة في حقه ومضرة عليه إذ كان كفره وفسوقه يقتضي ذلك، وفي سنن ابن ماجه من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (من لم يسأل الله يغضب عليه)[(١)]، وقد نظم بعضهم هذا المعنى فقال:

الرب يغضب إن تركت سؤاله وبُنَيَّ آدم حين يُسئل يغضب

قال ابن عقيل: قد ندب الله تعالى إلى الدعاء وفي ذلك معان:

أحدها: الوجود، فإن من ليس بموجود لا يدعى.

الثاني: الغنى، فإن الفقير لا يدعى.

الثالث: السمع، فإن الأصم لا يدعى.

الرابع: الكرم، فإن البخيل لا يدعى.

الخامس: الرحمة، فإن القاسي لا يدعى.

السادس: القدرة، فإن العاجز لا يدعى.

---

(١) أخرجه أحمد (٢/٤٤٣)، وابن ماجه (٣٨٢٧).

ومن يقول بالطبائع يعلم أن النار لا يقال لها: كُفِّي، ولا النجم يقال له: أصلح مزاجي، لأن هذه عندهم مؤثرة طبعاً لا اختياراً، فشرع الدعاء وصلاة الاستسقاء ليبين كذب أهل الطبائع.

وذهب قوم من المتفلسفة وغالية المتصوفة إلى أن الدعاء لا فائدة فيه، قالوا: لأن المشيئة الإلهية إن اقتضت وجود المطلوب فلا حاجة إلى الدعاء، وإن لم تقتضه فلا فائدة في الدعاء، وقد يخص بعضهم بذلك خواص العارفين ويجعل الدعاء علة في مقام الخواص، وهذا من غلطات بعض الشيوخ، فكما أنه معلوم الفساد بالاضطرار من دين الإسلام فهو معلوم الفساد بالضرورة العقلية، فإن منفعة الدعاء أمر أنشئت عليه تجارب الأمم حتى إن الفلاسفة تقول: ضجيج الأصوات في هياكل العبادات بفنون اللغات يحلل ما عقدته الأفلاك المؤثرات، هذا وهم مشركون[١].

وجواب الشبهة بمنع [حصر] المقدمتين، فإن قولهم عن المشيئة الإلهية إما أن تقتضيه أو لا فثم قسم ثالث وهو أن تقتضيه بشرط لا تقتضيه مع عدمه، وقد يكون الدعاء من شرطه كما توجب الثواب مع العمل الصالح ولا توجبه مع عدمه، وكما توجب الشبع والري عند الأكل والشرب ولا توجبه مع عدمهما، وحصول الولد بالوطء والزرع والبذر، فإذا قدر وقوع المدعو به بالدعاء لم يصح أن يقال لا فائدة في الدعاء، كما لا يقال لا فائدة في الأكل والشرب والبذر وسائر الأسباب، فقول هؤلاء كما أنه مخالف للشرع فهو مخالف للحس والفطرة.

ومما ينبغي أن يعلم[٢] ما قاله طائفة من العلماء وهو أن الالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد، ومحو الأسباب أن تكون أسباباً نقص في العقل، والإعراض عن الأسباب الكلية قدح في الشرع، ومعنى التوكل والرجاء يتألف من وجوب التوحيد والعقل والشرع.

وبيان ذلك أن الالتفات إلى السبب هو اعتماد القلب عليه ورجاؤه والاستناد إليه، وليس في المخلوقات ما يستحق هذا، لأنه ليس بمستقل ولا بد له من شركاء وأضداد مع هذا كله فإن لم يسخره مسبب الأسباب لم يسخر.

---

(١) انظر: درء التعارض (١/ ٣٨٣).

(٢) انظر: منهاج السنّة (٥/ ٣٦٦).

وقولهم: إن اقتضت المشيئة المطلوب فلا حاجة إلى الدعاء، قلنا: بل قد تكون إليه حاجة من تحصيل مصلحة أخرى عاجلة وآجلة ودفع مضرة أخرى عاجلة وآجلة.

وكذلك قولهم: وإن لم تقتضه فلا فائدة فيه، قلنا: بل فيه فوائد عظيمة من جلب منافع ودفع مضار كما نبه عليه النبي، بل ما يعجل للعبد من معرفته بربه وإقراره به وبأنه سميع قريب قدير عليم رحيم، وإقراره بفقره إليه، واضطراره إليه، وما يتبع ذلك من العلوم العلية والأحوال الزكية التي هي أعظم المطالب.

فإن قيل: إذا كان إعطاء الله معللاً بفعل العبد كما يعقل من إعطاء المسؤول للسائل كان السائل قد أثر في المسؤول حتى أعطاه.

قلنا: الرب سبحانه هو الذي حرك العبد إلى دعائه، فهذا الخير منه وتمامه عليه كما قال عمر ﵁: إني لا أحمل هَمَّ الإجابة وإنما أحمل هَمَّ الدعاء، ولكن إذا ألهمت الدعاء فإن الإجابة معه، وعلى هذا قوله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝٥﴾ [السجدة: ٥]، فأخبر سبحانه أنه يبتدئ بتدبير الأمر ثم يصعد إليه الأمر الذي دبره، فالله سبحانه هو الذي يقذف في قلب العبد حركة الدعاء ويجعلها سبباً للخير الذي يعطيه إياه كما في العمل والثواب، فهو الذي وفق العبد للتوبة ثم قبلها وهو الذي وفقه للعمل ثم أثابه، وهو الذي وفقه للدعاء ثم أجابه، فما أثر فيه شيء من المخلوقات بل هو جعل ما يفعله سبباً لما يفعله، قال مطرف بن عبد الله بن الشخير أحد أئمة التابعين: نظرت في هذا الأمر فوجدت مبدأه من الله، وتمامه على الله، ووجدت ملاك ذلك الدعاء.

وهنا سؤال معروف وهو أن من الناس من قد يسأل الله فلا يعطى شيئاً أو يعطى غير ما سأل، وقد أجيب عنه بأجوبة فيها ثلاثة أجوبة محققة:

أحدها: أن الآية لم تتضمن عطية السؤال مطلقاً وإنما تضمنت إجابة الداعي والداعي أعم من السائل، وإجابة الداعي أعم من إعطاء السائل، ولهذا قال النبي ﷺ: (ينزل ربنا كل ليلة إلى السماء الدنيا فيقول: من يدعوني فأستجيب له من يسألني فأعطيه من يستغفرني فأغفر له)[1].

(١) أخرجه البخاري (١١٤٥)، ومسلم (٧٥٨).

ففرق بين الداعي والسائل وبين الإجابة والإعطاء وهو فرق بين العموم والخصوص كما أتبع ذلك بالمستغفر وهو نوع من السائل، فذكر العام ثم الخاص ثم الأخص، وإذا علم العباد أنه قريب يجيب دعوة الداعي علموا قربه منهم وتمكنهم من سؤاله وعلموا علمه ورحمته وقدرته فدعوه دعاء العبادة في حال ودعاء المسألة في حال وجمعوا بينهما في حال إذ الدعاء اسم يجمع العبادة والاستعانة وقد فسر قوله: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠] بالدعاء الذي هو العبادة والدعاء الذي هو الطلب وقوله بعد ذلك: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى﴾ [غافر: ٦٠] يؤيد المعنى الأول.

الجواب الثاني: إن إجابة دعاء السؤال أعم من إعطاء عين السؤال كما فسره النبي ﷺ فيما رواه مسلم في «صحيحه» أن النبي ﷺ قال: (ما من رجل يدعو الله بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه بها إحدى ثلاث خصال: إما أن يعجل له دعوته، أو يدخر له من الخير مثلها، أو يصرف عنه من الشر مثلها، قالوا: يا رسول الله، إذاً نكثر؟ قال: الله أكثر)(١). فقد أخبر الصادق المصدوق أنه لا بد في الدعوة الخالية عن العدوان من إعطاء السؤال معجلاً، أو مثله من الخير مؤجلاً، أو يصرف عنه من السوء مثله.

الجواب الثالث: أن الدعاء سبب مقتض لنيل المطلوب والسبب له شروط وموانع فإذا حصلت شروطه وانتفت موانعه حصل المطلوب وإلا فلا يحصل ذلك المطلوب بل قد يحصل غيره، وهكذا سائر الكلمات الطيبات من الأذكار المأثورة المعلق عليها جلب منافع أو دفع مضار، فإن الكلمات بمنزلة الآلة في يد الفاعل تختلف باختلاف قوته وما يعنيها، وقد يعارضها مانع من الموانع، ونصوص الوعد والوعيد المتعارضة في الظاهر من هذا الباب وكثيراً ما تجد أدعية دعا بها قوم فاستجيب لهم ويكون قد اقترن بالدعاء ضرورة صاحبه وإقباله على الله أو حسنة تقدمت منه على الله سبحانه إجابة دعوته شكر الحسنة، أو صادف وقت إجابة ونحو ذلك فأجيبت دعوته، فيظن أن السر في ذلك الدعاء فيأخذه مجرداً عن تلك الأمور التي قارنته من ذلك الداعي.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٣/ ١٨).

وهذا كما إذا استعمل رجل دواء نافعاً في الوقت الذي ينبغي فانتفع به فظن آخر أن استعمال هذا الدواء بمجرده كاف في حصول المطلوب وكان غالطاً.

وكذا قد يدعو باضطرار عند قبر فيجاب فيظن أن السر للقبر، ولم يدر أن السر للاضطرار وصدق اللجوء إلى الله تعالى، فإذا حصل ذلك في بيت من بيوت الله تعالى كان أفضل وأحب إلى الله تعالى.

فالأدعية والتعوذات والرقى بمنزلة السلاح، والسلاح بضاربه لا بحده فقط، فمتى كان السلاح سلاحاً تاماً والساعد ساعداً قوياً، والمحل قابلاً والمانع مفقوداً، حصلت به النكاية في العدو ومتى تخلف واحد من هذه الثلاث تخلف التأثير.

فإذا كان الدعاء في نفسه غير صالح، أو الداعي لم يجمع بين قلبه ولسانه في الدعاء، أو كان ثَمَّ مانع من الإجابة لم يحصل الأثر.

قوله: ويملك كل شيء ولا يملكه شيء، ولا غنى عن الله تعالى طرفة عين، ومن استغنى عن الله طرفة عين فقد كفر وصار من أهل الحَين، كلام حق ظاهر لا خفاء فيه. والحَين بالفتح: الهلاك.



عناصر الموضوع:

١ غرض المصنف من عقد هذا الباب:

تقرير مذهب أهل السنة والجماعة في أن الدعاء نافع ومفيد وهو من أقوى الأسباب في جلب المنافع ودفع المضار، فالله يحب من دعاه كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ [البقرة: ١٨٦].

٢ مناسبة هذا الباب لما سبق:

قرر المصنف فيما سبق أن الميت ينتفع بصدقات الأحياء وكذلك دعائهم، فناسب أن يبين في هذا الباب أن الدعاء من أقوى الأسباب في جلب المنافع ودفع المضار.

٣ معاني الكلمات:

الكلمة	المعنى
الفطرة	الجبلَّة المتهيئة لقبول الدين.
الحَين	الهلاك.

٤ معنى كلام الطحاوي: «والله تعالى يستجيب الدعوات ويقضي الحاجات»:

والله تعالى يستجيب الدعوات كما قال ﷻ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]، وهو الذي يقضي الحوائج لخلقه، من جلب النفع ودفع الضر، إذ لا يملك الأمر سواه.

٥ معنى الدعاء:

يطلق الدعاء ويراد به عدة معان:

١ ـ النداء: نقول: دعوت فلانا، أي: ناديته.

٢ ـ الحث على الشيء، تقول: دعوت القوم إلى الفضيلة، أي: حثثتهم على فعلها.

٣ ـ الابتهال إلى الله بالسؤال والرغبة فيما عنده من الخير. وهذا هو المراد بالدعاء هنا.

قال الخطابي في تعريفه للدعاء: «استدعاء العبد ربه عَجَّلَ العناية واستمداده المعونة»[١].

(٦) تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ [البقرة: ١٨٦]:

هذا جواب لسؤال سأله الصحابة رضوان الله عليهم النبي ﷺ فقالوا: يا رسول الله، أقريب ربنا فنناديه؟ فنزل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ١٨٦]، لأنه تعالى الرقيب الشهيد يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، فهو قريب ممن يدعوه، مستجيب له. انظر: السعدي.

(٧) أنواع الدعاء:

الدعاء على قسمين:

١ ـ دعاء عبادة: وهو الثناء على الله عَجَّلَ في أسمائه وصفاته وأفعاله.

٢ ـ دعاء مسألة: وهو طلب الحوائج من الله عَجَّلَ.

ويقول أهل العلم: دعاء العبادة مستلزم لدعاء المسألة، ودعاء المسألة متضمن لدعاء العبادة.

قال تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأعراف: ٥٥، ٥٦].

قال ابن القيم: «هاتان الآيتان مشتملتان على آداب نوعي الدعاء: دعاء العبادة، ودعاء المسألة، فإن الدعاء في القرآن يراد به هذا تارة، وهذا تارة، ويراد به مجموعهما وهما متلازمان»[٢].

(٨) شروط إجابة الدعاء:

من شروط إجابة الدعاء:

---

(١) شأن الدعاء (ص٤).

(٢) بدائع الفوائد (٣/ ٢).

١ ـ الإخلاص لله ﷻ.

٢ ـ اتباع طريقة النبي ﷺ في الدعاء: الدليل قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب: ٢١].

٣ ـ التخلص من موانع الإجابة كأكل الحرام والاعتداء في الدعاء، والدعاء بإثم.

٤ ـ اليقين بالإجابة، وأنه لا يقدر على قضاء حاجته إلا الله ﷻ.

٥ ـ أن لا يطلب أمراً مستحيلاً مخالفاً لسنن الله في الكون، بأن يطلب إحياء الميت، أو أن يتحول النحاس إلى ذهب ونحوه.

(٩) أنواع القرب:

القرب نوعان:

- قرب بعلم الله من كل خلقه.
- قرب من عابديه وداعيه بالإجابة والمعونة والتوفيق.

(١٠) مذهب أهل السنة والجماعة أن الدعاء أقوى الأسباب في جلب المنافع ودفع المضار:

والذي عليه أكثر الخلق من المسلمين وسائر أهل الملل وغيرهم أن الدعاء من أقوى الأسباب في جلب المنافع ودفع المضار، وقد أخبر تعالى عن الكفار أنهم إذا مسَّهم الضر في البحر دعوا الله مخلصين له الدين، وأن الإنسان إذا مسه الضر دعاه لجنبه أو قاعداً أو قائماً، وإجابة الله لدعاء العبد مسلماً كان أو كافراً وإعطاؤه سؤله من جنس رزقه لهم ونصره لهم، وهو ما توجبه الربوبية للعبد مطلقاً، ثم قد يكون ذلك فتنة في حقه ومضرة عليه إذ كان كفره وفسوقه يقتضي ذلك. وفي سنن ابن ماجه من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **(من لم يسأل الله يغضب عليه)**، وقد نظم بعضهم هذا المعنى فقال:

الرب يغضب إن تركت سؤاله ... وبني آدم حين يُسئل يغضب

قال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [العنكبوت: ٦٥].

(١١) أدلة أهل السنة والجماعة في مسألة الانتفاع بالدعاء:

وقد دل على الانتفاع بالدعاء الكتاب والسنة:

١ ـ أما أدلة الكتاب فمنها:

أ ـ قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [غافر: ٦٠]. فقد أمر الله عباده بالدعاء. ووعدهم بالإجابة فدل ذلك على شأن الدعاء.

ب ـ قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦]، فقد أخبر سبحانه بذلك فدل على مشروعية الدعاء.

٢ ـ أما من السنة فعدة أدلة منها:

أ ـ ما روي أنه ﷺ قال: (**من لم يسأل الله يغضب عليه**)، فقد دل الأثر على مشروعية الدعاء والالتجاء إليه، وإن ذلك سبب من أسباب مرضاة الله سبحانه عن عبده... قال الشاعر:

الرب يغضب إن تركت سؤاله ... وبني آدم حين يُسئل يغضب

ب ـ ما روي أنه ﷺ قال: (**ينزل ربنا كل ليلة إلى السماء الدنيا فيقول: من يدعني فأستجيب له؟ من يسألني فأعطيه؟ من يستغفرني فأغفر له**)، وكل من هذه الثلاث متضمنة لأنواع الأدعية من إجابة الداعي وإعطاء السائل والمغفرة للمستغفر. فدل ذلك على مشروعية الدعاء وعظيم فائدته.

ج ـ قوله ﷺ: (**لا يرد القدر إلا الدعاء، ولا يزيد في العمر إلا البر، وإن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه**).

د ـ ما روي عنه ﷺ أنه قال: (**ما من رجل يدعو الله بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بدعوته تلك إحدى ثلاث خصال: إما أن يعجل له دعوته، أو يدخر له من الخير مثلها، أو يصرف عنه من الشر مثلها، قالوا: يا رسول الله إذن نكثر، قال: الله أكثر**)، فقد دل الحديث على مشروعية الدعاء وأن الداعي إذا لم يتعد أجيبت دعوته بإحدى تلك الخصال الثلاث.

١٢ المخالفون لأهل السنة في مسألة الانتفاع بالدعاء:

للناس آراء في الانتفاع بالدعاء:

أ ـ ذهب الجمهور إلى أن الدعاء من أعظم الأسباب التي تجلب المصالح وتدفع المضار، وهم أكثر خلق الله من سائر الملل.

ب ـ وذهب بعض المتفلسفة وغلاة الصوفية إلى أن الدعاء لا فائدة فيه.

ج - وخص بعضهم الدعاء بخواص العارفين وقال: إن مقام الخواص علة في إجابة الدعاء.

١٣ الرد على شبه المخالفين لأهل السنة في مسألة الانتفاع بالدعاء:

من شبههم:

إن المشيئة الإلهية إن اقتضت حصول المطلوب فلا حاجة إلى الدعاء، وإن لم تقتضه فلا فائدة فيه.

الجواب:

أجيب عن هذه الشبهة بأحد جوابين:

أولهما: منع الحصر الذي ذكروه وهو: إما أن تقتضي حصول المطلوب، وإما أن لا تقتضيه، فنقول: إن هناك قسماً ثالثاً وهو أن تكون المشيئة الإلهية قد اقتضت حصول المطلوب بشروط قد يكون منها دعاء الشخص وطلبه، كما تقتضي حصول الثواب بوجود العمل الصالح.

وحينئذٍ فالدعاء مفيد لأنه كان شرطاً من شروط حصول المطلوب كما كان العمل الصالح شرطاً لحصول الثواب.

ثانيهما: لا نسلم أن المشيئة الإلهة إن اقتضت فلا حاجة إلى الدعاء، بل قد تكون إليه حاجة من تحصيل مصلحة أخرى عاجلة أو آجلة، وكذلك: لا نسلم لهم بالمشيئة الإلهية إن لم تقتض المطلوب فلا فائدة فيه، بل فيه فوائد أيضاً من جلب مصالح أو دفع مضار أخر. يدل على ذلك الحديث الذي قدمناه: **(ما من رجل يدعو بدعوة لا إثم فيها ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بدعوته إحدى ثلاث خصال)**.

الشبهة الثانية: قالوا: إذا كان إعطاء الله ﷻ معللاً بفعل العبد كما يعقل من إعطاء المسؤول للسائل. كان السائل قد أثر بدعائه في الرب... كما أثر السائل في المسؤول وتأثير العبد في الرب ممنوع.

الجواب: إن الله ﷻ هو الذي حرك العبد لدعائه وجعل دعاءه سبباً في حصول المطلوب، فمنه بدأ الأمر وإليه منتهاه، ولذلك قال عمر: «إني لا أحمل هَمَّ الإجابة ولكنني أحمل هَمَّ الدعاء، فإذا أُلهمت الدعاء حصلت منه الإجابة»، والله سبحانه هو الذي يحرك العبد بدعائه، وهو سبحانه جعل الدعاء سبباً للإجابة كما جعل العمل الصالح سبباً للثواب، ووفقه للتوبة وأثابه عليها.

(١٤) الجواب على دعوى بعض: دعونا فلم يستجب لنا، والله يقول: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠].

أجيب عن هذا بعدة أجوبة منها:

١ ـ **الأول**: إن الدعاء في الآية المراد به العبادة، فيكون المعنى: «اعبدوني أثبكم وأجازيكم جزاء حسناً»، ويدل على هذا قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]، وعلى هذا فالآية لم تتعرض لإجابة الداعي على دعائه.

٢ ـ **الثاني**: إن إجابة الداعي أعم من إعطاء السائل لسؤاله، فإجابته إما أن تكون بإعطائه عين سؤاله أو ادخار مثل سؤاله من الخير له أو يصرف عنه مثل سؤاله من الشر كما ورد في الحديث.

٣ ـ **الثالث**: إن الدعاء سبب لحصول المطلوب ولا بد لترتيب المسببات على أسبابها من وجود الشرط.. وانتفاء الموانع فإذا فقدت الشروط أو بعضها أو وجد المانع لم يحصل المطلوب.. قالوا فالأدعية والأذكار بمنزلة السلاح وتأثير السلاح ليس وحده فقط، بل بضاربه أيضاً، فإذا كان السلاح تاماً، والساعد ساعداً قوياً، والمحل قابلاً، والمانع مفقوداً يحصل بالسلاح النكاية في العدو ومتى تخلف التأثير وكذلك الأدعية والأذكار إذا كان الدعاء صادقاً وانضم إليه أن توجه الشخص بقلبه مع لسانه وانتفت الموانع حصل المطلوب، وإن لم يكن كذلك لم يحصل المطلوب.

(١٥) المعاني المستلزمة للدعاء:

ذكر ابن عقيل أن الدعاء يستلزم معاني ثمانية:

١ ـ الوجود، فإن المعدوم لا يدعى.

٢ ـ الحياة، فإن الميت لا يدعى.

٣ ـ السمع، فالأصم لا يدعى.

٤ ـ العلم، فالجاهل لا يدعى.

٥ ـ القدرة، فالعاجز لا يدعى.

٦ ـ الرحمة، فالقاسي لا يدعى.

٧ ـ الكرم، فالبخيل لا يدعى.

٨ ـ الغنى، فالفقير لا يدعى.

١٦ معنى كلام الطحاوي: «ويملك كل شيء ولا يملكه شيء، ولا غنى عن الله تعالى طرفة عين، ومن استغنى عن الله طرفة عين فقد كفر وصار من أهل الحَين»:

والله تعالى مالك الملك، ومالك كل شيء ولا تصرف في خلقه إلا بإذنه، ولا يمكن الاستغناء عن الله تعالى طرفة عين، فكل مخلوق محتاج إلى الله تعالى في خلقه وإيجاده ورزقه وتدبير أموره، وهدايته وإرشاده، كما قال تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [فاطر: ١٥]، وأيما مخلوق ظن أنه يستطيع الاستغناء عن الله تعالى فقد كفر بذلك، وأصبح من أهل الردى والهلاك.

١٧ معنى قول طائفة من العلماء: «أن الالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد»:

الالتفات إلى الأسباب ضربان:

١ ـ أن يعتمد عليها ويطمئن إليها، ويعتقد أنها بذاتها محصلة للمقصود وذلك كشرب الدواء فيظنه المريض أنه بمفرده كافٍ في حصول الشفاء فهذا شرك.

٢ ـ أن يلتفت إليها التفات امتثال وقيام بها وأداء لحق العبودية فيها وإنزالها منازلها فهذا حق(١).

١٨ الخلاصة:

١ ـ الله تعالى يستجيب الدعوات كما قال ﷻ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]، وهو الذي يقضي الحوائج لخلقه، من جلب النفع ودفع الضر، إذ لا يملك الأمر سواه.

٢ ـ الدعاء: هو الابتهال إلى الله بالسؤال والرغبة فيما عنده من الخير.

٣ ـ الدعاء على قسمين: دعاء عبادة، ودعاء مسألة.

٤ ـ لإجابة الدعاء لا بد من توفر شروط وانتفاء موانع.

٥ ـ القرب نوعان: قرب بعلم الله من كل خلقه، وقرب من عابديه وداعيه بالإجابة والمعونة والتوفيق.

٦ ـ مذهب أهل السنة والجماعة أن الدعاء أقوى الأسباب في جلب المنافع ودفع المضار.

---

(١) انظر: المدارج (٣/ ٤٩٩).

٧ - لقد دل على الانتفاع بالدعاء الكتاب والسنة.

٨ - المعاني المستلزمة للدعاء: الوجود، والحياة، والسمع، والعلم، والقدرة، والرحمة، والكرم، والغنى.

٩ - الله تعالى مالك الملك، ومالك كل شيء ولا تصرف في خلقه إلا بإذنه، ولا يمكن الاستغناء عن الله تعالى طرفة عين.

١٩ المناقشة:

- **س١:** بيّن معنى كلام الطحاوي: «والله تعالى يستجيب الدعوات ويقضي الحاجات».
- **س٢:** ما معنى الدعاء؟
- **س٣:** بيّن معنى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ [البقرة: ١٨٦].
- **س٤:** ما أنواع الدعاء؟
- **س٥:** عدّد شروط إجابة الدعاء.
- **س٦:** ما أنواع القُرْب؟
- **س٧:** وضّح مذهب أهل السنة والجماعة في أن الدعاء أقوى الأسباب في جلب المنافع ودفع المضار.
- **س٨:** اذكر أدلة أهل السنة والجماعة في مسألة الانتفاع بالدعاء.
- **س٩:** بيّن مذهب المخالفين لأهل السنة في مسألة الانتفاع بالدعاء.
- **س١٠:** كيف ترد على شبه المخالفين لأهل السنة في مسألة الانتفاع بالدعاء؟
- **س١١:** كيف تجيب على دعوى من يقول: دعونا فلم يستجب لنا، والله يقول: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]؟
- **س١٢:** اذكر المعاني المستلزمة للدعاء.
- **س١٣:** بيّن معنى كلام الطحاوي: «ويملك كل شيء ولا يملكه شيء، ولا غنى عن الله تعالى طرفة عين، ومن استغنى عن الله طرفة عين فقد كفر وصار من أهل الحَين».



صفتا الغضب والرضا

* **كلام ابن أبي العز:**

١ ـ غرض المصنف من عقد هذا الباب.

٢ ـ مناسبة هذا الباب لما سبق.

٣ ـ معاني الكلمات.

٤ ـ معنى كلام الطحاوي: «والله يغضب ويرضى، لا كأحدٍ من الورى».

٥ ـ تفسير قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ١٨] وسبب تسمية البيعة ببيعة الرضوان.

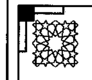
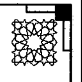
٦ ـ مذهب أهل السنة والجماعة في صفتي الرضا والغضب.

٧ ـ الأدلة من الكتاب والسنة على إثبات صفتي الرضا والغضب.

٨ ـ المخالفون لأهل السنة في إثبات صفتي الرضا والغضب.

٩ ـ الخلاصة.

١٠ ـ المناقشة.

صفتا الغضب والرضا

قال ابن أبي العز:

قوله: «والله يغضب ويرضى لا كأحد من الورى».

قال تعالى: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ﴾ [المائدة: ١١٩]، ﴿لَّقَدۡ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ يُبَايِعُونَكَ تَحۡتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ١٨]، وقال تعالى: ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيۡهِ﴾ [المائدة: ٦٠]، ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَلَعَنَهُۥ﴾ [النساء: ٩٣]، ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾ [البقرة: ٦١]، ونظائر ذلك كثيرة.

ومذهب السلف وسائر الأئمة إثبات صفة الغضب والرضى والعداوة والولاية والحب والبغض ونحو ذلك من الصفات التي ورد بها الكتاب والسنة ومنع التأويل الذي يصرفها عن حقائقها اللائقة بالله تعالى كما يقولون مثل ذلك في السمع والبصر والكلام وسائر الصفات كما أشار إليه الشيخ فيما تقدم بقوله إذا كان تأويل الرؤية وتأويل كل معنى يضاف إلى الربوبية ترك التأويل ولزوم التسليم وعليه دين المسلمين.

وانظر إلى جواب الإمام مالك ﷺ في صفة الاستواء كيف قال: «الاستواء معلوم والكيف مجهول»، وروي أيضاً عن أم سلمة ﷺ موقوفاً عليها ومرفوعاً إلى النبي ﷺ.

وكذلك قال الشيخ ﷺ فيما تقدم: من لم يتوقَّ النفي والتشبيه زل ولم يصب التنزيه، ويأتي في كلامه إن الإسلام بين الغلو والتقصير وبين التشبيه والتعطيل.

فقول الشيخ ﷺ: لا كأحد من الورى، نفى التشبيه، ولا يقال: إن الرضى إرادة الإحسان والغضب إرادة الانتقام، فإن هذا نفي للصفة، وقد اتفق أهل السنة على أن الله يأمر بما يحبه ويرضاه وإن كان لا يريده ولا يشاؤه، وينهى عما يسخطه ويكرهه ويبغضه، ويغضب على فاعله وإن كان قد شاءه وأراده، فقد يحب عندهم ويرضى ما لا يريده ويكره ويسخط لما أراده.

ويقال لمن تأول[١] الغضب والرضى بإرادة الإحسان: لَمَ تأولتَ ذلك، فلا بد أن

---

(١) انظر: الفتاوى (٦/ ٤٥).

يقول إن الغضب غليان دم القلب والرضى الميل والشهوة، وذلك لا يليق بالله تعالى، فيقال له: غليان دم القلب في الآدمي أمر ينشأ عن صفة الغضب لا أنه الغضب، ويقال له أيضاً: كذلك الإرادة والمشيئة فينا فهي ميل الحي إلى الشيء أو إلى ما يلائمه ويناسبه، فإن الحي منا لا يريد إلا ما يجلب له منفعة أو يدفع عنه مضرة وهو محتاج إلى ما يريده ومفتقر إليه، ويزداد بوجوده وينتقص بعدمه، فالمعنى الذي صرفت إليه اللفظ كالمعنى الذي صرفته عنه سواء، فإن جاز هذا جاز ذاك وإن امتنع هذا امتنع ذاك.

فإن قال: الإرادة التي يوصف الله بها مخالفة للإرادة التي يوصف بها العبد وإن كان كل منهما حقيقة، قيل له: فقل إن الغضب والرضى الذي يوصف الله به مخالف لما يوصف به العبد. وإن كان كل منهما حقيقة، فإذا كان ما يقوله في الإرادة يمكن أن يقال في هذه الصفات لم يتعين التأويل بل يجب تركه لأنك تسلم من التناقض وتسلم أيضاً من تعطيل معنى أسماء الله تعالى وصفاته بلا موجب، فإن صرف القرآن عن ظاهره وحقيقته بغير موجب، حرام ولا يكون الموجب للصرف ما دله عليه عقله إذ العقول مختلفة، فكلٌّ يقول إن عقله دله على خلاف ما يقوله الآخر.

وهذا الكلام يقال لكل من نفى صفة من صفات الله تعالى لامتناع مسمى ذلك في المخلوق، فإنه لا بد أن يثبت شيئاً لله تعالى على خلاف ما يعهده حتى في صفة الوجود، فإن وجود العبد كما يليق به ووجود الباري تعالى كما يليق به، فوجوده تعالى يستحيل عليه العدم ووجود المخلوق لا يستحيل عليه العدم وما سمى به الرب نفسه وسمى به مخلوقاته مثل الحي والعليم والقدير، أو سمى به بعض صفاته كالغضب والرضى، وسمى به بعض صفات عباده، فنحن نعقل بقلوبنا معاني هذه الأسماء في حق الله تعالى وأنه حق ثابت موجود، ونعقل أيضاً معاني هذه الأسماء في حق المخلوق، ونعقل أن بين المعنيين قدراً مشتركاً، لكن هذا المعنى لا يوجد في الخارج مشتركاً، إذ المعنى المشترك الكلي لا يوجد مشتركاً إلا في الأذهان ولا يوجد في الخارج إلا معيناً مختصاً، فيثبت في كل منهما كما يليق به، بل لو قيل غضب مالك خازن النار وغضب غيره من الملائكة لم يجب أن يكون مماثلاً لكيفية غضب الآدميين، لأن الملائكة ليسوا من الأخلاط الأربعة حتى تغلي دماء قلوبهم كما يغلي دم قلب الإنسان عند غضبه، فغضب الله أولى.

وقد نفى الجهم ومن وافقه كل ما وصف الله به نفسه من كلامه ورضاه وغضبه

وحبه وبغضه وأسفه ونحو ذلك وقالوا إنما هي أمور مخلوقة منفصلة عنه ليس هو في نفسه متصفاً بشيء من ذلك.

وعارض هؤلاء من الصفاتية ابن كُلّاب ومن وافقه فقالوا: لا يوصف الله بشيء يتعلق بمشيئته وقدرته أصلاً بل جميع هذه الأمور صفات لازمة لذاته قديمة أزلية فلا يرضى في وقت دون وقت ولا يغضب في وقت دون وقت كما قال في حديث الشفاعة: (إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله).

وفي «الصحيحين» عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ: (إن الله تعالى يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك ربنا وسعديك، والخير في يديك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا رب وقد أعطيتنا ما لم تعط أحد من خلقك، فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: يا رب وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً)[1].

فيستدل به على أنه يحل رضوانه في وقت دون وقت وأنه قد يحل رضوانه ثم يسخط كما يحل السخط ثم يرضى، لكن هؤلاء أحل عليهم رضواناً لا يتعقبه سخط.

وهم قالوا: لا يتكلم إذا شاء، ولا يضحك إذا شاء، ولا يغضب إذا شاء، ولا يرضى إذا شاء، بل إما أن يجعلوا الرضى والغضب والحب والبغض هو الإرادة أو يجعلوها صفات أخرى، وعلى التقديرين فلا يتعلق شيء من ذلك لا بمشيئته ولا بقدرته، إذ لو تعلق بذلك لكان محلاً للحوادث، فنفى هؤلاء الصفات الفعلية الذاتية بهذا الأصل كما نفى أولئك الصفات مطلقاً بقولهم ليس محلاً للأعراض، وقد يقال: بل هي أفعال ولا تسمى حوادث كما سميت تلك صفات ولم تسم أعراضاً، وقد تقدمت الإشارة إلى هذا المعنى، ولكن الشيخ رحمه الله لم يجمع الكلام في الصفات في المختصر في مكان واحد، وكذلك الكلام في القدر ونحو ذلك ولم يعتن فيه بترتيب.

وأحسن ما يرتب عليه كتاب أصول الدين ترتيب جواب النبي ﷺ لجبريل عليه السلام حين يسأله عن الإيمان فقال: (أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره) الحديث، فيبدأ بالكلام على التوحيد والصفات وما يتعلق بذلك، ثم بالكلام على الملائكة، ثم وثم إلى آخره.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٤٩)، ومسلم (٢٨٢٩).



عناصر الموضوع:

(١) غرض المصنف من عقد هذا الباب:

تقرير معتقد أهل السنة والجماعة في إثبات صفة الغضب والرضا، وهما من الصفات الفعلية التي تتعلق بالمشيئة والاختيار، فأهل السنة يثبتون الصفات الواردة في الكتاب والسنة إثباتاً بلا تكييف، وتنزيهاً بلا تعطيل.

(٢) مناسبة هذا الباب لما سبق:

قرر المصنف فيما سبق أن معتقد أهل السنة والجماعة أن الدعاء نافع ومفيد وهو من أقوى الأسباب في جلب المنافع ودفع المضار، فناسب أن يبين أن الله يغضب على من ترك دعاءه ولم يسأله، فناسب أن يقرر المؤلف أن من صفات الله الفعلية التي وردت في الكتاب والسنة صفتي الغضب والرضا على ما يليق بجلال الله وعظمته.

(٣) معاني الكلمات:

الكلمة	المعنى
الغلو	مجاوزة الحد.

(٤) معنى كلام الطحاوي: «والله يغضب ويرضى، لا كأحد من الورى»:

والله تعالى يغضب إذا انتُهكت محارمه، ويرضى إذا أُتيت مراضيه وأوامره، وغضبه ورضاه صفتان ثابتتان بالكتاب والسنة كما سيأتي بيانه، وهما على المعنى اللائق به تعالى دون تكييف ولا تشبيه، فغضبه ورضاه صفتان ليستا كصفات الخلق بحال من الأحوال.

(٥) تفسير قوله تعالى: ﴿۞ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾﴾ [الفتح: ١٨]، وسبب تسمية البيعة ببيعة الرضوان:

يخبر تعالى بفضله ورحمته برضاه عن المؤمنين إذ يبايعون الرسول ﷺ تلك

المبايعة التي بيَّضت وجوههم واكتسبوا بها سعادة الدنيا والآخرة، وكان سبب تسمية هذه البيعة ببيعة الرضوان، لرضا الله عن المؤمنين فيها، فأخبر الله تعالى أنه رضي عن المؤمنين في تلك الحال التي هي من أكبر الطاعات وأجل القربات[١].

(٦) مذهب أهل السنة والجماعة في صفتي الرضا والغضب:

يثبت أهل السنة والجماعة صفتي الغضب والرضا من غير تشبيه ولا تمثيل ولا تعطيل ولا تكييف، فيرضى عن المحسنين، ويسخط على الفسقة والكافرين، دل على ذلك الأدلة المتوافرة كما سيأتي بيانه في الفقرة التالية.

(٧) الأدلة من الكتاب والسنة على إثبات صفتي الرضا والغضب:

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ (١٥٢)﴾ [الأعراف: ١٥٢].

وقال تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٩٦)﴾ [التوبة: ٩٦].

وقال تعالى: ﴿جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ (٨)﴾ [البينة: ٨].

وقال تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ١٨].

وقال ﷺ في حديث الشفاعة: **(إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله)**.

وفي «الصحيحين» عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ: **(إن الله تعالى يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك ربنا وسعديك والخير في يديك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا رب وقد أعطيتنا ما لم تعط أحد من خلقك، فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: يا رب وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً)**.

(٨) المخالفون لأهل السنة في إثبات صفتي الرضا والغضب:

وهم فئتان:

١ - المعطلة كالأشعرية والمعتزلة الماتريدية.

٢ - المشبهة الذين يثبتون صفات الخالق من جنس صفات المخلوقين، وطريقة

---

(١) انظر: تفسير السعدي عند الآية: ١٨ من سورة الفتح.

الأشاعرة أنهم يؤولون صفتي الغضب والرضا ويفسرونها بالصفات التي أثبتوها فيقولون في الرضا: إنه إرادة الثواب، ويفسرون صفة الغضب بإرادة الانتقام.

الرد على الأشاعرة في نفيهم صفتي الغضب والرضا:

إن الأشاعرة يثبتون سبعاً من الصفات وينفون ما عداها من الصفات، فينفون صفة المحبة والرحمة والغضب وغيرها، وفرقوا بين الصفات من حيث الإثبات والنفي والرد عليهم[1] من وجوه:

١ ـ أنه لا فرق بين ما نفيتموه من الصفات كالرحمة والغضب والمحبة وبين ما أثبتموه، فإن القول فيهما واحد لأن القول في إحداهما كالقول في الأخرىٰ.

٢ ـ يلزم الأشعري في طريقته هذه بالتفريق بين الصفات ثلاثة لوازم:

أ ـ إثبات جميع الصفات على وجه التمثيل، تمثيل الخالق بالمخلوق، وهذا باطل وهو مذهب المشبهة.

ب ـ نفي جميع الصفات الواردة في الكتاب والسنة، وهذا باطل، فيلحق بغلاة المعطلة، فإذا بطل الوجهان السابقان فيبقى اللازم الآخر وهو الصحيح.

ج ـ إثبات جميع الصفات الواردة في الكتاب والسنة على ما يليق بالله تعالى مع نفي مشابهة الخالق للمخلوق، وهذا هو الحق وهو مذهب الرسل عليهم الصلاة والسلام.

وفي ما يلي مثال تطبيقي لمحاورة السني مع الأشعري:

الأشعري يثبت الصفات السبع وينازع فيما عداها من صفة الرضا والغضب وغير ذلك، بدعوى أن إثبات هذه الصفات تشبيه، فلا يثبت صفة الغضب بزعمه أن الغضب هو غليان دم القلب بطلب الانتقام وهذا لا يليق بالله.

رد عليه السني فقال: أنت تثبت الإرادة، والإرادة التي تثبتها هي ميل النفس إلى جلب منفعة أو دفع مضرة، وهذا لا يليق بالله.

فأجاب الأشعري: أن هذه الإرادة التي ذكرتها أيها السني هي إرادة المخلوق، أما إرادة الله فكما تليق به.

فرد عليه السني فقال: وهذا الغضب الذي ذكرته أيها الأشعري إنما هو غضب المخلوق لا غضب الله اللائق به، فهذا المفرق بين الصفات. يقال فيما نفاه من

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٦/ ٤٥)، والصواعق (١/ ٢٢٤).

الصفات الفعلية كما يقول هو لمنازعه في الصفات السبع؛ أي يرد عليه بنفس الردود التي يرد بها هو على المعتزلي، ألا وهي أن الله يتصف بالصفات اللائقة به، والمخلوق يتصف بالصفات التي تناسبه وتليق به، ولا يلزم من ذلك التشبيه.

(٩) الخلاصة:

١ - والله تعالى يغضب إذا انتهكت محارمه، ويرضى إذا أتيت مراضيه وأوامره، وغضبه ورضاه صفتان ثابتتان بالكتاب والسنة، وهما على المعنى اللائق به تعالى دون تكييف ولا تشبيه، فغضبه ورضاه صفتان ليستا كصفات الخلق بحال من الأحوال.

٢ - يثبت أهل السنة والجماعة صفتي الغضب والرضا من غير تشبيه ولا تعطيل ولا تمثيل ولا تكييف، فيرضى عن المحسنين، ويسخط على الفسقة والكافرين، دل على ذلك الأدلة المتوافرة.

٣ - المخالفون لأهل السنة في إثبات صفتي الرضا والغضب فئتان: المعطلة كالأشعرية والمعتزلة الماتريدية، والمشبهة الذين يثبتون صفات الخالق من جنس صفات المخلوقين.

٤ - طريقة الأشاعرة أنهم يؤولون صفتي الغضب والرضا ويفسرونها بالصفات التي أثبتوها فيقولون في الرضا: إنه إرادة الثواب ويفسرون صفة الغضب بإرادة الانتقام.

(١٠) المناقشة:

- **س١:** بيّن معنى كلام الطحاوي: «والله يغضب ويرضى، لا كأحد من الورى».
- **س٢:** بيّن معنى قوله تعالى: ﴿۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾﴾ [الفتح: ١٨]، وما سبب تسمية البيعة ببيعة الرضوان؟
- **س٣:** وضّح مذهب أهل السنة والجماعة في صفتي الرضا والغضب.
- **س٤:** اذكر الأدلة من الكتاب والسنة على إثبات صفتي الرضا والغضب.
- **س٥:** بيّن مذهب المخالفين لأهل السنة في إثبات صفتي الرضا والغضب، مع الرد عليهم.

محبة أصحاب رسول الله ﷺ

* **كلام ابن أبي العز:**

١ ـ غرض المصنف من عقد هذا الباب.

٢ ـ مناسبة هذا الباب لما سبق.

٣ ـ معاني الكلمات.

٤ ـ معنى كلام الطحاوي: «ونحب أصحاب رسول الله ولا نفرط في حب أحد منهم ولا نتبرأ من أحد منهم ونبغض من يبغضهم وبغير الخير يذكرهم، ولا نذكرهم إلا بخير، وحبهم دين وإيمان وإحسان، وبغضهم كفر ونفاق وطغيان».

٥ ـ تعريف الصحابي.

٦ ـ فضل الصحابة وحقوقهم.

٧ ـ الأدلة على فضل الصحابة.

٨ ـ حكم سب الصحابة.

٩ ـ مذهب أهل السنة في الصحابة.

١٠ ـ المخالفون لأهل السنة والجماعة في محبة الصحابة.

١١ ـ المراد بالسابقين في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [التوبة: ١٠٠].

١٢ ـ حكم الغلو في محبة الصحابة.

١٣ ـ وجه كون حب الصحابة ديناً وإيماناً وإحساناً.

١٤ ـ وجه كون بغض الصحابة كفراً ونفاقاً وطغياناً.

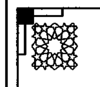
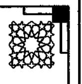
١٥ ـ معنى قول الرافضة: «لا ولاء إلا ببراءة».

١٦ ـ الخصلة التي فُضِّل بها اليهود والنصارى على الرافضة.

١٧ ـ معنى قول السلف: الشهادة بدعة والبراءة بدعة.

١٨ ـ الخلاصة.

١٩ ـ المناقشة.

محبة أصحاب رسول الله ﷺ

قال ابن أبي العز:

وقوله: «ونحب أصحاب رسول الله ولا نفرط في حب أحد منهم، ولا نتبرأ من أحد منهم، ونبغض من يبغضهم وبغير الخير يذكرهم، ولا نذكرهم إلا بخير، وحبهم دين وإيمان وإحسان، وبغضهم كفر ونفاق وطغيان».

يشير الشيخ رحمه الله إلى الرد على الروافض والنواصب، وقد أثنى(١) الله تعالى على الصحابة هو ورسوله ورضي عنهم ووعدهم الحسنى.

كما قال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [التوبة: ١٠٠].

وقال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ [الفتح: ٢٩] إلى آخر السورة.

وقال تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ١٨].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [الأنفال: ٧٢].

وقال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [الحديد: ١٠].

وقال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ

(١) انظر: منهاج السنّة (٢/ ١٧).

جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [الحشر: ٨ ـ ١٠].

وهذه الآيات تتضمن الثناء على المهاجرين والأنصار وعلى الذين جاؤوا من بعدهم يستغفرون لهم ويسألون الله أن لا يجعل في قلوبهم غلاً لهم، وتتضمن أن هؤلاء هم المستحقون للفيء، فمن كان في قلبه غل للذين آمنوا ولم يستغفر لهم لا يستحق في الفيء نصيباً بنص القرآن.

وفي «الصحيحين» عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: كان بين خالد بن الوليد وبين عبد الرحمن بن عوف شيء، فسبَّه خالد فقال رسول الله ﷺ: (لا تسبوا أحداً من أصحابي، فإن أحدكم لو أنفق مثل أُحُد ذهباً ما أدرك مُدَّ أحدهم ولا نصيفه)[١] انفرد مسلم بذكر سب خالد لعبد الرحمن دون البخاري.

فالنبي ﷺ يقول لخالد ونحوه: (لا تسبوا أصحابي) يعني عبد الرحمن وأمثاله، لأن عبد الرحمن ونحوه هم السابقون الأولون وهم الذين أسلموا من قبل الفتح وقاتلوا، وهم أهل بيعة الرضوان، فهم أفضل وأخص بصحبته ممن أسلم بعد بيعة الرضوان، وهم الذين أسلموا بعد الحديبية وبعد مصالحة النبي أهل مكة ومنهم خالد بن الوليد، وهؤلاء أسبق ممن تأخر إسلامهم إلى فتح مكة وسموا الطلقاء منهم أبو سفيان وابناه يزيد ومعاوية.

والمقصود أنه نهى من له صحبة آخراً أن يسب من له صحبة أولاً لامتيازهم عنهم من الصحبة بما لا يمكن أن يشركوهم فيه، حتى لو أنفق أحدهم مثل أُحُد ذهباً ما بلغ مُدَّ أحدهم ولا نصيفه.

فإذا كان هذا حال الذين أسلموا بعد الحديبية وإن كان قبل فتح مكة، فكيف حال من ليس من الصحابة بحال مع الصحابة ﷺ أجمعين.

والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار هم الذين أنفقوا من قبل الفتح وقاتلوا، وأهل بيعة الرضوان كلهم منهم وكانوا أكثر من ألف وأربعمائة.

وقيل إن السابقين الأولين من صلى إلى القبلتين وهذا ضعيف، فإن الصلاة إلى

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٧٣)، ومسلم (٢٥٤١).

القبلة المنسوخة ليس بمجرده فضيلة لأن النسخ ليس من فعلهم، ولم يدل على التفضيل به دليل شرعي كما دل على التفضيل بالسبق إلى الإنفاق والجهاد والمبايعة التي كانت تحت الشجرة.

وأما ما يروى عن النبي ﷺ أنه قال: (أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم)[١] فهو حديث ضعيف، قال البزار: هذا حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ، وليس هو في كتب الحديث المعتمدة.

وفي «صحيح مسلم» عن جابر قال: (قيل لعائشة رضي الله عنها: إن ناساً يتناولون أصحاب رسول الله ﷺ حتى أبا بكر وعمر، فقالت: وما تعجبون من هذا انقطع عنهم العمل فأحب الله أن لا يقطع عنهم الأجر)[٢].

وروى ابن بطة بإسناد صحيح عن ابن عباس أنه قال: «لا تسبوا أصحاب محمد، فلمقام أحدهم ساعة يعني مع النبي ﷺ خير من عمل أحدكم أربعين سنة، وفي رواية وكيع: خير من عبادة أحدكم عمره»[٣].

«وفي الصحيحين» من حديث عمران بن حصين وغيره أن رسول الله ﷺ قال: (خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم)[٤]، قال عمران: فلا أدري أذكر بعد قرنه قرنين أو ثلاثة) الحديث.

وقد ثبت في «صحيح مسلم» عن جابر أن النبي ﷺ قال: (لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة)[٥].

وقال تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ...﴾ الآيات [التوبة: ١١٧].

ولقد صدق عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في وصفهم حيث قال: «إن الله نظر في قلوب العباد فوجد قلب محمد خير قلوب العباد فاصطفاه لنفسه وابتعثه برسالته، ثم

---

(١) أخرجه الدارقطني كما في تخريج أحاديث الكشاف للزيعلي (٢/ ٢٣٠).

(٢) أخرجه البغدادي في تاريخ بغداد (١١/ ٢٧٦) قال محقق شرح الطحاوية العدني (ص٧٣٠): ولم يخرجه مسلم كما ظنه الشارح.

(٣) أخرجه ابن ماجه (١٦٢)، وأحمد في فضائل الصحابة (١٧٢٩).

(٤) أخرجه البخاري (٢٦٥١)، ومسلم (٢٥٢٥).

(٥) أخرجه مسلم (٢٤٩٦).

نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد فجعلهم وزراء نبيه يقاتلون على دينه، فما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن، وما رأوه سيئاً فهو عند الله سيء».

وفي رواية: «وقد رأى أصحاب محمد جميعاً أن يستخلفوا أبا بكر».

وتقدم قول ابن مسعود: من كان منكم مستناً فليستن بمن قد مات، عند قول الشيخ: ونتبع السنة والجماعة.

فمن أضل ممن يكون في قلبه غل على خيار المؤمنين وسادات أولياء الله تعالى بعد النبيين، بل قد فضلهم اليهود والنصارى بخصلة، قيل لليهود: من خير أهل ملتكم؟ قالوا: أصحاب موسى، وقيل للنصارى: من خير أهل ملتكم؟ قالوا: أصحاب عيسى، وقيل للرافضة: من شر أهل ملتكم؟ قالوا[1]: أصحاب محمد، لم يستثنوا منهم إلا القليل، وفيمن سبوهم من هو خير ممن استثنوهم بأضعاف مضاعفة.

وقوله: ولا نفرط في حب أحد منهم، أي: لا نتجاوز الحد في حب أحد منهم كما تفعل الشيعة فنكون من المعتدين، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾ [النساء: ١٧١].

وقوله: ولا نتبرأ من أحد منهم كما فعلت الرافضة، فعندهم لا ولاء إلا ببراء، أي: لا يتولى أهل البيت حتى يتبرأ من أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، وأهل السنة يوالونهم كلهم وينزلونهم منازلهم التي يستحقونها بالعدل والإنصاف لا بالهوى والتعصب، فإن ذلك كله من البغي الذي هو مجاوزة الحد كما قال تعالى: ﴿فَمَا ٱخۡتَلَفُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ﴾ [الجاثية: ١٧]، وهذا معنى قول من قال من السلف الشهادة بدعة والبراءة بدعة، يروى ذلك عن جماعة من السلف من الصحابة والتابعين منهم أبو سعيد الخدري والحسن البصري وإبراهيم النخعي والضحاك وغيرهم.

ومعنى الشهادة: أن يشهد على معيَّن من المسلمين أنه من أهل النار أو أنه كافر بدون العلم بما ختم الله له به.

---

(١) انظر: منهاج السنّة (١/ ٢٧).

وقوله: وحبهم دين وإيمان وإحسان، لأنه امتثال لأمر الله فيما تقدم من النصوص. وروى الترمذي عن عبد الله بن مغفل قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (الله الله في أصحابي لا تتخذوهم غرضاً بعدي، فمن أحبهم فبحبي أحبهم، ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم، ومن آذاهم فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله تعالى، ومن آذى الله فيوشك أن يأخذه)[1].

وتسمية حب الصحابة إيماناً مشكل على الشيخ رحمه الله، لأن الحب عمل القلب وليس هو التصديق، فيكون العمل داخلاً في مسمى الإيمان، وقد تقدم في كلامه أن الإيمان هو الإقرار باللسان والتصديق بالجَنان لم يجعل العمل داخلاً في مسمى الإيمان، وهذا هو المعروف من مذهب أهل السنة إلا أن تكون هذه التسمية مجازاً.

وقوله: وبغضهم كفر ونفاق وطغيان تقدم الكلام في تكفير أهل البدع، وهذا الكفر نظير الكفر المذكور في قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]، وقد تقدم الكلام في ذلك.

---

(١) أخرجه أحمد (٨٧/٤)، والترمذي (٣٨٦٢).



عناصر الموضوع:

١ غرض المصنف من عقد هذا الباب:

عقد المصنف هذا الباب لبيان معتقد أهل السنة والجماعة في أصحاب رسول الله ﷺ، فهم يحبون الصحابة ويوالونهم كلهم بالعدل والإنصاف ويترضون عنهم، ولا يغلون في حبهم أو حب أحد منهم حتى لا يرفعوهم من مقام الصحبة إلى مقام النبوة.

وصحابة رسول الله ﷺ هم أفضل القرون والأمم بعد الأنبياء والرسل؛ وذلك لأنهم أدركوا النبي ﷺ وآمنوا به وجاهدوا معه وتلقوا عنه العلم وأحبهم النبي ﷺ، واختارهم الله لصحبة نبيه.

٢ مناسبة هذا الباب لما سبق:

قرر المصنف فيما سبق إثبات صفتي الغضب والرضا، فناسب في هذا الباب أن يبين العقيدة فيمن رضي الله عنهم وهم الصحابة، قال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [التوبة: ١٠٠].

٣ معاني الكلمات:

الكلمة	المعنى
الإفراط	تجاوز الحد.
البغي	التعدي والظلم.

٤ معنى كلام الطحاوي: «ونحب أصحاب رسول الله ولا نفرط في حب أحد منهم ولا نتبرأ من أحد منهم، ونبغض من يبغضهم وبغير الخير يذكرهم، ولا نذكرهم إلا بخير، وحبهم دين وإيمان وإحسان، وبغضهم كفر ونفاق وطغيان»:

ونحب أصحاب رسول الله ﷺ بحب رسول الله ﷺ وحبه لهم، ولا نفرط في

حب أحد منهم كما فعل الروافض بعلي رضي الله عنه؛ فرفعوه فوق منزلته حتى أوصلوه لدرجة الألوهية، ولا نتبرأ من أحد منهم فقد كانوا أكمل الناس إيماناً وإحساناً، وأعظمهم طاعة وجهاداً، ونبغض من يبغضهم فإن ذلك علامة النفاق والخذلان، ونبغض من يذكرهم بغير الخير، ولا نذكرهم إلا بخير، فإن النبي ﷺ قد أحبهم وأوصى بهم، فحبهم علامة صحة الدين وعلامة الإيمان والإحسان، وبغضهم علامة الكفر والنفاق والخذلان والطغيان، نعوذ بالله من الضلالة بعد الهدى.

٥ تعريف الصحابي:

هو من لقي النبي ﷺ مؤمناً ولو لحظة ومات على ذلك[١].

٦ فضل الصحابة وحقوقهم:

الصحابة هم خير القرون، وأفضل هذه الأمة بعد نبيها ﷺ، ومحبتهم واجبة على كل مسلم؛ إذ أن حبهم دين، فيجب أن نحبهم ونتولاهم ونترضى عنهم، وننزلهم منازلهم، كما أن بغضهم كفر وطغيان.

فالصحابة حملة الدين تلقوه عن المصطفى ﷺ ونقلوه إلينا؛ فالطعن فيهم طعن في الدين كله.

وعلى أيديهم انتشر الإسلام في الأرض، وفتح الله بهم البلاد وقلوب العباد.

٧ الأدلة على فضل الصحابة:

وردت عدة نصوص في فضلهم رضوان الله عليهم لا سيما السابقين منهم من الكتاب والسنة والآثار.

أولاً ـ الكتاب:

أ ـ قال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩] إلى أن قال ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾ [الفتح: ٢٩].

ب ـ قوله تعالى: ﴿۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾﴾ [الفتح: ١٨].

ج ـ قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [التوبة: ١٠٠].

---

(١) انظر: الإصابة (١/٧).

ثانياً ـ من السنّة.

أ ـ ما روي عن أبي سعيد الخدري أنه قال: كان بين خالد بن الوليد وعبد الرحمن بن عوف شيء فسبه، فقال ﷺ: **(لا تسبوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم ملء أُحد ذهباً ما بلغ مُدَّ أحدهم ولا نصيفه)**.

ب ـ ما روي عنه أنه ﷺ قال: **(والذي نفسي بيده لا يلج النار أحد بايع تحت الشجرة)**.

ج ـ ما روي عنه ﷺ أنه قال: **(خير القرون قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم)**.

ثالثاً ـ من الآثار: فإليك بعضها:

أ ـ ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: **(لا تسبوا أصحاب محمد ﷺ، فلمقام أحدهم ساعة يعني مع النبي خير من عمل أحدكم أربعين سنة)**.

ب ـ ما روي عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: **(إن الله نظر في قلوب العباد فوجد قلب محمد خير قلوب العباد فاصطفاه لنفسه وابتعثه لرسالته، ثم نظر في قلوب العباد بعد قلبه ﷺ فرأى قلوب أصحابه خير قلوب العباد فجعلهم وزراء نبيه يقاتلون على دينه، فما رآه أصحابه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن وما رآه سيئاً فهو سيء)**.

ج ـ ما روي أنه قيل لعائشة: «أن أناساً يتكلمون في أصحاب النبي ﷺ حتى في أبي بكر وعمر فقالت: أو تعجبون من هذا؟ انقطع منهم العمل فأراد الله ألا ينقطع عنهم الأجر».

هذا بعض ما ورد عن فضل أصحاب رسول الله ﷺ مما وجب محبتهم وموالاتهم وعدم جواز الطعن فيهم..

(٨) حكم سب الصحابة:

لقد نهى النبي ﷺ عن التعرض لأصحابه بسب أو شتم فقال: **(لا تسبوا أحداً من أصحابي...)** الحديث.

فكل من يحب الصحابة فهو محب للرسول ﷺ، وكل من يبغضهم فهو مبغض للرسول ﷺ. وقد سبقت الأدلة في تحريم سب الصحابة.

هذا فمن سب الصحابة أو تنقص أحداً منهم أو جاهر ببغضهم فليس على السنة ولا مع الجماعة.

وإذا سبَّهم سباً يقدح في عدالتهم ودينهم؛ فهذا كفر ونفاق وطغيان، وأما من سبَّهم بما لا يقدح في عدالتهم ولا في دينهم مثل وصف بعضهم بالبخل بهتاناً فهذا يستحق التأديب والتعزير ولا نحكم بكفره بمجرد ذلك[١].

٩ مذهب أهل السنة في الصحابة:

ذهب أهل السنة والجماعة في الصحابة مذهباً وسطاً بين الغلو والجفو، فكفوا عما شجر بينهم، وتركوا الخوض فيما جرى بينهم من خلاف، ويوضح ذلك مقالة عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى: «أولئك قوم طهر الله أيدينا من دمائهم فلنطهر ألسنتنا من أعراضهم».

١٠ المخالفون لأهل السنة والجماعة في محبة الصحابة:

أ ـ يرى أهل السنة والجماعة: وجوب محبة أصحاب النبي ﷺ جميعهم، وهم مع هذا لا يرفعونهم فوق منزلتهم التي يستحقونها ولا يغالون في حبهم مثل ما فعلت الرافضة في غلوهم لأهل البيت.

ب ـ أما الرافضة فذهبت إلى موالاة أهل البيت والغلو في حبهم وبغض أكثر أصحاب النبي ﷺ لأنهم في اعتقادهم ظلموا علياً وسلبوا الخلافة منه.

ج ـ رأي أهل النواصب، وهم مناصبة أهل البيت العداء وتكفير أنفسهم كما فعلت الخوارج... ونرى أهل السنة وسطاً بين مذهب الروافض وبين مذهب النواصب فإنهم لم يبغضوا أحداً من أصحابه ﷺ كما فعلت الرافضة وكما فعلت النواصب ولم يغلوا في حبهم بل أنزلوهم المنزلة التي يستحقونها باعتبارهم أصحاب النبي ﷺ وعونه على نشر الدعوة.

١١ المراد بالسابقين في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [التوبة: ١٠٠].

اختلف في ذلك على أقوال:

أ ـ فقيل: المراد بهم: الذين أسلموا قبل الفتح وعددهم يزيد على ألف وأربعمائة رجل.

ب ـ وقيل: المراد بهم: من صلى إلى القبلتين.

---

(١) انظر: الصارم المسلول (ص٥٨٦ ـ ٥٨٧)، ومنهاج السنة (١/ ٢٧).

والأول: أقوى وهو المختار، وذلك لما يأتي:

أولاً: لأنهم ورد في فضلهم عدة نصوص منه قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ١٨]، وقوله: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُواْ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [الحديد: ١٠]، وقول النبي ﷺ: **(والذي نفسي بيده، لا يلج النار أحد بايع تحت الشجرة)**.

ثانياً: ولأن الصلاة إلى القبلتين بمجردها لا يعتبر فضيلة لأن نسخ القبلة الأولى ليس من فعلهم ولم يرد على أفضلية من صلى إلى القبلتين على من سواهم.

(١٢) حكم الغلو في محبة الصحابة:

لا يجوز تجاوز الحد في حب أحد من الصحابة كما فعلت الشيعة لأنه حينئذٍ غلو واعتداء، وقد قال تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ﴾ [النساء: ١٧١].

(١٣) وجه كون حب الصحابة ديناً وإيماناً وإحساناً:

أما وجه كون حب الصحابة ديناً وإيماناً وإحساناً، فهو أن محبتهم فيها امتثال لأوامر الله ﷻ ولرسوله ﷺ وطاعة لهما.. ولذلك قال ﷺ: **(الله الله في أصحابي لا تتخذوهم غرضاً بعدي، فمن أحبهم فبحبي أحبهم، ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم، ومن آذاهم فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله، ومن آذى الله فيوشك أن يأخذه)**.

فمحبة أصحابه فيها طاعة له فكانت ديناً وإيماناً وإحساناً من هذا الاعتبار، قد شرح الشارح: إن تسمية الطحاوي محبة أصحاب النبي ﷺ إيماناً لا يستقيم مع ما ذكره من أن الإيمان تصديق فقط، والمحبة عمل القلب وهو غير التصديق واعتذر عنه: بأنه لعله يكون إطلاقاً مجازاً، وإنما اعتذر عنه بذلك: لكي تستقيم نسبة محبة الأصحاب مع ما اختاره، أما على رأي الجمهور غير الأحناف فهو متماشٍ مع أصولهم.

(١٤) وجه كون بغض الصحابة كفراً ونفاقاً وطغياناً:

وجه كون بغضهم كفراً وفاقاً وطغياناً هو أن أصحاب النبي ﷺ لم يصدر منهم ما يوجب بغضهم، لذلك فمن أبغضهم فلبغضه إمامهم محمداً ﷺ، قال ﷺ: **(ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم)**.

ولهذا كان بغضهم كفراً ونفاقاً وطغياناً من هذا الوجه.

وقد ذكر الشارح أن إطلاق الكفر على هذا هو كفر دون كفر. وهو الكفر العملي لا الاعتقادي.

(١٥) معنى قول الرافضة: «لا ولاء إلا ببراءة».

معنى هذا أنه لا تتم موالاة آل البيت إلا بالتبرؤ من أبي بكر وعمر، وقالوا هذه المقالة لزعمهم أن أبا بكر وعمر قد سلبا علياً الخلافة، وأنه كان أولى منهما بها، وأهل السنة يوالونهم كلهم وينزلونهم منازلهم التي يستحقونها بالعدل والإنصاف لا بالأهواء والتعصب، فإن ذلك كله من الغي الذي هو مجاوزة الحد.

(١٦) الخصلة التي فضل بها اليهود والنصارى على الرافضة:

هذه الخصلة هي أنه: قيل لليهود من خير أهل ملتكم؟ قالوا: أصحاب موسى، وقيل للنصارى: من خير أهل ملتكم؟ قالوا: أصحاب عيسى، وقيل للرافضة: من شر أهل ملتكم؟ قالوا: أصحاب محمد، ولم يستثنوا منهم إلا القليل، آل البيت والمقداد بن الأسود وأبا ذر.

(١٧) معنى قول السلف: الشهادة بدعة والبراءة بدعة:

أما الشهادة فالمراد بها: «الشهادة على المعين بالنار أو الكفر مع أنه لم يظهر شيئاً يوجب ذلك فهذه بدعة».

وأما البراءة[١] فالمراد بها هنا: ما يقوله الرافضة من أنه لا ولاء إلا ببراءة، أي التبرؤ من الشيخين، فهي بدعة أحدثها الروافض ظلماً وعدواناً من عند أنفسهم.

(١٨) الخلاصة:

١ - أهل السنة والجماعة يحبون أصحاب رسول الله ﷺ، بحب رسول الله ﷺ وحبه لهم، ولا يفرطون في حب أحد منهم كما فعلت الروافض بعلي رضي الله عنه؛ فرفعوه فوق منزلته حتى أوصلوه لدرجة الألوهية، ولا يتبرأون من أحد منهم.

٢ - الصحابي هو من لقي النبي ﷺ مؤمناً ولو لحظة ومات على ذلك.

٣ - الصحابة هم خير القرون، وأفضل هذه الأمة بعد نبيها ﷺ، ومحبتهم واجبة على كل مسلم؛ إذ أن حبهم دين.

٤ - وردت عدة نصوص في فضل الصحابة رضوان الله عليهم لا سيما السابقين منهم من الكتاب والسنة والآثار.

٥ - لقد نهى النبي ﷺ عن التعرض لأصحابه بسب أو شتم، فمن سب الصحابة

---

(١) انظر: (الشرح والإبانة) لابن بطة (ص٣٤١).

أو تنقص أحداً منهم أو جاهر ببغضهم فليس على السنة ولا مع الجماعة.

٦ - وإذا سبهم سباً يقدح في عدالتهم ودينهم؛ فهذا كفر ونفاق وطغيان، وأما من سبهم بما لا يقدح في عدالتهم ولا في دينهم مثل وصف بعضهم بالبخل بهتاناً فهذا يستحق التأديب والتعزير ولا نحكم بكفره بمجرد ذلك.

٧ - ذهب أهل السنة والجماعة في الصحابة مذهباً وسطاً بين الغلو والجفو، فكفوا عما شجر بينهم، وتركوا الخوض فيما جرى بينهم من خلاف.

٨ - لا يجوز تجاوز الحد في حب أحد من الصحابة كما فعلت الشيعة لأنه حينئذٍ غلو واعتداء.

١٩ المناقشة:

- **س١:** بيّن معنى كلام الطحاوي: «ونحب أصحاب رسول الله ولا نفرط في حب أحد منهم، ولا نتبرأ من أحد منهم ونبغض من يبغضهم وبغير الخير يذكرهم، ولا نذكرهم إلا بخير، وحبهم دين وإيمان وإحسان، وبغضهم كفر ونفاق وطغيان».
- **س٢:** عرّف الصحابي.
- **س٣:** وضّح فضل الصحابة واذكر بعضاً من حقوقهم.
- **س٤:** اذكر الأدلة على فضل الصحابة.
- **س٥:** ما حكم سب الصحابة؟
- **س٦:** بيّن مذهب أهل السنة في الصحابة.
- **س٧:** بيّن مذهب المخالفين لأهل السنة والجماعة في محبة الصحابة.
- **س٨:** ما المراد بالسابقين في قوله تعالى: ﴿وَالسَّٰبِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَٰجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [التوبة: ١٠٠]؟
- **س٩:** ما حكم الغلو في محبة الصحابة؟
- **س١٠:** بيّن وجه كون حب الصحابة ديناً وإيماناً وإحساناً.
- **س١١:** بيّن وجه كون بغض الصحابة كفراً ونفاقاً وطغياناً.
- **س١٢:** ما المقصود بقول الرافضة: «لا ولاء إلا ببراءة»؟
- **س١٣:** ما الخصلة التي فضل بها اليهود والنصارى على الرافضة؟
- **س١٤:** ما معنى قول السلف: الشهادة بدعة والبراءة بدعة؟

مبحث الخلافة

* **كلام ابن أبي العز:**

١ ـ غرض المصنف من عقد هذا الباب.

٢ ـ مناسبة هذا الباب لما سبق.

٣ ـ معاني الكلمات.

٤ ـ معنى كلام الطحاوي: «وتثبت الخلافة بعد رسول الله ﷺ أولاً لأبي بكر الصديق رضي الله عنه، تفضيلاً له وتقديماً على جميع الأمة، ثم لعمر بن الخطاب رضي الله عنه، ثم لعثمان رضي الله عنه، ثم لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه، وهم الخلفاء الراشدون والأئمة المهديون».

٥ ـ وجه إدخال الطحاوي هذه المسألة الفقهية في العقيدة.

٦ ـ حكم تنصيب ولي الأمر على المسلمين.

٧ ـ مكانة الخلفاء الراشدين ووجوب اتباعهم.

٨ ـ مدة الخلافة الراشدة.

٩ ـ أولى الناس بالخلافة بعد رسول الله ﷺ.

١٠ ـ خلافة أبي بكر رضي الله عنه ثابتة بالنص.

١١ ـ ثبوت خلافة عمر رضي الله عنه بتفويض من أبي بكر رضي الله عنه.

١٢ ـ ثبت خلافة عثمان رضي الله عنه بالشورى.

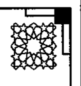
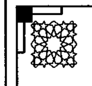
١٣ ـ ثبوت خلافة علي لما قتل عثمان.

١٤ ـ المفاضلة بين عثمان وعلي.

١٥ ـ موقف المسلم من الفتنة التي وقعت بين الصحابة.

١٦ ـ الخلاصة.

١٧ ـ المناقشة.

مبحث الخلافة

قال ابن أبي العز:

قوله: «ونثبت الخلافة بعد رسول الله أولاً لأبي بكر الصديق رضي الله عنه تفضيلاً له وتقديماً على جميع الأمة».

اختلف أهل السنة[١] في خلافة الصديق رضي الله عنه هل كانت بالنص أو بالاختيار، فذهب الحسن البصري وجماعة من أهل الحديث إلى أنها ثبتت بالنص الخفي والإشارة، ومنهم من قال بالنص الجلي، وذهب جماعة من أهل الحديث والمعتزلة والأشعرية إلى أنها ثبتت بالاختيار.

والدليل على إثباتها بالنص أخبار من ذلك ما أسنده البخاري عن جبير بن مطعم قال: أتت امرأةً النبي ﷺ فأمرها أن ترجع إليه قالت: أرأيت إن جئت فلم أجدك؟ كأنها تريد الموت، قال إن لم تجديني فأتي أبا بكر[٢]، وذكر له سياق آخر وأحاديث أخر وذلك نص على إمامته.

وحديث حذيفة بن اليمان قال: قال رسول الله ﷺ: (اقتدوا بالذين من بعدي أبي بكر وعمر)[٣] ورواه أهل السنن.

وفي «الصحيحين» عن عائشة رضي الله عنها وعن أبيها قالت: دخلت علىٰ رسول الله ﷺ في اليوم الذي بدئ فيه فقال: (ادعي لي أباك وأخاك حتى أكتب لأبي بكر كتاباً، ثم قال يأبى الله والمسلمون إلا أبا بكر)[٤].

وفي رواية: (فلا يطمع في هذا الأمر طامع).

وفي رواية قال: (ادعي لي عبد الرحمن بن أبي بكر لأكتب لأبي بكر كتاباً لا

---

(١) انظر: منهاج السنة (١/٤٨٦).
(٢) أخرجه البخاري (٣٦٥٩)، ومسلم (٢٣٨٦).
(٣) أخرجه أحمد (٥/ ٣٨٢)، والترمذي (٣٦٦٢).
(٤) أخرجه البخاري (٥٦٦٦)، ومسلم (٢٣٨٧).

يختلف عليه، ثم قال: معاذ الله أن يختلف المؤمنين في أبي بكر)[١].

وأحاديث تقديمه في الصلاة مشهورة معروفة وهو يقول: (مروا أبا بكر فليصل بالناس)[٢].

وقد روجع في ذلك مرة بعد مرة فصلى بهم مدة مرض النبي ﷺ.

وفي «الصحيحين» عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (بينا أنا نائم رأيتني على قليب عليها دلو فنزعت[٣] منها ما شاء الله ثم أخذها ابن أبي قحافة فنزع منها ذنوباً[٤] أو ذنوبين وفي نزعه ضعف، والله يغفر له، ثم استحالت غرباً[٥]، فأخذها ابن الخطاب، فلم أر عبقرياً[٦] من الناس يفري فريه حتى ضرب الناس بعطن[٧])[٨].

وفي «الصحيح» أنه ﷺ قال على منبره: (لو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، لا يبقين في المسجد خوخة إلا سدت إلا خوخة أبي بكر)[٩].

وفي «سنن أبي داود» وغيره من حديث الأشعث عن الحسن عن أبي بكرة أن النبي ﷺ قال ذات يوم: (من رأى منكم رؤيا؟ فقال رجل: أنا، رأيت ميزاناً أُنزل من السماء فوزنت أنت أبو بكر فرجحت أنت بأبي بكر، ثم وزن عمر وأبو بكر فرجح أبو بكر، ووزن عمر وعثمان فرجح عمر، ثم رفع فرأيت الكراهة في وجه النبي ﷺ فقال، خلافة نبوة ثم يؤتي الله الملك من يشاء)[١٠].

فبيّن رسول الله أن ولاية هؤلاء خلافة نبوة ثم بعد ذلك ملك.

وليس فيه ذكر علي رضي الله عنه لأنه لم يجتمع الناس في زمانه بل كانوا مختلفين لم ينتظم فيه خلافة النبوة ولا الملك.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٦/ ١٠٦).
(٢) أخرجه أحمد في فضائل الصحابة (٢٢٧).
(٣) النزع: الاستسقاء.
(٤) الذنوب: هو الدلو المملوء.
(٥) الغرب: هو الدلو العظيم والمعنى صارت وتحولت من الصغر إلى الكبر.
(٦) العبقري: السيد العظيم.
(٧) العطن: الموضع الذي تساق إليه الإبل بعد السقي حتى تستريح.
(٨) أخرجه البخاري (٣٦٦٤)، ومسلم (٢٣٩٢).
(٩) أخرجه البخاري (٣٩٠٤)، ومسلم (٢٣٨٢).
(١٠) أخرجه أحمد في المسند (٥/ ٤٤)، وأبو داود (٤٦٣٥).

وروى أبو داود أيضاً عن جابر ﷺ أنه كان يحدث أن رسول الله قال: (رأى الليلة رجل صالح أن أبا بكر نيط برسول الله ﷺ ونيط عمر بأبي بكر ونيط عثمان بعمر) قال جابر: فلما قمنا من عند رسول الله قلنا: أما الرجل الصالح فرسول الله وأما المنوط بعضهم ببعض فهو ولاة هذا الأمر الذي بعث الله به نبيه(١).

وروى أبو داود أيضاً عن سمرة بن جندب: «أن رجلاً قال: يا رسول الله رأيت كأن دلواً دلي من السماء فجاء أبو بكر فأخذ بعراقيها فشرب شرباً ضعيفاً ثم جاء عمر فأخذ بعراقيها فشرب حتى تضلَّع، ثم جاء عثمان فأخذ بعراقيها فشرب حتى تضلَّع، ثم جاء علي فأخذ بعراقيها فانتشطت منه فانتضح عليه منها شي»(٢).

وعن سعيد بن جمهان عن سفينة قال: قال رسول الله ﷺ: (خلافة النبوة ثلاثون سنة ثم يؤتي الله ملكه من يشاء(٣)).

واحتج من قال لم يستخلف بالخبر المأثور عن عبد الله بن عمر عن عمر ﷺ أنه قال: (إن استخلف فقد استخلف من هو خير مني يعني أبا بكر، إن لا أستخلف فلم يستخلف من هو خير مني) يعني رسول الله ﷺ.

قال عبد الله: «فعرفت أنه حين ذكر رسول الله غير مستخلف»(٤).

وبما روي عن عائشة ﷺ أنها سئلت من كان رسول الله مستخلفاً لو استخلف(٥)؟.

والظاهر والله أعلم أن المراد أنه لم يستخلف بعهد مكتوب، ولو كتب عهداً لكتبه لأبي بكر، بل قد أراد كتابته ثم تركه وقال: يأبى الله والمسلمون إلا أبا بكر.

فكان هذا أبلغ من مجرد العهد، فإن النبي دل المسلمين على استخلاف أبي بكر وأرشدهم إليه بأمور متعددة من أقواله وأفعاله، وأخبر بخلافته إخبار راض بذلك حامد له وعزم على أن يكتب بذلك عهداً ثم علم أن المسلمين يجتمعون

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٣٥٥)، أبو داود (٤٦٣٦).

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٢١)، وأبو داود (٤٦٣٧).

(٣) أخرجه أبو داود (٤٦٤٦)، والترمذي (٢٢٢٦).

(٤) أخرجه البخاري (٧٢١٨)، ومسلم (١٨٢٣).

(٥) أخرجه مسلم (٢٣٨٥).

عليه فترك الكتاب اكتفاء بذلك، ثم عزم على ذلك في مرضه يوم الخميس ثم لما حصل لبعضهم شك هل ذلك القول من جهة المرض أو هو قول يجب اتباعه ترك الكتابة اكتفاء بما علم أن الله يختاره والمؤمنون من خلافة أبي بكر.

فلو كان التعيين مما يشتبه على الأمة لبيّنه بياناً قاطعاً للعذر، لكن لما دلهم دلالات متعددة على أن أبا بكر المتعين وفهموا ذلك حصل المقصود، ولهذا قال عمر ﵁ في خطبته التي خطبها بمحضر من المهاجرين والأنصار: «أنت خيرنا وسيدنا وأحبنا إلى رسول الله ﷺ»، ولم ينكر ذلك منهم أحد، ولا قال أحد من الصحابة إن غير أبي بكر من المهاجرين أحق بالخلافة منه ولم ينازع أحد في خلافته إلا بعض الأنصار طمعاً في أن يكون من الأنصار أمير ومن المهاجرين أمير وهذا مما ثبت بالنصوص المتواترة عن النبي ﷺ بطلانه.

ثم الأنصار كلهم بايعوا أبا بكر إلا سعد بن عبادة لكونه هو الذي كان يطلب الولاية، ولم يقل أحد من الصحابة قط أن النبي نص على غير أبي بكر لا علي ولا العباس ولا غيرهما كما قد قال أهل البدع.

وروى ابن بطة بإسناده أن عمر بن عبد العزيز بعث محمد بن الزبير الحنظلي إلى الحسن فقال: هل كان النبي استخلف أبا بكر؟ فقال: أو في شكٍّ صاحبُك؟ نعم والله الذي لا إله إلا هو استخلفه، لهو كان أتقى لله من أن يتوثب عليها.

وفي الجملة فجميع من نقل عنه أنه طلب توليه غير أبي بكر لم يذكر حجة دينية شرعية ولا ذكر أن غير أبي بكر أفضل منه أو أحق بها، وإنما نشأ من حب قبيلته وقومه فقط، وهم كانوا يعلمون فضل أبي بكر ﵁ وحب رسول الله ﷺ له، ففي «الصحيحين» عن عمرو بن العاص: «أن رسول الله ﷺ بعثه على جيش ذات السلاسل فأتيته فقلت أي الناس أحب إليك؟ قال: عائشة، قلت: من الرجال؟ قال: أبوها، قلت: ثم من؟ قال: عمر، وعد رجالاً».

وفيهما أيضاً عن أبي الدرداء قال: «كنت جالساً عند النبي ﷺ إذ أقبل أبو بكر آخذاً بطرف ثوبه حتى أبدى عن ركبتيه فقال النبي ﷺ: أما صاحبكم فقد غامر فسلم، وقال: يا رسول الله إنه كان بيني وبين ابن الخطاب شيء فأسرعت إليه ثم ندمت فسألته أن يغفر لي فأبى علي فأقبلت إليك فقال: يغفر الله لك يا أبا بكر ثلاثاً، ثم إن عمر ندم فأتى منزل أبي بكر فسأل أثَمَّ أبو بكر؟ فقالوا: لا، فأتى إلى

النبي ﷺ فسلم عليه فجعل وجه النبي ﷺ يتمعر حتى أشفق أبو بكر فجثا على ركبتيه فقال: يا رسول الله، والله أنا كنت أظلم مرتين، فقال النبي ﷺ: إن الله بعثني إليكم فقلتم كذبت، وقال أبو بكر: صدق، وواساني بنفسه وماله، فهل أنتم تاركو لي صاحبي مرتين؟ فما أوذي بعدها».

ومعنى غامر غاضب وخاصم، ويضيق هذا المختصر عن ذكر فضائله.

وفي «الصحيحين» أيضاً عن عائشة رضي الله عنها: «أن رسول الله ﷺ مات وأبو بكر بالسنح» فذكرت الحديث إلى أن قالت: «واجتمعت الأنصار إلى سعد بن عبادة في سقيفة بني ساعدة فقالوا: منا أمير ومنكم أمير، فذهب إليهم أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح فذهب عمر يتكلم فأسكته أبو بكر وكان عمر يقول: والله ما أردت بذلك إلا أني قد هيأت في نفسي كلاماً قد أعجلني خشيت أن لا يبلغه أبو بكر، ثم تكلم أبو بكر فتكلم أبلغ الناس فقال في كلامه: نحن الأمراء وأنتم الوزراء، فقال حباب بن المنذر: لا والله لا نفعل، منا أمير ومنكم أمير، فقال أبو بكر: لا ولكنا الأمراء وأنتم الوزراء، هم أوسط العرب وأعزهم أحساباً، فبايعوا عمر بن الخطاب أو أبا عبيدة بن الجراح، فقال عمر: بل نبايعك، فأنت سيدنا وخيرنا وأحبنا إلى رسول الله ﷺ، فأخذ عمر بيده فبايعه وبايعه الناس، فقال قائل: قتلتم سعداً، فقال عمر: قتله الله»[(١)].

والسنح العالية وهي حديقة بالمدينة معروفة بها.

قوله: ثم لعمر بن الخطاب رضي الله عنه.

أي وثبتت الخلافة بعد أبي بكر رضي الله عنه لعمر رضي الله عنه وذلك بتفويض أبي بكر الخلافة إليه، واتفاق الأمة بعده عليه، وفضائله رضي الله عنه أشهر من أن تنكر وأكثر من أن تذكر، فقد روي عن محمد ابن الحنيفة، أنه قال: «قلت لأبي، يا أبت! من خير الناس بعد رسول الله ﷺ؟ فقال: يا بني أوَ ما تعرف؟ فقلت: لا! قال: أبو بكر، قلت: ثم من؟ قال عمر، وخشيت أن يقول: ثم عثمان، فقلت: ثم أنت؟ فقال: ما أنا إلا رجل من المسلمين»[(٢)].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٦٧) قال محقق الطحاوية: وعزو الشارح له إلى الصحيحين خطأ بل انفرد به البخاري.

(٢) أخرجه البخاري (٣٦٧١).

وتقدم قوله ﷺ: (اقتدوا بالذين من بعدي أبي بكر وعمر)[١].

وفي «صحيح مسلم» عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «وضع عمر على سريره فتكنفه الناس يدعون ويثنون ويصلون عليه قبل أن يرفع وأنا فيهم، فلم يرعني إلا برجل قد أخذ بمنكبي من ورائي، فالتفت إليه فإذا هو علي فترحم على عمر وقال: ما خلفت أحداً أحب إلي أن ألقى الله بمثل عمله منك، وايم الله إن كنت لأظن أن يجعلك الله مع صاحبيك وذلك أني كنت كثيراً ما أسمع رسول الله ﷺ يقول: جئت أنا وأبو بكر وعمر، ودخلت أنا وأبو بكر وعمر، وخرجت أنا وأبو بكر وعمر، فإن كنت لأرجو أو لأظن أن يجعلك الله معهما»[٢].

وتقدم حديث أبي هريرة رضي الله عنه في رؤيا رسول الله ﷺ ونزعه من القليب، ثم نزع أبي بكر، ثم استحالت الدلو غرباً فأخذها ابن الخطاب فلم أر عبقرياً من الناس ينزع نزع عمر حتى ضرب الناس بعطن[٣].

وفي «الصحيحين» من حديث سعد بن أبي وقاص قال: استأذن عمر بن الخطاب على رسول الله ﷺ وعنده نساء من قريش يكلمنه عالية أصواتهن الحديث وفيه: فقال رسول الله ﷺ: (إيه يا ابن الخطاب والذي نفسي بيده ما لقيك الشيطان سالكاً فجاً إلا سلك فجاً غير فجك)[٤].

وفي «الصحيحين» أيضاً عن النبي ﷺ أنه كان يقول: (قد كان في الأمم قبلكم محدثون فإن يكن في أمتي منهم أحد فإن عمر بن الخطاب منهم)[٥]، وقال ابن وهب: «تفسير محدثون: ملهمون».

قوله ثم لعثمان رضي الله عنه.

أي وتثبت الخلافة بعد عمر لعثمان رضي الله عنهما، وقد ساق البخاري رحمه الله قصة قتل عمر رضي الله عنه وأمر الشورى والمبايعة لعثمان في «صحيحه»، فأحببت أن أسردها كما رواها بسنده عن عمرو بن ميمون قال: رأيت عمر بن الخطاب رضي الله عنه قبل أن يصاب بأيام بالمدينة وقف على حذيفة بن اليمان وعثمان بن حنيف فقال: كيف

---

(١) قد تقدم.

(٢) أخرجه البخاري (٣٦٧٧)، ومسلم (٢٣٨٩).

(٣) سبق تخريجه.

(٤) أخرجه البخاري (٣٢٩٤)، ومسلم (٢٣٩٦).

(٥) أخرجه البخاري (٣٤٦٩)، ومسلم (٢٣٩٨).

فعلتما، أتخافان أن تكونا قد حملتما الأرض ما لا تطيق؟ قالا: حملناها أمراً هي له مطيقة، ما فيها كبير فضل، قال: انظر أن تكونا حملتما الأرض ما لا تطيق، قالا: لا، فقال عمر: لئن سلمني الله لأدعن أرامل أهل العراق لا يحتجن إلى رجل بعدي أبداً، قال: فما أتت عليه إلا أربعة حتى أصيب.

قال: إني لقائم ما بيني وبينه إلا عبد الله بن عباس غداة أصيب، وكان إذا مر بين الصفين قال: استووا، حتى إذا لم ير فيهن خللاً تقدم فكبر، وربما قرأ سورة يوسف أو النحل أو نحو ذلك في الركعة الأولى حتى يجتمع الناس، فما هو إلا أن كبر فسمعته يقول قتلني أو أكلني الكلب حين طعنه، فطار العلج بسكين ذات طرفين لا يمر على أحد يميناً وشمالاً إلا طعنه حتى طعن ثلاثة عشر رجلاً مات منهم سبعة، فلما رأى ذلك رجل من المسلمين طرح عليه برنساً فلما ظن العلج أنه مأخوذ نحر نفسه وتناول عمر يد عبد الرحمن بن عوف فقدمه، فمن يلي عمر فقد رأى الذي أرى، وأما نواحي المسجد فإنهم لا يدرون غير أنهم قد فقدوا صوت عمر وهم يقولون: سبحان الله سبحان الله، فصلى بهم عبد الرحمن صلاة خفيفة، فلما انصرفوا قال: يا ابن عباس انظر من قتلني؟ فجال ساعة ثم جاء فقال: غلام المغيرة، قال: الصنع؟ قال: نعم، قال: قاتله الله لقد أمرت به معروفاً، الحمد لله الذي لم يجعل منيتي على يد رجل يدعي الإسلام، قد كنت أنت وأبوك تحبان أن تكثر العلوج بالمدينة، وكان العباس أكثرهم رقيقاً فقال: إن شئت فعلت، أي: إن شئت قتلنا، قال: كذبت بعد ما تكلموا بلسانكم وصلوا قبلتكم وحجوا حجكم، فاحتمل إلى بيته فانطلقنا معه وكأن الناس لم تصبهم مصيبة قبل يومئذٍ، فقائل يقول: لا بأس عليه، وقائل يقول: أخاف عليه، فأتي بنبيذ فشربه فخرج من جوفه، ثم أتي بلبن فشربه فخرج من جوفه، فعرفوا أنه ميت.

فدخلنا عليه وجاء الناس يثنون عليه وجاء رجل شاب فقال: أبشر يا أمير المؤمنين ببشرى الله لك من صحبة رسول الله وقدم في الإسلام ما قد علمت، ثم وليت فعدلت ثم شهادة، قال: وددت أن ذلك كفاف لا علي ولا لي، فلما أدبر إذا إزاره يمس الأرض، قال: ردوا عليَّ الغلام، قال: يا ابن أخ ارفع ثوبك فإنه أنقى لثوبك وأتقى لربك، يا عبد الله بن عمر انظر ما عليَّ من الدَّين، فحسبوه فوجدوه ستة وثمانين ألفاً أو نحوه، قال: إن وفى له مال آل عمر فأده من أموالهم وإلا فسل في بني عدي بن كعب، فإن لم تف أموالهم فسل في قريش ولا تعدهم إلى غيرهم، فأد عني هذا المال، انطلق إلى عائشة أم المؤمنين فقل: يقرأ عليك عمر السلام ولا

تقل أمير المؤمنين، فإني لست اليوم للمؤمنين أميراً، وقل يستأذن عمر بن الخطاب أن يدفن مع صاحبيه، فسلم واستأذن ثم دخل عليها فوجدها قاعدة تبكي فقال: يقرأ عليك عمر بن الخطاب السلام ويستأذن أن يدفن مع صاحبيه، فقالت: كنت أريده لنفسي ولأوثرن به اليوم على نفسي، فلما أقبل قيل هذا عبد الله بن عمر قد جاء، قال: ارفعوني، فأسنده رجل إليه قال: ما لديك؟ قال: الذي تحب يا أمير المؤمنين أذنت، قال: الحمد لله ما كان شيء أهم إلي من ذلك، فإذا أنا قضيت فاحملوني ثم سلِّم فقل يستأذن عمر بن الخطاب، فإن أذنت لي فأدخلوني وإن ردتني فردوني إلى مقابر المسلمين، وجاءت أم المؤمنين حفصة والنساء يسترنها، فلما رأيناها قمنا فولجت عليه فبكت عنده ساعة، واستأذن الرجال فولجت داخلاً لهم فسمعنا بكاءها من الداخل فقالوا: أوص يا أمير المؤمنين استخلف، قال: ما أجد أحق بهذا الأمر من هؤلاء النفر أي الرهط الذين توفي رسول الله وهو عنهم راض، فسمى علياً وعثمان والزبير وطلحة وسعداً وعبد الرحمن، وقال: يشهدكم عبد الله بن عمر وليس له من الأمر شيء كهيئة التعزية له، فإن أصابت الإمارة سعداً فهو ذاك وإلا فليستعن به أيكم ما أمر فإني لم أعزله من عجز ولا خيانة.

وقال: أوصي الخليفة من بعدي بالمهاجرين الأولين أن يعرف لهم حقهم ويحفظ لهم حرمتهم، وأوصيه بالأنصار خيراً الذين تبؤوا الدار والإيمان من قبلهم أن يقبل من محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم، وأوصيه بأهل الأمصار خيراً فإنهم ردء الإسلام وجباة الأموال وغيظ العدو، وأن لا يأخذ منهم إلا فضلهم عن رضاهم، وأوصيه بالأعراب خيراً فإنهم أصل العرب ومادة الإسلام أن يأخذ من حواشي أموالهم وأن ترد على فقرائهم، وأوصيه بذمة الله وذمة رسوله أن يوفى لهم بعدهم وأن يقاتل من ورائهم ولا يكلفوا إلا طاقتهم.

فلما قبض خرجنا به فانطلقنا نمشي فسلَّم عبد الله بن عمر قال: يستأذن عمر بن الخطاب، قالت: أدخلوه فأدخل فوضع هنالك مع صاحبيه، فلما فرغ من دفنه اجتمع هؤلاء الرهط فقال عبد الرحمن: اجعلوا أمركم إلى ثلاثة منكم، قال الزبير: قد جعلت أمري إلى علي، فقال طلحة: قد جعلت أمري إلى عثمان، وقال سعد: قد جعلت أمري إلى عبد الرحمن بن عوف، فقال عبد الرحمن: أيكما تبرأ من هذا الأمر فنجعله إليه والله عليه والإسلام لينظرن أفضلهم في نفسه فأسكت الشيخان، فقال عبد الرحمن: أفتجعلونه إلي والله علي أن لا آلو عن أفضلكم، قالا: نعم، فأخذ بيد أحدهما فقال لك

قرابة من رسول الله والقدم في الإسلام ما قد علمت، فالله عليك لئن أمَّرتك لتعدلن ولئن أمَّرت عثمان لتسمعن وتطيعن، ثم خلا بالآخر فقال له مثل ذلك، فلما أخذ الميثاق قال: ارفع يدك يا عثمان فبايعه، فبايع له علي وولج أهل الدار فبايعوه[(١)].

وعن حميد بن عبد الرحمن أن المسور بن مخرمة أخبره أن الرهط الذين ولاهم عمر اجتمعوا فتشاوروا، قال لهم عبد الرحمن: لست بالذي أنافسكم عن هذا الأمر ولكنكم إن شئتم اخترت لكم منكم، فجعلوا ذلك إلى عبد الرحمن، فلما ولوا عبد الرحمن أمرهم فمال الناس على عبد الرحمن حتى ما أرى أحداً من الناس يتبع أولئك الرهط ولا يطأ عقبه، ومال الناس على عبد الرحمن يشاورونه تلك الليالي حتى إذا كانت تلك الليلة التي أصبحنا فيها فبايعنا عثمان، قال المسور بن مخرمة: طرقني عبد الرحمن بعد هجع من الليل فضرب الباب حتى استيقظت فقال: أراك نائماً فوالله ما اكتحلت هذه الثلاث بكبير نوم، انطلق فادع لي الزبير وسعداً فدعوتهما له فشاورهما، ثم دعاني فقال: ادع لي علياً فدعوته فناجاه حتى أبهار الليل، ثم قام علي من عنده وهو على طمع، وقد كان عبد الرحمن يخشى من علي شيئاً، ثم قال: ادع لي عثمان فدعوته فناجاه حتى فرق بينهما المؤذن بالصبح، فلما صلى الناس الصبح واجتمع أولئك الرهط عند المنبر فأرسل إلى من كان حاضراً من المهاجرين والأنصار وأرسل إلى أمراء الأجناد وكانوا وافوا تلك الحجة مع عمر فلما اجتمعوا تشهَّد عبد الرحمن ثم قال: أما بعد، يا علي إني قد نظرت في أمر الناس فلم أرهم يعدلون بعثمان فلا تجعلن على نفسك سبيلاً، فقال لعثمان: أبايعك على سنة الله ورسوله والخليفتين من بعده، فبايعه عبد الرحمن وبايعه الناس والمهاجرون والأنصار وأمراء الأجناد والمسلمون[(٢)].

ومن فضائل عثمان رضي الله عنه الخاصة كونه خَتَنُ رسول الله ﷺ على ابنتيه.

وفي «صحيح مسلم» عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ مضطجعاً في بيته كاشفاً عن فخذيه أو ساقيه فاستأذن أبو بكر فأذن له وهو على تلك الحال فتحدث، ثم استأذن عمر فأذن له وهو كذلك فتحدث، ثم استأذن عثمان فجلس رسول الله ﷺ وسوَّى ثيابه فدخل فتحدث، فلما خرج قالت عائشة: دخل أبو بكر فلم تهتش له

---

(١) أخرجه البخاري (٣٧٠٠).

(٢) أخرجه البخاري (٧٢٠٧).

ولم تباله، ثم دخل عمر فلم تهتش ولم تباله، ثم دخل عثمان فجلست وسويت ثيابك، فقال: (ألا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة)[١].

وفي «الصحيح» لما كان يوم بيعة الرضوان وأن عثمان ﷺ كان قد بعثه النبي ﷺ إلى مكة وكانت بيعة الرضوان بعد ما ذهب عثمان إلى مكة فقال رسول الله ﷺ بيده اليمنى: هذه يد عثمان، فضرب بها على يده فقال: هذه لعثمان[٢].

قوله: ثم لعلي بن أبي طالب ﷺ.

أي وتثبت الخلافة بعد عثمان لعلي ﷺ، لما قتل عثمان وبايع الناس علياً صار إماماً حقاً واجب الطاعة وهو الخليفة في زمانه خلافة نبوة كما دل عليه حديث سفينة المقدم ذكره أنه قال: قال رسول الله ﷺ: (خلافة النبوة ثلاثون سنة ثم يؤتي الله ملكه من يشاء).

وكانت خلافة أبي بكر الصديق سنتين وثلاثة أشهر، وخلافة عمر عشر سنين ونصفاً، وخلافة عثمان اثنتي عشرة سنة، وخلافة علي أربع سنين وتسعة أشهر، وخلافة الحسن ستة أشهر.

وأول ملوك المسلمين معاوية ﷺ، وهو خير ملوك المسلمين، لكنه إنما صار إماماً حقاً لما فوض إليه الحسن بن علي ﷺ الخلافة، فإن الحسن ﷺ بايعه أهل العراق بعد موت أبيه ثم بعد ستة أشهر فوض الأمر إلى معاوية فظهر صدق قول النبي ﷺ: (إن ابني هذا سيد وسيصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين)[٣]. والقصة معروفة في موضعها.

فالخلافة ثبتت لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ بعد عثمان ﷺ بمبايعة الصحابة سوى معاوية مع أهل الشام، والحق مع علي ﷺ، فإن عثمان ﷺ لما قتل كثر الكذب والافتراء على عثمان وعلى من كان بالمدينة من أكابر الصحابة كعلي وطلحة والزبير وعظمت الشبهة عند من لم يعرف الحال وقويت الشهوة في نفوس ذوي الأهواء والأغراض ممن بعدت داره من أهل الشام، ويحمي الله عثمان

---

(١) أخرجه مسلم (٢٤٠١).
(٢) أخرجه البخاري (٣٦٩٥).
(٣) أخرجه البخاري (٢٧٠٤).

أن يظن بالأكابر ظنون سوء ويبلغه عنهم أخبار منها ما هو كذب ومنها ما هو محرف ومنها ما لم يعرف وجهه، وانضم إلى ذلك أهواء أقوام يحبون العلو في الأرض، وكان في عسكر علي ﷺ من أولئك الطغاة الخوارج الذين قتلوا عثمان من لم يعرف بعينه، ومن تنتصر له قبيلته، ومن لم تقم عليه حجة بما فعله، ومن في قلبه نفاق لم يتمكن من إظهاره كله، ورأى طلحة والزبير أنه إن لم ينتصر للشهيد المظلوم ويقمع أهل الفساد والعدوان وإلا استوجبوا غضب الله وعقابه فجرت فتنة الجمل على غير اختيار من علي ولا من طلحة والزبير، وإنما أثارها المفسدون بغير اختيار السابقين، ثم جرت فتنة صِفِّين لرأي وهو أن أهل الشام لم يعدل عليهم أو لا يتمكن من العدل عليهم وهم كافون حتى يجتمع أمر الأمة وأنهم يخافون طغيان من في العسكر كما طغوا على الشهيد المظلوم، وعلي ﷺ هو الخليفة الراشد المهدي الذي تجب طاعته ويجب أن يكون الناس مجتمعين عليه، فاعتقد أن الطاعة والجماعة الواجبتين عليهم تحصل بقتالهم بطلب الواجب عليهم بما اعتقد أنه يحصل به أداء الواجب، ولم يعتقد أن التأليف لهم كتأليف المؤلفة قلوبهم على عهد النبي والخليفتين من بعده مما يسوغ، فحمله ما رآه من أن الدين إقامة الحد عليهم ومنعهم من الإثارة دون تأليفهم على القتال، وقعد عن القتال أكثر الأكابر لما سمعوه من النصوص في الأمر بالقعود في الفتنة، ولما رأوه من الفتنة التي تربو مفسدتها على مصلحتها، ونقول في الجميع بالحسنى: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

والفتن التي كانت في أيامه قد صان الله عنها أيدينا، فنسأل الله أن يصون عنها ألسنتنا بمنته وكرمه.

ومن فضائل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ ما في «الصحيحين» عن سعد بن أبي وقاص ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ لعلي: (أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي)(١).

وقال ﷺ يوم خيبر: (لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله

---

(١) أخرجه البخاري (٣٧٠٦)، ومسلم (٢٤٠٤).

ورسوله، قال: فتطاولنا لها، فقال: ادعوا لي علياً فأتي به أرمد فبصق في عينيه ودفع الراية إليه ففتح الله عليه)[١].

ولما نزلت هذه الآية: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ﴾ [آل عمران: ٦١] دعا رسول الله علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً، فقال: (اللهم هؤلاء أهلي).

قوله: «وهم الخلفاء الراشدون والأئمة المهديون».

تقدم الحديث الثابت في «السنن» وصححه الترمذي عن العرباض بن سارية قال: «وعظنا رسول الله ﷺ موعظة بليغة، ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب، فقال قائل: يا رسول الله! كأن هذه موعظة مودع فماذا تعهد إلينا؟ فقال: أوصيكم بالسمع والطاعة فإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي تمسكوا بها عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة»[٢].

وترتيب الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم أجمعين في الفضل كترتيبهم في الخلافة، ولأبي بكر وعمر رضي الله عنهما من المزية أن النبي ﷺ أمرنا باتباع سنة الخلفاء الراشدين ولم يأمرنا في الاقتداء في الأفعال إلا بأبي بكر وعمر، فقال: اقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر وعمر، وفرق بين اتباع سنتهم والاقتداء بهم، فحال أبي بكر وعمر فوق حال عثمان وعلي رضي الله عنهم أجمعين. وقد روي عن أبي حنيفة تقديم علي على عثمان، ولكن ظاهر مذهبه تقديم عثمان على علي، وعلى هذا عامة أهل السنة.

وقد تقدم قول عبد الرحمن بن عوف لعلي رضي الله عنه: إني قد نظرت في أمر الناس فلم أرهم يعدلون بعثمان.

وقال أيوب السختياني: «من لم يقدم عثمان على علي فقد أزرى بالمهاجرين والأنصار».

وفي «الصحيحين» عن ابن عمر قال: «كنا نقول ورسول الله ﷺ حي أفضل أمة النبي ﷺ بعده أبو بكر ثم عمر ثم عثمان»[٣].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٠٠٩)، ومسلم (٢٤٠٦).
(٢) أخرجه مسلم (٢٤٠٤).
(٣) أخرجه البخاري (٣٦٥٥) قال محقق شرح الطحاوية: الحديث ليس في صحيح مسلم.



عناصر الموضوع:

١ غرض المصنف من عقد هذا الباب:

تقرير معتقد أن أهل السنة والجماعة في الخلافة بعد رسول الله ﷺ ثبتت أولاً لأبي بكر الصديق تفضيلاً له وتقديماً على جميع الصحابة، ثم لعمر، ثم لعثمان، ثم لعلي، وهم الخلفاء الراشدون والأئمة المهتدون.

٢ مناسبة هذا الباب لما سبق:

لما فرغ المصنف من بيان حقوق الصحابة وما يجب لهم من المحبة والولاء إلى غير ذلك من حقوقهم علينا، ناسب أن يبين معتقد أهل السنة والجماعة في الخلافة بعد رسول الله ﷺ.

٣ معاني الكلمات:

الكلمة	المعنى
الخلافة	الخلافة والإمامة العظمى، وإمارة المسلمين.. كلمات ثلاث ذات مدلول واحد وتعرف بأنها: إمارة عامة للمسلمين في مصالحهم الدينية والدنيوية تثبت لشخص واحد منهم بعد رسول الله ﷺ.
العراقي	جمع عرقوة، وهي أعواد يخالف بينها ثم تشد في عرى الدلو ويعلق بها الحبل.
السنح	طرف من أطراف المدينة بعواليها.
محدَّثون	ملهَمون.

٤ معنى كلام الطحاوي: «ونثبت الخلافة بعد رسول الله ﷺ أولاً لأبي بكر الصديق رضي الله عنه، تفضيلاً وتقديماً على جميع الأمة، ثم لعمر بن الخطاب رضي الله عنه، ثم لعثمان رضي الله عنه، ثم لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه، وهم الخلفاء الراشدون والأئمة المهديون»:

ونثبت الخلافة بعد رسول الله ﷺ لأبي بكر الصديق تفضيلاً له وتقديماً على

سائر الأمة، إذ فضّله الرسول ﷺ وقدّمه وألمح إلى خلافته في أحاديث عدة، وهو أولى الأمة بالفضل والتقديم، وقد اتفق المسلمون على بيعته يوم السقيفة، ومن بعده عمر بن الخطاب ؓ حيث استخلفه أبو بكر على الناس، وهما صاحبا رسول الله ﷺ، ومن بعده عثمان بن عفان ذو النورين ؓ زوج ابنتي رسول الله ﷺ، ومن بعده علي بن أبي طالب ؓ زوج فاطمة بنت رسول الله ﷺ، وهؤلاء الأربعة هم الخلفاء الراشدون والأئمة المهتدون الذين أوصى النبي ﷺ باتباع سنتهم.

(٥) وجه إدخال الطحاوي هذه المسألة الفقهية في العقيدة:

لما كان موضوع الخلافة من المواضيع التي خالفت فيها طوائف من أهل البدع القول الحق الذي عليه أهل السنة والجماعة، أدخل هذا البحث في العقيدة لبيان مذهب أهل السنة والجماعة المستقى من النصوص الشرعية، وفي هذا إشارة إلى الرد على المخالفين.

(٦) حكم تنصيب ولي الأمر على المسلمين:

أجمع سلف هذه الأمة وجمهور أهل الطوائف الأخرى من المسلمين على أن تنصيب إمام للمسلمين واجب عقلاً وشرعاً خلافاً لبعض المعتزلة القائلين بأنه لا يجب عقلاً وشرعاً.

أما وجوبه عقلاً: فلأنه لا يتم ما أمره الله به من إقامة الحدود وفصل الخصومات وسد الثغور وما إلى ذلك مما يتعلق بالنظام إلا بتنصيب خليفة للمسلمين... وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب علاوة على أن في تنصيب خليفة للمسلمين جلب مصالح ودفع مضار لا تحصى.

أما وجوبه شرعاً: فقد دل على ذلك الكتاب والسنة والإجماع...

(٧) مكانة الخلفاء الراشدين ووجوب اتباعهم:

عن العرباض بن سارية قال: «وعظنا رسول الله ﷺ موعظة بليغة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب، فقال قائل: يا رسول الله! كأن هذه موعظة مودع، فماذا تعهد إلينا؟ فقال: أوصيكم بالسمع والطاعة فإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي تمسكوا بها عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة».

ففي الحديث حث على اتباعهم والتمسك بهديهم رضوان الله عليهم.

٨ مدة الخلافة الراشدة:

قال رسول الله ﷺ: **(خلافة النبوة ثلاثون سنة ثم يؤتي الله ملكه من يشاء)**.

وكانت خلافة أبي بكر الصديق سنتين وثلاثة أشهر، وخلافة عمر عشر سنين ونصفاً، وخلافة عثمان اثنتي عشرة سنة، وخلافة علي أربع سنين وتسعة أشهر، وخلافة الحسن ستة أشهر.

٩ أولى الناس بالخلافة بعد رسول الله ﷺ:

اختلف علماء الأمة في ذلك على ثلاثة أقوال:

أ ـ فمذهب أهل السنة والجماعة أن أحق الناس بالخلافة بعد رسول الله ﷺ هو أبو بكر الصديق تفضيلاً وتقديماً له على سائر الأمة.

ب ـ مذهب الراوندية نسبة إلى (الراوندي) طائفة نشأت في المشرق لها بدع متعددة ومن ضمنها رأيهم في الخليفة، فذهبوا إلى أن أحق الناس بالخلافة بعد رسول الله هو عمه العباس بن عبد المطلب يقول شاعرهم:

يا أيها الناس لا تعذب قلوبكم ولا يضيعكم إلى أكتافها البدع
العم أولى من ابن العم فاستمعوا قولاً نصيحاً أن الحق يتبع

ج ـ وذهبت الشيعة إلى أن أحق الناس بالخلافة بعده ﷺ هو علي بن أبي طالب رضي الله عنه. وقد اختلفت طوائف الشيعة في أحقية علي رضي الله عنه بالخلافة هل تثبت بالنص عليه من رسول الله ﷺ أم لكونه أفضل من غيره من الصحابة، وقد توفرت فيه الشروط التي تشترط في إمام المسلمين.

الرأي المختار: هو الأول.

١٠ خلافة أبي بكر رضي الله عنه ثابتة بالنص:

اختلف القائلون بأحقية أبي بكر بالخلافة على كيفية ثبوت الخلافة له:

أ ـ قال الحسن البصري وجماعة من أهل الحديث: إنها تثبت بالنص الخفي والإشارة.

ب ـ وقال آخرون: إنها تثبت بالنص الجلي.

ج ـ قال بعض أهل الحديث والمعتزلة والأشاعرة: إنها تثبت بالاختيار.

أدلة كل قول:

أ ـ استدل الأولون بما تأتي:

١ ـ ما روي عنه ﷺ قال: **(لو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا**

بكر خليلاً، لا يبقين في المسجد خوخة إلا سدت إلا خوخة أبي بكر)، قالوا: وفي هذا إشارة إلى أن أبا بكر أفضل الأمة بعد رسول الله. وفي هذا إشارة إلى إمامته بعد رسول الله ﷺ.

٢ ـ ما روي أن النبي ﷺ قال: **(مروا أبا بكر فليصل بالناس)**، فقد صلى أبو بكر بالناس عدة مرات، ففي تقديمه بالإمامة الصغرى إشارة إلى تقديمه في الإمامة الكبرى.

٣ ـ ما روي عن جابر ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **(رأى الليلة رجل صالح أن أبا بكر نيط برسول الله ﷺ ونيط عمر بأبي بكر ونيط عثمان بعمر)**. قال جابر: فلما قمنا من عند رسول الله ﷺ قلنا: أما الرجل الصالح فرسول الله ﷺ، وأما المنوط بعضهم ببعض فهم ولاة الأمر الذي بعث الله به نبيه.

استدل القائلون بأنها تثبت بالنص الجلي بما يأتي:

١ ـ ما أسند البخاري إلى جبير بن مطعم ﷺ قال: **«أتت امرأةٌ النبيَّ ﷺ فأمرها أن ترجع إليه فقالت: يا رسول الله أرأيت أن جئت فلم أجدك؟ ـ كأنها تريد الموت ـ فقال إن لم تجديني فأتي أبا بكر»**... قالوا في الحديث: الحديث صريح على أن أبا بكر سيكون خليفة لرسول الله ﷺ.

٢ ـ ما روي عن عائشة قالت: دخلت على رسول الله في اليوم الذي توفي فيه فقال: **(ادع لي أباك وأخاك حتى أكتب لأبي بكر كتاباً، ثم قال: يأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر)**... وفي بعض الروايات: فلا يطمع في هذا الأمر طامع.

استدل القائلون بأنها تثبت بالاختيار لما يأتي:

١ ـ ما روي عن عبد الله بن عمر ﷺ أنه قال: «قال عمر: إن أستخلف فقد استخلف من هو خير مني يعني أبا بكر، وإن لم أستخلف فلم يستخلف من هو خير مني، يعني رسول الله ﷺ، فقال عبد الله: فعرفت أنه حين ذكر رسول الله لن يستخلف».

٢ ـ ما روي عن عائشة أنها سئلت من كان رسول الله ﷺ مستخلفاً لو استخلف، فهذا يدل على أن رسول الله لم يستخلف.

٣ ـ ما روي عن عبد الله بن مسعود أنه قال: «ما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن، وما رآه المسلمون سيئاً فهو سيء».

الرأي المختار:

الذي يفهم من كلام الشيخ أنه يجعل أن خلافة الصديق تثبت بالنص والذي يظهر ـ والله أعلم ـ أنها تثبت بالاختيار لما يأتي:

أولاً: اختلاف الصحابة بعد وفاته ﷺ فيمن يتولى الأمر من بعده. ولو كان هناك نص ما اختلفوا.

ثانياً: قول أبي بكر رضي الله عنه في سقيفة بني ساعدة: «بايعوا أحد هذين الرجلين عمر بن الخطاب وأبي عبيدة»، ولو كان هناك نص على إمامته لم يقل ذلك.

ثالثاً: أما ما استدل به القائلون بأنها تثبت بالنص فغاية ما ذكروه هو الإخبار والإشارة إلى أنه سيكون خليفة بعد رسول الله ﷺ، وليس فيه تنصيص على أحقيته رضي الله عنه بالخلافة.

١١ ثبوت خلافة عمر رضي الله عنه بتفويض من أبي بكر رضي الله عنه:

وثبتت الخلافة بعد أبي بكر رضي الله عنه لعمر رضي الله عنه وذلك بتفويض أبي بكر الخلافة إليه واتفاق الأمة بعده عليه وفضائله رضي الله عنه أشهر من أن تنكر وأكثر من أن تذكر، فقد روي عن محمد بن الحنيفة أنه قال: قلت لأبي: يا أبت من خير الناس بعد رسول الله ﷺ؟ فقال يا بني أو ما تعرف؟ فقلت لا، قال: أبو بكر، قلت: ثم من؟ قال: عمر، وخشيت أن يقول ثم عثمان فقلت: ثم أنت، فقال: ما أنا إلا رجل من المسلمين.

١٢ ثبوت خلافة عثمان رضي الله عنه بالشورى:

ثبتت الخلافة بعد عمر لعثمان رضي الله عنهما، وقد ساق البخاري رحمه الله قصة قتل عمر رضي الله عنه وأمر الشورى والمبايعة لعثمان في صحيحه، فأحببت أن أسردها كما رواها بسنده عن عمرو بن ميمون قال: رأيت عمر بن الخطاب رضي الله عنه قبل أن يصاب بأيام بالمدينة وقف على حذيفة بن اليمان وعثمان بن حنيف فقال: كيف فعلتما أتخافان أن تكونا قد حملتما الأرض ما لا تطيق، قالا: حملناها أمراً هي له مطيقة ما فيها كبير فضل، قال: أنظرا أن تكونا حملتما الأرض ما لا تطيق، قالا: لا، فقال عمر: لئن سلمني الله لأدعن أرامل أهل العراق لا يحتجن إلى رجل بعدي أبداً، قال: فما أتت عليه إلا أربعة حتى أصيب.

قال: إني لقائم ما بيني وبينه إلا عبد الله بن عباس غداة أصيب وكان إذا مرَّ بين الصفين قال استووا، حتى إذا لم ير فيهن خللاً تقدم فكبر، وربما قرأ سورة

يوسف أو النحل أو نحو ذلك في الركعة الأولى حتى يجتمع الناس، فما هو إلا أن كبر فسمعته يقول: قتلني أو أكلني الكلب حين طعنه، فطار العلج بسكين ذات طرفين لا يمر على أحد يميناً وشمالاً إلا طعنه حتى طعن ثلاثة عشر رجلاً مات منهم سبعة، فلما رأى ذلك رجل من المسلمين طرح عليه برنساً، فلما ظن العلج أنه مأخوذ نحر نفسه وتناول عمر يد عبد الرحمن بن عوف فقدمه، فمن يلي عمر فقد رأى الذي أرى، وأما نواحي المسجد فإنهم لا يدرون غير أنهم قد فقدوا صوت عمر وهم يقولون سبحان الله سبحان الله، فصلى بهم عبد الرحمن صلاة خفيفة، فلما انصرفوا قال: يا ابن عباس انظر من قتلني؟ فجال ساعة ثم جاء فقال: غلام المغيرة، قال: الصنع؟ قال: نعم، قال: قاتله الله، لقد أمرت به معروفاً، الحمد لله الذي لم يجعل منيتي على يد رجل يدعي الإسلام، قد كنت أنت وأبوك تحبان أن تكثر العلوج بالمدينة، وكان العباس أكثرهم رقيقاً فقال: إن شئت فعلت أي إن شئت قتلنا، قال: كذبت بعد ما تكلموا بلسانكم وصلوا قبلتكم وحجوا حجكم، فاحتمل إلى بيته فانطلقنا معه وكأن الناس لم تصبهم مصيبة قبل يومئذٍ، فقائل يقول: لا بأس عليه، وقائل يقول: أخاف عليه، فأتى بنبيذ فشربه فخرج من جوفه، ثم أتي بلبن فشربه فخرج من جوفه فعرفوا أنه ميت.

فدخلنا عليه وجاء الناس يثنون عليه وجاء رجل شاب، فقال: أبشر يا أمير المؤمنين ببشرى الله لك من صحبة رسول الله وقدم في الإسلام ما قد علمت، ثم وليت فعدلت ثم شهادة، قال: وددت أن ذلك كفاف لا علي ولا لي، فلما أدبر إذا إزاره يمس الأرض قال: ردوا علي الغلام، قال: يا ابن أخي ارفع ثوبك فإنه أنقى لثوبك وأتقى لربك، يا عبد الله بن عمر انظر ما عليَّ من الدين فحسبوه فوجدوه ستة وثمانين ألفاً أو نحوه، قال: إن وفى له مال آل عمر فأده من أموالهم وإلا فسل في بني عدي بن كعب، فإن لم تف أموالهم فسل في قريش ولا تعدهم إلى غيرهم فأد عني هذا المال، انطلق إلى عائشة أم المؤمنين فقل يقرأ عليك عمر السلام ولا تقل أمير المؤمنين فإني لست اليوم للمؤمنين أميراً، وقل يستأذن عمر بن الخطاب أن يدفن مع صاحبيه، فسلَّم واستأذن ثم دخل عليها فوجدها قاعدة تبكي فقال: يقرأ عليك عمر بن الخطاب السلام ويستأذن أن يدفن مع صاحبيه، فقالت: كنت أريده لنفسي ولأوثرن به اليوم على نفسي، فلما أقبل قيل هذا عبد الله بن عمر قد جاء، قال: ارفعوني، فأسنده رجل إليه، قال: ما لديك؟ قال: الذي تحب يا أمير المؤمنين أذنت، قال: الحمد لله ما كان شيء أهم إلي

من ذلك، فإذا أنا قضيت فاحملوني ثم سلم فقل يستأذن عمر بن الخطاب فإن أذنت لي فأدخلوني وإن ردتني فردوني إلى مقابر المسلمين. وجاءت أم المؤمنين حفصة والنساء يسترنها فلما رأيناها قمنا فولجت عليه فبكت عنده ساعة، واستأذن الرجال فولجت داخلاً لهم فسمعنا بكاءها من الداخل، فقالوا: أوص يا أمير المؤمنين، استخلف، قال: ما أجد أحق بهذا الأمر من هؤلاء النفر أي الرهط الذين توفي رسول الله وهو عنهم راض، فسمى علياً وعثمان والزبير وطلحة وسعداً وعبد الرحمن وقال يشهدكم عبد الله بن عمر وليس له من الأمر شيء كهيئة التعزية له، فإن أصابت الإمارة سعداً فهو ذاك وإلا فليستعن به أيكم ما أمر فإني لم أعزله من عجز ولا خيانة.

وقال: أوصي الخليفة من بعدي بالمهاجرين الأولين أن يعرف لهم حقهم ويحفظ لهم حرمتهم، وأوصيه بالأنصار خيراً الذين تبوؤوا الدار والإيمان من قبلهم أن يقبل من محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم، وأوصيه بأهل الأمصار خيراً فإنهم ردء الإسلام وجباة الأموال وغيظ العدو وأن لا يأخذ منهم إلا فضلهم عن رضاهم، وأوصيه بالأعراب خيراً فإنهم أصل العرب ومادة الإسلام أن يأخذ من حواشي أموالهم وأن ترد على فقرائهم، وأوصيه بذمة الله وذمة رسوله أن يوفى لهم بعدهم وأن يقاتل من ورائهم ولا يكلفوا إلا طاقتهم.

فلما قبض خرجنا به فانطلقنا نمشي فسلم عبد الله بن عمر قال: يستأذن عمر بن الخطاب، قالت: أدخلوه فأدخل، فوضع هنالك مع صاحبيه، فلما فرغ من دفنه اجتمع هؤلاء الرهط فقال عبد الرحمن: اجعلوا أمركم إلى ثلاثة منكم، قال الزبير: قد جعلت أمري إلى علي، فقال طلحة: قد جعلت أمري إلى عثمان، وقال سعد: قد جعلت أمري إلى عبد الرحمن بن عوف، فقال عبد الرحمن: أيكما تبرأ من هذا الأمر فنجعله إليه والله عليه والإسلام لينظرن أفضلهم في نفسه فأسكت الشيخان، فقال عبد الرحمن: أفتجعلونه إلي والله علي أن لا آلو عن أفضلكم؟ قالا: نعم، فأخذ بيد أحدهما فقال: لك قرابة من رسول الله والقدم في الإسلام ما قد علمت، فالله عليك لئن أمرتك لتعدلن ولئن أمرت عثمان لتسمعن وتطيعن، ثم خلا بالآخر فقال له مثل ذلك، فلما أخذ الميثاق قال: ارفع يدك يا عثمان فبايعه، فبايع له علي وولج أهل الدار فبايعوه.

١٣ ثبوت خلافة علي لما قتل عثمان:

ثبتت الخلافة بعد عثمان لعلي ﷺ لما قتل عثمان وبايع الناس علياً صار إماماً حقاً واجب الطاعة وهو الخليفة في زمانه خلافة نبوة كما دل عليه حديث سفينة المقدم ذكره أنه قال: قال رسول الله ﷺ: **(خلافة النبوة ثلاثون سنة ثم يؤتي الله ملكه من يشاء)**. قال النووي في شرح مسلم: وأما ما تدعيه الشيعة من النص[(١)] على علي والوصية إليه فباطل لا أصل له باتفاق المسلمين والاتفاق على بطلان دعواهم من زمن علي وأول من كذبهم عليّ ﷺ بقوله: «ما عندنا إلا ما في هذه الصحيفة» ولو كان عنده نص لذكره ولم ينقل أنه ذكره في يوم من الأيام»[(٢)].

١٤ المفاضلة بين عثمان وعلي:

لخص شيخ الإسلام ابن تيمية مذهب أهل السنة في المفاضلة بين عثمان وعلي بقول: «ويقرون بما تواتر به النقل عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ وعن غيره من أن خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر، ويثلثون بعثمان، ويربِّعون بعلي ﷺ كما دلت عليه الآثار، وكما أجمع الصحابة ﷺ على تقديم عثمان في البيعة، مع أن بعض أهل السنة كانوا قد اختلفوا في عثمان وعلي ﷺ بعد اتفاقهم على تقديم أبي بكر وعمر أيهما أفضل، فقدم قوم عثمان وسكتوا أو ربَّعوا بعلي، وقدم قوم علياً، وقوم توقفوا، لكن استقر أمر أهل السنة على تقديم عثمان وإن كانت هذه المسألة مسألة عثمان وعلي ليست من الأصول التي يضلل المخالف فيها عند جمهور أهل السنة، لكن المسألة التي يضلل المخالف فيها هي مسألة الخلافة؛ وذلك أنهم يؤمنون بأن الخليفة بعد رسول الله ﷺ أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي، ومن طعن في خلافة أحد من هؤلاء الأئمة فهو أضل من حمار أهله»[(٣)].

١٥ موقف المسلم من الفتنة التي وقعت بين الصحابة:

فالخلافة ثبتت لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ بعد عثمان ﷺ بمبايعة الصحابة سوى معاوية مع أهل الشام والحق مع علي ﷺ، فإن

---

(١) وقد ذهب جماعة من الراوندية أن النبي (ﷺ) نص على العباس بعينه واسمه وأن الأمة جحدث هذا النص، انظر: منهاج السنّة (١/ ٥٠٠).

(٢) شرح مسلم (١٥/ ١٦٤).

(٣) مجموع الفتاوى (٣/ ١٥٣).

عثمان ﷺ لما قتل كثر الكذب والافتراء على عثمان وعلى من كان بالمدينة من أكابر الصحابة كعلي وطلحة والزبير، وعظمت الشبهة عند من لم يعرف الحال وقويت الشهوة في نفوس ذوي الأهواء والأغراض ممن بعدت داره من أهل الشام، ويحمي الله عثمان أن يظن بالأكابر ظنون سوء ويبلغه عنهم أخبار منها ما هو كذب ومنها ما هو محرف، ومنهما ما لم يعرف وجهه، وانضم إلى ذلك أهواء أقوام يحبون العلو في الأرض. وكان في عسكر علي ﷺ من أولئك الطغاة الخوارج الذين قتلوا عثمان من لم يعرف بعينه، ومن تنتصر له قبيلته، ومن لم تقم عليه حجة بما فعله، ومن في قلبه نفاق لم يتمكن من إظهاره كله، ورأى طلحة والزبير أنه إن لم ينتصر للشهيد المظلوم ويقمع أهل الفساد والعدوان وإلا استوجبوا غضب الله وعقابه فجرت فتنة الجمل على غير اختيار من علي ولا من طلحة والزبير، وإنما أثارها المفسدون بغير اختيار السابقين، ثم جرت فتنة صفين لرأي وهو أن أهل الشام لم يعدل عليهم أو لا يتمكن من العدل عليهم وهم كافون حتى يجتمع أمر الأمة، وأنهم يخافون طغيان من في العسكر كما طغوا على الشهيد المظلوم وعلي ﷺ هو الخليفة الراشد المهدي الذي تجب طاعته ويجب أن يكون الناس مجتمعين عليه، فاعتقد أن الطاعة والجماعة الواجبتين عليهم تحصل بقتالهم بطلب الواجب عليهم بما اعتقد أنه يحصل به أداء الواجب، ولم يعتقد أن التأليف لهم كتأليف المؤلفة قلوبهم على عهد النبي والخليفتين من بعده مما يسوغ، فحمله ما رآه من أن الدين إقامة الحد عليهم ومنعهم من الإثارة دون تأليفهم على القتال وقعد عن القتال أكثر الأكابر لما سمعوه من النصوص في الأمر بالقعود في الفتنة ولما رأوه من الفتنة التي تربو مفسدتها على مصلحتها ونقول في الجميع بالحسنى: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

والفتن التي كانت في أيامه قد صان الله عنها أيدينا، فنسأل الله أن يصون عنها ألسنتنا بمنته وكرمه.

(١٦) الخلاصة:

١ ـ إن الخلافة بعد رسول الله ﷺ لأبي بكر الصديق تفضيلاً له وتقديماً على سائر الأمة، إذ فضّله الرسول ﷺ وقدمه وألمح إلى خلافته في أحاديث

عدة، وهو أولى الأمة بالفضل والتقديم، وقد اتفق المسلمون على بيعته يوم السقيفة، ومن بعده عمر بن الخطاب رضي الله عنه حيث استخلفه أبو بكر على الناس، وهما صاحبا رسول الله ﷺ، ومن بعده عثمان بن عفان ذو النورين رضي الله عنه زوج ابنتي رسول الله ﷺ، ومن بعده علي بن أبي طالب رضي الله عنه زوج فاطمة بنت رسول الله ﷺ، وهؤلاء الأربعة هم الخلفاء الراشدون والأئمة المهتدون الذين أوصى النبي ﷺ باتباع سنتهم.

٢ ـ أجمع سلف هذه الأمة وجمهور أهل الطوائف الأخرى من المسلمين على أن تنصيب إمام للمسلمين واجب عقلاً وشرعاً خلافاً لبعض المعتزلة القائلين بأنه لا يجب عقلاً وشرعاً.

٣ ـ كانت خلافة أبي بكر الصديق سنتين وثلاثة أشهر، وخلافة عمر عشر سنين ونصفاً، وخلافة عثمان اثنتي عشرة سنة، وخلافة علي أربع سنين وتسعة أشهر، وخلافة الحسن ستة أشهر. فمجمل ذلك ثلاثون سنة.

٤ ـ أولى الناس بالخلافة بعد رسول الله ﷺ هو أبو بكر الصديق تفضيلاً له وتقديماً له على سائر الأمة.

٥ ـ ثبتت الخلافة بعد أبي بكر رضي الله عنه لعمر رضي الله عنه وذلك بتفويض أبي بكر الخلافة إليه واتفاق الأمة بعده عليه.

٦ ـ ثبتت الخلافة بعد عمر لعثمان رضي الله عنهما وذلك بالشورى.

٧ ـ ثبتت الخلافة بعد عثمان لعلي رضي الله عنهما لما قتل عثمان وبايع الناس علياً صار إماماً حقاً واجب الطاعة وهو الخليفة في زمانه خلافة نبوة.

٨ ـ أجمع الصحابة رضي الله عنهم على تقديم عثمان في البيعة مع أن بعض أهل السنة كانوا قد اختلفوا في عثمان وعلي رضي الله عنهما بعد اتفاقهم على تقديم أبي بكر وعمر أيهما أفضل، فقدم قوم عثمان وسكتوا أو ربَّعوا بعلي، وقدم قوم علياً، وقوم توقفوا، لكن استقر أمر أهل السنة على تقديم عثمان.

٩ ـ الواجب على المسلم تجاه الفتنة التي وقعت بين الصحابة أن يقول: تلك فتن قد صان الله عنها أيدينا فنسأل الله أن يصون عنها ألسنتنا بمنته وكرمه.

١٧ المناقشة:

• **س١:** بيّن معنى كلام الطحاوي: «ونثبت الخلافة بعد رسول الله ﷺ أولاً لأبي بكر الصديق رضي الله عنه، تفضيلاً وتقديماً على جميع الأمة، ثم لعمر بن

الخطاب رضي الله عنه، ثم لعثمان رضي الله عنه، ثم لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه، وهم الخلفاء الراشدون والأئمة المهديون».

- **س٢:** ما وجه إدخال الطحاوي هذه المسألة الفقهية في العقيدة؟
- **س٣:** ما مناسبة هذا المبحث لما سبق؟
- **س٤:** ما حكم تنصيب ولي الأمر على المسلمين؟ وضح مع التدليل.
- **س٥:** بيّن مكانة الخلفاء الراشدين ووجوب اتباعهم.
- **س٦:** كم مدة الخلافة الراشدة؟
- **س٧:** من أولى الناس بالخلافة بعد رسول الله ﷺ؟ اذكر الخلاف، وبيّن القول الراجح بالأدلة.
- **س٨:** هل خلافة أبي بكر رضي الله عنه ثابتة بالنص؟
- **س٩:** كيف ثبتت خلافة عمر رضي الله عنه؟
- **س١٠:** كيف ثبتت خلافة عثمان رضي الله عنه؟
- **س١١:** كيف ثبتت خلافة علي رضي الله عنه؟
- **س١٢:** اذكر الوجه الحق في مسألة المفاضلة بين عثمان وعلي.
- **س١٣:** ما موقف المسلم من الفتنة التي وقعت بين الصحابة؟

العشرة المبشرون بالجنة

❊ **كلام ابن أبي العز:**

١ ـ غرض المصنف من عقد هذا الباب.

٢ ـ مناسبة هذا الباب لما سبق.

٣ ـ معاني الكلمات.

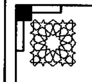
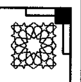
٤ ـ معنى كلام الطحاوي: «وأن العشرة الذين سماهم رسول الله وبشرهم بالجنة نشهد لهم بالجنة على ما شهد لهم رسول الله وقوله الحق وهم: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير وسعد وسعيد وعبد الرحمن بن عوف وأبو عبيدة بن الجراح وهو أمين هذه الأمة رضي الله عنهم أجمعين».

٥ ـ أفضل الصحابة المبشرين بالجنة.

٦ ـ الأدلة على فضل العشرة المبشرين بالجنة.

٧ ـ الخلاصة.

٨ ـ المناقشة.

العشرة المبشرون بالجنة.

قال ابن أبي العز:

قوله: «وأن العشرة الذين سماهم رسول الله وبشرهم بالجنة نشهد لهم بالجنة على ما شهد لهم رسول الله، وقوله الحق وهم: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير وسعد وسعيد وعبد الرحمن بن عوف وأبو عبيدة بن الجراح، وهو أمين هذه الأمة ﷺ أجمعين».

تقدم ذكر بعض فضائل الخلفاء الأربعة، ومن فضائل الستة الباقين من العشرة ﷺ أجمعين ما رواه مسلم عن عائشة ﵂: «أرق رسول الله ﷺ ذات ليلة فقال: ليت رجلاً صالحاً من أصحابي يحرسني الليلة، قالت: وسمعنا صوت السلاح، فقال النبي ﷺ: من هذا؟ فقال: سعد بن أبي وقاص يا رسول الله، جئت أحرسك[1]، وفي لفظ آخر: وقع في نفسي خوف على رسول الله ﷺ فجئت أحرسه، فدعا له رسول الله ﷺ ثم نام».

وفي «الصحيحين» أن رسول الله ﷺ جمع لسعد بن أبي وقاص أبويه يوم أحد فقال: (اِرم فداك أبي وأمي)[2].

وفي «صحيح مسلم» عن قيس بن أبي حازم قال: «رأيت يد طلحة التي وقى بها النبي يوم أحد قد شلت»[3].

وفيه أيضاً عن أبي عثمان النهدي قال: «لم يبق مع رسول الله ﷺ في بعض تلك الأيام التي قاتل فيها النبي ﷺ غير طلحة وسعد»[4].

وفي «الصحيحين» واللفظ لمسلم عن جابر بن عبد الله قال: ندب رسول الله ﷺ

(١) أخرجه البخاري (٢٨٨٥)، ومسلم (٢٤١٠).
(٢) أخرجه البخاري (٢٩٠٥)، ومسلم (٢٤١١).
(٣) أخرجه البخاري (٣٧٢٤) قال محقق شرح الطحاوية العدني «دون مسلم».
(٤) أخرجه البخاري (٣٧٢٢)، ومسلم (٢٤١٤).

الناس يوم الخندق فانتدب الزبير ثم ندبهم فانتدب الزبير، فقال النبي ﷺ: (لكل نبي حواري وحواريي الزبير)[١].

وفيهما أيضاً عن الزبير رضي الله عنه: «أن النبي ﷺ قال: من يأتي بني قريظة فيأتيني بخبرهم، فانطلقت، فلما رجعت جمع لي رسول الله ﷺ أبويه فقال: فداك أبي وأمي»[٢].

وفي «صحيح مسلم» عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لكل أمة أميناً وإن أميننا أيتها الأمة أبو عبيدة ابن الجراح»[٣].

وفي «الصحيحين» عن حذيفة بن اليمان قال: «جاء أهل نجران إلى النبي ﷺ فقالوا: يا رسول الله، ابعث إلينا رجلاً أميناً، فقال: لأبعثن إليكم رجلاً أميناً حق أمين، قال: فاستشرف لها الناس، قال: فبعث أبا عبيدة ابن الجراح»[٤].

وعن سعيد بن زيد رضي الله عنه قال: أشهد على رسول الله ﷺ أني سمعته يقول: (عشرة في الجنة: النبي في الجنة، وأبو بكر في الجنة، وعمر في الجنة، وعثمان في الجنة، وعلي في الجنة، وطلحة في الجنة، والزبير في الجنة، وسعد بن مالك في الجنة، وعبد الرحمن بن عوف في الجنة، ولو شئت لسميت العاشر، قال: فقالوا: من هو؟ قال: سعيد بن زيد، وقال: لمشهد رجل منهم مع رسول الله ﷺ يغبر منه وجهه خير من عمل أحدكم ولو عُمِّرَ عُمرَ نوح)[٥]، رواه أبو داود وابن ماجه والترمذي وصححه، ورواه الترمذي عن عبد الرحمن بن عوف.

وعن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (أبو بكر في الجنة وعمر في الجنة وعلي في الجنة وعثمان في الجنة وطلحة في الجنة والزبير بن العوام في الجنة وعبد الرحمن بن عوف في الجنة وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل في الجنة وأبو عبيدة بن الجراح في الجنة)، رواه الإمام أحمد في مسنده، ورواه أبو بكر بن أبي خيثمة وقدم فيه عثمان على علي رضي الله عنهما.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٨٤٦)، ومسلم (٢٤١٥).
(٢) أخرجه البخاري (٣٧٢٠)، ومسلم (٢٤١٦).
(٣) أخرجه البخاري (٣٧٤٤)، ومسلم (٢٤١٩).
(٤) أخرجه البخاري (٣٧٤٥)، ومسلم (٢٤٢٠).
(٥) أخرجه أبو داود (٤٦٤٩)، والترمذي (٣٧٤٨)، وابن ماجه (١٣٣).

وعن أبي هريرة ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ على حراء هو وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير فتحركت الصخرة، فقال رسول الله: (اهدأ فما عليك إلا نبي أو صديق أو شهيد)[١]، رواه مسلم والترمذي وغيرهما وروي من طرق.

وقد اتفق أهل[٢] السنة على تعظيم هؤلاء العشرة وتقديمهم لما اشتهر من فضائلهم ومناقبهم، ومن أجهل ممن يكره التكلم بلفظ العشرة[٣] أو فعل شيء يكون عشرة لكونهم يبغضون خيار الصحابة وهم العشرة المشهود لهم بالجنة وهم يستثنون منهم علياً ﷺ، فمن العجب أنهم يوالون لفظ التسعة وهم يبغضون التسعة من العشرة ويبغضون سائر المهاجرين والأنصار من السابقين الأولين الذين بايعوا رسول الله تحت الشجرة وكانوا ألفاً وأربعمائة وقد رضي الله عنهم كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ١٨].

ثبت في «صحيح مسلم» عن جابر ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة»[٤].

وثبت في «صحيح مسلم» أيضاً عن جابر (أن غلام حاطب بن أبي بلتعة قال: يا رسول الله ليدخلن حاطب النار، فقال رسول الله ﷺ: كذبت لا يدخلها فإنه شهد بدراً والحديبية)[٥].

والرافضة يتبرؤون من جمهور هؤلاء: بل يتبرؤون من سائر أصحاب رسول الله ﷺ إلا من نفر قليل نحو بضعة عشر نفراً، ومعلوم أنه لو فرض في العالم عشرة من أكفر الناس لم يهجر هذا الاسم لذلك، كما أنه سبحانه لما قال: ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [النمل: ٤٨] لم يجب هجر اسم التسعة مطلقاً بل اسم العشرة قد مدح الله مسمّاه في مواضع من القرآن: ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ [البقرة: ١٩٦] ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ﴾ [الأعراف: ١٤٢] ﴿وَالْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾﴾ [الفجر: ١، ٢]، وكان ﷺ يعتكف العشر الأواخر من رمضان.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٤١٧)، والترمذي (٣٦٩٦).
(٢) انظر: منهاج السنّة (٢/ ٥٠١).
(٣) انظر: منهاج السنّة (١/ ٣٨ ـ ٤١).
(٤) سبق تخريجه.
(٥) أخرجه مسلم (٢٤٩٥).

وقال في ليلة القدر: (التمسوها في العشر الأواخر من رمضان)[١].

وقال: (ما من أيام العمل الصالح فيهن أحب إلى الله من أيام العشر)[٢] يعني عشر ذي الحجة.

والرافضة توالي بدل[٣] العشرة المبشرين بالجنة اثني عشر إماماً أولهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه ويدعون أنه وصي النبي ﷺ، دعوى مجردة عن الدليل، ثم الحسن رضي الله عنه، ثم الحسين رضي الله عنه، ثم علي بن الحسين زين العابدين، ثم محمد بن علي الباقر، ثم جعفر بن محمد الصادق، ثم موسى بن جعفر الكاظم، ثم علي بن موسى الرضى، ثم محمد بن علي الجواد، ثم علي بن محمد، ثم الحسن بن علي العسكري، ثم محمد بن الحسن، ويغالون في محبتهم ويتجاوزون الحد ولم يأت ذكر الأئمة الاثني عشر إلا على صفة ترد قولهم وتبطله، وهو ما خرجاه في «الصحيحين» عن جابر بن سمرة قال: دخلت مع أبي على النبي ﷺ فسمعته يقول: (لا يزال أمر الناس ماضياً ما وليهم اثنا عشر رجلاً)[٤]، ثم تكلم النبي ﷺ بكلمة خفيت علي فسألت أبي ماذا قال النبي ﷺ؟ قال كلهم من قريش.

وفي لفظ: (لا يزال الإسلام عزيزاً إلى اثني عشر خليفة).

وفي لفظ: (لا يزال هذا الأمر عزيزاً إلى اثني عشر خليفة)[٥].

وكان الأمر كما قال النبي ﷺ، والاثنا عشر الخلفاء: الراشدون الأربعة، ومعاوية، وابنه يزيد، وعبد الملك بن مروان وأولاده الأربعة، وبينهم عمر بن عبد العزيز، ثم أخذ الأمر في الانحلال.

وعند الرافضة أن أمر الأئمة لم يزل في أيام هؤلاء فاسداً منغصاً يتولى عليهم الظالمون المعتدون بل المنافقون الكافرون، وأهل الحق أذل من اليهود، وقولهم ظاهر البطلان، بل لم يزل الإسلام عزيزاً في ازدياد في أيام هؤلاء الاثني عشر.

---

(١) أخرجه البخاري (٢١٠٩)، ومسلم (١١٦٩).

(٢) أخرجه البخاري (٩٦٩).

(٣) انظر: منهاج السنّة (٨/ ٢٣٨).

(٤) أخرجه البخاري (٧٢٢٢)، ومسلم (١٨٢١).

(٥) أخرجه البخاري (٧٢٢٢)، ومسلم (١٨٢١) واللفظ لمسلم.



عناصر الموضوع:

١ غرض المصنف من عقد هذا الباب:

أ ـ تقرير عقيدة أهل السنة والجماعة في الشهادة بالجنة لمن شهد لهم الرسول ﷺ بالجنة، ومن لم يشهد له بالجنة لا نشهد له بالجنة، ونشهد بالجنة للمؤمنين على العموم، أما التعيين فلا نشهد إلا لمن شهد له الرسول ﷺ كالعشرة المبشرين بالجنة وأصحاب بدر وأصحاب بيعة الرضوان.

٢ مناسبة هذا الباب لما سبق:

لما فرغ المصنف من بيان معتقد أهل السنة والجماعة في الخلافة بعد رسول الله ﷺ، ناسب أن يبين عقيدة أهل السنة والجماعة في الشهادة بالجنة لمن شهد لهم رسول الله ﷺ وهم العشرة المبشرون بالجنة، ومن جملتهم الخلفاء الراشدون المهديون.

٣ معاني الكلمات:

الكلمة	المعنى
البشارة	ما بشرت به من أمر خير أو شر(١).

٤ معنى كلام الطحاوي: «وأن العشرة الذين سماهم رسول الله وبشرهم بالجنة نشهد لهم بالجنة على ما شهد لهم رسول الله، وقوله الحق وهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير وسعد وسعيد وعبد الرحمن بن عوف وأبو عبيدة بن الجراح وهو أمين هذه الأمة رضي الله عنهم أجمعين»:

نؤمن بأن النبي ﷺ قد بشر عشرة من أصحابه بالجنة صراحة كما جاء الحديث بذلك، فذكر العشرة المذكورين آنفاً، فنحن نؤمن بذلك، ونؤمن أن الرسول ﷺ قد بشر غيرهم على ما ثبت في الأحاديث الصحيحة.

---

(١) انظر: تهذيب اللغة (١/٣٣٨).

وخالفت الرافضة في الشهادة بالجنة لمن شهد لهم الرسول بالجنة فالرافضة يتبرؤون من جمهور الصحابة إلا من نفر قليل من الصحابة وتوالي بدل العشرة المبشرين أثني عشر إماماً ويغالون في محبتهم.

٥ أفضل الصحابة المبشرين بالجنة:

اتفق أهل السنة على تعظيم هؤلاء العشرة - وهم أبو بكر عمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير وسعد وسعيد وعبد الرحمن بن عوف وأبو عبيدة بن الجراح وهو أمين هذه الأمة ﷺ أجمعين - وتقديمهم لما اشتهر من فضائلهم ومناقبهم، ومن أجهل ممن يكره التكلم بلفظ العشرة أو فعل شيء يكون عشرة لكونهم يبغضون خيار الصحابة وهم العشرة المشهود لهم بالجنة وهم يستثنون منهم علياً ﷺ، فمن العجب أنهم يوالون لفظ التسعة وهم يبغضون التسعة من العشرة ويبغضون سائر المهاجرين والأنصار من السابقين الأولين الذين بايعوا رسول الله تحت الشجرة وكانوا ألفاً وأربعمائة، وقد ﷺ كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ١٨].

٦ الأدلة على فضل العشرة المبشرين بالجنة:

عن سعيد بن زيد ﷺ قال: «أشهد على رسول الله ﷺ أني سمعته يقول: (عشرة في الجنة: النبي في الجنة وأبو بكر في الجنة وطلحة في الجنة وعمر في الجنة وعثمان في الجنة وعلي في الجنة وطلحة في الجنة والزبير في الجنة وسعد بن مالك في الجنة وعبد الرحمن بن عوف في الجنة) ولو شئت لسميت العاشر، قال: فقالوا: من هو؟ قال: سعيد بن زيد، وقال: لمشهد رجل منهم مع رسول الله ﷺ يغبر منه وجهه خير من عمل أحدكم ولو عُمِّرَ عُمرَ نوح».

وعن عبد الرحمن بن عوف ﷺ، أن النبي ﷺ قال: **(أبو بكر في الجنة وعمر في الجنة وعلي في الجنة وعثمان في الجنة وطلحة في الجنة والزبير بن العوام في الجنة وعبد الرحمن بن عوف في الجنة وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل في الجنة وأبو عبيدة بن الجراح في الجنة).**

٧ الرافضة يتبرؤون من العشرة المبشرين بالجنة:

الرافضة يتبرؤون من العشرة المبشرين بالجنة ما عدا علي بن أبي طالب ﷺ والرافضة توالي بدل العشرة المبشرين بالجنة اثني عشر إماماً ويغالون في محبتهم ويتجاوزن الحد في ذلك وتبطل عقيدتهم تلك ما رواه البخاري ومسلم عن

جابر بن سمرة قال: سمعت النبي (ﷺ) يقول: «لا يزال هذا الأمر عزيزاً إلى اثني عشر خليفة»[(١)(٢)] قال الحافظ ابن حجر في الفتح (١٣/ ٢٦٣): «والذي وقع أن الناس اجتمعوا على أبي بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي، إلى أن وقع أمر الحكمين في صفين فسمي معاوية يومئذٍ بالخلافة ثم اجتمع الناس على معاوية عند صلح الحسن ثم اجتمعوا على ولده يزيد ولم ينتظم للحسين أمر، بل قُتل قبل ذلك ثم لما مات يزيد وقع الاختلاف إلى أن اجتمعوا على عبد الملك بن مروان بعد قتل ابن الزبير ثم اجتمعوا على أولاده الأربعة: الوليد ثم سليمان ثم يزيد ثم هشام وتخلل بين سليمان ويزيد عمر بن عبد العزيز فهؤلاء سبعة بعد الخلفاء الراشدين والثاني عشر هو الوليد بن يزيد بن عبد الملك اجتمع الناس عليه لما مات عمه هشام. . . ولم يتفق أن يجتمع الناس على خليفة بعد ذلك»

(٨) الخلاصة:

١ - يؤمن أهل السنة والجماعة بأن النبي ﷺ قد بشر عشرة من أصحابه بالجنة صراحة كما جاء الحديث بذلك.

٢ - اتفق أهل السنة على تعظيم هؤلاء العشرة - وهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير وسعد وسعيد وعبد الرحمن بن عوف وأبو عبيدة بن الجراح وهو أمين هذه الأمة رضي الله عنهم أجمعين - وتقديمهم لما اشتهر من فضائلهم ومناقبهم.

٣ - جاءت الأدلة الصريحة بفضل العشرة المبشرين بالجنة.

(٩) المناقشة:

- **س١:** بيّن معنى كلام الطحاوي: «وأن العشرة الذين سماهم رسول الله وبشرهم بالجنة نشهد لهم بالجنة على ما شهد لهم رسول الله وقوله الحق وهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير وسعد وسعيد وعبد الرحمن بن عوف وأبو عبيدة بن الجراح وهو أمين هذه الأمة رضي الله عنهم أجمعين».
- **س٢:** من هم أفضل الصحابة؟
- **س٣:** اذكر الأدلة على فضل العشرة المبشرين بالجنة؟

---

(١) أخرجه البخاري (٧٢٢٢)، ومسلم (١٨٢١)، واللفظ لمسلم.

(٢) انظر: منهاج السنّة (٨/ ٢٣٨).

ما يجب على المسلم
تجاه أصحاب رسول الله ﷺ وأزواجه

❋ كلام ابن أبي العز:

١ ـ غرض المصنف من عقد هذا الباب.

٢ ـ مناسبة هذا الباب لما سبق.

٣ ـ معاني الكلمات.

٤ ـ معنى كلام الطحاوي: «ومن أحسن القول في أصحاب رسول الله وأزواجه الطاهرات من كل دنس وذرياته المقدسين من كل رجس فقد برئ من النفاق».

٥ ـ المراد بأهل البيت.

٦ ـ أدلة فضل أهل البيت.

٧ ـ الوصية بأهل البيت.

٨ ـ موقف أهل السنة والجماعة من أهل البيت.

٩ ـ حكم الغلو في أهل البيت.

١٠ ـ الرد على ابن حزم في دعواه تفضيل أزواج النبي ﷺ على العشرة المبشرين بالجنة.

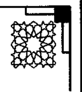
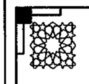
١١ ـ الواجب على المسلم تجاه الصحابة رضي الله عنهم.

١٢ ـ أول من أظهر مذهب الرفض.

١٣ ـ الرافضة ستار للزندقة.

١٤ ـ الخلاصة.

١٥ ـ المناقشة.

ما يجب على المسلم تجاه أصحاب رسول الله ﷺ وأزواجه

قال ابن أبي العز:

قوله: «ومن أحسن القول في أصحاب رسول الله وأزواجه الطاهرات من كل دنس وذرياته المقدسين من كل رجس فقد برئ من النفاق».

تقدم بعض ما ورد في الكتاب والسنة من فضائل الصحابة رضي الله عنهم.

وفي «صحيح مسلم» عن زيد بن أرقم قال: قام فينا رسول الله ﷺ خطيباً بماء يدعى خُمّاً بين مكة والمدينة، فقال: (أما بعد ألا أيها الناس فإنما أنا بشر يوشك أن يأتي رسول ربي فأجيب، وأنا تارك فيكم ثقلين أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به، فحث على كتاب الله ورغَّب فيه، ثم قال: وأهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي ثلاثاً)[1].

وخرج البخاري عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: «ارقبوا محمداً في أهل بيته»[2].

وإنما قال الشيخ رحمه الله: فقد برئ من النفاق لأن أصل الرفض[3] إنما أحدثه منافق زنديق قصده إبطال دين الإسلام والقدح في الرسول ﷺ كما ذكر ذلك العلماء، فإن عبد الله بن سبأ لما أظهر الإسلام أراد أن يفسد دين الإسلام بمكره وخبثه كما فعل بولس بدين النصرانية فأظهر التنسك، ثم أظهر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى سعى في فتنة عثمان وقتله، ثم لما قدم علي الكوفة أظهر الغلو في علي والنصر له ليتمكن بذلك من أغراضه، وبلغ ذلك علياً فطلب قتله

(١) أخرجه مسلم (٢٤٠٨).
(٢) أخرجه البخاري (٣٧١٣).
(٣) انظر: منهاج السنّة (٨/٤٧٨).

فهرب منه إلى قرقيس وخبره معروف في التاريخ[١].

وتقدم أن من فضله على أبي بكر وعمر جلده جلد المفتري، وبقيت في نفوس المبطلين خمائر بدعة الخوارج من الحرورية والشيعة، ولهذا كان الرفض باب الزندقة كما حكاه القاضي أبو بكر ابن الطيب عن الباطنية وكيفية إفسادهم لدين الإسلام قال: فقالوا للداعي: يجب عليك إذا وجدت من تدعوه مسلماً أن تجعل التشيع عنده دينك وشعارك، واجعل المدخل من جهة ظلم السلف لعلي وقتلهم الحسين والتبرؤ من تيم وعدي وبني أمية وبني العباس [وقل بالرجعة][٢]، وأن علياً يعلم الغيب يفوض إليه خلق العالم وما أشبه ذلك من أعاجيب الشيعة وجهلهم، فإذا أنست من بعض الشيعة عند الدعوة إجابة ورشداً أوقفته على مثالب علي وولده رضي الله عنهم. انتهى.

ولا شك أنه يتطرق من سب الصحابة إلى سب أهل البيت، ثم إلى سب الرسول ﷺ، إذ أهل بيته وأصحابه مثل هؤلاء عند الفاعلين الضالين.

---

(١) هو بولص بن يوشع ملك اليهود، انظر: منهاج السنّة (١/ ٢٩).

(٢) الرجعة عند بعض الشيعة: رجوع الإمام بعد موته، وعند بعضهم: غيبته أي: رجوعه بعد غيبته، انظر: مفاتيح العلوم (ص٤٤).



عناصر الموضوع:

١ غرض المصنف من عقد هذا الباب:

تقرير عقيدة أهل السنة في آل البيت والصحابة وحسن القول في أزواج النبي ﷺ وذريته، فمن أحسن القول فيهم فقد برئ من النفاق، ومن طعن في أمهات المؤمنين والصحابة فهو منافق.

٢ مناسبة هذا الباب لما سبق:

بعد أن ذكر المصنف ما يجب للصحابة من حقوق، انتقل إلى ذكر أهل بيت النبي ﷺ، وأول هذا البيت هم أزواج النبي ﷺ ثم قرابته وهم آل العباس وآل أبي طالب وآل الحارث، فمن أحسن القول فيهم وفي الصحابة فقد برئ من النفاق.

٣ معاني الكلمات:

الكلمة	المعنى
الغلو	مجاوزة الحد.
الدنس	الوسخ.
الرجس	القذر القبيح.

٤ معنى كلام الطحاوي: «ومن أحسن القول في أصحاب رسول الله وأزواجه الطاهرات من كل دنس وذرياته المقدسين من كل رجس فقد برئ من النفاق»:

برئ من النفاق كل من أحسن القول في حق أصحاب رسول الله ﷺ، ولم يقع في أحد منهم، وأحسن القول في أزواجه رضي الله عنهن الطاهرات من كل دنس، المبرءات من كل إثم، وفي ذريته المتنزهين عن كل رجس وقذر، الذين أمر باتباعهم وأوصى بهم.

فكل من أحسن قوله فيهم جميعاً برئ من النفاق.

٥ المراد بأهل البيت:

أهل البيت: آل النبي ﷺ الذين حرمت عليهم الصدقة، وهم آل علي بن أبي طالب، وآل جعفر، وآل عقيل، وآل العباس، وبنو الحارث بن عبد المطلب، وأزواج النبي ﷺ.

قال ابن كثير: «ثم الذي لا يشك فيه من تدبر القرآن أن نساء النبي ﷺ داخلات في قوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣] فإن سياق الكلام معهن، ولهذا قال بعد هذا كله: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾ [الأحزاب: ٣٤] أي: واعملن بما ينزل الله على رسوله في بيوتكن من الكتاب والسنة، قال قتادة وغير واحد: ﴿وَٱذْكُرْنَ﴾ [الأحزاب: ٣٤] هذه النعمة التي خصصتن بها من بين النساء».

٦ أدلة فضل أهل البيت:

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣].

وقال النبي ﷺ: (**أذكركم الله في أهل بيتي**)[1].

٧ الوصية بأهل البيت:

جاء في «صحيح مسلم» عن زيد بن أرقم، قال: قام فينا رسول الله ﷺ خطيباً بماء يدعى خُمّاً بين مكة والمدينة، فقال: (**أما بعد، ألا أيها الناس فإنما أنا بشر يوشك أن يأتي رسول ربي فأجيب، وأنا تارك فيكم ثقلين أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به، فحث على كتاب الله ورغب فيه، ثم قال: وأهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي ثلاثاً**).

٨ موقف أهل السنة والجماعة من أهل البيت:

من أصول أهل السنة والجماعة محبة أهل البيت وموالاتهم والحفاظ على وصيته ﷺ فيهم. روى مسلم في «صحيحه» عن زيد بن أرقم قال: قام فينا رسول الله خطيباً بماء يدعى خُمّاً ثم قال: (**يا أيها الناس إنما أنا بشر يوشك أن يأتي رسول ربي فأجيب، وإني تارك فيكم ثقلين أولهما: كتاب الله فيه الهدى والنور فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به، فحث على كتاب الله ورغب فيه، ثم**

---

(١) رواه مسلم (٢٤٠٨).

قال: **ألا وأهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي**). وأخرج البخاري عن أبي بكر أنه قال: «ارقبوا محمداً في أهل بيته» أي: راعوهم... وأزواج النبي ﷺ من آل بيته فيوالون أيضاً أزواجه ويعتقدون أنهن أزواجه في الآخرة خاصة خديجة، وكذلك عائشة التي قال رسول الله في بيان فضلها: (**وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام**).

ويعتقدون أنهن أمهات المسلمين والمؤمنين قال تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ [الأحزاب: ٦] أي في الاحترام والتقدير وحرمة النكاح. ومعلوم أن هذه الأمومة لا توجب ميراثاً أو حرمة نكاح لبناتهن.

(٩) حكم الغلو في أهل البيت:

يتبرأ أهل السنة والجماعة من الذين يغلون في بعض أهل البيت ويدعون لهم العصمة، ومن الذين يناصبون العداوة لأهل البيت المستقيمين ويطعنون فيهم، ومن طريقة المبتدعة والخرافيين الذين يتوسلون بأهل البيت ويتخذونهم أرباباً من دون الله.

فأهل السنة مذهبهم في هذا الباب وغيره مذهب وسط لا إفراط فيه ولا تفريط.

(١٠) الرد على ابن حزم في دعواه تفضيل أزواج النبي ﷺ على العشرة المبشرين بالجنة:

يرى ابن حزم أن أزواج الرسول أفضل من العشرة، ووجهته في ذلك أن أزواجه معه في درجته في الجنة ودرجة النبي في الجنة أعلى من درجة العشرة، ولذا قال أن أزواجه أفضل من العشرة المبشرين.

الرد عليه:

وهذا القول شاذ مردود لما يأتي:

أولاً: أنه يلزم عليه أن تكون أزواجه ﷺ أفضل من غير محمد ﷺ من الأنبياء، لأن درجة الرسول محمد ﷺ أعلى من غيره ولم يقل بهذا أحد.

ثانياً: أن النبي ﷺ قال: (**كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام**)، ومن المعلوم أن أكثر أزواجه ﷺ لسن من هذا العدد القليل الذي كمل قطعاً.

ثالثاً: قول النبي ﷺ في عائشة: (**فضل عائشة على النساء...**) فهو إنما فضلها على النساء ولم يفضلها على الرجال.

رابعاً: ما روي عن علي رضي الله عنه أنه قال: «خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر وعمر»، بهذا يبطل ما قال ابن حزم... ومما يجدر ذكره أنه لم يقل بهذا غيره.

١١ الواجب على المسلم تجاه الصحابة رضي الله عنهم:

من أصول أهل السنة والجماعة:

أولاً: سلامة قلوبهم وألسنتهم لأصحاب رسول الله اتباعاً لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا﴾ [الحشر: ١٠]، وطاعة للرسول في قوله: **(لا تسبوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أُحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه)**.

ثانياً: أنهم يقبلون ما جاء في الكتاب والسنة من فضائلهم ومراتبهم فيفضلون من أنفق من قبل الفتح وقاتل على الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا لقوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الحديد: ١٠]، ويؤمنون أيضاً بأنه لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة، وأن الله ﷻ قال: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ١٨].

ثالثاً: ويمسكون عما شجر بين الصحابة رضي الله عنهم ويقولون في تلك الآثار التي ذكر فيها مساوئ بعض الصحابة أن من تلك الآثار ما هو كذب ومنها ما زيد فيه وأنقص وغيِّر عن وجهه.

رابعاً: وهم على هذا لا يدعون العصمة لأحد من أصحاب الرسول، بل قد يقع بعضهم في بعض الذنوب وإن كان لهم من السوابق الشيء الكثير.

١٢ أول من أظهر مذهب الرفض:

قال ابن أبي العز هذا القول مشيراً إلى أن القدح في أصحاب محمد ﷺ نفاق وطغيان وإشارة إلى أن أصل الرفض الذي أظهره منافق زنديق ملحد أراد في الإسلام وفي رسول الله ﷺ وفي صحابته، فقد ذكر العلماء أن عبد الله بن سبأ لما أظهر الإسلام حتى توصل بذلك إلى قتل عثمان رضي الله عنه بأن أوغر قلوب الرجال عليه متظاهراً أنه بذلك يأمر بالمعروف وزين لهم قتل عثمان. ثم لما قدم علي بن أبي طالب رضي الله عنه الكوفة غلا فيه غلواً مفرطاً فطلب علي قتله فهرب إلى قرقيس، ومن هنا ندرك أن أصل الرفض إنما ظهر من ذلك المنافق، ولهذا قال العلماء: «حب أبي بكر وعمر إيمان، وبغضهم نفاق، وحب آل البيت إيمان وبغضهم نفاق».

(١٣) الرافضة ستار للزندقة:

اتخذ الزنادقة التشيع ستاراً لهم. فأخذوا يبثونه عن طريق آراءهم الباطلة الفاسدة، ذكر الباقلاني عن الباطنية وكيفية إفسادهم للدين أنهم كانوا يقولون للداعي إذا رأيت من تدعوه مسلماً فاجعل التشيع دينك وشعارك واجعل المدخل من جهته ظلم السلف لعلي وقتلهم الحسن بن علي والتبرؤ من تيم وعدي (قبيلتي أبي بكر وعمر) وبني أمية وبني العباس، فإذا وجدت فيمن تدعوه استجابة لما تقول فأوقفه على مثالب علي وآل البيت.

قال الشارح تعليقاً على هذا القول: «ولا شك أنه يتطرق من سب الصحابة إلى سب أهل البيت، ثم إلى سب الرسول ﷺ، إذ أهل بيته وأصحابه مثل هؤلاء عند الفاعلين الضالين».

(١٤) الخلاصة:

١ - برئ من النفاق كل من أحسن القول في حق أصحاب رسول الله ﷺ، وفي أزواجه رضي الله عنهن، وفي ذريته.

٢ - أهل البيت: آل النبي ﷺ الذين حرمت عليهم الصدقة، وهم آل علي بن أبي طالب، وآل جعفر، وآل عقيل، وآل العباس، وبنو الحارث بن عبد المطلب، وأزواج النبي ﷺ.

٣ - أدلة فضل أهل البيت ثابتة في الكتاب والسنة.

٤ - من أصول أهل السنة والجماعة محبة أهل البيت وموالاتهم والحفاظ على وصيته ﷺ فيهم.

٥ - يتبرأ أهل السنة والجماعة من الذين يغلون في بعض أهل البيت ويدعون لهم العصمة، ومن الذين يناصبون العداوة لأهل البيت المستقيمين ويطعنون فيهم، ومن طريقة المبتدعة والخرافيين الذين يتوسلون بأهل البيت ويتخذونهم أرباباً من دون الله.

٦ - من أصول أهل السنة والجماعة سلامة قلوبهم وألسنتهم لأصحاب رسول الله ﷺ.

٧ - ومن أصولهم أنهم يمسكون عما شجر بين الصحابة ﷺ ويقولون في تلك الآثار التي ذكر فيها مساوئ بعض الصحابة أن من تلك الآثار ما هو كذب ومنها ما زيد فيه وأنقص وغُيِّر عن وجهه.

٨ ـ ومن أصولهم أنهم لا يدعون العصمة لأحد من أصحاب الرسول بل قد يقع بعضهم في بعض الذنوب وإن كان لهم من السوابق الشيء الكثير.

٩ ـ أول من أظهر مذهب الرفض عبد الله بن سبأ.

١٠ ـ الرافضة ستار للزندقة.

(١٥) المناقشة:

- **س١:** بيّن معنى كلام الطحاوي: «ومن أحسن القول في أصحاب رسول الله وأزواجه الطاهرات من كل دنس وذرياته المقدسين من كل رجس فقد برئ من النفاق». ولماذا قال الطحاوي ذلك مع بيان أول من أظهر مذهب الروافض؟
- **س٢:** من هم أهل البيت؟
- **س٣:** اذكر أدلة فضل أهل البيت.
- **س٤:** عمن جاءت الوصية بأهل البيت، وضح ذلك.
- **س٥:** ما موقف أهل السنة والجماعة من أهل البيت؟
- **س٦:** ما حكم الغلو في أهل البيت؟
- **س٧:** كيف ترد على دعوى تفضيل أزواج النبي ﷺ على العشرة المبشرين بالجنة؟
- **س٨:** ما الواجب على المسلم تجاه الصحابة رضي الله عنهم؟
- **س٩:** من أول من أظهر مذهب الرفض؟



مذهب أهل السنة والجماعة في علماء السلف

* كلام ابن أبي العز:

١ ـ غرض المصنف من عقد هذا الباب.

٢ ـ مناسبة الباب لما سبق.

٣ ـ معاني الكلمات.

٤ ـ معنى كلام الطحاوي: «وعلماء السلف من السابقين ومن بعدهم من التابعين أهل الخير والأثر وأهل الفقه والنظر لا يُذكرون إلا بالجميل، ومن ذكرهم بسوء فهو على غير السبيل».

٥ ـ المراد بالسلف.

٦ ـ أصناف علماء السلف.

٧ ـ عقيدة أهل السنة والجماعة تجاه علماء السلف.

٨ ـ أعذار العلماء في مخالفة الحديث الصحيح.

٩ ـ موقف المعتزلة والأشاعرة من علماء السلف.

١٠ ـ حرمة الطعن في العلماء.

١١ ـ أصناف الطاعنين في العلماء.

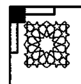
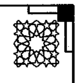
١٢ ـ نماذج من الطعن في علماء السلف المعاصرين.

١٣ ـ الآثار السيئة لظاهرة الطعن في العلماء السلفيين المعاصرين.

١٤ ـ وسائل علاج الطعن في العلماء.

١٥ ـ الخلاصة.

١٦ ـ المناقشة.

مذهب أهل السنة والجماعة في علماء السلف

قال ابن أبي العز:

قوله: «وعلماء السلف من السابقين ومن بعدهم من التابعين أهل الخير والأثر وأهل الفقه والنظر لا يذكرون إلا بالجميل ومن ذكرهم بسوء فهو على غير السبيل».

قال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾ [النساء: ١١٥]، فيجب على كل مسلم(١) بعد موالاة الله ورسوله موالاة المؤمنين كما نطق به القرآن خصوصاً الذين هم ورثة الأنبياء الذين جعلهم الله بمنزلة النجوم يهتدى بهم في ظلمات البر والبحر، وقد أجمع المسلمون على هدايتهم ودرايتهم إذ كل أمة قبل مبعث محمد علماؤها شرارها إلا المسلمين فإن علماءهم خيارهم، فإنهم خلفاء الرسول من أمته والمحيون لما مات من سنته، فبهم قام الكتاب وبه قاموا، وبهم نطق الكتاب وبه نطقوا، وكلهم متفقون اتفاقاً يقيناً على وجوب اتباع الرسول، ولكن إذا وجد لواحد منهم قول قد جاء حديث صحيح بخلافة فلا بد له في تركه من عذر.

وجماع الأعذار ثلاثة أصناف:

أحدها: عدم اعتقاده أن النبي ﷺ قاله.

والثاني: عدم اعتقاده أنه أراد تلك المسألة بذلك القول.

والثالث: اعتقاده أن ذلك الحكم منسوخ.

فلهم الفضل علينا والمنة بالسبق وتبليغ ما أرسل به الرسول ﷺ إلينا وإيضاح ما كان منه يخفى علينا فرضي الله عنهم وأرضاهم.

﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

---

(١) انظر: الفتاوى (٢٠/ ٢٣١).



عناصر الموضوع:

١ غرض المصنف من عقد هذا الباب:

تقرير عقيدة أهل السنة والجماعة في علماء السلف من الصحابة والتابعين لهم بإحسان فلهم المنزلة العالية والفضل الكبير، فهم ورثة الأنبياء وحملة الدين، فيجب محبتهم واحترامهم، وذكرهم بالثناء الجميل، ومن ذكرهم بسوء فهو على سبيل الضلالة.

٢ مناسبة هذا الباب لما سبق:

لما فرغ المصنف من ذكر حقوق الصحابة وأهل البيت وما يجب لهم، انتقل إلى الذين يلونهم في الفضيلة وهم العلماء ورثة الأنبياء فيجب الثناء عليهم واحترامهم، ومن ذكرهم بسوء فهو على سبيل الضلالة.

٣ معاني الكلمات:

الكلمة	المعنى
النسخ	بيان انتهاء حكم شرعي بطريق شرعي متراخ عنه.

٤ معنى كلام الطحاوي: «وعلماء السلف من السابقين ومن بعدهم من التابعين أهل الخير والأثر وأهل الفقه والنظر لا يذكرون إلا بالجميل ومن ذكرهم بسوء فهو على غير السبيل»:

والعلماء السابقون، من الصحابة والتابعين، أهل الصلاح وأتباع السنن وأهل الفقه، لا نذكرهم إلا بالجميل والثناء من ذكرهم بسوء فهو على سبيل الضلالة، فإن محبتهم واجبة، ولحومهم مسمومة لمن ذكرهم بسوء.

٥ المراد بالسلف:

السلف لغة، مصدر سلف يسلف سلفاً. من باب نصر إذا مضى وتقدم، والسلاف سلف القوم المتقدمون.

والمراد بالسلف اصطلاحاً إذا أطلق لفظ السلف عند المسلمين أريد به صحابة رسول الله ﷺ والتابعون لهم بإحسان من العلماء والمتقدمين دون من رمي ببدعة، وعلى هذا فعلماء السلف هم العلماء المتقدمون العالمون والعاملون بسنة رسول الله ﷺ وهديه.

(٦) أصناف علماء السلف:

وعلماء السلف على أصناف متعددة منها:

١ ـ رواة الأحاديث الذين حفظوا أخبار رسول الله ﷺ ونقلوها إلى من بعدهم بكل دقة وأمانة وميزوا بين صحيحها وضعيفها وما يثبت منها وما لم يثبت.

٢ ـ علماء أصول الدين: الذين ردوا على أقوال أهل البدع وكانوا شجًى في حلوق الدهريين والاتحاديين وغيرهم من طوائف أهل البدع.

٣ ـ الفقهاء الذين بينوا أصول العبادات وقانون المعاملات وميزوا الحلال والحرام وبينوا عقوبات الجرائم والجنايات.

٤ ـ أئمة القراء وحملة التفسير سواء منهم من فسر بالرأي أو بالأثر.

٥ ـ أئمة النحو واللغة والأدب، فإن كثيراً من المتقدمين ردوا على أهل البدع ولم يشتهر عنهم أقوال مخالفة لأصحاب الرسول ﷺ.

٦ ـ أئمة التاريخ وحفظة السيرة بما فيها من دروس وعبر.

(٧) عقيدة أهل السنة والجماعة تجاه علماء السلف:

يرى أهل السنة والجماعة وجوب موالاة علماء السلف جميعاً وعدم ذكرهم بما يسيء إليهم أو مخالفة طريقتهم لعموم قوله تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾ [النساء: ١١٥]، فقد توعد من خالف سبيل المؤمنين ـ ولا يتوعد بالنار إلا على أمر محرم... ولعموم قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [التوبة: ٧١] وإذا كانت موالاة عامة المسلمين واجبة فإن موالاة العلماء منهم خاصة متأكدة الوجوب، وذلك لأن الله جعلهم كالنجوم يُهتدىٰ بهم. ولأنهم ورثة الأنبياء وقد أجمع المسلمون على هدايتهم ودرايتهم لأجل هذا تجب موالاة علماء السلف لأنهم كما قال الطحاوي: «بهم نطق الكتاب وبه نطقوا، وبهم قال الكتاب وبه قالوا، فلا يذكرون إلا بالجميل ومن ذكرهم بالسوء فهو على غير سبيل المؤمنين»، وقد اتفق

علماء السلف عموماً على وجوب التمسك بما ورد عن الرسول ﷺ فلا بد له من عذر.

٨ أعذار العلماء في مخالفة الحديث الصحيح:

جماع ذلك ثلاثة أمور:

أولها: عدم اعتقاده أن النبي ﷺ قائله.

والثاني: عدم اعتقاده أنه أراد تلك المسألة بذلك القول.

والثالث: اعتقاده أن ذلك الحكم منسوخ.

٩ موقف المعتزلة والأشاعرة من علماء السلف:

بعد أن ذكرنا أن أهل السنة يرون وجوب موالاة علماء السلف، فإن كثيراً من المعتزلة يطعن في كثير من علماء السلف... بل ويفسقونهم ويطعنون في كثير من الآثار التي عن علماء السلف التي تخالف آراءهم ومعتقداتهم الباطلة.

أما الأشعرية فإنهم وإن كانوا لا يطعنون إلا أنهم تارة يقدمون رأي السلف وتارة يقدمون رأي الخلف وتارة ثالثة يقولون: «إن طريقة السلف أسلم وطريقة الخلف أعلم وأحكم». وهذه العبارة إذا دققنا فيها النظر وجدناها متناقضة، إذ مقتضى السلامة وجود العلم والحكمة: «العلم بموجود الأسباب والحكمة في سلوك تلك الأسباب» وعلى هذا كان الواجب أن يقال: إن مذهب السلف أسلم وأعلم وأحكم.. لما ذكرناه من أن السلامة تستلزم العلم والحكمة.

١٠ حرمة الطعن في العلماء:

إن الطعن في العلماء، القدح فيهم، والتشهير بهم ونشر عيوبهم، كل هذا غير جائز، بل هو محرم أشد التحريم، فلا يجوز للمؤمن أن يأكل لحم أخيه، ولحم العلماء أشد حرمة، قال الإمام ابن عساكر: «اعلم يا أخي ـ رحمنا الله وإياك ـ أن لحوم العلماء مسمومة، وسنة الله في هتك أستار منتقصيهم معلومة، ومن أطلق لسانه في العلماء بالثلب بلاه الله قبل موته بموت القلب، ولذلك فلا يجوز أبداً الطعن في العلماء ولا حل ذلك بحال».

١١ أصناف الطاعنين في العلماء:

إن الطاعنين في العلماء أصناف، فمن هذه الأصناف:

١ ـ المتحللون من الدين وأشباههم، فهؤلاء قد اعتادوا الطعن في العلماء

والقدح فيهم لأجل الحط من شأنهم وتوهين مكانتهم في قلوب الناس، والازدراء بهم لإضعاف ثقة الناس فيهم، ومن ثم التوصل بذلك إلى الطعن في الشريعة والحط من شأن الدين في نفوس الناس، وذلك عن طريق القدح في حملة الشريعة من العلماء والدعاة، وهؤلاء أخبث أنواع الطاعنين في العلماء لسوء قصدهم وفساد نيتهم.

٢ ـ بعض من المنتسبين إلى الدعوة الإسلامية، من أفراد الجماعات المختلفة، وهؤلاء قد يوجد عند بعضهم قدح في بعض العلماء بسبب الجهل واتباع الهوى ونحو ذلك، فيرمون هذا العالم بالعمالة وهذا بالتهور، وهذا بالجبن، وهذا بأنه عالم سلطة، وهذا بأنه عالم حيض ونفاس ولا علم له بالواقع، وهذا بأنه عميل... إلخ.

٣ ـ بعض العلماء ـ وهذا أمر مؤسف جداً ولكنه واقع ومعروف ـ إذا كانوا في عصر واحد ولا سيما إذا كانوا متماثلين في الصنعة والتخصص يدب بينهم الحسد، فيقع من بعضهم الطعن والقدح في بعض، فيتكلم هذا في حق هذا، وهذا في حق هذا، وإن كان هذا غير جائز وغير لائق، ولا ينبغي أبداً أن يصدر من المنسوبين إلى العلم، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

(١٢) نماذج من الطعن في العلماء المعاصرين السلفيين:

إن الطعن في العلماء والكلام في حقهم يأخذ أشكالاً متعددة وصوراً متنوعة، فمن هذه الأشكال والصور.

١ ـ اتهام العلماء بالسطحية والجهل بالواقع، وأنهم علماء حيض ونفاس فقط، ولا علم عندهم بالواقع والأخطار المحيطة ونحو ذلك.

وهذه تهمة قد أطلقها كثير من الناس، بعضهم بسوء نية وبعضهم بحسن نية مع الجهل الشديد، وهذه تهمة غير صحيحة، فإن العلماء أحياناً ما يكون لهم مأخذ سائغ فيما يفتون به، وتكون لهم نظرة معينة لا يستوعبها غيرهم ممن ليسوا بعلماء، أو تقدير للمصالح والمفاسد على حسب ما تقتضيه قواعد الشريعة، فيتهمون من قبل بعض الجهال بمثل هذه التهمة.

٢ ـ اتهام بعض العلماء بالمداهنة والنفاق:

ولا سيما إذا كانوا من العلماء الذين يرتبطون بمؤسسات رسمية أو حكومية، فحينئذٍ يكثر اتهامهم بالمداهنة وتشجيع السلطة والنفاق وبيع الدين بالدنيا،

والحرص على المنصب والمكافآت، وغير ذلك من التهم الشنيعة.

٣ ـ اتهام بعض العلماء بالجبن:

وذلك حين يقوم هؤلاء العلماء بالتحذير من التسرع والخروج على الولاة وتكفير الناس، وغير ذلك من الأشياء التي يكون لها أثر سلبي خطير على المجتمعات وعلى الدعوة الإسلامية، فيتهمون بمثل هذه التهم من قتل ناس من الجهال الذين ليس عندهم علم بالمصالح والمفاسد أو من قبل شباب متهور ليس عندهم حسن تقدير للأمور.

٤ ـ اتهام بعض العلماء بأنهم قشور:

أي القول بأنهم ليس عندهم علم بحقائق العلوم وبواطنها، وأنهم مجرد علماء ظاهر لا يفهمون إلا ظواهر النصوص فقط، وهذه التهمة الباطلة قد كثر إطلاقها من قبل ناس من المتصوفة والباطنية وغيرهم من أصناف أهل الضلال.

(١٣) الآثار السيئة لظاهرة الطعن في العلماء السلفيين المعاصرين:

إن الطعن في العلماء كما ذكرنا أمر محرم وظاهرة سيئة جداً، ولها آثار سلبية خطيرة جداً أذكر منها:

١ ـ فقدان الثقة في العلماء:

وهذه نتيجة خطيرة جداً، ومرحلة متقدمة من مراحل الضلال، فإن الناس إذا فقدوا الثقة في العلماء الذين هم ورثة الأنبياء، وحملة الشريعة، أقول: إذا فقدوا فيهم الثقة لم يقبلوا منهم كلاماً ولا فتوى، وقد يتطور الأمر إلى اتخاذ رؤوس جهال يفتون بغير علم، أو أن يستقل كل واحد بنفسه ويعرض عن العلماء، ويكون هذا من أهم أسباب الضلال والانحراف، وقد يتطور الأمر إلى أن يفقد العلماء دور الريادة في الأمة.

٢ ـ إشاعة العداوة والبغضاء في المجتمع:

فإن من تكلم في أحد العلماء وشهر به، فقد استجلب عداوة ذلك العالم وعداوة المتبعين له، وبالتالي ينقسم المجتمع المسلم إلى أحزاب وشيع وفرق متنافرة متناحرة تدب بينها العداوة والبغضاء والكراهية والطعن بالتبادل، وكل هذا فيه إضعاف لقوة المجتمع المسلم.

٣ ـ تشتيت جهود العلماء:

إذ قد يضطر الواحد منهم إلى الرد على من قدح فيه من خلال كتاب أو نحوه،

فيضيع بذلك وقته، ولعله كان من الأنفع للأمة أن يغتنم العالم وقته في التعلم والتعليم وإفادة الأمة.

٤ ـ جرأة السفهاء والسفلة على العلماء:

فإنه لو شاع في المجتمع الطعن في أحد العلماء سواء من قبل غيره من العلماء أو طلبة العلم أو الإسلاميين أو حتى العلمانيين ونحوهم، فإن ذلك يكون سبباً في اجتراء العامة والسفهاء عليه، والتطاول عليه والاستهانة به، وهذا أمر خطير، لأنه قد يجر إلى التطاول على الشريعة كلها بعد ذلك.

٥ ـ إعراض الناس عن الدين:

وذلك لأن العامة والجهال إذا فقدوا الثقة في العلماء فقد يعرضون عن الشريعة بالكلية، ويستخفون بها، ويكون ذلك سبباً لتحللهم من تعاليم الشريعة بكاملها، وفي هذا من الفساد ما لا يعلمه إلا الله تعالى.

(١٤) وسائل علاج الطعن في العلماء:

إن من الواجب علينا أن نحرص على معالجة هذه الظاهرة الخطيرة، والقضاء عليها، ومن وسائل علاج هذه الظاهرة السيئة:

١ ـ معرفة قدر العلماء، وأنهم أصحاب الريادة في الأمة ومصابيح الهدى فيها، وأن صلاح الأمة بصلاحهم وفسادها بفسادهم، وأنهم أولى الناس بالتقدير والاحترام والإجلال.

٢ ـ معرفة مدى الإثم والحرمة المترتبة على الطعن في العلماء والقدح فيهم، وذلك لشدة حرمة الكلام فيهم وغمزهم ولمزهم، لأن لحومهم مسمومة كما سبق.

٣ ـ معرفة الآثار الخطيرة المترتبة على القدح في العلماء كما سبق الكلام عنها.

٤ ـ إشاعة جو الاحترام والتقدير للعلماء في أفراد المجتمع ونشر فضائلهم، وتذكير الناس بوجوب احترامهم ومعرفة حقهم.

٥ ـ كتمان عيوب العلماء وعدم نشرها بين الناس، فإن ستر عيب المسلم واجب، والعلماء أحق من غيرهم، فالواجب مراعاة ذلك حرصاً على حفظ مكانة العلماء.

٦ ـ الدعاء للعلماء بأن يوفقهم الله ـ تعالى ـ في القول والعمل، وأن يجنبهم الخطأ والزلل ويستر عوراتهم، فإن الدعاء من أعظم أسباب التوفيق.

٧ ـ النصح للعلماء، فإن الدين النصيحة، كما أخبر بذلك النبي ﷺ، والنصيحة للعلماء واجبة فيجب النصح لهم وتذكيرهم إذا نسوا أو أخطأوا وتعريفهم الصواب، وذلك بالأسلوب الذي يتناسب مع مكانتهم.

٨ ـ التماس المعاذير لهم إذا أخطأوا في أمر، فهم بشر أولاً وآخراً وليسوا معصومين، وكل بني آدم خطاء، ولو التمسنا لهم المعاذير لم نطعن فيهم أبداً.

٩ ـ إحسان الظن بهم: لأنهم أعلم الناس بالشريعة، وأعلمهم بالكتاب والسنة، فيجب إحسان الظن بهم، وبما يصدر عنهم من أقوال وأفعال.

١٥ الخلاصة:

١ ـ العلماء السابقون، من الصحابة والتابعين، أهل الصلاح وأتباع السنن وأهل الفقه، لا نذكرهم إلا بالجميل والثناء ومن ذكرهم بسوء فهو على سبيل الضلالة، فإن محبتهم واجبة، ولحومهم مسمومة لمن ذكرهم بسوء.

٢ ـ علماء السلف هم العلماء المتقدمون العالمون والعاملون بسنة رسول الله ﷺ وهديه.

٣ ـ يرى أهل السنة والجماعة وجوب موالاة علماء السلف جميعاً وعدم ذكرهم بما يسيء إليهم أو مخالفة طريقتهم.

٤ ـ للعلماء أعذار في مخالفة الحديث الصحيح وهي: عدم اعتقاده أن النبي ﷺ قائله، أو عدم اعتقاده أنه أراد تلك المسألة بذلك القول، أو اعتقاده أن ذلك الحكم منسوخ.

٥ ـ حرمة الطعن في العلماء.

٦ ـ إن الطعن في العلماء والكلام في حقهم يأخذ أشكالاً متعددة وصوراً متنوعة.

٧ ـ إن الطعن في العلماء كما ذكرنا أمر محرم وظاهرة سيئة جداً، ولها آثار سلبية خطيرة جداً.

٨ ـ إن من الواجب علينا أن نحرص على معالجة ظاهرة الطعن في العلماء الخطيرة، والقضاء عليها.

١٦ المناقشة:

• س١: بين معنى كلام الطحاوي: «وعلماء السلف من السابقين ومن بعدهم من التابعين أهل الخير والأثر وأهل الفقه والنظر لا يذكرون إلا بالجميل ومن ذكرهم بسوء فهو على غير السبيل».

- **س٢:** ما المراد بالسلف؟
- **س٣:** اذكر أصناف علماء السلف.
- **س٤:** وضح عقيدة أهل السنة والجماعة تجاه علماء السلف.
- **س٥:** عدد أعذار العلماء في مخالفة الحديث الصحيح.
- **س٦:** ما موقف المعتزلة والأشاعرة من علماء السلف؟
- **س٧:** بيِّن حرمة الطعن في العلماء.
- **س٨:** اذكر أصناف الطاعنين في العلماء.
- **س٩:** عدِّد نماذج من الطعن في علماء السلف المعاصرين.
- **س١٠:** ما الآثار السيئة لظاهرة الطعن في العلماء السلفيين المعاصرين؟
- **س١١:** ما وسائل علاج الطعن في العلماء؟

المفاضلة بين الأنبياء والأولياء

* كلام ابن أبي العز:

١ ـ غرض المصنف من عقد هذا الباب.

٢ ـ مناسبة هذا الباب لما سبق.

٣ ـ معاني الكلمات.

٤ ـ معنى كلام الطحاوي: «ولا نفضل أحداً من الأولياء على أحد من الأنبياء عليهم السلام، ونقول نبي واحد أفضل من جميع الأولياء».

٥ ـ مفهوم الولاية عند أهل السنة.

٦ ـ أفضل أولياء الله عند أهل السنة.

٧ ـ نظرة غلاة المتصوفة إلى الأنبياء.

٨ ـ المقصود بختم الولاية.

٩ ـ المراد من ختم الولاية عند ابن عربي.

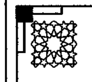
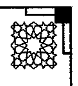
١٠ ـ التعريف بابن عربي وأقوال الناس فيه.

١١ ـ مذهب ابن عربي في ختم الولاية والرد عليه.

١٢ ـ الولي عند الصوفية.

١٣ ـ الخلاصة.

١٤ ـ المناقشة.

المفاضلة بين الأنبياء والأولياء

قال ابن أبي العز:

قوله: «ولا نفضل أحداً من الأولياء على أحد من الأنبياء عليهم السلام ونقول نبي واحد أفضل من جميع الأولياء».

يشير الشيخ رحمه الله إلى الرد على الاتحادية وجهلة المتصوفة وإلا فأهل الاستقامة يوصون بمتابعة العلم ومتابعة الشرع، فقد أوجب الله على الخلق كلهم متابعة الرسل، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ﴾ [النساء: ٦٤] إلى أن قال: ﴿وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا﴾ [النساء: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣١﴾ [آل عمران: ٣١].

قال أبو عثمان النيسابوري: من أمَّر السنة على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالحكمة، ومن أمَّر الهوى على نفسه نطق بالبدعة[(١)].

وقال بعضهم: ما ترك بعضهم شيئاً من السنة إلا لكبر في نفسه.

والأمر كما قال، فإنه إذا لم يكن متبعاً للأمر الذي جاء به الرسول كان يعمل بإرادة نفسه فيكون متبعاً لهواه بغير هدى من الله، وهذا غش النفس وهو من الكبر فإنه شبيه بقول الذين قالوا: ﴿لَن نُّؤۡمِنَ حَتَّىٰ نُؤۡتَىٰ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِۘ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

وكثير من هؤلاء يظن أنه يصل برياسته واجتهاده في العبادة وتصفية نفسه إلى ما وصلت إليه الأنبياء من غير اتباع لطريقتهم.

منهم من يظن أنه قد صار أفضل من الأنبياء.

ومنهم من يقول إن الأنبياء والرسل إنما يأخذون العلم بالله من مشكاة خاتم

---

(١) انظر: منهاج السنّة (٥/ ٣٣١ ـ ٣٣٨).

الأولياء ويدعي لنفسه أنه خاتم الأولياء ويكون ذلك العلم هو حقيقة قول فرعون وهو أن هذا الوجود المشهود واجب بنفسه ليس له صانع مباين له لكن هذا يقول هو الله، وفرعون أظهر الإنكار بالكلية، لكن كان فرعون في الباطن أعرف بالله منهم فإنه كان مثبتاً للصانع، وهؤلاء ظنوا أن الوجود المخلوق هو الوجود الخالق كابن عربي وأمثاله وهو لما رأى أن الشرع الظاهر لا سبيل إلى تغييره قال: النبوة ختمت لكن الولاية لم تختم، وادعى من الولاية ما هو أعظم من النبوة وما يكون للأنبياء والمرسلين وأن الأنبياء مستفيدون منها كما قال:

مقام النبوة في برزخ فويق الرسول ودون الولي

وهذا قلب للشريعة، فإن الولاية ثابتة للمؤمنين المتقين كما قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [يونس: ٦٢، ٦٣]، والنبوة أخص من الولاية، والرسالة أخص من النبوة كما تقدم التنبيه على ذلك.

وقال ابن عربي أيضاً في فصوصه[(١)]: ولمَّا مثَّل النبي ﷺ النبوة بالحائط من اللبن فرآها قد كملت إلا موضع لبنة فكان هو موضع اللبنة، وأما خاتم الأولياء فلا بد له من هذه الرؤية فيرى ما مثَّله النبي ﷺ ويرى نفسه في الحائط في موضع لبنتين ويرى نفسه تنطبع في موضع اللبنتين فتكمل الحائط، والسبب الموجب لكونه يراها لبنتين أن الحائط لبنة من فضة ولبنة من ذهب، واللبنة الفضة هي ظاهره وما يتبعه فيه من الأحكام كما هو أخذ عن الله في الشرع ما هو في الصورة الظاهرة متبع فيه لأنه يرى الأمر على ما هو عليه فلا بد أن يراه هكذا هو موضع اللبنة الذهبية في الباطن فإنه يأخذ من المعدن الذي يأخذ منه الملك الذي يوحى إليه إلى السؤال قال: فإن فهمت ما أشرنا إليه فقد حصل لك العلم النافع.

فمن أكفر ممن ضرب لنفسه المثل بلبنة ذهب وللرسل المثل بلبنة فضة فيجعل نفسه أعلى وأفضل من الرسل تلك أمانيهم ﴿إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ﴾ [غافر: ٥٦] وكيف يخفى كفر من هذا كلامه وله من الكلام أمثال هذا وفيه ما يخفى منه الكفر ومنه ما يظهر، فلهذا يحتاج إلى نقد جيد ليظهر زيفه، فإن

(١) فصوص الحكم (١/ ٦٣).

من الزغل ما يظهر لكل ناقد، ومنه ما لا يظهر إلا للناقد الحاذق البصير، وكفر ابن عربي وأمثاله فوق كفر القائلين: ﴿لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١٢٤] ولكن ابن عربي وأمثاله منافقون زنادقة اتحادية في الدرك الأسفل من النار، والمنافقون يعاملون معاملة المسلمين لإظهارهم الإسلام كما كان يظهره المنافقون في حياة النبي ﷺ ويبطنون الكفر وهو يعاملهم معاملة المسلمين لما يظهر منهم، فلو أنه ظهر من أحد منهم ما يبطنه من الكفر لأجرى عليه حكم المرتد، ولكن في قبول توبته خلاف، والصحيح عدم قبولها وهي رواية معلى عن أبي حنيفة رضي الله عنه والله المستعان.



عناصر الموضوع:

١ غرض المصنف من عقد هذا الباب:

أ ـ تقرير معتقد أهل السنة والجماعة أن الأنبياء أفضل من الأولياء. والرسل أفضل من الأنبياء، وأفضل الرسل أولو العزم، وأفضل أولو العزم الخليلان إبراهيم ومحمد عليهما الصلاة والسلام.

ب ـ الرد على بعض الصوفية الذين قالوا بتفضيل الولي على النبي ففضلوا الأولياء على الأنبياء[١].

٢ مناسبة هذا الباب لما سبق:

بعد ما ذكر المصنف فيما سبق ما يجب للصحابة وآل البيت، ثم انتقل إلى الذين يلونهم وهم العلماء ورثة الأنبياء، ناسب أن يبين ما يجب على المؤمنين في حق الأولياء.

٣ معاني الكلمات:

الكلمة	المعنى
الاتحادية	هم قوم يعتقدون أن الله اتحد ببعض مخلوقاته وهذا اتحاد خاص أما الاتحاد العام فهو اعتقاد اتحاد وجود الخالق بالمخلوق وهو معنى وحدة الوجود.
الزغل	الغش
الختم	الإتمام، وبلوغ النهاية.

٤ معنى كلام الطحاوي: «ولا نفضل أحداً من الأولياء على أحد من الأنبياء عليهم السلام، ونقول نبي واحد أفضل من جميع الأولياء»:

ولا نفضل الأولياء على الأنبياء، كما قال بعض الضلال كابن عربي وغيره،

(١) انظر: الهداية الربانية (ص٣٤٤).

بل نقول إن النبي الواحد أفضل من جميع الأولياء، وذلك لما اصطفاهم الله من النبوة والحكمة، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ٧٥﴾ [الحج: ٧٥].

٥ مفهوم الولاية عند أهل السنة:

مفهوم الولاية في اللغة: الولاية في اللغة ضد العداوة، وأصلها المحبة والقرب وأصل العداوة: البغض والبعد..

والولي عند جمهور المسلمين اصطلاحاً: هو الموافق لله والمحب له... والمتبع له فيما يحبه الله وفيما يكرهه وفيما يأمره به وفيما ينهىٰ. عنه فلا يحب إلا ما أحب الله، ولا ينهىٰ إلا عما نهى الله عنه، ولا يكره إلا ما كره الله ﷻ...

٦ أفضل أولياء الله عند أهل السنة:

أفضل أولياء الله هم: أنبياؤه، وأفضل أنبيائه المرسلون، وأفضل المرسلين أولو العزم صلوات الله عليهم أجمعين، وهم الذين أشار الله ﷻ إليهم بقوله: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ﴾ [الشورى: ١٣]، وأفضل أولي العزم من الرسل: هو محمد ﷺ خاتم الأنبياء والمتقين. وعلى هذا: فأفضل أولياء الله على الإطلاق هو نبينا محمد ﷺ.

٧ نظرة غلاة المتصوفة إلى الأنبياء:

غلاة المتصوفة على ثلاث طوائف:

الأولى: تظن أنه قد يصل برياضته واجتهاده في العبادة وتصفيته لنفسه إلى درجة الأنبياء من غير اتباع لطريقتهم.

الثانية: تظن أن الأولياء أفضل من الأنبياء...

الثالثة: تقول إن الأنبياء والرسل إنما يأخذون العلم من مشكاة خاتم الأولياء... ويدعى بعضهم أنه هو خاتم الأولياء.

وهذه الطوائف الثلاث تنتقص الأنبياء والرسل حقهم مما جعل بعض العلماء يكفرهم.

٨ المقصود بختم الولاية:

عند غلاة الصوفية هو الشخص الذي يختم الله به كل مقام، وهو التحقق بنهاية كمال تلك المرتبة[1].

---

(١) المعجم الصوفي.

وعند الرافضة: خاتم الولاية هو الذي يبلغ به صلاح الدنيا والآخرة ونهاية الكمال ويختل بموته نظام العالم وهو المهدي الموعود في آخر الزمان(١).

فلفظ خاتم الأولياء لم يرد في الكتاب والسنة ولا في كلام سلف الأمة من الصحابة والتابعين، وإنما هو مصطلح مبتدع.

٩ المراد من ختم الولاية عند ابن عربي:

على نوعين:

١ ـ **ختم الولاية العامة**: وهو الذي لا يوجد بعده ولي، وهو عندهم عيسى عليه السلام.

يقول ابن عربي: «فيكون عيسى عليه السلام خاتم الأولياء وهو خاتم الأولياء وهو أفضل هذه الأمة المحمدية، فإنه وإن كان ولياً في هذه الأمة والملة المحمدية، فهو نبي ورسول في نفس الأمر»(٢).

٢ ـ **ختم الولاية الخاصة**: وهي لرجل من العرب جمع علم كل ولي محمدي وهو خاتم النبوة المطلقة يختم الله به الولاية المحمدية، فكما أن الله ختم بمحمد ﷺ نبوة الشرائع كذلك ختم الله بالختم المحمدي الولاية التي تحصل من الورث المحمدي، وختم هذه الولاية المحمدية يدعيه ابن عربي لنفسه فقال:

أنا خاتم الولاية دون شك ... لورث الهاشمي مع المسيح
كما أني أبو بكر عتيق ... أجاهد كل ذي جسم وروح(٣)

يقول الخميني: «إن الأولياء بلغوا مرتبة لم يبلغها نبي مرسل ولا ملك مقرب، وإنهم يعلمون متى يموتون».

ويقول أيضاً: «إنهم يخافون من نصوص الأولياء كما يخافون من القرآن».

١٠ التعريف بابن عربي وأقوال الناس فيه:

يرى ابن عربي:

١ ـ أن النبوة ختمت، والولاية لم تختم حتى جاء وختمها.

٢ ـ أن الولاية أفضل من النبوة، وذلك لأن الولي يأخذ العلم من الله عز وجل

---

(١) انظر: اصطلاحات الصوفية للكاشي (ص١٥٨).
(٢) الفتوحات المكية (١/ ١٨٥).
(٣) انظر: الفتوحات المكية (١/ ٤٩، ٢٤٤).

مباشرة فهو يتلقى العلم من المعدن الذي يتلقى منه الملك، أما الأنبياء وسائر الأولياء فإنما يأخذون العلم (العلم الباطن) من مشكاة خاتم الأولياء.

٣ ـ أن خاتم الأولياء أفضل من خاتم الأنبياء.

٤ ـ مثل خاتم الأولياء بلبنتين من حائط اكتمل بناؤه ولم يبق فيه سوى موضع هاتين اللبنتين إحداهما: فضة، ويرمز بها إلى علم الظاهر، والأخرى ذهب: ويرمز بها إلى علم الباطن، فقد جعل ابن عربي نفسه في موضع اللبنة الذهبية. وجعل الرسول في موضع اللبنة الفضية.

وقد اختلف الناس في ابن عربي على ثلاثة آراء:

١ ـ رأي يقول بتكفيره وأنه منافق زنديق ملحد... وقد أظهر من الأقوال ما يوجب كفره، وممن يقول بهذا الرأي شارح الطحاوية.

٢ ـ رأي من يقول أنه من الأولياء العارفين، والأئمة المجتهدين، وما ورد من كلمات مشكلة في تأليفه فظاهرها غير مراد..

والمراد اصطلاحات اصطلح عليها الصوفية وهي في حقيقتها خطرة وإن كان يظهر منها إذا أخذت بغض النظر عن تلك الاصطلاحات ـ المراد بها ـ قد يظهر منها أقوال منكرة.

٣ ـ رأي من يقول أنه ولي لكن يحرم النظر في كتبه على غير العارفين بطريقته لما فيها من عبارات قد يتبادر إلى ذهن من يطلع عليها أشياء لا يريدها ابن عربي بتلك العبارات، ونسب هذا إلى السيوطي.

(١١) مذهب ابن عربي في ختم الولاية والرد عليه:

يرى ابن عربي:

١ ـ أن مذهب النبوة ختمت، والولاية لم تختم، حتى جاء وختمها.

٢ ـ أن الولاية أفضل من النبوة وذلك لأن الولي يأخذ العلم من الله ﷻ مباشرة فهو يتلقى العلم من المعدن الذي يتلقى منه الملك.

أما الأنبياء وسائر الأولياء فإنما يأخذون العلم (العلم الباطن) من مشكاة خاتم الأولياء.

٣ ـ أن خاتم الأولياء أفضل من خاتم الأنبياء.

٤ ـ مثل خاتم الأولياء بلبنتين من حائط اكتمل بناؤه ولم يبق فيه سوى موضع هاتين اللبنتين إحداهما: فضة ويرمز بها إلى علم الظاهر، والأخرى ذهب: ويرمز

بها إلى علم الباطن، فقد جعل ابن عربي نفسه في موضع اللبنة الذهبية وجعل الرسول في موضع اللبنة الفضية.

الرد على هذا المذهب:

وهذا المذهب مذهب باطل فيه تحريف للشريعة الإسلامية، ويرد عليه بما يأتي:

أولاً: المذهب باطل من أساسه لعدم وروده لا في الكتاب ولا في السنة، فنقرأ الكتاب ونتبع السنة فلا نجد فيهما ذكراً لختم الولاية، وكذلك لم ينقل عن سلف هذه الأمة ما يشير إلى هذه الفكرة «ختم الولاية».

ثانياً: إنه معارض للقرآن والسنة وإجماع الأمة.

١ - فهي معارضة القرآن حيث قال: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [يونس: ٦٢، ٦٣]، فقد وصفت الآية أولياء الله بوصفين: بالإيمان والتقوى، فمن كان مؤمناً متقياً كان من أولياء الله ويفهم من الآية أن الأنبياء أفضل من سائر الأولياء لأن الأنبياء جمعوا الإيمان والتقوى.

على ذلك كان اصطفاء الله لهم بوجيه، وقال ابن عربي إن خاتم الأولياء أفضل من خاتم الأنبياء. فكان بقوله هذا معارضاً لنص الآية...

٢ - وهو معارض للسنة فقد روي عنه ﷺ أنه قال: **(ما طلعت الشمس ولا غربت بعد النبيين والمرسلين على أفضل من أبي بكر)**.

وابن عربي يقول: بأن خاتم الأولياء أفضل من أبي بكر.. بل أفضل من سائر الأولياء، فكان بفكرته تلك معارضاً لنص الحديث.

٣ - وهو معارض للإجماع.. فقد أجمع سلف الأمة على خلاف ما روي من أن الأنبياء أفضل الخلق وأشرفهم على الله.

فمذهب ابن عربي باطل لا ينبغي الالتفات إليه، ولولا كثرة الذاكرين لابن عربي والمشيدين به لما كان مذهبه جديراً بالمذاكرة لمعارضته الصريحة لنصوص الشريعة.

١٢ الولي عند الصوفية:

وقد عرف القشيري الولي بأنه: «فعيل بمعنى مفعول، وهو من يتولى الله سبحانه وتعالى أمره، أو فعيل مبالغة من الفاعل، وهو الذي يتولى عبادة الله

تعالى وطاعته، فعبادته تجري على التوالي من غير أن يتخللها عصيان، فلا يخلق له الخذلان الذي هو القدرة على العصيان»[(١)].

١٣ الخلاصة:

١ ـ لا يفضل أهل السنة والجماعة الأولياء على الأنبياء، كما قال بعض الضلالة كابن عربي وغيره، بل يقولون إن النبي الواحد أفضل من جميع الأولياء، وذلك لما اصطفاهم الله من النبوة والحكمة.

٢ ـ الولي عند جمهور المسلمين اصطلاحاً: هو الموافق لله والمحب له... والمتبع له فيما يحبه الله وفيما يكرهه وفيما يأمره به وفيما ينهىٰ عنه، فلا يحب إلا ما أحب الله، ولا ينهىٰ إلا عما نهى الله عنه، ولا يكره إلا ما كره الله ﷻ...

٣ ـ أفضل أولياء الله هم: أنبياؤه، وأفضل أنبيائه المرسلون، وأفضل المرسلين أولو العزم صلوات الله عليهم أجمعين، وأفضل أولي العزم من الرسل: هو محمد ﷺ خاتم الأنبياء والمتقين.

٥ ـ المقصود بختم الولاية عند غلاة الصوفية هو الشخص الذي يختم الله به كل مقام، وهو التحقق بنهاية كمال تلك المرتبة.

٦ ـ وعند الرافضة: خاتم الولاية هو الذي يبلغ به صلاح الدنيا والآخرة ونهاية الكمال ويختل بموته نظام العالم، وهو المهدي الموعود في آخر الزمان.

٧ ـ لفظ خاتم الأولياء لم يرد في الكتاب والسنة ولا في كلام سلف الأمة من الصحابة والتابعين، وإنما هو مصطلح مبتدع.

٨ ـ مذهب ابن عربي في ختم الولاية باطل؛ لأنه معارض للقرآن والسنة وإجماع الأمة.

١٤ المناقشة:

- **س١:** بيّن معنى كلام الطحاوي: «ولا نفضل أحداً من الأولياء على أحد من الأنبياء عليهم السلام، ونقول نبي واحد أفضل من جميع الأولياء»؟
- **س٢:** وضّح مفهوم الولاية عند أهل السنة.
- **س٣:** من أفضل أولياء الله عند أهل السنة؟

---

(١) الرسالة القشيرية (ص٣٥٩).

- **س٤:** فصل القول في نظرة غلاة المتصوفة إلى الأنبياء.
- **س٥:** ما المقصود بختم الولاية.
- **س٦:** ما المراد من ختم الولاية عند ابن عربي.
- **س٧:** من هو ابن عربي وما آراؤه في مسألة ختم الولاية، وبم ترد عليها؟ وما أقوال الناس فيه؟
- **س٨:** اذكر تعريف الولي عند الصوفية؟



الإيمان بكرامات الأولياء

* **كلام ابن أبي العز:**

١ ـ غرض المصنف من عقد هذا الباب.

٢ ـ مناسبة هذا الباب لما سبق.

٣ ـ معاني الكلمات.

٤ ـ معنى كلام الطحاوي: «ونؤمن بما جاء من كراماتهم وصح عن الثقات من رواياتهم».

٥ ـ تعريف المعجزة.

٦ ـ شروط المعجزة.

٧ ـ تعريف الكرامة.

٨ ـ المقارنة بين المعجزة والكرامة.

٩ ـ ضوابط الكرامة عند أهل السنة.

١٠ ـ أدلة ثبوت الكرامة.

١١ ـ كرامات الأولياء معجزات الأنبياء.

١٢ ـ أنواع الخوارق للعادة.

١٣ ـ أقسام الأشياء الخارقة للعادة من حيث الأصل.

١٤ ـ تبرأ النبي ﷺ من أمور ثلاثة.

١٥ ـ الحكمة من إجراء الكرامة على يد بعض العباد.

١٦ ـ هل يدل إجراء الكرامة على يد شخص على كرامته عند الله.

١٧ ـ منكرو الكرامة، وشبهاتهم والرد عليها.

١٨ ـ نوعا كلمات الله.

١٩ ـ الكشف والتأثير باعتبار تنوع كلمات الله تعالى.

٢٠ ـ معنى الفراسة وأنواعها.

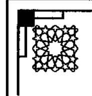
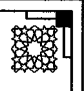
٢١ ـ الفرق بين الكرامة والفراسة.

٢٢ ـ هل عدم حصول الكرامة للمسلم يضر به أم لا؟

٢٣ ـ الفرق بين كرامات الأولياء وخوارق الكهان والسحرة.

٢٤ ـ الخلاصة.

٢٥ ـ المناقشة.

الإيمان بكرامات الأولياء

قال ابن أبي العز:

قوله: «ونؤمن بما جاء من كراماتهم وصح عن الثقات من رواياتهم».

فالمعجزة[(١)] في اللغة تعم كل خارق للعادة، وكذلك الكرامة في عرف أئمة أهل العلم المتقدمين، ولكن كثير من المتأخرين يفرقون في اللفظ بينهما فيجعلون المعجزة للنبي والكرامة للولي، وجماعها الأمر الخارق للعادة.

فصفات الكمال ترجع إلى ثلاثة: العلم والقدرة والغنى، وهذه الثلاثة لا تصلح على الكمال إلا لله وحده، فإنه الذي أحاط بكل شيء علماً، وهو على كل شيء قدير، وهو غني عن العالمين. ولهذا أمر النبي ﷺ أن يتبرأ من دعوى هذه الثلاثة بقوله: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ [الأنعام: ٥٠].

وكذلك قال نوح ﷺ، فهذا أول أولي العزم وأول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض، وهذا خاتم الرسل وخاتم أولي العزم، وكلاهما تبرأ من ذلك، وهذا لأنهم يطالبونهم: تارة بعلم الغيب كقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ [الأعراف: ١٨٧].

وتارة بالتأثير كقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾﴾ الآيات [الإسراء: ٩٠].

وتارة يعيبون عليهم الحاجة البشرية كقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَـٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٧].

فأمر الرسول أن يخبرهم بأنه لا يملك ذلك وإنما ينال من تلك الثلاثة بقدر ما يعطيه الله، فيعلم ما علمه الله إياه، ويستغني عما أغناه عنه، ويقدر على ما أقدره عليه من الأمور المخالفة للعادة المطردة أو لعادة أغلب الناس، فجميع المعجزات والكرامات ما تخرج عن هذه الأنواع.

---

(١) انظر: الفتاوى (١١/ ٣١١).

ثم الخارق إن حصل[١] به فائدة مطلوبة في الدين كان من الأعمال الصالحة المأمور بها ديناً وشرعاً، إما واجب أو مستحب، وإن حصل به أمر مباح كان من نعم الله الدنيوية التي تقتضي شكراً، وإن كان على وجه يتضمن ما هو منهي عنه نهي تحريم أو نهي تنزيه كان سبباً للعذاب أو البغض، كالذي أوتي الآيات فانسلخ منها بلعام بن باعورا لاجتهاد أو تقليد أو نقص عقل أو علم أو غلبة حال أو عجز أو ضرورة.

فالخارق ثلاثة أنواع: محمود في الدين، ومذموم، ومباح. فإن كان المباح فيه منفعة كان نعمة وإلا فهو كسائر المباحات التي لا منفعة فيها، قال أبو علي الجوزجاني: كن طالباً للاستقامة لا طالباً للكرامة، فإن نفسك متحركة في طلب الكرامة وربك يطلب منك الاستقامة.

قال الشيخ السهروردي في عوارفه[٢]: وهذا أصل كبير في الباب، فإن كثيراً من المجتهدين المتعبدين سمعوا السلف الصالحين المتقدمين وما منحوا به من الكرامات وخوارق العادات، فنفوسهم لا تزال تتطلع إلى شيء من ذلك ويحبون أن يرزقوا شيئاً منه، ولعل أحدهم يبقى منكسر القلب متهماً لنفسه في صحة عمله حيث لم يحصل له خارق ولو علموا بسر ذلك لهان عليهم الأمر، فيعلم أن الله يفتح على بعض المجاهدين الصادقين من ذلك باباً والحكمة فيه أن يزداد بما يرى من خوارق العادات وآثار القدرة يقيناً فيقوى عزمه على الزهد في الدنيا والخروج عن دواعي الهوى فسبيل الصادق مطالبة النفس بالاستقامة في كل الكرامة.

ولا ريب لأن القلوب من التأثير أعظم مما للأبدان لكن إن كانت صالحة كان تأثيرها صالحاً، وإن كانت فاسدة كان تأثيرها فاسداً، فالأحوال يكون تأثيرها محبوباً لله تعالى تارة ومكروهاً لله أخرى.

وقد تكلم الفقهاء في وجوب القود على من يقتل غيره في الباطن وهؤلاء يشهدون بواطنهم وقلوبهم الأمر الكوني ويعدون مجرد خرق العادة لأحدهم أنه كرامة من الله له، ولا يعلمون أنه في الحقيقة إنما الكرامة لزوم الاستقامة، وأن الله تعالى لم يكرم عبداً بكرامة أعظم من موافقته فيما يحبه ويرضاه هو طاعته وطاعة

---

(١) انظر: الفتاوى (١١/٣١٩).

(٢) عوارف المعارف (٥/٧٦).

رسوله وموالاة أوليائه ومعاداة أعدائه، وهؤلاء هم أولياء الله الذين قال الله فيهم: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [يونس: ٦٢].

وأما ما يبتلي الله به عبده من السر بخرق العادة أو بغيرها أو بالضراء فليس ذلك لأجل كرامة العبد على ربه ولا هوانه عليه، بل قد سعد بها قوم إذا أطاعوه وشقي بها قوم إذا عصوه كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾﴾ [الفجر: ١٥].

ولهذا كان الناس في هذه الأمور ثلاثة أقسام: قسم ترتفع درجتهم بخرق العادة، وقسم يتعرضون بها لعذاب الله، وقسم يكون في حقهم بمنزلة المباحات كما تقدم.

وتنوع الكشف والتأثير باعتبار تنوع كلمات الله، وكلمات الله نوعان: كونية ودينية.

فكلماته الكونية[1] هي التي استعاذ بها النبي ﷺ في قوله: (أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر)، قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ [الأنعام: ١١٥]، والكون كله داخل تحت هذه الكلمات وسائر الخوارق.

والنوع الثاني: الكلمات الدينية، وهي القرآن وشرع الله الذي بعث به رسوله، وهي أمره ونهيه وخبره، وحظ العبد منها العلم بها والعمل، والأمر بما أمر الله به، كما أن حظ العباد عموماً وخصوصاً العلم بالكونيات والتأثير فيها أي بموجبها، فالأولى تدبيره كونية والثانية شرعية دينية، فكشف الأولى العلم بالحوادث الكونية، وكشف الثانية العلم بالمأمورات الشرعية.

وقدرة الأولى: التأثير في الكونيات إما في نفسه كمشيه على الماء وطيرانه في الهواء وجلوسه في النار، وإما في غيره بإصحاح وإهلاك وإغناء وإفقار.

وقدرة الثانية: التأثير في الشرعيات، إما في نفسه بطاعة الله ورسوله والتمسك بكتاب الله وسنة رسوله باطناً وظاهراً، وإما في غيره بأن يأمر بطاعة الله ورسوله فيطاع في ذلك طاعة شرعية.

---

(١) انظر: الفتاوى (١١/ ٣٢٢).

فإذا تقرر ذلك فاعلم أن عدم الخوارق علماً وقدرة لا تضر المسلم في دينه، فمن لم ينكشف له شيء من المغيبات ولم يسخر له شيء من الكونيات لا ينقص ذلك في مرتبته عند الله بل قد يكون عدم ذلك أنفع له، فإنه إن اقترن به الدين وإلا هلك صاحبه في الدنيا والآخرة، فإن الخارق قد يكون مع الدين وقد يكون مع عدمه أو فساده أو نقصه.

فالخوارق النافعة تابعة للدين خادمة له، كما أن الرياسة النافعة هي التابعة للدين، وكذلك المال النافع كما كان السلطان والمال النافع بيد النبي ﷺ وأبي بكر وعمر، فمن جعلها هي المقصودة وجعل الدين تابعاً لها ووسيلة إليها لا لأجل الدين في الأصل فهو شبيه بمن يأكل الدنيا بالدين، وليست حاله كحال من تدين خوف العذاب أو رجاء الجنة، فإن ذلك ما هو مأمور به وهو على سبيل نجاة وشريعة صحيحة.

والعجب أن كثيراً ممن يزعم أن همه قد ارتفع عن أن يكون خوفاً من النار أو طلباً للجنة يجعل همه بدينه أدنى خارق من خوارق الدنيا، ثم إن الدين إذا صح علماً وعملاً فلا بد أن يوجب خرق العادة إذا احتاج إلى ذلك صاحبه، قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣]، **وقال تعالى:** ﴿إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩]، **وقال تعالى:** ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ۝٦٦ وَإِذًا لَّءَاتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ۝٦٧ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٦٨﴾ [النساء: ٦٦ ـ ٦٨]، **وقال تعالى:** ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ۝٦٣ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [يونس: ٦٢، ٦٤].

وقال رسول الله ﷺ: (اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله)[(١)]، ثم قرأ قوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ۝٧٥﴾ [الحجر: ٧٥]. **رواه الترمذي من رواية أبي سعيد الخدري.**

وقال تعالى فيما يرويه عنه رسوله ﷺ: (من عادى لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة، وما تقرب إلي عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه، ولا يزال عبدي

---

(١) أخرجه الترمذي (٣١٢٧).

يتقرَّب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت في شيء أنا فاعله ترددي في قبض نفس عبدي المؤمن يكره الموت وأكره مساءته، ولا بد له منه).[(١)] فظهر أن الاستقامة حظ الرب، وطلب الكرامة حظ النفس، وبالله التوفيق.

وقول المعتزلة في إنكار الكرامة ظاهر البطلان، فإنه بمنزلة إنكار المحسوسات، وقولهم لو صحت لأشبهت المعجزة فيؤدي إلى التباس النبي بالولي وذلك لا يجوز، وهذه الدعوى إنما تصح إذا كان الولي يأتي بالخارق ويدَّعي النبوة، وهذا لا يقع ولو ادعى النبوة لم يكن ولياً بل كان متنبئاً كذاباً، وقد تقدم الكلام في الفرق بين النبي والمتنبئ عند قول الشيخ، وأن محمداً عبده المجتبى ونبيه المصطفى.

ومما ينبغي التنبيه عليه ههنا أن الفراسة[(٢)] ثلاثة أنواع:

إيمانية وسببها نور يقذفه الله في قلب عبده، وحقيقتها أنها خاطر يهجم على القلب يثب عليه كوثوب الأسد على الفريسة، ومنها اشتقاقها وهذه الفراسة على حسب قوة الإيمان، فمن كان أقوى إيماناً فهو أَحَدُّ فراسة، قال أبو سليمان الداراني رحمه الله: الفراسة مكاشفة النفس ومعاينة الغيب، وهي من مقامات الإيمان، انتهى.

وفراسة رياضية وهي التي تحصل بالجوع والسهر والتخلي، فإن النفس إذا تجردت عن العوائق صار لها من الفراسة والكشف بحسب تجردها، وهذه فراسة مشتركة بين المؤمن والكافر ولا تدل على إيمان ولا على ولاية، ولا تكشف عن حق نافع ولا عن طريق مستقيم، بل كشفها من جنس فراسة الولاة وأصحاب عبادة الرؤساء والأطباء ونحوهم.

وفراسة خلقية وهي التي صنف فيها الأطباء وغيرهم واستدلوا بالخلق على الخلق لما بينهما من الارتباط الذي اقتضته حكمة الله، كالاستدلال بصغر الرأس الخارج عن العادة على صغر العقل، وبكبره على كبره، وسعة الصدر على سعة الخُلُق، وبضيقه على ضيقه، وبجمود العينين وكلال نظرهما على بلادة صاحبهما وضعف حرارة قلبه، ونحو ذلك.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) انظر: المدارج (٢/ ٤٨٣).



عناصر الموضوع:

١ غرض المصنف من عقد هذا الباب:

بيان أن من معتقد أهل السنة والجماعة التصديق بكرامات الأولياء خلافاً لأهل البدع كالمعتزلة، فإنهم أنكروا كرامات الأولياء بل أنكروا خوارق العادة التي تجري على غير أيدي الأنبياء.

٢ مناسبة هذا الباب لما سبق:

بعد أن قرر المؤلف فيما سبق معتقد أهل السنة والجماعة في الأولياء، ناسب أن يذكر معتقد أهل السنة في كرامات الأولياء.

٣ معاني الكلمات:

الكلمة	المعنى
الكرامات	هي ما يجريه الله تعالى للصالحين من خوارق العادات.

٤ معنى كلام الطحاوي: «ونؤمن بما جاء من كراماتهم وصح عن الثقات من رواياتهم»:

ونؤمن بما ورد من كرامات الأولياء، وما أجراه الله لهم من خوارق العادات، نؤمن بما ثبت من ذلك، ونرد ما لم يثبت، والأصل في ذلك قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٧].

وما ورد في حق أولياء الرحمن هو مقصور على أهل الطاعة والرضوان والإيمان دون ما ثبت من خوارق العادات لبعض أولياء الشيطان.

٥ تعريف المعجزة:

المعجزة في اللغة: مأخوذة من العجز وهو ضد القدرة. والمُعجز هو فاعل العجز في غيره أو مظهر عجز غيره، وإطلاقها على الأمر الخارق إطلاق مجازي لأنه

يسبب في إظهار المعجز والهاء فيها للمبالغة كما زيدت في راوية ونسابة وعلامة.

أما في الاصطلاح، فالمعجزة هي: أمر ممكن عقلاً خارق للعادة يجريه الله تعالى على يد نبي من أنبيائه أو رسول من رسله لإظهار صدق نبوته وصحة رسالته.

ويلاحظ: أن المعجزة بمعناها اللغوي تطلق على أمر خارج للعادة سواء كان لنبي أو لغيره، وعلى هذا جرى عرف أئمة العلم المتقدمين، أما المتأخرون منهم فقد جعلوا المعجزة للنبي والكرامة للولي كما في التعريف الذي سبق ذكره.

(٦) شروط المعجزة:

للمعجزة عدة شروط منها:

١ ـ أن تكون أمراً خارقاً للعادة.

٢ ـ أن تكون على يد نبي أو رسول يتحدى بها من وصلت إليهم دعوته وشملتهم رسالته.

٣ ـ أن تعجز الأمة عن الإتيان بمثلها على الصورة التي كان التحدي بها.

٤ ـ ألا يكون الأمر الخارق متضمناً تكذيب مدعي النبوة كما يحكى أنه قيل لمسيلمة الكذاب: إن محمداً بصق في عين أرمد فشفيت فأرنا مثل ذلك، فبصق في (عين أرمد فعميت) فحصول الشفاء بمجرد البصق أمر غير معتاد وكذلك حصول العمى.

(٧) تعريف الكرامة:

الكرامة في اللغة: اسم مصدر من كرم يكرم تكريماً، وأكرم وإكراماً إذا أعطى بدون مقابل.

وفي الاصطلاح: هي ظهور أمر خارق للعادة من قبل شخص مقارن للإيمان والعمل الصالح من غير دعوى النبوة وهذا لا يكون إلا لولي.

(٨) أنواع الكرامات:

أنواع الكرامات هي:

١ ـ العلوم: وذلك بأن يتحصل الشخص من العلم ما لم يتحصل عليه آخر مثل ما وقع للخضر من العلم كما في سورة الكهف.

٢ ـ المكاشفات (حسن الظن) :وذلك بأن يُخبر بعض الناس بأمر من الأمور على وجه يفيد الظن فيقع على حسب ما أخبر به كرامة له من عند الله.

٣ ـ القدرة والتأثير: وذلك أن يحصل لشخص من القوة والتأثير ما لا يحصل لآخر وذلك كقصة أصحاب الكهف.

٤ ـ الرؤية الصادقة.

٥ ـ الحفظ: وهو أن يحفظ الله بعض عباده من الأولياء من الوقوع في حبائل الشيطان.

٩ المقارنة بين المعجزة والكرامة:

المعجزة والكرامة متفقتان في أوجه منها:

أ ـ متفقتان في أن كلّاً منهما أمر خارق للعادة يجريه الله تعالى على يد بعض عباده..

ب ـ وتختلفان في أوجه عدة منها:

١ ـ أن المعجزة تكون للرسول وللنبي، والكرامة تكون للولي من غير الرسل والأنبياء.

٢ ـ أن الكرامة تُنال بالتقوى والمعجزة تنال بالنبوة.

٣ ـ أن الكرامة أخف قدراً من المعجزة..

٤ ـ أن المعجزة مأمونة العاقبة، فيؤمن على صاحبها من المعاصي بعد فعل الطاعات بخلاف الكرامة فغير مأمونة العاقبة، لأنه قد تكون من باب الاستدراج كما في قصة «بلعام بن باعوراء».

٥ ـ إن صاحب المعجزة يظهرها ويتحدى بها بخلاف صاحب الكرامة. فعليه أن يجتهد في كتمانها.

٦ ـ أن صاحب المعجزة مأمون التبديل معصوم من الكفر أما صاحب الكرامة فليس كذلك.

١٠ ضوابط الكرامة عند أهل السنة:

للكرامات ضوابط عند أهل السنة والجماعة منها:

١ ـ أن يكون صاحبها مؤمناً تقياً مخلصاً لله ﷻ متبعاً للمصطفى ﷺ.

٢ ـ أن تكون الكرامة غير مخالفة للشرع.

٣ ـ أن لا تؤدي الكرامة إلى ترك الواجبات أو فعل المنهيات.

٤ ـ على من أظهر الله على يديه الكرامة أن لا يزكي نفسه، وأن لا يعرض نفسه للفتن بذكر ذلك، حتى لا يفتن ويقع في الاستدراج[١].

---

(١) انظر: الفتاوى (١٠/ ٤٣١، ١١/ ٢٧٤)، والفرقان (ص٣٥٤)، والموافقات (٢/ ٤٧٥)، وتلبيس إبليس لابن الجوزي (ص٣٧١)، ولوامع الأنوار البهية (٢/ ٣٩٧).

(١١) أدلة ثبوت الكرامة:

أدلة ثبوت الكرامات عديدة من الكتاب والسنة والآثار:

أ ـ من الكتاب عدة آيات منها ما يأتي قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

ب ـ ما ورد في قصة أصحاب الكهف: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ﴾ [الكهف: ١٣] وكان في زمانهم ملك ظالم فهربوا منه، فأنامهم الله ثلاثمائة وتسع سنين، ثم أيقظهم بعد نومهم الطويل وفيهم نزل قوله: ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ﴾ [الكهف: ١٣] إلى أن قال: ﴿وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ۝٢٥﴾ [الكهف: ٢٥].

ما ورد من قصة مريم حينما ذهبت إلى محراب بمعزل عن الناس فكان يأتيها رزقها من غير أن يقدمه لها أي إنسان، قال تعالى: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٧].

(١٢) كرامات الأولياء معجزات الأنبياء:

قال ابن تيمية: «وكرامات أولياء الله إنما حصلت ببركة اتباع الرسول ﷺ فهي في الحقيقة تدخل في معجزات الرسول»(١).

(١٣) أنواع الخوارق للعادة:

قسم العلماء خوارق العادة إلى ستة أقسام:

١ ـ المعجزة.

٢ ـ الإرهاص: وهو المتقدم للنبوة كتظليل الغمام للنبي ﷺ.

٣ ـ الكرامة.

٤ ـ الاستدراج: وهو الظاهر على يد الفاسق.

٥ ـ الإهانة والاحتقار: ويكون على عكس مراد الشخص كما جرى لمسيلمة الكذاب حينما تفل في بئر عذبة ليزداد الماء، فصار ملحاً أجاجاً.

٦ ـ المعونة: وتظهر على يد عوام وضعفاء المسلمين كتخليص من محنة أو مكروب.

---

(١) مجموع الفتاوى (١١/ ٢٧٥).

(١٤) أقسام الأشياء الخارقة للعادة من حيث الأصل:

الأمر الخارق للعادة: لا يكون إلا من أحد ثلاثة أمور:

١ ـ إما أن يكون من باب العلم.

٢ ـ أو من باب القدرة والتأثير.

٣ ـ أو من باب الغنى.

(١٥) تبرأ النبي ﷺ من أمور ثلاثة:

أمر الله نبيه محمداً ﷺ أن يتبرأ من دعوى هذه الأمور الثلاثة بقوله: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ [الأنعام: ٥٠].

وذلك لأمرين.

أولهما: أن هذه الصفات الثلاث لا تصلح على وجه الكمال إلا لله ﷻ، فهو العليم مطلقاً، والقادر قدرة كاملة، والغني غنى كاملاً عما سواه.

ثانيهما: أن المشركين تارة يسألون رسول الله ﷺ أن يخبرهم عن بعض الأمور الغيبية كسؤالهم عن ميعاد الساعة: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ [النازعات: ٤٢].

وتارة يطلبون منه التأثير في الأشياء: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾﴾ [الإسراء: ٩٠].

وتارة يحتجون عليه بالأكل والشرب وفعل ما اعتاد عليه البشر: ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٧]، فأمر الله نبيه محمداً أن يخبرهم بأنه لا يستطيع عمل شيء من تلك الأشياء إلا إذا أقدره الله عليه، فلا يعلم إلا ما أعلمه الله، ولا يقدر إلا على ما أقدره الله عليه، ولا يستغني إلا عما أغناه الله عنه.

(١٦) الحكمة من إجراء الكرامة على يد بعض العباد:

يجري الله ﷻ الكرامة على يد بعض العباد لحكم متعددة منها:

أ ـ الامتنان على الإنسان بتلبية حاجته كما حصل لأم أيمن رضي الله عنها، فقد روى أنها كانت مهاجرة من مكة إلى المدينة، وكانت صائمة فأصابها من العطش شيء كثير فدعت الله ﷻ والتفتت إلى السماء فإذا دلو معلق شربت منه حتى ارتوت.

ب ـ حاجة الإنسان إلى ما يقوي إيمانه، فقد يجري الله ﷻ الكرامة على يد بعض الناس فيزداد يقيناً ويتقوى عزمه على فعل الطاعات واجتناب المعاصي.

ج ـ نصر الله المؤمنين وإحداث الرعب في قلوب أعدائهم كما حصل لخالد بن الوليد ﷺ حينما شرب السم بعد أن قال: (**بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء**)، فلم يتأثر من ذلك السم فهابه الأعداء وهابوا جيشه. وحصل الصلح بين الطرفين.

د ـ إنقاذ المسلمين من شرٍّ وقعوا فيه أو معصية ابتلوا بها كما حصل لسارية وكان على جيش من جيوش المسلمين فأحاط به الأعداء فسمع صوت عمر بن الخطاب يجلجل: يا سارية الجبل، أي: الزم الجبل، فاعتصموا به وكان في ذلك عصمة من ذلك الشر الذي أحاط بهم.

هـ ـ الاستدراج: أو الابتلاء والاختبار كما حصل «لبلعام بن باعوراء»، وقد كان ببني إسرائيل وكان رجلاً صالحاً مستجاب الدعوة أكرمه الله بها، فطلب منه قومه أن يدعو على موسى وقومه فأبى ذلك أول الأمر ثم وافقهم بعد ذلك، فكان كلما دعا عليهم بدعوة أصابت قومه. ثم اندلع لسانه على صدره ونزل فيه قوله تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ﴾ [الأعراف: ١٧٥ ـ ١٧٦].

١٧ هل يدل إجراء الكرامة على يد شخص على كرامته عند الله:

إجراء الله تعالى الكرامة على يد عبد من عباده أو إنعامه عليه بصحة أو غنى أو ما أشبه ذلك، وكذلك ابتلاؤه سبحانه للإنسان بالضراء لا يدل الأول على الكرامة ولا يدل الثاني على هوانه عند الله... ودليل ذلك قوله سبحانه: ﴿فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾﴾ [الفجر: ١٥، ١٦] الآية، فقد نفت الآية أن يكون الإنعام دليلاً على كرامته كما نفت أن يكون تضييق الرزق دليلاً على هوان الإنسان عند الله فإن الإنسان إذا أطاع الله وشكره على نعمه فهو يثاب على ذلك، أما إن عصاه مع إنعامه عليه وترك شكره فإن ذلك يكون مضرة عليه.

ولهذا كان أصحاب خوارق العادات ثلاثة أقسام:

١ ـ قسم ترتفع درجته بسبب تلك الخوارق، لما يكون من طاعة الله وشكره على نعمه.

٢ ـ قسم تنخفض درجته بسبب عدم شكره لله سبحانه على تلك النعم واستعماله تلك الخوارق في معصية الخالق.

٣ ـ وقسم لا تنخفض درجته ولا ترتفع ويكون ذلك الإنعام إليه كسائر المباحات.

(١٨) منكرو الكرامة، وشبهاتهم والرد عليها:

أنكر المعتزلة كرامات الأولياء، وشبهتهم في ذلك أنهم قالوا: لو سلمنا بوجود الكرامات وهي مشبهة للمعجزات في أن كلّاً منهما أمر خارق للعادة لأدى ذلك إلى التباس النبي بالولي ولذلك قالوا: أن الأمر الخارق للعادة لا يكون إلا للأنبياء.

الرد عليها:

هذه شبهة باطلة ولا يسلم لهم ما ذكروه من أن القول بإثبات الكرامات يترتب عليه التباس النبي بالولي، وذلك لأن الولي لا يدعي النبوة مهما كانت كراماته، والالتباس إنما يكون فيما لو سلمنا بأن الولي يدعي النبوة، أما من ادعى النبوة بعد محمد ﷺ وكان معه أمر خارق فإن كذبه سيظهر لكل من تتبع أحواله، فلا بد أن يظهر عليه من الكذب والدجل واستحواذ الشياطين عليه ما يدل على كذبه.

(١٩) نوعا كلمات الله:

كلمات الله على نوعين: كونية، ودينية شرعية.

أما الكلمات الكونية ففي قوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ۖ﴾ [الأعراف: ١٣٧]، وفي قوله ﷺ: **(أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر)**.

والكلمات الشرعية الدينية في قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّۖ﴾ [البقرة: ١٢٤].

(٢٠) الكشف والتأثير باعتبار تنوع كلمات الله تعالى:

كلمات الله تعالى على نوعين:

أولهما: كلمات كونية قدرية، والكون كله داخل تحت هذه الكلمات، وهي التي استعاذ بها النبي ﷺ في قوله: **(أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق)**.

وإليه يشير قوله ﷻ: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: ٨٢].

ثانيهما: كلمات دينية شرعية وهي القرآن وشرع الله ﷻ الذي أنزله على رسوله ﷺ. وهو أمره ونهيه وخبره، وحظ العبد منها: العلم بها والعمل والأمر بما أمر الله به.

أما الكشف الثاني: فهو العلم بالمأمورات الشرعية وتأثيرها بالأمور الشرعية أما في نفس الإنسان متدبراً لها فيمتثلها، أو يعظ بها غيره فيمتثل ذلك الأمر.

٢١ معنى الفراسة وأنواعها:

الفراسة في اللغة: مصدر فرس الرجل فلاناً بعينه إذا دقق النظر لإدراك شيء من أموره الباطنة عن طريق النظر لظواهره وهي على ثلاثة أنواع:

النوع الأول: فراسة إيمانية وسببها نور يقذفه الله ﷻ في قلب عبده المؤمن يعرف به الحق من الباطل والصدق من الكذب، وحقيقتها خاطر يهجم على القلب ينقي ما يضله ويعارضه، والإيمان سبب لوجود هذه الفراسة فهي تقوى بقوته وتضعف مع ضعفه وهذه خاصة بالمؤمنين.

النوع الثاني: فراسة رياضية: وتكون بالجوع والسهر والتخلي، وذلك لأن النفس إذا تجردت من بعض العوائق تكشفت لها بعض الأمور، وهذه الفراسة مشتركة بين المؤمن والكافر ولا تدل على إيمانه ولا ولايته.

النوع الثالث: فراسة خِلقية وهي كاستدلالهم بصغر الرأس عن المعتاد على صغر العقل، وبكبره على كبر العقل، وبضيق الصدر على ضيق الخلق، وعلى سعته بسعة الخلق، وباستدلالهم بشدة بياض العين على الشجاعة، وبجمود العينين وكلال نظرهما على بلادة صاحبهما ونحو ذلك.

٢٢ الفرق بين الكرامة والفراسة:

بينهما عموم وخصوص: فقد تكون الكرامة فراسة وقد لا تكون العكس، والفراسة قد تكون كرامة وقد لا تكون.

٢٣ هل عدم حصول الكرامة للمسلم يضر به أم لا؟:

عدم الخوارق علماً وقدرة لا يضر المسلم في دينه، فمن لم ينكشف له شيء من المغيبات ولن يسخر له شيء من الكونيات لا ينتقص ذلك في مرتبته عند الله بل قد يكون عدم ذلك أنفع له، فالخوارق النافعة تابعة للدين خادمة له كما أن الرئاسة النافعة هي التابعة للدين.

وكذلك المال النافع كما كان السلطان والمال النافع بيد النبي ﷺ وأبي بكر وعمر، فمن جعلها هي المقصودة وجعل الدين تابعاً لها ووسيلة إليها لا لأجل

الدين فهو شبيه بمن يأكل الدنيا بالدين وليست حاله كحال من تدين خوف العذاب أو رجاء الجنة، فإن ذلك مأمور به وهو على سبيل نجاة وشريعة صحيحة.

٢٤ الفرق بين كرامات الأولياء وخوارق الكهان والسحرة:

١ ـ كرامات الأولياء: سببها التقوى والعمل الصالح، وأما أعمال المشعوذين والسحرة فسببها الكفر والفسق والفجور.

٢ ـ كرامات الأولياء: يستعان بها على البّر والتقوى أو على أمور مباحة وأما أعمال المشعوذين والسحرة فيستعان بها على أمور محرمة من الشرك وقتل النفس وغير ذلك.

٣ ـ أن الكرامات تقوى وتزاد بذكر الله وتوحيده، وأما أعمال الشعوذة والسحر فتضعف وتذهب بذكره الله وقراءة القرآن والتوحيد.

٤ ـ الكرامات ليست من عمل الأولياء إنما هي خلق محض من الله تعالى وأما السحر والشعوذة فمن كسب الساحر.

٥ ـ أن الكرامات تزيد صاحبها تواضعاً ومحبة لله وإقبالاً على عبادة الله أما السحرة: فإنهم يستغلون الأحوال الشيطانية بجلب الناس إلى تعظيمهم والتقرب إليهم[1] المقصود أن كرامات الأولياء لا بد أن يكون سببها الإيمان والتقوى، فما كان بسبب الكفر والفسوق والعصيان فهو من خوارق أعداء الله لا من كرامات أولياء الله، فمن كانت خوارقه لا تحصل بالصلاة والقراءة والذكر وقيام الله والدعاء، وإنما تحصل عند الشرك مثل دعاء الميت الغائب أو بالفسق والعصيان، أو أكل المحرمات كالحيات والزنابير والخنافس كالدم وغيره من النجاسات ومثل الغناء والرقص، ولا سيما مع النسوة الأجانب والمردان وتنقص عند سماع القرآن وتقوى عند سماع مزامير الشيطان وهو يكره سماع القرآن، ينفر عنه ويتكلف، ليس له فيه محبة ولا لذة، ويحب سماع المكاء والتصدية ويجد عنده مواجيد فهذه أحوال شيطانية، فهذا مما يتناوله قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾﴾ [الزخرف: ٣٦].

---

(١) انظر: شرح الواسطية للهراس (ص٢٥٤)، تحقيق ياسين العدني.

٢٥ الخلاصة:

١ - يؤمن أهل السنة والجماعة بما ورد من كرامات الأولياء، وما أجراه الله لهم من خوارق العادات.

٢ - المعجزة هي: أمر ممكن عقلاً خارق للعادة يجريه الله تعالى على يد نبي من أنبيائه أو رسولٍ من رسله لإظهار صدق نبوته وصحة رسالته. وله شروط.

٣ - الكرامة: أمر ممكن عقلاً خارق للعادة يجريه الله تعالى على يد ولي من أوليائه غير الأنبياء، ولها ضوابط، والكرامات ثابتة بالكتاب والسنة والآثار.

٤ - المعجزة والكرامة متفقتان في أوجه، وتختلفان في أوجه.

٥ - كرامات أولياء الله إنما حصلت ببركة اتباع الرسول ﷺ، فهي في الحقيقة تدخل في معجزات الرسول.

٦ - قسم العلماء خوارق العادة إلى ستة أقسام: المعجزة والإرهاص والكرامة والاستدراج والإهانة والاحتقار والمعونة.

٧ - الأمر الخارق للعادة: لا يكون إلا من أحد ثلاثة أمور: إما أن يكون من باب العلم، أو القدرة والتأثير، أو الغنى.

٨ - يجري الله ﷻ الكرامة على يد بعض العباد لحكم متعددة.

٩ - إجراء الله تعالى الكرامة على يد عبد من عباده أو إنعامه عليه بصحة أو غنى أو ما أشبه ذلك، وكذلك ابتلاؤه سبحانه للإنسان بالضراء لا يدل الأول على الكرامة ولا يدل الثاني على هوانه عند الله.

١٠ - أنكر المعتزلة كرامات الأولياء، وشبهتهم في ذلك أن الأمر الخارق للعادة لا يكون إلا للأنبياء. وهي شبهة باطلة.

١١ - كلمات الله على نوعين: كونية ودينية شرعية.

١٢ - الفراسة في اللغة: مصدر فرس الرجل فلاناً بعينه إذا دقق النظر لإدراك شيء من أموره الباطنة عن طريق النظر لظواهره وهي على ثلاثة أنواع.

١٣ - عدم ظهور الخوارق علماً وقدرة لا يضر المسلم في دينه.

١٤ - هنا فرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، وفرق بين كرامات الأولياء وخوارق الكهان والسحرة.

(٣٦) المناقشة:

- **س١:** بيّن معنى كلام الطحاوي: «ونؤمن بما جاء من كراماتهم وصح عن الثقات من رواياتهم».
- **س٢:** عرّف المعجزة لغةً واصطلاحاً؟
- **س٣:** عدّد شروط المعجزة.
- **س٤:** عرّف الكرامة لغةً واصطلاحاً؟
- **س٥:** قارن بين المعجزة والكرامة.
- **س٦:** اذكر ضوابط الكرامة عند أهل السنة.
- **س٧:** اذكر أدلة ثبوت الكرامة.
- **س٨:** اشرح العبارة التالية: كرامات الأولياء معجزات الأنبياء.
- **س٩:** بيّن أنواع الخوارق للعادة.
- **س١٠:** ما أقسام الأشياء الخارقة للعادة من حيث الأصل.
- **س١١:** تبرأ النبي ﷺ من أمور ثلاثة، اذكرها مع الدليل.
- **س١٢:** ما الحكمة من إجراء الكرامة على يد بعض العباد.
- **س١٣:** هل يدل إجراء الكرامة على يد شخص على كرامته عند الله؟
- **س١٤:** أنكر الكرامة طائفة، اذكرهم مع بيان شبهاتهم والرد عليها.
- **س١٥:** ما نوعا كلمات الله؟
- **س١٦:** فصل القول في الكشف والتأثير باعتبار تنوع كلمات الله تعالى.
- **س١٧:** ما معنى الفراسة وما أنواعها؟
- **س١٨:** ما الفرق بين الكرامة والفراسة؟
- **س١٩:** هل عدم حصول الكرامة للمسلم يضر به أم لا؟
- **س٢٠:** اذكر الفرق بين كرامات الأولياء وخوارق الكهان والسحرة.

الإيمان بأشراط الساعة

❊ **كلام ابن أبي العز:**

١ ـ غرض المصنف من عقد هذا الباب.

٢ ـ مناسبة الباب لما سبق.

٣ ـ معاني الكلمات.

٤ ـ معنى كلام الطحاوي: «ونؤمن بأشراط الساعة من خروج الدجال ونزول عيسى ابن مريم عليه السلام من السماء ونؤمن بطلوع الشمس من مغربها وخروج دابة الأرض من موضعها».

٥ ـ المراد بأشراط الساعة.

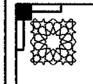
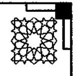
٦ ـ أقسام أشراط الساعة.

٧ ـ أشراط الساعة الكبرى.

٨ ـ أول الآيات ظهوراً.

٩ ـ الخلاصة.

١٠ ـ المناقشة.

الإيمان بأشراط الساعة

قال ابن أبي العز:

قوله: «ونؤمن بأشراط الساعة من خروج الدجال ونزول عيسى ابن مريم عليه السلام من السماء، ونؤمن بطلوع الشمس من مغربها وخروج دابة الأرض من موضعها».

عن عوف بن مالك الأشجعي، قال: أتيت النبي ﷺ في غزوة تبوك وهو في قبة من أدم، فقال: (اعدد ستاً بين يدي الساعة: موتي، ثم فتح بيت المقدس، ثم موتان يأخذ فيكم كقعاص الغنم، ثم استفاضة المال حتى يعطى الرجل مائة دينار فيظل ساخطاً، ثم فتنة لا يبقى بيت من العرب إلا دخلته، ثم هدنة تكون بينكم وبين بني الأصفر، فيغدرون فيأتونكم تحت ثمانين راية، تحت كل راية اثنا عشر ألفا)[(١)].
وروي راية بالراء والغين وهما بمعنى رواه البخاري وأبو داود وابن ماجه والطبراني.

وعن حذيفة بن أسيد، قال: اطلع النبي ﷺ علينا ونحن نتذاكر الساعة، فقال: (ما تذاكرون؟ قالوا: نذكر الساعة، فقال: إنها لن تقوم حتى ترون قبلها عشر آيات فذكر الدخان والدجال والدابة وطلوع الشمس من مغربها ونزول عيسى ابن مريم ويأجوج ومأجوج وثلاثة خسوف خسف بالمشرق وخسف بالمغرب وخسف بجزيرة العرب، وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم)[(٢)] رواه مسلم.

وفي «الصحيحين» واللفظ للبخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: ذكر الدجال عند النبي ﷺ فقال: (إن الله لا يخفى عليكم إن الله ليس بأعور، وأشار بيده إلى عينه، وإن المسيح الدجال أعور عين اليمنى كأن عينه عنبة طافية)[(٣)].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (ما من نبي إلا وأنذر قومه الأعور الدجال، ألا إنه أعور وإن ربكم ليس بأعور ومكتوب بين عينيه كفر) فسره في رواية، أي: كافر.

وروى البخاري وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (والذي

---

(١) أخرجه البخاري (٣١٧٦). (٢) أخرجه مسلم (٢٩٠١).
(٣) أخرجه البخاري (٧٤٠٧)، ومسلم (١٦٩).

نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً عدلاً فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويفيض المال حتى لا يقبله أحد حتى تكون السجدة خيراً من الدنيا وما فيها)، ثم يقول أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾﴾[1] [النساء: ١٥٩].

وأحاديث الدجال وعيسى ابن مريم عليه السلام ينزل من السماء ويقتله ويخرج يأجوج مأجوج في أيامه بعد قتله الدجال فيهلكهم الله أجمعين في ليلة واحدة ببركة دعائه عليهم، ويضيق هذا المختصر عن بسطها.

وأما خروج الدابة وطلوع الشمس من المغرب فقال تعالى: ﴿۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [النمل: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [الأنعام: ١٥٨].

وروى البخاري عند تفسير الآية عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها فإذا رآها الناس آمن عليها فذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل)[2].

وروى مسلم عن عبد الله بن عمرو قال: حفظت من رسول الله ﷺ حديثاً لم أنسه بعد، سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إن أول الآيات خروجاً طلوع الشمس من مغربها وخروج الدابة على الناس ضحى، وأيهما ما كانت قبل صاحبتها فالأخرى على إثرها قريباً)[3].

أي أول الآيات التي ليست مألوفة وإن كان الدجال ونزول عيسى عليه السلام من السماء قبل ذلك، وكذلك خروج يأجوج ومأجوج كل ذلك أمور مألوفة لأنهم بشر مشاهدة مثلهم مألوفة، وأما خروج الدابة بشكل غريب غير مألوف ثم مخاطبتها الناس ووسمها إياهم بالإيمان أو الكفر فأمر خارج عن مجاري العادات، وذلك أول الآيات الأرضية كما أن طلوع الشمس من مغربها على خلاف عادتها المألوفة أول الآيات السماوية.

وقد أفرد الناس في أحاديث أشراط الساعة مصنفات مشهورة يضيق على بسطها هذا المختصر.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٢٢٢)، ومسلم (١٥٥).

(٢) أخرجه البخاري (٤٦٣٥)، ومسلم (١٥٧).

(٣) أخرجه مسلم (٢٩٤١).



عناصر الموضوع:

(١) غرض المصنف من عقد هذا الباب:

بيان معتقد أهل السنة والجماعة في أشراط الساعة وهي على ثلاثة أقسام:

١ ـ **العلامات الصغرى:** وهذه حصلت وانقضت.

٢ ـ **العلامات الوسطى:** وهذه ما تزال تحدث، مثل استخراج الكنوز من الأرض، واجتماع اليهود في فلسطين انتظاراً للدجال، وتوطئة للملاحم التي ستقوم هناك.

٣ ـ **العلامات الكبرى:** من خروج الدجال ونزول عيسى عليه الصلاة والسلام ونحوها مما سيأتي في المباحث القادمة.

(٢) مناسبة هذا الباب لما سبق:

قرر المصنف أن من أصول أهل السنة اتباع السنة، ومما جاءت به السنة أشراط الساعة الصغرى والكبرى، فيجب الإيمان بها وتصديق ما جاءت به الأدلة من الكتاب والسنة.

(٣) معاني الكلمات:

الكلمة	المعنى
أشراط	جمع شرط وهو العلامة.
الساعة	من أسماء يوم القيامة.

(٤) معنى كلام الطحاوي: «ونؤمن بأشراط الساعة من خروج الدجال ونزول عيسى ابن مريم عليه السلام من السماء ونؤمن بطلوع الشمس من مغربها وخروج دابة الأرض من موضعها»:

ونؤمن بأن للساعة علامات تظهر فتدل على قرب قيام الساعة، وهذه العلامات

قد ذكرها النبي ﷺ في حديثه حيث قال في حق الساعة: **(إنها لن تقوم حتى تروا عشر آيات...)** فذكر: الدجال والدابة وطلوع الشمس من مغربها ونزول عيسى بن مريم... الحديث.

وهذه هي العلامات الكبرى للساعة، وهناك علامات صغرى غيرها.

٥ المراد بأشراط الساعة:

أي علاماتها الدالة على قرب وقوعها. قال تعالى: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ۝١٨﴾ [محمد: ١٨].

٦ أقسام أشراط الساعة:

وقد قسم العلماء أشراط الساعة إلى ثلاثة أقسام:

١ ـ **العلامات الصغرى**: وهذه حصلت وانقضت.

٢ ـ **العلامات الوسطى**: وهذه ما تزال تحدث، مثل استخراج الكنوز من الأرض، واجتماع اليهود في فلسطين انتظاراً للدجال، وتوطئة للملاحم التي ستقوم هناك.

٣ ـ **العلامات الكبرى**: من خروج الدجال ونزول عيسى عليه الصلاة والسلام ونحوها مما سيأتي في المبحث القادم.

٧ أشراط الساعة الكبرى:

أشراط الساعة الكبرى:

١ ـ خروج الدجال.

٢ ـ خروج الشمس من مغربها.

٣ ـ خروج الدابة.

٤ ـ خروج يأجوج ومأجوج.

٥ ـ نزول عيسى عليه الصلاة والسلام.

٦ ـ حدوث خسف بالمشرق، وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب.

٧ ـ خروج نار من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم.

٨ أول الآيات ظهوراً:

روى مسلم عن عبد الله بن عمرو قال: حفظت من رسول الله ﷺ حديثاً لم أنسه بعد، سمعت رسول الله ﷺ يقول: **(إن أول الآيات خروجاً طلوع الشمس**

من مغربها وخروج الدابة على الناس ضحى، وأيهما ما كانت قبل صاحبتها فالأخرى على إثرها قريباً).

أي أول الآيات التي ليست مألوفة وإن كان الدجال ونزول عيسى عليه السلام من السماء قبل ذلك وكذلك خروج يأجوج ومأجوج كل ذلك أمور مألوفة لأنهم بشر مشاهدة مثلهم مألوفة، وأما خروج الدابة بشكل غريب غير مألوف ثم مخاطبتها الناس ووسمها إياهم بالإيمان أو الكفر فأمر خارج عن مجاري العادات، وذلك أول الآيات الأرضية، كما أن طلوع الشمس من مغربها على خلاف عادتها المألوفة أول الآيات السماوية.

٩ الخلاصة:

١ - يؤمن أهل السنة والجماعة بأن للساعة علامات تظهر فتدل على قرب قيام الساعة، وهذه العلامات قد ذكرها النبي ﷺ في حديثه.

٢ - أشراط الساعة: أي علاماتها الدالة على قرب وقوعها.

٣ - قسَم العلماء أشراط الساعة إلى ثلاثة أقسام: صغرى، ووسطى، وكبرى.

٤ - أشراط الساعة الكبرى: خروج الدجال، وخروج الشمس من مغربها، وخروج الدابة، خروج يأجوج ومأجوج، ونزول عيسى عليه الصلاة والسلام، وحدوث الخسف، وخروج نار من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم.

٥ - خروج الدابة أول الآيات الأرضية كما أن طلوع الشمس من مغربها على خلاف عادتها المألوفة أول الآيات السماوية.

١٠ المناقشة:

- **س١:** بيِّن معنى كلام الطحاوي: «ونؤمن بأشراط الساعة من خروج الدجال ونزول عيسى ابن مريم عليه السلام من السماء ونؤمن بطلوع الشمس من مغربها وخروج دابة الأرض من موضعها».
- **س٢:** ما المراد بأشراط الساعة؟
- **س٣:** اذكر أقسام أشراط الساعة، مع التمثيل لكل قسم.
- **س٤:** عدِّد أشراط الساعة الكبرى.
- **س٥:** ما أول الآيات ظهوراً؟ فصِّل القول في ذلك.

الكهانة والعرافة

* **كلام ابن أبي العز:**

١ ــ غرض المصنف من عقد هذا الباب.

٢ ــ مناسبة الباب لما سبق.

٣ ــ معاني الكلمات.

٤ ــ معنى كلام الطحاوي: «ولا نصدق كاهناً ولا عرافاً ولا من يدعي شيئاً يخالف الكتاب والسنة وإجماع الأمة».

٥ ــ أنواع المنجمين.

٦ ــ معنى السحر وحكمه.

٧ ــ حكم الساحر.

٨ ــ الأقوال في حقيقة السحر.

٩ ــ السحر الذي فيه كفر اتفاقاً.

١٠ ــ كل رقية فيها شرك لا تجوز.

١١ ــ عدم جواز الاستعانة بالجن.

١٢ ــ معنى استمتاع كل من الإنس والجن بعضهم ببعضٍ.

١٣ ــ رجال الغيب.

١٤ ــ القول بأن الفقراء يسلم لهم حالهم والرد عليه.

١٥ ــ الاعتقاد في بعض البله.

١٦ ــ حديث: «أكثر أهل الجنة البله».

١٧ ــ الطائفة الملامية.

١٨ ـ من يصعق بالأنغام الحسنة ويهذي بسماعها.

١٩ ـ من يجوِّز الخروج عن الشريعة متعلقاً بقصة موسى.

٢٠ ـ من يقول بطواف الكعبة معه.

٢١ ـ معنى الكاهن والعراف.

٢٢ ـ حكم الكهانة والعرافة.

٢٣ ـ خطورة إتيان الكهان والعرافين.

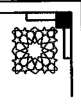
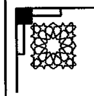
٢٤ ـ حكم سؤال العراف.

٢٥ ـ سبل الوقاية من السحر.

٢٦ ـ موقف المسلم من السحرة والمشعوذين.

٢٧ ـ الخلاصة.

٢٨ ـ المناقشة.

الكهانة والعرافة

قال ابن أبي العز:

قوله: «ولا نصدق كاهناً ولا عرّافاً ولا من يدّعي شيئاً يخالف الكتاب والسنّة وإجماع الأمة».

روى مسلم والإمام أحمد عن صفية بنت أبي عبيد عن بعض أزواج النبي ﷺ عن النبي ﷺ قال: (من أتى عرّافاً فسأله عن شيء لم يقبل له صلاة أربعين ليلة)[1].

وروى الإمام أحمد في «مسنده» عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: (من أتى عرّافاً أو كاهناً فصدّقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد)[2].

والمنجم يدخل في اسم العرّاف عند بعض العلماء، وعند بعضهم هو في معناه، فإذا كانت هذه حال السائل فكيف بالمسؤول؟

وفي «الصحيحين» و«مسند الإمام أحمد» عن عائشة قالت: سئل رسول الله ﷺ عن الكهّان فقال: (ليسوا بشيء)، فقالوا: يا رسول الله، إنهم يحدثون أحياناً بالشيء يكون حقاً، فقال رسول الله ﷺ: (تلك الكلمة من الحق يخطفها الجني فيقرّها في أذن وليّه فيخلطون فيها أكثر من مائة كذبة)[3].

وفي «الصحيح» عنه ﷺ أنه قال: (ثمن الكلب خبيث، ومهر البغي خبيث، وحلوان الكاهن خبيث)[4].

وحلوانه الذي تسميه العامة: حلاوته، ويدخل في هذا المعنى ما تعاطاه

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٤١).

(٢) أخرجه مسلم (٢٢٣٠)، وأحمد (٤/٦٨).

(٣) أخرجه البخاري (٥٧٦٢)، ومسلم (٢٢٢٨).

(٤) أخرجه مسلم (١٥٦٨).

المنجم وصاحب الأزلام[١] التي يستقسم بها مثل الخشبة المكتوب عليها «أ ب ج د»[٢] والتضارب بالحصى والذي يخط في الرمل وما تعاطاه هؤلاء حرام. وقد حكى الإجماع على تحريمه غير واحد من العلماء كالبغوي والقاضي عياض وغيرهما.

وفي «الصحيحين» عن زيد بن خالد قال: خطبنا رسول الله ﷺ بالحديبية على إثر سماء كانت من الليل فقال: (أتدرون ما قال ربكم الليلة؟) قلنا: الله ورسوله أعلم؟ قال: (قال أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مُطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب، وأما من قال: مطرنا بنَوء كذا وكذا فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب)[٣].

وفي «صحيح مسلم» و«مسند أحمد» عن أبي مالك الأشعري أن النبي ﷺ قال: (أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن: الفخر في الأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة)[٤].

والنصوص عن النبي وأصحابه وسائر الأئمة بالنهي عن ذلك أكثر من أن يتسع هذا الموضع لذكرها.

وصناعة التنجيم التي مضمونها الإحكام والتأثير، وهو الاستدلال على الحوادث الأرضية بالأحوال الفلكية أو التمزيج بين القوىٰ الفلكية[٥] والغوائل الأرضية صناعة محرمة بالكتاب والسنّة، بل هي محرمة على لسان جميع المرسلين. قال تعالى: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ [طه: ٦٩]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّـٰغُوتِ﴾ [النساء: ٥١]، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه وغيره: الجبت السحر.

وفي «صحيح البخاري» عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان لأبي بكر غلام يأكل من

---

(١) الأزلام: واحد زلم وهي قداح الميسر.
(٢) يزعمون أنهم يعرفون حوادث العالم من هذه الحروف.
(٣) أخرجه البخاري (٨٤٦)، ومسلم (٧١).
(٤) أخرجه مسلم (٩٣٤)، وأحمد (٥/ ٣٤٢).
(٥) انظر: الفتاوى (٣٥/ ١٩٢).

خراجه فجاء يوماً بشيء فأكل منه أبو بكر فقال له الغلام: تدري ممّ هذا؟ قال: وما هو؟ قال: كنت تكهّنت لإنسان في الجاهلية وما أحسن الكهانة إلّا أني خدعته فلقيني فأعطاني بذلك فهذا الذي أكلت منه، فأدخل أبو بكر يده فقاء كل شيء في بطنه»[1].

والواجب على ولي الأمر وكل قادر أن يسعى في إزالة هؤلاء المنجّمين والكهّان والعرّافين وأصحاب الشرب بالرمل والحصى[2] والقرع والقالات ومنعهم من الجلوس في الحوانيت والطرقات أو يدخلوا على الناس في منازلهم لذلك الضرب، ويكفي من يعلم تحريم ذلك ولا يسعى في إزالته مع قدرته على ذلك قوله تعالى: ﴿كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ۝٧٩﴾ [المائدة: ٧٩]. وهؤلاء الملاعين يقولون الإثم ويأكلون السحت بإجماع المسلمين. وثبت في «السنن» عن النبي ﷺ برواية الصديق رضي الله عنه أنه قال: (إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه)[3].

وهؤلاء الذين يفعلون هذه الأفعال الخارجة عن الكتاب والسنّة أنواع:

نوع منهم أهل تلبيس وكذب وخداع الذين يظهر أحدهم طاعة الجن له أو يدّعي الحال من أهل المحال من المشايخ النصابين والفقراء الكاذبين والطرقية المكارين، فهؤلاء يستحقون العقوبة البليغة التي تردعهم وأمثالهم عن الكذب والتلبيس، وقد يكون في هؤلاء من يستحق القتل كمن يدّعي النبوة بمثل هذه الخزعبلات أو يطلب تغيير شيء من الشريعة ونحو ذلك.

ونوع يتكلم في الأمور على سبيل الجد والحقيقة بأنواع السحر. وجمهور العلماء يوجبون قتل الساحر كما هو مذهب أبي حنيفة ومالك وأحمد في المنصوص عنه، وهذا هو المأثور عن الصحابة كعمر وابنه عثمان وغيرهم، ثم اختلف هؤلاء هل يستتاب أم لا؟ وهل يكفر بالسحر أم يقتل لسعيه في الأرض بالفساد. وقالت طائفة: إن قتل بالسحر يقتل وإلّا عوقب بدون القتل إذا لم يكن

---

(١) أخرجه البخاري (٣٨٤٢).

(٢) انظر: أضواء البيان (٤/ ٤٥٤).

(٣) أخرجه أبو داود (٤٣٣٨)، والترمذي (٢١٦٨).

في قوله وعمله كفر، وهذا هو المنقول عن الشافعي وهو قول في مذهب أحمد.

وقد تنازع العلماء في حقيقة السحر وأنواعه والأكثرون يقولون: إنه قد يؤثر في موت المسحور ومرضه من غير وصول شيء ظاهر إليه، وزعم بعضهم أنه مجرد تخييل[١].

واتفقوا كلهم على أن من كان من جنس دعوة الكواكب السبعة أو غيرها أو خطابها أو السجود لها والتقرُّب إليها بما يناسبها من اللباس والخواتم والبخور ونحو ذلك، فإنه كفر وهو من أعظم أبواب الشرك فيجب غلقه، بل سدّه وهو من جنس فعل قوم إبراهيم عليه السلام. ولهذا قال ما حكى الله عنه بقوله: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾ [الصافات: ٨٨، ٨٩]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا﴾ [الأنعام: ٧٦] الآيات إلى قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام: ٨٢].

واتفقوا كلهم أيضاً على أن كل رقية وتعزيم[٢] أو قسم فيه شرك بالله، فإنه لا يجوز التكلم به وإن أطاعته به الجن أو غيرهم، وكذلك كل كلام فيه كفر لا يجوز التكلم به، وكذلك الكلام الذي لا يعرف معناه لا يتكلم به لإمكان أن يكون فيه شرك لا يعرف، ولهذا قال النبي ﷺ: (لا بأس بالرقى ما لم تكن شركاً)[٣].

ولا يجوز الاستعاذة بالجن، فقد ذمّ الله الكافرين على ذلك فقال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾﴾ [الجن: ٦] قالوا: كان الإنسي إذا نزل بالوادي يقول: أعوذ بعظيم هذا الوادي من سفهائه فيبيت في أمن وجوار حتى يصبح ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن: ٦] يعني: الإنس للجن باستعاذتهم بهم رهقاً؛ أي إثماً وطغياناً وجراءة وشراً، وذلك أنهم قالوا: قد سدنا الجن والإنس، فالجن تعاظم في أنفسها وتزداد كفراً إذا عاملتها الإنس بهذه المعاملة، وقد قال

---

(١) أنكر طائفة من أهل الكلام فقالوا: إنه لا تأثير للسحر البتة لا من مرض ولا قتل وقال: إنما ذلك تخييل لأعين الناظرين وهذا خلاف ما عليه السلف، انظر: كتاب بدائع الفوائد (٢/ ٢٢٧).

(٢) العزيمة: هي الرقية وعَزَمَ الراقي قرأ العزائم أو العزائم آيات تقرأ على ذوي العاهات، انظر: حاشية ابن قاسم على كتاب التوحيد (ص٨٦).

(٣) أخرجه مسلم (٢٢٠٠).

تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ۝٤٠ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ۝٤١﴾ [سبأ: ٤٠، ٤١] فهؤلاء الذين يزعمون أنهم يدعون الملائكة ويخاطبونهم بهذه العزائم وأنها تنزل عليهم ضالون وإنما تنزل عليهم الشياطين، وقد قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ۝١٢٨﴾ [الأنعام: ١٢٨]، فاستمتاع الإنسي بالجني في قضاء حوائجه وامتثال أوامره وإخباره بشيء من المغيبات ونحو ذلك، واستمتاع الجن بالإنس تعظيمه إياه واستعانته به واستغاثته وخضوعه له.

ونوع منهم يتكلم بالأحوال الشيطانية والكشوف ومخاطبته رجال الغيب، وأن لهم خوارق تقتضي أنهم أولياء الله وكان من هؤلاء من يعين المشركين على المسلمين ويقول: إن الرسول أمره بقتال المسلمين مع المشركين لكون المسلمين قد عصوا وهؤلاء في الحقيقة إخوان المشركين.

والناس من أهل العلم فيهم على ثلاثة أحزاب:

حزب يكذبون بوجود رجال الغيب، ولكن قد عاينهم الناس وثبت عمن عاينهم أو حدثه الثقات بما رأوه، وهؤلاء إذا رأوهم وتيقّنوا وجودهم خضعوا لهم.

وحزب عرفوهم ورجعوا إلى القدر واعتقدوا أن ثم في الباطن طريقاً إلى الله غير طريقة الأنبياء.

وحزب ما أمكنهم أن يجعلوا ولياً خارجاً عن دائرة الرسول فقالوا: يكون الرسول هو ممداً للطائفتين، فهؤلاء معظمون للرسول جاهلون بدينه وشرعه.

والحق أن هؤلاء من أتباع الشياطين وأن رجال الغيب هم الجن، ويسمون رجالاً كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦﴾ [الجن: ٦] وإلّا فالإنس يؤنسون؛ أي يشهدون ويُرون وإنما يحتجب الإنسي أحياناً لا يكون دائماً محتجباً عن أبصار الإنس، ومن ظنهم أنهم من الإنس فمن غلطه وجهله، وسبب الضلال فيهم وافتراق هذه الأحزاب الثلاثة عدم الفرقان بين أولياء الشيطان وأولياء الرحمٰن.

ويقول بعض الناس: الفقراء يسلم إليهم حالهم، وهذا كلام باطل بل الواجب عرض أفعالهم وأحوالهم على الشريعة المحمدية، فما وافقها قُبل، وما خالفها ردّ كما قال النبي ﷺ: (من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردّ)(١).

وفي رواية: (من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردّ).

فلا طريقة إلا طريقة الرسول ﷺ، ولا حقيقة إلا حقيقته، ولا شريعة إلا شريعته، ولا عقيدة إلا عقيدته، ولا يصل أحد من الخلق بعده إلى الله وإلى رضوانه وجنته وكرامته إلا بمتابعته باطناً وظاهراً.

ومن لم يكن له مصدقاً فيما أخبر ملتزماً لطاعته فيما أمر في الأمور الباطنة التي في القلوب والأعمال الظاهرة التي على الأبدان لم يكن مؤمناً، فضلاً عن أن يكون وليّاً لله تعالى ولو طار في الهواء ومشى على الماء وأنفق من الغيب وأخرج الذهب من الخشب ولو حصل له من الخوارق ماذا عسى أن يحصل، فإنه لا يكون مع تركه الفعل المأمور وعزل المحظور إلّا من أهل الأحوال الشيطانية المبعدة لصاحبها عن الله تعالى المقربة إلى سخطه وعذابه، لكن من ليس يكلف من الأطفال والمجانين قد رفع عنهم القلم فلا يعاقبون وليس لهم من الإيمان بالله والإقرار باطناً وظاهراً ما يكونون به من أولياء الله المقربين وحزبه المفلحين وجنده الغالبين، لكن يدخلون في الإسلام تبعاً لآبائهم كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ كُلُّ ٱمْرِىٍٕ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾﴾ [الطور: ٢١].

فمن اعتقد في بعض البُله(٢) أو المولعين مع تركه لمتابعة الرسول في أقواله وأفعاله وأحواله أنه من أولياء الله ويفضله على متبعي طريقة الرسول فهو ضال مبتدع مخطئ في اعتقاده، فإن ذاك الأبله إما أن يكون شيطاناً زنديقاً، أو زوكارياً متحيلاً، أو مجنوناً معذوراً، فكيف يفضل على من هو من أولياء الله المتبعين لرسوله أو يساوى به، ولا يقال: يمكن أن يكون هذا متبعاً في الباطن وإن كان تاركاً للاتباع في الظاهر، فإن هذا خطأ أيضاً بل الواجب متابعة الرسول ظاهراً

---

(١) أخرجه البخاري (٤/٤٤٨) مع الفتح معلقاً.

(٢) البله: جمع الأبله هو الغافل عن الشر المطبوع على الخير.

وباطناً. قال يونس بن عبد الأعلى الصدفي: قلت للشافعي: إن صاحبنا الليث كان يقول: إذا رأيتم الرجل يمشي على الماء فلا تغتروا به حتى تعرضوا أمره على الكتاب والسنّة. فقال الشافعي: قصر الليث رحمه الله بل إذا رأيتم الرجل يمشي على الماء ويطير في الهواء فلا تغتروا به حتى تعرضوا أمره على الكتاب والسنّة.

وأما ما يقوله بعض الناس عن رسول الله ﷺ أنه قال: (اطلعت على أهل الجنة فرأيت أكثر أهلها البُله)[١]، فهذا لا يصح عن رسول الله ﷺ ولا ينبغي نسبته إليه، فإن الجنة إنما خلقت لأولي الألباب الذين أرشدتهم عقولهم وألبابهم إلى الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر. وقد ذكر الله أهل الجنة بأوصافهم في كتابه فلم يذكر في أوصافهم البله الذي هو ضعف العقل، وإنما قال النبي ﷺ: (اطلعت في الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء)[٢] ولم يقل البُله.

والطائفة الملامية وهم الذين يفعلون ما يلامون عليه ويقولون: نحن متبعون في الباطن ويقصدون إخفاء المرائين ردّوا باطلهم بباطل آخر والصراط المستقيم بين ذلك.

وكذلك الذين يصعقون عند سماع الأنغام الحسنة مبتدعون ضالّون، وليس للإنسان أن يستدعي ما يكون سبب زوال عقله ولم يكن في الصحابة والتابعين من يفعل ذلك ولو عند سماع القرآن، بل كانوا كما وصفهم الله تعالى: ﴿إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢] وكما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الزمر: ٢٣].

وأما الذين ذكرهم العلماء بخير من عقلاء المجانين، فأولئك كان فيهم خير ثم زالت عقولهم. ومن علامة هؤلاء: أنه إذا حصل في جنونهم نوع من الصحو تكلموا بما كان في قلوبهم من الإيمان ويهتدون بذلك في حال زوال عقلهم بخلاف من كان قبل جنونه كافراً أو فاسقاً لم يكن حدوث جنونه مزيلاً لما ثبت

---

(١) أخرجه البزار كما في كشف الأستار (١٩٨٣).

(٢) أخرجه البخاري (٣٢٤١)، ومسلم (٢٧٣٧).

من كفره أو فسقه، وكذلك من جنّ من المؤمنين المتقين يكون محشوراً مع المؤمنين المتقين، وزوال العقل بجنون أو غيره سواه سمي صاحبه مولعاً أو متولّهاً لا يوجب مزيد حال، بل حال صاحبه من الإيمان والتقوى يبقى على ما كان عليه من خير وشر لا أنه يزيده أو ينقصه، ولكن جنونه يحرمه الزيادة من الخير كما أنه يمنع عقوبته على الشر ولا يمحو عنه ما كان عليه قبله.

وما يحصل لبعضهم عند سماع الأنغام المطربة من الهذيان والتكلم ببعض اللغات المخالفة للسانه المعروف منه، فذلك شيطان يتكلم على لسانه كما يتكلم على لسان المصروع، وذلك كله من الأحوال الشيطانية، وكيف يكون زوال العقل سبباً أو شرطاً أو تقرُّباً إلى ولاية الله كما يظنه كثير من أهل الضلال حتى قال قائلهم:

هم معشر حلوا النظام وخرقوا ... السياج فلا فرض لديهم ولا نفل

مجانين إلا أن سر جنونهم ... عزيز على أبوابه يسجد العقل

وهذا كلام ضال، بل كافر يظن أن في الجنون سراً يسجد العقل على بابه لما رآه من بعض المجانين من نوع مكاشفة أو تصرُّف عجيب خارق للعادة، ويكون ذلك سبب ما اقترن به من الشياطين كما يكون للسحرة والكهّان، فيظن هذا الضال أن كل من خبل أو خرق عادة كان ولياً لله، ومن اعتقد هذا فهو كافر، فقد قال تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾﴾ [الشعراء: ٢٢١، ٢٢٢] فكل من تنزّل عليه الشياطين لا بدّ أن يكون عنده كذب وفجور.

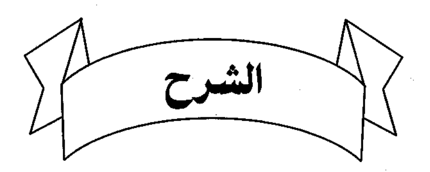
وأما الذين يتعبدون بالرياضات والخلوات ويتركون الجمع والجماعات فهم الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً، قد طبع الله على قلوبهم كما قد ثبت في «الصحيح» عن النبي ﷺ أنه قال: (من ترك ثلاث جمع تهاوناً من غير عذر طبع الله على قلبه)[(١)]. وكل من عدل عن اتباع سنّة الرسول إن كان عالماً بها فهو مغضوب عليه وإلّا فهو ضال، ولهذا شرع الله لنا أن نسأله في كل صلاة أن يهدينا الصراط المستقيم صراط الذين أنعم عليهم من

(١) أخرجه أبو داود (١٠٥٢)، والترمذي (٥٠٠).

النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً، غير المغضوب عليهم ولا الضالين.

وأما من يتعلق بقصة موسى مع الخضر عليه السلام في تجويز الاستغناء عن الوحي بالعلم اللدني الذي يدّعيه بعض من عُدم التوفيق فهو ملحد زنديق، فإن موسى عليه السلام لم يكن مبعوثاً إلى الخضر ولم يكن الخضر مأموراً بمتابعته، ولهذا قال له: أنت موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم، ومحمد ﷺ مبعوث إلى جميع الثقلين، ولو كان موسى وعيسى حيين لكانا من أتباعه، وإذا نزل عيسى عليه السلام إلى الأرض إنما يحكم بشرعة محمد، فمن ادعى أنه مع محمد ﷺ كالخضر مع موسى أو جوّز ذلك لأحد من الأمة فليجدد إسلامه وليشهد شهادة الحق فإنه مفارق لدين الإسلام بالكلية، فضلاً عن أن يكون من أولياء الله وإنما هو من أولياء الشيطان، وهذا الموضع مفرق بين زنادقة القوم وأهل الاستقامة.

وكذا من يقول: بأن الكعبة تطوف برجال منهم حيث كانوا، فهلّا خرجت الكعبة إلى الحديبية فطافت برسول الله ﷺ حين أحصر عنها وهو يود منها نظرة، وهؤلاء لهم شبه بالذين وصفهم الله تعالى حيث يقول: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾﴾ [المدثر: ٥٢] إلى آخر السورة.



عناصر الموضوع:

١ غرض المصنف من عقد هذا الباب:

تقرير معتقد أهل السنة أن الغيب لا يطّلع عليه إلا الله، لذا يجب على المسلم أن لا يصدق الكهنة والعرّافين فيما يخبرون به من الأمور الغيبية لأن الغيب لا يعلمه إلا الله، وكذلك لا يقبلون من أحد قولاً يخالف ما ثبت في الكتاب والسنة وإجماع الأمة لأن الحق لا يخرج عنها وما عداها فباطل.

٢ مناسبة هذا الباب لما سبق:

قرر المصنف فيما سبق أشراط الساعة الكبرى وهي من الغيب، فيجب علينا الإيمان والتصديق بوقوعها مستقبلاً، وفي هذا الباب يؤكد أن مسائل الغيب لا تؤخذ من الكهان والعرّافين، ولا ممن يدعي شيئاً خلاف الكتاب والسنة.

٣ معاني الكلمات:

الكلمة	المعنى
رجال الغيب	مصطلح صوفي يطلق على الأقطاب والأوتاد والأبدال والنقباء وغيرهم.
الحال	مصطلح صوفي ويراد به ما يرد على القلب أو ما يحل به من حزن أو بسط أو قبض.
البله	يعني البله في أمور الدنيا، لقلة اهتمامهم بها.

٤ معنى كلام الطحاوي: «ولا نصدق كاهناً ولا عرافاً ولا من يدعي شيئاً يخالف الكتاب والسنة وإجماع الأمة»:

ولا نصدق كاهناً ولا عرافاً وهم الذين يدعون علم الغيب، والإخبار بالمغيبات؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ [لقمان: ٣٤] وقال تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [النمل: ٦٥]. والنبي ﷺ يقول: **(من أتى كاهناً أو عرافاً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد).**

وهكذا كل من ادعى شيئاً مخالفاً لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وإجماع الأمة فإننا نرده عليه، ولا نقبله كائناً من كان.

٥ أنواع المنجمين:

وهؤلاء الذين يفعلون هذه الأفعال الخارجة عن الكتاب والسنة أنواع:

نوع منهم أهل تلبيس وكذب وخداع الذين يظهر أحدهم طاعة الجن له أو يدعي الحال من أهل المحال من المشايخ النصابين والفقراء الكاذبين والطرقية المكارين، فهؤلاء يستحقون العقوبة البليغة التي تردعهم وأمثالهم عن الكذب والتلبيس، وقد يكون في هؤلاء من يستحق القتل كمن يدعي النبوة بمثل هذه الخزعبلات أو يطلب تغيير شيء من الشريعة ونحو ذلك.

ونوع يتكلم في هذه الأمور على سبيل الجد والحقيقة بأنواع السحر.

٦ معنى السحر وحكمه:

السحر لغة: عبارة عما خفي ولطف سببه.

وشرعاً: هو ما تعاطاه السحرة من عقد وعزائم ورقى وأعمال تؤثر في القلوب والأبدان، فيمرض ويقتل ويفرق بين المرء وزوجه.

وحكم السحر: محرم لأنه كفر بالله وشرك مناف للإيمان والتوحيد، ووجه دخول السحر في الشرك من جهتين:

١ ـ من جهة ما فيه من استخدام الشياطين والتعلق بهم.

٢ ـ ومن جهة ما فيه من ادعاء علم الغيب الذي استأثر الله بعلمه.

٧ حكم الساحر:

وجمهور العلماء يوجبون قتل الساحر كما هو مذهب أبي حنيفة ومالك وأحمد في المنصوص عنه، وهذا هو المأثور عن الصحابة كعمر وابنه وعثمان وغيرهم، ثم اختلف هؤلاء هل يستتاب أم لا؟ وهل يكفر بالسحر أم يقتل لسعيه في الأرض بالفساد؟

وقال طائفة: إن قتل بالسحر يقتل وإلا عوقب بدون القتل إذا لم يكن في قوله وعمله كفر، وهذا هو المنقول عن الشافعي وهو قول في مذهب أحمد.

٨ الأقوال في حقيقة السحر:

وقد تنازع العلماء في حقيقة السحر وأنواعه، والأكثر يقولون إنه قد يؤثر في موت

المسحور ومرضه من غير وصول شيء ظاهر إليه وزعم بعضهم أنه مجرد تخييل.

٩ السحر الذي فيه كفر اتفاقاً:

واتفقوا كلهم على أن ما كان من جنس دعوة الكواكب السبعة أو غيرها أو خطابها أو السجود لها والتقرب إليها بما يناسبها من اللباس والخواتم والبخور ونحو ذلك فإنه كفر وهو من أعظم أبواب الشرك فيجب غلقه بل سده وهو من جنس فعل قوم إبراهم عليه السلام، ولهذا قال ما حكى الله عنه بقوله: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾ [الصافات: ٨٨، ٨٩]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا﴾ الآيات [الأنعام: ٧٦].. إلى قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام: ٨٢].

١٠ كل رقية فيها شرك لا تجوز:

واتفقوا كلهم أيضاً على أن كل رقية وتعزيم أو قسم فيه شرك بالله فإنه لا يجوز التكلم به، وإن أطاعته به الجن أو غيرهم، وكذلك كل كلام فيه كفر لا يجوز التكلم به، وكذلك الكلام الذي لا يعرف معناه لا يتكلم به لإمكان أن يكون فيه شرك لا يعرف، ولهذا قال النبي ﷺ: **(لا بأس بالرقى ما لم تكن شركاً)**.

١١ عدم جواز الاستعانة بالجن:

ولا يجوز الاستعاذة بالجن فقد ذم الله الكافرين على ذلك فقال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾﴾ [الجن: ٦] قالوا: كان الإنسي إذا نزل بالوادي يقول: أعوذ بعظيم هذا الوادي من سفهائه فيبيت في أمن وجوار حتى يصبح ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن: ٦] يعني: الإنس للجن باستعاذتهم بهم رهقاً، أي: إثما وطغياناً وجراءة وشراً، وذلك أنهم قالوا: قد سُدنا الجن والإنس فالجن تعاظم في أنفسها وتزداد كفراً إذا عاملتها الإنس بهذه المعاملة، وقد قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ [سبأ: ٤٠،٤١] فهؤلاء الذين يزعمون أنهم يدعون الملائكة ويخاطبونهم بهذه العزائم وأنها تنزل عليهم ضالون وإنما تنزل عليهم الشياطين.

١٢ معنى استمتاع كل من الإنس والجن بعضهم ببعض:

وقد قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ وَقَالَ

أَوْلِيَاؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [الأنعام: ١٢٨]، فاستمتاع الإنسي بالجني في قضاء حوائجه وامتثال أوامره وإخباره بشيء من المغيبات ونحو ذلك، واستمتاع الجن بالإنس تعظيمه إياه واستعانته به واستغاثته وخضوعه له.

(١٣) رجال الغيب:

ونوع منهم يتكلم بالأحوال الشيطانية والكشوف ومخاطبة رجال الغيب وأن لهم خوارق تقتضي أنهم أولياء الله، وكان من هؤلاء من يعين المشركين على المسلمين ويقول إن الرسول أمره بقتال المسلمين مع المشركين لكون المسلمين قد عصوا؛ وهؤلاء في الحقيقة إخوان المشركين.

والناس من أهل العلم فيهم على ثلاثة أحزاب:

حزب يكذبون بوجود رجال الغيب، ولكن قد عاينهم الناس وثبت عمن عاينهم أو حدثه الثقات بما رأوه، وهؤلاء إذا رأوهم وتيقنوا وجودهم خضعوا لهم.

وحزب عرفوهم ورجعوا إلى القدر واعتقدوا أن ثم في الباطن طريقاً إلى الله غير طريقة الأنبياء.

وحزب ما أمكنهم أن يجعلوا ولياً خارجاً عن دائرة الرسول، فقالوا: يكون الرسول هو ممداً للطائفتين فهؤلاء معظمون للرسول جاهلون بدينه وشرعه.

والحق أن هؤلاء من أتباع الشياطين وأن رجال الغيب هم الجن ويسمون رجالاً كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾﴾ [الجن: ٦]، وإلا فالإنس يؤنسون أي يشهدون ويرون وإنما يحتجب الإنسي أحياناً لا يكون دائماً محتجباً عن أبصار الإنس، ومن ظنهم أنهم من الإنس فمن غلطه وجهله وسبب الضلال فيهم وافتراق هذه الأحزاب الثلاثة عدم الفرقان بين أولياء الشيطان وأولياء الرحمن.

(١٤) القول بأن الفقراء يسلم لهم حالهم والرد عليه:

ويقول بعض الناس: الفقراء يسلم إليهم حالهم وهذا كلام باطل، بل الواجب عرض أفعالهم وأحوالهم على الشريعة المحمدية فما وافقها قبل وما خالفها رد كما قال النبي ﷺ: **(من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد)**.

وفي رواية: **(من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد)**.

فلا طريقة إلا طريقة الرسول ﷺ، ولا حقيقة إلا حقيقته، ولا شريعة إلا

شريعته ولا عقيدة إلا عقيدته، ولا يصل أحد من الخلق بعده إلى الله وإلى رضوانه وجنته وكرامته إلا بمتابعته باطناً وظاهراً.

ومن لم يكن له مصدقاً فيما أخبر ملتزماً لطاعته فيما أمر في الأمور الباطنة التي في القلوب والأعمال الظاهرة التي على الأبدان لم يكن مؤمناً فضلاً عن أن يكون ولياً لله تعالى ولو طار في الهواء ومشى على الماء وأنفق من الغيب وأخرج الذهب من الخشب، ولو حصل له من الخوارق ماذا عسى أن يحصل فإنه لا يكون مع تركه الفعل المأمور وعزل المحظور إلا من أهل الأحوال الشيطانية المبعدة لصاحبها عن الله تعالى المقربة إلى سخطه وعذابه، لكن من ليس يكلف من الأطفال والمجانين قد رفع عنهم القلم فلا يعاقبون وليس لهم من الإيمان بالله والإقرار باطناً وظاهراً ما يكونون به من أولياء الله المقربين وحزبه المفلحين وجنده الغالبين، لكن يدخلون في الإسلام تبعاً لآبائهم كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖۚ كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ ٢١﴾ [الطور: ٢١].

١٥ الاعتقاد في بعض البله[1]:

فمن اعتقد في بعض البله أو المولعين مع تركه لمتابعة الرسول في أقواله وأفعاله وأحواله أنه من أولياء الله ويفضله على متبعي طريقة الرسول فهو ضال مبتدع مخطئ في اعتقاده، فإن ذاك الأبله إما أن يكون شيطاناً زنديقاً أو زوكارياً متحيلاً أو مجنوناً معذوراً، فكيف يفضل على من هو من أولياء الله المتبعين لرسوله أو يساوى به؟ ولا يقال يمكن أن يكون هذا متبعاً في الباطن وإن كان تاركاً للاتباع في الظاهر، فإن هذا خطأ أيضاً، بل الواجب متابعة الرسول ظاهراً وباطناً، قال يونس بن عبد الأعلى الصدفي: قلت للشافعي: إن صاحبنا الليث كان يقول إذا رأيتم الرجل يمشي على الماء فلا تغتروا به حتى تعرضوا أمره على الكتاب والسنة، فقال الشافعي: قصر الليث رحمه الله، بل إذا رأيتم الرجل يمشي على الماء ويطير في الهواء فلا تغتروا به حتى تعرضوا أمره على الكتاب والسنة.

---

(١) البله جمع الأبله: وهو الغافل عن الشر المطبوع على الخير وقيل: هم الذين غلبت عليهم سلامة الصدور وحسن الظن بالناس لأنهم أغفلوا أمر دنياهم فجهلوا حذق التشرف فيها وأقبلوا على أخرتهم فشغلوا أنفسهم، انظر: النهاية (١/ ١٥٥).

١٦ حديث: «أكثر أهل الجنة البله»:

وأما ما يقوله بعض الناس عن رسول الله ﷺ أنه قال: (**اطلعت على أهل الجنة فرأيت أكثر أهلها البله**)، فهذا لا يصح عن رسول الله ﷺ ولا ينبغي نسبته إليه، فإن الجنة إنما خلقت لأولي الألباب الذين أرشدتهم عقولهم وألبابهم إلى الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وقد ذكر الله أهل الجنة بأوصافهم في كتابه فلم يذكر في أوصافهم البله الذي هو ضعف العقل، وإنما قال النبي ﷺ: (**اطلعت في الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء**) ولم يقل البله.

١٧ الطائفة الملامية:

الملامية: يقصد بهم في المصطلح الصوفي: الذين لا يظهرون للخلق أعمالاً وأسراراً بل يخفون أسرارهم لكمال ذوقهم وقوه شهودهم لربهم وذلك بأن يظهروا ارتكاب المعاصي بحجة عدم لفت الأنظار إلى صلاحهم، بدعوى أن ذلك لن يؤثر في صلاحهم لأن عروقهم قد تشربت الإخلاص[١].

١٨ من يصعق بالأنغام الحسنة ويهذي بسماعها:

وكذلك الذين يصعقون عند سماع الأنغام الحسنة مبتدعون ضالون، وليس للإنسان أن يستدعي ما يكون سبب زوال عقله، ولم يكن في الصحابة والتابعين من يفعل ذلك ولو عند سماع القرآن، بل كانوا كما وصفهم الله تعالى: ﴿إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢]، وكما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الزمر: ٢٣].

وأما الذين ذكرهم العلماء بخير من عقلاء المجانين فأولئك كان فيهم خير ثم زالت عقولهم، ومن علامة هؤلاء أنه إذا حصل في جنونهم نوع من الصحو تكلموا بما كان في قلوبهم من الإيمان، ويهتدون بذلك في حال زوال عقلهم بخلاف من كان قبل جنونه كافراً أو فاسقاً لم يكن حدوث جنونه مزيلاً لما ثبت من كفره أو فسقه، وكذلك من جن من المؤمنين المتقين يكون محشوراً مع المؤمنين المتقين، وزوال العقل بجنون أو غيره سواء سمي صاحبه مولعاً أو

---

(١) انظر: الموسوعة الميسرة (٢/ ١١٦٢)، والفتاوى (٣٥/ ١٦٤).

متولهاً لا يوجب مزيد حال، بل حال صاحبه من الإيمان والتقوى يبقى على ما كان عليه من خير وشر لا أنه يزيده أو ينقصه، ولكن جنونه يحرمه الزيادة من الخير كما أنه يمنع عقوبته على الشر ولا يمحو عنه ما كان عليه قبله.

وما يحصل لبعضهم عند سماع الأنغام المطربة من الهذيان والتكلم ببعض اللغات المخالفة للسانة المعروف منه فذلك شيطان يتكلم على لسانه كما يتكلم على لسان المصروع، وذلك كله من الأحوال الشيطانية، وكيف يكون زوال العقل سبباً أو شرطاً أو تقرباً إلى ولاية الله كما يظنه كثير من أهل الضلال حتى قال قائلهم:

هم معشر حلوا النظام وخرقوا الـ سياج فلا فرض لديهم ولا نفل
مجانين إلا أن سر جنونهم عزيز على أبوابه يسجد العقل

وهذا كلام ضال بل كافر يظن أن في الجنون سراً يسجد العقل على بابه لما رآه من بعض المجانين من نوع مكاشفة أو تصرف عجيب خارق للعادة، ويكون ذلك سبب ما اقترن به من الشياطين كما يكون للسحرة والكهان، فيظن هذا الضال أن كل من خبل أو خرق عادة كان ولياً لله، ومن اعتقد هذا فهو كافر، فقد قال تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾﴾ [الشعراء: ٢٢١، ٢٢٢] فكل من تنزل عليه الشياطين لا بد أن يكون عنده كذب وفجور.

١٩ من يجوِّز الخروج عن الشريعة متعلقاً بقصة موسى:

وأما من يتعلق بقصة موسى مع الخضر عليه السلام في تجويز الاستغناء عن الوحي بالعلم اللدني الذي يدعيه بعض من عدم التوفيق فهو ملحد زنديق، فإن موسى عليه السلام لم يكن مبعوثاً إلى الخضر ولم يكن الخضر مأموراً بمتابعته، ولهذا قال له: أنت موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم، ومحمد ﷺ مبعوث إلى جميع الثقلين، ولو كان موسى وعيسى حيين لكانا من أتباعه، وإذا نزل عيسى عليه السلام إلى الأرض إنما يحكم بشريعة محمد، فمن ادعى أنه مع محمد ﷺ كالخضر مع موسى أو جوَّز ذلك لأحد من الأمة فليجدد إسلامه وليشهد شهادة الحق فإنه مفارق لدين الإسلام بالكلية فضلاً عن أن يكون من أولياء الله، وإنما هو من أولياء الشيطان وهذا الموضع مفرق بين زنادقة القوم وأهل الاستقامة وحرك ترى.

٢٠ من يقول بطواف الكعبة معه:

وكذا من يقول بأن الكعبة تطوف برجال منهم حيث كانوا، فهلَّا خرجت الكعبة إلى الحديبية فطافت برسول الله ﷺ حين أحصر عنها وهو يود منها نظرة، وهؤلاء

لهم شبه بالذين وصفهم الله تعالى حيث يقول: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾﴾ [المدثر: ٥٢] إلى آخر السورة.

٢١ معنى الكاهن والعرّاف:

الكاهن: هو الذي يأخذ عن مسترق السمع ويخبر عن المغيبات في المستقبل.

العرّاف: هو الذي يدعي معرفة الأمور بمقدمات يستدل بها على المسروق ومكان الضالة ونحو ذلك.

٢٢ حكم الكهانة والعرّافة:

الكهانة والعرّافة من الشرك، وقد دخلت في الشرك من جهتين:

١ ـ من جهة دعوى مشاركة الله في علم الغيب الذي اختص به.

٢ ـ ومن جهة التقرب إلى غير الله كاستخدام الشياطين والاستعانة بهم.

٢٣ خطورة إتيان الكهان والعرّافين:

يجب على المسلم أن يحذر من الذهاب إلى الكهان والعرّافين وغيرهم ممن يدعون علم الغيب، وأن يحذر غيره من الذهاب إليهم.

لما في ذلك من أضرار عقدية، ومفاسد خلقية واجتماعية.. الخ.

٢٤ حكم سؤال العرّاف:

فمن أتى كاهناً أو عرافاً وصدَّقهم فيما يقولون ويزعمون فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ؛ لأنه صدَّق أن هناك من يعلم الغيب غير الله تعالى.

ومن أتاهم ولم يصدقهم لم تقبل له صلاة أربعين يوماً.

وذلك للأدلة الواردة في ذلك، ومنها:

روى مسلم والإمام أحمد عن صفية بنت أبي عبيد عن بعض أزواج النبي ﷺ عن النبي ﷺ قال: **(من أتى عرافاً فسأله عن شيء لم يقبل له صلاة أربعين ليلة).**

وروى الإمام أحمد في مسنده عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: **(من أتى عرافاً أو كاهناً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد).**

٢٥ سبل الوقاية من السحر:

خير علاج للسحر أن يتقيه المسلم ويحترز منه قبيل وقوعه وحدوثه، وأهم ما يتحصن به المسلم من السحر هو الآتي:

١ ـ قراءة سورة الإخلاص والمعوذتين ثلاث مرات في أول النهار وأول الليل.

٢ ـ قراءة الآيتين من آخر سورة البقرة، لقول النبي ﷺ: **(من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة كفتاه)**[1].

٣ ـ قراءة آية الكرسي وهي أعظم آية في القرآن.

٤ ـ التعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق في الليل والنهار وعند نزول أي منزل في البناء أو الصحراء لقول النبي ﷺ: **(من نزل منزلاً فقال: أعوذ بكلمات الله التامَّات من شر ما خلق، لم يضره شيء حتى يرتحل من منزله ذلك)**[2].

(٢٦) موقف المسلم من السحر والمشعوذين:

السحر والشعوذة من أعمال الجاهلية التي جاء الإسلام بإبطالها والتحذير من فعلها أو إتيان من يمارسها، فيجب على المسلم أن يبتعد عن السحرة والمشعوذين، ويحذر منهم ومن إتيانهم وسؤالهم أو تصديقهم، فإن ذلك ينقص إيمانه بل قد يبطل إيمانه كله.

(٢٧) الخلاصة:

١ ـ لا يصدق أهل السنة والجماعة الكهان ولا العرّافين وهم الذين يدعون علم الغيب، والإخبار بالمغيبات.

٢ ـ السحر: هو ما تعاطاه السحرة من عقد وعزائم ورقى وأعمال تؤثر في القلوب والأبدان فيمرض ويقتل ويفرق بين المرء وزوجه.

٣ ـ حكم السحر: محرم لأنه كفر بالله وشرك مناف للإيمان والتوحيد.

٤ ـ جمهور العلماء يوجبون قتل الساحر، وقال طائفة إن قَتَلَ بالسحر يقتل وإلا عوقب بدون القتل إذا لم يكن في قوله وعمله كفر.

٥ ـ تنازع العلماء في حقيقة السحر وأنواعه، والأكثر يقولون إنه قد يؤثر في موت المسحور ومرضه من غير وصول شيء ظاهر إليه، وزعم بعضهم أنه مجرد تخييل.

٦ ـ كل رقية فيها شرك لا تجوز.

٧ ـ لا يجوز الاستعاذة بالجن لأن الله ذم الكافرين على ذلك فقال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦﴾ [الجن: ٦].

٨ ـ ويقول بعض الناس: الفقراء يسلم إليهم حالهم وهذا كلام باطل، بل الواجب عرض أفعالهم وأحوالهم على الشريعة المحمدية، فما وافقها قُبل،

---

(١) رواه البخاري (٥٠٠٨).

(٢) رواه مسلم (٢٧٠٨).

وما خالفها رُدَّ، كما قال النبي ﷺ: **(من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد)**.

٩ ـ من اعتقد في بعض البله أو المولعين مع تركه لمتابعة الرسول في أقواله وأفعاله وأحواله أنه من أولياء الله ويفضله على متبعي طريقة الرسول فهو ضال مبتدع مخطئ في اعتقاده.

١٠ ـ حديث: **(أكثر أهل الجنة البله)**: لا يصح عن رسول الله ﷺ ولا ينبغي نسبته إليه.

١١ ـ الطائفة الملامية وهم الذين يفعلون ما يلامون عليه ويقولون نحن متبعون في الباطن ويقصدون إخفاء المرائين، ردوا باطلهم بباطل آخر والصراط المستقيم بين ذلك.

١٢ ـ من يصعقون بالأنغام الحسنة ويهذون بسماعها مبتدعون ضالون، وليس للإنسان أن يستدعي ما يكون سبب زوال عقله ولم يكن في الصحابة والتابعين من يفعل ذلك ولو عند سماع القرآن.

١٣ ـ من تعلق بقصة موسى مع الخضر عليه السلام في تجويز الاستغناء عن الوحي بالعلم اللدني الذي يدعيه بعض من عدم التوفيق فهو ملحد زنديق، فإن موسى عليه السلام لم يكن مبعوثاً إلى الخضر ولم يكن الخضر مأموراً بمتابعته.

١٤ ـ وكذا من يقول بأن الكعبة تطوف برجال منهم حيث كانوا، فهو ملحد زنديق ضال.

١٥ ـ الكاهن: هو الذي يأخذ عن مسترق السمع ويخبر عن المغيبات في المستقبل.

١٦ ـ العرّاف: هو الذي يدعي معرفة الأمور بمقدمات يستدل بها على المسروق ومكان الضالة ونحو ذلك.

١٧ ـ الكهانة والعرّافة من الشرك.

١٨ ـ فمن أتى كاهناً أو عرافاً وصدقهم، فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ؛ ومن أتاهم ولم يصدقهم لم تقبل له صلاة أربعين يوماً.

١٩ ـ خير علاج للسحر أن يتقيه المسلم ويحترز منه قبيل وقوعه وحدوثه، وأهم ما يتحصن به المسلم من السحر هو كتاب الله ﷻ.

٢٠ ـ السحر والشعوذة من أعمال الجاهلية التي جاء الإسلام بإبطالها والتحذير من فعلها أو إتيان من يمارسها، فيجب على المسلم أن يبتعد عن السحرة

والمشعوذين، ويحذر منهم ومن إتيانهم وسؤالهم أو تصديقهم، فإن ذلك ينقص إيمانه بل قد يبطل إيمانه كله.

(٢٨) **المناقشة:**

- **س١:** بيِّن معنى كلام الطحاوي: «ولا نصدق كاهناً ولا عرافاً ولا من يدعي شيئاً يخالف الكتاب والسنة وإجماع الأمة».
- **س٢:** اذكر أنواع المنجمين؟
- **س٣:** ما معنى السحر؟ وما حكمه؟
- **س٤:** بيِّن حكم الساحر.
- **س٥:** اذكر الأقوال في حقيقة السحر.
- **س٦:** ما هو السحر الذي فيه كفر اتفاقاً؟
- **س٧:** وضِّح ضوابط الرقية الشرعية.
- **س٨:** هل يجوز الاستعانة بالجن؟
- **س٩:** ما المقصود باستمتاع كل من الإنس والجن بعضهم ببعض؟
- **س١٠:** من هُم رجال الغيب؟
- **س١١:** كيف ترد على من يقول بأن الفقراء يسلم لهم حالهم؟
- **س١٢:** ما قولك في اعتقاد بعض الناس في بعض البله؟
- **س١٣:** ما درجة حديث: **(أكثر أهل الجنة البله)**؟
- **س١٤:** تكلم عن الطائفة الملامية.
- **س١٥:** ما حكم من يصعق بالأنغام الحسنة ويهذي بسماعها؟
- **س١٦:** كيف ترد على من يجوِّز الخروج عن الشريعة متعلقاً بقصة موسى مع الخضر؟
- **س١٧:** ما حكم من يقول بطواف الكعبة معه؟ وكيف ترد عليه؟
- **س١٨:** عرِّف كلّاً من الكاهن والعرّاف.
- **س١٩:** ما حكم الكهانة والعرافة؟.
- **س٢٠:** بيِّن خطورة إتيان الكهان والعرّافين.
- **س٢١:** ما حكم سؤال العرّاف؟ فصِّل القول في ذلك.
- **س٢٢:** اذكر سبل الوقاية من السحر.
- **س٢٣:** ما موقف المسلم من السحرة والمشعوذين؟

الحث على الاجتماع والنهي عن التفرق والاختلاف

* كلام ابن أبي العز:

١ ـ غرض المصنف من عقد هذا الباب.

٢ ـ مناسبة هذا الباب لما سبق.

٣ ـ معاني الكلمات.

٤ ـ معنى كلام الطحاوي: «ونرى الجماعة حقاً وصواباً، والفرقة زيغاً وعذاباً».

٥ ـ أدلة الاجتماع والنهي عن الافتراق.

٦ ـ وجوب الرد إلى الكتاب والسنة عند التنازع.

٧ ـ أقسام الناس.

٨ ـ مراتب الافتراق والاختلاف في الدين.

٩ ـ أنواع الاختلاف.

١٠ ـ اختلاف التنوع يكون على وجوه.

١١ ـ اختلاف التضاد.

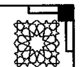
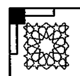
١٢ ـ موضع الذم في خلاف التنوع.

١٣ ـ أكثر البغي في التنوع وأدلة البغي.

١٤ ـ الاختلاف في كتاب الله على نوعين.

١٥ ـ الخلاصة.

١٦ ـ المناقشة.

الحث على الاجتماع والنهي عن التفرُّق والاختلاف

قال ابن أبي العز:

قوله: «ونرى الجماعة حقاً وصواباً والفرقة زيغاً وعذاباً».

قال الله تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾﴾ [آل عمران: ١٠٥].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [الأنعام: ١٥٩].

وقال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩].

فجعل أهل الرحمة مستثنين من الاختلاف وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾﴾ [البقرة: ١٧٦].

وقد تقدم قوله ﷺ: (إن أهل الكتابين افترقوا في دينهم على ثنتين وسبعين ملة وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين ملة يعني الأهواء كلها في النار إلّا واحدة وهي الجماعة)(١).

وفي رواية: قالوا: من هي يا رسول الله؟ قال: (ما أنا عليه وأصحابي)، فبيّن أن عامة المختلفين هالكون إلّا أهل السنّة والجماعة وأن الاختلاف واقع لا محالة.

وروى الإمام أحمد عن معاذ بن جبل أن النبي ﷺ قال: (إن الشيطان ذئب الإنسان كذئب الغنم يأخذ الشاة القاصية والناحية، فإياكم والشعاب وعليكم بالجماعة والعامة والمسجد)(٢).

وفي «الصحيحين» عن النبي أنه قال لما نزل قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٥/ ٢٣٢).

﴿يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ [الأنعام: ٦٥] قال: (أعوذ بوجهك) ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ [الأنعام: ٦٥] قال: (أعوذ بوجهك) ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ [الأنعام: ٦٥] قال: (هاتان أهون)(١).

فدلّ على أنه لا بدّ أن يلبسهم شيعاً ويذيق بعضهم بأس بعض مع براءة الرسول من هذه الحال وهم فيها في جاهلية، ولهذا قال الزهري: وقعت الفتنة وأصحاب رسول الله ﷺ متوافرون، فأجمعوا على أن كل دم أو مال أو قرح أصيب بتأويل القرآن فهو هدر أنزلوهم منزلة الجاهلية.

وقد روى مالك بإسناده الثابت عن عائشة رضي الله عنها أنها كانت تقول: ترك الناس العمل بهذه الآية، يعني قوله تعالى: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الحجرات: ٩] فإن المسلمين لما اقتتلوا كان الواجب الإصلاح بينهم كما أمر الله تعالى، فلما لم يعمل بذلك صارت فتنة وجاهلية.

وهكذا تسلسل النزاع والأمور التي تتنازع فيها الأمة في الأصول والفروع إذا لم يردّ إلى الله والرسول لم يتبين فيها الحق، بل يصير فيها المتنازعون على غير بيّنة من أمرهم، فإن رحمهم الله أقرّ بعضهم بعضاً ولم يبغ بعضهم على بعض كما كان الصحابة في خلافة عمر وعثمان يتنازعون في بعض مسائل الاجتهاد فيقرّ بعضهم بعضاً ولا يعتدي ولا يُعتدى عليه، وإن لم يرحموا وقع بينهم الاختلاف المذموم فبغى بعضهم على بعض إما بالقول مثل تكفيره وتفسيقه، وإما بالفعل مثل حبسه وضربه وقتله والذين امتحنوا الناس بخلق القرآن كانوا من هؤلاء ابتدعوا بدعة وكفروا من خالفهم فيها واستحلوا منع حقه وعقوبته.

فالناس إذا خفي عليهم بعض ما بعث الله به الرسول، إما عادلون وإما ظالمون، فالعادل فيهم الذي يعمل بما وصل إليه من آثار الأنبياء ولا يظلم غيره، والظالم الذي يعتدي على غيرهم وأكثرهم إنما يظلمون مع علمهم بأنهم يظلمون كما قال تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ [البقرة: ٢١٣]، وإلّا فلو سلكوا ما علموه من العدل أقرّ بعضهم بعضاً كالمقلدين

(١) أخرجه البخاري (٤٦٢٨).

لأئمة العلم الذين يعرفون من أنفسهم أنهم عاجزون عن معرفة حكم الله ورسوله في تلك المسائل فجعلوا أئمتهم نواباً عن الرسول وقالوا: هذا غاية ما قدرنا عليه، فالعادل منهم لا يظلم الآخر ولا يعتدي عليه بقول ولا فعل مثل: أن يدّعي أن قول مقلده هو الصحيح بلا حجة يبديها ويذم من خالفه مع أنه معذور.

ثم إن أنواع الافتراق[1] والاختلاف في الأصل قسمان: اختلاف تنوُّع واختلاف تضاد[2]:

واختلاف التنوُّع على وجوه منه ما يكون كل واحد من القولين أو الفعلين حقاً مشروعاً، كما في القراءات التي اختلف فيها الصحابة ﷺ حتى زجرهم النبي ﷺ وقال: (كلاكما محسن).

ومثله اختلاف الأنواع في صفة الأذان والإقامة والاستفتاح ومحل سجود السهو والتشهد وصلاة الخوف وتكبيرات العيد ونحو ذلك مما قد شرع جميعه وإن كان بعض أنواعه أرجح أو أفضل.

ثم تجد لكثير من الأمة في ذلك الاختلاف ما أوجب اقتتال طوائف منهم على شفع الإقامة وإيتارها ونحو ذلك، وهذا عين المحرم، وكذا تجد كثيراً منهم في قلبه من الهوى لأحد هذه الأنواع والإعراض عن الآخر والنهي عنه ما دخل به فيما نهى عنه النبي ﷺ.

ومنه ما يكون كل من القولين هو في المعنى القول الآخر، لكن العبارتان مختلفتان كما يختلف كثير من الناس في ألفاظ الحدود وصيغ الأدلة والتعبير عن المسميات ونحو ذلك، ثم الجهل أو الظلم يحمل على حمد إحدى المقالتين وذم الأخرى والاعتداء على قائلها ونحو ذلك.

وأما اختلاف التضاد فهو القولان المتنافيان، إما في الأصول وإما في الفروع عند الجمهور الذين يقولون: المصيب واحد، والخطب في هذا أشد؛ لأن القولين يتنافيان، لكن نجد كثيراً من هؤلاء قد يكون القول الباطل الذي مع منازعه فيه حق ما أو معه دليل يقتضي حقاً ما فيرد الحق مع الباطل حتى يبقى هذا مبطلاً في

---

(١) انظر: اقتضاء الصراط المستقيم (١/١٢٨ ـ ١٤٠).

(٢) أخرجه البخاري (٢٤١٠).

البعض كما كان الأول مبطلاً في الأصل وهذا يجري كثيراً لأهل السنّة.

وأما أهل البدعة فالأمر فيهم ظاهر، ومن جعل الله له هداية ونوراً رأى من هذا ما تبين له منفعة ما جاء في الكتاب والسنّة من النهي عن هذا وأشباهه وإن كانت القلوب الصحيحة تنكر هذا لكن نور على نور.

والاختلاف الأول الذي هو اختلاف التنوُّع فالذمُّ فيه واقع على من بغى على الآخر فيه، وقد دلّ القرآن على حمد كل واحد من الطائفتين في مثل ذلك إذا لم يحصل بغي كما في قوله تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ٥]، وقد كانوا اختلفوا في قطع الأشجار فقطع قوم وترك آخرون.

وكما في قوله تعالى: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ﴾ [الأنبياء: ٧٨، ٧٩] فخص سليمان بالفهم وأثنى عليهما بالحكم والعلم.

وكما في إقرار[١] النبي ﷺ يوم بني قريظة لمن صلّى العصر في وقتها ولمن أخّرها إلى أن وصل إلى بني قريظة.

وكما في قوله ﷺ: (إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر)[٢]. ونظائر ذلك.

والاختلاف الثاني: هو ما حمد فيه إحدى الطائفتين وذمت الأخرى كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

وقوله تعالى: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ﴾ [الحج: ١٩].

وأكثر الاختلاف الذي يؤول إلى الأهواء بين الأمة من القسم الأول، وكذلك إلى سفك الدماء واستباحة الأموال والعداوة والبغضاء لأن إحدى الطائفتين لا تعترف للأخرى بما معها من الحق ولا تنصفها، بل تزيد على ما مع نفسها من

---

(١) أخرجه البخاري (٩٤٦)، ومسلم (١٧٧٠).

(٢) أخرجه البخاري (٧٣٥٢)، ومسلم (١٧١٦).

الحق زيادات من الباطل والأخرى كذلك، ولذلك جعل الله مصدره البغي في قوله: ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۖ﴾ [البقرة: ٢١٣]، لأن البغي مجاوزة الحد، وذكر هذا في غير موضع من القرآن ليكون عبرة لهذه الأمة.

وقريب من هذا الباب ما خرجاه في «الصحيحين» عن أبي الزناد عن الأعرج، عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (ذروني ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم).

فأمرهم بالإمساك عما لم يؤمروا به معللاً بأن سبب هلاك الأولين إنما كان كثرة السؤال ثم الاختلاف على الرسل بالمعصية.

ثم الاختلاف في الكتاب من الذين يقرون به على نوعين:

أحدهما: اختلاف في تنزيله.

والثاني: اختلاف في تأويله وكلاهما فيه إيمان ببعض دون بعض.

فالأول كاختلافهم في تكلم الله بالقرآن وتنزيله، فطائفة قالت: هذا الكلام حصل بقدرته ومشيئته لكونه مخلوقاً في غيره لم يقم به، وطائفت قالت: بل هو صفة له قائم بذاته ليس بمخلوق لكنه لا يتكلم بمشيئته وقدرته، وكل من الطائفتين جمعت في كلامها بين حق وباطل فآمنت ببعض الحق وكذبت بما تقوله الأخرى من الحق وقد تقدمت الإشارة إلى ذلك.

وأما الاختلاف في تأويله الذي يتضمن الإيمان ببعض دون بعض فكثير، كما في حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: خرج رسول الله على أصحابه ذات يوم وهم يختصمون في القدر، هذا ينزع بآية، وهذا ينزع بآية، فكأنما فقئ في وجهه حب الرمان فقال: (أبهذا أمرتم أم بهذا وكلتم أن تضربوا كتاب الله بعضه ببعض، انظروا ما أمرتم به فاتبعوه وما نُهيتم عنه فانتهوا)[١].

وفي رواية: (يا قوم بهذا ضلت الأمم قبلكم باختلافهم على أنبيائهم وضربهم

(١) تقدم تخريجه.

الكتاب بعضه ببعض، وإن القرآن لم ينزل لتضربوا بعضه ببعض، ولكن نزل القرآن يصدق بعضه بعضاً، ما عرفتم منه فاعملوا به وما تشابه فآمنوا به).

وفي رواية: (فإن الأمم قبلكم لم يلعنوا حتى اختلفوا، وإن المراء في القرآن كفر)، وهو حديث مشهور مخرج في المسانيد والسنن.

وقد روى أصل الحديث مسلم في «صحيحه» من حديث عبد الله بن رباح الأنصاري أن عبد الله بن عمرو قال: هجَّرت إلى النبي ﷺ يوماً فسمع أصوات رجلين اختلفا في آية، فخرج علينا رسول الله يعرف في وجهه الغضب فقال: (إنما هلك من كان قبلكم باختلافهم في الكتاب)[1].

وجميع أهل البدع مختلفون في تأويله مؤمنون ببعضه دون بعض يقرون بما يوافق رأيهم من الآيات وما يخالفه، إما أن يتأولوه تأويلاً يحرفون فيه الكلم عن مواضعه، وإما أن يقولوا هذا متشابه لا يعلم أحد معناه فيجحدوا ما أنزله من معانيه وهو في معنى الكفر بذلك، لأن الإيمان باللفظ بلا معنى هو من جنس إيمان أهل الكتاب كما قال تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًاۢ﴾ [الجمعة: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ [البقرة: ٧٨] أي إلا تلاوة من غير فهم معناه، وليس هذا كالمؤمن الذي فهم ما فهم من القرآن فعمل به واشتبه عليه بعضه فوكل علمه إلى الله كما أمره النبي ﷺ بقوله: (فما عرفتم منه فاعملوا به وما جهلتم منه فردّوه إلى عالمه) فامتثل ما أمر نبيه ﷺ.

(١) أخرجه مسلم (٢٦٦٦).



عناصر الموضوع:

١ غرض المصنف من عقد هذا الباب:

تقرير معتقد أهل السنة والجماعة في أن الاجتماع حق وأنه يجب على الأمة أن تجتمع على الحق، والفرقة عذاب، فالاجتماع للأمة على الحق رحمة والفرقة بينها عذاب.

٢ مناسبة هذا الباب لما سبق:

قرر المؤلف فيما سبق أن من أصول أهل السنة اتباع السنة والجماعة واجتناب الشذوذ والفرقة، فناسب أن يؤكد على أن من صميم عقيدة أهل السنة أن اجتماع الأمة على الحق رحمة والفرق بينها عذاب.

٣ معاني الكلمات:

الكلمة	المعنى
الفسق	هو الخروج عن طاعة الله ﷿.

٤ معنى كلام الطحاوي: «ونرى الجماعة حقاً وصواباً، والفرقة زيغاً وعذاباً»:

ونرى الجماعة هي الحق والصواب، والطريق المستقيم، وهي الفرقة الناجية، وهي ما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه، وما عداها من فرق الضلال فزيغ وضلال وميل عن الحق وعذاب في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام: ١٥٣].

٥ أدلة الاجتماع والنهي عن الافتراق:

قال الله تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ۚ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَٱخْتَلَفُوا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُولَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾﴾ [آل عمران: ١٠٥].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [الأنعام: ١٥٩].

وقال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩].

فجعل أهل الرحمة مستثنين من الاختلاف، وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِي ٱلْكِتَٰبِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾﴾ [البقرة: ١٧٦].

وقد تقدم قوله ﷺ: **(إن أهل الكتابين افترقوا في دينهم على ثنتين وسبعين ملة وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين ملة يعني الأهواء كلها في النار إلا واحدة وهي الجماعة)**(١).

وفي رواية: قالوا: من هي يا رسول الله؟ قال: **(ما أنا عليه وأصحابي)** فبيّن أن عامة المختلفين هالكون إلا أهل السنة والجماعة وأن الاختلاف واقع لا محالة.

وروى الإمام أحمد عن معاذ بن جبل أن النبي ﷺ قال: **(إن الشيطان ذئب الإنسان كذئب الغنم يأخذ الشاة القاصية والناحية، فإياكم والشعاب وعليكم بالجماعة والعامة والمسجد)**.

وفي الصحيحين عن النبي أنه قال لما نزل قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ [الأنعام: ٦٥] قال: **(أعوذ بوجهك)** ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ [الأنعام: ٦٥] قال: **(أعوذ بوجهك)** ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ [الأنعام: ٦٥] قال: **(هاتان أهون)**.

فدل على أنه لا بد أن يلبسهم شيعاً ويذيق بعضهم بأس بعض مع براءة الرسول من هذه الحال وهم فيها في جاهلية، ولهذا قال الزهري: وقعت الفتنة وأصحاب رسول الله ﷺ متوافرون فأجمعوا على أن كل دم أو مال أو قرح أصيب بتأويل القرآن فهو هدر أنزلوهم منزلة الجاهلية.

وقد روى مالك بإسناده الثابت عن عائشة ﵂ أنها كانت تقول: ترك الناس العمل بهذه الآية يعني قوله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الحجرات: ٩]، فإن المسلمين لما اقتتلوا كان الواجب الإصلاح بينهم كما أمر الله تعالى، فلما لم يعمل بذلك صارت فتنة وجاهلية.

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٢٣٢)، والطبراني في الكبير (٣٤٥).

٦ وجوب الرد إلى الكتاب والسنة عند التنازع:

وهكذا تسلسل النزاع والأمور التي تتنازع فيها الأمة في الأصول والفروع إذا لم ترد إلى الله والرسول لم يتبين فيها الحق بل يصير فيها المتنازعون على غير بينة من أمرهم، فإن رحمهم الله أقر بعضهم بعضاً ولم يبغ بعضهم على بعض كما كان الصحابة في خلافة عمر وعثمان يتنازعون في بعض مسائل الاجتهاد فيقر بعضهم بعضاً ولا يعتدي ولا يُعتدى عليه، وإن لم يرحموا وقع بينهم الاختلاف المذموم فبغى بعضهم على بعض إما بالقول مثل تكفيره وتفسيقه، وإما بالفعل مثل حبسه وضربه وقتله والذين امتحنوا الناس بخلق القرآن كانوا من هؤلاء ابتدعوا بدعة وكفروا من خالفهم فيها واستحلوا منه حقه وعقوبته.

٧ أقسام الناس:

فالناس إذا خفي عليهم بعض ما بعث الله به الرسول: أ ـ إما عادلون، ب ـ وإما ظالمون فالعادل فيهم الذي يعمل بما وصل إليه من آثار الأنبياء ولا يظلم غيره، والظالم: الذي يعتدي على غيره وأكثرهم إنما يظلمون مع علمهم بأنهم يظلمون كما قال تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ الْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ [البقرة: ٢١٣]، وإلا فلو سلكوا ما علموه من العدل أقر بعضهم بعضاً كالمقلدين لأئمة العلم الذين يعرفون من أنفسهم أنهم عاجزون عن معرفة حكم الله ورسوله في تلك المسائل فجعلوا أئمتهم نواباً عن الرسول وقالوا هذا غاية ما قدرنا عليه، فالعادل منهم لا يظلم الآخر ولا يعتدي عليه بقول ولا فعل مثل أن يدعي أن قول مقلّده هو الصحيح بلا حجة عنده ويذم من خالفه مع أنه معذور.

٨ مراتب الافتراق والاختلاف في الدين:

أ ـ المرتبة الأولى: مخالفة أصل الدين وهم أعظم مراتب الافتراق مثل دعاء الأموات أو التقرب للكواكب وعبادة غير الله وإقامة المشاهد من فرق الرافضة والباطنية والقبورية وغيرهم.

ب ـ المرتبة الثانية: الافتراق البدعي غير الكفري، مثل الذي حصل من الخوارج من تكفير بالمعصية والخروج على الجماعة.

ج ـ المرتبة الثالثة: الافتراق في المسائل العملية في مسائل الفقه بين الأئمة المجتهدين، فإذا اجتهد العالم وتحرىٰ الحق وأصاب فله أجران، وإذا اجتهد وتحرىٰ الحق فأخطأ فله أجر واحد علىٰ اجتهاده، وأما من قال قولاً ليس فيه

بمتحرٍّ للحق وإنما هو نتيجة عن هوىٰ فهذا يأثم ولا يؤجر(١).

٩ أنواع الاختلاف

للاختلاف أنواع بحسب اعتباراته والمقصود منه، وهو كالآتي:

أولاً: أنواع الاختلاف باعتبار حقيقته وهو ينقسم إلى قسمين:

أ - اختلاف تنوع.

ب - اختلاف تضاد.

ثانياً: أنواع الاختلاف باعتبار موضوعه، وهو ينقسم إلى قسمين:

أ - اختلاف في المسائل الاعتقادية.

ب - اختلاف في المسائل الفقهية.

ثالثاً: الاختلاف باعتبار حكمه وهو ينقسم إلى قسمين:

أ - اختلاف سائغ.

ب - اختلاف مذموم(٢)

١٠ اختلاف التنوع يكون على وجوه:

اختلاف التنوع يكون على وجوه منها:

الوجه الأول: أن تتنوع الأسماء والصفات مع اتحاد المسمىٰ فيعبر كل واحد منهم عن معنى في المسمى غير المعنى الآخر مع اتحاد المسمىٰ كما قيل في اسم السيف: الصارم والمهند(٣).

الوجه الثاني: أن يكون كل واحد من القولين أو الفعلين حقاً مشروعاً كما في القراءات التي اختلف فيها الصحابة ﷺ حتىٰ نجدهم النبي ﷺ.

الوجه الثالث: أن يذكر من الاسم العام بعض أنواعه على سبيل التمثيل وتنبيه المستمع على النوع الأعلى سبيل الحد المطابق للمحدود في عمومه وخصوصه(٤).

١١ اختلاف التضاد:

هو القولان المتنافيان، فإن كان في الاعتقاد فينتج عنه الفرقة والاختلاف الحقيقي.

---

(١) انظر: جامع شروح الطحاوية (ص١٣٥٦).

(٢) انظر: أدب الخلاف لصالح بن حميد (ص١١).

(٣) مجموع الفتاوى (١٣/ ١٧٨).

(٤) انظر المصدرالسابق (١٣/ ١٨٠).

١٢ موضع الذم في خلاف التنوع:

واختلاف التنوع الذم فيه واقع على من بغى على الآخر فيه، وقد دل القرآن على حمد كل واحد من الطائفتين في مثل ذلك إذا لم يحصل بغي كما في قوله تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ٥] وقد كانوا اختلفوا في قطع الأشجار فقطع قوم وترك آخرون.

وكما في قوله تعالى: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: ٧٨، ٧٩] فخص سليمان بالفهم وأثنى عليهما بالحكم والعلم.

وكما في إقرار النبي ﷺ يوم بني قريظة لمن صلى العصر في وقتها ولمن أخرها إلى أن وصل إلى بني قريظة.

وكما في قوله ﷺ: (**إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر**). ونظائر ذلك.

١٣ أكثر البغي في التنوع وأدلة البغي:

أكثر الاختلاف الذي يؤول إلى الأهواء بين الأمة من القسم الأول - اختلاف التنوع - وكذلك إلى سفك الدماء واستباحة الأموال والعداوة والبغضاء لأن إحدى الطائفتين لا تعترف للأخرى بما معها من الحق ولا تنصفها بل تزيد على ما مع نفسها من الحق زيادات من الباطل والأخرى كذلك، ولذلك جعل الله مصدره البغي في قوله: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ [البقرة: ٢١٣] لأن البغي مجاوزة الحد، وذكر هذا في غير موضع من القرآن ليكون عبرة لهذه الأمة.

وقريب من هذا الباب ما خرجاه في الصحيحين عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (**ذروني ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم**).

فأمرهم بالإمساك عما لم يؤمروا به معللاً بأن سبب هلاك الأولين إنما كان كثرة السؤال ثم الاختلاف على الرسل بالمعصية.

١٤ الاختلاف في كتاب الله على نوعين:

الاختلاف في الكتاب من الذين يقرون به على نوعين:

أحدهما: اختلاف في تنزيله.

والثاني: اختلاف في تأويله، وكلاهما فيه إيمان ببعض دون بعض.

فالأول كاختلافهم في تكلم الله بالقرآن وتنزيله، فطائفة قالت هذا الكلام حصل بقدرته ومشيئته لكونه مخلوقاً في غيره لم يقم به، وطائفة قالت بل هو صفة له قائم بذاته ليس بمخلوق، لكنه لا يتكلم بمشئته وقدرته، وكل من الطائفتين جمعت في كلامها بين حق وباطل فآمنت ببعض الحق وكذبت بما تقوله الأخرى من الحق وقد تقدمت الإشارة إلى ذلك.

وأما الاختلاف في تأويله الذي يتضمن الإيمان دون بعض فكثير كما في حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: خرج رسول الله على أصحابه ذات يوم وهم يختصمون في القدر هذا ينزع بآية وهذا ينزع بآية فكأنما فقئ في وجهه حب الرمان فقال: (**أبهذا أمرتم أم بهذا وكلتم أن تضربوا كتاب الله بعضه ببعض، انظروا ما أمرتم به فاتبعوه وما نهيتم عنه فانتهوا**).

وفي رواية: (**يا قوم بهذا ضلت الأمم قبلكم باختلافهم على أنبيائهم وضربهم الكتاب بعضه ببعض، وإن القرآن لم ينزل لتضربوا بعضه ببعض، ولكن نزل القرآن يصدق بعضه بعضاً، ما عرفتم منه فاعملوا به وما تشابه فآمنوا به**).

وفي رواية: (**فإن الأمم قبلكم لم يلعنوا حتى اختلفوا وإن المراء في القرآن كفر**) وهو حديث مشهور مخرج في المسانيد والسنن.

وقد روى أصل الحديث مسلم في صحيحه من حديث عبد الله بن رياح الأنصاري أن عبد الله بن عمرو قال: هجَّرت إلى النبي ﷺ يوماً فسمع أصوات رجلين اختلفا في آية فخرج علينا رسول الله يعرف في وجهه الغضب فقال: (**إنما هلك من كان قبلكم باختلافهم في الكتاب**).

وجميع أهل البدع مختلفون في تأويله مؤمنون ببعضه دون بعض يقرون بما يوافق رأيهم من الآيات وما يخالفه، إما أن يتأولوه تأويلاً يحرفون فيه الكلم عن مواضعه، وإما أن يقولوا هذا متشابه لا يعلم أحد معناه فيجحدوا ما أنزله من معانيه وهو في معنى الكفر بذلك لأن الإيمان باللفظ بلا معنى هو من جنس إيمان أهل الكتاب كما قال تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾ [الجمعة: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ﴾ [البقرة: ٧٨] أي: إلا تلاوة من غير فهم معناه، وليس هذا كالمؤمن الذي فهم ما فهم من القرآن فعمل، واشتبه عليه بعضه فوكل علمه

إلى الله كما أمره النبي ﷺ بقوله: **(فما عرفتم منه فاعملوا به، وما جهلتم منه فردوه إلى عالمه)** فامتثل ما أمر نبيه ﷺ.

١٥ الخلاصة:

١ ـ يرى أهل السنة والجماعة أن الجماعة هي الحق والصواب، والطريق المستقيم، وهي الفرقة الناجية، وهي ما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه.

٢ ـ الأدلة متوافرة على الحث على الاجتماع والنهي عن الافتراق.

٣ ـ وجوب الرد إلى الكتاب والسنة عند التنازع.

٤ ـ الناس إذا خفي عليهم بعض ما بعث الله به الرسول إما عادلون وإما ظالمون.

٥ ـ إن أنواع الافتراق والاختلاف في الأصل قسمان اختلاف تنوع واختلاف تضاد.

٦ ـ اختلاف التنوع الذم فيه واقع على من بغى على الآخر فيه، وقد دل القرآن على حمد كل واحد من الطائفتين في مثل ذلك إذا لم يحصل بغي.

٧ ـ أكثر الاختلاف الذي يؤول سفك الدماء واستباحة الأموال والعداوة والبغضاء، هو من باب اختلاف التنوع.

٨ ـ الاختلاف في الكتاب من الذين يقرون به على نوعين: أحدهما اختلاف في تنزيله، والثاني اختلاف في تأويله، وكلاهما فيه إيمان ببعض دون بعض.

١٦ المناقشة:

- **س١:** بيِّن معنى كلام الطحاوي: «ونرى الجماعة حقاً وصواباً، والفرقة زيغاً وعذاباً».
- **س٢:** اذكر أدلة الاجتماع والنهي عن الافتراق.
- **س٣:** إلى أي شيء يجب الرد عند التنازع؟.
- **س٤:** فصل القول في أقسام الناس إذا خفي عليهم بعض ما بعث الله به الرسول ﷺ.
- **س٥:** ما أقسام الاختلاف؟.
- **س٦:** أين موضع الذم في خلاف التنوع؟.
- **س٧:** اذكر أدلة البغي.
- **س٨:** ما أنواع الاختلاف في كتاب الله؟.

الدين عند الله الإسلام

* كلام ابن أبي العز:

١ ـ غرض المصنف من عقد هذا الباب.

٢ ـ مناسبة هذا الباب لما سبق.

٣ ـ معاني الكلمات.

٤ ـ معنى كلام الطحاوي: «ودين الله في الأرض والسماء واحد وهو دين الإسلام، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩]، وقال تعالى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] وهو بين الغلو والتقصير وبين التشبيه والتعطيل وبين الجبر والقدر وبين الأمن والإياس».

٥ ـ أدلة أن الدين عند الله الإسلام.

٦ ـ ظهور الإسلام.

٧ ـ تعليم النبي ﷺ كلاً بحسبه.

٨ ـ معنى قول الطحاوي: «بين الغلو والتقصير».

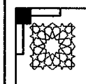
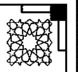
٩ ـ معنى قول الطحاوي: «بين التشبيه والتعطيل».

١٠ ـ معنى قول الطحاوي: «بين الجبر والقدر».

١١ ـ معنى قول الطحاوي: «بين الأمن والإياس».

١٢ ـ الخلاصة.

١٣ ـ المناقشة.

الدين عند الله الإسلام

قال ابن أبي العز:

قوله: «ودين الله في الأرض والسماء واحد وهو دين الإسلام. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩]، وقال تعالى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، وهو بين الغلو والتقصير، وبين التشبيه والتعطيل، وبين الجبر والقدر، وبين الأمن والإياس».

ثبت في «الصحيح» عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: (إنا معاشر الأنبياء ديننا واحد)(١). وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥] عام في كل زمان، ولكن الشرائع تتنوع كما قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨].

فدين الإسلام هو ما شرعه الله ﷻ لعباده على ألسنة رسله، وأصل هذا الدين وفروعه روايته عن الرسل وهو ظاهر غاية الظهور يمكن كل مميز من صغير وكبير وفصيح وأعجم وذكي وبليد أن يدخل فيه بأقصر زمان، وإنه يقع الخروج منه بأسرع من ذلك من إنكار كلمة أو تكذيب أو معارضة أو كذب على الله أو ارتياب في قول الله تعالى أو رد لما نزل أو شك فيما نفى الله عنه الشك، أو غير ذلك مما في معناه.

فقد دلّ الكتاب والسنّة على ظهور دين الإسلام وسهولة تعلمه وأنه يتعلمه الوافد، ثم يولي في وقته واختلاف تعليم النبي ﷺ في بعض الألفاظ بحسب من يتعلم، فإن كان بعيد الوطن كضمام بن ثعلبة النجدي ووفد عبد القيس علمهم ما لم يسعهم جهله مع علمه أن دينه سينشر في الآفاق ويرسل إليهم من يفقههم في سائر ما يحتاجون إليه، ومن كان قريب الوطن يمكنه الإتيان كل وقت بحيث يتعلم

(١) أخرجه البخاري (٣٤٤٢)، ومسلم (٢٣٦٥).

على التدريج، أو كان قد علم فيه أنه قد عرف ما لا بدّ منه أجابه بحسب حاله وحاجته على ما تدل قرينة حال السائل كقوله: «قل آمنت بالله ثم استقم»(١).

وأما من شرع ديناً لم يأذن به الله، فمعلوم أن أصوله المستلزمة له لا يجوز أن تكون منقولة عن النبي ﷺ ولا عن غيره من المرسلين، إذ هو باطل وملزوم الباطل باطل، كما أن لازم الحق حق.

وقوله: «بين الغلو والتقصير»، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ﴾ [النساء: ١٧١]، ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ﴾ [المائدة: ٧٧].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ۝٨٧ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ ۝٨٨﴾ [المائدة: ٨٧، ٨٨].

وفي «الصحيحين» عن عائشة ﵂: أن ناساً من أصحاب رسول الله ﷺ سألوا أزواج النبي ﷺ عن عمله في السر، فقال بعضهم: لا آكل اللحم، وقال بعضهم: لا أتزوج النساء، وقال بعضهم: لا أنام على فراش، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: (ما بال أقوام يقول أحدهم كذا وكذا، لكني أصوم وأفطر، وأنام وأقوم، وآكل اللحم وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنّتي فليس مني)(٢).

وفي غير «الصحيحين»: سألوا عن عبادته في السر فكأنهم تقالُّوها(٣).

وذكر في سبب نزول الآية الكريمة عن ابن جريج عن عكرمة أن عثمان بن مظعون وعلي بن أبي طالب وابن مسعود والمقداد بن الأسود وسالماً مولى أبي حذيفة ﵃ في أصحابه تبتلوا فجلسوا في البيوت واعتزلوا النساء ولبسوا المسوح وحرموا طيبات الطعام واللباس إلا ما يأكل ويلبس أهل السياحة من بني إسرائيل وهموا بالاختصاء وأجمعوا لقيام الليل وصيام النهار فنزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ۝٨٧﴾ [المائدة: ٨٧].

---

(١) أخرجه مسلم (٣٨).
(٢) أخرجه البخاري (٥٠٦٣)، ومسلم (١٤٠١).
(٣) أخرجه أحمد في المسند (٣/٢٥٩).

يقول: لا تسيروا بغير سنّة المسلمين، يريد ما حرموا من النساء والطعام واللباس، وما أجمعوا له من قيام الليل وصيام النهار، وما هموا من الاختصاء، فلما نزلت فيهم بعث النبي ﷺ إليهم فقال: (إن لأنفسكم عليكم حقاً، وإن لأعينكم حقاً صوموا وأفطروا وصلوا وناموا، فليس منّا من ترك سنّتنا)، فقالوا: اللهم سلّمنا واتبعنا ما أنزلت[1].

وقوله: «وبين التشبيه والتعطيل»، تقدم أن الله ﷻ يحب أن يوصف بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله من غير تشبيه، فلا يقال: سمع كسمعنا ولا بصر كبصرنا ونحوه، ومن غير تعطيل فلا ينفي عنه ما وصف به نفسه أو وصفه به أعرف الناس به رسوله ﷺ فإن ذلك تعطيل، وقد تقدم الكلام في هذا المعنى.

ونظير هذا القول قوله: ومن لم يتوق النفي والتشبيه زلّ ولم يصب التنزيه، وهذا المعنى مستفاد من قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، فقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ﴾ [الشورى: ١١] ردّ على المشبهة وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] ردّ على المعطلة.

وقوله: «وبين الجبر والقدر»، تقدم الكلام أيضاً على هذا المعنى وأن العبد غير مجبور على أفعاله وأقواله وأنها ليست بمنزلة حركات المرتعش وحركات الأشجار بالرجاء وغيرها وليست مخلوقة للعباد، بل هي فعل العبد وكسبه وخلق الله تعالى.

وقوله: «وبين الأمن واليأس»، تقدم الكلام أيضاً على هذا المعنى وأنه يجب أن يكون العبد خائفاً من عذاب ربه راجياً رحمته، وأن الخوف والرجاء بمنزلة الجناحين للعبد في سيره إلى الله تعالى والدار الآخرة.

(١) أخرجه ابن جرير في التفسير (١٠/ رقم ١٢٣٤٨).



عناصر الموضوع:

١ غرض المصنف من عقد هذا الباب:

بيان معتقد أهل السنة والجماعة في أن الإسلام دين وسط بين الأديان وبين الملل الأخرى، ويشير إلى أن كل دين سماوي أرسل به الرسل يسمى الإسلام وهو الاستسلام لله بالتوحيد والانقياد له بالطاعة والخلوص من الشرك، فالإسلام دين الأنبياء كلهم وأتباعهم، فكل نبي دعا قومه، وكل من اتبعه على ذلك يعتبر مسلماً. فدين الأنبياء واحد وشرائعهم مختلفة.

٢ مناسبة هذا الباب لما سبق:

قرر المصنف فيما سبق أن من صميم عقيدة أهل السنة والجماعة أن اجتماع الأمة على الحق رحمة والفرقة بينها عذاب، فناسب أن يبين أن هذا هو دين الإسلام.

٣ معاني الكلمات:

الكلمة	المعنى
الغلو	مجاوزة الحد.

٤ معنى كلام الطحاوي: «ودين الله في الأرض والسماء واحد وهو دين الإسلام، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩]، وقال تعالى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] وهو بين الغلو والتقصير وبين التشبيه والتعطيل وبين الجبر والقدر وبين الأمن والإياس»:

ودين الله واحد وهو الإسلام، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران: ٨٥]، وقال تعالى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، فهو الدين الحق الذي بعث الله به جميع رسله، وهو أن لا يعبد إلا الله تعالى، وأن يعبد بما شرع، فما من رسول إلا وقد أرسل بالإسلام،

قال أبناء يعقوب عليه السلام: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٣]، وقال موسى: ﴿يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤]، وقالت بلقيس: ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤].

وهو دين وسط كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣]؛ فهو وسط بين الغلو والتقصير، ووسط في حق النبي ﷺ، لا غلو ولا تقصير، وهو وسط في باب الصفات بين التشبيه والتعطيل، ووسط في القدر بين الجبرية والقدرية، ووسط بين الأمن من مكر الله واليأس من رحمته.

٥ أدلة أن الدين عند الله الإسلام:

ثبت في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: **(إنا معاشر الأنبياء ديننا واحد)**.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥] عام في كل زمان، ولكن الشرائع تتنوع كما قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨].

٦ ظهور الإسلام:

فدين الإسلام هو ما شرعه الله ﷻ لعباده على ألسنة رسله، وأصل هذا الدين وفروعه روايته عن الرسل، وهو ظاهر غاية الظهور، يمكن كل مميز من صغير وكبير وفصيح وأعجم وذكي وبليد أن يدخل فيه بأقصر زمان، وإنه يقع الخروج منه بأسرع من ذلك من إنكار كلمة أو تكذيب أو معارضة أو كذب على الله أو ارتياب في قول الله تعالى أو رد لما أنزل أو شك فيما نفى الله عنه الشك أو غير ذلك مما في معناه.

فقد دل الكتاب والسنة على ظهور دين الإسلام وسهولة تعلمه.

٧ تعليم النبي ﷺ كلاً بحسبه:

واختلاف تعليم النبي ﷺ في بعض الألفاظ بحسب من يتعلم، فإن كان بعيد الوطن كضمام بن ثعلبة النجدي ووفد عبد القيس علمهم ما لم يسعهم جهله مع علمه أن دينه سينشر في الآفاق ويرسل إليهم من يفقههم في سائر ما يحتاجون إليه، ومن كان قريب الوطن يمكنه الإتيان كل وقت بحيث يتعلم على التدريج، أو كان قد علم فيه أنه قد عرف ما لا بدّ منه أجابه بحسب حاله وحاجته على ما تدل قرينة حال السائل كقوله: **(قل آمنت بالله ثم استقم)**.

وأما من شرع ديناً لم يأذن به الله، فمعلوم أن أصوله المستلزمة له لا يجوز أن

تكون منقولة عن النبي ﷺ ولا عن غيره من المرسلين إذ هو باطل، وملزوم الباطل باطل كما أن لازم الحق حق.

٨ معنى قول الطحاوي: «بين الغلو والتقصير»:

وقوله: بين الغلو والتقصير، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ﴾ [النساء: ١٧١]، ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ﴾ [المائدة: ٧٧].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ٨٧ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ ٨٨﴾ [المائدة: ٨٧، ٨٨].

وفي «الصحيحين» عن عائشة رضي الله عنها أن ناساً من أصحاب رسول الله ﷺ سألوا أزواج النبي ﷺ عن عمله في السر فقال بعضهم: لا آكل اللحم، وقال بعضهم: لا أتزوج النساء، وقال بعضهم: لا أنام على فراش، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: (**ما بال أقوام يقول أحدهم كذا وكذا، لكني أصوم وأفطر، وأنام وأقوم، وآكل اللحم وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني**).

وفي غير «الصحيحين»: سألوا عن عبادته في السر فكأنهم تقالُّوها.

وذكر في سبب نزول الآية الكريمة عن ابن جريج عن عكرمة أن عثمان بن مظعون وعلي بن أبي طالب وابن مسعود والمقداد بن الأسود وسالماً مولى أبي حذيفة رضي الله عنه في أصحابه تبتَّلوا فجلسوا في البيوت واعتزلوا النساء ولبسوا المسوح وحرموا طيبات الطعام واللباس إلا ما يأكل ويلبس أهل السياحة من بني إسرائيل، وهموا بالاختصاء، وأجمعوا لقيام الليل وصيام النهار، فنزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ٨٧﴾ [المائدة: ٨٧].

يقول: لا تسيروا بغير سنة المسلمين، يريد ما حرموا من النساء والطعام واللباس، وما أجمعوا له من قيام الليل وصيام النهار، وما هموا به من الاختصاء، فلما نزلت فيهم بعث النبي ﷺ إليهم فقال: (**إن لأنفسكم عليكم حقاً وإن لأعينكم حقاً صوموا وأفطروا وصلوا وناموا، فليس منا من ترك سنتنا**)، فقالوا: اللهم سلّمنا واتبعنا ما أنزلت.

٩ معنى قول الطحاوي: «بين التشبيه والتعطيل»:

وقوله: (وبين التشبيه والتعطيل) تقدم أن الله ﷻ يحب أن يوصف بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله من غير تشبيه، فلا يقال: سمع كسمعنا ولا بصر كبصرنا ونحوه، ومن غير تعطيل فلا ينفي عنه ما وصف به نفسه أو وصفه به أعرف الناس به رسوله ﷺ، فإن ذلك تعطيل، وقد تقدم الكلام في هذا المعنى.

ونظير هذا القول قوله: ومن لم يتوق النفي والتشبيه زل ولم يصب التنزيه، وهذا المعنى مستفاد من قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، فقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ﴾ [الشورى: ١١] رد على المشبهة وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] رد على المعطلة.

١٠ معنى قول الطحاوي: «بين الجبر والقدر»:

وقوله: (وبين الجبر والقدر) تقدم الكلام أيضاً على هذا المعنى وأن العبد غير مجبور على أفعاله وأقواله، وأنها ليست بمنزلة حركات المرتعش وحركات الأشجار بالرياح وغيرها، وليست مخلوقة للعباد بل هي فعل العبد وكسبه وخلق الله تعالى.

١١ معنى قول الطحاوي: «بين الأمن والإياس»:

وقوله: (وبين الأمن والإياس) تقدم الكلام أيضاً على هذا المعنى وأنه يجب أن يكون العبد خائفاً من عذاب ربه راجياً رحمته، وأن الخوف والرجاء بمنزلة الجناحين للعبد في سيره إلى الله تعالى والدار الآخرة.

١٢ الخلاصة:

١ ـ دين الله واحد وهو الإسلام، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَـٰمُ ۗ﴾ [آل عمران: ١٩]، فهو الدين الحق الذي بعث الله به جميع رسله، وهو أن لا يعبد إلا الله تعالى، وأن يعبد بما شرع.

٢ ـ إن اختلاف تعليم النبي ﷺ في بعض الألفاظ بحسب من يتعلم منه.

٣ ـ دين الإسلام وسط بين الغلو والتقصير.

٤ ـ دين الإسلام وسط بين التشبيه والتعطيل.

٥ ـ دين الإسلام وسط بين الجبر والقدر.

٦ ـ دين الإسلام وسط بين الأمن واليأس.

١٣ المناقشة:

- **س١:** بيِّن معنى كلام الطحاوي: «ودين الله في الأرض والسماء واحد وهو دين الإسلام، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩]، وقال تعالى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]».
- **س٢:** اذكر أدلة أن الدين عند الله الإسلام؟.
- **س٣:** ما سبب اختلاف الألفاظ في تعليم النبي ﷺ للناس؟
- **س٤:** ما المقصود بقول الطحاوي: «بين الغلو والتقصير».
- **س٥:** ما المقصود بقول الطحاوي: «بين التشبيه والتعطيل»؟
- **س٦:** ما المقصود بقول الطحاوي: «بين الجبر والقدر»؟
- **س٧:** ما المقصود بقول الطحاوي: «بين الأمن واليأس».



البراءة ممن يخالف عقيدة أهل السنة والجماعة

* كلام ابن أبي العز:

١ ـ غرض المصنف من عقد هذا الباب.

٢ ـ مناسبة هذا الباب لما سبق.

٣ ـ معاني الكلمات.

٤ ـ معنى كلام الطحاوي: «فهذا ديننا واعتقادنا ظاهراً وباطناً ونحن براء إلى الله تعالى من كل من خالف الذي ذكرناه وبيناه، ونسأل الله تعالى أن يثبتنا على الإيمان ويختم لنا به ويعصمنا من الأهواء المختلفة والآراء المتفرقة والمذاهب الردية مثل المشبهة والمعتزلة والجهمية والجبرية والقدرية وغيرهم من الذين خالفوا السنة والجماعة وحالفوا الضلالة ونحن منهم براء وهم عندنا ضلال وأردياء، وبالله العصمة والتوفيق».

٥ ـ التعريف بالمشبهة ورؤوسهم.

٦ ـ التعريف بالمعتزلة ورؤوسهم.

٧ ـ أصول المعتزلة.

٨ ـ التعريف بالجهمية ورؤوسهم.

٩ ـ قص الجعد والجهم.

١٠ ـ ما تفرد به جهم بن صفوان من اعتقاد.

١١ ـ الخلفاء العباسيون والإمام أحمد.

١٢ ـ التعريف بالجبرية ورؤوسهم.

١٣ ـ نصوص في ذم القدرية.

١٤ ـ تتابع الفتن وترتيبها.

١٥ ـ تقابل هذه الفرق.

١٦ ـ سبب الضلال مخالفة سبيل المؤمنين والصراط المستقيم.

١٧ ـ قول بعض السلف في المنحرفين من العباد والعلماء.

١٨ ـ طرق الضلال.

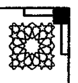
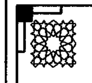
١٩ ـ أهل التبديل نوعان.

٢٠ ـ تفصيل القول في هذه الفرق.

٢١ ـ من قال: أن المراد خلاف الظاهر.

٢٢ ـ الخلاصة.

٢٣ ـ المناقشة.

البراءة ممن يخالف عقيدة أهل السنّة والجماعة

قال ابن أبي العز:

قوله: «فهذا ديننا واعتقادنا ظاهراً وباطناً ونحن براء إلى الله تعالى من كل من خالف الذي ذكرناه وبيّناه، ونسأل الله تعالى أن يثبتنا على الإيمان ويختم لنا به ويعصمنا من الأهواء المختلفة والآراء المتفرقة والمذاهب مثل: المشبهة والمعتزلة والجهمية والجبرية والقدرية وغيرهم من الذين خالفوا السنّة والجماعة وحالفوا الضلالة ونحن منهم براء وهم عندنا ضلال وأردياء وبالله العصمة والتوفيق».

الإشارة بقوله: فهذا، كل ما تقدم من أول الكتاب إلى هنا.

والمشبهة: هم الذين شبّهوا الله سبحانه بالخلق في صفاته، وقولهم عكس قول النصارى شبهوا المخلوق وهو عيسى عليه السلام بالخالق وجعلوه إلٰهاً، وهؤلاء شبهوا الخالق بالمخلوق كداود الجواربي وأشباهه.

والمعتزلة هم: عمرو بن عبيد وواصل بن عطاء الغزال وأصحابهما، سُموا بذلك لمَّا اعتزلوا الجماعة بعد موت الحسن البصري رحمه الله في أوائل المائة الثانية وكانوا يجلسون معتزلين فيقول قتادة وغيره: أولئك المعتزلة.

وقيل: إن واصل بن عطاء هو الذي وضع أصول مذهب المعتزلة وتابعه عمرو بن عبيد تلميذ الحسن البصري، فلما كان زمن هارون الرشيد صنّف لهم أبو الهذيل كتابين وبيَّن مذهبهم وبنى مذهبهم على الأصول الخمسة التي سمّوها العدل والتوحيد وإنفاذ الوعيد والمنزلة بين المنزلتين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولبسوا فيها الحق بالباطل، إذ شأن البدع هذا اشتمالها على حق وباطل.

وهم مشبهة الأفعال لأنهم قاسوا أفعال الله تعالى على أفعال عباده وجعلوا ما يحسن من العباد يحسن منه، وما يقبح من العباد يقبح منه، وقالوا: يجب عليه أن يفعل كذا، ولا يجوز له أن يفعل كذا بمقتضى ذلك القياس الفاسد، فإن السيد من

بني آدم لو رأى عبيده تزني بإمائه ولا يمنعهم من ذلك لعدّ إما مستحسناً للقبيح، وإما عاجزاً، فكيف يصح قياس أفعاله ﷻ على أفعال عباده، والكلام على هذا المعنى مبسوط في موضعه.

فأما العدل فستروا تحته نفي القدر وقالوا: إن الله لا يخلق الشر ولا يقضي به، إذ لو خلقه ثم يعذبهم عليه يكون ذلك جَوراً، والله تعالى عادلاً لا يجور، ويلزم على هذا الأصل الفاسد أن الله تعالى يكون في ملكه ما لا يريده، فيريد الشيء ولا يكون، ولازمه وصفه بالعجز تعالى الله عن ذلك.

وأما التوحيد فستروا تحته القول بخلق القرآن، إذ لو كان غير مخلوق لزم تعدد القدماء ويلزمهم على هذا القول الفاسد أن علمه وقدرته وسائر صفاته مخلوقة أو التناقض.

وأما الوعيد فقالوا: إذا أوعد بعض عبيده وعيداً فلا يجوز أن لا يعذبهم ويخلف وعيده لأنه لا يخلف الميعاد، فلا يعفو عمن يشاء ولا يغفر لمن يريد عندهم.

وأما المنزلة بين المنزلتين فعندهم أن من ارتكب كبيرة يخرج من الإيمان ولا يدخل في الكفر.

وأما الأمر بالمعروف فهو أنهم قالوا: علينا أن نأمر غيرنا بما أمرنا به وأن نلزمه بما يلزمنا، وذلك هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وضمنوه أنه يجوز الخروج على الأئمة بالقتال إذا جاروا، وقد تقدم جواب هذه الشبه الخمس في مواضعها.

وعندهم أن التوحيد والعدل من الأصول العقلية التي لا يعلم صحة السمع إلا بعدها، وإذا استدلوا على ذلك بأدلة سمعية فإنما يذكرونها للاعتضاد بها لا للاعتماد عليها، فهم يقولون: لا نثبت هذه بالسمع، بل العلم بها متقدم على العلم بصحة النقل، فمنهم من لا يذكرها في الأصول إذ لا فائدة فيها عندهم، ومنهم من يذكرها ليبين موافقة السمع للعقل ولإيناس الناس بها لا للاعتماد عليها، والقرآن والحديث فيه عندهم بمنزلة الشهود الزائدين على النصاب، والمَدد اللاحق بعسكر مستغن عنهم، وبمنزلة من يتبع هواه، واتفق أن الشرع ما يهواه كما قال عمر بن

عبد العزيز: لا تكن ممن يتبع الحق إذا وافق هواه ويخالفه إذا خالف هواه، فإذا أنت لا تثاب على ما وافقته من الحق وتعاقب على ما تركته منه لأنك إنما اتبعت هواك في الموضعين، وكما أن الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى، والعمل يتبع قصد صاحبه وإرادته، فالاعتقاد القوي يتبع أيضاً علم ذلك وتصديقه، فإذا كان تابعاً للإيمان كان من الإيمان كما أن العمل الصالح إذا كان عن نية صالحة كان صالحاً وإلّا فلا، فقول أهل الإيمان التابع لغير الإيمان كعمل أهل الصلاح التابع لغير قصد أهل الصلاح. وفي المعتزلة زنادقة كثيرة، وفيهم من ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً.

والجهمية هم المتسبون إلى جهم بن صفوان السمرقندي، وهو الذي أظهر نفي الصفات والتعطيل، وهو أخذ ذلك عن الجعد بن درهم الذي ضحَّى به خالد بن عبد الله القسري بواسط، فإنه خطب الناس في يوم عيد الأضحى وقال: أيها الناس ضحوا تقبّل الله ضحاياكم فإني مضح بالجعد بن درهم، إنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً ولم يكلم موسى تكليماً، تعالى الله عما يقول الجعد علوّاً كبيراً، ثم نزل فذبحه، وكان ذلك بعد استفتاء علماء زمانه وهم السلف الصالح رحمهم الله تعالى.

وكان جهم بعده بخراسان فأظهر مقالته هناك وتبعه عليها ناس بعد أن ترك الصلاة أربعين يوماً شكاً في ربه، وكان ذلك لمناظرته قوماً من المشركين يقال لهم: السمنية من فلاسفة الهند الذين ينكرون من العلم ما سوى الحسيات. قالوا له: هذا ربك الذي تعبده هل يرى أو يشم أو يذاق أو يلمس؟ فقال: لا، فقالوا: هو معدوم، فبقي أربعين يوماً لا يعبد شيئاً، ثم لما خلا قلبه من معبود يؤلهه نقش الشيطان اعتقاداً نحته فِكْرَه فقال: إنه الوجود المطلق ونفى جميع الصفات واتصل بالجعد.

وقد قيل: إن جعداً كان قد اتصل بالصابئة الفلاسفة من أهل حران، وأنه أيضاً أخذ شيئاً عن بعض اليهود المحرفين لدينهم المتصلين بلبيد بن الأعصم الساحر الذي سحر النبي ﷺ، فقتل جهم بخراسان، قَتَله سلم بن أحوز، ولكن كانت قد فشت مقالته في الناس وتقلدها بعده المعتزلة، ولكن كان جهم أدخل في التعطيل

منهم؛ لأنه ينكر الأسماء حقيقة وهم لا ينكرون الأسماء بل الصفات.

وقد تنازع العلماء في الجهمية هل هم من الثنتين وسبعين فرقة أم لا؟ ولهم في ذلك قولان، وممن قال: إنهم ليسوا من الثنتين وسبعين فرقة عبد الله بن المبارك ويوسف بن أسباط.

وإنما اشتهرت مقالة الجهمية من حين محنة الإمام أحمد بن حنبل وغيره من علماء السنّة، فإنه من إمارة المأمون قووا وكثروا فإنه قد أقام بخراسان مدة واجتمع بهم ثم كتب بالمحنة من طرطوس سنة ثماني عشرة ومائتين وفيها مات، وردّوا الإمام أحمد إلى الحبس ببغداد إلى سنة عشرين، وفيما كانت محنته مع المعتصم ومناظرته لهم بالكلام فلمّا ردّ عليهم ما احتجوا به عليه، وبيَّن أنه لا حجة لهم في شيء من ذلك وأن طلبهم من الناس أن يوافقوهم وامتحانهم إياهم جهل وظلم وأراد المعتصم إطلاقه، أشار عليه من أشار بأن المصلحة ضربه لئلا تنكسر حرمة الخلافة من بعد مرة، فلما ضربوه قامت الشناعة في العامة وخافوا فأطلقوه. وقصته مذكورة في كتب التاريخ.

ومما انفرد به جهم أن الجنة والنار تفنيان، وأن الإيمان هو المعرفة فقط، والكفر هو الجهل فقط، وأنه لا فعل لأحد في الحقيقة إلا لله وحده، وأن الناس إنما تنسب إليهم أفعالهم على سبيل المجاز كما يقال: تحركت الشجرة، ودار الفلك، وزالت الشمس. ولقد أحسن القائل:

عجبت لشيطان دعا الناس جهرة ... إلى النار واشتق اسمه من جهنم

وقد نقل أن أبا حنيفة رَحِمَهُ اللهُ لما سئل عن الكلام في الأعراض والأجسام فقال: لعن الله عمرو بن عبيد هو فتح على الناس الكلام في هذا.

والجبرية أصل قولهم من جهم بن صفوان كما تقدم، وأن فعل العبد بمنزلة طوله ولونه وهم عكس القدرية نفاة القدر، فإن القدرية إنما نسبوا إلى القدر لنفيهم إياه، كما سُميت المرجئة لنفيهم الإرجاء، وأنه لا أحد مرجأ لأمر الله إما يعذبهم وإما يتوب عليهم، وقد تسمى الجبرية قدرية لأنهم غلوا في إثبات القدر، وكما يسمى الذين لا يجزمون بشيء من الوعد والوعيد بل يغلون في إرجاء كل أمر حتى الأنواع فلا يجزمون بثواب من تاب، كما لا يجزمون بعقوبة من لم يتب،

وكما لا يجزم لمعين، وكانت المرجئة الأولى يرجئون عثمان وعلياً ولا يشهدون بإيمان ولا كفر.

وقد ورد في ذم القدرية أحاديث في «السنن» منها: ما روى أبو داود في سننه من حديث عبد العزيز بن أبي حازم عن أبيه عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: (القدرية مجوس هذه الأمة إن مرضوا فلا تعودوهم وإن ماتوا فلا تشهدوهم)[١]. وروي في ذم القدرية أحاديث أُخر كثيرة تكلم أهل الحديث في صحة رفعها. والصحيح أنها موقوفة بخلاف الأحاديث الواردة في ذم الخوارج فإن فيهم في الصحيح وحده عشرة أحاديث، أخرج البخاري منها ثلاثة، وأخرج مسلم سائرها، ولكن مشابهتهم للمجوس ظاهرة بل قولهم أردأ من قول المجوس، فإن المجوس اعتقدوا وجود خالقَين والقدرية اعتقدوا خالِقين.

وهذه البدع المتقابلة حدثت من الفتن المفرقة بين الأمة، كما ذكر البخاري في «صحيحه» عن سعيد بن المسيب قال: وقعت الفتنة الأولى، يعني مقتل عثمان فلم تبق من أصحاب بدر أحداً، ثم وقعت الفتنة الثانية فلم تبق من أصحاب الحديبية أحداً، ثم وقعت الثالثة فلم ترتفع وللناس طباخ أي عقل وقوة.

فالخوارج والشيعة حدثوا في الفتنة الأولى، والقدرية والمرجئة في الفتنة الثانية، والجهمية ونحوهم بعد الفتنة الثالثة، فصار هؤلاء الذين فرقوا دينهم شيعاً يقابلون البدعة بالبدعة، أولئك غلوا في علي، وأولئك كفروه، وأولئك غلوا في الوعيد حتى خلَّدوا بعض المؤمنين، وأولئك غلوا في الوعيد حتى نفوا بعض الوعيد، أعني المرجئة، وأولئك غلوا في التنزيه حتى نفوا الصفات، وهؤلاء غلوا في الإثبات حتى وقعوا في التشبه وصاروا يبتدعون من الدلائل والمسائل ما ليس بمشروع ويعرضون عن الأمر المشروع، وفيهم من استعان على ذلك بشيء من كتب الأوائل اليهود والنصارى والمجوس والصابئين، فإنهم قرؤوا كتبهم فصار عندهم من ضلالتهم ما أدخلوه في مسائلهم ودلائلهم وغيّروه في اللفظ تارة، وفي المعنى أخرى، فلبسوا الحق بالباطل وكتموا حقاً جاء به نبيهم فتفرّقوا واختلفوا وتكلموا حينئذ في الجسم والعَرَض والتجسيم نفياً وإثباتاً.

---

(١) تقدم تخريجه وهو حديث ضعيف.

وسبب ضلال هذه الفرق وأمثالهم عدولهم عن الصراط المستقيم الذي أمرنا الله باتباعه، فقال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وقال تعالى: ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾ [يوسف: ١٠٨].

فوحَّد لفظ: صراطه وسبيله وجمع السبل المخالفة له. وقال ابن مسعود رضي الله عنه: خط لنا رسول الله ﷺ خطاً وقال: (هذا سبيل الله، ثم خطّ خطوطاً عن يمينه وعن يساره وقال: هذه سُبل، على كل سبيل شيطان يدعو إليه)، ثم قرأ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٥٣﴾ [الأنعام: ١٥٣].

ومن هنا يعلم أن اضطرار العبد إلى سؤال هداية الصراط المستقيم فوق كل ضرورة، ولهذا شرع الله في الصلاة قراءة أمّ القرآن في كل ركعة إما فرضاً أو إيجاباً على حسب اختلاف العلماء في ذلك لاحتياج العبد إلى هذا الدعاء العظيم القدر المشتمل على أشرف المطالب وأجلها، فقد أمرنا الله تعالى أن نقول: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ٧﴾ [الفاتحة: ٦، ٧]، وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: (اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون)(١).

وثبت في «الصحيح» عن النبي ﷺ أنه قال: (لتتبعن سَنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه)، قالوا: يا رسول الله اليهود والنصارى؟ قال: (فمن؟)(٢).

قال طائفة من السلف: من انحرف من العلماء ففيه شبه من اليهود، ومن انحرف من العباد ففيه شبه من النصارى، فلهذا تجد أكثر المنحرفين من أهل الكلام من المعتزلة ونحوهم فيه شبه من اليهود، حتى أن علماء اليهود يقرؤون كتب شيوخ المعتزلة ويستحسنون طريقتهم، وكذا شيوخ المعتزلة يميلون إلى اليهود ويرجحونهم على النصارى، وأكثر المنحرفين من العباد من المتصوفة

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٣٨٧)، والترمذي (٢٩٥٣).

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٥٦)، ومسلم (٢٦٦٩).

ونحوهم فيهم شبه من النصارى، ولهذا يميلون إلى نوع من الرهبانية والحلول والاتحاد ونحو ذلك، وشيوخ هؤلاء يذمون الكلام وأهله، وشيوخ أولئك يعيبون طريقة هؤلاء ويصنفون في ذم السماع والوجد وكثير من الزهد والعبادة التي أحدثها هؤلاء.

ولفرق الضلال في الوحي طريقتان[1]: طريقة التبديل وطريقة التجهيل، أما أهل التبديل فهم نوعان: أهل الوهم والتخييل، وأهل التحريف والتأويل.

فأهل الوهم والتخييل هم الذين يقولون: أن الأنبياء أخبروا عن الله واليوم الآخر والجنة والنار بأمور غير مطابقة للأمر في نفسه، لكنهم خاطبوهم بما يتخيلون به ويتوهمون به أن الله شيء عظيم كبير وأن الأبدان تعاد وأن لهم نعيماً محسوساً وعقاباً محسوساً وإن كان الأمر ليس كذلك؛ لأن مصلحة الجمهور في ذلك، وإن كان كذباً فهو كذب لمصلحة الجمهور، وقد وضع ابن سينا وأمثاله قانونهم على هذا الأصل.

وأما أهل التحريف والتأويل فهم الذين يقولون: أن الأنبياء لم يقصدوا بهذه الأقوال ما هو الحق في نفس الأمر، وأن الحق في نفس الأمر هو ما علمناه بعقولنا، ثم يجتهدوا في تأويل هذه الأقوال إلى ما يوافق رأيهم بأنواع التأويلات، ولهذا كان أكثرهم لا يجزمون بالتأويل بل يقولون يجوز أن يراد كذا وغاية ما معهم إمكان احتمال اللفظ.

وأما أهل التجهيل والتضليل الذين حقيقة قولهم: أن الأنبياء وأتباع الأنبياء جاهلون ضالّون لا يعرفون ما أراد الله بما وصف به نفسه من الآيات وأقوال الأنبياء ويقولون: يجوز أن يكون للنصّ تأويل لا يعلمه إلا الله لا يعلمه جبرائيل ولا محمد ولا غيره من الأنبياء، فضلاً عن الصحابة والتابعين لهم بإحسان، وأن محمداً ﷺ كان يقرأ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥]، ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠]، ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ [ص: ٧٥] وهو لا يعرف معاني هذه الآيات بل معناها الذي دلت عليه لا يعرفه إلا الله تعالى ويظنون أن هذه طريقة السلف.

---

(١) انظر: الفتاوى (٥/ ٣١)، والصواعق المرسلة (٢/ ٤١٨).

ثم منهم من يقول: إن المراد بهذا خلاف مدلولها الظاهر المفهوم ولا يعرفه أحد كما لا يعلم وقت الساعة، ومنهم من يقول: بل تجرى على ظاهرها، وهؤلاء يشتركون في القول بأن الرسول لم يبين المراد بالنصوص التي يجعلونها مشكلة أو متشابهة، ولهذا يجعل كل فريق المشكل من نصوصه غير ما يجعله الفريق الآخر مشكلاً.

ثم منهم من يقول: لم يعلم معانيها أيضاً، ومنهم من يقول علمها ولم يبينها بل أحال في بيانها على الأدلة العقلية وعلى من يجتهد في العلم بتأويل تلك النصوص، فهم مشتركون في أن الرسول لم يعلم أو لم يُعلم، بل نحن عرفنا الحق بعقولنا ثم اجتهدنا في حمل كلام الرسول على ما يوافق عقولنا، وأن الأنبياء وأتباعهم لا يعرفون العقليات ولا يفهمون السمعيات، وكل ذلك ضلال وتضليل عن سواء السبيل.

نسأل الله السلامة والعافية من هذه الأقوال الواهية المفضية بقائلها إلى الهاوية.

سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله ربّ العالمين.



عناصر الموضوع:

١ غرض المصنف من عقد هذا الباب:

عقد المصنف هذا الباب لبيان أن ما تقدم هو عقيدة أهل السنة والجماعة، وأشار إلى البراءة ممن يخالف ما قرره في هذه العقيدة الطحاوية.

٢ مناسبة هذا الباب لما سبق:

بعدما قرر المصنف عقيدة أهل السنة والجماعة على مذهب فقهاء الملة أبي حنيفة وصاحبيه، ناسب أن يختم هذه العقيدة المباركة «العقيدة الطحاوية» بالبراءة ممن يخالط عقيدة أهل السنّة والجماعة.

٣ معاني الكلمات:

الكلمة	المعنى
الردية	السيئة الفاسدة.

٤ معنى كلام الطحاوي: «فهذا ديننا واعتقادنا ظاهراً وباطناً ونحن براء إلى الله تعالى من كل من خالف الذي ذكرناه وبيناه، ونسأل الله تعالى أن يثبتنا على الإيمان ويختم لنا به ويعصمنا من الأهواء المختلفة والآراء المتفرقة والمذاهب الردية مثل المشبهة والمعتزلة والجهمية والجبرية والقدرية وغيرهم من الذين خالفوا السنة والجماعة وحالفوا الضلالة، ونحن منهم براء وهم عندنا ضلال وأردياء، وبالله العصمة والتوفيق»:

ونحن قد بينا ديننا وعقيدتنا، وهو كل ما سبق أن ذكرناه، فهذا اعتقادنا الظاهر والباطن ولسنا ممن يظهرون غير ما يبطنون، ونتبرأ إلى الله تعالى من كل قول وأحد خالف شيئاً مما سبق ذكره وبيانه، ونسأل الله تعالى أن يثبتنا على الإيمان،

كما كان النبي ﷺ يقول: **(يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك)**[(١)]. وأن يعصمنا من الأهواء المختلفة والأوهام الفاسدة، والآراء المتفرقة في مسائل الاعتقاد، والمذاهب الرديئة الفاسدة كالمشبهة والمعتزلة، والجهمية والجبرية والقدرية وغيرهم، فكل هؤلاء خالفوا السنة وجماعة المسلمين جماعة الحق، ووافقوا الضلالة وحالفوها وقالوا بها، فنحن نتبرأ منهم.

إذ يلزم المسلم أن يتبرأ من أهل الكفر والابتداع، ونحكم عليهم بأنهم ضلال أردياء، فاسدو المذهب والعقول والآراء، والله هو العاصم والموفق.

٥ التعريف بالمشبهة ورؤوسهم:

والمشبهة هم الذين شبهوا الله سبحانه بالخلق في صفاته وقولهم عكس قول النصارى شبهوا المخلوق وهو عيسى عليه السلام بالخالق وجعلوه إلهاً، وهؤلاء شبهوا الخالق بالمخلوق كداود الجواربي وأشباهه.

٦ التعريف بالمعتزلة ورؤوسهم:

والمعتزلة هم عمرو بن عبيد وواصل بن عطاء الغزال وأصحابهما، سمُوا بذلك لما اعتزلوا الجماعة بعد موت الحسن البصري رحمه الله في أوائل المائة الثانية، وكانوا يجلسون معتزلين فيقول قتادة وغيره: أولئك المعتزلة.

وقيل إن واصل بن عطاء هو الذي وضع أصول مذهب المعتزلة وتابعه عمرو بن عبيد تلميذ الحسن البصري، فلما كان زمن هارون الرشيد صنف لهم أبو الهذيل كتابين وبيَّن مذهبهم.

٧ أصول المعتزلة:

بني مذهبهم على الأصول الخمسة التي سموها العدل والتوحيد وإنفاذ الوعيد والمنزلة بين المنزلتين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولبسوا فيها الحق بالباطل، إذ شأن البدع هذا اشتمالها على حق وباطل.

وهم مشبهة الأفعال لأنهم قاسوا أفعال الله تعالى على أفعال عباده، وجعلوا ما يحسن من العباد يحسن منه، وما يقبح من العباد يقبح منه، وقالوا يجب عليه أن يفعل كذا ولا يجوز له أن يفعل كذا بمقتضى ذلك القياس الفاسد، فإن السيد من بني آدم لو رأى عبيده تزني بإمائه ولا يمنعهم من ذلك لعد إما مستحسنا للقبيح

---

(١) أحمد (٤/ ١٨٢)، وابن ماجه (١٩٩).

وإما عاجزاً، فكيف يصح قياس أفعاله ﷻ على أفعال عباده، والكلام على هذا المعنى مبسوط في موضعه.

فأما العدل فستروا تحته نفي القدر وقالوا إن الله لا يخلق الشر ولا يقضي به، إذ لو خلقه ثم يعذبهم عليه يكون ذلك جَوراً، والله تعالى عادلاً لا يجور، ويلزم على هذا الأصل الفاسد أن الله تعالى يكون في ملكه ما لا يريده، فيريد الشيء ولا يكون، ولازمه وصفه بالعجز تعالى الله عن ذلك.

وأما التوحيد فستروا تحته القول بخلق القرآن إذ لو كان غير مخلوق لزم تعدد القدماء، ويلزمهم على هذا القول الفاسد أن علمه وقدرته وسائر صفاته مخلوقة أو التناقض.

وأما الوعيد فقالوا: إذا أوعد بعض عبيده وعيداً فلا يجوز أن لا يعذبهم ويخلف وعيده لأنه لا يخلف الميعاد، فلا يعفو عمن يشاء ولا يغفر لمن يريد عندهم.

وأما المنزلة بين المنزلتين فعندهم أن من ارتكب كبيرة يخرج من الإيمان ولا يدخل في الكفر.

وأما الأمر بالمعروف فهو أنهم قالوا: علينا أن نأمر غيرنا بما أمرنا به وأن نلزمه بما يلزمنا، وذلك هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وضمَّنوه أنه يجوز الخروج على الأئمة بالقتال إذا جاروا، وقد تقدم جواب هذه الشبه الخمس في مواضعها.

وعندهم أن التوحيد والعدل من الأصول العقلية التي لا يعلم صحة السمع إلا بعدها، وإذا استدلوا على ذلك بأدلة سمعية فإنما يذكرونها للاعتضاد بها لا للاعتماد عليها، فهم يقولون لا نثبت هذه بالسمع بل العلم بها متقدم على العلم بصحة النقل، فمنهم من لا يذكرها في الأصول إذ لا فائدة فيها عندهم، ومنهم من يذكرها ليبين موافقة السمع للعقل ولإيناس الناس بها لا للاعتماد عليها، والقرآن والحديث فيه عندهم بمنزلة الشهود الزائدين على النصاب، والمدد اللاحق بعسكر مستغن عنهم، وبمنزلة من يتبع هواه واتفق أن الشرع ما يهواه كما قال عمر بن عبد العزيز: لا تكن ممن يتبع الحق إذا وافق هواه، ويخالفه إذاً خالف هواه، فإذاً أنت لا تثاب على ما وافقته من الحق، وتعاقب على ما تركته منه، لأنك إنما اتبعت هواك في الموضعين. وكما أن الأعمال بالنيات وإنما لكل

امرئ ما نوى والعمل يتبع قصد صاحبه وإرادته، فالاعتقاد القوي يتبع أيضاً علم ذلك وتصديقه، فإذا كان تابعاً للإيمان كان من الإيمان كما أن العمل الصالح إذا كان عن نية صالحة كان صالحاً وإلا فلا. فقول أهل الإيمان التابع لغير الإيمان كعمل أهل الصلاح التابع لغير قصد أهل الصلاح وفي المعتزلة زنادقة كثيرة وفيهم من ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً.

(٨) التعريف بالجهمية[(١)] ورؤوسهم:

والجهمية هم المنتسبون إلى جهم بن صفوان السمرقندي، وهو الذي أظهر نفي الصفات والتعطيل، وهو أخذ ذلك عن الجعد بن درهم الذي ضحى به خالد بن عبد الله القسري بواسط، فإنه خطب الناس في عيد الأضحى وقال أيها الناس ضحوا تقبَّل الله ضحاياكم فإني مضح بالجعد بن درهم، إنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً ولم يكلم موسى تكليماً تعالى الله عما يقول الجعد علواً كبيراً، ثم نزل فذبحه، وكان ذلك بعد استفتاء علماء زمانه وهم السلف الصالح رحمهم الله تعالى.

(٩) قصة الجعد والجهم:

وكان جهم بعده بخراسان فأظهر مقالته هناك وتبعه عليها ناس بعد أن ترك الصلاة أربعين يوماً شكّاً في ربه، وكان ذلك لمناظرته قوماً من المشركين يقال لهم السمنية من فلاسفة الهند الذين ينكرون من العلم ما سوى الحسيات قالوا له: هذا ربك الذي تعبده هل يرى أو يشم أو يذاق أو يلمس؟ فقال: لا، فقالوا: هو معدوم، فبقي أربعين يوماً لا يعبد شيئاً، ثم لما خلا قلبه من معبود يؤلهه نقش الشيطان اعتقاداً نحته فكره فقال: إنه الوجود المطلق، ونفى جميع الصفات واتصل بالجعد.

وقد قيل إن جعداً كان قد اتصل بالصابئة الفلاسفة من أهل حران وأنه أيضاً أخذ شيئاً عن بعض اليهود المحرفين لدينهم المتصلين بلبيد بن الأعصم الساحر الذي سحر النبي ﷺ فقتل جهم بخراسان، قتله سلم بن أحوز، ولكن

---

(١) من أهل العلم من عدّ الجهمية ثلاثة درجات: شرها الغالية الذين ينفون أسماء الله وصفاته ويدخل في هذا القسم القرامطة الباطنية والفلاسفة. الدرجة الثانية: مثبتوا الأسماء دون الصفات وهم المعتزلة. والدرجة الثالثة: الذين أثبتوا الأسماء مع نفيهم لبعض الصفات وهم الكلابية والأشعرية وبعض المتصوفة. انظر: التسعينة لشيخ الإسلام (١/ ٢٦٥).

كانت قد فشت مقالته في الناس وتقلدها بعده المعتزلة، ولكن كان جهم أدخل في التعطيل منهم لأنه ينكر الأسماء حقيقة وهم لا ينكرون الأسماء بل الصفات.

(١٠) ما تفرد به جهم بن صفوان من اعتقاد:

ومما انفرد به جهم أن الجنة والنار تفنيان وأن الإيمان هو المعرفة فقط والكفر هو الجهل فقط، وأنه لا فعل لأحد في الحقيقة إلا لله وحده، وأن الناس إنما تنسب إليهم أفعالهم على سبيل المجاز كما يقال تحركت الشجرة ودار الفلك وزالت الشمس، ولقد أحسن القائل:

عجبت لشيطان دعا الناس جهرة ... إلى النار واشتق اسمه من جهنم

وقد نقل أن أبا حنيفة رحمه الله لما سئل عن الكلام في الأعراض والأجسام فقال: لعن الله عمرو بن عبيد هو فتح على الناس الكلام في هذا.

(١١) الخلفاء العباسيون والإمام أحمد:

وإنما اشتهرت مقالة الجهمية من حين محنة الإمام أحمد بن حنبل وغيره من علماء السنة، فإنه من إمارة المأمون قووا وكثروا، فإنه قد أقام بخراسان مدة واجتمع بهم ثم كتب بالمحنة من طرطوس سنة ثماني عشرة ومائتين وفيها مات، وردوا الإمام أحمد إلى الحبس ببغداد إلى سنة عشرين وفيها كانت محنته مع المعتصم ومناظرته لهم بالكلام، فلما رد عليهم ما احتجوا به عليه وبيَّن أنه لا حجة لهم في شيء من ذلك، وأن طلبهم من الناس أن يوافقوهم وامتحانهم إياهم جهل وظلم، وأراد المعتصم إطلاقه، أشار عليه من أشار بأن المصلحة ضربه لئلا تنكسر حرمة الخلافة من بعد مرة، فلما ضربوه قامت الشناعة في العامة وخافوا فأطلقوه وقصته مذكورة في كتب التاريخ.

(١٢) التعريف بالجبرية ورؤوسهم:

والجبرية أصل قولهم من جهم بن صفوان كما تقدم، وأن فعل العبد بمنزلة طوله ولونه، وهم عكس القدرية نفاة القدر، فإن القدرية إنما نسبوا إلى القدر لنفيهم إياه كما سميت المرجئة لنفيهم الإرجاء، وأنه لا أحد مرجأ لأمر الله إما يعذبهم وإما يتوب عليهم، وقد تسمى الجبرية قدرية لأنهم غلوا في إثبات القدر وكما يسمى الذين لا يجزمون بشيء من الوعد والوعيد بل يغلون في إرجاء كل أمر حتى الأنواع فلا يجزمون بثواب من تاب كما لا يجزمون بعقوبة من لم يتب،

وكما لا يجزم لمعين، وكانت المرجئة الأولى يرجئون عثمان وعلياً ولا يشهدون بإيمان ولا كفر.

١٣ نصوص في ذم القدرية:

وقد ورد في ذم القدرية أحاديث في السنن منها ما روى أبو داود في سننه من حديث عبد العزيز بن أبي حازم عن أبيه عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: **(القدرية مجوس هذه الأمة، إن مرضوا فلا تعودوهم، وإن ماتوا فلا تشهدوهم)**. وروي في ذم القدرية أحاديث أخر كثيرة تكلم أهل الحديث في صحة رفعها، والصحيح أنها موقوفة بخلاف الأحاديث الواردة في ذم الخوارج فإن فيهم في الصحيح وحده عشرة أحاديث، أخرج البخاري منها ثلاثة، وأخرج مسلم سائرها، ولكن مشابهتهم للمجوس ظاهرة، بل قولهم أردأ من قول المجوس، فإن المجوس اعتقدوا وجود خالقَين والقدرية اعتقدوا خالِقين.

١٤ تتابع الفتن وترتيبها:

وهذا البدع المتقابلة حدثت من الفتن المفرقة بين الأمة كما ذكر البخاري في صحيحه عن سعيد بن المسيب قال: وقعت الفتنة الأولى يعني مقتل عثمان فلم تبق من أصحاب بدر أحداً، ثم وقعت الفتنة الثانية فلم تبق من أصحاب الحديبية أحداً، ثم وقعت الثالثة فلم ترتفع وللناس طباخ، أي: عقل وقوة.

فالخوارج والشيعة حدثوا في الفتنة الأولى، والقدرية والمرجئة في الفتنة الثانية، والجهمية ونحوهم الفتنة الثالثة.

١٥ تقابل هذه الفرق:

فالخوارج والشيعة حدثوا في الفتنة الأولى، والقدرية والمرجئة في الفتنة الثانية، والجهمية ونحوهم بعد الفتنة الثالثة، فصار هؤلاء الذين فرقوا دينهم شيعاً يقابلون البدعة بالبدعة، أولئك غلوا في علي، وأولئك كفروه، وأولئك غلوا في الوعيد حتى خلَّدوا بعض المؤمنين، وأولئك غلوا في الوعيد حتى نفوا بعض الوعيد أعني المرجئة، وأولئك غلوا في التنزيه حتى نفوا الصفات، وهؤلاء غلوا في الإثبات حتى وقعوا في التشبيه وصاروا يبتدعون من الدلائل والمسائل ما ليس بمشروع ويعرضون عن الأمر المشروع، وفيهم من استعان على ذلك بشيء من كتب الأوائل اليهود والنصارى والمجوس والصابئين، فإنهم قرؤوا كتبهم فصار عندهم من ضلالتهم ما أدخلوه في مسائلهم ودلائلهم وغيَّروه في اللفظ تارة وفي

المعنى أخرى، فلبسوا الحق بالباطل وكتموا حقاً جاء نبيهم فتفرقوا واختلفوا، وتكلموا حينئذ في الجسم والعرض والتجسيم نفياً وإثباتاً.

١٦ سبب الضلال مخالفة سبيل المؤمنين والصراط المستقيم:

وسبب ضلال هذه الفرق وأمثالهم عدولهم عن الصراط المستقيم الذي أمرنا الله باتباعه، فقال تعالى: **﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ﴾** [الأنعام: ١٥٣].

وقال تعالى: **﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ﴾** [يوسف: ١٠٨].

فوحَّد لفظ صراطه، وسبيله، وجمع السُّبل المخالفة له، وقال ابن مسعود رضي الله عنه: خط لنا رسول الله ﷺ خطاً وقال: **(هذا سبيل الله، ثم خط خطوطاً عن يمينه وعن يساره وقال: هذه سبل على كل سبيل شيطان يدعو إليه)** ثم قرأ: **﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾** [الأنعام: ١٥٣].

ومن هنا يعلم أن اضطرار العبد إلى سؤال هداية الصراط المستقيم فوق كل ضرورة، ولهذا شرع الله تعالى في الصلاة قراءة أم القرآن في كل ركعة إما فرضاً أو إيجاباً على حسب اختلاف العلماء في ذلك لاحتياج العبد إلى هذا الدعاء العظيم القدر المشتمل على أشرف المطالب وأجلها، فقد أمرنا الله تعالى أن نقول: **﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾﴾** [الفاتحة: ٦، ٧] وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: **(اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون)**.

وثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: **(لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه، قالوا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: فمن؟)**.

١٧ قول بعض السلف في المنحرفين من العباد والعلماء:

قال طائفة من السلف: من انحرف من العلماء ففيه شبه من اليهود، ومن انحرف من العباد ففيه شبه من النصارى، فلهذا تجد أكثر المنحرفين من أهل الكلام من المعتزلة ونحوهم فيه شبه من اليهود، حتى أن علماء اليهود يقرأون كتب شيوخ المعتزلة ويستحسنون طريقتهم، وكذا شيوخ المعتزلة يميلون إلى اليهود

ويرجحونهم على النصارى، وأكثر المنحرفين من العبّاد من المتصوفة ونحوهم فيهم شبه من النصارى، ولهذا يميلون إلى نوع من الرهبانية والحلول والاتحاد ونحو ذلك، وشيوخ هؤلاء يذمون الكلام وأهله، وشيوخ أولئك يعيبون طريقة هؤلاء ويصنفون في ذم السماع والوجد وكثير من الزهد والعبادة التي أحدثها هؤلاء.

(١٨) طرق الضلال:

ولفرق الضلال في الوحي طريقتان: طريقة التبديل، وطريقة التجهيل.

(١٩) أهل التبديل نوعان:

أما أهل التبديل فهم نوعان: أهل الوهم والتخييل، وأهل التحريف والتأويل.

(٢٠) تفصيل القول في هذه الفرق:

فأهل الوهم والتخييل هم الذين يقولون أن الأنبياء أخبروا عن الله واليوم الآخر والجنة والنار بأمور غير مطابقة للأمر في نفسه لكنهم خاطبوهم بما يتخيلون به ويتوهمون به أن الله شيء عظيم كبير، وأن الأبدان تعاد، وأن لهم نعيماً محسوساً وعقاباً محسوساً، وإن كان الأمر ليس كذلك، لأن مصلحة الجمهور في ذلك، وإن كان كذباً فهو كذب لمصلحة الجمهور، وقد وضع ابن سينا وأمثاله قانونهم على هذا الأصل.

وأما أهل التحريف والتأويل فهم الذين يقولون أن الأنبياء لم يقصدوا بهذه الأقوال ما هو الحق في نفس الأمر، وأن الحق في نفس الأمر هو ما علمناه بعقولنا ثم يجتهدون في تأويل هذه الأقوال إلى ما يوافق رأيهم بأنواع التأويلات، ولهذا كان أكثرهم لا يجزمون بالتأويل بل يقولون يجوز أن يراد كذا وغاية ما معهم إمكان احتمال اللفظ.

وأما أهل التجهيل والتضليل الذين حقيقة قولهم أن الأنبياء وأتباع الأنبياء جاهلون ضالون لا يعرفون ما أراد الله بما وصف به نفسه من الآيات وأقوال الأنبياء، ويقولون يجوز أن يكون للنص تأويل لا يعلمه إلا الله لا يعلمه جبرائيل ولا محمد ولا غيره من الأنبياء فضلاً عن الصحابة والتابعين لهم بإحسان، وأن محمداً ﷺ كان يقرأ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [الشورى: ٥]، ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠]، ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾ [ص: ٧٥]، وهو لا

يعرف معاني هذه الآيات، بل معناها الذي دلت عليه لا يعرفه إلا الله تعالى، ويظنون أن هذه طريقة السلف.

(٢١) من قال: أن المراد خلاف الظاهر:

ثم أن أهل الضلال من يقول إن المراد بهذا خلاف مدلولها الظاهر المفهوم ولا يعرفه أحد كما لا يعلم وقت الساعة، ومنهم من يقول: بل تجرى على ظاهرها، وهؤلاء يشتركون في القول بأن الرسول لم يبين المراد بالنصوص التي يجعلونها مشكلة أو متشابهة؛ ولهذا يجعل كل فريق المشكل من نصوصه غير ما يجعله الفريق الآخر مشكلاً.

(٢٢) الخلاصة:

١ ـ بيَّن المصنف عقيدته من خلال ما سبق ذكره.

٢ ـ المشبّهة هم الذين شبّهوا الله سبحانه بالخلق في صفاته وقولهم عكس قول النصارى، شبهوا المخلوق وهو عيسى عليه السلام بالخالق وجعلوه إلهاً، وهؤلاء شبهوا الخالق بالمخلوق كداود الجواربي وأشباهه.

٣ ـ بنى المعتزلة مذهبهم على الأصول الخمسة التي سموها العدل والتوحيد وإنفاذ الوعيد والمنزلة بين المنزلتين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولبسوا فيها الحق بالباطل، إذ شأن البدع هذا، اشتمالها على حق وباطل.

٤ ـ الجهمية هم المنتسبون إلى جهم بن صفوان السمرقندي، وهو الذي أظهر نفي الصفات والتعطيل وهو أخذ ذلك عن الجعد بن درهم.

٥ ـ إنما اشتهرت مقالة الجهمية من حين محنة الإمام أحمد بن حنبل وغيره من علماء السنة، فإنه من إمارة المأمون قووا وكثروا.

٦ ـ الجبرية أصل قولهم من جهم بن صفوان كما تقدم وأن فعل العبد بمنزلة طوله ولونه وهم عكس القدرية نفاة القدرة.

٧ ـ وقد ورد في ذم القدرية أحاديث كثيرة تكلم أهل الحديث في صحة رفعها، والصحيح أنها موقوفة بخلاف الأحاديث الواردة في ذم الخوارج فإن فيهم في الصحيح وحده عشرة أحاديث أخرج البخاري منها ثلاثة وأخرج مسلم سائرها.

٨ ـ هذه البدع المتقابلة حدثت من الفتن المفرقة بين الأمة كما ذكر البخاري في صحيحه عن سعيد بن المسيب قال: وقعت الفتنة الأولى يعني مقتل عثمان فلم تبق من أصحاب بدر أحداً، ثم وقعت الفتنة الثانية فلم تبق من أصحاب الحديبية أحداً، ثم وقعت الثالثة فلم ترتفع وللناس طباخ، أي: عقل وقوة.

٩ ـ سبب ضلال هذه الفرق وأمثالهم عدولهم عن الصراط المستقيم الذي أمرنا الله باتباعه، فقال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

١٠ ـ قال طائفة من السلف: من انحرف من العلماء ففيه شبه من اليهود، ومن انحرف من العباد ففيه شبه من النصارى.

١١ ـ لفرق الضلال في الوحي طريقتان: طريقة التبديل، وطريقة التجهيل.

١٢ ـ أما أهل التبديل فهم نوعان: أهل الوهم والتخييل، وأهل التحريف والتأويل.

١٣ ـ من قال: أن المراد خلاف الظاهر فهو ضال مبتدع.

(٢٣) المناقشة:

- **س١:** بيِّن معنى كلام الطحاوي: «فهذا ديننا واعتقادنا ظاهراً وباطناً ونحن براء إلى الله تعالى من كل من خالف الذي ذكرناه وبيّنّاه، ونسأل الله تعالى أن يثبتنا على الإيمان ويختم لنا به ويعصمنا من الأهواء المختلفة والآراء المتفرقة والمذاهب الردية مثل المشبهة والمعتزلة والجهمية والجبرية والقدرية وغيرهم من الذين خالفوا السنة والجماعة وحالفوا الضلالة ونحن منهم براء، وهم عندنا ضلال وأردياء، وبالله العصمة والتوفيق».
- **س٢:** تكلّم عن المشبهة ورؤوسهم.
- **س٣:** فصّل القول في أصول المعتزلة.
- **س٤:** من هم الجهمية؟ واذكر رؤوسهم.
- **س٥:** تكلم حول الجعد والجهم، ومذهبهم الفاسد، وعمن تلقوه؟.
- **س٦:** اذكر ما تفرد به جهم بن صفوان من اعتقاد.
- **س٧:** بيّن دور الخلفاء العباسيين في محنة الإمام أحمد، وانتشار البدع.
- **س٨:** من هم الجبرية؟ ومن أشهر رؤوسهم؟.

- **س٩:** اذكر النصوص الواردة في ذم القدرية.
- **س١٠:** كيف تتابعت الفتن مع بيان ترتيبها، وتقابلها.
- **س١١:** ما سبب ضلال الفرق؟.
- **س١٢:** اشرح مقالة طائفة من السلف: من انحرف من العلماء ففيه شبه من اليهود ومن انحرف من العباد ففيه شبه من النصارى.
- **س١٣:** ما هي طرق الضلال؟.
- **س١٤:** ما أنواع أهل التبديل؟ ثم فصّل القول في هذه الفرق.
- **س١٥:** كيف ترد على من قال: أن المراد خلاف الظاهر؟.

فهرس المجلد الثالث

الموضوع	الصفحة
حكم مرتكب الكبيرة	٨٩٧
١ ـ غرض المصنف من عقد هذا الباب	٩٠٣
٢ ـ مناسبة هذا الباب لما سبق	٩٠٣
٣ ـ معاني الكلمات	٩٠٣
٤ ـ معنى كلام الطحاوي	٩٠٣
٥ ـ تحرير محل النزاع	٩٠٤
٦ ـ انقسام الذنوب إلى كبائر وصغائر	٩٠٤
٧ ـ ضابط الكبيرة	٩٠٦
٨ ـ حكم مرتكب الكبيرة في الكتاب والسنة	٩٠٨
٩ ـ أقسام أصحاب الكبائر	٩٠٩
١٠ ـ المخالفون لأهل السنة في مرتكب الكبيرة	٩٠٩
١١ ـ حكم مرتكب الكبيرة في الآخرة	٩١١
١٢ ـ استدراك ابن أبي العز على الطحاوي في تعبيره بالمعرفة في قوله: «بعد أن لقوا الله عارفين»	٩١٣
١٣ ـ استدراك الشارح على الطحاوي في تخصيص أمة محمد بالحكم، حيث قال: «وأهل الكبائر من أمة محمد لا يخلدون»	٩١٤
١٤ ـ الرد على فهم بعض شارحي الطحاوية أن قول الطحاوي: «في النار» هو خبر لأهل الكبائر.	٩١٤
١٥ ـ حكم تمني الموت والاستدلال بقول يوسف: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١]	٩١٤
١٦ ـ الخلاصة	٩١٥
١٧ ـ المناقشة	٩١٥
الصلاة خلف كل بر وفاجر	٩١٧
١ ـ غرض المصنف من عقد هذا الباب	٩٢٢
٢ ـ مناسبة هذا الباب لما سبق	٩٢٢
٣ ـ معاني الكلمات	٩٢٢
٤ ـ معنى كلام الطحاوي: «ونرى الصلاة خلف كل بر وفاجر من أهل القبلة، وعلى من مات منهم»	٩٢٢
٥ ـ الصلاة خلف البر والفاجر من مسائل الفقه	٩٢٣

الموضوع	الصفحة
٦ ـ أنواع أئمة الصلاة	٩٢٣
٧ ـ هل يبحث عن حال الإمام أو يختبر في اعتقاده؟	٩٢٣
٨ ـ حكم الصلاة خلف الإمام البر العادل	٩٢٤
٩ ـ حكم الصلاة خلف الإمام مستور الحال	٩٢٤
١٠ ـ حكم الصلاة خلف الإمام الفاسق	٩٢٤
١١ ـ يمنع الإمام الفاسق من الإمامة إذا أمنت الفتنة	٩٢٦
١٢ ـ حكم الصلاة خلف الإمام المخطئ	٩٢٦
١٣ ـ حكم الصلاة خلف الإمام المبتدع	٩٢٧
١٤ ـ المراد بولي الأمر	٩٢٧
١٥ ـ حكم الصلاة على من مات من أهل القبلة	٩٢٧
١٦ ـ حكم الصلاة على الشهيد	٩٢٧
١٧ ـ الحكمة من عدم وجوب الصلاة على الشهيد	٩٢٨
١٨ ـ حكم الصلاة على الكفار والمنافقين	٩٢٨
١٩ ـ حكم الصلاة على الفساق	٩٢٨
٢٠ ـ الاستغفار لأهل القبلة	٩٣٠
٢١ ـ الخلاصة	٩٣١
٢٢ ـ المناقشة	٩٣١
الحكم على معين بجنة أو نار، أو كفر أو إشراك	٩٣٣
١ ـ غرض المصنف من عقد هذا الباب	٩٣٦
٢ ـ مناسبة هذا الباب لما سبق	٩٣٦
٣ ـ معاني الكلمات	٩٣٦
٤ ـ معنى كلام الطحاوي: «ولا ننزل أحداً منهم جنة ولا ناراً، ولا نشهد عليهم بكفر ولا بشرك ولا بنفاق، ما لم يظهر منهم شيء من ذلك، ونذر سرائرهم إلى الله تعالى»	٩٣٦
٥ ـ من أصول أهل السنة والجماعة عدم الشهادة لمعين بجنة أو نار	٩٣٧
٦ ـ أقوال السلف للشهادة لمعين بالجنة	٩٣٧
٧ ـ حكم تكفير المسلم المعين أو تفسيقه	٩٣٨
٨ ـ معنى كلام الطحاوي: «ولا نرى السيف على أحد من أمة محمد ﷺ إلا من وجب عليه السيف»	٩٣٨
٩ ـ الحكم على عقائد الناس أكبر من الحكم على أموالهم وأعراضهم	٩٣٩

الموضوع | الصفحة

١٠ ـ الأصل أن دماء المسلمين وأموالهم معصومة ٩٣٩
١١ ـ الحالات التي يباح فيها دم المسلم ٩٣٩
١٢ ـ الخلاصة ٩٣٩
١٣ ـ المناقشة ٩٤٠
طاعة ولاة الأمر وعدم الخروج عليهم ٩٤١
١ ـ غرض المصنف من عقد هذا الباب ٩٤٥
٢ ـ مناسبة هذا الباب لما سبق ٩٤٥
٣ ـ معاني الكلمات ٩٤٥
٤ ـ معنى كلام الطحاوي: «ولا نرى الخروج على أئمتنا وولاة أمورنا وإن جاروا ولا ندعو عليهم ولا ننزع يداً من طاعتهم ونرى طاعتهم من طاعة الله ﷻ فريضة ما لم يأمروا بمعصية وندعو لهم بالصلاح والمعافاة» ٩٤٥
٥ ـ وجه إدخال مسألة الخروج على ولي الأمر في الأصول ٩٤٦
٦ ـ حكم الخروج على ولي أمر المسلمين ٩٤٦
٧ ـ تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩] ٩٤٨
٨ ـ الحالات التي يجوز فيها الخروج على ولي الأمر ٩٤٨
٩ ـ الحكمة من النهي عن الخروج على ولي الأمر ٩٤٩
١٠ ـ الوسيلة الشرعية للخلاص من جور الأئمة ٩٤٩
١١ ـ الخلاصة ٩٥٠
١٢ ـ المناقشة ٩٥٠
اتباع السنة والجماعة ٩٥١
١ ـ غرض المصنف من عقد هذا الباب ٩٥٤
٢ ـ مناسبة هذا الباب لما سبق ٩٥٤
٣ ـ معاني الكلمات ٩٥٤
٤ ـ معنى كلام الطحاوي: «ونتبع السنة والجماعة ونجتنب الشذوذ والخلاف والفرقة» ٩٥٤
٥ ـ وجه إدخال مسألة اتباع السنة في كتب الاعتقاد ٩٥٥
٦ ـ أدلة وجوب لزوم الجماعة ٩٥٥
٧ ـ تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾ [النساء: ١١٥] ٩٥٥
٨ ـ المراد بالجماعة ٩٥٦
٩ ـ المراد بالسنة ٩٥٦
١٠ ـ نشأة التسمية بأهل السنة والجماعة ٩٥٦

الموضوع	الصفحة
١١ ـ خطورة التفرق	٩٥٧
١٢ ـ الأدلة على ذم الفرقة	٩٥٧
١٣ ـ الأسباب المؤدية للتفرق	٩٥٧
١٤ ـ طريق الخلاص من الفرقة والخلاف	٩٥٨
١٥ ـ أنواع الخلاف	٩٥٨
١٦ ـ هل الاختلاف رحمة؟!	٩٥٨
١٧ ـ الواجب على المسلم عند اختلاف الأمة	٩٥٩
١٨ ـ الخلاصة	٩٥٩
١٩ ـ المناقشة	٩٥٩
الحب في الله والبغض في الله	٩٦١
١ ـ غرض المصنف من عقد هذا الباب	٩٦٤
٢ ـ مناسبة هذا الباب لما سبق	٩٦٤
٣ ـ معاني الكلمات	٩٦٤
٤ ـ معنى كلام الطحاوي: «ونحب أهل العدل والأمانة، ونبغض أهل الجور والخيانة»	٩٦٤
٥ ـ المحبة الشرعية	٩٦٥
٦ ـ الحب في الله والبغض في الله كمال الإيمان	٩٦٥
٧ ـ المقصود بالحب في الله والبغض في الله	٩٦٥
٨ ـ حكم الحب في الله والحب مع الله	٩٦٥
٩ ـ الفرق بين الحب مع الله والحب في الله	٩٦٦
١٠ ـ لوازم المحبة	٩٦٦
١١ ـ معنى محبة الله للمحسنين والمتقين	٩٦٦
١٢ ـ اجتماع الحب في الله والبغض في الله في شخص واحد	٩٦٧
١٣ ـ الخلاصة	٩٦٧
١٤ ـ المناقشة	٩٦٨
موقف المسلم من النصوص المتشابهة والمحكمة	٩٦٩
١ ـ غرض المصنف من عقد هذا الباب	٩٧٢
٢ ـ مناسبة هذا الباب لما سبق	٩٧٢
٣ ـ معاني الكلمات	٩٧٢
٤ ـ معنى كلام الطحاوي: «ونقول الله أعلم فيما اشتبه علينا علمه»	٩٧٢
٥ ـ طريقة أهل العلم إذا اشتبه عليهم من الدين	٩٧٢
٦ ـ القول على الله بغير علم من كبائر الذنوب	٩٧٣

الموضوع | الصفحة

٧ ـ المقصود بالمحكم والمتشابه ٩٧٣
٨ ـ هل في القرآن محكم ومتشابه؟ والحكمة من ذلك ٩٧٣
٩ ـ الواجب على المسلم فيما اشتبه علمه ٩٧٤
١٠ ـ الطوائف التي ضلت من جهة المتشابه ٩٧٥
١١ ـ الخلاصة ٩٧٦
١٢ ـ المناقشة ٩٧٦
المسح على الخفين في السفر والحضر ٩٧٧
١ ـ غرض المصنف من عقد هذا الباب ٩٨٠
٢ ـ مناسبة هذا الباب لما سبق ٩٨٠
٣ ـ معاني الكلمات ٩٨٠
٤ ـ معنى كلام الطحاوي: «ونرى المسح على الخفين في السفر والحضر، كما جاء في الأثر» ٩٨٠
٥ ـ مناسبة ذكر هذا المبحث في العقيدة الطحاوية ٩٨١
٦ ـ حكم المسح على الخفين ٩٨١
٧ ـ أيهما أفضل المسح على الخفين أم غسل الرجلين؟ ٩٨١
٨ ـ الحكمة من مسح الرأس بدل الغسل ٩٨٢
٩ ـ أقوال العلماء في فرض غسل الرجلين في الوضوء ٩٨٢
١٠ ـ الخلاصة ٩٨٣
١١ ـ المناقشة ٩٨٣
الحج والجهاد ماضيان مع ولي الأمر إلى قيام الساعة ٩٨٥
١ ـ غرض المصنف من عقد هذا الباب ٩٨٨
٢ ـ مناسبة هذا الباب لما سبق ٩٨٨
٣ ـ معاني الكلمات ٩٨٨
٤ ـ معنى كلام الطحاوي: «والحج والجهاد ماضيان مع أولي الأمر من المسلمين برّهم وفاجرهم إلى قيام الساعة لا يبطلهما شيء ولا ينقضهما» ٩٨٩
٥ ـ مناسبة ذكر المصنف هذا المبحث في العقيدة ٩٨٩
٦ ـ الحكمة من ذكر الطحاوي للحج والجهاد دون غيرهما ٩٨٩
٧ ـ حكم الجهاد ٩٨٩
٨ ـ الأدلة على أن الحج ركن من أركان الإسلام ٩٩٠
٩ ـ الخلاصة ٩٩١

الموضوع الصفحة

١٠ ـ المناقشة ٩٩١

الإيمان بالملائكة ٩٩٣

١ ـ غرض المصنف من عقد هذا الباب ١٠٠٣

٢ ـ مناسبة هذا الباب لما سبق ١٠٠٣

٣ ـ معاني الكلمات ١٠٠٣

٤ ـ معنى كلام الطحاوي: «ونؤمن بالكرام الكاتبين، فإن الله قد جعلهم علينا حافظين» ١٠٠٣

٥ ـ التعريف بالملائكة وحكم الإيمان بهم ١٠٠٤

٦ ـ كيف يكون الإيمان بالملائكة؟ ١٠٠٤

٧ ـ أسماء الملائكة الواردة في الكتاب والسنّة ١٠٠٥

٨ ـ موت الملائكة ١٠٠٦

٩ ـ المراد بالكرام الكاتبين وعددهم ١٠٠٦

١٠ ـ حكم الإيمان بالكرام الكاتبين وعددهم ١٠٠٧

١١ ـ الأمور التي يكتبها الكرام الكاتبون ١٠٠٧

١٢ ـ معنى قوله ﷺ في حق قرينه: (ولكن الله أعانني عليه فأسلم) ١٠٠٧

١٣ ـ معنى كلام الطحاوي: «ونؤمن بملك الموت، الموكل بقبض الأرواح» ... ١٠٠٨

١٤ ـ حكم الإيمان بملك الموت ١٠٠٩

١٥ ـ الجمع بين قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الزمر: ٤٢]، وقوله تعالى: ﴿۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾﴾ [السجدة: ١١]، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الأنعام: ٦١] ١٠٠٩

١٦ ـ حقيقة الروح التي في البدن ولما سميت بهذا الاسم ١٠١٠

١٧ ـ هل الروح والنفس شيء واحد أم أنهما متغايران؟! ١٠١٠

١٨ ـ مسكن الروح ١٠١١

١٩ ـ الروح مخلوقة ١٠١٢

٢٠ ـ هل تموت الروح؟ ١٠١٣

٢١ ـ مستقر الأرواح ١٠١٤

٢٢ ـ هل مسمى الإنسان هو الروح فقط؟ أم البدن فقط؟ أم مجموعهما؟ ١٠١٦

٢٣ ـ الخلاصة ١٠١٦

٢٤ ـ المناقشة ١٠١٧

الموضوع الصفحة

عذاب القبر ١٠١٩
١ ـ غرض المصنف من عقد هذا الباب ١٠٢٨
٢ ـ مناسبة هذا الباب لما سبق ١٠٢٨
٣ ـ معاني الكلمات ١٠٢٨
٤ ـ معنى كلام الطحاوي: «وبعذاب القبر لمن كان له أهلاً وسؤال منكر ونكير في قبره عن ربه ودينه ونبيه، على ما جاءت به الأخبار عن رسول الله ﷺ، وعن الصحابة رضوان الله عليهم. والقبر روضة من رياض الجنة، أو حفرة من حفر النيران» ١٠٢٨
٥ ـ لماذا أورد الطحاوي هذا المبحث في عقيدته؟ ١٠٢٩
٦ ـ عذاب القبر دل عليه الكتاب والسنة والإجماع ١٠٢٩
٧ ـ إنكار المعتزلة لاسم الملكين منكر ونكير ١٠٣٠
٨ ـ حكم التصديق بسؤال منكر ونكير للميت ١٠٣٠
٩ ـ الأصول الثلاثة التي يسأل عنها الملكان ١٠٣٠
١٠ ـ سؤال الملكين عام لكل من يموت من البشر ١٠٣١
١١ ـ هل يمتحن الأطفال في قبورهم؟ ١٠٣٢
١٢ ـ تعريف نعيم القبر وعذابه ١٠٣٢
١٣ ـ المستثنون من فتنة القبر ١٠٣٢
١٤ ـ عقيدة أهل السنة والجماعة في عذاب القبر ونعيمه ١٠٣٣
١٥ ـ الملاحدة ينكرون عذاب القبر ونعيمه ١٠٣٤
١٦ ـ العذاب والنعيم للروح والبدن معاً ١٠٣٥
١٧ ـ استمرار عذاب القبر إلى يوم القيامة ١٠٣٥
١٨ ـ الحكمة من تغييب عذاب القبر عن الثقلين ١٠٣٦
١٩ ـ أجساد الأنبياء والشهداء لا تفنى ١٠٣٦
٢٠ ـ الخلاصة ١٠٣٦
٢١ ـ المناقشة ١٠٣٧
البعث والجزاء والعرض ١٠٣٩
١ ـ غرض المصنف من عقد هذا الباب ١٠٥٠
٢ ـ مناسبة هذا الباب لما سبق ١٠٥٠
٣ ـ معاني الكلمات ١٠٥٠
٤ ـ معنى كلام الطحاوي: «ونؤمن بالبعث وجزاء الأعمال يوم القيامة، والعرض والحساب، وقراءة الكتاب، والثواب والعقاب، والصراط والميزان» ١٠٥٠
٥ ـ تعريف البعث والنشور ١٠٥١

الموضوع | الصفحة

٦ ـ منزلة الإيمان بالبعث من الدين ١٠٥١
٧ ـ الأدلة على ثبوت البعث ١٠٥١
٨ ـ أدلة إمكان البعث ١٠٥٢
٩ ـ حكم إنكار البعث ١٠٥٣
١٠ ـ الحكمة من اهتمام القرآن بإثبات المعاد ١٠٥٣
١١ ـ الحكمة من إخبار النبي ﷺ لأمور الآخرة تفصيلاً ١٠٥٣
١٢ ـ دعوى النبي ﷺ في أمور المعاد دون غيره من الأنبياء ١٠٥٣
١٣ ـ أساليب القرآن في إثبات المعاد ١٠٥٤
١٤ ـ آيات المعاد في سورة يسٓ ١٠٥٥
١٥ ـ آيات المعاد في سورة الإسراء ١٠٥٧
١٦ ـ ذكر مذاهب في المعاد هل هو جسماني أم روحاني؟ أم بهما معاً؟ ١٠٥٨
١٧ ـ أقوال الناس في إعادة الأجسام بعد فنائها ١٠٥٨
١٨ ـ الجواب عما استشكله بعض الناس من قوله ﷺ: (إن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من تنشق عنه الأرض فأجد موسى باطشاً جنب العرش) ١٠٥٩
١٩ ـ الخلاصة ١٠٦٠
٢٠ ـ المناقشة ١٠٦١
الحساب والصراط والميزان ١٠٦٣
١ ـ غرض المصنف من عقد هذا الباب ١٠٧٠
٢ ـ مناسبة هذا الباب لما سبق ١٠٧٠
٣ ـ معاني الكلمات ١٠٧٠
٤ ـ تعريف الحساب ١٠٧٠
٥ ـ الأدلة على ثبوت الحساب ١٠٧١
٦ ـ كيفية وصِفَة الحساب ١٠٧١
٧ ـ أنواع لحساب ١٠٧١
٨ ـ كيفية محاسبة الكفار ١٠٧١
٩ ـ أول من يحاسب من الأمم ١٠٧٢
١٠ ـ أول ما يحاسب عليه العبد ١٠٧٢
١١ ـ أول ما يقضى بين الناس في الدماء ١٠٧٢
١٢ ـ حكم الإيمان بنشر الصحف وقراءة الكتاب ١٠٧٢
١٣ ـ الجمع بين قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾﴾ [الانشقاق: ٨] وبين قوله ﷺ: (ليس أحد يحاسب يوم القيامة إلا هلك) ١٠٧٢

الموضوع | الصفحة

١٤ ـ الجزاء مظهر من مظاهر عدل الله ﷻ ١٠٧٣
١٥ ـ أنواع الجزاء الرباني ١٠٧٣
١٦ ـ جزاء الحسنة والسيئة كما وردت في القرآن والسنة ١٠٧٤
١٧ ـ المقصود بالعرض وأنواعه وأدلته ١٠٧٥
١٨ ـ تعريف الصراط وصفته ١٠٧٥
١٩ ـ الحكمة من الصراط وحكم الإيمان به ١٠٧٦
٢٠ ـ أول من يعبر الصراط ١٠٧٦
٢١ ـ هل يمر الكفار بالصراط؟ ١٠٧٦
٢٢ ـ الصراط الثاني ١٠٧٦
٢٣ ـ تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم: ٧١] .. ١٠٧٧
٢٤ ـ تعريف الميزان وصفته وحكم الإيمان به ١٠٧٧
٢٥ ـ الأشياء التي توزن في الميزان ١٠٧٨
٢٦ ـ الحكمة من تقديم الحساب على الميزان ١٠٧٩
٢٧ ـ هل الميزان واحد؟ ١٠٧٩
٢٨ ـ الجواب على دعوى أن أعمال العباد أعراض لا يمكن وزنها ١٠٧٩
٢٩ ـ الخلاصة ١٠٨٠
٣٠ ـ المناقشة ١٠٨١
الجنة والنار مخلوقتان موجودتان لا تفنيان أبداً ١٠٨٣
١ ـ غرض المصنف من عقد هذا الباب ١٠٩٥
٢ ـ مناسبة هذا الباب لما سبق ١٠٩٥
٣ ـ معاني الكلمات ١٠٩٥
٤ ـ معنى كلام الطحاوي: «والجنة والنار مخلوقتان لا تفنيان أبداً ولا تبيدان، وأن الله تعالى خلق الجنة والنار قبل الخلق، وخلق لهما أهلاً، فمن شاء منهم إلى الجنة فضلاً منه، ومن شاء منهم إلى النار عدلاً منه، وكل يعمل لما قد فرغ له، وصائر إلى ما خلق له. والخير والشر مقدران على العباد» ١٠٩٦
٥ ـ لماذا عقد المصنف هذا المبحث؟ ١٠٩٦
٦ ـ تعريف الجنة ولما سميت بذلك ومكانها ١٠٩٦
٧ ـ النار في اللغة تقال للهيب الذي يبدو للحاسة، وللحرارة المجردة، ولنار جهنم، ولنار الحرب. وفي الشرع: هي دار العذاب التي أعدها الله في الآخرة للكافرين الذين كفروا بالله وعصوا رسله. ١٠٩٧
٨ ـ الجنة والنار مخلوقتان موجودتان ١٠٩٧

الموضوع	الصفحة

٩ ـ الجنة والنار لا تفنيان ١٠٩٩
١٠ ـ المخالفون لأهل السنة في خلق الجنة والنار ووجودهما ١٠٩٩
١١ ـ المخالفون لأهل السنة في شأن فناء الجنة والنار ودوامهما ١١٠١
١٢ ـ أقوال الناس في أبدية النار ودوامها ١١٠٤
١٣ ـ اختلاف أهل العلم في توجيه الاستثناء في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾﴾ [هود: ١٠٨] ١١٠٥
١٤ ـ حكم أطفال المسلمين في الآخرة ١١٠٦
١٥ ـ أنواع المخلوقات من حيث الإرادة ١١٠٦
١٦ ـ منع الثواب عن العبد ١١٠٦
١٧ ـ الخلاصة ١١٠٦
١٨ ـ المناقشة ١١٠٧
الاستطاعة ١١٠٩
١ ـ غرض المصنف من عقد هذا الباب ١١١٥
٢ ـ مناسبة هذا الباب لما سبق ١١١٥
٣ ـ معاني الكلمات ١١١٥
٤ ـ معنى كلام الطحاوي: «والاستطاعة التي يجب بها الفعل من نحو التوفيق الذي لا يجوز أن يوصف المخلوق به تكون مع الفعل، وأما الاستطاعة من جهة الصحة والوسع والتمكن وسلامة الآلات فهي قبل الفعل وبها يتعلق الخطاب وهو كما قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]» ١١١٦
٥ ـ تعريف الاستطاعة ١١١٦
٦ ـ أنواع الاستطاعة ١١١٦
٧ ـ المقارنة بين الاستطاعة التي تكون قبل الفعل والاستطاعة التي تكون مع الفعل .. ١١١٧
٨ ـ مذهب أهل السنة في مسألة الاستطاعة ١١١٧
٩ ـ الأدلة على الاستطاعة ١١١٨
١٠ ـ المخالفون لأهل السنة في مسألة الاستطاعة ١١١٩
١١ ـ الخلاصة ١١١٩
١٢ ـ المناقشة ١١٢٠
أفعال العباد خلق الله وكسب من العباد ١١٢١
١ ـ غرض المصنف من عقد هذا الباب ١١٣٠
٢ ـ مناسبة هذا الباب لما سبق ١١٣٠

الموضوع الصفحة

٣ ـ معاني الكلمات ١١٣٠

٤ ـ معنى كلام الطحاوي: «وأفعال العباد هي خلق الله وكسب من العباد» ١١٣٠

٥ ـ مذهب أهل السنة والجماعة في أفعال العباد ١١٣١

٦ ـ أقوال السلف في إثبات خلق الله لأفعال العباد ١١٣١

٧ ـ أدلة أهل السنة والجماعة في مسألة خلق أفعال العباد ١١٣٢

٨ ـ المخالفون لأهل السنة في خلق أفعال العباد ١١٣٢

٩ ـ شبهات القدرية «المعتزلة» حول أفعال العباد والجواب عليها ١١٣٣

١٠ ـ شبهات الجبرية حول أفعال العباد والجواب عليها ١١٣٤

١١ ـ عدم التعارض بين فعل العبد والمشيئة ١١٣٥

١٢ ـ أنواع العقوبة ١١٣٥

١٣ ـ أفعال العباد نوعان ١١٣٦

١٤ ـ استخدام الجبل بدل الجبر ١١٣٦

١٥ ـ شبهة خلق الفعل مع العقوبة ظلم ١١٣٦

١٦ ـ الخلاصة ١١٣٧

١٧ ـ المناقشة ١١٣٨

التكليف بحسب الطاقة ١١٣٩

١ ـ غرض المصنف من عقد هذا الباب ١١٤٨

٢ ـ مناسبة هذا الباب فيما سبق ١١٤٨

٣ ـ معاني الكلمات ١١٤٨

٤ ـ معنى كلام الطحاوي: «ولم يكلفهم الله تعالى إلا ما يطيقون ولا يطيقون إلا ما كلفهم، وهو تفسير لا حول ولا قوة إلا بالله نقول: لا حيلة لأحد ولا تحول لأحد ولا حركة لأحد عن معصية الله إلا بمعونة الله، ولا قوة لأحد على إقامة طاعة الله والثبات عليها إلا بتوفيق الله، وكل شيء يجري بمشيئة الله تعالى وعلمه وقضائه وقدره، غلبت مشيئته المشيئات كلها وعكست إرادته الإرادات كلها، وغلب قضاؤه الحيل كلها، يفعل ما يشاء وهو غير ظالم أبداً: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ۝٢٣﴾ [الأنبياء: ٢٣]» ١١٤٨

٥ ـ المراد بالطاقة ١١٤٩

٦ ـ تفسير قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ۝٢٨٦﴾ [البقرة: ٢٨٦] ١١٤٩

الموضوع | الصفحة

٧ ـ إطلاق القول بالتكليف بما لا يطاق من البدع ١١٤٩
٨ ـ أقوال الناس في تكليف ما لا يطاق ١١٥٠
٩ ـ منشأ النزاع بين الفرق في التكليف بما لا يطاق ١١٥٢
١٠ ـ توضيح المصطلحات العلمية كوناً وشرعاً ١١٥٣
١١ ـ الفوائد المستنبطة من حديث: «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا» ١١٥٥
١٢ ـ توجيه حديث: «لو أن الله عذب أهل سماواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم، ولو رحمهم كانت رحمته خيراً لهم من أعمالهم» ١١٥٦
١٣ ـ الخلاصة ١١٥٧
١٤ ـ المناقشة ١١٥٨
انتفاع الأموات بسعي الأحياء ١١٥٩
١ ـ غرض المصنف من عقد هذا الباب ١١٦٦
٢ ـ مناسبة هذا الباب لما سبق ١١٦٦
٣ ـ معاني الكلمات ١١٦٦
٤ ـ معنى كلام الطحاوي: «وفي دعاء الأحياء وصدقاتهم منفعة الأموات» ١١٦٦
٥ ـ وجه إدخال الطحاوي مسألة فقهية في الاعتقاد ١١٦٦
٦ ـ اتفاق أهل السنة على انتفاع الميت بسعي الأحياء ١١٦٧
٧ ـ ما يصل إلى الميت من ثواب الحج ١١٦٧
٨ ـ أقوال الناس في مسألة انتفاع الأموات بسعي الأحياء ١١٦٧
٩ ـ الأدلة على انتفاع الميت ١١٦٨
١٠ ـ حكم التطوع بقراءة القرآن وإهداء ثوابها للميت ١١٦٩
١١ ـ حكم استئجار من يقرأ القرآن ويهدي ثوابه للميت ١١٧٠
١٢ ـ حكم من يوصي بجزء من ماله لمن يقرأ القرآن على قبره ١١٧٠
١٣ ـ حكم إهداء ثواب القراءة أو أي عمل صالح للنبي ﷺ ١١٧٠
١٤ ـ حكم قراءة القرآن على القبور ١١٧١
١٥ ـ حكم أخذ الأجرة على تعليم القرآن ١١٧١
١٦ ـ الخلاصة ١١٧٢
١٧ ـ المناقشة ١١٧٣
استجابة الله تعالى دعاء عباده ١١٧٥
١ ـ غرض المصنف من عقد هذا الباب ١١٨٢
٢ ـ مناسبة هذا الباب لما سبق ١١٨٢

الموضوع | الصفحة

٣ ـ معاني الكلمات ١١٨٢
٤ ـ معنى كلام الطحاوي: «والله تعالى يستجيب الدعوات ويقضي الحاجات» .. ١١٨٢
٥ ـ معنى الدعاء ١١٨٢
٦ ـ تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِى وَلْيُؤْمِنُوا بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ [البقرة: ١٨٦] ١١٨٣
٧ ـ أنواع الدعاء ١١٨٣
٨ ـ شروط إجابة الدعاء ١١٨٣
٩ ـ أنواع القرب ١١٨٤
١٠ ـ مذهب أهل السنة والجماعة أن الدعاء أقوى الأسباب في جلب المنافع ودفع المضار ١١٨٤
١١ ـ أدلة أهل السنة والجماعة في مسألة الانتفاع بالدعاء ١١٨٤
١٢ ـ المخالفون لأهل السنة في مسألة الانتفاع بالدعاء ١١٨٥
١٣ ـ الرد على شبه المخالفين لأهل السنة في مسألة الانتفاع بالدعاء ١١٨٦
١٤ ـ الجواب على دعوى بعض: دعونا فلم يستجب لنا، والله يقول: ﴿ادْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠] ١١٨٧
١٥ ـ المعاني المستلزمة للدعاء ١١٨٧
١٦ ـ معنى كلام الطحاوي: «ويملك كل شيء ولا يملكه شيء، ولا غنى عن الله تعالى طرفة عين، ومن استغنى عن الله طرفة عين فقد كفر وصار من أهل الحَين» ١١٨٨
١٧ ـ معنى قول طائفة من العلماء: «أن الالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد» ١١٨٨
١٨ ـ الخلاصة ١١٨٨
١٩ ـ المناقشة ١١٨٩
صفتا الغضب والرضا ١١٩١
١ ـ غرض المصنف من عقد هذا الباب ١١٩٥
٢ ـ مناسبة هذا الباب لما سبق ١١٩٥
٣ ـ معاني الكلمات ١١٩٥
٤ ـ معنى كلام الطحاوي: «والله يغضب ويرضى، لا كأحد من الورى» ١١٩٥
٥ ـ تفسير قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾﴾ [الفتح: ١٨] وسبب تسمية البيعة ببيعة الرضوان ١١٩٥
٦ ـ مذهب أهل السنة والجماعة في صفتي الرضا والغضب ١١٩٦
٧ ـ الأدلة من الكتاب والسنة على إثبات صفتي الرضا والغضب ١١٩٦

الموضوع | الصفحة

٨ ـ المخالفون لأهل السنة في إثبات صفتي الرضا والغضب ١١٩٦
٩ ـ الخلاصة ١١٩٨
١٠ ـ المناقشة ١١٩٨
محبة أصحاب رسول الله ﷺ ١١٩٩
١ ـ غرض المصنف من عقد هذا الباب ١٢٠٦
٢ ـ مناسبة هذا الباب لما سبق ١٢٠٦
٣ ـ معاني الكلمات ١٢٠٦
٤ ـ معنى كلام الطحاوي: «ونحب أصحاب رسول الله ولا نفرط في حب أحد منهم ولا نتبرأ من أحد منهم، ونبغض من يبغضهم وبغير الخير يذكرهم، ولا نذكرهم إلا بخير، وحبهم دين وإيمان وإحسان، وبغضهم كفر ونفاق وطغيان» ١٢٠٦
٥ ـ تعريف الصحابي ١٢٠٧
٦ ـ فضل الصحابة وحقوقهم ١٢٠٧
٧ ـ الأدلة على فضل الصحابة ١٢٠٧
٨ ـ حكم سب الصحابة ١٢٠٨
٩ ـ مذهب أهل السنة في الصحابة ١٢٠٩
١٠ ـ المخالفون لأهل السنة والجماعة في محبة الصحابة ١٢٠٩
١١ ـ المراد بالسابقين في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [التوبة: ١٠٠]. ١٢٠٩
١٢ ـ حكم الغلو في محبة الصحابة ١٢١٠
١٣ ـ وجه كون حب الصحابة ديناً وإيماناً وإحساناً ١٢١٠
١٤ ـ وجه كون بغض الصحابة كفراً ونفاقاً وطغياناً ١٢١٠
١٥ ـ معنى قول الرافضة: «لا ولاء إلا ببراءة». ١٢١١
١٦ ـ الخصلة التي فضل بها اليهود والنصارى على الرافضة ١٢١١
١٧ ـ معنى قول السلف: الشهادة بدعة والبراءة بدعة ١٢١١
١٨ ـ الخلاصة ١٢١١
١٩ ـ المناقشة ١٢١٢
مبحث الخلافة ١٢١٣
١ ـ غرض المصنف من عقد هذا الباب ١٢٢٦
٢ ـ مناسبة هذا الباب لما سبق ١٢٢٦
٣ ـ معاني الكلمات ١٢٢٦

الموضوع الصفحة

٤ ـ معنى كلام الطحاوي: «ونثبت الخلافة بعد رسول الله ﷺ أولاً لأبي بكر الصديق رضي الله عنه، تفضلاً له وتقديماً على جميع الأمة، ثم لعمر بن الخطاب رضي الله عنه، ثم لعثمان رضي الله عنه، ثم لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه، وهم الخلفاء الراشدون والأئمة المهديون» ١٢٢٦
٥ ـ وجه إدخال الطحاوي هذه المسألة الفقهية في العقيدة ١٢٢٧
٦ ـ حكم تنصيب ولي الأمر على المسلمين ١٢٢٧
٧ ـ مكانة الخلفاء الراشدين ووجوب اتباعهم ١٢٢٧
٨ ـ مدة الخلافة الراشدة ١٢٢٨
٩ ـ أولى الناس بالخلافة بعد رسول الله ﷺ ١٢٢٨
١٠ ـ خلافة أبي بكر رضي الله عنه ثابتة بالنص ١٢٢٨
١١ ـ ثبوت خلافة عمر رضي الله عنه بتفويض من أبي بكر رضي الله عنه ١٢٣٠
١٢ ـ ثبوت خلافة عثمان رضي الله عنه بالشورى ١٢٣٠
١٣ ـ ثبوت خلافة علي لما قتل عثمان ١٢٣٣
١٤ ـ المفاضلة بين عثمان وعلي ١٢٣٣
١٥ ـ موقف المسلم من الفتنة التي وقعت بين الصحابة ١٢٣٣
١٦ ـ الخلاصة ١٢٣٤
١٧ ـ المناقشة ١٢٣٥
العشرة المبشرون بالجنة. ١٢٣٧
١ ـ غرض المصنف من عقد هذا الباب ١٢٤٢
٢ ـ مناسبة هذا الباب لما سبق ١٢٤٢
٣ ـ معاني الكلمات ١٢٤٢
٤ ـ معنى كلام الطحاوي: «وأن العشرة الذين سماهم رسول الله وبشرهم بالجنة نشهد لهم بالجنة على ما شهد لهم رسول الله، وقوله الحق وهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير وسعد وسعيد وعبد الرحمٰن بن عوف وأبو عبيدة بن الجراح وهو أمين هذه الأمة رضي الله عنهم أجمعين» ١٢٤٢
٥ ـ أفضل الصحابة المبشرين بالجنة ١٢٤٣
٦ ـ الأدلة على فضل العشرة المبشرين بالجنة ١٢٤٣
٧ ـ الرافضة يتبرؤون من العشرة المبشرين بالجنة ١٢٤٣
٨ ـ الخلاصة ١٢٤٤
٩ ـ المناقشة ١٢٤٤
ما يجب على المسلم تجاه أصحاب رسول الله ﷺ وأزواجه ١٢٤٥

الموضوع	الصفحة

١ ـ غرض المصنف من عقد هذا الباب ١٢٤٨
٢ ـ مناسبة هذا الباب لما سبق ١٢٤٨
٣ ـ معاني الكلمات ١٢٤٨
٤ ـ معنى كلام الطحاوي: «ومن أحسن القول في أصحاب رسول الله وأزواجه الطاهرات من كل دنس وذرياته المقدسين من كل رجس فقد برئ من النفاق» ١٢٤٨
٥ ـ المراد بأهل البيت ١٢٤٩
٦ ـ أدلة فضل أهل البيت ١٢٤٩
٧ ـ الوصية بأهل البيت ١٢٤٩
٨ ـ موقف أهل السنة والجماعة من أهل البيت ١٢٤٩
٩ ـ حكم الغلو في أهل البيت ١٢٥٠
١٠ ـ الرد على ابن حزم في دعواه تفضيل أزواج النبي ﷺ على العشرة المبشرين بالجنة ١٢٥٠
١١ ـ الواجب على المسلم تجاه الصحابة ﵃ ١٢٥١
١٢ ـ أول من أظهر مذهب الرفض ١٢٥١
١٣ ـ الرافضة ستار للزندقة ١٢٥٢
١٤ ـ الخلاصة ١٢٥٢
١٥ ـ المناقشة ١٢٥٣
مذهب أهل السنة والجماعة في علماء السلف ١٢٥٥
١ ـ غرض المصنف من عقد هذا الباب ١٢٥٧
٢ ـ مناسبة هذا الباب لما سبق ١٢٥٧
٣ ـ معاني الكلمات ١٢٥٧
٤ ـ معنى كلام الطحاوي: «وعلماء السلف من السابقين ومن بعدهم من التابعين أهل الخير والأثر وأهل الفقه والنظر لا يذكرون إلا بالجميل ومن ذكرهم بسوء فهو على غير السبيل» ١٢٥٧
٥ ـ المراد بالسلف ١٢٥٧
٦ ـ أصناف علماء السلف ١٢٥٨
٧ ـ عقيدة أهل السنة والجماعة تجاه علماء السلف ١٢٥٨
٨ ـ أعذار العلماء في مخالفة الحديث الصحيح ١٢٥٩
٩ ـ موقف المعتزلة والأشاعرة من علماء السلف ١٢٥٩
١٠ ـ حرمة الطعن في العلماء ١٢٥٩
١١ ـ أصناف الطاعنين في العلماء ١٢٥٩
١٢ ـ نماذج من الطعن في علماء السلف المعاصرين ١٢٦٠

الموضوع | الصفحة

١٣ ـ الآثار السيئة لظاهرة الطعن في العلماء السلفيين المعاصرين ١٢٦١
١٤ ـ وسائل علاج الطعن في العلماء ١٢٦٢
١٥ ـ الخلاصة ١٢٦٣
١٦ ـ المناقشة ١٢٦٣
المفاضلة بين الأنبياء والأولياء ١٢٦٥
١ ـ غرض المصنف من عقد هذا الباب ١٢٦٩
٢ ـ مناسبة هذا الباب لما سبق ١٢٦٩
٣ ـ معاني الكلمات ١٢٦٩
٤ ـ معنى كلام الطحاوي: «ولا نفضل أحداً من الأولياء على أحد من الأنبياء ﷺ ونقول نبي واحد أفضل من جميع الأولياء» ١٢٦٩
٥ ـ مفهوم الولاية عند أهل السنة ١٢٧٠
٦ ـ أفضل أولياء الله عند أهل السنة ١٢٧٠
٧ ـ نظرة غلاة المتصوفة إلى الأنبياء ١٢٧٠
٨ ـ المقصود بختم الولاية ١٢٧٠
٩ ـ المراد من ختم الولاية عند ابن عربي ١٢٧١
١٠ ـ التعريف بابن عربي وأقوال الناس فيه ١٢٧١
١١ ـ مذهب ابن عربي في ختم الولاية والرد عليه ١٢٧٢
١٢ ـ الولي عند الصوفية ١٢٧٣
١٣ ـ الخلاصة ١٢٧٤
١٤ ـ المناقشة ١٢٧٤
الإيمان بكرامات الأولياء ١٢٧٧
١ ـ غرض المصنف من عقد هذا الباب ١٢٨٤
٢ ـ مناسبة هذا الباب لما سبق ١٢٨٤
٣ ـ معاني الكلمات ١٢٨٤
٤ ـ معنى كلام الطحاوي: «ونؤمن بما جاء من كراماتهم وصح عن الثقات من رواياتهم» ١٢٨٤
٥ ـ تعريف المعجزة ١٢٨٤
٦ ـ شروط المعجزة ١٢٨٥
٧ ـ تعريف الكرامة ١٢٨٥
٨ ـ أنواع الكرامات ١٢٨٥
٩ ـ المقارنة بين المعجزة والكرامة ١٢٨٦
١٠ ـ ضوابط الكرامة عند أهل السنة ١٢٨٦

الموضوع	الصفحة

١١ ـ أدلة ثبوت الكرامة ١٢٨٧
١٢ ـ كرامات الأولياء معجزات الأنبياء ١٢٨٧
١٣ ـ أنواع الخوارق للعادة ١٢٨٧
١٤ ـ أقسام الأشياء الخارقة للعادة من حيث الأصل ١٢٨٨
١٥ ـ تبرأ النبي ﷺ من أمور ثلاثة ١٢٨٨
١٦ ـ الحكمة من إجراء الكرامة على يد بعض العباد ١٢٨٨
١٧ ـ هل يدل إجراء الكرامة على يد شخص على كرامته عند الله ١٢٨٩
١٨ ـ منكرو الكرامة، وشبهاتهم والرد عليها ١٢٩٠
١٩ ـ نوعا كلمات الله ١٢٩٠
٢٠ ـ الكشف والتأثير باعتبار تنوع كلمات الله تعالى ١٢٩٠
٢١ ـ معنى الفراسة وأنواعها ١٢٩١
٢٢ ـ الفرق بين الكرامة والفراسة ١٢٩١
٢٣ ـ هل عدم حصول الكرامة للمسلم يضر به أم لا؟ ١٢٩١
٢٤ ـ الفرق بين كرامات الأولياء وخوارق الكهان والسحرة ١٢٩٢
٢٥ ـ الخلاصة ١٢٩٣
٢٦ ـ المناقشة ١٢٩٤
الإيمان بأشراط الساعة ١٢٩٥
١ ـ غرض المصنف من عقد هذا الباب ١٢٩٨
٢ ـ مناسبة هذا الباب لما سبق ١٢٩٨
٣ ـ معاني الكلمات ١٢٩٨
٤ ـ معنى كلام الطحاوي: «ونؤمن بأشراط الساعة من خروج الدجال ونزول عيسى ابن مريم ﷺ من السماء ونؤمن بطلوع الشمس من مغربها وخروج دابة الأرض من موضعها» ١٢٩٨
٥ ـ المراد بأشراط الساعة ١٢٩٩
٦ ـ أقسام أشراط الساعة ١٢٩٩
٧ ـ أشراط الساعة الكبرى ١٢٩٩
٨ ـ أول الآيات ظهوراً ١٢٩٩
٩ ـ الخلاصة ١٣٠٠
١٠ ـ المناقشة ١٣٠٠
الكهانة والعرافة ١٣٠١
١ ـ غرض المصنف من عقد هذا الباب ١٣١٢

الموضوع	الصفحة

٢ ـ مناسبة هذا الباب لما سبق ١٣١٢
٣ ـ معاني الكلمات ١٣١٢
٤ ـ معنى كلام الطحاوي: «ولا نصدق كاهناً ولا عرافاً ولا من يدعي شيئاً يخالف الكتاب والسنة وإجماع الأمة» ١٣١٢
٥ ـ أنواع المنجمين ١٣١٣
٦ ـ معنى السحر وحكمه ١٣١٣
٧ ـ حكم الساحر ١٣١٣
٨ ـ الأقوال في حقيقة السحر ١٣١٣
٩ ـ السحر الذي فيه كفر اتفاقاً ١٣١٤
١٠ ـ كل رقية فيها شرك لا تجوز ١٣١٤
١١ ـ عدم جواز الاستعانة بالجن ١٣١٤
١٢ ـ معنى استمتاع كل من الأنس والجن ببعضهم البعض ١٣١٤
١٣ ـ رجال الغيب ١٣١٥
١٤ ـ القول بأن الفقراء يسلم لهم حالهم والرد عليه ١٣١٥
١٥ ـ الاعتقاد في بعض البله ١٣١٦
١٦ ـ حديث: «أكثر أهل الجنة البله» ١٣١٧
١٧ ـ الطائفة الملامية ١٣١٧
١٨ ـ من يصعق بالأنغام الحسنة ويهذي بسماعها ١٣١٧
١٩ ـ من يجوز الخروج عن الشريعة متعلقاً بقصة موسى ١٣١٨
٢٠ ـ من يقول بطواف الكعبة معه ١٣١٨
٢١ ـ معنى الكاهن والعرّاف ١٣١٩
٢٢ ـ حكم الكهانة والعرّافة ١٣١٩
٢٣ ـ خطورة إتيان الكهان والعرّافين ١٣١٩
٢٤ ـ حكم سؤال العرّاف ١٣١٩
٢٥ ـ سبل الوقاية من السحر ١٣١٩
٢٦ ـ موقف المسلم من السحر والمشعوذين ١٣٢٠
٢٧ ـ الخلاصة ١٣٢٠
٢٨ ـ المناقشة ١٣٢٢
الحث على الاجتماع والنهي عن التفرُّق والاختلاف ١٣٢٣
١ ـ غرض المصنف من عقد هذا الباب ١٣٣٠
٢ ـ مناسبة هذا الباب لما سبق ١٣٣٠

الموضوع | الصفحة

٣ ـ معاني الكلمات ١٣٣٠
٤ ـ معنى كلام الطحاوي: «ونرى الجماعة حقاً وصواباً، والفرقة زيغاً وعذاباً» .. ١٣٣٠
٥ ـ الأدلة الاجتماع والنهي عن الافتراق ١٣٣٠
٦ ـ وجوب الرد إلى الكتاب والسنة عند التنازع ١٣٣٢
٧ ـ أقسام الناس ١٣٣٢
٨ ـ مراتب الافتراق والاختلاف في الدين ١٣٣٢
٩ ـ أنواع الاختلاف ١٣٣٣
١٠ ـ اختلاف التنوع يكون على وجوه ١٣٣٣
١١ ـ اختلاف التضاد ١٣٣٣
١٢ ـ موضع الذم في خلاف التنوع ١٣٣٤
١٣ ـ أكثر البغي في التنوع وأدلة البغي ١٣٣٤
١٤ ـ الاختلاف في كتاب الله على نوعين ١٣٣٤
١٥ ـ الخلاصة ١٣٣٦
١٦ ـ المناقشة ١٣٣٦
الدين عند الله الإسلام ١٣٣٧
١ ـ غرض المصنف من عقد هذا الباب ١٣٤١
٢ ـ مناسبة هذا الباب لما سبق ١٣٤١
٣ ـ معاني الكلمات ١٣٤١
٤ ـ معنى كلام الطحاوي: «ودين الله في الأرض والسماء واحد وهو دين الإسلام، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَـٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩] وقال تعالى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] وهو بين الغلو والتقصير وبين التشبيه والتعطيل وبين الجبر والقدر وبين الأمن والإياس» .. ١٣٤١
٥ ـ أدلة أن الدين عند الله الإسلام ١٣٤٢
٦ ـ ظهور الإسلام ١٣٤٢
٧ ـ تعليم النبي ﷺ كل بحسبه ١٣٤٢
٨ ـ معنى قول الطحاوي: «بين الغلو والتقصير» ١٣٤٣
٩ ـ معنى قول الطحاوي: «بين التشبيه والتعطيل» ١٣٤٤
١٠ ـ معنى قول الطحاوي: «بين الجبر والقدر» ١٣٤٤
١١ ـ معنى قول الطحاوي: «بين الأمن والإياس» ١٣٤٤
١٢ ـ الخلاصة ١٣٤٤
١٣ ـ المناقشة ١٣٤٥

الموضوع	الصفحة

البراءة ممن يخالف عقيدة أهل السنّة والجماعة ١٣٤٧
١ ـ غرض المصنف من عقد هذا الباب ١٣٥٧
٢ ـ مناسبة هذا الباب لما سبق ١٣٥٧
٣ ـ معاني الكلمات ١٣٥٧
٤ ـ معنى كلام الطحاوي: «فهذا ديننا واعتقادنا ظاهراً وباطناً ونحن براء إلى الله تعالى من كل من خالف الذي ذكرناه وبيناه ونسأل الله تعالى أن يثبتنا على الإيمان ويختم لنا به ويعصمنا من الأهواء المختلفة والآراء المتفرقة والمذاهب الردية مثل المشبهة والمعتزلة والجهمية والجبرية والقدرية وغيرهم من الذين خالفوا السنة والجماعة وحالفوا الضلالة ونحن منهم براء وهم عندنا ضلال وأردياء وبالله العصمة والتوفيق» ١٣٥٧
٥ ـ التعريف بالمشبهة ورؤوسهم ١٣٥٨
٦ ـ التعريف بالمعتزلة ورؤوسهم ١٣٥٨
٧ ـ أصول المعتزلة ١٣٥٨
٨ ـ التعريف بالجهمية ورؤوسهم ١٣٦٠
٩ ـ قصة الجعد والجهم ١٣٦٠
١٠ ـ ما تفرد به جهم بن صفوان من اعتقاد ١٣٦١
١١ ـ الخلفاء العباسيون والإمام أحمد ١٣٦١
١٢ ـ التعريف بالجبرية ورؤوسهم ١٣٦١
١٣ ـ نصوص في ذم القدرية ١٣٦٢
١٤ ـ تتابع الفتن وترتيبها ١٣٦٢
١٥ ـ تقابل هذه الفرق ١٣٦٢
١٦ ـ سبب الضلال مخالفة سبيل المؤمنين والصراط المستقيم ١٣٦٣
١٧ ـ قول بعض السلف في المنحرفين من العباد والعلماء ١٣٦٣
١٨ ـ طرق الضلال ١٣٦٤
١٩ ـ أهل التبديل نوعان ١٣٦٤
٢٠ ـ تفصيل القول في هذه الفرق ١٣٦٤
٢١ ـ من قال: أن المراد خلاف الظاهر ١٣٦٥
٢٢ ـ الخلاصة ١٣٦٥
٢٣ ـ المناقشة ١٣٦٥
فهرس المجلد الثالث ١٣٦٨

فهرس المجلد الأول

الموضوع	الصفحة
* مُقَدِّمة	٥
- ترجمة الإمام الطحاوي	٩
- ترجمة الشارح ابن أبي العز الحنفي	١٣
* متن العقيدة الطحاوية	١٧
١ ـ غرض الإمام الطحاوي من هذه العقيدة	٣٠
٢ ـ معاني الكلمات	٣٠
٣ ـ العقيدة التي قررها الطحاوي ليست خاصة بالإمام أبي حنيفة وصاحبيه	٣٠
٤ ـ التعريف بالإمام أبي حنيفة وصاحبيه	٣١
٥ ـ بيان أن الأئمة الأربعة على عقيدة واحدة	٣١
٦ ـ التعريف بأهل السنة والجماعة	٣٣
٧ ـ نبذة يسيرة عن تاريخ أهل السنة والجماعة	٤١
٨ ـ الخلاصة	٤٧
٩ ـ المناقشة	٤٩
مقدمات في الاعتقاد	٥١
١ ـ غرض الشارح ابن أبي العز من عقد هذه المقدمة	٥٥
٢ ـ معاني الكلمات	٥٥
٣ ـ أسماء هذا العلم وألقابه	٥٦
٤ ـ معنى العقيدة	٥٧
٥ ـ أهمية العقيدة الطحاوية وشرح ابن أبي العز	٥٧
٦ ـ تعريف علم التوحيد	٦٠
٧ ـ مكانة علم التوحيد بين العلوم	٦٠

الموضوع **الصفحة**

٨ ـ الأدلة على علوّ علم التوحيد وشرفه ٦٠
٩ ـ معنى أصول الدين بين السلف والمتكلمين ٦١
١٠ ـ وجه تسمية علم التوحيد بـ«الفقه الأكبر» ٦٢
١١ ـ مصادر أهل السنّة والجماعة في تلقي العقيدة ٦٢
١٢ ـ قواعد أهل السنّة وسمات منهجهم في تقرير العقيدة ٦٣
١٣ ـ القرآن والسنّة وحي من الله ﷻ ٦٣
١٤ ـ الكتاب والسنّة حويا أصول الدين وفروعه ٦٤
١٥ ـ حاجة الناس إلى الوحي ٦٤
١٦ ـ منزلة العقل في الإسلام ٦٤
١٧ ـ هل تستقل العقول بمعرفة التوحيد؟ ٦٥
١٨ ـ أعرف الناس بالله ﷻ ٦٥
١٩ ـ معرفة الله ﷻ عند أهل التوحيد ٦٦
٢٠ ـ الأصلان التابعان للتوحيد ٦٦
٢١ ـ حكم تعلُّم علم التوحيد ٦٦
٢٢ ـ هل ما يجب على الأعيان متنوع أم متفق؟ ٦٦
٢٣ ـ الخلاصة ٦٧
٢٤ ـ المناقشة ٦٨
ظهور الفرق والبدع في الدين ٦٩
١ ـ غرض الشارح ابن أبي العز من عقد هذه المقدمة ٧٧
٢ ـ معاني الكلمات ٧٧
٣ ـ سبب ضلال الفرق ٧٩
٤ ـ مضي خير القرون وبيان حقيقة اتباع النبي ﷺ ٧٩
٥ ـ ظهور الخلاف ٨٠
٦ ـ استمرار طائفة على الحق، ورغبة الطحاوي في تقرير عقيدة السلف عن أبي حنيفة وصاحبيه ٨٠

الموضوع — الصفحة

٧ ـ ظهور البدع كلما بعُد العهد ٨١
٨ ـ الطوائف التي ضلت في اتباع الرسل ٨٢
٩ ـ منهج الصوفية في الاستدلال لمسائل العقيدة ٨٢
١٠ ـ منهج الرافضة في الاستدلال لمسائل العقيدة ٨٢
١١ ـ علم الكلام وذم السلف له ٨٣
١٢ ـ منهج المتكلمين في العقيدة ٨٣
١٣ ـ التحريف والتأويل الكلامي المذموم ٨٤
١٤ ـ الدلالة على ذم علم الكلام من قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [الأنعام: ٦٨] ٨٤
١٥ ـ مراتب التحريف البدعي ٨٤
١٦ ـ وجه الشبه بين المنافقين وبين المتكلمين والفلاسفة وحججهم وسبب ذلك . ٨٥
١٧ ـ ذم شيوخ الحنفية لعلم الكلام ٨٥
١٨ ـ دعوى المتكلمين أن طريقة السلف أسلم وطريقة الخلف أعلم وأحكم ٨٦
١٩ ـ مصطلحات المتكلمين وموقف السلف منها ٨٦
٢٠ ـ منهج ابن أبي العز في الطحاوية ٨٧
٢١ ـ الخلاصة ٨٨
٢٢ ـ المناقشة ٨٨
حقيقة التوحيد ومسماه ٩٣
١ ـ غرض المصنف من عقد هذا الباب ١٠٧
٢ ـ مناسبة هذا الباب لما سبق ١٠٧
٣ ـ معاني الكلمات ١٠٨
٤ ـ الفرق بين الفقرات التي ذكرها الإمام الطحاوي في تقرير التوحيد ١١٠
٥ ـ معنى كلام الإمام الطحاوي: «نقول في توحيد الله معتقدين بتوفيق الله، إن الله واحد لا شريك له» ١١٢

الموضوع	الصفحة
٦ ـ مفهوم التوحيد بين أهل السنة والمتكلمين	١١٢
٧ ـ مقارنة بين طريقتيْ أهل السنة والمتكلمين في حقيقة التوحيد	١١٤
٨ ـ التوحيد أول دعوة الرسل	١١٤
٩ ـ أول واجب على المكلف	١١٤
١٠ ـ الإتيان بخصائص الإسلام دون التكلم بالشهادة	١١٥
١١ ـ أقسام التوحيد	١١٦
١٢ ـ مسمى التوحيد عند الجهم بن صفوان ومن وافقه	١١٧
١٣ ـ شرح قول ابن أبي العز: «وهذا القول قد أفضى بقوم إلى القول بالحلول والاتحاد»	١١٧
١٤ ـ أدلة توحيد الربوبية	١١٨
١٥ ـ تقرير توحيد الربوبية عند المتكلمين	١٢٢
١٦ ـ منهج المتكلمين في إثبات الوحدانية في الربوبية	١٢٢
١٧ ـ خطأ استدلال المتكلمين على دليل التمانع بقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الأنبياء: ٢٢]	١٢٢
١٨ ـ العباد مفطورون على الإقرار بالتوحيد	١٢٣
١٩ ـ أنواع الفطرة	١٢٤
٢٠ ـ أدلة ثبوت الفطرة	١٢٤
٢١ ـ الطوائف التي غلت في توحيد الربوبية	١٢٥
٢٢ ـ الطوائف التي أشركت في الربوبية	١٢٥
٢٣ ـ المقاييس العقلية لإبطال الشرك في الربوبية في كتاب الله	١٢٦
٢٤ ـ الخلاصة	١٢٧
٢٥ ـ المناقشة	١٢٧
أقسام التوحيد	١٢٩
١ ـ غرض المصنف من عقد هذا الباب	١٤١
٢ ـ مناسبة هذا الباب لما سبق	١٤١

الموضوع	الصفحة
٣ ـ معاني الكلمات	١٤١
٤ ـ تقسيم التوحيد عند أهل السنة	١٤٣
٥ ـ فضائل توحيد الألوهية وثمراته	١٤٤
٦ ـ معنى لا إله إلا الله، ومتى تنفع قائلها؟	١٤٥
٧ ـ المخالفون لأهل السنة والجماعة في معنى لا إله إلا الله	١٤٥
٨ ـ توحيد الألوهية هو الغاية	١٤٧
٩ ـ مكانة توحيد الألوهية وأهميته	١٤٧
١٠ ـ معنى تحقيق توحيد الألوهية وجزاء من حققه	١٤٨
١١ ـ مراتب الناس في تحقيق توحيد الألوهية	١٤٨
١٢ ـ توحيد الربوبية يستلزم توحيد الألوهية	١٤٨
١٣ ـ الاستدلال بتوحيد الأسماء والصفات على توحيد العبادة	١٤٩
١٤ ـ موقف أهل الكلام والتصوف من توحيد الألوهية	١٤٩
١٥ ـ موقف المتكلمين من الشرك	١٥٠
١٦ ـ شهادة الله لنفسه بالتوحيد	١٥٠
١٧ ـ مراتب الشهادة	١٥١
١٨ ـ دليل التمانع في الألوهية	١٥٢
١٩ ـ غالب سور القرآن متضمنة لنوعي التوحيد	١٥٢
٢٠ ـ طريقة القرآن في بيان استحقاق الله ﷻ للوحدانية	١٥٣
٢١ ـ طرق الاستدلال على الوحدانية	١٥٤
٢٢ ـ أكمل الناس توحيداً عند أهل السنة	١٥٤
٢٣ ـ أقسام التوحيد عند الصوفية	١٥٤
٢٤ ـ أبيات الهروي التي أوردها ابن أبي العز	١٥٥
٢٥ ـ الخلاصة	١٥٥
٢٦ ـ المناقشة	١٥٦

الموضوع **الصفحة**

من أصول التوحيد أن الله تعالى ليس كمثله شيء ١٥٧
١ ـ غرض المصنف من عقد هذا الباب ١٧٠
٢ ـ مناسبة هذا الباب لما سبق ١٧٠
٣ ـ معاني الكلمات ١٧٠
٤ ـ معنى كلام الطحاوي: «ولا شيء مثله» ١٧١
٥ ـ معنى كلام الطحاوي: «ولا شيء يعجزه» ١٧١
٦ ـ الجمع بين النفي والإثبات في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] ١٧٢
٧ ـ حكم من مثل صفات الله بصفات الخلق ١٧٢
٨ ـ الممثل يعبد صنماً ١٧٢
٩ ـ من شبه الله بخلقه فقد شابه النصارى ١٧٢
١٠ ـ التعبير بنفي التمثيل أولى من التعبير بنفي التشبيه ١٧٣
١١ ـ طريقة السلف في التنزيه ١٧٣
١٢ ـ مفهوم التنزيه عند المعطلة ١٧٤
١٣ ـ المعطلة يصفون الله تعالى بالنفي المحض ١٧٤
١٤ ـ الأدلة على أن الاشتراك في الأسماء والصفات لا يستلزم تماثلَ المسميات ١٧٥
١٥ ـ أمثلة لأسماء سمَّى بها الله نفسه وسمَّى بها بعض عباده ١٧٦
١٦ ـ تعريف القدر المشترك ١٧٧
١٧ ـ القدر المشترك ضروري لفهم الخطاب ١٧٧
١٨ ـ أقسام الناس في القدر المشترك ١٧٨
١٩ ـ سبب اضطراب أهل الكلام في القدر المشترك ١٨٠
٢٠ ـ مراتب الخطاب ١٨١
٢١ ـ مذاهب نفاة الصفات ١٨١
٢٢ ـ مذهب أهل الاعتزال في الأسماء والصفات ١٨٢

الموضوع | الصفحة

٢٣ ـ مقارنة بين طريقة السلف وطريقة الأشعرية من حيث الإثبات والنفي في نصوص الصفات ١٨٢
٢٤ ـ حوار مع أشعري ١٨٣
٢٥ ـ حوار الأشعري مع معتزلي ١٨٣
٢٦ ـ أهل السنة والجماعة لا يصفون الله تعالى بالنفي المحض ١٨٤
٢٧ ـ الأدلة من الكتاب والسنة على إثبات قدرة الرب ١٨٤
٢٨ ـ معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر: ٤٤] ١٨٥
٢٩ ـ النفي قد يأتي مفصلاً والإثبات مجملاً في القرآن ١٨٥
٣٠ ـ الخلاصة ١٨٦
٣١ ـ المناقشة ١٨٧
كلمة التوحيد: لا إله إلا الله ١٨٩
١ ـ غرض المصنف من عقد هذا الباب ١٩٤
٢ ـ مناسبة هذا الباب لما سبق ١٩٤
٣ ـ معاني الكلمات ١٩٤
٤ ـ كلمة التوحيد نفي وإثبات ١٩٤
٥ ـ معنى كلام الطحاوي: «ولا إله غيره» ١٩٥
٦ ـ إعراب كلمة التوحيد «لا إله إلا الله» ١٩٥
٧ ـ الفرق بين نفي الوجود والماهية ١٩٥
٨ ـ معنى كلام الطحاوي: «قديم بلا ابتداء» ١٩٦
٩ ـ «القديم» ليس من أسماء الله ﷻ ١٩٦
١٠ ـ معنى كلمة «القديم» ١٩٧
١١ ـ معنى قوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الطور: ٣٥]. ١٩٧

الموضوع **الصفحة**

١٢ ـ معنى كلام ابن أبي العز: «والعلم بثبوت هذين الوصفين ـ الأول والآخر ـ مستقر في الفطر، فإن الموجودات لا بد أن تنتهي إلى واجب الوجود بذاته قطعاً للتسلسل» ١٩٧

١٣ ـ معنى قول الطحاوي: «لا يفنى ولا يبيد» ١٩٨

١٤ ـ قوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧] ١٩٨

١٥ ـ الخلاصة ١٩٨

١٦ ـ المناقشة ١٩٩

كل ما يحدث في الكون فهو بإرادته ﷻ ٢٠١

١ ـ غرض المصنف من عقد هذا الباب ٢٠٧

٢ ـ مناسبة هذا الباب لما سبق ٢٠٧

٣ ـ معاني الكلمات ٢٠٧

٤ ـ معنى كلام الطحاوي: «ولا يكون إلا ما يريد» ٢٠٨

٥ ـ علاقة القدر بالتوحيد ٢٠٨

٦ ـ مراتب الإيمان بالقدر ٢٠٨

٧ ـ المخالفون لأهل السنة في الإرادة ٢٠٨

٨ ـ الفرق بين الإرادة الشرعية والإرادة الكونية ٢٠٩

٩ ـ أمثلة على الإرادة الكونية والإرادة الشرعية ٢٠٩

١٠ ـ هل يلزم من الأمر بالشيء لغة وشرعاً وعقلاً أن تعين المأمور على فعله؟ .. ٢١٠

١١ ـ لماذا أمر الله أبا بكر بالإيمان وأعانه؟ ولما أمر أبا لهب بالإيمان ولم يُعنه؟ ٢١٠

١٢ ـ أفعال الله ﷻ وأوامره تصدر عن حكمة ٢١١

١٣ ـ المنحرفون في باب القدر ٢١١

١٤ ـ القدرية يقولون: إنه يقع في ملك الله شيء لا يريده ٢١٢

١٥ ـ إذا قال قائل: إذا كان في علم الله السابق أن أبا لهب لن يؤمن، فلماذا أمره بالإيمان؟ ٢١٢

الموضوع	الصفحة

١٦ ـ الخلاصة ٢١٢
١٧ ـ المناقشة ٢١٣
معرفة البشر بربهم بأسمائه وصفاته وعجزهم عن الإحاطة بكنهه وحقيقته ٢١٥
١ ـ غرض المصنف من عقد هذا الباب ٢٢٣
٢ ـ مناسبة هذا الباب لما سبق ٢٢٣
٣ ـ معاني الكلمات ٢٢٣
٤ ـ معنى كلام الطحاوي: «لا تبلغه الأوهام ولا تدركه الأفهام» ٢٢٤
٥ ـ قصد الطحاوي بالعبارة: «لا تبلغه الأوهام ولا تدركه الأفهام» الرد على الممثلة والمعطلة ٢٢٤
٦ ـ تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠] ٢٢٤
٧ ـ معنى كلام الطحاوي: «ولا يشبه الأنام» ٢٢٥
٨ ـ المعطلة مرادهم بنفي التشبيه نفي الصفات ٢٢٥
٩ ـ معنى التشبيه ٢٢٥
١٠ ـ الفرق بين التشبيه والتمثيل ٢٢٦
١١ ـ وجه بطلان طريقة المتكلمين في التنزيه وذلك بنفي التشبيه ٢٢٦
١٢ ـ حكم الممثلة عند السلف ٢٢٦
١٣ ـ معنى كلام الطحاوي: «حي لا يموت قيوم لا ينام» ٢٢٧
١٤ ـ تفسير قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥] ٢٢٧
١٥ ـ مدار الأسماء والصفات على هذين الاسمين «الحي القيوم» ٢٢٨
١٦ ـ علامة الجهمية عند أهل السنة والجماعة ٢٢٨
١٧ ـ المبتدعة يرمون أهل السنة بأقبح الألفاظ للتنفير من مذهب أهل السنة ٢٢٨
١٨ ـ المعطلة والممثلة يستخدمون الأقيسة في حق الله ٢٢٨
١٩ ـ الممثل يعبد صنماً والمعطل يعبد عدماً ٢٢٩
٢٠ ـ الخلاصة ٢٢٩
٢١ ـ المناقشة ٢٢٩

الموضوع الصفحة

إثبات الصفات (الخلق والرزق) ومن الصفات الفعلية أنه يحيي ويميت ٢٣١
١ ـ غرض المصنف من عقد هذا الباب ٢٣٤
٢ ـ مناسبة هذا الباب لما سبق ٢٣٤
٣ ـ معاني الكلمات ٢٣٤
٤ ـ معنى كلام الطحاوي: «خالق بلا حاجة رازق بلا مؤونة» ٢٣٤
٥ ـ معنى كلام الطحاوي: «مميت بلا مخافة وباعث بلا مشقة» ٢٣٥
٦ ـ أنواع الرزق ٢٣٥
٧ ـ هل يشمل الرزقُ الحلالَ والحرامَ ٢٣٥
٨ ـ هل يزيد الرزق وينقص؟ ٢٣٥
٩ ـ الموت صفة وجودية ٢٣٥
١٠ ـ الخلاصة ٢٣٦
١١ ـ المناقشة ٢٣٦
اتصاف الرب تعالى بصفات الكمال أزلاً وأبداً ٢٣٧
١ ـ غرض المصنف من عقد هذا الباب ٢٤٧
٢ ـ مناسبة هذا الباب لما سبق ٢٤٧
٣ ـ معاني الكلمات ٢٤٧
٤ ـ معنى كلام الطحاوي: «ما زال بصفاته قديماً قبل خلقه لم يزدد بكونهم شيئاً لم يكن قبلهم من صفته، وكما كان بصفاته أزلياً كذلك لا يزال عليها أبدياً» ٢٤٨
٥ ـ أقسام الصفات ٢٤٨
٦ ـ قواعد أهل السنة في الأسماء والصفات ٢٤٨
٧ ـ حلول الحوادث والاستفصال في نفيه ٢٤٩
٨ ـ هل الصفة زائدة على الذات؟! ٢٥٠
٩ ـ معنى قول بعض السلف: الاستواء معلوم والكيف مجهول ٢٥١
١٠ ـ هل الاسم عين المسمى؟ ٢٥١
١١ ـ الاستعاذة بالصفات ٢٥١

الموضوع | الصفحة

١٢ ـ التسلسل وأنواعه ٢٥٢
١٣ ـ مذاهب الناس في أفعال الرب ٢٥٣
١٤ ـ الخلاصة ٢٥٣
١٥ ـ المناقشة ٢٥٣
الله الخالق والبارئ وهو الرب بكل معاني الربوبية قبل أن يخلق الخلق ٢٥٥
١ ـ غرض المصنف من عقد هذا الباب ٢٦١
٢ ـ مناسبة الباب لما سبق ٢٦١
٣ ـ معاني الكلمات ٢٦١
٤ ـ معنى كلام الطحاوي: «ليس بعد خلق الخلق استفاد اسم الخالق ولا بإحداث البرية استفاد اسم البارئ» ٢٦٢
٥ ـ معنى كلام الطحاوي: «له معنى الربوبية ولا مربوب» ٢٦٢
٦ ـ معنى كلام الطحاوي: «وكما أنه محيي الموتى بعد ما أحيا استحق هذا الاسم قبل إحيائهم كذلك استحق الخالق قبل إنشائهم» ٢٦٢
٧ ـ معنى الخالق والرب ٢٦٣
٨ ـ ما هو أول هذا العالم؟ ٢٦٣
٩ ـ تفسير قوله تعالى: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٦] ٢٦٤
١٠ ـ الخلاصة ٢٦٤
١١ ـ المناقشة ٢٦٥
إثبات قدرة الرب على كل شيء والرد على المعتزلة ٢٦٧
١ ـ غرض المصنف من عقد هذا الباب ٢٧٤
٢ ـ مناسبة هذا الباب لما سبق ٢٧٤
٣ ـ معاني الكلمات ٢٧٤
٤ ـ معنى كلام الطحاوي: «ذلك بأنه على كل شيء قدير، وكل شيء إليه فقير، وكل أمر عليه يسير، لا يحتاج إلى شيء، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير» ٢٧٥

الموضوع	الصفحة
٥ ـ معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٠]	٢٧٥
٦ ـ تسمية الله تعالى بالقادر والقدير والمقتدر	٢٧٥
٧ ـ القادر هو الذي يفعل بمشيئة وقدرة	٢٧٦
٨ ـ دوام كون الله تعالى قادراً في الأزل والأبد	٢٧٦
٩ ـ الفرق بين قدرة الرب وقدرة العبد	٢٧٦
١٠ ـ مذهب المعتزلة في قدرة الرب	٢٧٦
١١ ـ تحريف المعتزلة لعموم قدرة الله	٢٧٧
١٢ ـ المحال غير داخل في الشيء	٢٧٧
١٣ ـ هل المعدوم شيء؟	٢٧٨
١٤ ـ تفسير قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]	٢٧٨
١٥ ـ تفسير قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠]	٢٧٨
١٦ ـ إعراب الكاف في قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]	٢٧٨
١٧ ـ هل يوجد تعارض بين قوله: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [الروم: ٢٧] وقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]؟	٢٧٩
١٨ ـ موقف أحمد بن أبي دؤاد وجهم من إثبات الصفات	٢٧٩
١٩ ـ الخلاصة	٢٧٩
٢٠ ـ المناقشة	٢٨٠
الله ﷻ خلق الخلق وهو عالم بهم	٢٨١
١ ـ غرض المصنف من عقد هذا الباب	٢٨٧
٢ ـ مناسبة هذا الباب لما سبق	٢٨٧
٣ ـ معاني الكلمات	٢٨٧
٤ ـ معنى كلام الطحاوي: «خلق الخلق بعلمه»	٢٨٨
٥ ـ الدليل النقلي والعقلي على علم الله	٢٨٨
٦ ـ معنى كلام الطحاوي: «وقدر لهم أقداراً وضرب لهم آجالاً»	٢٨٨
٧ ـ الأدلة على وجود المخلوقات بقدر الله تعالى	٢٨٩

الموضوع	الصفحة
٨ ـ الأدلة من الكتاب والسنة على أن الله تعالى قدَّر آجال الخلائق	٢٨٩
٩ ـ المقتول ميت بأجله خلافاً للمعتزلة	٢٨٩
١٠ ـ تأثير صلة الرحم والدعاء في طول العمر	٢٩٠
١١ ـ تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [فاطر: ١١]	٢٩٠
١٢ ـ تفسير قوله تعالى: ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾﴾ [الرعد: ٣٩]	٢٩١
١٣ ـ الخلاصة	٢٩٢
١٤ ـ المناقشة	٢٩٢
شمول علمه ﷻ	٢٩٣
١ ـ غرض المصنف من عقد هذا الباب	٣٠٠
٢ ـ مناسبة هذا الباب لما سبق	٣٠٠
٣ ـ معاني الكلمات	٣٠٠
٤ ـ معنى قول الطحاوي: «ولم يخف عليه شيء قبل أن يخلقهم، وعلم ما هم عاملون قبل أن يخلقهم	٣٠٠
٥ ـ علم الله سابق للمقادير	٣٠١
٦ ـ الأدلة النقلية والعقلية على ثبوت العلم لله	٣٠١
٧ ـ القدرية الأولى تنكر العلم والكتابة	٣٠٢
٨ ـ معنى قول الطحاوي: «وأمرهم بطاعته ونهاهم عن معصيته»	٣٠٢
٩ ـ الأدلة على إثبات مشيئة الرب	٣٠٢
١٠ ـ معنى كلام الطحاوي: «وكل شيء يجري بتقديره ومشيئته، ومشيئته تنفذ، لا مشيئة للعباد إلا ما شاء لهم، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن».	٣٠٣
١١ ـ الفرق بين المشيئة والإرادة	٣٠٣
١٢ ـ احتجاج المشركين بالمشيئة	٣٠٣
١٣ ـ الإجابة على احتجاج آدم على موسى بالقدر	٣٠٤

الموضوع | الصفحة

١٤ ـ معنى قول الطحاوي: «يهدي من يشاء ويعصم من يشاء فضلاً، ويضل من يشاء ويخذل ويبتلي عدلاً». ٣٠٥
١٥ ـ مراتب الهداية ٣٠٥
١٦ ـ المراد بالهداية في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِى مَنۡ أَحۡبَبۡتَ﴾ [القصص: ٥٦] . ٣٠٦
١٧ ـ القدر يحتج به عند المصائب لا عند المعائب ٣٠٦
١٨ ـ حكمة الله في تقدير الكفر والمعاصي ٣٠٦
١٩ ـ الهداية عند المعتزلة ٣٠٧
٢٠ ـ معنى الهداية عند المعتزلة ٣٠٧
٢١ ـ معنى كلام الطحاوي: و«كلهم يتقلبون في مشيئته بين فضله وعدله» ٣٠٨
٢٢ ـ معنى كلام الطحاوي: «وهو متعال عن الأضداد والأنداد» ٣٠٨
٢٣ ـ معنى كلام الطحاوي: «لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه ولا غالب لأمره» ٣٠٨
٢٤ ـ معنى كلام الطحاوي: «آمنا بذلك وأيقنا أن كلّاً من عنده» ٣٠٨
٢٥ ـ الخلاصة ٣٠٩
٢٦ ـ المناقشة ٣٠٩
مبحث النبوات ٣١١
١ ـ غرض المصنف من عقد هذا الباب ٣٣٠
٢ ـ مناسبة هذا الباب لما سبق ٣٣٠
٣ ـ معاني الكلمات ٣٣٠
٤ ـ معنى كلام الطحاوي: «وأن محمداً عبده المصطفى، ونبيه المجتبى، ورسوله المرتضى. وأنه خاتم الأنبياء، وإمام الأتقياء، وسيد المرسلين وحبيب رب العالمين. وكل دعوى النبوة بعده فغي وهوى. وهو المبعوث إلى عامة الجن وكافة الورى، بالحق والهدى، بالنور والضياء» ٣٣١
٥ ـ حقيقة النبوة ٣٣١
٦ ـ النبوة اصطفاء واختيار عند أهل السنة والجماعة ٣٣٢
٧ ـ المخالفون لأهل السنة في النبوة ٣٣٢

الموضوع | الصفحة

٨ ـ حاجة الناس إلى النبوة والرسالة ٣٣٢
٩ ـ وظائف الرسل ٣٣٢
١٠ ـ فوائد معرفة الأنبياء والإيمان بهم ٣٣٤
١١ ـ تعريف النبي والرسول وبيان الفرق بينهما ٣٣٤
١٢ ـ طرق إثبات النبوة عند أهل السنة ٣٣٥
١٣ ـ طريق المتكلمين في إثبات النبوة ٣٣٥
١٤ ـ حقيقة المعجزة عند أهل السنة ٣٣٥
١٥ ـ حقيقة المعجزة عند أهل الكلام ٣٣٦
١٦ ـ مقتضى الشهادة لمحمد ﷺ بالنبوة والرسالة ٣٣٦
١٧ ـ وجوب محبة الرسول ﷺ ٣٣٦
١٨ ـ معنى محبة الرسول ﷺ وكيف تكون؟ ٣٣٧
١٩ ـ الإطراء والغلو مناف لمحبته ﷺ ٣٣٧
٢٠ ـ كمال المخلوق في تحقيق العبودية لله ٣٣٧
٢١ ـ خصائص النبي ﷺ ٣٣٨
٢٢ ـ التوفيق بين قول النبي ﷺ: (لا تفضلوني على موسى)، وقوله: (أنا سيد ولد آدم ولا فخر) ٣٣٨
٢٣ ـ شرح حديث: (لا ينبغي لعبد أن يقول: أنا خير من يونس) ٣٣٩
٢٤ ـ شرح حديث: (إن الله اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً) ٣٣٩
٢٥ ـ مراتب المحبة ٣٣٩
٢٦ ـ كل دعوىٰ النبوة بعد النبي ﷺ فغي وهوى ٣٤٠
٢٧ ـ عموم بعثة النبي ﷺ للإنس والجن ٣٤٠
٢٨ ـ هل الرسل من الإنس فقط؟ ٣٤١
٢٩ ـ موقف النصارى من بعثة النبي ﷺ ٣٤١
٣٠ ـ تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾ [سبأ: ٢٨]. ٣٤١
٣١ ـ الخلاصة ٣٤٢

الموضوع | الصفحة

٣٢ ـ المناقشة ٣٤٣

القرآن كلام الله غير مخلوق ٣٤٥

١ ـ غرض المصنف من عقد هذا الباب ٣٦٨

٢ ـ مناسبة هذا الباب لما سبق ٣٦٨

٣ ـ معاني الكلمات ٣٦٩

٤ ـ معنى كلام الطحاوي ٣٦٩

٥ ـ معنى قول الطحاوي: «منه بدا بلا كيفية قولاً» ٣٧٠

٦ ـ عرض عقيدة أهل السنة والجماعة في كلام الله إجمالاً ٣٧٠

٧ ـ عرض عقائد أهل البدع في كلام الله والرد عليها إجمالاً ٣٧٢

٨ ـ نشأة بدعة الكلام النفسي ٣٨٣

٩ ـ حجج من قال ببدعة الكلام النفسي والجواب عليها ٣٩٢

١٠ ـ دعوى المعتزلة أن كلام الله مخلوق والرد عليها ٣٩٦

١١ ـ الأدلة من الكتاب والسنة لتكليم الله ﷻ لأهل الجنة ٣٩٨

١٢ ـ اللوازم الباطلة لقول الاتحادية في مسألة الكلام ٣٩٨

١٣ ـ مناقشة عبد العزيز المكي لبشر المريسي في مسألة الكلام ٣٩٩

١٤ ـ الرد على من قال: إن القرآن أحدثه جبريل أو محمد ﷺ ٣٩٩

١٥ ـ معنى القرآن في اللغة ٤٠٠

١٦ ـ الفرق بين كون القرآن في زبر الأولين وكونه في رق منشور أو لوح محفوظ ٤٠١

١٧ ـ معنى قول السلف: «منه بدا وإليه يعود» ٤٠١

١٨ ـ الفرق بين إنزال القرآن وإنزال المطر ٤٠٢

١٩ ـ مذاهب الناس في مسمى الكلام ٤٠٢

٢٠ ـ أول من قال: (لفظي بالقرآن مخلوق) ٤٠٣

٢١ ـ معنى قول الطحاوي: «صدق المؤمنون على ذلك حقاً، وأيقنوا أنه كلام الله تعالى بالحقيقة ليس بمخلوق». ٤٠٣

٢٢ ـ الخلاصة ٤٠٣

الموضوع | الصفحة

٢٣ ـ المناقشة ٤٠٤

الرؤية عند أهل السنّة والجماعة والمخالفين لهم ٤٠٧

١ ـ غرض المصنف من عقد هذا الباب ٤٢٤

٢ ـ مناسبة هذا الباب لما سبق ٤٢٤

٣ ـ معاني الكلمات ٤٢٥

٤ ـ معنى قول الطحاوي ٤٢٥

٥ ـ مسألة الرؤية من أشرف مسائل أصول الدين ٤٢٦

٦ ـ عرض مذهب أهل السنّة في الرؤية ٤٢٦

٧ ـ المخالفون لأهل السنة في مسألة الرؤية ٤٢٦

٨ ـ أدلة الرؤية ٤٢٦

٩ ـ شبه المعتزلة حول الرؤية ٤٢٧

١٠ ـ معنى قوله الله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]. ٤٢٩

١١ ـ مذهب الأشعرية والماتريدية في الرؤية ٤٣٠

١٢ ـ الرد على مذهب الأشعرية في الرؤية ٤٣١

١٣ ـ بعض شبهات الأشعرية والماتريدية في الرؤية والرد عليها ٤٣٨

١٤ ـ هل الرؤية بصرية أم قلبية؟ ٤٤٠

١٥ ـ هل الرؤية البصرية لله ممكنة في الدار الدنيا؟ ٤٤٠

١٦ ـ معنى قول الطحاوي: «ولا تثبت قدم الإسلام إلا على ظهر التسليم والاستسلام، فمن رام علم ما حظر عنه علمه، ولم يقنع بالتسليم فهمه، حجبه مرامه عن خالص التوحيد، وصافي المعرفة، وصحيح الإيمان، فيتذبذب بين الكفر والإيمان، والتصديق والتكذيب، والإقرار والإنكار، موسوساً تائهاً، شاكاً، لا مؤمناً مصدقاً، ولا جاحداً ولا مكذباً. ولا يصح الإيمان بالرؤية لأهل دار السلام لمن اعتبرها منهم بوهم، أو تأولها بفهم إذ كان تأويل الرؤية ـ وتأويل كل معنى يضاف إلى الربوبية ـ بترك التأويل ولزوم التسليم، وعليه دين المسلمين» ٤٤١

الموضوع	الصفحة
١٧ ـ مثل العقل مع النقل كالعامي المقلد مع العالم المجتهد	٤٤٢
١٨ ـ الخلاف في رؤية أهل المحشر لله ﷻ	٤٤٣
١٩ ـ الخلاصة	٤٤٣
٢٠ ـ المناقشة	٤٤٤
* **فهرس المجلد الأول**	[١ ـ ١٨]

فهرس المجلد الثاني

الموضوع	الصفحة
علم الكلام وذم السلف له	٤٤٥
١ ـ غرض المصنف من عقد هذا الباب	٤٦٧
٢ ـ مناسبة هذا الباب لما سبق	٤٦٧
٣ ـ معاني الكلمات	٤٦٧
٤ ـ تعريف علم الكلام	٤٦٨
٥ ـ سبب تسميته بعلم الكلام	٤٦٨
٦ ـ التعريف بأهل الكلام	٤٦٨
٧ ـ مراحل نشأة علم الكلام	٤٧١
٨ ـ فرق أهل الكلام	٤٧٢
٩ ـ ذم السلف لأهل الكلام	٤٧٦
١٠ ـ حكم علم الكلام	٤٧٧
١١ ـ نهاية من خاض في علم الكلام	٤٧٧
١٢ ـ دخول الفساد في العالم	٤٧٩
١٣ ـ أول من عارض النص إبليس ومثله أهل الفِرَق والرأي والسياسة	٤٨٠
١٤ ـ الدواء النافع للحيرة والشك	٤٨٠
١٥ ـ معنى التأويل	٤٨١
١٦ ـ تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ٧]	٤٨١
١٧ ـ الرد على من قال: أن الأخذ بظاهر القرآن ضلال	٤٨٢
١٨ ـ معنى قول الطحاوي: «ومن لم يتوق النفي والتشبيه، زلّ ولم يصب التنزيه»	٤٨٤
١٩ ـ مفهوم التشبيه عند أهل السنّة	٤٨٥
٢٠ ـ التشبيه في اصطلاح المتكلمين	٤٨٥
٢١ ـ أنواع التشبيه	٤٨٥
٢٢ ـ أمراض القلوب	٤٨٥

الموضوع | الصفحة

٢٣ ـ معنى قول الطحاوي: «فإن ربنا جل وعلا، موصوف بصفات الوحدانية، منعوت بنعوت الفردانية، ليس في معناه أحد من البرية» ٤٨٦
٢٤ ـ الفرق بين الوصف والنعت ٤٨٦
٢٥ ـ معنى قول الطحاوي: «وتعالى عن الحدود والغايات، والأركان والأعضاء والأدوات، لا تحويه الجهات الست كسائر المبتدعات» ٤٨٦
٢٦ ـ حكم الألفاظ التي لم ترد في الشرع وتنازع فيها المتأخرون ٤٨٦
٢٧ ـ مذاهب الناس في المصطلحات الحادثة ٤٨٧
٢٨ ـ الخلاصة ٤٨٩
٢٩ ـ المناقشة ٤٩١
الإسراء والمعراج ٤٩٣
١ ـ غرض المصنف من عقد هذا الباب ٤٩٨
٢ ـ مناسبة هذا الباب لما سبق ٤٩٨
٣ ـ معاني الكلمات ٤٩٨
٤ ـ معنى قول الطحاوي: «والمعراج حق، وقد أسري بالنبي ﷺ وعرج بشخصه في اليقظة إلى السماء، ثم إلى حيث شاء الله من العلا، وأكرمه الله بما شاء، وأوحى إليه ما أوحى، ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ۝﴾ [النجم: ١١]، فصلّى الله عليه وسلم في الآخرة والأولى» ٤٩٩
٥ ـ مقام العبودية ٤٩٩
٦ ـ متى كانت حادثة الإسراء والمعراج ٥٠٠
٧ ـ هل لليلة الإسراء فضل خاص ٥٠٠
٨ ـ المفاضلة بين ليلة الإسراء وليلة القدر ٥٠٠
٩ ـ حكم الإيمان بالإسراء والمعراج ومناسبة ذكرهما في العقيدة ٥٠٠
١٠ ـ حكم منكر الإسراء والمعراج ٥٠٠
١١ ـ الحكمة من الإسراء من مكة إلى بيت المقدس ٥٠٠
١٢ ـ حديث الإسراء والمعراج ٥٠٠
١٣ ـ مذاهب الناس في شأن الإسراء والمعراج ٥٠٩
١٤ ـ الفرق بين القول بأن الإسراء والمعراج كان مناماً وبين القول أنه بالروح دون الجسد ٥١٠
١٥ ـ أقوال الناس في مسألة رؤية النبي ﷺ لربه ٥١٠
١٦ ـ تعدد حادثة الإسراء عند بعض أهل العلم ٥١١

الموضوع	الصفحة

١٧ ـ رؤية النبي ﷺ لجبريل على صورته الحقيقية ٥١١
١٨ ـ فوائد مستنبطة من حديث الإسراء والمعراج ٥١١
١٩ ـ الخلاصة ٥١٢
٢٠ ـ المناقشة ٥١٢
الحوض ٥١٥
١ ـ غرض المصنف من عقد هذا الباب ٥١٩
٢ ـ مناسبة هذا الباب لما سبق ٥١٩
٣ ـ معاني الكلمات ٥١٩
٤ ـ معنى قول الطحاوي: «والحوض الذي أكرمه الله تعالى به غياثاً لأمته حق» . ٥٢٠
٥ ـ معنى الحوض ٥٢٠
٦ ـ حكم الإيمان بالحوض ٥٢٠
٧ ـ صفة حوض النبي ﷺ ٥٢٠
٨ ـ المذادون عن الحوض ٥٢١
٩ ـ من يطرد عن الحوض؟ ٥٢٢
١٠ ـ أدلة الحوض ٥٢٢
١١ ـ التوفيق بين الروايات المتعارضة في ذكر مسافات الحوض ٥٢٣
١٢ ـ الأقوال في أسبقية الحوض على الصراط ٥٢٣
١٣ ـ صفة الحوض والكوثر ٥٢٣
١٤ ـ الفرق بين الحوض والكوثر ٥٢٤
١٥ ـ حكم من أنكر الحوض والكوثر ٥٢٤
١٦ ـ الخلاصة ٥٢٤
١٧ ـ المناقشة ٥٢٥
الشفاعة ٥٢٧
١ ـ غرض المصنف من عقد هذا الباب ٥٣٩
٢ ـ مناسبة هذا الباب لما سبق ٥٣٩
٣ ـ معاني الكلمات ٥٣٩
٤ ـ معنى كلام الطحاوي: «والشفاعة التي ادخرها لهم حق كما روي في الأخبار» ٥٣٩
٥ ـ أدلة ثبوت الشفاعة ٥٤٠
٦ ـ أقسام الناس في الشفاعة ٥٤٠
٧ ـ أقسام الشفاعة عند الخلق ٥٤١

الموضوع	الصفحة

٨ ـ أقسام الشفاعة في القرآن وشروطها ٥٤١
٩ ـ أنواع الشفاعة ٥٤٢
١٠ ـ الشفاعة التي تتكرر للنبي ﷺ ٥٤٣
١١ ـ تفسير قوله تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩] ٥٤٣
١٢ ـ الجمع بين قوله تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [المدثر: ٤٨] وبين ما ورد في شفاعة النبي ﷺ لعمه أبي طالب ٥٤٣
١٣ ـ الأعمال الموعود عليها بشفاعة النبي ﷺ ٥٤٤
١٤ ـ الجواب على شبه منكري الشفاعة ٥٤٤
١٥ ـ الجواب على تعلق المخالفين بحديث الشفاعة العظمى من أن الأنبياء تفزع إليهم الأمم ويكون المرجع الأخير سيد الثقلين محمد ﷺ ليشفع لهم عند الله ٥٤٥
١٦ ـ أقسام التوسل ٥٤٦
١٧ ـ أنواع التوسل المشروع ٥٤٦
١٨ ـ أنواع التوسل الممنوع ٥٤٨
١٩ ـ التوسل بالنبي ﷺ ٥٥٢
٢٠ ـ حكم من قال: «اللهم إني أسألك بحق نبيك» ٥٥٢
٢١ ـ الفرق بين قول القائل: «اللهم إني أسألك بحق فلان»، وبين «اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك» ٥٥٢
٢٢ ـ معنى قول عمر: «اللهم إنَّا كنا إذا أجدبنا توسلنا بنبينا وإنَّا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا» ٥٥٣
٢٣ ـ الفرق بين السؤال بالشيء وبين الإقسام به ٥٥٣
٢٤ ـ جهل الناس بالتوسل والتبرك المشروع ٥٥٣
٢٥ ـ حكم الاستشفاع بالأولياء والصالحين من أموات المسلمين ٥٥٤
٢٦ ـ الخلاصة ٥٥٤
٢٧ ـ المناقشة ٥٥٥
الميثاق ٥٥٧
١ ـ غرض المصنف من عقد هذا الباب ٥٦٥
٢ ـ مناسبة هذا الباب لما سبق ٥٦٥
٣ ـ معاني الكلمات ٥٦٥
٤ ـ معنى كلام الطحاوي: «والميثاق الذي أخذه الله تعالى من آدم وذريته حق» .. ٥٦٥
٥ ـ اختلاف أهل العلم في معنى الميثاق اصطلاحاً ٥٦٦

الموضوع **الصفحة**

٦ ـ تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾ [الأعراف: ١٧٢] ٥٦٧
٧ ـ الجمع بين القولين ٥٦٧
٨ ـ الأدلة التي ذكرها ابن أبي العز لأصحاب القول الثاني ٥٦٨
٩ ـ الحكمة من الاستشهاد في قوله تعالى: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾ [الأعراف: ١٧٢] ٥٦٩
١٠ ـ هل الأرواح قبل الأجساد أم لا؟ ٥٦٩
١١ ـ الفرق بين دين التربية والعادة وبين دين العلم ٥٧٠
١٢ ـ المقصود بقول ابن أبي العز: «مسلمة الدار ومسلمة الاختيار» ٥٧٠
١٣ ـ الإجابة على من احتج بتقليد الآباء في الاعتقاد الفاسد بجواز التقليد لهم بالعادات من لبس ومطعم ٥٧٠
١٤ ـ مراحل خلق الإنسان دليل على توحيد الربوبية ٥٧١
١٥ ـ الخلاصة ٥٧١
١٦ ـ المناقشة ٥٧١
القضاء والقدر ٥٧٣
١ ـ غرض المصنف من هذا الباب ٥٩١
٢ ـ مناسبة هذا الباب لما سبق ٥٩١
٣ ـ معاني الكلمات ٥٩١
٤ ـ معنى كلام الطحاوي: «وقد علم الله تعالى فيما لم يزل عدد من يدخل الجنة وعدد من يدخل النار جملة واحدة فلا يزداد في ذلك العدد ولا ينقص» ... ٥٩١
٥ ـ أدلة علم الله الأزلي ٥٩٢
٦ ـ منزلة الإيمان بالقدر ٥٩٢
٧ ـ معنى القضاء والقدر والفرق بينهما ٥٩٤
٨ ـ الرضا بالقدر ٥٩٦
٩ ـ معنى كلام الطحاوي: «وكذلك أفعالهم فيما علم منهم أن يفعلوه، وكل ميسّر لما خلق له، والأعمال بالخواتيم، والسعيد من سعد بقضاء الله، والشقي من شقي بقضاء الله» ٥٩٦
١٠ ـ أدلة أن الأعمال بالخواتيم وأن الإنسان ميسّر لما خلق له ٥٩٦

الموضوع — الصفحة

١١ ـ معنى كلام الطحاوي: (وأصل القدر سرّ الله تعالى في خلقه، لم يطلع على ذلك ملك مقرّب ولا نبي مرسل، والتعمق والنظر في ذلك ذريعة الخذلان، وسلم الحرمان، ودرجة الطغيان، فالحذر كل الحذر من ذلك نظراً وفكراً ووسوسة، فإن الله تعالى طوى علم القدر عن أنامه، ونهاهم عن مرامه، كما قال تعالى في كتابه: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء: ٢٣] فمن سأل: لِمَ فعل؟ فقد ردّ حكم الكتاب، ومن ردّ حكم الكتاب كان من الكافرين» ٥٩٧
١٢ ـ إثبات الحكمة لله ﷻ ٥٩٨
١٣ ـ كراهية الخوض في مسائل القدر عند السلف ٥٩٨
١٤ ـ مراتب القدر عند أهل السنّة ٦٠٠
١٥ ـ أنواع التقدير ٦٠٢
١٦ ـ أنواع قضاء الله ﷻ ٦٠٢
١٧ ـ أنواع الكتابة ٦٠٣
١٨ ـ الإرادة في القرآن على نوعين ٦٠٣
١٩ ـ مذاهب الناس في باب القدر ٦٠٤
٢٠ ـ نشأة الكلام في القدر ٦٠٥
٢١ ـ المنكرون لمراتب القدر ٦٠٦
٢٢ ـ الرد على من يقول بأن السعادة والشقاء مقدرتان فإذاً لا حاجة للعمل ٦٠٦
٢٣ ـ السبب في ضلال كل من الجبرية والقدرية ٦٠٦
٢٤ ـ السبب الذي دعا القدرية إلى القول بأن العبد يخلق فعل نفسه ٦٠٧
٢٥ ـ الجمع بين الإقرار بأن الله قدر على العباد كل شيء وبيَّن تكليفه لهم ٦٠٧
٢٦ ـ الجمع بين الإرادة الكونية القدرية وبين الكراهية والبغض للشيء ٦٠٧
٢٧ ـ الفرق بين الاستعاذة برضا الله من سخطه، وبمعافاته من عقوبته وبين قول النبي ﷺ: (**وبك منك**) ٦٠٨
٢٨ ـ التوفيق بين تقدير الله لقوى الشر وبين قوله ﷺ: (والشر ليس إليك) ٦٠٨
٢٩ ـ هل يجب على الإنسان أن يرضى بقوى الشر أم لا؟ ٦٠٨
٣٠ ـ هل يمكن لله أن يرضى لعبده شيئاً ثم يعينه عليه؟ ٦٠٩
٣١ ـ الحكم التي بيّنها الشارع في خلق إبليس وغيره من قوى الشر ٦٠٩
٣٢ ـ الجمع بين رضا العبد لما قدر الله عليه، وبين بغضه للمعاصي ٦١٠
٣٣ ـ احتجاج بعض العصاة بالقدر والرد على شبههم ٦١١

الموضوع	الصفحة

٣٤ ـ معنى التعمُّق بالقدر وبيان كيف كان ذريعة الخذلان ٦١٣
٣٥ ـ تفسير قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟﴾ [التوبة: ٦٩] ٦١٣
٣٦ ـ مراتب تعظيم أمر الله ٦١٣
٣٧ ـ حكم رد الكتاب ومعنى قوله تعالى: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء: ٢٣] ٦١٣
٣٨ ـ معنى قول الطحاوي: «العلم علمان، علم في الخلق موجود وعلم في الخلق مفقود» ٦١٤
٣٩ ـ أثر الإيمان بالقدر وفوائده ٦١٤
٤٠ ـ الخلاصة ٦١٥
٤١ ـ المناقشة ٦١٧
الإيمان باللوح والقلم ٦٢١
١ ـ غرض المصنف من عقد هذا الباب ٦٣٤
٢ ـ مناسبة هذا الباب لما سبق ٦٣٤
٣ ـ معاني الكلمات ٦٣٤
٤ ـ معنى كلام الطحاوي: «ونؤمن باللوح والقلم وبجميع ما فيه قد رُقم، فلو اجتمع الخلق كلهم على شيء كتبه الله تعالى فيه أنه كائن ليجعلوه غير كائن لم يقدروا عليه. ولو اجتمعوا كلهم على شيء لم يكتبه الله تعالى ليجعلوه كائناً ـ لم يقدروا عليه، جف القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة وما أخطأ العبد لما يكن ليصيبه، وما أصابه لم يكن ليخطئه» ٦٣٤
٥ ـ الأدلة على الإيمان باللوح والقلم ٦٣٥
٦ ـ هل القلم أول المخلوقات؟ ٦٣٥
٧ ـ الأقلام أربعة كما دلّت عليه السنّة ٦٣٦
٨ ـ معنى قول النبي ﷺ: (رفعت الأقلام وجفت الصحف) ٦٣٦
٩ ـ موقف أهل السنّة من سبق علم الله للمخلوقات قبل إيجادها ٦٣٦
١٠ ـ معنى قول الشافعي: «ناظروا القدرية بالعلم فإن أقرّوا به خصموا وإن أنكروا كفروا» ٦٣٧
١١ ـ الرد على من زعم أن الأخذ بالأسباب ينافي التوكل ٦٣٧
١٢ ـ الجواب على شبهة المعتزلة أن يكون العبد قادراً على تغيير علم الله ٦٣٧
١٣ ـ ذكر بعض النصوص في شأن القدرية ٦٣٨

الموضوع — الصفحة

١٤ ـ معنى قول الطحاوي: «وعلى العبد أن يعلم أن الله قد سبق علمه في كل كائن من خلقه فقدر ذلك تقديراً محكماً مبرماً، ليس فيه ناقض، ولا معقب، ولا مزيل ولا مغير، ولا ناقص ولا زائد في خلقه في سماواته وأرضه، وذلك من عقد الإيمان، وأصول المعرفة، والاعتراف بتوحيد الله تعالى وربوبيته، كما قال تعالى في كتابه: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢]. وقال تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨] ٦٣٨
١٥ ـ وجه اعتبار القدرية مجوس هذه الأمة ٦٣٨
١٦ ـ معنى قول ابن عباس رضي الله عنهما: «القدر نظام التوحيد» ٦٣٩
١٧ ـ أصول التقدير المطابق للعلم ٦٣٩
١٨ ـ معنى قول الطحاوي: «فويل لمن صار لله تعالى في القدر خصيماً، وأحضر للنظر فيه قلباً سقيماً، لقد التمس بوهمه في فحص الغيب سراً كتيماً، وعاد بما قال فيه أفاكاً أثيماً» ٦٣٩
١٩ ـ حياة القلب وموته، ومرضه وشفائه ٦٤٠
٢٠ ـ أنواع مرض القلب ٦٤٠
٢١ ـ الدواء النافع لأمراض القلب ٦٤٠
٢٢ ـ شروط الاستفادة من التداوي بالقرآن ٦٤٠
٢٣ ـ الخلاصة ٦٤١
٢٤ ـ المناقشة ٦٤٢
العرش والكرسي ٦٤٥
١ ـ غرض المصنف من عقد هذا الباب ٦٦٢
٢ ـ مناسبة هذا الباب لما سبق ٦٦٢
٣ ـ معاني الكلمات ٦٦٢
٤ ـ معنى كلام الطحاوي: «والعرش والكرسي حق» ٦٦٢
٥ ـ معنى العرش لغةً واصطلاحاً ٦٦٣
٦ ـ الأدلة على ثبوت العرش ٦٦٣
٧ ـ تحريف الفلاسفة والمتكلمين لمعنى العرش والرد عليهم ٦٦٣
٨ ـ معنى الكرسي لغةً واصطلاحاً ٦٦٤
٩ ـ الأدلة على إثبات الكرسي ٦٦٤
١٠ ـ الفرق بين العرش والكرسي ٦٦٤
١١ ـ مذهب أهل السنّة في الكرسي ومذهب المخالفين لهم ٦٦٤

الموضوع الصفحة

١٢ ـ معنى كلام الطحاوي: «وهو مستغن عن العرش وما دونه، محيط بكل شيء وفوقه، وقد أعجز عن الإحاطة خلقه» ٦٦٥
١٣ ـ الأدلة على استغناء الله تعالى عن خلقه ٦٦٥
١٤ ـ الأدلة على إحاطة الله بخلقه ٦٦٥
١٥ ـ الأدلة على علوّ الله ﷻ ٦٦٥
١٦ ـ أنواع العلو ٦٦٧
١٧ ـ المقصود بقوله تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ١٦﴾ [الملك: ١٦] ٦٦٧
١٨ ـ الاستدلال بقوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ٣٦﴾ [غافر: ٣٦]. وقال فرعون معارضاً لموسى، ومكذباً له في دعوته إلى الإقرار برب العالمين، الذي على العرش استوى وعلى الخلق اعتلى. ٦٦٨
١٩ ـ قول الشارح ابن أبي العز: «من نفى العلو فهو فرعوني ومن أثبته فهو موسوي» ٦٦٨
٢٠ ـ حكم أبي حنيفة فيمن أنكر أن يكون الله فوق العرش ٦٦٨
٢١ ـ اعتراض المعطلة على الدليل العقلي والجواب عليه ٦٦٨
٢٢ ـ اعتراض المعطلة على الدليل الفطري والجواب عليه ٦٦٩
٢٣ ـ الجمع بين علو الله وبين معيته وقربه من خلقه ٦٦٩
٢٤ ـ المخالفون للسلف في مسألة العلو ٦٧٠
٢٥ ـ مذهب الأشاعرة والماتريدية في العلو ٦٧٠
٢٦ ـ الرد على الأشاعرة في دعواهم: إن الله لا داخل العالم ولا خارجه ٦٧٠
٢٧ ـ شبهات المعطلة حول مسألة العلو ٦٨٠
٢٨ ـ الخلاصة ٦٨٣
٢٩ ـ المناقشة ٦٨٣
صفة الخلة والمحبة ٦٨٧
١ ـ غرض المصنف من عقد هذا الباب ٦٩٢
٢ ـ مناسبة هذا الباب لما سبق ٦٩٢
٣ ـ معاني الكلمات ٦٩٢
٤ ـ معنى كلام الطحاوي: «ونقول: إن الله اتخذ إبراهيم خليلاً وكلم الله موسى تكليماً إيماناً وتصديقاً وتسليماً» ٦٩٢
٥ ـ تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا﴾ [النساء: ١٢٥] ٦٩٣

الموضوع	الصفحة
٦ ـ تفسير قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ [النساء: ١٦٤]	٦٩٣
٧ ـ الدليل على إثبات الخلة لإبراهيم ومحمد عليهما الصلاة والسلام	٦٩٣
٨ ـ الجمع بين براءة الرسول ﷺ أن يكون خليل وقول أبي هريرة: أوصاني خليلي	٦٩٤
٩ ـ الجمع بين براءة الرسول ﷺ من أن يكون له خليل وبين اتخاذه لبعض أصحابه حبيباً	٦٩٤
١٠ ـ الجمع بين طلب الصلاة على محمد مثل إبراهيم وآل إبراهيم مع أن المشبه فوق المشبه به	٦٩٤
١١ ـ كلام الله ﷻ للنبي ﷺ بلا واسطة	٦٩٤
١٢ ـ إنكار الجهمية لصفة الخلة والرد عليهم	٦٩٥
١٣ ـ الخلاصة	٦٩٥
١٤ ـ المناقشة	٦٩٦
أصول الإيمان عند أهل السنة	٦٩٧
١ ـ غرض المصنف من عقد هذا الباب	٧١١
٢ ـ مناسبة هذا الباب لما سبق	٧١١
٣ ـ معاني الكلمات	٧١١
٤ ـ معنى كلام الطحاوي: «ونؤمن بالملائكة والنبيين والكتب المنزلة على المرسلين ونشهد أنهم كانوا على الحق المبين»	٧١٢
٥ ـ أصول الإيمان عند أهل السنّة	٧١٢
٦ ـ موقف الفلاسفة من أصول الإيمان عند أهل السنّة	٧١٣
٧ ـ أصول الدين عند المعتزلة	٧١٣
٨ ـ أصول الدين عند الرافضة	٧١٤
٩ ـ من هم أولو العزم؟	٧١٥
١٠ ـ المفاضلة بين الملائكة وصالحي البشر	٧١٦
١١ ـ الخلاصة	٧١٧
١٢ ـ المناقشة	٧١٧
نعت أهل القبلة بالإسلام ولو ارتكبوا المعاصي	٧١٩
١ ـ غرض المصنف من عقد هذا الباب	٧٢٥
٢ ـ مناسبة هذا الباب لما سبق	٧٢٥
٣ ـ معاني الكلمات	٧٢٥

الموضوع | الصفحة

٤ ـ معنى كلام الطحاوي: «ونسمي أهل قبلتنا مسلمين مؤمنين ما داموا بما جاء به النبي ﷺ معترفين بكل ما قاله وأخبر مصدقين» ٧٢٥
٥ ـ المراد بأهل القبلة ٧٢٧
٦ ـ معنى كلام الطحاوي: «ولا نخوض في الله ولا نماري في دين الله» ٧٢٧
٧ ـ الأدلة على عدم الخوض في الله ٧٢٨
٨ ـ معنى كلام الطحاوي: «ولا نجادل في القرآن، ونشهد أنه كلام رب العالمين نزل به الروح الأمين، فعلمه سيد المرسلين محمداً ﷺ وهو كلام الله تعالى، لا يساويه شيء من كلام المخلوقين، ولا نقول بخلقه، ولا نخالف جماعة المسلمين» ٧٢٨
٩ ـ المراد بالجدال في قول الطحاوي: «ولا نجادل في القرآن» ٧٢٩
١٠ ـ السبب الذي حدا بالصحابيين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما إلى جمع القرآن ٧٣٠
١١ ـ جمع الناس على القراءة بحرف واحد ٧٣٠
١٢ ـ هل القراءة بالأحرف السبعة نسخت أم لا؟ ٧٣٠
١٣ ـ هل ترتيب السور والآيات اجتهاد أم توقيفي؟ ٧٣٠
١٤ ـ حكم القول بخلق القرآن ٧٣١
١٥ ـ المراد بالروح في قوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾﴾ [الشعراء: ١٩٣] .. ٧٣١
١٦ ـ المراد بالرسول في قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾﴾ [الحاقة: ٤٠] ٧٣١
١٧ ـ الخلاصة ٧٣١
١٨ ـ المناقشة ٧٣٢
التكفير ٧٣٣
١ ـ غرض المصنف من عقد هذا الباب ٧٤٩
٢ ـ مناسبة هذا الباب لما سبق ٧٤٩
٣ ـ معاني الكلمات ٧٤٩
٤ ـ معنى كلام الطحاوي: «ولا نكفر أحداً من أهل القبلة بذنب ما لم يستحله. ولا نقول: لا يضر مع الإيمان ذنب لمن عمله» ٧٤٩
٥ ـ تعريف التكفير ٧٥٠
٦ ـ خطورة التكفير ٧٥٠
٧ ـ أقوال السلف في التحذير من التكفير ٧٥١
٨ ـ التفريق بين التكفير المعين والتكفير المطلق ٧٥١
٩ ـ لا يكفر إلا من كفره الله ورسوله ﷺ ٧٥١

الموضوع | الصفحة

١٠ ـ ضوابط التكفير وشروطه وموانعه ٧٥٢
١١ ـ أهل السنة لا يكفرون من كفرهم ٧٥٣
١٢ ـ المخالفون لأهل السنة في التكفير ٧٥٣
١٣ ـ تعريف الكفر ٧٥٣
١٤ ـ أنواع الكفر ٧٥٤
١٥ ـ أمثلة على ألفاظ وأفعال الكفر ٧٥٤
١٦ ـ الفرق بين الكفر الأكبر والأصغر ٧٥٥
١٧ ـ الردة، أقسامها وأحكامها ٧٥٥
١٨ ـ الإشكال في قول الطحاوي: «ولا نكفر أحداً من أهل القبلة بذنب ما لم يستحله» ٧٥٧
١٩ ـ مذاهب الناس في تكفير أهل الكبائر ٧٥٨
٢٠ ـ تكفير المعين ٧٥٩
٢١ ـ تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]. ٧٦٠
٢٢ ـ معنى كلام الطحاوي: «ونرجو للمحسنين من المؤمنين أن يعفو عنهم ويدخلهم الجنة برحمته ولا نأمن عليهم، ولا نشهد لهم بالجنة ونستغفر لمسيئهم ونخاف عليهم ولا نقنطهم» ٧٦٠
٢٣ ـ أدلة الرجاء والخوف ٧٦١
٢٤ ـ استلزام الرجاء للأمور الثلاثة ٧٦٢
٢٥ ـ المشرك لا يرجى له المغفرة ٧٦٢
٢٦ ـ أسباب المغفرة ٧٦٢
٢٧ ـ معنى قول الطحاوي: «والأمن واليأس ينقلان عن ملة الإسلام، وسبيل الحق بينهما لأهل القبلة» ٧٦٣
٢٨ ـ الخوف المحمود والرجاء المحمود واستلزام كل منهما للآخر ٧٦٤
٢٩ ـ نقد حول صاحب منازل السائرين «الرجاء أضعف منازل المريد» ٧٦٥
٣٠ ـ يجب ترجيح الرجاء عند الموت ٧٦٥
٣١ ـ معنى قول الطحاوي: «ولا يخرج العبد من الإيمان إلا بجحود ما أدخله فيه» ٧٦٥
٣٢ ـ الخلاصة ٧٦٦
٣٢ ـ المناقشة ٧٦٧
حقيقة الإيمان ومسماه ٧٦٩

الموضوع	الصفحة

١ ـ غرض المصنف من عقد هذا الباب ٧٩٥
٢ ـ مناسبة هذا الباب لما سبق ٧٩٥
٣ ـ معاني الكلمات ٧٩٥
٤ ـ معنى كلام الطحاوي: «والإيمان: هو الإقرار باللسان، والتصديق بالجنان. وجميع ما صح عن رسول الله ﷺ من الشرع والبيان كله حق» ٧٩٦
٥ ـ معنى الإيمان لغة ٧٩٧
٦ ـ معنى الإيمان في الاصطلاح ٧٩٧
٧ ـ تفاضل الناس في الإيمان ٧٩٨
٨ ـ أقسام الناس من حيث الإتيان بالأعمال ٧٩٨
٩ ـ أدلة أهل السنة ٧٩٨
١٠ ـ الآثار المترتبة على منهج السلف في الإيمان وثمراته: ٧٩٩
١ ـ الالتزام بالتحديدات الشرعية في المسألة. ٨٠٠
٢ ـ فتح باب التنافس في ارتقاء درجات الإيمان للوصول إلى أعلى الجنان. . ٨٠٠
٣ ـ تنزيل الناس منازلهم وعدم التسوية بين المؤمنين والفجار. ٨٠٠
٤ ـ عدم فتح باب التمني والرجاء الكاذب للعصاة بظنهم أنهم أهل الإيمان الداخلون فيما وعد به المؤمنون. ٨٠٠
٥ ـ إثبات أصل الإيمان للعصاة وتصحيح إسلامهم وعدم تكفيرهم. ٨٠١
٦ ـ فتح باب الرجاء للعصاة وعدم تقنيطهم من رحمة الله ﷻ لوجود أصل الإيمان معهم. ٨٠١
١١ ـ المخالفون لأهل السنة في مسمى الإيمان ٨٠١
١٢ ـ لوازم تعريف الإيمان عند الكرامية والجهمية ٨٠٢
١٣ ـ آثار قول المرجئة في مسمى الإيمان ٨٠٣
أ ـ مخالفة كلام الله ﷻ وكلام رسوله ﷺ في تحديد الإيمان ووصفه ٨٠٣
ب ـ زعمهم أن الفاسق مؤمن كامل الإيمان ومنهم من يدخل النار يوم القيامة. ٨٠٤
ج ـ وصفهم الفساق بصفة المدح والثناء وهي الإيمان. ٨٠٤
د ـ مساواتهم بين أفسق الناس وأتقى الناس في الإيمان. ٨٠٤
هـ ـ تهاونهم بأعظم الأصول الدينية وهو توحيد الألوهية. ٨٠٤
١٤ ـ أدلة مرجئة الفقهاء والرد عليها ٨٠٥
١٥ ـ موقف الأشعرية والماتريدية من النصوص على أن العمل داخل في مسمى الإيمان ٨١٩

الموضوع | الصفحة

١٦ ـ الخلاف بين أصحاب أبي حنيفة وجمهور أهل السنة خلاف حقيقي ٨٢١
١٧ ـ عقيدة أهل السنة والجماعة في زيادة الإيمان ونقصانه ٨٢٣
١٨ ـ أدلة أهل السنة والجماعة على أن الإيمان يزيد وينقص ٨٢٣
١٩ ـ المخالفون لأهل السنة في مسألة زيادة الإيمان ونقصانه ٨٢٦
ب ـ الجواب عن أدلة أصحاب أبي حنيفة ٨٣٠
٢٠ ـ موقف الماتريدية والأشعرية من النصوص الدالة على زيادة الإيمان ونقصانه ٨٣٦
٢١ ـ معنى كلام الطحاوي: «والإيمان واحد، وأهله في أصله سواء والتفاضل بينهم بالخشية والتقى، ومخالفة الهوى وملازمة الأولى» ٨٣٩
٢٢ ـ مذهب أهل السنة والجماعة في الاستثناء في الإيمان ٨٣٩
٢٣ ـ مذهب مرجئة الفقهاء في الاستثناء والجواب عليه ٨٣٩
٢٤ ـ معنى الإسلام ٨٤٨
٢٥ ـ علاقة الإسلام بالإيمان ٨٤٨
٢٦ ـ معنى كلام الطحاوي: «وجميع ما صح عن النبي ﷺ حق» ٨٥٥
٢٧ ـ مذهب أهل السنة في خبر الواحد ٨٥٥
٢٨ ـ حجية خبر الواحد ٨٥٥
٢٩ ـ التفريق بين المتواتر والآحاد بدعة دخيلة على الإسلام ٨٥٦
٣٠ ـ تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾ [الأحزاب: ٣٦] ٨٥٧
٣١ ـ المخالفون لأهل السنة في خبر الواحد ٨٥٧
٣٢ ـ مستند نفاة الصفات في رد الأحاديث الصحيحة ولازم قولهم ٨٥٧
٣٣ ـ الأدلة العقلية قطعية عند المتكلمين، وأما الأحاديث فهي ظواهر باطنية ... ٨٥٨
٣٤ ـ الخلاصة ٨٥٨
٣٥ ـ المناقشة ٨٦٠
الولاية والأولياء ٨٦٣
١ ـ غرض المصنف من عقد هذا الباب ٨٦٨
٢ ـ مناسبة هذا الباب لما سبق ٨٦٨
٣ ـ معاني الكلمات ٨٦٨
٤ ـ معنى كلام الطحاوي: «والمؤمنون كلهم أولياء الرحمٰن، وأكرمهم عند الله أطوعهم وأتبعهم للقرآن» ٨٦٨

الموضوع	الصفحة

٥ ـ تعريف الولاية والولي ٨٦٨
٦ ـ الولاية لا تختص بأحد من البشر ٨٦٩
٧ ـ تفاضل الناس في الولاية ٨٦٩
٨ ـ أقسام الناس في الولاية ٨٦٩
٩ ـ تفاضل الناس في العداوة ٨٦٩
١٠ ـ أوصاف الأولياء ٨٧٠
١١ ـ الأنبياء أفضل من جميع الأولياء ٨٧٠
١٢ ـ المخالفون لأهل السنة في مسألة الولاية ٨٧٠
١٣ ـ شروط الولي عند الصوفية ٨٧٠
١٤ ـ أدلة الولاية ٨٧١
١٥ ـ اجتماع الولاية والعداوة في الشخص الواحد عند جمهور أهل السنة ٨٧٢
١٦ ـ الولاية الكاملة ٨٧٢
١٧ ـ مراتب الأولياء ٨٧٢
١٨ ـ الاستثناء في الولاية ٨٧٣
١٩ ـ أكرم المؤمنين عند الله ٨٧٣
٢٠ ـ الخلاصة ٨٧٣
٢١ ـ المناقشة ٨٧٣
الإيمان والإسلام ٨٧٥
١ ـ غرض الشارح من عقد هذا الباب ٨٨٥
٢ ـ مناسبة هذا الباب لما سبق ٨٨٥
٣ ـ معاني الكلمات ٨٨٥
٤ ـ معنى كلام الطحاوي: «والإيمان: هو الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره وحلوه ومره من الله تعالى ٨٨٥
٥ ـ معنى الإسلام ٨٨٦
٦ ـ الإسلام والإيمان إذا اجتمعا افترقا، وإذا افترقا اجتمعا ٨٨٦
٧ ـ كان النبي ﷺ يقرأ في ركعتي الفجر بسورتي الإخلاص ٨٨٦
٨ ـ تفسير الإيمان في حديث وفد عبد القيس بأركان الإسلام ٨٨٦
٩ ـ حكمة اقتصار النبي ﷺ في حديث جبريل على الأمور الخمسة الظاهرة ٨٨٧
١٠ ـ الجمع بين قول الله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٧٨] وبين قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩] ٨٨٠

الموضوع الصفحة

١١ ـ معنى قوله تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾﴾ [النساء: ٧٩] ٨٨٨
١٢ ـ اختلاف العلماء في معنى الحسنة والسيئة في قوله تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩] ٨٨٨
١٣ ـ الحكمة من إضافة الحسنة إلى الله والسيئة إلى العبد ٨٨٩
١٤ ـ الفوائد المستنبطة من قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩] ٨٨٩
١٥ ـ الجواب على احتجاج المعتزلة بالآية: ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩] على أن العبد يخلق فعل نفسه ٨٨٩
١٦ ـ معنى قوله ﷺ: (والخير كله بيديك والشر ليس إليك) ٨٩٠
١٧ ـ حكم إضافة الشر مفرداً إلى الله تعالى ٨٩٠
١٨ ـ تأييد الله للملوك الظالمين ألا يعتبر شراً محضاً؟! ٨٩١
١٩ ـ معنى قوله تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ ٨٩١
٢٠ ـ الحكمة من أمر الناس بالدعاء: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ في كل صلاة ٨٩١
٢١ ـ جمع النبي ﷺ في صلاته بين التوحيد والاستغفار ٨٩٢
٢٢ ـ معنى قول النبي ﷺ: (ولا ينفع ذا الجد منك الجد). ٨٩٢
٢٣ ـ حكم من آمن ببعض الرسل وكفر ببعض ٨٩٢
٢٤ ـ معنى قول الطحاوي: «ونحن مؤمنون بذلك كله، لا نفرق بين أحد من رسله، ونصدقهم كلهم على ما جاءوا به» ٨٩٣
٢٥ ـ الخلاصة ٨٩٣
٢٦ ـ المناقشة ٨٩٥
* **فهرس المجلد الثاني** .... [١ ـ ١٦]